

(فهرست الجزء الاول من كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب)

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

(تمت)

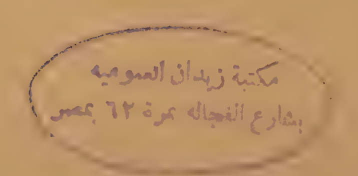
الجزء الاول من كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب افريد زمانه
ونادرة أوانه العلامة احمد المقرى المغربى
المالكى الاشعرى تغمده الله تعالى
برحمته وأسكنه فسيح
جنته آمين
آمين

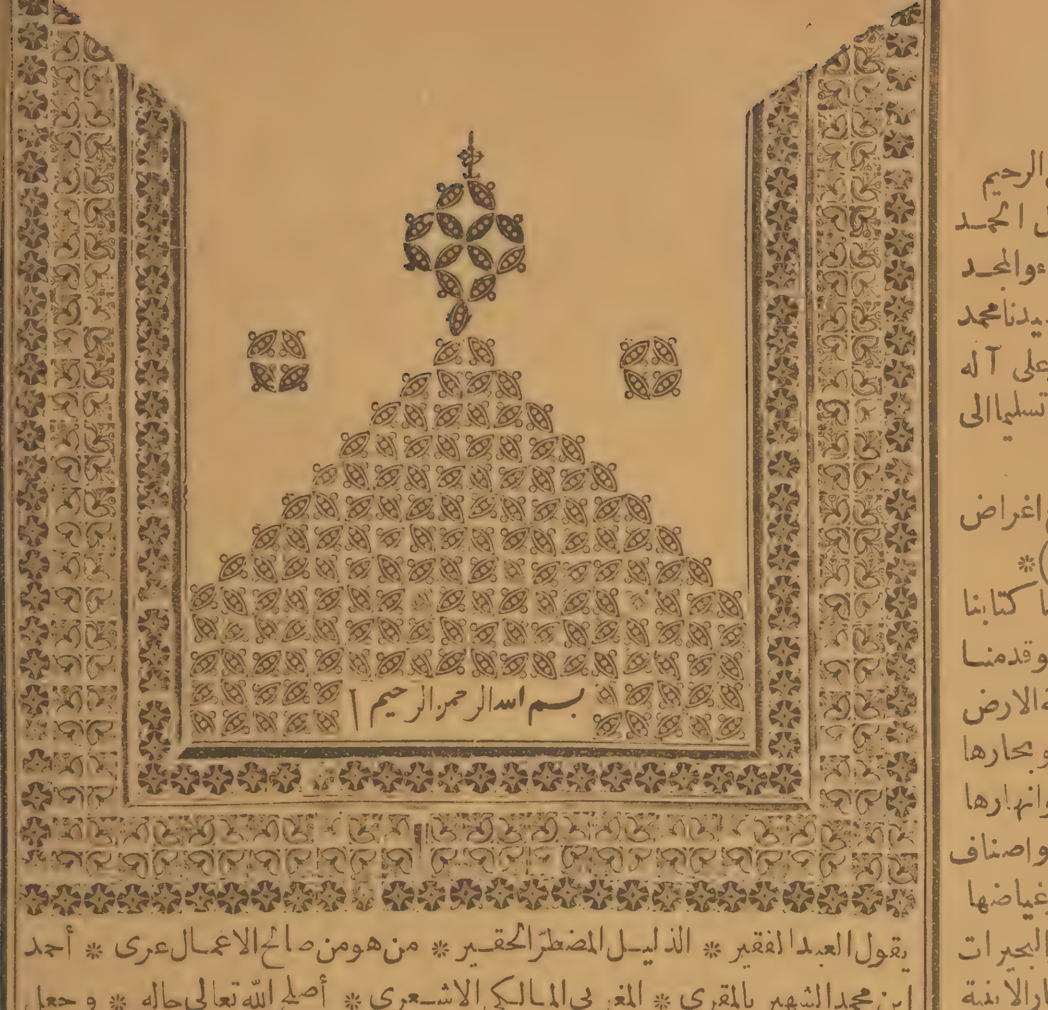
محلاة هوامش أجزائه الاول والثانى والثالث بالتاريخ الفائق نغمات المثانى والمثالث
المسمى مروج الذهب ومعادن الجوهر للامام ابى الحسن على المسعودى احسن الله مثوبته
فى دار المستقر وافرد هامش جزئه الرابع بالكتاب البديع الرائع المسمى تحفة الاحباب
وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات ومايتبع ذلك للعلامة
السخاوى الهمام أمطره الله تعالى بهوامع الاكرام

(الطبعة الاولى)

(بالمطبعة الازهرية المصرية)

(سنة ١٣٠٢ هجرية)





يقول العبد الفقير * الذليل المضطرّ الحقير * من هو من صالح الاعمال عرى * أحمد
ابن محمد الشهير بالمقرى * المغربى المالكى الاشعرى * أصلح الله تعالى حاله * وجعل
فى مرضاته حله وترحاله * ومحا بغيث الطاعة والرضوان أمحاله * وأنجح ببلوغ آماله
انتحاءه وانتحاله * (أحمد) من عرّف من حلى الأمصار وعلى الاعيان * على تداول الاعصار
وتطاول الاحيان * ما فيه ذكرى لاولى الابصار وارشاد الى معرفة الديان * واعتبار
بأخبار راع وصفها أوراق * (وشرف) من صرف المطامح والمطامع * الى تفصيل ما أفاد
لسان الدين من كلم جوامع * وتحصيل ما أجاد من حكم بوالغ سحب بلاغتها هوامع *
واقتناء ذخائر المهتدين التى تشنفت بدررها اللوامع الآذان والمسامع * من كل منحط عن
رتبة البراعة أوراق * (حتى) توّج الخطيب المجيد رؤس المنابر بفرائد الكلام * وحلى
الكاتب الاديب المجيد صدور المزابر من فوائد الاعلام * وكحل الحكيم الطبيب الاريب
المفيد من اثمد المحابر بمراود الاقلام * عيون أوراق * (وأشهد) أن لا اله الا الله وحده
لا شريك له الذى ابتدأ الخلق من غير مثال وبرا * وقسم العباد الى حاضر وباد وظاهر
وخامل وقاصر وكامل تشير اليه بالانامل أيدى الكبرا * وأبدى فى اختلاف ذواتهم
وأعراضهم وتباين أدواتهم وأغراضهم وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم وأزمنتهم وألوانهم

واكوانهم

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله اهل الحمد
ومستوجب الثناء والمجد
وصلى الله على سيدنا محمد
خاتم النبيين وعلى آله
الطاهرين وسلم تسليما الى
يوم الدين

*(باب ذكر جوامع اغراض
هذا الكتاب)*

امابعد فانا صنفنا كتابنا
فى اخبار الزمان وقدمنا
القول فيه فى هيئة الارض
ومدنها وعجائبها وبحارها
واغوارها وجبالها وانهارها
وبدائع معادنها واصناف
مناهلها واخبار غياضها
وجزائر البحار والبحيرات
الصغار واخبار الابنية
المعظمة والمساكن
المشرفة وذكر شأن المبدا
واصل النسل وتباين
الاوطان وما كان نهرا
فصار بحرا وما كان بحرا
فصار برّا وما كان برّا
فصار بحرا على مرور الايام
وكرور الدهور وعلة ذلك
وسببه الفلكى والطبيعى

وأكوانهم ومناصبهم ومناسبهم عبرا* وجعل الدنيا لمن أتيح صغرا أو كبرا* ولبس نهم مسوحا وحبرا * أو أخلد الى الارض او صعد منبرا * جسرا الى الآخرة ومعبرا وحكم وهو الفاعل المختار على الجميع بالموت فكان لمبتداهم خبرا* فياله من داء أعيا كل معالج أو راق* (فسبحانه) من اله انفرد بوجوب القدم والبقا واختص بفضله من شاء فارتقى وعم تعالى ذوى السعادة والشقا بالحدوث والفنا* وأذاق من فراق الدنيا كل من فيها بلا ثنيا فمن وفق فنى عن جفنه وسنا* او خذل فجر في ميدان الاغترار رسنا وزين له عياذا بالله سوء عمله فرآه حسنا* طعم شعوب المر الجنى * فلم يغن منه عن ذوى الغنى والغنا* وأهل السناء والسنا* من استظهر وابه من أرباب الصوارم والقنا وأصحاب النظم والنثر والجدال والفخر والمدح والثنا* فأولئك ألقوا السلاح مذعنين مستبصرين موقنين انجاء الحق وزهق الباطل وولى الامترا* وهؤلاء تركوا الاصطلاح معلنين عالمين انهم لم يكونوا فى التمويه محسنين وكيف لا وقد اضمحل الغرور والاجترا* وذهب والله الجور والافترا* وبدل مذق الاطراء بصدق الاطراق * (وأشكره) جل وعلا على أن علم بالقلم مالم نعلم* ونبه بآثاره الدالة على اقتداره الى سلوك الطريق الاقوم الواضح المعلم* وأرشد من أشرق فكره وأضا الى التفويض لاحكام القضا ومن ذا يرد ما أمضى أو ينقض ما أبرم والتسليم على كل حال أسلم *وأمر جل اسمه بالتدبر فى أنباء من مضى والنظر فى عواقب أحوال الذين زال أمرهم وانقضى من صنوف الامم *ووبخ من دجا قلبه بالاعراض عن ذلك وأظلم* وشتان ما بين اللاهى والمتذكر والساهى والمتفكر والناجى والهالك المتحير والداجى الحالك والمشرق النير* وما يستوى الظل والحرور والحزن والسرور والظلمات والنور ذو البهجة والاشراق* (وأصلى) ازكى الصلاة والسلام هدية لحضرة سيد الانام ولبنة التمام من زويت له من الارض المغارب والمشارق* وتم به نظام أنبياء الله ورسله العظام وأزاح نوره الضلال والظلام حتى أضاءت بوسمه المساجد وازدانت باسمه المهارق * وألقى الموفق الموافق لدعوته بيد الاستسلام وذلك شأن ذوى العقول الراجحة والاحلام غير خائف من عتب ولا مترقب لملام فأمن من الطوارئ والطوارق * وتمت كلمة الاسلام الذى اتضح برهانه لدى بصر وبصيرة لا يحتاج الى زيادة الاعلام وعلت سيوف توحيد الملك العلام* من المعاند المارق المفارق * وخضبتها بحناء النجيع الرقراق * (النبى) الامى الامين الداعى جميع العالمين الى سلوك منهاج ماله من هاج ذى أضواء شوارق* سيد الرسل الغر الميامين ملجأ الامة جعلنا الله ممن نجا بالملجأ اليه آمين الذى أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وانشق له الزبرقان ونبع الماء من بين أصابعه زيادة فى الايقان* وسلمت عليه الاحجار وانقادت لامره الاشجار متفيئة ظلاله الشريفة وخطت فى الارض أسطرا مبدعة الاتقان الى غير ذلك من معجزاته الخوارق * فهو صاحب الدعوة الجامعة والبراهين اللامعة والادلة التى سقت الشجرة الطيبة غيوثها النافعة الصيبة الهامية الهامعة الصادقة البوارق* أثمرت النجاة والفوز والفلاح وأورقت بالهدى أحسن ايراق *(أسنى) رسول بعث الى

وانقسام الاقاليم بخواص الكواكب ومعاطف الاوتاد ومقادير النواحى والآفاق وتباين الناس فى التاريخ القديم واختلافهم فى بدئه وأوليته من الهند وأصناف الملحدين وما ورد فى ذلك عن الشرعيين وما نطقت به الكتب وورد على الديانيين (ثم اتبعنا ذلك) باخبار الملوك الغابرة والامم الداثرة والقرون الخالية والطوائف البائدة على مر سيرهم فى تغير أوقاتهم وتضيف اعصارهم من الملوك والفراعنة العادية والاكاسرة واليونانية وما ظهر من حكمهم ومقائل فلاسفتهم واخبار ملوكهم وأخبار العناصر الى ما فى تضاعيف ذلك من أخبار الانبياء والرسل والاتقياء الى ان أفضى الله بكرامته وشرف برسالته محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم فذكرنا مولده ومنشاه وبعثته وهجرته ومغازيه وسراياه الى أوان وفاته واتصال الخلافة واتساق المملكة بزمن زمن ومقاتل من ظهر من الطالبيين الى الوقت الذى شرعنا فيه تصنيف كتابنا هذا من خلافة المتقى لله أمير المؤمنين وهى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة (ثم اتبعناه) بكتابنا الاوسط فى الاخبار على التاريخ وما اندرج فى السنين الماضية (ومن لدن البدء الى الوقت الذى عنده انتهى كتابنا الاعظم وما تلاه من الكتاب الاوسط رأينا) ايجاز ما بسطناه

الارض وأعظمهم جلاله * وأكثرهم تابعا فى الطول منها والعرض ولم لاوقد ظهر به الحق لمن أمّه مسترشدا وجلاله * وأسمى من جاء بتبيين السنة والفرض وأعمهم دلاله منقذ البرايا فى الدنيا ويوم العرض الآخذ بحجزهم عن النار والضلاله * الداعى الى تقديم الخير وحسن القرض الحريص على هداية الخلق المبلغ لهم أحكام الحق من غير ضجر ولاملاله * ذو الفضل العظيم الذى لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان والمجد الصميم الثابت الاصول الباسق الافنان المنتقى من محتد معد بن عدنان المنتخب من خير عنصر وأطهر سلاله * شفيعنا وملاذنا وعصمتنا ومعاذنا وثمالنا الذى نجحت به آمالنا وزكت أقوالنا وأعمالنا * ووسيلتنا الكبرى وعمدتنا العظمى فى الاولى والاخرى وكنزنا الذى أعددناه لازاحة الغموم ذخرا * وغيثنا وغوثنا وسيدنا ونبينا ومولانا محمد الطيب المنابت والاعراق (صلى الله وسلم عليه ووجه وفود التعظيم اليه من مفرد فى جماله صار يجمع الانبياء تماما * ونفذ فى كماله تقدم فى حضرة التقديس التى أسست على التشريف أعظم تاسيس بالمرسلين اماما * وصدر تحلى بجميل الاوصاف كالوفاء والعفاف والصدق والانصاف فزكا فى أعماله وبلغ الراجى منتهى آماله ولم يخلف وعدا ولم يخفر ذماما * وسيد كسى حلل العصمه من كل مخالفة وذنب ووصمه فلم يصرف لغير طاعة مولاه الذى اولاه من التفضيل ما أولاه اهتبالا واهتماما * وعلى آله وعترته الفائزين بأثرته أنصار الدين والمهاجرين المهتدين وأشياعه وذريته الطالعين نجوما فى سماء شهرته وأتباعهم القائمين بحقوق نصرته * أرباب العقل الرصين الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المعقل الحصين حتى بلغت أحكام ملته وأعلام بعثته من بالاندلس والصين فضلا عن الشام والعراق * (ورضى) الله تعالى عن علماء أمته المصنفين فى جميع العلوم والفنون وعظماء سنته الموفين للطلاب بالارب المحققين لهم الظنون * وحكماء شرعته المتبصرين بحدوث من مرت عليه الايام والشهور وكرت عليه الآناء والدهور والاعوام والسنون * المتدبرين فى عواقب من كان بهذه البسيطة من السكان المتذكرين على قدر الامكان بمن طحنته رحا المنون * من أملاك العصور الخاليه وملاك القصور العاليه وذوى الاحوال التى هى بسلوك الاختلاف حاليه * من بصير وأعمى وفقير وذى نعمى ومختال تردى بكبريائه ومحتال على ما بايدى الناس بسمعته وريائه * وعاقل أحسن العمل وغافل افتتن بالامل * وكارع فى حياض الشريعه ورائع برياض الآداب المريعه وذى ورع سد عما رابه الذريعه وأخى طمع فى أن يدرك آرابه من الدنيا الوشيكة الزوال السريعه * ومقتبس من نبراس الروايه وملتبس بأدناس الغوايه * وشاعر هام فى كل واد وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الرواد * وجاهل عمر الخراب وخدع بالسراب عن أعذب الشراب * ومحقق علم أنه اذا جاء القدر عمى البصر ممن كان أحذر من غراب وموفق تيقن أن غير الله فان وكل الذى فوق التراب تراب * ومن متخلق متجرد تصوف ومتعلق متفرد تشوق الى ما فيه رضا الرب وتشوف وناه ذكر بايام الله ووعظ وخوف * ولاه اغتر بالباطل فهو بالحق مماطل وطالما أخره وسوف * وأبعد الانتجاع ثم أوى

واختصار ما وسطناه فى كتاب لطيف نودعه ٤ لمع ما فى ذينك الكتابين مما منحناهما وغير ذلك من انواع العلوم واخبار الامم الماضية والاعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيهما على انا نعتذر من تقصير ان كان ونتنصل من اغفال او عرض لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الاسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعلمين بدائع الامم بالمشاهدة عارفين خواص الاقاليم بالمعاينة كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والرانج وتقحمنا الشرق والغرب فتارة بأقصى خراسان وتارة بوسائط ارمينية واذربيجان والهوات والطالقان وطورا بالعراق وطورا بالشام فسيرى فى الآفاق سرى الشمس فى الاشراق كما قال بعضهم

تيمم أقطار البلاد فتارة
لدى شرقها الاقصى وطورا الى الغرب
سرى الشمس لا ينفك تقذفه النوى
الى أفق ناء يقصر بالركب

قال المصنف ثم مفاوضتنا فى أصناف الملوك على تغاير اخلاقهم وتباين هممهم وتباعد ديارهم وأخذنا بسلك مسلك من مواقفهم على ان العلم قد بادت آثاره وطمس مناره وكثر فيه العناء وقل الفهماء فلا تعاين الا مموها جاهلا ومتعاطيا

من

من باطنه الى بيت قعيدته لكاع نفس أمارة بعد ما طوف * ومن مادح نظم الآلاء نظم اللآل وكادح طمس لألاء العز بظلمة ذل السؤال * فجعل القصائد مصايد والرسائل وسائل والمقطعات مرقعات فآل أمره الى ما آل * ومن مخبر بما سمع ورأى حين اغترب عن مكانه ونأى او أقام فى أوطانه فبلغ ما قدر ووأى * ومن مجازف لا يفرق بين الغث والسمين والامرار والاحلاء * وعارف ثقة أمين نظم درر الصدف الثمين فى أسلاك الكتابة والاملاء * وعاشق خنساء فكره ذات الصدار من الشجون والشعار تبكى على صخر قلب المحبوب * وتذكره كلما طلعت شمس أو كان للصبا هبوب فتأتى بما يطفى وقود الجوى المشبوب من بحار الاشعار * وليلى شوقه العفيفة عن العار ترفل فى ثوب من التصبر معار وقيس توقه من ثوب السلو عار * قد توله واشتاق خصوصا عند انتشاق البشام والعرار * وقلق لما ارق فلم يقر به قرار * فاعتراه ما براه وألف البكاء بحكم الاضطرار * ولبس ثياب النحول والاصفرار وأسر لما هزمت جيوش صبره وأزمعت الفرار * فتحير مما شجاه وسأل النجاة من أسر الفراق

سبحان من قسم الحظو * ظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأعشى ثم ذو * بصر و زرقاء اليمامه
ومسدد أو جائر * أو حائر يشكو ظلامه
لولا استقامة من هدا * ه لما تبينت العلامه
ومجاور الغرر الخيـ * ـف له البشارة بالسلامه
وأخو الحجا فى سائر الانفاس مرتقب حمامه
وكما مضى من قبله * يمضى ولم يقض الترامه
والجاهل المغتر من * لم يجعل التقوى اغتنامه
فليرفض العصيان من * يخشى من الله انتقامه
وليعتبر بسواه من * لصلاحه صرف اهتمامه
فالعيش فى الدنيا الدنية غير مرجو الادامه
من أرضعته ثديها * فى سرعة تبدى فطامه
من عز جانبه بها * تنوى على الفور اهتضامه
واذا نظرت فأين من * منعته أو منحت مرامه
ومن الذى وهبته وصـ * ـلا ثم لم تخش انصرامه
ومن الذى مدت له * حبلا فلم يخف انفصامه
كم واحد غرته اذ * سرته مخفية الدمامه
قعدت به من حيث لم * يعلم فلم يملك قيامه
أين الذين قلوبهم * كانت بها ذات استهامه
أين الذين تفيؤا * ظل السيادة والزعامه
أين الملوك ذوو الريا * سة والسياسة والصرامه

ناقصا قد قنع بالظنون وعمى عن اليقين لم ير الاشتغال بهذا الضرب من العلوم ٥ والتفرغ لهذا الفن من الآداب حتى صنفنا كتبنا من ضروب المقالات وأنواع الديانات ككتاب الابانة عن أصول الديانة وكتاب المقالات فى اصول الديانات وكتاب سر الحياة وكتاب نظم الادلة فى اصول الملة وما اشتمل عليه من اصول الفنون وقوانين الاحكام كتيقن القياس والاجتهاد فى الاحكام ووقع الرأى والاستحسان ومعرفة الناسخ من المنسوخ وكيفية الاجماع وماهيته ومعرفة الخاص والعام والاوامر والنواهى والحظر والاباحة وما أتت به الاخبار من الاستفاضة والآحاد وافعال النبى صلى الله عليه وسلم وما الحق بذلك من اصول الفتوى ومناظرة أبناء الخصوم فيما نازعونا فيه وموافقتهم فى شىء منه وكتاب الاستبصار فى الامامة ووصف اقاويل الناس فى ذلك من اصحاب النص والاختيار وحجاج كل فريق منهم وكتاب الصفوة فى الامامة وما احتواه ذلك مع سائر كتبنا فى ضروب علم الظواهر والبواطن والجلى والخفى والداثر والقائم على ما يرتقبه المرتقبون ويتوقعه المحدثون وما ذكروه من نور يلمع فى الارض وينبسط فى الجدب والخصب وما فى عقب الملاحم الكائنة الظاهر انباؤها المنجلى اوائلها الى سائر كتبنا فى السياسة كالسياسة المدنية واجزاء

وكيفية تركيب العوالم والاجسام السماوية وما هو محسوس وغير محسوس من الكثيف واللطيف وماقال أهل النحلة فى ذلك وكان مادعانى الى تأليف كتابى هذا فى التاريخ واخبار العالم ومامضى فى اكناف الزمان من أخبار الانبياء والملوك وسيرها والامم ومساكنها محبة احتذاء الشاكلة التى قصدها العلماء وقفاها الحكماء وان يبقى للعالم ذكرا محمودا وعلما منظوما عتيدا فانا وجدنا مصنفى الكتب فى ذلك مجيدا ومقصرا ومنتهيا ومختصرا ووجدنا الاخبار زائدة مع زيادة الايام حادثة مع حدوث الازمان وربما عاب البارع منها على الفطن الذكى ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ولكل اقليم عجائب يقتصر على علمها أهله وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما هى اليه من الاخبار عن اقليمه كمن قسم عمره على قطع الاقطار ووزع ايامه بين تقاذف الاسفار واستخراج كل دقيق من معدنه واثارة كل نفيس من مكمنه وقد ألف الناس كتبا فى التاريخ والاخبار مما سلف وخلف فاصاب البعض واخطأ البعض وكل قد اجتهد بغاية امكانه واظهر مكنون

و بنو أمية حين جمع عصرهم لهم قتامه
وتمكنوا ممن يحا * ول نقض ماشاؤا انبرامه
وتعشقوا المابدا * لهم محيا الارض شامه
وتأملوا وجه البسي * طة فانثنوا يهوون شامه
حتى تقلص ظلهم * وأراهم الدهر اخترامه
أين الخلائف من بنى الـ * ـعباس والبر القسامه
أين الرشيد وأهله * و بنوه أصحاب الشهامه
ووزيره يحيى وجعـ * ـفر ابنه الراوى احتشامه
والفضل مدنى من يقو * ل لمن يلوم على الندى مه
أم أين عنترة الشجا * ع وذو الجدا كعب بن مامه
والزاعمون بجهلهم * أن القبور صدى وهامه
والمكثرون من المجو * ن اذا شكا الفكر اغتمامه
أين الغريض ومعبد * أو أشعب وأبو دلامه
أين الأُلى هاموا بسـ * ـعدى أو بثينة أو أمامه
و بكوا الفرط جواهم * والليل قد أرخى ظلامه
وتتبعوا آثار من * عشقوا بنجد أو تهامه
وتعللوا والشوق يغلـ * ـب بالاراكة والبشامه
أضنى النوى قيسا فقا * سى لاعجا أغرى غرامه
وغوى هوى غيلان مذ * أبدى بمية هيامه
أين الاكاسر والقيا * صرة المحلون القمامه
أين الذى الهرمان من * بنيانه الحاكى اعتزامه
أم أين غمدان وسيـ * ـف والوفود به أمامه
أين الخورنق والدويـ * ـر ومن شفى بهما أوامه
ومدائن الاسكندر اللاتى لها أعلى دعامه
أين الحصون ومن يصو * ن بها من الاعدا حطامه
أين المراكب والموا * كب والعصائب والعمامه
أين العساكر والدسا * كر والندامى فى المدامه
وسقاتها المتلاعبو * ن بلب من أعطوه جامه
من كل أهيف يزدرى * بالغصن ان يهزز قوامه
ذى غـرة لألاؤها * تمحو عن النادى ظلامه
فالشمس فى أزراره * والبدر فى يده قلامه
يصمى القلوب اذا رمى * عن قوس حاجبه سهامه

ويروق

ويروق حسنا ان رنا * ويفوق آراما برامه
أنى لها ثغر حلا * ذوقا لمن رام التثامه
أنى لها وجه يشب بقلب مبصره ضرامه
استغفر الله للغـ * ـو ولا يرى الشرع اعتيامه
بل اين ارباب العلو * م اولوا التصدر والامامه
وذوو الوزارة والحجا * بة والكتابة والعلامه
كأئمة سكنوا باند * لس فلم يشكوا سآمه
هى جنة الدنيا التى * قد اذكرت دار المقامه
لاسيما غرناطة الـ * ـغراء رائقة الوسامه
وهى التى دعيت دمشـ * ـق وحسبها ذا فخامه
لنزول اهليها بها * اذ اظهر الكفر انهزامه
وأتت جيوش الشأم من * باب نفى الفتح انبهامه
فسلوا بها عن جلق * اذ اشبهتها فى الفخامه
وبدا لهم وجه المنى * واراهم الثغر ابتسامه
وتبوءوها حضرة * تبرى من المضنى سقامه
بروائها وبمائها * وهوائها النافى الوخامه
ورياضها المهتزة الاعطاف من شدو الحمامه
وبمرجها النضر الذى * قد زين الله ارتسامه
وقصورها الزهر التى * يأبى بها الحسن انقسامه
ياليت شعرى أين من * امضى بها الملك احتكامه
واتيح فى حمرائها * عز ابه زان اتسامه
ابن الوزير ابن الخطيـ * ـب بها فما احلى كلامه
فلكم ابان العدل فى * ارجائها وبها اقامه
ولكم اجار عداوكم * اجرى ندى والى انسجامه
واعت صروف الدهر دو * لته وما راعت ذمامه
حتى ثوى اثر النوى * فى حفرة نثرت نظامه
من زارها فى ارض فا * س اذهبت شجوا منامه
اذ نبهته لكل شمـ * ـل شتت الموت التئامه
هذا لسان الدين اسـ * ـكته واسكنه رجامه
ومحا عبارته فمن * حياه لم يرد سلامه
فكأنه ما امسك الـ * ـقلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يعل متـ * ـن مطهم بارى النعامه
وكأنه لم يرق غا * رب الاعتزاز ولا سنامه

نحو هر فطنته كوهب بن منبه وأبى مخنف لوط بن يحيى العامرى ومحمد بن اسحق والواقدى وابن الكلبى وأبى عبيدة
معمر بن المثنى وأبى
العباس الهمدانى والهيثم
ابن عدى الطائى والشرقى
ابن القطامى وحماد الراوية
والاصمعى وسهل بن هرون
وعبدالله بن المقفع واليزيدى
ومحمد بن عبدالله العتبى
والآمدى وأبى زيد
سعيد بن أوس الانصارى
والنضر بن شميل وعبيدالله
ابن عائشة وابى عبيدالله
القاسم بن سلام وعلى بن
محمد المدائنى ودمار بن
ربيع بن سلمة ومحمد بن
سلام الجمحى وأبى عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ وابى
زيد عمر بن شبة النميرى
والزرقى الانصارى وابى
السائب المخزومى وعلى
ابن محمد بن سليمان النوفلى
والزبير بن بكار والانجيلى
والرياشى وابن عائذة وعمار
ابن وثيمة المصرى وعيسى بن
لهيعة المصرى وعبدالرحمن بن
عبدالله بن عبدالحكم
المصرى وابى حسان الزيادى
ومحمد بن عيسى الخوارزمى
وابى جعفر محمد بن أبى السرى
ومحمد بن الهيثم بن شبابة
الخراسانى صاحب كتاب
الدولة واسحق بن ابراهيم
الموصلى صاحب كتاب
الاغانى وغيره من الكتب
والخليل بن الهيثم الخرثمى
صاحب كتاب الحيل والمكايد فى الحروب وغيره ومحمد بن يزيد المبرد الازدى ومحمد بن سليمان المنقرى الجوهرى ومحمد بن

وكأنه لم يحـل وجـ * ـها حاز من بشر تمامه
وكأنه ما جال فى * امر ولا نهى وسامه
وكأنه ما نال من * ملك حباه ولا احترامه
وكأنه لم يلق فى * يده لتدبير زمامه
مذ فارق الدنيا وقوّض عن منازلها خيامه
أمسى بقبر مفردا * والترب قد جمعت عظامه
من بعد تثنية الوزا * رة جاده صوب الغمامه
لم يبق الا ذكره * كالزهر مفترا لكمامه
والعمر مثل الضيف او * كالطيف ليس له اقامه
والموت حتم ثم بعـ * ـد الموت أهوال القيامه
والناس مجزيون عن * أعمال ميل واستقامه
فذوو السعادة يضحكو * ن وغيرهم يبكى ندامه
والله يفعل فيهم * ماشاء ذلا وكرامه
ويشفع المختار فيـ * ـهم حين يبعثه مقامه
وعليه خير صلاته * مع صحبه تتلو سلامه
والتابعين ومن بدا * برق الرشاد له فشامه
ما فاز بالرضوان عبـ * ـد كانت الحسنى ختامه

والله سبحانه المسؤل فى الفوز والنجاة كرما منه وحلما * فبيده الخير لا اله الا هو العلى الكبير العليم الخبير الذى احاط بكل شئ علما * فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء من مخلوقاته على الشمول والاستغراق * (أما بعد) حمدا لله مالك الملك * والصلاة على رسوله المنجى من الهلك * والرضا عن آله وصحبه الذين تجلت بأنوارهم الظلم الحلك وعن العلماء الاعلام الخائضين بحار الكلام المستوين من البلاغة على الفلك * (فيقول) العبد الحقير * المذنب الذى هو الى رحمة ربه الغنى فقير * المقصر المتبرئ من الحول والقوّه المتمسك بأذيال الخدمة للسنة والنبوّه وذلك بفضل امان وبراءه * الضعيف الفانى الخطاء الجانى من هو من لباس التقوى عرى * احمد بن محمد بن احمد الشهير بالمقرى المغربى المالكى الاشعرى التلمسانى المولد والمنشا والقراءة * نزيل فاس الباهره ثم مصر القاهره أصلح الله احواله الباطنة والظاهره وجعله من ذوى الاوصاف الزكية والخلال الطاهره وسدد فى كل قصد انحاءه وآراءه * ووفقه بمنه وكرمه للاعمال الصالحه والطاعات الناجحة الرابحه والمتاجر المغبوطة الرابحه والمساعى الغادية بالخير الرائحه ووقاه ما بين يديه ووراءه * وكفاه مكر الكائد وافتراءه * وجدال الحاسد المستأسد ومراءه * وجعل فيما يرضيه سوءه وشراءه * آمين انه لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب اورد * ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء او ورد * برحلتى من بلادى ونقلتى عن محل طارفى وتلادى بقطر المغرب الاقصى * الذى تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت

زكريا العلائى المصرى المصنف للكتاب المترجم بكتاب الاجراد وغيره وابن أبى الزينى مؤدب المكتفى بالله واحمد بن محمد الخزاعى المعروف بالخاقانى الانطاكى وعبد الله محمد بن محفوظ البلدى الانصارى صاحب أبى يزيد عمارة بن زيد اليمنى ومحمد البرقى بن خالد الرقى الكاتب صاحب التبيان وولده احمد بن محمد بن خالد البرقى وأحمد ابن ابى طاهر صاحب الكتاب المعروف باخبار بغداد وغيره وابى الوشاء وعلى بن مجاهد صاحب الكتاب المعروف باخبار الامويين وغيره ومحمد بن صالح بن النطاح صاحب كتاب الدولة العباسية وغيره ويوسف بن ابراهيم صاحب أخبار ابراهيم بن المهدى وغيرها ومحمد بن الحرث التغلبى صاحب الكتاب المعروف باخبار الملوك المؤلف للفتح بن خاقان وغيره وأبى سعيد السكرى صاحب كتاب أبيات العرب وعبد الله بن عبد الله بن حسن بن دارية فانه كان اماما فى التأليف متنوّعا فى ملاحة التصنيف اتبعه من يعتمد وأخذ منه ووطئ على عقبه وقفا أثره واذا اردت ان تعلم صحة ذلك فانظر الى كتابه الكبير فى التاريخ فانه أجمع هذه الكتب حدا وأبدعها نظما وأكثرها علما وأحوى لاخبار الامم وملوكها وسيرها من الاعاجم وغيرها ومن كتبه النفيسة فى المسالك والممالك

بضائع

بضائع أمنه نقصا * وطما به بحر الاهوال فاستعملت شعراء العيث فى كامل رونقه من الزحاف اضمارا وقطعا ووقصا

قطر كأن نسيمه * نفحات كافور ومسك
وكأن زهر رياضه * درهوى من نظم سلك

وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الالف تاركا المنصب والاهل والوطن والالف

بلد طاب لى به الانس حينا * وصفا العود فيه والابداء
فسقت عهده العهاد ورقت * منه تلك النوادى الأنداء

وما عسى أن اذكر فى اقليم تعين لجهة فضله التسليم

أضواؤه طبق المنى وهواؤه * يشتاقه الولهان فى الاسحار
والطبع معتدل فقل ماشئته * فى الظل والازهار والانهار

محل فتح الكمائم ومسقط الرأس وقطع التمائم

به كان الشباب اللدن غضا * ودهرى كله زمن الربيع
ففرق بيننا زمن خؤن * له شغف بتفريق الجميع

لم أنس تلك النواسم التى أيامها للعمر مواسم وثغورها باسر وربواسم فصرت اشير اليها وقد زمت للرحيل القلص الرواسم

ولنا بها تيك الديار مواسم * كانت تقام لطيبها الاسواق
فأبا ننا عنها الزمان بسرعة * وغدت تملنا بها الاشواق

وأنشد قول غيلان

أمنزلتى مى سلام عليكما * هل الازمن اللائى مضين رواجع

واتمثل فى تلك الحدائق التى حمائمها سواجع بقول من جفونه من الهوى غير هواجع

تشدو بعيدان الرياض حمائم * شدو القيان عزفن بالاعواد
ماد النسيم بقضبها فتمايلت * مهتزة الاعطاف والاجياد
هذى تودع تلك توديع التى * قد آذنت منها بوشك بعاد
واستعبرت لفراقها عين الندى * فابتل مئزر عطفها المياد

وأحدق النظر الى روض لانسان العين من فراقه فى بحر الدموع سبح وخوض

روض به أشياء ليست فى سواه تؤلف
فمن الهزار ترنم * ومن القضيب تقطف
ومن النسيم تلطف * ومن الغدير تعطف

وألتفت كالمستريب والحى اذذاك قريب وحديث العهد ليس بمنكر ولا غريب

أهذا ولماتمض للبين ساعة * فكيف اذا مرت عليه شهور

والآثار لائحة والشمال غادية ورائحة

أرى آثارهم فأذوب شوقا * وأسكب من تذكرهم دموعى

عليه وسلم من الخلفاء والملوك الى خلافة المعتضد بالله وما كان من الاحداث والكوائن فى أيامهم وأخبارهم تأليف محمد بن على وكتاب النسب لاحمد بن على البلاذرى وكتابه أيضا فى البلدان وفتوحها صلحا وعنوة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ومافتح فى أيامه وعلى يد الخلفاء بعده وما كان من الاخبار فى ذلك ووصف البلدان فى الشرق والغرب والجنوب ولا نعلم فى فتوح البلدان أحسن منه وكتاب داود بن الجراح فى التاريخ الجامع لكثير من اخبار الفرس وغيرها من الامم وهو جد الوزير على بن عيسى بن داود بن الجراح وكتاب التاريخ الجامع لفنون من الاخبار والكوائن فى الاعصار قبل الاسلام وبعده تأليف أبى عبدالله محمد بن الحسن بن سوار المعروف بابن اخت عيسى ابن برخان شاه بلغ فى تصنيفه الى سنة عشرين وثلثمائة وتاريخ أبى عيسى بن المنجم على ما انبات به التوراة وغير ذلك من اخبار الانبياء والملوك وكتاب التاريخ وأخبار الامويين ومناقبهم وذكر فضائلهم وما بانوا به عن غيرهم وما أحدثوه من السير فى أيامهم تأليف أبى عبد الرحمن خالد بن هشام الاموى

وأسأل من قضى بفراق حبي * يمنّ على منهم بالرجوع

والنفس متعلقة ببعض الانس والمشاهد الحميدة لم تنس

تلك العهود بشدّها مختومة * عندي كما هي عقدها لم يحلل

غير ان الرحيل عن الربع المحيل فصل به بين الشائق والمشوق وحيل

وقفنا بربع الحب والحب راحل * نحاول رجعاه لنا ونحاول
وألقت دموع العين فيه مسائلا * لها عن عبارات الغرام دلائل
وبالسفح منها كم سقيت لبانها * فيلته والسفح للبان مائل
اذا نسمة الاحباب منها تنسمت * تطيب بها اسحارنا والاصائل
تثير شجوني ساجعات غصونها * فمنها على الحالين هاجت بلابل
مرابع ليلى في مراتع لذتي * مطالع اقماري بها والمنازل

فحياها الله من منازل ذات اقمار سائرة فيها ومنازه لا يحصي الواصف محاسنها وامداح اهلها ولا يستوفيها

حلوا عقود اصطباري عندما رحلوا * وفي الخمائل حلوا مثل امطار
ان المنازل قد كانت منازه اذ * باتوا بها وهي اوطاني واوطاري

ورعى الله من بان وشاق حتى الرند والبان

بانوا لعيني اقمارا تقلهم * لدن الغصون فلما آنسوا بانوا
عهودهم لست انساها وكيف وقد * ربّى لبيني عنها الرند والبان

وفي مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرقاق كما قال حائز قصب السبق بالاستحقاق الاديب الاندلسي الشهير بابن الزقاق

وقفت على الربوع ولي حنين * لساكنهنّ ليس الى الربوع
ولو أني حننت الى مغاني * احبائي حننت على ضلوعي

وكما قال بعض من له في هذا المنهاج مسير

دخولك من باب الهوى ان اردته * يسير ولكن الخروج عسير

واين من له صفاة لا يطمع الدهر القوي في نحتها وجنات دنيوية لا تجري انهار الفراق من تحتها

فسقى رضيع الند من ذاك الحمى * بحيا تدور على الربا كاساته
سفح سفحت عليه دمعي في ثرى * كالمسك ضاع من القناة فتاته

ولم ازل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق واتصالي في اثر ذلك الجمع بالفرق

احن اذا خلوت الى زمان * تقضى لي بأفنية الربوع
واذكر طيب ايام تولت * لنا فتفيض من اسف دموعي

وأتوق وقد اتسع من البعد الخرق وخصوصا اذا شدا صادح أو أومض برق الى ديار لا يعدوها اختيار

واربع احباب اذا ما ذكرتها * بكيت وقد يبكيك ما انت ذاكر

وكتاب القاضي أبي بشر الدولابي في التاريخ والكتاب الشريف تأليف أبي بكر محمد بن خلف وكيع القاضي في التاريخ وغيره من الاخبار وكتاب السير والاخبار لمحمد بن خالد الهاشمي وكتاب السير والاخبار لاسحق بن سلمان الهاشمي وكتاب سير الخلفاء لابي بكر محمد بن زكريا الرازي صاحب كتاب المنصوري في الطب وغيره فأما عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري فمن كثرت كتبه واتسع تصنيفه ككتابه المترجم بكتاب المعارف وغيره من مصنفاته واما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب المصنفات فقد جمع أنواع الاخبار وحوى فنون الآثار واشتمل على صنوف العلم وهو كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته وكيف لا يكون كذلك ومؤلفه فقيه عصره وناسك دهره اليه انتهت علوم فقهاء الامصار وحملة السنن والآثار وكذلك تاريخ ابي عبد الله ابراهيم ابن محمد بن عرفة الواسطي النحوي الملقب بنفطويه فمحشوّ من ملاحة كتب الخاصة مملوء من فوائد السادة وكان أحسن اهل عصره تأليفا واملحهم تصنيفا وكذلك سلك محمد ابن يحيى الصولي في كتابه المترجم بكتاب الاوراق في اخبار الخلفاء من بني العباس وبني امية وشعرائهم ووزرائهم

بطاح

بطاح وادواح يروقك حسنها * بكل خليج نمنمته الازاهر
فما هو الا فضة فى زبرجد * تساقط فيه اللؤلؤ المتناثر
بحيث الصبا والترب والماء والهوى * عبير وكافور وراح وعاطر
وما جنة الدنيا سوى ما وصفته * وما ضم منه الحسن نجد وحاجر
بلادى التى اهلى بها واحبتى * وروحى وقلبى والمنى والخواطر
تذكرنى انجادها ووهادها * عهودا مضت لى وهى خضر نواضر
اذ العيش صاف والزمان مساعد * فلا العيش مملول ولا الدهر جائر
بحيث ليالينا كغض شبابنا * وايامنا سلك ونحن جواهر
ليالى كانت للشبيبة دولة * بها ملك اللذات ناه وآمر
سلام على تلك العهود فانها * موارد افراح تلتها مصادر

واتذكر تلك الايام التى مرت كالاحلام فأتمثل بقول بعض الاكابر الاعلام

يا ديار السرور لا زال يبكى * فيك اذ تضحك الرياض غمام
رب عيش صحبته فيك غض * وعيون الفراق عنا نيام
فى ليال كانهن أمان * فى زمان كانه احلام
وكأن الاوقات فيك كؤس * دائرات وانسهن مدام
زمن مسعد والف وصول * ومنى تستلذها الاوهام

وبقول الحائك الامى عندما يكثر شجوى وغمى

لم انس اياما مضت ولياليا * سلفت وعيشا بالصريم تصرما
اذ نحن لا نخشى الرقيب ولم نخف * صرف الزمان ولا نطيع اللوّما
والعيش غض والحواسد نوّم * عنا وعين البين قد كحلت عمى
فى روضة ابدت ثغور زهورها * لما بكى فيها الغمام تبسما
مد الربيع على الخمائل نوره * فيها فاصبح كالخيام مخيما
تبدو الاقاحى مثل ثغر أشنب * اضحى المحب به كئيبا مغرما
وعيون نرجسها كاعين غادة * ترنو فترمى باللواحظ اسهما
وكذلك المنثور منثور بها * لما رأى ورد الخدود منظما
والطير تصدح فى فروع غصونها * سحرا فتوقظ بالهديل النوّما

وأميل الى بلاد محياها جميل

كساها الحيا برد الشباب فانها * بلاد بها عق الشباب تمائمى
ذكرت بها عهد الصبا فكانما * قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالى لا الوى على رشد ناصح * عنانى ولا اثنيه عن غى لائم
انال سهادى من عيون نواعس * واجنى مرادى من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف * من النهر ينساب انسياب الاراقم
تمر النسائم عنا كانها * حواسد تمشى بيننا بالنمائم

فانه ذكر غرائب لم تقع لغيره واشياء تفرّد بها لانه شاهدها بنفسه وكان محظوظا من العلم ممدودا من المعرفة مرزوقا من التصنيف وحسن التأليف وكذلك كتاب الوزراء واخبارهم لابى الحسن على بن الحسن المعروف بابن الماشطة فانه بلغ فى تصنيفه الى آخر أيام الراضى بالله وكذلك أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب فانه كان حسن التاليف بارع التصنيف موجزا للالفاظ معربا للمعانى واذا أردت علم ذلك فانظر فى كتابه فى الاخبار المعروفة بأخبار زهر الربيع وأشرف على كتابه المترجم بكتاب الخراج فانك تشاهد منه حقيقة ما قد ذكرنا وصدق ما وصفنا وما صنفه ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى الفقيه فى كتابه فى الاخبار الذى يعارض فيه كتاب الروضة ولقبه بالباهر وكتاب ابراهيم بن ماهويه الفارسى الذى عارض فيه المبرد فى كتابه الملقب بالكامل وكتاب ابراهيم بن موسى الواسطى الكاتب فى أخبار الوزراء الذى عارض فيه كتاب محمد بن داود الجراح فى الوزراء وكتاب على بن الفتح الكاتب المعروف بالمطوّق فى أخبار عدة من وزراء المقتدر بالله وكتاب زهرة العيون وجلاء القلوب تأليف المصرى وكتاب التاريخ تأليف عبد الرحمن بن عبد الرزاق

وبتنا ولا واش نخاف كأنما * حللنا مكان السر من صدر كاتم

واهفوا الى قصور ذات بهجه وصروح توضح معالمها للرائد نهجه

ورياض تختال منها غصون * فى برود من زهرها وعقود

فكأن الادواح فيها غوان * تتبارى زهوا بحسن القدود

وكأن الاطيار فيها قيان * تتغنى فى كل عود بعود

وكأن الازهار فى حومة الرو * ض سيوف تسل تحت بنود

وأصبوا الى بطاح وادواح تروّح النفوس والارواح

سقيا لها من بطاح خز * ودوح زهر بها مطل

اذ لا ترى غير وجه شمس * اطل فيه عذار ظل

وانهار جارية وازهار نواسمها سارية وأربع وملاعب تزيح عن مبصرها المتاعب

تلك المنازل والملا * عب لا أراها الله محلا

أوطنتها زمن الصبا * وجعلت فيها لى محلا

حيث التفت رأيت ما * ءسائحا ورأيت ظلا

والنهر يفصل بين زهـ * ـر الروض فى الشطين فصلا

كبساط وشى جرّدت * ايدى القيون عليه نصلا

والى منازل يستفز حسنها الرائق الجاد والهازل ويشفى منظرها عليلا ويكفى مخبرها للمستفهم دليلا

وجنان ألفتها حين غنت * حولها الورق بكرة واصيلا

نهرها مسرع الجرى وتمشت * فى رباها الصبا قليلا قليلا

وأتمثل ان ذكرت حال وداعى بقول الشاعر الاديب الوداعى

الغرب خير وعند ساكنه * امانة اوجبت تقدّمه

فالشرق من نيريه عندهم * يودع ديناره ودرهمه

وبقول غيره اشارة لفضل الغرب وخيره

أشتاق للغرب واصبو الى * معاهد فيه وعصر الصبا

ياصاحبى نجواى والليل قد * ارخى جلابيب الدجى واختبا

لا تعجبا من ناظر ساهر * بات يراعى النجم ما غيبا

القلب فى آثارها طائر * لما رآها تقصد المغربا

وأهيم كلما حللت من غيران أرضى بمكان وقد صير السائق جدا السير معمولا لما انفك كما جعله خبر الكان بقول قاضى القضاة العالم الكبير الشمس بن خلكان

أى ليل على المحب اطاله * سائق الظعن يوم زمّ جماله

يزجر العيس طاويا يقطع المهـ * ـمه عسفا سهوله ورماله

أيها السائق المجدّ ترفق * بالمطايا فقد سئمن الرحاله

وأنخها هنيهة وارحها * اذبراها السرى وفرط الكلاله

المعروف بالجوزجانى السعدى وكتاب التاريخ واخبار الموصل تأليف ابى ذكوة الموصلى وكتاب تاريخ أحمد ابن أبى يعقوب المصرى فى اخبار العباسيين وغيرهم وكتاب التاريخ فى اخبار الخلفاء من بنى العباس وغيرهم لعبدالله بن الحسين ابن معدّ الكاتب وكتاب محمد بن مزيد بن أبى الازهر فى التاريخ وغيره وكتابه المترجم بكتاب الهرج والاحداث ورأيت سنان ابن ثابت بن قرّة الحرجانى حين انتحل ماليس من صناعته واستنهج ماليس من طريقته قد الف كتابا جعله رسالة الى بعض اخوانه من الكتاب واستفتحه بجوامع من الكلام فى اخلاق النفس واقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية وذكر لمعا من السياسات المدنية مما ذكره افلاطون فى كتابه فى السياسة المدنية وهو عشر مقالات ولمعا مما يجب على الملوك والوزراء ثم خرج الى اخبار يزعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها ووصل ذلك باخبار المعتضد بالله وذكر صحبته به وايامه السالفة ثم ترقى الى خليفة خليفة فى التصنيف مضادة لرسم الاخبار والتواريخ وخروجا عن جملة أهل التأليف وهو وان أحسن فيه ولم يخرجه عن معانيه فانما عيبه أنه خرج عن مركز صناعته وتكلف ماليس من مهنته ولو أقبل على الذى انفرد لا تطل

لا تطل سيرها العنيف فقد برح بالصب في سراها الاطاله
وارث للنازح الذي ان رأى ربعا * ثوى فيه نادبا أطلاله
يسأل الربع عن ظباء المصلى * ما على الربع لو أجاب سؤاله
ومحال من المحيل جواب * غير ان الوقوف فيه علاله
هذه سنة المحبين يبكو * ن على كل منزل لا محاله
يا ديار الاحباب لازالت الاعـ * ـين في ترب ساحتيك مذاله
وتمشى النسيم وهو عليل * في مغانيك ساحبا اذياله
اين عيش مضى لنا فيك ما اسـ * ـرع عنا ذهابه وزواله
حيث وجه الزمان طلق نضير * والتداني غصونه ميّاله
ولنا فيك طيب أوقات انس * ليتنا في المنام نلقى مثاله

وأورد قول الذي سحر الالباب مناديا من له من الاحباب

احبابنا لو لقيتم في اقامتكم * من الصبابة ما لاقيت في الظعن
لأصبح البحر من انفاسكم يبسا * كالبر من ادمعي ينشق بالسفن

وقوله

وما تغيرت عن ذاك الوداد ولا * حالت بي الحال في عهدي وميثاقي
درسي غرامي بكم دهري اكرره * وقد تفقهت في وجدي واشواقي

وقول المجد بن شمس الخلافه معلما أنه لا يريد بدل معهده وخلافه

يا زمان الهوى عليك السلام * وعلى السلوّ عنك حرام
أي عيش قطعته فيك لودا * م وهل يرتجى لظل دوام
كنت حلما والعيش فيك خيالا * وسريعا ما تنقضي الاحلام
لهف نفسي على ليال تقضت * سلبتني برودها الايام
فطمتني الاقدار عنها وليدا * وشديد على الوليد الفطام
لا تلمني على البكاء عليها * من بكى شجوه فليس يلام

وقول أبي طاهر الخطيب الموصلي

حي نجدا عني ومن حل نجدا * أربعا هجن لي غراما ووجدا
واقر عني السلام آرام ذاك الشعب والاجرع الخصيب المفدّى
وابك عني حتى ترنح بالوجـ * ـد أراكا به وبانا ورندا
فلكم وقفة اطلت على الضا * ل بدمع اذاع سري وأبدى
وعلى البان كم من البين أذر * ت لآلي للدمع مثنى ووحدا
آه والهفتي على طيب عيش * كنت قطعته وصالا وودا
حيث عود الشباب غض نضير * ويد المكرمات بالجود تندى
والخليل الودود ينعم اسعا * فا وصرف الزمان يزداد بعدا
والليالي مساعدات على الوصـ * ـل وعين الرقيب اذ ذاك رمدا

به من علم اقليدس والمعظمات والمجسطي والمدورات ولو استفتح بسقراط وافلاطون وارسطاطاليس فاخبر عن الاشياء الفلكية والآثار العلوية والمزاجات الطبيعية والنسب والتأليفات والنتائج والمقدّمات والصنائع المركبات ومعرفة الطبيعيات من الالهيات والجواهر والهيآت ومقادير الاشكال وغير ذلك من أنواع الفلسفة لكان قد سلم مما تكلفه وأتى بما هو أليق بصنعته ولكن العارف بقدره يعود والعالم بمواضع الخلة مفقود وقد قال عبد الله بن المقفع من وضع كتابا فقد استهدف فان اجاد فقد استشرف وان أساء فقد استقذف (قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي) ولم نذكر من كتب التواريخ والاخبار والسير والآثار الا ما اشتهر مصنفوها وعرف مؤلفوها ولم نتعرض لذكر كتب تواريخ أصحاب الاحاديث في معرفة أسماء الرجال واعصارهم وطبقاتهم اذ كان ذلك أكثر من أن نأتي على ذكره في هذا الكتاب اذ كنا قد أتينا على جميع تسمية أهل الاعصار من حملة الآثار ونقلة السير والاخبار وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ثم من تلاهم من التابعين وأهل كل عصر على اختلاف انواعهم وتنازعهم في آرائهم من فقهاء الامصار وغيرهم من اهل الآراء والنحل

والمذاهب والجدل الى سنة اثنين وثلاثين ١٤ وثلثمائة فى كتابنا المترجم بكتاب اخبار الزمان والكتاب الاوسط (وقد
وسمت كتابى هذا بكتاب
مروج الذهب ومعادن
الجوهر) لنفاسة ماحواه
وعظم خطر مااستولى عليه
من طوالع بوارع ماتضمنته
كتبنا السالفة فى معناه
وغرر مؤلفاتنا فى مغزاه
وجعلته تحفة للاشراف
من الملوك واهل الدرايات
لما قد ضمنته من جمل
ماتدعو الحاجة اليه وتنازع
النفوس الى علمه من درايه
ماسلف وغبر فى الزمان
وجعلته مسهما على
أغراض ماسلف من كتبنا
ومشتملا على جوامع يحسن
بالأديب العاقل معرفتها ولا
يعذر فى التغافل عنها ولم
نترك نوعا من العلوم ولا فنا
من الاخبار ولا طريقة
من الآثار الا اوردناه فى
هذا الكتاب مفصلا أو
ذكرناه مجملا أو اشرنا اليه
بضرب من الاشارات أو
لوحنا اليه بفحوى
العبارات فمن حرف شيأ
من معناه اوازال ركنا من
مبناه اوطمس واضحة من
معالمه اولبس شاهدة من
تراجمه اوغيره او بدله او
اشحنه او اختصره اونسبه
الى غيرنا واضافه الى
سوانا فوافاه من غضب
الله ووقوع نقمه وفوادح
بلاياه مايعجز عنه صبره ويحار له فكره وجعله الله مثلة للعالمين وعبرة للمعتبرين وآية للمتوسمين وسلبه الله تفطرت

كم بها من لبانة لى وأوطا * رتقضت وجازت الحد حدا
فاستعاد الزمان ما كان أعطى * خلسة لى ببخله واستردا

وقول بعضهم

سلام على تلك المعاهد انها * شريعة وردى أومهب شمالى
ليالى لم نحذر حزون قطيعة * ولم نمش الا فى سهول وصال
فقد صرت أرضى من نواحى جنابها * بخلب برق أو بطيف خيال

وقول الجرجانى

للمحبين من حذار الفراق * عبرات تجول بين المآقى
فاذا ما استقلت العيس للبين * وسارت حداتها بالرفاق
استهلت على الخدود انحدارا * كانحدار الجمان فى الاتساق
كم محب يرى التجلد دينا * فهو يخفى من الهوى مايلاقى
ازدهاه النوى فأعرب بالوجد * لسان عن دمعه المهراق
وانحدار الدموع فى موقف البين * على الخد آية العشاق
هون الخطب لست أول صب * فضحته الدموع يوم الفراق

وقول الخطيب الحصكفى الشافعى

ساروا وأكبادنا جرحى واعيننا * قرحى وأنفسنا سكرى من القلق
تشكو بواطننا من بعدهم حرقا * لكن ظواهرنا تشكو من الغرق
كأنهم فوق أكوار المطى وقد * سارت مقطرة فى حالك الغسق
درارئ الزهر فى الابراج زاهرة * تسير فى الفلك الجارى على نسق
ياموحشى الدار مذ بانوا كم أنست * بقربهم لاخلت من صيب غدق
ان غبتم لم تغيبوا عن ضمائرنا * وان حضرتم جعلنا كم على الحدق

وما أحسن قول بعضهم فى هذا المعنى الذى كرناذ كره وبه ألمعنا

سلام على أهل الوداد وعهدهم * اذ الانس روض والسرور فنون
رحلنا فشرقنا وراحوا فغربوا * ففاضت لروعات الفراق عيون

وكم أنشدت وليالى النوى عاتمة قول الاندلسى بن حاتمة

أيامنا بالحمى ما كان أحلاك * كم بت أرعاه احلالا وأرعاك
لاتنكرى وقفتى ذلا بمغناك * يادار لولا أحبائى ولولاك
لما وقفت وقوف الهائم الباكى

فهل لهم عطفة من بعد دلهم * تالله ماتسمح الدنيا بمثلهم
آها لقلبى على تبديد شملهم * ما كان أحلاك يا أيام وصلهم
ويا ليالى الرضا ما كان أضواك

يابدر تم تناءت عنه أربعنا * ولم تزل تحتويه الدهر أضلعنا
ماللنوى بضروب البين يوجعنا * اذا تذكرت دهرا كان يجمعنا

تفطرت كبدى شوقا لمرآك

أحباب أنفسنا كم ذا النوى وكم * و يا معاهد نجوانا بذى سلم
تالله ماشبت دمعا للاسى بدم * ولا لثمت تراب الارض من كرم
الا مراعاة خل طل يرعاك

عل التعلل يدنى منهم وعسى * فيعمر القرب ما بالبين قد درسا
كم ذا النادى بربع بالنوى طمسا * ياقلب صبرا فان الصبر عاد أسى
ويا منازل سلمى أين سلماك

وقول بعض من اشتد به الهيام يخاطب جيرته مادحا ليالى القرب وذامّا تقلب الايام

أيام أنسى قد كانت بقربكم * بيضا فحين نأيتم أصبحت سودا
ذممت عيشى مذ فارقت أرضكم * من بعد ما كان مغبوطا ومحسودا

وقول صاحب مصارع العشاق وقد شاقه من الهوى ماشاق

بانوا فادمع مقلتى * وجدا عليهم تستهل
وحدا بهم حادى الفرا * ق عن المنازل فاستقلوا
قل للذين ترحلوا * عن ناظرى والقلب حلوا
ماضرهم لو أنهلوا * من ماء وصلهم وعلوا

وقوله حين زحزحته يد الفراق عن أوطان العراق

قد قلت والعبرات تسـ * ـفحها على الخد المآقى
حين انحدرت الى الجز * يرة وانقطعت عن العراق
وتخبطت أيدى الرفا * ق مهامه البيد الرقاق
يا بؤس من سل الزما * ن عليه سيفا للفراق

وقوله أيضا

يامنزل الحى بذات النقا * سقاك دمع مذ نأوا ما رقا
هل سلوة هيهات لا سلوة * قد بلغ السيل الزبى وارتقى
وأنت يايوم النوى عاجلا * أدال منك الله يوم اللقا

وقولى موطئا للثالث وقد تغير لى فيمن تغير حادث

لم أنس معهدنا والشمل مجتمع * والعيش غض وروض الانس معطار
فها أنا بعد بعدعنه فى قلق * وقد نبت بى أرجاء وأقطار
تمضى الليالى وأشواقى مجددة * وما انقضت لى من الاحباب أوطار

وكلما مرت بمرأى بروق لمعت لى من ناحية المغنى بالمنى بروق فتذكرت قول بعض من له على غير من يهوى طروق

ما نظرت عينى سواك منظرا * مستحسنا الا عرضت دونه
وما تمنيت لقاء غائب * الا سألت الله أن تكونه

وربما رمت انتحالى مذهب السلوّ وانتحالى خلال أحوال اقامتى وارتحالى فلم ينتقل

انه على كل شئ قدير وقد جعلت هذا التخويف فى أول كتابى هذا وآخره ليكون رادعا لمن ميله هوى او غلبه شقاء فليراقب امر ربه وليحاذر منقلبه فالمدة يسيرة والمسافة قصيرة والى الله المصير وهذا حين نبدأ بجمل ما استودعناه هذا الكتاب من الابواب وماحوى كل باب منها من انواع الاخبار و بالله التوفيق

(ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الابواب)

قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ذكرنا لاغراضه فلنذكر الآن جملا من كمية ابوابه على حسب مراتبها فيه واستحقاقها منه لكى يقرب تناولها على مريدها فأول ذلك ذكر المبدا وشأن الخليقة وذرء البرية من آدم الى ابراهيم عليهما الصلاة والسلام

ذكر قصة ابراهيم عليه السلام ومن تلا عصره من الانبياء والملوك من بنى اسرائيل

ذكر ملك ارخبعم بن سليمان ابن داود ومن تلا عصره من ملوك بنى اسرائيل وجمل من اخبار الانبياء والملوك من بنى اسرائيل ذكر اهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم ذكر جمل من اخبار الهند واربابها ومدد

عن تلك الصفات حالي وأني وجيدي بقلائد البنات حالي

والشوق أعظم ان يحيط بوصفه * قلم وان يطوى عليه كتاب
والله ما انا منصف ان كان لي * عيش يطيب وجيرتي غياب

وكيف ولا ماقي صب ولا تواقي زيادة اذا سرى نسيم او هب

شربت حميا البين صرفا وطالما * جلوت محيا الوصل وهو وسيم
فيعاد دمعي أن تنوح حمامة * وميقات شوقي أن يهب نسيم

فان لاح سني بارق شاقني اوترنم شاد حدابي الى الهيام وساقني أو رناظبي فلاة راعني وراقني

واني ليصبيني سنى كل بارق * وكل حمام في الاراك ينوح
وأرتاع من ظبي الفلاة اذارنا * وارتاح للتذكار وهو سنوح
ولم يك ذاك لامر من حيث ذاته * ولكن لمعنى في الحبيب يلوح

ولا أستطيع الاعراب عن أمري العجيب لما بي من النوى المذهل والجوى المدهش والوجيب

ولا تسألوا عما أجن فليس لي * لسان يؤدي ما الغرام يقول
يطارحني البرق الاحاديث كلما * أضاء كان البرق منه رسول
ومابال خفاق النسيم يميلني * هل الريح راح والشمال شمول

اذ دموع شؤني عند الذكرى لا ترقا وجفوني ليس لها عن الارق مرقى وشجوني تنموا اذا صدحت بغنها اورقا

رب ورقاء في الدياجي تنادي * الفها في غصونها المياده
فتثير الهوى بلحن عجيب * يشهد السمع أنها عواده
كلما رجعت توجعت حزنا * فكانا في وجدنا نتباده

فيا لها من ذات طوق مثيرة لكامن شوق جالبة له من يمين وشمال وفوق

ذكرتني الورقاء أيام أنس * سالفات فبت أذري الدموعا
ووصلت السهاد شوقا لحبي * وغراما وقد هجرت الهجوعا
كيف يخلو قلبي من الذكر يوما * وعلى حبهم حنيت الضلوعا
كلما أولع العذول بعتبي * في هواهم يزداد قلبي ولوعا

وربما أتخيل قول من قال انها بالحزن بائحة وعلى فقد الالف نائحة فأنشد قول خليل وهو بالحب مدنف وعليل

ورب حمامة في الدوح باتت * تجيد النوح فنا بعد فن
أقاسمها الهوى مهما اجتمعنا * فمنها النوح والعبرات مني

ولا غروان ظهر سر بائح فبالك مثلي من الشجو نائح

فرجعت بعد فراق أيام الهوى * أصف الصبابة للمحب المولع
دامي الجفون اذا الحمامة غردت * من فوق خوط البانة المترعرع
أسقي الديار وقد تباعد أهلها * عنها عزالي[٣] الدموع الهمع

٣ قوله عزالي يقرأ بتشديد الياء للضرورة اه

من الكواكب وغير ذلك
ذكر جمل من الاخبار عن انتقال البحار وجمل من أخبار الانهار الكبار
ذكر الاخبار عن البحر الحبشي وما قيل في مقداره وتشعبه وخلجانه
ذكر تنازع الناس في المد والجزر وجوامع ما قيل في ذلك
ذكر البحر الرومي ووصف ما قيل في طوله وعرضه وابتدائه وانتهائه
ذكر بحر نيطس وبحر مانطس وخليج القسطنطينية
ذكر بحر الباب والخزر وجرجان وجملة من الاخبار عن ترتيب جميع البحار
ذكر ملوك الصين والترك وتفرق ولد عابور واخبار الصين وملوكهم وجوامع من سيرهم وسياساتهم وغير ذلك
ذكر جمل من الاخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والامم ومراتب الملوك وغير ذلك
ذكر جبل الفتح وأخبار الامم من اللان والسرير وأنواع من الترك والبلغر واخبار الباب والابواب ومن حولهم من الملوك والامم
ذكر ملوك السريانيين

ونواعب الاطلال ليس يجيبنى * مابينهن سوى الصدى بتوجع
وهواتف فوق الغصون يجيبنى * منهن تغـريد الحمام السجع
ناحت على عذب الفروع والفها * منهاعـراى فوقها وبمسمع
مافارقت الفاكمافارقته * كلاولا أجرت سواكب أدمعى

على أوان عيون سعوده روان وزمان معمور بأمانى وامان وآمال دوان وتهانى مابين بكروعوان وفى عذرمن طال ليله فاضطرب فيه لوعه وسكن جواه بجوانحه وضلوعه

ان طال ليلى بعدهم فلطوله * عـذروذاك لما اقاسى منهم
لم تسرفيه نجومه لكنها * وقفت لتسمع ماأحدّث عنهم

فأرقى الزائد فى حرقى أظهر المكنون وأبان ووجدى بمن ناى وبان لم يجد فيه تعلل برندوبان

تنبهى ياعـذبات الرند * كم ذا الكرى هب نسيم نجد
فلست مثلى فى جوى أوأرق * وحرقة من فرقة أوصدّ
عوفيت مماحل بى من جيرة * فى الغرب لم يرثوا لفرط وجدى
أعلل القلب ببان عنهم * وهل ينوب غصن عن قدّ
بانوا فلامغنى السرور بعدهم * مغنى ولاعهد الرضا بعهد
آها من البعد ومن لم يدره * لم يشجه تأوّهى للبعــد

وفى شغل من ابكته الربوع والطلول وذهبت برهة من زمانه بين الترحل والحلول فركب من الاخطار الصعب والذلول وحافظ على العهود ولم يسلك سبيل الغادر الملول

سقاها الحيا من أربع وطلول * حكت دنفى من بعدهم ونحولى
ضمنت لها أجفان عين قريحة * من الدمع مدرار الشؤن هـمول

ومن الغريب الذى ينكره غير الاريب أن الحادى ان سر القلب بكشف دين فقد تسبب فى اجتماع أمرين متنافيين متنافرين

ترنم حادبالصريم فشاقنى * الى ذكر من باتت ضلوعى تضمه
فسروساء النفس شجوافربما * كلفت به من حيث صرت أذمه

وارتجلت حين مللت من طول المسرى مضمنا ذكرما أروم له تيسرا وقد أكثر الرفاق عند رؤية مالم يألفوه من الآفاق تلهفا وتحسرا

قلت لماطال النوى عن بلادى * ولاهل النوى جوى وعويل
هل أرى للفراق آخر عهد * ان عمر الفراق عمر طويل

ثم قلت مضمنا

لائمى فى ذكر أحباب نأوا * لاتلم من أضعف الشوق قواه
ان يوما جامعا شملى بهم * ذاك عيدى ليس لى عيد سواه

ثم قلت مضمنا أيضا

لك الله من صب اضربه النوى * وليس له غير اللقاء طبيب

وان صباحا نلتقى بمسائه * صباح الى قلبى المشوق حبيب

ثم عدت الى التصبر بعد امعان النظر والتدبر

وانى لادرى أن فى الصبر راحة * ولكن انفاقى على الصبر من عمرى

فلا تطف نار الشوق بالشوق طالبا * سلوّا فان الجمر يسعر بالجمر

ثم سلكت منهج التفويض والتسليم منشدا قول ابن قطران المغربى فى مقام النصح والتعليم ووجهت القصد الى سكان الضمير بذلك التكليم

ان ايام الرضا معدودة * والرضا اجل شئ بالعبيد

لا تظنوا عنكم لى سلوة * ما على شوقى اليكم من مزيد

راجعوا انفسكم تستيقنوا * أنكم فى الوقت اقصى ما أريد

ان يوما يجمع الله بكم * فيه شملى ذاك عندى يوم عيد

وقول بعض من ندم على البعد عن المعاهد واملّ العود والعود أحمد الى المشاهد وغفر للدهر ذنبه ان عاد وتلهف ان لم يعامله بغير الابعاد

لئن عاد جمع الشمل فى ذلك الحمى * غفرت لدهرى كل ذنب تقدّما

وان لم يعد منيت نفسى بعودة * وماذا عسى تجدى الامانى وقلما

يحق لقلبى أن يذوب صبابة * وللعين أن تجرى مدامعها دما

على زمن ماض بهم قد قطعته * لبست به ثوب المسرة معلما

وقول آخر يخاطب أحبابه ويذكر فواصل بحر النوى الطويل وأسبابه

أعيذكم من لوعتى وشجونى * ونار جوى تذكى بماء شؤنى

وبرح أسى لم يبق فى بقية * سوى حركات تارة وسكون

أرى القلب أضحى بعد طارقة الاسى * أسير صبابات رهين شجون

وكيف سبيل القرب منكم ودونكم * رمال زرود والاجارع دونى

سلوا مضجعى هل قرّ من بعد بعدكم * وهل عرفت طعم الرقاد جفونى

سهرنا بنعمان وغمتم ببابل * فيا لعيون ما وفت لعيون

وفى بعض الاحيان أتسلى بقول بعض الاندلسيين الاعيان

لا تكترث بفراق اوطان الصبا * فعسى تنال بغيرهن سعودا

فالدر ينظم عند فقد بحاره * بجميل أجياد الحسان عقودا

وقول غيره

فعسى الليالى أن تمنّ بنظمنا * عقدا كما كنا عليه وأكملا

فلربما نثر الجمان تعمدا * ليعاد أحسن فى النظام وأجملا

وأرغب لمن أطال ذيول الغربة أن يقلصها واطلب ممن اجال النفوس فى سيول الكربة ان يخلصها

فنلتقى وعوادى الدهر غافلة * عما نروم وعقد البين محلول

والدار آنسة والشمل مجتمع * والطير صادحة والروض مطلول

وأضرع اليه سبحانه فى تيسير العود الى أوطانى ومعهدى الذى مطا با العز أوطانى وأن يلحقنى بذلك الافق الذى خيره موفور وحق من فيه معروف لا منكور ولا مكفور

اذا ظفرت من الدنيا بقربهم * فكل ذنب جناه الدهر مغفور

وكأنى بعاتب يقول ماهذا التطويل فأقول له جوابى قول ابن أبى الاصبع الذى عليه التعويل

أكثرت عذلى كأنى كنت أول من * بكى على مسكن أوحنّ للسكن
لا تلح ان من الايمان عند ذوى الايمان مناحنين النفس للوطن

على أننى أقول اللهم يسر لى ما فيه الخيرة لى بالمشارق أو المغارب وجد لى من فضلك حيث حللت بجميع ما فيه رضاك من المآرب بجاه نبينا وشفيعنا المبعوث رحمة للاحمر والاسود والاعاجم والاعارب عليه أفضل صلاة وأزكى سلام وعلى آله وأصحابه الاعلام والتابعين لهم باحسان ما ذر شارق وتعاقب طالع وغارب ثم جدّ بنا السير فى البر أياما ونأينا عن الاوطان التى أطنبنا فى الحديث حبالها وهياما وكنا عن تفاعيل فضلها نياما الى ان ركبنا البحر وحللنا منه بين السحر والنحر وشاهدنا من أهواله وتنافى أحواله ما لا يعبر عنه ولا يبلغ له كنه

البحر صعب المرام جدّا * لا جعلت حاجتى اليه
أليس ماء ونحن طين * فما عسى صبرنا عليه

فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر قد أزعجتها أكف الريح من وكرها كأنما بهت اللجج من سكرها فلم تبق شيأ من قوتها ومكرها فسمعنا للجبال صفيرا وللرياح دويا عظيما وزفيرا وتيقنا أنا لا نجد من ذلك الا فضل الله مجيرا وخفيرا واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه وايسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب فيبتعد ويقترب وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق فتخال الجوّ يأخذ بنواصيها وتجذبها أيديه من قواصيها حتى كاد سطح الارض يكشف من خلالها وعنان السحب يخطف فى استقلالها وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها وآذنت الاحوال بعد انتظامها باختلالها وساءت الظنون وتراءت فى صورها المنون والشراع فى قراع مع جيوش الامواج التى أمدّت منها الافواج بالافواج ونحن قعود كدود على عود ما بين فرادى وأزواج وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا وخرست من الفرق ألسنتنا وتوهمنا أنه ليس فى الوجود أغوار ولا نجود الا السماء والماء وذلك السفين ومن فى قبر جوفه دفين مع ترقب هجوم العدوّ فى الرواح والغدوّ لاجتيازه على عدّة من بلاد الحرب دمّر الله سبحانه من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب لا سيما مالطة الملعونة التى يتحقق من خلص من معرّتها أنه امدّته تأييد الهى ومعونة فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا فزادنا ذلك الحذر الذى لم يبق ولم يذر على ما وصفناه من

هول البحر قلقا وأجرينا اذ ذاك فى ميدان الالقاء باليد الى التهلكة طلقا وتشتتت أفكارنا فرقا وذبنا أسى وندما وفرقا اذ البحر وحده لا كمى يقارعه ولا قوى يصارعه ولا شكل يضارعه لا يؤمن على كل حال ولا يفرق بين عاطل وحال ولا بين أعزل وشاكى ومتباك وباكى

ثلاثة ليس لها أمان * البحر والسلطان والزمان

فكيف وقد انضم اليه خوف العدو الغادر الخائن والكافر الحائن الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن وان نهى عنه وأخطأ المائن فرأينا البر وكأنا قبل لم نره وشفيت به أعيننا من المره وحصل بعد الشدة الفرج وشممنا من السلامة أطيب الارج فيالها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب يقل شكر الها دوم الاحقاب وعتق الرقاب جعلنا الله بآياته معتبرين وعلى طاعته مصطبرين ولم نخل فى البر من معاناة خطوب ومداراة وجوه للمتاعب ذات تجهم وقطوب فكم جبنا منه مهامه فيحا ومسحنا بالخطا منها أثيرا وصفيحا وفلينا الفجاج وقرأنا من الطرق خطوطا ذات استقامة واعوجاج وقلوب الرفقة من الفرقة فى اضطراب وارتجاج وربما عميت على المجتهد الادلة التى يحصل بها على المذهب الاحتجاج فترى الانفاس تعثر فى زفرة الاشواق والاجسام قد زرت عليها من التعب الاطواق هذا والليل بصفحة البدر مرتاب وقد شدت رحال وأقتاب وزمت ركاب ورفعت احداج وفريت من الدعة بمدية النصب أوداج وتساوى فى السير نهار مشرق وليل بقمر أوداج وأديم التأويب والاساد وحمل الغربة قد أثقل وآد ثم وصلنا بعد خوض بحار يدهش فيها الفكر ويحار وجوب فياف مجاهل يضل فيها القطا عن المناهل الى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الاوجاع وشاهدنا كثيرا من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والاسجاع وتمثلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها بقول ابن ناهض فيها

شاطئ مصر جنة * ما مثلها فى بلد
لا سيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها * داودها بمبرد
سائلة وهو بها * يرعد عارى الجسد
والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد

وبقول آخر

انظر الى النيل الذى * ظهرت به آيات ربى
فكأنه فى فيضه * دمعى وفى الخفقان قلبى

وبقول أبى المكارم الخطير المعروف بابن مماتى فى جزيرتها

جزيرة مصر لا عدتك مسرة * ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن قامة * يميت ويحيى هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجا * ومختلفات الموج فيك جبالها

ومن أعجب الاشياء أنك جنة * تمد على أهل الضلال ظلالها

لعله أراد بأهل الضلال اليهود والنصارى المستولين اذذاك على الدولة وتذكرت فى مصر قول القاضى الفاضل

بالله قل للنيل عنى اننى * لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فانه لى شاهد * ان كان طرفى بالبكاء بخيلا
ياقلب كم خلفت ثم بثينة * وأظن صبرك أن يكون جميلا

وقول احمد بن فضل الله العمرى

لمصر فضل باهر * بعيشها الرغد النضر
فى سفح روض يلتقى * ماء الحياة والخضر

وقول آخر

كأن النيل ذو فهم ولب * لما يبدو لعين الناس منه
فيأتى حين حاجتهم اليه * ويمضى حين يستغنون عنه

وقول آخر

ولله مجرى النيل منه اذا الصبا * ارتنا به من مرّها عسكرا مجرا
بشط يهز السمهرية ذبلا * وموج يهز البيض هندية بترا
اذا مدحاكى الورد لونا وان صفا * حكى ماءه لونا ولم يحكه مرا

وقول آخر

واها لهذا النيل اى عجيبة * بكر بمثل حديثها لا يسمع
يلقى الثرى فى الماء وهو مسلم * حتى اذا ما مال عاد يودع
مستقبل مثل الهلال فدهره * ابدا يزيد كما يزيد ويرجع

وقول ابن النقيب

الصب من بعدهم مفرد * ودمعه النيل وتعليقه
وخده لما بكاهم دما * مقياسه والدمع تخليقه

وقول الصفدى

سقيا لمصر وما حوت * من أنسها وأناسها
ومحاسن فى مقسها * تبدو وفى مقياسها
ومسرة كاساتها * تجلى على اكياسها
وسطور قرط خطها الـبارى على قرطاسها
ودمى كنائسها ولا * تنسى ظباء كناسها
ولطافة بجلالة * تبدو على جلاسها
ونواسم كل المنى * للنفس فى انفاسها
ومراكب لعبت بها الامواج فى وسواسها

وقول ابن جابر الاندلسى

مازلت استمد من محاسن ارضها * خبرا صحيحا ليس بالمقطوع
كم مرسل من نيلها ومسلسل * ومدبج من هضبها المرفوع

وقول ابراهيم بن عبدون

والنيل بين الجانبين كأنما * صدئت بصفحته صفيحة صيقل
يأتيك من كدر الزواخر مدّه * بمسك من مائه ومصندل
فكأن ضوء البدر فى تمويجه * برق تموّج فى سحاب مسبل
وكأن نور السرج من جنباته * زهر الكواكب تحت ليل أليل
مثل الرياض مفتقا أنواره * تبدو لعين مشبه وممثل

وقول ابن الصاحب

فرح الانام بنيلهم * اذ صار احمر كالشقيق
وتبركوا بشروقه * فكأنه وادى العقيق

وقول آخر

احمرّ للنيل خدّ * حتى غدا كالشقيق
وقد ترنمت فيه * اذ صار وادى العقيق

ثم شمرت عن ساعد العزم بعد الاقامة بمصر مدة قليلة الى المهم الاعظم والمقصد الاكبر الذى هو سر المطالب الجليلة وهو رؤية الحرمين الشريفين والعلمين المنيفين زادهما الله تنويها وبلغ النفوس ببركة من شرفا به مآرب لم تزل تنويها فسافرت فى البحر الى الحجاز راجيا من الله سبحانه فى الاجر الانتجاز الى ان بلغت جدة بعد مكابدة خطوب اتخذت لها من الصبر عدة فحين حصل القرب واكتحلت العين باثمد تلك الترب ترنمت بقول من قال محرّضا على الوخد والارقال

بدا لك الحق فاقطع ظهر بيداء * واهجر مقالة احباب واعداء
واقصد على عزمة ارض الحجاز تجد * بعدا عن السخط فى نزل الاوداء
وقل اذا نلت من ام القرى أربا * وهو الوصول باسرار وابداء
يا مكة الله قد مكنت لى حرما * مؤمّنا لست اشكو فيه من داء
فذا رأى النازح المسكين مسكنه * فى قطرك الرحب لم ينكب بارداء
شوق الفؤاد الى مغناك متصل * شوق الرياض الى طل وأنداء

ثم انشدت عند ما بدت اعلام البيت الحرام قول بعض من غلب عليه الشوق والغرام وقد بلغ من امانيه الموجبة بشائره وتهانيه المرام

وافى الحجيج الى البيت العتيق وقد * سجا الدجى فرأوا نورا به بزغا
عجوا عجيبا وقالوا الله أكبر ما * للجوّ مؤتلقا بالنور قد صبغا
قال الدليل ألا هاتوا بشارتكم * فمن نوى كعبة الرحمن قد بلغا
نادوا على العيس بالاشواق وانتحبوا * وحنّ كل فؤاد نحوها وصغا
وكل من ذمّ فعلا نال محمدة * فى مكة ومحا ما قد جنى وبغى

ولما

ولما وقع بصري على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود واستشعرت قول العارف بالله الشبلي لما وفد الى حضرة الجود

قلت للقلب اذ تراءى لعيني * رسم دارهم فهاج اشتياقي
هذه دارهم وأنت محب * ما احتباس الدموع في الآماق
والمغاني للصب فيها معاني * فهي تدعى مصارع العشاق
حل عقد الدموع واحلل رباها * واهجر الصبر وارع حق الفراق

ثم أكملت العمرة ودعوت الله أن أكون ممن عمر بطاعة ربه عمره وذلك أوائل القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنية وأقمت هنالك منتظرا وقت الحج الشريف ومتفيئا ذلك الظل الوريف ومقتطفا ثمار القرب الجنية الى أن جاء الاوان فأحرمت بالحج من غير توان وحين حللت مما به أحرمت نويت الاقامة هنالك وأبرمت فحال من دون ذلك حائل وكنت حريا بأن أنشد قول القائل

هذي أباطح مكة حولي وما * جمعت مشاعرها من الحرمات
أدعو بها لبيك تلبية امرئ * يرجو الخلاص بها من الازمات
نلت المنى بمنى لاني لم أخف * بالخيف من ذنب أحال سماتي
وعرفت في عرفات أني ناشق * للعفو عرفا عاطر النسمات

وأن أتمثل في المطاف اذ حفتني الالطاف بقول من ربعه بالتقوى مشيد البغدادي الشهير بابن رشيد

على ربعهم لله بيت مبارك * اليه قلوب الناس تهوى وتهواه
يطوف به الجاني فيغفر ذنبه * ويسقط عنه جرمه وخطاياه
وكم لذة او فرحة لطوافه * فلله ما أحلى الطواف واهناه

ثم قصدنا بعد قضاء تلك الاوطار طيبة الشريفة التي لها الفضل على الاقطار واستشعرت قول من أنشد وطير عزمه عن اوكاره قد طار

حمدت مرادي اذ بلغت مرادي * بأم القرى مستمسكا بعمادي
ومذ رويت من ماء زمزم غلتي * فلست بمحتاج لماء ثماد

فلله سبحانه الحمد على نعمه التي جلت ومننه التي نزلت بها النفوس مواطن التشريف وحلت

من يهده الرحمن خير هداية * يحلل بمكة كي يتاح المقصدا
واذا قضى من حجة الفرض انثنى * يشفي برؤية طيبة داءا اصدى

وكان حظي في هذه الحال تذكر قول بعض الوشاحين من الاندلسيين الذين كان لهم ارتحال الى تلك المعاهد الطاهرة والمشاهد الزاهرة التي تشد اليها الرحال

يامن لعبد له افتقار الى أياديه جسام فضلك مدن لخير مدن حل بها سيد الانام
لم يهف قلبي لحب ليلى * ولا لسعاد ولا الرباب
لاقى شجونا ونال ويلا * من هام في ذلك الجناب

بل مال مني الفؤاد ميلا * لمن له الحب لا يعاب
قلبي والله مستطار مذ حل في بيته الحرام ذي الحجر والركن خير ركن وزمزم الخير والمقام
ذابت قلوب المطى عشقا * وركبها واستوى المراد
الى حبيب القلوب حقا * الحي والميت والجماد
الى الذي ليس فيه يشقى * من حبه داخل الفؤاد
شكوا وقد طالت السفار هم ومطاياهم السقام فهي قسي من التثني والقوم من فوقها سهام
ولست من سكرتي مفيقا * حتى ارى حجرة الرسول
فان يسهل لي الطريقا * فذاك أقصى مني وسول
متى ترى عيني العقيقا * ويفرح القلب بالوصول
كم قلت والصبر مستعار للركب اذ غادر والمنام ونسمة الشوق حرّكتني وزادني الوجد والغرام
قوموا فقد طال ذا الجلوس * وبادروا زورة الحبيب
تاقت الى طيبة النفوس * لا عيش من دونها يطيب
لا حبذا دونها الغروس * والماء والشادن الربيب
وحبذا الرمل والقفار والعرب في تلكم الخيام وامّ غيلان ظللتني والايك والاثل والثمام
يا طيبة حزت كل طيب * بسيد فيك ذي حلول
نداء مستضعف غريب * في غر أمداحه يقول
وهو من السامع المجيب * لمدحه يسأل القبول
أنت الغني لي فلا افتقار * وانت عزي فلا أضام
مستمسك منك حسن ظني * بعروة ما لها انفصام
بسيد العالمين أجمع * بأحمد المجتبى الرسول
ومن هو الشافع المشفع * في موقف الحشر المهول
اذ لا كلام هناك يسمع * للغير والناس في ذهول
اذا السماء لها انفطار والشهب منثورة النظام كذا الجبال انثنت كعهن سريعة المر كالغمام
يا أوّل الرسل في الفضيله * وان تأخرت في الزمن
شفاعة نلت مع وسيله * فمن يضاهي علاك من
علت بك الرتبة الجليله * وطبت في السر والعلن
فأنت من خيرهم خيار فمن يضاهيك في المقام والرسل نالت بك التمنى وأنت بدر لهم تمام
الوجد قد قر في فؤادي * فالصبر به قرار
ولاعجي صاعد اتقاد * ودمع عيني له انهمار
وها أنا جئت من بلادي * لطيبة أبتغي الجوار
فحبذا تلكم الديار والمصطفى مسكة الختام عليه أزكى الصلاة مني وصحبه الغر والسلام

من الهجرة الى هذا الوقت وهو جمادى الاولى سنة ست وثلاثين وثلثمائة وقد انتهينا فيه الى الفراغ من هذا الكتاب

ذكر من حج بالناس من أوّل الاسلام الى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وهو آخر الكتاب

ذكر جمل ألقابهم وما ورد عن ذوي الدراية في اعدادهم

قال المسعودي فهذه جوامع ماحوى هذا الكتاب من الابواب على انه يأتي في كل باب مما ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الاخبار والآثار مالم تأت عليه تراجم الابواب وهو مرتب على حسب ماقدمناه من ابوابه على تفصيل منا لتاريخ الخلفاء ومقادير أعمارهم بابواب نفردها عن سيرهم وأخبارهم ثم نعقب بعد ذلك بالغرر من أخبارهم والعيون من سيرهم والجوامع مما كان في أعصارهم وأخبار وزرائهم وماجرى من أنواع العلوم في مجالسهم ملوّحين بذلك الى ماسلف من تصنيفنا وتقدّم من تأليفنا في هذه المعاني والفنون وعدد ما اجتمع من جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الابواب مائة واثنان وثلاثون بابا أولها ذكر جميع اغراض هذا الباب

وقول أبي جعفر ابن عيسى الغرناطي رحمه الله تعالى وهو من التشريع أحد أنواع البديع

يا راحلا يبغي زيارة طيبة * نلت المنى بزيارة الاخيار
حي العقيق اذا وصلت وعف بنا * وادى منى يا طيب الاخبار
واذا وقفت لدى المعرف داعيا * زال العنا وظفرت بالاوطار

ولما من الله تعالى علينا بالحلول المشاهد التي قام الدين بها وظهر والمعاهد التي بان الحق فيها واشتهر والمواطن التي هزم الله تعالى حزب الشيطان فيها وقهر ونصرت النبوّة وعضدت وقطعت غصون الكفر وحصدت ورصت قواعد التوحيد ونضدت وقرت العيون وقضيت الديون أنشد لسان الحال قول بعض من جيده بمحاسن طيبة حال

يا من به طيبة طابت حلى وعلى * ومن بتشريفه قد شرف العرب
يا أحمد المصطفى قد جئت من بلد * قاص ولي خلد قاس ولي أرب
وقد دهتني ذنوب قلت اذ عظمت * لله منها وطه المرتجى الهرب

ونسينا بمشاهدة ذلك الجناب ما كنا فيه وسبق الدمع الذي لا يعارض الفرح ولا ينافيه

أيها المغرم المشوق هنيئا * ما أنالوك من لذيذ التلاقي
قل لعينيك تهملان سرورا * طالما أسعداك يوم الفراق
واجمع الوجد والسرور ابتهاجا * وجميع الاشجان والاشواق
وأمر العين أن تفيض انهمالا * وتوالى بدمعها المهراق
هذه دارهم وأنت محب * ما بقاء الدموع في الآماق

وملنا عن الاكوار وتمتعنا من عرف تلك الانجاد والاغوار وتملينا شمس هاتيك الانوار وتخلينا عن الاغيار وتحلينا بحلى الاخيار وكيف لا وطيبة مركز للزوّار

اذا لم تطب في طيبة عند طيب * به طيبة طابت فاين تطيب
وان لم يجب في أرضها ربنا الدعا * ففي أي أرض للدعاء يجيب
أيا ساكني أكناف طيبة كلكم * الى القلب من اجل الحبيب حبيب

وما أحسن قول عالم الاندلس المالكي اللبيب عبد الملك السلمي المشهور بابن حبيب

لله در عصابة صاحبتها * نحو المدينة تقطع الفلوات
ومهامه قد جبتها ومفاوز * ما زلت أذكرها بطول حياتي
حتى اتينا القبر قبر محمد * خص الاله محمدا بصلات
خير البرية والنبي المصطفى * هادى الورى لطرائق النجاة
لما وقفت بقربه لسلامه * جادت دموعي واكف العبرات
ورايت حجرته وموضعه الذي * قد كان يدعو فيه في الخلوات
مع روضة قد قال فيها انها * مشتقة من روضة الجنات
وبمنزل الانصار وسط قبابهم * بيت الهداية كاشف الغمرات
وبطيبة طابوا ونالوا رحمة * مغنى الكتاب ومحكم الآيات
وبقبر حمزة والصحابة حوله * فاضت دموع العين منهمرات

سقيا لملك مما بعدا شاهدتها * وشهدتها بالخطو واللحظات
لازلت زوّارا لقبر نبينا * ومدينة زهراء بالبركات
صلى الاله على النبى المصطفى * هادى البرية كاشف الكربات
وعلى ضجيعيه السلام مرددا * مالاح نور الحق فى الظلمات

وقول كمال الدين ناظر قوص

أنخ هذه والحمد لله يثرب * فبشراك قد نلت الذى كنت تطلب
فعفر بهذا الترب وجهك انه * أحق به من كل طيب وأطيب
وقبل ربوعا حولها قد تشرفت * بمن جاورت والشئ بالشئ يحبب
وسكن فؤادا لم يزل باشتياقه * اليها على جمر الغضى يتقلب
وكفكف دموعا طالما قد سفحتها * وبرّد جوى نيرانه تتلهب

وقول الرعينى الغرناطى

هذه روضة الرسول فدعنى * أبذل الدمع فى الصعيد السعيد
لا تلمنى على انسكاب دموعى * انما صنتها لهذا الصعيد

ولما سلمت على سيد الانام عليه من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ذبت حياء وخجلا لما أنا عليه من ارتكاب ما يقتضى وجلا غير أنى توسلت بجاهه صلى الله عليه وسلم فى أن أكون ممن وضح له وجه الصفح وجلا

اليك أفرّ من زللى * فرار الخائف الوجل
وكان مزار قبرك بالمدينة منتهى أملى
فوفى الله ما طمعت * له نفسى بلا خلل
فخذ بيدى غريق فى * بحار القول والعمل
وهب لى منك عارفة * تعرّف ما تنكر لى
وتهدينى الى رشدى * وتمنعنى من الزلل
وتحملنى على سنن * يؤمّننى من الوجل
فأنت دليل من عميت * عليه مسالك السبل
وانك شافع برّ * ومؤئلنا من الوهل
وانك خير مبتعث * وانك خاتم الرسل
فيا أزكى الورى شرفا * وشافيهم من العلل
ويا أندى الانام يدا * وأكرم ناصر وولى
نداء مقصر وجل * بثوب الفقر مشتمل
على جدواك معتمدى * فأنقذنى من الدخل
وألحقنى بجنات * لدى درجاتها الاول
بصدّيق وفاروق * وعثمان الرضى وعلى
فأنت ملاذ معتصم * وأنت عماد متكل

والثانى ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب ٢٦ من الابواب وآخرها ذكر من حج بالناس من أول الاسلام الى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وذكر جمل القابهم

بسم الله الرحمن الرحيم
وما توفيقى الا بالله

(ذكر المبدا وشأن الخليقة وذرء البرية)

اتفق أهل العلم جميعا من أهل الاسلام ان الله عز وجل خلق الاشياء على غير مثال وابتدعها من غير أصل ثم روى عن ابن عباس وغيره أن أوّل ما خلق الله عز وجل الماء وكان عرشه عليه فلما أراد ان يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع الدخان فوق الماء فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين الاحد والاثنين وخلق الارض على حوت والحوت هو الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن فى قوله تعالى ن والقلم وما يسطرون والحوت فى الماء والماء على الصفا والصفا على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة على الريح وهى الصخرة التى ذكرها الله تعالى فى القرآن حكاية عن قول لقمان لابنه يابنى انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات او فى الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير فاضطرب الحوت فتزلزلت الارض فأرسى الله عليها

عليك صلاة ربك جل بي الغدوات والاصل

ومذ شممنا من أرج تلك الارجاء الذاكية واستضأنا بسرج تلك الاضواء الزاكية ظهر من الشوق ما كان بطن ولم يخطر ببالنا سكن ولا وطن ويا سعادة من اقام بتلك البقاع الشريفة وقطن

مرا النسيم بربعهم فتلذذا * حتى كأن النشر صار اغذا
فصحا وصح وصاح لا اشكو أذى * قل للصبا ماذا حملت من الشذا
أمسست طيبا أم علاك عبير

يا أيها الحادى الذى من وسمه * قصد الحبيب وأن يلم برسمه
هذى منازله فزمزم باسمه * بأبى الذى لم تذو زهرة جسمه
لكنه غض الجمال نضير

لله شوق قد تجاوز حده * أوفى على الصبر المشيد فهده
يا ناشق الكافور لا تعده * طوبى لمشتاق يعفر خده
فى روضة الهادى اليه بشير

فهناك يبذل فى التوسل وسعه * ويصيخ نحو خطيب طيبة سمعه
ويريق فوق حصى المصلى دمعه * ويرى معالم من يحب وربعه
ومحمد للعالمين بشير

صلى عليه الله خير صلاته * وحبا معاليه جليل صلاته
ماحن ذو الاشواق فى حالاته * وأتى مغانيه على علاته
فأتيح حسن الختم وهو قرير

ووقفنا بباب طلب الآمال خاشعين وتوسلنا الى الله بذلك المقام العلى خاضعين وغبطنا قوما سكنوا هنالك فكانوا الخدودهم متى شاؤا على تلك الاعتاب واضعين

أكرم بعبد نحو طيبة مقتدى * متوسل مستشفع مسترشد
يفلى الفلاة لها بعزم أيد * وافى الى قبر النبى محمد
ولربعه الاسمى يروح ويغتدى

أزجاه صادق حبه المتمكن * وحداه سائق عزمه المتعين
فحكى لدى شجو حمام الاغصن * هزجا رددفيه صوت ملحن
ويمد للاطراب صوت المنشد

ويقول جئت بعزمة نزاعة * ونهضت والدنيا تمر كساعة
لمحل أحمد قائلا باذاعة * هذا النبى المرتجى لشفاعة
يوم القيامة بين ذاك المشهد

هذا الرؤف بجاره ونزيله * هذا سراج الله فى تنزيله
هذا الذى لاريب فى تفضيله * هذا حبيب الله وابن خليله
هذا ابن بانى البيت أول مسجد

الجبال فقرت الارض وذلك قوله تعالى وجعل فيها رواسى ان تميد بكم وخلق الجبال فيها وخلق أقوات أهلها وسخرها وما ينبغى لها فى يومين فى يوم الثلاثاء والاربعاء وذلك قوله تعالى قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبعا فى يومين فى يوم الخميس والجمعة وانما سمى الجمعة لان الله جمع فيه خلق السموات والارض ثم قال وأوحى فى كل سماء أمرها يقول خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد وان سماء الدنيا من زمردة خضراء والسماء الثانية من فضة بيضاء والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء والسماء الرابعة من درة بيضاء والسماء الخامسة من ذهب أحمر والسماء السادسة من ياقوتة صفراء والسماء السابعة من نور قد طبقها الله بملائكة قيام على رجل واحدة تعظيما لله لقربهم منه قد خرقت أرجلهم الارض السابعة واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة

هذا الذى اصطعت النبوّة خيمه * هذا الذى اعتام الهدى تقديمه
هذا الذى نسقى غدا تسنيمه * هذا الذى جبريل كان خديمه
فى حضرة التشريف أزكى مصعد

هذا الذى شهد الوجود بخصه * بمزية التفضيل من مختصه
وأبانه من وحيه فى نصه * هذا الذى ارتفع البراق بشخصه
فى ليلة الاسراء أشرف مشهد

هذا الذى غدت الطلول حديقة * بجواره وبدت تروق أنيقة
هذا المكمل خلقة وخليقة * هذا الذى سمع النداء حقيقة
ودنا ولم يك قبل ذاك بمبعد

فهناك كم رسل به تتوسل * وعلى حماه لدى المعاد يعوّل
يا ارحم الرحماء أنت الموئل * يا خاتم الارسال أنت الاوّل
فترق فى اعلى المكارم واصعدى

الله رفع فى سراه مناره * وأبان فى السبع العلا أنواره
فقفت ملائكة السما آثاره * وأراه جنته هناك وناره
فئ بدو مخلد لمخلد

كم ذاد من وجل وجلى ظلمة * وامتن بالرحمى ومتن حرمة
لما دجا افق الضلالة دهمة * بعث الاله به ليرحم امة
لولاه كانت بالضلالة ترتدى

حاز الشفوف فكل خلق دونه * فالغيث يسأل اذ يسيل يمينه
والشمس تستهدى الشروق جبينه * والله فضله واظهر دينه
ووفى لنا فيه بصدق الموعد

نطقى بنادى ذكره و يراوح * وبه ينافح مسكه وينافح
تعيي اللسان محامد وممادح * طوبى لمن قد عاش وهو يكافح
عنه يناضل باللسان وباليد

هو صفوة العرب الالى أحسابهم * اسيافهم قرنت بها اسبابهم
فهم لباب المجد وهو لبابهم * من آل بيت لم تزل انسابهم
تنبى لهم عن طيب عنصر مولد

شرف النبوّة قد رسا فى اهلها * وسما على الزهر العلا بمحلها
ساق السوابق للفخار برسلها * نطق الكتاب كما علمت بفضلها
وقضى به نص الحديث المسند

فوق السماك توطنت وتوطدت * وتفردت بالمصطفى وتوحدت
فهى الخلاصة صفيت فتجردت * من معدن فيه الرسالة قد بدت
من عصر آدمنا لعصر محمد

عام تحت الارض السابعة ورؤسهم تحت العرش من غيران تبلغ العرش وهم يقولون لا اله الا الله ذو العرش المجيد فهم على ذلك منذ خلقوا الى أن تقوم الساعة وتحت العرش بحر تنزل منه أرزاق الحيوان يوحى الله تعالى اليه فيمطر ما شاء الله من سماء الى سماء حتى ينتهى الى موضع يقال له الابرم فيوحى الله الى الريح فتحمله الى السحاب فتغربله وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح فيه من الدواب مثل ما فى بحور الارض مستمسك بالقدرة وان الله تعالى أسكن ظهر الارض لما فرغ من خلقها الجن قبل آدم فخلقهم من مارج من نار وابليس فيهم فنهاهم الله ان يسفكوا دم البهائم و يظهروا المعصية بينهم فسفكوا وعدا بعضهم على بعض فلما رآهم ابليس لا يقلعون عن ذلك سال الله تعالى ان يرفعه الى السماء فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة وأرسل الله الى الجن وهم حزب ابليس قبيلا من الملائكة فطردوهم الى جزائر البحار وقتلوا من شاء الله منهم وجعل الله ابليس على سماء الدنيا خازنا فوقع فى صدره كبر ثم شاء الله عز وجل ان يخلق آدم فقال الله للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة فقالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة قال تكون له ذرية و يفسدون فى الارض و يتحاسدون و يقتل بعضهم بعضا فقالوا

طالوا فلم يعلوا المجد مصعدا * صالوا ففى أيمانهم حتف العدا
سئلوا فهم لعفاتهم غيث الجدا * أهل السقاية والرفادة والندى
والكعبة البيت الحرام المقصد

المطعمون وقد طوى ألم الطوى * الناهضون اذا الصريخ بهم نوى
العاطفون اذا الطريق بهم نوى * أهل السدانة والحجابة واللوى
اهل المقام وزمزم والمسجد

المصلحون اذا الجموع تخاذعت * المنجحون اذا المساعى دافعت
الدافعون اذا الاعادى قارعت * المؤثرون اذا السنون تتابعت
وغدا الحجيج بنيل كل تفقد

لا يقرب الخطب الملم منيعهم * لا يطرق الكرب المخيف قريعهم
والله شرف بالنبى جميعهم * من نال رتبتهم وحاز صنيعهم
نال الشفوف وحاز معنى السودد

حلوا من الطود الاشم بمنعة * فى خير معتصم وأسمى رفعة
فهم بمنة أمنه فى هجعة * الله خصصهم بأشرف بقعة
محجوجة محفوفة بالاسعد

لما اتيت لرامة اصل السرى * من بعد قصدى مكة ام القرى
انشدت جهرا فيه انثر جوهرا * واليكها يا خير من وطئ الثرى
عذراء تزرى بالعذارى الخرّد

كل الحسان لحسنها قد ادهشا * ما مثلها فى تربها شادنشا
سفرت بعزم ما اجدّ واطيشا * نشأت بطى القلب وارتوت الحشا
زهراء من يرها يهل ويسجد

امتك تشأى فى مداها الالسنا * وترى اجادتها المجيد المحسنا
تعدو ولا تثنى العنان عن الثنا * واتتك تمرح كالقضيب اذا انثنى
مترنحا بين الغصون الميد

قد اعملت فى المدح ثاقب ذهنها * ترجو الحلول لدى قرارة امنها
وعسى اذا غذيت بتربة عدنها * بحلولك الاحسان بارع حسنها
والحسن يحلوها وان لم تنشد

مدحى لخير العالمين عقيدتى * ومطيتى بل طيبتى ونشيدتى
ونتيجتى وهدى اليقين مفيدتى * ولئن مدحت محمدا بقصيدتى
فلقد مدحت قصيدتى بمحمد

ياخير خلق الله دعوة حائر * يشكو اليك صروف دهر جائر
والله يعلم فى هواك سرائرى * وهو الذى أرجو لعفو جرائرى
متوسلا بجنابك المتأطد

جبريل الى الارض ليأتيه بطين منها فقالت له الارض انى أعوذ بالله منك ان تنقصنى فرجع ولم ياخذ منها شيأ وقال يارب انها عاذت بك ثم بعث الله ميكائيل فقالت له مثل ذلك فرجع ولم ياخذ منها شيا فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه فقال وأنا أعوذ بالله ان أرجع ولم أنفذ الامر فاخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فى الالوان وسمى آدم لانه أخذ من أديم الارض وقيل غير ذلك ووكل الله ملك الموت بالموت وجبله الله تعالى وتركه حتى صار طينا لازبا يلزق بعضه ببعض أربعين سنة ثم تركه حتى أنتن وتغير أربعين سنة وذلك قوله تعالى من حما مسنون أى متغير منتن ثم صوّره وتركه بلا روح من صلصال كالفخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة وقيل أربعون سنة وهو قوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا فكانت الملائكة تمر به فيفزعون منه وكان أشدهم فزعا ابليس كان يمر به فيضربه برجله فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صلصلة وذلك قوله تعالى من صلصال كالفخار وقد قيل ان الصلصال غير

لولا حقوق عينت بغارب * ما كنت عندك كى تتاح مآربى
ويكون فى الزرقاء عذب مشاربى * حتى احلى من ثراك ترائبى
وانال دفنا فى بقيع الغرقد

وعليك من رب حباك صلاته * وسلامه وهباته وصلاته
ما أم بابك من هدته فلاته * لعلاك حتى زحزحت علاته
فأتيح حسن الختم دون تردد

ثم ودعته صلى الله عليه وسلم والقلب من فراقه سقيم ووقعت من البعد عن تلك المعاهد فى المقعد المقيم وأنا أرجو أن يكون شكل منطقى غير عقيم وان أحشر فى زمرة من سلك الصراط المستقيم

يا شفيع العصاة أنت رجائى * كيف يخشى الرجاء عندك خيبه
واذا كنت حاضرا بفؤادى * غيبة الجسم عنك ليست بغيبه
ليس بالعيش فى البلاد انتفاع * أطيب العيش ما يكون بطيبه

ثم عدت الى مصر وقد زال عنى ببركته صلى الله عليه وسلم الاصر وذلك فى محرم سنة ١٠٢٩ ثم قصدت زيارة بيت المقدس فى شهر ربيع من هذا العام وقد شملتنى بفضل الله جوائز الانعام وتذكرت عند مشاهدة تلك المسالك الصعبة قول حافظ الحفاظ ابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى وهو مما زادنى هذه الزيارة رغبة

الى البيت المقدس جئت أرجو * جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا فى مسافته عقابا * وما بعد العقاب سوى النعيم

فلما دخلت المسجد الاقصى وابصرت بدائعه التى لا تستقصى بهرنى جماله الذى تحلى الله به عليه وسألت عن محل المعراج الشريف فأرشدت اليه وشاهدت محلا أمّ فيه صلى الله عليه وسلم الرسل الكرام الهداة وكان حقى أن أنشده نالك ما قاله بعض الموفقين وهو مما ينبغى أن تزمزم به الحداة

ان كنت تسأل أين قد * رمحمد بين الانام
فأصخ الى آياته * تظفر بريك فى الاوام
اكرم بعبد سلمت * تقديمه لرسل الكرام
فى حضرة للقدس وا * فاها بعز واحترام
صفوا وصلوا خلفه * ان الجماعة بالامام
للشهب نور بين * والفضل للقمر التمام
سلك النبوة باهر * وباحمد ختم النظام
هذا الكتاب دلالة * تبقى الى يوم القيام
شهدت له من بعد عجـ * ـز ألسن اللدّ الخصام
خير الورى واجل آ * يات له خير الكلام
فعليه من رب الورى * أزكى صلاة مع سلام

ماذ كرنا وكان ابليس يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول لامر ما خلقت فلما أراد الله تعالى ان ينفخ فيه الروح قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وقال يا رب أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين والنار أشرف من الطين وأنا الذى كنت مستخلفا فى الارض وأنا الملبس بالريش والموشح بالنور والمتوّج بالكرامة وأنا الذى عبدتك فى سمائك وأرضك فقال الله تعالى اخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين فسأل الله المهلة الى يوم يبعثون فانظره الله الى الوقت المعلوم وذهب على ابليس المعنى الذى من أجله أمر لآدم بالسجود فمن الناس من رأى أن آدم كان محرابا للمامورين بالسجود والمقصود بذلك الخالق عز وجل وموافقة الامر والطاعة له على سبيل البلوى والاختبار والمحنة الواقعة بالمكلفين ومنهم من رأى غير ذلك ثم نفخ الله تعالى فى آدم من روحه فكان كلما دخل فى بعضه الروح يذهب ليجلس فقال الله تعالى وكان الانسان عجولا ولما تتابع فيه الروح عطس فقال الله له قل الحمد لله يرحمك الله يا آدم (قال المسعودى) وما ذكرناه من الاخبار فى مبدإ الخليقة هو ما جاءت به الشريعة ونقله الخلف عن السلف والباقى عن الماضى فعبرنا عنهم على

وربما

وربما يقول من يقف على سرد هذه الامداح النبوية الى متى وهذا الميدان تكل فيه فرسان البديهة والروية فأنشده فى الجواب قول بعض من أم نهج الصواب

لأديمن مديح المصطفى ✽ فعل من فى الله قوى طمعه
فعسى أنعم فى الدنيا به ✽ وعسى يحشرنى الله معه

واذا كان القريض فى بعض الاحيان كذبا صراحا والموفق من تركه والحالة هذه رغبة عنه واطراحا فخيره ما كان حقا وهو مدح الله ورسوله وبذلك يحصل للعبد منتهى سوله

ليس كل القريض يقبله السمـ ✽ ـع وتصغى لذكره الافهام
ان بعض القريض ما كان هزأ ✽ ليس شيأ وبعضه أحكام
واجل الكلام ما كان فى مد ✽ ح شفيع الورى عليه السلام
طيب العرف دائم الذكر لاتأ ✽ تى الليالى عليه والايام
مثل زهر قد شق عنه كمام ✽ أو كمسك قد فض عنه ختام
ليس تحصى صفات أحمد بالعد ✽ كما لم تحط به الاوهام
ولو ان البحار حبر وما فى ✽ الارض من كل نابت أقلام
فطويل المديح فيه قصير ✽ وحسام ماض لديه كهام
ولسانا لبليغ لعى يعيى ✽ وكذا صيب الفصيح جهام
كيف يحصى مديح مولى عليه ✽ الله أثنى وذكره مستدام
وله المعجزات والآى تبدو ✽ لا يغطى وجوههن لثام
فمن المعجزات أن سار ليلا ✽ وجميع الانام فيه نيام
راكبا للبراق حتى أتى القد ✽ س وفيه رسل الاله الكرام
فاستووا خلفه صفوفا وقالوا ✽ صل يا أحمد فأنت الامام
فعليه من ربه صلوات ✽ زاكيات مع صحبه وسلام

ثم رجعت الى القاهرة وكررت منها الذهاب الى البقاع الطاهرة فدخلت لهذا التاريخ الذى هو عام تسعة وثلاثين وألف مكة خمس مرات وحصلت لى بالمجاورة فيها المسرات وأمليت فيها على قصد التبرك دروسا عديدة والله يجعل أيام العمر بالعود اليها مديدة ووفدت على طيبة المعظمة ممما امنا هجها السديدة سبع مرار واطفأت بالعود اليها ما بالاكباد الحرار واستضأت بتلك الانوار وألفت بحضرته صلى الله عليه وسلم بعض مامنّ الله به على فى ذلك الجوار وأمليت الحديث النبوى بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع ونلت بذلك وغيره ولله المنة مالم يكن لى فيه مطمع ولا مطمع ثم أبت الى مصر مفوضا لله جميع الامور ملازما خدمة العلم الشريف بالازهر المعمور وكان عودى من الحجة الخامسة بصفر سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة فتحركت همتى أوائل رجب هذه السنة للعود لبيت المقدس وتجديد العهد بالمحل الذى هو على التقوى مؤسس فوصلت أواسط رجب وأقمت فيه نحو خمسة وعشرين يوما بدا لى فيها بفضل الله وجه الرشد وما احتجب وألقيت عدة دروس بالاقصى

حسب مانقل الينا من أعاظمهم ووجدناه فى كتبهم مع شهادة الدلائل بحدوث العالم واتضاحها بكونه ولم نتعرض لوصف من وافق ذلك وانقاد اليه من أهل الملل القائلين بالحدوث ولا ازد على من سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة من كتابنا هذا اجملا من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل على طريق الخبر وروى عن أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليه السلام انه قال ان الله حين شاء تقدير الخليقة وذرء البرية وابداع المبدعات نصب الخلق فى صور كالهباء قبل دحو الارض ورفع السماء وهو فى انفراد ملكوته وتوحد جبروته فأتاح نورا من نوره فلمع ونزع قبسا من ضيائه فسطع ثم اجتمع النور فى وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقال الله عز من قائل أنت المختار المنتخب وعندك مستودع نورى وكنوز هدايتى من اجلك أسطح البطحاء وأموّج الماء وارفع السماء واجعل الثواب والعقاب والجنة والنار وأنصب أهل بيتك للهداية وأوتيهم من مكنون علمى مالا يشكل عليهم دقيق ولا يعييهم خفى واجعلهم حجتى على بريتى والمنبهين على قدرتى ووحدانيتى ثم أخذ الله الشهادة عليهم

والصخرة المنيفة وزرت مقام الخليل ومن معه من الانبياء ذوى المقامات الشريفة وكنت حقيقا بأن أنشد قول ابن مطروح في ذلك المقام الذى فضله معروف وأمره مشروح

خليل الله قد جئناك نرجو * شفاعتك التى ليست ترد
أتلنا دعوة واشفع تشفع * الى من لا يخيب لديه قصد
وقل يارب أضياف ووفد * لهم بمحمد صلة وعهد
اتوا يستغفرونك من ذنوب * عظام لا تعد ولا تحد
اذا وزنت بيذبل او شمام * رجحن ودونها رضوى وأحد
ولكن لا يضيق العفو عنهم * وكيف يضيق وهو لهم معد
وقد سألوا رضاك على لسانى * الهى ما أجيب وما ارد
فيا مولاهم عطفا عليهم * فهم جمع أتوك وانت فرد

ثم استوعبت أكثر تلك المزارات المباركة كمزار موسى الكليم على نبينا وعليهم وعلى سائر المرسلين والانبياء أجمعين افضل الصلاة والتسليم ثم حدث لى منتصف شعبان عزم على الرحلة الى المدينة التى ظهر فضلها وبان دمشق الشام ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام والادواح المتنوّعة والارواح المتضوّعة حيث المشاهد المكرمة والمعاهد المحترمة والغوطة الغناء والحديقة والمكارم التى يبارى فيها المرء شانئه وصديقه والاظلال الوريقة والافنان الوريقة والزهر الذى تخاله مبتسما والندى ريقه والقضبان المائد التى تشوّق رائيها بجنة الخلد

بحيث الروض وضاح الثنايا * انيق الحسن مصقول الاديم

وهى المدينة المستولية على الطباع المعمورة البقاع بالفضل والرباع

تزيد على مر الزمان طلاوة * دمشق التى راقت بحلو المشارب
لها فى اقاليم البلاد مشارق * منزهة اقمارها عن مغارب

ودخلتها أواخر شعبان المذكور وحمدت الرحلة اليها وجعلها الله من السعى المشكور

وجدت بها ما يملأ العين قرة * ويسلى عن الاوطان كل غريب

وشاهدت بعض مغانيها الحسنة ومبانيها المستحسنة

نزلنا بها ننوى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى اقمنا بها شهرا

ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنق فى الخطاب وأطال فى الوصف وأطاب وان ملأ من البلاغة الوطاب كما قلت

محاسن الشام أجلى * من ان تحاط بحد
لولا حمى الشرع قلنا * ولم نقف عند حد
كأنها معجزات * مقرونة بالتحدى

فالجامع الجامع للبدائع يبهر الفكر والغوطة المنوطة بالحسن تسحر الالباب لا سيما اذا حياها النسيم وابتكر

أحب الحمى من اجل من سكن الحمى * حديث حديث فى الهوى وقديم

بالربوبية والاخلاص بالوحدانية فقبل أخذ ما أخذ جل شأنه ببصائر الخلق انتخب محمدا وآله وأراهم ان الهداية معه والنور له والامامة فى آله تقديما لسنة العدل وليكون الاعذار متقدما ثم أخفى الله الخليقة فى غيبه وغيبها فى مكنون علمه ثم نصب العوالم وبسط الزمان وموّج الماء وأثار الزبد وأهاج الدخان فطفا عرشه على الماء فسطح الارض على ظهر الماء ثم استجابهما الى الطاعة فاذعنتا بالاستجابة ثم انشأ الله الملائكة من أنوار ابدعها وأرواح اخترعها وقرن توحيده بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم فشهرت فى السماء قبل بعثته فى الارض فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم حيث عرّفه عند استنبائه اياه اسماء الاشياء فجعل الله آدم محرابا وكعبة وبابا وقبلة أسجد اليها الابرار والروحانيين الانوار ثم نبه آدم على مستودعه وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه بعد ما سماه اماما عند الملائكة فكان حظ آدم من الخير ما أواه من مستودع نورنا ولم يزل الله تعالى يخبأ النور تحت الزمان الى ان وصل محمدا صلى الله عليه وسلم فى ظاهر الفترات فدعا الناس ظاهرا او باطنا وندبهم سرا واعلانا واستدعى عليه السلام التنبيه على العهد فلله

فلله مرآه الجميل الجليل وبيوتها التى لم تخرج عن عروض الخليل ومخبرها الذى هو على فضلها وفضل اهلها أدل دليل ومنظرها الذى ينقلب البصر عن بهجته وهو كليل

والروض قد راق العيون بحلة * قدحا كها بسحابه آذار
وعلى غصون الدوح خضر غلائل * والزهر فى أكمامه أزرار

فكم لها من حسن ظاهر وكامن كما قلت موطئا للبيت الثامن

أما دمشق فجنة * لعبت بألباب الخلائق
هى بهجة الدنيا التى * منها بديع الحسن فائق
لله منها الصالحية فاخرت بذوى الحقائق
والغوطة الغناء حيت بالورود وبالشقائق
والنهر صاف والنسيم اللدن للاشواق سائق
والطير بالعيدان أبدت فى الغنا احلى الطرائق
ولآلئ الازهار حلت جيد غصن فهو رائق
وموارد الامطار قد * كحلت بها حدق الحدائق
لازال مغناها مصو * نا آمنا كل البوائق

وكما قلت مرتجلا ايضا مضمنا الرابع والخامس

دمشق راقت رواء * وبهجة وغضاره
فيها نسيم عليل * صح فوافت بشاره
وغوطة كعروس * تزهى باعجب شاره
ياحسنها من رياض * مثل النضار نضاره
كالزهر زهرا وعنها * عرف العبير عباره
والجامع الفرد منها * أعلى الاله مناره
وحاصل القول فيها * لمن أراد اختصاره
تذكيرها من رآها * عدنا وحسبى اشاره
دامت تفوق سواها * انالة وانارة

وكما ارتجلت فيها ايضا

قال لى ما تقول فى الشام حبر * كلما لاح بارق الحسن شامه
قلت ماذا أقول فى وصف قطر * هو فى وجنة المحاسن شامه

وقلت ايضا

قال لى صف دمشق مولى رئيس * جمل الله خلقه واحتشامه
قلت كل اللسان فى وصف قطر * هو فى وجنة البسيطة شامه

وقلت أيضا

واذا وصفت محاسن الدنيا فلا * تبدأ بغير دمشق فيها اوّلا
بلد اذا أرسلت طرفك نحوه * لم تلق الا جنة أو جدولا

ه ط ل

الذى قدّمه الى الذر قبل النسل فمن وافقه واقتبس من مصباح النور المقدم اهتدى الى سيره واستبان واضح أمره ومن ألبسته الغفلة استحق السخط ثم انتقل النور الى غرائزنا ولمع فى أئمتنا فنحن انوار السماء وأنوار الارض فبنا النجاة ومنا مكنون العلم والينا مصير الامور وبمهدينا تنقطع الحجج خاتمة الائمة ومنقذ الامة وغاية النور ومصدر الامور فنحن أفضل المخلوقين واشرف الموحدين وحجج رب العالمين فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض عروتنا فهذا ما روى عن أبى عبدالله جعفر بن محمد عن ابيه محمد بن على عن أبيه على بن الحسين عن أبيه الحسين بن على عن امير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ولم نتعرض لكثير من اسانيد هذه الاخبار وطرقها الا انا قد اتينا على جميع ذكرها واتصالها فى النقل بمن ذكرناها عنه وعزوناها اليه فيما سلف من كتبنا خوف الاكثار والتطويل فى هذا الكتاب واما ما وجدت فى التوراة فهو أن الله تعالى ابتدأ الخلق فى يوم الاثنين وكان انتهاء الفراغ يوم السبت فاتخذ اليهود لذلك يوم السبت عيدا و زعم أهل الانجيل ان المسيح عليه السلام قام من قبره يوم الاحد فاتخذوا ذلك اليوم عيدا واما ما ذهب اليه الجمهور من أهل الفقه

ذا وصف بعض صفاتها وهى التى * يعيا البليغ وان اجاد وطوّلا

والغاية فى هذا الباب من الوصف لبعض محاسنها الفاتنة الالباب قول ابى الوحش سبعى ابن خلف الاسدى يصف ارضها المشرقة ورياضها المورقة ونسيمها العليل وزهرها البليل

سقى دمشق الشام غيث ممرع * من مستهل ديمة دفاقها
مدينة ليس يضاهى حسنها * فى سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق أنها * تعزى اليها لا الى عراقها
فأرضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر فى اشراقها
نسيم ريا روضها متى سرى * فك أخا الهموم من وثاقها
قد ربع الربيع فى ربوعها * وسيقت الدنيا الى اسواقها
لا تسأم العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا انتشاقها

وقول شمس الدين الاسدى الطيبى

اذا ذكرت بقاع الارض يوما * فقل سقيا لجلق ثم رعيا
وقل فى وصفها لا فى سواها * بها ماشئت من دين ودنيا

وكأن لسان الدين ذا الوزارتين بن الخطيب عناها بقوله المصيب

بلد تحف به الرياض كأنه * وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة * ومن الجسور المحكمات سواره

وكنت قبل رحلتى اليها ووفادتى عليها كثيرا ما اسمع عن اهلها زاد الله فى ارتقائهم ما يشوّقنى الى رؤيتها ولقائهم وينشقنى على البعد اريج الادب الفائق من تلقائهم حتى لقيت بمكة المعظمة أوحد كبرائها الذين فرائدهم بلبة الدهر منظمة عين الاعيان وصدر أرباب التفسير بها والبيان صاحب القلم الذى طبق الكلى والمفاصل والفتاوى التى حكمها بين الحق والباطل فاصل والتآليف التى وصفها بالاجادة من باب تحصيل الحاصل وارث العلم عن غير كلالة ذو الحسب المشرق بدره فى سماء الجلالة صاحب المعارف التى زانت خلاله وساحب اذيال العوارف التى أبانت عن فضله دلالة مفتى السلطان فى تلك الاوطان على مذهب الامام النعمان مولانا الشيخ عبد الرحمن ابن شيخ الاسلام عماد الدين لازال سالكا سبيل المهتدين فكان جعل الله به عصرا وأوانا لقضية هذا القياس عنوانا فلما حللت بدارهم ورأيت ما أذهلنى من سبقهم للفضل وبدارهم صدق الخبر وتمثلت فيهم بقول بعض من غبر

ألمت بنا أوصافهم فامتلأ الفضا * عبيرا وأضحى نوره متألقا
وقد كان هذا من سماع حديثهم * بلاغا فصح النقل اذ حصل اللقا

وقابلونى أسماهم الله بالاحتفال والاحتفاء وعرفنى بديع برّهم فن الاكتفاء

غمرتنى المكارم الغرّ منهم * وتوالت على منها فنون
شرط احسانهم تحقق عندى * ليت شعرى الجزاء كيف يكون

وقابلونى بالقبول مغضين عن جهلى

والآثار فهو أن الابتداء كان يوم الاحد والفراغ يوم الجمعة وفيه نفخ فى آدم الروح وهو اليوم السادس من نيسان ثم خلقت حوّاء من آدم واسكنا الجنة لثلاث ساعات مضت منه فمكثا ثلاث ساعات وهو ربع يوم بمائتى سنة وخمسين سنة من أعوام الدنيا وأهبط الله آدم بسرنديب وحوّاء بجدة وابليس ببيسان والحية باصبهان فهبط آدم بالهند على جزيرة سرنديب على جبل الراهون وعليه الورق الذى خصفه من ورق الجنة فيبس فذرته الرياح فانتثر فى بلاد الهند فيقال والله اعلم ان علة كون الطيب بارض الهند من ذلك الورق وقيل غير ذلك ولذلك خصت أرض الهند بالعود والقرنفل والافاويه والمسك وسائر الطيب وكذلك الجبل لمعت عليه اليواقيت وكان منه الماس وفى جزائر بحره السنباذج وفى قعره مغائص اللؤلؤ وان آدم لما أهبط من الجنة أخرج منها معه صرة من الحنطة وثلاثين قضيبا من شجرات الجنة مودعة اصناف الثمار منها عشرة مماله قشر وهى الجوز واللوز والجلوز وهو البندق والفستق والخشخاش والشاهبلوط والرانج والرمان والموز والبلوط ومنها عشرة ذات نوى وهى الخوخ والمشمش والاجاص والرطب والغبيراء والنبق والزعرور والعناب والمقل وما

وما زال بى احسانهم وجميلهم * وبرّهم حتى حسبتهم اهلى

بل الاولى أن اتمثل فيهم بما هو أبلغ من هذا المقول فى آل المهلب وهو قول بعض من نزل بقوم برق قصدهم غير خلب فى زمن به تقلب

ولما نزلنا فى ظلال بيوتهم * أمنا ونلنا الخصب فى زمن المحل
ولو لم يزد احسانهم وجميلهم * على البر من أهلى حسبتهم أهلى

لا سيما المولى الذى امداحه تحلى اجياد الطروس العاطلة وسماحه يخجل انواء الغيوث الهاطلة صدر الاكابر الاعاظم الحائز قصب السبق فى ميدان الاجادة بشهادة كل ناثر وناظم الصديق الذى بوده أغتبط والصدوق الذى بأسباب عهده ارتبط الاوحد الذى ضربت البراعة رواقها بناديه والماجد الذى لم يزل بديع البلاغة من كثب يناديه السرى الحائز من الخلال ما أبان تفضيله اللوذعى الذى لم تزل أوصافه تحكم له بالسودد وتقضى له والحق أبلج لا يحتاج الى زيادة براهين الاجل المولى احمد افندى بن شاهين لا زالت العزة مقيمة بواديه ولا برحت حضرته جامعة لبواطن الفخر وبواديه والسعد يراوح مقامه ويغاديه والمجد يترنم بذكره حاديه فكم له أسماه الله ولغيره من اعيان دمشق لدى من أياد يعجز عن الابانة عنها لو أراد وصفها قس اياد ولو تعرضت لاسمائهم وحلاهم أدام الله تعالى سوددهم وعلاهم لضاق عن ذلك هذا النطاق وكان من شبه التكليف بما لا يطاق فليت شعرى بأى أسلوب أؤدى بعض حقهم المطلوب أم بأى لسان أثنى على مزاياهم الحسان وما عسى أن اقول فى قوم نسقوا الفضائل ولاء وتعاطوا أكواب المحامد ملاء وسحبوا من المجد مطارف وملاء وحازوا المكارم وبذوا الموادد والمصارم سوددا وعلاء

فما رياض زهر الربيع * اذا بدت فى وشيها البديع
ضاحكة عن شنب الاقاح * عند سفور طلعة الصباح
غنى بها مطوّق الحمام * وصافحتها راحة الغمام
وباكرتها نسمة من الصبا * فاصبحت كأنها عهد الصبا
نضارة ورونقا وبهجه * تفدى بكل ناظر ومهجه
أطيب من ثنائهم عبيرا * بين الورى فاسال به خبيرا
دامت معاليهم على طول الزمن * يروى حديث الفضل عنها عن حسن
وثابت وقرة وسعد * وأسعفوا بنيل كل وعد

فهم الذين نوّهوا بقدرى الخامل وظنوا مع نقصى أن بحر معرفتى وافر كامل حسبما اقتضاه طبعهم العالى فلو شريت بعمرى ساعة ذهبت من عيشى معهم ما كان بالغالى فتعين حقهم لا يترك وحبهم لا يخالط بغيره ولا يشرك وان اطلت الوصف فالغاية فى ذلك لا تدرك

يزداد فى مسمعى ترداد ذكرهم * طيبا ويحسن فى عينى مكرّره

واذا كان المديح الصادق لا يزيدهم رفعة قدر فهم كما قال الاعرابى الذى ضلت ناقته فى مدح البدر والبليغ وذو الحصر فى ذلك سيان والحق أبلج والباطل لجلج وليس الخبر

والشاهلوج وهذا اسم فارسى وتفسيره ملك الاجاص ومنها ما لا قشر له ولا يزال دون مطعمها والنوى داخلها وهى التفاح والسفرجل والعنب والكمثرى والتين والتوت والاترج والقثاء والخيار والخروب ويقال ان آدم لما هبط من الجنة هو وحواء هبطا متفارقين فتعارفا بالموضع الذى يسمى عرفة وبتعارفهما فيه سمى بهذه التسمية وقيل غير ذلك وان آدم عليه السلام تاق الى حوّاء فغشيها فاشتملت على ذكر وانثى فسمى الذكر قاين والانثى لوبذا ثم عاود الغشيان فاشتملت حوّاء أيضا على ذكر وأنثى فسمى الذكر هابيل والانثى اقليمياء وقد تنوزع فى اسم الولد الاوّل فذهب الاكثر من أهل الكتاب وغيرهم ان اسمه قاين على ما ذكرنا ومنهم من رأى ان اسمه قابيل وهو قول فريق من الناس والاغلب ما قدّمناه وقد ذكر على بن الجهم فى قصيدته فى بدء الخلق والذرء ذلك فقال

واقتنيا الابن فسمى قاينا * وعاينا من نشئه ما عاينا
فشب هابيل وشب قاين * ولم يكن بينهما تباين

وذكر أهل الكتاب ان آدم زوج أخت هابيل لقاين وأخت قاين لهابيل وفرق فى النكاح بين البطنين وهذه سنة آدم عليه السلام احتياطا الاقصى ما يمكنه فى ذوى المحارم لموضع الاضطرار وعجز النسل عن التباين والاغتراب

كالعيان

هب الروض لا يثني على الغيث نشره * أتحسبه تخفى ما آثره الحسنى

وقد تذكرت بلادي النائية بذلك المرأى الشامي الذي يبهر رائيه فشاهدت من أنهار ذات انسجام أترع فيها من جريال الانس جام وازهار متوجة للادواح مروحة للنفوس بعاطر الارواح وحدائق تغشى أنوارها الاحداق وعيانها للخبر عنها مصداق وأي مصداق

فهي التي ضحك النهار صباحها * وبكت عشيتها عيون النرجس
واخضر جانب نهرها فكأنه * سيف يسل وغمده من سندس

وجنان أفنانها في الحسن ذوات أفنان

صافحتها الرياح فاعتنق السر * ومالت طواله للقصار
لائذ بعضه ببعض كقوم * في عتاب مكرر واعتذار

وبطاح راق سناها وكمل حسنها وتناهى كما قلت مضمنا في ذلك المنحى لقول بعض من نال في البلاغة مناو منحا

دمشق لا يقاس بها سواها * ويمتنع القياس مع النصوص
حلاها راقت الابصار حسنا * على حكم العموم أو الخصوص
بساط زمرد نثرت عليه * من الياقوت الوان الفصوص

ولله در القائل في وصف تلك الفضائل

ان تكن جنة الخلود بارض * فدمشق ولا يكون سواها
او تكن في السماء فهي عليها * قد امدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية أو ضحاها

وعند رؤيتي لتلك الاقطار الجليلة الاوصاف العظيمة الاخطار تفاءلت بالعود الى اوطان لي بها اوطار اذ التشابه بينهما قريب في الانهار والازهار ذات العرف المعطار وزادت هذه بالتقديس الذي همعت عليها منه الامطار وتمثلت بقول الاصفهاني وان غيرت يسيرا منه لما اسفرت وجوه التهاني

لما وردت الصالحية حيث مجتمع الرفاق
وشممت من أرض الشآ * م نسيم أنفاس العراق
أيقنت لي ولمن احـ * ـب بجمع شمل واتفاق
وضحكت من فرح اللقا * ء كما بكيت من الفراق
لم يبق لي الا تجشم ازمن السفر البواقي
حتى يطول حديثنا * بصفات ما كنا نلاقي

وكنت قبل حلولي بالبقاع الشامية مولعا بالوطن لا سواه فصار القلب بعد ذلك مقسما بهواه

ولي بالحمى اهل وبالشعب جيرة * وفي حاجر خل وفي المنحنى صحب
تقسم ذا القلب المتيم بينهم * سألتكم بالله هل يقسم القلب

وقد زعمت المجوس ان آدم لم يخالف في النكاح بين البطون ولم يتحر المخالفة ولهم في هذا المعنى شعر يدعون فيه الفضل في الصلاح بتزويج الاخ من أخته والام من ابنها وقد أتينا به في الفن الرابع عشر من كتابنا الموسوم باخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الامم الماضية والاجيال الخالية والممالك الداثرة وان هابيل وقابين قربا قربانا فتحير هابيل أجود غنمه وأفضل طعامه فقربه وتحير قابين شر ماله وقربه فكان من أمرهما ما قد حكاه الله تعالى في كتابه العزيز من قتل قابين هابيل ويقال انه اغتاله في برية قاع ويقال ان ذلك كان ببلاد دمشق من أرض الشام وكان قتله شدخا بحجر فيقال ان الوحوش هنالك استوحشت من الانسان وذلك انه بدأ فبلغ الغرض بالشر والقتل فلما قتله تحير في توريته وحمله يطوف به فبعث الله غرابا الى غراب فقتله ثم دفنه فأسف قابين ثم قال ما حكاه القرآن عنه يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فدفنه عند ذلك فلما علم آدم بذلك حزن وجزع وارتاع وهلع (قال المسعودي) وقد استفاض في الناس شعر يعزونه الى ادم قاله حين حزن على ولده * وأسف على فقده وهو

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الارض مغبر قبيح

فيالك

تغير كل ذي لون وطعم * وقل بشاشة الوجه الصبيح   وبدل أهلها خمطا وأثلا *

فيالك من صب مراع للذمام منقاد لشوقه بزمام يتخيل له انه سمع صوت قيان بقول الاول

الى الله أشكو بالمدينة حاجة * وبالشام أخرى كيف يلتقيان

وفرد تعددت جموعه ووشت بما كنت ضلوعه دموعه فانشد وقد تحير مابدل فيه من عظم مابه وغير

كتمت شان الهوى يوم النوى فوشى * بسره من جفونى أى نمام
كانت ليالى بيضا فى دنوهم * فلا تسل بعدهم عن حال أيامى
ضنيت وجدا بهم والناس تحسب بى * سقما فابهم حالى عند لوامى
وليس أصل ضنى جسمى النحيل سوى * فرط اشتياقى لاهل الغرب والشام

وحصل التحير حيث لم يمكن الجمع ولا الخلو عند التخير كما قال ابن دقيق العيد فى مثل هذا الغرض البعيد

اذا كنت فى نجد وطيب نعيمه * تذكرت أهلى باللوى فمحسر
وان كنت فيهم زدت شوقا ولوعة * الى ساكنى نجد وعيل تصبرى
فقد طال مابين الفريقين موقفى * فمن لى بنجد بين اهلى ومعشرى

وبالجملة فالاعتراف بالحق فريضة ومحاسن الشام وأهله طويلة عريضة ورياضه بالمفاخر والكمالات أريضة وهو مقر الاولياء والانبياء ولا يجهل فضله الا الاغمار الاغبياء الذين قلوبهم مريضة

أنى يرى الشمس خفاش يلاحظها * والشمس تبهر أبصار الخفافيش

ولله در من قال فى مثل هذا من الارضياء

وهبنى قلت هذا الصبح ليل * ايعمى العالمون عن الضياء

وقال آخر فيمن عن الحق ينفر

اذا لم يكن للمرء عين بصيرة * فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

وحسب الفاضل اللبيب أن يروى قول البدر بن حبيب

عرج اذا ماشمت برق الشآم * وحى اهل الحى واقر السلام
وانزل باقليم جزيل الحيا * بارك فيه الله رب الانام
العز والنصر لديه وما * لعروة الاسلام عنه انفصام
من اولياء الله كم قد حوى * ركنا بمرآه يطيب المقام
وهو مقر الانبياء الالى * والاصفياء الاتقياء الكرام
كم من شهيد فى حماه وكم * من عالم فرد وكم من امام

ولذلك اعتنت الجهابذة بتخليد أخباره فى الدواوين وابتنت الاساتذة بيوت افتخاره المنيفة الاواوين وتناقلت أنباءه البديعة ألسن الراوين وهامت باماكنه المربعة هداة الشريعة فضلا عن الشعراء الغاوين ومع ذلك فهم فى التعبير عن عجائبه غير متساوين أولا يرى انهم يأتون من مقولهم على قدر رأيهم وعقولهم ولم يبلغ جمع منهم ما كانوا ناوين

بجنات من الفردوس فيح
وجاورنا عدو وليس ينسى
لعين لا يموت فنستريح
وقتل قاين هابيل ظلما
فوا أسفا على الوجه المليح
فمالى لا أجود بسكب دمع
وهابيل تضمنه الضريح
أرى طول الحياة على غما
وما أنا من حياتى مستريح

ووجدت فى عدة من كتب التواريخ والسير والانساب أن آدم لما نطق بهذا الشعر أجابه ابليس من حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول

تنح عن البلاد وساكنيها
فقد فى الارض ضاق بك الفسيح
وكنت وزوجك الحواء فيها
أآدم من اذى الدنيا مريح
فمازالت مكايدتى ومكرى
الى ان فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الرحمن أضحت
بكفك من جنان الخلد ريح

ووجدت أن آدم عليه السلام سمع صوتا ولا يرى شخصا وهو يقول بيتا آخر مفردا دون ماذكرنا من هذا الشعر وهو هذا البيت

أباهابيل قد قتلا جميعا
وصار الحى بالموت الذبيح

فلما سمع آدم ذلك ازداد حزنا وجزعا على الماضى والباقى وعلم ان القاتل مقتول فاوحى الله اليه انى مخرج منك نورى الذى به السلوك فى القنوات

على قدرك الصهباء تواليك نشوة * بهاسيء اعداء وسر أصحاب
ولو أنها تعطيك منها بقدرها * لضاقت بك الاكوان وهى رحاب

وكنا فى خلال الاقامة بدمشق المحوطة واثناء التأمل فى محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة كثيرا ما ننتظم فى سلك المذاكرة درر الاخبار الملقوطة ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الاعيان فى مجالس مغبوطة نتجاذب فيها اهداب الآداب ونشرب من سلسال الاسترسال ونتهادى لباب الالباب ونمد بساط الانبساط ونسدل أطناب الاطناب ونقضى اوطار الاقطار ونستدعى أعلام الاعلام فينجر بنا الكلام والحديث شجون وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون الى ذكر البلاد الاندلسية ووصف رياضها السندسية التى هى بالحسن منوطة وقضاياها الموجهة التى لا يستوفيها المنطق مع انها ضرورية وممكنة ومشروطة والفطر السليمة والافهام المستقيمة بتسليم براهينها قاضية لاسيما ان كانت بالانصاف مربوطة فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجرى على لسانى من الفيض الرحمانى وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلمانى صب الله عليه شآبيب رحماه وبلغه من رضوانه الامانى ما تثيره المناسبة وتقتضيه وتميل اليه الطباع السليمة وترتضيه من النظم الجزل فى الجد والهزل والانشاء الذى يدهش به ذاكره الالباب ان شاء وتصرفه فى فنون البلاغة حالى الولاية والعزل اذ هو أعنى لسان الدين فارس النظم والنثر فى ذلك العصر والمنفرد بالسبق فى تلك الميادين بأداة الحصر وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدى الهصر ونثره تزرى صورته بالخريدة ودمية القصر فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة اجماعهم وعلق بقلوبهم وأضحى منتهى مطلوبهم ومنية آمالهم واطماعهم وصاروا يقطفون بيد الرغبة فنونه ويعترفون ببراعته ويستحسنونه ويستنشقون من أزهاره كل ذلك فطلب منى المولى احمد الشاهينى اذ ذاك وهو الماجد المذكور ذو السعى المشكور أن اتصدى للتعريف بلسان الدين فى مصنف يعرب عن بعض احواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه ووقائعه مع ملوك عصره وعلمائه وأدبائه ومفاخره التى قلد بها جيد الزمان ولبته ومآثره التى أرج بها مسرى الشمال وهبته وبعض ماله من النثار والنظام والمؤلفات الكبار العظام الرائقة للابصار الفائقة على كلام كثير من أهل الامصار السائرة مسير القمر والشمس المعقود عليها بالخناصر بل الخمس كى ما يكون ذلك لهذه الاغراض مشبعا ويخلع على مطالعه بهذه البلاد المشرقية من اغراضه البديعة ومنازعه وشيعا فاجبته اسمى الله قدره الكبير وأدام عرف فضائله المزرى بالعنبر والعبير بان هذا الغرض غير سهل ولست علم الله له باهل من جهات عديدة اولها قصورى عن تحمل تلك الاعباء الشديدة اذ لا يوفى بهذا الغرض الا الماهر بطرق المعارف السديدة وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام لانى خلفتها بالمغرب واكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب وثالثها شغل الخاطر باشجان الغربة الجالبة للفكر غاية الكربة وتقسم البال بين شغل عائق وبلبال وأنى يطيق سلوك هذا المضيق من اكتحلت جفونه بالسهاد ونبت

الطاهرة والارومات الشريفة وأباهى به الانوار واجعله خاتم الانبياء واجعله خيار الائمة الخلفاء واختم الزمان بمدتهم وأغص الارض بدعوتهم وانشرها بشيعتهم فشمر وتطهر وقدّس وسبح واغش زوجتك على طهارة منها فان وديعتى تنتقل الى الولد الكائن منكما فواقع آدم حواء فحملت لوقتها وأشرق جبينها وتلألأ النور فى مخايلها ولمع من محاجرها حتى اذا انتهى حملها وضعت نسمة كأسر ما يكون من الذكران واتمهم وقارا واحسنهم صورة واكملهم هيئة واعدلهم خلقا مجللا بالنور والهيبة موشحا بالجلالة والابهة فانتقل النور من حواء اليه حتى لمع فى اسارير جبهته وبسق فى غرة طلعته فسماه آدم شيثا وقيل شيث هبة الله حتى اذا ترعرع وايفع وكهل واستبصر أوعز اليه آدم وصيته وعرفه محل ما استودعه واعلمه انه حجة الله بعده وخليفته فى الارض والمؤدى حق الله الى اوصيائه وانه ثانى انتقال الذرة الطاهرة والجرثومة الزاهرة ثم ان آدم حين ادى الوصية الى شيث احتقبها واحتفظ بمكنونها وأتت وفاة آدم عليه السلام وقرب انتقاله فتوفى يوم الجمعة لست خلون من نيسان فى الساعة التى كان فيها خلقه وكان عمره عليه السلام تسعمائة سنة وثلاثين سنة وكان

جنوبه

جنوبه عن المهاد وسدّ نحوه الاسف سهمه وشغل باله ووهمه وبث فى قلبى تبريحا وعناء لم يجد منه الان بلطف الله تسريحا فاشام بارقة أمل الا فى النادر ولا ورد منهل صفاء الا وكدره مكر غادر وقد كثر الجفاء وبرح بلاشك الخفاء واستوخمت الموارد والمصادر والقلب مكلوم وذو اللب غير ملوم اذا كان على تلفيق ما يليق غير قادر ولا مؤنس الاشاكى دهر بلسان صريح اوباكى قاصمة ظهر بجفن قريح اومناضل فى معترك العجز طريح اوفاضل دفن من الخمول فى ضريح اذ رمته سهام الاوهام الصوائب وعضت منه ابهام الابهام بنابها النوى والنوائب فقلوبه من تقلبات أحواله ذوائب وكم شابت من أمثاله بصروف الدهر واهواله ذوائب

على أنها الايام قد صرن كلها * عجائب حتى ليس فيها عجائب

وأدمع اجاورها تسلط فجارها فكم من عدوّ منهم فى ثياب صديق وحسود لنظره الى نعم الله على عباده تحديق لا تخدعه المداراة ولا تردعه المماراة يتتبع العثرات ويقنع بالم البثرات ويتبسم وقلبه من الغل يتقسم ويتودد ومكايده تتجدد فتتعدد

لاترم من مماذق الود خيرا * فبعيد من السراب الشراب

رونق كالحباب يعلو على الما * ءولكن تحت الحباب الحباب

عظمت فى النفاق ألسنة القو * م وفى الالسن العذاب العذاب

والصديق الصدوق فى هذا الزمن قليل وقد ألف بعض العلماء شفاء الغليل فى ذم الصاحب والخليل وهو غير محمول على الاطلاق وان قال به بعض من رهنه من أبناء عصره ذو اغلاق

أبناء دهرك فالقهم * مثل العدا بسلاحكا

لا تغتـر بتبسم * فالسيف يقتل ضاحكا

وداء الحسد أعيا الاول والآخر وقد عظم الامر فى هذا الاوان وكثر المزدرى والساخر مع ان أسواق الدفاتر كاسدة وأمزجة المحابر فاسدة

والدهر دهر الجاهلين وأمر أهل العلم فاتر

لاسوق أكسد فيه من * سوق المحابر والدفاتر

فالمنسوب للعلم فى هذا الزمن زمن وهو بان ينشد قول الاول قمن

لاى وميض بارقة أشيم * ورعى الفضل عندهم هشيم

وليت شعرى علام يحسد من ابدل الاغتراب شارته واضعف الاضطراب اشارته وانهل بالدموع انواءه واقل اضواءه وكثر علله وادواءه وغير عند التأمل رواءه وثنى عن المأمول عنانه وارهف بالخمول سنانه حتى قدح الذكر جنانه وملأ الفكر جاشه وجنانه فهو فى ميدان النزوح مستبق ومن راحة التعب مصطبح ومغتبق

له أنة المشتاق فى كل ساعة * تمر وما للشأ كلات من الحزن

ومن مرسلات الدمع واقعة الاسى * ومن عاديات البين قارعة السن

تثير الذكرى منه كوامن الشجون وتدير عليه جام الهيام ولو كان بين الصفا والحجون

قبره فمنهم من زعم ان قبره بنى فى مسجد الخيف ومنهم من رأى انه فى كهف جبل أبى قبيس وقيل غير ذلك والله أعلم بحقيقة الحال وان شيثا حكم فى الناس واستشرع صحف أبيه وما انزل عليه فى خاصته من الاسفار والاشراع وان شيثا واقع امرأته فحملت بانوش فانتقل النور اليها حتى اذا وضعته لاح النور عليه فلما بلغ الوصاة اوعز اليه شيث فى شان الوديعة وعرفه شانها وانها شرفهم وكرسهم واوعز اليه ان ينبه ولده على حقيقة هذا الشرف وكبر محله وان ينبهوا أولادهم عليه ويجعل ذلك فيهم وصية منتقلة مادام النسل فكانت الوصية جارية تنتقل من قرن الى قرن الى ان أدى الله النور الى عبد المطلب وولده عبد الله ابى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا موضع تنازع الناس فيه من أهل الملة ممن قال بالنص وغيرهم من اصحاب الاختيار والقائلون بالنص هم الاباضية أهل الامامة من شيعة على بن ابى طالب رضى الله عنه والطاهرين من ولده الذين زعموا ان

الله لم يخل عصرا من الاعصار من قائم بحق الله اما انبياء واما اوصياء منصوص عن اسمائهم واعيانهم من الله ورسوله واصحاب

الاختيار هم فقهاء الامصار والمعتزلة وفرق من الخوارج والمرجئة وكثير من اصحاب الحديث والعوام وفرق من الزيدية فزعم هؤلاء ان الله ورسوله فوّض الى الامة ان تختار رجلا منها فتنصبه لها اماما وان بعض الاعصار قد يخلو من حجة الله وهو الامام المعصوم عند الشيعة وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب لمعا من ايضاح ماوصفنا من اقاويل المتنازعين وتباين المختلفين وان أنوش قد لبث في الارض يعمرها وقد قيل والله أعلم ان شيثا أصل النسل من آدم دون سائر ولده وقيل غير ذلك وفي زمن انوش قتل قاين بن آدم قاتل أخيه ولمقتله خبر عجيب قد أوردناه في اخبار الزمان وفي الكتاب الاوسط وكانت وفاة أنوش لثلاث خلون من تشرين الاول فكانت مدته تسعمائة سنة وستين سنة وكان قد ولد له قينان ولاح النور في جبينه وأخذ عليه العهد فعمر البلاد حتى مات فكانت مدّته تسعمائة سنة وعشرين سنة وقد قيل ان موته كان في تموز بعدما ولد له مهلائيل فكانت مدّة مهلائيل ثمانمائة سنة وقد ولد له لود والنور متوارث والعهد ماخوذ والحق قائم ويقال ان كثيرا من الملاهي احدثت في ايامه احدثها ولد قاين قاتل أخيه ولولد قاين مع ولد لود حروب وقصص

وتحت ضلوع المستهام كآبة * يخاف على الاحشاء منها التفطرا
ولوان احشاء تبوح بما حوت * لتمتلئن الارض كتبا واسطرا

وشتان مابين الاقتراب والاغتراب والسكون في الركون والنبوّ عنها والاضطراب فذاك تسهل غالبا فيه الاغراض والمآرب وهذا تتعفر فيه المقاصد وتتكدر المشارب

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز * ولكن أرى تحصيلها بالدنية
وان طاوعتني رقة الحال مرة * أبت فعلها أخلاق نفس أبية

وكما قلت عندما صرت الى الاغتراب وألت

تركت رسوم عزى في بلادى * وصرت بمصر منسى الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهدا * وقلت لها عن العلياء صومى
مخافة أن أرى بالحرص ممن * يكون زمانه احد الخصوم

وكما قال بعض الاكابر من أهل الزمان الغابر

لاعار ان عطلت يداى من الغنى * كم سابق في الخيل غير محجل
صان اللئيم وصنت وجهي ماله * دوني فلم يبذل ولم أتبذل
أبكي لهم ضافني متأوبا * ان الدموع قرى الهموم النزل
لاتنكروا شيبا ألم بمفرقي * عجلا كأن سناه سلة منصل
فلقد دفعت الى الهموم تنوبني * منها ثلاث شدائد جمعن لى
اسف على ماضى الزمان وحيرة * في الحال منه ووحشة المستقبل
ما ان وصلت الى زمان آخر * الا بكيت على الزمان الاوّل
لله عهد بالحمى لم انسه * ايام اعصى في الصبابة عذلى

و يرحم الله ابن قلاقس الاسكندرى اذ قال في معنى التمني المصدرى

لعل زماني بالعذيب يعود * فيقرب قرب او يصد صدود
وابصر كثبانا وهز روادف * عليهنّ اغصان وهنّ قدود
واقطف ورد الخد وهو مضرج * واجنى اقاح الثغر وهو برود
وادنى ذراعى للعناق ذريعة * فتنهى عن الاقراط فيه نهود
ويسرى الى البدر وهو ممنع * ويغدو الى الظبي وهو شرود
ونكرع في شكوى الفراق كاننا * فوارط هيم واقهنّ ورود
واكبر مقدار الهوى عن كبيرة * واحمى عفافي دونه واذود

وفرق مابين الجوهر والعرض والصحة البينة والمرض والدر والحصا والحسام والعصا والرجوع الى التفويض للاقدار في امور هذه الدار الكثيرة الاكدار هو المطلوب والمرجوّ من الله سبحانه جبر القلوب

يارب نفس همومى * واكشف كروبى جميعا
فقد رجوت كريما * وقد دعوت سميعا

ولم يجعل لى المذكور حفظه الله فسحة ولا مندوحة بعد هذه الاعذار المحمودة في الصدق

الممدوحة

الممدوحة ولسان حالي وقالي يثبتان عجزي عن اداء هذا الحق بشهادة من هو وادوقالي اذ من كان بصفة غير متمكنة مما تكون به متصفة واتسم بنعوت مختلفة وارتسم في غير ذوي الاحوال المؤتلفة كيف يحير في التصنيف جوابا أو ينتحي من التأليف صوابا ومن جفنه هام هامل وقصوره عام شامل كيف يقبض بالانامل على ماء البحر الوافر الكامل ومن لبس من العي ملاه لا يعبر عمن طبق مفاصل الكلام وكلاه وقصرت ألسن البلغاء عن علاه وزانت صدور الدواوين حلاه وجمع خلالا حسانا وكان للدين لسانا وزاحمت مفاخره بالمناكب الكواكب وازدانت بمرآه النوادي والمواكب ونفحات الازهار من آدابه ونسمات الاسحار عطر أذياله وأهدابه والسحر من كتابته والسحر من كنايته وروح النسيم من تعريضه والنثرة من نثره والشعرى من شعره وقريضه وحلل المجد لباسه وأنوار العلم اقتباسه

له ذهن يغوص ببحر علم * فيأتي منه بالدر النظيم
معانيه الرياض لاجل هذا * سرت ألفاظه مثل النسيم

ومباهيه النجوم ومضاهيه الغيث السجوم الى آباء يحسدهم القمر والشمس واباء لو كان للشرفي لما تحيفه امس وشرف لا مدعى ولا منتحل وهمة لونالها البدر لا ستجدى له زحل وبراعة أرهفت سنان قلمه وبراعة سارت أمراؤها تحت علمه فكم فتح بفكره اقفالها ووسم بذهنه الثاقب أغفالها وسبك معانيها في قالب قلبه ابريزا ورقم بيان لسانه برود احسانه بلفظه البديع تطريزا فرفع في ميدان الاجادة لواؤه وأتيح من انهار البراعة العذبة ارواؤه ونال سبقا وتبريزا

وما زمن الشباب وانت تجري * مع الاحباب في لهو وطيب
ووصل من حبيب بعد هجر * بأحلى من كلام ابن الخطيب

فقصائده ارخصت جواهر البحور المنظومة في قلائد اللبات والنحور من حسان العقائل الحور

معان وألفاظ تنظم منهما * عقود لآل في نحور الشمائل
و زهر كلام كالحدائق نسجه * غنينا به عن حسن زهر الخمائل

وكلماته غدت للابداع اقليدا وجمعت طريفا من البلاغة وتليدا

كسون عبيدا ثياب العبيد * واضحى لبيد لديها بليدا

ومقطعاته ألذ في الاسماع من مطرب السماع وأبهى في الاحداق والنواظر من الحدائق ذوات الاغصان الملد النواضر يعترف بفضلها من انتحل الانصاف دينا وانتحل الاوصاف فاختار العدل منها خدينا

رقيقات المقاطع محكمات * لو أن الشعر يلبس لارتدينا

و رسائله كنقط العروس اللائحة في البياض او كوشي الربيع اوقطع الرياض برزت اغصانها الحالية وتبرجت وتضوعت أفنانها العالية وتارجت وقد البسها القطر زهرا وفجر خلالها نهرا فأخذت زخرفها وازينت ولاحت محاسنها غير محتجبة وتبدت فبهرت

قد أتينا على ذكرها في كتابنا اخبار الزمان ووقع التحارب بين ولد شيث وبين غيرهم ٤١ من ولد قاين واكثر هذا النوع بارض قاين من ارض الهند والى بلدهم اضيف العود القماري فكانت حياة لود سبعمائة سنة واثنتين وثلاثين سنة وكانت وفاته في اذار وقام بعده ولده (خنوخ) وهو ادريس النبي صلى الله عليه وسلم والصابئة تزعم انه هو هرمس ومعنى هرمس عطارد وهو الذي اخبر الله عز وجل في كتابه انه رفعه مكانا عليا وهو أول من درز الدروز وخاط بالابرة وأنزل عليه ثلاثون صحيفة وكان قد نزل قبل ذلك على آدم احدى وعشرون صحيفة وانزل على شيث تسع وعشرون صحيفة فيها تهليل وتسبيح وقام بعده (متوشلخ) بن خنوخ فعمر البلاد والنور في جبينه وولد له أولاد وقد تكلم الناس في كثير من ولده وان البلغر والروس والصقالبة من ولده وكانت حياته تسعمائة سنة وستين سنة ومات في ايلول وقام بعده (لمك) وكانت في أيامه كوائن واختلاف وتوفي وكانت حياته سبعمائة سنة وتسعين سنة وقام بعده (نوح) بن لمك عليه السلام وقد كثر الفساد في الارض فاشتدت دياجي الظلم فقام في الارض داعيا الى الله فابوا الا طغيانا وكفرا فدعا الله عليهم فاوحى الله اليه أن اصنع الفلك فلما فرغ من السفينة

من لها قابل أستغفر الله لا بل

هى الحديقة الأأن صيبها * صوب النهى وجناها زهرة الكلم

وقوافيه ريشت بها قوادم الاتقان وخوافيه بنان مجاريها يستدثر الحصر وباع مباريها يستشعر القصر

خطها روضة والفاظها الاز * هار يضحكن والمعانى ثمار

تبدى لمبصرها وترى ماقاله أبو عبادة البحترى

وكلام كأنه الزهر النا * ضر فى رونق الربيع الجديد
مشرق فى جوانب السمع مايخلقه عوده على المستعيد
ومعان لو فصلتها القوافى * هجنت ما الجرول من نشيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا * وتجنبن ظلمة التعقيد

بل هى أجل مما وصف عند التحقيق وامعان النظر الصحيح والتدقيق

اين زهر الرياض وهو اذا ما * طال عهدا بالغيث عاد هشيما
من قواف كانها الانجم الزهـ * ـر سناها زان الظلام البهيما

وناهيك بمن اطلعته العلوم على جلائلها ودقائقها وأرته الفنون ماشاء من يانعات حدائقها وحبته الحكم الرياضية بأزاهرها وشقائقها وارضعته الوزارة من ثديها وحلت به الامارة صدر نديها وجعلته المرجوع اليه فى تمييز جيد الامور ورديها فغرس فى ارض الرياسة من نخل السياسة ووديها وأعلى علم العدل وأغمد سيف الانتقام ودفع تنين الفتنة الذى فغر فاه للالتقام والعهد اذ ذاك قريب فى وطن الاندلس الغريب باختلال الحال وتوالى الامحال والتجرى على قتل الملوك والتحرى لقطع الطرق ومنع السلوك حيث أهواء المارقين ذات افتراق وضلوع الصادفين فى قلق واحتراق وأيدى الاحن باطشة وسيوف المحن الى الدماء عاطشة وعرش الحماية مثلول وصارم الكفاية مفلول ونطاق الرعاية محلول وجيب النصيحة مملول والتنور السلطانى بنار اختلاف الكلمة ملتهب والعدو ينتهز الفرصة ويستلب الانفس والاموال وينتهب وليس له فى غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء وان عقد المهادنة فى بعض الاحيان فهو يسر حسوا فى ارتغاء وكلاب الباطل فى دماء أهل الحق والغة ولله سبحانه وتعالى فى خلقه ارادة نافذة وحكمة بالغة فرقع لسان الدين ثوب الاندلس ورفاه وأرغم رحمه الله الكفر الذى فغر فاه وشمر عن ساعد اجتهاده وحض باللسان وباليد على دفاعه وجهاده حتى لاحت للنصر بوارق وأمنت بالحزم البوارى والطوارق ثم ضرب الدهر ضربانه وأحرق الحاسد بنار أحقاده أنضر بانة وأظهر ما فى قلبه على لسان الدين وأبانه وتقرب الوشاة وهم ممن كان يخدمه ويغشاه الى سلطانه الذى كان عزة أوطانه الذى كان يأمنه ولا يخشاه حتى فسد عليه ضميره وتكدر ومن يسمع يخل غيره فاحس بظاهر التغير وصار فى الباطن من أهل التحير وأجال قداح آرائه والتفت الى جهة العدو من ورائه ففر مشمرا عن ذيله فى لمة من خيله الى أسد العرين سلطان بنى مرين وكان اذ ذاك بتلمسان وهو من أهل العلم والعدل والاحسان فاهتز لمقدمه ولقيه بخاصته

وخدمه

إتاه جبريل عليه السلام بتابوت آدم فيه رمته وكان ركوبهم فى السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من اذار فاقام نوح ومن معه فى السفينة على ظهر الماء وقد غرق جميع الارض خمسة اشهر ثم امر الله الارض ان تبتلع الماء والسماء ان تقلع واستوت السفينة على الجودى والجودى ببلاد ماسور جزيرة ابن عمر الموصلى وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ وموضع خروج السفينة على رأس هذا الجبل الى هذه الغاية وذكر أن بعض الارض لم يسرع الى بلع الماء ومنها ما أسرع الى بلعه عندما أمرت فما أطاع كان ماؤه عذبا اذا احتفر وما تاخر عن القبول أعقبها الله بماء ملح وملاحات ورمال وما تخلف من الماء الذى امتنعت الارض من بلعه انحدر الى قعور مواضع من الارض فمن ذلك البحار وهى بقية ماء غضب أهلك به أمم وسنذكر بعد هذا الموضع من كتابنا هذا أخبار البحار ووصفها * ونزل نوح من السفينة ومعه أولاده الثلاثة وهم (سام وحام ويافث) وكنائنه الثلاث أزواج أولاده وأربعون رجلا وأربعون امرأة وصاروا الى سفح هذا الجبل فابتنوا هنالك مدينة سموها ثمانين وهو اسمها الى وقتنا هذا وهو سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة ودبر عقب هؤلاء

وخدمه وأكرم مثواه وجعله صاحب نجواه ثم أدرك السلطان الحمام وكسف بدره وقت التمام فرجع لسان الدين الى فاس واستنشق بها أطيب الانفاس وكثرت بعد ذلك الاهوال وتغيرت بسببه بين رؤساء العدوة والاندلس الاحوال فانجا من مكر العدا ولا سلم وآل أمره من الاغتيال ومانفع الاحتيال الى ماعلم على يدى بعض أعدائه الذين كانوا يتربصون الدوائر لاردائه فاصبح كامس الذاهب وصارت أمواله وضياعه عرضة للناهب وغص بذلك من كان من أودائه وأخذ الله ثاره من بعض من حرك عليه المكر وأثاره وتسبب فى هلاكه حتى انتثرت جواهر أسلاكه ومات بدائه فالعيون الى هذا الوقت على لسان الدين باكية ونفوس الاكابر وغيرهم مما فعل به شاكية والالسنة والاقلام لمقاماته فى الاسلام حاكية فمن كان بهذه السمات وأكثرها موصوفا لا يقدر مثلى على تحبير التعبير عنه ويخشى أن تكون فكرته كخرقاء نقضت قطنا أو صوفا ثم انى لما تكرر على فى هذا الغرض الالحاح ولم تقبل أعذارى التى زندها شحاح عزمت على الاجابة لما للمذكور على من الحقوق وكيف أقابل بره حفظه الله بالعقوق وهو الذى يروى من أحاديث الفضل الحسان والصحاح فوعدته بالشروع فى المطلب عند الوصول الى القاهرة المعزية وأزمعت السير عن دمشق المعروفة المزية وألبسنى السفر منها من الخلع زيه ورحلنا عن تلك الارجاء المتألقة والقلوب بها وبمن فيها متعلقة

حللنا ديار اللغرام سرت بها * الينا صبا نجد بطيب نسيم
وبان ردا الاشجان لما تجاذبت * أكف المنى فيها رداء نعيم
فما انشبتنا العيس أن قذفت بنا * الى فرقة والعهد غير قديم
فان نك ودعنا الديار وأهلها * فما عهد نجد عندنا بذميم

فخرج معنا أسماه الله مع جملة من الاعيان الى داريا المضاهية لدارين فى رياها وحبذا ريا فالفيناها

ربا من الانداء طيبة لها القدر الجليل
تهدى لنا أرجاؤها * أرجا من الزهر البليل
وبها الغصون تمايلت * ميل الخليل على الخليل

ووصلنا عند الظهيرة وسرحنا العيون فى محاسنها الشهيرة

منزل كان ربيع حلت عليه * حاليات السحاب عقد النطاق
يمتع العين من طرائف حسن * تتجافى بها عن الاطراق

وقلنا بها لما نزلنا بجانبها

وبتنا والسرور لنا نديم * وماء عيونه الصافى مدام
يسايره النسيم اذا تغنت * حمائمه ويسقيه الغمام

فيالك من ليلة أربت فى طيب النفح على ليلة الشريف الرضى بالسفح

ونحن فى روضة مفوفة * قد وشيت بالغمائم الوكف
نغفى على زهرها فيوقظنا * وهنا هدير الحمائم الهتف

الثمانين نفسا وجعل الله نسل الخليقة من نوح من الثلاثة من ولده وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله وجعلنا ذريته هم الباقين والله أعلم بهذا التاويل والمتخلف عنه من ولده الذى قال له يابنى اركب معنا هو يام وقسم الارض نوح بين أولاده أقساما وخص كل واحد بموضع ودعا على ولده حام لامر كان منه مع ما قد اشتهر فقال ملعون حام عبد عبيد يكون لاخوته ثم قال مبارك سام ويكثر الله يافث ويحل يافث فى مسكن سام ووجدت فى التوراة ان نوحا عاش بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة فجميع عمر نوح تسعمائة سنة وخمسون سنة ٣ فانطلق حام واتبعه ولده فنزلوا اماكنهم فى البر والبحر على حسب ماذكره بعد هذا الموضع من هذا الكتاب وسنذكر تفرق النسل فى الارض ومساكنهم فيها من ولد يافث وسام وحام (فاما سام) فسكن وسط الارض من بلاد الحرم الى حضرموت الى عمان الى عالج فمن ولده ارم بن سام وارفخشذ بن سام بن نوح ومن ولد ارم ابن سام عاد بن عوص بن ارم بن سام وكانوا ينزلون الاحقاف من الرمل فارسل اليهم هود وثمود بن غاثر ابن ارم بن سام وكانوا

٣ قول المسعودى فجميع عمر نوح الخ يتامل فيه وتراجع كتب التفسير اه

ودوحها من نداه في وشح * ومن لآلى الازهار في شنف
والغصن من فوقه حمامته * كانها همزة على ألف

وما أقرب قول الوزير ابن عمار من وصف ذلك المضمار الجامع للاقمار

ياليلة بتنابها * في ظل أكناف النعيم
من فوق أكمام الريا * ض وتحت أذيال النسيم

وناهيك بمحل قرب من دمشق الغرّاء خلعت عليه حلل الحبور والسراء وأمدّته بضيائها وأودعته برق حياها وماء حيائها فصار ناضر الدوحات عاطر الغدوات والروحات مونق الانفاس والنفحات مشرق الاسرة والصفحات هذا والقلوب من الفراق فى قلق ولسان الحال ينشد

وبى علاقة وجد ليس يعلمها * الا الذى خلق الانسان من علق

ويحث على انتهاز فرصة اللقاء اذ هى غنيمة ويذكر بقول من قال وأكف الدهر موقظة ومنيمة

تمتع بالرقاد على شمال * فسوف يطول نومك باليمين
ومتع من يحبك باجتماع * فانت من الفراق على يقين

ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوداع والكل ما بين واجم وباك وداع فتمثلت بقول من قلبه لفراق الاحباب فى انصداع

ودعتهم ودمعى * على الخدود غزار
فاستكثر وادمع عينى * لما استقلوا وساروا

وقول آخر

ياوحشة من جيرة قد نأوا * علوّ قدرى فى الهوى انحطا
حكت دموعى البحر من بعدهم * لما رأت منزلهم شطا

وحق لى أن أتمثل فى ذلك بقول الفزارى

لاتسلنى عما جناه الفراق * حملتنى يداه مالا يطاق
أين صبرى أم كيف أملك دمعى * والمطايا بالظاعنين تساق
قف معى نندب الطلول فهذى * سنة قبل سنها العشاق
وأعدلى ذكر الغوير فكم ما * ل بعطفى نسيمه الخفاق
فى سبيل الغرام ما فعلت بالعاشقين القدود والاحداق
يوم ولت طلائع الصبر منا * ثم شنت غاراتها الاشواق

وبقول غيره

كنا جميعا والدار تجمعنا * مثل حروف للجمع ملتصقه
واليوم صار الوداع يجعلنا * مثل حروف الوداع مفترقه

وقول آخر

حين هم الحبيب بالتوديع * عيرونى أنى سفحت دموعى

أمره واشتهر خبره وسنذكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب لمعا من أخباره وأخبار غيره من الانبياء عليهم السلام وطسم وجديس ابنا لاوذ بن ارم وكانوا ينزلون اليمامة والبحرين وأخوهما عمليق بن لاوذ بن ارم نزل بعضهم الحرم وبعضهم الشام ومنهم العماليق تفرقوا فى البلاد واخوهم أميم بن لاوذ نزل أرض فارس وسنذكر فى باب تنازع الناس فى انساب الفرس من هذا الكتاب من ألحق كيومرت باميم وقيل ان أميما نزل أرض وبار وهى التى غلبت عليها الجن على مازعم الاخباريون من العرب ونزل بنو عميل ابن عوص أخى عاد بن عوص مدينة الرسول عليه السلام وولد سام بن نوح ماش بن ارم بن سام نزل بابل فولد نمروذ بن ماش وهو الذى بنى الصرح ببابل وجسر جسر ابابل على شاطئ الفرات وملك خمسمائة سنة وهو ملك النبط وفى زمانه فرّق الله الالسن فجعل فى ولد سام تسعة عشر لسانا وفى ولد حام سبعة عشر لسانا وفى ولد يافث ستة وثلاثين لسانا وتشعبت بعد ذلك اللغات وتفرعت الالسن وسنذكر هذا فى موضعه الذى يوجد فى كتابنا لم

لم يذوقوا طعم الفراق ولاما * أحرقت لوعة الأسى من ضلوعي
كيف لا أسفح الدموع على ربـ * ـع حوى خير ساكن وجموع
هبك أني كتمت حالي أتخفى * زفرات المتيم المصدوع
انما يعرف الغرام بمن لا * ح عليه الغرام بين الربوع

وقول من قال

أقول له عند توديعه * وكل بعبرته مبلس
لئن قعدت عنك أجسادنا * لقد سافرت معك الانفس

وقول الصابي

ولما حضرت لتوديعه * وطرف النوى نحونا اشوس
عكست له بيت شعر مضى * يليق به الحال اذ يعكس
لئن سافرت عنك أجسادنا * فقد قعدت معك الانفس

وقول المهذب بن أسعد الموصلي

دعني وما شاء التفرق والاسى * واقصد بلومك من يطيعك أو يعي
لا قلب لي فاعي الملام فانني * أودعته بالامس عند مودعي
هل يعلم المتحملون لنجعة * أن المنازل أخصبت من أدمعي
كم غادروا حرضا وكم لوداعهم * بين الجوانح من غرام مودع
والسقم آية ما أجن من الجوى * والدمع بينة على ما أدعي

وقول الكمال التنوخي

كم ليلة قد بتها ارعى السها * جزعا لفرقتهم بمقلة أرمد
قضيتها ما بين نوم نافر * وزفير مهجور وقلب مكمد
لم أنس أيام السرور وطيها * بين السدير وبين برقة ثهمد
والروض قد ابدى بدائع نوره * من أزرق ومفضض ومورد
والماء يبدو كالصوارم ساريا * فيعيده مر الصبا كالمبرد
والطير بين مسجع ومرجع * ومغرد ومعدد ومردد

وقول القاضي بهاء الدين السنجاري

أحبابنا مالي على بعد المدى * جلد ومن بعد النوى يتجلد
لله أوقات الوصال ومنظر * نضر وغصن الوصل غض أملد
أنى يطيق أخو الهوى كتمانه * والخد بالدمع المصون مخدد
ما بعد مفترق الركاب تصبر * عمن أحب فهل خليل يسعد
ياسعد ساعد بالبكاء أخا هوى * يوم الوداع بكى عليه الحسد

وقول ابن الأثير

لم أنس ليلة ودعوا * صبا وساروا بالحمول
والدمع من فرط الاسى * يجري فيعثر بالذيول

بارض العراق ويقال ان فالغ هو الذي قسم الارض بين الامم ولذلك سمي فالغ وهو فالغ أي قاسم ابن شالخ بن ارفخشذ ابن سام بن نوح فولد شالخ فالغ بن شالخ الذي قسم الارض وهو جد ابراهيم عليه السلام وعابر ابن شالخ وابنه قحطان بن عابر وابنه يعرب بن قحطان وهو اول من حياه ولده تحية الملك انعم صباحا وأبيت اللعن وقيل ان غيره حيا بهذه التحية الملك من ملوك الحيرة وقحطان ابو اليمن كلها على حسب ما نذكر ان شاء الله تعالى في باب تنازع الناس في انساب اليمن من هذا الكتاب وهو أول من تكلم بالعربية لاعرابه عن المعاني وابانته عنها ويقطن ابن عابر بن شالخ وهو جرهم وجرهم ابن عم يعرب وكانت جرهم ممن سكن اليمن وتكلم بالعربية ثم نزلوا بمكة فكانوا بها على حسب ما نورده من اخبارهم وقطورا بنو عمهم ثم أسكنها الله اسمعيل عليه السلام ونكح في جرهم فهم اخوال ولده وذكر أهل الكتاب ان مالك بن سام بن نوح حي لان الله عزوجل اوحى الى سام ان الذي وكلته بجسد آدم بقيته الى آخر الابد وذلك ان سام بن نوح دفن تابوت آدم في وسط الارض فوكل مالكا بقبره وكانت وفاة سام يوم الجمعة وذلك في أيلول

وكان عمره الى أن قبضه الله عز وجل ستمائة سنة وكان القيم بعد سام في الارض ولده (ارفخشد) وكان عمره
الى ان قبضه الله عز وجل اربعمائة سنة وخمسا وستين سنة وكانت وفاته في نيسان ولما قبض الله ارفخشد قام بعده ولده (شالح) بن ارفخشد وكان عمره الى ان قبضه الله عزوجل اربعمائة سنة وثلاثين سنة ولما قبض الله شالح قام بعده ولده (عابر) فعمر البلاد وكانت في ايامه كوائن وتنازع في مواضع من الارض وكان عمره الى ان قبضه الله عز وجل اليه ثلثمائة واربعين سنة ولما قبض الله عابر قام بعده (فالغ) على نهج من سلف من آبائه وكان عمره الى ان قبضه الله عز وجل مائتي سنة وسبعا وثلاثين سنة وقد قدمنا ذكره في هذا الكتاب فيما سلف وما كان بارض بابل عند تبلبل الالسن ولما قبض الله فالغ قام بعده (رعو) بن فالغ وقيل ان في زمنه كان مولد نمروذ الجبار وكان عمره الى ان قبضه الله مائتي سنة وكانت وفاته في نيسان ولما قبض الله رعو قام بعده (ساروغ) بن رعو وقيل انه في ايامه ظهرت عبادة الاصنام والصور وضروب من العلل احدثت في الارض وكان عمره الى ان قبضه الله اليه مائتي سنة وثلاثين سنة ولما قبض الله ساروغ قام بعده (ناحور) بن ساروغ مقتديا

وقول الارجاني

ولما وقفنا للوداع عشية * وطرفي وقلبي هامع وخفوق
بكيت فاضحكت الوشاة شماتة * كاني سحاب والوشاة بروق

وقول ابن نباتة السعدي

ولما وقفنا للوداع عشية * ولم يبق الا شامت وغيور
وقفنا فمن باك يكفكف دمعه * وملتزم قلبا يكاد يطير

وقول بعضهم

لما حدا الحادي بترحالهم * هيج أشواقي وأشجاني
وراح يثني القلب عن غيرهم * فهو لهم حاد ولي ثاني

وقول الصفدي

لما اعتنقنا لوداع النوى * وكدت من حر الجوى أحرق
رأيت قلبي سار قدامهم * وأدمعي تجري ولا تلحق

وقوله أيضا

تذكرت عيشا مرحلوا بقربكم * فهل لليالينا الذواهب واهب
وما انصرفت آمال نفسي لغيركم * ولا أنا عن هذي الرغائب غائب
سأصبر كرها في الهوى غير طائع * لعل زماني بالحبائب آئب

وقول ابن نباتة المصري

في كنف الله وفي حفظه * مسراك والعود بعزم صريح
لو جاز أن تسلك اجفاننا * كنا فرشنا كل جفن قريح
لكنها بالبعد معتلة * وأنت لا تسلك الا الصحيح

وقول الحافظ ابي الحسن علي بن الفضل

عجبت لنفسي بعدهم ما بقاؤها * ولم أحظ من لقياهم بمرادي
لعمرك ما فارقتهم مذ ودعوا * ولكنما فارقت طيب رقادي
وقد منعوا مني زيارة طيفهم * وكيف يزور الطيف حلف سهاد
وأعجب ما في الامر شوقي اليهم * وهم في سوادي ناظري وفؤادي

وقوله رحمه الله تعالى

رعى الله أيام المقام بروضة * تروح علينا بالسرور وتغتدي
كأن الشقيق الغض بين بطاحها * نجوم عقيق في سماء زبرجد

وقول القاضي الرشيد الاسواني

رحلوا فلا خلت المنازل منهم * ونأوا فلا سلت الجوانح عنهم
وسروا وقد كتموا الغداة مسيرهم * وضياء نور الشمس ما لا يكتم
وتبدلوا ارض العقيق عن الحمى * روت جفوني أي أرض يمموا
نزلوا العذيب وانما هو مهجتي * رحلوا وفي قلب المتيم خيموا

عن سلف من ابائه وحدث فى أيامه رجف وزلازل لم تعهد فيما سلف من الايام قبله وأحدثت فى أيامه ضروب من المحن والالات وكانت فى ايامه حروب وتحزيب الاحزاب من الهند وغيرها وكان عمره الى ان قبضه الله اليه مائة سنة وستا وأربعين سنة ولما قبض الله ناحور قام بعده ولده (تارح) وهو آزر ابو ابراهيم الخليل وفى عصره كان نمروذ بن كنعان وفى ايام نمروذ حدثت فى الارض عبادة النيران والانوار وجعل لها مراتب فى العبادات وكان فى الارض رهج عظيم من حروب واحداث حروب وممالك بالشرق والغرب وغير ذلك وظهر القول باحكام النجوم وصور الافلاك وعملت لها الالات وقرب فهم ذلك الى قلوب الناس فنظر اصحاب النجوم الى طالع السنة التى ولد فيها ابراهيم عليه السلام وماذا يوجب فاخبر النمروذان مولودا يولد يسفه احلامهم ويزيل عباداتهم فامر النمروذ بقتل الولدان واخفى ابراهيم عليه السلام ومات آزر وهو تارح وكان عمره الى ان قبضه الله عز وجل مائتين وستين سنة والله الموفق للصواب

(ذكر قصة ابراهيم عليه السلام ومن تلا عصره من الانبياء والملوك من بنى اسرائيل وغيرهم) ولما نشا ابراهيم عليه السلام وخرج من المغارة التى كان بها وتامل آفاق الارض والعالم وما فيه من دلائل

ماضرهم لو ودعوا من أودعوا * نار الغرام وسلموا من أسلموا
هم فى الحشا ان أعرقوا أو أيمنوا * او أشاموا أو أنجدوا أو أتهموا

وقول الشاعر أبى طاهر الاصفهانى المعروف بالوثانى

أشاعوا افتقالوا وقفة ووداع * وزمت مطايا للرحيل سراع
فقلت وداع لا أطيق عيانه * كفانى من البين المشت سماع
ولم يملك الكتمان قلب ملكته * وعند النوى سر الكتوم مذاع

وقول أبى المجد قاضى ماردين

رعى الله ربعا أنتم فيه أهله * وجاد عليه هاطل وهتون
ولا زال مخضر الجوانب مترع الحياض وفيه للنعيم فنون
لئن قدر الله اللقاء وأينعت * غصون التدانى فالبعاد يهون
وان حكمت أيدى الفراق بعسرة * فكم قضيت للمعسرين ديون

وقول آخر

غبتم فمالى فى التصبر مطمع * عظم الجوى واشتدت الاشواق
لا الدار بعدكم كما كانت ولا * ذاك البهاء بها ولا الاشراق
اشتاقكم وكذا المحب اذا نأى * عنه أحبة قلبه يشتاق

وقول أبى الحسن الهمذانى

ويوم ولت الاظعان عنا * وقوض حاضر وأرن بادى
مددت الى الوداع يدا وأخرى * حبست بها الحياة على فؤادى

وقول ابن الصائغ

قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقا * فظل فى الليل مثل النجم حيرانا
راودته يستعير الصبر بعدهم * فقال انى استعرت اليوم نيرانا

وقول الصدر بن الادمى مكتفيا

يوم توديعى لاحبابى غدا * ذكر مى شاغلى عن كل شى
فرنت نحوى وقالت ياترى * أنت حى فى هوانا قلت مى

وقول غيره

ولى فؤاد مذ نأى شخصهم * ظل كئيبا مدنفا موجعا
ومقلة مهما تذكرتهم * تذرف دمعا أربعا أربعا
وليس لى من حيلة كلما * لجت بى الاشواق الا الدعا
أسال من ألف ما بيننا * وقدر الفرقة أن يجمعا

وقول الرعينى الغرناطى

محاسن ربع قد محاهن ماجرى * من الدمع لما قيل قد رحل الركب
تناقض حالى مذ شجانى فراقهم * فمن أضلعى نار ومن أدمعى سكب

وفى معناه قوله ايضا

الحدوث والتأثير نظر الى الزهرة واشراقها فقال هذا ربي فلما رأى القمر أنور منها قال هذا ربي فلما رأى الشمس أبهر ما رأى قال هذا ربي هذا أكبر وقد تنازع الناس في قول ابراهيم هذا ربي فمنهم من رأى ان ذلك كان على طريق الاستدلال والاستخبار ومنهم من رأى ان ذلك منه كان قبل البلوغ وحال التكليف ومنهم من رأى غير ذلك فأتاه جبريل فعلمه دينه واصطفاه الله نبيا وخليلا وكان قد أوتي رشده من قبل ومن أوتي رشده فقد عصم من الخطا والزلل وعبادة غير الواحد الصمد فعاب ابراهيم عليه السلام على قومه ما رأى من عبادتهم واتخاذهم المجوفات آلهة لهم فلما كثر عليهم ذم ابراهيم لآلهتهم واستفاض ذلك فيهم اتخذ له النمرود النار والقاه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وخمدت النار على سائر بقاع الارض في ذلك اليوم وولد لابراهيم (اسمعيل) عليهما السلام وذلك بعد ان مضى من عمره ست وثمانون او سبع وثمانون سنة وقيل تسعون سنة من هاجر جارية كانت لسارة وكانت سارة اول من آمن بابراهيم عليه السلام وهي ابنة بتوايل ابن ناحور وهي ابنة عم ابراهيم وقد قيل غير هذا مما سنورده بعد هذا الموضع وآمن به لوط بن هاران بن تارح بن ناحور وهو ابن اخي ابراهيم عليه السلام وأرسل الله

وقائلة ماهذه الدرر التي * تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت لها هذا الذي قد حشا به * أبو مضر اذني تساقط من عيني — انتهى

وقول الزمخشري

لم يبكني الا حديث فراقهم * لما أسر به الى مودعي
هو ذلك الدر الذي أودعتم * في مسمعي اجريته من مدمعي

وقول الزعاري

قد بعتهم قلبي يوم بينهم * بنظرة التوديع وهو يحترق
ولم اجد من بعدها الرده * وجها وكان الرد لو لم نفترق

وقول بعض الاندلسيين

ساروا فودعهم طرفي وودعهم * قلبي فما بعدوا عني ولا قربوا
هم الشموس ففي عيني اذا طلعوا * في القادمين وفي قلبي اذا غربوا

وقلت انا مضمنا بديهة

لا كان يوم فراق * ساق الشجون الينا
فكم اذل نفوسا * يا من يعز علينا

وقلت ايضا مضمنا

سلا أحبته من لم يذب كمدا * يوم الوداع وان اجرى الدموع دما
يا من يعز علينا أن نفارقهم * من بعدكم هد ركن الصبر وانهدما
وان نأى الجسم كرها عن منازلكم * فالقلب ثاو بها لم يصحب القدما
وما نسينا عهودا للهوى كرمت * نعم قرعنا عليها سن ندما
واظلمت بالنوى ارجاء مقصدنا * وصار وجدان ألف غيركم عدما

وقلت ايضا مضمنا

لم أنس بالشام أنسا شمت بارقه * جادت معاهده أنواء نيسان
لهفي لعيش قضيناه في مشاهدها * ما بين حسن من الدنيا واحسان

وقلت كذلك

يا جيرة بانوا وابقوا حسرة * تجري دموعي بعدهم وفق القضا
كم قلت اذ ودعتهم والانس لا * ينسى وعهد ودادهم لن يرفضا
يا موقف التوديع ان مدامعي * فضت وفاضت في ثرى ذاك الفضا

وكم تفاءلت بقول الاول مع علمي بان على الله المعول

اذا رأيت الوداع فاصبر * ولا يهمنك البعاد
وانتظر العود عن قريب * فان قلب الوداع عادوا

وضاقت بي الرحاب عند مفارقة اعيان الاحباب والصحاب وكاثرت دموعي من بينهم السحاب وزند التذكر يقدح الاسف فيهيج الانتحاب وقد تمثلنا اذ ذاك والجوانح من الجوى في التهاب وذخائر الصبر ذات انتهاب بقول بعض من مزق البعد منه الاهاب

ولما

ولما نزلنا منزلا طله الندى * انيقا وبستانا من النور حاليا
اجد لنا طيب المكان وحسنه * منى فتمنينا فكنت الامانيا
وقد طفت فى شرق البلاد وغربها * وسيرت خيلى بينها وركابيا
فلم أر منها مثل بغداد منزلا * ولم أرفيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها ارق شمائلا * واعذب الفاظا واحلى معانيا

و يقول من تاسف على مغانى التدانى وهو ابو الحجاج الاندلسى الدانى

الى الله الا ان افارق منزلا * يطالعنى وجه المنى فيه سافرا
كأن على الايام حين غشيته * يمينا فلم احلله الامسافرا

وتخيلنا ان اقامتنا بدمشق وقاها الله كل صرف ما كانت الاخطرة طيف ملم اولمحة طرف

وقفنا ساعة ثم ارتحلنا * ومايغنى المشوق وقوف ساعه
كأن الشمل لم يك فى اجتماع * اذا ماشتت البين اجتماعه

وطالما عللت النفس بالعود اليها ثم الى بقاعى منشدا قول الاديب الشهير بابن الفقاعى

متى عاينت عيناى أعلام حاجر * جعلت مواطى العيس فوق محاجرى
وان لاح من ارض العواصم بارق * رجعت باحشاء صوادصوادر
سقى الله هاتيك المواطن والربا * مواطر أجفان هوام هوامر
وحيا الحيا من ساكنى الحى اوجها * سفرن بانوار زواه زواهر
بحيث زمان الوصل غض وروضه * اريض بازهار بواه بواهر
وحيث جفون الحاسدين غضيضة * رمقن بآماق سواه سواهر

ثم حاولت خاطرى الكليل فيما يشفى بعض الغليل فقال على طريق التضمين وقد غلب عليه الشوق والتخمين

بأبى من أودعوا مذودعوا * قلبى الشوق وللعيس ذميل
جيرة غر كرام خيرة * كل شئ منهم يبدو جميل
وعلى الجملة مالى غيرهم * لو ارادوا ان يميلوا او يميل

ثم قات وقد سدد التنائى الى نبله موطئا للبيت الثالث كما فى الابيات قبله

يادمشقا حياك غيث غزير * ووقاك الاله مما يضير
حسنك الفرد والبدائع جمع * متناه فيه فعز النظير
أين ايامنا بظلك والشمل جميع والعيش غض نضير

ثم اكثرت الالتفات عن اليمين وعن الشمال وقد شبهت البيداء والشوق بيدل الكل والاشتمال وتنسمت من نواحى تلك الارجاء اريج الشمال وضمنت فى المعنى قول بعض من ثنى الحب عطفه وأمال

تنسمت ارواحا سرت من ديار من * بهم كان جمع الشمل لمحة حالم
وجاوبت من يلحى على ذاك جاهلا * بقول لبيب بالعواقب عالم
وما انشق الارواح الا لانها * تمر على تلك الربا والمعالم

مشتق من الافك وهو الكذب على رأى من ذهب الى الاشتقاق وقد ذكرهم الله فى كتابه بقوله والمؤتفكة اهوى وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز مما يلى الاردن و بلاد فلسطين الا ان ذلك فى حيز الشام وهى مبقاة الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة خرابا لا أحد بها والحجارة المسومة موجودة فيها يراها الناس السفار سوداء فاقام فيهم لوط بضعا وعشرين سنة يدعوهم الى الله فلم يؤمنوا فاخذهم العذاب على حسب ما اخبر الله من شأنهم ولما ولد (اسمعيل) هاجر الى مكة فاسكنهم بها وذلك قوله عز وجل يخبر عن ابراهيم رب انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم فاجاب الله دعوته وآنس وحشتهم بجرهم والعماليق وجعل افئدة من الناس تهوى اليهم واهلك الله قوم لوط فى عهد ابراهيم لما كان من فعلهم واتضح من خبرهم ثم أمر الله ابراهيم عليه السلام بذبح ولده فبادر الى طاعة ربه وتله للجبين ففداه الله بذبح عظيم ورفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ثم ولد

 لابراهيم من سارة (اسحق) عليه السلام وذلك بعد مضى عشرين ومائة سنة من عمره وقد تنازع الناس

وما احسن قول الآخر

سرت من نواحى الشام لى نسمة الصبا * وقد اصبحت حسرى من السير ظالعه
ومن عرق مبلولة الجيب بالندى * ومن تعب انفاسها متتابعه

وقلت انا

حمدت وحق الله للشام رحلة * اتاحت لعينى اجتلاء محياه
وبعد التنائى صرت اوتاح للصبا * لان الصبا تسرى بعاطر رياه
فلله عهد قد اتاح بجلق * سرورا لحياه الاله وحياه

واستحضرت عند جد السير قول صفوان بن ادريس المرسى ذكره الله تعالى بالخير

أين ايامنا اللواتى تقضت * اذ زجرنا للوصل ايمن طير

ثم قول غيره ممن حن وأن وقلق قلبه وما اطمان

احن الى مشاهد انس الفى * وعهدى من زيارته قريب
وكنت اظن قرب العهد يطفى * لهيب الشوق فازداد اللهيب

وربما تجلدت مغالطا متعللا بقول من كان لالفه مخالطا

حضرت فكنت فى بصرى مقيما * وغبت فكنت فى وسط الفؤاد
وماشطت بنا دار ولكن * نقلت من السواد الى السواد

وقول غيره

وكن كما شئت من قرب ومن بعد * فالقلب يرعاك ان لم يرعك البصر

وبقول الوداعى

ياعاذلى فى وحدتى بعدهم * وأن ربى مابه من جليس
وكيف يشكو وحدة من له * دمع حميم وأنين انيس

ثم رددت هذه الطريقة بقول بعض من لم يبلعه السلو ريقه

لارعى الله عزمة ضمنت لى * سلوة القلب والتصبر عنهم
ماوفت غير ساعة ثم عادت * مثل قلبى تقول لابد منهم

وبقول ابن آجروم فى مثل هذا الغرض المروم

ياغائبا كان أنسى رهن طلعته * كيف اصطبارى وقد كابدت بينهما
دعواى أنك فى قلبى يعارضها * شوقى اليك فكيف الجمع بينهما

ثم جد بى السير الى مصر واستمر فتذكرت قول الصفدى وقد اشتد بالرمل الحر

اقول وحر الرمل قد زاد وقده * ومالى الى شم النسيم سبيل
اظن نسيم الجو قد مات وانقضى * فعهدى به فى الشام وهو عليل

وقول ابن الخياط

قصدت مصرا من رباجلق * بهمة تجرى بتجريبى
فلم أر الطرة حتى جرت * دموع عينى بالمريزيب

وحين وصلت مصر لم أنس عهد الشام المرعى وانشدت قول الشهاب الحنبلى الزرعى

اسحق لم يدخل الحجاز وان كان الامر بالذبح وقع بالشام فالذبيح اسحق لان اسمعيل لم يدخل الشام بعد ان حمل منه وتوفيت سارة وتزوج ابراهيم بعد ذلك بقنطوراء فولدله منها ستة ذكور وهم مرق ونفس ومدن ومدين وسنان وسرح وتوفى ابراهيم بالشام وكان عمره الى ان قبضه الله عز وجل مائة سنة وخمسا وتسعين سنة وانزل الله عليه عشرا من الصحف وتزوج اسحق بعد ابراهيم بوحاء ابنة بتوايل فولدت له (العيص ويعقوب) فى بطن واحد وكان البادئ منهما الى الفصل عيص ثم يعقوب وكان لاسحق فى وقت مولدهما ستون سنة وذهب بصر اسحق فدعا ليعقوب بالرياسة على اخوته والنبوة فى ولده ودعا العيص بالملك فى ولده وكان عمر اسحق الى ان قبضه الله مائة وخمسا وثمانين سنة ودفن مع أبيه الخليل ومواضع قبورهم مشهورة وذلك على ثمانية عشر ميلا من بيت المقدس فى مسجد هنالك يعرف بمسجد ابراهيم ومراعيه وقد كان اسحق أمر ولده يعقوب بالمسير الى أرض الشام وبشره بالنبوة ونبوة أولاده الاثنى عشر وهم (لاوى ويهوذا ويساخر وزبولون ويوسف وبنيامين ودان

احبتنا والله مذغبت عنكم * سهادى سميرى والمدامع مدرار
ووالله مااخترت الفراق وانه * برغمى ولى فى ذلك الامر أعذار
اذاشام برق الشام طرفى تتابعت * سحائب جفنى والفؤاد به نار
الاليت شعرى هل يعودن شملنا * جميعا وتحوينا ربوع واقطار

وقول ابن عنين

دمشق بنا شوق اليك مبرح * وان لج واش اوألح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وانفاس الرياح شمول
تسلسل منها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وقول آخر

نفسى الفداء لانس كنت اعهده * وطيب عيش تقضى كله كرم
وجيرة كان لى الف بوصلهم * والانس افضل ما بالوصل يغتنم
بالشام خلفتهم ثم انصرفت الى * سواهم فاعترانى بعدهم ألم
كانوا نعيم فؤادى والحياة له * والآن كل وجود بعدهم عدم

فان أنشد لسان الحال فيما اقتضاه معنى البعد عنها والارتحال

ياغائبا قد كنت أحسب قلبه * بسوى دمشق وأهلها لا يعلق
ان كان صدك نيل مصر عنهم * لاغرو فهو لنا العدو الازرق

اتيت فى جوابه بقول بعض من برح الجوى به

لله دهر جمعنا شمل لذته * بالشام أعذب من أمن على فرق
مرت لياليه والايام فى خلس * كأنما سلبته كف مسترق
ما كان احسنها لولا تنقلها * من النعيم الى ذاك من الحرق
رق العذول لحالى بعدها ورثى * لى فى الجوى والنوى والشجو والارق

وبالجملة فتلك الايام من مواسم العمر محسوبة والسعود الى طوالعها منسوبة

وكانت فى دمشق لنا ليال * سرقناهن من ريب الزمان
جعلناهن تاريخ الليالى * وعنوان المسرة والامانى

وهى مغانى التهانى التى ما نسيناها وأمانى زمانى التى نعمت بطور سيناها عليها وعلى وطنى مقصورة والقلب فى المعنى مقيم بهما وان كان فى غيرهما بالصورة والاشواق اليهما قضاياها موجهة وان كانت غير محصورة

ولله عهد قد تقضى وان يعد * فانى عن الايام أعفو وأصفح
بقلبى من ذكراه ما ليس ينقضى * ومن برحاء الشوق ما ليس يبرح
اذا مسحت كفى الدموع تسترا * بدت زفرة بين الجوانح تقدح
فان جمعت شملى الليالى بقربهم * تجمع غيلان ومى وصيدح
على انها الايام جد مزاحها * ورب مجد فى الاذى وهو يمزح

وكثيرا ما يلهج اللسان بقول من قال

ونفتالى وكاد واشار وشمعون وروبيل) هؤلاء الاسباط والنبوة والملك فى عقب اربعة منهم لاوى ويهوذا ويوسف وبنيامين وكثر جزع يعقوب من اخيه العيص فآمنه الله من ذلك] وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم فاعطى يعقوب لاخيه العيص العشر من غنمه استكفاء للشر وخوفا من سطوته من بعد ان آمنه الله عز وجل من خوفه وان لا سبيل له عليه فعاقبه الله فى ولده لمخالفته لوعده فاوحى الله تعالى اليه ألم تطمئن الى قولى فلأجعلن ولد العيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين عاما وكانت المدة مدة أخربت الروم بيت المقدس واستعبدت بنى اسرائيل الى ان فتح عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بيت المقدس وكان أحب ولد يعقوب اليه (يوسف) فحسده اخوته على ذلك وكان من امره مع اخوته ما قص الله عز وجل فى كتابه وأخبر على لسان نبيه واشتهر ذلك فى امته وقبض الله عز وجل يعقوب ببلاد مصر وهو ابن مائة واربعين سنة فحمله يوسف فدفنه ببلاد فلسطين عند تربة ابراهيم واسحق وقبض الله يوسف بمصر وله مائة وعشرون سنة وجعل فى تابوت من الرخام وسد بالرصاص وطلى بالاطلية الدافعة للهواء والماء وطرح فى نيل مصر نحو مدينة منف وهنالك مسجده وقيل ان يوسف اوصى ان يحمل فيدفن

وما تفضل الاوقات اخرى لذاتها * ولكن اوقات الحسان حسان

ويردد قول من شوقه متجدد

سقى معهد الاحباب ناقع صيب * من المزن عن مغناه ليس يريم
وان لم اكن من ساكنيه فانه * يحل به خل على كريم

وينشد من يلوم قول من في حشاه وله وفي قلبه كلوم

قد أصبح آخر الهوى اوّله * فالعاذل في هواك مالي وله
بالله عليك خل ما اواه * وارحم دنفا الذي حشاه وله

وقد امتدّ بنا الكلام وربما يجعله اللاحي ذريعة لزيادة الملام فلنرجع الى ما كنا بصدده من اجابة المولى الشاهيني أمده الله سبحانه بمدده فاقول مستمدّا من واهب العقول اني شرعت بعد الاستقرار بمصر في المطلوب وكتبت منه نبذة تستحسنها من المحبين الاسماع والقلوب وسلكت في ترتيبه احسن أسلوب وعرضت في سوقه كل نفيس غريب من الغرب الى الشرق مجلوب تستحسن الابصار ما عليه احتوى وتعرف الافكار أنه غير مجتوى ثم وقف بي مركب العزم عن التمام واستوى فاخرته تاخير الغريم لدين الكريم وعدّتني أعراض عن تكميل ما يشتمل عليه من أغراض وأضربت برهة عماله من منحى لاختلاف احوال الدهر نفعا ودفعا ومنعا ومنحا ومرقت عن هدف الاصابة نبال وطرقت في سدف ليالي الكتابة أمور لم تكن تخطر ببال فجاءتني من المولى المذكور آنفا رسالة دالة على انه لم يكن عن انتجاز الوعد متجانفا فعدت لقضاء الوطر مستقبلا وللجملة مستانفا وحدا بي خطابه الجسيم للاتمام وساقني وراقني كتابه الكريم لتلك الايام وشاقني وذكرني تلك الليالي التي لم انسها وحركني لتلك المعاهد التي لم ازل اذكر انسها الالف لا يصبر عن الفه الا كما يطرف بالعين وقد صبرنا عنهم مدة ما هكذا شأن المحبين فياله من كتاب كريم اعرب عن ود صميم وذكر بعهد غير ذميم وود طيب العرف والشميم يخجل ابن المعتز ببلاغته وابن المعز تميم

ولم تر عيناي من قبله * كتابا حوى بعض ما قد حوى
كأن المباسم ميماته * ولاماته الصدغ لما التوى
واعينه كعيون الحسان * تغازلنا عند ذكر الهوى
كتاب ذكرنا بالفاظه * عهودا زكت بالحمى واللوى

فكأنه الروض المطرد الانهار والدوح المدبج الازهار

رأيناه روضا تدبج وشيه * اذا جاد من تلك الايادي غمائم
به ألفات كالغصون وقد علا * عليها من الهمز المطل حمائم

وقد سقيت بانهار البراعة السلسالة حدائق حلت بها غانية تلك الرسالة لتشفي صبها بالزيارة وتشرف بدنوها دياره

زارت الصب في ليال من البعد فلما دنت رأى الصبح يلمع
قلدت بالعقيان جيد بيان * ليس فيه للفتح من بعد مطمع

عند قبر أبيه يعقوب في مسجد ابراهيم عليه الصلاة والسلام وكان في عصره (أيوب) النبي صلى الله عليه وسلم وهو ايوب بن موص ابن رزاح بن رعوايل بن العيص بن اسحق بن ابراهيم عليهما السلام وذلك في بلاد الشام من ارض حوران والبثنية من بلاد دمشق والجابية وكان كثير المال والولد فابتلاه الله في نفسه وماله وولده فصبر ورد الله عليه ذلك وأقاله عثرته واقتص ما اقتص من اخباره في كتابه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ومسجده والعين التي اغتسل منها في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة مشهوران ببلاد نوى والجولان فيما بين دمشق وطبرية من بلاد الاردن وهذا المسجد والعين على ثلاثة اميال من مدينة نوى ونحو ذلك والحجر الذي كان ياوي اليه في حال بلائه هو وزوجته واسمها رحمة في ذلك المسجد الى هذا الوقت وذكر أهل التوراة والكتب الاولى ان (موسى) بن ميشا بن يوسف ابن يعقوب نبي قبل موسى ابن عمران وانه هو الذي طلب الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح وذكر بعض اهل الكتب ان الخضر هو خضرون بن عمايئيل بن النصر بن العيص بن اسحق بن ابراهيم وانه ارسل الى قومه فاستجابوا له فكان (موسى) بن عمران

فشفت

شفت النفس من آلامها وأحييت ميت الهوى مذ حييت بعذب كلامها

كلام كالجواهر حين يبدو * وكالند العنبر اذ يفوح
له فى ظاهر الالفاظ جسم * ولكن المعانى فيه روح

فصيرت لى ذلك الكتاب سميرا ووردت من السرور مشرعا غميرا وتمثلت بقول بعض من اخلص فى الود ضميرا

يا مفردا أهدى الى كتابه * جلا بحار الذهن فى اثنائها
كالدر اشرق فى سموط عقوده * والزهر والانوار غب سمائها
فافادنى جذلا وبالى كاسد * واجار نفسى من جوى برحائها
وحسبت ايام الشباب رجعن لى * فلبست حلى جمالها وبهائها
لا يعدم الاخوان منك محاسنا * كل المفاخر قطرة من مائها

فاكرم به من كتاب جاء من السرى العلى والماجد الاخ الولى

فضضت ختامه فتبينت لى * معانيه عن الخبر الجلى
وكان ألذ فى عينى وأندى * على كبدى من الزهر الجنى
وضمن صدره ما لم تضمن * صدور الغانيات من الحلى

وأعرب عن اعتماد متماد وودادٍ مزداد وأطاب حين أطال وادى دين الفصاحة دون مطال واشتمل من فصول العبارة على احسن من الحدق المراض * وأتى من اصول البراعة ببراهين ابن شاهين التى لا خلف فيها ولا اعتراض وروينا من غيث انامله الهتون وروينا عنه مسند احمد حسن الاسانيد والمتون وحثنا على العود والرجوع وكان اجدى من الماء الزلال لذى ظما والمشتهى من الطعام لذى سغب وجوع

واشهى فى القلوب من الامانى * واحلى فى العيون من الهجوع

وجلا بنوره ظلام استيحاشى وحشر الى اشتات المسرات دون ان يحاشى ووجدنى فى مكابدة شغوب واشغال اشربت القلب الكسل واللغوب وحيرت الخواطر وصيرت سحب الاقلام غير مواطر فزحزح عنى الغموم وسلانى واولانى شكر الله صنيعه من المسرات ما اولانى

حديثه اوحديث عنه يطربنى * هذا اذا غاب اوهذا اذا حضرا
كلاهما حسن عندى أسربه * لكن احلاهما ما وافق النظرا

وقال آخر

لست مستأنسا بشئ اذا غبـ * ـت سوى ذكرك الذى لا يغيب
أنت دون الجلاس عندى وان كنـ * ـت بعيدا فالانس منك قريب

وضمنت فيه لما ورد مع جملة كتب من تلك الناحية وأنوار أهلها ذوى الفضائل الشهيرة أظهر من شمس الظهيرة فى السماء الصاحية

قلت لما أتت من الشام كتب * من أجلاء نورهم يتألق
مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا * بعيون رأت محاسن جلق

ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب بمصر فى زمن فرعون الجبار وهو الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبى غير بن الهلواس بن ليث بن هران ابن عمر بن عملاق وهو الرابع من فراعنة مصر وقد كان طال عمره وعظم جسمه وكان بنو اسرائيل قد استرقوا بعد مضى يوسف واشتد عليهم البلاء واخبر أهل الكهانة والنجوم والسحر فرعون ان مولودا سيولد ويزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر امورا عظيمة فجزع لذلك فرعون وامر بذبح الاطفال وكان من امر موسى ما اوحى الله عز وجل الى امه فى امره أن اقذفيه فقذفته فى اليم الى آخر ما اقتص من خبره واوضحه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وكان فى ذلك الزمان (شعيب) صلى الله عليه وسلم وهو شعيب بن تويت بن رعويل بن مر ابن عنقاء بن مدين بن ابراهيم فكان لسانه عربيا وكان مبعوثا من اهل مدين فلما خرج موسى عليه السلام هاربا من فرعون مر بشعيب النبى صلى الله عليه وسلم وكان من امره معه وتزويجه ابنته ما قد ذكره الله عز وجل فكلم الله موسى تكليما وشد عضده باخيه (هرون) وبعثهما الى فرعون فخالفهما فاغرق الله عز وجل فرعون وامره الله عز وجل بالخروج ببنى اسرائيل الى التيه وكان عددهم ستمائة الف

وقلت أيضا

قلت لما وافت من الشام كتب * والليالى تتيح قربا وبعدا
مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا * بعيون رأت محاسن سعدى

وكان من فصول هذا الكتاب الوارد من المولى الشاهينى الذى اقتنص بفضله كل شارد مانصه ومما استخلص قلبي من يدى ترحى وجدد سرورى ونبه فرحى حديث الكتاب وما حديث الكتاب حديث نسخ بحلاوته مرارة العتاب وأنسانى حرارة المصاب فى الانسال والاعقاب وقضى به من حق لسان الدين دينه الذى تبرع به غريم ملىء من البلاغة وهو غير مدين حتى كانى ياسيدى بهذه البشرى أحرزت سوارى كسرى وكان فى مسمعى كل حرف اليها منسوب قميص يوسف فى أجفان يعقوب وحتى كدت أهجر اهلى وبيتى وأسرج لاستقبال هذه البشرى أشهبي وكميتى وحتى اننى حاربت نومى وقومى وعزمت على ان أرحل ناقتى فى وقتى ويومى وان ذلك التغليس والتهجير فى جنب مابشرت به لحقير وان موقعها لدى هذا العبد الحقير لخطير وقد كنت سألت شيخى حين ورد دمشق الشام واشتم منها العرار والبشام وشرفنى فعرفنى وشاهدنى فعاهدنى على ان يجرى مادار بيننا لدى المجاورة من المسامرة والمحاورة فى ديباجة ذلك الكتاب الذى فتن العقول خبره وسحر الالباب وماقصدت الا أن يجرى اسمى على قلمه ويرقم رسمى فى مطاوى تحريره وورقه ويكون ذكرى مختلطا بذكره كما أن سرى مرتبط فى المحبة بسره فرأيت شيخى لم يتصد فى أثناء هذه البشرى لما يفهمنى بالذكرى لانتظر النجاح فى الاخرى ولم يساعدنى على ذلك الملتمس وحبس عنان القلم فاحتبس فانكسرت سورة سرورى بفتورى وتبين لنفسى عن بلوغ ذلك الامل تخلفى وقصورى انتهى * (ثم قال) بعد كلام طويل لم نذكره لعدم تعلقه بهذا الغرض ماصورته

وحسبت أن سيدى وحاشاه نسى من ليس ينساه وظننت به الظنون لامور تكون اولا تكون وهل يكره سيدى وشيخى أن يهدى الدنيا فى طبق ثم الاخرى على ذلك النسق ولا شك أن خطه هو الروضة الغنا لابل جنة المأوى فطوبى لنفسى ان جنت ثمرته طوبى ولعمر شيخى انى بذلك لجدير وانى كنت أملك به الخورنق والسدير انتهى مايتعلق بالغرض من ذلك الرقيم الذى شكل منطقه غير عقيم سلك الله تعالى بى وبمن وجهه الصراط المستقيم وأتى فى المكتوب بانواع من البلاغه مما تركت ذكره هنا لعدم تعلقه بهذا الامر الخاص الذى يسر لكارع الادب مساغه وختمه بقصيدة نفيسة من نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد وأشهد انه قد حاز فيها قصب السبق والمجد وماقلت الا بالذى علمت سعد * وهذه صورتها

ياسيدا أفديه بالاكثر * من أصغر العالم والاكبر
وياوحيدا قل قولى له * عطارد أنت مع المشترى
ويامجيدا ليس عندى له * الامقال المادح المكثر
أقسمت بالبيت العتيق الذى * حجت اليه الناس والمشعر

بالغ دون من ليس ببالغ وكانت الالواح التى انزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرذ اخضر فيها كتابة بالذهب فلما نزل من الجبل راى قوما من بنى اسرائيل قد اعتكفوا على عبادة عجل لهم فارتعد فسقطت الالواح من يده فتكسرت فجمعها واودعها تابوت السكينة مع غيرها وجعله فى الهيكل وكان هرون كاهنا وهو قيم الهيكل واتم الله عز وجل نزول التوراة على موسى بن عمران وهو فى التيه وقبض الله هرون فى التيه فدفن فى جبل مران من نحو جبل الشراة مما يلى الطور وقبره مشهور فى مغارة عادية يسمع منها فى بعض الليالى دوى عظيم يجزع منه كل ذى روح وقيل انه غير مدفون بل هو موضوع فى تلك المغارة ولهذا الموضع خبر عجيب قد ذكرناه فى كتابنا أخبار الزمان عن الامم الماضية والممالك الداثرة ومن وصل الى هذا الموضع علم ما وصفنا وكان ذلك قبل وفاة موسى بسبعة اشهر وقبض الله هرون وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة وقيل انه قبض وهو ابن مائة وعشرين وقيل ان موسى قبض بعد وفاة هرون بثلاث سنين وانه خرج الى الشام وكان له بها حروب من سرايا كانوا يسرونها من البر الى العماليق والعربانيين والمدينيين وغيرهم ممن كان بالشام وغيرهم

ماللعلا

مالعلا والعلم الا أبو العباس شيخي أحمد المقري

ذاك الذي آثرني منه بالعلم الذي للغير لم يؤثر

وخصني منه باشياء لم * يفز بها غيري ولم يعثر
فرحت عبدا ذا وفاء له * معترفا بالرق لا امتري
فيا أبا العباس يا من غدا * أعظم في نفسي من معشري
ومن اذا ما غاب عن ناظري * كان سمير القلب للمحضر

هات أفدني سيدي عن علا المولى لسان الدين ذاك السري

ذاك الوحيد الفذ في عصره * بل أوحد الادهر والاعصر
ذاك الذي أخبرني سيدي * عنه مزايا بعد لم تحصر
ذاك الذي العيوق لا يعتلي * الى معاليه ولا يجتري
ما قد وعدت العبد في جمعه * من خبر عن فضله مسفر
بخطك الوضاح وهو الذي * مخبره يربى على المنظر
والشئ لا يرجى اذا ما غدا * منظره يربى على المخبر
نقش على طرس بياض كما * لاحت عيون الرشا الاحور
وأسطر قد سلسلت مثل ما * لاح عذار الشادن الاخفر
ونزهة الانفس معنى غدا * ما بينها ينساب كالكوثر
عذب رقيق مثل ظبي غدا * يلوح طاوي الكشح أو جؤذر
آثار اقلامك وهي التي * أغنت عن الابيض والاسمر
يراعك الجامع راو غدا * يروي اللغى عن لفظك الجوهري
ينثر مسكا تارة ناظما * وينظم الجوهر بالعنبر
هذا ابن شاهين الفتى أحمد * عن ذكرك المأنوس لم يفتر
فاجعل له ذكرا كريما به * يزدان مغبوطا الى المحشر
واذكر بيوتاتي وكل الذي * كتبته نحوك في دفتري
أنت جدير بمديحي فكن * ذاكر عبد بالوفا أجدر
وها كها سيارة اعنقت * على جواد كان للبحتري
طرف كريم سابق صافن * مطهم ذي ادب او فر
ورثته منه ولكنما * من شاعر وافي الى أشعر
ما للفتى الطائي شوط امرئ * يصطاد نسر الجو بالمنسر
واسلم لعبد لا يرى سيدا * سوى الذي في ثوبك الاطهر
في كرم العنصر فردا غدا * طبعك فاشكر كرم العنصر
ماحن مشتاق أخو صبوة * الى خليل في الهوى مفكر

انتهت

فلما وصلني هذا الخطاب الذي ملأ من الفصاحة الوطاب وحلى في عيني وقلبي وطاب تحرك كت دواعي الوجد لذلك المجد الذي ولعت به ولوع ابن الدمينة بصبا نجد وأثار من

من الطوائف على حسب ما في التوراة وانزل الله عزوجل على موسى عشر صحف فاستتم مائة صحيفة ثم انزل الله عليه التوراة بالعبرية وفيها الامر والنهي والتحريم والتحليل والسنن والاحكام وذلك في خمسة اسفار والسفر يريدون به الصحيفة وكان موسى قد ضرب التابوت الذي فيه السكينة من الذهب من ستمائة الف مثقال وسبعمائة وخمسين مثقالا فصار الكاهن بعد هرون (يوشع بن نون) من سبط يوسف وقبض الله موسى وهو ابن عشرين ومائة سنة ولم يحدث لموسى ولا لهرون شئ من الشيب ولا حالا عن صفة الشباب ولما قبض الله عزوجل موسى بن عمران سار يوشع بن نون ببني اسرائيل الى بلاد الشام وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام فاسرى اليهم يوشع بن نون سرايا وكانت له معهم وقائع فافتتح بلاد أريحاء من أرض الغور وهي أرض البحيرة المنتنة التي لا تقبل الغرقاء ولا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا غيره وقد ذكرها صاحب المنطق وغيره من الفلاسفة ومن تقدم وتأخر من عصره واليها ينتهي ماء بحيرة طبرية وهو الاردن وبدء ماء بحيرة طبرية من بحيرة كقولي وفرعون من أرض دمشق فاذا انتهى مصب

ألهيام والاوار ما يزيد على ما حصل للفرزدق لما فارق النوار وتضاعف الشوق الى تلك الانجاد والاغوار منشدا قول الاول لعل أبى المغوار وتذكرت والذكرى شجون وأطوار تلك الاضواء والانوار المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن وجرى نهره غير آسن فلم يذم فيه الجوار

وان اصطبارى عن معاهد جلق * غريب فما اجفى الفراق واجفانى
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها * كحلت بها من شدّة الشوق أجفانى

وحصل التصميم على التكميل للتاليف والتتميم رعيا لهذا الولى الحميم أفاض الله تعالى عليه غيث البر العميم وأبقى ظل عزه ممدودا وحلى سودده مودودا وأناله من الخيرات ما ليس محصورا ولا معدودا وجمعنى واياه واطلع لى بشر محياه وانشقنى عرف اجتماعه ورياه وكيف لا أستديم أمد بقياه وأعتقد البشائر فى لقياه واسقى غروس الود بسقياه وهو الصدر الذى أصفى لى الوداد والركن الذى لى بثبوته اعتماد واعتداد

فعليه من مصفى هواه تحية * كالمسك لما فض عنه ختام
تترى بساحته السنية ما دعت * فوق الغصون هديلهن حمام

ودامت فضائله ظاهرة كالشمس محروسة بالسبع المثانى معوّذة بالخمس

ولا انفك ما يرجوه أقرب من غد * ولا زال ما يخشاه أبعد من أمس

وبقى من العناية فى حرم امين آمين * (ولما) حصل لى كمال الاغتباط بما دل على صحة حال الارتباط نشر بساط الانبساط وحدثت لى قوّة النشاط وانقشعت عنى سحائب الكسل وانجابت وناديت فكرتى فلبت مع ضعفها وأجابت فاقتدحت من القريحة زندا كان شحاحا وجمعت من مقيداتى حسانا وصحاحا وكنت كتبت شطره وملأت بما تيسر هامشه وسطره ورقت من انباء لسان الدين بن الخطيب حللا لا تخلق جدتها الاعصر وسلكت من التعريف به رحمه الله مهامه تكل فيها واسعات الخطا وتقصر فحدث لى بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الاندلس جملة ومن كان يعضد به الاسلام وينصر وبعض مفاخرها الباسقة ومآثر أهلها المتناسقة لان كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر وجئت من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبله وتظهر له ونبله وتترع كأس محاسنه من راح المذاكرة واناوه حتى يرى حسن هذا التأليف ابناء هذا التصنيف وادباؤه وكنت فى المغرب وظلال الشباب ضافية وسماء الافكار من قزع الاكدار صافية معتنيا بالفحص عن أنباء أبناء الاندلس واخبار اهلها التى تنشرح لها الصدور والانفس وما لهم من السبق فى ميدان العلوم والتقدّم فى جهاد العدوّ الظلوم ومحاسن بلادهم ومواطن جدالهم وجلادهم حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الافاضل الاخيار وانتقيت جواهر فرائدها للعقول بواهر واقتطفت ازاهر انجمها فى افق المحاضرة زواهر وحصلت فوائد بواطن وظواهر طالما كانت اعين الالباء لنيلها سواهر وجمعت من ذلك كلما عالية لو خاطب بها الداعى صم الجلامد لانبجس حجرها وحكما غالية لو عامل بها الايام ربح متجرها واسجاعا تهتز لها الاعطاف ومواعظ يعمل بمقتضاها من حفت به الالطاف وقوافى موثورة

نهر الاردن الى البحيرة المنتنة خرقها وانتهى الى وسطها متميزا عن مائها فيغوص فى وسطها وهو نهر عظيم فلا يدرى اين غاص من غير ان يزيد من البحيرة ولا ينقص منها ولهذه البحيرة اعنى المنتنة اخبار عجيبة وقصة طويلة وقد اتينا على ذلك فى كتابنا اخبار الزمان عن الامم الماضية والملوك الداثرة وذكرنا اخبار الاحجار التى تخرج منها على صورة البطيخ على شكلين ويعرف الواحد منها بالحجر اليهودى وذكرته الفلاسفة واستعملته فى الطب لمن به وجع الحصاة فى المثانة وهو نوعان ذكر وانثى فالذكر للرجال والانثى للنساء ومن هذه البحيرة يخرج الغبار المعروف بالحمرة وليس فى الدنيا والله اعلم بحيرة لا يتكون فيها ذو روح من سمك وغيره الا هذه البحيرة وبحيرة ركبتها ببلاد اذربيجان بين مدينة ارمينية ومنارة وهى المعروفة هناك بكنودان وقد ذكر الناس ممن تقدّم عذر عدم تكوّن الحيوان فى البحيرة المنتنة ولم يتعرضوا لبحيرة كنودان وينبغى على قياس قولهم ان تكون علتهما واحدة وسار ملك الشام وهو السميدع بن هوبر بن مالك الى يوشع بن نون فكانت بينهم حروب الى ان قتله يوشع واحتوى على جميع ملكه والحق به غيره من الجبابرة والعماليق وشن الغارات بارض الشام

القوادم

القوادم والخوافي يثني عليهما من سلم من الغباوة والصمم ويعترف ببراعتهما من لا يعتريه الم وطالما عرض الجاهل الغمر بوجهه عن مثلها واشاح وانصت لها الحبر انصات السوار لجرس الحلي ونغم الوشاح وفرح ان ظفر بشئ منها فرح الصائد بالقنيص والساري العاري ذي البطن الخميص بالزاد والقميص وتركت الجميع بالمغرب ولم استصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويعرب الا نزرا يسيرا علق بحفظي وحليت بجواهره جيد لفظي وبعض اوراق سعد في جواب السؤال بها حظي ولو حضرني الآن ما خلفته مما جمعت في ذلك الغرض والفن لقرت به عيون وسرت الباب اذ هو والله الغاية في هذا الباب ولكن المرء ابن وقته وساعته وكل ينفق على قدر وسعه واستطاعته وعذر مثلي باد للمنصفين من العباد ان قصرت فيما بصرت أو تخلفت في الذي تكلفت أو أضعت تحرير ما وضعت والتقمت ثدي التقصير ورضعت أو أطعت داعي التواني فتأخرت عمن سبق وانقطعت ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ومن كانت بضاعته مزجاة فهو من الانصاف بمنجاة اذا أتى بالمقدور وتبرأ من الدعوى في الورود والصدور وعين الرضا عن كل عيب كليلة والسلامة من الملامة متعذرة أو قليلة وقد قال امامنا مالك صاحب المناقب الجليلة كل كلام يؤخذ منه ويرد الا كلام صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم أزكى صلاة وأتم سلام وشفى بجاهه من الآلام قلوبنا العليلة وجعلنا ممن كان اتباع سنته رائده ودليله آمين والحمد لله الذي يسر لي هذا القدر مع ضيق الصدر وقلة بضاعتي وكثرة اضاعتي فان حمده جل جلاله تتضوع به المطالب طيبا وتقضي ببركته المآرب فيرقى صاحبها على منبر القبول خطيبا وتعذب به المشارب فتنبت في أرض القرطاس من زاكي الغراس ما يروق منظرا نضيرا ويورق غصنا رطيبا وقد أتيت من المقال بما يقر ان شاء الله تعالى عين وامق ويرغم أنف قال وان كنت ممن هو في ثوب الهوى رافل وعن نسبته للقصور غير غافل ومن جعل النفس هدفا وصير مكان الدر صدفا اذ لسان الدين بن الخطيب امام هذه الفنون المحقق لذوي الآمال الظنون المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون وله اليد الطولى في العلوم على اختلاف أجناسها والالفاظ الرائقة التي تزيح وحشة الانفس بايناسها

ناهيك من فرد أغر ممدح * رحب الذراع حر الكلام محسد
بهر الانام رياسة وسياسة * وجلالة في المنتمى والمحتد
وأتى بكل بديعة في نوعها * لم تخترع وغريبة لم تعهد
ما شئت من شعر أرق من الصبا * وكتابة أزهى من الزهر الندي
وبديع قرطاس توشح متنه * بمنمنم من رقه ومنجد
بهج كأن الحسن حل أديمه * فكساه ريعان الشباب الاغيد
كالبرد في توشيعه والسلك في * ترصيعه والوشي نمق باليد
وكأنما سال العذار عليه أو * خطته أيدي الغانيات باثمد
يختال بين موصل ومفصل * ومطرز ومنظم ومنضد
قد قيد الابصار والافكار من * ألفاظه بمثقف ومقيد

وكانت مدة يوشع بن نون في بني اسرائيل بعد وفاة موسى بن عمران تسعا وعشرين سنة وهو يوشع بن نون بن افرائيم ابن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم وقيل ان يوشع بن نون كان بدء محاربته لملك العماليق وهو السميدع ببلاد ايلة نحو مدين ففي ذلك يقول عوف بن سعيد الجرهمي

ألم تر ان العلقمي بن هوبر * بايلة أمسى لحمه قد تمزعا
تداعت اليه من يهود جحافل * ثلاثون ألفا حاسرين ودرعا
فامست عداد العماليق بعده * على الارض مشيا مصعدين وفزعا
كأن لم يكونوا بين أجبال مكة * ولم يروا قبل ذاك السميدعا

وكان بقرية من قرى البلقاء من بلاد الشام رجل يقال له بلعم بن باعوراء بن سنور بن وسيم بن ناب بن لوط ابن هاران وكان مستجاب الدعوة فحمله قومه على الدعاء على يوشع بن نون فلم يتأت له ذلك وعجز عنه فاشار على بعض ملوك العماليق ان يبرزوا الحسان من النساء نحو عسكر يوشع بن نون ففعلوا فتسرعوا الى النساء فوقع فيهم الطاعون فهلك منهم سبعون ألفا وقيل ان يوشع بن نون قبض وهو ابن مائة وعشرين سنة وقام في بني اسرائيل بعد يوشع بن نون (كالب) ابن يوقنا بن بارض بن يهوذا ويوشع وكالب الرجلان اللذان انعم الله عليهما (قال المسعودي) ووجدت

ما فيه مغرز أصبع الا وفيه نتيجة لمفرع ومولد
ولكل جزء حكمة أو ملحة * أو بدعة لمرسل ومقصد
أو ليس مثلى قاصرا عن وصفه * والحق نور واضح للمهتدى

وكما قلت وقد عجزت عن أداء الواجب وحاولت المسنون وفضل الله سبحانه على من يشاء من عباده ليس بممنوع ولا ممنون

ليت شعرى أى العبارات توفى * واجب ابن الخطيب مما أروم
وأنا عاجز عن البعض منها * لقصورى وما العيى ملوم
وهو يدعى لسان دين وناهيك افتخارا به تتم الرسوم
فبأى الحلى أحلى على من * نال فضلا روته عرب وروم
وعلى الفرض ما الذى أتحدى منه لدى الوصف ان يخص العموم
ألحفظ قدار توى من معين * اصواب عليه كل يحوم
أم افهم يستخرج الدر غوصا * من بحار يخشى بها من يعوم
أم لفكر مؤلف فى فنون * عن دهاء به تداوى الكلوم
أم لنظم كأنه جوهر السلك غلا قدره على من يسوم
تتباهى به الصدور حليا * وتروق العيون منه نجوم
أم لنثر وافى بسحر بيان * فهو كالروح والمعانى جسوم
وأظلته للبديع سماء * تتلالا فى جانبيها العلوم
فاستزادت منه النفوس رشادا * واستزانت منه النهى والحلوم
أم لخط منمنم فاق حسنا * مثل وشى تلوح منه الرقوم
أو كزهر فى بهجة ورواء * وأريج به تزاح الغموم
والغصون الاقلام والطرس روض * ناضر والمداد غيث سجوم
تلك ست أعجزن وصفى فانى * بسواها مما يجل أقوم

ولم يكن جمعى علم الله هذا التأليف لرفد أستهديه أو عرض نائل أستجديه بل لحق ود أؤديه ودين وعد أقدمه وأبديه ووقوف عند حد لا يجوز تعدّيه وتلبية داع أحييه وأعدّبه

ان من يرجو نوال الوندى * من بنى الدنيا لذو حظ غبين
فلقد كان على غير الهدى * من يسوّيهم برب العالمين
ويرجى منهم الرزق فهل * خالق الكل فقير أو ضنين
أنخلى قصد رب مالك * ونرى للخلق جهلا قاصدين
مالنا من مخلص نأتى به * غير جاه المصطفى الهادى الامين
سيد الخلق العماد المرتجى * للملمات شفيع المذنبين
فعليه صلوات تنتحى * حضرة حل بها فى كل حين
والرضا من بعد عن أربعة * هم بحق أمراء المؤمنين
فيمينا ان من يهواهم * ليكونن من أصحاب اليمين

فى نسخة ان القائم فى بنى اسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون (وشان) الكعرى وانه أقام فيهم ثمانين سنه وهلك وملك (عمايل) بن قاثم من سبط يهوذا أربعين سنة وقيل (كوش) جبار كان فى آب من أرض البلقاء وان بنى اسرائيل كفرت بعد ذلك فلك الله عليهم (كنعان) عشر سنين وهلك فكان على بنى اسرائيل (علان) الاخبارى أربعين سنة (ثم قام سمويه) الى أن وليهم طالوت وخرج عليهم جالوت الجبار ملك البربر من أرض فلسطين (قال المسعودى) فاما على الرواية الاولى التى قدمنا ذكرها فالقائم بعده فى بنى اسرائيل والمدبر لهم فنحاص ابن العازر بن هرون بن عمران ثلاثين سنة وكان عمد الى مصاحف موسى بن عمران عليه السلام فجعلها فى خابية نحاس ورصص رأسها وأتى بها صخرة بيت المقدس وذلك قبل بنائه وانفرجت فاذا مغارة فيها صخرة ثانية فوضع الخابية فيها وانضمت الصخرة على ذلك ككونها اوّلا ولما هلك فينحاس بن العزر دبر امرهم كوشان بن لاسم ملك الجزيرة فتعبد بنى اسرائيل واخذهم البلاء ثمان سنين ثم دبرهم عثنيثال بن قناز اخو كالاب من سبط يهوذا اربعين سنة ثم دبرهم عفلون ملك هاب بجهد شديد ثمان عشرة سنة ثم دبرهم اهود من ولد افرايم

وسط

وسط جنات تحييه بها * آنسات قاصرات الطرف عين
بقوارير لجين شربه * واباريق وكاس من معين
والذي شرفهم يمنحنا * حبهم والكون معهم اجمعين

فدونك ايها الناظر فى هذا الكتاب المتجافى عن مذهب النقد والعتاب كلمات سوانح اختلست مع اشتغال الجوانح وتضاد الامور الموانع والموانح والفاظا بوارح اقتنصت بين اشتغال الجوارح وطرفا أسمت الطرف فى مرعاها وكانت هملا غير سوارح وتحفا يحصل بها لناظره الامتاع ولا يعدها من سقط المتاع المبتاع ويلهج بها المرتاح ويستانس المستوحش المرتاع

وبعد ان ختمت تمام هذا التصنيف وامعنت النظر فيما يحصل به التقريظ لسامعه والتشنيف قسمته قسمين وكل منهما مستقل بالمطلوب فيصح ان يسميا باسمين

(القسم الاول) فيما يتعلق بالاندلس من الاخبار المترعة الاكواب والانباء المنتخبة صوب الصواب الرائقة من الافادة فى سوابغ الاثواب وفيه بحسب القصد والاقتصار وتحرى التوسط فى بعض المواضع دون الاختصار ثمانية من الابواب

(الباب الاول) فى وصف جزيرة الاندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيرها وكمالها واستوائها واشتمالها على كثير من المنافع والمحاسن واحتوائها وكرم نباتها الذى سقته سماء البركات من جنباتها بنافع انوائها وذكر بعض مآثرها المجلوة الصور وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور المستمدة من اضوائها

(الباب الثانى) فى القاء بلد الاندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وصيرورتها ميدانا لسبق الجياد ومحط رحال الارتياء والارتياد وما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه ازدياد ونبا وصل اليه اعتيام وتقرر بمثله اعتياد

(الباب الثالث) فى سرد بعض ما كان للدين بالاندلس من العز السامى العماد والقهر للعدو فى الرواح والغدو والتحرك للهدو البالغ غاية الآماد واعمال اهلها للجهاد بالجد والاجتهاد فى الجبال والوهاد بالاسنة المشرعة والسيوف المستلة من الاغماد

(الباب الرابع) فى ذكر قرطبة التى كانت الخلافة بمصرها للاعداء قاهرة وجامعها الاموى ذى البدائع الباهية الباهرة والالماع بحضرتى الملك الزهراء الناصرية والعامرية الزاهرة ووصف جملة من منتزهات تلك الاقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة وما يجر اليه شجون الحديث من أمور تقضى بحسن ايرادها القرائح الوقادة والافكار الماهرة

(الباب الخامس) فى التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق الذاكية العرار والبشام ومدح جماعة من اولئك الاعلام ذوى الالباب الراجحة والاحلام لشامة وجنة الارض دمشق الشام وما اقتضته المناسبة من كلام اعيانها وارباب بيانها ذوى السودد والاحتشام ومخاطباتهم للمؤلف الفقير حين حلها عام سبعة وثلاثين والف وشاهد برق فضلها المبين وشام

(الباب السادس) فى ذكر بعض الوافدين على الاندلس من اهل المشرق المهتدين فى

خمسا وعشرين سنة وخمس وثلاثين سنة خلت من ايامه تم للعالم اربعة آلاف سنة وقيل غير ذلك من التاريخ ثم دبرهم ساعان بن اهود خمسا وعشرين سنة ثم دبرهم يابين الكنعانى ملك الشام عشرين سنة ثم دبرهم امراة يقال لها دبورا وقيل انها ابنته وضمت اليها رجلا من سبط نفتالى يقال له بازاق اربعين سنة ثم تداولتهم رؤساء بنى اسرائيل وهم عريب ورببب وبرسونا ودارع وصلناع تسع سنين وثلاثة اشهر ثم دبرهم كذعون من آل منشا اربعين سنة وقيل ملوك مدين ثم ابنه ابيمالخ ثلاث سنين وثلاثة اشهر ثم توبع من آل فرايم ثلاثة وعشرين سنة ثم سابه من من آل منشا اثنتين وعشرين سنة ثم ملوك عمان ثمانى عشرة سنة وثلاثة اشهر ثم يحشون من بيت لحم سبع سنين ثم قهرهم ملوك فلسطين اربعين سنة ثم عالى الكاهن بعد ذلك اربعين سنة وفى زمانه ظفر البابليون ببنى اسرائيل وغنموا التابوت وكان بنو اسرائيل يستفتحون به فحملوه الى بابل وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم وكان ما كان من أمر قوم حزقيل وهم الذين أخرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم وكان قد أصابهم الطاعون فبقى منهم ثلاثة أسباط فلحقت فرقة بالرمل وفرقة بشواهق الجبال وفرقة بجزيرة

قصدهم اليها بنور الهداية المضيء المشرق والاكابر الذين حلوا منها بحلولهم فيها الجيد والمفرق وافتخروا برؤية قطرها المونق على المشئم والمعرق

(الباب السابع) في نبذة مما من الله تعالى به على اهل الاندلس من توقد الاذهان وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ماعز أو هان وحوزهم في ميدان البراعة من قصب البراعة خصل الرهان وجملة من اجوبتهم الدالة على لوذعيتهم واوصافهم المؤذنة بالمعيتهم وغير ذلك من احوالهم التي لها على فضلهم اوضح برهان

(الباب الثامن) في ذكر تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد صرفه وجوه الكيد اليها وتضريبه بين ملوكها ورؤسائها بمكره واستعماله في امرها حيل فكره حتى استولى دمره الله عليها ومحا منها التوحيد واسمه وكتب على مشاهدها ومعاهدها وسمه وقرر مذهب التثليث والرأي الخبيث لديها واستغاثة من بها بالنظم والنثر اهل ذلك العصر من سائر الاقطار حين تعذرت بحصارها مع قلة حماتها وانصارها المآرب والاوطار وجاءها الاعداء من خلفها ومن بين يديها اعاد الله تعالى اليها كلمة الاسلام واقام فيها شريعة سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام ورفع يد الكفر عنها وعما حواليها آمين ولم اخل بابا في هذا القسم من كلام للسان الدين بن الخطيب وان قل مع ان القسم الثاني بذلك كما ستقف عليه قد استقل وهذا آخر ما تعلق بالقسم الاول وعلى الله سبحانه المتكل والمعول

(القسم الثاني) في التعريف بلسان الدين بن الخطيب وذكر أنبائه التي يروق سماعها ويتارج نفحها ويطيب ومايناسبها من أحوال العلماء الافراد والاعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد وفيه ايضا من الابواب ثمانية موصلة الى جنات ادب قطوفها دانية وكل غصن منها رطيب

(الباب الاول) في ذكر أولية لسان الدين وذكر اسلافه الذين ورث عنهم المجد وارتضع در اخلافه ومايناسب ذلك مما لا يذهب المنصف الى خلافه

(الباب الثاني) في نشأته وترقيه ووزارته وسعادته ومساعدة الدهر له ثم قلبه له ظهر المجن على عادته في مصافاته ومنافاته وارتباكه في شباكه ومالقي من احن الحاسد ذي المذهب الفاسد ومحن الكائد المستاسد وآفاته وذكر قصوره وامواله وغير ذلك من احواله في تقلباته عندما قابله الزمان باهواله في بدئه واعادته الى وفاته

(الباب الثالث) في ذكر مشايخه الجلة هداة الناس ونجوم الملة ومايتصل بذلك من الاخبار الشافية للعلة والمواعظ المنجية من الاهواء المضلة والمناسبات الواضحة البراهين والادلة

(الباب الرابع) في مخاطبات الملوك والاكابر الموجهة الى حضرته العلية وثناء غير واحد من اهل عصره عليه وصرف القاصدين وجوه التاميل اليه واجتلائهم انوار رياسته الجلية

(الباب الخامس) في ايراد جملة من نثره الذي عبق اريج البلاغة من نفحاته ونظمه الذي تالق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ومايتصل بذلك من بعض أزجاله وموشحاته

ومناسبات

من جزائر البحر وكان لهم خبر طويل حتى رجعوا الى ديارهم فقالوا لحزقيل هل رايت قوما اصابهم ما اصابنا قال لا ولا سمعت بقوم فروا من الله فراركم فسلط الله عليهم الطاعون سبعة ايام فماتوا عن آخرهم ودبر بني اسرائيل بعد غيلام الكاهن شمويل بن برحاز ابن ناحوراوني فمكث فيهم عشرين سنة ووضع الله عز وجل عنهم القتال وصلح امرهم فخلطوا بعد ذلك فقالوا لشمويل ابعث لنا ملكا يقاتل معنا في سبيل الله فامر بتمليك طالوت وهو ساود بن بشر بن اينال بن طرون بن بحرون بن أفيح بن سميداح بن فالح بن بنيامين ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام فملكه عليهم ولم يجمعهم قبل ذلك مثل طالوت وكان بين خروج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر الى ان ملك على بني اسرائيل طالوت خمسمائة سنة واثنتان وسبعون وثلاثة أشهر وكان طالوت دباغا يعمل الأدم فاخبرهم نبيهم شمويل ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا فقالوا فيه ما أخبر الله عز وجل في كتابه أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم واخبرهم نبيهم ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية

ومناسبات رائقه من فنون الادب ومصطلحاته
(الباب السادس) فى مصنفاته فى الفنون ومؤلفاته المحققة للواقف عليها الآمال والظنون وما كمل منها أو اخترمته دون اتمامه المنون
(الباب السابع) فى ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستدلين به على المنهاج المتلقين انواع العلوم منه والمقتبسين انوار الفهوم من سراجه الوهاج
(الباب الثامن) فى ذكر اولاده الرافلين فى حلل الجلالة المقتفين اوصافه الحميدة وخلاله الوارثين العلم والحلم والرياسة والمجد عن غير كلالة ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلا ثنيا المنقذة من أنواع الضلالة وما يتبع ذلك من المناسبات القوية والامداح النبوية التى لها على حسن الختام اظهر دلالة (وقد كنت) اولا سميته بعرف الطيب فى التعريف بالوزير ابن الخطيب ثم وسمته حين ألحقت اخبار الاندلس به (بنفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) وله بالشام تعلق من وجوه عديدة هادية لمتامله الى الطرق السديدة أولها أن الداعى لتاليفه أهل الشام أبقى الله مآثرهم وجعلها على مر الزمان مديدة ثانيها أن الفاتحين للاندلس هم أهل الشام ذوو النجدة والشوكة الحديدة ثالثها أن غالب اهل الاندلس من عرب الشام الذين اتخذوا بالاندلس وطنا مستانفا وحضرة جديدة ورابعها أن غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشبهها بها فى القصر والنهر والدوح والزهر والغوطة الفيحاء وهذه مناسبة قوية العرا شديدة * هذا وانى أسال ممن وقف عليه أن ينظر بعين الاغضاء اليه كما أطلب ممن كان السبب فى تصنيفه والداعى الى تاليفه وترصيفه استنادا الى الركن الثقة واعتمادا على الود والمقة ان يصفح عما فيه من قصور ويسمح ويلاحظه بعين الرضا الكليلة ويلمح اذ كتبته شكل منطقه والاشجان غالبة وقضية الغربة موجبة للكربة ولبعض الآمال سالبة وهو وان لم يوف بكل الغرض فلا يخلو من فائدة وقد يستدل على الجوهر بالعرض فان أديت المفترض وذلك المرام الذى أرتضيه ويوجب الود يقتضيه والا فحسبى أنى بذلت به جهدى وأنفقت من وجدى على قدر ما عندى وقد توهمت أنى لم أسبق الى مثله فى بابه اذ لم أقف له على نظير أتعلق باسبابه ورجوت أن يكون هدية مستملحة مستعذبة وطرفة مقبولة مستغرب به

هديتى تقصر عن همتى * وهمتى أكثر من مالى
وخالص الود ومحض الاخا * اكثر ما يهدى به امثالى

وأوردت فيه من نظم وانشاء ما يكفى المقتصر عليه ان شاء ومن اخبار ملوك ورؤساء وطبقات من احسن واساء ما فيه اعتبار للتامل وادكار للراحل المتحمل وزينة للذاكر المتجمل وتنكيت على أهل البطر وتبكيت لمن خرج من دنياه ولم يقض من الطاعة الوطر

ارى اولاد آدم ابطرتهم * حظوظهم من الدنيا الدنيه
فلم بطروا وأولهم منى * اذا نسبوا وآخرهم منيه

مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة وكان مدة ما مكث التابوت ببابل عشر سنين فتجمعوا عند الفجر حفيف الملائكة تحمل التابوت واشتد سلطان جالوت وكثرت عساكره وقواده وبلغه انقياد بنى اسرائيل الى طالوت فسار جالوت من فلسطين باجناس من البربر وهو جالوت بن بالول بن ديال بن حطال بن فارس فنزل بساحة بنى اسرائيل فامر شمويل طالوت بالمسير ببنى اسرائيل الى حرب جالوت فابتلاهم الله عزوجل بنهر بين الاردن وفلسطين وسلط الله عليهم العطش وقد قص الله ذلك فى كتابه وأمروا كيف يشربون من النهر فولغه أهل الريبة ولغ الكلاب فقتلهم طالوت عن آخرهم ثم فضل من خيارهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم داود عليه السلام ولحق داود باخوته فتوافق الجيشان جميعا وكانت الحروب بينهما سجالا وندب طالوت الناس وجعل لمن يخرج الى جالوت ثلث ملكه ويتزوج ابنته فبرز داود فقتله بحجر كان فى مخلاته رماه بمقلاع فخر جالوت ميتا وقد اخبر الله عزوجل بذلك فى كتابه بقوله وقتل داود جالوت وقد ذكر ان الحجر الذى كان فى مخلاة داود كان ثلاثة احجار فاجتمعت وصارت حجرا واحدا وهى التى قتل بها جالوت وان القوم الذين ولغوا فى الماء

الامن صلحت عليه تلك الدرع اذا لبسها وانها صلحت على داود وما كان من هذه الحروب وخبر الدهن الذى استدار على رأسه وخبر طالوت واخبار البربر وبدء شأنهم فى كتابنا فى أخبار الزمان وسنورد بعد هذا جملا من أخبار البربر وتفرقهم فى البلاد فى الموضع اللائق بها من هذا الكتاب (ورفع الله ذكر داود) واخمل ذكر طالوت وأبى طالوت ان يفى لداود بما تقدم من شرطه فلما رأى ميل الناس اليه زوجه ابنته وسلم اليه ثلث الجباية وثلث الحكم وثلث الناس ثم حسده بعد ذلك فاغتاله فمنعه الله عز وجل من ذلك فابى داود ان ينافسه فى ملكه وانما أمر داود فبات طالوت على سرير ملكه فمات من ليلته كمدا وانقادت بنو اسرائيل الى داود عليه السلام وكان مدة طالوت عشرين سنة وذكر ان الموضع الذى قتل فيه جالوت نيسان من أرض الغور من بلاد الاردن وألان الله عز وجل لداود الحديد فعمل منه الدروع وسخر له الجبال والطير يسبحن معه

وفيه ايقاظ لمثلى من سنة الغفلة وحث على عدم الاغترار بالمهلة وتنبيه للابس برد الشباب القشيب انه لابد من حادث الموت قبل أو بعد المشيب

لله در الشيب من واعظ * وناصح منهاجه واضح
كل امرئ يحجبه شانه * وحادث الدهر له فاضح

فكم باك على عصر الشباب وشاك لفراق عهد الصبا والاحباب أنساه طارق الزمان سلمى والرباب

مضى عصر الشباب كلمح برق * وعصر الشيب بالاكدار شيبا
وما اعددت قبل الموت زادا * ليوم يجعل الولدان شيبا

وما احسن قول بعض الاعلام

مضى ما مضى من حلو عيش ومره * كأن لم يكن الا كأضغاث احلام

وقول من اورشد سفيها

انما هذه الحياة متاع * فالجهول الجهول من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمل غيب * ولك الساعة التى انت فيها

وفى معناه لغيره

دنياك شيا آن فانظر * ماذانك الشيا آن
ما فات منها فحلم * وما بقى فامانى

وما احكم قول ابن حطان مع وقوعه من البدعة فى أشطان

يأسف المرء على ما فاته * من لبانات اذا لم يقضها
وتراه ضاحكا مستبشرا * بالتى امضى كأن لم يمضها
انها عندى كاحلام الكرى * لقريب بعضها من بعضها

ولغيره

والله لو كانت الدنيا باجمعها * تبقى علينا ويأتى رزقها رغدا
ما كان من حق حر أن يذل لها * فكيف وهى متاع يضمحل غدا

ولآخر

لاحظ فى الدنيا لمستبصر * يلمحها بالفكرة الباصره
ان كدرت مشربه ملها * وان صفت كدرت الآخره

ويعجبنى قول الوزير ابن المغربى

انى ابثك من حديثى والحديث له شجون
فارقت موضع مرقدى * ليلا ففارقنى السكون
قل لى فاول ليلة * للقبر كيف ترى اكون

وقول مامية

تامل فى الوجود بعين فكر * تر الدنيا الدنية كالخيال
ومن فيها جميعا سوف يفنى * ويبقى وجه ربك ذو الجلال

وحارب داود أهل موات من أرض البلقاء وأنزل الله عز وجل عليه الزبور بالعبرانية خمسين ومائة

وقول

وقول بعض العارفين

استعدى يانفس للموت واسعى * لنجاة فالحازم المستعد
قد تبينت انه ليس للحى خلود ومامن الموت بد
انما أنت مستعيرة ماسو * ف تردين والعوارى ترد
أنت تسهين والحوادث لاتسـ * ـهو وتلهين والمنايا تجد
أى ملك فى الارض أو أى حظ * لامرئ حظه من الارض لحد
لاترجى البقاء فى معدن المو * ت ودار حتوفها لك ورد
كيف يرجو امرؤ لذاذة أيا * م عليه الانفاس فيها تعد

وأسال من مبلغ السائلين مايرجون أن يصفح عن زلاتى ويسامحنى فيما أوردت فى هذا الكتاب من الهزل والمجون الذى جرت المناسبة اليه والحديث شجون وما القصد منه الا ترويح قلوب الذين يسوقون عيس الاسمار ويزجون وفيما أوردت من المواعظ والنصائح وحكايات الاولياء الذين طيب زهر مناقبهم فائح والتوسل بمحاسن الامداح النبوية أن يستر بفضله سبحانه القبائح ويرينا وجه القبول بلا اكتتام ويمنحنا الزلفى وحسن الختام ومن يتوسل بالنبى محمد شفيع البرايا السيد السند الاسنى فذاك جدير أن يكفر ذنبه ويمنح نيل القصد والختم بالحسنى وهذا أوان الشروع فى الاصول من هذا الكتاب والفروع وعلى الله سبحانه أعتمد ومن معونته استمد

(القسم الاول)

فيما يتعلق بالاندلس من الاخبار المترعة الاكواب والانباء المنتجعة صوب الصواب الرافلة من الافادة فى سوابغ الاثواب وفيه بحسب القصد والاقتصار وتحرى التوسط فى بعض المواضع دون الاختصار ثمانية من الابواب

(الباب الاول)

فى وصف جزيرة الاندلس وحسن هوائها واعتدال مزاجها ووفور خيراتها واستوائها واشتمالها على كثير من المحاسن واحتوائها وكرم بقعتها التى سقتها سماء البركات بنافع أنوائها وذكر بعض ماثرها المجلوّة الصور وتعداد كثير مما لها من البلدان والكور المستمدّة من اضوائها فاقول محاسن الاندلس لاتستوفى بعبارة ومجارى فضلها لايشق غباره وأنى تجارى وهى الحائزة قصب السبق فى أقطار الغرب والشرق (قال ابن سعيد) انما سميت بالاندلس بن طوبال بن يافث بن نوح لانه نزلها كما ان اخاه سبت بن يافث نزل العدوة المقابلة لها واليه تنسب سبتة (قال) وأهل الاندلس يحافظون على قوام اللسان العربى لانهم اما عرب أو متعربون انتهى (وقال ابن غالب) انه اندلس بن يافث والله تعالى أعلم (وقال الوزير) لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى فى بعض كلام له اجرى فيه ذكر البلاد الاندلسية أعادها الله تعالى للاسلام ببركة المصطفى عليه من الله افضل الصلاة وازكى السلام ماخصه الله تعالى بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة

سورة وجعله ثلاثة أثلاث فثلث مايكون مع بختنصر ومايكون من أمره فى المستقبل وثلث مايلقون من أهل أثور وثلث موعظة وترغيب ومحبة وترهيب ليس فيه أمر ولا نهى ولاتحليل ولاتحريم واستقامت الامور لداود ولحقت الخوارج من الاكراد باطراف الارض لهيبة داود وبنى داود بيتا للعبادة باورشليم وهى بيت المقدس وهو البيت الباقى لوقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة يدعى بمحراب داود عليه السلام وليس فى بيت المقدس اعلى منه فى هذا الوقت وقد يرى من اعلاه البحيرة المنتنة ونهر الاردن المقدم ذكره وكان من أمر داود مع الخصمين ماقص الله عز وجل فى كتابه من خبره وقوله لاحدهما قبل استماعه من الآخر لقد ظلمك وقد تنازع الناس فى خطيئة داود فمنهم من رأى ماوصفنا ونفى عن الانبياء المعاصى وتعمد الفسق وانهم معصومون فكانت الخطيئة ماذكرنا وذلك قوله عز وجل ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ومنهم من رأى ان ذلك كان قضية أوريا بن حيان ومقتله على ماذكرنا فى كتاب المبتدا والخبر وغيره وتاب الله عز وجل على داود بعد أربعين يوما كان فيها صائما باكيا وتزوج داود عليه السلام مائة امرأة ونشأ

اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الانسان ونبل الاذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها انتهى (قال أبو عامر السلمى) فى كتابه المسمى بدرر القلائد وغرر الفوائد الاندلس من الاقليم الشامى وهو خير الاقاليم وأعدلها هواء وترابا وأعذبها ماء وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا وهو أوسط الاقاليم وخير الامور أوساطها انتهى (قال ابو عبيد البكرى) الاندلس شامية فى طيبها وهوائها يمانية فى اعتدالها واستوائها هندية فى عطرها وذكائها اهوازية فى عظم جباياتها صينية فى جواهر معادنها عدنية فى منافع سواحلها فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار بالاندلس هرقلس وله الاثر فى الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية والاثر فى مدينة طرّكونة الذى لا نظير له (قال المسعودى) بلاد الاندلس تكون مسيرة عمائرها ومدنها نحو شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة انتهى باختصار ونحوه لابن اليسع اذ قال طولها من اربونة الى اشبونة وهو قطع ستين يوما للفارس المجدّ وانتقد بامرين أحدهما أنه يقتضى أن اربونة داخلة فى جزيرة الاندلس والصحيح انها خارجة عنها والثانى ان قوله ستين يوما للفارس المجدّ اعياء وافراط وقد قال جماعة انها شهر ونصف (قال ابن سعيد) وهذا يقرب اذا لم يكن للفارس المجدّ والصحيح ما نص عليه الشريف من أنها مسيرة شهر وكذا قال الحجارى وقد سالت المسافرين المحققين عن ذلك فعملوا حسابا بالمراحل الجيدة افضى الى نحو شهر بنيف قليل (قال الحجارى) فى موضع من كتابه ان طول الاندلس من الحاجز الى اشبونة الف ميل ونيف اهـ وبالجملة فالمراد التقريب من غير مشاحة كما قاله ابن سعيد واطال فى ذلك ثم قال بعد كلام ومسافة الحاجز الذى بين بحر الزقاق والبحر المحيط اربعون ميلا وهذا عرض الاندلس عند راسها من جهة الشرق ولقلته سميت جزيرة والا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القدر بالارض الكبيرة وعرض جزيرة الاندلس فى موسطها عند طليطلة ستة عشر يوما واتفقوا على ان جزيرة الاندلس مثلثة الشكل واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز اربونة فمن قال انه فى اربونة وان هذه المدينة تقابلها مدينة برذيل التى فى الركن الشرقى الشمالى احمد بن محمد الرازى وابن حيان وفى كلام غيرهما انه فى جهة اربونة وحقق الامر الشريف وهو اعرف بتلك الجهة لتردده فى الاسفار برا وبحرا اليها وتفرّغه لهذا الفنّ (قال ابن سعيد) وسالت جماعة من علماء هذا الشان فاخبرونى أن الصحيح ما ذهب اليه الشريف وان اربونة وبرشلونة غير داخلتين فى ارض الاندلس وان الركن الموفى على بحر الزقاق بالمشرق بين برشلونة وطرّكونة فى موضع يعرف بوادى زنلقطو وهنالك الحاجز الذى يفصل بين الاندلس والارض الكبيرة ذات الالسن الكثيرة وفى هذا المكان جبل البرت الفاصل فى الحاجز المذكور وفيه الابواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ولم يكن للاندلس من الارض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر وذكر الشريف أن هذه الابواب يقع فى مقابلتها فى بحر الزقاق البحر الذى بين جزيرتى ميورقة ومنورقة وقد اخبر بذلك

سليمان بن داود عليه السلام وبرع وداخل أباه فى قضائه فآتاه الله فصل الخطاب والحكم على ما أخبر الله عزوجل عنهما بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولما حضرت داود الوفاة أوصى الى ولده سليمان وقبض فكان ملكه أربعين سنة على فلسطين والاردن وكان عسكره ستين الفا أصحاب سيوف جردا مردا أصحاب بأس ونجدة وكان ببلاد مدين وأيلة فى عصر داود عليه السلام (لقمان الحكيم) وهو لقمان بن عنقاء بن مربد بن صاوون وكان نوبيا مولى للقين بن حسر ولد على عشر سنين من ملك داود عليه السلام وكان عبدا صالحا فمنّ الله عزوجل عليه بالحكمة ولم يزل باقيا فى الارض مظهر الحكمة والزهد فى هذا العالم الى ايام يونس بن متى حين أرسل الى أهل نينوى من بلاد الموصل ولما قبض الله داود عليه السلام قام بعده ولده (سليمان) بالنبوّة والحكم وعمر عدله رعيته واستقامت له الامور وانقادت له الجيوش وابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس وهو المسجد الاقصى الذى بارك الله عزوجل حوله فلما استتم بناءه بنى لنفسه بيتا وهو الموضع الذى يسمى فى وقتنا هذا كنيسة القمامة وهى الكنيسة العظمى ببيت المقدس عند النصارى ولهم كنائس غيرها معظمة ببيت المقدس

جمهور

جهور المسافرين لتلك الناحية ومسافة هذا الجبل الحاجز بين الركن الجنوبى والركن الشمالى أربعون ميلا قال وشمال الركن المذكور عند مدينة برديل وهى من مدن الافرنجة مطلة على البحر المحيط فى شمال الاندلس قال ويتقهقر البر بعد تميز هذا الركن الى الشمال فى بلاد الفرنجة ولهم به جزائر كثيرة ودوكرا من الركن الشمالى عند شنت ياقوه من ساحل الجلالقة فى شمال الاندلس حيث تبتدئ جزيرة برطانية الكبيرة فيتصوّر هنالك بحر داخل بين أرضين من الناس من يجعله بحرا منفردا خارجا من البحر المحيط لطوله الى الركن المتقدّم الذكر عند مدينة برديل (وذكر الشريف) ان عند شنت ياقوه فى هذا الركن المذكور على جبل بمجمع البحرين صنما مطلا مشبها بصنم قادس والركن الثالث بقربه من جبل الاغن حيث صنم قادس والجبل المذكور يدخل من غربه مع جنوبه بحر الزقاق من البحر المحيط مارّا مع ساحل الاندلس الجنوبى الى جبل البرت المذكور انتهى والكلام فى مثل هذا طويل الذيل *(قال الشيخ احمد بن محمد بن موسى الرازى) بلد الاندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب وهو عند الحكماء بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجناب منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام ذوات السموم معتدل الهواء والجوّ والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال وسطة من الحال لا يتولد فى أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص تتصل فواكهه اكثر الازمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة أمّا الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكوره وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره فمادة الخيرات بالبلد متمادية فى كل الاحيان وفواكهه على الجملة غير معدومة فى كل أوان وله خواص فى كرم النبات توافق فى بعضها أرض الهند المخصوصة بكرم النبات وجواهره منها أن المحلب وهو المقدّم فى الافاويه والمفضل فى أنواع الاشنان لا ينبت بشئ من الارض الا بالهند والاندلس وللاندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة ولها البر والبحر والسهل والوعر وشكلها مثلث وهى معتمدة على ثلاثة أركان الاوّل هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالاندلس ومنه مخرج البحر المتوسط الشامى الآخذ بقبلى الاندلس والركن الثانى هو بشرقى الاندلس بين مدينة بربونة ومدينة برديل مما بأيدى الفرنجة اليوم بازاء جزيرتى ميورقة ومنورقة مجاورة من البحرين البحر المحيط والبحر المتوسط وبينهما البر الذى يعرف بالابواب وهو المدخل الى بلاد الاندلس من الارض الكبيرة على بلد افرنجة ومسافة ما بين البحرين مسيرة يومين ومدينة بربونة تقابل البحر المحيط والركن الثالث منها هو ما بين الجوف والغرب من حيز جليقية حيث الجبل الموفى على البحر وفيها الصنم العالى المشبه بصنم قادس وهو الطالع على بلد برطانية قال والاندلس اندلسان فى اختلاف هبوب ارياحها ومواقع أمطارها وجريان انهارها أندلس غربى وأندلس شرقى فالغربى منهما ما جرت أوديته الى البحر المحيط الغربى وتمطر بالرياح الغربية ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف الى بلد شنترية طالعا الى حوز اغريطة المجاورة لطليطلة مائلا الى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنة

منها كنيسة صهيون وقد ذكرها داود عليه السلام والكنيسة المعروفة بالجسمانية ويزعمون أن فيها قبر داود عليه السلام وأعطى الله عز وجل لسليمان عليه السلام من الملك ما لم يعطه لاحد من خلقه وسخر له الجن والانس والطير والريح على حسب ما ذكر الله عز وجل فى كتابه وكان ملك سليمان بن داود على بنى اسرائيل أربعين سنة وقبض وهو ابن اثنتين وخمسين سنة والله ولى التوفيق

(ذكر مالك بن رحبعم ابن سليمان بن داود عليهما السلام ومن تلاه من بنى اسرائيل وجمل من اخبار الانبياء)

وملك على بنى اسرائيل بعد سليمان بن داود عليهما السلام مالك بن رحبعم بن سليمان واجتمعت عليه الاسباط ثم افترقوا عنه الا سبطى يهوذا وسبط بنيامين وكان ملكه الى أن هلك سبع عشرة سنة وملك على العشرة اسباط (نورهم) وكانت له كوائن وحروب واتخذ له عجلا من الذهب والجوهر واعتكف على عبادته فاهلكه الله عز وجل فكان ملكه عشرين سنة وملك بعده (لودم) فاظهر عبادة الاصنام والتماثيل وكان ملكه سنة ثم ملكت بعده امرأة يقال لها (عيلان) فبذلت السيف فى ولد داود عليه السلام فلم ينج منهم الا غلام

الحلما التى من بلد لورقة والحوز الشرقى المعروف بالاندلس الاقصى وتجرى أوديته الى الشرق وأمطاره بالريح الشرقية وهو من حد جبل البشكنش هابطا مع وادى ابرة الى بلد شنت مريه ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط وفى القبلة منه البحر الغربى الذى منه يجرى البحر المتوسط الخارج الى بلد الشام وهو البحر المسمى ببحر تيران ومعناه الذى يشق دائرة الارض ويسمى البحر الكبير انتهى قال أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام بلد الاندلس عند علماء أهله اندلسان فالاندلس الشرقى منه ماصبت أوديته الى البحر الرومى المتوسط المتصاعد من اسفل ارض الاندلس الى المشرق وذلك مابين مدينة تدمير الى سرقسطة والاندلس الغربى ماصبت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحد الى ساحل المغرب فالشرقى منهما يمطر بالريح الشرقية ويصلح عليها والغربى يمطر بالريح الغربية وبها اصلاحه وجباله هابطة الى الغرب جبلا بعد جبل وانما قسمته الاوائل جزءين لاختلافهما فى حال أمطارهما وذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربية كثر مطر الاندلس الغربى وقحط الاندلس الشرقى ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الاندلس الشرقى وقحط الغربى وأودية هذا القسم تجرى من الشرق الى الغرب بين هذه الجبال وجبال الاندلس الغربى تمتد الى الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف الى القبلة والاودية التى تخرج من تلك الجبال يقطع بعضها الى القبلة وبعضها الى الشرق وتنصب كلها الى البحر المحيط بالاندلس القاطع الى الشام وهو البحر الرومى وما كان من بلاد جوفى الاندلس من بلاد جليقية وما يليها فان اوديته تنصب الى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف (وصفة الاندلس) شكل مركن على مثال الشكل المثلث ركنها الواحد فيما بين الجنوب والمغرب حيث اجتماع البحرين عند صنم قادس وركنها الثانى فى بلد جليقية حيث الصنم المشبه صنم قادس مقابل جزيرة برطانية وركنها الثالث بين مدينة بربونة ومدينة برديل من بلد الفرنجة بحيث يقرب البحر المحيط من البحر الشامى المتوسط فيكادان يجتمعان فى ذلك الموضع فيصير بلد الاندلس جزيرة بينهما فى الحقيقة لولا أنه يبقى بينهما برزخ برية صحراء وعمارة مسافة مسيرة يوم للراكب منه المدخل الى الارض الكبيرة التى يقال لها الابواب ومن قبله يتصل بلد الاندلس بتلك البلاد المعروفة بالارض الكبيرة ذات الالسن المختلفة قال وأول من سكن بالاندلس على قديم الايام فيما نقلته الاخباريون من بعد عهد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالاندلش معجمة الشين بهم سمى المكان فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة كانوا الذين عمروها وتناسلوا فيها وتداولوا ملكها دهرا على دين التمجس والاهمال والافساد فى الارض ثم أخذهم الله بذنوبهم فحبس المطر عنهم ووالى القحط عليهم وأعطش بلادهم حتى نضبت مياهها وغارت عيونها ويبست أنهارها وبادت أشجارها فهلك أكثرهم وفر من قدر على الفرار منهم فاقفرت الاندلس منهم وبقيت خالية فيما يزعمون مائة سنة وبضع عشرة سنة وذلك من حد بلد الفرنجة الى حد بحر الغرب الاخضر وكان عدة ما عمرتها هذه الامة البائدة مائة عام وبضع عشرة سنة ثم ابتعث الله لعمارتها الافارقة فدخل اليها بعد اقفارها تلك المدة الطويلة قوم منهم اجلاهم ملك افريقية تخففا

فانكرت بنو اسرائيل ذلك من فعلها فقتلوها ٦٦ وكان ملكها سبع سنين وقيل غير ذلك وملكوا عليهم (الغلام) الذى بقى من نسل داود فملك وله سبع سنين فاقام ملكا اربعين سنة وقيل دون ذلك وملك بعده (مليصا) وكان ملكه اثنين وخمسين سنة وكان فى عصره (شعياء) النبى ولشعياء معه اخبار وكانت له حروب قد اتينا على ذكرها فى كتاب اخبار الزمان وملك بعده (نوفا) ابن عدل عشر سنين وقيل ست عشرة سنة وملك بعده (اجام) فاظهر عبادة الاصنام فطغى واظهر البغى فصار اليه بعض ملوك بابل وكان يقال له فلعيعس وكان من عظماء ملوك بابل وكان للاسرائيلى معه حروب الى ان اسره البابلى وخرب مدن الاسباط ومساكنهم وكان فى ايامه تنازع بين اليهود فى الديانة فنبذ منهم الاسامرة وانكروا نبوة داود عليه السلام ومن تلاه من الانبياء وابوا ان يكون بعد موسى نبى وجعلوا رؤساءهم من ولد هرون بن عمران والاسامرة فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ببلاد فلسطين والاردن وفى قرى متفرقة مثل القرية المعروفة بعارا وهى بين الرملة وطبرية وغيرها من القرى الى مدينة نابلس واكثرهم فى هذه المدينة اعنى نابلس ولهم جبل يقال له طور يك وللاسامرة منهم

منهم لا محال توالى على أهل مملكته وتردد عليهم حتى كاد يفنيهم فحمل منهم خلقا فى السفن مع قائد من قبله يدعى ابطريقس فارسوا بريف الاندلس الغربى واحتلوا بجزيرة قادس فاصابوا الاندلس قد امطرت وأخصبت فجرت انهارها وانفجرت عيونها وحييت اشجارها فنزلوا الاندلس مغتبطين وسكنوها معتمرين وتوالدوا فيها فكثروا واستوسعوا فى عمارة الارض ما بين الساحل الذى أرسوا فيه بغربيها الى بلاد الافرنجة من شرقيها ونصبوا من أنفسهم ملوكا عليهم ضبطوا أمرهم وتوالوا على اقامة دولتهم وهم مع ذلك على ديانة من قبلهم من الجاهلية وكانت دار مملكتهم طالقة الخراب اليوم من ارض اشبيلية اخترعها ملوكهم وسكنوها فاتسق ملكهم بالاندلس مائة وسبعة وخمسين عاما الى ان أهلكهم الله تعالى ونسخهم بعجم رومة بعد ان ملك من هؤلاء الافارقة فى مدتهم تلك احد عشر ملكا ثم صار ملك الاندلس بعدهم الى عجم رومة وملكهم اشبان بن طيطش وباسمه سميت الاندلس اشبانية وذكر بعضهم ان اسمه اصبهان فاحيل بلسان العجم وقيل بل كان مولده باصبهان فغلب اسمها عليه وهو الذى بنى اشبيلية وكان اشبانية اسما خالصا للبلد اشبيلية الذى كان ينزله اشبان هذا ثم غلب الاسم بعده على الاندلس كله فالعجم الآن يسمونه اشبانية لآثار اشبان هذا فيه وكان احد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا وكان غزا الافارقة عندما سلطه الله عليهم فى جموعه ففض عساكرهم وأثخن فيهم ونزل عليهم بقاعدتهم طالقة وقد تحصنوا فيها منه فابتنى عليهم مدينة اشبيلية اليوم واتصل حصره وقتاله لهم حتى فتحها الله عليه وغلبهم واستوت له مملكة الاندلس بأسرها ودان له من فيها فهدم مدينة طالقة ونقل رخامها وآلاتها الى مدينة اشبيلية فاستتم بناءها واتخذها دار مملكته واستغلظ سلطانه فى الارض وكثرت جموعه فعلا وعظم عتوه ثم غزا ايلياء وهى القدس الشريف من اشبيلية بعد سنتين من ملكه خرج اليها فى السفن فغنمها وهدمها وقتل فيها من اليهود مائة ألف واسترق مائة ألف ونقل رخام ايلياء وآلاتها الى الاندلس وقهر الاعداء واشتد سلطانه انتهى (وذكر بعض المؤرخين) أن الغرائب التى اصيبت فى مغانم الاندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة وقليلة الدر التى ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر انما كانت مما صار لصاحب الاندلس من غنيمة بيت المقدس اذ حضر فتحها مع بختنصر وكان اسم ذلك الملك بريان وفى سهمه وقع ذلك ومثله مما كانت الجن تاتى به نبى الله سليمان على نبينا وعليه وعلى جميع الانبياء الصلاة والسلام انتهى (وقال غير واحد من المؤرخين) كان أهل المغرب الاقصى يضرون باهل الاندلس لاتصال الارض ويلقون منهم الجهد الجهيد فى كل وقت الى أن اجتاز بهم الاسكندر فشكوا حالهم اليه فاحضر المهندسين وحضر الى الزقاق فامر المهندسين بوزن سطح الماء من المحيط والبحر الشامى فوجدوا المحيط يعلو البحر الشامى بشئ يسير فامر برفع البلاد التى على ساحل البحر الشامى ونقلها من الحضيض الى الاعلى ثم أمر بحفر ما بين طنجة وبلاد الاندلس من الارض فحفرت حتى ظهرت الجبال السفلية وبنى عليها رصيفا بالحجر والجيار بناء محكما وجعل طوله اثنى عشر ميلا وهى المسافة

عليه صلوات فى اوقاتها ولهم بوقات من فضة ينفخ فيها عند اوقات الصلاة وهم الذين يقولون لامساس ويزعمون ان نابلس هى بيت المقدس وهى مدينة يعقوب النبى عليه السلام وهناك مرعاه وهم صنفان متباينان كتباينهم لسائر اليهود واحد الصنفين يقال له الكوسان والآخر الدورسان احد الصنفين يقول بقدم العالم ومعان غير ذلك أعرضنا عن ذكرها مخافة التطويل وان كتابنا هذا كتاب خبر لا كتاب آراء ونحل وكان ملك اجام الى ان اسره الملك الثانى سبع عشرة سنة ولما أسر الملك اجام ولده له ولد يقال له (حزقيل اجام) فاظهر عبادة الرحمن وأمر بتكسير التماثيل والاصنام وفى ملكه سار (سيحارك) ملك بابل الى بيت المقدس وكانت له حروب كثيرة مع بنى اسرائيل وقتل من اصحابه خلق كثير ونوسى من الاسباط عددا كثيرا وكان ملك حزقيل الى ان هلك سبعا وعشرين سنة ثم ملك بعد حزقيل ولده يقال له (ميشا) فغمر شره سائر مملكته وهو الذى قتل شعياء النبى فبعث الله قسطنطين ملك الروم فسار اليه فى الجيوش فهزم جيشه وأسره فاقام فى ارض الروم عشرين سنة واقلع عما كان عليه وعاد الى ملكه فكان ملكه الى ان هلك خمسا وعشرين سنة وقيل ثلاثين سنة ثم ملك بعده ولده يقال له (أمون) بن ميشا

التى كانت بين البحرين و بنى رصيفا آخر يقابله من ناحية طنجة وجعل بين الرصيفين سعة ستة أميال فلما كمل الرصيفان حفر من جهة البحر الاعظم وأطلق فم الماء بين الرصيفين فدخل فى البحر الشامى ثم فاض ماؤه فاغرق مدنا كثيرة وأهلك امما عظيمة كانت على الشطين وطفا الماء على الرصيفين احدى عشرة قامة فاما الرصيف الذى يلى بلاد الاندلس فانه يظهر فى بعض الاوقات اذا نقص الماء ظهورا بينا مستقيما على خط واحد وأهل الجزيرتين يسمونه القنطرة وأما الرصيف الذى من جهة العدوة فان الماء حمله فى صدره واحتفر ماخلفه من الارض اثنى عشر ميلا وعلى طرفه من جهة المغرب قصر الجواز وسبتة وطنجة وعلى طرفه من الناحية الاخرى جبل طارق بن زياد وجزيرة طريف وغيرهما والجزيرة الخضراء وبين سبتة والجزيرة الخضراء عرض البحر انتهى ملخصا وقد تكرر بعضه مع ماجلبناه والعذر بين لارتباط الكلام بعضه ببعض (وقال ابن سعيد) ذكر الشريف أن لاحظ لارض الاندلس فى الاقليم الثالث قال ويمر بجزيرة الاندلس الاقليم الرابع على ساحلها الجنوبى وماقاربه من قرطبة واشبيلية ومرسية وبلنسية ثم يمر على جزيرة صقلية وعلى مافى سمتها من الجزائر والشمس مدبرة له * والاقليم الخامس يمر على طليطلة وسرقسطة ومافى سمتهما الى بلاد أرغون التى فى جنوبها برشلونة ثم يمر على رومية وبلادها ويشق بحر البنادقة ثم يمر على القسطنطينية ومدبرة الزهرة * والسادس يمر على ساحل الاندلس الشمالى الذى على البحر المحيط وماقاربه وبعض البلاد الداخلة فى قشتالة وبرتقال ومافى سمتها وعلى بلاد برجان والصقالبة والروس ومدبره عطارد ويمر الاقليم السابع فى البحر المحيط الذى فى شمال الاندلس الى جزيرة انقلطرة وغيرها من الجزائر ومافى سمتها من بلاد الصقالبة وبرجان قال البيهقى وفيه تقع جزيرة تولى وجزيرتا الجبال والنساء وبعض بلاد الروس الداخلة فى الشمال والبلغار ومدبره القمر انتهى (وقال بعض العلماء) ان النصارى حرموا جنة الآخرة فاعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالاندلس الى خليج القسطنطينية وعندهم عموم شاه بلوط والبندق والجوز والفستق وغير ذلك مما يكون أكثر وأمكن فى الاقاليم الباردة والتمر عندهم معدوم وكذا الموز وقصب السكر وبما يكون شئ من ذلك فى الساحل لان هواء البحر يدفئ انتهى (قال ابن حيان فى المقتبس) ذكر رواة العجم ان الخضر عليه السلام وقف على اشبان المذكور وهو يحرث الارض بفدن له ايام حراثته فقال له يا اشبان انك لذوشان وسوف يحظيك زمان ويعليك سلطان فاذا أنت غلبت على ايليا فارفق بذرية الانبياء فقال له اشبان أساخر بى رحمك الله أنى يكون هذا منى وانا ضعيف ممتهن حقير فقير ليس مثلى ينال السلطان فقال له قد قدر ذلك فيك من قدر فى عصاك اليابسة ماتراه فنظر اشبان الى عصاه فاذا بها قد أورقت فريع لما رأى من الآية وذهب الخضر عنه وقد وقع الكلام بخلده ووقرت فى نفسه الثقة بكونه فترك الامتهان من وقته وداخل الناس وصحب اهل الباس منهم وسما به جده فارتقى فى طلب السلطان حتى أدرك منه عظيما وكان منه ما كان ثم اتى عليه ما أتى على القرون قبله وكان ملكه كله عشرين سنة وتمادى ملك الاشبانيين بعده الى

فاظهر الطغيان وكفر بالرحمن وعبد التماثيل والاصنام ولما اشتد بغيه سار اليه فرعون الاعرج من بلاد مصر فى الجيوش فامعن فى القتل واسره ومضى به الى مصر فمات هنالك وكان ملكه خمس سنين وقيل غير ذلك وملك بعده اخ له يقال له (نوفين) وهو ابو دانيال عليه السلام وفى عصر هذا الملك سار البختنصر وهو مرزبان العراق والعرب من قبائل فارس وكان ببلخ وكانت قصبة الملك فامعن البختنصر فى القتل لبنى اسرائيل والاسر وحملهم الى ارض العراق واخذ التوراة وما كان فى بيت المقدس من كتب الملوك وطرحه فى بئر وعمد الى تابوت السكينة فاودعه بعض المواضع من الارض فيقال انه كان عدة من سبى من بنى اسرائيل ثمانية عشر ألفا وفى هذا العصر كان (أقدمنا) النبى عليه السلام وسار بختنصر الى مصر فقتل فرعون الاعرج وكان يومئذ ملك مصر وسار نحو المغرب فقتل ملوكا وافتتح مدائن وكان ملك فارس تزوج جارية من سبايا بنى اسرائيل فاولدها ولدا فرد بنى اسرائيل الى ديارهم وكان ذلك بعد سنين ولما رجعت بنو اسرائيل الى بلادهم ملكت عليها (زربايل) بن سلسان فابتنى مدينة بيت المقدس وعمر ما كان خرب واخرجت بنو اسرائيل التوراة من البئر واستقامت لهم الامور ان

ان ملك منهم الاندلس خمسة وخمسون ملكا ثم دخل على هؤلاء الاشبانيين من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات وملكهم طلويش بن بيطه وذلك زمن بعث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام اتوا الاندلس من قبل رومة وكانوا املكون افرنجة معها ويبعثون عمالهم اليها فاتخذوا دار مملكتهم بالاندلس مدينة ماردة واستولوا على مملكة الاندلس واتصل ملكهم بها مدة الى ان ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ثم دخل على هؤلاء البشتولقات أمة القوط مع ملك لهم فغلبوا على الاندلس واقتطعوها من يومئذ من صاحب رومة وتفردوا بسلطانهم واتخذوا مدينة طليطلة دار مملكتهم وأقروا بها سرير ملكهم فبقى باشبيلية علم الاشبانيين ورياسة اوليتهم (وقد كان عيسى المسيح عليه السلام) بعث الحواريين فى الارض يدعون الخلق الى ديانته فاختلف الناس عليهم وقتلوا بعضهم واستجاب لهم كثير منهم وكان من اسرعهم اجابة لمن جاءه من هؤلاء الحواريين خشندش ملك القوط فتنصر ودعا قومه الى النصرانية وكان من صميم اعاظمهم وخير من تنصر من ملوكهم واجمعوا على انه لم يكن فيهم اعدل منه حكما ولا أرشد رأيا ولا احسن سيرة ولا اجود تدبيرا فكان الذى اصل النصرانية فى مملكته ومضى اهلها على سنته الى اليوم وحكموا بها والانجيلات فى المصاحف الاربعة التى يختلفون فيها من انتساخه وجمعه وتثقيفه فتناسقت ملوك القوط بالاندلس بعده الى ان غلبتهم العرب عليها واظهر الله تعالى دين الاسلام على جميع الاديان (فوقع فى تواريخ العجم القديمة) ان عدة ملوك هؤلاء القوط بالاندلس من عهد اتاناويوس الذى ملك فى السنة الخامسة من مملكة فلبش القيصرى لمضى اربعمائة وسبع من تاريخ الصفر المشهور عند العجم الى عهد لذريق آخرهم الذى ملك فى السنة التاسعة والاربعين وسبعمائة من تاريخ الصفر وهو الذى دخلت عليه العرب فازالت دولة القوط ستة وثلاثون ملكا وان مدة ايام ملكهم بالاندلس ثلثمائة واثنتان وأربعون سنة انتهى (وقال جماعة) ان القوط غير البشتولقات وان البشتولقات من عجم رومة وانهم جعلوا دار ملكهم ماردة واتصل ملكهم الى أن ملك منهم سبعة وعشرون ملكا ثم دخل عليهم القوط واتخذوا طليطلة دار مملكة ثم ذكر تنصر ملكهم خشندش مثل ما تقدم ثم ذكر أن عدة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكا (وذكر الرازى) أن القوط من ولد ياجوج بن يافث بن نوح وقيل غير ذلك انتهى (وذكر الرازى) فى موضع آخر نحو ما تقدم وزيادة ونصه ان الاندلس فى آخر الاقليم الرابع من الاقاليم السبعة التى تقدم ذكرها التى هى ربع معمور الدنيا فهى موسطة من البلدان كريمة البقعة بطبع الخلقة طيبة التربة مخصبة القاعة منبجسة العيون الثرار منفجرة الانهار الغزار قليلة الهوام ذوات السموم معتدلة الهواء أكثر الازمان لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالابدان وكذا سائر فصولها فى اعم سنيها تأتى على قدر من الاعتدال وتوسط من الحال وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم لان الساحل ونواحيه يبادر بباكوره كما أن الثغر وجهاته والجبال التى يخصها برد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيها من ذلك حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان فمادة الخيرات فيها متصلة كل اوان ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد المقدم على أجناسه فى الطيب والصبر على النار وبها شجر المحلب

فأقام هذا الملك على عمارة أرضهم ستا وأربعين سنة وشرع لهم الصلوات وغيرها من الشرائع مما كان تلف منهم فى حال السبى والاسامرة تزعم ان التوراة التى فى يد اليهود ليست التوراة التى أوردها موسى ابن عمران عليه السلام وان تلك حرفت وبدلت وغيرت وان المجدد لها هذا الملك لانه جمعها ممن كان يحفظها من بنى اسرائيل وان التوراة الصحيحة هى فى ايدى الاسامرة دون غيرهم وكان ملك هذا الملك ستا وأربعين سنة ووجدت فى نسخة أخرى ان المتزوج فى بنى اسرائيل هو بختنصر وهو الذى ردهم ومن عليهم وفيه نظر (ودبر اسمعيل بن ابراهيم أمر البيت بعد ابراهيم عليه السلام) ونبأه الله عز وجل وأرسله الى العماليق وقبائل اليمن فنهاهم عن عبادة الأوثان فآمن طائفة منهم وكفر اكثرهم وولد اسمعيل اثنى عشر ذكرا وهم قائث وقيدار وأربل وميم ومسمع ودوما ودوام وميسا وحداد وحيم وقطورا وماش وكانت وصية ابراهيم الى ابنه اسمعيل عليه السلام ووصى اسمعيل الى أخيه اسحق عليهما السلام وقد قيل الى ولده قيدار بن اسمعيل وكان عمر اسمعيل الى ان قبضه الله اليه مائة سنة وسبعا وثلاثين سنة ودفن بالمسجد الحرام فى الموضع الذى كان فيه الحجر الاسود ودبر أمر البيت بعده

المعدود في الافاويه المقدّم في انواع الاشنان كثير واسع وقد زعموا أنه لا يكون الا بالهند وبها فقط ولها خواص نباتية يكثر تعدادها انتهى (وقد ذكر غيره تفصيل بعض ذلك فقال) يوجد في ناحية دلاية من اقليم البشرة عود الانجوج لا يفوقه العود الهندي ذكاء وعطر رائحة وقد سبق منه الى خيران الصقلبي صاحب المرية وان اصل منبته كان بين أحجار هنالك وباكشونية جبل كثيرا ما يتضوّع ريحه ريح العود الذكي اذا ارسلت فيه النار وبحر شذونة يوجد العنبر الطيب الغربي وفي جبل منت ليون المحلب ويوجد بالاندلس القسط الطيب والسنبل الطيب والجنطيانة تحمل من الاندلس الى جميع الآفاق وهو عقار رفيع والمر الطيب بقلعة ايوب واطيب كهرباء الارض بشذونة درهم منها يعدل دراهم من المجلوبة واطيب القرمز قرمز الاندلس واكثر ما يكون بنواحي اشبيلية ولبلة وشذونة وبلنسية ومن الاندلس يحمل الى الآفاق وبناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجيد وقد يوجد في غيرها وعلى مقربة من حضرة لورقة من عمل قرطبة معدن البلور وقد يوجد بجبل شحيران وهو شرقي بيرة وحجر البجادي يوجد بناحية مدينة الاشبونة في جبل هنالك يتلألأ فيه ليلا كالسراج والياقوت الاحمر يوجد بناحية حصن منت ميور من كورة مالقة الا أنه دقيق جدّا لا يصلح للاستعمال لصغره ويوجد حجر يشبه الياقوت الاحمر بناحية بجانة في خندق يعرف بقرية ناشرة أشكالا مختلفة كأنه مصبوغ حسن اللون صبور على النار وحجر المغناطيس الجاذب للحديد يوجد في كورة تدمير وحجر الشاذنة بجبال قرطبة كثير ويستعمل ذلك في التذاهيب وحجر اليهودي في ناحية حصن البونت وهو انفع شئ للعصاة وحجر المرقشيثا الذهبية في جبال ابدة لا نظير لها في الدنيا ومن الاندلس تحمل الى جميع الآفاق لفضلها والمغنيسيا بالاندلس كثير وكذلك حجر الطلق ويوجد حجر اللؤلؤ بمدينة برشلونة الا أنه جامد اللون ويوجد المرجان بساحل بيرة من عمل المرية يلقط منه في اقل من شهر نحو ثمانين ربعا ومعدن الذهب بنهر لاردة يجمع منه كثير ويجمع ايضا في ساحل الاشبونة ومعادن الفضة في الاندلس كثيرة في كورة تدمير وجبال حمة بجانة وباقليم كرتش من عمل قرطبة معدن فضة جليل وباشكونية معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضة وله معادن بناحية افرنجة وليون ومعدن الزئبق في جبل البرانس ومن هنالك يتجهز به الى الآفاق ومعادن الكبريت الاحمر والاصفر بالاندلس كثيرة ومعدن التوتيا الطيبة بساحل البيرة بقرية تسمى بطرنة وهي ازكى توتيا وأقواها في صبغ النحاس وبجبال قرطبة توتيا وليست كالبطرنية ومعدن الكحل اشبه بالاصفهاني بناحية مدينة طرطوشة يحمل منها الى جميع البلاد ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالاندلس اكثر من ان تحصى وما ذكرت هنا وان تكرر بعضه مع ما سبق او يأتي فهو لجمع النظائر وما لم نذكره اكثر والله تعالى اعلم (ومن خواص طليطلة) ان حنطتها لا تتغير ولا تسوّس على طول السنين يتوارثها الخلف عن السلف وزعفران طليطلة هو الذي يعم البلاد ويتجهز به الرفاق الى الآفاق وكذلك الصبغ السماوي انتهى (وقال المسعودي) في مروج الذهب بعد كلام ما نصه والعنبر كثير ببحر الاندلس يجهز الى مصر وغيرها ويحمل الى

فائث بن اسمعيل عليه السلام على منهج اسمعيل وملته وقيل ايضا انه كان وصى ابيه اسمعيل عليه السلام وكان بين سليمان بن داود وبين المسيح عليهما السلام انبياء وعباد وصالحون منهم ارمياء ودانيال وعزير وقد تنازع الناس في نبوّة ايوب واشعياء وحزقيل والياس واليسع ويونس وذي الكفل والخضر وروى عن اسحق انه ارمياء وقيل بل كان عبدا صالحا وزكريا وهو من ولد داود من سبط يهوذا وكانت ايساع بنت عمران اخت مريم بنت عمران ام المسيح عليهما السلام وهو عمران بن ماثان بن يعاميم من ولد داود ايضا واسم ام ايساع ومريم حنة وولدت لزكريا يحيى ابن خالة المسيح عليهم السلام وكان زكريا نجارا فاشاعت اليهود انه ركب من مريم الفاحشة فقتلوه وكان لما احس بهم لجأ الى شجرة فدخل في جوفها فدلهم عليه ابليس لعنه الله عز وجل فنشروا الشجرة وهو فيها فقطعوه وقطعوها ولما ولدت ايساع ابنة عمران اخت مريم ام المسيح يحيى بن زكريا عليهما السلام هربت به من بعض الملوك الى مصر فلما صار رجلا بعثه الله عز وجل الى بني اسرائيل فقام فيهم بامر الله عز وجل ونهيه فقتلوه وكثرت الأحداث في بني اسرائيل فبعث الله عليهم ماسكا

قرطبة من ساحل لها يقال له شنترين وشدونة تبلغ الاوقية منه بالاندلس ثلاثة مثاقيل ذهبا والاوقية بالبغدادى وتباع بمصر اوقيته بعشرين دينارا وهو عنبر جيد ويمكن ان يكون هذا العنبر الواقع الى بحر الروم ضربته الامواج من بحر الاندلس الى هذا البحر لاتصال الماء وبالاندلس معدن عظيم للفضة ومعدن للزئبق ليس بالجيد يجهز الى سائر بلاد الاسلام والكفر وكذلك يحمل من بلاد الاندلس الزعفران وعروق الزنجبيل واصول الطيب خمسة اصناف المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران وكلها تحمل من ارض الهند وما اتصل بها الا الزعفران والعنبر انتهى وهو وان تكرر مع ماذكرته عن غيره فلا يخلو من فائدة والله تعالى اعلم (وذكر البعض) ان فى بلاد الاندلس جميع المعادن الكائنات عن النيرات السبعة وهى الرصاص من زحل والقصدير الابيض من المشترى والحديد من قسم المريخ والذهب من قسم الشمس والنحاس من الزهرة والزئبق من عطارد والفضة من القمر (وذكر الكاتب ابراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق بلد الاندلس) فقال اهله اصحاب جهاد متصل يحاربون من اهل الشرك المحيطين بهم امة يدعون الجلالقة يتاخمون حوزهم ما بين غرب الى شرق قوم لهم شدة ولهم جمال وحسن وجوه فاكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفراهة منهم ليس بينهم وبينهم درب فالحرب متصلة بينهم مالم تقع هدنة ويحاربون بالافق الشرقى امة يقال لهم الفرنجة هم اشد عليهم من جميع من يحاربونه من عدوهم اذ كانوا خلقا عظيما فى بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الارض الكبيرة هم اكثر عددا من الجليقيين واشد باسا واحد شوكة واعظم امدادا وهذه الامة يحاربون امة الصقالبة المتصلين بارضهم لمخالفتهم اياهم فى الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بارض الاندلس فلهم هنالك كثرة وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بارضهم وفى ثغر المسلمين المتصل بهم فيحمل خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هنالك فصاروا يخصون ويستحلون المثلة (قال ابن سعيد) ومخرج بحر الروم المتصاعد الى الشام هو بساحل الاندلس الغربى بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من ارض المغرب وبين الاندلس فيكون مقدار عرضه هنالك كما زعموا ثمانية عشر ميلا وهذا عرض جزيرة طريف الى قصر مصمودة بالقرب من سبتة وهنالك كانت القنطرة التى يزعم الناس أن الاسكندر بناها ليعبر عليها من برالاندلس الى برالعدوة ويعرف هذا الموضع بالزقاق وهو صعب المجاز لانه مجمع البحرين لا تزال الامواج تتطاول فيه والماء يدور وطول هذا الزقاق الذى عرضه ثمانية عشر ميلا مضاعف ذلك الى ميناء سبتة ومن هنالك ياخذ البحر فى الاتساع الى ثمانمائة ميل وأزيد ومنتهاه مدينة صور من الشام وفيه عدد عظيم من الجزائر (قال بعضهم) انها ثمان وعشرون جزيرة منها صقلية ومالطة وغيرهما انتهى وبعضه بالمعنى (وقال بعضهم) عند وصفه ضيق بحر الزقاق قرب سبتة ما صورته ثم يتسع كلما امتد حتى يصير الى مالا ذرع له ولا نهاية (وقال بعضهم) وكان مبلغ خراج الاندلس الذى كان يؤدى الى ملوك بنى امية قديما ثلثمائة ألف دينار دراهم اندلسية كل سنة قوانين وعلى كل مدينة من مدائنهم مال معلوم فكانوا يعطون جندهم

من ناحية المشرق يقال له حردوس فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا الوفا من الناس ٧١ وهو يفور الى ان هدأ الدم بعد خطب طويل ولما بلغت مريم بنت عمران سبع عشرة سنة بعث الله عز وجل اليها جبريل فنفخ فيها الروح فحملت بالسيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وولدت بقرية يقال لها بيت لحم على أميال من بيت المقدس وولدته فى يوم الاربعاء لاربع وعشرين ليلة خلت من كانون الاول وكان من أمره ما ذكره الله عز وجل فى كتابه واتضح على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد زعمت النصارى ان ايشوع الناصرى أقام على دين من سلف من قومه يقرأ التوراة والكتب السالفة فى مدينة طبرية من بلاد الاردن فى كنيسة يقال لها المدراس ثلاثين سنة وقيل تسعا وعشرين سنة وانه فى بعض الايام كان يقرأ فى سفر اشعياء اذ نظر فى السفر الى كتاب من نور فيه أنت نبيي وخالصتي اصطفيتك لنفسى فاطبق السفر ودفعه الى خادم الكنيسة وخرج وهو يقول الآن تمت المشيئة لله فى ابن البشر وقد قيل ان المسيح عليه السلام كان بقرية يقال لها ناصرة من بلاد اللجون من أعمال الاردن وبذلك سميت النصرانية ورأيت فى هذا القرن كنيسة تعظمها النصارى وفيها توابيت من حجارة

والقصارين وقد ذكر أن ميروحنا وشمعون وبولس ولوقا هم الحواريون الاربع الذين تلقوا الانجيل فالفوا خبر عيسى عليه السلام وما كان من أمره وخبر مولده وكيف عمده يحيى بن زكريا وهو يحيى المعمداني في بحيرة طبرية وقيل في بحر الاردن الذي يخرج من بحيرة طبرية ويجرى الى البحيرة المنتنة وما فعل من الاعاجيب وأتى من المعجزات وما قالت اليهود الى ان رفعه الله عز وجل اليه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وفي الانجيل خطب طويل في أمر المسيح ومريم عليهما السلام ويوسف النجار اعرضنا عن ذلك لان الله عز وجل لم يخبر بشئ من ذلك في كتابه ولا أخبر به محمد انبيه صلى الله عليه وسلم

(ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم)

وكان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم جماعة من أهل التوحيد ممن يقر بالبعث وقد اختلف فيهم فمن الناس من راى انهم أنبياء ومنهم من رأى غير ذلك فمن ذكر انه نبي حنظلة بن صفوان وكان من ولد اسمعيل بن ابراهيم صلى الله عليهما وسلم وارسل الى أصحاب الرس وكانوا قد

ور حالهم الثلث من ذلك مائة ألف دينار ويتفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهليهم مائة ألف دينار ويدخرون لحادث ايامهم مائة ألف دينار انتهى (وذكر غيره) ان الجباية كانت بالاندلس ايام عبد الرحمن الاوسط ألف ألف دينار في السنة وكانت قبل ذلك لاتزيد على ستمائة ألف حكاه ابن سعيد وقال ان الاندلس مسيرة شهر مدن وعمائر (وقال قاضي القضاة) ابن خلدون الحضرمي في تاريخه الكبير ما صورته كان هذا القطر الاندلسي من العدوة الشمالية من عدوتي البحر الرومي و بالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الاندلوش وتسكنه امم من افرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على اهله لمئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط الى الاندلس فصاروا اليها وملكوها ولما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بالمغرب من أمم الافرنجة والقوط عليها فدانوا بها وكان ملوك القوط ينزلون طليطلة وكانت دار ملكهم وربما تنقلوا ما بينها و بين قرطبة واشبيلية وماردة وأقاموا كذلك نحوا من أربعمائة سنة الى أن جاء الله بالاسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق وهو سمة لملوكهم كما أن جرجير سمة لملوك صقلية انتهى (ومن اشهر بلاد الاندلس) غرناطة وقيل ان الصواب اغرناطة بالهمز ومعناه بلغتهم الرمانة وكفاها شرفا ولادة لسان الدين بها (وقال القلقشندي) أما غرناطة فانها دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس ولم تخل من أشراف اماثل وعلماء أكابر وشعراء افاضل ولو لم يكن لها الا ماخصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شنيل لكفاها (وفي بعض كلام لسان الدين) ماصورته وما لمصر تفخر بنيلها وألف منه في شنيلها يعني أن الشين عند أهل المغرب عددها ألف فقولنا شنيل اذا اعتبرنا عدد شينه كان ألف نيل وفيها قيل

غرناطة مالها نظير * مامصر ما الشام ما العراق
ماهي الا العروس تجلى * وتلك من جملة الصداق

وتسمى كورة البيرة التي منها غرناطة دمشق لان جند دمشق نزلوها عند الفتح وقيل انما سميت بذلك لشبهها بدمشق في غزارة الانهار وكثرة الاشجار حكاه صاحب مناهج الفكر قال ولما استولى الفرنج على معظم بلاد الاندلس انتقل أهلها اليها فصارت المصر المقصود والمعقل الذي تنضوى اليه العساكر والجنود ويشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها وفي قبليها جبل شلير وهو جبل لايفارقه الثلج صيفا ولاشتاء وفيه سائر النبات الهندي لكن ليس فيه خصائصه انتهى (ومن أعمال غرناطة) قطر لوشة وبها معدن للفضة جيد ومنها أعني لوشة أصل لسان الدين بن الخطيب وهذا القطر ضخم ينضاف اليه من الحصون والقرى كثير وقاعدته لوشة بينها وبين غرناطة مرحلة وهي ذات أنهار وأشجار وهي على نهر غرناطة الشهير بشنيل * (ومن أعمال غرناطة الكبار) * عمل باغة والعامة يقولون بيغة واذا نسبوا اليه قالوا بيغي وقاعدته باغة طيبة الزرع كثيرة الثمار غزيرة المياه ويجود فيها الزعفران * (ومن أعمال غرناطة) وادي آش ويقال وادي الاشات وهي مدينة جليلة

قد أحدقت بها البساتين والأنهار وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار

وادي الأشات يهيج وجدي كلما * اذكرت ما أفضت بك النعماء
لله ظلك والهجير مسلط * قد بردت لفحاته الانداء
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة * منه فتطرف طرفها الأفياء
والنهر يبسم بالحباب كأنه * سلخ نضته حية رقشاء
فلذاك تحذره الغصون فميلها * ابدا على جنباته ايماء

(ومن أعمال وادي آش) حصن جليانة وهو كبير يضاهي المدن وبه التفاح الجلياني الذي خص الله به ذلك الموضع يجمع عظم الجرم وكرم الجوهر وحلاوة الطعم وذكاء الرائحة والنقاء وبين الحصن المذكور ووادي آش اثنا عشر ميلا (ومن غرائب الأندلس) ان به شجرتين من شجر القسطل وهما عظيمتان جدا احداهما بسند وادي آش والأخرى بشرة غرناطة في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب وهذا أمر مشهور قاله أبو عبد الله بن جزي وغيره * وكانت البيرة هي المدينة قبل غرناطة فلما بنى الصنهاجي مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس اليها ثم زاد في عمارتها ابنه باديس بعده (وذكر غير واحد) أن في كورة سرقسطة الملح الأندراني الأبيض الصافي الأملس الخالص وليس في الأندلس موضع فيه مثل هذا الملح (قال) وسرقسطة بناها قيصر ملك رومة الذي تؤرخ من مدته مدة الصفر قبل مولد المسيح على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام وتفسير اسمها قصر السيد لانه اختار ذلك المكان بالأندلس (وقيل ان موسى بن نصير) شرب من ماء نهر جلق بسرقسطة فاستعذبه وحكم أنه لم يشرب بالأندلس أعذب منه وسأل عن اسمه فقيل جلق ونظر الى ما عليه من البساتين فشبهها بغوطة جلق الشام وقيل انها من بناء الاسكندر والله أعلم * وبمدينة برجة وهي من أعمال المرية معدن الرصاص وهي على واد مبهج يعرف بوادي عذراء وهو محدق بالأزهار والأشجار وتسمى برجة بهجة لبهجة منظرها وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني رحمه الله تعالى

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدي ربا * لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

وفيها أيضا قوله

حط الرحال ببرجه * وارتد لنفسك بهجه
في قلعة كسلاح * ودوحة مثل لجه
فحصنها لك أمن * وروضها لك فرجه
كل البلاد سواها * كعمرة وهي حجه

وبمالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه ويجلب حتى للهند والصين وقيل انه ليس في الدنيا مثله وفيه يقول أبو الحجاج يوسف ابن الشيخ البلوي المالقي حسبما أنشده غير واحد منهم

من ولد اسمعيل بن ابراهيم وهم قبيلتان يقال لاحداهما ادمان وللأخرى يامن ٧٣ وقيل رعويل وذلك باليمن فقام فيهم حنظلة بأمر الله عز وجل فقتلوه فأوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل من سبط يهوذا أن يأمر بختنصر يسير اليهم فسار اليهم فأتى عليهم فذلك قوله عز وجل فلما احسوا بأسنا الى قوله حصيدا خامدين وقيل ان القوم كانوا من حمير وقد ذكر ذلك بعض شعرائهم في مرثية له فقال

بكت عيني لأهل الرس * رعويل وقدمان
واسلم من ابي زرع * بكال الحي قحطان

وقد حكي عن وهب بن منبه ان ذا القرنين وهو الاسكندر كان بعد المسيح عليه السلام في الفترة وأنه كان حلم حلما رأى فيه انه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها فقص رؤياه على قومه فسموه بذي القرنين وللناس في ذي القرنين تنازع كبير قد أتينا على ذلك في كتاب أخبار الزمان وفي الكتاب الأوسط وسنذكر لمعا من خبره عند ذكرنا الملوك اليونانيين والروم وكذلك تنازع الناس في أصحاب الكهف في أي الأعصار كانوا فمنهم من زعم انهم كانوا في زمن الفترة ومنهم من رأى غير ذلك وسنأتي بلمع من خبرهم في ذكر ملوك الروم في هذا الكتاب وإن كنا قد أتينا على ذلك

ابن سعيد

مالقة حييت يا تينها * الفلك من أجلك ياتينها
نهى طبيبي عنه في علتي * ما لطبيبي عن حياتي نهى

وذيل عليه الامام الخطيب ابو محمد عبد الوهاب المنشى بقوله

وحمص لا تنس لها تينها * واذكر مع التين زياتينها

وفي بعض النسخ

لا تنس لاشبيلية تينها * واذكر مع التين زياتينها

وهو نحو الاول لان حمص هي اشبيلية لنزول اهل حمص من المشرق بها حسبما سنذكره (ونسب) ابن جزى في ترتيبه لرحلة ابن بطوطة البيتين الاولين للخطيب ابي محمد عبد الوهاب المالقي والتذييل لقاضي الجماعة ابي عبد الله بن عبد الملك فالله أعلم * وقال ابن بطوطة وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى اقاصي البلاد ومسجدها كبير الساحة كثير البركة شهيرها وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارنج البديعة انتهى وقال قبله ان مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير ورمانها المرسي الياقوتي لا نظير له في الدنيا واما التين واللوز فيجلبان منها ومن احوازها الى بلاد المشرق والمغرب انتهى (وبكورة اشبونة) المتصلة بشنترين معدن التبر وفيها عسل يجعل في كيس كتان فلا يكون له رطوبة كأنه سكر ويوجد في ريفها العنبر الذي لا يشبهه إلا الشحرى (ومن اشهر مدن الاندلس) مدينة قرطبة اعادها الله تعالى للاسلام وبها الجامع المشهور والقنطرة المعروفة بالجسر (وقد ذكر ابن حيان) أنه بنى على امر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ونصه وقام فيها بامره على النهر الاعظم بدار مملكتها قرطبة الجسر الاكبر الذي ما يعرف في الدنيا مثله انتهى وفيها يقول بعض علماء الاندلس

بأربع فاقت الامصار قرطبة * منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة * والعلم اعظم شئ وهو رابعها

(وقال الحجاري في المسهب) كانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع اعلام الانام بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية واليها كانت الرحلة في الرواية اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وهي من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ونهرها من أحسن الانهار مكتنف بديباج المروج مطرز بالازهار تصدح في جنباته الاطيار وتنعر النواعير ويبسم النوار وقرطاها الزاهرة والزهراء حاضرتا الملك وأفقاه النعماء والسراء وان كان قد أخنى عليها الزمان وغير بهجة أوجهها الحسان فتلك عادته وسل الخورنق والسدير وغمدان وقد أعذر بانذاره اذ لم يزل ينادي بصروفه لا أمان لا أمان وقد قال الشاعر

وما زلت أسمع ان الملو * ك تبني على قدر اخطارها

في الكتاب الاوسط وفيما سلف قبله ٧٤ من كتاب اخبار الزمان وممن كان في الفترة بعد المسيح عليه السلام جرجيس وقد ادرك بعض الحواريين فارسله الله الى بعض ملوك الموصل فدعاه الى الله عز وجل فقتله فاحياه الله وبعثه اليه ثانية فقتله فاحياه الله فامر بنشره ثالثة واحراقه واذرائه في دجلة فاهلك الله عز وجل الملك وجميع أهل مملكته ممن اتبعه على حسب ما وردت به الاخبار عن أهل الكتاب ممن آمن وذلك موجود في كتاب المبتدا والسير لوهب بن منبه وغيره وممن كان في الفترة حبيب النجار وكان يسكن انطاكية من أرض الشام وكان بها ملك متجبر يعبد التماثيل والصور فسار اليه اثنان من تلامذة المسيح فدعوه الى الله عز وجل فحبسهما وضربهما فعززهما الله بثالث وقد تنوزع فيه فذهب كثير من الناس الى انه بطرس وهذا بالرومية واسمه بالعبرية شمعان وبالسريانية شمعون وهو شمعون الصفا وذكر كثير من الناس واليه ذهب سائر فرق النصرانية ان الثالث المعزز به بولس وان الاثنين المتقدمين اللذين أودعا الحبس توما وبطرس فكان لهم مع ذلك الملك خطب عظيم طويل فيما أظهروا من الاعجاز والاعاجيب والبراهين من ابراء الاكمه والابرص واحياء الميت وحيلة بولس عليه بمداخلته انتهى

انتهى وقال السلطان يعقوب المنصور ابن السلطان يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن على لاحد رؤساء اجنادها ماتقول فى قرطبة فخاطبه على ما يقتضيه كلام عامة الاندلس بقوله جوفها شمام وغربيها قمام وقبلتها دام والجنة هى والسلام يعنى بالشمام جبال الورد و يعنى بالقمام ما يؤكل اشارة الى محرث الكنبانية و يعنى بالمدام النهر ولما قال والده السلطان يوسف بن عبد المؤمن لابى عمران موسى بن سعيد العنسى ماعندك فى قرطبة قال له ما كان لى أن أتكلم حتى اسمع مذهب أمير المؤمنين فيها فقال السلطان ان ملوك بنى امية حين اتخذوها حضرة مملكتهم لعلى بصيرة الديار المنفسحة الكبيرة والشوارع المتسعة والمبانى الضخمة المشيدة والنهر الجارى والهواء المعتدل والخارج الناضر والمحرث العظيم والشعراء الكافية والتوسط بين شرق الاندلس وغربها قال فقلت ما ابقى لى امير المؤمنين ما أقول (قال ابن سعيد) ولاهلها رياسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم الا ان عامتها اكثر الناس فضولا واشدهم تشغيبا ويضرب بهم المثل مابين اهل الاندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بامورهم حتى ان السيد ابا يحيى اخا السلطان يعقوب المنصور قيل له لما انفصل عن ولايتها كيف وجدت اهل قرطبة فقال مثل الجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان أثقلته صاح ماندرى أين رضاهم فنقصده ولا أين سخطهم فنجتنبه وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق وان العزل عنها لما قاسيته من اهلها عندى ولاية وانى ان كلفت العود ليها لقائل لايلدغ المؤمن من جحر مرتين انتهى (وقال ابو الفضل التيفاشى) جرت مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه ابى الوليد بن رشد والرئيس ابى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة ما أدرى ماتقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فاريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية قال وقرطبة اكثر بلاد الله كتبا انتهى (وحكى) الامام ابن بشكوال عن الشيخ ابى بكر بن سعادة انه دخل مدينة طليطلة مع اخيه على الشيخ الاستاذ ابى بكر المخزومى قال فسألنا من اين فقلنا من قرطبة فقال متى عهدكما بها فقلنا الآن وصلنا منها فقال اقربا الى اشم نسيم قرطبة فقربنا منه فشم راسى وقبله وقال لى اكتب

اقرطبة الغراء هل لى اوبة * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعقع فى ساحات دوحاتك الرعد
ليالى اسحار وارضك روضة * وتربك فى استنشاقها عنبر وورد

وكتب الرئيس الكاتب ابو بكر بن القبطرنة للعالم ابى الحسين بن سراج بقوله

ياسيدى وأبى هوى وجلالة * ورسول ودى ان طلبت رسولا
عرج بقرطبة اذا بلغتها * بابى الحسين وناده تمويلا
واذا سعدت بنظرة من وجهه * اهد السلام لكفه تقبيلا
واذكر له شوقى وشكرى مجملا * ولو استطعت شرحته تفصيلا
بتحية تهدى اليه كانما * جرت على زهر الرياض ذيولا

اياه وتلطفه له واستنقاذ صاحبيه من الحبس فجاء حبيب النجار فصدقهم لما رأى من آيات الله عز وجل وقد أخبر الله عز وجل بذلك فى كتابه بقوله اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما الى قوله وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى وقتل بولس وبطرس بمدينة رومية وصلبا منكسين وكان لهما فيها خبر طويل مع الملك ومع سليمان الساحر ثم جعلا بعد ذلك فى خزانة من البلور وذلك بعد ظهور دين النصرانية وحرمهما فى كنيسة هنالك قد ذكرناها فى الكتاب الاوسط عند ذكرنا عجائب رومية واخبار تلاميذ المسيح عليه السلام وتفرقهم فى البلاد وسنورد فى هذا الكتاب لمعا من أخبارهم ان شاء الله تعالى فاما أصحاب الاخدود فانهم كانوا فى الفترة فى مدينة نجران باليمن فى ملك ذى نواس وهو القاتل لذى ساروكان على دين اليهودية فبلغ ذانواس ان قوما بنجران على دين المسيح عليه السلام فسار اليهم بنفسه واحتفر لهم اخاديد فى الارض وملأها جمرا واضرمها نارا ثم عرضهم على اليهودية فمن تبعه تركه ومن أبى قذفه فى النار فاتى بامرأة معها طفل ابن سبعة أشهر فابت ان تتخلى عن دينها فادنيت من النار فجزعت فانطق الله عز وجل الطفل فقال يا أمه امضى على دينك فلا نار بعد هذه فالقاها فى النار وكانوا

وفى باب اليهود بقرطبة يقول ابو عامر بن شهيد

لقد أطلعوا عند باب اليهو * د بدرا أبى الحسن ان يكسفا
تراه اليهود على بابها * اميرا فتحسبه يوسفا

واستقبحوا قولهم باب اليهود فقالوا باب الهدى وسنذكر قرطبة والزهراء والزاهرة ومسجدها فى الباب المنفرد بها ان شاء الله تعالى وكذلك القنطرة (ومن اعظم مدن الاندلس اشبيلية) قال الشقندى من محاسنها اعتدال الهواء وحسن المبانى ونهرها الاعظم الذى يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلا ثم يحسر وفيه يقول ابن سفر

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هزأ فضم من الحياء ازاره

وقيل لاحد من رأى مصر والشام ايهما رأيت احسن اهذان ام اشبيلية فقال بعد تفضيل اشبيلية شرفها غابة بلا اسد ونهرها نيل بلا تمساح انتهى (ويقال) ان الذى بنى اشبيلية اسمه توليس وانه اول من سمى قيصر وانه لما دخل الاندلس اعجب بساحاتها وطيب ارضها وجبلها المعروف بالشرف فردم على النهر الاعظم مكانا واقام فيه المدينة واحدق عليها باسوار من صخر صلد وبنى فى وسط المدينة قصبتين بديعتى الشان تعرفان باخوين وجعلها أم قواعد الاندلس واشتق لها اسما من رومية ومن اسمه فسماها رومية توليس انتهى (وقد تقدّم) شىء من هذا وكان الاولون من ملوك الاعاجم يتداولون بسكناهم اربعة بلاد من بلاد الاندلس اشبيلية وقرطبة وقرمونة وطليطلة ويقسمون أزمانهم على الكينونة بها واما شرف اشبيلية فهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة فرسخ فى فرسخ طولا وعرضا لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه (واعلم) ان اشبيلية لها كور جليلة ومدن كثيرة وحصون شريفة وهى من الكور المجندة نزلها جند حمص ولواؤهم فى الميمنة بعد لواء جند دمشق وانتهت جباية اشبيلية ايام الحكم بن هشام الى خمسة وثلاثين الف دينار ومائة دينار *وفى اقليم طالقة من اقاليم اشبيلية وجدت صورة جارية من مرمر معها صبى وكأن حية تريده لم يسمع فى الاخبار ولا رؤى فى الآثار صورة أبدع منها جعلت فى بعض الحمامات وتعشقها جماعة من العوام وفى كورة ماردة حصن شنت افرج فى غاية الارتفاع لا يعلوه طائر البتة لانسر ولا غيره (ومن عجائب الاندلس) البلاط الاوسط من مسجد جامع اقليش فان طول كل جائزة منه مائة شبر واحد عشر شبرا وهى مربعة منحوتة مستوية الاطراف (وقال بعض من وصف اشبيلية) انها مدينة عامرة على ضفة النهر الكبير المعروف بنهر قرطبة وعليه جسر مربوط بالسفن وبها اسواق قائمة وتجارات رابحة واهلها ذوو اموال عظيمة واكثر متاجرهم الزيت وهو يشتمل على كثير من اقليم الشرف واقليم الشرف على تل عال من تراب احمر مسافته اربعون ميلا فى مثلها يمشى به السائر فى ظل الزيتون والتين ولها فيما ذكر بعض الناس قرى كثيرة وكل قرية عامرة بالاسواق والديار الحسنة والحمامات وغيرها من المرافق (وقال صاحب مناهج الفكر) عند ذكر اشبيلية وهذه المدينة من احسن مدن الدنيا وباهلها يضرب المثل فى الخلاعة وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة ويعينهم على

مؤمنين موحدين لا على رأى النصرانية فى هذا الوقت فضى رجل منهم يقال له دمعليان الى قيصر ملك الروم يستنجده فكتب الى النجاشى لانه كان أقرب اليهم دارا فكان من أمر الحبشة وعبورهم الى أرض اليمن وتغلبهم عليها الى ان كان من أمر سيف بن ذى يزن واستنجاده الملوك الى أن أنجده انوشروان ما قد أتينا على ذكره فى كتابنا فى أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط وسنذكر لمعا من ذلك فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا لاخبار الاذواء وملوك اليمن وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه قصة أصحاب الاخدود بقوله عز وجل قتل أصحاب الاخدود الى قوله وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد وممن كان فى الفترة خالد بن سنان العبسى وهو خالد بن سنان بن عتب بن عبس وقد ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فقال ذلك نبى أضاعه قومه وذلك ان نارا ظهرت فى العرب فافتتنوا بها وكانت تنتقل وكادت العرب تتمجس وتغلب عليها المجوسية فاخذ خالد بن سنان هراوة وشدّ عليها وهو يقول بدأ كل ذى دين برد الى الله الأعلى لادخلنها وهى تتلظى ولاخرجن منها ومابى سدى فاطفاها فلما حضرت خالد بن سنان الوفاة قال لاخوته اذا أنا دفنت فانه سيجىء عانة من حمير وحش يقدمها عير أبتر فتضرب قبرى ذلك

ذلك واديها الفرج وناديها البهج وهذا الوادي يأتيها من قرطبة ويجرز في كل يوم ولها جبل الشرف وهو تراب أحمر طوله من الشمال الى الجنوب أربعون ميلا وعرضه من المشرق الى المغرب اثنا عشر ميلا يشتمل على مائتين وعشرين قرية قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت انتهى * ولكورة باجة من الكور الغربية التي كانت من أعمال اشبيلية أيام بني عباد خاصية في دباغة الاديم وصناعة الكتان وفيها معدن فضة وبها ولد المعتمد بن عباد وهي متصلة بكورة ماردة وجبل طارق حوز قصب السبق بنسبته الى طارق مولى موسى ابن نصير اذ كان أول ما حل به مع المسلمين من بلاد الاندلس عند الفتح ولذا اشهر بجبل الفتح وهو مقابل الجزيرة الخضراء وقد تحوّن البحر هنالك مستديرا حتى صار مكان هذا الجبل كالناظر للجزيرة الخضراء وفيه يقول مطرف شاعر غرناطة

وأقود قد ألقى على البحر متنه * فأصبح عن قود الجبال بمعزل
يعرض نحو الافق وجها كانما * تراقب عيناه كواكب منزل

واذا أقبل عليه المسافرون من جهة سبتة في البحر بان كأنه سرج قال أبو الحسن علي ابن موسى بن سعيد أقبلت عليه مرة مع والدي فنظرنا اليه على تلك الصفة فقال والدي أجز

انظر الى جبل الفتح * را كبا متن لج فقلت
وقد تفتح مثل الافنان في شكل سرج

(وأما جزيرة طريف) فليست بجزيرة وانما سميت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء وطريف المنسوبة اليه بربري من موالي موسى بن نصير ويقال ان موسى بعثه قبل طارق في أربعمائة رجل فنزل بهذه الجزيرة في رمضان سنة احدى وتسعين وبعده دخل طارق والله أعلم (ومن أعظم كور الاندلس) كورة طليطلة وهي من متوسط الاندلس وكانت دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة وسماها قيصر بلسانه بزليطلة وتأويل ذلك أنت فارح فعربتها العرب وقالت طليطلة وكانوا يسمونها وجهاتها في دولة بني أمية بالثغر الادنى ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الاعلى وتسمى طليطلة مدينة الاملاك لانها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون انسانا ودخلها سليمان بن داود عليهما السلام وعيسى بن مريم وذو القرنين وفيها وجد طارق مائدة سليمان وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم الذي بني اشبيلية أخذها من بيت المقدس كما مر وقوّمت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار وقيل انها كانت من زمرد أخضر ويقال انها الآن برومة والله أعلم بذلك ووجد طارق بطليطلة ذخائر عظيمة منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والاحجار النفيسة وايوان ممتلئ من أواني الذهب والفضة وهو كبير حتى قيل ان الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه وقد قيل ان أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدّقه الناظر فيه * وبطليطلة بساتين محدقة وانهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفة الطعوم والالوان ولها من جميع جهاتها اقاليم رفيعة ورساتيق مريعة وضياع بديعة وقلاع منيعة وبالجملة فمحاسنها كثيرة ولعلنا نلم ببعض منتزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب ان

بحافرها فاذا رأيتم ذلك فانبشوا عني فاني سأخرج اليكم فاخبركم بجميع ما هو كائن فلما مات ودفنوه رأوا ما قال فارادوا ان يخرجوه فكره ذلك بعضهم وقالوا نخاف ان تنسبنا العرب الى نبشنا عن ميت لنا وأتت ابنته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقرأ قل هو الله احد فقالت كان أبي يقول هذا وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعا من اخباره مما تدعو الحاجة الى ذكره ان شاء الله تعالى (قال المسعودي) وممن كان في الفترة وثاب السني وكان من عبد القيس ثم من سن وكان على دين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وكان لا يموت احد من ولد وثاب فيدفن الا رأوا واسطا على قبره ومنهم اسعد ابو كرب الحميري وكان مؤمنا وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يبعث بسبعمائة سنة قال

شهدت على احمد انه
رسول من الله باري النسم
فلو مدّ عمري الى عمره
لكنت وزيرا له وابن عم
وألزم طاعته كل من
على الارض من عرب او عجم

وهو اول من كسا الكعبة الانطاع والبرود فلذلك يقول بعض حمير

وكسوت البيت الذي عظم
الله ملاءً مقصبا وبرودا

ومنهم قس بن ساعدة بن اياد بن نزار بن معدّ وكان حليم العرب وكان مقرا بالبعث وهو الذي يقول من عاش مات ومن مات

شاء الله تعالى * وطليطلة قاعدة ملك القوطيين وهى مطلة على نهر باجة وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها وكانت على قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب وطول القنطرة ثلثمائة باع وعرضها ثمانون باعا وخربت أيام الامير محمد لما عصى عليه اهلها فغزاهم واحتال فى هدمها وفى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس

اضحت طليطلة معطلة * من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها * مهجورة الاكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة * نصبت لحمل كتائب الكفر

وسيأتى بعض اخبار طليطلة (ومن مشهور مدن الاندلس المرية) وهى على ساحل البحر ولها القلعة المنيعة المعروفة بقلعة خيران بناها عبد الرحمن الناصر وعظمت فى دولة المنصور ابن أبى عامر وولى عليها مولاه خيران فنسبت القلعة اليه وبها من صنعة الديباج ما تفوق به على سائر البلاد وفيها دار الصناعة وتشتمل كورتها على معدن الحديد والرخام ومن ابوابها باب العقاب عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر (وقال بعضهم) كان بالمرية لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعتابى والمعاجر المدهشة والستور المكللة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسنا وساحلها أفضل السواحل وبها قصور الملوك القديمة الغريبة العجيبة وقد ألف فيها ابو جعفر بن خاتمة تاريخا فلا سماه مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية فى مجلد ضخم تركته من جملة كتبى بالمغرب والله سبحانه المسؤل فى جمع الشمل فله الامر من بعد ومن قبل * ووادى المرية طوله اربعون ميلا فى مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وانهار مطردة وطيور مغردة (قال بعضهم) ولم يكن فى بلاد الاندلس اكثر مالا من أهل المرية ولا اعظم متاجر وذخائر وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف وهى بين الجبلين بينهما خندق معمور وعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة وعلى الآخر ربضها والسور محيط بالمدينة والربض وغربيها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ذو فنادق وحمامات وخنادق وصناعات وقد استدار بها من كل جهة حصون مرتفعة واحجار أولية وكانما غربلت ارضها من التراب * ولها مدن وضياع عامرة متصلة الانهار انتهى (وقال ابن اليسع) عند ذكره مدينة شنترة ان من خواصها ان القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى اربعين يوما من زراعته وان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة اشبار واكثر قال لى ابو عبد الله البكورى وكان ثقة ابصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من اهل شنترة اهدى اليه اربعا من التفاح ما يقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة اشبار وذكر الرجل بحضرة ابن عباد ان المعتاد عندهم أقل من هذا فاذا ارادوا أن يجىء بهذا العظم وهذا القدر قطعوا أصلها وابقوا منه عشر أواقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب انتهى * وبحصن شنش على مرحلة من المرية التوت الكثير وفيها الحرير والقرمز ويعرف واديها بوادى طبرنش * وبغربى ملقة عمل سهيل وهو عمل عظيم

بذى الغى من حفان أصبح خادرا
وقدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفد من اياد فسألهم عنه فقالوا هلك فقال رحمه الله كأنى انظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يقول أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ماهو آت آت اما بعد فان فى السماء لخبرا وان فى الارض لعبرا نجوم تمور وبحار تغور وسقف مرفوع ومهاد موضوع اقسم بالله قسما لا حانثا فيه ولا آثما ان لله لدينا هو ارضى من دين أنتم عليه مالى اراهم يذهبون ولا يرجعون ارضوا بالمقام فاقاموا ام تركوا فناموا سبيل مؤتلف وعمل مختلف وقال ابياتا لا احفظها فقام ابو بكر رضى الله عنه فقال انا أحفظها يارسول الله فقال هاتها فقال

فى الذاهبين الاوليـ * ـن من القرون لنا بصائر
لما رايت مواردا * للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها * تمضى الاوائل والاواخر
لا يرجع الماضى ولا * يبقى من الباقين غابر
ايقنت انى لا محا * لة حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله قسا انى لأرجو ان يبعثه الله امة كثير

كثير الضياع وفيه جبل سهيل لا يرى نجم سهيل بالاندلس الا منه (ومن كور الاندلس الشرقية تدمير) وتسمى مصر ايضا لكثرة شبهها بها لان لها ارضا يسيح عليها نهر في وقت مخصوص من السنة ثم ينضب عنها فتزرع كما تزرع ارض مصر وصارت القصبة بعد تدمير مرسية وتسمى البستان لكثرة جناتها المحيطة بها ولها نهر يصب في قبليها * واعلم أن جزيرة الاندلس اعادها الله للاسلام مشتملة على موسطة وشرق وغرب * فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التي كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام واقطار متسعة قرطبة وطليطلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة فمن أعمال قرطبة استجة وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور واسطبة وبيانة والبسانة والقصير وغيرها ومن أعمال طليطلة وادى الحجارة وقلعة رباح وطلمنكة وغيرها ومن أعمال جيان ابذة وبياسة وقسطلة وغيرها ومن أعمال غرناطة وادى آش والمنكب ولوشة وغيرها ومن أعمال المرية اندرش وغيرها ومن أعمال مالقة بلش والحامة وغيرهما وببلش من الفواكه ما بمالقة وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها * واما شرق الاندلس ففيه من القواعد مرسية وبلنسية ودانية والسهلة والثغر الاعلى فمن أعمال مرسية اوريولة ولقنت ولورقة وغير ذلك ومن أعمال بلنسية شاطبة التي يضرب بحسنها المثل ويعمل بها الورق الذي لا نظير له وجزيرة شقر وغير ذلك واما دانية فهي شهيرة ولها أعمال واما السهلة فانها متوسطة بين بلنسية وسرقسطة ولذا عدها بعضهم من كور الثغر الاعلى ولها مدن وحصون ومن أعمال الثغر الاعلى سرقسطة وهي أم ذلك الثغر وكورة لاردة وقلعة رباح وتسمى بالبيضاء وكورة تطيلة ومدينتها طرسونة وكورة وشقة ومدينتها تمريط وكورة مدينة سالم وكورة قلعة ايوب ومدينتها بليانة وكورة برطانية وكورة باروشة * واما غرب الاندلس ففيه اشبيلية وماردة واشبونة وشلب فمن أعمال اشبيلية شريش والخضراء ولبلة وغيرها ومن اعمال ماردة بطليوس وبابرة وغيرها ومن أعمال اشبونة شنترين وغيرها ومن أعمال شلب شنترية وغيرها (وأما الجزر البحرية بالاندلس) فمنها جزيرة قادس وهي من أعمال اشبيلية وقال ابن سعيد انها من كورة شريش ولا منافاة لان شريشا من اعمال اشبيلية كما مر قال وبها صنم قادس مفتاح ولما ثار بقادس ابن اخت القائد أبي عبد الله بن ميمون وهو علي بن عيسى قائد البحر بها ظن ان تحت الصنم مالا فهدمه فلم يجد شيأ انتهى وهي اعني جزيرة قادس في البحر المحيط وفي المحيط الجزائر الخالدات السبع وهي غربي مدينة سلا تلوح للناظر في اليوم الصاحي الخالي الجو من الابخرة الغليظة وفيها سبعة اصنام على أمثال الآدميين تشير أن لا عبور ولا مسلك وراءها وفيه بجهة الشمال جزائر السعادات وفيها من المدن والقرى ما لا يحصى ومنها يخرج قوم يقال لهم المجوس على دين النصارى اولها جزيرة برطانية وهي بوسط البحر المحيط باقصى شمال الاندلس ولا جبال فيها ولا عيون وانما يشربون من ماء المطر ويزرعون عليه (وقال ابن سعيد) وفيه جزيرة شلطيش وهي آهلة وفيها مدينة وبحرها كثير السمك ومنها يحمل مملحا الى اشبيلية وهي من كورة لبلة مضافة الى عمل أونبه انتهى (وقال بعضهم) لما اجرى ذكر قرطاجنة من بلاد الاندلس ان الزرع في بعض أقطارها يكتفي بمطرة واحدة وبها أقواس

(قال المسعودي) ولقس اشعار كثيرة وحكم وأخبار مع قيصر في الطب والزجر ٧٩ والفال وانواع الحكم وقد ذكرنا ذلك في كتاب اخبار الزمان وفي الكتاب الاوسط * وممن كان في الفترة زيد بن عمرو ابن نفيل ابو سعيد بن زيد احد العشرة وهو ابن عم عمر بن الخطاب وكان زيد يرغب عن عبادة الاصنام وعابها فاولع به عمه الخطاب من سفهاء مكة وسلطهم عليه فآذوه فسكن كهفا بحراء وكان يدخل مكة سرا وصار الى الشام يبحث عن الدين فسمه بعض ملوك غسان بدمشق وقد اتينا عليه فيما سلف من كتبنا * ومنهم أمية بن أبي الصلت الثقفي وكان شاعرا عاقلا وكان يتجر الى الشام فتلقاه أهل الكنائس من اليهود والنصارى وقرأ الكتب وكان علم ان نبيا يبعث من العرب وكان يقول أشعارا على آراء أهل الديانة يصف فيها السموات والأرض والشمس والقمر والملائكة وذكر الانبياء والبعث والجنة والنار ويعظم الله عز وجل ويوحده من ذلك قوله

الحمد لله لا شريك له
من لم يقلها فنفسه ظلما

ووصف أهل الجنة فقال

فلا لغو ولا تأثيم فيها
وما فاهوا به لهم مقيم

ولما بلغه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم اغتاظ وتأسف وجاء المدينة ليسلم فرده الحسد فرجع الى الطائف فبينما هو ذات يوم في فتية بشرب اذ وقع

من الحجارة المقربصة وفيها من التصاوير والتماثيل واشكال الناس وصور الحيوانات ما يحير البصر والبصيرة ومن أعجب بنائها الدواميس وهى اربعة وعشرون على صف واحد من حجارة مقربصة طول كل داموس مائة وثلاثون خطوة فى عرض ستين خطوة وارتفاع كل واحد اكثر من مائتى ذراع بين كل داموسين أنقاب محكمة تتصل فيها المياه من بعضها الى بعض فى العلوّ الشاهق بهندسة عجيبة واحكام بديع انتهى (قلت) أظن هذا غلطا فان قرطاجنة التى بهذه الصفة قرطاجنة افريقية لا قرطاجنة الاندلس والله أعلم (وقال صاحب مناهج الفكر) عند ماذكر قرطاجنة وهى على البحر الرومى مدينة قديمة بقى منها آثارها فحص طوله ستة أيام وعرضه يومان معمور بالقرى انتهى وذكر قبل ذلك فى لورقة ان بناحيتها يوجد حجر اللازورد وفى البحر الشامى الخارج من المحيط جزيرتى ميورقة ومنورقة وبينهما خمسون ميلا وجزيرة ميورقة مسافة يوم بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها يقول ابن اللبانة

بلد أعارته الحمامة طوقها * وكساه حلة ريشه الطاوس
فكأنما الانهار فيه مدامة * وكأن ساحات الديار كؤس

وقال يخاطب ملكها اذ ذاك الوقت

وغمرت بالاحسان ارض ميورقه * وبنيت مالم يبنه الاسكندر

وجزيرة يابسة * واستقصاء ما يتعلق بهذا الفصل يطول ولو تتبع لكان تأليفا مستقلا وما أحسن قول ابن خفاجة

ان للجنة بالاندلس * مجتلى حسن وريا نفس
فسنا صبحتها من شنب * ودجى ليلتها من لعس
واذا ماهبت الريح صبا * صحت واشوقى الى الاندلس

وقال بعضهم فى طليطلة

زادت طليطلة على ما حدّثوا * بلد عليه نضرة ونعيم
الله زينه فوشح خصره * نهر المجرّة والغصون نجوم

ولا حرج ان أوردنا هنا ما خاطب به اديب الاندلس ابو بحر صفوان بن ادريس الامير عبد الرحمن ابن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن على فانه مناسب (ونصه) مولاى امتع الله ببقائك الزمان وابناءه كما ضم على حبك احناءهم واحناءه وأوصل لك ماشئت من المن والامان كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان فانك الملك الهمام والقمر التمام ايامك غرر وحجول وفرند بهائها فى صفحات الدهر يجول البيت الرعية برود التأمين فتنافست فيك من نفس ثمين وتلقت دعوات خلدك لها باليمين فكم للناس من امن بك وايناس وللايام من لوعة فيك وهيام وللاقطار من لبانات لديك واوطار وللبلاد من قراع على تملكك لها وجلاد يتمنون شخصك الكريم على الله ويقترحون ويغتبقون فى رياض ذكرك العاطر بمدام حبك ويصطبحون كل حزب بما لديهم فرحون محبة من الله ألقاها لك حتى على الجماد ونصرا مؤزرا تنطق به ألسنة السيوف على أفواه الاغماد ومن

أسر

غراب فنعب ثلاثة أصوات وطار فقال أمية اتدرون ما قال قالوا لا قال فانه يقول لكم ان أمية لا يشرب الكاس الثالثة حتى يموت فقال القوم لتكذبن قوله ثم قال احسوا كاسكم فحسوها فلما انتهت النوبة اليه أغمى عليه فسكت طويلا ثم أفاق وهو يقول

لبيكما لبيكما
ها أناذا لديكما
أنا من حفت به النعمة والحمد والشكر
ان تغفر اللهم تغفر جما
واى عبد لك لا ألما

أو قال انا من حفت به النعمة ولم يجهد فى الشكر ثم أنشأ يقول

ان يوم الحساب يوم عظيم
شاب فيه الصغير يوما طويلا
ليتنى كنت عند ما قد بدا لى
فى رؤس الجبال أرعى الوعولا
كل عيش وان تطاول حينا
فقصارى أيامه ان يزولا

ثم شهق شهقة فكانت فيها نفسه (قال المسعودى) وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة بايام الناس وأخبار من سلف كأبى دأب والهيثم بن عدى وأبى مخنف لوط بن يحيى ومحمد ابن السائب الكلبى ان السبب فى كتابة قريش واستفتاحها فى أوائل كتبها باسمك اللهم هو ان امية بن أبى الصلت الثقفى خرج الى الشام فى نفر من ثقيف وقريش فى عيرهم فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا واجتمعوا لعشائهم اذ أقبلت حية صغيرة حتى

اسرسر برة ألبسه الله رداءها ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل اعادتها وابداءها ومن قدّم صالحا فلا بدّ ان يوازيه ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه ولما تخاصمت فيك من الاندلس الامصار وطال بها الوقوف على حبك والاقتصار كلها يفصح قولا ويقول انا احق وأولى ويصيخ الى اجابة دعوته ويصغى ويتلو اذا بشر بك ذلك ما كنا نبغى تمرت حمص غيظا وكادت تغيظ فيظا وقالت مالهم يزيدون وينقصون ويطمعون ويحرصون ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون ألهم السهم الاسدّ والساعد الاشدّ والنهر الذى يتعاقب عليه الجزر والمدّ أنا مصر الاندلس والنيل نهرى وسمائى التانس والنجوم زهرى ان تجار يتم فى ذلك الشرف فحسبى ان افيض فى ذلك الشرف وان تبجحتم باشرف اللبوس فاى ازار اشتملتموه كشنتبوس الى ماشئت من ابنية رحاب وروض يستغنى بنضرته عن السحاب قد ملأت زهراتى وهادا ونجادا وتوشح سيف نهرى بحدائقى نجادا فانا اولاكم بسيدنا الهمام واحق الآن حصحص الحق (فنظرتها قرطبة شزرا) وقالت لقد كثرت نزرا وبذرت فى الصخر الاصم بزرا كلام العداضرب من الهذيان وأنى للايضاح والبيان متى استحال المستقبح مستحسنا ومن أودع اجفان المهجور وسنا افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ياعجبا للمراكز تقدّم على الاسنة وللاثفار تفضل على الاعنة ان ادعيتم سبقا فما عند الله خير وأبقى لى البيت المطهر الشريف والاسم الذى ضرب عليه رواقه التعريف فى بقيعى محل الرجال الافاضل فليرغم انف المناضل وفى جامعى مشاهد ليلة القدر فحسبى من نباهة القدر فالاحدان يستأثر على بهذا السيد الاعلى ولا ارضى له ان يوطئ غير ترابى نعلا فاقروا لى بالابوّة وانقادوا الى على حكم البنوّة ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوّة وكفوا عن تباريكم ذلكم خير لكم عند باريكم (فقالت غرناطة) لى المعقل الذى يمتنع ساكنه من النجوم ولا تجرى الا تحته جياد الغيث السجوم فلا يلحقنى من معاند ضرر ولا حيف ولا يهتدى الى خيال طارق ولا طيف فاستسلموا قولا وفعلا فقد افلح اليوم من استعلى لى بطاح تقلدت من جداولها اسلاكا وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكا ومياه تسيل على اعطافى كادمع العشاق وبرد نسيم يرد دماء المستجير بالانتشاق فحسنى لا يطمع فيه ولا يحتال فدعونى فكل ذات ذيل تختال فانا اولى بهذا السيد الاعدل ومالى به من عوض ولا بدل ولم لا يعطف على عنان مجده ويثنى وان أنشد يوما فاياى يعنى

بلاد بها عق الشباب تمائمى * واول ارض مس جلدى ترابها

فمالكم تعترون لفخرى وتمتون وتتاخرون فى ميدانى وتتقدّمون تبرؤا الى مما تزعمون ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون * (فقالت مالقة) اتتركونى بينكم هملا ولم تعطونى فى سيدنا املا ولم ولى البحر العجاج والسبل الثجاج والجنات الاثيرة والفواكه الكثيرة لدى من البهجة ما تستغنى به الحمام عن الهديل ولا تجنح الانفس الرقاق الحواشى الى تعويض عنه ولا تبديل فمالى لا أعطى فى ناديكم كلاما ولا أنشر فى جيش فخاركم أعلاما فكأن الامصار نظرتها ازدراء فلم تر لحديثها فى ميدان الذكر اجراء لانها موطن لا يحلى منه

دنت منهم فخصها بعضهم بشئ فى وجهها فرجعت فشدوا على ابابهم وارتحلوا من منزلهم فلما برزوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصالها فقالت مامنعكم ان تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة التى جاءتكم عشية قالوا ومن أنت قالت أم العوّام أوتمت منذ أعوام أماورب العباد لتفترقن فى البلاد ثم ضربت بعصاها الارض أثارت بها الرمل وقالت أطيلى ايابهم وأنفرى ركابهم فوثبت الابل فكان كل بعير منها على ذروة ماعلك منها شيأ حتى افترقت فى البوادى فجمعناها من آخر النهار الى غد ولم نكد فلما أنخناها عادت الى مقالتها مامنعكم أن تطعموا رحيمة الجارية اليتيمة ألا أطيلى ايابهم وأنفرى ركابهم فخرجت الابل ماعلك منها شئ فجمعناها من آخر النهار الى غد ولم نكد فلما أنخناها فعلت مثل فعلتها الاولى والثانية فتفرقت الابل وأمسينا فى ليلة مقمرة وقد يئسنا من ظهورنا فقلنا لامية بن أبى الصلت أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك فتوجه الى ذلك الكثيب الذى تأتى منه العجوز حتى هبط منه من ناحية أخرى ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل فاذا رجل وهو مضطجع معترض على بابها واذا رجل جالس أبيض

الرأس واللحية قال أمية فلما وقفت عليه رفع رأسه الى وقال انك لمتبوع قلت أجل قال فمن أين يأتيك صاحبك قلت
من أذنى اليسرى قال فبأى
الثياب يأمرك قلت بالسواد
قال خطب الحوادث ولم
فعل وليكن يكلمك فى
أذنك اليمنى وأحب الثياب
اليه البياض فما جاء بك
وما حاجتك فحدثته حديث
العجوز قال صدقت
وليست بصادقة هى
امرأة يهودية هلك زوجها
منذ أعوام وانها لا تزال
تصنع بكم ذلك حتى تهلككم
ان استطاعت قال أمية فما
الحيلة قال اجمعوا ظهوركم
فاذا جاءتكم ففعلت ما كانت
تفعل فقولوا لها سبعا من
فوق وسبعا من أسفل
باسمك اللهم فانها
لا تضركم فرجع الى أصحابه
فأخبرهم بما قيل له فجاءتهم
ففعلت كما كانت تفعل
فقالوا سبعا من فوق
وسبعا من أسفل باسمك
اللهم فلم تضرهم فلما رأت
الابل لم تتحرك قالت عرفت
صاحبكم ليبيضن أعلاه
ويسودن أسفله وسرنا فلما
أدركنا الصبح نظرنا الى
أمية قد برص فى عذاريه
ورقبته وصدره واسود فى
أسفله فلما قدموا مكة
ذكروا هذا الحديث
وكان أمية أول من كتب
باسمك اللهم الى أن جاء الله
عز وجل بالاسلام وكتب بسم الله الرحمن الرحيم وله أخبار غير هذه قد أتينا عليها وعلى ذكرها فى أخبار

بطائل ونظن البلاد أولات فيها قول القائل

اذا نطق السفيه فلا تجبه * فخير من اجابته السكوت

(فقالت مرسية) أمامى تتعاطون الفخر وبحضرة الدر تنفقون الصخر ان عدت المفاخر فلى منها الاول والآخر اين أوشالكم من بحرى وخرزكم من لؤلؤ نحرى وجمعتكم من نفثات سحرى فلى الروض النضير والمرأى الذى ماله من نظير ورتقاتى التى سار مثلها فى الآفاق وتبرقع وجه جمالها بغرة الاصفاق فمن دوحات كلها من بكور وروحات ومن ارجاء اليها تمد أيدى الرجاء فابنائى فيه فى الجنة الدنيوية مودعون يتنعمون فيما ياخذون ويدعون ولهم فيها ما تشتهى انفسهم ولهم فيها ما يدعون فانقادوا لامرى وحاذروا اصطلاء جمرى وخلوا بينى وبين سيدنا ابى زيد والاضربتكم ضرب زيد فانا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم وما يلقاها الاذو حظ عظيم *(فقالت بلنسية)* فيم الجدال والقراع وعلام الاستهام والاقتراع والام التعريض والتصريح وتحت الرغوة اللبن الصريح أنا أحوزه من دونكم فأخمدوا نارى تحرككم وهدونكم فلى المحاسن الشامخة الاعلام والجنات التى تلقى اليها الآفاق يد الاستسلام وبرصافتى وجسرى أعارض مدينة السلام فأجمعوا على الانقياد لى والسلام والافعضوا بنانا واقرعوا أسنانا فانا حيث لا تدركون وأنى ومولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منا (فعند ذلك ارتمت جمرة تدمير بالشرار) واستدت أسهمها النحور الشرار وقالت عش رجبا ترعجبا أبعد العصيان والعقوق تتهيأن لرتب ذوى الحقوق هذه سماء الفخر فمن ضمك أن تعرجى ليس بعشك فادرجى لك الوصب والخبل الآن وقد عصيت قبل أيتها الصانعة الفاعلة من ادراك أن تضربى وما أنت فاعلة ما الذى يجديك الروض والزهر أم ما يفيدك الجدول والنهر وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر هل أنت الامحط رحل النفاق ومنزل ما لسوق الخصب فيه من نفاق ذراك لا يكتحل الطرف فيه بهجوع وقراك لا يسمن ولا يغنى من جوع فلام تبرز الاماء فى منصة العقائل ولكن اذكرى قول القائل

بلنسية بينى عن القلب سلوة * فانك روض لا أحن لزهرك
وكيف يحب المرء دارا تقسمت * على صارمى جوع وفتنة مشرك

بيد أنى اسأل الله تعالى ان يوقد من توفيقك ما خمد ويسيل من تسديدك ما جمد ولا يطيل عليك فى الجهالة الامد واياه سبحانه نسأل أن يرد سيدنا ومولانا الى أفضل عوائده ويجعل مصائب اعدائه من فوائده ويمكن حسامه من رقاب المشغبين ويبقيه وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويصل له تأييدا وتأبيدا ويمهد له الايام حتى تكون الاحرار لعبيد عبيده عبيدا ويمد على الدنيا بساط سعده ويهبه ملكا لا ينبغى لاحد من بعده

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أضيف اليها ألف آمينا

ثم السلام الذى يتأنق عبقا ونشرا ويتألق رونقا وبشرا على حضرتهم العلية ومطالع انوارهم السنية الجلية ورحمة الله تعالى وبركاته (انتهى) ولما ألم الرحالة ابن بطوطة فى رحلته بدخوله بلاد الاندلس أعادها الله تعالى للاسلام قال فوصلت الى بلاد الاندلس

حرسها

حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن الى ان قال عند ذكره غرناطة ما نصه قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له فى الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين الجليلة والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها انتهى (وقال القلقشندى) غرناطة دمشق بلاد الاندلس ومسرح الابصار ومطمح الانفس ولم تخل من أشراف اماثل وعلماء أكابر وشعراء أفاضل ولو لم يكن بها الا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها النساء الشواعر كنزهون القلعية والركونية وغيرهما وناهيك بهما فى الظرف والادب انتهى (ولبعضهم) يتشوق الى غرناطة فيما ذكره بعض المؤرخين والصواب أن الابيات قيلت فى قرطبة كما مر والله أعلم

أغرناطة الغراء هل لى أوبة * اليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربى منك غمامة * وقعقع فى ساحات روضتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك جنة * وتربك فى استنشاقها عنبر ورد

وقال ابن مالك الرعينى

رعى الله بالحمراء عيشا قطعته * ذهبت به للانس والليل قد ذهب
ترى الارض منها فضة فاذا اكتست * بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب

وهو القائل

لا تظنوا أن شوقى خمدا * بعدكم أو أن دمعى جمدا
كيف اسلو عن اناس مثلهم * قل ان تبصر عينى احدا

(وغرناطة) من أحسن بلاد الاندلس وتسمى بدمشق الاندلس لانها أشبه شئ بها ويشقها نهر حدرة ويطل عليها الجبل المسمى بشلير الذى لا يزول الثلج عنه شتاء وصيفا ويجمد عليه حتى يصير كالحجر الصلد وفى أعلاه الازاهر الكثيرة وأجناس الافاويه الرفيعة ونزل بها أهل دمشق لما جاؤا الى الاندلس لاجل الشبه المذكور * وقرى غرناطة فيما ذكر بعض المتأخرين مائتان وسبعون قرية (وقال ابن جزى) مرتب رحلة ابن بطوطة بعد ذكر كلامه ما نصه قال ابن جزى لولا خشية أن انسب الى العصبية لاطلت القول فى وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبى بكر ابن محمد بن شبرين السبتى نزيل غرناطة حيث يقول

رعى الله من غرناطة متبوأ * يسر حزينا أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبى عندما رأى * مسارحها بالثلج عدن جليدا
هى الثغر صان الله من أهلت به * وما خير ثغر لا يكون برودا انتهى

وقال ابن سعيد عندما اجرى ذكر قرية نارجة وهى قرية كبيرة تضاهى المدن قد أحدقت بها البساتين ولها نهر يفتن الناظرين وهى من أعمال مالقة أنه اجتاز زمرة عليها مع والده أبى عمران موسى وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم وقد ضربوا فى بطن الوادى بين

الزمان وغيره فيما سلف من كتبنا * ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى وهو ابن عم خديجة بنت خويلد زوج النبى صلى الله عليه وسلم لحا وكان قد قرأ الكتب وطلب العلم ورغب عن عبادة الاصنام وبشر خديجة بالنبى صلى الله عليه وسلم وانه نبى هذه الامة وانه سيؤذى ويكذب ولقى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخى اثبت على ما أنت عليه فوالذى نفس ورقة بيده انك لنبى هذه الامة ولتؤذين ولتكذبن ولتخرجن ولتقاتلن ولكن ان أدركت ذلك لانصرن الله نصرا يعلمه وقد اختلف فيه فمنهم من زعم انه مات نصرانيا ولم يدرك ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ولم يدركه أبوه ومنهم من رأى انه مات مسلما وانه مدح النبى صلى الله عليه وسلم فقال

يعفو ويصفح لا يجزى بسيئة
ويكظم الغيظ عند الشتم والغضب

ومنهم عداس مولى عتبة ابن أبى ربيعة وكان من أهل نينوى ولقى النبى صلى الله عليه وسلم بالطائف حين خرج يدعوهم الى الله عز وجل وكان له مع النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى الحديقة وقتل يوم بدر على النصرانية وكان ممن يبشر بالنبى صلى الله عليه وسلم * ومنهم أبو قيس صرمة بن أبى أنس

مقطعاته خيما وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب وسألوا من يعرف ذلك الموضع فقالوا الطراز فقال والدى اسم طابق مسماه ولفظ وافق معناه

وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فان وجدت لسانا قائلا فقل

ثم قال أجز

بشارجة حيث الطراز المنمنم فقلت أقم فوق نهر ثغره يتبسم
فقال وسمعك نحو الهاتفات فانها فقلت لما أبصرت من بهجة تترنم
فقال أياجنة الفردوس لست بآدم فقلت فلا يك حظى من جناك التندم
فقال يعز علينا أن نزورك مثلما فقلت يزور خيال من سليمى مسلم
فقال فلو أننى أعطى الخيار لما عدت فقلت محلك لى عين بمرآك تنعم
فقال بحيث الصبا والطل من نفثاتها فقلت وقت لسع روض فيه للنهر أرقم
فقال فوا أسفى ان لم تكن لى عودة فقلت فكن مالكا انى عليك متمم
فقال فأحسب هذا آخر العهد بيننا فقلت وقد يلحظ الرحمن شوقى فيرحم
فقال سلام سلام لا يزال مرددا فقلت عليك ولا زالت بك السحب تسجم انتهى

(وقال ابن سعيد) ان كورة بلنسية من شرق الاندلس ينبت بها الزعفران وتعرف بمدينة التراب وبها كمثرى تسمى الارزة فى قدر حبة العنب قد جمع مع حلاوة الطعم ذكاء الرائحة اذا دخل دارا عرف بريحه ويقال ان ضوء بلنسية يزيد على ضوء سائر بلاد الاندلس وبها منارة ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبى عامر * وقال الشرف أبو جعفر بن مسعدة الغرناطى من أبيات فيها

هى الفردوس فى الدنيا جمالا * لساكنها وكارهها البعوض

وقال بعضهم فيها

ضاقت بلنسية بى * وذادعنى غموضى
رقص البراغيث فيها * على غناء البعوض

وفيها لابن الزقاق البلنسى

بلنسية اذا فكرت فيها * وفى آياتها أسنى البلاد
وأعظم شاهدى منها عليها * وأن جمالها للعين بادى
كساها ربها ديباج حسن * لها علمان من بحر ووادى

(وقال ابن سعيد أيضا) أنشدنى والدى قال أنشدنى مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية لنفسه بمراكش قوله

كأن بلنسية كاعب * وملبسها سندس أخضر
اذا جئتها سترت نفسها * بأكمامها فهى لا تظهر

وأما قول أبى عبد الله بن عياش بلنسية بينى البيتين وقد سبقا فقال ابن سعيد ان ذلك حيث صارت ثغرا يصابحها العدو ويماسيها انتهى (وقال ابو الحسن) بن حريق يجاوب ابن عياش

بلنسية قرارة كل حسن * حديث صح فى شرق وغرب

من الانصار من بنى النجار وكان ترهب ولبس المسوح وهجر الاوثان ودخل بيتا واتخذه مسجدا لا تدخله طامث ولا جنب وقال أعبد رب ابراهيم فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم أسلم وحسن اسلامه وفيه نزلت آية السحور وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وهو القائل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة * بمكة لا يلقى صديقا مؤاتيا

ومنهم أبو عامر الاوسى وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان سيدا قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان له معه خطب فخرج فى خمسين غلاما فمات على النصرانية بالشام * ومنهم عبد الله بن جحش الاسدى من بنى أسد بن خزيمة وكانت عنده أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب قبل ان يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد قرأ الكتب فمال الى النصرانية فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر الى أرض الحبشة فيمن هاجر من المسلمين ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ثم انه ارتد عن الاسلام وتنصر ومات بارض الحبشة وكان يقول للمسلمين انا فتحنا وصأصأتم يريد

فان

فان قالوا محل غلاء سعر * ومسقط ديمتي طعن وضرب
فقل هي جنة حفت رباها * بمكروهين من جوع وحرب

وقال الرصافي في رصافتها

ولا كالرصافة من منزل * سقته السحائب صوب الولي
احن اليها ومن لي بها * وأين السرى من الموصلي

(وقال ابن سعيد) وبرصافة بلنسية مناظر وبساتين ومياه ولا نعلم في الاندلس ما يسمى بهذا الاسم الا هذه ورصافة قرطبة انتهى * ومن أعمال بلنسية قرية المنصف التي منها الفقيه الزاهد أبو عبد الله المنصفي وقبره كان بسبتة يزار رحمه الله تعالى ومن نظمه

قالت لي النفس أتاك الردى * وأنت في بحر الخطايا مقيم
فما ادخرت الزاد قلت اقصري * هل يحمل الزاد لدار الكريم

ومن عمل بلنسية قرية بطرنة وهي التي كانت فيها الوقعة المشهورة للنصارى على المسلمين وفيها يقول ابو اسحق بن يعلى الطرسوني

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم * حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها * لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ومن عمل بلنسية متيطة التي نسب اليها جماعة من العلماء والادباء * ومن عمل بلنسية مدينة اندة التي في جبالها معدن الحديد واما رندة بالراء فهي في متوسط الاندلس ولها حصن يعرف باندة أيضا * وفي اشبيلية أعادها الله من المتفرجات والمتنزهات كثير ومن ذلك مدينة طريانة فانها من مدن اشبيلية ومتنزهاتها وكذلك تيطل فقد ذكر ابن سعيد جزيرة تيطل في المتفرجات (وقال ابو عمران) موسى بن سعيد في جوابه لابي يحيى صاحب سبتة لما استوزره مستنصر بني عبد المؤمن وكتب الى المذكور يرغبه في النقلة عن الاندلس الى مراكش ما نص محل الحاجة منه وأمّا ما ذكر سيدي من التخيير بين ترك الاندلس وبين الوصول الى حضرة مراكش فيكفي الفهم العالي من الاشارة قول القائل

والعز محمود وملتمس * وألذه ما كان في الوطن

فاذا نلت بك السماء في تلك الحضرة فعلى من أسود فيها ومن ذا اضاهي بها

لا رقت بي همة ان لم أكن * فيك قد أمّلت كل الامل

وبعد هذا فكيف افارق الاندلس وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما حباها الله به من اعتدال الهواء وعذوبة الماء وكثافة الافياء وان الانسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس

هي الارض لا ورد لديها مكدّر * ولا ظل مقصور ولا روض مجدب

افق صقيل وبساط مدبج وماء سائح وطائر مترنم بليل وكيف يعدل الاديب عن أرض على هذه الصفة فيا سموأل الوفاء ويا حاتم السماح ويا جذيمة الصفاء كمل لمن أملك النعمة بتركه في موطنه غير مكدّر لخاطره بالتحرك من معدنه متلفتا الى قول القائل

وسوّلت لي نفسي أن افارقها * والماء في المزن اصفى منه في الغدر

وإذا كان يريد ان يفتحهما ولم يفتحهما قيل صأصأ ولما مات عبد الله بن جحش تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجها اياه النجاشي ومهرها عنه أربعمائة دينار * ومنهم بحيرى الراهب وكان مؤمنا على دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام واسم بحيرى في النصارى جرجس وكان من عبد القيس ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه الى الشام في تجارة أبي طالب وهو ابن اثنتي عشرة سنة ومعهما أبو بكر وبلال مروا ببحيرى وهو في صومعته فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ودلائله وما كان يجده في كتابه ان الغمام تظله حيث ما جلس فانزلهم بحيرى وأكرمهم واصطنع لهم طعاما ونزل من صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده على موضعه وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وأعلم أبا بكر وبلالا بقصته وما يكون من أمره وساله ان يرجع به من وجهه ذلك وحذرهم عليه من أهل الكتاب وأخبر عمه أبا طالب بذلك فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة

فان اغناه اهتمام مؤمله عن ارتياد المراد و بلغه دون ان يشد قتبا ولا أن ينضى عيسا غاية المراد انشد ناجح المرغوب بالغ المطلوب

وليس الذى يتبع الوبل رائدا * كمن جاءه فى داره رائد الوبل

ورب قائل اذا سمع هذا التبسط على الامانى ماله تشطط وعدل عن سبيل التأدب وتبسط ولا جواب عندى الا قول القائل

فهذه خطة مازلت أرقبها * فاليوم ابسط آمالى وأحتكم

ومالى لا انشد ماقاله المتنبى فى سيف الدولة

ومن كنت بحرا له يا على لم يقبل الدر الا كبارا

انتهى المقصود منه (وقال الحجارى) ان مدينة شريش بنت اشبيلية وواديها ابن واديها ما أشبه سعدى بسعيد وهى مدينة جليلة ضخمة الاسواق لاهلها همم وظرف فى اللباس واظهار الرفاهية وتخلق بالآداب ولا تكاد ترى بها الا عاشقا أو معشوقا وهما من الفواكه ما يعم ويفضل ومما اختصت به احسان الصنعة فى المجبنات وطيب جبنها يعين على ذلك ويقول أهل الاندلس من دخل شريش ولم ياكل بها المجبنات فهو محروم انتهى والمجبنات نوع من القطائف يضاف اليها الجبن فى عجينها وتقلى بالزيت الطيب * وفى شلب يقول الفاضل الكاتب أبو عمرو بن مالك بن سيدمير

أشجاك النسيم حين يهب * أم سنى البرق اذ يخب ويخبو
أم هتوف على الاراكة تشدو * أم هتون من الغمامة سكب
كل هذاك للصبابة داع * أى صب دموعه لا تصب
أنا لولا النسيم والبرق والور * ق وصوب الغمام ما كنت اصبو
ذكرتنى شلبا وهيهات منى * بعد ما استحكم التباعد شلب

وتسمى أعمال شلب كورة أشكونية وهى متصلة بكورة أشبونة وهى أعنى أشكونية قاعدة جليلة لها مدن ومعاقل ودار ملكها قاعدة شلب وبينها وبين قرطبة سبعة أيام ولما صارت لبنى عبد المؤمن ملوك مراكش أضافوها الى كورة اشبيلية وتفتخر شلب بكون ذى الوزارتين بن عمار منها سامحه الله ومنها القائد ابو مروان عبد الملك بن بدران وربما قيل ابن بدرون الاديب المشهور شارح قصيدة ابن عبدون التى أولها

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهذا الشرح شهير بهذه البلاد المشرقية ومن نظم ابن بدرون المذكور قوله

العشق لذته التعنيق والقبل * كما منغصه التريب والعذل
ياليت شعرى هل يقضى وصالكم * لولا المنى لم يكن ذا العمر يتصل

ومنها نحوى زمانه وعلامته ابو محمد عبد الله ابن السيد البطليوسى فان شلبا بيضته ومنها كانت حركته ونهضته كما فى الذخيرة وهو القائل

اذا سألونى عن حالتى * وحاولت عذرا فلم يمكن
أقول بخير ولكنه * كلام يدور على الالسن

فهذه جمل مدة الخليقة الى حيث انتهينا من هذا الموضع ولم نشبه بشئ غير ما جاءت به الشرائع ونطقت به الكتب وأوضحت عنه الرسل عليهم الصلاة والسلام ولنذكر الآن بدء ممالك الهند ولمعا من آرائها ونتبع ذلك بذكر سائر الممالك اذ كنا قدمنا ذكر ملوك الاسرائيليين على حسب ما وجدنا فى كتب الشرعيين والله أعلم

(ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وملوكها)

ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن العالم وبدئه ان الهند كانت قديم الزمان الغرة التى فيها الصلاح والحكمة فانه لما تجيلت الاجيال وتحزبت الاحزاب حاولت الهند ان تضم المملكة وتستولى على الحوزة وتكون الرياسة فيهم فقال كبراؤهم نحن أهل البدء وفينا التناهى ولنا الغاية والصدر والانتهاء ومنا سرى الاب الى الارض فلا ندع أحدا شاقنا ولا عاندنا وأراد بنا الاغماض الا أتينا عليه وأبدناه أو يرجع الى طاعتنا فازمعت على ذلك ونصبت لها ملكا وهو البرهمن الاكبر والملك الاعظم والامام فيها المقدم ظهرت وربك

ور بك يعلم مافى الصدور * ويعلم خائنة الاعين

وقال الوزير أبو عمر و بن الغلاس يمدح بطليوس بقوله

بطليوس لا أنساك ما اتصل البعد * فلله غور فى جنابك أو نجد
ولله دوحات تحفك ينعا * تفجر واديها كما شقق البرد

و بنو الغلاس من أعيان حضرة بطليوس وأبو عمر والمذكور أشهرهم وهو من رجال الذخيرة والمسهب رحمه الله تعالى * وفى شاطبة يقول بعضهم

نعم ملقى الرحل شاطبة * لفتى طالت به الرحل
بلدة أوقاتها سحر * وصبا فى ذيله بلل
ونسيم عرفه أرج * ورياض غصنها ثمل
ووجوه كلها غرر * وكلام كله مثل

وفى برجة يقول بعضهم

اذا جئت برجة مستوفزا * فخذ فى المقام وخل السفر
فكل مكان بها جنة * وكل طريق اليها سقر

واعلم أنه لو لم يكن للاندلس من الفضل سوى كونها ملاعب الجياد للجهاد لكان كافيا و يرحم الله لسان الدين بن الخطيب حيث كتب على لسان سلطانه الى بعض العلماء العاملين مافيه اشارة الى بعض ذلك مانصه من أمير المسلمين فلان الى الشيخ كذا ابن الشيخ كذا وصل الله له سعادة تجذبه وعناية اليه تقربه وقبولا منه يدعوه الى خير ما عند الله ويندبه سلام كريم عليكم و رحمة الله و بركاته أمّا بعد حمد الله المرشد المثيب السميع المجيب معود اللطف الخفى والصنع العجيب المتكفل بانجاز وعد النصر العزيز والفتح القريب والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى القدر الرفيع والعز المنيع والجناب الرحيب الذى به نرجو ظهور عبدة الله على عبدة الصليب ونستظهر منه على العدوّ بالحبيب ونعدّه عدّتنا لليوم العصيب والرضا عن آله وصحبه الذين فازوا من مشاهدته باوفى النصيب ورموا الى هدف مرضاته بالسهم المصيب فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لكم عملا صالحا يختم الجهاد صحائف بره وتتمحض لان تكون كلمة الله هى العليا جوامع أمره وجعلكم ممن تهنى فى الارض التى فتح فيها أبواب الجنة مدة عمره من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ولطف الله هامى السحاب وصنعه رائق الجناب والله يصل لنا ولكم ما عوّده من صلة لطفه عند انبتات الاسباب والى هذا أيها المولى الذى هو بركة المغرب المشار اليه بالبنان وواحده فى رفعة الشان المؤثر ما عند الله على الزخرف الفتان المتقلل من المتاع الفان المستشرف الى مقام العرفان من درج الاسلام والايمان والاحسان فاننا لما نؤثره من بركم الذى نعده من الامر الاكيد ونضمره من ودكم الذى نحله محل الكنز العتيد ونلتمسه من دعائكم التماس العدّة والعديد لانزال نسال عن أحوالكم التى ترقت فى أطوار السعادة ووصلت جناب الحق بهجر العادة وألقت الى يد التسليم لله والتوكل عليه بالمقادة فنسر بما هيأ الله تعالى لكم من القبول و بلغكم من المأمول وألهمكم من الكلف بالقرب

فى أيامه الحكمة وتقدّمت العلماء واستخرجوا الحديد من المعادن وضربت فى أيامه السيوف والخناجر وكثير من أنواع المقاتل وشيد الهياكل ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة وصور فيها الافلاك والبروج الاثنى عشر والكواكب و بين بالصورة كيفية العالم وأورد بالصورة أيضا افعال الكواكب فى هذا العالم وأحداثها للاشخاص الحيوانية من الناطقة وغيرها و بين حال المدبر الذى هو الشمس وأثبت فى كتابه براهين جميع ذلك وقرب الى عقول العوام فهم ذلك وغرس فى نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك وأشار الى المبدا الاول المعطى سائر الموجودات وجودها الفائض عليها بجوده وانقادله الهند واخصبت بلادها وأراهم وجه مصالح الدنيا وجمع الحكماء فاحدثوا فى أيامه كتاب السندهند وتفسيره دهر الدهور ومنه فرعت الكتب ككتاب الازجهير والمجسطى وفرع من الازجهير الاركند ومن المجسطى كتاب بطلموس ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات وأحدثوا التسعة الاحرف المحيطة بالحساب الهندى وكان أول من تكلم فى اوج الشمس وذكر انه يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة و يقطع الفلك فى ستة وثلاثين ألف سنة والاوج على رأى البرهمن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين

اليه والوصول والفوز بما لديه والحصول وعند ماورد الله تعالى علينا ما كتبنا الرد الجميل وانالنا فضله الجزيل وكان لعثارنا المقيل خاطبناكم بذلك لما كان كم من ودادنا ومحلكم من حسن اعتقادنا ووجهنا الى وجهة دعائكم وجه اعتدادنا والله ينفعنا بجميل الظن في دينكم المتين وفضلكم المبين ويجمع الشمل بكم في الجهاد عن الدين وتعرّفنا الآن بمن له بأنبائكم اعتناء وعلى جلالكم حمد وثناء وبجناب ودكم اعتزاء وانتماء يتجاول عزمكم بين جمبرورو وترغبون من أجره في ازدياد وتجددون العهد منه باليف اعتياد وبين رباط في سبيل الله وجهاد وتوثير مهاد بين ربا اثيرة عند الله ووهاد يحشر يوم القيامة شهداؤها مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين فرحين بما آتاهم الله من فضله والله اصدق القائلين الصادقين حيث لاغارة لغير عدوّ الاسلام تتقى الا لابتغاء مالدى الله ترتقى حيث رحمة الله قد فتحت أبوابها وحور الجنان قد زينت أترابها دار الغرب الذين قرعوا باب الفتح وفازوا بجزيل المنح وخلدوا الآثار وأرغموا الكفار وأقالوا العثار وأخذوا الثار وأمنوا من لفح جهنم بما علا على وجوههم من ذلك الغبار فكتبنا اليكم هذا نقوّى بصيرتكم على جهة الجهاد من العزمين ونهب بكم الى احدى الحسنيين والصبح غير خاف على ذى عينين والفضل ظاهر لاحدى المنزلتين فانكم ان جحتم أعدتم فرضا اديتموه وفضلا ارتديتموه فائدته عليكم مقصورة وقضيته فيكم محصورة واذا اقتم الجهاد جلبتم الى حسناتكم عملا غريبا واستانفتم سعيا من الله قريبا وتعدت المنفعة الى الوف من النفوس المستشعرة لباس البوس ولو كان الجهاد بحيث يخفى عليكم فضله لاطنبنا وأعنة الاستدلال أرسلنا هذا وقدمتم على هذا الوطن وفضلكم غفل من الاشتهار ومن به لا يوجب لكم ترفيع المقدار فكيف وفضلكم أشهر من محيا النهار ولقاؤكم أشهى الآمال وآثر الاوطار فان قوى عزمكم والله يقويه ويعيننا من بركم على ما ننويه فالبلاد بلادكم ومافيها طريفكم وتلادكم وكهولها اخوانكم وأحداثها أولادكم ونرجوا أن تجدوا الذكر كم الله في رباها حلاوة زائدة ولا تعدموا من روح الله فيها فائدة وتكيف نفسكم فيها تكيفات تقصر عنها خلوات السلوك الى ملك الملوك حتى تغتبطوا بفضل الله الذى يوليكم وتروا أثر رحمته فيكم وتخلفوا لفخر هذا الانقطاع الى الله فى قبيلكم وبنيكم وتختموا العمر الطيب بالجهاد الذى يعليكم ومن الله تعالى يدنيكم فنبيكم العربي صلوات الله عليه وسلامه نبى الرحمة والملاحم ومعمل الصوارم وبجهاد الفرنج ختم عمل جهاده والاعمال بالخواتم هذا على بعد بلادهم من بلاده وأنتم أحق الناس باقتفاء جهاده والاستباق الى آماده هذا ما عندنا حثثناكم عليه وندبناكم اليه وأنتم فى ايثار هذا الجوار ومقارضة ما عندنا بقدومكم على بلادنا عن الاستبشار بحسب ما يخلق عنكم من بيده مقادة الاختيار وتصريف الليل والنهار وتقليب القلوب واجالة الافكار واذا تعارضت الحظوظ فما عند الله خير للابرار والدار الآخرة دار القرار وخير الاعمال عمل أوصل الى الجنة وباعد من النار ولتعلموا أن نفوس أهل الكشف والاطلاع بهذه الارجاء والاصقاع قد اتفقت أخبارها واتحدت اسرارها على البشارة بفتح قرب أوانه واظل زمانه فنرجو الله أن تكونوا ممن يحضر مدعاه ويكرم

فيه

وثلثمائة فى برج الثور وانه اذا انتقل الى البروج الجنوبية انتقلت العمارة فصار العامر خرابا والخاوب عامرا والشمال جنوبا والجنوب شمالا ورتب فى بيت الذهب حساب الدور الاول والتاريخ الأقدم الذى عليه عملت الهند فى تواريخ البردة وظهورها فى أرض الهند دون سائر الممالك ولهم فى البردة خطب طويل أعرضنا عن ذكره اذ كان كتابنا كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر وقد أتينا على جمل من ذلك فى الكتاب الاوسط ومن الهند من يذكر ان ابتداء العالم فى كل سبعين ألف سنة هازروان وان العالم اذا قطع هذه المدة عاد الكون فظهر النسل ومرحت البهائم وتغلغل الماء ودب الحيوان وبقل العشب وخرق النسيم الهواء فأما أكثر الهند فانهم قالوا بكرور منصوبات على دوائر تبتدئ القوى متلاشية الشخص موجودة القوة منتصبة الذات وحدّوا لذلك أجلا ضربوه ووقتا نصبوه وجعلوا الدائرة العظمى والجادثة الكبرى ووسموا ذلك بعمر العالم وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ستة وثلاثين ألف سنة مكررة فى اثنى عشر ألف عام وهذا عندهم الهازروان الضابط لقوى هذه الاشياء والمدبر لها وان الدوائر تقبض وتبسط

فيه مسعاه ويسلف فيه العمل الذي يشكره الله ويرعاه والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته انتهى * ولما دخل الاندلس أمير المسلمين علي ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المغرب والاندلس وأمعن النظر فيها وتأمل وصفها وحالها قال انها تشبه عقابا مخالبه طليطلة وصدره قلعة رباح ورأسه جيان ومنقاره غرناطة وجناحه الايمن باسط الى المغرب وجناحه الايسر باسط الى المشرق في خبر طويل لم يحضرني الآن اذ تركته مع كتبي بالمغرب جمعني الله بها على أحسن الاحوال * ومع كون أهل الاندلس سباق حلبة الجهاد مهطعين الى داعيه من الجبال والوهاد فكان لهم في الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد وسيأتي في الباب السابع من هذا القسم من ذلك وغيره ما يشفي ويكفي ولكن سنح لي ان اذكر هنا حكاية أبي بكر المخزومي الهجاء المشهور الذي قال فيه لسان الدين بن الخطيب في الاحاطة انه كان أعمى شديد الشر معروفا بالهجاء مسلطا على الاعراض سريع الجواب ذكي الذهن فطنا للمعاريض سابقا في ميدان الهجاء فاذا مدح ضعف شعره (والحكاية) هي ما حكاه أبو الحسن بن سعيد في الطالع السعيد اذ قال حكاية عن أبيه فيما أظن قدم المذكور يعني المخزومي على غرناطة أيام ولاية أبي بكر بن سعيد ونزل قريبا مني وكنت اسمع به بنار صاعقة يرسلها الله على من يشاء من عباده ثم رأيت ان ابدأه بالتأنيس والاحسان فاستدعيته بهذه الابيات

يا ثانيا للمعري * في حسن نظم ونثر
وفرط ظرف ونبل * وغوص فهم وفكر
صل ثم واصل حفيا * بكل بر وشكر
وليس الا حديث * كمازها عقد در
وشادن يتغنى * على رباب وزمر
وما يسامح فيه الـ * ـغفور من كاس خمر
وبيننا عهد حلف * ليا سر حاف كفر
نعم فجدده عهدا * يطيب شكرو يسر
والكاس مثل رضاع * ومن كمثلك يدري

ووجه له الوزير أبو بكر بن سعيد عبدا صغيرا قاده فلما استقر به المجلس وأفعمته روائح الند والعود والازهار وهزت عطفه الاوتار قال

دار السعيدي ذي ام دار رضوان * ما تشتهي النفس فيها حاضر داني
سقت اباريقها للند سحب ندى * تحدى برعد لاوتار وعيدان
والبرق من كل دن ساكب مطرا * يحيي به ميت أفكار وأشجان
هذا النعيم الذي كنا نحدثه * ولا سبيل له الا بآذان

فقال أبو بكر بن سعيد والى الآن لا سبيل له الا بآذان فقال حتى يبعث الله ولد زنى كلما انشدت هذه الابيات قال انها لاعمى فقال اما انا فلا انطق بحرف فقال من صمت نجا وكانت نزهون بنت القلاعي حاضرة فقالت وتراك يا استاذ قديم النعمة بمجمر ند وغناء

جميع المعاني التي تستودعها وان الاعمار تطول في اول الكر لانفساح الدوائر وتمكن القوى من المحال وتقصر الاعمار في آخر الكر لضيق الدائرة وكثرة ما يعرض فيهما من الاكدار الباترة للاعمار وذلك ان أقوى الاجسام وصفوها في أول الكر يظهر ويسرح وان الصفو سابق الكدر والصافي يبادر العقل والاعمار تطول بحسب صفاء المزاج وتكامل القوى المدبرة لعناصر أخلاط الكائنات الفاسدات المستحيلات البائدات وان آخر الكر الاعظم وغاية البدء الاكبر تظهر الصور منسوبة والنفوس ضعيفة والامزجة مختلطة وتتناقض القوى وتبيد المواصل وترد المواد في الدوائر منعكسة مزدحمة فلا تخطئ ذوي الاعصار تمام الاعمار وللهند فيما ذكرنا علل وبراهين في المبادي الاول وفيما بسطناه من تفريقهم في الدوائر الهازروانات ورموز واسرار في النفوس واتصالها بأعلى من العوالم وكيفية بدئها من أعلى الى أسفل وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن في بدء الزمان وكان ملك البرهمن الى ان هلك ثلثمائة سنة وستين سنة وولده يعرفون بالبراهمة الى وقتنا والهند تعظمهم وهم أعلى اجناسهم واشرفهم ولا يغتذون بشئ من الحيوان وفي رقاب الرجال

وشراب فتعجب من تاتيه وتشبهه بنعيم الجنة وتقول ما كان يعلم الا بالسماع ولا يبلغ اليه بالعيان ولكن من يجيء من حصن المدور وينشأ بين تيوس وبقر من أين له معرفة بمجالس النعيم فلما استوفت كلامها تنحنح الاعمى فقالت له ذبحة فقال من هذه الفاضلة فقالت عجوز مقام أمك فقال كذبت ماهذا صوت عجوز انما هذه نغمة قحبة محترقة تشم روائحه هنا على فراسخ فقال له أبو بكر يا استاذ هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الاديبة فقال سمعت بها لا اسمعها الله خيرا ولا أراها الا أيرا فقالت له يا شيخ سوء تناقضت وأي خير للمرأة مثل ماذكرت ففكر ساعة ثم قال

على وجه نزهون من الحسن مسحة * وان كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصد نزهون توارك غيرها * ومن قصد البحر استقل السواقيا

فاعملت فكرها ثم قالت

قل للوضيع مقالا * يتلى الى حين يحشر
من المدور أنشئت * والخرا منه اعطر
حيث البداوة أمست * في مشيها تتبختر
لذاك أمسيت صبا * بكل شيء مدور
خلقت أعمى ولكن * تهيم في كل اعور
جازيت شعرا بشعر * فقل لعمري من اشعر
ان كنت في الخلق انثى * فان شعري مذكر

فقال لها الاعمى

الا قل لنزهونة مالها * تجر من التيه أذيالها
ولو أبصرت فيشة شمرت * كما عودتني سربالها

فحلف أبو بكر بن سعيد ان لا يزيد أحدهما على الآخر في هجو كلمة (فقال المخزومي) أكون هجاء الاندلس وأكف عنها دون شيء فقال انا اشتري منك عرضها فاطلب فقال بالعبد الذي ارسلته فقادني الى منزلك فانه لين اليد رقيق المشي فقال أبو بكر لولا كونه صغيرا كنت أبلغك به مرادك واهبه لك ففهم قصده وقال أصبر عليه حتى يكبر ولو كان كبيرا ما آثرتني به على نفسك فضحك أبو بكر وقال ان لم تهج نظما هجوت نثرا فقال أيها الوزير لا تبديل لخلق الله وانفصل المخزومي بالعبد بعد ما اصلح الوزير بينه وبين نزهون انتهى * وفي كتاب الدر المنضد في وفيات اعيان أمة محمد تاليف الامام صارم الدين ابراهيم بن دقماق قال أبو القاسم بن خلف كان يعني المخزومي المذكور حيا بعد الاربعين وخمسمائة انتهى * ونقلت من كتاب قطب السرور لابن الرقيق المغربي ما ملخصه وممن ادركته وعاشرته عبد الوهاب بن حسين ابن جعفر الحاجب وذكرته هنا لانه ملحق بالامراء المتقدمين غير خارج منهم ولا مقصر عنهم بل كان واحد عصره في الغناء الرائق والادب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الانيق ورقة الطبع واصابة النادر والتشبيه المصيب والبديهة التي لا يلحق فيها مع شرف النفس وعلو الهمة وكان قد قطع عمره وافنى دهره في اللهو واللعب والفكاهة والطرب

والنساء منهم خيوط صفرية تقلدون بها كحمائل السيوف فرقا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند وقد كان اجتمع منهم في قديم الزمان في ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور اليهم في بيت الذهب فقال بعضهم لبعض اجلسوا حتى نتناظر فننظر ما قصة العالم وما سره ومن أين أقبلنا والى أين نمرو هل خروجنا من عدم الى وجود حكمة أو ضد ذلك وهل خالقنا المخترع لنا والمنشئ لاجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا أم هل هو غني من كل وجه عن ابقائه ايانا واعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا فقال الحكيم المنظور اليه منهم أترى احدا من الناس ادرك الاشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الادراك فظفر بالبغية واستراح الى الثقة قال الحكيم الثاني لو تناهت حكمة الباري عز وجل في احد العقول كان ذلك نقصا من حكمته وكان الغرض غير مدرك وكان التقصير مانعا من الادراك قال الحكيم الثالث الواجب علينا ان نبتدئ بمعرفة انفسنا التي هي أقرب الاشياء منا وأولى بها وهي أولى بنا من قبل ان نتفرغ الى علم ما بعد منا قال الحكيم الرابع لو شاء وقوع أمر وقع وقوعا احتاج وكان

وكان اعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعة اللحون وكثيرا مايقول المعانى اللطيفة فى الابيات الحسنة ويصوغ عليها الالحان المطربة البديعة المعجبة اختراعا منه وحذقا وكانت له فى ذلك قريحة وطبع وكان اذا لم يزره أحد من اخوانه احضر مائدته وشرابه عشرة من أهل بيته منهم ولده وعبد الله ابن أخيه وبعض غلمانه وكلهم يغنى فيجيد فلا يزالون يغنون بين يديه حتى يطرب فيدعو بالعود ويغنى لنفسه ولهم وكان بشارة الزامر الذى يزمر عليه من حذاق زمرة المشرق وكان بعيد الهمة سمحا ماجدا تغل عليه ضياعه كل عام اموالا جليلة فلا تحول السنة حتى ينفد جميع ذلك ويستسلف غيره فكان لا يطرأ من المشرق مغن الا سأل من يقصد بهذا الشان فيدل عليه فمن وصله منهم استقبله بصنوف البر والاكرام وكساه وخلطه بنفسه ولم يدعه الى أحد من الناس فلا يزال معه فى صبوح وغبوق وهو مجدد له كل يوم كرامة حتى ياخذ جميع مامعه من صوت مطرب أو حكاية نادرة وجلس يوما وقد زاره رجلان من اخوانه وحضر أقرباؤه فطعموا وشربوا واخذوا فى الغناء فارتج المجلس اذ دخل عليه بعض غلمانه فقال بالباب رجل غريب عليه ثياب السفر ذكر انه ضيف فامر بادخاله فاذا رجل أسمر سناطرث الهيئة فسلم عليه قال اين بلد الرجل قال البصرة فرحب به وأمره بالجلوس فجلس مع الغلمان فى صفة وأتى بطعام فاكل وسقى اقداحا ودار الغناء فى المجلس حتى انتهى الى آخرهم فلما سكتوا اندفع يغنى بصوت ندى وطبع حسن

الايادار ما الهجر * لسكانك من شانى
سقيت الغيث من دار * وان هيجت أشجانى
ولو شئت لما استسقيت غيثا غير اجفانى
بنفسى حل اهلوك * وان بانوا بسلوانى
وما الدهر بمأمون * على تشتيت خلان

فطرب عبد الوهاب وصاح وتبين الحذق فى اشارته والطيب فى طبعه وقال يا غلام خذ بيده الى الحمام وعجل على به فادخل الحمام ونظف ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فالقيت عليه ورفعه فأجلسه عن يساره وأقبل عليه وبسطه فغنى له

قومى امزجى التبر باللجين * واحتملى الرطل باليدين
واغتنمى غفلة الليالى * فربما ايقظت لحين
فقد لعمرى أقرمنا * هلال شوال كل عين
ذات الخلاخيل أبصرته * كنصف خلخالها اللجين

فطرب وشرب واستزاده فغناه

من لى على رغم الحسود بقهوة * بكر ربيبة حانة عذراء
موج من الذهب المذاب تضمه * كاس كقشر الدرة البيضاء
والنجم فى افق السماء كأنه * عين تخالس غفلة الرقباء

فشرب عبد الوهاب ثم قال زدنى فغناه

وأنت الذى أشرقت عينى بمائها * وعلمتها بالهجر أن تهجر الغمضا

فيه بنفسه قال الحكيم الخامس من ههنا وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة ١٩ قال الحكيم السادس الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه ان لا يغفل عن ذلك لاسيما اذا كان المقام فى هذه الدنيا ممتنعا والخروج منها واجبا قال الحكيم السابع أنا لا أدرى ما تقولون غير انى اخرجت الى هذه الدنيا مضطرا وعشت فيها حائرا وأخرج منها مكرها فاختلف الهند ممن سلف وخلف فى آراء هؤلاء السبعة وكل قد اقتدى بهم ويمم مذهبهم ثم تفرعوا بعد ذلك فى مذاهبهم وتنازعوا فى آرائهم والذى وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة (قال المسعودى) وقد رأيت ابا القاسم البلخى ذكر فى كتاب عيون المسائل والجوابات وكذلك الحسن ابن موسى النوبختى فى كتابه المترجم بالآراء والديانات مذاهب الهند وآراءهم والعلة التى من اجلها احرقوا أنفسهم فى النيران وقطعوا أجسامهم بانواع العذاب فما تعرضنا لشئ مما ذكرنا ولا يممنا نحو ما وصفنا وقد تنوزع فى البرهمن فمنهم من زعم انه آدم عليه السلام وانه رسول الله عز وجل الى الهند ومنهم من يقول انه كان ملكا على حسب ما ذكرنا وهذا اشهر ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعا شديدا وفزعت الى نصب ملك عليها

وأغرقتها بالدمع حتى جفونها * لينكر من فقد الكرى بعضها بعضا

فى يوم من أحسن الايام وأطيبها ووصله وأحسن اليه ولم يزل عنده مقربا مكرما وكان خليعا ماجنا مشتهرا بالنبيذ فخلاه وما أحب ثم وصف له الاندلس وطيبها وكثرة خمورها فمضى اليها ومات بها وعلى نحو هذه الحال كان يفعل بكل طارئ يطرأ من المشرق ولو ذكرتهم لطال بهم الكتاب انتهى وغرضى من ايراد هذه الحكاية هنا كونه وصف للمشرقى الاندلس وطيبها وذلك أمر لا يشك فيه ولا يرتاب والله المسؤل فى حسن المتاب * ورأيت فى بعض كتب تاريخ الاندلس فى ترجمة السلطان باديس الصنهاجى صاحب غرناطة مانصه وهو الذى اكمل ترتيب قصبة مالقة وكان افرس الناس وانبلهم ذا مروءة ونجدة وقصره بغرناطة ليس ببلاد الاسلام والكفر مثله فيما قيل انتهى وهذا القصر هو الذى عناه لسان الدين بن الخطيب فى قصيدته السينية المذكورة فى الباب الخامس من القسم الثانى من هذا الكتاب فليراجع ثمة * وذكر غير واحد من المحدثين والمؤرخين أن مدينة سرقسطة لا يدخلها الثعبان من قبل نفسه واذا ادخله احد لم يتحرك ونظير هذا المعنى فى بعض الحيوانات بالنسبة الى بعض البلاد كثير وذلك برصد او طلسم وقد استطرد بعض علماء اصول الدين ذلك عند ما تكلموا على السحر حسبما تقرر فى محله والله أعلم هكذا رأيت فى كلام بعض علماء المشارقة والذى رأيته لبعض مؤرخى المغرب فى سرقسطة أنها لا تدخلها عقرب ولا حية الا ماتت من ساعتها ويؤتى بالحيات والعقارب اليها حية فبنفس ما تدخل الى جوف البلد تموت قال ولا يتسوس فيها شئ من الطعام ولا يعفن ويوجد فيها القمح من مائة سنة والعنب المعلق من ستة أعوام والتين والخوخ وحب الملوك والتفاح والاجاص اليابسة من أربعة أعوام والفول والحمص من عشرين سنة ولا يسوس فيها خشب ولا ثوب كان صوفا او حريرا او كتانا وليس فى بلاد الاندلس اكثر فاكهة منها ولا اطيب طعما ولا أكبر جرما والبساتين محدقة بها من كل ناحية ثمانية اميال ولها اعمال كثيرة مدن وحصون وقرى مسافة اربعين ميلا وهى تضاهى مدن العراق فى كثرة الاشجار والانهار وبالجملة فامرها عظيم وقد اسلفنا ذكرها * واعلم ان بارض الاندلس من الخصب والنضرة وعجائب الصنائع وغرائب الدنيا مالا يوجد مجموعه غالبا فى غيرها فمن ذلك ماذكره الحجارى فى المسهب ان السمور الذى يعمل من وبره الفراء الرفيعة يوجد فى البحر المحيط بالاندلس من جهة جزيرة برطانية ويجلب الى سرقسطة ويصنع بها ولما ذكر ابن غالب وبر السمور الذى يصنع بقرطبة قال هذا السمور المذكور هنا لم اتحقق ماهو ولا ماعنى به ان كان هو نباتا عندهم او وبر الدابة المعروفة فان كانت الدابة المعروفة فهى دابة تكون فى البحر وتخرج الى البر وعندها قوة تمييز وقال حامد بن سمجون الطبيب صاحب كتاب الادوية المفردة هو حيوان يكون فى بحر الروم ولا يحتاج منه الا خصاه فيخرج الحيوان من البحر فى البر فيؤخذ وتقطع خصاه ويطلق فربما عرض للقناصين مرة أخرى فاذا أحس بهم وخشى أن لا يفوتهم استلقى على ظهره وفرج بين فخذيه ليرى موضع خصييه خاليا فاذا رآه القناصون كذلك تركوه قال ابن غالب ويسمى هذا الحيوان أيضا الجندبادستر والدواء الذى يصنع من خصييه من الادوية الرفيعة ومنافعه

من أكبر ولده فكان ولى عهده الموصى له من ولده ابنه (الناهود) فسار فيهم سيرة أبيه وأحسن النظر اليهم وزاد فى بناء الهياكل وقدم الحكماء وزاد فى مراتبهم وحثهم على تعليم الناس الحكمة وبعثهم على طلبها فكان ملكه الى ان هلك مائة سنة وفى أيامه عمل النرد واحدث اللعب بها وجعل ذلك مثالا للمكاسب وانها لا تنال بالكسب ولا بالحيل فى هذه الدنيا وان الرزق لا يتأتى فيها بالحذق وقد ذكر ان اردشير ابن بابك اول من صنع النرد ولعب بها وأرى تقلب الدنيا باهلها واختلاف أمورها وجعل بيوتها اثنى عشر بيتا بعدد الشهور وجعل كلابها ثلاثين بعدد أيام الشهر وجعل الفصين مثلا للقدر ومثله باهل الدنيا وان الانسان يلعب فيبلغ باسعاد القدر اياه بما فى مراده باللعب بها ومراده ان الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره الا اذا أسعده القدر وان الارزاق والحظوظ فى هذه الدنيا لا تنال الا بالجدود ثم ملك (دامان) بعد الناهود فكان ملكه نحوا من خمسين ومائة سنة ولدامان سير واخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين قد أتينا على الغرر منها فيما سلف من كتبنا ثم ملك (فور) وهو الذى واقعه الاسكندر فقتله الاسكندر مبارزة وكان ملك فور الى ان هلك اربعين ومائة سنة ثم

كثيرة وخاصيته في العلل الباردة وهو حار يابس في الدرجة الرابعة والقنلية حيوان أدق من الارنب وأطيب في الطعم وأحسن وبرا وكثيرا ما يلبس فراؤها ويستعملها أهل الاندلس من المسلمين والنصارى ولا توجد في برّ البربر الا ما جلب منها الى سبتة فنشأ في جوانبها قال ابن سعيد وقد جلبت في هذه المدة الى تونس حضرة أفريقية ويكون بالاندلس من الغزال والايل وحمار الوحش وبقره وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها كثيرا وأما الاسد فلا يوجد فيها البتة ولا الفيل والزرافة وغير ذلك مما يكون في أقاليم الحرارة ولها سبع يعرف باللب أكبر بقليل من الذئب في نهاية من القحة وقد يفترس الرجل اذا كان جائعا وبغال الاندلس فارهة وخيلها ضخمة الاجسام حصون للقتال لحملها الدروع وثقال السلاح والعدو في خيل البر الجنوبي ولها من الطيور الجوارح وغيرها ما يكثر ذكره ويطول وكذلك حيوان البحر ودواب بحرها المحيط في نهاية من الطول والعرض قال ابن سعيد عاينت من ذلك العجب والمسافرون في البحر يخافون منها لئلا تقلب المراكب فيقطعون الكلام ولها نفخ بالماء من فيها يقوم في الجوذا ارتفاع مفرط وقال ابن سعيد قال المسعودي في مروج الذهب في الاندلس من أنواع الافاويه خمسة وعشرون صنفا منها السنبل والقرنفل والصندل والقرفة وقصب الذريرة وغير ذلك وذكر ابن غالب أن المسعودي قال أصول الطيب خمسة أصناف المسك والكافور والعود والعنبر والزعفران وكلها من ارض الهند الا الزعفران والعنبر فانهما موجودان في ارض الاندلس ويوجد العنبر في ارض الشحر قال ابن سعيد وقد تكلموا في اصل العنبر فذكر بعضهم انه عيون تنبع في قعر البحر يصير منها ما تبلعه الدواب وتقذفه قال الحجاري ومنهم من قال انه نبات في قعر البحر وقد تقدم قول الرازي ان المحلب وهو المقدم في الافاويه والمفضل في انواع الاشنان لا يوجد في شئ من الارض الا بالهند والاندلس قال ابن سعيد وفي الاندلس مواضع ذكروا أن النار اذا أطلقت فيها فاحت بروائح العود وما أشبهه وفي جبل شلير افاويه هندية قال واما الثمار واصناف الفواكه فالاندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز ويوجدان في الاقاليم الباردة ولا يعدم منها الا التمر ولها من انواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين السفري باشبيلية قال ابن سعيد وهذان صنفان لم ترعيني ولم اذق لهما منذ خرجت من الاندلس ما يفضلهما وكذلك التين المالقي والزبيب المنكبي والزبيب العسلي والرمان السفري والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره وقد ذكر ابن سعيد ايضا ان الارض الشمالية المغربية فيها المعادن السبعة وانها في الاندلس التي هي بعض تلك الارض واعظم معدن للذهب بالاندلس في جهة شنت ياقور قاعدة الجلالقة على البحر المحيط وفي جهة قرطبة الفضة والزئبق والنحاس في شمال الاندلس كثير والصفر الذي يكاد يشبه الذهب وغير ذلك من المعادن المتفرقة في اماكنها والعين التي يخرج منها الزاج في لبلة مشهورة وهو كثير مفضل في البلاد منسوب لجبل طليطلة جبل الطفل الذي يجهز الى البلاد ويفضل على كل طفل بالمشرق والمغرب وبالاندلس عدة مقاطع للرخام وذكر الرازي أن بجبل قرطبة مقاطع الرخام الابيض الناصع اللون والخمري وفي

ملك بعده (دستلم) وهو الواضع كتاب كليلة ودمنة الذي ينسب لابن المقنع وقد صنف سهل بن هرون الكاتب لامير المؤمنين المأمون كتابا ترجمه ثعلة وعفرة يعارض به كتاب كليلة ودمنة في ابوابه وامثاله يزيد عليه في حسن نظمه وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقيل غير ذلك ثم ملك بعده (بلهيت) وصنعت في ايامه الشطرنج فقضى بلعبها على النرد وبين الظفر الذي يناله الحازم والبلية التي تلحق الجاهل وحسب حسابها ورتب لذلك كتابا للهند يعرف بطرو حكمية يتداولونه بينهم ولعب بالشطرنج مع حكمائه وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق وجعلهم درجات في مراتب ومثل الشاه بالمدبر الرئيس وكذلك من يليه من القطائع واقام ذلك مثالا للاجساد العلوية التي هي الاجسام السماوية من السبعة والاثني عشر وافرد كل قطعة منها بكوكب وجعلها ضابطة للمملكة واذا كان عدو من اعدائه فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من اين يؤتون في عاجل وآجل وللهند في لعب الشطرنج سر يسرونه في تضاعيف حسابها ويتعلقون بذلك الى ما علا من الافلاك وما اليه منتهى العلة الاولى واعداد اضعاف

ناشرة بقطع عجيب للعمد وباغة من مملكة غرناطة مقاطع للرخام كثيرة غريبة موشاة فى حمرة وصفرة وغير ذلك من المقاطع التى بالاندلس من الرخام الحالك والمجزع وحصى المرية يحمل الى البلاد فانه كالدر فى رونقه وله ألوان عجيبة ومن عادتهم ان يضعوه فى كيزان الماء وفى الاندلس من الامنان التى تنزل من السماء القرمز الذى ينزل على شجرة البلوط فيجمعه الناس من الشعراء ويصبغون به فيخرج منه اللون الاحمر الذى لا تفوقه حمرة قال ابن سعيد والى مصنوعات الاندلس ينتهى التفضيل وللمتعصبين لها فى ذلك كلام كثير فقد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالموشى المذهب الذى يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق اذا رأوا منه شيأ وفى تنتالة من عمل مرسية تعمل البسط التى يغالى فى ثمنها بالمشرق ويصنع فى غرناطة وبسطة من ثياب اللباس المحررة الصنف الذى يعرف بالملبد المختم ذو الالوان العجيبة ويصنع فى مرسية من الاسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والامقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندى ما يبهر العقل ومنها تجهز هذه الاصناف الى بلاد افريقية وغيرها ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب وفخار مزجج مذهب ويصنع بالاندلس نوع من المفضض المعروف فى المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجى يشبه المفضض وهو ذو ألوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يصرفه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجرى مجراه واما آلات الحرب من الترساس والرماح والسروج والالجم والدروع والمغافر فاكثرهم أهل الاندلس فيما حكى ابن سعيد كانت مصروفة الى هذا الشان ويصنع فيها فى بلاد الكفر ما يبهر العقول قال والسيوف البرذليات مشهورة بالجودة وبرذيل آخر بلاد الاندلس من جهة الشمال والمشرق والفولاذ الذى باشبيلية اليه النهاية وفى اشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره وقد افرد ابن غالب فى فرحة الانفس للآثار الاولية التى بالاندلس من كتابه مكانا فقال منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح الى الارحى التى بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم حتى طحنت به وذلك من أعجب ما صنع ومن ذلك ما صنعه الاول أيضا من جلب الماء من البحر المحيط الى جزيرة قادس من العين التى فى أقليم الاصنام جلبوه فى جوف البحر فى الصخر المجوّف ذكرا فى أنثى وشقوا به الجبال فاذا وصلوا به الى المواضع المنخفضة بنوا له قناطر على حنايا فاذا جاوزها واتصل بالارض المعتدلة رجعوا الى البنيان المذكور فاذا صادف سبخة بنى له رصيف وأجرى عليه هكذا الى ان انتهى به الى البحر ثم دخل به فى البحر واخرج فى جزيرة قادس والبنيان الذى دخل عليه الماء فى البحر ظاهر بين قال ابن سعيد الى وقتنا هذا ومنها الرصيف المشهور بالاندلس قال فى بعض اخبار رومية انه لما ولى يوليش المعروف بجاشر وابتدأ بتذريع الارض وتكسيرها كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية الى المشرق منها والى المغرب والى الشمال والى الجنوب ثم بدأ بفرش المبلطة وأقبل بها على وسط دائرة الارض الى ان بلغ بها أرض الاندلس وركزها شرقى قرطبة ببابها المنتظم من المعروف بباب عبد الجبار ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلى قرطبة الى شقندة الى استجة الى قرمونة الى البحر واقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من

ألف ألف ألف وخمسمائة ألف ألف ألف وأحد وخمسون ألف ألف وستمائة وخمسة عشر ألفا ومراتب هذه الالوف الستة الاولى ثم الخمسة التى هى ألف ألف خمس مرات ثم الاربع ثم الثلاث ثم الاثنتين ثم الواحدة لها عندهم معان يذكرونها فى الدهور والاعصار وما تقتضيه سائر المؤثرات العلوية فى هذا العالم لارتباط نفوس الناطقين بها ولليونانيين والروم وغيرهم من الامم فى الشطرنج كلام ونوع من اللعب بها قد ذكر ذلك الشطرنجيون فى كتبهم ممن تقدم منهم الى الصولى والعدلى واليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج فى هذا العصر وكان ملك بلهيت ملك الهند الى أن هلك ثمانين سنة وفى بعض النسخ انه ملك ثلاثين ومائة سنة ثم ملك بعده (كورس) فأحدث للهند آراء فى الديانات على حسب ما رأى من صلاح الوقت وما يحتمله من التكليف أهل العصر وخرج عن مذاهب من سلف وكان فى مملكته وعصره سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد وعمل فى خزانة هذا الملك الكتاب الاعظم فى معرفة العلل

مدينة رومية وذكر أنه أراد تسقيفها فى بعض الاماكن راحة للخاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ثم توقع ان يكون ذلك فسادا فى الارض وتغييرا للطرق عند انتشار اللصوص وأهل الشر فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العمران فتركها على ماهى عليه وذكر فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير الا الصنم الذى بطرف جليقية وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة وملعب مربيطر (قال ابن سعيد) وفى الاندلس عجائب * منها الشجرة التى لولا كثرة ذكر العامة لها بالاندلس ماذكرتها فان خبرها عندهم شائع متواتر وقد رأيت من يشهد بخبرها ورؤيتها وهم جم غفير وهى شجرة زيتون تصنع الورق والنور والثمر من يوم واحد معلوم عندهم من ايام السنة الشمسية * ومن العجائب السارية التى بغرب الاندلس يزعم الجمهور أن أهل ذلك المكان اذا أحبوا المطر أقاموها فيمطر الله جهتهم * ومنها صنم قادس طول ما كان قائما كان يمنع الريح أن تهب فى البحر المحيط فلا تستطيع المراكب الكبار على الجرى فيه فلما هدم فى أول دولة بنى عبد المؤمن صارت السفن تجرى فيه * وبكورة قبرة مغارة ذكرها الرازى وحكى انه يقال انها باب من أبواب الريح لا يدرك لها قعر * وذكر الرازى ان فى جهة قلعة ورد جبلا فيه شق فى صخرة داخل كهف فيه فاس حديد متعلق من الشق الذى فى الصخرة تراه العيون وتلمسه اليد ومن رام اخراجه لم يطق ذلك واذا رفعته اليد ارتفع وغاب فى شق الصخرة ثم يعود الى حالته * وأما ما أورده ابن بشكوال من الاحاديث والآثار فى شان فضل الاندلس والمغرب فقد ذكرها ابن سعيد فى كتابه المغرب ولم اذكرها أنا والله أعلم بحقيقة أمرها وكذلك ماذكره ابن بشكوال من ان فتح القسطنطينية انما يكون من قبل الاندلس قال وذكره سيف عن عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه والله أعلم بصحة ذلك ولعل المراد بالقسطنطينية رومية والله أعلم قال سيف وذلك ان عثمان ندب جيشا من القيروان الى الاندلس وكتب لهم أما بعد فان فتح القسطنطينية انما يكون من قبل الاندلس فانكم ان فتحتموها كنتم الشركاء فى الاجر والسلام انتهى قلت عهدة هذه الامور على ناقلها وأنا برىء من عهدتها وان ذكرها ابن بشكوال وصاحب المغرب وغير واحد فانها عندى لا أصل لها وأى وقت بعث عثمان الى الاندلس مع أن فتحها بالاتفاق انما كان زمان الوليد وانما ذكرت هذا للتنبيه عليه لا غير والله أعلم (قال ابن سعيد) وميزان وصف الاندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فاكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة فمتى سافرت من مدينة الى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع والصحارى فيها معدومة ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها فهى كما قال الوزير ابن الحمارة فيها

لاحت قراها بين خضرة أيكها * كالدر بين زبرجد مكنون

ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها وفى الاندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من مثلها والمثال فى ذلك انك اذا توجهت من اشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر مدينة شريش وهى

والادواء والعلاجات وشكلت الحشائش وصورت وكان مدة ملك الهند هذا الى أن مات عشرين ومائة سنة ولما هلك هذا الملك اختلفت الهند فى آرائها فتحزبت الاحزاب وتحيلت الاجيال وانفرد كل رئيس بناحية فملك على أرض السند ملك وملك على أرض القنوج ملك وتملك على أرض قشمير ملك وتملك على مدينة الماملير وهى الحوزة الكبرى ملك يسمى بالبلهرا وهذا أول ملك سمى من ملوكهم بالبلهرا فصارت سمة لمن اخر من الملوك لهذه الحوزة الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وأرض الهند أرض واسعة فى البر والبحر والجبال وملكهم متصل بملك الرانج وهى دار مملكة المهراج ملك الجزائر وهذه المملكة قدر بين مملكة الهند والصين وتضاف الى الهند والهند متصلة مما يلى الجبال بأرض خراسان والسند الى أرض التبت وبين هذه الممالك تباين وحروب ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متفقة والاكثر منهم يقول بالتناسخ وتنقل الارواح على حسب ماقدمناه آنفا والهند فى عقولهم وسياساتهم وحكمهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزنج والدادم وسائر الاجناس وقد ذكر جالينوس فى الاسود عشر خصال اجتمعت

في نهاية من الحضارة والنضارة ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ثم مالقة وهذا كثير في الاندلس ولهذا كثرت مدنها وأكثرها مسوّر من أجل الاستعداد للعدو فحصل لها بذلك التشييد والتزيين وفي حصونها ما يبقى في محاربة العدوّ ما ينيف على عشرين سنة لامتناع معاقلها ودربة أهلها على الحرب واعتيادهم مجاورة العدوّ بالطعن والضرب وكثرة ما تختزن الغلة في مطاميرها فمنها ما يطول صبره عليها نحوا من مائة سنة قال ابن سعيد ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح الى الآن وان كان العدوّ قد نقصها من أطرافها وشارك في أوساطها ففي البقية منه عظيمة فأرض بقي فيها مثل أشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وما ينضاف الى هذه الحواضر العظيمة الممصرة الرجاء فيها قوي بحول الله وقوّته انتهى قلت قد خاب ذلك الرجاء وصارت تلك الأرجاء للكفر معرجا ونسأل الله تعالى الذي جعل للهم فرجا وللضيق مخرجا أن يعيدها اليها كلمة الاسلام حتى يستنشق أهله منه فيها أرجا آمين (ومن غرائب الاندلس) البيلتان اللتان بطليطلة صنعهما عبد الرحمن لما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة أرين من أرض الهند وقد ذكره المسعودي وانه يدور بأصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوّف في جوف النهر الاعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين ومن عجبهما أنهما يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه وذلك أن أوّل انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء فاذا أصبح كان فيهما سبعهما من الماء فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال فيكون فيهما نصفهما ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر فاذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع فاذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شئ من الماء واذا تكلف أحد حين ينقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما الا ما كان فيهما في تلك الساعة وكذا لو تكلف عند امتلائهما افراغهما ولم يبق منهما شيأ ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين وهما أعجب من طلسم الهند لان ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصارى دمرهم الله طليطلة فأراد الفنش أن يعلم حركاتهما فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي اليها الماء وكيف الحركة فيهما فقلعت فبطلت حركتهما وذلك سنة ٥٢٨ وقيل ان سبب فسادهما حنين اليهودي الذي جلب حمام الاندلس كلها الى طليطلة في يوم واحد وذلك سنة ٥٢٧ وهو الذي أعلم الفنش أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها فأراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له أيها الملك أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران في الليل فلما قلعت لم يقدر على ردها وقيل انه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ولم تزل الاخرى تعطي حركتها والله أعلم بحقيقة الحال (وقال بعضهم) في اشبيلية انها قاعدة بلاد الاندلس وحاضرتها ومدينة الادب واللهو والطرب وهي على ضفة النهر الكبير عظيمة الشان طيبة المكان لها البر المديد والبحر

فيه ولم توجد في غيره تفلفل الشعر وخفة الحاجبين وانتشار المنخرين وغلظ الشفتين وتحديد الاسنان ونتن الجلد وسواد الحدق وتشقق اليدين والرجلين وطول الذكر وكثرة الطرب قال جالينوس وانما غلب على الاسود الطرب لفساد دماغه فضعف لذلك عقله وقد ذكر جالينوس في طرب السودان وغلبة الفرح عليهم وما خص به الزنج دون سائر السودان في الاكثر من الطرب امورا قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا ولقد كان طاوس اليماني صاحب عبد الله بن عباس لا يأكل من ذبيحة الزنجي ويقول انه عبد مشوّه الخلقة وبلغنا أن أبا العباس الراضي بن المقتدر بالله كان لا يتناول شيأ من اسود ويقول انه عبد مشوّه خلقه فلست أدري أقلد طاوسا في مذهبه أم لضرب من الآراء والنحل وقد صنف عمرو بن بحر الجاحظ كتابا في فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان والهند لا تملك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم الا في كل برهة من الزمان معلومة ويكون ظهورها في أمور الرعية لان في نظر العوام عندها الى ملوكها خرقا لهيبتها واستخفافا بحقها والرياسات عند هؤلاء لا تجوز الا بالتخير ووضع الاشياء مواضعها من مراتب السياسة (قال المسعودي) ورأيت في بلاد سرنديب الساكن

السا كن والوادى العظيم وهى قريبة من البحر المحيط الى أن قال ولو لم يكن لها من الشرف الا وضع الشرف المقابل لها المطل عليها المشهور بازيتون الكثير الممتد فراسخ فى فراسخ لكفى وبها منارة فى جامعها بناها يعقوب المنصور ليس فى بلاد الاسلام أعظم بناء منها وعسل الشرف يبقى حينا لا يترمل ولا يتبدل وكذلك الزيت والتين وقال ابن مغلح ان اشبيلية عروس بلاد الاندلس لان تاجها الشرف وفى عنقها سمط النهر الاعظم وليس فى الارض أتم حسنا من هذا النهر يضاهى دجلة والفرات والنيل تسير القوارب فيه للنزهة والسير والصيد تحت ظلال الثمار وتغرد الاطيار أربعة وعشرين ميلا ويتعاطى الناس السرح من جانبيه عشرة فراسخ فى عمارة متصلة ومنارات مرتفعة وأبراج مشيدة وفيه من أنواع السمك مالا يحصى وبالجملة فهى قد حازت البر والبحر والزرع والضرع وكثرة الثمار من كل جنس وقصب السكر ويجمع منها القرمز الذى هو أجل من اللك الهندى وزيتونها يخزن تحت الارض أكثر من ثلاثين سنة ثم يعتصر فيخرج منه أكثر مما يخرج منه وهو طرى انتهى ملخصا *ولما ذكر ابن اليسع الاندلس قال لا يتزود فيها أحد ماحيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها وربما لقى المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ومن المعاقل والقرى مالا يحصى وهى بطاح خضر وقصور بيض قال ابن سعيد وأنا أقول كلاما فيه كفاية منذ خرجت من جزيرة الاندلس وطفت فى بر العدوة ورأيت مدنها العظيمة كمراكش وفاس وسلا وسبتة ثم طفت فى أفريقية وماجاورها من المغرب الاوسط فرأيت بجاية وتونس ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الاسكندرية والقاهرة والفسطاط ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا ومابينهما لم ارمايشبه رونق الاندلس فى مياهها وأشجارها الامدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام وفى حماة مسحة اندلسية ولم ارمايشبهها فى حسن المبانى والتشييد والتصنيع الاماشيد بمراكش فى دولة بنى عبد المؤمن وبعض اماكن فى تونس وان كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالاسكندرية ولكن الاسكندرية افسح شوارع واوسط وابدع ومبانى حلب داخلة فيما يستحسن لانها من حجارة صلبة وفى وضعها وترتيبها اتقان انتهى ومن احسن ماجاء من النظم فى الاندلس قول ابن سفر المرينى ولاحسان له عادة

فى أرض أندلس تلتذ نعماء * ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع * ولا تقوم بحق الانس صهباء
وأين يعدل عن أرض تحض بها * على المدامة أمواه وأفياء
وكيف لا يبهج الابصار رؤيتها * وكل روض بها فى الوشى صنعاء
أنهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتثار لآلى الطل أنداء
وانما أرج الند استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قدميزت من جهات الارض حين بدت * فريدة وتولى ميزها الماء

لهذا المعنى وشعره ينجر على الارض وأمرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه وتنادى أيها الناس هذا ملككم بالامس قد صار فيكم حكمة وقد صار الى ماترون من ترك الدنيا وقبض روحه ملك الموت والحى القديم الذى لا يموت فلا تغتروا بالحياة بعده وتقول كلاما هذا معناه من الترهيب والترهيد فى هذا العالم ويطاف به شوارع المدينة ثم يفصل أربع قطع وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب فيحرق بالنار ويذر رماده فى الرياح وكذلك فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم لغرض يذكرونه ونهج يتيممونه فى المستقبل من الزمان والملك مقصور فى اهل بيت لا ينتقل عنهم الى غيرهم وكذلك بيت الوزارة والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل والهند تمنع من شرب الشراب ويعنفون شاربه لا على طريق التدين ولكن تنزها أن يوردوا على عقولهم مايغشيها ويزيلها عما وضعت له فيهم واذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه اذ كان

 لا يتاتى التدبير والسياسة مع الاختلاط وربما يسقون الجوارى فيطربن بحضرتهم فتطرب الرجال لطرب الجوارى

دارت عليها نطاقا أبحر خفقت * وجدا بها اذ تبدّت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فيها خلعت عذاري ما بها عوض * فهي الرياض وكل الارض صحراء

ولله در ابن خفاجة حيث يقول

ان للجنة بالاندلس * مجتلى مرأى وريا نفس
فسنى صبحتها من شنب * ودجى ظلمتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا * صحت واشوقي الى الاندلس

وقد تقدّمت هذه الابيات قال ابن سعيد قال ابن خفاجة هذه الابيات وهو بالمغرب الاقصى في برّ العدوة ومنزله في شرق الاندلس بجزيرة شقر وقال ابن سعيد في المغرب ما نصه قواعد من كتاب الشهب الثاقبة في الانصاف بين المشارقة والمغاربة اول ما نقدّم الكلام على قاعدة السلطنة بالاندلس فنقول انها مع ما بأيدي عباد الصليب منها أعظم سلطنة كثرت ممالكها وتشعبت في وجوه الاستظهار للسلطان اعانتها وندع كلامنا في هذا الشأن وننقل ما قاله ابن حوقل النصيبي في كتابه لما دخلها في مدّة خلافة بني مروان بها في المائة الرابعة وذلك انه لما وصفها قال وأما جزيرة الاندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الاحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية فيها ولما هي به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك منهم مهينهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنتهم وصلاح معاشهم وبلادهم ثم أخذ في عظم سلطانها ووصف وفور جباياته وعظم مرافقه وقال في أثناء ذلك ومما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير دخلها في كل سنة مائتا ألف دينار وصرف الدينار سبعة عشر درهما وهذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة وغير ذلك وذكر ابن بشكوال ان جباية الاندلس بلغت في مدّة عبد الرحمن الناصر خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفا من السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار ثم قال ابن حوقل ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الانجاد والابطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها في نفسها ومقدار جباياتها ومواقع نعمها ولذاتها قال علي بن سعيد مكمل هذا الكتاب لم أر بدا من اثبات هذا الفصل وان كان على أهل بلدي فيه من الظلم والتعصب ما لا يخفى ولسان الحال في الرد أنطق من لسان البلاغة وليت شعري اذ سلب أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمسمائة سنة ونيف ومن الذين حموها بسالتهم من الامم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب واني لاعجب منه اذ كان في زمان قد دلفت فيه عباد الصليب الى الشام والجزيرة وعاثوا كل العيث في بلاد الاسلام حيث

وللهند سياسات كثيرة قد أتينا على ذكر كثير منها ومن أخبارهم وسيرهم في كتابنا أخبار الزمان وفي الكتاب الاوسط وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهزا صاحب مدينة الماملير وأكثر ملوك الهند تتوجه في صلواتها نحوه وتصلي لرسله اذا وردوا عليهم وتلي مملكة البلهزا ممالك كثيرة للهند منهم ملوك في الجبال لا بحر لهم مثل الراي صاحب القسمين وملك الطافي وغير ذلك من ملوكهم أعني ملوك الهند ومنهم من مملكته بر وبحر فأما البلهزا فان بين دار مملكته وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخا سندية والفرسخ ثمانية أميال وله جيوش وفيلة لا يدري كثرتها وأكثر جيوشه رجالة لان دار مملكته بين الجبال ويساويه من ملوك الهند ممن لا بحر له بؤورة صاحب مدينة القنوج وهذا الاسم تفسيره الذي على الشمال والجنوب والصبا والدبور لانه في كل وجه من هذه الوجوه يلقى ملكا محاذيا له وسنذكر جملا من أخبار ملوك السند والهند وغيرهم من ملوك الارض فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا البحار وما فيها وما حولها من العجائب والامم ومراتب الملوك وغير ذلك وان كنا قد اسلفنا ذلك فيما تقدم من كتبنا والله تعالى أعلم

الجهور

قسمت الحكماء الارض الى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب وقسموا ذلك الى قسمين مسكون وغير مسكون وعامر وغير عامر وذكروا ان الارض مستديرة ومركزها في وسط الفلك والهواء محيط بها من كل الجهات وانها عند تلك البروج بمنزلة النقطة وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات في بحر أوقيانوس الغربي وهي ستة اجزاء عامرة الى اقصى عمران الصين فوجدوا ذلك اثني عشر فعلموا ان الشمس اذا غابت في اقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التي في بحر أوقيانوس الغربي واذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في اقصى الصين وذلك نصف دائرة الارض وهو طول العمران الذي ذكروا انهم وقفوا عليه ومقداره من الاميال ثلاثة عشر ألف ميل وخمسمائة ميل من الاميال التي عملوا عليها في مساحة دور الارض ثم نظروا الى العروض فوجدوا العمران مما وضع خط الاستواء عليه من الارض الى ناحية الشمال تنتهي الى جزيرة تولى التي في برطانية حيث يكون طول النهار الاطول عشرين ساعة وذكروا أن موضع خط الاستواء من الارض يقطع فيما بين

الجمهور والقبة العظمى حتى انهم دخلوا مدينة حلب وما أدراك وفعلوا فيها ما فعلوا وبلاد الاسلام متصلة بها من كل جهة الى غير ذلك مما هو مسطور في كتب التواريخ ومن أعظم ذلك وأشده انهم كانوا يتغلبون على الحصن من حصون الاسلام التي يتمكنون بها من بسائط بلادهم فيسبون و يأسرون فلا تجتمع همم الملوك المجاورة على حسم الداء في ذلك وقد يستعين به بعضهم على بعض فيتمكن من ذلك الداء الذي لا يطب وقد كانت جزيرة الاندلس في ذلك الزمان بالضد من البلاد التي ترك و راء ظهره وذلك موجود في تاريخ ابن حيان وغيره وانما كانت الفتنة بعد ذلك الاعلام بينة والطريق واضح فلنرجع الى ما نحن بسبيله كانت سلطنة الاندلس في صدر الفتح على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها من سلاطين أفريقية واختلاف الولاة داع الى الاضطراب وعدم تأثل الاحوال وترتيب الضخامة في الدولة ولما دارت الاندلس لبني أمية وتوارثوا ممالكها وانقاد اليهم كل أبي فيها وأطاعهم كل عصي عظمت الدولة بالاندلس وكبرت الهمم وترتبت الاحوال وترتبت القواعد وكانوا صدرا من دولتهم يخطبون لانفسهم بأبناء الخلائف ثم خطبوا لانفسهم بالخلافة وملكوا من بر العدوة ما ضخمت به دولتهم وكانت قواعدهم اظهار الهيبة وتمكن الناموس من قلوب العالم ومراعاة أحوال الشرع في كل الامور وتعظيم العلماء والعمل بأقوالهم واحضارهم في مجالسهم واستشارتهم ولهم حكايات في تاريخ ابن حيان منها ما هو مذكور من توجه الحكم على خليفتهم أو على ابنه أو أحد حاشيته المختصين وانهم كانوا في نهاية من الانقياد الى الحق لهم أو عليهم و بذلك انضبط لهم أمر الجزيرة ولما أخروا هذا الناموس كان اول ما تهتك أمرهم ثم اضمحل وكانت ألقاب الاول منهم الامراء أبناء الخلائف ثم الخلفاء أمراء المؤمنين الى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه فاستبدت ملوك الممالك الاندلسية ببلادها وسموا بملوك الطوائف وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين وان لم يبق لهم خلافة ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين المجمع على امامتهم وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك حتى في الالقاب فآل أمرهم الى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا الى طبقات السلطنة العظمى وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة ولاجل تواثبهم على النعوت العباسية قال ابن رشيق القيرواني

مما يزهدني في أرض اندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها * كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

وكان عباد بن محمد بن عباد قد تلقب بالمعتضد واقتفى سيرة المعتضد العباسي أمير المؤمنين وتلقب ابنه محمد بن عباد بالمعتمد وكانت لبني عباد مملكة اشبيلية ثم اضاف اليها غيرها وكان خلفاء بني أمية يظهرون للناس في الاحيان على أبهة الخلافة وقانون لهم في ذلك معروف الى أن كانت الفتنة فازدرت العيون ذلك الناموس واستخفت به وقد كان بنو حمود من ولد ادريس العلوي الذين تواثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالاندلس يتعاظمون و يأخذون أنفسهم بما يأخذه خلفاء بني العباس وكانوا اذا احضرهم منشد المدح أو من

يحتاج الى الكلام بين ايديهم يتكلم من وراء حجاب والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة ولما حضر ابن مقانا الاشبونى أمام حاجب ادريس بن يحيى الحمودى الذى خطب له بالخلافة فى مالقة وأنشده قصيدته المشهورة النونية التى منها قوله

وكأن الشمس لما أشرقت * فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على بن حمود أمير المؤمنين

وبلغ فيها الى قوله

انظرونا نقتبس من نوركم * انه من نور رب العالمين

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال انظر كيف شئت وانبسط مع الشاعر وأحسن اليه ولما جاء ملوك الطوائف صاروا يتبسطون للخاصة وكثير من العامة ويظهرون مداراة الجند وعوام البلاد وكان أكثرهم يحاضر العلماء والادباء ويحب أن يشهر عنه ذلك عند مباديه فى الرياسة ومذ وقعت الفتنة بالاندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد عن امام الجماعة وصار فى كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ومرنوا على ذلك فصعب ضبطهم الى نظام واحد وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع الى أن انقادوا الى عبد المؤمن وبنيه وتلك القواعد فى رؤسهم كامنة والثوار فى المعاقل تثور وتروم الكرة الى أن ثار ابن هود وتلقب بالمتوكل ووجد القلوب منحرفة عن دولة بر العدوة مهيأة للاستبداد فملكها بأيسر محاولة مع الجهل المفرط وضعف الرأى وكان مع العامة كأنه صاحب شعوذة يمشى فى الاسواق ويضحك فى وجوههم ويبادرهم بالسؤال وجاء للناس منه مالم يعتادوه من سلطان فأعجب ذلك سفهاء الناس وعامتهم العمياء وكان كما قيل

أمور يضحك السفهاء منها * ويبكى من عواقبها الحليم

فآل ذلك الى تلف القواعد العظيمة وتملك الامصار الجليلة وخروجها من يد الاسلام والضابط فيما يقال فى شأن أهل الاندلس فى السلطان أنهم اذا وجدوا فارسا يبرع الفرسان او جوادا يبرع الاجواد تهافتوا فى نصرته ونصبوه ملكا من غير تدبير فى عاقبة الامر الام يؤل وبعد أن يكون الملك فى مملكة قد تورث وتدوولت ويكون فى تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع فى العدو وظهر منه كرم نفس للاجناد ومراعاة قدموه ملكا فى حصن من الحصون ورفضوا عيالهم وأولادهم ان كان لهم ذلك بكرسى الملك ولم يزالوا فى جهاد وتلاف أنفس حتى يظفر صاحبهم بطلبته وأهل المشرق أصوب وأيامهم فى مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذى يقضى باختلال القواعد وفساد الترتيبة وحل الاوضاع ونحن نمثل فى ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الاخيرة بالاندلس تمخضت عن رجل من حصن يقال له أرجونة ويعرف الرجل بابن الاحمر كان يكثر مغاورة العدو من حصنه وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة الى أن طار اسمه فى الاندلس وآل ذلك الى أن قدمه أهل حصنه على أنفسهم ثم نهض فملك قرطبة العظمى وملك اشبيلية وقتل ملكها الباجى وملك جيان أحصن بلد بالاندلس وأجله قدرا

المشرق والمغرب فى جزيرة الهند والحبش من ناحية الجنوب فعرض ما بين الشمال والجنوب فى النصف مما بين الجزائر العامرة واقصى عمران الصين وهو قبة الارض المعرفة بما ذكرنا ويكون العرض من خط الاستواء الى جزيرة تولى قريبا من ستين جزأ وذلك سدس دائرة الارض واذا ضرب هذا السدس الذى هو مقدار العرض فى النصف الذى هو مقدار الطول كان مقدار ما ظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سدس دائرة القمر وأما الاقاليم السبعة فاولها أرض بابل منه خراسان وفارس والأهواز والموصل وأرض الجبال له من البروج الحمل والقوس ومن الانجم السبعة المشترى والاقليم الثانى الهند والسند والسودان له من البروج الجدى ومن الانجم السبعة زحل والاقليم الثالث مكة والمدينة واليمن والطائف والحجاز وما بينهما له من البروج العقرب ومن الانجم السبعة الزهرة وهى سعد الفلك والاقليم الرابع مصر وأفريقية والبربر والاندلس وما بينهما له من البروج الجوزاء ومن الانجم السبعة عطارد والاقليم الخامس الشام والروم والجزيرة له من البروج الدلو ومن الانجم السبعة القمر والاقليم السادس الترك والخزر والديلم والصقالبة

في الامتناع وملك غرناطة ومالقة وسموه بامير المسلمين فهو الآن المشار اليه بالاندلس والمعتمد عليه * وأما قاعدة الوزارة بالاندلس فانها كانت في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك الى أن كانت ملوك الطوائف فكان الملك منهم لعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية وأنه كان نائبا عن خليفتهم يسمى بالحاجب ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به وهي موجودة في أمداح شعرائهم وتواريخهم وصار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص بهم وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين وأكثر ما يكون فاضلا في علم الادب وقد لا يكون كذلك بل عالما بأمور الملك خاصة * وأما الكتابة فهي على ضربين أعلاهما كاتب الرسائل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الاندلس وأشرف أسمائه الكاتب وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة وأهل الاندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الالسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه والكاتب الآخر كاتب الزمام هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ولا يكون بالاندلس وبر العدوة لا نصرانيا ولا يهوديا البتة اذ هذا الشغل نبيه يحتاج الى صاحبه عظماء الناس ووجوههم وصاحب الاشغال الخراجية في الاندلس أعظم من الوزير وأكثر أتباعا وأصحابا وأجدى منفعة فاليه تميل الاعناق ونحوه تمد الاكف والاعمال مضبوطة بالشهود والنظار ومع هذا ان تأثلت حاله واغتر بكثرة البناء والاكتساب نكب وصودر وهذا راجع الى تقلب الاحوال وكيفية السلطان * وأما خطة القضاء بالاندلس فهي أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بامور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي هذا وصفها في زمان بني أمية ومن سلك مسلكهم ولا سبيل أن يتسم بهذه السمة الا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة وان كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها الا مسدد خاصة وقاضي القضاة يقال له قاضي القضاة وقاضي الجماعة * وأما خطة الشرطة بالاندلس فانها مضبوطة الى الآن معروفة بهذه السمة ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان وذلك قليل ولا يكون الا في حضرة السلطان الاعظم وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر وكثير من الامور الشرعية راجع اليه قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي وكانت خطة القاضي أوقر وأتقى عندهم من ذلك * وأما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن وكأن صاحبها قاض والعادة فيه ان يمشي بنفسه راكبا على الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الاعوان لان الخبز عندهم معلوم الاوزان للربع من الدرهم رغيف على وزن معلوم وكذلك اللحم وفي ذلك من المصلحة ان يرسل المبتاع الصبي الصغير او الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الاوزان

الانجم السبعة الشمس ذكر حلس المنجم صاحب كتاب الزيج في النجوم عن خالد بن عبد الله المروزي وغيره وقد كانوا رصدوا الشمس لامير المؤمنين المأمون في برية سنجار من بلاد ديار ربيعة ان مقدار درجة واحدة من وجه الارض ستة وخمسون ميلا فضربوا مقدار درجة واحدة في ثلثمائة وستين فوجدوا دور منطقة كرة الارض المحيطة بالبر والبحر عشرين ألف ميل ومائة وستين ميلا ثم ضربوا دور الارض في سبعة فاجتمع مائة ألف ميل وأحد واربعون ألف ميل ومائة وعشرون ميلا فقسموا ذلك على اثنين وعشرين وخرج القسم الذي هو مقدار قطر الارض ستة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ونصف عشر بالتقريب ونصف قطر الارض ثلاثة آلاف ميل ومائتا ميل وسبعة اميال وست عشرة دقيقة وثلثا ثانية يكون ربع ميل وربع عشر ميل والميل أربع آلاف ذراع بالاسود وهي الذراع التي وضعها امير المؤمنين المأمون للثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل والذراع مائة وعشرون أصبعا (قال المسعودي) وقد ذكر بطليموس في الكتاب المعروف بجغرافيا

وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزار ان يبيع باكثر او دون ماحد له المحتسب في الورقة ولا يكاد تخفى خيانته فان المحتسب يدس عليه صبيا او جارية يبتاع احدهما منه ثم يختبر الوزن المحتسب فان وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس فلا تسأل عما يلقى وان كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الاسواق نفي من البلد ولهم في اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لانها عندهم تدخل في جميع المتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره * واما خطة الطواف بالليل وما يقابل من المغرب أصحاب ارباع في المشرق فانهم يعرفون في الاندلس بالدرّابين لان بلاد الاندلس لها دروب باغلاق تغلق بعد العتمة ولكل زقاق بائت فيه له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معدّ وذلك لشطارة عامّتها وكثرة شرّهم واعيائهم في أمور التلصص الى ان يظهروا على المباني المشيدة ويفتحوا الاغلاق الصعبة ويقتلوا صاحب الدار خوف ان يقرّ عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ولا تكاد في الاندلس تخلو من سماع دار فلان دخلت البارحة وفلان ذبحه اللصوص على فراشه وهذا يرجع التكثير منه والتقليل الى شدّة الوالي ولينه ومع افراطه في الشدّة وكون سيفه يقطر دما فان ذلك لا يعدم وقد آل الحال عندهم الى ان قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم وما اشبه ذلك ولم ينته اللصوص * واما قواعد أهل الاندلس في ديانتهم فانها تختلف بحسب الاوقات والنظر الى السلاطين ولكن الاغلب عندهم اقامة الحدود وانكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وانكاره ان تهاون فيه أصحاب السلطان وقد يلج السلطان في شئ من ذلك ولا ينكره فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبؤن بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم وهذا كثير في اخبارهم واما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للاعمال اذا لم يعدلوا فكل يوم * واما طريقة الفقراء على مذهب اهل الشرق في الدورة التي تكسل عن الكدّ وتخرج الوجوه للطلب في الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية واذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن ان يتصدّقوا عليه فلا تجد بالاندلس سائلا الا ان يكون صاحب عذر * واما حال اهل الاندلس في فنون العلوم فتحقيق الانصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم احرص الناس على التميز فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه ان يرى فارغا عالة على الناس لان هذا عندهم في نهاية القبح والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك ومع هذا فليس لأهل الاندلس مدارس تعينهم على طلب العلم بل يقرؤن جميع العلوم في المساجد بأجرة فهم يقرؤن لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظا عظيما عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة اوحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان أو يقتله السلطان تقرّبا لقلوب العامة وكثيرا ما يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشان اذا وجدت

صفة الارض ومدنها وجبالها وما فيها من البحار والجزائر والانهار والعيون ووصف المدن المسكونة والمواضع العامرة وان عددها أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة في عصره وسماها مدينة مدينة في اقليم اقليم وذكر في هذا الكتاب الوان جبال الدنيا من الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك من الالوان وان عددها مائتا جبل ونيف وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر وذكر الفيلسوف هذا ان عدد البحار المحيطة بالارض خمسة ابحر وذكر ما فيها من الجزائر والعامر منها وغير العامر وما اشتهر من الجزائر دون مالم يشتهر وذكر ان في البحر الحبشي جزائر متصلة نحوا من ألف جزيرة يقال لها الدميجات عامرة كلها وذكر بطليموس في جغرافيا ان ابتداء بحر مصر من الروم الى بحر الاصنام النحاس وان جميع العيون الكبار التي تنبع من الارض مائتا عين وثلاثون عينا دون ماعداها من الصغار وان عدد الانهار الكبار الجارية في الاقاليم سبعة على حسب ما قدمناه في عدة الاقاليم وكل اقليم سعته تسعمائة فرسخ في مثلها وفي البحار ماهو معمور بالحيوان ومنها ماليس بمعمور وهو أوقيانوس البحر المحيط وسنأتي فيما يرد من هذا الكتاب على ذكر مجمل في تفصيل وبذلك

و بذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم اول نهوضه وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ماذكره الحجاري والله اعلم وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة وللفقه رونق ووجاهة ولامذهب لهم الامذهب مالك وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى ان المسلمين كانوا يسمون الامير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لانها عندهم ارفع السمات * وعلم الاصول عندهم متوسط الحال والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى انهم في هذا العصر فيه كاصحاب عصر الخليل وسيبويه لايزداد مع هرم الزمان الاجدة وهم كثيروالبحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه وكل عالم في أي علم لايكون متمكنا من علم النحو بحيث لاتخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولاسالم من الازدراء مع ان كلام اهل الاندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه اوضاع العربية حتى لوان شخصا من العرب سمع كلام الشلوبيني ابي علي المشار اليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه والخاص منهم اذا تكلم بالاعراب واخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه ولكن ذلك مراعى عندهم في القراآت والمخاطبات في الرسائل وعلم الادب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم وبه يتقرب من مجالس ملوكهم واعلامهم ومن لايكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل * والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ ووظائف والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ويوقع لهم بالصلات على اقدارهم الا ان يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما ولكن هذا الغالب واذا كان الشخص بالاندلس نحويا اوشاعرا فانه يعظم في نفسه لامحالة ويسخف ويظهر العجب عادة قد جبلوا عليها * واما زي اهل الاندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرق الاندلس فان اهل غربها لاتكاد ترى فيهم قاضيا ولافقيها مشارا اليه الاوهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب اكبر عالم بمرسية حضرة السلطان في ذلك الاوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشيبه قد غلب على سواد شعره واما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي ملك الاندلس في عصرنا رأيته في جميع احواله ببلاد الاندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الاحمر الذي معظم الاندلس الآن في يده وكثيرا ما يتزيا سلاطينهم واجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم فسلاحهم كسلاحهم واقبيتهم من الاشكرلاط وغيره كاقبيتهم وكذلك اعلامهم وسروجهم * ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطعن ولايعرفون الدبابيس ولاقسي العرب بل يعدون قسي الافرنج للمحاصرات في البلاد او تكون للرجالة عند المصافة للحرب وكثيرا ماتصبر الخيل عليهم أوتمهلهم لان يؤثروها ولاتجد في خواص الاندلس واكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان الا انه لايضعه على رأسه منهم الا الاشياخ

البحار ووصفها وهذه البحار كلها في كتاب جغرافيا بانواع من الاصباغ مختلفة المقادير في الصورة منها ماهو على صورة الطيلسان ومنها ماهو على صورة الشابورة ومنها مصراني الشكل ومنها مدور ومنها مثلث الأ أن أسماءها في هذا الكتاب باليونانية متعذر فهمها وان قطر الارض الفان ومائة فرسخ تقدير كل فرسخ ستة عشر ألف ذراع والذي محيطه باسفل دائرة النجوم هو فلك القمر فانه ألف فرسخ وخمسة وعشرون ألفا وستمائة وستون فرسخا وان قطر الارض من حد راس الحمل الى الميزان أربعون ألف فرسخ بتقدير هذه الفراسخ وتقدير هذه الافلاك تسعة فاولها وهو اصغرها واقربها الى الارض للقمر والثاني لعطارد والثالث للزهرة والرابع للشمس والخامس للمريخ والسادس للمشتري والسابع لزحل والثامن للكواكب الثابتة والتاسع للبروج وهيئة هذه الافلاك هيئة الاكر بعضها في جوف بعض ففلك البروج يسمى فلك الكل وبه يكون الليل والنهار لانه يدير الشمس والقمر وسائر الكواكب من المشرق الى المغرب في كل يوم وليلة دورة واحدة على قطبين ثابتين أحدهما مما يلي الشمال وهو قطب بنات نعش والآخر مما يلي الجنوب وهو قطب سهيل وليس للبروج

المعظمون وغفائر الصوف كثيراما يلبسونها حمرا اوخضرا والصفر مخصوصة باليهود ولا سبيل ليهودى ان يتعمم البتة والذؤابة لا يرخيها الا العالم ولا يصرفونها بين الاكتاف وانما يسدلونها من تحت الاذن اليسرى وهذه الاوضاع التى بالمشرق فى العمائم لا يعرفها أهل الاندلس وان رأوا فى رأس مشرقى داخل الى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ولا يأخذون أنفسهم بتعلمها لانهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم وكذلك فى تفصيل الثياب * وأهل الاندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم وفيهم من لا يكون عنده الا مايقوته يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها * وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون للبخل ولهم مروآت على عادة بلادهم لوفطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل فأوينا اليها وكنا على حال ترقب من السلطان وخلوّ من الرفاهية فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها من غير معرفة متقدّمة فقال لنا ان كان عندكم ما أشترى لكم فحما تسخنون به فانى أمضى فى حوائجكم وأجعل عيالى يقومون بشأنكم فأعطيناه ما اشترى به فحما فأضرم نار الفحم فأتى ابن له صغير ليصطلى فضربه فقال له والدى لم ضربته فقال يتعلم استغنام أموال الناس والضجر للبرد من الصغر ثم لما جاء النوم قال لابنه أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدها على ثيابه فدفع كساءه الىّ ثم لما قمنا عند الصباح وجدت الصبىّ منتبها ويده فى الكساء فقلت ذلك لوالدى فقال هذه مروآت أهل الاندلس وهذا احتياطهم أعطاك الكساء وفضلك على نفسه ثم أفكر فى انك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أولص فلم يطب له منام حتى يأخذ كساءه خوفا من انفصالك بها وهو نائم وعلى هذا الشئ الحقير فقس الشئ الجليل انتهى كلام ابن سعيد فى المغرب باختصار يسير ولله درّه فانه أبدع فى هذا الكتاب ما شاء وقسمه الى أقسام منها كتاب وشى الطرس فى حلى جزيرة الاندلس وهو ينقسم الى أربعة كتب الكتاب الاول كتاب حلى العرس فى حلى غرب الاندلس الكتاب الثانى كتاب الشفاة اللعس فى حلى موسطة الاندلس الكتاب الثالث كتاب الانس فى حلى شرق الاندلس الكتاب الرابع كتاب لحظات المريب فى ذكر ما حماه من الاندلس عباد الصليب والقسم الثانى كتاب الالحان المسلية فى حلى جزيرة صقلية وهو أيضا ذو أنواع والقسم الثالث كتاب الغاية الاخيرة فى حلى الارض الكبيرة وهو أيضا ذو أقسام وصوّر رحمه الله تعالى أجزاء الاندلس فى كتاب وشى الطرس وقال أيضا ان كلا من شرق الاندلس وغربها ووسطها يقرب فى قدر المساحة بعضه من بعض وليس فيها جزء يجاوز طوله عشرة أيام ليصدق التثليث فى القسمة وهذا دون ما بقى بأيدى النصارى وقدم رحمه الله كتاب حلى العرس فى حلى غرب الاندلس لكون قرطبة قطب الخلافة المروانية واشبيلية التى ما فى الاندلس أجمل منها فيه وقسمه الى سبعة كتب كل كتاب منها يحتوى على مملكة منحازة عن الاخرى الكتاب الاول كتاب الحلة المذهبة فى حلى مملكة قرطبة الكتاب الثانى كتاب

غيرهذا الفلك وانماهى مواضع لقبت بهذه الاسماء لتعرف مواضع الكواكب من الفلك الكلى فيجب أن تكون الفروج تضيق من ناحية التطبين وتتسع وسط الكرة والخط القاطع للكرة نصفين واحد وانما سمى دائرة معدل النهار لان الشمس اذا صارت عليها استوى الليل والنهار فى جميع البلدان فما كان من الفلك آخذا من الجنوب الى الشمال يسمى العرض وما كان آخذا من المشرق الى المغرب يسمى الطول والافلاك مستديرة محيطة بالعالم وهى تدور على مركز الارض والارض فى وسطها مثل النقطة فى وسط الدائرة وهى تسعة أفلاك فاقربها من الارض فلك القمر وفوقه فلك عطارد وفوق ذلك فلك الزهرة ثم فلك الشمس والشمس متوسطة الافلاك السبعة وفوقها فلك المريخ وفوقه فلك المشترى وفوق ذلك فلك زحل وفى كل فلك من هذه الافلاك السبعة كوكب واحد فقط وفوق فلك زحل الفلك الثامن والفلك التاسع وهو أرفع وأعظم جسما وهو الفلك الاعظم محيطا بالافلاك التى دونه مما سمينا وبالطبائع الاربع وبجميع الخليقة وليس فيه كوكب ودوره من المشرق الى المغرب فى كل يوم دورة واحدة تامة ويدير بدورانه ماتحته من الافلاك المتقدم وصفها وأما الافلاك السبعة التى

الذهبية الاصيلية فى حلى المملكة الاشبيلية الكتاب الثالث كتاب خدع الممالقة فى حلى مملكة مالقة الكتاب الرابع كتاب الفردوس فى حلى مملكة بطليوس الكتاب الخامس كتاب الخلب فى حلى مملكة شلب الكتاب السادس كتاب الديباجة فى حلى مملكة باجة الكتاب السابع كتاب الرياض المصونة فى حلى مملكة أشبونة وقد ذكر رحمه الله تعالى فى كل قسم ما يليق به وصوّر أجزاءه على ما ينبغى فالله يجازيه خيرا والكلام فى الاندلس طويل عريض * وقال بعض المؤرخين طول الاندلس ثلاثون يوما وعرضها تسعة أيام ويشقها أربعون نهرا كبارا وبها من العيون والحمامات والمعادن ما لا يحصى وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلثمائة من المتوسطة وفيها من الحصون والقرى والبروج ما لا يحصى كثرة حتى قيل ان عدد القرى التى على نهر اشبيلية اثنا عشر ألف قرية وليس فى معمور الارض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه الا بالاندلس ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها فرسخين دون ماء أصلا وحيثما سار من الاقطار يجد الحوانيت فى الفلوات والصحارى والاودية ورؤس الجبال لبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت وغير ذلك من ضروب الاطعمة * وذكر صاحب الجغرافيا ان جزيرة الاندلس مسيرة أربعين يوما طولا فى ثمانية عشر يوما عرضا وهو مخالف لما سبق * وقال ابن سيده أخذت الاندلس فى عرض الاقليمين الخامس والسادس من البحر الشامى فى الجنوب الى البحر المحيط فى الشمال وبها من الجبال سبعة وثمانون جبلا انتهى ولبعضهم

لله اندلس وما جمعت بها * من كل ما ضمت لها الاهواء
فكأنما تلك الديار كواكب * وكأنما تلك البقاع سماء
وبكل قطر جدول فى جنة * ولعت به الافياء والانداء

وقال غيره

فى أرض اندلس تلتذ نعماء * ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع * ولا تقوم بحق الانس صهباء
واين يعدل عن ارض تحض بها * على الشهادة ازواج وابناء
واين يعدل عن أرض تحث بها * على المدامة امواه وأفياء
وكيف لا تبهج الابصار رؤيتها * وكل ارض بها فى الوشى صنعاء
انهارها فضة والمسك تربتها * والخز روضتها والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به * من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا * ولا انتشار لآلى الطل أنداء
وانما ارج الندّ استثار بها * فى ماء ورد فطابت منه ارجاء
واين يبلغ منها ما اصنفه * وكيف يحوى الذى حازته احصاء
قد ميزت من جهات الارض ثم بدت * فريدة وتولى ميزها الماء
دارت عليها نطاقا ابحر خفقت * وجدا بها اذ تبدت وهى حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب * والطير يشدو وللاغصان اصغاء

قدمنا ذكرها فانها تدور من المغرب الى المشرق وللاوائل فيما ذكرناه جميع طول الخطب فيها والكواكب المرئية التى نشاهدها وسائر الكواكب فى الفلك الثامن وهو يدور على قطبين غير قطبى الفلك الاعظم المتقدم ذكره وزعموا ان الدليل على ان حركة فلك البروج غير حركة الافلاك هو ان البروج الاثنى عشر يتلو بعضها بعضا فى مسيرها ولا تنتقل عن اماكنها ولا تتغير حركتها فى طلوعها وغروبها وان الكواكب السبعة لكل واحد منها حركة خلاف حركة صاحبه ولها تفاوت فى حركتها فربما اسرع الكوكب فى حركته ومسيره وربما أخذ فى الجنوب وربما أخذ فى الشمال وحدّ الفلك عندهم انه نهاية لما تصير اليه الطبائع علوا وسفلا وحده من جهة الطبائع انه شكل مستدير وهو اوسع الاشكال بالاشكال كلها واما مقادير حركة هذه الكواكب فى افلاكها فمقام القمر فى كل برج يومان ونصف ونقطع الفلك فى شهر ومقام الشمس فى كل برج شهر ومقام عطارد فى كل برج خمسة عشر يوما ومقام المريخ فى كل برج خمسة واربعون يوما ومقام المشترى فى كل برج سنة ومقام زحل فى كل برج ثلاثين شهرا * زعم بطليموس صاحب كتاب المجسطى ان استدارة الارض كلها جبالها وبحارها اربعة

فيها خلعت ع[illegible]ى مابها عوض * فهى الرياض وكل الارض صحراء

وقد تقدمت هذه القصيدة قال آخر

حبذا اند[illegible] من بلد * لم تزل تنتج لى كل سرور
طائر شاد وظل وارف * ومياه سائحات وقصور

وقال آخر

ياحسن اندلس وما جمعت لنا * فيها من الاوطار والاوطان
تلك الجزيرة لست أنسى حسنها * بتعاقب الاحيان والازمان
نسج الربيع نباتها من سندس * موشية ببدائع الالوان
وغدا النسيم بها عليلا هائما * بربوعها وتلاطم البحران
ياحسنها والطل ينثر فوقها * دررا خلال الورد والريحان
وسواعد الانهار قد مدّت الى * ندمائها بشقائق النعمان
وتجاوبت فيها شوادى طيرها * والتفت الاغصان بالاغصان
مازرتها الاوحيانى بها * حدق البهار وأنمل السوسان
من بعدها ما أعجبتنى بلدة * مع ماحللت به من البلدان

وحكى بعضهم أن بالجامع من مدينة اقليش بلاط فيه جوائز منشورة مربعة مستوية الاطراف طول الجائزة منها مائة شبر واحد عشر شبرا * وفى الاندلس جبل من شرب من مائه كثر عليه الاحتلام من غير ارادة ولا تفكر وفيها غير ذلك مما يطول ذكره والله اعلم ولنمسك العنان فى هذا الباب فان بحر الاندلس طويل مديد وربما كررنا الكلام لارتباط بعضه ببعض أو لنقل صاحبه المروى عنه او لاختلاف مّا أو غير ذلك من غرض سديد

(الباب الثانى)

فى القاء الاندلس للمسلمين بالقياد وفتحها على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وصيرورتها ميدانا لسبق الجياد ومحط رحل الارتياء والارتياد وما يتبع ذلك من خبر حصل بازديانه ازدياد ونبا وصل اليه اعتيام وتقرر بمثله اعتياد

اعلم انه لما قضى الله سبحانه بتحقيق قول رسوله صلى الله عليه وسلم زويت لى مشارق الارض ومغاربها وسيبلغ ملك امتى ما زوى لى منها وقع الخلاف بين لذريق ملك القوط وبين ملك سبتة الذى على مجاز الزقاق فكان ما يذكر من فتح الاندلس على يد طارق وطريف ومولاهما الامير موسى بن نصير رحم الله الجميع * وذكر الحجارى وابن حيان وغيرهما ان اول من دخل جزيرة الاندلس من المسلمين برسم الجهاد طريف البربرى مولى موسى بن نصير الذى ينسب اليه جزيرة طريف التى على المجاز غزاها بمعونة صاحب سبتة يليان النصرانى لحقده على لذريق صاحب الاندلس وكان فى مائة فارس وأربعمائة راجل جاز البحر فى اربعة مراكب فى شهر رمضان سنة احدى وتسعين وانصرف بغنيمة جليلة فعقد موسى بن نصير صاحب المغرب لمولاه طارق بن زياد على الاندلس ووجهه مع يليان صاحب سبتة انتهى * وسيأتى فى أمر طريف وغيره ما يخالف هذا السياق وهى اقوال * وقال ابن حيان ان اول اسباب فتح

وعشرون الف ميل وان قطرها وهو عرضها وعمقها تسعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلا وانهم انما استدركوا ذلك بأنهم اخذوا ارتفاع القطب الشمالى فى مدينتين هما خط واحد من خط الاستواء مثل مدينة تدمر التى فى البرية بين العراق والشام ومثل مدينة الرقة فوجدوا ارتفاع القطب فى مدينة الرقة خمسة وثلاثين جزأ وثلثا ووجدوا ارتفاع القطب فى مدينة تدمر اربعة وثمانين جزأ وثلث جزء ومسحوا ما بين الرقة وتدمر فوجدوه سبعة وثلاثين ميلا فالظاهر من الفلك سبعة وستون ميلا من الارض والفلك ثلثمائة وستون جزأ لعلل ذكروها يبعد علينا ايرادها فى هذا الموضع وهذه قسمة صحيحة عندهم لانهم وجدوا الفلك قد اقتسمته البروج الاثنا عشر وان الشمس تقطع كل برج فى شهر وتقطع البروج كلها فى ثلثمائة وستين يوما وان الفلك مستدير يدور بمحورين وقطبين وانهما بمنزلة محورى النجار والخراط الذى يخرط الاكرة والقصاع وغيرها من الآلات الخشب وان من كان مسكنه وسط الارضين وعند خط الاستواء استوت ساعات ليله ونهاره وسائر الدهور ورأى هذين المحورين اعنى القطب الشمالى والقطب الجنوبى فاما اهل البلدان التى ملت الى ناحية الاندلس

الاندلس كان أن ولى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ولى عمه عبد العزيز على افريقية وما خلفها سنة ثمان وثمانين فخرج فى نفر قليل من المطوّعة فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا وفعل ذلك فى أفريقية وجعل على مقدّمته مولاه طارقا فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهى قصبة بلادهم وام مدائنهم فحصرها حتى فتحها واسلم اهلها ولم تكن فتحت قبله وقيل بل فتحت ثم استغلقت * وذكر ابن حيان ايضا استصحاب سبتة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يليان النصرانى وانه فى اثناء ذلك وقع بينه وبين لذريق صاحب الاندلس ثم سرد ما يأتى ذكره * وقال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله وحديث الفتح وما من الله به على الاسلام من المنح واخبار ما افاء الله من الخير على موسى ابن نصير وكتب من جهاد لطارق بن زياد مملول قصاص واوراق وحديث افول واشراق وارعاد وابراق وعظم امتشاش وآلة معلقة فى دكان قشاش انتهى * وقال فى المغرب طارق بن زياد من افريقية * وقال ابن بشكوال انه طارق بن عمرو وفتح جزيرة الاندلس ودوّخها واليه ينسب جبل طارق الذى يعرفه العامة بجبل الفتح فى قبلة الجزيرة الخضراء ورحل مع سيده بعد فتح الاندلس الى الشام وانقطع خبره انتهى * وقال ايضا ان طارقا كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه واما المعارف السلطانية فيكفيه ولاية سلطنة الاندلس وما فتح فيها من البلاد الى ان وصل سيده موسى بن نصير * ومن تاريخ ابن بشكوال احتل طارق بالجبل المنسوب اليه يوم الاثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنتين وتسعين فى اثنى عشر الفا غير اثنى عشر رجلا من البربر ولم يكن فيهم من العرب الاشئ يسير وانه لما ركب البحر راى وهو نائم النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا طارق تقدّم لشأنك ونظر اليه والى اصحابه قد دخلوا الاندلس قدّامه فهب من نومه مستبشرا وبشر اصحابه وثابت نفسه ببشراه ولم يشك فى الظفر فخرج من الجبل واقتحم بسيط البلد شانا للغارة واصاب عجوزا من اهل الجزيرة فقالت له فى بعض قولها انه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن امير يدخل الى بلدهم هذا فيغلب عليه ويصف من نعته انه ضخم الهامة فأنت كذلك ومنها ان فى كتفه الايسر شامة عليها شعر فان كانت فيك فأنت هو فكشف ثوبه فاذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرت فاستبشر بذلك ومن معه * ومن تاريخ ابن حيان لما حرض يليان النصرانى صاحب سبتة للامر الذى وقع بينه وبين صاحب الاندلس موسى بن نصير على غزو الاندلس جهز لها مولاه طارقا المذكور فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر فى اربع سفن وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم السبت فى شعبان سنة ٩٢ ولم تزل المراكب تعود حتى توافى جميع اصحابه عنده بالجبل قال ووقع على لذريق صاحب الاندلس الخبر وان يليان السبب فيه وكان يومئذ غازيا فى جهة البشكنس فبادر فى جموعه وهم نحو مائة الف ذوى عدّة وعدد وكتب طارق الى موسى بأنه قد زحف عليه لذريق بما لا طاقة له به وكان عمل من السفن عدّة فجهز فيها خمسة آلاف من المسلمين فكملوا بمن تقدّم اثنى عشر الفا ومعهم يليان صاحب

الشمال فانهم يرون القطب الشمالى وبنات نعش ولا يرون القطب الجنوبى ولا الكواكب التى هى قريبة منه وكذلك لا يرى الكوكب المعروف بسهيل بناحية خراسان ويرى فى العراق فى السنة اياما ولا تقع عين جمل من الجمال عليه الاهلك على حسب ماذكرناه وماذكر الناس من العلة فى ذلك فى موت هذا النوع من الحيوان وأما فى البلدان الجنوبية فانه يرى فى السنة كلها وقد تنازع طوائف الفلكيين وأصحاب النجوم فى هذين المحورين اللذين يعتمد عليهما الفلك اساكنان هما أم متحركان فذهب الاكثر منهم الى انهما غير متحركين وقد أتينا على ما يلزم كل فريق منهم فى بيان هذين المحورين أمن جنس الافلاك هما أم من غير ذلك فيما سلف من كتبنا وقد تنوزع فى شكل البحار فذهب الاكثر من الفلاسفة المتقدمين من الهند وحكماء اليونانيين الا من خالفهم وذهب الى قول الشرعيين ان البحر مستدير على مواضع من الارض واستدلوا على صحة ذلك بدلائل كثيرة منها اذا لججت فيه غابت عنك الارض والجبال شيأ بعد شئ حتى يغيب ذلك كله ولا ترى شيأ من شوامخ الجبال واذا أقبلت ايضا نحو الساحل ظهرت تلك الجبال شيأ بعد شئ وظهرت الاشجار والارض وهذا

سيئة فى حشده يدلهم على العورات ويتجسس لهم الاخبار واقبل نحوهم لذريق ومعه خيار العجم واملاكها وفرسانها وقلوبهم عليه فتلاقوا فيما بينهم وقالوا ان هذا الخبيث غلب على سلطاننا وليس من بيت الملك وانما كان من اتباعنا ولسنا نعدم من سيرته خبالا واضطرابا وهؤلاء القوم الذين طرقوا لاحاجة لهم فى ايطان بلدنا وانما مرادهم أن يملؤا أيديهم من الغنائم ويخرجوا عنا فهلم فلننهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم فلعلهم يكفونه امره فاذا هم انصرفوا عنا أقعدنا فى ملكنا من يستحقه فاجمعوا على ذلك اه * وقال ابن خلدون بعد ذكره ان القوطيين كان لهم ملك الاندلس وان ملكهم لعهد الفتح يسمى لذريق مانصه وكانت لهم خطوة وراء البحر فى هذه العدوة الجنوبية خطوها من فرضة المجاز بطنجة ومن زقاق البحر الى بلاد البربر واستعبدوهم وكان ملك البربر بذلك القطر الذى هو اليوم جبال غمارة يسمى يليان فكان يدين بطاعتهم وبملتهم وموسى بن نصير أمير الغرب اذ ذاك عامل على افريقية من قبل الوليد بن عبد الملك ومنزله بالقيروان وكان قد أغزى لذلك العهد عساكر المسلمين بلاد المغرب الاقصى ودوّخ أقطاره وأثخن فى جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق واستنزل يليان لطاعة الاسلام وخلف مولاه طارق بن زياد الليثى واليا بطنجة وكان يليان ينقم على لذريق ملك القوط لعهده بالاندلس فعلة فعلها زعموا بابنته الناشئة فى داره على عادتهم فى بنات بطارقتهم فغضب لذلك وأجاز الى لذريق وأخذ ابنته منه ثم لحق بطارق فكشف للعرب عورة القوط ودلهم على عورة فيهم أمكنت طارقا فيها الفرصة فانتهزها لوقته وأجاز البحر سنة ثنتين وتسعين من الهجرة باذن أميره موسى بن نصير فى نحو ثلثمائة من العرب واحتشد معهم من البربر زهاء عشرة آلاف فصيرهما عسكرين أحدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمى جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعى ونزل بمكان مدينة طريف فسمى به وأداروا الاسوار على انفسهم للتحصن وبلغ الخبر الى لذريق فنهض اليهم يجر أمم الاعاجم واهل ملة النصرانية فى زهاء اربعين ألفا وزحفوا اليه فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم اموال اهل الكفر ورقابهم وكتب طارق الى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم فحركته الغيرة وكتب الى طارق يتوعده ان توغل بغير اذنه ويأمره ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج ومعه حبيب بن منده الفهرى ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فى عسكر ضخم من وجوه العرب الموالى وعرفاء البربر ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الى الاندلس وتلقاه طارق فانقاد واتبع وأتم موسى الفتح وتوغل فى الاندلس الى برشلونة فى جهة الشرق وأربونة فى الجوف وصنم قادس فى الغرب ودوّخ اقطارها وجمع غنائمها وأجمع ان يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز الى الشام دروبه ودروب الاندلس ويخوض اليه ما بينهما من أمم الاعاجم النصرانية مجاهدا فيهم مستلحما لهم الى ان يلحق بدار الخلافة ونمى الخبر الى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى ان ماهمّ به موسى غرر بالمسلمين فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسرّ الى سفيره ان يرجع بالمسلمين ان لم يرجع وكتب له بذلك عهده ففت ذلك فى عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد أن أنزل

جبل دباوند بين بلد الرى وطبرستان يرى من مائة فرسخ لعلوه وذهابه فى الجو ويرتفع فى اعاليه الدخان والثلوج مترادفة عليه خالية أعاليه منها ويخرج من اسفله نهر كثير الماء نهر اصفر كبريتى ذهبى اللون مسافة الصعود عليه فى نحو ثلاثة أيام بلياليها وان من علاه وصار فى قلته وجد مساحة رأس القلة نحو ألف ذراع فى مثل ذلك وهى ترى فى رأى العين من أسفل نحو القبة المخروطة وان فى هذه المساحة فى أعاليه رملا تغوص فيه الاقدام أحمر وان هذه القبة لا يلحقها شئ من الوحش ولا من الطير لشدة الرياح وسموّها فى الهواء وشدة البرد وان فى أعاليه نحوا من ثلاثين ثقبا يخرج منها الدخان الكبريتى العظيم ويخرج مع ذلك دوى عظيم كأشد ما يكون من الرعد وذلك صوت تلهب النيران وربما يحمل من غرر بنفسه وصعد الى أعاليه من أفواه هذه الثقوب كبريتا أصفر كأنه الذهب يقع فى أنواع الصنعة والكيمياء وغير ذلك من الوجوه وان من علاه يرى ماحوله من الجبال الشامخة كأنها رواب وتلال لعلوه عليها وبين هذا الجبل وبحر طبرستان فى المسافة نحو من عشرين فرسخا والمراكب اذا لججت فى هذا البحر غاب عنها جبل دباوند فلم يره أحد فاذا صاروا فى هذا البحر على

المرابطة والحامية بثغورها وأنزل ابنه عبد العزيز بها لسدها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار امارة واحتل موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين وارتحل الى المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل والظهر يقال ان من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي وولى على أفريقية ابنه عبد الله وقدم على سليمان بن عبد الملك فسخطه ونكبه وثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز باغراء سليمان فقتلوه لسنتين من ولايته وكان خيرا فاضلا وافتتح فى ولايته مدائن كثيرة * وولى من بعده أيوب ابن حبيب اللخمى وهو ابن اخت موسى بن نصير فولى عليها ستة اشهر ثم تتابعت ولاة العرب على الاندلس تارة من قبل الخليفة وتارة من قبل عامله بالقيروان وأثخنوا فى أمم الكفر وافتتحوا برشلونة من جهة المشرق وحصون قشتالة وبسائطها من جهة الجوف وانقرضت امم القوط وأوى الجلالقة ومن بقى من أمم العجم الى جبال قشتالة وأربونة وأفواه الدروب فتحصنوا بها وأجازت عساكر المسلمين ماوراء برشلونة من دروب الجزيرة حتى احتلوا البسائط وراءها وتوغلوا فى بلاد الفرنجة وعصفت ريح الاسلام بامم الكفر من كل جهة وربما كان بين جنود الاندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجد للعدو بعض الكرة فرجع الافرنج ما كانوا غلبوهم عليه من بلاد برشلونة لعهد ثمانين سنة من لدن فتحها واستمر الامر على ذلك وكان محمد ابن يزيد عامل افريقية لسليمان بن عبد الملك لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الى الاندلس الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفى فقدم الاندلس وعزل أيوب بن حبيب وولى سنتين وثمانية أشهر ثم بعث عمر بن عبد العزيز على الاندلس السمح بن مالك الخولانى على راس المائة من الهجرة وأمره أن يخمس أرض الاندلس فخمسها وبنى قنطرة قرطبة واستشهد غازيا بأرض الفرنجة سنة ثنتين ومائة فقدم أهل الاندلس عليهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الى أن قدم عنبسة بن سحيم الكلبى من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل افريقية فقدمها فى صفر سنة ثلاث ومائة فاستقام أمر الاندلس وغزا الفرنجة وتوغل فى بلادهم واستشهد سنة سبع ومائة لاربع سنين وأربعة أشهر ثم تتابعت ولاة الاندلس من قبل أمراء افريقية فكان أولهم يحيى بن سلمة الكلبى أنفذه بشر بن صفوان الكلبى والى افريقية لما استدعى منه أهل الاندلس واليا بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة سبع وأقام فى ولايتها سنتين ونصفا ولم يغز وقدم اليها عثمان بن أبى نسعة اللخمى واليا من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى صاحب افريقية وعزله لخمسة أشهر بحذيفة بن الاحوص القيسى فوافاها سنة عشر وعزل قريبا يقال لسنة من ولايته واختلف هل تقدمه عثمان أو هو تقدم عثمان ثم ولى بعده الهيثم بن عبيد الكلابى من قبل عبيدة بن عبد الرحمن أيضا قدم فى المحرم سنة احدى عشرة وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفى سنة ثلاث عشرة ومائة لسنتين من ولايته وقدم بعده محمد بن عبد الله الاشجعى فولى شهرين ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب افريقية فدخلها سنة ثلاث عشرة وغزا الافرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان سنة أربع عشرة فى موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة وكانت ولايته سنة وثمانية أشهر ثم ولى عبد الملك بن قطن الفهرى وقدم فى

نحو من مائة فرسخ ودنوا من جبال طبرستان رأوا اليسير من أعالى هذا الجبل فكلما قربوا من هذا الساحل ظهر لهم وهذا دليل على ماذهبوا اليه من كرية ماء البحر وانه مستدير الشكل وكذلك من يكون فى بحر الروم الذى هو بحر الشام يرى الجبل الاقرع وهو جبل لا يدرك علوه مطل على بلدة انطاكية واللاذقية وطرابلس وجزيرة قبرس وغيرها من بلاد الروم فيغيب عن ابصار من فى المراكب ولا يخفى عنهم فى المسير فى البحر فى المواضع التى يرى منها وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جبل دباوند وما قال الفرس فى ذلك قال الضحاك ذو الافواه ومر من اعاليه بالحديد هذه النار التى فى أعالى هذا الجبل اطم عظيمة من آطام الارض وعجائبها وقد تكلم الناس فى بعد الارض فذكر الاكثر ان من مركز الارض الى ما ينتهى اليه الهواء والنار مائة ألف وثمانية عشر ألف ميل وأما القمر فان الارض أعظم منه بتسع وثلاثين مرة والارض أعظم من عطارد بثلاث وعشرين ألف مرة والارض أعظم من الزهرة بأربع وعشرين ألف مرة والشمس أعظم من الارض بمائة وسبعين مرة وربع وثمن وأعظم من القمر بألف وستمائة وأربع وأربعين مرة والارض كلها نصف عشر ثمن من الشمس وقطر

رمضان سنة أربع عشرة فولى سنتين وقال الواقدى أربع سنين وكان ظلوما جائرا فى حكومته وغزا أرض البشكنش سنة خمس عشرة ومائة فأوقع بهم وغنم ثم عزل فى رمضان سنة ست عشرة وولى عقبة بن الحجاج السلولى من قبل عبيد الله بن الحبحاب فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهدا مظفرا حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة وصار رباطهم على نهر ردونة ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله ويقال اخرجه من الاندلس وولى مكانه الى أن دخل بلج بن بشر باهل الشام سنة أربع وعشرين فغلب عليه وولى الاندلس سنة أو نحوها وقال الرازى ثار أهل الاندلس بأميرهم عقبة فى صفر سنة ثلاث وعشرين فى خلافة هشام بن عبد الملك وولوا عليهم عبد الملك بن قطن ولايته الثانية فكانت ولاية عقبة ستة أعوام واربعة اشهر وتوفى بقرمونة فى صفر سنة ثلاث وعشرين واستقام الامر لعبد الملك ثم دخل بلج بن بشر القشيرى بجند الشام ناجيا من وقعة كلثوم بن عياض مع البربر بعلوية فثار على عبد الملك وقتله وهو ابن سبعين سنة واستوسق له الامر بعد مقتل عبد الملك وانحاز الفهريون الى جانب فامتنعوا عليه وكاشفوه واجتمع اليهم من انكر فعلته بابن قطن وقام بامرهم قطن وأمية ابنا عبد الملك بن قطن والتقوا فكانت الدائرة على الفهريين وهلك بلج من الجراح التى نالته فى حربهم وذلك سنة اربع وعشرين لسنة أو نحوها من امارته ثم ولى ثعلبة بن سلامة الجذامى غلب على امارة الاندلس بعد مهلك بلج وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه وولى سنتين اظهر فيهما العدل ودانت له الاندلس عشرة اشهر الى ان مالت به العصبية فى يمانيته ففسد أمره وهاجت الفتنة وقدم أبو الخطار حسام ابن ضرار الكلبى من قبل حنظلة بن صفوان عامل افريقية ركب اليها البحر من تونس سنة خمس وعشرين فدان له أهل الاندلس وأقبل اليه ثعلبة وابن أبى نسعة وابنا عبد الملك فلقيهم وأحسن اليهم واستقام أمره وكان شجاعا كريما ذا رأى وحزم وكثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم فى البلاد وأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق وأنزل اهل حمص اشبيلية وسماها حمص واهل قنسرين جيان وسماها قنسرين وأهل الاردن رية ومالقة وسماهما الاردن واهل فلسطين شذونة وهى شريش وسماها فلسطين واهل مصر تدمير وسماها مصر وقفل ثعلبة الى المشرق ولحق بمروان بن محمد وحضر حروبه وكان أبو الخطار أعرابيا عصبيا أفرط عند ولايته فى التعصب لقومه من اليمانية وتحامل على المضرية وأسخط قيسا وأمر فى بعض الايام بالصميل بن حاتم كبير القيسية وكان من طوالع بلج وهو الصميل بن حاتم بن شمر بن ذى الجوشن ورأس على المضرية فأقيم من مجلسه وتقنع فقال له بعض الحجاب وهو خارج من القصر أقم عمامتك يا أبا الجوشن فقال ان كان لى قوم فسيقيمونها فسار الصميل بن حاتم اميرهم يومئذ وزعيمهم وألب عليه قومه واستعان بالمنحرفين عنه من اليمانية فخلع أبو الخطار سنة ثمان وعشرين لاربع سنين وتسعة اشهر من ولايته وقدم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامى وهاجت الحرب المشهورة وخاطبوا بذلك عبد الرحمن بن حبيب صاحب افريقية فكتب الى ثوابة بعهده على الاندلس منسلخ رجب سنة تسع وعشرين فضبط الاندلس وقام بامره الصميل واجتمع عليه الفريقان وهلك لسنة من

ولايته

الارض اثنان وأربعون ألف ميل والمريخ مثل الارض وزيادة ثلاث وستين مرة وقطره ثمانية آلاف وسبعمائة ميل ونصف ميل والمشترى مثل الارض احدى وثمانين مرة ونصف وربع وقطره ثلاثة وثلاثون ألف ميل وستة عشر ميلا وزحل أعظم من الارض تسعا وتسعين مرة ونصفا وقطره اثنان وثلاثون ألف ميل وسبعمائة وستة وثلاثون ميلا وأما اجرام الكواكب الثابتة التى فى المشرق الاول وهى خمسة عشر كوكبا فكل كوكب منها أعظم من الارض باربع وتسعين مرة ونصف مرة وأما بعدها من الارض فان اقرب بعد القمر منها مائة ألف وثمانية وعشرون ألف ميل وابعد بعده من الارض مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ميل وأبعد بعد عطارد من الارض سبعمائة ألف ألف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون ألف ميل وأبعد بعد الزهرة من الارض أربعة آلاف ومائة وتسعة عشر ألف ميل وستمائة ميل وابعد بعد الشمس من الارض أربعة آلاف ألف ألف وثمانمائة ألف وعشرون ألفا ونصف ميل وأبعد بعد المريخ من الارض ثلاثة وثلاثون ألف ميل وستمائة ميل وشئ وأبعد بعد المشترى من الارض أربعة وخمسون ألف ألف ومائة ألف وستون ألف ميل الا شيأ وأبعد بعد زحل

ولايته ووقع الخلاف بافريقية والتاث أمر بنى أمية بالمشرق وشغلوا عن قاصية الثغور بكثرة الخوارج وعظم أمر المسوّدة فبقى اهل الاندلس فوضى ونصبوا للاحكام خاصة عبد الرحمن ابن كثير ثم اتفق جند الاندلس على اقتسام الامارة بين المضرية واليمانية وادالتها بين الجندين سنة لكل دولة وقدّم المضرية على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سنة تسع وعشرين واستتم سنة ولايته بقرطبة دار الامارة ثم وافته اليمانية لميعاد دالتهم واثقين بمكان عهدهم وتراضيهم واتفاقهم فبيتهم يوسف بمكان نزولهم من شقندة فى قرى قرطبة بممالأة من الصميل بن حاتم والقيسية وسائر المضرية فاستلحموهم وثار أبو الخطار فقاتله الصميل وهزمه وقتله سنة تسع وعشرين واستبدّ يوسف بما وراء البحر من عدوة الاندلس وغلب اليمنية على أمرهم فاستكانوا للغلبة وتربصوا الدوائر الى أن جاء عبد الرحمن الداخل وكان يوسف ولى الصميل سرقسطة فلما ظهر أمر المسوّدة بالمشرق ثار الحباب الزهرى بالاندلس داعيا لهم وحاصر الصميل بسرقسطة واستمدّ يوسف فلم يمدّه رجاء هلاكه لما كان يغص به وأمدّته القيسية فأفرج عنه الحباب وفارق الصميل سرقسطة فملكها الحباب وولى يوسف الصميل على طليطلة الى أن كان من عبد الرحمن الداخل ما كان انتهى كلام ولى الدين بن خلدون ببعض اختصار (وقال بعض المؤرخين) ان عبد الله بن مروان أخا عبد الملك كان واليا على مصر وافريقية فبعث اليه ابن أخيه الوليد الخليفة يأمره بارسال موسى بن نصير الى افريقية وذلك سنة ٨٧ للهجرة فامتثل أمره فى ذلك وقال الحميدى فى جذوة المقتبس ان موسى بن نصير ولى افريقية والمغرب سنة ٧٧ فقدمها ومعه جماعة من الجند فبلغه أن بأطراف البلاد من هو خارج عن الطاعة فوجه ولده عبد الله فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا ثم ولده مروان الى جهة أخرى فأتاه بمائة ألف رأس * وقال الليث بن سعد بلغ الخمس ستين ألف رأس وقال الصدفى لم يسمع فى الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير ووجد أكثر مدن افريقية خالية لاختلاف أيدى البربر عليها وكانت البلاد فى قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة واصلاح ذات البين وخرج بهم الى الصحراء ومعه سائر الحيوانات وفرق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ والضجيج وأقام على ذلك الى منتصف النهار ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبد الملك فقيل له ألا تدعو لامير المؤمنين فقال هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى فسقوا حتى رووا ثم خرج موسى غازيا وتتبع البربر وقتل فيهم قتلا ذريعا وسبى سبيا عظيما وسار حتى انتهى الى السوس الادنى لا يدافعه أحد فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا وبذلوا له الطاعة فقبل منهم وولى عليهم واليا واستعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد البربرى ويقال انه من الصدف وترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالاسلحة والعدّة الكاملة وكانوا قد أسلموا وحسن اسلامهم وترك موسى عندهم خلقا يسيرا من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية ولم يبق بالبلاد من ينازعه من البربر ولا من الروم ولما استقرّت له القواعد كتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو بلاد الاندلس فغزاها فى اثنى عشر ألفا من البربر خلا اثنى عشر رجلا وصعد على الجبل المنسوب اليه يوم الاثنين خامس رجب سنة ٩٢

من الارض سبعة وسبعون ألف ألف ميل الا شيأ وبعد الكواكب الثابتة من الارض نحو ذلك فيما ذكرنا من القسمة ولاخذ المقاييس استدرك القوم الساعات وبها استخرجوا الآلات والاسطرلابات وعليها صنفوا كتبهم كلها وهذا باب ان شرعنا فى ايراد البعض منه كثر واتسع الكلام وانما ذكرنا لمعا من هذه الفنون لتدل على مالم نورده وقد رتبت الصابئة من الحرانيين وهم عوام اليونانيين وحشوية الفلاسفة المتقدّمين فى هياكلها مراتب على ترتيب هذه الافلاك السبعة وأعلى كهانهم يسمى رأس كمر ودن بعدهم النصارى برتبة الكهنة فى كهانتها على ما تقدّمت فيه الصابئة فى مذهبها وسمت النصارى هذه المراتب العظات فأولها السلط والثانى اغنسط والثالث بودنا والرابع شماس والخامس قسيس والسادس بودوط والسابع حور الغينطس وهو الذى يخلف الاسقف والثامن اسقف والتاسع مطران وتفسير مطران رئيس المدينة والذى فوق هؤلاء كلهم فى المرتبة البطرك وتفسيره ابو الآباء ممن تقدّم ذكرهم من اصحاب المراتب وغيرهم من الادانى وعوامهم هذا عند خواص النصارى فاما العوام منهم فيذكرون فى هذه المراتب غير ما ذكرنا وهو ان ملكا ظهروا ظهر امورا يذكرونها لا حاجة

وذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب وقت التعدية فرأى النبى صلى الله عليه وسلم وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد هكذا ذكر ابن بشكوال وقيل ان موسى ندم على تأخره وعلم أن طارقا ان فتح شيأ نسب الفتح اليه دونه فأخذ فى جمع العساكر وولى على القيروان ابنه عبد الله وتبع طارقا فلم يدركه الا بعد الفتح وقال بعض العلماء ان موسى بن نصير كان عاقلا شجاعا كريما تقيا لله تعالى ولم يهزم له قط جيش وكان والده نصير على جيوش معاوية ومنزلته لديه مكينة ولما خرج معاوية لصفين لم يخرج معه فقال له ما منعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها فقال لم يمكنى أن أشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى منك فقال من هو فقال الله عز وجل فأطرق مليا ثم قال أستغفر الله ورضى عنه *(رجع الى حديث طارق)* قال بعض المؤرخين كان لذريق ملك الاندلس استخلف عليها شخصا يقال له تدمير واليه تنسب تدمير بالاندلس فلما نزل طارق من الجبل كتب تدمير الى لذريق انه قد نزل بأرضنا قوم لاندرى أمن السماء هم أم من الارض فلما بلغ لذريق ذلك وكان قصد بعض الجهات البعيدة لغزوله فى بعض أعدائه رجع عن مقصده فى سبعين ألف فارس ومعه العجل تحمل الاموال والمتاع وهو على سريره بين دابتين وعليه مظلة مكللة بالدر والياقوت والزبرجد فلما بلغ طارقا دنوه قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم ثم قال أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبدأ بنفسى واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفى من حظى وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون

بنا الى وصفها وهذا ترتيب الملكية وهم عند النصرانية وقطبها الان المارقة وهم العباد والملقبون بالنسطورية واليعاقبة عن هؤلاء تفرعوا ومنهم تبددوا وانما اخذت النصارى جملا من هذه المراتب على ما ذكرنا من الصابئة وأما القسيس والشماس وغير ذلك فعن المانية الا التصدوس والسماع وكان مانى حدث بعد مضى السيد عيسى ابن مريم عليه السلام وكذلك ابن ديصان ومرقيون والى مانى أضيفت المانية والى مرقيون أضيفت المرقيونية والى ابن ديصان أضيفت الديصانية ثم تفرعت بعد ذلك المردقية وغيرها ممن سلك طريقة صاحب الاثنين وقد أتينا فى كتابنا أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط على جمل من نوادر هذه المذاهب وما أوردوه من الخرافات المزخرفة والشبه الموضوعة وما ذكرناه من مذاهبهم فى كتابنا فى المقالات فى أصول الديانات وما ذكرناه من الآراء وهدم هذه المذاهب فى كتابنا المترجم بكتاب الامانة فى أصول الديانه وانما نذكر فى هذه الابواب ما يتشعب الكلام اليه ويتغلغل هذا الوصف نحوه فنورد منه لمعا على طريق الخبر والحكاية للمذهب لا على طريق النظر والجدل لئلا يخلو كتابنا هذا مما ندعو الحاجه فلما

فلما فرغ من تحريض أصحابه على الصبر في قتال لذريق وأصحابه وما وعدهم من الخير الجزيل انبسطت نفوسهم وتحققت آمالهم وهبت رياح النصر عليهم وقالوا له قد قطعنا الآمال مما يخالف ما عزمت عليه فاحضر اليه فاننا معك وبين يديك فركب وأصحابه فباتوا ليلتهم في حرس الى الصبح فلما أصبح الفريقان تكتبوا وعبوا جيوشهم وحمل لذريق وهو على سريره وقد حمل على رأسه رواق ديباج يظله وهو مقبل في غاية من البنود والاعلام وبين يديه المقاتلة والسلاح وأقبل طارق في أصحابه عليهم الزرد من فوق رؤسهم العمائم البيض وبايديهم القسي العربية وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح فلما نظر اليهم لذريق حلف وقال ان هذه الصور هي التي رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا فداخله منهم الرعب فلما رأى طارق لذريق قال هذا طاغية القوم فحمل وحمل أصحابه معه فتفرقت المقاتلة من بين يدي لذريق فخلص اليه طارق فضربه بالسيف على رأسه فقتله على سريره فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان وكان النصر للمسلمين ولم تقف هزيمة العدو على موضع بل كانوا يسلمون بلدا بلدا ومعقلا معقلا ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له يا طارق انه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الاندلس فاستبحه هنيئا مريئا فقال له طارق أيها الامير والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم انته الى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي يعني البحر الشمالي الذي تحت بنات نعش ولم يزل طارق يفتح وموسى معه الى أن بلغ الى جليقية وهي ساحل البحر المحيط انتهى *(وقال الحافظ الحميدي في كتابه جذوة المقتبس) ان موسى بن نصير نقم على مولاه طارق اذ غزا بغير اذنه وهم بقتله ثم ورد عليه كتاب الوليد باطلاقه فأطلقه وخرج معه الى الشام انتهى *وقول لذريق ان هذه الصور هي التي رأيناها في بيت الحكمة الخ أشار به الى بيت حكمة اليونان وكان من خبره فيما حكى بعض علماء التاريخ ان اليونان وهم الطائفة المشهورة بالحكم كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الاسكندر فلما ظهرت الفرس واستولت على البلاد وزاحمت اليونان على ما كان بأيديهم من الممالك انتقل اليونان الى جزيرة الاندلس لكونها طرفا في آخر العمارة ولم يكن لها ذكر اذ ذاك ولا ملكها أحد من الملوك المعتبرة ولم تك عامرة وكان أول من عمر فيها واختطها اندلس بن يافث بن نوح عليه السلام فسميت باسمه ولما عمرت الارض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة منها عندهم على شكل طائر رأسه المشرق والجنوب والشمال رجلاه وما بينهما بطنه والمغرب ذنبه وكانوا ازدرون المغرب لنسبته الى اخس أجزاء الطير وكانت اليونان لا ترى فناء الامم الا بالحروب لما فيه من الاضرار والاشتغال عن العلوم التي كان الاشتغال بها عندهم من اهم الامور فلذلك انحازوا من بين يدي الفرس الى الاندلس فلما صاروا اليها اقبلوا على عمارتها فشقوا الانهار وبنوا المعاقل وغرسوا الجنان والكروم وشيدوا الامصار وملؤها حرثا ونسلا وبنيانا فعظمت وطابت حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها ان الطائر الذي صورت هذه العمارة على شكله وكان المغرب ذنبه كان طاوسا معظم جماله في ذنبه (وحكى) ان الرشيد هرون رحمه الله لما احضر بين يديه بعض اهل

اليه والى ذكره والله أعلم *(ذكر الاخبار عن انتقال البحار وجمل من أخبار الانهار الكبار)* ذكر صاحب المنطق ان البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر حتى تصير مواضع مختلفة وأن جملة البحار متحركة الآن تلك الحركة اذا أضيفت الى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعد قعورها صارت كأنها ساكنة وليست مواضع الارض الرطبة أبدا رطبة ولا مواضع الارض اليابسة أبدا يابسة لكنها تتغير وتستحيل لصب الانهار اليها وانقطاعها عنها ولهذه العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر فليس موضع البر أبدا برا ولا موضع البحر أبدا بحرا بل قد يكون برا حيث كان مرة بحرا ويكون بحرا حيث كان مرة برا وعلة ذلك الانهار وبدؤها فان لمواضع الانهار شبابا وهرما وحياة وموتا ونشورا كما يكون ذلك في الحيوان والنبات غير ان الشباب والكبر في الحيوان والنبات لا يكون جزأ بعد جزء لكنها تشب وتكبر اجزاؤها كلها معا وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد فاما الارض فانها تهرم وتكبر جزأ بعد جزء وذلك بدوران الشمس وان مجراها كلها أعني البحار واحد وذلك من

البحر الاعظم وان ذلك بحر عذب ليس هو بحر أوقيانوس وزعمت طائفة ان البحار في الارضين كالعروق

في البدن وقال آخرون حق الماء أن يكون ١١٤ على سطح فلما اختلفت الارض فكان منها العالي والهابط انحاز الماء الى أعماق الارض فاذا انحصرت المياه في اعماق الارض وقعورها طلبت النفس حينئذ لغلظ الارض وضغطها اياها من أسفل فينشق من ذلك العيون والانهار وربما تتولد في باطن الارض من الهواء الكائن هناك وان الماء ليس باستقص وانما هو متولد من عفونات الارض وبخارها وقالوا في ذلك كلاما كثيرا أعرضنا عن ذكره طلبا للايجاز وميلا للاختصار وبسطنا ذلك في غير كتاب من كتبنا وأما مبادي الانهار الكبار ومطارحها ومقادير جريانها فنهر مهران السند وجيحس وهو نهر عظيم بأرض الهند ونهر سامط وهو نهر عظيم ونهر اطفاس الذي يصب الى نهر نيطش وغيرهما مما كبر من الانهار قد تكلم الناس في مقدار جريانها على وجه الارض فرأيت في جغرافيا (النيل) مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتي عشرة عينا فتصب تلك المياه الى بحرين هناك كالبطائح ثم يجتمع الماء جاريا فيمر برمال هناك وجبال ويخرق أرض السودان مما يلي بلاد الزنج فيتشعب منه خليج ينصب الى بحر الزنج وهو بحر جزيرة قنبلو وهي جزيرة عامرة فيها قوم

عند

المغرب قال الرشيد يقال ان الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب فقال الرجل صدقوا يا امير المؤمنين وانه طاوس فضحك امير المؤمنين الرشيد وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره (رجع) قال فاغتبط اليونان بالاندلس اتم اغتباط واتخذوا دار الحكمة والملك بها طليطلة لانها اوسط البلاد وكان اهم الامور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الامم فنظروا فاذا هو انه لا يحسدهم على رغد العيش الا ارباب الشظف والشقاء والتعب وهم يومئذ طائفتان العرب والبربر فخافوهم على جزيرتهم العامرة فعزموا على ان يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طلسما فرصدوا لذلك ارصادا ولما كان البربر بالقرب منهم وليس سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الاوضاع ازدادوا منهم نفورا واكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة حتى ثبت ذلك في طباعهم وصار بعضه مركبا في غرائزهم فلما علم البربر عداوة أهل الاندلس وبغضهم لهم ابغضوهم وحسدوهم فلم تجد أندلسيا الا مبغضا بربريا وبالعكس الا أن البربر أحوج الى أهل الاندلس لوجود بعض الاشياء عندهم وفقدها ببلاد البربر وكان بنواحي غرب الاندلس ملك يوناني بجزيرة يقال لها قادس وكانت له ابنة في غاية الجمال فتسامع بها ملوك الاندلس وكانت الاندلس كثيرة الملوك لكل بلدة او بلدتين ملك فخطبوها وخشي أبوها ان زوجها من واحد أسخط الباقين فتحير وأحضر ابنته وكانت الحكمة مركبة في طباع القوم ذكورهم واناثهم ولذا قيل ان الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة اعضاء من أهل الارض أدمغة اليونان وايدي اهل الصين وألسنة العرب فقال لها يا بنية اني أصبحت على حيرة في أمرك ممن يخطبك من الملوك وما أرضيت واحدا الا أسخطت الباقين فقالت له اجعل الامر الي تخلص فقال وما تقترحين فقالت أن يكون ملكا حكيما فقال نعم ما اخترته لنفسك فكتب في اجوبة الملوك الخطاب انها اختارت من الازواج الملك الحكيم فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما وكان في الملوك الخاطبين حكيمان فكتب كل واحد منهما أنا الملك الحكيم فلما وقف على كتابيهما قال لها يا بنية بقي الامر على اشكال وهذان ملكان حكيمان أيهما أرضيت اسخطت الآخر فقالت سأقترح على كل واحد منهما أمرا يأتي به فأيهما سبق الى الفراغ مما التمست كنت زوجته قال وما الذي تقترحين عليهما قالت انا ساكنون بهذه الجزيرة ومحتاجون الى أرحى تدور بها واني مقترحة على أحدهما ادارتها بالماء العذب الجاري اليها من ذلك البر ومقترحة على الآخر أن يتخذ لي طلسما تحصن به جزيرة الاندلس من البربر فاستظرف أبوها ذلك وكتب الى الملكين بما قالت ابنته فأجاباه الى ذلك وتقاسماه على ما اختارا وشرع كل واحد منهما في عمل ما أسند اليه من ذلك فأما صاحب الرحى فانه عمد الى أشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها الى بعض في البحر المالح الذي بين جزيرة الاندلس والبر الكبير في الموضع المعروف بزقاق سبتة وسد الفرج التي بين الحجارة بما اقتضت حكمته واوصل تلك الحجارة من البر الى الجزيرة وآثاره باقية الى اليوم في الزقاق الذي بين سبتة والجزيرة الخضراء وأكثر أهل الاندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة الى الجزيرة والله أعلم أي القولين أصح غير أن الشائع الى الآن

عند الناس هو الثاني فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال في البر الكبير وسلطه من ساقية محكمة وبنى بجزيرة الاندلس رحى على هذه الساقية * وأما صاحب الطلسم فانه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله غير أنه عمل أمره واحكمه وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر في رمل عالج حفر أساسه الى أن جعله تحت الارض بمقدار ارتفاعه فوق الارض ليثبت فلما انتهى البناء المربع الى حيث اختار صور من النحاس الاحمر والحديد الصيني المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربري وله لحية وفي رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة في رأسه لجعودتها وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه في رجله نعل وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط وهو شاهق في الهواء طوله نيف عن ستين أو سبعين ذراعا وهو محدودب الاعلى الى ان ينتهي ماسعته قدر ذراع وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابض عليه مشيرا الى البحر كأنه يقول لا عبور وكان من تأثير هذا الطلسم في البحر الذي تجاهه انه لم ير قط ساكنا ولا كانت تجري فيه قط سفينة بربر الا سقط المفتاح من يده وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان الى فراغ العمل اذ بالسبق يستحق زواج المرأة وكان صاحب الرحى فرغ أولا لكنه أخفى امره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم لتحظى المرأة بالرحى والطلسم فلما علم باليوم الذي يفرغ صاحب الطلسم في آخره اجرى الماء في الجزيرة من اوله وادار الرحى واشتهر ذلك فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو في أعلى القبة يصقل وجهه وكان الطلسم مذهبا فلما تحقق انه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من اعلى البناء ميتا وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على الاندلس من البربر للسبب الذي قدمناه ذكره فاتفقوا وجعلوا الطلسمات في اوقات اختاروا ارصادها واودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام وتركوه في بيت بطليطلة وركبوا على ذلك الباب قفلا تأكيدا لحفظ ذلك البيت فاستمر امرهم على ذلك ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالاندلس ودخول العرب والبربر اليها وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة وكان لذريق المذكور آنفا هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم فلما اقتعد اريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته واهل الراي منهم قد وقع في نفسي من امر هذا البيت الذي عليه ستة وعشرون قفلا شئ واريد ان افتحه لانظر ما فيه لانه لم يعمل عبثا فقالوا أيها الملك صدقت انه لم يصنع عبثا ولم يقفل سدى والراي والمصلحة أن تلقي انت ايضا عليه قفلا اسوة بمن تقدمك من الملوك وكان آباؤك واجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله وسر سيرهم فقال لهم ان نفسي تنازعني الى فتحه ولا بد لي منه فقالوا له ان كنت تظن ان فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من اموالنا نظيره ولا تحدث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته فأصر على ذلك وكان رجلا مهيبا فلم يقدروا على مراجعته وأمر بفتح الاقفال وكان على كل قفل مفتاحه معلقا فلما فتح الباب لم ير في البيت شيأ الا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر وعليها مكتوب هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ورأى في البيت ذلك التابوت وعليه قفل ومفتاحه معلق ففتحه

من المسلمين الا انهم لغتهم زنجية غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنج كغلبة المسلمين على جزيرة اقريطش في البحر الرومي وذلك في مبدا الدولة العباسية وتقضي الاموية ومنها الى عمان في البحر نحو من خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريون حزرا منهم لذلك على طريق التحصيل والمساحة وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين ومنهم أرباب المراكب انهم يشاهدون في هذا البحر في الوقت الذي يذكر فيه زيادة النيل بمصر أو قبل الاوان بعدة يسيرة ماء يخرق هذا البحر ويشقه من شدة جريانه يخرج من جبال الزنج عرضه أكثر من ميل عذبا حلوا يتكدر في اثارة الزيادة فيه السمو سار وهو التمساح الكائن في نيل مصر ويسمى أيضا الورل وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ ان نهر مهران الذي هو نهر السند من النيل ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الامصار وهو كتاب في نهاية الغثاثة لان الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الاسفار ولا يعرف المسالك والامصار وانما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين أولم يعلم ان نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد

فلم يجد فيه سوى رق وفى جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب وعليهم الفراء وهم معممون على ذوائب جعد ومن تحتهم الخيل العربية وهم متقلدون السيوف المحلاة معتقلون الرماح فأمر بنشر ذلك الرق فاذا فيه متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت الى جزيرة الاندلس وذهب ملك من فيها من أيديهم وبطلت حكمتهم فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل وتحقق انقراض دولتهم فلم يلبث الا قليلا حتى سمع ان جيشا وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفتتح بلاد الاندلس انتهى * فهذا هو بيت الحكمة الذى أشار اليه لذريق والله أعلم بحقيقة الامر فى ذلك كله على أن فى هذا السياق مخالفة لما سنذكره عن بعض ثقات مؤرخى الاندلس وغيرهم فى شأن المائدة وغيرها وما ذكر فى هذه القصة من جلب الماء من بر العدوة الخ فيه بعد عندى لان بلاد الاندلس أكثر بلاد الله مياها وأنهارا فأنى تحتاج الى جلب الماء اليها من العدوة الاخرى الا أن يقال ان المرأة أرادت تعجيز الرجل بذلك أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الامر الغريب وعلم الله من وراء ذلك كله وفوق كل ذى علم عليم ومنتهى العلم الى الله الحكيم (وقال ابن حيان فى المقتبس) ذكروا أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك ولا بصحيح النسب فى القوط وأنه انما نال الملك من طريق الغصب والتسوّر عند ممات غيطشة الملك الذى كان قبله وكان أثيرا لديه مكينا فاستصغر أولاده لمكانه واستمال طائفة من الرجال مالوا معه فانتزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم فكانوا هم الذين دبروا عليه فيما ذكر عند ما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بالاندلس من تلقاء بحر الزقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم فى أن يودى ويخلص اليهم ملك أبيهم فالتقوا بموضع يدعى وادى لكة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الاندلس القبلى مكان عبورهم وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة فانهزم القوط أعظم هزيمة وقتل ملكهم لذريق وغلبت العرب على الاندلس فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ومصداق موعد نبيهم صلى الله عليه وسلم الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوحى الله تعالى اليه أنجزه له بفتح الاندلس ولله القوّة قال وقام بأمر العرب بالاندلس منذ فتحت الامراء المرسلون منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طوال دولة بنى أمية رضى الله تعالى عنهم الى أن طرأ اليها فلهم عند غلبة بنى العباس عليهم ودخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان فملكها وأعاد اليها الدولة الاموية التى أورثها عقبه حقبة فكانت عدّة هؤلاء الامراء من لدن أوّلهم طارق بن زياد الى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى عشرين عاملا وعدّة سنيهم بالشمسى خمس وأربعون سنة وبالقمرى سبع وأربعون سنة غير أشهر انتهى (وقال فى موضع آخر) نقلا عن الرازى وافتتحت الاندلس فى أيام الوليد بن عبد الملك فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية وكان عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه مهتمما بها معتنيا بشأنها وقد حوّلها عن نظر والى افريقية وجرد اليها عاملا من قبله اختاره لها دلالة على معنيته بها ووقعت المقاسم فيها عن أمره وبفضل رأيه انتهى (وفى

السند من أرض القنوج الى مملكة بووره وأرض قشمير والقندهار والطافر حتى ينتهى الى بلاد المولتان ومن هناك يسمى مهران وتفسير المولتان رجل من قريش من ولد سامة بن لؤى بن غالب والقوافل منه الى خراسان متصلة وكذلك صاحب مملكة المنصورة رجل من قريش من ولد هبار بن الاسود وهذا الملك فى هؤلاء وملك صاحب المولتان متوارثان قديما منذ صدر الاسلام حتى ينتهى نهر مهران الى بلاد المنصورة ويصب نحو بلاد الديبل فى بحر الهند والتماسيح كثيرة فى أجواف هذا البحر وفى خليج ميدابون من مملكة باغر من أرض الهند وخلجان الرابج من بحر مملكة المهراج وكذلك فى خلجان الاعباب وفى عب التى تلى جزيرة سرنديب والاغلب على التماسيح كونها فى الماء العذب وما ذكرنا من خلجانات الهند فالاغلب من أمواهها أن تكون عذبة لصب مياه الامطار اليها فلنرجع الآن الى الاخبار عن نيل مصر فنقول ان الذى ذكرته الحكماء انه يجرى على وجه الارض تسعمائة فرسخ وقيل ألف فرسخ فى عامر وغير عامر حتى يأتى اسوان من صعيد مصر والى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر وعلى أميال من اسوان جبال وأحجار يجرى النيل فى وسطها

الكتاب الخزائنى وغيره) سياقة فتح الاندلس على أتم الوجوه فلنذكر ملخصه قالوا
استعمل أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك رحمه الله تعالى موسى بن نصير مولى عمه عبد العزيز
ابن مروان ويقال بل هو بكرى وذلك أن أباه نصيرا أصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد
رضى الله تعالى عنه فى عين التمر فادعوا انهم رهن وأنهم من بكر بن وائل فصار نصير وصيفا
لعبد العزيز بن مروان فأعتقه فمن هذا يختلف فيه وقيل انه لخمى وعقد له على افريقية
وما خلفها فى سنة ثمان وثمانين فخرج الى ذلك الوجه فى نفر قليل من المطوّعة فلما ورد مصر
أخرج معه من جندها بعثا وأتى افريقية عمله فأخرج من أهلها معه ذوى القوّة والجلد وصير
على مقدّمته طارق بن زياد فلم يزل يقاتل البربر ويفض جموعهم ويفتتح بلادهم ومدائنهم
حتى بلغ طنجة وهى قصبة ملك البربر وأم مدائنهم فحصرها حتى افتتحها وقيل انها لم تكن
افتتحت قبله وقيل افتتحت ثم ارتجعت فأسلم أهلها وخطها قيروانا للمسلمين ثم ساروا الى
مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ورأس تلك
المدائن سبتة وعليها علج يسمى يليان قاتله موسى فألفاه فى نجدة وقوّة وعدّة فلم يطقه فرجع
الى مدينة طنجة فأقام بمن معه وأخذ فى الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم والسفن
تختلف اليهم بالميرة والامداد من الاندلس من قبل ملكها غيطشة فهم يذبون عن حريمهم ذبا
شديدا ويحمون بلادهم حماية تامة الى أن هلك غيطشة ملك الاندلس وترك أولادا لم يرضهم
أهلها للملك فاضطرب حبل أهل الاندلس ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق مجرب
شجاع بطل ليس من بيت أهل الملك الا أنه من قوّادهم وفرسانهم فولوه أمرهم وكانت
طليطلة دار الملك بالاندلس حينئذ وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الايام عليه عدّة
من الاقفال يلزمه قوم من ثقات القوط قد وكلوا به لئلا يفتح وقد عهد الاول فى ذلك الى
الآخر فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلا وصيروه على
ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدّمه فلما قعد لذريق هذا وكان متهمما يقظا
ذا فكر أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب فقال لهم لا أفعل أو اعلم ما فيه ولا بد لى
من فتحه فقالوا له أيها الملك انه لم يفعل هذا احد من قبلك وتناهوا عن فتحه فلم يلتفت
اليهم ومشى الى البيت فأعظمت ذلك العجم وضرع اليه أكابرهم فى الكف فلم يفعل وظن
انه بيت مال ففض الاقفال عنه ودخل فأصابه فارغا لا شئ فيه الا تابوتا عليه قفل فأمر بفتحه
يحسب أن مضمونه يقنعه نفاسة فألفاه أيضا فارغا ليس فيه الا شقة مدرجة قد صوّرت فيها
صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العراب متقلدى السيوف متنكبى القسى رافعى
الرايات على الرماح وفى أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية فقرئت فاذا فيها اذا كسرت الاقفال
عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فان هذه الامة المصوّرة
فى هذه الشقة تدخل الاندلس فتغلب عليها وتملكها فوجم لذريق وندم على ما فعل وعظم
غمه وغم العجم بذلك وأمر برد الاقفال واقرار الحراس على حالهم وأخذ فى تدبير الملك وذهل
عما أنذر به وقد كان من سير أكابر العجم بالاندلس وقوّادهم أن يبعثوا أولادهم الذين
يريدون منفعتهم والتنويه بهم الى بلاد الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا فى خدمته ويتأدبوا

ولا سبيل الى جريان السفن فيه هناك وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع ١٧ سفن الحبشة فى النيل وبين سفن المسلمين
ويعرف هذا الموضع من
النيل بالجنادل والصخور
ثم يأتى النيل الفسطاط
وقد قطع الصعيد ومر بجبل
الطيلمون وبحر الاهواز
من بلاد الفيوم وهو الموضع
المعروف بالجزيرة التى
اتخذها يوسف النبى صلى
الله عليه وسلم وطنا فيقطعه
وسنذكر فيما يرد من هذا
الكتاب أخبار مصر والفيوم
وضياعها وكيفية فعل
يوسف عليه الصلاة والسلام
فى مائها ثم يمضى جاريا
فتقسمه خلجانات الى بلاد
تنيس ودمياط ورشيد
والاسكندرية كل يصب
الى البحر الرومى وقد أحدث
فيه بحيرات فى هذه المواضع
وقد كان النيل انقطع عن
بلاد الاسكندرية قبل هذه
الزيادة التى زادها فى هذه
السنة وهى سنة اثنتين
وثلاثين وثلثمائة ونمى الى
وأنا بمدينة انطاكية والثغر
الشامى ان النيل زاد فى
هذه السنة ثمانية عشر ذراعا
فلست أدرى أفى هذه
الزيادة دخل خليج
الاسكندرية أم لا وقد
كان الاسكندر بن الفيلقوس
المقدونى بنى الاسكندرية
على هذا الخليج من النيل
وكان يتفجر اليه عظيم ماء
النيل ويسقى الاسكندرية وبلاد مريوط وكان بلد مريوط هذا فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة من بلاد المغرب

وكانت السفن تجرى فى النيل فتتصل باسواق الاسكندرية وقد بلط أرض نيلها فى المدينة بالرخام والمرمر فانقطع الماء لعوارض سدت خلجانها ومنعت الماء من دخوله وقيل لعلل غير ذلك منعت من تنفسه وردت الماء الى كنانه لايحملها كتابنا هذا الاستعمالنا فيه الاختصار فصار شربهم من الآبار وصار النيل على نحو يوم منها وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب فى باب ذكرنا الأخبار الاسكندرية جملا من أخبارها وأخبار بنائها وماذكرنا من الماء الجارى الى بحر الزنج فانما هو آخذ من معالى مصب الزنج وفارق بين بلاد الزنج وبين أقاصى بلاد احماس الاحابيش ولولا ذلك الخليج ومفاوز من رمال ودهاس لم يكن للحبشة مقام فى ديارهم من أنواع الزنج لكثرتها وبسطها (وأما نهر بلخ) الذى يسمى جيحون فانه يخرج من أعين تجرى حتى تاتى بلاد خوارزم وقد احتاز قبل ذلك ببلاد الرند وأسرائيل وغيرها من بلاد خراسان فاذا ورد الى بلاد خوارزم تفرق فى مواضع هناك ويمضى باقيه فينصب فى البحيرة التى عليها القمرية المعروفة بالجرجانية اسفل خوارزم وليس فى ذلك الصقع أكبر من هذه البحيرة ويقال انه ليس فى العمران بحيرة اكبر منها لان طولها مسيرة شهر فى نحو ذلك من العرض تجرى وذلك

بادبه وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا انكح بعضهم بعضا استئلافا لآبائهم وحمل صدقاتهم وتولى تجهيزاناثهم الى أزواجهن فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة وكانت يومئذ فى يد صاحب الاندلس وأهلها على النصرانية ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه فلما صارت عند لذريق وقعت عينه عليها فاعجبته وأحبها حبا شديدا ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرا بكاتبة خفية فأحفظه شأنها جدا واشتدت حميته وقال ودين المسيح لأزيلن ملكه وسلطانه ولاحفرن تحت قدميه فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الاندلس بالذى سبق من قدر الله تعالى ثم ان يليان ركب بحر الزقاق من سبتة فى أصعب الاوقات فى صنبر قلب الشتاء فصار بالاندلس وأقبل الى طليطلة نحو الملك لذريق فأنكر عليه مجيئه فى مثل ذلك الوقت وسأله عما لديه وماجاء فيه ولم جاء فى مثل وقته فذكر خيرا واعتل بذكر زوجته وشدة شوقها الى رؤية بنتها التى عنده وتمنيها لقاءها قبل الموت والحاحها عليه فى احضارها وأنه أحب اسعافها ورجا بلوغها أمنيتها منه وسأل الملك اخراجها اليه وتعجيل اطلاقه للمبادرة بها ففعل وأجاز الجارية وتوثق منها بالكتمان عليه وأفضل على أبيها فانقلب عنه وذكروا أنه لما ودعه قال له لذريق اذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها فانها أثر جوارحنا الدينا فقال له أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لادخلن عليك شذانقات مادخل عليك مثلها قط عرض له بالذى أضمره من السعى فى ادخال رجال العرب عليه وهو لا يفطن فلم يتهنه يليان عندما استقر بسبتة عمله أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير الامير فمضى نحوه بافريقية وكلمه فى غزو الاندلس ووصف له حسنها وفضلها وماجمعت من أشتات المنافع وأنواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها وهون عليه مع ذلك حال رجالها ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء فشوق موسى الى ماهنالك وأخذ بالحزم فيما دعاه اليه يليان فعاقده على الانحراف الى المسلمين واستظهر عليه بأن سامه مكاشفة أهل ملته من الاندلس المشركين والاستخراج اليهم بالدخول اليها وشن الغارة فيها ففعل يليان ذلك وجمع جمعا من أهل عمله فدخل بهم فى مركبين وحل بساحل الجزيرة الخضراء فاغار وقتل وسبى وغنم وأقام بها أياما ثم رجع بمن معه سالمين وشاع الخبر عند المسلمين فأنسوا ليليان واطمأنوا اليه وكان ذلك عقب سنة تسعين فكتب موسى بن نصير الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذى دعاه اليه يليان من أمر الاندلس ويستأذنه فى اقتحامها فكتب اليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الاهوال فراجعه انه ليس ببحر زخار وانما هو خليج منه يبين للناظر ماخلفه فكتب اليه وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة فى أربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم فى أربع مراكب فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التى هى اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها وأقام بها أياما حتى التام اليه أصحابه ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ومالا جسيما وأمتعة

وذلك فى شهر رمضان سنة احدى وتسعين فلما رأى الناس ذلك تسرعوا الى الدخول وقيل دخل طريف فى ألف رجل فأصاب غنائم وسبيا ودخل بعده أبو زرعة شيخ من البرابرة وليس بطريف فى ألف رجل منهم أيضا فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرقوا عنها فضرموا عامتها بالنار وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة وأصابوا سبيا يسيرا وقتلوا وانصرفوا سالمين وقال الرازى هو أبو زرعة طريف بن مالك المغافرى الاسم طبق الكنية قالوا ثم عاود يليان القدوم على موسى بن نصير محركا فى الاقتدام على أهل الاندلس وخبره بما كان منه ومن طريف وأبى زرعة وما نالوه من أهلها وباشروه من طيبها فحمد الله على ذلك واستجد عزما فى اقتحام المسلمين فيها فدعا مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيا همذانيا وقيل انه ليس بمولى لموسى وانما هو رجل من صدف وقيل مولى لهم وقد كان بعض عقبه بالاندلس ينكرون ولاء موسى انكارا شديدا وقيل انه بربرى من نفزة فعقد له موسى وبعثه فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم البربر والموالى وليس فيهم عرب الا قليل ووجه معه يليان فهيأ له يليان المراكب فركب فى أربع سفن لا صناعة له غيرها وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم سبت فى شعبان سنة اثنتين وتسعين فى شهر أغسطس ثم صرف المراكب الى من خلفه من أصحابه فركب من بقى من الناس ولم تزل السفائن تختلف اليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل وقيل حل طارق بجبله يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة فى اثنى عشر ألفا غير ستة عشر رجلا من البرابرة ولم يكن فيهم من العرب الا يسير أجازهم يليان الى ساحل الاندلس فى مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم أولا أولا وركب أميرهم طارق آخرهم قيل وأصاب طارق عجوزا من أهل الجزيرة فقالت له فى بعض قولها انه كان لها زوج عالم بالحدثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلدهم هذا ويغلب عليه ويصف من نعته انه ضخم الهامة فانت كذلك ومنها أن فى كتفه الايسر شامة عليها شعر فان كانت بك هذه العلامة فانت هو فكشف طارق ثوبه فاذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرته العجوز فاستبشر بذلك هو ومن معه * وذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب فرأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الاربعة أصحابه عليه الصلاة والسلام يمشون على الماء حتى مروا به فبشره النبى صلى الله عليه وسلم بالفتح وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد وقيل انه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا طارق تقدم لشأنك ونظر اليه والى أصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه فهب من نومه مستبشرا وبشر أصحابه وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه فقويت نفسه ولم يشك فى الظفر فخرج من البلد واقتحم بسيط البلاد شانا للغارة قالوا ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس وتوالى غاراتهم على بلد الجزيرة وان يليان السبب فيها وكان يومئذ غائبا بأرض بنبلونة فى غزاة له الى البشكنس لامر كان استصعب عليه بناحيتهم فعظم عليه وفهم الامر الذى منه أتى وأقبل مبادرا الفتق فى جموعه حتى احتل بمدينة قرطبة من المتوسطة ونزل القصر المدعو بها ببلاط لذريق المنسوب اليه وليس لانه بناه أو اخترعه وهو بناء من تقدمه من الملوك اتخذوه لمنزلهم فى قرطبة اذا أتوها

فيها السفن واليها يصب نهر فرغانة والشاش يمر ببلاد العادات وبمدينة حنيسه وتجرى فيه السفن الى هذه البحيرة وعليها مدينة للترك يقال لها المدينة الجديدة وفيها المسلمون والاغلب من الاتراك على هذا الموضع التزيه وهم بوادى الترك وحضرهم ايضا وهذا الجنس من الاتراك هم اصناف ثلاثة الاسافل والاعالى والاواسط وهم اشد الترك بأسا واقصرهم وأصغرهم عينا وفى الترك اصغر من هؤلاء على ماذكر صاحب المنطق فى كتاب الحيوان فى المقالة الرابعة عشرة والثامنة عشرة حين ذكر الطير المعروف بالغرانيق وسنذكر مبلغا من أخبار اجناس الترك فيما يرد من هذا الكتاب مجتمعا ومفترقا وبمدينة بلخ رباط يقال له الاحسان على نحو من عشرين يوما منها وهو فى آخر أعمالها وبازائهم انواع من الكفار من الترك يقال لهم اوحاروبيت وعلى اليمين من هؤلاء جنس آخر يقال لهم العار لم ويخرج من هنالك نهر عظيم يعرف بنهر انقار زعم قوم من أهل الخبرة انه مبتدأ نهر جيحون وهو نهر بلخ ومقدار جريانه على وجه الارض نحو من خمسين ومائة فرسخ من مبدا نهر الترك وهو الغار وقيل اربعمائة فرسخ وقد غلط قوم من مصنفى الكتب فى هذا المعنى وزعموا ان جيحون ينصب الى نهر مهران السند ولم يذكروا نهر

الا أن العرب لما غلبوا الذريق وهذا القصر من مواطنه نسبوه اليه اذلم يعرفوا من بناه ويزعم العجم أن الذى بناه ملك منهم كان ساكنا بحصن المدور أسفل قرطبة وخرج يوما يتصيد حتى انتهى الى مكان قرطبة وهى يومئذ خراب وكان فى موضع قصرها غيضة عليق ملتفة أشبة فأرسل الملك بازياله يكرم عليه على حجلة عنت له من ناحية الكدية المنسوبة بعد الى أبى عبيدة فتخبت فى ذلك العليق ولج البازى فى الانقضاض عليها فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه ليخرجه فأمر بقطعها الاستنقاذ بازيه ضنا منه به فقطعت وبدا له تحتها أساس قصر عظيم راقه رصه وقد كان ذا همة فأمر بالكشف عنه وتقصى حدوده طولا وعرضا وتتبع اسه واصله فوجده مبنيا من وجه الماء بصم الحجارة فوق زرجون وضع بينها وبين الماء باحكم صناعة فقال هذا أثر ملك كريم وأنا أولى من جدده فأمر باعادته الى هيأته واتخاذه منزلا من منازل راحاته فكان اذا طاف بعمله أو مضى فى متصيده نزل فيه وصار السبب فى بناء قرطبة الى جنبه ونزل الناس فيها وتوارث الملوك قصرها من بعده ونزله لذريق فى زحفه الى العرب أياما والحشود من أعماله تتوافى اليه ثم مضى نحو كورة شدونة يبغى لقاءهم فى حشوده الكثيرة* وقيل ان آخر ملوك الاندلس الذين تلتهم العرب غيطشة وانه هلك عن أولاد ثلاثة صغار لم يصلحوا للملك فضبطت أمهم عليهم ملك والدهم بطليطلة وانحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم فصار بقرطبة فلما اقتحم طارق الاندلس نفر اليه لذريق واستنفر اليه اجناد أهل الاندلس وكتب الى اولاد غيطشة وقد ترعرعوا وركبوا الخيل واتخذوا الرجال يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب ويحذرهم من القعود عنه ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يدا واحدة فلم يجدوا بدا وحشدوا وقدموا عليه بقرطبة فنزلوا اكناف قرية شقندة بعدوة نهرها قبالة القصر ولم يطمئنوا الى الدخول على لذريق أخذا بالحزم الى أن استتب جهاز لذريق وخرج فانضموا اليه ومضوا معه وهم مرصدون لمكر وهه والاصح والله أعلم ما سبق ان ملك القوط اجتمع للذريق واختلف فى اسمه فقيل رذريق بالراء أوله وقيل باللام لذريق وهو الاشهر وقيل ان أصله من اصبهان ويسمى الاشبان والله اعلم قالوا وعسكر لذريق فى نحو مائة ألف ذوى عدد وعدة فكتب طارق الى موسى يستمده ويعرفه ان فتح الجزيرة الخضراء فرضة الاندلس وملك المجاز اليها واستولى على اعمالها الى البحيرة وان لذريق زحف اليه بما لا قبل له به الا أن يشاء الله وكان موسى منذوجه طارقا لوجهه قد أخذ فى عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددا كملت بهم عدة من معه اثنى عشر ألفا أقوياء على المغانم حراصا على اللقاء ومعهم يليان المستأمن اليهم فى رجاله واهل عمله يدلهم على العورات ويتجسس الاخبار وأقبل نحوهم لذريق فى جموع العجم وملوكها وفرسانها فتلاقوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض ان هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وانما كان من أتباعنا فلسنا نعدم من سيرته خبالا فى أمرنا وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم فى استيطان بلدنا وانما مرادهم أن يملؤا أيديهم من الغنائم ثم يخرجوا عنا فهلم فلننهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القوم لعلهم يكفوننا اياه فاذا انصرفوا عنا اقعدنا فى ملكنا

زست الاسود ولانهر زست الابيض الذى يكون عليه مملكة كيمان وهم جنس من الترك وراء نهر بلخ وهو جيحون وعلى هذين النهرين العذرية من الترك ولهذين اخبار لم نحط بها لمسافتهما على وجه الارض فنذكر ذلك (وكذلك جيحس) نهر الهند فبدؤه فى جبل من أقاصى أرض الهند مما يلى الصين من بحر بلاد الطغزغز من الترك ومقدار جريانه الى أن ينصب فى البحر الحبشى مما يلى جبل الهند أربعمائة فرسخ (وأما الفرات) فبدؤه من بلاد قاليقلا من ثغور ارمينية من جبل هناك يدعى افردحس على نحو يوم من قاليقلا ومقدار جريانه من بلاد الروم الى أن يأتى بلاد ملطية وأخبرنى بعض اخواننا من المسلمين ممن كان أسيرا فى أرض بلاد النصرانية ان الفرات اذا توسط أرض الروم تحلبت اليه مياه كثيرة منها نهر يخرج مما يلى بحيرة المازرمون وليس فى أرض الروم بحيرة أكبر منها وهى نحو من شهر وقيل أكثر من ذلك طولا وعرضا تجرى فيها السفن وتنتهى الى الفرات الى جسر منبج وقد اجتاز تحت قلعة سميساط وهى قلعة الطين ثم ينتهى الى ماليس وهى نصفان موضع حرب أهل العراق وأهل الشام ثم ينتهى الى الرقة والى الرحبة وهيت والانبار ويأخذ منه انهار من

ن يستحقه فأجمعوا على ذلك والقضاء يبرم ما ارتأوه وكان لذريق ولى ميمنته احد ابنى غيطشة وميسرته الآخر فكانا رأسى الذين أداروا عليه الهزيمة وأداهما الى ذلك طمع رجوع ملك والدهما اليهما * وقيل لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق وأرسلوا الى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعا وخادما لابيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركى حقهم لديه ويسألونه الامان على أن يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم وأن يسلم اليهم اذا ظفر ضياع والدهم بالاندلس كلها وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة وهى التى سميت بعد ذلك صفايا الملوك فأجابهم الى ذلك وعاقدهم عليه فالتقى الفريقان من الغد فانحاز الاولاد الى طارق فكان ذلك أقوى أسباب الفتح وكان الالتقاء على وادى لكة من كورة شذونة فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ونصر المسلمين نصر الاكفاء ورمى لذريق نفسه فى وادى لكة وقد أثقلته الجراح فلم يعلم له خبر ولم يوجد * وقيل نزل طارق بالمسلمين قريبا من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة ٩٢ فوجه لذريق علجا من أصحابه قد عرف نجدته ووثق بيأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزر عددهم ويعاين هيآتهم ومراكبهم فاقبل ذلك العلج حتى طلع على العسكر ثم شدّ فى وجوه من استشرفه من المسلمين فوثبوا اليه فولى منصرفا راكضا وفاتهم بسبق فرسه فقال العلج للذريق أتتك الصور التى كشف لك عنها التابوت فخذ على نفسك فقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت أو اصابة ما تحت قدميك قد حرقوا مراكبهم ايأسا لانفسهم من التعلق بها وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات اذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب فرعب وتضاعف جزعه والتقى العسكران بالبحيرة واقتتلوا قتالا شديدا الى أن انهزمت ميمنة لذريق وميسرته انهزم بهما أبناء غيطشة وثبت القلب بعدهما قليلا وفيه لذريق فغدر أهله بشئ من قتال ثم انهزموا ولذريق أمامهم فاستمرت هزيمتهم وذرع المسلمون القتل فيهم وخفى أثر لذريق فلا يدرى أمره الا أن المسلمين وجدوا فرسه الاشهب الذى فقدوه وراكبه وعليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت والزبرجد وقد ساخ الفرس فى طين وحمأة وغرق العلج فثبت أحد خفيه فى الطين فاخذ وخفى الآخر وغاب شخص العلج ولم يوجد حيا ولا ميتا والله أعلم بشأنه (وقال الرازى) كانت الملاقاة يوم الاحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان فاتصلت الحرب بينهم الى يوم الاحد لخمس خلون من شوّال بعده تتمة ثمانية أيام ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك دهرا طويلا ملبسة بتلك الارض قالوا وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس فجمع طارق الفىء وخمسه ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والاتباع وتسامع الناس من أهل برّ العدوة بالفتح على طارق بالاندلس وسعة المغانم فيها فأقبلوا نحوه من كل وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق وارتفع اهل الاندلس عند ذلك الى الحصون والقلاع وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال ثم اقبل طارق حتى نزل باهل مدينة شذونة فامتنعوا عليه فشد الحصر عليهم حتى نهكهم

مثل نهر عيسى وغيره مما ينتهى الى مدينة السلام فيصب فى دجلة وينتهى الفرات ١٢١ الى بلاد سوار وقصر ابن هبيرة والكوفة والجامعين واحمداباذ والغرس والطفوف ثم تنتهى غايته الى البطيحة التى بين البصرة وواسط فيكون مقدار جريانه على وجه الارض نحوا من خمسمائة فرسخ وقد قيل أكثر من ذلك وقد كان الفرات الاكثر من مائه ينتهى الى بلاد الحيرة ونهرها بين الى هذا الوقت فيصب فى البحر الحبشى حينئذ فى الموضع المعروف بالنجف فى هذا الوقت وكانت تتقدم هنالك سفن الصين والهند ترد الى ملوك الحيرة وقد ذكر ما قلنا عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة الغسانى حين خاطب خالد ابن الوليد فى أيام أبى بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه حين قال له ما تذكر قال اذكر سفن الصين وراء هذه الحصون فلما انقطع الماء عن ذلك الموضع انتقل البحر برا فصار من البحر فى هذا الوقت على مسيرة أيام كثيرة ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا وكثر رمل دجلة العوراء فصار بينها وبين الدجلة فى هذا الوقت مسافة بعيدة وصارت تدعى ببطن جوخى وذلك من جهة مدينة فارس من أعمال واسط الى دقوقاء الى نحو بلاد السوس وكذلك ما حدث فى الجانب الشرقى ببغداد من الموضع المعروف برقة الشماسية

وأضرهم فتحها أله فتحها عنوة فحاز منها غنائم ثم مضى منها الى مدور ثم عطف على قرمونة فر بعينه المنسوبة اليه ثم مال على اشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ثم نازل أهل استجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق فقاتلوا قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم فانكسروا ولم يلق المسلمون فيما بعد حربا مثلها وأقاموا على الامتناع الى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها وكان مغترا سيئ التدبير فخرج الى النهر لبعض حاجاته وحده فصادف طارقا هنالك قد أتى لمثل ذلك وطارق لا يعرفه فوثب عليه طارق في الماء فأخذه وجاء به الى العسكر فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة فصالحه طارق على ما أحب وضرب عليه الجزية وخلى سبيله فوفى بما عاهد عليه وقذف الله الرعب في قلوب الكفرة لما رأوا طارقا يوغل في البلاد وكانوا يحسبونه راغبا في المغنم عاملا على القفول فسقط في أيديهم وتطايروا عن السهول الى المعاقل وصعد ذوو القوة منهم الى دار مملكتهم طليطلة قيل وكان من ارهاب طارق لنصارى الاندلس وحيله أن تقدم الى أصحابه في تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها في القدور يرونهم أنهم يأكلونها فجعل من انطلق من الاسرى يحدثون من وراءهم بذلك فتمتلئ منه قلوبهم رعبا ويجفلون فرارا قالوا وقال يليان لطارق قد فضضت جيوش القوم ورعبوا فاصمد لبيضتهم وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد واعمد أنت الى طليطلة حيث معظمهم فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع الى أولي رأيهم ففرق طارق جيوشه معهم من استجة فبعث مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك الى قرطبة وكانت من أعظم مدائنهم في سبعمائة فارس لان المسلمين ركبوا جميعا خيل العجم ولم يبق فيهم راجل وفضلت عنهم الخيل وبعث جيشا آخر الى مالقة وآخر الى غرناطة مدينة البيرة وسار هو في معظم الناس الى كورة جيان يريد طليطلة وقد قيل ان الذي سار لقرطبة طارق بنفسه لا مغيث قالوا فكمنوا بعدوة نهر شقندة في غيضة أرز شامخة وارسلت الادلاء فأمسكوا راعي غنم فسئل عن قرطبة فقال رحل عنها عظماء اهلها الى طليطلة وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء اهلها وسئل عن سورها فأخبر انه حصين عال فوق أرضها الا أنه فيه ثغرة ووصفها لهم فلما اجنهم الليل اقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بان أرسل السماء بردا اذ أخفى دقدقة حوافر الخيل وأقبل المسلمون رويدا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور فلم يظهروا عليه ضيقا بالذي نالهم من المطر والبرد فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور الا مقدار ثلاثين ذراعا أو اقل وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقا ورجعوا الى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها فأراهم اياها فاذا بها غير متسهلة التسنم الا انه كانت في اسفلها شجرة تين مكنت افنانها من التعلق بها فصعد رجل من اشداء المسلمين في اعلاها ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها واعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور وركب مغيث ووقف من خارج وامر اصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ففعلوا وقتلوا نفرا منهم وكسروا اقفال الباب وفتحوه فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة فصمد الى البلاط منزل الملك ومعه ادلاؤه وقد بلغ الملك دخولهم المدينة فبادر بالفرار

ومانقل الماء بشياره من الجانب الغربي من الضياع التي كانت بقطربل وبمدينة السلام كالقرية المعروفة باليسرية والموضع المعروف بالعمرو غير ذلك من ضياع قطربل وقد كان لاهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقي ممن ملك رقة الشماسية في أيام المقتدر بحضرة الوزير أبي الحسن علي بن عيسى وما أجاب به أهل العلم في ذلك وما ذكرناه مشهور بمدينة السلام فاذا كان الماء في نحو من ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من تسعمائة ميل فانه يسير ميلا في قدره في سنة فاذا سار اليهم أربعة آلاف ذراع من عرضه الاول خربت بذلك السير مواضع وعمرت مواضع واذا وجد الماء سبيلا منخفضا وانصبابا واوسع بالحركة وشدة الجرية انفسه فاقتلع المواضع من الارض من أبعد غاياتها وكما وجد موضعا متسعا من الوهاد ملأه في طريقه من شدة جريته حتى يعمل بحيرات وبطائح ومستنقعات وتخرب بذلك بلاد وتعمر بذلك بلاد ولا يغيب فهم ماوصفنا عن مرام ذي فكر ولنبدأ بذكر (دجلة ومبدأ جريانها ومصبها) فنقول دجلة تخرج من بلاد آمد من ديار بكر من أعين بلاد خلاط من أرمينية ويصب اليها نهر سريط وسائر ما يخرج من بلاد أرزن وميافارقين وغير ذلك من الانهار كنهر ذومنا والخابور الخارج من بلاد ارمينية

عن

عن البلاد في أصحابه وهم زهاء أربعمائة وخرج الى كنيسة بغربي المدينة وتحصن بها وكان الماء يأتيها تحت الارض من عين في سفح جبل ودافعوا عن أنفسهم وملك مغيث المدينة وما حولها وقال من ذهب الى أن طارقا لم يحضر فتح قرطبة وان فاتحها مغيث انه كتب الى طارق بالفتح وأقام على محاصرة العلج بالكنيسة ثلاثة أشهر حتى ضاق من ذلك وطال عليه فتقدم الى أسود من عبيده اسمه رباح وكان ذا بأس ونجدة بالكمون في جنان الى جانب الكنيسة ملتفة الاشجار لعله أن يظفر له بعلج يقف به على خبر القوم ففعل ودعاه ضعف عقله الى أن صعد في بعض تلك الاشجار وذلك أيام الثمر ليجني ما يأكله فبصر به أهل الكنيسة وشدوا عليه فأخذوه فملكوه وهم في ذلك هائبون له منكرون لخلقه اذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله فاجتمعوا اليه وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقه وحسبوا أنه مصبوغ أو مطلي ببعض الاشياء التي تسود فجردوه وسط جماعتهم وأدنوه الى القناة التي منها كان يأتيهم الماء وأخذوا في غسله وتدليكه بالحبال الحرش حتى أدموه وأعنتوه فاستغاثهم وأشار الى أن الذي به خلقة من بارئهم عز وجل ففهموا اشارته وكفوا عنه وعن غسله واشتد فزعهم منه ومكث في اسارهم سبعة أيام لا يتركون التجمع عليه والنظر اليه الى أن يسر الله له الخلاص ليلا ففر وأتى الامير مغيثا فخبره بشأنه وعرفه بالذي اطلع عليه من شأنهم وموضع الماء الذي ينتابونه ومن أي ناحية يأتيهم فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة في الجهة التي أشار اليها الاسود حتى أصابوها فقطعوها عن جريتها الى الكنيسة وسدوا منافذها فأيقنوا بالهلاك حينئذ فدعاهم مغيث الى الاسلام أو الجزية فأبوا عليه فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم مع شدة البلاء غير أن العلج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عندما أيقن الهلاك ففر عنهم وحده وقد استغفلهم ورام اللحاق بطليطلة فبلغ خبره الى مغيث فبادر الركض خلفه وحده فلحقه بقرب قرية تطليرة هاربا وحده وتحته فرس أصفر ذريع الخطو وحرك مغيث خلفه فالتفت العلج ودهش لما رأى مغيثا قد رهقه وزاد في حث فرسه فقصر به فسقط عن الفرس واندق عنقه فقعد على ترسه مستأسرا قد هاضته السقطة فقبض عليه مغيث وسلبه سلاحه وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ولم يؤسر من ملوك الاندلس غيره لان بعضهم استأمن وبعضهم هرب الى جليقية وفي رواية ان مغيثا استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لكهم فضرب أعناقهم جميعا فمن أجل ذلك عرفت بكنيسة الاسرى وان مغيثا جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وانه اختار القصر لنفسه والمدينة لاصحابه * وأما من وجه الى مالقة ففتحوها ولجأ علوجها الى جبال هنالك ممتنعة ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة فحاصروا مدينتها غرناطة فافتتحوها عنوة وضموا اليهود الى قصبة غرناطة وصار ذلك لهم سنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويمضي معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح ثم صنعوا عند فتح كورة رية التي منها مالقة مثل ذلك ومضى الجيش الى تدمير وتدمير اسم العلج صاحبها سميت به واسم قصبتها

ومصبه في دجلة من بلاد ماسورين وسيلون من بلاد قردى وبازندى وباهمدا من بلاد الموصل وهذه الديار ديار بني حمدان وفي قردى وبازندى يقول الشاعر

بقردى وبازندى مصيف ومربع ... وعذب يحاكي السلسبيل برود
وبغداد ما بغداد أما ترابها ... فحمى وأما حرها فشديد

وليس هذا الخابور خابور النهر الذي يخرج من مدينة راس العين من اعينها ويصب في الفرات اسفل مدينة قرقيسيا ثم تمر دجلة بمدينة بلاد الموصل ويصب اليها نهر الزاب وهو من بلاد ارمينية (وهو الزاب الاكبر) بعد الموصل وفوق حديثته ثم يصب فيها زاب آخر فوق مدينة السحرة يأتي من بلاد ارمينية واذربيجان ثم ينتهي الى مدينة تكريت وسر من رأى ومدينة السلام فيصب اليها الخندق والصراة ونهر عيسى وهي الانهار التي ذكرنا أنها تأخذ من الفرات وتصب في دجلة ثم تخرج دجلة عن مدينة السلام فينصب فيها أنهار كثيرة مثل النهر المعروف بدالي ونهر بين والنهروان مما يلي بلاد جرجرايا والسيب ونيل النعمانية فاذا خرجت دجلة من مدينة واسط تفرقت في أنهار هنالك أخر الى بطيحة البصرة مثل برود داليهودي ومسامي والمصب الذي ينتهي الى

اربولة ولها شأن في المنعة وكان ملكها عليما داهية وفاتهم محصنا ثم استمرت عليه الهزيمة في فحصها فبلغ السيف في أهلها مبلغا عظيما أفنى أكثرهم ولجأ العلج الى اربولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيأ فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال وتصدر قدّامهن في بقية أصحابه يغالط المسلمين في قوّته على الدفاع عن نفسه فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور وعرضوا عليه الصلح فأظهر الميل اليه ونكر زيه فنزل اليهم بأمان على انه رسول فصالحهم على أهل بلده ثم على نفسه وتوثق منهم فلما تم له من ذلك ما أراد عرّفهم بنفسه واعتذر اليهم بالابقاء على قومه وأخذهم بالوفاء بعهده وأدخلهم المدينة فلم يجدوا فيها الا العيال والذرية فندموا على الذي اعطوه من الامان واسترجحوه فيما احتال به ومضوا على الوفاء له وكان الوفاء عادتهم فسلمت كورة تدمير من معرة المسلمين بتدبير تدمير وصارت كلها صلحا ليس فيها عنوة وكتبوا الى أميرهم طارق بالفتح وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم ومضى معظمهم الى أميرهم لفتح طليطلة قال ابن حيان وانتهى طارق الى طليطلة دار مملكة القوط فألفاها خالية قد فرعنها أهلها ولجؤا الى مدينة بها خلف الجبل فضم اليهود الى طليطلة وخلف بها رجالا من أصحابه ومضى خلف من فرّ من أهل طليطلة فسلك وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمى به بعد فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل وهى المنسوبة لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها وارجلها وكان لها ثلثمائة وخمسة وستون رجلا فاحرزها عنده ثم مضى الى المدينة التى تحصنوا بها خلف الجبل فأصاب بها حليا ومالا ورجع ولم يتجاوزها الى طليطلة سنة ثلاث وتسعين وقيل انه لم يرجع بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى الى مدينة استرقة فدوّخ الجهة وانصرف الى طليطلة والله أعلم وقيل ان طارقا دخل الاندلس بغير أمر مولاه موسى بن نصير فالله أعلم قال بعضهم وكانت اقامته في الفتوح وتدويخ البلاد الى ان وصل سيده موسى بن نصير سنة وكان ما سيذكر وأنشد في المسهب وابن اليسع في المغرب لطارق من قصيدة قالها في الفتح

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا * عسى ان يكون الله منا قد اشترى
نفوسا وأموالا واهلا بجنة * اذا ما اشتهينا الشئ فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا * اذا نحن ادركنا الذى كان اجدرا

قال ابن سعيد وهذه الابيات مما يكتب لمراعاة قائلها ومكانته لا لعلوّ طبقتها انتهى * واما اولاد غيطشة فانهم لما صاروا الى طارق بالامان وكانوا سبب الفتح حسبما تقدم قالوا لطارق أنت امير نفسك أم فوقك أمير فقال بل على رأسى امير وفوق ذلك الامير أمير عظيم فاستأذنوه فى اللحاق بموسى بن نصير بافريقية ليؤكدوا سببهم به وسألوه الكتاب اليه بشأنهم معه وما اعطاهم من عهده ففعل وساروا نحو موسى فتلقوه فى انحداره الى الاندلس بالقرب من بلاد البربر وعرفوه بشأنهم ووقف على ما خاطبه به طارق فى ذمتهم وسابقتهم فأنفذهم الى امير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق وكتب اليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم فلما وصلوا الى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق فى ضياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سجلا وجعل

فرسخ وقيل اربعمائة وقد اعرضنا عن كثير من ذكر الانهار الا ما كبر واشتهر اذ كنا قد اتينا على ذكر ذلك على الاتساع فى الكتاب المترجم باخبار الزمان وكذلك فى الكتاب الاوسط ونذكر فى هذا الكتاب لمعا مما سميناه من الانهار ومعالم نسمه ولابصرة انهار كبار مثل نهر سيرين ونهر الرس ونهر ابن عمرو كذلك ببلاد الاهواز فيما بينها وبين بلاد البصرة اعرضنا عن ذكر ذلك اذ كنا قد تقصينا الاخبار عنها واخبار منتهى بحر فارس الى بلاد البصرة والابلة وخبر الموضع المعروف بالحدارة وهى دخلة من البحر الى البر تقرب من نحو بلاد الابلة ومن اجلها ملح الاكثر من بلاد البصرة ولهذه الحدّارة انحدرت الاخشاب فى فم البحر مما يلى الابلة وعبادان عليها أناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكرسى فى جوف الليل خوفا على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرهما ان تقع فى تلك الحدارة فلا يكون لها خلاص وقد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وهذه الديار عجيبة فى مصبات مياهها واتصال البحر بها والله أعلم

لهم أن لا يتوموا الداخل عليهم فقدموا الاندلس وحازوا ضياع والدهم اجمع واقتسموها على موافقة منهم فصار منها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة فى غرب الاندلس فسكن من أجلها اشبيلية مقتربا منها وصار لارطباش ألف ضيعة وهو تلوه فى السن وضياعه فى موسطة الاندلس فسكن من أجلها قرطبة وصار لثالثهم وقلة ألف ضيعة فى شرقى الاندلس وجهة الثغر فسكن من أجلها مدينة طليطلة فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية الى أن هلك ألمند كبيرهم وخلف ابنته سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين فبسط يده ارطباش على ضياعهم وضمها الى ضياعه وذلك فى خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فأنشأت سارة بنت ألمند مركبا باشبيلية حصينا كامل العدة وركبت فيه مع اخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره دمشق فأنهت خبرها وشكت ظلامتها من عمها وتعديه عليها واحتجت بالعهد المنعقد لابيها واخوته على الخليفة الوليد بن عبد الملك فأوصلها هشام الى نفسه وأعجبه صورتها وحزمها وكتب الى حنظلة ابن صفوان عامله بافريقية بانصافهما من عمها ارطباش وامضائها واخويها على سنة الميراث فيما كان فى يد والدها مما قاسم فيه اخوته فأنفذها الكتاب بذلك الى عامله بالاندلس أبى الخطار ابن عمه فتم لها ذلك وانكحها الخليفة هشام من عيسى بن مزاحم فابتنى بها بالشام ثم قدم بها الى الاندلس وقام لها فى دفاع عمها ارطباش عن ضياعها فنال بها نعمة عظيمة وولدله منها ولداه ابراهيم واسحق فادركا الشرف المؤثل والرياسة باشبيلية وشهرا ونسلهما بالنسبة الى أمهما سارة القوطية وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن ابن معاوية الداخل بعد الى الاندلس وعرفها فتوسلت اليه لما ملك الاندلس ووفدت اليه فاعترف بذمامها وأكرمها وأذن لها فى الدخول الى قصره متى جاءت الى قرطبة فيجدد تكرمتها ولا يحجب عياله منها وتوفى زوجها عيسى فى السنة التى ملك فيها عبد الرحمن الاندلس فزوجها عبد الرحمن من عمير بن سعيد وكان لها ولابيها ألمند وعمها ارطباش فى صدر الدولة العربية بالاندلس أخبار ملوكية فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكى انه قصد ارطباش يوما الى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصميل وابن الطفيل وابو عبدة وغيرهم فأجلسهم على الكراسى وبالغ فى تكريمهم ودخل على اثرهم ميمون العابد جد بنى حزم وكان فى عداد الشاميين الا انه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه فلما بصر به ارطباش قام اليه دونهم اعظاما ورقاه الى كرسيه الذى كان يجلس عليه وكان ملبسا صفائح الذهب وجذبه ليجلسه مكانه فامتنع عليه ميمون وقعد على الارض فقعد ارطباش معه عليها واقبل عليه قبلهم فقال له ياسيدى ما الذى جاء بك الى مثلى فقال له ما تسمعه انا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب ان مقامنا فيه لا يطول فلم نستعد للمقام ولا كثرنا من العدة ثم حدثت بعدنا على موالينا وفى اجنادنا ما قد ايسنا معه من الرجوع الى اوطاننا وقد وسع الله عليك فأحب أن تدفع الى ضياعا من ضياعك اعتمره ابيدى وأودى اليك الحق منها وآخذ الفضل لى طيبا اتعيش منه فقال لا ارضى لك بالمساهمة بل اهب لك هبة مسوغة ثم دعا بوكيل له فقال له سلم اليه المجشر الذى لنا على وادى شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك وادفع اليه

قد زاد بحر الهند وهو الحبشى حتى امتد طوله من المغرب الى المشرق من أقصى الحبش الى أقصى الهند والصين وصار ثمانية آلاف ميل وعرضه الفان وتسعمائة ميل وعرضه فى مواضع اخر الف وتسعمائة ميل وقد يتقارب فى قلة العرض فى موضع دون موضع ويكثر كذلك وقد قيل فى طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة واعرضنا عن ذكره لعدم قيام الدلالة على صحته عند اهل هذه الصناعة وليس فى المعمور اعظم من هذا البحر وله خليج متصل بارض الحبشة يمتد الى ناحية بربرى من بلاد الزنج والحبشة ويسمى الخليج البربرى طوله خمسمائة ميل وعرض طرفيه مائة ميل وليست هذه بربرى التى ينسب اليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من ارض افريقية لان هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم واهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج وفى هذه البحيرة مسلمون من الاكابر من الزنج والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون ان هذا الخليج المعروف بالبربرى وهم يعرفونه ببحر بربرى وبلاد جفونى أكثر مسافة مما ذكرنا وموجه عظيم كالجبال الشواهق فانه

الضيعة التى بجيان فتسلم ميمون الضيعتين وورثهما ولده واليهم نسبت قلعة حزم فشكره ميمون وأثنى عليه وقام عمه وقد أنف الصميل من قيامه اليه فأقبل على ارطباش وقال له كنت أظنك أرجح وزنا أدخل عليك وأنا سيد العرب بالاندلس فى أصحابى هؤلاء وهم سادة الموالى فلا تزيدنا من الكرامة على الاقعاد على أعوادك هذه ويدخل هذا الصعلوك فتصير من اكرامه الى حيث صرت فقال له يا أباجوشن ان أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرهقك ولو كان لم تنكر على ما فعلته انكم أكرمكم الله انما تكرمون لدنياكم وسلطانكم وهذا انما أكرمته لله تعالى فقد روينا عن المسيح عليه السلام أنه قال من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه فكأنما ألقمه حجرا وكان الصميل أميا فلذلك عرض به فقال له القوم دعنا من هذا وانظر فيما قصدناك فاجتنا حاجة الرجل الذى قصدك فاكرمته فانظر فى شأننا فقال لهم أنتم ملوك الناس وليس يرضيكم الا الكثير وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرا عشرا وكتب لهم بها وأمر وكلاءه بتسليمها اليهم فكان القوم يرونها من أطيب املاكهم انتهى * قال ابن حيان وغيره ولما بلغ موسى بن نصير ماصنعه طارق بن زياد وما اتيح له من الفتوح حسده وتهيأ للمسير الى الاندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم وقيل انهم كانوا ثمانية عشر ألفا وقيل أكثر فكان دخوله الى الاندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وتنكب الجبل الذى حله طارق ودخل على الموضع المنسوب اليه المعروف الآن بجبل موسى فلما احتل الجزيرة الخضراء قال ما كنت لاسلك طريق طارق ولا اقفو أثره فقال له العلوج الادلاء أصحاب يليان نحن نسلكك طريقا هو أشرف من طريقه وندلك على مدائن هى أعظم خطرا وأعظم خطبا وأوسع غنما من مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله تعالى فملئ سرورا وكان شغوف طارق قد غمه فساروا به فى جانب ساحل شذونة فافتتحها عنوة وألقوا بايديهم اليه ثم سار الى مدينة قرمونة وليس بالاندلس أحصن منها ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال فدخلها بحيلة توجهت باصحاب يليان دخلوا اليهم كأنهم فلال وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوا لهم الباب وأوقعوا بالاحراس فملكت المدينة ومضى موسى الى اشبيلية جارتها فحاصرها وهى أعظم مدائن الاندلس شأنا وأعجبها بنيانا وأكثرها آثارا وكانت دار الملك قبل القوطيين فلما غلب القوطيون على ملك الاندلس حولوا السلطان الى طليطلة وبقى رؤساء الدين فيها أعنى اشبيلية فامتنعت أشهرا على موسى ثم فتحها الله عليه فهرب العلوج عنها الى مدينة باجة فضم موسى يهودها الى القصبة وخلف بها رجالا ومضى من اشبيلية الى القنت الى مدينة ماردة وكانت أيضا دار مملكة لبعض ملوك الاندلس فى سالف الدهر وهى ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف فحاصرها أيضا وكان فى أهلها منعة شديدة وباس عظيم فنالوا من المسلمين دفعات وآذوهم وعمل موسى دبابة دب المسلمون تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده الى العمل المدعو بلسان العجم الاشه ماشه فنبت عنه معاولهم وعدتهم وثار بهم العدو على غفلة فاستشهد بايديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة فسمى ذلك الموضع برج الشهداء

موج أعمى يريدون بذلك انه مرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كاخفض مايكون من الاودية لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد كتكسر أمواج سائر البحار ويزعمون انه موج مجنون وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الازد فاذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ماذكرنا من الامواج ترفعهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون

بربرى وجفونى
وموجك المجنون
جفونى وبربرى
وموجها كماترى

وينتهى هؤلاء فى بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على ماذكرنا والى بلاد سفالة الواق واق من أقاصى أرض الزنج والاسافل من نحوهم ويقطع هذا البحر السيرافيون وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار ومن بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين وهم أرباب المراكب مثل محمد بن الزيدوم السيرافى وجوهر ابن أحمد وهو المعروف بابن نسوة وفى هذا البحر تلف ومن كان معه فى مركبه وآخر مرة ركبت فيه فى سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السيرافى بمكان وفيه غرقا فى مركبهما وجميع من كان معهما

ثم

ثم دعا القوم الى السلم فترسل اليه فى تقريره قوم من أماثلهم أعطاهم الامان واحتال فى
توهيمهم فى نفسه فدخلوا عليه أول يوم فاذا هو أبيض الرأس واللحية كما نصل خضابه فلم يتفق
لهم معه أمر وعاودوه قبل الفطر بيوم فاذا هو قد قنى لحيته بالحناء فجاءت كضرام عرفج
فعجبوا من ذلك وعاودوه يوم الفطر فاذا هو قد سوّد لحيته فازداد تعجبهم منه وكانوا
لا يعرفون الخضاب ولا استعماله فقالوا لقومهم انا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاؤا
و يتصوّرون فى كل صورة احبوا كان ملكهم شيخا فقد صار شابا والرأى أن نقاربه ونعطيه
ما يسأله فما لنا به طاقة فأذعنوا عند ذلك وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى
يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين ثم فتحوا له
المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها ثم ان عجم اشبيلية انتقضوا على المسلمين واجتمعوا
من مدينتى باجة ولبلة اليهم فاوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلا وأتى فلهم الامير
موسى وهو بماردة فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى فى جيش اليهم ففتح اشبيلية
وقتل أهلها ونهض الى لبلة ففتحها واستقامت الامور فيما هنالك وعلا الاسلام وأقام عبد
العزيز باشبيلية وتوجه الامير موسى من ماردة فى عقب شوّال من العام المؤرّخ يريد طليطلة
و بلغ طارقا خبره فاستقبله فى وجوه الناس فلقيه فى موضع من كورة طلبيرة وقيل ان موسى
تقدّم من ماردة فدخل جليقية من فج نسب اليه فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب
مقدّمته بمدينة استرقة فغض منه علانية وأظهر ما بنفسه عليه من حقد والله أعلم وقيل لما
وقعت عينه عليه نزل اليه اعظاما له فقنعه موسى بالسوط و وبخه على استبداده عليه
ومخالفته لرأيه وساروا الى طليطلة فطالبه موسى باداء ما عنده من مال الفىء وذخائر الملوك
واستعجله بالمائدة فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلا وخبأه عنده فسأله موسى عنه فقال
لا علم لى به وهكذا أصبتها فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها
يظهر عليه التعمل ولم يقدر على أحسن منه فأخلّ بها * وقال ابن الفرضى موسى بن نصير
صاحب فتح الاندلس لخمى يكنى أبا عبد الرحمن يروى عن تميم الدارى وروى عنه يزيد بن
مسروق اليحصبى وقيل غزا موسى بن نصير فى المحرّم سنة ثلاث وتسعين فأتى طنجة ثم عبر
على الاندلس فأداخها لا يأتى على مدينة الا فتحها ونزل أهلها على حكمه وسار الى قرطبة ثم
قفل على الاندلس سنة أربع وتسعين فأتى افريقية وسار عنها سنة خمس وتسعين الى الشام
يؤمّ الوليد بن عبد الملك بحر الدنيا بما احتمله من غنائم الاندلس من الاموال والامتعة يحملها
على العجل والظهر ومعه ثلاثون ألف رأس من السبى فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك
وولى سليمان فنكب موسى نكبا اداه الى المتربة فهلك فى نكبته تلك بوادى القرى سنة
سبع وتسعين (قال ابن حيان) وهذه المائدة المنوّه باسمها المنسوبة الى سليمان النبى عليه
الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم وانما أصلها ان العجم فى أيام ملكهم كان
أهل الحسبة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم ذلك المال
صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباهها من الذهب والفضة تحمل
الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا أبرزت فى أيام المناسك و يضعونها على

وكان ركوبى فيه أخيرا والامير على عمان أحمد بن هلال ابن أخت القتال وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين
والروم والخزر والقلزم
واليمن وأصابنى فيها من
الاهوال ما لا أحصيه كثرة
فلم أشاهد أهول من بحر
السند الذى قدمنا ذكره
وفيه السمك المعروف بالفال
طول السمكة نحو من
اربعمائة ذراع بالذراع
العمرية وهى ذراع ذلك
البحر والاغلب من هذا
السمك طوله مائة باع
وربما يهز البحر فيظهر شيأ
من جناحه فيكون كالقلع
العظيم وهو الشراع وربما
يظهر رأسه وينفخ الصعداء
بالماء فيذهب الماء فى الجوّ
أكثر من ممر السهم
والمراكب تفزع منه فى
الليل والنهار وتضرب له
بالدبادب والخشب لينفر
من ذلك ويحشر باجنحته
وذنبه السمك الى فمه وقد
تقدّفاه وذلك السمك
يهوى الى جوفه جرمه فاذا
بغت هذه السمكة بعث الله
عليها سمكة نحو الذراع تدعى
الشلّ فتلتصق باصل أذنها
فلا يكون لها منها خلاص
فتطلب قعر البحر وتضرب
بنفسها حتى تموت فتطفو
فوق الماء فتكون كالجبل
العظيم وربما تلتصق هذه
السمكة المعروفة بالشل
بالمراكب فلا يدنو الافال
مع عظمه من المركب ويهرب اذا رأى السمكة الصغيرة اذ كانت آفة له وقاتلته وكذلك التمساح يموت من دويبة تكون

المذابح فى الاعياد للمباهاة بزينتها فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ فى هذه السبيل وتأنقت الاملاك فى تفخيمها يزيد الآخر منهم على الاول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات وطار الذكر مطاره عنها وكانت مصوغة من خالص الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم ترالاعين مثلها وبولغ فى تفخيمها من أجل دار المملكة وانه لا ينبغى أن تكون بموضع آلة جمال او متاع مباهاة الادون ما يكون فيها وكانت توضع على مذبح كنيسة طليطلة فأصابها المسلمون هنالك وطار النبأ الفخم عنها وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذى فعله من غيرته على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم ما فى يده اليه فاستظهر بانتزاع رجل من أرجل هذه المائدة خبأه عنده فكان من فلجه به على موسى عدوه عند الخليفة اذ تنازعا عنده بعد الاثر فى جهادهما ما هو مشهور انتهى * وقال بعض المؤرخين ان المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد وكلها مكللة بالجواهر انتهى * وما ذكره ابن حيان من ان الذى نكب موسى بن نصير هو سليمان ابن عبد الملك صواب وأمّا ما حكاه ابن خلكان من ان المنكب له الوليد فليس بصحيح والله أعلم * (رجع الى كلام ابن حيان) قالوا ثم ان موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته على رسمه وأمره بالتقدّم امامه فى اصحابه وسار موسى خلفه فى جيوشه فارتقى الى الثغر الاعلى وافتتح سرقسطة واعمالها واوغل فى البلاد وطارق امامه لا يمران بموضع الافتح عليهما وغنمهما الله تعالى ما فيه وقد القى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما احد الا بطلب صلح وموسى يجىء على اثر طارق فى ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه فلما صفا القطر كله وطأ من نفوس من اقام على سلمه ووطأ الاقدام المسلمين فى الحلول به اقام لتمييز ذلك وقتا وامضى المسلمين الى افرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا واوغلوا حتى انتهوا الى وادى ردونة فكان اقصى اثر العرب ومنتهى موطئهم من ارض العجم وقد دوّخت بعوث طارق وسراياه بلد افرنجة فملكت مدينتى برشلونة واربونة وصخرة ابنيون وحصن لودون على وادى ردونة فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جدا وذكران مسافة ما بين قرطبة واربونة من بلاد افرنجة ثلثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخا وقيل ثلثمائة فرسخ وخمسون فرسخا ولما اوغل المسلمون الى اربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالارض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فحشدلهم وخرج عليهم فى جمع عظيم فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة ابنيون فلم يجد بها أحدا وقد عسكر المسلمون قدامه فيما بين الاجبل المجاورة لمدينة أربونة وهم بحال غرة لا عيون لهم ولا طلائع فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة اربونة وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالا شديدا استشهد فيه جماعة منهم وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها فنازلهم بها أياما اصيب له فيها رجال وتعذر عليه المقام وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين فزال عنهم راحلا الى بلده وقد نصب فى وجوه المسلمين حصونا على وادى ردونة شكها بالرجال فصيرها ثغرا بين بلده والمسلمين وذلك بالارض الكبيرة خلف الاندلس (وقال الحجارى فى المسهب) ان موسى

في ساحل النيل وجزائره وذلك ان التمساح لا دبر له ومايا كله يكون فى بطنه دود اواذا آذاه ذلك الدود خرج الى البر فاستلقى على قفاه فاغرا فاه فينقض اليه طير الماء كالطيطوى والحصافى وغير ذلك من أنواع الطيور قد اعتاد ذلك منه فيأكل ما ظهر فى جوفه من ذلك الدود وتكون تلك الدويبة قد كمنت فى الرمل تراعيه فتدب الى حلقه وتصير فى جوفه فيخبط بنفسه فى الارض فيطلب قعر النيل حتى تأتى الدويبة على حشوة جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج وربما يقتل نفسه قبل ان تخرج فتخرج بعد موته وهذه الدويبة تكون نحوا من ذراع على صورة ابن عرس ولها قوائم ومخالب وفى بحر الزنج أنواع من السمك بصور شتى ولولا ان النفوس تنكر مالم تعرفه وتدفع مالم تألفه لاخبرنا عن عجائب هذه البحار وما فيها من الحيتان والدواب وغير ذلك من عجائب الماء والجماد فلنرجع الآن الى ذكر تشعب مياه هذا البحر وخلجانه ودخوله فى البر ودخول البر فيه فنقول ان خليجا آخر يمتد من هذا البحر الحبشى فينتهى الى مدينة القلزم من أعمال مصر وبينها وبين فسطاط مصر ثلاثة أيام وعليه مدينة ايلة والحجاز وجدّة واليمن طوله ألف وأربعمائة ميل وعرض طرفيه مائتا ميل

ابن

ابن نصير نصره الله نصراً ما عليه مزيد وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الاندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الارض الكبيرة فاجتمعت الافرنج الى ملكها الاعظم قارله وهذه سمة لملكهم فقالت له ما هذا الخزى الباقى فى الاعقاب كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الاندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم فقال لهم ما معناه الرأى عندى ان لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى اقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر قال فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضرية واليمانية وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء انتهى * وقيل ان موسى بن نصير اخرج ابنه عبد الاعلى الى تدمير ففتحها والى غرناطة ومالقة وكورة ريه ففتح الكل وقيل انه لما حاصر مالقة وكان ملكها ضعيف الرأى قليل التحفظ كان يخرج الى جنان له بجانب المدينة طلبا للراحة من غمة الحصار من غير نصب عين وتقديم طليعة وعرف عبد الاعلى بامره فاكمن له فى جنبات الجنة التى كان ينتابها قوما من وجوه فرسانه ذوى راى وحزم ارصدوا له ليلا فظفروا به وملكوه فأخذ المسلمون البلد عنوة وملؤا ايديهم غنيمة * وقيل كانت نفس موسى بن نصير فى ذلك كله تنزع الى دخول دار الكفر جليقية فبينما هو يعمل فى ذلك ويعد له اذ اتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه يامره بالخروج عن الاندلس والاضراب عن الوغول فيها وياخذه بالقفول اليه فساءه ذلك وقطع به عن ارادته اذ لم يكن فى الاندلس بلد لم تدخله العرب الى وقته ذلك غير جليقية فكان شديد الحرص على اقتحامها فلاطف موسى مغيثا رسول الخليفة وسأله انظاره الى ان ينفذ عزمه فى الدخول اليها والمسير معه فى البلاد اياما ويكون شريكه فى الاجر والغنيمة ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك فأقام هنالك وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الاخضر فلم تبق كنيسة الا هدمت ولا ناقوس الا كسر وطاعت الاعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوه قاطنين فاتسع نطاق الاسلام بأرض الاندلس وخذل الشرك وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الامل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى ابا نصر اردف به الوليد مغيثا لما استبطأ موسى فى القفول وكتب اليه يوبخه ويامره بالخروج والزم رسوله ازعاجه فانقلع حينئذ من مدينة لك بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ووافاه طارق فى الطريق منصرفا من الثغر الاعلى فأقفله مع نفسه ومضيا جميعا ومعهما من الناس من اختار القفول واقام من آثر السكنى فى مواضعهم التى كانوا قد اختطوها واستوطنوها وقفل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا باشبيلية فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس واقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر نظرا لقربه من مكاره المجاز وركب موسى البحر الى المشرق

وهو أقرب المواضع من عرضه وعرضه فى الأصل سبعمائة ميل وهو أكثر ١٢٩ العرض فيه ويلاقى ما ذكرناه من الخلجان وبلاد ابلة من غربية الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد العلاقى وبلاد العيذاب من أرض مصر وأرض البجه ثم أرض الحبشة والاحابش والسودان الى أن يتصل ذلك بأقاصى أرض الزنج وأسافلها فيتصل الى بلاد سفالة من أرض الزنج ويتشعب من هذا البحر خليج آخر وهو بحر فارس وينتهى الى بلاد الابلة والحبشان وعبادان من أرض البصرة وعرضه فى الاصل خمسمائة ميل وطول هذا الخليج ألف وأربعمائة ميل وربما يصير عرض طرفيه مائة وخمسين ميلا وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهى أحد زواياه الى بلاد الابلة وعليه مما يلى المشرق ساحل فارس من بلاد دورق الفرس ومهربان ومدينة حسان واليها تضاف الثياب الحسانية ومدينة أجرة ببلاد سيراف ثم بلاد ابن عمارة ثم ساحل كرمان ويتصل به على ساحله هذا بلاد مكران وهى أرض الخوارج الشراة وهذه كلها أرض نخل ثم ساحل السند وفيه مصب نهر مهران وهناك مدينة الديبل ثم يكون مارا متصلا بساحل الهند الى بلاد بروص واليها يضاف القنا البروصي برا متصلا الى أرض الصين ساحلا واخذا

بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه وكان مقام طارق بالاندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين واربعة اشهر وحمل موسى الغنائم والسبى وهو ثلاثون الف رأس والمائدة منوّه بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الامتعة مالا يقدر قدره وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته أسف على ما لحقه من الازعاج وكان يؤمل ان يخترق ما بقى عليه من بلاد افرنجة ويقتحم الارض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام مؤملا ان يتخذ مخترقه بتلك الارض طريقا مهيعا يسلكه اهل الاندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحرا وقيل انه أوغل فى ارض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وارض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هى يابنى اسمعيل انتهيتم فارجعوا فهاله ذلك وقال ما كتب هذا الا لمعنى كبير فشاور أصحابه فى الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه فاخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية (وحكى الرازى) ان موسى خرج من افريقية الى الاندلس فى رجب سنة ثلاث وتسعين واستخلف على افريقية اسنّ ولده عبدالله بن موسى وكان موسى فى عشرة آلاف قال وكان عبد الملك بن مروان هو الذى أغزى موسى المغرب فى خلافته ففتح له فى اهله البرابرة فتوح كبار حتى لقد بعث الى عبد الملك فى الخمس بعشرين الف سبية ثم أردفها بعشرين الفا أخرى كل ذلك من البربر فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك * وزعم ابن حبيب انه دخل الاندلس رجل واحد من اصاغر الصحابة وهو المنيذر قال ودخلها من التابعين ثلاثة موسى الامير وعلى بن رباح اللخمى وحيوة بن رجاء التميمى وقيل ان ثالثهم انما هو حنش بن عبدالله الصنعانى صنعاء الشام وانهم قفلوا عنها بقفول موسى واهل سرقسطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه فالله اعلم * وقيل ان التابعين اربعة بأبى عبدالرحمن الحبلى الانصارى واسمه عبدالله بن يزيد والله اعلم وخمسهم بعضهم بحيان بن ابى جبلة مولى بنى عبدالدار وكان فى ديوان مصر فبعثه عمر بن عبدالعزيز الى افريقية فى جماعة من الفقهاء ليفقهوا اهلها وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وحدّث عنه عبدالرحمن بن زياد بن انعم وغيره وغزا مع موسى حين افتتح الاندلس وانتهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة وقيل بل قفل الى افريقية فتوفى بها بعد العشرين ومائة * وقال بعضهم ان بين قرقشونة هذه وبين برشلونة مسافة خمسة وعشرين يوما وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة شنت مريه وقد حكى ابن حيان ان فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراؤن مثلها لا يحيط الانسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مفرط * وحنش الصنعانى المذكور تابعى جليل كان مع على رضى الله عنه بالكوفة وقدم مصر بعد قتله فصار عداده فى المصريين وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه وكفى الاندلس شرفا دخوله لها * وعلى بن رباح بصرى تابعى يكنى ابا عبدالله وهو لخمى ولد عام اليرموك سنة خمس عشرة قال ابن معين اهل مصر يقولونه بفتح العين وأهل العراق يقولونه بضمها وروى الليث عن ابنه موسى بن على وكانت لعلى بن رباح عند

و يقابل ماذكرنا من مبدا ساحل كرمان والسند بلاد البحرين وجزائر قطن وسط بنى خزيمة و بلاد عمان وأرض مهرة الى رأس الجمجمة الى أرض الشحر والاحقاف وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة حارك وهى بلاد جنابة لان حارك مضافة الى جنابة و بينها وبين البر فراسخ فيها مغاص اللؤلؤ المعروف بالحاركى وجزيرة اولى فيها بنو معن وابن مسمار وخلائق كثيرة من العرب بينها وبين مدن ساحل البحر نحو يوم بل اقل من ذلك وفى ذلك الساحل مدينة البراوة والعقل والقطيف من ساحل هجر ثم بعد جزيرة اولى جزائر كثيرة منها جزيرة لافت وتدعى جزيرة بنى كلوان وقد كان افتتحها عمرو بن العاص وفيها مسجده الى هذه الغاية وفيها خلق من الناس وقرى وعمارة متصلة وتقرب هذه الجزيرة الى جزيرة هيبان ومنها يستقى ارباب المراكب الماء ثم الجبال المعروفة بكسير وعوير وثالث ليس فيه طير ثم الدردور المعروف بدردور مسندم وتكنيه البحريون بابى جهرة وهذه مواضع من البحر وجبال سود ذاهبة فى الهواء لانبات عليها ولا حيوان تحيط بها مياه من البحر عظيمة نعرة وامواج متلاطمة تجزع منها النفوس اذا اشرفت عليها وهذه المواضع من بلاد عمان وسيراف لابد للراكب من الجواز

عبد

عبد العزيز بن مروان مكانه وهو الذي زف ابنته أم البنين لزوجها الوليد ثم عتب عليه عبد العزيز فأغزاه أفريقية * وأما المنيذر الصحابي فلم ينسبه ابن حبيب وذكره ابن عبد البر في الصحابة وقال انه المنيذر الافريقي وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلي قال حدثنا المنيذر الافريقي وكان سكن أفريقية وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول من قال رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا فأنا الزعيم له فلآخذن بيده فلأدخلنه الجنة ورواه عنه ابن عبد البر بسنده اليه وسيأتي ان شاء الله تعالى في حق المنيذر مزيد بيان * ولما قفل موسى بن نصير الى المشرق وأصحابه سأل مغيثا أن يسلم اليه العلج صاحب قرطبة الذي كان في اساره فامتنع عليه وقال لا يؤديه للخليفة سواي وكان يدل بولائه من الوليد فهجم عليه موسى فانتزعه منه فقيل له ان سرت به حيا معك ادعاه مغيث والعلج لا ينكر قوله ولكن اضرب عنقه ففعل فاضطغنها عليه مغيث وصار ألبا مع طارق الساعي عليه واستخلف موسى على طنجة وما يليها من المغرب ابنه الآخر عبد الملك وقد كان كما مر استخلف بافريقية أكبر أولاده عبد الله فصار جميع الاندلس والمغرب بيد أولاده وابنه عبد الله الذي خلفه بافريقية هو الفاتح لجزيرة ميورقة وسار موسى فورد الشام واختلف الناس هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده فمن يقول بالثاني قال قدم على سليمان حين استخلف وكان منحرفا عليه فسبق اليه طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة وقالا له انه قد غل جوهرا أعظم القدر أصابه ولم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله فلما وافى سليمان وجده ضغينا عليه فأغلظ له واستقبله بالتأنيب والتوبيخ فاعتذر له ببعض العذر وسأله عن المائدة فأحضرها فقال له زعم طارق انه الذي أصابها دونك قال لا ومارآها قط الا عندي فقال طارق فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التي تنقصها فسأله فقال هكذا أصبتها وعوضتها رجلا صنعتها لها فحوّل طارق يده الى قبائه فأخرج الرجل فعلم سليمان صدقه وكذب موسى فحقق جميع مارمي به عنده وعزله عن جميع أعماله وأقصاه وحبسه وأمر بتقصي حسابه فأغرمه غرما عظيما كشفه فيه حتى اضطر الى ان سأل العرب معونته فيقال ان لخما حملت عنه في أعطيتها تسعين ألفا ذهبا وقيل حمله سليمان غرم مائتي ألف فأدى مائة ألف وعجز فاستجار بيزيد بن المهلب أسير سليمان فاستوهبه من سليمان فوهبه اياه الا انه عزل ابنه عبد الله عن افريقية (وقال الرازي) ان الذي أزعج موسى عن الاندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلا وقفل معه من أحب المشرق وكان اكثر الناس قطنوا ابلاد الاندلس لطيبها فأقاموا فيها * وذهب جماعة من أهل التاريخ الى أن موسى انما قدم على الوليد وأن سليمان ولي العهد لما سمع بقرب موسى بن نصير من دمشق وكان الوليد مريضا كتب أي سليمان الى موسى يأمره بالتربص رجاء ان يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان في أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التي ماروي ولا سمع مثلها فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس فأبى موسى من ذلك ومنعه دينه منه وجد في السير حتى قدم والوليد حي فسلم له الاخماس والمغانم والتحف والذخائر فلم يمكث الوليد الا يسيرا بعد قدوم موسى وتوفي واستخلف سليمان فحقد

عليها والدخول في وسطها تخطئ وتصيب وهذا البحر وهو خليج فارس ويعرف بالبحر الفارسي عليه ماوصفنا من البحرين وفارس والبصرة وعمان الى رأس الجمجمة ومابين هذا الخليج وخليج القلزم ايلة والحجاز واليمن ويكون بين الخليجين من المسافة ألف وخمسمائة ميل وهي داخلة من البر في البحر والبحر يطيف بها من اكثر جهاتها على ماوصفنا فهذا البحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحجاز والقلزم والزنج والسند ومن في جزائره ومن قد احاط به من الامم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم ولا عددهم الا من خلقهم سبحانه وتعالى ولكل قطعة منه اسم يفردها من غيرها والماء واحد متصل غير منفصل وفي هذا البحر مغاصات الدر والياقوت وفيه العقيق والباذبيج وهو نوع من البجادي وانواع الياقوت والماس والسنباذج وفيه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كلة وسريرة وحوله معادن حديد مما يلي بلاد كرمان ونحاس بأرض عمان وفيه انواع الطيب والافاويه والعنبر والساج والخشب المعروف بالرداسجي والقنا والخيزران وسنذكر بعد هذا الموضع تفصيل مواضع فيه ادركناها وكل ماذكرنا من الجواهر والطيب والنبات ففيه وحوله وسائر ماذكرنا من هذا البحر يدعى بالبحر الحبشي ورياح ماوصفنا من قطعه التي تدعى كل واحدة منها بحرا

عليه وأهانه وأمر باقامته في الشمس حتى كاد يهلك وأغرمه أموالا عظيمة ودس الى أهل الاندلس بقتل ابنه الذي استخلفه على الاندلس وهو عبد العزيز بن موسى وكان تولى الاندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه اياه كما سبق فضبط سلطانها وضم نشرها وسد ثغورها وافتتح في ولايته مدائن كثيرة مما كان قد بقي على أبيه موسى منها وكان من خير الولاة الا ان مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم اياه عقب سنة خمس وتسعين في خلافة سليمان الموقع بابيه موسى لاشياء نقموها عليه منها زعموا تزوجه لزوجة لذريق المكناة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وامو الها وقت الفتح وباءت بالجزية وأقامت على دينها في ظل نعمتها الى ان نكحها الامير عبد العزيز فحظيت عنده ويقال انه سكن بها في كنيسة باشبيلية وانها قالت له لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كان يسجد للذريق زوجها الاول أهل مملكته فقال لها ان هذا حرام في ديننا فلم تقنع منه بذلك وفهم لكثرة شغفه بها ان عدم ذلك مما يزرى بقدره عندها فاتخذ بابا صغيرا قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه فينحنون وأفهمها ان ذلك الفعل منهم تحية له فرضيت بذلك فنمى الخبر الى الجند مع ما انضم الى ذلك من دسيسة سليمان لهم في قتله فقتلوه سامحه الله تعالى * وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي هي ارجعوا يا بني اسمعيل الخ ما معناه وان شئتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض انتهى (قال ابن حيان) وليحيى بن حكم الشاعر المعروف بالغزال في فتح الاندلس ارجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب في غزوها نظما وتفصيل الوقائع بين المسلمين وأهلها وعدد الامراء عليها وأسماءهم فأجاد وتقصى وهي بايدي الناس موجودة انتهى وقد عرفت بما سبق تفصيل ما اجمله ابن خلدون والروايات في فتح الاندلس مختلفة وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية وأشرنا الى بعض الاختلاف في ذلك ولو بسطنا العبارة في الفتح لكان وحده في مجلد أو اكثر وعلم مما ألممنا به من كلام ابن خلدون السابق ذكر الولاة للاندلس من لدن الفتح وهم من قبل بني مروان بالمشرق المنفردين بامامة المسلمين أجمعين قبل تفرقهم الى ان انقرضت دولتهم العظيمة التي هي ألف شهر فاقتطع الاندلس عن بني العباس الدائلين على بني مروان الناسخين لهم فل المروانيين عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان واقتعدها دار مملكة مستقلة لنفسه ولاعقابه وجمع بها شمل بني أمية ومواليهم وأورثها بنيه حقبة من الدهر بعد ان قاسى في ذلك خطوبا واجتمع عليه ثم على ذريته من بعده اهل الاندلس اجمعون رضا بهم دون بني العباس بعد ان حاول بنو العباس ملكها بان ولوا بعض رؤساء العرب وامروهم بالقيام على عبد الرحمن والدعاء للعباسيين القاطعين جرثومة دولة بني مروان فلم يتيسر ذلك وظفر عبد الرحمن بمن نصب له الحرب في ذلك وقتل منهم آلافا وذلك في مدة المنصور كما سيأتي ان شاء الله تعالى عند ذكر عبد الرحمن الداخل في موضع آخر وسنذكر قريبا ولاة الاندلس من حين الفتح الى امارة الداخل وان سبق في كلام ابن خلدون * وقال بعضهم كانت ولادة موسى بن نصير في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٩ من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة وأجل السلام وعلى آله وصحبه اجمعين انتهى * وقال الحجاري في المسهب يحكى ان موسى بن نصير اتى بنفسه على يزيدين

كقولنا بحر فارس وبحر اليمن وبحر القلزم وبحر الحبش وبحر الزنج وبحر النيل وبحر الهند وبحر كله وبحر الرانج وبحر الصين فمختلفة فمنها ماريحه من قعر البحر يظهر فيقلقه ويعظم موجه كالقدر تفور عما يلحقها من مواد حرارة النار ومنها ماريحه والبدء فيه من قعره والنسيم ومنها مايكون مهبه من النسيم دون ما يظهر من قعره وما وصفناه مما يظهر من قعره من الرياح تنفسات من الارض تظهر الى قعره تظهر في سطحه والله عزوجل اعلم بكيفية ذلك ولكل من يركب هذه البحار من الناس أرياح يعرفونها في اوقات تكون فيها مهابها قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ودلائل وعلامات يعلمون بها ابان هيجانه واحوال ركوبه وثورانه والروم والمسافرون في البحر الرومي سبيلهم كذلك وكذلك من يركب بحر الخزر الى بلاد جرجان وطبرستان والديلم وسنأتي بعد هذا الموضع على جمل وفصول من علم معرفة هذه البحار وعجائب اوصافها واخبارها ان شاء الله تعالى

(ذكر تنازع الناس في المد والجزر وجوامع مما قيل في ذلك)

والمد مضى الماء في فيئته وسيئته وسنن جريته والجزر رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيئته وذلك كبحر

المهلب لمكانه من امير المؤمنين سليمان بن عبد الملك وطلب منه ان يكلمه في ان يخفف عنه فقال له يزيد اريد ان اسألك فاصغ الى قال سل عما بدا لك فقال له لم ازل اسمع عنك انك من اعقل الناس واعرفهم بمكايد الحروب ومداراة الدنيا فقل لى كيف حصلت فى يد هذا الرجل بعد ما ملكت الاندلس والقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار وتيقنت بعد المرام واستصعابه واستخلصت بلادا انت اخترعتها واستملكت رجالا لا يعرفون غير خيرك وشرك وحصل فى يدك من الذخائر والاموال والمعاقل والرجال ما لو اظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك فى يد من لا يرحمك ثم انك علمت ان سليمان ولى عهد وانه المولى بعد أخيه وقد أشرف على الهلاك لا محالة وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك الى التهلكة وأحقدت مالكك ومملوكك قال يعنى سليمان وطارقا ومارضا هذا الرجل عنك الا بعيد ولكن لا آلو جهدا فقال موسى يا ابن الكرام ليس هذا وقت تعديد اما سمعت اذا جاء الحين غطى على العين فقال ما قصدت بما قلت لك تعديدا ولا تبكيتا وانما قصدت تلقيح العقل وتنبيه الرأى وان أرى ما عندك فقال موسى اما رأيت الهدهد يرى الماء تحت الارض عن بعد ويقع فى الفخ وهو بمرأى عينه ثم كلم فيه سليمان فكان من جوابه انه قد اشتمل رأسه بما تمكن له من الظهور وانقياد الجمهور والتحكم فى الاموال والابشار على ما لا يمحوه الا السيف ولكن قد وهبت لك دمه وأنا بعد ذلك غير رافع عنه العذاب حتى يرد ما غل من مال الله قال وآلت حاله الى ان كان يطاف به ليسأل من احياء العرب ما يفتك به نفسه وفى تلك الحال مات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادى القرى سائلا من كان نازلا به وقال احد غلمانه ممن وفى له فى حال الفقر والخمول لقد رأيتنا نطوف مع الامير موسى بن نصير على احياء العرب فواحد يحيينا وآخر يحتجب عنا ولربما دفع الينا على جهة الرحمة الدرهم والدرهمين فيفرح بذلك الامير ليدفعه الى الموكلين به فيخففون عنه من العذاب ولقد رأيتنا أيام الفتوح العظام بالاندلس نأخذ السلوب من قصور النصارى فنفصل منها ما يكون فيها من الذهب وغير ذلك ونرمى به ولا نأخذ الا الدر الفاخر فسبحان الذى بيده العز والذل والغنى والفقر قال وكان له مولى قد وفى له وصبر عليه الى ان ضاق ذرعه بامتداد الحال فعزم على ان يسلمه وهو بوادى القرى فى اسوا حال وشعر بذلك موسى فخضع للمولى المذكور وقال له يا فلان اتسلمنى فى هذه الحالة فقال له المولى من شدة ما كان فيه من الضجر قد اسلمك خالقك وما لكك الذى هو ارحم الراحمين فدمعت عيناه وجعل يرفعهما الى السماء خاضعا مهينا بشفتيه فما سفرت تلك الليلة الا عن قبض روحه رحمة الله عليه فقد كان له من الاثر ما يوجب ان يترحم عليه وان فعل سليمان به وبولده وكونه طرح راس ابنه عبد العزيز الذى تركه نائبا عنه بالاندلس وقد جىء به من اقصى المغرب بين يديه من وصماته التى تعد عليه طول الدهر لا جرم أن الله تعالى لم يمتعه بعده بملكه وشبابه * وذكر ابن حيان ان موسى كان عربيا فصيحا وقد سبق من مراجعة يزيد بن المهلب ما يدل على بلاغته ويكفى منها ما ذكره ابن حيان انه كتب الى الوليد بن عبد الملك فيما هاله من فتوح الاندلس وغنائمها انها ليست الفتوح ولكنها الحشر وقال الحجارى ان منازعة جرت بينه وبين عبد الله بن يزيد بن اسيد بمحضر عند عبد الملك بن

الحبش الذى هو الصينى والهندى وبحر البصرة وفارس المقدم ذكره قبل هذا الباب وذلك ان البحار على ثلاثة انواع منها ما يتأتى فيه الجزر والمد ويظهر ظهورا بينا ومنها ما لا يتبين فيه الجزر والمد يكون مستتما ومنها ما لا يجزر ولا يمد كالبحار التى لا يكون فيها الجزر والمد امتنع منها الجزر والمد لعلل ثلاث وهى على ثلاثة اصناف فاولها ما يقف الماء فيه زمانا فيغلظ وتقوى ملوحته وتتكيف فيه الارياح لانه ربما صار الماء الى بعض المواضع من بعض فيصير كالبحيرة وينقص فى الصيف ويزيد فى الشتاء ويتبين فيه زيادة ما ينصب فيه من الانهار والعيون والصنف الثانى الذى يبعد عن مدار القمر ومسافاته بعدا كثيرا فيمتنع منه المد والجزر والصنف الثالث المياه التى يكون الغالب على ارضها التخلخل لانه اذا كانت ارضها متخلخلة بعد الماء منها الى غيرها من البحار وتخلخل وانشبت الرياح الكائنة فى ارضها اولا وغلبت الرياح عليها واكثر ما يكون هذا فى ساحل البحار والجزائر وقد تنازع الناس فى علة المد والجزر فمنهم من ذهب الى ان ذلك من القمر لانه مجانس للماء وهو يسخنه فينبسط وشبهوا ذلك بالنار اذا اسخنت ما فى القدر واغلته وان الماء يكون فيها على قدر النصف او الثلثين وكلما انبسط فى القدر ارتفع

مروان الحاته الى ان قال شعرا منه

جاريت غير سؤم فى مطاولة * لو نازع الحقل لم ينزع الى حضر

وتقدم ماذكره غير واحد كابن حيان ان موسى مولى عبد العزيز بن مروان وكذا ذكره الحجارى تجهز مع ام البنين بنت عبد العزيز حين ابتنى بها الوليد بن عبد الملك فكانت تنمى مكانته عند الوليد الى أن بلغ مابلغ واشهر من كان فى صحبة موسى بن نصير من مواليه طارق المشهور بالفتوح العظيمة وطريف وقد جرى ذكرهما فى كتابنا هذا بما اقتضاه الاختصار * وقال ابن سعيد بعد ذكره الخلاف فى ان موسى هل هو لخمى صريح او بالولاء او بربرى او مولى لعبد العزيز بن مروان ما صورته وكان فى عقبه نباهة فى السلطنة ولى ابنه عبد العزيز سلطنة الاندلس وعبد الملك سلطنة المغرب الاقصى وعبد الله سلطنة افريقية وذكر الحجارى ان اصله من وادى القرى بالحجاز وانه خدم بنى مروان بدمشق وتنبه شأنه فصرفوه فى ممالكهم الى ان ولى افريقية وماوراءها من المغرب فى زمن الوليد بن عبد الملك ودوخ اقاصى المغرب ودخل الاندلس من جبل موسى المنسوب اليه المجاور لسبتة ودوخ بلاد الاندلس ثم وفد الوليد الى الشام فوافق مرضه ثم موته وخلافة اخيه سليمان فعذبه واستصفى امواله وآل امره الى ان وجهه الى قومه بوادى القرى لعلهم يعطفون عليه ويؤدون عنه فمات بها وقد نص ابن بشكوال على انه مات بوادى القرى * اما معارفه السلطانية فيكفيه ولاية ماخلف مصر الى البحر المحيط بين برى البر والاندلس * واما الادبية فقد جاءت عنه بلاغة فى النثر والنظم تدخله مع نزارتها فى اصحاب در الكلام وذكر ابن بشكوال انه من التابعين الذين رووا الحديث وان روايته عن تميم الدارى وذكره فى كتب الائمة من المصنفين ابنه واوعب من ان يخصص بذكره واحدا منهم وهو غرة التواريخ الاندلسية وذكره الى الآن جديد فى ألسن الخاصة والعامة من أهلها * ومن مسهب الحجارى كان قد جمع رحمه الله من خلال الخير ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد والذكر الشهير المخلد الذى لا يبليه الليل والنهار ولا يعفى جديده بلى الاعصار الا انه كان يغلب عليه مالا يكاد رئيس يسلم منه وهو الحقد والحسد والمنافسة لا تخلو من ذلك وأنشد بعض الرؤساء * وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا * فقلبه الرئيس وقال من يترك الحقد ثم قال ان السيد اذا ترك اضمار الخير والشر والمجازاة عليهما اجترئ عليه ونسب للضعف والغفلة وهل رأيت صفقة أخسر من غفلة رئيس احتقد غيره فنسى ذلك او تناساه وعدوه لا يغفل عنه وحاسده لا ينفعه عنده الا الراحة منه وهو فى واد آخر عنه ولله در القائل

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع الندى

ولكن الاصوب أن يكون الرأى ميزانا لا يزن الوافى لناقص ولا يزن الناقص لواف ويدبر أمره على ما يقتضيه الزمان ويقدر فيه حسن العاقبة * ونص ابن بشكوال على ان موسى بن نصير مات بوادى القرى سنة سبع وتسعين وغزا الاندلس سنة احدى وتسعين ودخلها سنة ثلاث وتسعين وقفل عنها الى الوليد بن عبد الملك بالغنائم سنة أربع وتسعين وذكر ان ولايته على الاندلس بالمباشرة منذ دخلها الى حين خروجه منها سنة واحدة ومكث فيها مولاه طارق سنة

وتدافع حتى يفور فيتضاعف عن كميته فى الحس وينقص فى الوزن لان من شرط الحرارة ان تبسط الاجسام ومن شرط البرودة ان تضمها وذلك ان قعور البحار تحمى فيتولد فى ارضها عذوبة وتستحيل وتحمى كما فى البلاليع والآبار فاذا حمى ذلك الماء انبسط وزاد واذا زاد ارتفع فدفع كل جزء منه فطفا على سطحه وبان عن قعره فاحتاج الى اكثر من هديه وان القمر اذا امتلأ حمى الجو حميا شديدا فظهرت زيادة الماء فسمى ذلك المد الشهرى وان هذا البحر تحت معدل النهار آخذا من جهة المشرق الى المغرب ودور الكواكب المتحيرة عليه مع الشامية من الكواكب الشامية اذا كانت المتحيرة فى القدر مثل الميل على تجاوزه واذا زالت عنه كانت منه قريبة فاعلة فيه من اوله الى آخره فى كل يوم وليلة وهى مع ذلك فى الموضع المقابل الحمى فقليل ما يعرض فيه من الزيادة ويكون فى النهر الذى يعرف فيه المد من اطرافه وما يصب اليه من سائر المياه وقالت طائفة اخرى لو كان الجزر والمد بمنزلة النار اذا أسخنت الماء الذى فى القدر وبسطته فطلب اوسع منها فيفيض حتى اذا خلا قعره من الماء طلب الماء بعد خروجه منها عمق الارض لطغيه فيرجع اضطرارا بمنزلة رجوع ما يغلى من الماء فى المرجل والقمقم انتهى

انتهى وقد تقدم شىء من ذلك * وذكر ابن بشكوال أيضا ان ابن حبيب قال عن ربيعة غل الناس كلهم يوم فتح الاندلس الا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين حنش الصنعانى وأبو عبد الرحمن الحبلى وابن شماسة وعياض بن عقبة انتهى * قال ابن سعيد وممن دخل الاندلس من غير هؤلاء الاربعة من التابعين على بن رباح اللخمى وموسى بن نصير فاتح الاندلس وحيان ابن أبى جبلة القرشى مولاهم وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى صاحب الاندلس المذكور فى سلاطينها ومحمد بن أوس بن ثابت الانصارى وزيد بن قاصد السكسكى والمغيرة بن أبى بردة الكنانى وعبد الله بن المغيرة الكنانى وحيوة بن رجاء التميمى وعبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ومنصور بن خزامة وعلى بن عثمان بن خطاب * وذكر ابن حبيب ان عدة من دخل الاندلس من التابعين سوى من لا يعرف نحو عشرين رجلا وفى كتاب ابن بشكوال انه دخل الاندلس من التابعين ثمانية وعشرون رجلا وهم اسسوا قبلة المسجد الجامع بقرطبة وسمى الحجارى فى المسهب هؤلاء المتقدمين * وذكر ابن سعيد انه لم يتحقق المواضع التى تختص بهؤلاء التابعين من بلاد الاندلس مع جزمه بأنهم دخلوا الاندلس وسكنوا بها وسيأتى ذكر التابعين الداخلين الاندلس بما هو أشمل من هذا وقد تقدم غلول من عدا التابعين من الغنائم * وقال الليث بن سعد بعد ذكره ان طارقا اصاب بالاندلس مغانم كثيرة من الذهب والفضة ان كانت الطنفسة لتوجد منسوجة بقضبان الذهب وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وكان البربر بما وجدوها فلا يستطيعون حملها حتى يأتوا بالفاس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر لنفسه ويسير معهم جماعة والناس مشتغلون بغير ذلك * وعن يحيى بن سعيد لما افتتحت الاندلس أصاب الناس فيها غنائم فغلوا منها غلولا كثيرا حملوه فى المراكب وركبوا البحر فسمعوا مناديا يقول اللهم غرق بهم وتقلدوا المصاحف فما نشبوا أن أصابتهم ريح عاصف وضربت المراكب بعضها بعضا حتى تكسرت وغرق بهم وأهل مصر ينكرون ذلك ويقولون أهل الاندلس ليس هم الذين غرقوا وانما هم أهل سردانية فالله أعلم بحقيقة الحال * ورأيت فى بعض كتب التاريخ انه وجد فى طليطلة حين فتحت من الذخائر والاموال مالا يحصى فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ووجد فيها ألف سيف ملوكى ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ومن أوانى الذهب والفضة مالا يحيط به وصف ومائدة سليمان وكانت فيما يذكر من زمردة خضراء وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان وانما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسبة فى دينهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فاذا اجتمع عندهم مال له قدر صاغوا منه الآلات من الموائد العجيبة والكراسى من الذهب والفضة تحمل الشمامسة والقسوس فوقها الاناجيل فى أيام المناسك ويضعونها فى الاعياد للمباهاة فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صنع فى هذا السبيل وتأنق الملوك فى تحسينها يزيد الآخر منهم فيها على الاول حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات وطار الذكر بها كل مطار وكانت مصوغة من الذهب الخالص مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد وقيل انها من زبرجدة خضراء حافاتها وأرجلها منها

اذافاض وتتابعت اجزاء النار عليه بالحمى لكان فى الشمس اشد سخونة ولو كانت الشمس علة مده لكان يمد مع بدء طلوع الشمس ويجزر مع غيبتها فزعم هؤلاء ان علة الجزر والمد فى الابحر تتولد من الابخرة التى تتولد من بطن الارض فانها لاتزال تتولد حتى تكثف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها فلاتزال كذلك حتى تنقص موادها من أسفل فاذا انقطعت موادها تراجع الماء حينئذ الى قعر البحر وكان الجزر من أجل ذلك والمد ليلا ونهارا وشتاء وصيفا وفى غيبة القمر وفى طلوعه وكذلك فى غيبة الشمس وطلوعها قالوا وهذا يدرك بالحس لانه ليس يستكمل الجزر آخره حتى يبدو أول المد ولا ينقضى آخر المد حتى يبتدئ أول الجزر لانه لا يتغير تولد تلك البخارات حتى اذا خرجت تولد غيرها مكانها وذلك ان البحر اذا غارت مياهه ورجعت الى قعره تولدت تلك الابخرة لمكان ما يتصل منها من الارض بمائه وكلما غارت تولدت وكلما فاض نقصت وذهب آخرون من أهل الديانات ان كل مالم يعرف له من الطبيعة مجرى ولا يوجد له فيها قياس فهو فعل الاله يدل على توحيد الله عز وجل وحكمته فليس للمد والجزر علة فى الطبيعة البتة ولا قياس وقال آخرون ماهيجان البحر

وكان لها ثلثمائة وخمس وستون رجلا وكانت توضع فى كنيسة طليطلة فأصابها طارق انتهى وقد ذكرنا فيما مر عن ابن حيان ما فيه نظير هذا وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف وما ذلك الا لانا ننقل كلام المؤرخين وان خالف بعضهم بعضا ومرادنا تكثير الفائدة وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار وان حصل الخلاف فى صفتها وجنسها وعدد أرجلها وهى من أجل ما غنم بالاندلس على كثرة ما حصل فيها من الغنائم المتنوعة الاجناس التى ذكرها الى الآن شائع بين الناس فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الاسلام بالاندلس وتتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم الى الحلول بها فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم الى أن كان من أمرهم ما كان فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش وأما بنو هاشم من قريش فقال ابن غالب فى فرحة الانفس بالاندلس منهم جماعة كلهم من ولد ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الاندلس بعد انتثار سلك بنى أمية وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الاندلس قال ابن سعيد وهم يعرفون هنالك الى الآن بالقرشيين وانما عموا نسبهم الى أمية فى الآخر لما انحرف الناس عنهم وذكروا افعالهم فى الحسين رضى الله عنه وأما بنو زهرة فمنهم باشبيلية اعيان متميزون وأما المخزوميون فمنهم ابو بكر المخزومى الاعمى الشاعر المشهور من اهل حصن المدور ومنهم الوزير الفاضل فى النظم والنثر ابو بكر بن زيدون ووالده الذى هو اعظم منه ابو الوليد بن زيدون وزير معتضد بنى عباد * قال ابن غالب وفى الاندلس من ينسب الى جمح والى بنى عبد الدار وكثير من قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الظواهر ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الاندلس ومن ولده بنو القاسم الامراء الفضلاء وبنو الجد الاعيان العلماء ومن بنى محارب ابن فهر يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سلطان الاندلس الذى غلبه عليها عبد الرحمن الاموى الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهرى صاحب الفتوح بافريقية قال ابن حزم ولهم بالاندلس عدد وثروة وأما المنتسبون الى عموم كنانة فكثير وجاههم فى طليطلة واعمالها ولهم ينسب الوقشيون الكنانيون الاعيان الفضلاء الذين منهم القاضى ابو الوليد والوزير ابو جعفر ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب الرحلة وقد ذكرناه فى محله وأما هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب ان منزلهم بجهة اربولة من كورة تدمير وأما تميم ابن مرة بن ادبن طابخة بن الياس بن مضر فذكر ابن غالب ايضا انهم خلق كثير بالاندلس ومنهم ابو الطاهر صاحب المقامات اللزومية وأما ضبة بن ادبن طابخة فذكرانهم قليلون بالاندلس فهؤلاء خندف من العدنانية وأما قيس عيلان بن الياس بن مضر من العدنانية ففى الاندلس كثير منهم ينتسبون الى العموم ومنهم من ينتسب الى سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس كعبد الملك بن حبيب السلمى الفقيه صاحب الامام مالك رضى الله عنه وكالقاضى أبى حفص بن عمر قاضى قرطبة ومن قيس من ينتسب الى هوازن بن منصور بن عكرمة قال ابن غالب وهم باشبيلية خلق كثير ومنهم من ينتسب الى بكر بن هوازن قال ابن غالب ولهم منزل بحوفى بلنسية على ثلاثة اميال منها وباشبيلية وغيرها منهم

خلق

الا كهيجان بعض الطبائع فانك ترى صاحب الدم وصاحب الصفراء وغيرهما يهتاج الى طبيعته ثم يسكن قليلا حتى يعود وذهبت طائفة أخرى الى ابطال سائر ما وصفنا من القول وزعموا ان الهواء المطل على البحر يستحيل دائما فاذا استحال عظم ماء البحر وفاض عند ذلك واذا فاض البحر فهو المد فعند ذلك يستحيل ماؤه و يتنفس فيستحيل هواء فيعود الى ما كان عليه وهو الجزر وهو دائم مترادف متعاقب لان الماء يستحيل هواء والهواء يستحيل ماء قالوا وقد يجوز ان يكون ذلك عند امتلاء القمر أكثر لان القمر اذا امتلأ استحال الهواء أكثر مما كان يستحيل وانما القمر علة لكثرة المد لا للمد نفسه لانه قد يكون فى محاقه والمد والجزر فى بحر فارس يكونان على مطالع الفجر والاغلب من الاوقات وقد ذهب كثير من نواخذة هذا البحر وهم أرباب المراكب من السيرافيين والعمانيين ممن يقطعون هذا البحر ويختلفون الى عمارة من الامم التى فى جزائره وحوله الى ان المد والجزر لا يكون فى معظم هذا البحر الا مرتين فى السنة مرة يمد فى شهور الصيف شرقا بالشمال ستة أشهر فاذا كان ذلك طغى الماء فى مشارق البحر والجسر بالصين وما وراء ذلك الصقع ومرة يمد فى شهور الشتاء غربا بالجنوب ستة أشهر فاذا

خلق كثير ومنهم بنو حزم وهم بيت غير البيت الذي منه ابو محمد بن حزم الحافظ الظاهري وهو فارسي الاصل ومنهم من ينتسب الى سعد بن بكر بن هوازن وذكر ابن غالب ان منهم بغرناطة كثيرا كبني جودي وقد رأس بعض بني جودي ومنهم من ينتسب الى سلول امرأة نسب اليها بنوها وابوهم مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ومنهم من ينتسب الى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ومنهم من ينتسب الى نمير بن عامر بن صعصعة قال ابن غالب وهم بغرناطة كثير ومنهم من ينتسب الى قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومنهم بلج بن بشر صاحب الاندلس وآله وبنو رشيق ومنهم من ينتسب الى فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان ومنهم من ينتسب الى اشجع بن ريث بن غطفان ومن هؤلاء محمد بن عبد الله الاشجعي سلطان الاندلس وفي ثقيف اختلاف فمنهم من قال انها قيسية وان ثقيفا هو قيس ابن منبه بن بكر بن هوازن ومنهم بالاندلس جماعة واليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفي صاحب الاندلس وقيل انها من بقايا ثمود انتهى قيس بن عيلان وجميع مضر * وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب الى أسد بن ربيعة بن نزار قال في فرحة الانفس ان اقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفي مدينة وادي آش انتهى والاشهر بالنسبة الى أسد أبدا بنو أسد ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ومنهم من ينتسب الى محارب بن عمرو بن وديعة ابن بكير بن افصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة قال ابن غالب في فرحة الانفس ومنهم بنو عطية اعيان غرناطة ومنهم من ينتسب الى النمر بن قاسط بن هنب بن افصى بن دعمى بن جديلة بن اسد كبني عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر بن عبد البر ومنهم من ينتسب الى تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب كبني حمديس أعيان قرطبة ومنهم من ينتسب الى بكر بن وائل كالبكريين أصحاب أونبة وشلطيش الذين منهم أبو عبيد البكري صاحب التصانيف انتهت ربيعة * وأما اياد بن نزار وقد يقال انه ابن معد والصحيح الاول فينتسب اليهم بنو زهرة المشهورون باشبيلية وغيرهم انتهت العدنانية وهم الصريح من ولد اسمعيل عليه السلام واختلف في القحطانية هل هم من ولد اسمعيل أو من ولد هود على ما هو معروف وظاهر صنيع البخاري الاول والاكثر على خلافه والقحطانية هم المعروفون باليمانية وكثيرا ما يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالاندلس كما كان يقع بالمشرق وهم الاكثر بالاندلس والملك فيهم ارسخ الا ما كان من خلفاء بني أمية فان القرشية قدمتهم على الفريقين واسم الخلافة لهم بالمشرق وكان عرب الاندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والافخاذ الى ان قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداهية الذي ملك سلطنة الاندلس وقصد بذلك تشتيتهم وقطع التئامهم وتعصبهم في الاعتزاء وقدم القواد على الاجناد فيكون في جند القائد الواحد فرق من كل قبيل فانحسمت مادة الفتن والاعتزاء بالاندلس الا ما جاءت على غير هذه الجهة قال ابن حزم جماع أنساب اليمن من جرم بن كهلان وحمير بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح وقيل قحطان ابن الهميسع بن تيهان بن نابت بن اسمعيل وقيل قحطان ابن هود بن عبد الله بن رباح بن جارف.

كان الصيف طغى الماء في مغارب البحر والجسر بالصين وقد يتحرك البحر بتحرك الرياح وان الشمس اذا كانت في الجهة الجنوبية فكذلك تكون البحار في جهة الجنوب في الصيف لهبوب الشمال طامية عالية وتقل المياه في جهة البحار الشمالية وكذلك اذا كانت الشمس في الجنوب وسال الهواء من الجنوب في جهة الشمال سال معه ماء البحر من الجهة الجنوبية الى الجهة الشمالية فقلت المياه في الجهات الجنوبية منه ويتنقل ماء البحر في هذين الميلين أعني في جهتي الشمال والجنوب فيسمى جزرا ومدا اشتويا وذلك ان مد الجنوب جزره الشمال ومد الشمال جزره الجنوب فان وافق القمر بعض الكواكب السيارة في أحد الميلين زائدا قوي الحمى واشتد لذلك سيلان الهواء فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر الى الجهة المخالفة للجهة التي ليس فيها الشمس (قال المسعودي) فهذا رأي يعقوب بن اسحق الكندي واحمد بن الطيب السرخسي فيما حكاه عنه ان البحر يتحرك بالرياح ورأيت مثل ذلك ببلاد كنباية من أرض الهند وهي المدينة التي تضاف اليها النعال الكنبانية الصرارة وفيها تعمل وفيما يليها مثل مدينة سندارة وسريارة وكان دخولي اليها في سنة ثلاث وثلثمائة والملك بها وكان منهزما من قبل البلهزا

ابن عاد بن عوص بن ارم بن سام والخلف في ذلك مشهور فمنهم كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ومنهم الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان واليهم ينتسب محمد ابن هانئ الشاعر المشهور الالبيري وهو من بني المهلب ومن الازد من ينتسب الى غسان وهم بنو مازن بن الازد وغسان ماء شربوا منه وذكر ابن غالب ان منهم بني القسيمي من أعيان غرناطة وكثير منهم بصالحة قرية على طريق مالقة ومن الازد من ينتسب الى الانصار على العموم وهم الجم الغفير بالاندلس * قال ابن سعيد والعجب انك تعدم هذا النسب بالمدينة وتجده بالاندلس في اكثر بلدانها اما يشذ عن العدد كثرة ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه الا شيخا من الخزرج وعجوزا من الاوس قال ابن غالب وكان جزء الانصار بناحية طليطلة وهم اكثر القبائل بالاندلس في شرقها ومغربها انتهى ومن الخزرج بالاندلس ابو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المشهور بالموشحات والى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الاحمر سلاطين غرناطة الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم وعليهم انقرض ملك الاندلس من المسلمين واستولى العدو على الجزيرة جميعا كما يذكر ومن أهل الاندلس من ينتسب الى الاوس أخي الخزرج ومنهم من ينتسب الى غافق بن عك بن عدثان بن ازان بن الازد وقد يقال عك بن عدنان بالنون فيكون أخا معد بن عدنان وليس بصحيح قال ابن غالب من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب واكثر جهات شقورة ينتسبون الى غافق ومن كهلان من ينتسب الى همدان وهو اوسلة بن مالك بن زيد بن أوسلة بن الخيار بن مالك ابن زيد بن كهلان ومنزل همدان مشهور على ستة أميال من غرناطة ومنهم أصحاب غرناطه بنو أضحى ومن كهلان من ينتسب الى مذحج ومذحج اسم اكمة حمراء باليمن وقيل اسم أم مالك وطيئ ابني ادد بن زيد بن كهلان قال ابن غالب بنو سراج الاعيان من أهل قرطبة ينتسبون الى مذحج ومنزل طيئ بقبلي مرسية ومنهم من ينتسب الى مراد بن مالك بن ادد وحصن مراد بين اشبيلية وقرطبة مشهور قال ابن غالب وأعرف بمراد منهم خلقا كثيرا ومنهم من ينتسب الى عنس بن مالك بن ادد ومنهم بنو سعيد مصنفو كتاب المغرب وقلعة بني سعيد مشهورة في مملكة غرناطة ومن مذحج من ينتسب الى زبيد قال ابن غالب وهو منبه بن سعد العشيرة بن مالك بن ادد ومن كهلان من ينتسب الى مرة بن ادد بن زيد بن كهلان قال ابن غالب منهم بنو المنتصر العلماء من أهل غرناطة ومنهم من ينتسب الى عاملة وهي امرأة من قضاعة ولدت للحرث بن عدي بن الحرث مرة بن أدد فغلب ولدها منه اليها قال ابن غالب منهم بنو سماك القضاة من أهل غرناطة وقوم زعموا أن عاملة هو ابن سبا ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وقيل هم من قضاعة ومن كهلان خولان بن عمرو بن الحرث بن مرة وقلعة خولان مشهورة بين الجزيرة الخضراء واشبيلية ومنهم بنو عبد السلام أعيان غرناطة ومنهم من ينتسب الى المعافر بن يعفر بن مالك بن الحرث بن مرة بن منهم المنصور بن أبي عامر صاحب الاندلس ومنهم من ينتسب الى لخم بن عدي بن الحرث بن مرة منهم بنو عباد أصحاب أشبيلية وغيرها وهم من ولد النعمان بن المنذر صاحب الحيرة ومنهم بنو الباجي اعيان اشبيلية وبنو واقد

صاحب البابكين وكان للبابكين هذا غاية المناظرة مع من يرد الى بلاده من المسلمين وغيرهم من أهل الملل وهذه المدينة على خور من أخوار البحر وهو الخليج أعرض من النيل أو دجلة أو الفرات عليه المدن والضياع والعمائر والنخل والنارجيل والطواويس والببغاء وغير ذلك من أنواع طيور الهند بين تلك الجبال والمياه وبين مدينة كنباية وبين البحر الذي يأخذ منه هذا الخليج يومان وأقل من ذلك فيجزر الماء عن هذا الخليج حتى يبدو الرمل الذي ينصب عنه الماء وقعر الخليج قد صار كالصحراء وقد أقبل المد من نهاية الجزر كالخيل في الحلبة فربما أحس الكلب بذلك فاقبل يحضر ما استطاع خوفا من الماء فيطلب البر الذي لا يصل اليه الماء فيلحقه الماء بسرعته فيغرقه وكذلك المد يرد بين البصرة والاهواز في الموضع المعروف بالباسيان وبلاد الهند ويسمع هنالك أزيب له ضجيج ودوي وغليان عظيم يفزع منه أصحاب السفن وهذا الموضع يعرفه من يسلك هنالك الى بلاد مورق من أرض فارس والله أعلم

(ذكر بحر الروم ووصف ماقيل في طوله وابتدائه وانتهائه) اما بحر الروم وطرسوس واذنة والمصيصة وانطاكية واللاذقية

لاعيان ومنهم من ينتسب الى جذام مثل ثوابة بن سلامة صاحب الاندلس وبنى هود ملوك شرق الاندلس ومنهم المتوكل بن هود الذى صحت له سلطنة الاندلس بعد الموحدين ومنهم بنو مردنيش أصحاب شرق الاندلس قال ابن غالب وكان لجذام جزء من قلعة رباح واسم جذام عامر واسم لخم مالك وهما ابنا عدى ومن كهلان من ينتسب الى كندة وهو ثور بن عفير بن عدى بن مرة بن ادد ومنهم يوسف بن هرون الرمادى الشاعر ومنهم من ينتسب الى تجيب وهى ام أولاد اشرس بن السكون بن اشرس بن كندة ومن كهلان من ينتسب الى خثعم بن أنمار ابن اراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان ومنهم عثمان بن أبى نسعة سلطان الاندلس وقد قيل أنمار ابن نزار بن معدّ بن عدنان انتهت كهلان * وأما حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمنهم من ينتسب الى ذى رعين قال ابن غالب وذو رعين هم ولد عمرو بن حمير فى بعض الاقوال وقيل هو من ولد سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم ابن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن ايمن بن الهميسع بن حمير قال ومنهم أبو عبد الله الحناط الاعمى الشاعر قال الحازمى فى كتاب النسب واسم ذى رعين عريم ابن زيد بن سهل ووصل النسب ومنهم من ينتسب الى ذى أصبح قال ابن حزم هو ذو أصبح بن مالك بن زيد من ولد سبا الاصغر ابن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس ووصل النسب وذكر الحازمى أن ذا أصبح من كهلان وأخبر أن منهم مالك بن أنس الامام والمشهور أنهم من حمير والاصبحيون من أعيان قرطبة ومنهم من ينتسب الى يحصب قال ابن حزم انه أخو ذى أصبح وهم كثير بقلعة بنى سعيد وقد تعرف من أجلهم فى التواريخ الاندلسية بقلعة يحصب ومنهم من ينتسب الى هوازن بن عوف بن عبد شمس بن وائل بن الغوث قال ابن غالب ومنازلهم بشرق اشبيلية والهوازنيون من أعيان اشبيلية * ومنهم من ينتسب الى قضاعة بن مالك بن حمير وقد قيل انه قضاعة بن معدّ بن عدنان وليس بمرضى ومن قضاعة من ينتسب الى مهرة كالوزير أبى بكر بن عمار الذى وثب على ملك مرسية وهو مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف ابن قضاعة ومنهم من ينتسب الى خشين بن تنوخ قال ابن غالب وهو ابن مالك بن فهم بن نمر ابن وبرة بن تغلب قال الحازمى تنوخ هو مالك بن فهر بن فهم بن تيم الله بن اسد بن وبرة ومنهم من ينتسب الى بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ومنهم البلويون الاشبيليه * ومنهم من ينتسب الى جهينة بن اسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة قال ابن غالب وبقرطبة منهم جماعة * ومنهم من ينتسب الى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان كبنى أبى عبدة الذين منهم بنو جهور ملوك قرطبة ووزراؤها * ومنهم من ينتسب الى عذرة بن سعد هذيم بن زيد ابن اسود بن أسلم بن عمرو بن الحاف بن قضاعة * ومنهم أعيان الجزيرة الخضراء بنو عذرة ومن أهل الاندلس من ينتسب الى حضرموت منهم الحضرميون بمرسية وغرناطة واشبيلية وبطليوس وقرطبة قال ابن غالب وهم كثير بالاندلس وفيه خلاف قيل ان حضرموت هو ابن قحطان وقيل هو حضرموت بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بالجيم ابن قطن بن العريب بن الغرز بن نبت بن أيمن بن الهميسع بن حمير كذا نسق النسب الحازمى * ومن أهل الاندلس من ينتسب الى سلامان ومنهم الوزير لسان

وطر ابلس وصيدا وصور وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والاسكندرية وساحل المغرب فذكر جماعة من اصحاب الزيجات فى كتبهم منهم محمد بن جابر النسانى وغيره ان طوله خمسة آلاف ميل وعرضه مختلف فمنه ثمانمائة ميل ومنه سبعمائة ميل ومنه ستمائة ميل واقل من ذلك على حسب مضايقة البر للبحر والبحر للبر ومبدا هذا البحر من خليج يخرج جاريا من بحر اوقيانوس واضيق موضع من هذا الخليج بين ساحل طنجة من بلاد المغرب وبين ساحل الاندلس وهذا الموضع المعروف بنيطا وعرضه فيما بين الساحلين نحو من عشرة اميال وهذا الموضع هو المعبر لمن اراد العبور من الغرب الى الاندلس ومن الاندلس الى الغرب وعلى الحد بين البحرين اعنى بحر الروم وبحر اوقيانوس المنارة النحاس والحجارة التى بناها هرقل الجبار على اعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديها ان لا طريق ورائى لجميع الداخلين الى ذلك البحر بحر الروم اذ كان بحرا لا تجرى فيه جارية ولا عمارة فيه ولا حيوان ناطق يسكنه ولا يحاط بمقداره ولا تدرى غايته ولا يعلم منتهاه وهو بحر الظلمات والاخضر المحيط وقد ذهب قوم ان هذا البحر أصل ماء البحار وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا أخبار الزمان فى أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ومن نجا منهم

الدين بن الخطيب حسبما ذكر فى محله * وقد رأيت أن أسرد هنا أسماء ملوك الاندلس من لدن الفتح الى آخر ملوك بنى أمية وان تقدم ويأتى ذكر جملة منهم بما هو أتم مما هنا فنقول طارق ابن زياد مولى موسى بن نصير ثم الامير موسى بن نصير وكلاهما لم يتخذ سرير السلطنة ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير وسريره اشبيلية ثم أيوب بن حبيب اللخمى وسريره قرطبة وكل من يأتى بعده فسريره قرطبة والزهراء والزاهرة بجانبيها الى ان انقضت دولة بنى مروان على ما ينبه عليه ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفى ثم السمح بن مالك الخولانى ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ثم عنبسة بن سحيم الكلبى ثم عذرة بن عبد الله الفهرى ثم يحيى ابن سلمة الكلبى ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ثم حذيفة بن الاحوص القيسى ثم الهيثم بن عبيد الكلابى ثم محمد بن عبد الله الاشجعى ثم عبد الملك بن قطن الفهرى ثم بلج ثم بشر بن عياض القشيرى ثم ثعلبة بن سلامة العاملى ثم أبو الخطار بن ضرار الكلبى ثم ثوابة بن سلامة الجذامى ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى وههنا انتهى الولاة الذين ملكوا الاندلس من غير موارثة أفرادا عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ولم يتعدوا فى السمة لفظ الامير * قال ابن حيان مدتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الاندلس النصرانى وهو يوم الاحد لخمس خلون من شوال سنة اثنتين وتسعين الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المروانى على سرير الملك قرطبة وهو يوم الاضحى لعشر خلون من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى * ثم كانت دولة بنى امية أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ثم ابنه هشام الرضى ثم ابنه الحكم بن هشام ثم ابنه عبد الرحمن الاوسط ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ثم ابنه المنذر بن محمد ثم أخوه عبد الله بن محمد ثم ابن ابنه عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله ثم ابنه الحكم المستنصر وكرسيهما الزهراء ثم هشام بن الحكم وفى أيامه بنى حاجبه المنصور بن أبى عامر الزاهرة ثم المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر وهو أول خلفاء الفتنة وهدمت فى أيامه الزهراء والزاهرة وعاد السرير الى قرطبة ثم المستعين سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ثم تخللت دولة بنى حمود العلويين وأولهم الناصر على بن حمود العلوى الادريسى ثم أخوه المأمون القاسم بن حمود ثم كانت دولة بنى أمية الثانية وأولها المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ثم المستكفى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم المعتمد هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر وهو آخر خلفاء الجماعة بالاندلس وحين خلع اسقط ملوك الاندلس الدعوة للخلافة المروانية واستبدت ملوك الطوائف كابن جهور فى قرطبة وابن عباد باشبيلية وغيرهما ولم يعد نظام الاندلس الى شخص واحد الى ان ملكها يوسف بن تاشفين الملثم من بر العدوة وفتك فى ملوك الطوائف وبعد ذلك ما خلصت له ولا لولده على بن يوسف لان بنى هود نازعوه فى شرقها بالثغر الى ان جاءت دولة عبد المؤمن وبنيه فاصفت لعبد المؤمن بعد محمد بن مردنيش الذى كان ينازعه فى شرق الاندلس ثم صفت ليوسف بن عبد الرحمن بموت ابن مردنيش ثم لمن بعده من بنيه وحضرتهم مراكش وكانت ولاتهم تتردد على الاندلس ومما لكها ولم

ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا بين هذه المنارة المنصوبة وبين موضع الاحجار مسافة فى طول مصب هذا الخليج وجريانه وذلك انما يجرى فى بحر الروم والشام ومصر وهو متصل بمدينة نحو من خمسمائة ميل تسمى بالرومية درس وعلى هذا الخليج من جانب المغرب قرية يقال لها سبتة وهى وطنجة من ساحل واحد ويقابل سبتة هذه من ناحية الاندلس الجبل المعروف بجبل طارق مولى موسى بن نصير ويعبر الناس من سبتة الى ساحل الاندلس من غدوة الى الظهر وفى هذا الخليج موج عظيم والماء من هناك يخرج من بحر اوقيانوس ويصب الى البحر الرومى وفى هذا الخليج مواضع تعلو أمواجها ويعلو الماء من غير ريح وهذا الخليج تسميه أهل المغرب وأهل الاندلس الزقاق اذ كان على هيئة ذلك وفى بحر الروم جزائر كثيرة منها جزيرة قبرس بين ساحل الشام والروم وجزيرة رودس فى مقابلة الاسكندرية وجزيرة اقريطش وجزيرة صقلية وسنذكر صقلية بعد هذا الموضع عند ذكرنا لجبل البركان الذى تظهر منه النار فيها اجسام وجثث عظام وقد ذكر يعقوب بن اسحق الكندى وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسى فى طول هذا البحر وعرضه

يولوا على جميعها شخصا واحدا العظم ممالكها الى ان انقرضت مهادواتهم بالمتوكل محمد بن هود من بنى هود ملوك سرقسطة وجهاتها فملك معظم الاندلس بحيث يطلق عليه اسم السلطان ولم ينازعه فيها الا زيان بن مردنيش فى بلنسية من شرق الاندلس وابن هلالة فى طبيرة من غرب الاندلس ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته ولما قتله وزيره ابن الرميمى بالمرية زاد الامر الى أن ملك بنو الاحمر وكان غرب أهل الاندلس فى المائة السابعة يخطبون لصاحب افريقية السلطان أبى زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ثم تقلصت تلك الظلال ودخل الجزيرة الانحلال الى أن استولى عليها حزب الضلال والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين * (وقد ذكرت) فى هذا الكتاب جملة من أخبار ملوك الاندلس مما يصلح لذاكره وربما سرحت طرف القلم فى بعضهم و بنو جهور المشار اليهم قريبا كانوا وزراء الامويين ثم انه لما انتثر سلك الخلافة استبد بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جهور من غير أن يتعدى اسم الوزارة * قال فى المطمح الوزير الاجل جهور بن محمد ابن جهور أهل بيت وزارة اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة فى فزارة وأبو الحزم أمجدهم فى المكرمات وأنجدهم فى الملمات ركب متون الفنون فراضها ووقع فى بحور المحن فخاضها منبسط غير منكمش لا طائش اللسان ولا رعش وقد كان وزر فى الدولة العامرية فشرفت بجلاله واعترفت باستقلاله فلما انقرضت وعاقت الفتن واعترضت تحيز عن التدبير مدتها وخلى لخلافه أعباء الخلافة وشدتها وجعل يقبل مع اولئك الوزراء ويدبر ويدير الامر معهم ويدبر غير مظهر للانفراد ولا متصرف فى ميدان ذلك الطراد الى أن بلغت الفتنة مداها وسوغت ماشاءت رداها وذهب من كان يجد فى الرياسة ويخب ويسعى فى الفتنة ويدب ولما ارتفع الوبال وأدبر ذلك الاقبال رأى أهل التقوى مستمدا بهم ومعتمدا على بعضهم تحيلا منه وتمويها وتداهيا على أهل الخلافة وذويها وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض منه لاهل قرطبة برق خلب بشام بعد سرعة التياثها وتعجيل انتكاثها فأنابوا الى الاجابة وأجابوا الى استرعائه الوزارة والحجابة وتوجهوا مع ذلك الامام وألموا بقرطبة أحسن المام فدخلوها بعد فتن كثيرة واضطرابات مستثيرة والبلد مقفر والجلد مسفر فلم يبق غير يسير حتى حيد واضطرب أمره فخلع واختطف من الملك وانتزع وانقرضت الدولة الاموية وارتفعت الدولة العلوية واستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم ودبر أمرها بالجد والعزم وضبطها ضبطا أمن خائفها ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها وخلاله الجو فطار وقضى اللبانات والاوطار فعادت له قرطبة الى أكمل حالاتها وانجلى به نور جلالتها ولم تزل به مشرقة وغصون الآمال فيها مورقة الى أن توفى (سنة ٣٤٥) فانتقل الامر الى ابنه أبى الوليد واشتمل منه على طارف وتليد وكان لابى الحزم أدب ووقار وحلم سارت به الامثال وعدم فيها المثال وقد أثبت من شعره ما هو لائق وفى سماء الحسن رائق وذلك قوله فى تفضيل الورد

الورد أحسن ما رأت عينى وأز * كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه * فتذللت تنقاد وهى شوارد

غيرما ذكرنا وسنذكر بعد هذا الموضع فيما يرد من هذا الكتاب هذه البحار على نظم من التأليف وترتيب من التصنيف ان شاء الله تعالى

*(ذكر بحر نيطش وبحر مانطش وخليج القسطنطينية) فاما بحر نيطش فانه يمد من بلاد ملترقة الى القسطنطينية بطول النهر العظيم المعروف بيطنانس وقد قدمنا ذكره ومبدأ هذا النهر من الشمال وعليه كثير من ولد يافث وخروجه من بحيرة عظيمة فى الشمال من أعين وجبال ويكون مقدار جريانه على وجه الارض نحو ثلثمائة فرسخ عمائر متصلة بولد يافث ويسير بحر مانطش فيما زعم قوم من اهل العناية بهذا الشأن حتى يصب فى بحر نيطش وهذا البحر عظيم فيه انواع من الاحجار والحشائش والعقاقير قد ذكره جماعة ممن تقدم من الفلاسفة ومن الناس من يسمى بحر مانطش بحيرة ويجعل طوله ثلثمائة ميل وعرضه مائة ميل ومنه ينفجر خليج القسطنطينية الذى يصب الى بحر الروم وطوله ثلثمائة ميل وعرضه نحو من خمسين ميلا وعليه القسطنطينية والعمائر من أوله الى آخره والقسطنطينية فى الجانب الغربى من هذا الخليج وهو متصل ببر رومية والاندلس وغيرهما فيصب والله أعلم على قول المنجمين من أصحاب الزيجات وغيرهم ممن تقدم فى بحر البلغر

واذا تبدّى الغصن فى أغصانه * يزهو فذا ميت وهذا حاسد
واذا أتى وفد الربيع مبشرا * بطلوع‍ه فـدته فنعم الوافد
ليس المبشر كالمبشر باسمه * خبر عليه من النبوّة شاهد
واذا تعدّى الورد من أوراقه * بقيت عوارفه فهن خوالد

انتهى المقصود منه وكانه عارض بهذه الابيات فى تفضيل الورد قول ابن الرومى فى تفضيل النرجس عليه من قصيدة

للنرجس الفضل المبين وان أبى * آب وحاد عن الحقيقة حائد

وهى مشهورة ورد على ابن الرومى بعضهم بقوله

يامن يشبه نرجسا بنواظر * دعج تنبه ان فهمك فاسد الخ

وهى أيضا مشهورة * (رجع الى ما كنا فيه) وكانت لاهل الاندلس بين زمان الفتح وما بعده وقائع فى الكفار شفت الصدور من أمراضها ووفت النفوس باغراضها واستولت على ما كان لملة الكفر من جواهرها وأعراضها ثم وقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف فعصفت ريح العدو والحروب سجال وأعيا العلاج حكماء الرجال فصار أهل الاندلس يتذكرون موسى بن نصير وطارق ومن بعدهما من ملوك الاندلس الذين راعت العدو الكافر منهم طوارق * وما أحسن ما أعرب الامام الكاتب القاضى أبو المطرف بن عميرة عما يشمل هذا المعنى وغيره فى كتاب بعث به الى الشيخ أبى جعفر بن أمية حين حل الرزء ببلنسية وهو

ألا أيها القلب المصرح بالوجد * أمالك من بادى الصبابة من بدّ
وهل من سلوّ يرتجى لمتيم * له لوعة الصادى وروعة ذى الصدّ
يحن الى نجد وهيهات حرّمت * صروف الليالى ان يعود الى نجد
فيا جبل الريان لا رىّ بعدما * عدت غير الايام عن ذلك الورد
ويا أهل ودى والحوادث تقتضى * خلوّى عن أهل يضاف الى الود
ألا متعة يوما بعارية المنى * فانا نراها كل حين الى الرد
أمن بعد رزء فى بلنسية ثوى * باحنائنا كالنار مضمرة الوقد
يرجى اناس جنة من مصائب * تطاعن فيهم بالمثقفة الملد
ألا ليت شعرى هل لها من مطالع * معادا الى ما كان فيها من السعد
وهل أذنب الابناء ذنب أبيهم * فصاروا الى الاخراج من جنة الخلد

مرحبا بالسحاءة وما أعارت افقى من الاضاءة وردت تسحر النهى وتسحب ذيلا على السها وتهز من المسرة أعطافا وترد من نجوم المجردة نطافا عامت من الظلمة فى موجها ثم غلبت الشهب على أوجها فقلب العقرب يجب وسهيل بداره يحتجب والطرف غضيض وجناح الطائر يهيض وصاحب الاخبية يقرض والذابح عن ذبيحته يعرض ورامح السماكين تخونه السلاح وواقع النسرين يود لو أنه يخفيه الصباح بلاغة تفتن كل لبيب وترعى روض كل أديب وتغض على رغم العدوّ من حبيب ان من

والروس وهو بحر نيطش وسيأتى ذكر هؤلاء الامم فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى على حسب استحقاقهم فى ذكرهم واتصال عمائرهم ومن يركب هذا البحر ومن لا يركبه والله أعلم

(ذكر بحر الباب والابواب والخزر وجرجان وجمل من الاخبار على ترتيب البحار)

وأما بحر الاعاجم الذى عليه دورها ومساكنها فهو معمور بالناس من جميع جهاته وهو المعروف ببحر الباب والابواب والخزر والجبل وجرجان وطبرستان وعليه أنواع من الترك وينتهى فى احدى جهاته نحو بلاد خوارزم وطوله ثمانمائة ميل وعرضه ستمائة ميل وهو مدور الشكل الى الطول وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من ذكر الامم المحيطة بهذه البحار المعمورة وهذا البحر الذى هو بحر الاعاجم كثير التنانين وكذلك بحر الروم فالتنانين فيهما كثيرة وكثيرا ما تكون مما يلى بلاد طرابلس واللاذقية والجبل الاقرع من أعمال انطاكية وتحت هذا الجبل معظم ماء البحر وأكثره ويسمى عجز البحر وغايته الى ساحل انطاكية ورشيد والاسكندرية وحصن المنصب وساحل المصيصة وفيه مصب نهر جيحان وساحل أذنة وفيه مصب سيحان وساحل طرسوس وفيه مصب نهر برداز وهو نهر طرسوس ثم البلد الخالى

البيان لسحرا ويا أيها الجواد وجدناك بحرا أدريت أي ترى بريت وبأي قمر اهتديت ليلة سريت افتتحت بأبياتك الحسان ونظمتها نظم الجمان فعوذت سناها بالسبع وعرفت منها براعة ذلك الطبع ثم نثرت على القرطاس شذور المنثور بل من جواهر النحور ما استوقف النظار وبهرج اللجين والنضار ورايتك استمددت ولك الباع الامدّ وأعرت محاسنك والعارية ترد وجئت باللألاءة تروق أربعتها وتحرس بها قعقعة الاشعار وجمعتها فأدت من حسنها ما يسر واجتمع لمن روى القطعتين ما نظم فيهما وهو الدر واجريت خبر الحادثة التي محقت بدر التمام وذهبت بنضارة الايام فيا من حضر يوم البطشة وعزى في أنسه بعد تلك الوحشة احقا انه دكت الارض ونزف المعين والبرض وصوّح روض المنى وصرح الخطب وما كنى أبن لي كيف فقدت رجاحة الاحلام وعقدت مناحة الاسلام وجاء اليوم العسر وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر حلم ما نرى بل ما رأى ذا حالم طوفان يقال عنده لا عاصم من ينصفنا من الزمان الظالم الله عالم بما يلقى الفوائد عالم بالله اى نحو تنحو ومسطور تثبت وتمحو وقد حذف الاصلي والزائد وذهب الصلة والعائد وباب التعجب طال وحال البائس لا تخشى الانتقال وذهبت علامة الرفع وفقدت سلامة الجمع والمعتل اعدى الصحيح والمثلث اردى الفصيح وامتنعت العجمة من الصرف وامنت زيادتها من الحذف ومالت قواعد الملة وصرنا الى جمع القلة وللشرك صيال وتخمط ولقرنه في شركه تخبط وقد عاد الدين الى غربته وشرق الاسلام بكربته كأن لم يسمع بنصر بن نصير وطرق طارق بكل خير ونهشات حنش وكيف اعيت الرقى واذالت بليل السليم يوم الملتقى ولم تخبر عن المروانية وصوائفها وفتى معافر وتعفيره للاوثان وطوائفها لله ذلك السلف لقد طال الاسى عليهم والاسف وبقي الحكم العدل والرب الذي قوله الفصل وبيده الفضل ربنا امرت فعصينا ونهيت فما انتهينا وما كان ذلك جزاء احسانك الينا انت العليم بما اعلنا وما اخفينا والمحيط بما نأت وما اتينا لو انا فيك احببنا وقلينا لم ترنا من الفرقة ما رأينا ولم تسلط عدوك وعدونا علينا لكن انت أرحم من ان تؤخذنا بما جنينا واكرم من ان لا تهب حقوقك الينا واشرت ايها الاخ الكريم الى استراحة الى" وتنسم بالذى" لتبرد كما زعمت حر نفس وتقدح زناد قبس وهيهات صلد الزند وذوى العرار والرند واقشع الشؤبوب وركد ما كان يظن به الهبوب فالقلم دفين لا يحشر وميت لا ينشر والطبع قد نكص القهقرى وقل منزلة ان يدعى له النقرى فهاهو لا يملك ميتا ولا يجد لقلمه تثبيتا وانت ابقاك الله عز وجل بمقتبل الآداب طائر هيعة الشباب واين سن السمو من سن الانحطاط ووقت الكسل من وقت النشاط وقد راجعتك لا داخلا في حلبتك بل قاضيا حق رغبتك والله تعالى يجعلك بوسيلة العلم مترقيا وبجنة الطاعة متوقيا ولهناء الانفس مستقبلا ومتلقيا بمنه والسلام انتهى * (وكتب) رحمه الله الى سلطان افريقية الوارث ملك بني عبد المؤمن بتلك النواحي المستولي على البلدان والضواحي وقد كان لاهل الاندلس امل في أخذه بثارهم وضم انتشارهم ما صورته

من العمارات الخراب من الروم والمسلمين مما يلي مدينة مكمنة الى قريش وقراشيا ثم بلاد سلوقية ونهرها العظيم الذي يصب في هذا البحر ثم حصون الروم الى خليج القسطنطينية وقد أعرضنا عن ذكر انهار كثيرة بارض الروم وما يصب الى هذا البحر كنهر البارد ونهر العسل وغيرهما من الانهار والعمارة على هذا البحر من المضيق الذي قدمنا ذكره وهو الخليج الذي عليه طنجة متصلة بساحل المغرب وبلاد أفريقية والسوس ورشيد والسويس ودمياط وساحل الشام وساحل الثغور الشامية ثم ساحل الروم مارا متصلا الى بلاد رومية الى ان يتصل بساحل الاندلس الى ان ينتهي الى ساحل الخليج الضيق المقابل لطنجة على ما ذكرنا لا تنقطع من هذا البر كله العمائر التي وصفناها من الاسلام والروم الى الانهار الجارية الى البحر وخليج القسطنطينية وعرضه نحو ستين ميل وخلجانات أخر داخلة في البر لا منفذ لها فجميع ما ذكرنا على شاطئ هذا البحر الرومي متصلو الديار غير منفصلين لا يقطعهم أو يمنعهم الا ما ذكرنا من الانهار وخليج القسطنطينية ومثال هذا البحر الرومي ومثال ما ذكرنا من العمائر عليه الى ان ينتهي الى مدى الخليج الضيق الآخذ من اوقيانوس الذي عليه اعلام النحاس ويلي الاعلام طنجة

فساحل الاندلس شمال الكرنيب فصيصة ١٤٤ الخليج والكرنيب على صفة البحر الا انه ليس بمدور الشكل لما ذكرناه من طوله

شاقه غب الخيال الوارد * بارق هاج غرام الماجد
صدق وعد للتلاقى ثم ما * طرقا الا بخلف الواعد
وكلا الزورين من طيف ومن * وافد تحت الدياجى وارد
لم يكن بعد السرى مستمتع * فيه للرائى ولا للرائد
وشديد بث قلب هائم * يشتكيه عند ربع هامد
بالامير المرتضى عز الهدى * وثنى عطف المنى الواجد
وبه أصحب ما كان يرى * جامح الأنف الابى الشارد
انما الفخر لمولانا أبى * زكرياء بن عبد الواحد
ملك لولا حلاه الغر لم * يجر بالحمد لسان الحامد
ولو ان العذب أبدى رغبة * عنه لم يشف غليل الوارد
فضله مثل سنى الشمس وهل * لسنى الشمس يرى من جاحد
قهر البغى بجد صادع * ما تعداه وجد صاعد
انما آل أبى حفص هدى * للورى من غائب أو شاهد
قعدوا فوق النجوم الزهر عن * همم نبهن عزم القاعد
وعن الاسلام ذادوا عندما * فل طول العهد غرب الذائد
أى فخر عمرى المنتمى * ورثوه ماجدا عن ماجد
ما الفتوح الغر الا هم * بين ماض بادئ أو عائد
فى محيا لاحق من سابق * وعلى المولود سيما الوالد
وليحيى راجح الحلم الذى * ترك الطود بعطفى مائد
عقد أحسابهم تم به * مثل ما تم حساب العاقد
أيها الجامع ما قد أحرزوا * جمع من همته فى الزائد
هذه الامة قد أوسعتها * نظرا يكلأ ليل الراقد
لم تزل منك بخير طارف * ريشه تال قدامى تالد
ولهم منك ليوم حاضر * وغد رأى البصير الناقد
أرشد الله لاولى نظر * بالورى رأى الامام الراشد
وتولاه بتوفيق الألى * سعدوا من عاقد أو عاهد
وله فى الله أوفى كافل * بالذى يبقى وأكفى عاضد

نصر الله تعالى مولانا وأيده وشد ملكه وشيده وأبقى للفضل أيامه وللفصل أحكامه وأظفر بأعناق الاشقياء حسامه ووفر من اتساق النعم والاء حظوظه وأقسامه والحمد لله ثم الحمد لله على أن جعل به حرم الامة آمنا ووهج الفتنة ساكنا وأبواب الصلة والمعروف لا تعرف الاواصل لا أو آذنا وتلافى فل الاسلام منه بقية آية التى منها ينتظرون الكر و بها يوعدون الفتح الاعز والنصر الاغر فهم بين جد تقبضوها وعدة رضوها وارتقاب للفتح أكبر همهم منه درك الثار وانتصاف لاهل الجنة من أهل النار فأما

وليس تعرف التنانين فى البحر الحبشى ولا فى شئ من خلجانه من حيث وصفنا فى نهاياته وا كثرها يظهر مما يلى بحر اقيانوس وقد اختلف الناس فى التنين فمنهم من رأى انه ريح سوداء تكون فى قعر البحر فتظهر الى النسيم وهو الجلو فتلحق السحب كالزوبعة فاذا ثارت من الارض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت فى الهواء ذاهبة الصعداء توهم الناس أنها حيات سود ومنهم من رأى أنها دواب تتكون فى قعر البحر فتعظم وتؤذى دواب البحر فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق و بصيص لا تمر بمدينة الا أتت على ما لا تقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل وربما تتنفس فتحرق الشجر الكبير فيلقونها فى سد ياجوج ومأجوج و يمطر السحاب عليهم فيقتل ذلك التنين فنه يتغذى يأجوج ومأجوج وهذا القول يعزى الى ابن عباس وقد ذكر قوم فى التنين غير ما ذكرنا وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أمورا فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها منها خبر عمران الذى دعا فى النيل فأدرك غايته

الاوطان

الاوطان فقد اسلتهم عنها جهة تنبت العز فيما تنبته وتنفى من الضيم ما تلك تشتته وما ذكر الساخط على المحل الساقط منازل عادت على مبانيها الطلالا ومعانيها أمحالا وللعبد حال يستقبل بها من النظر الكريم أدامه الله تعالى ما أعين الآمال اليه صور ورجاء الجميع عليه مقصور انتهى * والغاية فى هذا الباب ما كتب به رحمه الله من جملة كتاب لبعض ذوى الالباب ونص محل الحاجة منه نخص الجهة البعيدة الصيت والاسم الشهيرة العمل والعلم درة تاجنا وضوء سراجنا ونكتة احتجاجنا أبقاها الله تعالى فى أعيننا منارا ولاندلسنا فخارا على انه وان بقيت المفاخر فقد أودى الفاخر وان أضاء الطالع فقد درجت المطالع وغلب عليها عداة زووا عنها وجوهنا وأروا فيها مكروهنا حتى انى أتيت بشعر فيه استسقاء للديار على عادة الاشعار فقلت

زدنا على النائين عن اوطانهم * وان اشتركنا فى الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استقوالها * من بعد أن شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك فى أوطاننا * مع حبها الشرك الذى فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا * لعدونا أفيستقيم لها الهوى انتهى

(قلت) وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الابيات فى معناها العالية فى مبناها فان فيها الاشارة الى استيلاء النصارى دمرهم الله على تلك الديار وثبوت قدمهم فيها على طبق ما حصل لهم فيه اختيار مع ادماج حبه لها الذى لا يشك فيه ولا يرتاب واشتمالها على المحاسن التى هى بغية الرائد ونجعة المنتاب ولكل أجل كتاب واذا نفذ سهم المقدور فلا عتاب (ومما يستولى على الخواطر ويروى رياض الافكار بسحب بلاغته المواطر قوله رحمه الله تعالى يخاطب أبا الحسن الرعينى سنة ٦٣٤)

ياصاحبى والدهر لولا كرة * منه على حفظ الذمام ذميم
أمنازعى أنت الحديث فانه * مافيه لا لغو ولا تأثيم
ومروض مرعى مناى فنبته * من طول اخلاف الغيوم هشيم
طال اعتبارى بالزمان وانما * داء الزمان كما علمت قديم
مجفو حظ لا ينادى ثم لا * ينفك عنه الحذف والترخيم
وأرى امالته تدوم وقصره * فعلام يلغى المد والتفخيم
وعلام أدعو والجواب كأنما * فيه بنص قد أتى التحريم
لم ألق الا مقعدا غير الاسى * فلدى منه مقعد ومقيم
وشرابى الهم المعتق خالصا * فتى يساعدنى عليه نديم
غارات أيام على جوارح * فعديها فى طبعه التحكيم
ولواعج يحتاج صالى حرها * امرا به قد خص ابراهيم
ولقد أقول لصاحب هو بالذى * أدركت من علم الزمان عليم
لا يأس من روح الاله وان قست * يوما قلوب الخلق فهو رحيم

ويهزنى ويستفزنى ما كتبه رحمه الله تعالى من رسالة * كتبته الى سيدى وهو السيد

من قوائمها تغادى قرن الشمس من مبدا طلوعها الى حال غروبها فعبر على ماوصفنا من تعلقه بشعرها البحر وداربدورانها طلبا لعين الشمس حتى صار الى ذلك الجانب فرأى النيل منحدرا من قصور الذهب من الجنة وأعطاه الملك العنقود العنب وأنه أتى الرجل الذى رآه فى ذهابه ووصف له كيف يفعل فى وصوله الى مبدا النيل فوجده ميتا وخبر ابليس معه والعنقود العنب وغير ذلك من خرافات حشوية عن اصحاب الحديث ومنها ماروى أن قبة من الذهب وأنواع الجوهر فى وسط البحر الاخضر على أربعة أركان من الياقوت الاحمر يتحدر من كل ركن من هذه الاركان ماء عظيم من رشحه فيقسم الى جهات أربع فى ذلك البحر الاخضر غير مخالط له ولا مماس به ثم ينتهى الى جهات من البر من سواحل ذلك البحر أحدها النيل والثانى سيحان والثالث جيحان والرابع الفرات ومنها أن الملك الموكل بالبحار يضع عقبه فى أقصى بحر الصين فيفور منه البحر فيكون منه المد ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع الماء الى مركزه ويطلب قعره فيكون الجزر ومثلوا ذلك باناء فيه ماء فى مقدار

حقيقة وأخي وقد كتب الدهر بذلك وثيقة أبقى الله تعالى جلاله محروسا وربع وفائه لا يخشى دروسا من رباط الفتح وأنا بحقه عليم وعلى عهده مقيم وشأني توقيره وتعظيم وحب فيه خالص كريم ووصلني خطابه الخطير المبرور فكنت به كالصائم رأى الهلال والهائم عاين ماء الزلال علق ليس يوازيه علق وسحر لكنه حلال طلق ونظم لذكر الطائي طاو وصنعة لم يرها ولم يروها راء ولا راو رمت ابن الرومي بالخمول وبشرت اسم بشار من الفحول وحكمت بان البحتري في غمرة الهوان مدرج والسري عن سراوة الاحسان مخرج فاما النثر فهيل لا يحاول به الرغاء وطراز لا يحسنه البلغاء ونقد تزيف معه النقود ومدى تتقطع دونه الضمر القود غادر الصابي وصباه غير ذات هبوب والصاحب وهو من العجز مع شره محجوب والميكالي وميكاله مرفوض والحريري وحريره في سوق الكساد معروض فاما بحر رئيس أرجان فقد استخرج منه اللؤلؤ والمرجان وأبقاه في ضحضاح بل تركه يمشي باذرح ضاح فمن ذا يجاري فارس الصفين وامام الصنفين أبلغ من خط بقلم وأشهر من نار على علم وماذا يقال في أنامل تطرز بها الصحف وخمائل تفخر بها الروضة الانف واسم في شرق البلاد وغربها ظاهر ووسم بالكتابة والنجابة لم يكن لبني وهب وآل طاهر فالزمان يأثر ما ينثر ويعظم ما ينظم ولو أن الازمنة قبله غمرت المحاضر بكل ناجم ونشرت المقابر عن الصنوبري وكشاجم وجاءت بالكتاب من كل جيل والشعراء عيلا بعد عيل لطال هذا العصر بواحده آلافها وأنسى بخلفه أسلافها انتهى * وكتب رحمه الله تعالى الى صاحبين له في معنى ما ألمعنا به آنفا ما صورته

تحية منكما أتتني * طابت كما طاب مرسلاها
ويالها اذ كرت عهودا * قلبي والله ما سلاها
حللتما في البلاد أرضا * ريح صباها عني سلاها
لم يصب قلبي الى سواها * يوما ولم يسل في سلاها

كتابي أيها الاخوان اللذان بودهما أقول وعن عهدهما لا أحول أنزلكما الله تعالى خير منزل وجعلكما من النوائب والشوائب بمعزل من رباط الفتح ولي قديما ملكتما رقه وقلبي تعلما وتعليما عرفتما صدقه كيف حالكما من سفر طويتما خبره حين تجشمتما غرره وكيف سمحت نفوسكما بأم الحصون وذات الظلال والعيون تربة الآباء ومنزلة الحيين النجباء حتى صرمتما حبلها وهجرتما حزنها وسهلها وخضتما غمر الفجاج وخضر الامواج وماذاك الا لتغلب الحادث النكر وتألب المعشر الغدر ومن أجل الداهية النكاد والحادثة الشنيعة على البلاد أزعجتكم حين أزعجتنا وأخرجتكم كما أخرجتنا وطوحت بنا طوائحها واجتاحت ثمرنا وشجرنا جوائحها فشكرا لله تعالى على قضائه وتضرعا فيما نرفعه من دعائه وهنيئا لنا ولكم معشر الشرداء المنطوين من الشجن على شرداء ذلك الطود الذي اليه أويتما وفي ظله ثويتما وعن رأيه تريان وبسعيه تسعيان فوجهه المبارك لا يعدم رأيه نجحا ولا يعدو لصبحه اذا دجا ليل الهم صبحا انتهى

وكان أبو المطرف بن عميرة المذكور كما قال فيه بعض علماء المغرب قدوة البلغاء وعمدة العلماء

النصف منه فيضع الانسان يده أو رجله فيملأ الماء الاناء فاذا رفعها رجع الماء الى حقه وانتهى الى غايته ومنهم من رأى أن الملك يضع ابهامه من كفه اليمنى في البحر فيكون منه المد ثم يرفعها فيكون الجزر وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ولا واجب وهو داخل في حيز الممكن والجائز لان طريقه في النقل طريق الافراد والآحاد ولم يرد مورد التواتر والاستفاضة كالاخبار الموجبة للعلم والعلل القاطعة للعذر في النقل فان قارنها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها والانقياد الى ما أوجب الله عز وجل علينا من أخبار الشريعة والعمل بها لقوله عز وجل وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وان لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا آنفا ما قال الناس في ذلك ليعلم من قرأ هذا الكتاب انا قد اجتهدنا فيما أوردناه في هذا الكتاب وغيره من كتبنا ولم يعزب عنا فهم ما قاله الناس في سائر ما ذكرناه وبالله التوفيق فهذه جمل البحار وعند أكثر الناس انها أربعة في المعمور من الارض ومنهم من يعدها خمسة ومنهم من يجعلها ستة ومنهم من يرى أنها سبعة منفصلة غير متصلة وعلى أنها ستة فأولها البحر الحبشي ثم الرومي ثم نيطش ثم مانطش ثم الخزري ثم أوقيانوس الذي لا يعلم أكثر نهاياته وهو الاخضر المظلم المحيط وبحر نيطش متصل وصدر

وصدر الجلة الفضلاء وهو أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومى ونكتة البلاغة التى قد أحرزها وأودعها وشمسها التى أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها مبدع البدائع التى لم يحظ بها قبله انسان ولا ينطق عن تلاوتها لسان اذ كان ينطق عن قريحة صحيحة وروية بدرر العلم فصيحة ذلت له صعب الكلام وصدقت رؤياه حين وضع سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو الذى أوتى جوامع الكلم فى يديه الاقلام وأصل سلفه من جزيرة شقر وولد بمدينة بلنسية وروى عن أبى الخطاب بن واجب وأبى الربيع بن سالم وابن نوح والشلوبين النحوى وابن عات وابن حوط الله وغيرهم من الحفاظ وأجازه من أهل المشرق جماعة وكان شديد العناية بشان الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله ثم تفنن فى العلوم ونظر فى المعقولات وأصول الفقه ومال الى الادب فبرع براعة عد فيها من مجيدى النظم فأما الكتابة فهو فارسها الذى لا يجارى وصاحب عينها الذى لا يبارى وله وعظ على طريقة ابن الجوزى ورسائل خاطب بها الملوك وغيرهم من الموحدين والحفصيين وله تآليف فى كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها نحا فى الخبر عنها منحى الامام الاصبهانى فى الفتح القدسى وله كتاب تعقب فيه على الفخر الرازى فى كتاب المعالم وله كتاب رد به على كمال الدين الانصارى فى كتابه المسمى بالتبيان فى علم البيان المطلع على اعجاز القرآن وسماه بالتنبيهات على ما فى التبيان من التمويهات وله اختصار نبيل من تاريخ ابن صاحب الصلاة وغير ذلك * وورد رحمه الله حضرة الامامة مراكش صحبة أمير المؤمنين الرشيد حين قفوله من مدينة سلا واستكتبه مدة يسيرة ثم صرفه عن الكتابة وقلده قضاء هيلانة ثم نقله الى قضاء سلا ثم نقله السعيد الى قضاء مكناسة الزيتون ثم قصد سبتة وأخذ ماله فى قافلة بنى مرين ثم توجه الى بلاد افريقية ووصف حاله فى رسالة خاطب بها ابن السلطان أبا زكريا الحفصى وهو أبو زكريا ابن السلطان أبى زكريا وكان صاحب بجاية لابيه ولم يزل رحمه الله تعالى مذ فارق الاندلس متطلعا لسكنى افريقية معمور القلب بسكناها ولما قدم تونس مال الى صحبة الصالحين والزهاد وأهل الخير برهة من الزمان ثم استقضى بالاريس من افريقية ثم بقابس مدة طويلة ثم استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصى وأحضره مجالس أنسه وداخله مداخلة شديدة حتى تغلب على أكثر أمره ومولده بجزائر شقر فى شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ وتوفى ليلة الجمعة الموفية عشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٨ ألحفه الله رضوانه وجدد عليه غفرانه * قال ابن الابار فى تحفة القادم فى حق أبى المطرف المذكور وفائدة هذه المائة والواحد يفى بالمئة الذى اعترف باتحاده الجميع واتصف بالابداع فماذا يتصف به البديع ومعاذ الله أن أحابيه بالتقدم لماله من حق التعليم كيف وسبقه الاشهر ونطقه الياقوت والجوهر تحلت به الصحائف والمهارق وما تخلت عنه المغارب والمشارق فحسبى أن أجهد فى أوصافه ثم أشهد بعدم انصافه هذا على تناول الخصوص والعموم لذكره وتناوب المنثور والمنظوم على شكره ثم أورد له جملة منها قوله

وأجلت فكرى فى وشاحك فانثنى * شوقا اليك يجول فى جوال

بحر مانطش ومنه خليج القسطنطينية الذى يصب الى بحر الروم ويتصل به على حسب ماذكرنا والرومى بدؤه من بحر اوقيانوس الاخضر فيجب على هذا القياس أن يكون ماوصفنا بحرا واحدا لاتصال مياهها وليست هذه المياه ولا شئ منها والله أعلم متصلة بشئ من بحر الحبش فبحر نيطش وبحر مانطش يجب أن يكونا أيضا بحرا واحدا وان تضايق البحر فى بعض المواضع بينهما أو صار بين الماءين كالخليج وليست تسمية ما اتسع منه وكثر ماؤه بمانطش وما ضاق منه وقل ماؤه بنيطش ينبغى أن تجمعهما فى اسم مانطش أو نيطش فاذا عبرنا بعد هذا الموضع فى مبسوط هذا الكتاب فقلنا مانطش أو نيطش فانما نريد به هذا المعنى فيما اتسع من البحر وضاق (قال المسعودى) وقد غلط قوم زعموا ان البحر الخزرى يتصل ببحر مانطش ولم أر فيمن دخل بلاد الخزر ممن اتصل اليها ببحر من هذه البحار أو بشئ من مائها او من خلجانها الا من نهر الخزر وسنذكر ذلك عند ذكرنا الجبل القبخ ومدينة الباب والابواب ومملكة الخزر وكيف دخل الروس فى المراكب الى بحر الخزر وذلك بعد الثلثمائة ورأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر يذكرون فى كتبهم ان خليج القسطنطينية الآخذ من نيطش يتصل ببحر الخزر ولست أدرى

انصفت غصن البان اذلم تدعه * لتأود مع عطفك الميال
ورجمت در العقد حين وضعته * متوار باعن ثغرك المتلالى
كيف اللقاء وفعل وعدك سينه * أبدا تخلصه للاستقبال
وكماة قومك نارهم ووقيدها * للطارقين أسنة وعوالى

وله مما يكتب على قوس قوله

مالانآد معتقل القنا الالآن * يحكى تأطر قامتى العوجاء
تحنو الضلوع على القلوب واننى * ضلع ثوى فيها بأعضل داء

وله وقد أهدى وردا

خذها اليك أبا عبد الاله فقد * جاءتك مثل خدود زانها الخفر
اتتك تحكى سجايا منك قد عذبت * لكن تغيرها ذا دونه الغير
ان شمت منها بروق الغيث لامعة * فسوف يأتيك من ماءلها مطر

قال وكتب الى مع تحفة أهداها مكافئا عن مثلها

يا واحد الادب الذى قد زانه * بمناقب جعلته فارس منصبه
بالفضل فى الهبة ابتدأت فان تعر * طرف القبول لما وهبت ختمت به

قال وله ارتجالا بقصر الامارة من بلنسية وأنا حاضر فى صبيحة بعض الجمع وقد جاء صاحب لنا من أهل النظم والنثر وأحسن الى الحجام بالخصوص

أرى من جاء بالموسى مواسى * وراحة ذى القريض تعود صفرا
فهذا المخفق ان قص شعرا * وهذا منجح ان قص شعرا

وله أيضا

هوما علمت من الأمير فالذى * تزداد منه وفيه لا ارتياب
لا تتقى الاجناد فى أيامه * فقرا ولا يرجو الغنى الكتاب

وله بعد انفصاله من بلنسية عن وحشة فى ذى القعدة سنة ٦٢٨

أسير بأرجاء الرجاء وانما * حديث طريقى طارق الحدثان
وأحضر نفسى ان تقدمت خيفة * لغض عنان أو لعض زمان
أيترك حظى للحضيض وقد سرى * لامكانه فوق الذرا جبلان
وأخبط فى ليل الحوادث بعدما * أضاء لعينى منهما القمران
فيحيى لا آمالى حياة معادة * وان عز براعزه لمكانى
وقالوا اقترح ان الامانى منهما * وان كن فوق النجم تحت ضمان
فقلت اذا ناجاهما بقضيتى * ضميرى لم احفل بشرح لسانى

وله أيضا

سلب الكرى من مقلتى فلم يجئ * منه على نأى خيال يطرق
اهفو ارتياحا للنسيم اذا سرى * ان الغريق بما يرى يتعلق

انتهى ما تلخص من تحفة القادم فى ذكر ابن عميرة أبى المطرف * ومما كتب أبو المطرف

كيف ذلك ومن أين قالوه أمن طريق الحدس أم من طريق الاستدلال والقياس وقد ركبت فيه من اسكون وهو ساحل جرجان الى بلاد طبرستان وغيرها ولم اترك من شاهدت فى البحار ممن له أدب وفهم ومن لا فهم عنده من أرباب المراكب الا سألته عن ذلك وكل يخبر أن لا طريق له اليها الا من بحر الخزر حيث دخلت منه مراكب الروس ونفر من أهل أذربيجان والباب والابواب وبردعة والديلم والجبل وجرجان وطبرستان اليها لانهم لم يعهدوا عدوا يطرأ عليهم ولا عرف ذلك فيما سلف وما ذكرنا فمشهور فيما سمينا من الامصار والامم والبلدان سالك مسلك الاستفاضة فيهم ورأيت فى بعض الكتب المضافة للكندى وتلميذه وهو أحمد ابن الطيب السرخسى صاحب المعتضد بالله ان فى طرف البحيرة من الشمال بحيرة عظيمة بعضها تحت قطر الشمال وان بقربها مدينة ليس بعدها عمارة ويقال لها تولية ولقد رأيت لبنى المنجم فى بعض رسائلهم ذكر هذه البحيرة وقد ذكر أحمد بن الطيب فى رسالته فى البحار والمياه والجبال عن الكندى ان بحر الروم طوله ستة آلاف ميل من بلاد صور وطرابلس وانطاكية واللاذقية والمثقب وساحل المصيصة وطرسوس وقلمية الى منار هرقل

رحمه

رحمه الله وفى أثنائه اشارة الى الكفار الغالبين على بلاد الاندلس مانصه

الآن شخصينا على القطع واحد * وجاحد هذا للضرورة جاحد
فان لم تصدق مانطقت بصدقه * فانك لى لاح وللود لاحد

ومعاذ الله عز وجل أن تجانى أو تمنع أنفك ريح ريحانى وكيف تصدّ عنى بوجهك أو تشحذ لى غرب نجهك وأنا على غيبك أمين ولشمالك يمين ولكم دعوت بى فأجبت واستغنيت عنى فخبت وأردت الاستبداد فما استطعت ونعت الوداد فما أحسنت النعت وانما تحمد فراهة الاعوجى ان جرى وتذكر فضيلة ابن السرى اذا سرى فأما الاقتصار على عظم باد والانتظار لعين عدمت السواد فخطأ من القائل وخطل عند العاقل ولله در أخيك من مغمض طرف التطرف قارئ أدب الصحبة على السبعة الاحرف كرع فى أعز مورد وتواضع فى شرف مولد وسما بنفسه عن أن يستخفه نسب يرفعه وحسب مامنا أحد يدفعه وكذلك الكرام يرون عليهم حقا ويتوقون من لم يكن من الكبر موقى ولعهدى به وظل الثروة بارد وشيطان الشبيبة مارد وبشره فى الملمات يرف وقدمه الى الحاجات تخف يصون عرضه بماله ويخفى صدقة يمينه عن شماله ويقسم جسمه فى جسوم ويقوم بالحقوق غير ملول ولا ملوم تلك المكارم لاقعبان وما تستوى البدنة المهيضة مع غيرها فى القربان وعرضت بذكر العصر الخالى والقصر العالى وظل من فنن وريق وعيش مع أكرم فريق وماتذكر من زمن تولى وعهد على أن لايعود تأبى فارقناه أحسن ما كان وودعنا به الاطيبين الزمان والمكان فعفت الرسوم وأفلت تلك النجوم ورمتنا عن قوسها الروم ثم خلفتنا فى المغانى وقسمتنا بين الاسير والعانى فأودى القل والكثر واشتفى من الاسلام الكفر فكم كاس أنس أرقناه ومنزل فرقة الابد فارقناه وذكرت اجتيازك بين العلمين وقطعك متن اليم فى يومين وانك انتقلت من ذوات الالواح الى عذبات الادواح ومن متهافت الشراع الى منابت اليراع ومن سكنى بيت السكان الى منزل به الفلاح والملاح يشتركان حيث اجتمع الضب والنون وأينع التين والزيتون وظللت الساحات وذللت الثمار المباحات فلاتشرقنا يا أصيل ولا ثم تلك الارض الويل انتهى ووصل هذا الكلام بالابيات التى تقدمت قريبا وهى قوله زدنا على النائين عن أوطانهم الخ * وكتب رحمه الله عن أهل شاطبة أيام كان قاضيا بها مهنئا أمير المسلمين ابن هود المستولى على الاندلس آخر دولة الموحدين بوصول الكتاب العباسى الكريم اليه من بغداد بولاية الاندلس اذ كان ابن هود حين ثار على الموحدين يدعو الى الخليفة العباسى الذى كان أكثر الملوك فى ذلك الزمان يدينون بطاعته بمانصه بعد الصدر (أما بعد) فكتب العبيد كتب الله تعالى الى المقام العلى المجاهدى المتوكلى سعادة لاتبلغ أمدا الا تخطته ويدا علوها أثبتته أيدى الاقدار وخطته من شاطبة وبركات الامر المجاهدى المتوكلى والعهد الواثقى المعتصمى تنسكب كالمطر وتنسحب على البشر وتقضى بعادة النصر والظفر وسعادة الورد والصدر والحمد لله وعند العبيد من أداء فروض الخدم والقيام بحقوق النعم ماعقدت عليه ضمائرهم

وأن أعرض قوضع فيه أربعمائة ميل هذا قول الكندى وابن الطيب وقد أتينا على قول الفريقين جميعا وما بينهما من الخلاف فى ذلك من أصحاب الزيجات وماوجدناه فى كتبهم وسمعناه من أتباعهم ولم نذكر ماذكروه من البراهين المؤيدة لما وصفوا لاشتراطنا فى هذا الكتاب على أنفسنا الاختصار والايجاز وأما ماتنازع فيه المتقدمون من أوائل اليونانيين والحكماء المتقدمين فى مبادى كون البحار وعللها فقد أتينا على مبسوطه فى كتابنا اخبار الزمان فى الفن الثانى من جملة الثلاثين فنا وقد ذكرنا قول كل فريق منهم وعزونا كل قول من ذلك الى قائله ولم نخل هذا الكتاب من ايراد لمع من قولهم وذهبت طائفة منهم الى ان البحر بقية من الرطوبة الاولى التى جفف أكثرها جوهر النار ومابقى منها استحال لاحتراقه ومنهم من قال ان الرطوبة الاولى المجتمعة لما احترقت بدوران الشمس وانعصر الصفو منها استحال الباقى الى ملوحة ومرارة ومنهم من راى ان البحار عرق تعرقه الارض لماينالها من احتراق الشمس لاتصال دورها ومنهم من رأى ان البحر هو مابقى مما صفته الارض من الرطوبة الثانية لغلظ جسمها كما يعرض فى الماء العذب اذا امتزج بالزيادة فانه اذا صفا من الزبدة وجد ماتحتها بعد ان كان عذبا وذهب آخرون ان الماء عذبه ومالحه كانا

وسمت اليه نواظرهم واشترك فيه باديهم وحاضرهم فجناب أملهم فسيح ومتجر خدمتهم ربيح وحديث طاعتهم حسن صحيح وسنى النظر العلى اهتداؤهم وفى الباب الكريم رجاؤهم وبصدق العبودية اعتزازهم واليها اعتزاؤهم والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية ويحملهم على المناهج السويه ووصل الكتاب الكريم متدليا برواء الحق ناطقا بلسان الصدق واصفا من التشريف والفخار المنيف ما صدر عن امام الخلق فلا بيان أعجب من ذلك البيان ولا يوم كذلك اليوم تبدى نظره للعيان أو تادى خبره فى أخبار الزمان نشرت فيه الخلع العباسية فى اعلى الصور وبرز منها للعيون ما بعثر البليغ عند وصفه فى ذيل الحصر ويهدى سواده سوادا القلب والبصر فيالمشهد ما أعجب ما كان ومرآها الذى راع الكفر وراق الايمان وأشبه يومه بالاندلس يوم خرجت الرايات السود من خراسان وكفى بهذا الفخار الايحتاج ثابته مثبتا أن باشرت بردا باشر البدن الذى طاب حيا وميتا فهو علو فى الاسناد ولا نظير له فى العوالى وفخار ضلت عن مثله العصور الخوالى وجلت بهجته أن تخلق جدتها الايام والليالى ودل الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد والسمة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل فى جنس ذوات الاغماد وخير الاوصاف ما صدقه الموصوف والكريم النسب نسبته يباهى بها الدين وتزهى السيوف

فان نحن سميناك خلنا سيوفنا ✽ من التيه فى أغمادها تتبسم

ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آبائه فانها تضمنت صفة لله عز وجل من صفات الكمال ودلت على مذهب أهل السنة فى خلق الله عز وجل الاعمال وأشعرتنا معشر العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدى المتوكلى أحسن الله تعالى اليه حين تولى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه فانه لما شابه بعزيمة ساعدة ونية فى مشارع الصفاء والاخلاص واردة ألهم زيادة فى العلامة شاركت الامامة فى صفة واحدة فهذه كرامة فى العلامة هى علامة الكرامة وهبة من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله فاستقم كما أمرت فكان من أهل الاستقامة وتضمن الكتاب الكريم بيعة اهل جيان وما معها وان هذه البشائر وما تبعها لفروع عن هذا الاصل الصحيح وأقيسة من هذا النص الصريح بادلة الخلاف قد استقلت وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلت والحمد لله على أن منح جزيل النعماء وشرح باليقين صدور الاولياء وشرف هذه الامة بامامة نجل الائمة الخلفاء وابن عم سيد الرسل وخاتم الانبياء والعبيد يهنؤن بهذه النعم التى لا يستقل بذكرها قلم ولا يقطع علم من وصفها الابدا علم وبهم من الاشواق الى مشاهدة المعالم السنية ولثم اليمين الطاهرة العلية ما اكده نو الدار وجدده ما تجدد للمقام العالى المتوكلى من نعم الله تعالى الجليلة المقدار والشاهدة له باسعاد الايام واسعاف الاقدار فلو أمكنهم الاقدام لاقدموا ولو وجدوا رخصة فى المسير لعزموا وهم يستلمون البساط الاشرفى توهما ومن أملهم انهم فى الحقيقة قد استلموا انتهى وبه تعلم ان الدولة العباسية خطب لها ببلاد الاندلس أعادها الله للاسلام ولا يخفاك أن ما جلبناه من ذلك وغيره مناسب للمقام فلا انتقاد ولا ملام (وقد رأيت) أن اذكر هنا مخاطبة صدرت من الغنى بالله

وعذبه لخفته وبعضهم قال ترفعه الشمس لتغتذى به وقال بعضهم بل يعود ممتزجين فالشمس ترفع لطيفه بالاستحالة ماء اذا صار بارتفاعه الى الموضع الذى يحصره البرد فيه ويكثفه ومنهم من ذكر ان الماء الذى هو اسطقس ما كان منه عن الهواء وما يعرض منه من البرد يكون حلوا وما كان منه فى الارض لما يناله من الاحتراق والحرارة يكون مرا ومن اهل البحث من قال ان جميع الماء الذى يفيض الى البحر من جميع ظهور الارض وبطونها اذا صار الى تلك الحفرة العظيمة فهو مضاض من مصاص والارض تقذف اليه ما فيها من الملوحة والاذان فى الماء من اجزاء النار التى تخرج اليه من بطون الارض ومن اجزاء النيران المختلطة يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما وتبخرهما فاذا رفعا اللطائف صار منها ما يشبه المطر وكان ذلك دابها وعادتها ثم يعود ذلك الماء مالحا لان الارض اذن كانت تعطيه الملوحة ولذلك يكون ماء البحر على كيل واحد ووزن واحد لان البحر يرفع اللطيف فيصير طلا وماء ثم تعود تلك الانديه سيولا وتطلب الحدور والفرار وتجرى فى اعماق الارض حتى تصير الى ذلك الهور فليس يضيع من ذلك الماء شئ ولا يبطل منه شئ والاعيان قائمة كمن يجنون غرفا من نهر وصب الى

صاحب

صاحب الاندلس الى السلطان المنصور أحمد ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون من انشاء الوزير الكبير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله لما اشتملت عليه من أحوال الاندلس ونصها الابواب التى تفتح لنصرها أبواب السماء وتستدر من آفاقها سحاب النعماء وتجلى بانوار سعدها داجى الظلماء وتعرف نكرة البلاد لعباد بالانتساب الى محبتها والانتماء على اختلاف العروض وتباين الحدود وتعدد الاسماء ويجتزأ من صلات صلاتها عند الموانع من كمال حالات صفاتها بالايماء وتحمل لها التحية ذوات الدسر والالواح طاعنة نحر الصباح على كتد الماء أبواب السلطان الكبير الجليل الشهير الطاهر الظاهر الاوحد الاسعد الاصعد الامجد الاعلى العادل العالم الفاضل الكامل سلطان الاسلام والمسلمين عماد الدنيا والدين رافع ظلال العدل على العالمين جمال الاسلام علم الاعلام فخر الليالى والايام ملك البرين والبحرين امام الحرمين مؤمن الامصار والاقطار عاصب تاج الفخار هازم الفرنج والترك والتتار الملك المنصور ابن الامير الرفيع الجادة الكريم الولادة الطاهر الظاهر الكبير الشهير المعظم الممجد الاسمى الموقر الاعلى فخر الجلة سيف الملة تاج الامارة عز الاسلام مستظل الانام قمر الميدان أسد الحرب العوان المقدس المطهر الامير احمد ابن والد السلاطين ومالك المسلمين وسيف خلافة الله على العالمين وولى المؤمنين سلطان الجهاد والحج ومقيم رسم العج والثج محيى معالم الدين قامع المعتدين قاهر الخوارج والمتمردين ناصر السنة محيى الملة ملك البرين والبحرين سلطان الحرمين الملك العادل العالم العامل المنصور المؤيد المعان المرفع المعظم المبجل المؤمل المجاهد المرابط المغازى الممجد المكمل المطهر الكبير الشهير المقدس الملك الناصر أبى عبد الله محمد بن قلاوون الصالحى جعل الله فسطاط دعوته معمودا بعمود الصبح وحركات عزمه مبنية على الفتح ومجمل سعادته غنيا عن الشرح وجياد أوصافه متبارية فى ميدان المدح وزناد رأيه وارية على القدح من موجب حقه وجوب الشعائر الخمس المرحب لاجل أفقه الشرقية بوفادة الشمس المجدد فى اليوم حكم ما تقرر بين السلف رحمهم الله بالامس أمير المسلمين بالاندلس عبد الله الغنى بالله الغالب به محمد بن يوسف بن اسمعيل بن فرج بن نصر سلام كريم كما رفعت راية الصبح تقدمها طلائع مبشرات الرياح يفاوح أرجه زهير الادواح ويحاسن طرر الوجوه الملاح يخص أبوتكم التى رتب العز فصولها وعضدت نصوص النصر نصولها ورحمة الله تعالى وبركاته أما بعد حمد الله الذى جعله فاتحة القرآن وخاتمة دعاء أهل الجنان وشكره على ما أولى من مواهب الاحسان حمدا وشكرا يستخدمان من الانسان ملكتى القلب واللسان والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله زهرة كمامة الاكوان وسيد ولد آدم على اختلاف اللغات والالوان الذى أذل بعزة الله نفوس أهل الطغيان وغطى بدينه الحق على الاديان وزويت له الارض فرأى ملك أمته يبلغ ما زوى له فكان الخبر وفق العيان والرضا عمن له من الاصحاب والاحباب والاعمام والاخوال والاخوان صلاة يجددها الجديدان ويمليها الملوان وتتراحم على تربته المقدسة مع الاحيان ما سجعت طيور البراعة من أعواد اليراعة على الافنان والتفتت

حفرة تفيض الى ذلك النهر وقد شبه ذلك قوم باعضاء الحيوان اذا اغتذت وعملت الحرارة فى غذائها فاجتذبت منه ماء عذبا الى الاعضاء المغتذية به وخلفت ما ثقل منه وهو المالح والمر فمن ذلك البول والعرق وهذه فضول الاغذية فيها ولما كانت عن رطوبات عذبة أحالتها الحرارة الى المرارة والملوحة وان الحرارة لو زادت أكثر من مقدارها لصارت الفضول مرا زائدا على ما يوجد من العرق والبول لوجودنا كل محترق مرا هذا قول جماعة ممن تقدم وأما ما يوجد بالعيان وايقاع المحنة عند المباشرة فان كل الرطوبات ذوات الطعوم اذا صعدت بالقرع والانابيق بقيت روائحها وطعومها فيما يرتفع منها كالخل والنبيذ والورد والزعفران والقرنفل الا المالحة فانها تختلف طعومها وروائحها ولاسيما ان صعدت مرتين وسخنت مرة بعد أخرى وقد ذكر صاحب المنطق فى هذا المعنى كلاما كثيرا من ذلك أن الماء المالح أثقل من الماء العذب وجعلت الدلالة على ذلك أن الماء المالح كدر غليظ والماء العذب صاف رقيق وأنه اذا أخذ شئ من الشمع فعمل منه إناء ثم سد رأسه وصير فى ماء مالح وجد ذلك الماء الذى وصل الى الاناء عذبا فى الطعم خفيفا فى الوزن ووجد الماء المالح المحيط به على خلاف ذلك وكل ما يجرى فهو نهر

عيون المعانى مابين أجفان البيان والدعاء لابوابكم الشريفة جعل الله تعالى عصمته تقيم بها وظيفتى الحجابة والاستئذان وضرب بدعوتها التى هى لذة الاقامة والاذان على الآذان واستخدم بروج الفلك الدوّار فى أمرها العزيز استخدام الانصار والاعوان حتى يعلم مافى المدافعة عن حماها مخالب السرحان وفى الاشادة بعدلها كفتى الميزان ويهدى لها من الزهرة كرة الميدان ومن الهلال عوض الصولجان وأبقى فى عواملها ضمير الامر والشان الى يوم تعنو وجوه الملوك الى الملك الديان فانا كتبناه الى تلك الابواب كتب الله لعتبتها النصرة الداخلة كما أخجل بمكارمها السحب الباخلة وجعل مفارق مناصلها المختضبة من نجيع عداها غير ناصلة وقرن بكل سبب من اضدادها فاصلة من دار ملك الاسلام بالاندلس حمراء غرناطة وصل الله سبحانه عادة الدفاع عن ارجائها وشدّ بأيدى اليقين عرا أملها فى الله ورجائها حيث المصاف المعقود وثمن النفوس المنقود ونار الحرب ذات الوقود حيث الافق قد تردى بالقتام وتعمم والسيف قد تجرد وتيمم وغبار الجهاد يقول انا الامان من دخان جهنم حيث الاسلام من عدوّه كالشامة من جلد البعير والتمرة من أوسق العير حيث المصارع تتزاحم الحور على شهدائها والابطال يعلو بالتكبير مسمع ندائها حيث الوجوه الضاحكة المستبشرة قد زينتها الكلوم بدمائها وان هذا القطر الذى مهدت لسياستنا اكوار مطاياه وجعلت بيدنا والمنة لله عياب عطاياه قطر مستقل بنفسه مرب يومه فى البرّ على امسه زكىّ المنابت عذب المشارب متمم المآمل مكمل المآرب فاره الحيوان معتدل السحن والالوان وسيطة فى الاقاليم السبعة شاهدة لله باحكام الصنعة أما خيله ففارهة والى الركض شارهة وأما سيوفه فلمواطن الغمود كارهة وأما اسله فمتداركة الخطف وأما عوامله فبينة الحذف وأما نباله فمحذورة القذف الا أن الاسلام به فى سفط مع الحيات وذريعة للمنيات الوحيات وهدف للنبال واكلة للشبال تطؤهم الغارات المتعاقبة وتخيفهم الحدود المصاقبة وتجوس خلالهم العيون المراقبة وتريب من أشكال مختطهم الا أن يتفضل الله بحسن العاقبة فليس الا الصبر والضرب الهبر والهمز والنبر والمقابلة والجبر وقد حال البحر بينهم وبين اخوان ملتهم وأساة علتهم يقومون بهذا الفرض عن أهل الارض ويقرضون ملك يوم العرض أحسن القرض فلولا بعد المدى وغول الردى ولغط العدا وما عدا مما بدا لسمعتم تكبير الحملات وزئير تلك الفلات ودوى الحوافر وصليل السيوف من فوق المغافر وصراخ الثكالى وارتفاع الادعية الى الله تعالى ولو ارتفع هذا المكان وهو للاولياء مثلكم من حيز الامكان لمقلتم مقل الاسنة الزرق حالة من أطراف قصب الرماح محال الورق وأبصرتم القنا الخطار قد عاد أخلة والسيوف قد صارت فوق بدور الخود أهلة وعقود الشهادة عند قاضى السعادة مستقلة وكان كما تحصره علومكم الشريفة حدق سور الفتح وآخر ولاء ذلك المنح عرض على الفاروق فاحتاط وأغرى به من بعده فاشتاط وسرحت خيل ابن أبى سرح فى خبر يدعو الى شرح حتى اذا ولد مروان تقلدوا كرتها التى هوت وقضوا ما انتحت ورثة الحق وشوت ويدهم على الامر احتوت وفازت منه بما نوت

وحيث ينبع فهو عين وحيث يكون معظم الماء فهو بحر (قال المسعودى) وقد تكلم الناس فى المياه واشباهها واكثروا وقد ذكرنا فى كتابنا أخبار الزمان فى الفن الثانى من جملة الثلاثين فنا ماأوردوه من البراهين فى مساحة البحار ومقاديرها والمنفعة فى ملوحة مائها واتصال بعضها ببعض وانفصالها وعدم بيان الزيادة فيها والنقصان ولاًية علة كان الجزر والمدّ فى البحر الحبشى أظهر من دون سائر البحار ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين يخبرون عن البحر الحبشى فى أغلب الامور على خلاف ماذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة وان ذلك لاغاية له وفى مواضع منه شاهدت ارباب المراكب فى البحر الرومى من الحربية والعمالة وهم النواتى وأصحاب الرحل والرؤساء ومن يلى تدبير المراكب والحرب فيهم مثل لاوى المكنى بأبى الحرب غلام زرافة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق وذلك بعد الثلثمائة يعظمون طول البحر الرومى وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص ولم يبق فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة

نفل

نفل ولا أنده الوليد وجلب له الطريف والتليد وطرقت خيل طارق وضاقت عن اخباره المهارق وجلت الفائدة وظهر على الذخيرة التى منها المائدة ثم استرسل المهب ونصر الرب ويكثر الطير حين ينثر الحب وصرفت أشراف الشام أعنتها الى التماس خيره وطارت بأجنحة العزائم تمنا بطيره وقصدته الطلائع صحبة بلج بن بشر وغيره ففتحت الاقفال ونفلت الانفال ونجح القال وسمت الاغفال وافتتحت البلاد الشهيرة وانتقيت العذارى الخيرة واقتنيت الذخيرة وتجاوز الاسلام الدروب وتخطى وخضد الارطى وأركب وأمطى واستوثق واستوطا وتثاءب وتمطى حتى تعددت مراحل البريد وسخنت عين الشيطان المريد واستوسق للاسلام ملك ضخم السرادق مرهوب البوارق رفيع العمد بعيد الامد تشهد بذلك الآثار والاخبار والوقائع الكبار والاوداق والامطار وهل يخفى النهار ولكل هبوب ركود والدهر حسود لمن يسود فراجعت الفرنج كرتها واستدركت معرتها فدوّخت جوارحها وحلقت وأومضت بوارقها وتألقت وتشبثت وتعلقت وأرسلت الاعنة وأطلقت وراجعت العقائل التى طلقت حتى لم يبق من الكتاب الا الحاشية ولا من الليل الا الناشية وسقطت الغاشية وأخلدت الفئة المتلاشية وتقلصت الظلال الفاشية الا أن الله تدارك بقوم رجح من سلفنا اثبتوا فى مستنقع الحرب أقدامهم وأخلصوا لله بأسهم واقدامهم ووصلوا سيوفهم البارقة بخطاهم وأعطاهم منشور العزم من أعطاهم حين تعين الدين وتحيز واشتد بالمدافعة وتميز وعادت الحروب سجالا وعلم الروم أن لله رجالا وقد أوقد جدّنا رضى الله عنه على ابواب سلفكم من وقائعه فى العدوّ كل مبشرة ووجوديه منتشرة ضحكت لها ثغور الثغور وسرت بها فى الاعطاف حميا السرور وكانت المراجعة عنها شفاء للصدور وتمائم فى درر النحور وخفرا فى وجوه البدور فان ذمام الاسلام موصول وفروعه تجمعها فى الله أصول وما أقرب الحزن ممن داره صول والملة والمنة لله واحدة والنفوس لامنكرة للحق ولا جاحدة والاقدار معروفة والآمال الى مايوصل الى الله مصروفة فاذا لم يكن الاستدعاء أمكن الدعاء والخواطر فعالة والكل على الله عالة والدين غريب والغريب يحن الى أهله والمرء كثير بأخيه على بعد محله انتهى المقصود من المخاطبة مما يتعلق بهذا الباب والله الموفق للصواب

(الباب الثالث)

فى سرد بعض ما كان للدين بالاندلس من العز السامى العماد والقهر للعدوّ فى الرواح والغدوّ والتحرك والهدوّ والارتياح البالغ غاية الآماد واعمال أهلها للجهاد بالجد والاجتهاد فى الجبال والوهاد بالاسنة المشرعة والسيوف المستلة من الاغماد

(اقول) قد قدمنا فى الباب قبل هذا ما كان من نصر المسلمين وفتحهم الاندلس وما حصل لهم من السلطان بها الى مجىء الداخل فتقررت القواعد السلطانية وعلت الكلمة الايمانية كما نسرده هنا ان شاء الله تعالى (وذكر غير واحد) منهم ابن حزم ان دولة بنى أمية بالاندلس كانت أنبل دول الاسلام وانكاها فى العدو وقد بلغت من العز والنصر ما لا مزيد عليه كما

انظر منه فى البحر الرومى ولا آنس منه وليس فى بركته من أصحاب المراكب من الحربية والعمالة الا وهو منقاد الى قوله ويقر له بالنصر والحذق مع ماهو عليه من الديانة والجهاد القديم فيها وقد ذكرنا عجائب هذه البحار وما سمعناه ممن ذكرنا من أخبارها وآفاتها وما شاهدوا فيها فيما سلف من كتبنا وسنورد بعد هذا الموضع جملا من أخبارها وقد ذهب قوم ممن تكلم فى علامات المياه ومستقرها من الارض الى انه يرى فى المواضع التى فيها الماء نبت القصب والحلفاء والسل من الحشيش فذلك دلالة على قرب الماء لمن اراد الحفر وان ماعدا ذلك فعلى البعد ووجدت فى كتاب الفلاحة ان من اراد أن يعلم قرب الماء وبعده فليحفر فى الارض ثلاثة أذرع او أربعة ثم يأخذ قدرا من نحاس أو سحابة خذف فيدهنها بشحم من داخلها مستويا ولتكن القدر واسعة الفم فاذا غابت الشمس فخذ صوفة بيضاء منفوشة مغسولة وخذ حجرا قدر بيضة فلف ذلك الصوف عليه مثل الكرة ثم اطل جانب الكرة بموم مذاب والصقها فى أسفل ذلك القدر الذى قد دهنته بدهن او بشحم ثم ألقها فى أسفل الحفيرة فان الصوف يصير معلقا والموم يمسكه ويصير الى مكان الحجر معلقا ثم احث على الاناء التراب

ستري بعضه (وأصل هذه الدولة) كما قال ابن خلدون وغير واحد أن بني أمية لما نزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العباس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وقتل عبد الله بن علي مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة وتتبع بني مروان بالقتل فطلبوا بطن الارض من بعد ظهرها وكان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وكان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يأثرونها عن مسلمة بن عبد الملك وكان هو قد سمعها منه مشافهة فكان يحدث نفسه بذلك فخلص الى المغرب ونزل على اخواله نفزة من برابرة طرابلس وشعر به عبد الرحمن بن حبيب وكان قد قتل ابني الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما دخلا افريقية فلحق بمغيلة وقيل بمكناسة وقيل بقوم من زناتة فاحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بمليلة وبعث بدرا مولاه الى من بالاندلس من موالي المروانيين واشياعهم فاجتمع بهم وبثوا له في الاندلس دعوة ونشروا له ذكرا ووافق قدومه ما كان من الاحن بين اليمنية والمضرية فاصفقت اليمنية على أمره لكون الامر كان ليوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصميل ورجع بدر مولاه اليه بالخبر فاجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة في خلافة ابي جعفر المنصور ونزل بساحل المنكب وأتاه قوم من اهل اشبيلية فبايعوه ثم انتقل الى كورة رية فبايعه عاملها عيسى بن مساور ثم الى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ثم الى مورور فبايعه ابن الصباح ونهد الى قرطبة فاجتمعت اليه اليمنية ونمى خبره الى والي الاندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازيا بجليقية فانفض عسكره ورجع الى قرطبة وأشار عليه وزيره الصميل بن حاتم بالتلطف له والمكر به لكونه صغير السن حديث عهد بنعمة فلم يتم ما أراده وارتحل عبد الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جندها ثم برندة ثم بشريش كذلك ثم باشبيلية فتوافت اليه جنود الامصار وتسايلت المضرية اليه حتى اذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الصميل منه زحف حينئذ عبد الرحمن الداخل وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة فانكشف يوسف ولجأ الى غرناطة فتحصن بها واتبعه الامير عبد الرحمن فنازله ثم رغب اليه يوسف في الصلح فعقد له على ان يسكن قرطبة ثم أقفله معه ثم نقض يوسف عهده وخرج سنة احدى واربعين ومائة ولحق بطليطلة واجتمع اليه زهاء عشرين ألفا من البربر وقدم الامير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني وكان وفد عليه من المشرق وكان ابوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فلما دخلت المسودة أرض مصر خرج عبد الملك يؤم الاندلس في عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة اربعين فعقد له على اشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور وسار يوسف اليهما وخرجا اليه ولقياه وتناجز الفريقان فكانت الدائرة على يوسف وأبعد المفر وأغتاله بعض اصحابه بناحية طليطلة واحتز رأسه وتقدم به الى الامير عبد الرحمن فاستقام أمره واستقر بقرطبة وثبت قدمه في الملك وبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة وأنفق فيه ثمانين ألف دينار ومات قبل تمامه وبنى مساجد ووفد عليه جماعة من اهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالاندلس وأثل بها

قدر ذراعين أو ذراع ودعه ليلتك كلها فاذا كان الغد قبل طلوع الشمس فاكنس التراب عنه وارفع الاناء فان رأيت الماء ملتزقا بالاناء من داخل قطرا كثيرا بعضه قريب من بعض والصوفة ممتلئة فان في ذلك المكان ماء وهو قريب وان كان القطر مفترقا لا بالمجتمع ولا بالمتقارب والصوفة ماؤها وسط فان الماء ليس بالبعيد ولا بالقريب وان كان القطر ملتزقا متباعدا بعضه من بعض والماء في الصوفة قليل فان الماء بعيد وان لم تر على الاناء قطرا قليلا ولا كثيرا ولا على الصوفة ماء فانه ليس في ذلك الموضع ماء فلا تتعنى في حفره ووجدت في بعض النسخ من كتب الفلاحة هذا المعنى ان من أراد علم ذلك فلينظر الى قرى النمل فان وجد النمل غلاظا سودا ثقيلة المشي فلينظر فعلى قدر ثقل مشيهن الماء قريب منهن وان وجد النمل سريع المشي لا يكاد يلحق فالماء منهن على أربعين ذراعا والماء الاول يكون عذبا طيبا والثاني ثقيلا مالحا فهذه جملة علامات لمن يريد استخراج الماء وقد أتينا على مبسوط ما ذكرنا في كتابنا أخبار الزمان وانما نذكر في هذا الكتاب ما تدعو الحاجة الى ذكره بالاشارة اليه دون بسطه وايضاحه وقد ذكرنا جملا من أخبار البحار وغيرها فلنقل في أخبار

الملك

الملك العظيم لبني مروان والسلطان العزيز وجدد ماطمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها واستلحم الثوار عليه على كثرتهم في النواحي وقطع دعوة آل العباس من منابر الاندلس وسد المذاهب منهم دونها وهلك سنة ثنتين وسبعين ومائة وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل لانه اول داخل من ملوك بني مروان الى الاندلس وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر قريش لما رأى انه فعل بالاندلس ما فعل وماركب اليها من الاخطار وانه نهد اليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا انصار فغلب أهلها على أمرهم وتناول الملك من ايديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم حتى انقاد له الامر وجرى على اختياره وأورثه عقبه * وكان يسمى بالامير وعليه جرى بنوه من بعده فلم يدع أحد منهم بامير المؤمنين تأدبا مع الخلافة بمقر الاسلام ومنتدى العرب حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر وهو ثامن بني أمية بالاندلس فتسمى بأمير المؤمنين على ماستذكره لما رأى من ضعف خلفاء بني العباس بعد الثلثمائة وغلبة الاعاجم عليهم وكونهم لم يتركوا لهم غير الاسم وتوارث التلقيب بأمير المؤمنين بنو عبد الرحمن الناصر واحدا بعد واحد (قال ابن حيان) وكان لبني عبد الرحمن الداخل بالعدوة الاندلسية ملك ضخم ودولة متسعة اتصلت الى ما بعد المائة الرابعة وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره قوي أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم وعمد فرويلة بن ادفونش ملكهم الى ثغور البلاد فاخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم فملك مدينة لك وبرتقال وسمورة وقشتالة وشقوبية وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن ابي عامر آخر الدولة ثم استعادوها بعده فيما استعادوا من بلاد الاندلس واستولوا على جميعها حسبما يذكر والله سبحانه الامر اه وخاطب عبد الرحمن قارله ملك الافرنج وكان من طغاة الافرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكسر تام الرجولية فمال معه الى المداراة ودعاه الى المصاهرة والسلم فاجابه للسلم ولم تتم المصاهرة قال ابن حيان ولما ألفى الداخل الاندلس ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك عاطلا أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية وآخذهم بالآداب فاكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة وبدا فدون الدواوين ورفع الأواوين وفرض الاعطية وعقد الالوية وجند الاجناد ورفع العماد وأوثق الاوتاد فاقام للملك آلته وأخذ للسلطان عدته فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته ولم يلبث أن دانت له بلاد الاندلس واستقل له الامر فيها فلذلك ما ظل عدوه ابو جعفر المنصور بصدق حده وبعد غوره وسعة احاطته يسترجع عبد الرحمن كثيرا ويعدله بنفسه ويكثر ذكره ويقول لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة اسبابه فالشان في أمر فتى قريش الاحوذي الفذ في جميع شؤنه وعدمه لاهله ونشبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرتقى همته ومضاء عزيمته حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى انقاد له عصيهم وذل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكا على قطيعته قاهرا لاعدائه حاميا لذماره مانعا لحوزته خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه ان ذلك لهو الفتى كل الفتى

ملوك الصين وغيرها وأهلها وغير ذلك مما لحق به ان شاء الله تعالى * (ذكر ملوك الصين والترك وتفرق ولد عابور وأخبار الصين وغير ذلك مما لحق بهذا الباب) * قد تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم فذكر كثير منهم ان ولد عابور بن بتويل بن يافث بن نوح لما قسم فالغ بن عابور وارفخشذ بن سام بن نوح الارض بين ولد نوح ساروا سيرة في الشرق فسار قوم منهم من ولد رعو على سمت الشمال وانتشروا في الارض فصاروا عدة ممالك منهم الديلم والجيل والطيلسان والتتر وفرغان فأهل جبل الفتح أنواع اللكزيم واللان والخزر والابخاز والسرير وكشك وسائر تلك الامم المنتشرة في ذلك الصقع والارمن الى بلاد طوابريدة الى بحر مانطش ونيطش وبحر الخزر والبلغر ومن اتصل بهم من الامم وعبر ولد عابور نهر بلخ ويمم بلاد الصين الاكثر منهم وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار فمنهم الجيل وهم سكان جيلان والاشروسية والصغد وهم بين بخارى وسمرقند ثم الفراغنة والشاش واسبجار وأهل بلاد العبرات فبنوا المدن والضياع وانفرد منهم اناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي فمنهم الترك الخرلخ والغز غز ومنهم أصحاب مدينة كوسان وهي مملكة بين خراسان وبلاد الصين

لايكذب مادحه وجعل ابن حيان من النوادر العجيبة موافقة عبد الرحمن هذا لابي جعفر المنصور في الرجولية والاستيلاء والصرامة والاجتراء على الكبائر والقساوة فان أم كل واحد منهما بربرية وكان الداخل يقعد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل اليه من أراده من الناس فيصل الضعيف منهم الى رفع ظلامته اليه دون مشقة وكان من عادته ان يأكل معه من اصحابه من أدرك وقت طعامه ومن وافق ذلك من طلاب الحوائج أكل معه *(وفي كتاب ابن زيدون) انه كان أصهب خفيف العارضين بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان أعور أخشم والاخشم الذي لا يشم وكان يلقب بصقر قريش لكونه تغرب وقطع البر والبحر وأقام ملكا قد أدبر وحده ولما ذكر الحجاري انه أعور قال ما أنشد فيه الا قول امرئ القيس

لكن عوير وفي بذمته * لا عور شانه ولا قصر

(وقال ابن خلدون) وفي سنة ست وأربعين سار العلاء بن مغيث اليحصبي من افريقية الى الاندلس ونزل بباجة الاندلس داعيا لابي جعفر المنصور واجتمع اليه خلق فسار عبد الرحمن اليه ولقيه بنواحي اشبيلية فقاتله أياما ثم انهزم العلاء وقتل في سبعة آلاف من اصحابه وبعث عبد الرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة فألقيت في اسواقها سرا ومعها اللواء الاسود وكتاب المنصور للعلاء فارتاع المنصور لذلك وقال ماهذا الا شيطان والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر أو كلاما هذا معناه وقد مر ذكر ذلك وكثرت ثورة رؤساء العرب بالاندلس على عبد الرحمن الداخل ونافسوه ملكه ولقي منهم خطوبا عظيمة وكانت العاقبة له واستراب في آخر أمره بالعرب لكثرة من قام عليه منهم فرجع الى اصطناع القبائل من سواهم واتخاذ الموالي ثم غزا بلاد الافرنج والبشكنس ومن وراءهم ورجع بالظفر وكان في نيته ان يجدد دولة بني مروان بالمشرق ففات دون ذلك الامل وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر اذ دخل الاندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة ومات سنة اثنتين وسبعين وقيل احدى وسبعين ومائة في خلافة الرشيد وأمه أم ولد بربرية اسمها راح ومولده سنة ثلاث عشرة ومائة بدير حنا من أرض دمشق وقيل بالعليا من تدمير ومات ابوه في ايام ابيه هشام سنة ثمان عشرة عن احدى وعشرين سنة وكفله واخوته جدهم هشام ووهب لعبد الرحمن هذا جميع الاخماس التي اجتمعت للخلفاء بالاندلس وأقطعه اياها ووجه لحيازتها من الشام سعيد بن أبي ليلى وقيل انه لما قصد المغرب من فلسطين خرج معه أربعة بدر مولى أبيه وأبو شجاع وزياد وعمرو وقيل ان بدرا لحقه ولم يخرج معه فالله أعلم وخلف من الولد عشرين منهم احد عشر رجلا وتسع اناث *(وحكى غير واحد) انه لما هرب من الشام الى افريقية قاصدا الاندلس نزل بمغيلة فصار بها عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وانسوس ويكنى أبا قرة فاستتر عنده وقتا ولحق به بدر مولى أبيه بجوهر وذهب أنفذته أخته اليه فلما دخل الاندلس واستتب أمره به سار اليه أبو قرة وانسوس البربري فاحسن اليه وحظي عنده وأكرم زوجته تكفات البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه فقال لها عبد الرحمن مداعبا حين استظلت بظله في الاندلس لقد عذبتني بريح ابطيك

يا تكلفات

وليس في أجناس الترك وأنواعهم في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة أشد منهم باسا ولا أكثر منهم شوكة ولا أضبط ملكا وكلهم ازحان ومذهبهم مذهب المانية وليس في الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم ومن الترك الكيمالية والبرسخانية والبدية والجقوبية واشدهم باسا الجقوبية وأحسنهم صورة وأطولهم قامة وأصبحهم وجوها الخزلجية وهم أهل بلاد فرغانة والشاش مما يلي ذلك الصقع وفيهم كان الملك ومنهم خاقان الخواقين وكان يجمع ملكه سائر ممالك الترك وتنقاد اليه ملوكها ومن هؤلاء الخواقين كان (فراسياب) التركي الغالب على بلاد فارس ومنهم (سانة) ولخاقان الترك في وقتنا هذا تنقاد ملوك الترك كلهم منذ خربت المدينة المعروفة بعمات وهي في مفاوز سمرقند وقد ذكرنا انتقال الملك عن هذه المدينة والسبب في ذلك في كتابنا المترجم بالكتاب الاوسط ولحق فريق من ولد عابور بتخوم الهند فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك ولحقوا بالوان الهند ولهم حضر وبواد وسكن فريق منهم ببلاد التبت وملكوا عليهم ملكا وكان ينقاد الى ذلك الخاقان على ما قدمنا وسمى اهل التبت ملكهم بخاقان

يا تكفات على ما كان بى من الخوف وسطعتنى بأنتن من ريح الجيف فكان جوابها له مسرعة
بل ذلك كان والله يا سيدى منك خرج ولم تشعر به من فرط فزعك فاستظرف جوابها
وأغضى عن مواجهتها بمثل ذلك وهذا من آفات المزاح * ومن محاسنه انه أدار السور
بقرطبة رحمه الله (وتولى الملك بعده ابنه هشام بعهد منه اليه) وأمه أم ولد اسمها حلل وأفضى
اليه الملك وهو بماردة وال عليها وكان أبوه يوليه فى صباه ويرشحه للامر وكان الداخل كثيرا
ما يسأل عن ابنيه سليمان وهشام فيذكر له ان هشاما اذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا
وذكرا لامور الحرب ومواقف الابطال وما أشبه ذلك واذا حضر سليمان مجلسا امتلأ سخفا
وهذيانا فيكبر هشام فى عينه بمقدار ما يصغر سليمان وقال يوما لهشام لمن هذا الشعر

وتعرف فيه من أبيه شمائلا * ومن خاله أو من يزيد ومن حجر
سماحة ذا مع بر ذا ووفاء ذا * ونائل ذا اذا صحا واذا سكر

فقال له يا سيدى لامرئ القيس ملك كندة وكأنه قاله فى الامير أعزه الله فضمه اليه استحسانا
بما سمع منه وأمر له باحسان كثير وزاد فى عينه ثم قال لسليمان على انفراد لمن هذا الشعر
وأنشده البيتين فقال لعلهما لاحد أجلاف العرب أمالى شغل غير حفظ أقوال بعض الاعراب
فأطرق عبد الرحمن وعلم قدر ما بين الاثنين من المزية * ولما ولى هشام أشخص المنجم
المعروف بالضبى من وطنه الجزيرة الخضراء الى قرطبة وكان فى علم النجوم والمعرفة بالحركات
العلوية بطليموس زمانه حذقا واصابة فلما أتاه خلا به وقال له يا ضبى لست أشك انه قد عناك
من أمرنا اذ بلغك ما لم ندع تحديد النظر فيه فانشدك الله الا ما نبأتنا بما ظهر لك فيه فلجلج
وقال اعفنى أيها الامير فانى ألممت به ولم أحقق النظر فيه لجلالته فى نفسى فقال له قد أجلتك
لذلك فتفرغ لانظر فيما بقى عليك منه ثم أحضره بعد أيام فقال ان الذى سألتك عنه جدّ منى
مع أنى والله ما أثق بحقيقته اذ كان من غيب الله الذى استأثر به ولكنى أحب أن أسمع
ما عندك فيه فالنفس طلعة وألزمه الصلة أو العقوبة فقال اعلم أيها الامير انه سوف يستقر
ملكك سعيدا جدك قاهرا لمن عاداك الا ان مدتك فيه فيما دل عليه النظر تكون ثمانية
أعوام أو نحوها فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال يا ضبى ما أخوفنى ان يكون النذير كلمنى
بلسانك والله لو أن هذه المدة كانت فى سجدة لله تعالى لقلت طاعة له ووصله وخلع عليه وزهد
فى الدنيا ولزم افعال الخير والبر (ومن حكاياته فى الجود) انه كان قاعد الراحته فى علية على
النهر فى حياة والده فنظر الى رجل من قدماء صنائعه من اهل جيان قد اقبل يوضع السير
فى الهاجرة فانكر ذلك وقدّر شرا وقع به من قبل اخيه سليمان وكان واليا على جيان فامر بادخاله
عليه فقال له مهيم يا كنانى فلأمر ما واحسبك الامر عجالشئ دهمك فقال نعم يا سيدى قتل
رجل من قومى رجلا خطأ فحملت الدية على العاقلة فاخذ بها من كنانة عامة وحملنا على من
بينهم خاصة وقصدنى أخوك بالاعتداء اذ عرف مكانى منك فمد هشام يده الى جارية كانت
وراء الستر وقطع قلادة عقد نفيس كان فى نحرها وقال له دونك هذا العقد يا كنانى وشراؤه
على ثلاثة آلاف دينار فلا تخدعن عنه وبعه وأدّ عن نفسك وعن قومك ولا تمكن الرجل
من اهتضامك فقال يا سيدى لم آتك مستجديا ولا لضيق المال عما حملته ولكنى لما اعتمدت

تشبيها بمن تقدم من الملوك وسار الجمهور من ولد عابور على ساحل البحر حتى انتهوا ١٥٧ الى قاصيه من بلاد الصين فتفرقوا فى
تلك البقاع والبلاد وقطنوا
الديار وكوّروا الكور
ومصروا المدن واتخذوا
لملكتهم مدينة عظيمة
وسموها انموا وبينها وبين
ساحل البحر الحبشى وهو
بحر الصين مسافة ثلاثة
أشهر مدن وعمائر متصلة وكان
أول ملك تملك عليهم فى هذه
الديار وهى انموا (اسطرماس)
ابن فاعور بن بريح بن
عابور بن يافث بن نوح
فكان ملكه ثلثمائة سنة
ونيفا وفرق أهله فى تلك
الديار وشقق الانهار وقتل
السباع وغرس الاشجار
وأطعم الثمار وهلك فلك
ولده يقال له (عرون)
فجعل جسد أبيه فى تمثال
من الذهب الاحمر جزعا عليه
وتعظيما له وأجلسه على
سرير من الذهب الاحمر
مرصع بالجواهر وجعل
مجلسه دونه وأقبل يسجد
لابيه وهو فى جوف تلك
الصورة هو وأهل مملكته
فى طرفى النهار اجلالا له
وعاش مائتى سنة وخمسين
سنة وهلك فلك ولده
يقال له (عبرور) فجعل
جسد أبيه عرون فى تمثال
من الذهب الاحمر وجعله
دون مرتبة جده على سرير
من الذهب ورصعه بانواع
الجواهر وكان يسجد له ويبدأ بالاول ثم بابيه وأهل مملكته يسجدون له وأحسن السياسة للرعية وسوّاهم فى جميع امورهم

بظلم صراح أحببت ان يظهر على عز نصرك وأثر ذبك وامتعاضك فاتمحد بذلك عند من يحسدني على الانتماء اليك فقال هشام فاوجه ذلك فقال أن تكتب الى أخيك في الامساك عني والقيام بذمتك لي فقال امسك العقد وركب من حينه الى والده الداخل واستأذن عليه في وقت أنكره فانزعج وقال ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت الا امر مقلق ائذنوا له فلما دخل سلم عليه ومثل قائما بين يديه فقال له اجلس يا هشام فقال اصلح الله الامير سيدي وكيف جلوسي بهم وذل مزعج وحق لمن قام مقامي أن لا يجلس الا مطمئنا ولن يقعدني الا طيب نفسي باسعاف الامير لحاجتي والا رجعت على عقبي فقال له حاشك لك من انقلابك خائبا فاقعد مجابا مشفعا فجلس فقال له أبوه فما الحدث المقلق فأعلمه فأمر بحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال فسر هشام واطنب في الشكر وكتب الامير الى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني بما لم يدر في خلده * ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له ياسيدي قد تجاوزت بك حد الامنية وبلغت غاية النهر وقد اغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة فتعيده الى صاحبته فأبى من ذلك وقال لا سبيل الى رجوعه الينا * وكان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها فاذا انتهى اليه حيف من احدهم اوقع به واسقطه وانصف منه ولم يستعمله بعد ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال نسأل الله تعالى ان يزين موسمنا بمثل هذا وفي أيامه فتحت أربونة الشهيرة واشترط على المعاهدين من أهل جليقية من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونها الى باب قصره بقرطبة وبنى منه المسجد الذي قدام باب الجنان وفضلت منه فضلة بقيت مكوّمة وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروبا ثم كانت الدائرة له وقصد الى بلاد الحرب غازيا وقصد ألبة والقلاع فلقي العدوّ وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين وبعث العساكر الى جليقية مع يوسف بن بخية فلقي ملكها ابن منده وهزمه وأثخن في العدو وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لغزاة العدوّ فبلغ ألبة والقلاع فأثخن في نواحيها ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين الى أربونة وجريدة فأثخن فيها ووطئ أرض برطانية ثم توغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى ألبة والقلاع سنة ثمان وسبعين ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد الى بلاد جليقية فانتهى الى استرقه فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع ادراجه واتبعه عبد الملك وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية اخرى فالتقوا بعبد الملك واثخنوا في البلاد واعترضتهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشئ ثم خرجوا سالمين ظافرين * ومن محاسنه انه جدّد القنطرة التي يضرب بها المثل بقرطبة كما سبق وكان بناها السمح الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فاحكم هشام بناءها الى الغاية وقال يوما لاحد وزرائه ما يقول أهل قرطبة فقال يقولون ما بناها الامير الا ليمضي عليها الى صيده وقنصه فآلى هشام على نفسه أن لا يسلك عليها فلم يمرّ عليها بعد ووفى بما حلف عليه ثم توفي سنة ثمانين ومائة لسبع سنين

وشملهم بالعدل فكثر النسل واخصبت الارض فكان ملكه الى ان هلك نحوا من مائتي سنة ثم ملك بعده ولده (عينيان) فجعل اباه في تمثال من الذهب الاحمر وجرى على ما سلف من افعالهم في السجود والتعظيم وطال ملكه واتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه فعاش اربعمائة سنة واتخذ في ايامه كثيرا من المهن مما لطف في الدور من الصنائع وملك بعده ولده (حرامان) فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال وحمل لطائف بلاد الصين وصيرها نحو بلاد السند والهند الى اقليم بابل والى سائر الممالك مما قرب منها وأبعد في البحر وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة الى الملوك وأمرهم ان يجلبوا اليه ما في كل بلد من الظرائف والتحف من المآكل والمشارب والملابس وسائر الفرش وان يعرفوا سياسة كل ملك وكل أمة وشريعتها ومذهبها التي هي عليه وان يرغبوا الناس فيما في بلدانهم من الجواهر والطيب والآلات فتفرقت المراكب في البلاد ووردوا الممالك لما أمروا به فلم يردوا على اهل مملكة الا وأعجبوا بهم واستظرفوا ما أوردوه من ارضهم فبنت الملوك المطيفة بالبحار المراكب وجهزت نحوهم السفن وحملوا اليهم ما ليس عندهم وكاتبوا ملكهم وكافؤه على ما كان من هداياه اليهم فعمرت بلاد الصين واستقامت وتسعة

وتسعة أشهر من امارته وقيل لثمان وكان من أهل الخير والصلاح كثير الغزو والجهاد ومن محاسنه أيضا كمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع فيه * ومن محاسنه انه أخرج المصدق لاخذ الزكاة على الكتاب والسنة رحمه الله وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وولد فى شوّال سنة ١٣٧ (وولى بعده ابنه الحكم بعهد منه اليه) فاستكثر من المماليك وارتبط الخيل واستفحل ملكه وباشر الامور بنفسه وفى خلال فتنة كانت بينه وبين عميه اغتنم العدو الكافر الفرصة فى بلاد المسلمين وقصد برشلونة فملكوها سنة خمس وثمانين وتأخرت عساكر المسلمين الى مادونها وبعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الجلالقة فأثخنوا فيها وخالفهم العدو الى المضايق فرجع على التعبية وظفر بهم وخرج الى بلاد الاسلام ظافرا وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لانه فى صدر ولايته كان قد انهمك فى لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة وكان محله متصلا بقصره فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالاسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم الى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها الى أن ملكها الافرنج من أيديهم بعد مدّة * وكانت فى أيام الحكم حروب وفتن مع الثوّار المخالفين له من أهل طليطلة وغيرهم (وفى سنة ثنتين وتسعين) جمع لذريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وسار الى حصار طرسونة فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى العساكر فهزمه ففتح الله على المسلمين وعاد ظافرا ولما كثر عيث الفرنج فى الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه الى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرب النواحى وأثخن فى القتل والسبى والنهب وعاد الى قرطبة ظافرا * (وفى سنة مائتين) بعث العساكر مع ابن مغيث الى بلاد الفرنج فخرب وهدم عدّة حصون وأقبل عليه أليط ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه أياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل وأقاموا كذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كسرت الامطار ومدّ النهر وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين وهو أول من جند الاجناد واتخذ العدّة وكان أفحل بنى أمية بالاندلس وأشدّهم اقداما ونجدة وكان يشبه بأبى جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدّة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعداء وكان يؤثر الفقيه زياد بن عبد الرحمن وحضر يوما عنده وقد غضب فيه على خادم له لايصاله اليه كتابا كره وصوله فأمر بقطع يده فقال له زياد أصلح الله الامير فان مالك بن أنس حدّثنى فى خبر رفعه أن من كظم غيظا يقدر على انفاذه ملأه الله تعالى أمنا وايمانا يوم القيامة فأمر أن يمسك عن الخادم ويعفى عنه فسكن غضبه وقال آلله ان مالكا حدّثك بهذا فقال زياد آلله ان مالكا حدّثنى بهذا وكانت المجاعة الشديدة سنة سبع وتسعين ومائة فأكثر فيها مواساة أهل الحاجات وفى ذلك يقول عباس بن ناصح الجزيرى فيه

نكد الزمان فآمنت أيامه * من أن يكون بعصره عسر

له الامور فكان عمره نحوا من مائتى سنة فهلك فجزع عليه أهل مملكته وأقاموا النياحة عليه شهرا ثم فزعوا الى الاكبر من أولاده فصيروه عليهم ملكا فجعل جسد أبيه فى تمثال من الذهب وسلك طريقته ومن كان قبله فى فعلهم مقتديا بمن مضى من آبائه وكان اسم هذا الملك (ثومامان) واستقامت له الامور واحدث من السنن المحمودة مالم يحدثه أحد من ملوكهم وزعم ان الملك لايثبت الا بالعدل فان العدل ميزان الرب وان من العدل الزيادة فى الاحسان مع الزيادة فى العمل وحصن وشرف وتوّج ورتب الناس فى رتبهم على طرائقهم وخرج يرتاد موضعا يبنى فيه هيكلا فوافى موضعا عامرا بالنبات حسن الاعتمام بالنهر تخترقه المياه فخط الهيكل هناك وجلبت له أنواع الاحجار المختلفة الالوان لتشييد الهيكل وجعل على علوه قبة وجعل لها مخارج للهواء متساوية ونصب فيها بيوتا لمن أراد التفرد بالعبادة فلما فرغ منها نصب فى أعلاها تلك التماثيل التى فيها أجسام من سلف من آبائه وأمر بتعظيمها وجمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم ان من رأيه ضم الناس الى ديانة يرجعون اليها جمع الشمل وتساوى النظام فانه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ودخول الفساد والزلل فرتب لهم سياسة شرعية

ظلع الزمان بأزمة جلت له * تلك الكريهة جوده الغمر

وكان نقش خاتمه بالله يثق الحكم و يعتصم * وذكور ولده عشرون واناثهم عشرون وامه جارية اسمها زخرف وكان أسمر طوالا أشم نحيفا ومدة ملكه ست وعشرون سنة سامحه الله * وقال غير واحد انه أول من جعل للملك بأرض الاندلس أبهة واستعد بالمماليك حتى بلغوا خمسة آلاف منهم ثلاثة آلاف فارس وألفا راجل ثم توفى الحكم بن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته ومولده سنة ١٥٤ * وقال ابن خلدون وغير واحد انه أول من جند بالاندلس الاجناد والمرتزقة وجمع الاسلحة والعدد واستكثر من الخدم والحواشى والحشم وارتبط الخيول على بابه واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وحكى فى عدتهم ما تقدم ثم قال وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس وكان يباشر الامور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالاندلس انتهى وكان له فيما حكى غير واحد ألفا فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلى قصره يجمعها داران وهو القائل لما قتل أهل الربض وهدم ديارهم وحرثها

رأبت صدوع الارض بالسيف راقعا * وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة * أبادرها مستنضى السيف دارعا
تنبيك أنى لم أكن فى قراعهم * بوان وقدما كنت بالسيف قارعا
وهل زدت اذ وفيتهم صاع قرضهم * فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهذى بلادى اننى قد تركتها * مهادا ولم أترك عليها منازعا

وقال ابن حزم فى حقه انه كان من المجاهرين بالمعاصى السافكين للدماء ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء وقال غير واحد انه تنصل أخيرا وتاب سامحه الله ومن نظمه قوله متغزلا

قضب من البان ماست فوق كثبان * ولين عنى وقد أزمعن هجرانى

ومنها

من لى بمغتصبات الروح من بدنى * يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى

وقيل انه كان يمسك أولاد الناس ويخصيهم ونقلت عنه أمور ولعله تاب منها كما قدمنا والله أعلم بحقيقة أمره * (ومن بديع أخبار الحكم) أن العباس الشاعر توجه الى الثغر فلما نزل بوادى الحجارة سمع امرأة تقول واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا فسألها عن شأنها فقالت كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت فصنع قصيدته التى أولها

تململت فى وادى الحجارة مسئدا * أراعى نجوما ما يرون تغيرا
اليك أبا العاصى نضيت مطيتى * تسير بهم سار يا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة * فانك أحرى ان تغيث وتنصرا

فلما دخل عليه انشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه فأنف ونادى فى الحين بالجهاد والاستعداد فخرج بعد ثلاث الى وادى الحجارة ومعه الشاعر وسأل عن الخيل التى اغارت من اى ارض العدو كانت فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية واثخن فيها وفتح

الحصون

وفرائض عقلية وجعلها لهم رباطا ورتب لهم قصاصا فى الانفس والاعضاء ومستحلات منا كح يستباح بها النسوان وتصح بها الانساب وجعلها مراتب فمنها لوازم موجبة يحرجون من تركها ومنها نوافل يتنفلون بها وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقر بالمعبود هم منها ايماء لاركوع فيها ولا سجود فى اوقات من الليل والنهار معلومة ومنها بركوع وسجود فى أوقات من السنين فى شهور محدودة ورسم لهم أعيادا وجعل على الزناة منهم حدا وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة وأن لا يستجن النكاح فى وقت من الاوقات وان أقلعن عما كن عليه تكف الجزية عنهن وما يكون من أولادهن ذكورا يكون للملك عبيدا وجندا وما يكون من أولادهن اناثا فلأمهاتهن ويحققن بصنعتهن وأمرهم بقرابين للهياكل وذخر وأبخرة للكواكب وجعل لكل كوكب منها وقتا يتقرب اليه فيه بذخر معلوم من أنواع الطيب والعقاقير وأحكم لهم جميع الامور واستقامت أيامه وكثر النسل فكانت حياته نحوا من مائة وخمسين سنة وهلك فجزعوا عليه جزعا شديدا فجعلوه فى تمثال من الذهب الاحمر ورصعوه بأنواع الجواهر وبنوا له هيكلا عظيما وجعلوا سقفه سبعة الوان

الحصون وخرب الديار وقتل عددا كثيرا وجاء الى وادى الحجارة فأمر باحضار المرأة وجميع من أسر له احد فى تلك البلاد فاحضر فأمر بضرب رقاب الاسرى بحضرتها وقال للعباس سلها هل أغاثها الحكم فقالت المرأة وكانت نبيلة والله لقد شفى الصدور وانكى العدو وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نصره فارتاح لقولها وبدا السرور فى وجهه وقال

ألم تر يا عباس انى أجبتها * على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطارا وبردت غلة * ونفست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال عباس نعم جزاك الله خيرا عن المسلمين وقبل يده * (ومما عيب به) انه قتل الفقيه ابا زكريا يحيى بن مطر الغسانى وكان قدوة فى الدين والورع سمع من سفيان ومالك بن انس وروى عنه مالك وقال حدثنا يحيى بن مطر عن سفيان الثورى ان الطلح المنضود هو الموز وكان قتل المذكور مع جماعة من العلماء وغيرهم * (وقام بالامر من بعده ابنه عبد الرحمن بعهده منه اليه ثم لاخيه المغيرة بعده) فغزا عبد الرحمن لاول ولايته الى جليقية وأبعد وأطال المغيب وأثخن فى أمم النصرانية هنالك ورجع وقدم عليه سنة ست ومائتين زرياب المغنى من العراق وهو مولى المهدى ومتعلم ابراهيم الموصلى واسمه على بن نافع فركب بنفسه لتلقيه على ماحكاه ابن خلدون وبالغ فى اكرامه وأقام عنده بخير حال وأورث صناعة الغناء بالاندلس وخلف أولادا خلفه كبيرهم عبد الرحمن فى صناعته وحظوته * وفى سنة ثمان أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد الى البة والقلاع فخرب كثيرا من البلاد وانتسفها وفتح كثيرا من حصونهم وصالح بعضها على الجزية واطلاق أسرى المسلمين وانصرف ظافرا * وفى سنة أربع وعشرين بعث قريبه عبيد الله بن البلنسى فى العساكر لغزو ألبة والقلاع فسار ولقى العدو فهزمهم وأكثر القتل والسبى ثم خرج لذريق ملك الجلالقة وأغار على مدينة سالم بالثغر فسار اليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثر القتل والسبى فى العدو والاسر ثم سار الى الحصن الذى بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه ثم سار عبد الرحمن فى الجيوش الى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال فى أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبى والغنائم * وفى سنة ست وعشرين بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة وانتهوا الى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوهم وكان لموسى فى هذه الغزاة مقام محمود * وفى سنة تسع وعشرين بعث ابنه محمدا بالعساكر وتقدم الى بنبلونة فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى وفى أيامه ظهر المجوس ودخلوا اشبيلية فأرسل اليهم عبد الرحمن العساكر مع القواد من قرطبة فنزل المجوس من مراكبهم وقاتلهم المسلمون فهزموهم بعد مقام صعب ثم جاءت العساكر مددا من قرطبة فقاتلهم المجوس فهزمهم المسلمون وغنموا بعض مراكبهم وأحرقوها ورحل المجوس الى شذونة فأقاموا عليها يومين وغنموا بعض الشئ ووصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيلية فأقلع المجوس الى لبلة وأغاروا وسبوا ثم الى باجة ثم اشبونة ثم انقطع خبرهم حين أقلعوا من اشبونة وسكنت البلاد وذلك سنة ثلاثين وتقدم عبد الرحمن باصلاح

من الجوهر على انواع الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها واشكالها وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس وعلى الثياب واكثر أموالهم الفلوس الصفر والنحاس فاستقرت هذه المدينة بدار ملك الصين وهى مدينة انموا وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أشهر وأكثر من ذلك على حسب ماقدمنا أيضا ولهم مدينة عظيمة بحرها يلى من ارضهم مغرب الشمس يقال لها مدو تلى بلاد التبت والحرب بين بلاد التبت واهل المد سجال فلم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة واحوالهم مستقيمة والخصب والعدل لهم شامل والجور فى بلادهم معدوم يقتدون بما نصبه لهم من الشرع من قدمنا ذكرهم وحروبهم على عدوهم قائمة وثغورهم مشحونة والرزق على الجنود دار والتجار يختلفون اليهم فى البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز ودينهم دين من سلف وهى ملة تدعى السمنية عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجئ الاسلام يعبدون الصور ويتوجهون نحوها بالصلوات واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ويقيم التماثيل من الاصنام والصور مقام قبلة والجاهل

ماخرّبوه من البلاد واكتنف حاميتها * (وفى سنة احدى وثلاثين بعث العساكر الى جليقية فدوّخوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها فغنم المسلمون مافيها وأحرقوه وأرادوا هدم سورها فلم يقدروا عليه لان عرضه كان سبعة عشر ذراعا فثلموا فيه ثلمة ورجعوا ثم اغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الكريم فى العساكر الى بلاد برشلونة فعاث فى نواحيها وأجاز الدروب التى تسمى البرت الى بلاد الفرنجة فدوّخها قتلا وأسرا وسبيا وحاصر مدينتها العظمى جرندة وعاث فى نواحيها وقفل وقد كان ملك القسطنطينية من وراءهم نوفلس بعث الى الامير عبد الرحمن سنة خمس وعشرين بهدية يطلب مواصلته ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ماضيق به المأمون والمعتصم حتى انه ذكرهما له فى كتابه وعبرعنهما بابنى مراحل وماردة فكافأه الامير عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهورا فى الشعر والحكمة فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبد الرحمن ذكر عند مناغيه من بنى العباس ويعرف الامير عبد الرحمن بالاوسط لان الاوّل عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر ثم توفى عبد الرحمن الاوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من امارته ومولده بطليطلة فى شعبان سنة ست وسبعين ومائة وكان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدء وسكون وكثرت الاموال عنده واتخذ القصور والمنتزهات وجلب اليها المياه من الجبال وجعل لفضله مصنعا اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور وبنيت فى أيامه الجوامع بكور الاندلس وزاد فى جامع قرطبة رواقين ومات قبل أن يستتمه فاتمه ابنه محمد بعده وبنى بالاندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة * وعدد ولده مائة وخمسون من الذكور وخمسون من الاناث ونقش خاتمه عابد الرحمن بقضاء الله راض * وفى ذلك قيل

خاتم للملك أضحى * حكمه فى الناس ماضى
عابد الرحمن فيه * بقضاء الله راضى

وهو أوّل من أحدث هذا النقش وبقى وراثة لمن بعده من ولده (قال ابن سعيد) وفى أيامه انتهى مال الجباية الى ألف ألف دينار فى السنة وكان قبل لايزيد على ستمائة ألف وقد ذكرنا فى غير هذا الموضع مايخالف هذا فليراجع والله أعلم ومن توقيعاته من لم يعرف وجه طلبه فالحرمان أولى به ومن شعر عبد الرحمن المذكور قوله

ولقد تعارض أوجه لاوامر * فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ ان يحو النهى بتجارب * فشباب رأى القوم عند شبابها

وفى زيادته فى جامع قرطبة يقول ابن المثنى رحمه الله تعالى

بنيت لله خير بيت * يخرس عن وصفه الانام
حج اليه بكل أوب * كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه اذا ما * حفّ به الركن والمقام

وقال آخر

الى الله زلفى وان منزلتهم فى العبادة تنقص عن عبادة البارئ لجلالته وعظمته وسلطانه وان عبادتهم لهذه الاصنام طاعة له ووسيلة اليه وهذا الدين كان بدء ظهوره فى خواصهم من الهند لمجاورتهم اياهم وهو رأى الهند فى العالم والجاهل على حسب ماذكرنا فى أهل الصين ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر فتغيرت أحوالهم وبحثوا وتناظروا الا انهم ينقادون فى جميع أحكامهم الى مانصب لهم من الشرائع المتقدمة ومن حيث ان ملكهم متصل بملك الطغرغر على حسب ماتقدم صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانية والقول بالنور والظلمة وقد كانوا جاهلية سبيلهم فى الاعتقاد سبيل أنواع الترك الى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانية فزخرف لهم كلاما يريهم فيه تضاد مافى هذا العالم وتباينه من موت وحياة وصحة وسقم وضياء وظلام وغنى وفقر واجتماع وافتراق واتصال وانفصال وشروق وغروب ووجود وعدم وليل ونهار وغير ذلك من سائر المتضادات وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لاجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم ممالیس بناطق من البهائم ومايعرض للاطفال

بنى مسجد الله لم يك مثله * ولا مثله لله فى الارض مسجد
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذى * بناه نبى المسلمين محمد
له عمد حمر وخضر كأنما * تلوح يواقيت بها وزبرجد
ألا يا أمين الله لازلت سالما * ولازلت فى كل الامور تسدد
فيا ليتنا نفديك من كل حادث * وأنك للدنيا وللدين تخلد

وكان كثير الميل للنساء وولع بجاريته طروب وكلف بها كلفا شديدا وهى التى بنى عليها الباب بيدرا بالمال حين تجنت عليه وأعطاها حليا قيمته مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغى أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا وأكرم جوهرا وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا ما بدت لى شمس النهار * طالعة ذكرتنى طروبا
انا ابن الميامين من غالب * أشب حروبا واطفى حروبا

وخرج غازيا الى جليقية فطالت غيبته فكتب اليها

عدانى عنك مزار العدا * وقودى اليهم سهاما مصيبا
فكم قد تخطيت من سبسب * ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهى سموم الهجير * اذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بى الله دين الهدى * فأحييته وأمت الصليبا
وسرت الى الشرك فى جحفل * ملأت الحزون به والسهوبا

(وساق) بعض المؤرخين قضية طروب هذه بقوله ان السلطان المذكور أغضبها فهجرته وصدت عنه وأبت أن تأتيه ولزمت مقصورتها فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها وجهد أن يترضاها بكل وجه فأعياه ذلك فأرسل من خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول اليه فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم وآلت أن لا تخرج اليهم طائعة ولو انتهى الامر الى القتل فانصرفوا اليه وأعلموه بقولها واستأذنوه فى كسر الباب عليها فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا فى المراجعة على ان لها جميع ما سد به الباب فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر فى بيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور مع مضر الخصى فلا يرد شيأ أما تبرمه * واحب اخرى اسمها مدثرة فاعتقها وتزوجها وأخرى كذلك اسمها الشفاء وأما جاريته قلم فكانت أديبة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للاخبار عالمة بضروب الادب وكان مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاته وله اخبار كثيرة رحمه الله (ولما مات ولى مكانه ابنه محمد) فبعث لاول ولايته عساكر مع موسى بن موسى صاحب طليطلة فعاث فى نواحى ألبة والقلاع وفتح بعض حصونها ورجع وبعث عسكرا آخر الى نواحى برشلونة وما وراءها فعاثوا فيها وفتحوا حصونا من برشلونة ورجعوا * ولما استمد أهل طليطلة المخالفون من أهل بلاد الامير محمد عليه ملكى جليقية والبشكنس لقيهم الامير محمد على وادى سليط وقد أكمن لهم فأوقع بهم وبلغت عدة القتلى من أهل طليطلة والمشركين

والبلد والمجانين وان البارى جل وعز غنى عن ايلامهم وأراهم ان هناك ضدا شديدا دخل على الخير الفاضل فى فعله وهو الله عز وجل فاجتذب بما وصفنا وغيره من الشبه عقولهم فدانوا بما وصفنا فان كان ملك الصين ينتمى لمذهب ذبح الحيوان كانت الحرب بينه و بين صاحب الترك ايرخان سجالا واذا كان ملك الصين متنافى المذهب كان الامر بينهم بتنافى الملل مشاعا وملوك الصين ذوو آراء ونحل الا انهم مع اختلاف اديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق فى نصب القضاة والحكام وانقياد الخواص والعوام الى ذلك وأهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وافخاذها وتشعبها فى انسابها ولهم مراعاة لذلك و حفظ له وينسب الرجل الى خمسين أبا الى أن يتصل بعابور وأكثر من ذلك وأقل ولا يتزوج أهل كل فخذ الا من فخذهم مثال ذلك ان يكون الرجل من مضر فلا يتزوج فى ربيعة ومن ربيعة فلا يتزوج فى مضر أو من كهلان فلا يتزوج فى حمير اومن حمير فلا يتزوج فى كهلان ويزعمون أن فى ذلك صحة النسل وقوام البنية وانه اصح للبقاء واتم للعمر واسبابا يذكرونها نحو ما ذكرنا فلم تزل امور الصين مستقيمة فى العدل على حسب ما جرى به الامر فيما سلف من ملوكهم الى سنة اربع

عشرين ألفا* (وفى سنة خمس وأربعين) ظهرت مراكب المجوس وعاثوا فى الاندلس فلقيهم مراكب الامير محمد فقاتلوهم وغنموا منهم مركبين واستشهد جماعة من المسلمين * (وفى سنة سبع وأربعين) أغزى محمد الى نواحى بنبلونة وصاحبها حينئذ غرسية بن ونقة وكان يظاهر اردن بن أدفنش فعاث فى نواحى بنبلونة ورجع وقد دوخها وفتح كثيرا من حصونها وأسر فرتون ابن صاحبها فبقى أسيرا بقرطبة عشرين سنة ثم بعث سنة احدى وخمسين أخاه المنذر فى العساكر الى نواحى ألبة والقلاع فعاثوا فيها وجمع لذريق للقائهم فلقيهم وانهزم واثخن المسلمون فى المشركين بالقتل والاسر فكان فتحا لاكفاء له * ثم غزا الامير محمد بنفسه سنة احدى وخمسين بلاد الجلالقة فأثخن وخرب * وفى سنة ثلاث وستين اغزى الامير محمد ابنه المنذر الى دار الحرب وفى السنة التى بعدها الى بلاد بنبلونة فدوخها ورجع * وفى سنة ثمان وستين أغزاه أيضا الى دار الحرب فعاث فى نواحيها وفتح حصونا * وفى أيام الامير محمد خربت [ما]ردة وهدمت ولم يبق لها أثر * وذكر بعضهم انه رأى بالمشرق هذه الابيات قبل أن تخرب ماردة بأعوام ولم يعلم قائلها وذلك سنة ٢٥٤

و يل لماردة التى مردت * وتكبرت عن عدوة النهر
كانت ترى لهم بها زهر * خلت من الزهرات كالقفر
فالو يل ثم الويح حين غزا * بجميعهم من صاحب الامر

ثم توفى الامير محمد فى شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين لخمس وثلاثين سنة من امارته ومولده سنة سبع ومائتين * وولى بعده ابنه المنذر ولم تطل مدته وأقام فى الملك سنتين الا نصف شهر وتوفى منتصف صفر سنة خمس وسبعين ومائتين وفيه قيل

بالمنذر بن محمد * صلحت بلاد الاندلس

ثم ولى أخوه عبد الله قال ابن خلدون كان خراج الاندلس قبله ثلثمائة ألف دينار مائة ألف للجيوش ومائة ألف للنفقة فى النوائب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفر فأنفق الوفر حين اضطربت عليه نواحى الاندلس بالثوار والمتغلبين فى تلك السنين وقل الخراج انتهى ومن نظم الامير عبد الله قوله

يامهجة المشتاق ما أوجعك * و يا أسير الحب ما أخشعك
و يارسول العين من لحظها * بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به * فى مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت ابرازها * تبارك الرحمن ما أطوعك

وهذه الابيات عنوان فضله وبراعة استهلال نبله * وكان الوزراء يطالعون بآرائهم الخليفة فى بطاقة فطالعه وزيره النضر بن سلمة برأيه فى امر فى ورقة فلما وقف عليها لم يعجبه ذلك الرأى فكتب

انت يانضر آبده * ليس ترجى لفائده
انما انت عدة * لكنيف ومائده

وتوفى الامير عبد الله سنة ثلثمائة ومدة ملكه نحو من خمس وعشرين سنة * (وولى حافده

عبد

وستين ومائتين فانه حدث فى الملك امر زال ١٦٤ به النظام وانتقضت به الاحكام والشرائع ومنع من الجهاد الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وهو ان نابغا نبغ فيهم من غير بيت الملك كان فى بعض مدائن الصين يقال له (ياسر) وكان شريرا يطلب الفتوة ويجتمع اليه اهل الدعارة والشر فلحق الملك وارباب التدبير غفلة عنه لخمول ذكره وكثر عتوه وقويت شوكته وقطع اهل الشر المسافات نحوه وعظم جيشه فسار من موضعه وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقو وهى مدينة عظيمة على نهر عظيم اكبر من دجلة يصب الى بحر الصين وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة ايام او سبعة يدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزانج والصنف وغيرها من الممالك بالامتعة والجهاز وتقرب الى مدينة خانقو وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس وغير ذلك من أهل الصين فقصد هذا العدو الى هذه المدينة فحاصرها وأتته جيوش الملك فهزمها واستباح ما فيها فكثرت جنوده وافتتح مدينة خانقو عنوة وقتل من أهلها خلقا لا يحصون كثرة وأحصى من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس من قتل وغرق

بد الرحمن الناصر ابن ابنه محمد قتيل أخيه المطرف) وكانت ولايته من الغريب لانه كان شابا وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى اليها واحتازها دونهم ووجد الاندلس مضطربة بالمخالفين مضطرمة بنيران المتغلبين فأطفأ تلك النيران واستنزل اهل العصيان واستقامت له الاندلس فى سائر جهاتها بعد نيف وعشرين سنة من ايامه ودامت ايامه نحو خمسين سنة استفحل فيها ملك بنى أمية بتلك الناحية وهو اول من تسمى منهم بالاندلس بأمير المؤمنين عند ما التاث امر الخلافة بالمشرق واستبد موالى الترك على بنى العباس وبلغه ان المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة فتلقب بألقاب الخلافة وكان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى ان هزم عام الخندق سنة ثلاث وعشرين ومحص الله فيها المسلمين فقعد عن الغزو بنفسه وصار يردد الطوائف فى كل سنة فأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج مالم يطؤه قبل فى أيام سلفه ومدت اليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الاذعان وأوفدوا عليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن فى مرضاته ووصل الى سدته الملوك من اهل جزيرة الاندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وماينسب اليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ثم سما الى ملك العدوة فتناول سبتة ونقل الفرضة من أيدى اهلها سنة سبع عشرة وثلثمائة وأطاعه بنو ادريس امراء العدوة وملوك زناتة والبربر وأجاز اليه الكثير منهم كما يعلم من اجناده وبدأ امره اول ولايته بتخفيف المغارم عن الرعايا انتهى كلام ابن خلدون وفيه يقول ابن عبد ربه صاحب العقد يوم تولى الملك

بدا الهلال جديدا * والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدى * ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر * فانت للدهر عيد

واراد بأول الابيات انه ولى مستهل ربيع الاول كما علم *وما أشار اليه ابن خلدون فى غزوة الخندق فصله المسعودى فقال بعد ان اجرى ذكر مخالفة أمية بن اسحق على الناصر ودخوله أرض النصارى ودلالته اياهم على عورات المسلمين مامخصه وغزا عبد الرحمن صاحب الاندلس سمورة دار الجلالقة وكان عبد الرحمن فى مائة الف او يزيدون وكانت الوقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالقة فى شوال سنة ٣٢٧ بعد الكسوف الذى كان فى هذا الشهر بثلاثة ايام فكانت للمسلمين عليهم ثم ثابوا بعد ان حوصروا والجؤا الى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق خمسين الفا وقيل ان الذى منع ردمير من طلب من نجا من المسلمين امية بن اسحق وخوفه الكمين ورغبه فيما كان فى عسكر المسلمين من الاموال والعدة والخزائن ولولا ذلك لاتى على جميع المسلمين ثم ان امية استأمن بعد ذلك الى عبد الرحمن وتخلص من ردمير وقبله عبد الرحمن أحسن قبول *وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الوقعة جهز عساكره مع عدة من قواده الى الجلالقة فكانت لهم بهم عدة حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين فى الوقعة الاولى وكانت للمسلمين عليهم الى

خوف السيف فكان مائتى ألف وانما أحصى ما ذكرناه من هذا العدد لان ملوك الصين تحصى من فى مملكتها من رعيتها وكذا من جاورها من الامم ليصير ذمة لها فى دواوينها بكتاب قد وكلوا باحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقو من غابات شجر التوت اذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه وما يطعم منه لدود القز الذى يغزل به الحرير فكان ذهاب الشجر داعيا الى انقطاع الحرير الصينى وجهازه الى ديار الاسلام وسار (ياسر) بجيوشه الى بلد بلد فافتتحه وانضاف اليه أمم من الناس ممن يطلب الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه وقصد نحو مدينة حزران وهى دار الملك فتحصن بها فى مائتى ألف ممن بقى معه من خواصه والتقى هو وياسر وكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من شهر وصبر الفريقان جميعا ثم كانت على الملك فولى منهزما وامعن الخارجى فى طلبه فانحاز الملك الى مدينة فى اطراف ارضه واستولى الخارجى على الحوزة واحتوى على ديار الملك وملك خزائن الملوك السالفة وما أعدوه للنوائب وشن الغارات فى سائر العمارات وافتتح المدن وعلم أن لا قوام له بالملك اذ كان ليس من اهله فامعن فى خراب البلاد واستباحة الاموال وسفك الدماء وكاتب

هذه الغاية وورد مير ملك الجلالقة الى هذا الوقت) ٣ وهو سنة ٣٢٦ انتهى * وقال في موضع آخر ما ملخصه ان عبد الرحمن غزا في أزيد من مائة ألف من الناس فنزل على دار مملكة الجلالقة وهي مدينة سمورة وعليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السالفة وبين الاسوار فصلات وخنادق ومياه واسعة وافتتح منها سورين ثم ان أهلها ثابوا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدركه ٣ وممن غرق أربعون ألفا وقيل خمسون ألفا وكانت للجلالقة والبشكنس على المسلمين انتهى كلام المسعودي *(رجع الى أخبار الناصر) فنقول ان الناصر رحمه الله كان له نظم ومما نسب اليه بعضهم قوله

لا يضر الصغير حداثة سن * انما الشان في سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم * لم تنله بالركض كف مغير

هكذا ألفيت البيتين منسوبين اليه بخط بعض الاكابر ثم كتب باثره ما نصه الصحيح أنهما لغيره والله أعلم انتهى وكان الناصر رحمه الله قد استحجب موسى بن محمد بن حدير واستوزر عبد الملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد وأهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الاصناف وقد ذكرها ابن حيان وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين قال ابن خلدون وهي مما يدل على ضخامة الدولة الاموية واتساع أحوالها وكان ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة لثمان خلون من شهر جمادى الاولى وهي هدية عظيمة الشان اشتهر ذكرها الى الآن واتفق على انه لم يهد احد من ملوك الاندلس بمثلها وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا وأقروا ان نفسا لم تسمح باخراج مثلها ضربة عن يدها وكتب معها رسالة حسنة بالاعتراف للناصر بالنعمة والشكر عليها فاستحسنها الناس وكتبوها وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا وسمى منزلته على سائر الوزراء جميعا وأضعف له رزق الوزارة وبلغه ثمانين ألف دينار اندلسية وبلغ معروفه الى ألف دينار وثنى له العظمة لتثنيته له الرزق فسماه ذا الوزارتين لذلك وكان اول من تسمى بذلك بالاندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بني العباس ببغداد وامر بتصدير فراشه في البيت وتقديم اسمه في دفتر الارتزاق اول التسمية فعظم مقداره في الدولة جدا وتفسير هديته المذكورة على ما ثبت في كتاب ابن خلدون على ما يفسر خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين واربعمائة رطل من التبر ومصارفة خمسة واربعون الف دينار من سبائك الفضة في مائتي بدرة واقتصر ابن الفرضي على خمسمائة ألف دينار فقط واثنا عشر رطلا من العود الهندي الذي يختم عليه كالشمع ومائة وثمانون رطلا من العود المتخير ومائة رطل من العود الشبه المنتقى هكذا ذكره ابن خلدون وقال ابن الفرضي مستندا الى الكتاب الذي وجهه ابن شهيد مع الهدية ان العود العالي من ذلك أربعمائة رطل منها قطعة واحدة مائة وثمانون رطلا * وقال ابن خلدون ومائة أوقية من المسك الذكي المفضل في جنسه انتهى * وقال ابن الفرضي نقلا عن الكتاب المصحوب مع الهدية ان المسك مائتا أوقية واثنتا عشرة أوقية ومن العنبر الاشهب الباقي على خلقته بغير صناعة خمسمائة أوقية منها قطعة عجيبة ململمة الشكل وزن

مائة

واعلمه ما نزل به واعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات اذا استنجدها اخوانها من الملوك وان ذلك من فرائض الملك وواجباته فانجده ابن

٣ بياض بالاصل

خاقان بولد له بنحو من أربعمائة ألف فارس وراجل وقد استفحل أمر ياسر فالتقى الفريقان جميعا فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة وتفانى من الفريقين خلق كثير ففقد ياسر فقيل انه قتل وقيل انه أحرق وأسر ولده والخواص من اصحابه وسار ملك الصين الى دار المملكة وعاد الى ملكه والعامة تسميه (يعبور) وتفسير ذلك ابن ماء السماء تعظيما له وهو الاسم الأخص لملوك الصين والذي يخاطبون به جميعا (بجان) ولا يخاطبون بيعبور وتغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحيته كتغلب ملوك الطوائف حين قتل الاسكندر بن فيلقوس المقدوني لدارا بن دارا ملك فارس وكنحو ما نحن بسبيله في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فرضي ملك الصين منهم بالطاعة له ومكاتبته بالملك

٣ قوله وهو سنة ٣٢٦ لعله سنة ٣٢٩ اذ تاريخ الوقعة الاولى كان سنة ٣٢٧ وليحرر اه مصححه

مائة أوقية هكذا في تاريخ ابن خلدون وفي ابن الفرضي ان الكل مائة اوقية وان هذه القطعة أربعون أوقية ومن الكافور المرتفع النقي الذكي ثلثمائة أوقية * قال ابن خلدون ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الالوان والصنائع وعشرة افرية من عالي جلود الفنك الخراسانية * وخالفه ابن الفرضي اذ قال ومن انواع الثياب ثلاثون شقة وخنيج خاصية للباسه بيضاء وملوّنة وخمس ظهائر شعيبية خاصية له وعشر فراء من عالي الفنك منها سبعة بيض خراسانية وثلاث ملوّنة وستة مطارف عراقية خاصية له وثمان وأربعون ملحفة زهرية لكسوته ومائة ملحفة زهرية لرقاده ولم يذكر ابن خلدون ذلك وابن الفرضي أعرف لاسيما وقد استند الى كتاب المهدي وصاحب البيت أدرى * قال ابن خلدن وعشرة قناطير شدّ فيها مائة جلد سمور وقاله ابن الفرضي ايضا وزاد ابن خلدون وستة من السرادقات العراقية وثمانية وأربعون من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب ثم قالا معا وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال وزاد ابن خلدون وثلاثون شقة من الفربون لسروج الهبات وزاد ابن الفرضي في الحرير المذكور قيل انه قبضه منه صاحب الطراز ولم يأت به مع الهدية وانما دفعه لصاحب الطراز وأثبته في الدفتر قالا وثلاثون بساطا من الصوف مختلفة الصناعات طول كل بساط منها عشرون ذراعا وقال ابن خلدون منتقاة مختلفة الالوان قالا ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة زاد ابن الفرضي الصناعات من جنس البسط قالا وخمسة عشر نوخا من عمل الخز المقطوع شطرها قال ابن الفرضي وسائرها من جنس البسط قال ابن خلدون ومن السلاح والعدّة ثمانمائة من التجافيف المزينة أيام البروز والمواكب وقال ابن الفرضي مائة تجفاف بأبدع الصناعات وأغربها وأكملها قالا وألف ترس سلطانية ومائة ألف سهم زاد ابن خلدون من النبال البارعة الصنعة قال ابن خلدون ومن الظهر خمسة عشر فرسا من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت وقال ابن الفرضي ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العراب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرسا وخمس من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز عراقي وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم وقال ابن خلدون مائة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات وقال ابن الفرضي وخمسة أبغل عالية الركاب وقال ابن خلدون وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة بمراكب خلافية مجالس سروجها خز جعفري عراقي قالا ومن الرقيق اربعون وصيفا وعشرون جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم وقال ابن خلدون في الجواري متخيرات بكسوتهن وزينتهن وقال ابن خلدون ومن سائر الاصناف قرية تغل آلافا من امداد الزرع ومن الصخر للبنيان ما انفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار وعشرون ألف عود من الخشب من أجل الخشب واصيله واقومه قيمتها خمسون الف دينار انتهى وقال ابن الفرضي نقلا عن كتاب ابن شهيد المصحوب مع الهدية عندما ذكر الرقيق ما صورته وكان قدار بي ايده الله بابتياعهم من مال الاخماس فابتعتهم من نعمته عندي

ولم يتوجه منه المسير الى سائر عماله ولا محاربة من تغلب على بلاده وقنع باوصفنا وامتنع من ذكرنا من حمل الاموال اليه فتاركهم مسالمهم وعدا كل فريق منهم على ما يليه على حسب قوته وتمكنه فعدم انتظام الملك واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم وقد كان لمن سلف من ملوكهم سير وسياسات للملك وانقياد للعدل على حسب ما توجبه قضية العقل (وحكى) ان رجلا من التجار من أهل مدينة سمرقند من بلاد خراسان خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى الى العراق فحمل من جهازه وانحدر الى البصرة وركب البحر حتى أتى الى بلاد عمان وركب الى بلاد كلة وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك واليها تنتهي مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك وذلك ان مراكب الصين كانت تاتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبصرة فلذلك كانت المراكب تختلف في المواضع التي ذكرنا الى ما هنالك ولما عدم العدل وفسدت النيات وكان من امر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعا في هذا النصف ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكب

وصيرتهم من بعض ومع ذلك عشر قناطير سكر طبرزد لاسحاق فيه وفي آخر الكتاب وما علمت تطلع مولاي ايده الله تعالى الى قرية كذا بالقينانية المنقطعة الغرس شرفها وترداده أيده الله تعالى لذكرها لم اهنأ بعيش حتى اعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها وأكتبت وكيله ابن بقية الوثيقة فيها باسمه وضمها الى ضياعه وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظر جيان عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلعه اليها فما زلت اتصدى لمسرته بها حتى ابتعتها الآن بأحوازها وجميع منازلها وربوعها واحتاز ذلك كله الوكيل ابن بقية وصار في يده له ابقاه الله سبحانه وارجو انه سيرفع فيها في هذه السنة آلاف امداد من الاطعمة ان شاء الله تعالى ولما علمت نافذ عزمه ابقاه الله تعالى في البنيان وكلفه به وفكرت في عدد الاماكن التي تطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره في بنيانها مد الله تعالى في عمره وأوفى بها على اقصى أمله علمت ان اسه وقوامه الصخر والاستكثار منه فأثارت لي همتي ونصيحتي حكمة حيلة احكمها سعدك وجدك اللذان يبعثان مالا يتوهم عليه حيلة اقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدي عبدك ابن عاصم في عشرين عاما وينتهي تحصيل النفقة فيه الى نحو الثمانين ألفا أعجل شانه في عام سوى التوفير العظيم الذي يبديه العيان قبل ان شاء الله تعالى وكذلك ما ثاب الي في أمر الخشب لهذه المنية المكرمة فان ابن خليل عبدك المجتهد الدؤب انتهى في تحصيل عدد ما تحتاج اليه ثلثمائة ألف عود ونيف على عشرين ألف عود على انه لا يدخل منه في السنة الا نحو الالفي عود ففتح لي سعدك رأيا اقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجلبة لوقتها وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفا والستين ألفا انتهى * ومن غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر المذكور انه أراد الفصد فقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو اذ أطل زرزور فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها الفاصد رفقا * بأمير المؤمنينا
انما تفصد عرقا * فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف وسر به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة ام ولده ولي عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك واعدته لذلك الامر فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار * وذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك الوزير أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال لابن شهيد أنى لك هذا قال هو من عند الله فقال له الناصر تتحفونا بالنجوم وتستأثرون بالقمر فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام وقال يا بني كن مع جملة ما بعثت به ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي وكتب معه بهذه الابيات

أمولاي هذا البدر سار لأفقكم * وللافق أولى بالبدور من الارض
أرضيكم بالنفس وهي نفيسة * ولم أر قبلي من بمهجته يرضي

فحسن ذلك عند الناصر واتحفه بمال جزيل وتمكنت عنده مكانته ثم انه بعد ذلك اهديت

اليه

والامتعة فسرح خصيانا من خواص خدمه ممن يثق به في أسبابه وذلك ان أهل الصين يستعملون الخصيان من الخدم في الخراج وغيره من العمالات والمهمات وفيهم من يخصي ولده طالبا للرياسة واعتقاد النعمة فسار الخصي حتى أتى مدينة خانقو فاحضر التجار ومعهم التاجر الخراساني فعرضوا عليه ما احتاج اليه من المتاع وما يصلح له فسأل الخراساني ان يحضر متاعه فاحضره وجرت بينهم محادثة ودار الامر بينهم في التثمين للمتاع فقام الخصي بسحب الخراساني واكراهه وذلك انه راده ثقة منه بعدل الملك فمضى الخراساني من فوره حتى أتى الى مدينة انموا وهي دار الملك فوقف موقف المتظلم اذا أتى من البلد الشاسع قد تقمص نوعا من الحرير الاحمر ووقف موضعا قد رسم للظلامة وقد رتب بعض الملوك ملوك النواحي للقبض على من يرد من المتظلمين ويقف ذلك الموقف فيحمل مسيرة شهر من أرضهم على البريد ففعل ذلك بالتاجر الخراساني ووقف بين يدي صاحب تلك الناحية المرتب لما ذكرناه فاقبل عليه وقال أيها الرجل لقد تعرضت لأمر عظيم وخاطرت بنفسك انظر ان كنت

اليه جارية من اجمل نساء الدنيا فخاف ان ينتهى ذلك الى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام فاحتفل فى هدية اعظم من الاولى و بعثها معها وكتب له

أمولاى هذى الشمس والبدر اوّلا * تقدم كيما يلتقى القمران
قران لعمرى بالسعادة قد أتى * فدم منهما فى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث * ومالك فى ملك البرية ثانى

فتضاعفت مكانته عنده ثم ان احد الوشاة رفع للملك انه بقى فى نفسه من الغلام حرارة وأنه لايزال يذكره حين تحرّكه الشمول ويقرع السن على تعذر الوصول فقال للواشى لاتحرك به لسانك والا طار راسك وأعمل الناصر حيلة فى أن كتب على لسان الغلام رقعة منها يامولاى تعلم انك كنت لى على انفرادى ولم أزل معك فى نعيم وانى وان كنت عند الخليفة مشارك فى المنزلة محاذر مايبدو من سطوة الملك فتحيل فى استدعائى منه وبعثها مع غلام صغير السن وأوصاه ان يقول من عند فلان وان الملك لم يكلمه قط ان سأله عن ذلك فلما وقف أبو عامر على تلك الرسالة واستخبر الخادم علم من سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام وماتكلم به فى مجالس المدام فكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفا

أمن بعد احكام التجارب ينبغى * لدى سقوط الطير فى غابة الاسد
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه * ولا جاهل مايدعيه أولو الحسد
فان كنت روحى قد وهبتك طائعا * وكيف يرد الروح ان فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد الى استماع واش به ودخل عليه بعد ذلك فقال له كيف خلصت من الشرك فقال لان عقلى بالهوى غير مشترك فأنعم عليه وزادت محبته عنده وممن ذكر هذه الحكاية صاحب مطالع البدور فى منازل السرور* واخبار الناصر طويلة جدا وقد منع الظفر على الثوّار واستنزلهم من معاقلهم حتى صفاله الوقت وكانت له فى جهاد العدو اليد البيضاء فمن غزواته انه غزا سنة ثمان وثلثمائة الى جليقية وملكها اردون بن ادفونش فاستنجد بالبشكنس والافرنجة وظاهر شانجة بن فرويلة صاحب بنبلونة أمير البشكنس فهزمهم ووطئ بلادهم ودوّخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة ثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدو يحاذيه فى الجبال والاوعار ولم يظفر منه بشئ ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوّار عليه وكان استمد بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبة وفتح ثلاثين من حصونهم وبلغه انتقاض طوطة ملكة البشكنس فغزاها فى بنبلونة ودوّخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون وقعد بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد وبعث جيوشه الى المغرب فملك سبتة وفاسا وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره كما سبق ولما هلك شانجة بن فرويلة ملك البشكنس قام بامرهم بعده أمه طوطة وكفلت ولده ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحى بنبلونة وردد عليها كامر الغزوات وكان قبل ذلك

صادقا فيما تخبر والا فانا نقتلك ونردك قتيلا من حيث جئت وكان هذا خطابه لمن تظلم فان رآه قد جزع وضرع فى القول ضربه مائة خشبة ورده من حيث جاء وان هو صبر على ماهو عليه حمل الى حضرة الملك واوقف بين يديه وسمع كلامه فصمم الخراسانى فى المطالبة والظلامة فرآه محقا غير ضرع ولا متلجلج فحمل الى الملك فوقف بين يديه وقص حديثه على الملك فلما أن ادى الترجمان اليه ماقاله وفهم ظلامته أمر به الى بعض المواضع واحسن اليه وأحضر الوزير وصاحب الميمنة وصاحب القلب وصاحب الميسرة وهم أناس قد رتبوا لذلك عند الملمات وحين الحروب قد عرف كل واحد منهم مرتبته والمراد منه فامرهم الملك أن يكتب كل واحد منهم الى صاحبه بالناحية ولكل واحد منهم خليفة فى كل ناحية فكتبوا الى اصحابهم بخانقو أن يكتبوا اليهم عما كان من خبر التاجر والخادم وكتب الملك الى خليفته بالناحية بمثل ذلك وقد كان خبر الخادم والتاجر اشتهر واستفاض فوردت الكتب على بغال البريد بتصحيح ماقاله التاجر وذلك ان ملوك الصين لها فى سائر الطرق من أعمالها بغال للبريد مسرجة محذوة الآلات للاخبار والخرائط فبعث الملك فاستحضر الخادم فلما وقف بين يديه

سنة ثنتين وعشرين غزا الى خشتمة ثم رحل الى بنبلونة فجاءته طوطة بطاعتها وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبة وبسائطها فدوخها وخرب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردمير بن أردون فخام عن لقائه ودخل خشتمة فنازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيرا من معاقلهم وهزمهم مرارا ورجع ثم كانت بعدها غزوة الخندق السابقة وهابته أمم النصرانية ثم وفدت عليه سنة ست وثلاثين رسل صاحب قسطنطينية وهديته وهو يومئذ قسطنطين واحتفل الناصر لقدومهم فى يوم مشهود قال ابن خلدون وركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح فى أكمل شكة وزين القصر الخلافى بانواع الزينة واصناف الستور وجمل السرير الخلافى بمقاعد الابناء والاخوة والاعمام والقرابة ورتب الوزراء والخدمة فى مواقفهم ودخل الرسل فهالهم ما رأوه وقربوا حتى أدوا رسالتهم وأمر يومئذ الاعلام ان يخطبوا فى ذلك المحفل ويعظموا من أمر الاسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه وذلة عدوه فاستعدوا لذلك ثم بهرهم هول المجلس فوجموا وشرعوا فى القول فارتج عليهم وكان فيهم أبو على القالى وافد العراق كان فى جملة الحكم ولى العهد وندبه لذلك استئثارا فعجز فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطى من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشئ من ذلك فخطب واستحضر وجلى فى ذلك القصد وأنشد شعرا طويلا ارتجله فى ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع وأعجب به الناصر وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجالات العالم وأخباره مشهورة وخطبته فى ذلك اليوم منقولة فى كتب ابن حيان وغيره ثم انصرف هؤلاء الرسل وبعث الناصر معهم هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويحسن الاجابة ورجع بعد سنتين وقد احكم من ذلك ما شاء وجاءت معه رسل قسطنطين ثم جاء رسول من ملك الصقالبة وهو يومئذ دوقوة ورسول آخر من ملك الالمان ورسول آخر من ملك الافرنجة وراء البرت وهو يومئذ اوفة ورسول آخر من ملك الافرنجة بقاصية المشرق وهو يومئذ كلدة واحتفل الناصر لقدومهم وبعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم دوقوة ورجع بعد سنتين *(وفى سنة أربع وأربعين) جاء رسول أردون يطلب السلم فعقد له ثم بعث فى سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردلند قومس قشتيلة فى عهده فأذن له فى ذلك وأدخل فى عهده وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردلند المذكور ومال الى اردون بن ردمير وكان غرسية بن شانجة حافد الطوطة ملكة البشكنس فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها فى عقد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدومهم وعقد الصلح لشانجة وامه وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه وخلع الجلالقة طاعة أردون اليه وبعث الى الناصر يشكره على فعلته وكتب الى الامم فى النواحى بذلك وبما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة فى نكثه ووثوبه ويعيره بذلك عند الامم ولم يزل الناصر على موالاته واعانته الى أن هلك ولما وصل رسول كلدة ملك

واجتاز ملوكا فى بر وبحر فلم يتعرض لها يؤمل الوصول الى مملكتى ثقة منه بعدلى ففعلت به ما فعلت وكان ينصرف عن ملكى ويقبح الاحدوثة عن سيرتى أما لولا قديم حرمتك بنا لقتلتك لكن اعاقبك بعقوبة ان عقلت فانها اكبر من القتل وهوان اوليك مقابر الموتى من الملوك السالفة أن عجزت عن تدبير الاحياء والقيام بما اليه ندبت واحسن الى التاجر وحمله الى خانقو وقال له ان سمحت نفسك ان تبيع منا ما اختير من متاعك بالثمن الجزيل والا فانت المحكم فى مالك اقم اذا شئت وبع كيف شئت وانصرف راشدا حيث شئت وصرف الخادم الى مقابر الملوك (قال المسعودى) ومن طرائف اخبار ملوك الصين ان رجلا من قريش من ولد هبار بن الاسود لما كان من امر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر خرج هذا الرجل الى مدينة سيراف وكان من ارباب البصيرة وارباب النعم بها وذوى الاحوال الحسنة ثم ركب منها فى بعض مراكب بلاد الهند ولم يزل من مركب الى مركب ومن بلد الى بلد

الافرنجة بالشرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغبا في الصلح فأجابه الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار ولنفصل بعض ما أجمله فنقول ذكر ابن حيان وغير واحد أن ملك الناصر بالاندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشان وهادته الروم وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الامم الاوفدت عليه خاضعة راغبة وانصرفت عنه راضية ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى فانه هاداه ورغب في موادعته وكان وصول ارساله في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة وتقدم في كلام ابن خلدون انها ست وثلاثون فالله أعلم أيهما أصح وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه وأحسن قبول وأكرمه وأخرج الى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج الى لقائهم القواد في العدد والعدة والتعبية فتلقوهم قائدا بعد قائد وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن اخرج اليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسرا وتماما بلاغا في الاحتفال بهم فلقياهم بعد القواد فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واكرامه لان الفتيان حينئذهم عظماء الدولة لانهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه وبيدهم القصر السلطاني وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبة في الربض ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ومن ملابسة الناس طرا ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لاربع دول لكل دولة أربعة منهم ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه فقعد لهم يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الاول من السنة المذكورة في بهو المجلس الزاهر قعودا حسنا نبيلا وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه الحكم ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الاصبغ ثم مروان وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان وتخلف عبد الملك لانه كان عليلا لم يطق الحضور وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم وقد بسط صحن الدار اجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون وهو في رق مصبوغ لونا سماويا مكتوب بالذهب بالخط الاغريقي وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضا مكتوبة بفضة بخط اغريقي أيضا فيها وصف هديته التي ارسل بها وعددها وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم وفي سطر آخر العظيم الاستحقاق الفخر الشريف

الى ان سار الى ديار ملك الصين وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان وهي من كبار مدنهم ومن عظيم أمصارهم فاقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر انه من أهل بيت نبوة العرب فامر بعد هذه المدة الطويلة بانزاله في بعض المساكن وازاحة العلة عما يحتاج اليه من جميع أموره وكتب الى الملك المقيم بخانقو يأمره بالبحث عنه ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه فاذن له في الوصول اليه ووصله بمال واسع واعاده الى العراق وكان شيخا فهما فاخبر انه لما وصل اليه ورأى ماهو عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل فقال له لقد غلبت العرب على اجل الممالك وأنفسها واوسعها ريعا واكثرها أموالا واعقلها رجالا واهداها صوتا ثم قال له فما منزلة سائر الملوك عندكم فقال مالي بهم علم فقال للترجمان قل له انا نعد الملوك خمسة فاوسعهم ملكا الذي يملك العراق لانه في وسط الدنيا والملوك محدقة به ونجد اسمه عندنا ملك الملوك وبعده ملكنا هذا ونجده عندنا ملك الناس لانه لا احد من الملوك أسوس منا ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا فنحن ملوك الناس ومن بعده ملك

النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالاندلس أطال الله بقاءه ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ماتهيأ من توطيد الخلافة فى دولته وتقدم الى الامير الحكم ابنه وولى عهده باعداد من يقوم بذلك من الخطباء ويقدمه أمام نشيد الشعراء فأمر الحكم صنيعه الفقيه محمد بن عبد البر الكسنيانى بالتأهب لذلك واعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدى الخليفة وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ماليس فى وسع غيره وحضر المجلس السلطانى فلما قام يحاول التكلم بمارأى هاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة فلم يهتد الى لفظة بل غشى عليه وسقط الى الارض فقيل لابى على البغدادى اسمعيل بن القاسم القالى صاحب الامالى والنوادر وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة قم فارقع هذا الوهى فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم هكذا ذكر ابن حيان وغيره وكلام ابن خلدون السابق يقتضى أن القالى هو المأمور بالكلام أولا والمعد لذلك ونحوه فى المطمح والخطب سهل ثم انقطع القول بالقالى فوقف ساكتا مفكرا فى كلام يدخل به الى ذكر ما أريد منه وقال فى المطمح ان أبا على القالى انقطع وبهت وماوصل الا قطع ووقف ساكتا متفكرا لاناسيا ولا متذكرا فلما رأى ذلك منذر بن سعيد وكان ممن حضر فى زمرة الفقهاء قام من ذاته بدرجة من مرقاته فوصل افتتاح أبى على لاول خطبته بكلام عجيب ونادى من الاحسان فى ذلك المقام كل مجيب يسحبه سحبا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة وبدأ من المكان الذى انتهى اليه أبو على البغدادى فقال أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه فان لكل حادثة مقاما ولكل مقام مقال وليس بعد الحق الا الضلال وانى قد قمت فى مقام كريم بين يدى ملك عظيم فاصغوا الى معشر الملا بأسماعكم وأتقنوا عنى بأفئدتكم ان من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت وان الجليل تعالى فى سمائه وتقدس بصفاته واسمائه أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة وانى أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم وأمنت سربكم ورفعت قوتكم بعد أن كنتم قليلا فكثركم ومستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم ولاه الله رعايتكم وأسند اليه امامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق وأحاطت بكم شعل النفاق حتى صرتم فى مثل حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء أنشدكم بالله معاشر الملا ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها والسبل مخوفة فأمنها والاموال منتهبة فأحرزها وحصنها ألم تكن البلاد خرابا فعمرها وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بامامته حتى اذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم وصرتم يدا على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم فانشدكم الله ألم تكن خلافته

السباع وهو ملك الترك الذى يلينا وهم سباع الانس ومن بعده ملك الفيلة وهو ملك الهند ونجده عندنا ملك الحكمة أيضا لان اصلها منهم ومن بعده ملك الروم وهو عندنا ملك الرجال لانه ليس فى الارض أتم خلقا من رجاله ولا أحسن وجوها منهم فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم ثم قال للترجمان قل له أتعرف صاحبك ان رأيته يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القرشى وكيف لى برؤيته وهو عند الله عز وجل فقال لم أرد هذا وانما أردت صورته فقلت أجل فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه فتناول منه درجا وقال للترجمان أره صاحبه فرأيت فى الدرج صور الانبياء فحركت شفتى بالصلاة عليهم ولم يكن عندهم انا نعرفهم فقال للترجمان سله عن تحريكه لشفتيه فسألنى فقلت أصلى على الانبياء فقال ومن أين عرفتهم فقلت بما صور من امورهم هذا نوح عليه السلام فى السفينة بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء فعم الماء الارض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه فقال اما نوح فصدقت فى تسميته واما غرق الارض كلها فلا نعرفه وانما أخذ الطوفان قطعة من الارض ولم يصل الى أرضنا ان كان خبركم صحيحا فعن هذه القطعة ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والامم

فقل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها الى ائتلاف صلاح الامور بنفسه بعد اضطراب احوالها ولم يكل ذلك الى القوّاد والاجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والاولاد واعتزل النسوان وهجر الاوطان ورفض الدعة وهى محبوبة وترك الركون الى الراحة وهى مطلوبة بطوية صحيحة وعزيمة صريحة وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة وريح هابة غالبة ونصرة من الله واقعة واجبة وسلطان قاهر وجد ظاهر وسيف منصور تحت عدل مشهور متحملا للنصب مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب حتى لانت الاحوال بعد شدّتها وانكسرت شوكة الفتنة عند حدّتها ولم يبق لها غارب الاجبه ولا نجم لاهلها قرن الاجذه فاصبحتم بنعمة الله اخوانا وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على اعدائه أعوانا حتى تواترت لديكم الفتوحات وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم وآمال الاقصين والادنين مستخدمة اليه واليكم يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق لاخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ليقضى الله أمرا كان مفعولا ولن يخلف الله وعده ولهذا الامر ما بعده وتلك أسباب ظاهرة بادية تدل على امور باطنة خافية دليلها قائم وجفنها غير نائم وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب ولكل نبإ مستقر ولكل أجل كتاب فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه واسألوه المزيد من نعمائه فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد وألهمه خالص التوفيق الى سبيل الرشاد أحسن الناس حالا وأنعمهم بالا وأعزهم قرارا وأمنعهم دارا وأكثفهم جمعا وأجملهم صنعا لاتهاجون ولاتذادون وأنتم بحمد الله على اعدائكم ظاهرون فاستعينوا على صلاح احوالكم بالمناصحة لامامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم فان من نزع يدا من الطاعة وسعى فى تفريق الجماعة ومرق من الدين فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الاموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود وبها وصلت الارحام ووضحت الاحكام وبها سدّ الله الخلل وأمن السبل ووطأ الاكناف ورفع الاختلاف وبها طاب لكم القرار واطمأنت بكم الدار فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فانه تبارك وتعالى يقول أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم الآية وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين الساعين فى شق عصاكم وتفريق ملاكم الآخذين فى مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين أقول قولى هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين مستغفرا الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين * وساق ابن سعيد فى المغرب هذه الحكاية فقال ما صورته منذر بن سعيد البلوطى قاضى الجماعة بقرطبة خطيب مصقع وله كتب مؤلفة فى القرآن والسنة والورع والرد على أهل الاهواء والبدع شاعر بليغ ولد سنة خمس وستين ومائتين واوّل سببه فى التعلق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول

لا نعرف ما ذكرتم ولا نقل الينا الا اقفا ما وصفتم وما ذكرت من ركوب الماء الارض كلها فى الكوائن العظام التى تفزع النفوس الى حفظه وتتداوله الامم ناقلة له قال القرشى فهبت الرد عليه واقامة الحجة لعلمى بدفعه ذلك ثم قلت وهذا موسى صلى الله عليه وسلم وبنو اسرائيل فقال نعم على قلة البلد الذى كان به وفساد قومه عليه ثم قلت هذا عيسى بن مريم عليه السلام على حماره والحواريون معه فقال لقد كان قليل مدته انما كان امده يزيد على ثلاثين شهرا شيأ يسيرا وعدد من ذكرنا من الانبياء مما اقتصرت على ذكر بعضه ويزعم هذا القرشى وهو المعروف بابن وهبان انه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قد زيد فيها ذكر اسمائهم ومواضع بلدانهم ومقادير اعمارهم وأسباب نبواتهم وسيرهم قال ثم رأيت صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جمل واصحابه محدقون به فى ارجلهم نعال عربية من جلود الابل وفى اوساطهم الحبال قد علقوا فيها المساويك فبكيت فقال للترجمان سله عن بكائه فقلت هذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى عليه وسلم فقال صدقت لقد ملك قومه اجل الممالك الا انه لم يعاين من الملك شيأ الا ما عاينه من بعده ومن تولى الامر على امته من خلفائه ورأيت صورا لانبياء كثيرة منهم من قد اشار بيده جامعا بين

شبابته وابهامه كالحلقة كأنه يصف ان الخليقة فى مقدار الحلقة ومنهم من قد اشار بسبابته نحو السماء

رسول ملك الروم صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذى اشتهر ذكره أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لذكر جلالة مقعده ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة ورمى ملوك الامم بهام بأسه ونجدته وتقدّمه الى الامير الحكم ابنه وولى عهده باعداد من يقوم لذلك من الخطباء ويقدمه أمام انشاد الشعراء فتقدّم الحكم الى ابى على البغدادى ضيف الخليفة وأمير الكلام وبحر اللغة أن يقوم فقام وحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم انقطع وبهت فما وصل ولا قطع ووقف ساكتا مفكرا فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام قائما بدرجة من مرقاة أبى على ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة وملأ الاسماع جلالة ثم ذكر الخطبة كما سبق وقال بعد ايرادها ماصورته فصلب العلج وغلب على قلبه وقال هذا كبير القوم أو كبش القوم وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه وكان الناصر اشدّهم تعجبا منه وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته فسأله عنه فقال له هذا منذر بن سعيد البلوطى فقال والله لقد احسن ماشاء ولئن اخرنى الله بعد لارفعنّ من ذكره فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه وذكرنى بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه ثم ولاه الصلاة والخطابة فى المسجد الجامع بالزهراء ثم توفى محمد بن عيسى القاضى فولاه قضاء الجماعة بقرطبة واقرّه على الصلاة بالزهراء * ومن شعره فى هذه الواقعة قوله

مقالى كحدّ السيف وسط المحافل * فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكى ترتمى جمراته * كبارق رعد عند رعش الانامل
فما دحضت رجلى ولا زل مقولى * ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل
وقد حدّقت حولى عيون اخالها * كمثل سهام اثبتت فى المقاتل
لخير امام كان او هو كائن * لمقتبل او فى العصور الاوائل
ترى الناس افواجا يؤمون بابه * وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه * مخافة باس او رجاء لنائل
فعش سالما اقصى حياة مؤملا * فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب * الى درب قسطنطين او ارض بابل

انتهى كلام ابن سعيد وهو يؤيد كلام ابن خلدون ان المأمور بالخطبة هو القالى وذكر أن الناصر قال لابنه الحكم بعد ان سأله عنه لقد احسن ماشاء فلئن كان حبر خطبته هذه واعدها مخافة ان يدور ما دار فيتلافى الوهى فانه لبديع من قدرته واحتياطه ولئن كان اتى بها على البديهة لوقته فانه لأعجب واغرب قال ابن سعيد ولما فرغ منذر من خطبته انشد

هذا المقام الذى ما عابه فند * لكنّ قائله ازرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا * لكننى منهم فاغتالنى النكد

ويروى بدل هذا الشطر * ولا دهانى لهم بغى ولا حسد *

لولا الخلافة أبقى الله حرمتها * ما كنت أرضى بارض ما بها أحد

انتهى قلت كأنه عرّض بابى على القالى وتقديمهم اياه فى هذا المقام والله أعلم ومن

كالمرهب للخليقة بما فوق وغير ذلك ثم سألنى عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع فاجبته على قدر ما اعلم منها ثم قال كم عمر الدنيا عندكم فقلت قد تنوزع فى ذلك فبعض يقول ستة آلاف وبعض يقول دونها وبعض يقول أكثر منها فقال ذلك عن نبيكم فقلت نعم فضحك ضحكا كثيرا ووزيره ايضا وهو واقف على انكار ذلك وقال ماحسبت نبيكم قال هذا فزللت فقلت بلى هو قال ذلك فرأيت الانكار فى وجهه ثم قال للترجمان قل له ميز كلامك فان الملوك لا تكلم الا عن تحصيل أما ما زعمت انكم تختلفون فى ذلك فانكم انما اختلفتم فى قول نبيكم وما قالت الانبياء لا يجب ان يختلف فيه بل هو مسلم فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه وذكر أشياء كثيرة ذهبت عنى لطول المدّة ثم قال لى لم عدلت عن ملكك وهو أقرب اليك دارا ومنسبا قلت بما حدث على البصرة ووقوعى الى سيراف ونزعت بى همتى الى ملكك أيها الملك لما بلغنى من استقامة ملكك وحسن سيرتك وكثرة جنودك فأحببت الوقوع الى هذه المملكة ومشاهدتها وأنا راجع عنها الى بلادى وملك ابن عمى ومخبر بما شاهدت من جلالة هذا

نظم

نظم منذر بن سعيد قوله

المـوت حـوض وكلنا نرد * لم ينج مما يخافه أحد
فلا تكن مغرما برزق غد * فلست تدرى بما يجيء غد
وخذ من الدهر ما أتاك به * ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تدعه فما * فى الناس الا التشنيع والحسد

وله وقد آذاه شخص فخاطبه بالكنية فقيل له ايؤذيك وانت تخاطبه بالكنية فقال

لا تعجبوا من أننى كنيته * من بعد ما قد سبنا وأذانا
فالله قد كنى أبالهب وما * كناه الاخزية وهوانا

وقال فى المطمح منذر بن سعيد البلوطى آية حركة وسكون وبركة لم تكن معدة ولا تكون وآية سفاهة فى تحلم وجهامة وورع فى طى تبسم اذا جد وجد واذا هزل نزل وفى كلتا الحالتين لم ينزل للورع من مرقب ولا اكتسب اثما ولا احتقب ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن ناهيك من عدل أظهر ومن فضل أشهر ومن جور قبض ومن حق رفع ومن باطل خفض وكان مهيبا صليبا صارما غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لاحد من خلق الله فى استخراج حق ورفع ظلم واستمر فى القضاء الى ان مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم فأقره وفى خلافته استعفى مرارا فما أعفى وتوفى بعد ذلك لم يحفظ عنه مدة ولايته قضية جور ولا عدت عليه فى حكومة زلة وكان غزير العلم كثير الادب متكلما بالحق متبينا بالصدق له كتب مؤلفة فى السنة والورع والرد على أهل الاهواء والبدع وكان خطيبا بليغا وشاعرا محسنا ولد عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى سنة ٣٥٥ ومن شعره فى الزهد قوله

كم تصابى وقد علاك المشيب * وتعامى عمدا وأنت اللبيب
كيف تلهو وقد أتاك نذير * أن سيأتى الحمام منك قريب
ياسفيها قد حان منه رحيل * بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
ان للموت سكرة فارتقبها * لا يداوى اذا أتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهينا * ثم تأتيك دعوة فتجيب
بأمور المعاد أنت عليم * فاعملن جاهدا لها يا ربيب
وتذكر يوما تحاسب فيه * ان من يذكر فسوف ينيب
ليس من ساعة من الدهر الا * للمنايا بها عليك رقيب

ولعلنا نذكر شيأ من أحوال منذر فى غير هذا الموضع (رجع لاخبار الناصر لدين الله) حكى أنه لما عذر لاولاد ابنه أبى مروان عبد الله اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف أحد عنه من أهل مملكته وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن يليهم من العلماء والعدول ووجوه الناس فتخلف من بينهم المشاور أبو ابراهيم وافتقد مكانه لارتفاع منزلته فسال فى ذلك الخليفة الناصر اذ أبو ابراهيم من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ووجد الناصر بسبب ذلك على أبى ابراهيم وأمر ابنه ولى العهد الحكم بالكتاب اليه

الملك وسعة هذه البلاد وشيمك أيها الملك المحمود وسأقول بكل قول حسن واثنى بكل جميل فسره ذلك وامر لى بجائزة سنية وخلع شريفة وأمر بحملى على البريد الى مدينة خانقو وكتب الى ملكها باكرامى وقدومى على من فى ناحيته من الامم واقامة النزل الى وقت خروجى عنه فكنت فى خصب عيش ونعمة الى أن خرجت من بلاد الصين (قال المسعودى) واخبرنى ابو زيد الحسن ابن يزيد السيرافى بالبصرة وكان قد قطنها وانتقل عن سيراف وذلك فى سنة ثلاث وثلثمائة وابو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد بن محمد بن مزد بن ساسياد السيرافى وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتمييز أنه سأل ابن وهبان القرشى عن مدينة حمدان التى بها الملك وصفتها فذكر سعتها وكثرة اهلها وانها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض فالملك ووزيره وقاضى القضاة وجنوده وخصيانه وجميع أسبابه فى الشق الايمن منه مما يلى المشرق لا يخالطهم أحد من العامة وليس فيه شئ من الاسواق بل انهار فى سككهم مطردة واشجار عليها منتظمة ومنازل فسيحة وفى الشق الايسر مما يلى المغرب الرعية والتجار والميرة والاسواق فاذا وضح النهار رأيت فيها قهارمة الملك وغلمانه وغلمان

والتفنيد له فكتب اليه الحكم رقعة نسختها بسم الله الرحمن الرحيم حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى أبقاه الله الاولياء الذين يستعدبهم وجدك متقدما فى الولاية متأخرا عن الصلة على انه قد أنذرك أبقاه الله خصوص المشاركة فى السرور الذى كان عنده لا أعدمه الله توالى المسرة ثم انذرت من قبل ابلاغا فى التكرمة فكان منك على ذلك كله من التخلف ماضاقت عليك فيه المعذرة واستبلغ أمير المؤمنين فى انكاره ومعاتبتك عليه فأعيت عليك عنك الحجة فعرفنى أكرمك الله ماالعذر الذى أوجب توقفك عن اجابة دعوته ومشاهدة السرور الذى سربه ورغب المشاركة فيه لنعرّفه أبقاه الله بذلك فتسكن نفسه العزيزة اليه ان شاء الله تعالى فأجابه أبو ابراهيم سلام على الامير سيدى ورحمة الله قرأت أبقى الله الامير سيدى هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توقفى لنفسى انما كان لامير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه لعلمى بمذهبه وسكونى الى تقواه واقتفائه لاثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم فانهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لايمتهنونها بما يشينها ولابما يغض منها ويطرق الى تنقيصها يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم فلهذا تخلفت ولعلمى بمذهبه توقفت ان شاء الله تعالى فلما أقرأ الحكم أباه الناصر لدين الله جواب أبى ابراهيم اسحق أعجبه واستحسن اعتذاره وزال مابنفسه عليه وكان الفقيه أبو ابراهيم المذكور معظما عند الناصر وابنه الحكم وحق لهما ان يعظماه وقد حكى الفقيه ابو القاسم بن مفرج قال كنت اختلف الى الفقيه أبى ابراهيم رحمه الله تعالى فيمن يختلف اليه للتفقه والرواية فانى لعنده فى بعض الايام فى مجلسه بالمسجد المنسوب لابى عثمان الذى كان يصلى به قرب داره بجوفى قصر قرطبة ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصلاتين اذ دخل عليه خصى من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له يافقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله فان الامر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد أمرت باعجالك فالله الله فقال له سمعا وطاعة لامير المؤمنين ولا عجلة فارجع اليه وعرفه وفقه الله عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله تعالى معى طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يقيدونه عنى وليس يمكننى ترك ماأنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضا الله وطاعته فذلك أوكد من مسيرى اليه الساعة فاذا انقضى أمر من اجتمع الى من هؤلاء المحتسبين فى ذات الله الساعين لمرضاته مشيت اليه ان شاء الله تعالى ثم أقبل على شأنه ومضى الخصى يهينم متضاجرا من توقفه فلم يك الا ريثما أدى جوابه وانصرف سريعا ساكن الطيش فقال له يافقيه أنهيت قولك على نصه الى أمير المؤمنين أبقاه الله فأصغى اليه وهو يقول لك جزاك الله خيرا عن الدين وعن امير المؤمنين وجماعة المسلمين وأمتعهم بك واذا أنت أوعيت فامض اليه راشدا ان شاء الله تعالى وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضى شغلك وتمضى معى فقال له حسن جميل ولكنى أضعف عن المشى الى باب السدة ويصعب على ركوب دابة لشيخوختى وضعف أعضائى وباب الصناعة الذى يقرب الى من أبواب القصر المكرم أحوط لى وأقرب وأرفق بى فان رأى أمير المؤمنين أيده الله تعالى أن يأمر بفتحه لادخل اليه منه هوّن على المشى وودع جسمى وأحب أن تعود وتنهى اليه

ذلك

وزرائه ووكلائهم مابين راكب وراجل قد دخلوا الى السوق الذى فيه العامة والتجار فأخذوا بضائعهم وحوائجهم ثم انصرفوا فلا يعودوا واحد منهم الى هذا السوق الا فى اليوم الثانى وان هذه البلدان فيها كل نزهة وغيضة حسنة وانهار مطردة الا النخل فانه معدوم عندهم واهل الصين من احذق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لايتقدمهم فيه احد من سائر الامم والرجل منهم يصنع بيده مايقدر أن غيره يعجز عنه فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ماابتدع فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك الى سنة فان لم يخرج أحد فيه عيبا اجاز صانعه وادخله فى جملة صناعه وان اخرج احد فيه عيبا اطرحه ولم يجزه وان رجلا منهم صور سنبلة سقط عليها عصفور فى ثوب حرير فلم يشك الناظر الا انها سنبلة سقط عليها عصفور فبقى الثوب مدة وانه اجتاز به احدب فعاب العمل فادخل الى الملك واحضر صاحب العمل فسأل الاحدب عن العيب فقال المتعارف عند الناس جميعا انه لايقع عصفور على سنبلة الا أمالها وصوّر هذا المصور السنبلة فنصبها قائمة لاميل فيها واثبت العصفور فوقها منتصبا فاخطأ فصدق الاحدب ولم يثب صاحبها بشئ

ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه وكذلك تعود الى فاني أرى الفتى شديدا فكن على الخير معينا ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين الى ما سألت وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ومنه خرجت اليك وأمرت بملازمتك مذكرا بالنهوض عند فراغك وقال افعل راشدا وجلس الخصى جانبا حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق فلما انفضضنا عنه قام الى داره فاصلح من شأنه ثم مضى الى الخليفة الحكم فوصل اليه من ذلك الباب وقضى حاجته من لقائه ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد اغلاقه على اثر خروجه قال مفرج ولقد تعمدنا في تلك العشية اثر قيامنا عن الشيخ أبي ابراهيم المرور بهذا الباب المعهود اغلاقه بدبر القصر الذي تجشم الخليفة له فوجدناه مفتوحا كما وصف الخصى وقد حفه الخدم والاعوان منزعجين ما بين كناس وفراش متاهبين لانتظار أبي ابراهيم فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه انتهى فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء قدس الله تلك الارواح * ثم توفي الناصر لدين الله ثاني او ثالث شهر رمضان من عام خمسين وثلثمائة اعظم ما كان سلطانه واعز ما كان الاسلام بملكه (قال ابن خلدون) خلف الناصر في بيوت الاموال خمسة آلاف ألف ألف ألف ثلاث مرات انتهى وقال غير واحد انه كان يقسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مذخور وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان وحكى انه وجد بخط الناصر رحمه الله أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ويوم كذا من كذا وعدت تلك الايام فكانت أربعة عشر يوما فاعجب ايها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الاحوال لاوليائها هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة اشهر وثلاثة ايام ولم تصف له الا أربعة عشر يوما فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة لا اله الا هو ومما ينسب للناصر من الشعر وقيل لابنه الحكم قوله

ما كل شئ فقدت الا * عوضني الله منه شيا

اني اذا ما منعت خيري * تباعد الخير من يديا

من كان لي نعمة عليه * فانها نعمة عليا

وممن أعز الله به دولة الناصر وزراؤه الذين من جملتهم ابن شهيد قال في المطمح أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد مفخر الامامة وزهر تلك الكمامة وصاحب الناصر عبد الرحمن وحامل الوزارتين على سموها في ذلك الزمان استقل بالوزارة على ثقلها وتصرف فيها كيف شاء على حذ نظرها والتفات مقلها فظهر على أولئك الوزراء واشتهر مع كثرة النظراء وكانت امارة عبد الرحمن اسعد امارة بعد عنها كل نفس بالسوء أمارة فلم يطرقها صرف ولم يرمقها محذور بطرف فقرع الناس فيها هضاب الاماني ورباها ورتعت ظباؤها في ظلال ظباها وهو اسد على براثنه رابض وبطل ابدا على قائم سيفه قابض يروع الروم طيفه ويجوس

وقصدهم بهذا أو شبهه الرياضة لمن يعمل هذه الاشياء ليضطرهم ذلك الى شدة الاحتراز واعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده ولاهل الصين أخبار عظيمة عجيبة ولبلادهم اخبار ظريفة سنوردها فيما يرد من هذا الكتاب جملا وان كنا قد أتينا على سائر الاخبار من ذلك في كتابنا اخبار الزمان في الامم الماضية والممالك الداثرة وذكرنا في الكتاب الاوسط جملا لم نتعرض لذكرها في كتاب أخبار الزمان وذكرنا في هذا الكتاب ما لم يتقدم ذكره في ذينك الكتابين والله اعلم

(ذكر جمل من الاخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والامم ومراتب الملوك واخبار الاندلس وغير ذلك ومعادن الطيب وأصوله وعدد انواعه)

قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب جملا من ترتيب البحار المتصلة والمنفصلة فلنذكر الآن في هذا الباب جملا من اخبار ما اتصل بنا من البحر الحبشي والممالك والملوك وجملا من ترتيبها وغير ذلك من انواع العجائب فنقول ان بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة على ما ذكرنا الآن هيجانها وركودها مختلف لاختلاف مهاب رياحها وآثار ثورانها وغير ذلك فبحر فارس تكثر أمواجه ويصعب

خلال تلك الديار خيفه ويروى بل يحسم كل آونة سيفه وابن شهيد ينتجع الأنواء ويلقعها وينقد تلك الانحاء و ينقعها والدولة مشتملة بغنائه متجملة بثنائه وكرمه منتشر على الآمال ويكسو الاولياء بذلك الاجمال وكان له ادب تزهر بجه وتبهر حججه وشعره رقيق لا ينقد ويكاد من اللطافة يعقد فمن ذلك قوله

ترى البدر منها طالعا فكأنما * يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى * ومفعمة الخلخال مفعمة القلب
من اللاء لم يرحلن فوق رواحل * ولا سرن يوما فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة * وشدو كما تشدو القيان على الشرب

وكان بينه و بين الوزير عبد الملك بن جهور متولى الامر معه ومشاركه فى التدبير اذا حضر مجتمعه منافسة لم تنفصل لهما بها مداخلة ولا ملابسة وكلاهما يتربص بصاحبه دائرة السوء ويغص فيه غصص الافق بالنوء فاجتاز يوما الى ربضه ومال الى زيارته ولم يكن من غرضه فلما استأمر عليه تأخر خروج الاذن اليه فثنى عنانه حنقا من حجابه وضجرا من أحجابه و كتب اليه معرضا وكان يلقب بالحمار

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا * اليك ولا قلب اليك مشوق
ولكننا زرنا بفضل حلومنا * فكيف تلاقى برنا بعقوق

فراجعه ابن جهور بغض منه بما كان يشيع عنه بان جده أبا هشام كان بيطارا بالشام بقوله

حجبناك لما زرتنا غير تائق * بقلب عدو فى ثياب صديق
وما كان بيطار الشآم بموضع * يباشر فيه برنا بخليق

ومن شعره قوله يتغزل

حلفت بمن رمى فأصاب قلبى * وقلبه على جمر الصدود
لقد أودى تذكره بقلبى * ولست أشك أن النفس تودى
فقيد وهو موجود بقلبى * فواعجبا لموجود فقيد   انتهى

وقد تقدم الكلام على هدية ابن شهيد وبعض أخباره رحمة الله عليه ولما توفى الناصر لدين الله تولى الخلافة بعده ولى عهده الحكم المستنصر بالله فجرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه الا شخصه وولى حجابته جعفر الصقلبى وأهدى له يوم ولايته هدية كان فيها من الاصناف ماذكره ابن حيان فى المقتبس وهى مائة مملوك من الافرنج ناشبة على خيول صافنة كاملو الشكة والاسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس والقلانس الهندية وثلثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الاجناس وثلثمائة خودة كذلك ومائة بيضة هندية وخمسون هندية خشبية من بيضات الفرنجة من غير الخشب يسمونها الطشطانة وثلثمائة حربة افرنجية ومائة ترس سلطانية وعشرة جواشن فضة مذهبة وخمسة وعشرون قرنا مذهبة من قرون الجاموس انتهى * قال ابن خلدون ولاول وفاة الناصر طمع الجلالقة فى الثغور فغزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فرلند بن غندشاب فنازل شنت اشتبين وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا الى عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه ثم أغزى غالبا مولاه بلاد جليقية

وسار

ركوبه عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة امواجه ويلين بحر فارس وتقل امواجه ويسهل ركوبه عند ذاك تجاج بحر الهند واضطراب أمواجه وظلمته وصعوبة مركبه فاول ماتبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفى ولا يزال فى كل يوم تكثر أمواجه الى أن تصير الشمس الى برج الحوت فاشد مايكون ذلك فى آخر الخريف عند كون الشمس فى القوس ثم يلين الى أن تعود الشمس الى السنبلة وآخر مايكون ذلك فى آخر الربيع عند كون الشمس فى الجوزاء و بحر الهند لايزال كذلك الى أن تصير الشمس الى السنبلة فيركب حينئذ وأهدأ مايكون عند كون الشمس فى القوس وبحر فارس يركب فى سائر السنة من عمان الى سيراف وهو ستون ومائة فرسخ ومن سيراف الى البصرة وهو أربعون ومائة فرسخ ولا يتجاوز فى ركوبه غير ماذكرنا من هذين الموضعين ونحوهما وقد حكى أبو معشر المنجم فى كتابه المترجم بالمدخل الكبير الى علوم البحر ماذكرنا من اضطراب هذه البحار وهدوها عند كون الشمس فيما ذكرنا من البروج وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند فى انتهائه الا مركب مغرور وحمولته يسيرة سميا

وسار الى مدينة سالم لدخول دار الحرب بجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأوطا العساكر بلد فردلند ودوّخها وكان شانجة بن ردمير ملك البشكنس قد انتقض فاغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر وجاء ملك الجلالقة لنصره فهزمهم وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها وقفل ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة فعاثت العساكر في نواحيها وأغزى هذيل بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القومس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقوّاد الثغور في كل ناحية وكان من أعظمها فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب فعمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح قطوبية على يد قائد وشقة وغنم فيه من الاموال والسلاح والاقوات والاثاث وفي بسيطه من الغنم والبقر والرمك والاطعمة والسبي ما لا يحصى (وفي سنة أربع وخمسين) سار غالب الى بلد ألبة ومعه يحيى بن محمد التجيبي وقاسم بن مطرف بن ذي النون فافتتح حصن غرماج ودوّخ بلادهم وانصرف وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير وأفسدوا ببسائط اشبونة وناشبهم الناس القتال فرجعوا الى مراكبهم وأخرج الحكم القوّاد لاحتراس السواحل وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ثم وردت الاخبار بان العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل ثم كانت وفادة اردون بن أدفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير وهو ابن عمه وهو الملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصهره فردلند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر فبادر الى الوفادة على الحكم مستجيرا به فاحتفل لقدومه وعبى العساكر ليوم وفادته وكان يوما مشهودا وصفه ابن حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ووصل الى الحكم واجلسه ووعده بالنصر من عدوّه وخلع عليه وكتب بوصوله ملقيا بنفسه وعاقده على موالاة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ودفعت الصلات والحملات له ولاصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعته وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة واساقفتهم يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والابراج القريبة من ثغور المسلمين ثم بعث ملكا برشلونة وطركونة وغيرهما يسألان تجديد الصلح واقرارهما على ما كانا عليه وبعثا بهدية وهي عشرون صبيا من الخصيان الصقالبة وعشرون قنطارا من صوف السمور وخمسة قناطير من القصدير وعشرة أذرع صقلبية ومائتا سيف فرنجية فتقبل الهدية وعقد على ان يهدموا الحصون التي تضر بالثغور وان لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن ينذروا بما يكون من النصارى في الاجلاب على المسلمين ثم وصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس في جماعة من الاساقفة والقوامس يسألون الصلح بعد أن كان توقف وأظهر المكر فعقد لهم الحكم فاغتبطوا ورجعوا ثم وفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس بالقرب من جليقية وهو القومس الاكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته واحتفل لقدومها في يوم مشهود مشهور فوصلت وأسعفت وعقد السلم لابنها كما رغبت ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها دون ما وصلت به هي

المراكب التي بعمان فانها اذا قطعت الى أرض الهند تحتاج الى النباهة بذلك ببلاد ١٧٩ الهند في هذا الوقت الذي تكون فيه السيارة وهو الشتاء ودوام الامطار وكانون وكانون وشباط عندهم صيف وعندهم الشتاء كما يكون عندنا الحر في حزيران وتموز وآب فشتاؤنا صيفهم وصيفهم شتاؤنا وكذلك سائر مدن السند والهند وما اتصل بذلك الى اقاصي هذا البحر ومن شتى في صيفنا بارض الهند قيل فلان شتى في أرض الهند أي شتى هنالك وذلك لقرب الشمس وبعدها والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس وانما يكون في أول نيسان الى آخر أيلول وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيه وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على سائر مواضع الغوص في هذا البحر اذ كان ماعداه من البحار لا لؤلؤ فيه وهو خاص بالبحر الحبشي من بلاد خارك وقطن وعمان وسرنديب وغير ذلك من هذا البحر وقد ذكرنا كيفية تكون اللؤلؤ وتنازع الناس في تكونه ومن ذهب منهم الى ان ذلك من المطر ومن ذهب منهم الى أن ذلك من غير المطر وصفة صدف اللؤلؤ العتيق منه والحديث الذي يسمى بالمحار والمعروف بالبلبل واللحم في الصدف والشحم وهو حيوان يفرغ ما فيه من اللؤلؤ والدر خوف الغاصة كخوف المرأة على ولدها وقد أتينا على ذكر

وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلات لسفرها وانطلقت ثم اوطأ عسا كره أرض العدوة من المغرب الاقصى والاوسط وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة فبثوها فى اعمالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ووفد عليه من بنى الخزر وبنى أبى العافية فأجزل صلاتهم واكرم وفادتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف واجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية *وكان محبا للعلوم مكرما لاهلها جماعا للكتب فى انواعها بما لم يجمعه احد من الملوك قبله قال أبو محمد بن حزم اخبرنى تليد الخصى وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان ان عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع واربعون فهرسة وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الاذكر اسماء الدواوين لا غير واقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليه بضائعه من كل قطر * قال ابو محمد بن خلدون ولما وفد على ابيه أبو على القالى صاحب كتاب الامالى من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده وأورث أهل الاندلس علمه واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه وكان يبعث فى شراء الكتب الى الاقطار رجالا من التجار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس مالم يعهدوه وبعث فى كتاب الاغانى الى مصنفه أبى الفرج الاصفهانى وكان نسبه فى بنى أمية وارسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخة منه قبل ان يخرجه الى العراق وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الابهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك وجمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد فاوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبله ولا من بعده الا مايذكر عن الناصر العباسى بن المستضىء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع اكثرها فى حصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبى عامر ونهب مابقى منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم اياها عنوة انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار * (ولنبسط الكلام على الحكم فنقول) ان الحكم المستنصر اعتلى سرير الملك ثانى يوم وفاة أبيه يوم الخميس وقام بأعباء الملك اتم قيام وانفذ الكتب الى الآفاق بتمام الامر له ودعا الناس الى بيعته واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه وتثقيف مملكته وضبط قصوره وترتيب أجناده وأول ما اخذ البيعة على صقالبة قصره الفتيان المعروفين بالخلفاء الاكابر لجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم وتكفلوا بأخذها على من وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم وغيرهم وأوصل الى نفسه فى الميل دون هؤلاء الاكابر من الكتاب والوصفاء والمقدمين والعرفاء فبايعوه فلما كملت بيعة اهل القصر تقدم الى عظيم دولته جعفر بن عثمان بالنهوض فى أخيه شقيقه أبى مروان عبيد الله المتخلف بأن يلزمه الحضور للبيعة دون معذرة وتقدم الى موسى بن أحمد بن حدير بالنهوض ايضا عن أبى الاصبغ عبد العزيز شقيقه الثانى فضى اليهما كل واحد منهما فى قطيع من الجند وأتيا بهما الى قصر مدينة الزهراء وتغذ

كيفية الغوص وأن الغاصة لا يكادون يتناولون شيأ الا السمك من اللحمان والتمر لا غيرهما من الاقوات وما يلحقهم وذكر شق أصول آذانهم لخروج النفس من هنالك بدلا عن المنخرين يجعل عليهما شئ من الذبل أو من القرن يضمهما كالمشقاص لا من الخشب وما يجعل فى آذانهم من القطن فيه شئ من الدهن فيعصر من ذلك الدهن اليسير فى الماء فى قعره فيضىء لهم بذلك فى البحر ضياء بينا وما يطلون به أقدامهم وشفاههم من السواد خوفا من بلع دواب البحر اياهم ولنفورها من السواد وصياح الغاصة فى البحر كالكلاب وخرق الصوت الماء فيسمع بعضهم صياح بعض وللغواص واللؤلؤ وحيوانه اخبار عجيبة وقد أتينا على جميع أوصاف ذلك وصفات اللؤلؤ وعلاماته واثمانه ومقادير أوقاته فيما سلف من كتبنا فاول هذا البحر مما يلى البصرة والابلة والبحرين من خشاب البصرة ثم بحر لاروى وعليه بلاد جمور وسربارة وتانيه وسندار وكسانه وغيرها من السند والهند ثم بحر هركند ثم بحر كلاه بار وهو بحر كله والجزائر ثم بحر كوريح ثم بحر الصنف واليه يضاف العود الصنفى الى بلاده ثم بحر الصين وهو بحر صيحو ليس بعده بحر فاول بحار فارس على ما ذكرنا خشاب غيرهما

غيرهما من وجوه الرجال في الخيل لاتيان غيرهما من الاخوة وكانوا يومئذ ثمانية فوافى جميعهم الزهراء في الليل فنزلوا في مراتبهم بفصلان دار الملك وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الاوسط من الابهاء المذهبة القبلية التي في السطح الممرد فاول من وصل اليه الاخوة فبايعوه وأنصتوا الصحيفة البيعة والتزموا الايمان المنصوصة بكل ما انعقد فيها ثم بايع بعدهم الوزراء واولادهم واخوتهم ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهل الخدمة وقعد الاخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله الا عيسى بن فطيس فانه كان قائما يأخذ البيعة على الناس وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة فاصطف في المجلس الذي قعد فيه أكابر الفتيان يمينا وشمالا الى آخر البهو كل منهم على قدره في المنزلة عليهم الظهائر البيض شعار الحزن قد تقلدوا فوقها السيوف ثم تلاهم الفتيان الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية صفين منتظمين في السطح وفي الفصلان المتصلة به ذوو الاسنان من الفتيان الصقالبة الخصيان لابسين البياض بأيديهم السيوف يتصل بهم من دونهم من طبقات الخصيان الصقالبة ثم تلاهم الرماة متنكبين قسيهم وجعابهم ثم وصلت صفوف هؤلاء الخصيان الصقالبة صفوف العبيد الفحول شاكين في الاسلحة الرائقة والعدة الكاملة وقامت التعبية في دار الجند والترتيب من رجالة العبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض وعلى رؤسهم البيضات الصقلبية وبأيديهم التراس الملونة والاسلحة المزينة انتظموا صفين الى آخر الفصل وعلى باب السدة الاعظم البوابون وأعوانهم ومن خارج باب السدة فرسان العبيد الى باب الاقباء واتصل بهم فرسان الحشم وطبقات الجند والعبيد والرماة موكبا اثر موكب الى باب المدينة الشارع الى الصحراء فلما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض الا الاخوة والوزراء واهل الخدمة فانهم مكثوا بقصر الزهراء الى ان احتمل جسد الناصر رحمه الله الى قصر قرطبة للدفن هنالك في تربة الخلفاء (وفي ذي الحجة من سنة خمسين) تكاثرت الوفود بباب الخليفة الحكم من البلاد للبيعة والتماس المطالب من اهل طليطلة وغيرها من قواعد الاندلس واصقاعها فتوصلوا الى مجلس الخليفة بمحضر جمع الوزراء والقاضي منذر بن سعيد والملأ فأخذت عليهم البيعة ووقعت الشهادات في نسخها (وفي آخر صفر من سنة احدى وخمسين) اخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليه محمدا وزيادا ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقي غالب الناصري الذي خرجوا اليه صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أدفونش الخبيث في الدولة المتملك على طوائف من الامم الجلالقة والمنازع لابن عمه المملك قبله شانجة بن ردمير وتبرع هذا اللعين اردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد وذلك عندما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله في عامه ذلك على الغزو اليه وأخذه في التأهب له فاحتال في تاميل المستنصر بالله والارتماء عليه وخرج قبل أمان يعقد له أو ذمة تعصمه في عشرين رجلا من وجوه أصحابه تكنفهم غالب الناصري الذي خرجوا اليه فجاء به نحو مولاه الحكم وتلقاهما ابنا أفلح بالجيش المذكور فانزلاهم ثم تحركا بهم ثاني يوم نزولهم الى قرطبة فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفي في جيش عظيم كامل

البصرة والموضع المعروف بالكلاء وهي علامات منصوبة من خشب في البحر مغروسة علامات المراكب الى عمان مسافة ثلثمائة فرسخ وعلى ذلك ساحل فارس وبلاد البحرين ومن عمان وقصبتها تسمى سنجار والفرس يسمونها مزون الى المسقط وهي قرية منها يستقي أرباب المراكب الماء من آبار هنالك عذبة خمسون فرسخا ومن المسقط الى رأس الجمجمة خمسون فرسخا وهذا آخر بحر فارس وطوله أربعمائة فرسخ هذا التحديد النواتي وأرباب المراكب ورأس الجمجمة جبل متصل ببلاد اليمن من أرض الشحر والاحقاف والرمل منه تحت البحر لايدرى أين تنتهي غايته في الماء فمن هنالك تنطلق المراكب الى البحر الثاني وهو المعروف بلاوري لايدرى عمقه ولايحصر طوله وعرضه عند البحريين وربما يقطع في الشهرين والثلاثة وفي الشهر على قدر مهاب الريح والسلامة وليس في هذه البحار أعني ما احتوى عليه البحر الحبشي أكبر من هذا البحر بحر لاوري ولا أشد وفي عرضه بحر الزنج وبلادهم وعنبر هذا البحر قليل وذلك ان العنبر أكثره يقع على بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب وأهل الشحر اناس من قضاعة وغيرهم من العرب وهم مهرة

التعبية وتقدموا الى باب قرطبة فرو ابياب قصرها فلما انتهى اردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله فاشير الى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة فخلع قلنسوته وخضع نحو مكان القبر ودعا ثم رد قلنسوته الى رأسه وأمر المستنصر بانزال أردون فى دار الناعورة وقد كان تقدم فى فرشها بضروب الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك الى الغاية وتوسع له فى الكرامة ولاصحابه فاقام بها الخميس والجمعة فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد اقامة الترتيب وتعبية الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والاسلحة والزينة وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح وقعد الاخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفا فى المجلس فيهم القاضى منذر بن سعيد والحكام والفقهاء فاتى محمد بن القاسم بن طمليس بالملك اردون وأصحابه وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض وبليوان من جنسه وفى لونه وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالاندلس يؤنسونه و يبصرونه فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرهما فدخل بين صفى الترتيب يقلب الطرف فى نظم الصفوف ويجيل الفكر فى كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها فراعهم ما أبصروه وصلبوا على وجوههم وتاملوا ناكسى رؤسهم غاضين من اجفانهم قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا الى باب الاقباء أول باب قصر الزهراء فترجل جميع من كان خرج الى لقائه وتقدم الملك اردون وخاصة قوامه على دوابهم حتى انتهوا الى باب السدة فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الاقدام فترجلوا ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طمليس فانزل فى برطل البهو الاوسط من الابهاء القبلية التى بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الاوصال بالفضة وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناويه شانجة بن ردمير الوافد على الناصر لدين الله رحمه الله تعالى فقعد اردون على الكرسى وقعد أصحابه بين يديه وخرج الاذن لاردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه فتقدم يمشى وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع برنسه وبقى حاسرا اعظاما لما بان له من الدنو الى السرير واستنهض فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو فلما قابل السرير خر ساجدا سويعة ثم استوى قائما ثم نهض خطوات وعاد الى السجود ووالى ذلك مرارا الى أن قدم بين يدى الخليفة وأهوى الى يده فناوله اياها وكر راجعا مقهقرا على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب جعل له هنالك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير فجلس عليه والبهر قد علاه وانهض خلفه من استدنى من قوامه واتباعه فدنوا ممتثلين فى تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة فكان الترجمان عن الملك اردون ذلك اليوم فأطرق الخليفة الحكم عن تكليم الملك اردون اثر قعوده أمامه وقتا كيما يفرخ روعه فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال ليسرك اقبالك ويغبطك تأميلك فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته فلما

ولغتهم بخلاف لغة العرب وذلك انهم يجعلون الشين بدلا من الكاف مثال ذلك ان يقولوا هل لش فيما قلت لى وقلت لش ان تجعلى الذى معى فى الذى معش يريد هل لك فيما قلت لى وقلت لك ان تجعلى الذى معى فى الذى معك وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم وهم ذوو فقر وفاقة ولهم نجب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية تشبه فى السرعة بالنجب البجاوية بل عند جماعة انها أسرع منها يسيرون عليها على ساحل بحرهم فاذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه قد ريضت لذلك واعتادته فيتناوله الراكب وأجود العنبر ما وقع فى هذه الناحية والى جزائر الزنج وساحله وهو المدور والازرق البارز كبيض النعام أو دون ذلك ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالاوال المقدم ذكره وذلك أن البحر اذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر على ما وصفنا فاذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله فيطفو فوق الماء ولذلك أناس يرصدونه فى القوارب من الزنج وغيرهم فيطرحون فيه الكلاليب والجبال فيشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه فما يخرج من بطنه يكون سمكا ويعرفه العطارون بالعراق

ترجم له كلامه اياه تطلق وجه اردون وانحط عن رتبته فقبل البساط وقال أنا عبد أمير المؤمنين مولاى المتورك على فضله القاصد الى مجده المحكم فى نفسه ورجاله فحيث وضعنى من فضله وعوضنى من خدمته رجوت ان اتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة فقال له الخليفة أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك مايغبطك وتتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا فعاد اردون الى السجود عند فهمه مقالة الخليفة وابتهل داعيا وقال ان شانجة ابن عمى تقدم الى الخليفة الماضى مستجيرا به منى فكان من اعزازه اياه مايكون من مثله من اعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم واملهم وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته وأنكرت سيرته واختارتنى لمكانه من غير سعى منى علم الله ذلك ولا دعاء اليه فخلعته واخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا فتطول عليه رحمه الله بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه وأعز نصره ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى اسديت اليه وقصر فى أداء المفروض عليه وحقه وحق مولاى أمير المؤمنين من بعده وانا قد قصدت باب امير المؤمنين لغير ضرورة من قرار سلطانى وموضع احكامى محكماله فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تحويه من رعيتى فشتان مابيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة فقال الخليفة قد سمعنا قولك وفهمنا مغزاك وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية شأنه ويترادف من احساننا اليك اضعاف ما كان من أبينا رضى الله تعالى عنه الى ندك وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا والقصد الى سلطاننا فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا ينقصك مما أنلناك وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ونشد واخى ملكك ونملكك جميع ما انحاش اليك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك ونقرر به حد مابينك وبين ابن عمك ونقبضه عن كل ماتصرفه من البلاد الى يدك وسيترادف عليك من افضالنا فوق ما احتسبته والله على مانقول وكيل فكرر اردون الخضوع وأسهب فى الشكر وقام للانصراف مقهقرا لا يولى الخليفة ظهره وقد تكنفه الفتيان من جملة الفتيان فأخرجوه الى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البهر وأذهله الروع من هول ماباشره وجلالة ماعاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة فلما ان دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه انحط ساجدا اعظاما له ثم تقدم الفتيان به الى البهو الذى يحوى هذا المجلس فاجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب وأقبل نحوه الحاجب جعفر فلما بصربه قام اليه وخضع له وأومأ الى تقبيل يده فقبضها الحاجب عنه وانحنى اليه فعانقه وجلس معه فغبطه ووعده من انجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع التى أمر له بها الخليفة وكانت دراعة منسوجة بالذهب وبرنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العلج تجلة فخر ساجدا واعلن بالدعاء ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم فكمل جميع ذلك بحسب مايصلح لهم وخر جميعهم خاضعين شاكرين ثم انطلق الملك اردون وأصحابه وقدم لركابه فى أول البهو الاوسط فرس من عتاق خيل الركاب عليه سرج حلى ولجام حلى مفرغ وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافة مكان تضييفه وقد أعد له فيه كل مايصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون واستقر

وفارس والهند ومابقى على ظهر الحوت منه كان نقيا جيدا على حسب لبثه فى بطن الحوت وبين البحر الثالث وهو مركيد والبحر الثانى وهو لاورى على ماذكرنا جزائر كثيرة وهى فرق بين هذين البحرين ويقال انها نحو من الفى جزيرة وفى قول المحقق ألف وتسعمائة جزيرة كلها عامرة بالناس وملكة هذه الجزائر كلها امرأة وبذلك جرت عادتهم فى قديم الزمان لا يملكهم رجل والعنبر يوجد فى هذه الجزائر أيضا يقذفه البحر ويوجد فى بحرها كأكبر مايكون من قطع الصخر وأخبرنى غير واحد من نواخذه السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرهما من البحار ممن كان يختلف الى هذه الجزائر ان العنبر ينبت فى قعر هذا البحر ويتكون كتكون أنواع الفطر من الابيض والاسود والكمأة والمعاريد وبنات أوبر ونحوها فاذا هاج البحر واشتد قذف من قعره الصخور والاحجار وقطع العنبر وأهل هذه الجزائر متفقون وكلمتهم واحدة لا يحصرهم العد لكثرتهم ولا تحصى جيوش هذه الملكة عليهم وبين الجزيرة والجزيرة نحو الميل والفرسخ والفرسخين والثلاثة ونخلهم شجر النارجيل لا يتفقد من النخلة الا التمر وقد زعم اناس ممن عنى بتولدات الحيوان وتطعيم الاشجار ان النارجيل هو نخل المقل

أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وارغاد المعاش واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الاسلام فيه ما أفاضوا من التبجح به والتحدث عنه أياما وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان وانشادات لاشعار محكمة متان يطول القول فى اختيارها فمن ذلك قول عبد الملك بن سعيد المرادى من قصيدة حيث يقول

ملك الخليفة آية الاقبال * وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة و برفعة * والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الاعاجم نحوه * متوقعين لصولة الريبال
هذا أميرهم أتاه آخذا * منه أواصر ذمة وحبال
متواضعا لجلاله متخشعا * متبرعا لما يرع بقتال
سينال بالتأميل للملك الرضا * عزا يعم عداه بالا ذلال
لايوم أعظم للولاة مسرة * وأشد غيظا على الاقيال
من يوم اردون الذى اقباله * أمل المدى ونهاية الاقبال
ملك الاعاجم كلها ابن ملوكها * والى الرعاة الى الاعاجم والى
ان كان جاء ضرورة فلقد أتى * عن عز مملكة وطوع رجال
فالحمد لله المنيل امامنا * حط الملوك بقدره المتعالى
هو يوم حشر الناس الا انهم * لم يسئلوا فيه عن الاعمال
أضحى الفضاء مخيما بجيوشه * والافق أقتم أغبر السربال
لايهتدى السارى لليل قتامه * الا بضوء صوارم وعوالى
وكأن اجسام الكماة تسربلت * مذعريت عنه جسوم ضلال
وكأنما العقبان عقبان الفلا * منقضة لتخطف الضلال
وكأن مقتضب القنا مهتزة * اشطان نازحة بعيد مجال
وكأنما قيل التجافيف اكتست * نار اذ وجهها بلا اشعال

وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم المستنصر عن فتاه تليد صاحب خزانته العلمية فيما احدث عنه الحافظ أبو محمد بن حزم ان عدة الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة فى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الاذكر الدواوين فقط انتهى وقد قدمناه عن ابن خلدون ونقله ابن الابار فى التكملة * وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم انه كان حسن السيرة مكرما للقادمين عليه جمع من الكتب مالا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل انها كانت أربعمائة ألف مجلد وانهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها وكان عالما نبيها صافى السريرة وسمع من قاسم بن أصبغ وأحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام الخشنى وزكريا بن خطاب وأكثر عنه وأجازله ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحى باذلا فيها ما أمكن من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته وكان فى المعرفة بالرجال والاخبار والانساب أحوذيا نسيج وحده وكان ثقة فيما

واعما أثرت فيه تربة الهند المترجم بالقضايا والتجارب ماتؤثره كل بقعة من بقاع الارض وهوائها فى حيوانها من الناطقين وغيرهم وما تؤثر البقاع فى النامى من النبات وفيما ليس بنام كتأثير أرض الترك فى وجوههم وصغر أعينهم حتى أثر ذلك فى جمالهم فقصرت قوائمها وغلظت رقابها وابيض وبرها وأرض يأجوج ومأجوج فى صورهم وغير ذلك مما اذا تبينه ذوو المعرفة فى سكان الارض من المشرق والمغرب وجدوه على ماذكرنا وليس يوجد فى جزائر البحر ألطف صنعة من هذه الجزائر فى سائر المهن والصنائع فى الثياب والآلات وغير ذلك وبيوت أموال هذه المملكة الودع وذلك أن هذا الودع فيه نوع من الحيوان واذا قل مالها أمرت أهل هذه الجزائر أن يقطعوا من سعف نخل النارجيل بخوصه ويطرحوه على وجه الماء فيترا كب عليه ذلك الحيوان فيجمع ويطرح على رمل الساحل فتحرق الشمس مافيه من الحيوان ويبقى الودع خاليا مما كان فيه فتملأ من ذلك بيوت الاموال وهذه الجزائر تعرف جميعها بالدبيجات ومنها يحمل أكثر الرانج وهو النارجيل

ينقله بهذا وصفه ابن الابار و باضعافه وقال عجبا لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة او نظر في أي فنّ كان ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن ومما ينسب اليه من النظم قوله

الى الله أشكو من شمائل مسرف * على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه داري فاستزاد صدوده * واني على وجدي القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقي بالغ * من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت * وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيا مقلتي العبرا عليها اسكبي دما * ويا كبدي الحرّا عليها تقطعي

وتوفي رحمه الله تعالى بقصر قرطبة ثاني صفر سنة ست وستين وثلثمائة لست عشرة سنة من خلافته وكان أصابه الفالج فلزم الفراش الى ان هلك رحمه الله تعالى وكان قد شدد في ابطال الخمر في مملكته تشديدا عظيما (وولي بعده ابنه) هشام صغيرا اسنه تسع سنين ولا ينافيه قول ابن خلدون قد ناهز الحلم وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر ونقله من خطة القضاء الى وزارته وفوّض اليه اموره فاستقل قال ابن خلدون وترقت حال ابن أبي عامر عند الحكم فلما توفي الحكم وبويع هشام ولقب المؤيد بعد أن قتل ليلتئذ المغيرة أخو الحكم المرشح لأمره تناول الفتك به محمد بن أبي عامر هذا بممالأة من جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه وغالب مولى الحكم صاحب مدينة سالم ومن خصيان القصر يومئذ ورؤسائهم فائق وجودر فقتل ابن أبي عامر المغيرة بممالأة من ذكر وتمت البيعة لهشام ثم سما لابن أبي عامر أمل في التغلب على هشام لمكانه في السنّ وثاب له رأي في الاستبداد فكر باهل الدولة وضرب بين رجالها وقتل بعضا ببعض وكان من رجال اليمنية من معافر دخل جدّه عبد الملك مع طارق وكان عظيما في قومه وكان له في الفتح أثر وعظم ابن أبي عامر هذا وغلب على المؤيد ومنع الوزراء من الوصول اليه الا في النادر من الايام يسلمون وينصرفون وأرضخ للجند في العطاء وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وكان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين ثم تجرّد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطهم عن مراتبهم وقتل بعضا ببعض كل ذلك عن هشام وخطه وتوقيعه حتى استأصلهم وفرّق جموعهم وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدّام بالقصر فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم فنكبهم وأخرجهم من القصر وكانوا ثمانمائة او يزيدون ثم اصهر الى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصح له واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة ثم استعان على غالب بجعفر بن احمد بن على بن حمدون صاحب المسيلة وقائد الشيعة ممدوح ابن هانئ بالفائية المشهورة وغيرها وهو النازع الى الحكم أول الدولة وبمن كان معه من زناتة والبربر ثم قتل جعفرا بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع الى الجند فاستدعى أهل العدوة من

وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب ويلي جزيرة سرنديب جزائر أخر نحو من ألف فرسخ تعرف بالراملين معمورة وفيها ملوك وفيها معادن من ذهب كثيرة ويليها بلاد قيصور واليها يضاف الكافور القيصوري والسنة التي تكون كثيرة الصواعق والبروق والرجف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور واذا قل ذلك كان نقصانا في وجوده وأكثر ما ذكرنا من الجزائر غذاؤهم النارجيل ويحمل من هذه الجزائر خشب البقم والخيزران والذهب وفيلتها كثيرة ومنها ما يأكل لحوم الناس وتتصل هذه الجزائر بالحابوس وهي أمم عجيبة الصور عراة يخرجون في القوارب عند اجتياز المراكب بهم معهم العنبر والنارجيل فيتعاوضون بالحرير وشيء من الثياب ولا يبيعون ذلك بالدراهم ولا بالدنانير وتليهم جزائر يقال لها أبرامان فيها أناس سود عجيبو الصورة والمنظر قدم الواحد منهم أكبر من الذراع لا مراكب لهم فاذا وقع الغريق اليهم مما قد انكسر في البحر أكلوه وكذلك فعلهم بالمراكب اذا وقعت اليهم وذكر لي جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا في هذا البحر سحابا أبيض قطعا صغارا يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر فاذا اتصل به علاه البحر وارتفعت منه زوابع عظيمة

رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا واصطنع أولياء وعرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبنى يفرن وبنى برزال ومكناسة وغيرهم فتغلب على هشام وحجره واستولى على الدولة وملأ الدنيا وهو فى جوف بيته من تعظيم الخلافة والخضوع لها ورد الامور اليها وترديد الغزو والجهاد وقدم رجال البرابرة وزناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالامر وبنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة وقعد على سرير الملك وأمر أن يحيا بتحية الملوك وتسمى بالحاجب المنصور ونفذت الكتب والمخاطبات والاوامر باسمه وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ومحا رسم الخلافة بالجملة ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه فى السكة والطرز وأغفل ديوانه مما سوى ذلك وجند البرابرة والمماليك واستكثر من العبيد والعلوج للاستيلاء على تلك الرتبة وقهر من تطاول اليها من العلية فظفر من ذلك بما أراد وردد الغزو بنفسه الى دار الحرب فغزا ستا وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ولا فل له جيش وما أصيب له بعث وما هلكت له سرية وأجاز عساكره الى العدوة وضرب بين ملوك البرابرة وضرب بعضهم ببعض فاستوثق له ملك المغرب وأخذت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا سلطانه وأجاز ابنه عبد الملك الى ملوك مغراوة بفاس من آل خزر ولما سخط زيرى بن عطية ملكهم لما بلغه ما بلغه من اعلانه بالنيل منه والغض من منصبه والتأفف لحجر الخليفة هشام أوقع به عبد الملك سنة ست وثمانين ونزل بفاس وملكها وعقد لملوك زناتة على ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها وشرد زيرى بن عطية الى تاهرت فأبعد المفر وهلك فى مفره ذلك ثم قفل عبد الملك الى قرطبة واستعمل واضحا على المغرب وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا وأشد استيلاء سنة أربع وتسعين وثلثمائة بمدينة سالم منصرفه من بعض غزواته ودفن هنالك وذلك لسبع وعشرين سنة من ملكه انتهى كلام ابن خلدون وبعضه بالمعنى وزيادة يسيرة ولا باس ان نزيد عليه فنقول مما حكى انه مكتوب على قبر المنصور رحمه الله تعالى

آثاره تنبيك عن أخباره * حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا ياتى الزمان بمثله * ابدا ولا يحمى الثغور سواه

وعن شجاع مولى المستعين بن هود لما توجهت الى أذفونش وجدته فى مدينة سالم وقد نصب على قبر المنصور بن ابى عامر سريره وامرأته متكئة الى جانبه فقال لى يا شجاع اما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر ملكهم قال فحملتنى الغيرة أن قلت له لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ما سمع منك ما يكره سماعه ولا استقرّ بك قرار فهم بى فحالت امرأته بينى وبينه وقالت له صدقك فيما قال أيفخر مثلك بمثل هذا * وهذا تلخيص ترجمة المنصور من كلام ابن سعيد قال رحمه الله ترجمة الملك الاعظم المنصور أبى عامر محمد بن عبد الله بن عامر ابن أبى عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافرى من قرية تركش وعبد الملك جده هو الوافد على الاندلس مع طارق فى أوّل الداخلين من العرب وأما المنصور فقد ذكره ابن حيان فى كتابه المخصوص بالدولة العامرية والفتح فى المطمح والحجارى فى المسهب والشقندى فى الطرف

لاتمر زوبعة منها بشئ الا أتلفته ويطرون عقيب ذلك مطرا سهكا فيه أنواع من قذى البحر (وأما البحر الرابع) فهو كلاهار على حسب ماذكرنا وتفسير ذلك بحر كله وهو بحر قليل الماء واذا قل ماء البحر كان أكثر آفات واشدّ خبثا وهو كثير الجزائر والصراوى واحدها صرو وذلك ان أهل المراكب يسمون بحر الخليجين اذا كان طريقهم فيه الصرو وبهذا البحر أنواع من الجزائر والجبال عجيبة وانما غرضنا التلويح بلمع من الاخبار عنها لا البسط وكذلك (البحر الخامس) المعروف بكردنج فانه كثير الجبال والجزائر وفيه الكافور وهو قليل الماء كثير المطر لا يكاد يخلو منه وفيه أجناس من الامم منهم جنس يقال له الفنجت شعورهم مفلفلة وصورهم ومناظرهم عجيبة يتعرضون فى قوارب لهم لطاف للمراكب اذا اجتازت بهم ويرمون بنوع من السهام عجيبة قد سقيت السم وبين هذه الامة وبين بلاد كله جبال معادن الرصاص الابيض وجبال من الفضة وفيها أيضا معادن من الذهب ورصاص لا يكاد يتميز منه ثم يليه (بحر الصنف) على ما رتبناه آنفا وفيه مملكة المهراج ملك الجزائر وملكه لا يضبط كثرة ولا تحصى جنوده ولا يستطيع أحد

وذكر

وذكر الجميع أن أصله من قرية تركش وأنه رحل الى قرطبة وتأدب بها ثم اقعد كاتبا عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان الى أن طلبت السيدة صبح ام المؤيد من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس اليه بالجلوس من فتيان القصر فترقى الى أن كتب عنها فاستحسنته ونبهت عليه الحكم ورغبت فى تشريفه بالخدمة فولاه قضاء بعض المواضع فظهرت منه نجابة فترقى الى الزكاة والمواريث باشبيلية وتمكن فى قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة مالم يتمكن لغيره ولم يقصر مع ذلك فى خدمة المصحفى الحاجب الى أن توفى الحكم وولى ابنه هشام المؤيد وهو ابن اثنتى عشرة سنة فخاشت الروم فجهز المصحفى ابن أبى عامر لدفاعهم فنصره الله عليهم وتمكن حبه من قلوب الناس وكان جوادا عاقلا ذكيا استعان بالمصحفى على الصقالبة ثم بغالب على المصحفى وكان غالب صاحب مدينة سالم وتزوج ابن أبى عامر ابنته اسماء وكان أعظم عرس بالاندلس ثم بجعفر بن الاندلسى ممدوح ابن هانئ على غالب ثم بعبد الرحمن بن محمد بن هشام التجيبى على جعفر وله فى الحزم والكيد والجلد ما افرد له ابن حيان تأليفا وعد غزواته المنشاة من قرطبة نيف وخمسون غزوة ولم تهزم له راية وقبره بمدينة سالم فى أقصى شرق الاندلس ومن شعره

رميت بنفسى هول كل عظيمة * وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى الا جنان مشيع * وأسمر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة * وفاخرت حتى لم أجد من افاخر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة * على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالى بالعوالى مثلها * وأورثناها فى القديم معافر

وجوده مع صاعد البغدادى اللغوى مشهور وصدر عن بعض غزواته فكتب اليه عبد الملك ابن شهيد وكان قد تخلف عنه

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا * يا بنفسى اقيك كل الرزايا
ورسول الاله أسهم فى الفى * لمن لم يخب فيه المطايا

فبعث اليه بثلاث جوار من أجمل السبى وكتب معهن وكانت واحدة أجملهن قوله

قد بعثنا بها كشمس النهار * فى ثلاث من المها أبكار
وامتحنا بعذرة البكر ان كنت ترجى بوادر الاعذار
فاجتهد وابتدر فانك شيخ * قد جلا ليله بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها * فمن العار كلة المسمار

فافتضهن من ليلته وكتب له بكرة

قد فضضنا ختام ذاك السوار * واصطبغنا من النجيع الجارى
وصبرنا على دفاع وحرب * فلعبنا بالدر أو بالدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام * ذى مضاء عضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا * واتخذه خلا على الكفار

وقدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس فتجرد ليسبح فى النهر وترك الكيس وكان

من الناس فى أسرع ما يكون من المراكب أن يمر بجزائره فى سنين وقد حاز هذا الملك أنواع الافاويه والطيب وليس لاحد من الملوك ماله ومما يحمل من بلاده ويجهز من أرضه الكافور والعود والقرنفل والصندل والجوز والبسباسة والقاقلة والكبابة وغير ذلك مما لم نذكره وجزائره تتصل ببحر لاتدرك غايته ولا يعرف منتهاه مما يلى بحر الصين وفى أطراف جزائره جبال فيها أمم كثيرة بيض آذانهم مخرمة ووجوههم كقطع التراس مطرقة يجزون شعورهم كما يجز الشعر من الزق مدرجا بدرج تظهر من جبالهم النار بالليل والنهار فنهارها حمراء وبالليل تسود وتلحق بعنان السماء لعلوها وذهابها فى الجو تقذف باشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق وربما يظهر منها صوت عجيب مفزع ينذر بموت ملكهم وربما يكون أخفض من ذلك فينذر بموت بعض رؤسائهم قد عرف ما ينذر من ذلك بطول العادات والتجارب على قديم الزمان وان ذلك غير مختلف وهذه أحد آطام الارض الكبار وتليها الجزيرة التى يسمع منها على دوام الاوقات أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهى المطربة المستلذة ويسمع ايقاع الرقص والتصفيق ومن يسمع ذلك يميزه بين كل نوع

أحمر على ثيابه فرفعه حدأة في مخالبها فجرى تابعا لها وقد ذهل فتغلغلت في البساتين وانقطعت عن عينه فرجع متحيرا فشكا ذلك الى بعض من يأنس به فقال له صف حالك لابن أبي عامر فتلطف في وصف ذلك بين يديه فقال ننظر ان شاء الله تعالى في شأنك وجعل يستدعي أصحاب تلك البساتين ويسأل خدامها عمن ظهر عليه تبديل حال فاخبروه ان شخصا ينقل الزبل اشترى حمارا وظهر من حاله مالم يكن قبل ذلك فامر بمجيئه فلما وقعت عينه عليه قال له أحضر الكيس الاحمر فتملك الرعب قلبه وارتعش وقال دعني آتي به من منزلي فوكل به من حمله الى منزله وجاء بالكيس وقد نقص منه مالا يقدح في مسرة صاحبه فخبره ودفعه الى صاحبه فقال والله لاحدثن في مشارق الارض ومغاربها أن ابن أبي عامر يحكم على الطيور وينصف منها والتفت ابن أبي عامر الى الزبال فقال له لو اتيت به أغنيناك لكن تخرج كفافا لا عقابا ولا ثوابا وتوفي رحمه الله في غزاته للافرنج بصفر سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة وحمل في سريره على اعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى ان وصل الى مدينة سالم ودامت دولته ستا وعشرين سنة غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة واحدة في الشتاء واخرى في الصيف انتهى كلام ابن سعيد وفي بعضه مخالفة لبعض كلام ابن خلدون * وقال الفتح في المطمح في حق المصحفي الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ماصورته تجرد للعليا وتمرّد في طلب الدنيا حتى بلغ المنى وتسوّغ ذلك الجنى ووصل الى المنتهى وحصل على ما اشتهى دون مجد تفرع من دوحته ولا فخر نشأ بين مغداه وروحته فسما دون سابقة ورمى الى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة فبلغ بنفسه ونزع عن جنسه ولم يزل يستقل ويطلع وينتقل من مطلع الى مطلع حتى التاح في افق الخلافة وارتاح اليه معظمها كنشوان السلافة واستوزره المستنصر وعنه قد كان يسمع وبه يبصر وحجب الامام واسكب برأيه ذلك الغمام فادرك لذلك ما أدرك ونصب لامانيه الحبائل والشرك فاقتنى اقتناء مدخر وازرى بمن سواه وسخر واستعطفه ابن أبي عامر ونجمه غائر لم يلح وسره مكتوم لم يبح فعاطف ولاجنى من روضة دنياه ولا قطف وأقام في تدبير الاندلس ما أقام وبرهانه مستقيم ومن الفتن عقيم وهو يجري من السعد في ميدان رحب وباع من العز في مشرب عذب ويفض ختام السرور وينهض من الملك على لبنة مزرور وكان له أدب بارع وخاطر الى نظم القريض مسارع فمن محاسنه التي بعثها يناس دهره واسعاده وقاله حين ألهته سلماه وسعاده قوله

لعينيك في قلبي عليك شجون * وبين ضلوعي للشجون فنون
نصيبي من الدنيا هواك وانه * غذائي ولكني عليه ضنين

وستأتي هذه الترجمة من المطمح الصغير ان شاء الله تعالى بما فيه بعض زيادة ونقصان في الباب الرابع * وقال في المطمح في حق ابن أبي عامر انه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس ومحا من طواغيتها كل تجبر وتغطرس وغادرهم صرعى البقاع وتركهم أذل من وتد بقاع ووالى على بلادهم الوقائع وسدد الى أكبادهم سهام الفجائع وأغص بالحمام أرواحهم ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم ومن أوضح الامور هنالك وأفصح الاخبار في ذلك أن أحد رسله كان كثير الانتياب لذلك الجناب فسار في بعض مسيراته الى غرسية

من أصوات الملاهي وغيره والبحريون ممن اجتاز بتلك الديار يزعمون ان الدجال بتلك الجزيرة وفي مملكة المهراج جزيرة سريرة ومسافتها في البحر نحو من أربعمائة فرسخ عمائر متصلة وبه جزيرة الرانج والرامي وغير ذلك مما لا يؤتى على ذكره من جزائره وملكه وهو صاحب (البحر السادس) وهو بحر الصنف ثم (البحر السابع) وهو بحر الصين على ما وتبناه آنفا ويعرف بحر صنجي وهو بحر خبيث كثير الموج والخب وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر وانما نخبر عن عبارة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم وفيه جبال كثيرة لابد للمراكب من النفوذ بينها ثم ان ذلك البحر اذا عظم خبه وكثر موجه ظهرت فيه اشخاص سود طول الواحد منهم نحو الخمسة أشبار أو الاربعة كأنهم أولاد الاحابش الصغار شكلا واحدا وقدا واحدا فيصعدون على المراكب ويكثر منهم الصعود من غير ضرر فاذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة وظهورهم علامة للخب فيستعدون لذلك فعافى ومبتلى فاذا كان كذلك ربما شاهد المعافى منهم في أعلى الدقل (وتسميه أرباب المراكب في بحر الصين وغيره في البحر الحبشي الدولي وتسميه الرجال في البحر الرومي الصاري) شيأ

صاحب

صاحب الشكنس فوالى فى اكرامه وتناهى فى بره واحترامه فطالت مدته فلا متنزه لامر عليه متفرجا ولا منزل الاسار عليه معرجا فحل فى ذلك أكبر الكنائس هنالك فبينما هو يجول فى ساحتها ويجيل العين فى مساحتها اذ عرضت له امرأة قديمة الاسر قويمة على طول الكمر فكلمته وعرفته بنفسها وأعلمته وقالت له أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بوسها ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة وبكل ذل وصغار ملبسة وناشدته الله فى انهاء قصتها وابراء غصتها واستحلفته باغلظ الايمان وأخذت عليه فى ذلك أوكد مواثيق الرحمن فلما وصل الى المنصور عرفه بما يجب تعريفه به واعلامه وهو مصغ اليه حتى تم كلامه فلما فرغ قال له المنصور وهل وقفت هنالك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ما ذكرته فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه اليه وبالمواثيق الذى أخذت عليه فعتبه ولامه على أن لم يبدأ بها كلامه ثم أخذ للجهاد من فوره وعرض من اجناد فى نجده وغوره وأصبح غازيا على سرجه مباهيا مروان يوم مرجه حتى وافى ابن شانجة فى جمعه فأخذت مهابته ببصره وسمعه فبادر بالكتاب اليه يتعرف ما الجلية ويحلف له باعظم ألية انه ماجنى ذنبا ولا جفا عن مضجع الطاعة جنبا فعنف ارساله وقال لهم كان قد عاقدنى أن لا يبقى ببلاده ماسورة ولا ماسور ولو حلته فى حواصلها النسور وقد بلغنى بعد بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة ووالله لا انتهى عن أرضه حتى اكتسحها فأرسل اليه المرأة فى اثنتين معها وأقسم انه ما أبصرهن ولا سمع بهن وأعلمه ان الكنيسة التى أشار بعلمها قد بالغ فى هدمها تحقيقا لقوله وتضرع اليه فى الاخذ فيه بطوله فاستحيا منه وصرف الجيش عنه وأوصل المرأة الى نفسه وألحق توحشها بأنسه وغير من حالها وعاد بسوابك نعماه على جدبها واحالها وحملها الى قومها وكحلها بما كان شرد من نومها انتهى * وقال فى المطمح أيضا فى حقه ما نصه فزدنا به على من تقدمه وصوبه واستحزمه فانه كان أمضاهم سنانا واذكاهم جنانا وأتمهم جلالا وأعظمهم استقلالا فآل أمره الى ما آل وأوهم العقول بذلك المآل فانه كان آية الله فى اتفاق سعده وقربه من الملك بعد بعده بهر برفعة القدر واستظهر بالاناة وسعة الصدر وتحرك فلاح نجم الهدو وتملك فما خفق بارضه لواء عدو بعد خمول كابد منه غصصا وشرقا وتعذر مأمول طارد فيه سهرا وأرقا حتى أنجز له الموعود وفر نحسه أمام تلك السعود فقام بتدبير الخلافة وأقعد من كان له فيها انافة وساس الامور أحسن سياسة وداس الخطوب باخشن دياسة فانتظمت له الممالك واتضحت به المسالك وانتشر الامن فى كل طريق واستشعر اليمن بكل فريق وملك الاندلس بضعا وعشرين حجة لم تدحض لسعادته حجة ولم تزخر لمكروه بها لجة لبست فيه البلاد الاشراق وتنفست عن مثل أنفاس العراق وكانت أيامه أحمد أيام وسهام بأسه أشد سهام غزا الروم شاتيا وصائفا ومضى فيما يروم زاجرا وعائفا فما رأى له غير سنيح ولا فاز الا بالمعلى لا بالمنيح فأوغل فى تلك الشعاب وتغلغل حتى راع ليث الغاب ومشى تحت ألويته صيد القبائل واشتجرت فى ظلها بيض الظبا وسمر الذوابل وهو يقتضى الارواح بغير سوم وينتضى الصفاح على

على صورة الطائر يتوقد نورا لا يستطيع الناظر منهم على ملء بصره منه ولا ادراكه كيف هو فاذا استقل على أعلى الدقل يرون البحر يهدأ والامواج تصغر والخب يسكن ثم ان ذلك النور يفقد فلا يرى كيف أقبل ولا كيف ذهب فذلك علامة الخلاص ودليل النجاة وما ذكر فلا تناكر فيه عند أهل البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع هذا البحر وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب اذ كان جائزا فى مقدور البارى جل وعز خلاص عباده من الهلاك واستنقاذهم من البلاء وفى هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر وأصغر من ذلك وأكبر فاذا بان عن الماء بسرعة حركته وصار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية وتدخل تلك الحجارة فى اكحال العين وأدويتها وأمره مستفيض أيضا وبحر الصين أيضا وهو السابع المعروف بصنجى أخبار عجيبة وقد أتينا على جمل من اخباره وأخبار ما اتصل به من البحار فيما سمينا من كتبنا وأسلفنا من تصنيفنا فى هذا المعنى ونحن ذاكرون فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار الملوك جوامع وجملا من ذلك وليس بعد بلاد الصين مما يلى البحر ممالك تعرف ولا توصف الا بلاد السلى وجزائرها ولم يصل اليها من الغرباء

كل روم ويتلف من ينساق للخلافة وينقاد ويختطف منهم كل كوكب وقاد حتى استبد وانفرد وأنس اليه من الطاعة ما نفر وشرد وانتظمت له الاندلس بالعدوة واجتمعت فى ملكه اجتماع قريش بدار الندوة ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة ولم يدع السمع لخليفته والاجابة ظاهر يخالفه الباطن واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن وأذل قبائل الاندلس باجازة البرابر واخمل بهم أولئك الاعلام الاكابر فانه قاومهم بأضدادهم واستكثر من اعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا عنهم الظهور ووثبوا عليهم الوثوب المشهور الذى اعاد أكثر الاندلس قفرا يبابا وملأها وحشا وذئابا واعراها من الامان برهة من الزمان وعلى هذه الهيئة فهو وابنه المظفر كانا آخر سعد الاندلس وحدا السرور بهما والتانس وغزواته فيها شائعة الاثر رائعة كالسيف ذى الاثر وحسبه وافر ونسبه معافر ولذا قال يفخر رميت بنفسى الابيات وزاد هنا بعد قوله وابيض باتر بيتا وهو

وانى لزجاء الجيوش الى الوغى * اسود تلاقيها اسود خوادر

وكانت امه تميمية فحاز الشرف بطرفيه والتحف بطرفيه ولذا قال القسطلى فيه

تلاقت عليه من تميم ويعرب * شموس تلالا فى العلا وبدور
من الحميريين الذين اكفهم * سحائب تهمى بالندى وبحور

وتصرف قبل ولايته فى شتى الولايات وجاء من التحدث بمنتهى أمره بآيات حتى صح زجره وجاء بصحبه فجره تؤثر عنه فى ذلك أخبار فيها عجب واعتبار وكان أديبا محسنا وعالما متفننا فمن ذلك قوله يمنى نفسه بملك مصر والحجاز ويستدعى صدور تلك الاعجاز

منع العين ان تذوق المناما * حبها أن ترى الصفا والمقاما
لى ديون بالشرق عند اناس * قد احلوا بالمشعر الحراما
ان قضوها نالوا الامانى والا * جعلوا دونها رقابا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام * يبلغ النيل خطوها والشآما

انتهى ما نقلته من المطمح * وفى المنصور المذكور أيضا قال بعض مؤرخى المغرب مازجا كلامه ببعض كلام الفتح بعد ذكر استعانته ببعض الناس على بعض وذكر قتله لجعفر بن عثمان فقال بعده ما صورته ثم انفرد بنفسه وصار ينادى هل من مبارز فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه فانقاد له وساعده فاستقام أمره منفردا بمملكة لا سلف له فيها ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينكب قط فى حرب شهدها وما توجهت عليه هزيمة وما انصرف عن موطن الا قاهرا غالبا على كثرة ما زاول من الحروب ومارس من الاعداء وواجه من الامم وانها لخاصة ما حسب احدا من الملوك الاسلامية شاركه فيها ومن أعظم ما اعين به مع قوة سعده وتمكن جده سعة جوده وكثرة بذله فقد كان فى ذلك أعجوبة الزمان وأول ما اتكأ على أرائك الملوك وارتفق وانتشر عليه لواء السعد وخفق حط صاحبه المصحفى وأثار له كامن حقده الخفى حتى اصاره للهموم لبيسا وفى غيابات السجن حبيسا فكتب اليه يستعطفه بقوله

هبنى أسأت فاين العفو والكرم * اذ قادنى نحوك الاذعان والندم

أحد من العراق ولاغيره فخرج منها لصحة هوائها ورقة مائها وجودة تربتها وكثرة خيرها وصفاء جوهرها الا النادر من الناس وأهلها مهادنون لاهل الصين وملوكها والهدايا بينهم لاتكاد تنقطع وقد قيل انهم تشعبوا من ولد عابور وسكنوا هنالك على حسب ما ذكرنا من سكنى أهل الصين فى بلادهم وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات تجرى من بلاد الترك والتبت والصغد وهى بين بخارى وسمرقند وهنالك جبال النوشادر فاذا كان فى الصيف رؤيت فى الليل نيران قد ارتفعت من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ بالنهار يظهر منها الدخان عليه شعاع الشمس وضوء النهار ومن هنالك يحمل النوشادر فاذا كان فى أول الشتاء من أراد من بلاد خراسان ان يسلك الى بلاد الصين صار الى ما هنالك وهنالك واد بين تلك الجبال طوله أربعون ميلا أو خمسون فيأتى الى أناس هنالك على فم الوادى فيرغبهم فى الاجرة النفيسة فيحملون ما معه على اكتافهم وبأيديهم العصى يضربون جنبيه خوفا أن يلح أو يقف فيموت من كرب الوادى وهوله حتى يخرجون الى ذلك الرأس من الوادى وهنالك غابات ومستنقعات للماء فيطرحون أنفسهم فى ذلك الماء لما قد نالهم من شدة الكرب وحر النوشادر ولا يسلك ذلك

يا

ياخير من مدت الايدى اليه أما * ترثى لشيخ رماه عندك القلم
بالغت فى الحط فاصفح صفح مقتدر * ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك الا حنقا وحقدا وما أفادته الابيات الا تضرما ووقدا فراجعه بما أياسه وأرام رمسه وأطبق عليه محبسه وضيق تروحه من المحنة وتنفسه

الآن ياجاهلا زلت بك القدم * تبغى التكرم لما فاتك الكرم
أغريت بى ملكا لولا تثبته * ماجاز لى عنده نطق ولا كلم
فايأس من العيش اذ قد صرت فى طبق * ان الملوك اذا ما استنقموا نقموا
نفسى اذا سخطت ليست براضية * ولو تشفع فيك العرب والعجم

وكان من أخباره الداخلة فى أبواب البر والقربة بنيان المسجد الجامع الى أن قال ومن ذلك بناؤه قنطرة على نهر قرطبة الاعظم ابتدأ بناءها المنصور سنة ثمان وسبعين وثلثمائة وفرغ منها فى النصف من سنة تسع وسبعين وانتهت النفقة عليها الى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار فعظمت بها المنفعة وصارت صدرا فى مناقبه الجليلة وكانت هنالك قطعة أرض لشيخ من العامة ولم يكن للقنطرة عدول عنها فأمر المنصور أمناءه بارضائه فيها فحضر الشيخ عندهم فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة اليها وأن المنصور لا يريد الا انصافه فيها فرماهم الشيخ بالغرض الاقصى عنده فيما ظنه أنها لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبا كانت عنده أقصى الامنية وشرطها صحاحا فاغتنم الامناء غفلته ونقدوه الثمن وأشهدوا عليه ثم أخبروا المنصور بخبره فضحك من جهالته وأنف من غبنه وأمر أن يعطى عشرة أمثال ماسأل وتدفع له صحاحا كما قال فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا فكاد أن يخرج من عقله وان يجن عند قبضها من الفرح وجاء محتفلا فى شكر المنصور وصارت قصته خبرا سائرا (ومن ذلك أيضا) بناء قنطرة على نهر أستجة وهو نهر شنيل وتجشم لها أعظم مؤنة وسهل الطريق الوعرة والشعاب الصعبة (ومن ذلك أيضا) انه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييره فى حنوطه وكان يحملها حيث سار مع اكفانه توقعا لحلول منيته وقد كان اتخذ الاكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته وكان يسأل الله تعالى أن يتوفاه فى طريق الجهاد فكان كذلك وكان متسما بصحة باطنه واعترافه بذنبه وخوفه من ربه وكثرة جهاده واذا ذكر بالله ذكر واذا خوف من عقابه ازدجر ولم يزل متنزها عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين وكان عدله فى الخاصة والعامة وبسط الحق على الاقرب فالاقرب من خاصته وحاشيته أمرا مضروبا به المثل * (ومن عدله) انه وقف عليه رجل من العامة بمجلسه فنادى يا ناصر الحق ان لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك وأشار الى الفتى صاحب الدرقة وكان له فضل محل عنده ثم قال وقد دعوته الى الحاكم فلم يأت فقال له المنصور أو عبد الرحمن بن الفطيس بهذا العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك اذكر مظلمتك ياهذا فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما

الطريق شئ من البهائم لان النوشادر يلتهب نارا فى الصيف فلا يسلك ذلك الوادى داع ولا مجيب فاذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والانداء وقع فى ذلك الموضع فأطفأ حر النوشادر ولهبه فسلك الناس حينئذ ذلك الوادى والبهائم لا صبر لها على ما ذكرناه من حره وكذلك من ورد من بلاد الصين فعل به كذلك من الضرب ما فعل بالماضى والمسافة من بلاد خراسان على الموضع الذى ذكرناه الى بلاد الصين نحو من أربعين يوما عامر وغير عامر ودهاس ورمل وفى غير هذه الطريق مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر الا أن ذلك فى خفارات أنواع من الترك وقد رأيت بمدينة بلخ شيخا جميلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط ورأيت عدة من الناس ممن سلك على جبال النوشادر الى أرض التبت والصين ببلاد خراسان والسند مما يلى بلاد المنصورة والمولتان والقوافل متصلة من السند الى خراسان وكذلك الى الهند الى أن تتصل هذه الديار ببلاد زابلستان وهى بلاد واسعة تعرف بمملكة فيروز بن كبك وفيها قلاع عجيبة ممتنعة ولغات مختلفة وأمم كثيرة وقد تنازع الناس فى أنسابهم فمنهم من ألحقهم بولد يافث بن نوح ومنهم من ألحقهم بالفرس الاولى فى نسل طويل وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين والغالب

فقطعها من غير نصف فقال المنصور ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية ثم نظر الى الصقلبي وقد ذهل عقله فقال له ادفع الدرقة الى فلان وانزل صاغرا وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك ففعل ومثل بين يديه ثم قال لصاحب شرطته الخاص به خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه الى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره ففعل ذلك وعاد الرجل اليه شاكرا فقال له المنصور قد انتصفت أنت اذهب لسبيلك وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى فتناول الصقلبي بانواع من المذلة وأبعده عن الخدمة * (ومن ذلك) قصة فتاه الكبير المعروف بالبورقى مع التاجر المغربى فانهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور وهو يومئذ أكبر خدم المنصور واليه أمر داره وحرمه فدافع الحاكم وظن أن جاهه يمنع من احلافه فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه الى الجامع متظلما من الفتى فوكل به فى الوقت من حمله الى الحاكم فأنصفه منه وسخط عليه المنصور وقبض نعمته منه ونفاه *(ومن ذلك) قصة محمد فصاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه فان المنصور احتاجه يوما الى الفصد وكان كثير التعهد له فأنفذ رسوله الى محمد فألفاه الرسول محبوسا فى سجن القاضى محمد بن زرب لحيف ظهر منه على امرأته قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة فلما عاد الرسول الى المنصور بقصته أمر باخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه الى أن يفرغ من عمله عنده ثم يرده الى محبسه ففعل ذلك على ما رسمه وذهب الفاصد الى شكوى ما ناله فقطع عليه المنصور وقال له يا محمد انه القاضى وهو فى عدله ولو أخذنى بالحق ما أطقت الامتناع منه عد الى محبسك واعترف بالحق فهو الذى يطلقك فانكسر الحاجم وزالت عنه ريح العناية وبلغت قصته للقاضى فصالحه مع زوجته وزاد القاضى شدة فى أحكامه * وقال ابن حيان انه كان جالسا فى بعض الليالى وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر فدعا بأحد الفرسان وقال له انهض الآن الى فج طلياطة وأقم فيه فأول خاطر يخطر عليك سقه الى قال فنهض الفارس وبقى فى الفج فى البرد والريح والمطر واقفا على فرسه اذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب فقال له الفارس الى أين تريد يا شيخ فقال وراء حطب فقال الفارس فى نفسه هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يسوق حطبا فماذا عسى أن يريد المنصور منه قال فتركته فسار عنى قليلا ثم فكرت فى قول المنصور وخفت سطوته فنهضت الى الشيخ وقلت له ارجع الى مولانا المنصور فقال له وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى سألتك بالله أن تتركنى أذهب لطلب معيشتى فقال له الفارس لا أفعل ثم قدم به على المنصور ومثله بين يديه وهو جالس لم ينم ليلته تلك فقال المنصور للصقالبة فتشوه ففتشوه فلم يجدوا معه شيأ فقال فتشوا برذعة حماره فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا الى المنصور يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى ليضربوا ويقبلوا فى احدى النواحى الموطومة فلما انبلج الصبح أمر باخراج أولئك النصارى الى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم ثم ذكر هذا المؤرخ قصة الجوهرى التى قدمنا نقلها من مغرب ابن سعيد ولكنا رأينا اعادتها بلفظ هذا المؤرخ لانه أتم مساقا اذ قال عطفا على دهائه ومن ذلك قصة الجوهرى التاجر وذلك ان رجلا

التبابعة على حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك اليمن فيما يرد من هذا الكتاب وذلك

عليهم حمير وفيهم بعض موجود فى أخبار التبابعة ولهم حضر وبدو وبواديهم ترك لا تدرك كثرة ولا يقاومهم أحد من بوادى الاتراك وهم معظمون فى سائر أجناس الترك لان الملك كان منهم فى قديم الزمان وعند سائر اجناس الترك أن الملك سيعود اليهم ويرجع فيهم وللبلاد التبت خواص عجيبة فى هوائها وسهلها ومائها وجبلها ولا يزال الانسان أبدا بها ضاحكا فرحا مسرورا لا تعرض له الاحزان ولا الغموم ولا الافكار ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وانهارها وهى بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره ولا يكاد يرى فى هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز بل الطرب فى الشيوخ والكهول والشباب والاحداث عام وفى أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهى وأنواع ايقاع الرقص حتى ان الميت اذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب ولهم تحنن كثير من بعضهم على بعض والتبسم فيهم عام وكذلك يظهر فى سائر بلادهم وهذه البلاد تسمى بمن ثبت فيها ورتب

جوهريا

جوهريا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة فاخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ودفع الى التاجر الجوهرى صرته وكانت قطعة يمانية فاخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر فلما توسطها واليوم قائظ وعرقه منصب دعته نفسه الى التبرد فى النهر فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط فمرت حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحما وصاعدت فى الافق بها ذاهبة فقطعت الافق الذى تنظر اليه عين التاجر فقامت قيامته وعلم انه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة فأسرّ الحزن فى نفسه ولحقه لاجل ذلك علة اضطرب فيها ولما حضر الدفع الى التجار حضر الرجل لذلك بنفسه فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة فسأله المنصور عن شانه فاعلمه بقصته فقال له هلا أتيت الينا بحدثان وقوع الامر فكنا نستظهر على الحيلة فهل هديت الى الناحية التى أخذ الطائر اليها قال مرمشرقا على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك يعنى الرملة فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له جئنى بمشيخة أهل الرملة الساعة فمضى وجاءبهم سريعا فأمرهم بالبحث عمن غير حال الاقلال منهم سريعا وانتقل عن الاضاقة دون تدريج فتناظروا فى ذلك ثم قالوا يا مولانا ما نعلم الا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بايديهم ويتناولون السبق با قدامهم عجزا عن شراء دابة فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة فامر باحضاره من الغد وأمر التاجر بالغدو الى الباب فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور فاستدناه والتاجر حاضر وقال له سبب ضاع منا وسقط اليك ما فعلت به قال هو ذا يا مولاى وضرب بيده الى حجزة سراويله فاخرج الصرة بعينها فصاح التاجر طربا وكاد يطير فرحا فقال له المنصور صف لى حديثها فقال بينما أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة اذ سقطت أمامى فاخذتها وراقنى منظرها فقلت ان الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار فاجترت بها ودعتنى فاقتى الى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة وقلت أقل ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها فاعجب المنصور ما كان منه وقال للتاجر خذ صرتك وانظرها واصدقنى عن عددها ففعل وقال وحق راسك يا مولاى ما ضاع منها شئ سوى الدنانير التى ذكرها وقد وهبتها له فقال له المنصور نحن أولى بذلك منك ولا ننغص عليك فرحك ولولا جمعه بين الاصرار والاقرار لكان ثوابه موفورا عليه ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضا من دنانيره وللجنانى بعشرة دنانير ثوابا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده وقال لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لاوسعناه جزاء قال فاخذ التاجر فى الثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه وقال والله لأبثن فى الاقطار عظيم ملكك ولأبينن أنك تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها فلا تعتصم منك ولا تمتنع ولا تؤذى جارك فضحك المنصور وقال اقصد فى قولك يغفر الله لك فعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره وحيلته فى تفريج كربته * (ومن ذلك) غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب ٣ قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الارض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الاعلى فبها يحلفون واليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون ان القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهم يسمونه

وقد افتخر دعبل بن على الخزاعى بذلك فى قصيدته التى يناقض فيها الكميت ويفخر بقحطان على نزار فقال

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو ... وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سموا السهام بسمرقند ... وهم غرسوا هناك التبتينا

وسنذكر فى باب اخبار ملوك اليمن طرفا من اخبار ملوكهم ومن طاف منهم البلاد وبلاد التبت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من احدى جهاته ولارض الهند وخراسان ولمفاوز الترك ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات منعة وقوة وقد كانوا فى قديم الزمان يسمون ملوكهم تبعا لاتباع اسم تبع ملك اليمن ثم ان الدهر ضرب ضرباته فتغيرت لغاتهم عن الحميرية وحالت الى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الامم فسموا ملوكهم بخاقان وفى بلادهم الارض التى بها ظباء المسك التبتى الذى يفضل على الصينى بجهتين احداهما ان ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وانواع الافاويه وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من انواع حشائش الطيب التى ترعاه التبتية والجهة الاخرى ان اهل التبت لا يتعرضون الى اخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو به واهل الصين يخرجونه عن النوافج

٣ قوله ياقب الذى فى تقويم البلدان لابى الفداء ياقو اه مصححه

أخاه للزومه اياه و ياقب بلسانهم يعقوب وكان أسقفا ببيت المقدس فجعل يستقرى الارضين داعيا لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ثم عاد الى أرض الشام فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام فى قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلثمائة وهى غزوته الثامنة والاربعون ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة فى رجالهم وعلى أتم احتفالهم فصاروا فى عسكر المسلمين وركبوا فى المفاوزة سبيلهم وكان المنصور تقدم فى انشاء اسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجالة البحر وصنوف المترجلين وحمل الاقوات والاطعمة والعدة والاسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة الى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة فدخل فى النهر الى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه فعقد هنالك من هذه الاسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا فى التزود منه الى أرض العدو ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الاقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الاخضر ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق لم يهتد الادلاء الى سواه فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبر وابعده وادى منية وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأرضين وانتهت مغيرتهم الى دير قشان و بسيط بلنبو على البحر المحيط وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ اليها وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من اكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجا فى معبرين أرشد الادلاء اليهما ثم نهر أبلة ثم افضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل يقصده نساكهم من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعا وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة وذلك يوم الاربعاء لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الاذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله فجعل فى طريقه القصد على عمل برمند بن اردون يستقربه عائثا ومفسدا حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين فى عسكره فامر بالكف عنها ومر مجتازا حتى

و كثرة الانداء واختلاف الاهويه وان عدم من اهل الصين الغش فى مسلهم وأودع برانى الزجاج واحكم وأورد الى بلاد الاسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الامصار كان كالتبتى واجود المسك واطيبه ماخرج من الظباء بعد بلوغه النهاية فى النضج وذلك انه لافرق بين غزلاننا هذه و بين غزلان المسك فى الصورة والشكل واللون و القرن وانما تتبين تلك بأنياب لها كانياب الفيلة لكل ظبي نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان نحو الشبر واقل وأكثر فتنصب لها فى بلاد التبت والصين الحبائل والاشراك والشباك فيصطادونها وربما رموها بالسهام فيصرعونها فيقطعون عنها نوافجها والدم فى سررها خام لم ينضج وطرى لم يدرك فيكون لرائحته سهوكة فيبقى زمانا حتى تزول منه تلك الرائحة الكريهة و يستحيل بمواد من الهواء فيصير مسكا وسبيل ذلك سبيل الثمار اذا أبينت عن الاشجار وقطعت قبل استحكام نضجها فى شجرها واستحكام مواد ها فيه وخير المسك ما نضج فى وعائه وأدرك فى سره واستحكم فى حيوانه وتمام مواده فى ذلك أن

خرج

خرج على حصن بليقية من افتتاحه فاجاز هنالك القوامس بحملتهم على أقدارهم وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى واحدى وعشرين كساء من صوف البحر وكساءين عنبريين وأحد عشر سقلاطونا وخمس عشرة مريشا وسبعة انماط ديباج وثوبى ديباج رومى وفروى فنك ووافى جميع العسكر قرطبة غانما وعظمت النعمة والمنة على المسلمين ولم يجد بشنت ياقب الاشيخا من الرهبان جالسا على القبر فسأله عن مقامه فقال اونس يعقوب فأمر بالكف عنه قال وحدث شعلة قال قلت للمنصور ليلة اطال سهره فيها قد أفرط ولانافى السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب فقال يا شعلة الملك لا ينام اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور * وقد رأيت أن أذكر هنا أخبارا نقلتها من كتاب الازهار المنثورة فى الاخبار المأثورة (قال فى الزهرة التاسعة والعشرين) تقدم الى المنصور واترمار بن أبى بكر البربرى والى أحد جنود المغاربة وقد جلس للعرض والتمييز والميدان غاص بالناس فقال له بكلام يضحك الثكلى يا مولاى مالى ولك أسكنى فانى فى الفحص فقال وما ذاك يا واترمار وأين دارك الواسعة الاقطار فقال أخرجتنى عنها والله نعمتك اعطيتنى من الضياع ما انصب على منها من الاطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها وأنا بربرى مجوع حديث عهد بالبؤس اترانى أبعد القمح عنى ليس ذلك من رأيى فتطلق المنصور وقال لله درك من فذعي لعيك فى شكر النعمة ابلغ عندنا وآخذ بقلوبنا من كلام كل أشدق متزيد وبليغ متفنن واقبل على من حوله من أهل الاندلس فقال يا أصحابنا هكذا فلتشكر الايادى وتستدام النعم لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم والتشكى المبرح وأمر له بافضل المنازل الخالية * (وفى الموفية ثلاثين) مانصه أصبح المنصور صبيحة أحد وكان يوم راحة للخدمة الذى أعفوا فيه من قصد الخدمة فى مطر وابل غب أيام مثله فقال هذا يوم لا عهد بمثله ولا حيلة للمواظبين لقصدنا فى مكابدته فليت شعرى هل شذ أحد منهم عن التقرير فاغرب فى البكور اخرج وتامل يقوله لحاجبه فخرج وعاد اليه ضاحكا وقال يا مولاى على الباب ثلاثة من البرابرة ابو الناس بن صالح واثنان معه وهم بحال من البلل انما توصف بالمشاهدة فقال أوصلهم الى وعجل فدخلوا عليه فى حال الملاح بللا ونداوة فضحك اليهم وادنى مجلسهم وقال خبرونى كيف جئتم وعلى أى حال وصلتم وقد استكان كل ذى روح فى كنه ولاذ كل طائر بوكره فقال له أبو الناس بكلامه يا مولانا ليس كل التجار قعد عن سوقه واذا عذر التجار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر وبادرنا كما بالبدر ومن غير رؤس الاموال وهم يتناوبون الاسواق على أقدامهم ويذيلون فى قصدها ثيابهم ونحن نأتيك على خيلك ونذيل على صهواتها ملابسك ونجعل الفضل فى قصدك مضمونا اذ جعله أولئك طمعا ورجاء فترى لنا أن نجلس عن سوقنا هذا فضحك المنصور ودعا بالكسا والصلات فدفعت لهم وانصرفوا مسرورين بغدوتهم * (وفى الزهرة الرابعة والاربعين) مانصه كان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر فتى من أهل الادب قد رقت

الصخور والاحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذا بذلك فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الاحجار كانفجار الخراج والدمل ونضج ما فيه عند ترادف المواد عليه فيجد لخروجه لذة فاذا فرغ ما فى نافجته اندمل حينئذ ثم اندفعت اليه مواد من الدم ويجتمع ثانية كما كان بدأ فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الاحجار والجبال فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والاحجار وقد أحكمته المواد وانضجته الطبيعة فى حيوانه وجففته الشمس وأثر فيه الهواء فيأخذونه فذلك أفضل المسك فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم فذلك الذى تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم ويحمله التجار فى النادر من بلادهم والتبت ذو مدن كثيرة فيضاف مسك كل ناحية اليها وقد انقادت الى ملكه ملوك الصين والترك والهند والزنج وسائر ملوك العالم وان منزلته فيها كمنزلة القمر فى الكواكب لان اقليمه أشرف الاقاليم

ولانه أكثر الملوك مالا وأحسنهم طبعا وأكثرهم سياسة وأثبتهم قدما وهذا وصف ملوك هذا الاقليم فيما مضى الى هذا

حاله فى الطلب فتعلق بكتاب العمل واختلف الى الخزانة مدة حتى قلد بعض الاعمال فاستهلك كثيرا من المال فلما اضم الى الحساب ابرز عليه ثلاثة آلاف دينار فرفع خبره الى المنصور فامر باحضاره فلما مثل بين يديه ولزم الاقرار بما برز عليه قال له يافاسق ما الذى جراك على مال السلطان تنتهبه فقال قضاء غلب الرأى وفقر أفسد الامانة فقال المنصور والله لاجعلنك نكالا لغيرك ليحضر كبل وحداد فاحضر فكبل الفتى وقال احملوه الى السجن وأمر الضابط بامتحانه والشدة عليه فلما قام أنشأ يقول

اواه أواه وكم ذا ارى * أكثر من تكرار اواه
مالامرئ حول ولاقوة * الحول والقوة لله

فقال المنصور ردوه فلما رد قال أتمثلت أم قلت قال بل قلت فقال حلوا عنه كبله فلما حل عنه أنشأ يقول

أماترى عفو أبى عامر * لابد ان يتبعه منه
كذلك الله اذا ما عفا * عن عبده أدخله الجنه

فأمر باطلاقه وسوّغه ذلك المال وأبرأه من التبعة فيه *(وفى الخامسة والاربعين) عرض على المنصور بن أبى عامر اسم أحد خدمه فى جملة من طال سجنه وكان شديد الحقد عليه فوقع على اسمه بان لاسبيل الى اطلاقه حتى يلحق بامه الهاويه وعرف الرجل بتوقيعه فاهتم واغتم وأجهد نفسه فى الدعاء والمناجاة فأرق المنصور اثر ذلك واستدعى النوم فلم يقدر عليه وكان يأتيه عند تنويمه آت كريه الشخص عنيف الاخذ يأمره باطلاق الرجل ويتوعده على حبسه فاستدفع شأنه مرارا الى أن علم انه نذير من ربه فانقاد لامره ودعا بالدواة فى مرقده فكتب باطلاقه وقال فى كتابه هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر وتحدث الناس زمانا بما كان منه *(وفى السادسة والاربعين) مانصه انتهت هيبة المنصور بن ابى عامر وضبطه للجند واستخدام ذكور الرجال وقوّام الملك الى غاية لم يصلها ملك قبله فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الاطراق حتى ان الخيل لتتمثل اطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد بحيث ظن ان لحظ المنصور لا يناله فقال على بشاهر السيف فمثل بين يديه لوقته فقال ماحملك على أن شهرت سيفك فى مكان لايشهر فيه الاعن اذن فقال انى أشرت به الى صاحبى مغمدا فذلق من غمده فقال ان مثل هذا لايسوغ بالدعوى وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودى عليه بذنبه *(وفى السابعة والاربعين) ان المنصور كان به داء فى رجله واحتاج الى الكى فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته فجعل يأمر وينهى ويفرى الفرى فى أموره ورجله تكوى والناس لايشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث *(وأخباره رحمه الله تعالى) تحتمل مجلدات فلنمسك العنان على أنا ذكرنا فى الباب الرابع والسادس من هذا الكتاب جملة من أخباره رحمه الله تعالى فليراجع الى آخره *(وفى الثامنة والاربعين) وكان مما أعين به المنصور على المصحفى ميل الوزراء اليه وايثارهم له عليه وسعيهم فى

العالم منزلة القلب من جسد الانسان والواسطة من القلادة ثم يتلوه ملك الهند وهو ملك الحكمة وملك الفيلة لان عند ملوك الاكابر أن الحكمة من الهند بدؤها ثم يتلوه فى المرتبة ملك الصين وهو ملك الرعاية والسياسة واتقان الصنعة وليس فى ملوك العالم أكثر رعاية وتفقدا من ملك الصين لرعيته من جنده وعوامه وهو ذو بأس شديد وقوة ومنعة له الجنود المستعدة والكراع والسلاح ويرزق جنده كفعل ملوك بابل ثم يتلوه ملك الصين ملك من ملوك الترك صاحب مدينة كوسان وهو ملك الطغرغر من الترك ويدعى ملك السباع وملك الخيل اذ ليس فى ملوك العالم أشد باسا من رجاله ولا أشد استشادا منه على سفك الدماء ولا أكثر خيلا منه ومملكته فرز بين بلاد الصين ومفاوز خراسان ويدعى بالاسم الاعم أبرجان وللترك ملوك كثيرة واجناس مختلفة ولا تنقاد الى ملكه الا انه ليس فيهم من يدانى ملكه ثم ملك الروم ويدعى ملك الرجال وليس فى ملوك العالم أصبح وجوها من رجاله ثم ان ملوك العالم تتفاوت مراتبها ولا تتساوى وقد قال ذو عناية بأخبار

ترقيه وأخذهم بالعصبية فيه فانها وان لم تكن حمية أعرابية فقد كانت سلفية سلطانية يقتفى القوم فيها سبيل سلفهم ويحفلون بها ابتذال شرفهم غادروها اسيرة وتخلقوها عادة أثيرة تشاح الخلف فيها تشاح سلفهم أهل الديانة وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ورأوا ان أحدا لا يلحق فيها غاية ولا يتعاقد لها راية فلما اصطفى الحكم المستنصر بالله جعفر بن عثمان واصطنعه ووضعه من أثرته حيث وضعه وهو نزيع بينهم ونابغ فيهم حسدوه وذموه وخصوه بالمطالبة وعموه وكان أسرع صنف الطائفة من أعالى الوزراء وأعاظم الدولة على معاودة المنصور عليه والانحراف عنه آل أبى عبيدة وآل شهيد وآل فطيس من الخلفاء وأصحاب السدانة من أولى الشرف والامانة وكانوا فى الوقت ازمة الملك وقوام الخدمة ومصابيح الامة وأغير الخلق على جاه وحرمة فأحظوا محمد بن أبى عامر مشايعة وبعض أسبابه الجامعة متابعة وشادوا ابناءه وقادوا الى عنصره سناءه حتى بلغ الامل والتحف بعناه وا كتحل وعند التئام هذه الامور لابن أبى عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة وأيقن بالنكبة وزوال الحال وانتقال الرتبة وكف عن اعتراض محمد وشركته فى التدبير وانقبض الناس من الرواح اليه والتبكير وانثالوا على ابن أبى عامر فخف موكبه وغار من سماء العز كوكبه وتوالى عليه سعى ابن أبى عامر وطلبه الى أن صار يغدو الى قرطبة ويروح وليس بيده من الحجابة الا مجرد اسمها وابن ابى عامر مشتمل على رسمها حتى محاه وهتك ظله وأضحاه قال ابن اسمعيل رأيته يساق الى مجلس الوزارة للمحاسبة راجلا فأقبل يدرم وجوارحه باللواعج تضطرم وواثق الضاغط ينهره والزمع يقهره والبهر والنفس قد هاضاه وقصر اخطاه فسمعته يقول رفقا بى فستدرك ماتحبه وتشتهيه وترى ما كنت ترتجيه ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من اطال عليه حومه

لا تأمنن من الزمان تقلبا * ان الزمان بأهله يتقلب
ولقد أرانى والليوث تخافنى * فأخافنى من بعد ذاك الثعلب
حسب الكريم مذلة ومهانة * أن لا يزال الى لئيم يطلب

فلما بلغ المجلس جلس فى آخره دون أن يسلم على أحد أو يومئ اليه بعين أو يد فلما أخذ مجلسه تسرع اليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعنفه واستخفاه وأنكر عليه ترك السلام وجفاه وجعفر معرض عنه الى أن كثر القول منه فقال له يا هذا جهلت المبرة فاستجهلت معلمها وكفرت النعم فقصدت بالاذى ولم ترهب مقدمها ولو أتيت نكرا لكان غيرك أدرى وقد وقعت فى أمر ما أظنك تخلص منه ولا يسعك السكوت عنه ونسيت الايادى الجميلة والمبرات الجليلة فلما سمع محمد بن حفص ذلك من قوله قال هذا البهت بعينه وأى أياديك الغر التى مننت بها وعنيت اداء واجبها أيد كذا أم يد كذا وعين أشياء أنكرها منه أيام امارته وتصرف الدهر طوع اشارته فقال جعفر هذا ما لا يعرف والحق الذى لا يرد ولا يصرف رفعى القطع عن يمناك وتبليغى لك الى مناك فأصر محمد بن حفص على الجحد فقال جعفر أنشد الله من له علم بما أذكره الا اعترف به فلا ينكره وأنا أحوج الى السكوت ولا تحجب دعوتى فيه عن الملكوت فقال الوزير أحمد بن عباس قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن

الدار داران ايوان وغمدان والملك ملكان ساسان وقحطان والارض فارس والاقليم بابل والاسلام مكة والدنيا خراسان والجانبان العليان اللذا حسنا منها بخارى وبلخ الشاهد اران والبيلقان وطبرستان مادورها والصين سروانها والجيل جيلان قد رتب الناس فيها فى مراتبهم فرزبان وبطريق وطرخان للفرس كسرى وللروم القياصر وللحبش النجاشى وللاتراك خاقان وصاحب صقلية وافريقية من بلاد المغرب قبل ظهور الاسلام كان يدعى جرجير وصاحب الاندلس كان يدعى لزريق هذا كان اسم ملوك الاندلس وقد قيل انهم كانوا من الاسبان وهم أمة من ولد يافث بن نوح واتصلت هنالك والاشهر عند من سكن الاندلس من المسلمين أن لزريق كان من ملوك الاندلس الجلالقة وهم نوع من الافرنجة وأخو لزريق الذى كان بالاندلس قتله طارق مولى موسى بن نصير حين افتتح بلاد الاندلس ودخل الى مدينة طليطلة وكانت

وغير هذا أولى بك وأنت فيما أنت فيه من محنتك وطلبك فقال أحرجنى الرجل فتكلمت وأحوجنى الى ما به أعلمت فأقبل الوزير ابن جهور على محمد بن حفص وقال اسأت الى الحاجب وأوجبت عليه غير الواجب أوما علمت أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لانه ان فعل ألزمهم الرد لقوله تعالى واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها فان فعلوا طاف بهم من انكار السلطان ما يخشى ويخاف لانه تأنيس لمن أوحش وتأمين لمن أخاف وان تركوا الرد اسخطوا الله فصار الامساك أحسن ومثل هذا لا يخفى على أبى الحسن فانكسر ابن حفص وخجل مما أتى به من النقص وبلغه أن قوما توجعوا له وتفجعوا مما وصله فكتب اليهم

أحنّ الى أنفاسكم فأظنها * بواعث أنفاس الحياة الى نفسى
وان زمانا صرت فيه مقيدا * لاثقل من رضوى وأضيق من أمس

انتهى ما ترجم به المنصور بن أبى عامر ولنرجع فنقول ولما توفى المنصور قام بالامر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه فى السياسة والغزو وكانت أيامه اعيادا دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيها بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفرا الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلثمائة فى المحرم وقيل سنة ثمان وتسعين وكاتبه المعز بن زيرى ملك مغراوة بعد ان استرجع فاسا والمغرب اثر موت أبيه فكتب اليه العهد على المغرب وثارت الطوائف فى ممالكهم وتحركت الجلالقة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم (قال ابن خلدون) ثم قام بالامر بعده أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وقيل بالمأمون وجرى على سنن أبيه وأخيه فى الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالملك دونه ثم ثاب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده فاجابه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوما مشهودا فكتب عهده من انشاء أبى حفص بن برد ما نصه هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين الى الناس عامة وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن امعن النظر وأطال الاستخارة وأهمه ما جعل الله اليه من الامامة وعصب به من أمر المؤمنين واتقى حلول القدر بما لا يؤمن وخاف نزول القضاء بما لا يصرف وخشى ان هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الامة علما تاوى اليه وملجأ تنعطف عليه أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطا ساهيا عن أداء الحق اليها ونقص عند ذلك من احياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند هذه الامر اليه ويعوّل فى القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته بعد اطراح الهوى والتحرى للحق والزلفى الى الله جل جلاله بما يرضيه وبعد أن قطع الاواصر واسخط الاقارب فلم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ويفوض اليه الخلافة بعده لفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مرتبته وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه من المأمون الغيب الناصح الجيب أبى المظفر عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفقه الله اذ كان أمير المؤمنين أيده الله تعالى قد ابتلاه واختبره ونظر فى شأنه واعتبره فرآه مسارعا فى الخيرات سابقا فى الحلبات مستوليا على الغايات جامعا للمأثرات ومن كان المنصور

اباه

قصبة الاندلس ودار مملكتهم ويشقها نهر عظيم يدعى ناحة يخرج من بلاد الجلالقة والوسقيد وهى أمة عظيمة لهم ملوك وهم حرب لاهل الاندلس كالجلالقة والافرنجة ويصب هذا النهر فى البحر الرومى وهو موصوف بأنه من أنهار العالم وعليه على بعد من طليطلة قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف بنتها الملوك السالفة وهى من البنيان المذكور والموصوف أعجب من قنطرة سنجة من الثغر الجزرى مما يلى سميساط من بلاد سرحة ومدينة طليطلة ذات منعة وعليها اسوار منيعة وأهلها بعد ان فتحت وصارت لبنى امية قد كانوا عصوا على الامويين فاقامت مدة سنين ممتنعة لا سبيل للامويين اليها فلما كان بعد الخمس عشرة وثلثمائة فتحها عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وعبد الرحمن هذا هو صاحب الاندلس فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وقد كان غير كثيرا من بنيان هذه المدينة حين افتتحها وصارت دار مملكة الاندلس قرطبة الى هذا الوقت ومن قرطبة الى مدينة طليطلة نحو من سبع مراحل ومن قرطبة الى البحر مسيرة نحو

أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه ويحوى من خلال الخير ما حواه مع أن امير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم ووعاه من مخزون الاثر يرى أن يكون ولى عهده القحطانى الذى حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاصى وأبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه فلما استوى له الاختبار وتقابلت عنده فيه الآثار ولم يجد عنه مذهبا ولا الى غيره معدلا خرج اليه من تدبير الامور فى حياته وفوض اليه الخلافة بعد وفاته طائعا راضيا مجتهدا وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنجزه وأنفذه ولم يشرط فيه مثنوية ولا خيارا واعطى على الوفاء به فى سره وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول وأشهد الله على ذلك والملائكة وكفى بالله شهيدا وأشهد وهو جائز الامر ماضى القول والفعل بمحضر من ولى عهده المأمون أبى المظفر عبد الرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى وقبوله ما قلده والزامه نفسه ما ألزمه وذلك فى شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وثلثمائة وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم وتسمى بعدها بولى العهد * ونقم عليه أهل الدولة ذلك فكان فيه حتفه وانقراض دولته ودولة قومه وكان اسرع الناس كراهة لذلك الامويين والقرشيين فغصوا بامره واسفوا من تحويل الامر جملة من المضرية الى اليمنية فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى بعض رجالاتهم واجمعوا أمرهم فى غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة فى غزاة من صوائفه ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلثمائة وخلعوا هشاما المؤيد * وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن امير المؤمنين الناصر لدين الله من اعقاب الخلفاء ولقبوه المهدى بالله وطار الخبر الى عبد الرحمن الحاجب بن المنصور بمكانه من الثغر فانفض جمعه وقفل الى الحضرة مدلا بمكانه زعيما بنفسه حتى اذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدى القائم بالامر وأغروه بعبد الرحمن الحاجب لكونه ماجنا مستهترا غير صالح للامر فاعترضه منهم من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدى والى الجماعة وذهبت دولة العامريين كأن لم تكن ولله عاقبة الامور وفى المهدى يقول بعضهم

قد قام مهدينا ولكن * بملة الفسق والمجون
وشارك الناس فى حريم * لولاه ما زال بالمصون
من كان من قبل ذا أجا * فاليوم قد صار ذا قرون

وكان رؤساء البربر وزناتة لحقوا بالمهدى لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره وكانت الاموية تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين وتنسب تغلب المنصور وغيره على الدولة اليهم فسخطتهم القلوب وخزرتهم العيون ولولا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس ولفظت ألسنة الدهماء من اهل المدينة بكراهتهم وأمر المهدى أن لا يركبوا ولا يتسلحوا ورد بعض رؤسائهم فى بعض الايام من باب القصر فانتهبت العامة دورهم وشكا

من ثلاثة أيام ولهم على بحر تونس من الساحل مدينة يقال لها اشبيلية وبلاد الاندلس منيرة عمائرها ومدنها نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة وتدعى بنو أمية الخلائف ولا يخاطبون بالخلفاء لان الخلافة لا يستحقها عندهم الا من كان مالكا للحرمين غير أنه يخاطب بامير المؤمنين وقد كان عبد الرحمن ابن معاوية أو هشام بن عبد الملك بن مروان سار الى الاندلس فى سنة تسع وثلاثين ومائة فملكها ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر ثم هلك فملكها ابنه هشام ابن عبد الرحمن سبع سنين ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحوا من عشرين سنة وولده ولاتها الى اليوم على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمن بن محمد وولى عبد الرحمن فى هذا الوقت فتاه الحكم وكان أحسن الناس سيرة وأجلهم عدلا وقد كان عبد الرحمن صاحب الاندلس فى هذا الوقت المقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلثمائة فى أزيد من مائة ألف فارس من الناس فنزل على دار مملكة الجلالقة وهى مدينة يقال لها سمورة عليها سبعة اسوار من عجيب البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة بين الاسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة فافتتح منها سورين ثم ان أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن أدرك الاحصاء

بعضهم الى المهدى ما أصابهم فاعتذر وقتل من اتهم من العامة فى أمرهم وهو مع ذلك مظهر لبغضهم مجاهر بسوء الثناء عليهم وبلغهم انه يريد الفتك بهم فتمشت رجالاتهم وأسروا نجواهم واشتوروا فى تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر وفشا فى الخاصة حديثهم فعوجلوا عن مرامهم ذلك وأغرى بهم السواد الاعظم فثار وابهم وأزعجوهم عن المدينة وتقبض على هشام واخيه أبى بكر واحضرا بين يدى المهدى فضرب أعناقهما ولحق سليمان ابن اخيهما الحكم بجنود البربر وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة وتوامروا فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى ثغر طليطلة فاستجاش بابن ادفونش ثم نهض فى جموع البرابرة والنصرانية الى قرطبة وبرز اليه المهدى فى كافة أهل البلد وخاصة الدولة فكانت الدائرة عليهم واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفا وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة ولحق المهدى بطليطلة واستجاش بابن أدفونش ثانية فنهض معه الى قرطبة وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من ظاهر قرطبة ودخل قرطبة أعنى المهدى وملكها وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا فى البسائط ينهبون ولا يبقون على احد ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء فخرج المهدى ومعه ابن أدفونش لاتباعهم فكروا عليهم فانهزم المهدى وابن ادفونش ومن معه من المسلمين والنصارى واتبعهم المستعين الى قرطبة فأخرج المهدى هشاما المؤيد للناس وبايع له وقام بأمر حجابته ظنا منه ان ذلك ينفعه وهيهات وحاصرهم المستعين والبربر فخشى أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم فاغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدى وان الفتنة انما جاءت من قبله وتولى كبر ذلك واضح العامرى فقتلوا المهدى واجتمع الكافة على المؤيد وقام واضح بحجابته واستمر الحصار ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيأ الى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة وعدمت المرافق وجهدهم الحصار وبعث المستعين الى أهل ادفونش يستعديهم لمظاهرته فبعث اليهم هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتاله التى كان المنصور افتتحها فسكن عن مظاهرتهم عزم ادفونش ولم يزل الامر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة وقتل هشام سرا ولحق بيوتات قرطبة معرة فى نسائهم وابنائهم وظن المستعين أن قد استحكم امره وتوثبت البرابرة والعبيد على الاعمال فولوا المدن العظيمة وتقلدوا البلاد الواسعة مثل رباديس بن حيوس فى غرناطة والبرزالى فى قرمونة واليفرنى فى رندة وهرزون فى شريش وافترق شمل الجماعة بالاندلس وصار الملك طوائف فى آخرين من اهل الدولة مثل ابن عباد باشبيلية وابن الافطس ببطليوس وابن ذى النون بطليطلة وابن أبى عامر ببلنسية وابن هود بسرقسطة ومجاهد العامرى بدانية والجزائر قال ابن خلدون وكان مائلا لبنى حمود يهجو سليمان المستعين

لارحم الله سليمانكم * فانه ضد سليمان
ذاك به غلت شياطينها * وحل هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا * لهلك سكان واوطان

ومن عرف أربعين ألفا وقيل خمسين ألفا وكانت للجلالقة والوسكيد على المسلمين وآخر ما كان بايدى المسلمين من مدن الاندلس وثغورها مما يلى الافرنجة مدينة أربونة خرجت عن أيدى المسلمين من مدائن الاندلس وثغورها سنة ثلاثين وثلثمائة مع غيرها مما كان فى أيديهم من المدن والحصون وبقى ثغر المسلمين فى هذا الوقت وهو سنة ست وثلاثين وثلثمائة من شرقى الاندلس طرطوشة وعلى ساحل بحر الروم مما يلى طرطوشة آخذا فى الشمال افراغة على نهر عظيم ثم لاردة ثم بلغنى عن هذه الثغور أنها تلاقى الافرنجة وهى أضيق مواضع الاندلس وقد كان قبل الثلثمائة ورد الى الاندلس مراكب فى البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم زعم أهل الاندلس أنهم ناس من المجوس تطرأ اليهم فى هذا البحر فى كل مائتين من السنين وأن وصولهم الى بلادهم من خليج يعترض من بحر أوقيانوس وليس بالخليج الذى عليه المنارة النحاس وأرى والله أعلم أن هذا الخليج متصل ببحر مانطش ونيطش وان هذه الامة هم الروس الذين قدمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب اذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر أوقيانوس غيرهم وقد أصيب فى البحر الرومى فيما *(وكان

*(وكان من أعظم الاسباب) فى فساد دولة المستعين أنه قال هذه الابيات مستريحا بها الى خواصه وهى قوله

حلفت بمن صلى وصام وكبرا * لاغمدها فيمن طغى وتجبرا
وأبصر دين الله تحيا رسومه * فيبدل ماقد كان منه وغيرا
فواعجبا من عبشمى مملك * برغم العوالى والمعالى تبربرا
فلو أن أمرى بالخيار نبذتهم * وحاكمتهم للسيف حكما محررا
فاما حياة تستلذ بفقدهم * واما حمام لاترى فيه مأزرا

وقد سلك هذا المسلك المرتضى المروانى فقال

قد بلغ البربر فينا بنا * ماأفسد الاحوال والنظما
كالسهم للطائر لولا الذى * فيه من الريش لما اصمى
قوموا بنا فى شأنهم قومة * تزيل عنا العار والرغما
اما بها نملك أولا نرى * مايرجع الطرف به أعمى

وكان على بن حمود الحسنى وأخوه قاسم من عقب ادريس ملك فاس وبانيها قد أجازوا مع البربر من العدوة الى الاندلس فدعوا الانفسهم واعصوصب عليهم البربر فملكوا قرطبة سنة سبع وأربعمائة وقتلوا المستعين ومحوا ملك بنى أمية واتصل ذلك فى خلف منهم سبع سنين ثم رجع الملك الى بنى أمية وكان المستعين المذكور أديبا بليغا ومن شعره يعارض هرون الرشيد فى قوله *ملك الثلاث الآنسات عنانى* الابيات قوله

عجبا يهاب الليث حد سنانى * وأهاب لحظ فواتر الاجفان *
واقارع الاهوال لامتهيبا * منها سوى الاعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى * زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى * من فوق أغصان على كثبان
حاكمت فيهن السلو الى الهوى * فقضى بسلطان على سلطانى
هذى الهلال وتلك بنت المشترى * حسنا وهذى اخت غصن البان
فأبحن من قلبى الحمى وتركننى * فى عز ملكى كالاسير العانى
لاتعذلوا ملكا تذلل فى الهوى * ذل الهوى عز وملك ثانى
ماضر أنى عبدهن صبابة * وبنو الزمان وهن من عبدانى
ان لم اطع فيهن سلطان الهوى * كلفا بهن فلست من مروان

(وولى) الامر بعده ابن حمود الحسنى تلقب بالناصر وخرج عليه العبيد وبعض المغاربة وبايعوا المرتضى أخا المهدى ثم اغتيل المرتضى واستقام الملك لعلى بن حمود نحو عامين الى أن قتلته صقالبته بالحمام سنة ثمان وأربعمائة فولى مكانه أخوه القاسم وتلقب بالمأمون ونازعه الامر بعد أربع سنين من خلافته يحيى ابن اخيه وكان على سبتة فاجاز الى الاندلس سنة عشر واحتل بمالقة وكان أخوه ادريس بها منذ عهد أبيهما فبعثه الى سبتة ثم زحف يحيى الى قرطبة فملكها سنة ثنتى عشرة وأربعمائة وتلقب المعتلى وفر عمه المأمون الى اشبيلية وبايع له

بين جزيرة أقريطش الواح المراكب الساج المثقبة المخيطة بليف النارجيل من مراكب قد عطبت تقاذفت بها الامواج فى مياه البحار وهذا لا يكون الا فى البحر الحبشى لان مراكب البحر الرومى والغربى كلها بالمسامير ومراكب الحبش لايثبت فيها الحديد لان ماء البحر يذيب الحديد فتدق المسامير فى الالواح وتضعف فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلا منها وطليت بالشحوم والنورة فهذا يدل والله أعلم على اتصال البحار وأن البحر مما يلى الصين وبلاد السلى يدور على بلاد الترك و يفضى الى بحار المغرب من بعض خلجان أوقيانوس المحيط وقد كان وجد بساحل بلاد الشام عنبر قذف به البحر وهذا من المستنكر فى البحر الرومى الذى لم يعهد فيه فى قديم الزمان مثل ذلك ويمكن أن يكون سبيل وقوع العنبر الى هذا البحر سبيل ماذكرناه من الواح مراكب البحر الصينى والله أعلم بكيفية ذلك وعلمه ولبحر المغرب وماقرب منه من عمائر السودان وأقاصى أرض المغرب أخبار عجيبة وقد ذكر ذوو العناية باخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر السودان كلها مسيرة سبع سنين وان أرض مصر جزء واحد من ستين جزأ من أرض السودان وأن أرض السودان جزء واحد من الارض كلها وان الارض

كلها مسيرة خمسمائة سنة ثلث عمران ٢٠٢ مسكون مأهول وثلث برارى غير مسكون وثلث بحار وتتصل أقاصى السودان

القاضى ابن عباد واستجاش بعض البرابرة ثم رجع الى قرطبة سنة ثلاث عشرة وملكها ثم لحق المعتلى بمكانه من مالقة وتغلب على الجزيرة الخضراء وتغلب اخوه ادريس على طنجة من وراء البحر وكان المأمون يعتدها حصنا لنفسه وفيها ذخائره فلما بلغه الخبر اضطرب وثار عليه أهل قرطبة ونقضوا طاعته وخرج لحاصرهم فدافعوه ولحق باشبيلية فمنعوه وكان بها ابنه فأخرجوه اليه وضبطوا البلد هم واستبد ابن عباد بملكها ولحق المأمون بشريش ورجع عنه البربر الى يحيى المعتلى ابن اخيه فبايعوه سنة خمس عشرة وزحف الى عمه المأمون فتغلب عليه ولم يزل عنده أسيرا وعند أخيه ادريس بمالقة الى أن هلك بمحبسه سنة سبع وعشرين وقيل انه خنق كما يأتى واستقل المعتلى بالامر واعتقل بنى عمه القاسم وكان المستكفى من الامويين استولى على قرطبة فى هذه المدة عندما أخرج أهلها العلوية ثم خلع أهل قرطبة المستكفى الاموى سنة ست عشرة وصاروا الى طاعة المعتلى واستعمل عليهم ابن عطاف من قبله ثم نقضوا سنة سبع عشرة وصرفوا عاملهم وبايعوا المعتلى الاموى أخا المرتضى وبقى المعتلى يردد لحصارهم العساكر الى ان اتفقت الكلمة على اسلام الحصون والمدائن له فعلا سلطانه واشتد أمره الى أن هلك سنة تسع وعشرين اغتاله أصحابه بدسيسة ابن عباد الثائر باشبيلية فاستدعى أصحابه أخاه ادريس بن على من سبتة وملكوه ولقبوه المتأيد وبايعته رندة وأعمالها والمرية والجزيرة الخضراء وبعث عساكره لحرب ابى القاسم اسمعيل بن عباد والد المعتضد بن عباد فجاؤه برأسه بعد حروب وهلك ليومين بعد ذلك سنة احدى وثلاثين وبويع ابنه يحيى ولم يتم له أمر وبويع حسن المستنصر بن المعتلى وفر يحيى الى قمارش فهلك بها سنة أربع وثلاثين ويقال انه قتله نجا وهلك حسن مسموما بيد ابنة عمه ادريس ثأرت منه بأخيها وكان ادريس بن يحيى المعتلى معتقلا بمالقة فأخرج بعد خطوب وبويع بها فأطاعته غرناطة وقرمونة ولقب العالى وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة بالمغرب التى قالها فيه ابو زيد عبد الرحمن بن مقانا القنداقى الاشبونى من شعراء الذخيرة وهى

البرق لائح من أندرين * ذرفت عيناك بالماء المعين
لعبت أسيافه عارية * كمخاريق بأيدى اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين * ولقلبى زفرات وانين
وأنا جى فى الدجى عاذلتى * ويك لا أسمع قول العاذلين
عيرتنى بسقام وضنى * ان هذين لدين العاشقين
قد بدا الى وضح الصبح المبين * فاسقنيها قبل تكبير الاذين
اسقنيها مرة مشمولة * لبثت فى دنها بضع سنين
نثر المزج على مفرقها * درر عامت فعادت كالبرين
مع فتيان كرام نجب * يتهادون رياحين المجون
شربوا الراح على خد رشا * نور الورد به والياسمين
وجلت آياته عامرة * سبج الشعر على عاج الجبين
لوت الصدغ على حاجبه * ضمة اللام على عطفة نون

العراق بآخر بلاد ولد ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على ابن أبى طالب عليهم السلام من أرض المغرب وهى بلاد تنيس وتاهرت وبلاد فاس ثم السوس الادنى وبينه وبين بلاد القيروان نحو ألفى ميل وثلثمائة ميل وبين السوس الادنى والسوس الاقصى من المسافة نحو من عشرين يوما عمائر متصلة الى أن تتصل بوادى الرمل والقصر الاسود ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل التى فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التى سار اليها موسى بن نصير فى أيام عبد الملك بن مروان ورأى فيها ما رأى من العجائب وقد ذكر ذلك فى كتاب يتداوله الناس وقد قيل أن ذلك فى مفاوز تتصل ببلاد الاندلس وهى الارض الكبيرة وقد كان ميمون ابن عبد الرحمن بن رستم الفارسى وهو أباضى المذهب وهو الذى انشأ فى ذلك البلد مذهب الخوارج وقد قيل انهم من بقايا الاسنان عمر تلك الديار وكانت له حروب مع الطالبيين وقد ذكرنا فيما يرد من هذا الكتاب تنازع الناس فى الاسنان ومن قال انهم من الفرس نازلة من بلاد أصبهان وفى هذا الصقع

فترى

فترى غصناء على دعص نقا * وترى ليلا على صبح مبين
وسيسقون اذا ماشربوا * باباريق وكأس من معين
ومصابيح الدجى قد طفئت * فى بقايا من سواد الليل جون
وكأن الطل مسك فى الثرى * وكأن الطل درفى الغصون
والندى يقطر من نرجسه * كدموع أسكبتهن الجفون
والثريا قد هوت من أفقها * كقضيب زاهر من ياسمين
وانبرى جنح الدجى عن صبحه * كغراب طارعن بيض كنين
وكأن الشمس لما أشرقت * فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على * بن حمود أمير المؤمنين
ملك ذو هيبة لكنه * خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه * ادخلوها بسلام آمنين
فاذا ما رفعت راياته * خفقت بين جناحى جبرئين
واذا أشكل خطب معضل * صدع الشك بمصباح اليقين
فبيسراه يسار المعسرين * وبيمناه لواء السابقين
يابنى أحمد ياخير الورى * لابيكم كان وفد المسلمين
نزل الوحى عليه فاحتبى * فى الدجا فوقهم الروح الامين
خلقوا من ماء عدل وتقا * وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقتبس من نوركم * انه من نور رب العالمين

قيل انه أنشده اياها من وراء حجاب اقتفاء لطريقة خلفاء بنى العباس فلما بلغ الى قوله

انظرونا نقتبس من نوركم * انه من نور رب العالمين

أمر حاجبه أن يرفع الحجاب وقابل وجهه وجه الشاعر دون حجاب وأمر له باحسان جزيل فكان هذا من أنبل مايحكى عنه وخلع العالى سنة ثمان وثلاثين وولى ابن عمه محمد بن ادريس بن على وتلقب بالمهدى وتوفى سنة أربع وأربعين وبويع ادريس بن يحيى بن ادريس ولقب الموفق ولم يخطب له بالخلافة وزحف العالى ادريس المخلوع الممدوح بالقصيدة السابقة وكان بقمارش فدخل عليه مالقة وأطلق ايدى عبيده عليها لحقده عليهم ففر كثير منهم وتوفى العالى سنة ست أو سبع وأربعين وبويع محمد بن ادريس ولقب المستعلى ثم سار اليه باديس بن حبوس سنة تسع وأربعين وأربعمائة فتغلب على مالقة وسار محمد الى المرية مخلوعا ثم استدعاه أهل المغرب الى مليلة وبايعوه سنة ست وخمسين وتوفى سنة ستين وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة أربع عشرة فرمن الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها وتلقب بالمعتصم الى أن هلك سنة أربعين ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق الى أن هلك سنة خمسين وصارت الجزيرة للمعتضد بن عباد ومالقة لابن حبوس مزاحما لابن عباد وانقرضت دولة الأشراف الحموديين من الاندلس بعد أن كانوا يدعون الخلافة وأما قرطبة فان أهلها لما قطعوا دعوة الحموديين بعد سبع سنين من ملكهم وزحف

من بلاد المغرب خلق من الصفرية الخوارج لهم مدن ممدودة مثل مدينة بدعية وفيها معدن كبير من فضة وهو مما يلى الجنوب ويتصل ببلاد الحبشة والحرب بينهم سجال وقد ذكرنا فى كتابنا أخبار الزمان خبر المغرب ومدنه ومن سكنها من الخوارج الاباضية والصفرية ومن سكن المغرب من المعتزلة ومابينهم وبين الخوارج من الحروب وذكرنا خبر الاغلب التميمى وتولية المنصور له على المغرب ومقامه ببلاد افريقية وغيرها من أرض المغرب وماكان من أمره فى أيام الرشيد وتداول ولده ببلاد أفريقية وغيرها الى أن انتهى الامر الى أبى منصور زيادة الله بن عبد الله ابن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم ابن محمد بن الاغلب بن سالم بن سوادة فأخرجه عنها أبو عبد الله المحتسب الصوفى الداعية لصاحب المهدية حين ظهر من كتامة وغيرها من أجيال البربر وذلك فى سنة سبع وتسعين ومائتين فى أيام المقتدر ومسيره الى الرافقة والرقة وكان هذا المحتسب من مدينة رام هرمز من كور الاهواز ونعود الى ذكر مراتب الملوك ونسق مابقى من الممالك على البحر الحبشى الذى شرعنا فى وصف من عليه فنقول ملك الزنج وقليمان ملك اللان كركنداج ملك الحيرة من بنى نصير النعمانية

اليهم القاسم بن حمود فى البر برفهزمهم أهل قرطبة ثم اجتمعوا واتفقوا على رد الامر لبنى أمية واختار والذلك عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدى و بايعوه فى رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة ولقبوه المستظهر وقاموا بأمره ومن شعره قوله

طال عمر الليل عندى * قد تولعت بصدى
ياغزالا نقض العهد ولم يوف بوعد
انسيت العهد اذبتنا على مفرش ورد
واجتمعنا فى وشاح * وانتظمنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكى * ذهبا فى لازورد

قال الحجارى لوقال لؤلؤا فى لازورد لكان أحسن تشبيها وأنشد متمثلا

انا عصابتك الالى * كنا نكابد ما تكابد
هذا أوان غنائك الـ نعمى وانجاز المواعد

وكان حسن بن أبى عبيدة من وزراء المستظهر ولما أكثر المستظهر دونه الاستبداد كتب اليه بقوله

اذا غبت لم أحضر وان جئت لم أسل * فسيان منى مشهد ومغيب
فأصبحت تيميا وما كنت قبلها * لتيم ولكن الشبيه نسيب

يشير الى قول الاول

ويقضى الامر حين يغيب تيم * ولا يستأذنون وهم شهود

وعاتبه أيضا بقوله

اذا كان مثلى لايجار بصبره * فمن ذا الذى بعدى يجار على الصبر
وكم مشهد جاريت فيه عدوكم * وأملت فى حربى له راحة الدهر
أخوض الى أعدائكم لجج الوغى * واسرى اليهم حيث لا احد يسرى
وقد نام عنهم كل مستبطن الحشى * أكول الى الممسى نؤم الى الظهر
فمابال هذا الامر أصبح ضائعا * وأنت أمين الله تحكم فى الامر

وسيأتى ان شاء الله تعالى من كلام الوزير المذكور مايدل على عظيم قدره وهنالك نذكر تحلية الفتح له ثم ثار عليه لشهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله فاتبعه الغوغاء وفتك بالمستظهر وتلقب بالمستكفى واستقل بأمر قرطبة وهو والد الاديبة الشهيرة ولادة ولعلنا نلم ببعض أخبارها ان شاء الله تعالى فيما بعد وكان أبو عبد الرحمن قتله المنصور بن أبى عامر لسعيه فى الخلافة ثم بعد ستة عشر شهرا من بيعة المستكفى رجع الامر الى المعتلى يحيى بن على بن حمود سنة ست عشرة وخلع أهل قرطبة المستكفى وولى عليهم المعتلى من قبله وفر المستكفى الى ناحية الثغر ومات فى فرة ثم بدا لاهل قرطبة فخلعوا المعتلى بن حمود سنة سبع عشرة وبايع الوزير أبو محمد جهور بن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخى المرتضى وكان بالثغر فى لاردة عند ابن هود وذلك سنة ثمان عشرة وتلقب المعتمد بالله وأقام مترددا فى الثغر ثلاثة أعوام واشتدت الفتن بين رؤساء

والمناذرة ملك جبال طبرستان كان يدعى قارن والجبل معروف به وبولده فى هذا الوقت ملك الهند البلهرا ملك القنوج من ملوك السند فرورة وهو اسم بلد باسم ملوكهم وقد صارت اليوم فى حيز الاسلام وهى من أعمال المولتان ومن هذه المدينة يخرج أحد الانهار التى اذا اجتمعت كان نهر (مهران السند) الذى زعم الجاحظ أنه من النيل وزعم غيره انه من جيحون خراسان وفروره هذا الذى هو ملك القنوج هو ضد البلهرا ملك القندهار من ملوك السند وجبالها ويدعى ججح وهذا اسمه الاعم ومن بلاده يخرج النهر المعروف (بزايد) وهو احد الانهار الخمسة التى منها مهران السند والقندهار ببلاد الدهبوط ونهر من الخمسة يخرج من بلاد السند وجبالها يعرف (بنهاطل) ويجتاز ببلاد الدهبوط وهى بلاد القندهار والنهر الرابع يخرج من بلاد كابل وجبالها وهى تخوم الهند مما يلى بلاد بسيط وعرس وتفس والرخج وبلاد الدوار مما يلى بلاد سجستان ونهر من الخمسة يخرج من بلاد قشمير وملك قشمير يعرف بالرانى هذا الاسم الاعم لسائر ملوكهم وقشمير هذه من ممالك الهند وجبالها مملكة عظيمة حصينة يحتوى ملكها من مدن وضياع على نحو من ستين ألفا

الطوائف واتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة فاستقدمه ابن جهور والجماعة ونزل آخر سنة عشرين وأقام بها يسيرا ثم خلعه الجند سنة ثنتين وعشرين وفر الى لاردة فهلك بها سنة ثمان وعشرين وانقطعت الدولة الاموية من الارض وانتثر سلك الخلافة بالمغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف وانتزى الامراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات واقتسموا خطتها وتغلب بعض على بعض واستقل أخيرا بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم وأقاموا على ذلك برهة من الزمان حتى قطع عليهم البحر ملك العدوة وصاحب مراكش أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللمتونى فخلعهم وأخلى منهم الارض فمن أشهرهم بنو عباد ملوك اشبيلية فى غرب الاندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب والمشرق وفى الذخيرة والقلائد من أخباره ماهو كاف شاف ومنهم بنو جهور كانوا بقرطبة فى صورة الوزارة حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد وأخذ قرطبة وجعل عليها ولده ثم كانت له وعليه حروب وخطوب وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها واستفحل أمره بغرب الاندلس وعلت يده على من هنالك من ملوك الطوائف مثل ابن باديس بغرناطة وابن الافطس ببطليوس وابن صمادح بالمرية وغيرهم فكانوا يخطبون سلمه ويغلون فى مرضاته وكلهم يدارون الطاغية ويتقونه بالجزى الى أن ظهر يوسف بن تاشفين واستفحل ملكه فتعلقت آمال الاندلس باعانته وضايقهم الطاغية فى طلب الجزية فقتل المعتمد اليهودى الذى جاء فى طلب الجزية للطاغية بسبب كلمة قالها آسفه بها ثم أجاز البحر صريخا الى يوسف بن تاشفين فاجاز معه البحر والتقوا مع الطاغية فى الزلاقة فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى ونصر الله تعالى الاسلام نصرا لا كفاء له حتى قال بعض المؤرخين انه كان عدد النصارى ثلثمائة ألف ولم ينج منهم الا القليل وصبر فيها المعتمد صبر الكرام وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء ثم طلب الفقهاء بالاندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم فتقدم بذلك الى ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال حتى اذا رجع من بلادهم رجعوا الى حالهم وهو خلال ذلك يردد عساكره للجهاد ثم أجاز اليهم وخلع جميعهم ونازلت عساكره جميع بلادهم واستولى على قرطبة واشبيلية وبطليوس وغرناطة وغيرها وصار المعتمد بن عباد كبير ملوك الاندلس فى قبضته أسيرا بعد حروب ونقله الى أغمات قرب مراكش سنة أربع وثمانين وأربعمائة واعتقله هنالك الى ان مات سنة ثمان وثمانين وسنلم بما قاله الوزير لسان الدين بن الخطيب فيه لما زار قبره وللمعتمد هذا أخبار مأثورة خصوصا مع زوجته أم أولاده الرميكية الملقبة باعتماد وقد روى أنها رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن فى القرب وهن رافعات عن سوقهن فى الطين فقالت له ياسيدى اشتهى ان أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طينا فى القصر وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين فيقال انه لما خلع وكانت تتكلم معه مرة فجرى بينهما ما يجرى بين الزوجين فقالت له والله ما رأيت منك خيرا فقال لها ولا يوم الطين تذكيرا لها

الى سبعين ألفا لاسبيل لاحد من الناس على بلده الا من وجه واحد ويغلق على جميع ماذكرناه من ملكه باب واحد لان ذلك فى جبال شوامخ منيعة لاسبيل للرجال أن يتسلقوا عليها ولا للوحش أن يلحق بعلوها ولا يلحقها الا الطير وما الا جبل فيه فاودية وعرة وأشجار وغياض وأنهار ذات منعة من شدة الانصباب والجريان وماذكرنا من منعة ذلك البلد فشهور فى أرض خراسان وغيرها من البلاد وذلك أحد عجائب الدنيا فاما ملك فرورة وهو ملك القنوج فان مسافة مملكته تكون نحوا من عشرين ومائة فرسخ فى مثلها فراسخ سندية الفرسخ ثمانية أميال بهذا الميل وهو الملك الذى قدمنا فى ذكره فيما سلف أن له من الجيوش أربعة على مهاب الرياح الاربع كل جيش منها سبعمائة ألف وقيل تسعمائة ألف وقيل تسعة آلاف ألف فيحارب بجيش الشمال صاحب المولتان ومن معه فى تلك الثغور من المسلمين ويحارب بجيش الجنوب البلهرا ملك المانكير وبالجيوش الباقية من يلقاه فى كل وجه من الملوك ويقال ان ملكه يحيط فى مقدار ماذكرناه من المسافة من المدن والقرى والضياع مما يدركه الاحصاء والعدد بألف ألف وثمانمائة ألف قرية بين أنهار وشجر

بهذا اليوم الذى أباد فيه من الاموال مالا يعلمه الا الله تعالى فاستحيت وسكتت وولى بعده غير من تقدم بنو رزين أصحاب السهلة و بنو الفهرى أصحاب البونت وتغلب عليهما أخيرا يوسف بن تاشفين * ومن أعظم ملوك الطوائف بنو ذى النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفى و كانت لهم دولة كبيرة وبلغوا فى البذخ والترف الى الغاية ولهم الاعذار المشهور الذى يقال له الاعذار الذنونى وبه يضرب المثل عند أهل المغرب وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق والمأمون من بنى ذى النون هو صاحب ذلك وهو الذى عظم بين ملوك الطوائف سلطانه وكان بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة وغلب على قرطبة وملكها من يد ابن عباد المعتمد وقتل ابنه أبا عمرو وغلب أيضا على بلنسية وأخذها من يد بنى ابن أبى عامر * وفى أيام حافد المامون وهو القادر بن ذى النون كان الطاغية بن أدفونش قد استفحل أمره لما خلا الجو من مكانة الدولة الخلافية وخف ما كان على كاهله من أصرا العرب فاكتسح البسائط وضايق ابن ذى النون حتى أخذ من يده طليطلة فخرج له عنها سنة ثمانين وسبعين وأربعمائة كما سبق وشرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية فقبل شرطه وتسلمها الفونش ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ثم زحف على الموالى العامريين مثل خيران وزهير وأشباههما وأخبار الجميع تطول * ومن ملوك الطوائف بالاندلس بنو هود ملوك سرقسطة وما اليها ومن أشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤتمن وكان المؤتمن قائما على الامور الرياضية وله فيها تآليف ومنها كتاب الاستكمال والمناظر وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ طليطلة وعلى يده كانت وقعة وشقة وكان زحف سنة تسع وثمانين فى آلاف لا تحصى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وشقة وكان محاصرا لها فلقيه الطاغية وهزمه وهلك من المسلمين نحو عشرة آلاف وهلك هو شهيدا سنة ثلاث وخمسمائة بظاهر سرقسطة فى زحف الطاغية اليها وولى ابنه عبد الملك عماد الدولة وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثنتى عشرة وتولى ابنه سيف الدولة وبالغ فى النكاية بالطاغية ثم اتفق معه وانتقل بحشمه الى طليطلة فكان فيها حمامه * ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله فى مبانيه

قصر السرور ومجلس الذهب * بكما بلغت نهاية الارب
لولم يحز ملكى خلافكما * كانت لدى كفاية الطلب

ومن مشاهير ملوك بنى الافطس أصحاب بطليوس وما اليها والمظفر منهم هو صاحب التاليف المسمى بالمظفرى فى نحو الخمسين مجلدا والمتوكل منهم قتل على يد جيش يوسف بن تاشفين وفيه قال ابن عبدون قصيدته المشهورة

الدهر يفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وهى من غرر القصائد الاندلسية وأزال ملوك الطوائف منها وبقيت عمالهم تتردد اليها وبنوهم حتى فشلت ريحهم وهبت ريح الموحدين أعنى عبد المؤمن بن على وبنيه فحاربوا لمتونة واستولوا على ملكهم بالمغرب بعد حروب كثيرة ثم جازوا البحر الى الاندلس وملكوا أكثر بلاد الاندلس وملك بنو مردنيش شرق الاندلس * ومحصل ذلك أن الاندلس كان ملكها مجمعا للمتونة بعد خلعهم ملوك الطوائف فلما اشتغل لمتونة فى العدوة بحرب الموحدين

اضطربت

وجبال ومروج وهو قليل الفيلة من بين الملوك ورسمه الفافيل حربية تقاتل وذلك أن الفيل اذا كان فارها ماهرا سانا شجاعا وكان راكبه فارسا وفى خرطومه القرطل وهو نوع من السيوف وخرطومه مغشى بالزرد والحديد وعليه تجافيف قد أحاطت سائر جسده من الفرق والحديد وكان حوله خمسمائة رجل يمنعونه ويحرزونه من ورائه حارب ستة آلاف فارس وقام بها وأدناها اذا كان معه خمسمائة رجل كرفى خمسة آلاف فارس ودخل وخرج وصال عليها كالرجل على الفرس وهذا رسم فيلتها فى سائر حروبها فأما صاحب المولتان فقد قلنا انه من ولد سامة بن لؤى ابن غالب وهو ذو جيوش ومنعة وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار وحول ثغر المسلمين المولتان من ضياعه وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليه الاحصاء والعدو فيه على ما ذكرنا الصنم المعروف بالمولتان يقصده السند والهند من أقاصى بلادهم بالنذور والاموال والجواهر والعود وأنواع الطيب ويحج اليه الالوف من الناس وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل الى هذا الصنم من العود القمارى الخالص الذى يبلغ ثمن الاوقية منه مائة دينار واذا ختم بالخاتم أثر فيه كما يؤثر فى الشمع وغير ذلك

اضطربت عليهم الاندلس وعادت الى الفرقة بعض الشئ ثم خلص أكثرها لعبد المؤمن وبنيه بعد حروب ومنها ما حصل بين عبد المؤمن وبين ابن مردنيش وقائده ابن همشك بفحص غرناطة وقد استعان ابن مردنيش بالنصارى على الموحدين فهزمهم عبد المؤمن وقتلهم أبرح قتلة واستخلص غرناطة سنة سبع وخمسين وخمسمائة من يد ابن مردنيش * وولى الامر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف وأجاز الى الاندلس وكانت له مواقف فى جهاد العدوّ * وولى بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت وكانت له فى النصارى بالاندلس نكاية كبيرة ومن أعظمها غزوة الارك التى تضاهى وقعة الزلاقة أو تزيد والارك موضع بنواحى بطليوس وكانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره وكان عدّة من قتل من الفرنج فيما قيل مائة ألف وستة واربعين ألفا وعدّة الاسارى ثلاثين ألفا وعدّة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة والخيل ثمانين ألفا والبغال مائة ألف والحمير أربعمائة ألف جاء بها الكفار تحمل أثقالهم لانهم لا ابل لهم وأما الجواهر والاموال فلا تحصى وبيع الاسير بدرهم والسيف بنصف درهم والفرس بخمسة دراهم والحمار بدرهم وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ونجى الفنش ملك النصارى الى طليطلة فى أسوا حال فحلق رأسه ولحيته ونكس صليبه وآلى أن لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ بالثار وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدّ ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه الى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها ولم يبق الا فتحها فخرجت اليه والدة الادفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه ابقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن بها ووهب لهن من الاموال والجواهر ما جل وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة وعاد الى قرطبة فأقام شهرا يقسم الغنائم وجاءته رسل الفنش بطلب الصلح فصالحه وأمن الناس مدته وفيه يقول بعض شعراء عصره

أهل بأن يسعى اليه ويرتجى * ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلدا * وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره * وتعطرت منه الرياح تأرجا

ولما أرسل له السلطان صلاح الدين بن أيوب شمس الدين بن منقذ يستنجد به على الفرنج الخارجين عليه بساحل البلاد المقدّسة ولم يخاطبه بأمير المؤمنين فلم يجبه الى ما طلبه وكل ذلك فى سنة ٥٨٧ ومدحه ابن منقذ بقوله من قصيدة

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته * الى بحر جود ما لأخراه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الندى * الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المؤمنين ولم تزل * الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا * بان نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلا فبلغتها * وأدنى عطاياك العلا والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانيا * تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدّتها أربعون بيتا فاعطاه بكل بيت ألفا وقال له انما أعطيناك لفضلك ولبيتك وكان

من العجائب التى تحمل اليه واذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر هذا الصنم وتعويره فترحل الجيوش عنهم عند ذلك وكان دخولى الى بلاد المولتان بعد الثلثمائة والملك بها أبو الدلهاث المنبه ابن أسد القرشى وكذلك كان دخولى الى بلاد المنصورة فى هذا الوقت والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله ورأيت بها وزيره زيادا وابنيه محمدا وعليا ورأيت بها رجلا سيدا من العرب وملكا من ملوكهم وهو المعروف بحمزة وبها خلق من ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم من ولد عمر ابن على ولد محمد بن على وبين ملوك المنصورة وبين أبى الشوارب القاضى قرابة ووصلة نسب وذلك أن ملوك المنصورة الذين الملك فيهم فى وقتنا هذا من ولد هبار ابن الاسود ويعرفون ببنى عمر بن عبد العزيز القرشى وليس هو عمر بن عبد العزيز الاموى فاذا اجتاز جميع ما ذكرنا من الانهار ببلاد مرج بيت الذهب وهو المولتان فاجتمع بعد المولتان بثلاثة أيام فيما بين المولتان والمنصورة فى الموضع المعروف بدوسات ثم انتهى جميع ذلك الى مدينة الروذ من غربيها وهى من أعمال المنصورة تسمى هنالك مهران ثم ينقسم قسمين

عنوان الكتاب الذي أرسله صلاح الدين الى أمير المسلمين وفي أوله الفقير الى الله
تعالى يوسف بن أيوب وبعده من انشاء الفاضل الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية
من استعمر الارض وأغنى من أهلها من سأله القرض وأجرى من أجرى على يده النافلة
والفرض وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض وهو كتاب طويل
سأله فيه أن يقطع عنه مادة البحر واستنجده على الافرنج اذ كانت له اليد عليهم وعاد ابن
منقذ من هذه الرسالة سنة ٥٨٨ بغير فائدة وبعث معه هدية حقيرة وأما ابن منقذ فانه
أحسن اليه وأغناه لا لاجل صلاح الدين بل لبيته وفضله كامر وما وقع من يعقوب في صلاح
الدين انما هو لاجل انه لم يوفه حقه في الخطاب * (رجع) ولما استفحل أمر الموحدين
بالاندلس استعملوا القرابة على الاندلس وكانوا يسمونهم السادة واقتسموا ولايتها
بينهم ولهم مواقف في جهاد العدو مذكورة وكان صاحب الامر بمراكش يأتي الاندلس
للجهاد وهزم يعقوب المنصور كما سبق قريبا بالارك ابن ادفونش ملك الجلالقة الهزيمة
الشنعاء وأجاز ابنه الناصر الوالي بعده البحر الى الاندلس من المغرب سنة تسع وستمائة
ومعه من الجنود ما لا يحصى حتى حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب انه اجتمع معه
من أهل الاندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل فمحص الله المسلمين بالموضع المعروف بالعقاب
واستشهد منهم عدة وكانت سبب ضعف المغرب والاندلس أما المغرب فبخلاء كثير من قراه
وأقطاره وأما الاندلس فبطلب العدو عليها لانه لما التاث أمر الموحدين بعد الناصر
ابن المنصور انتزى السادة بنواحي الاندلس كل في عمله وضعف ملكهم بمراكش فصاروا
الى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض واسلام حصون المسلمين اليه في ذلك ففشت رجالات
الاندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الاموية وأجمعوا على اخراجهم فثاروا به لحين واحد
وأخرجوهم وتولى كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر بالاندلس وابن مردنيش
وثوار آخرون * وقال ابن خلدون ثم خرج على ابن هود في دولته من أعقاب دولة العرب أيضا
وأهل نسبهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الاحمر وتلقب محمد هذا بالشيخ فجاذبه الحبل
وكانت لكل واحد منهما دولة أورثها بنيه انتهى * وكان ابن هود يخطب للعباسي صاحب
بغداد ثم حصلت لابن هود وأعقابه حروب وخطوب الى أن كان آخرهم الواثق بن المتوكل
فضايقه الفنش والرشلوني فبعث بالطاعة لابن الاحمر فبعث اليه ابن اشقيلولة وتسلم مرسية
منه وخطب لابن الاحمر بها ثم خرج منها راجعا الى ابن الاحمر فأوقع به النصارى في طريقه ثم
رجع الواثق الى مرسية ثالثة فلم يزل بها الى ان ملكها العدو من يده سنة ثمان وستين وستمائة
وعوضه عنها حصنا يسمى يسر وهو من عملها فبقي فيه الى أن هلك وانقرضت دولة ابن هود
والله وارث الارض ومن عليها (رجع) الى ذكر دولة أولاد الاحمر لان لسان الدين وزير
أحدهم ولانهم آخر ملوك الاندلس ومن يدهم استولى النصارى على جميعها كما سنذكره
وقيل أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة ولهم فيها سلف من أبناء الجند ويعرفون ببني
نصر وينتسبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج وكان كبيرهم لآخر دولة الموحدين نصر بن
يوسف بن نصر ويعرف بالشيخ وأخوه اسمعيل وكانت له وجاهة في ناحيتهم * ولما فشلت ريح

الموحدين

ويتصب كل من القسمين من هذا الماء العظيم المعروف بمهران السند في مدينة شاكرة من أعمال المنصورة في البحر الهندي وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبل والمسافة من المولتان الى المنصورة خمسة وسبعون فرسخا سندية على ما ذكرنا والفرسخ ثمانية أميال وجميع ما للمنصورة من الضياع والقرى مما يضاف اليها ثلثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة وفيها حروب كثيرة من جنس يقال لهم الميد وهم نوع من السند وغيرهم من الاحابش ثم ثغر السند وكذلك المولتان من ثغور السند وما أضيف اليها من العمائر والمدن وسميت المنصورة باسم منصور بن جمهور عامل بني أمية وللملك المنصورة فيلة حربية وهي ثمانون فيلا رسم كل فيل أن يكون حوله على ما ذكرنا خمسمائة راجل وأنه يحارب الوفا من الخيل على ما ذكرنا ورأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والاقدام على قلب الجيوش كان اسم أحدهما (منفرقلس) والآخر (حيدرة) وللمنفرقلس هذا أخبار عجيبة وأفعال حسنة وهي مشهورة في تلك البلاد وغيرها (منها) انه مات بعض سواسه فمكث أياما لا يطعم ولا يشرب يبدي الحنين ويظهر

الموحدين وانبرى الثوار بالاندلس وأعطى السادة حصونها للطاغية واستقل بامر الجماعة محمد بن يوسف من هود الثائر بمرسية بدعوة العباسية وتغلب على شرق الاندلس أجمع فتصدى الشيخ هذا للثورة عليه وبويع له سنة تسع وعشرين وستمائة ودعا لابى زكريا صاحب افريقية وأطاعته جيان وشريش سنة ثلاثين بعدها واستظهر على أمره بقرابته من بنى نصر وأصهاره بنى اشقيلولة ثم بايع لبنى هود سنة احدى وثلاثين عند ما بلغوا خطاب الخليفة من بغداد ثم ثار باشبيلية أبو مروان الباجى عند خروج ابن هود عنها ورجوعه الى مرسية فداخله محمد بن الاحمر فى الصلح على أن يزوجه ابنته فأطاعه ودخل اشبيلية سنة اثنتين وثلاثين ثم فتك بابن الباجى فقتله وتناول البطش به على بن اشقيلولة ثم راجع أهل اشبيلية بعدها بشهر دعوة ابن هود واخرج ابن الاحمر ثم تغلب على غرناطة سنة خمس وثلاثين بمداجاة أهلها حين ثار ابن أبى خالد بدعوته فيها ووصلته بيعتها وهو بجيان فقدم اليها على بن اشقيلولة ثم جاء على اثره ونزلها وابتنى بها حصن الحمراء لنزوله ثم تغلب على مالقة ثم تناول المرية من يد ابن الرميمى وزير ابن هود الثائر بها سنة ثلاث وأربعين ثم بايعه أهل لورقة سنة ثلاث وستين وكان ابن الاحمر أول أمره وصل يده بالطاغية استظهارا على أمره فعضده وأعطاه ابن هود ثلاثين حصنا فى كف غربه بسبب ابن الاحمر وليعينه على ملك قرطبة فتسلمها ثم تغلب على قرطبة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة أعادها الله ثم نازل اشبيلية سنة ست وأربعين وابن الاحمر معه ثم دخلها صلحا وملك أعمالهم ثم ملك مرسية سنة خمس وستين ولم يزل الطاغية يقتطع ممالك المسلمين كورة كورة وثغرا ثغرا الى أن ألجأ المسلمين الى سيف البحر ما بين رندة من المغرب الى شرق الاندلس نحو عشر مراحل ثم سخط ابن الاحمر وطمع فى الاستيلاء على سائر الجزيرة فامتنعت عليه وتلاحق بالاندلس الغزاة من بنى مرين وغيرهم وعقد ملك المغرب يعقوب بن عبد الحق لنحو الثلاثة آلاف منهم فأجازوا فى حدود الستين وستمائة وتقبل ابن الاحمر اجازتهم ودفع بهم فى نحر عدوهم ورجعوا ثم تناسلوا اليه بعد ذلك ولم يزل الامر على ذلك الى أن هلك الشيخ ابن الاحمر سنة احدى وسبعين وستمائة وولى بعده ابنه محمد الفقيه وأوصاه باستصراخ بنى مرين ملوك المغرب بعد الموحدين ان طرقه أمر أن يعتضد بهم فأجاز الفقيه الى يعقوب بن عبد الحق سلطان فاس والمغرب سنة ثنتين وسبعين فاجاب صريخه وأرسل ابنه وعساكره معه ثم أجاز على اثره وتسلم الجزيرة الخضراء من ثائر كان بها وخطها ركابا للجهاد ونزل اليه ابن الاحمر عن طريف وما اليها من الحصون وهزم هو وابن الاحمر زعيم النصرانية ديتة وفرق جمعه وأوقع بجموع الطاغية من كل جهة وبث سراياه وبعوثه فى أرض النصرانية ثم خاف ابن الاحمر على ملكه وصالح الطاغية ثم عاد انتهى كلام ابن خلدون ملخصا وثبتت عقب ابن الاحمر بالاندلس واستولوا على جميع ما بايدى المسلمين من ملكها مثل الجزيرة وطريف ورندة التى كانت بيد بنى مرين وقدم مدة ألب ملوك النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غرناطة وجاءها الطاغية دون بطره فى جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا وكان من خبر هذه الوقعة أن الافرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بطره الى طليطلة ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا وسجد له وتضرع وطلب منه

الانين كالرجل الحزين ودموعه تجرى من عينيه لاتنقطع (ومنها) انه خرج ذات يوم من حائرة وهى دار الفيلة وحيدرة وراءه وباقى الثمانين تبع لهما فانتهى منعر فلس فى سيره الى شارع قليل العرض من شوارع المنصورة ففاجا فى مسيره امرأة على حين غفلة فلما بصرت به دهشت واستلقت على قفاها من الجزع وانكشف عنها أطمارها فى وسط الطريق فلما رأى ذلك منعر فلس وقف بعرض الشارع مستقبلا بجنبه الايمن من وراءه من الفيلة مانعا لهم من النفوذ من أجل المرأة وأقبل يشير اليها بخرطومه بالقيام ويجمع عليها أثوابها ويستر منها ما بدا الى ان انتقلت المراة وتزحزحت عن الطريق بعد أن عاد اليها روحها فاستقام الفيل فى طريقه واتبعه الفيلة وللفيلة أخبار عجيبة الحربية منها والعمالة لان منها ما لا يحارب فيجر العجل وتحمل عليه الاثقال ويستعمل فى دياس الارز وغيره من الاقوات كدوس البقر فى البيدر وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار الزنج والفيلة وكونها فى بلادها وليس فى سائر الممالك أكثر منها فى بلاد الزنج وهى وحشية هنالك فهذه جمل من أخبار ملوك

ط ل السند والهند ولغة السند خلاف لغة الهند والسند مما يلى الاسلام ثم الهند ولغة أهل المانكير وهى دار مملكة البلهرا أكثرها

استئصال ما بقى من المسلمين بالاندلس وأكد عزمه فعلق المسلمون بغرناطة وغيرها وعزموا على الاستنجاد بالمرينى أبى سعيد صاحب فاس وأنفذوا اليه رسلا فلم ينجع ذلك الدواء فرجعوا الى أعظم الادوية وهو اللجأ الى الله تعالى وأخلصوا النيات وأقبل الافرنج فى جموع لاتحصى فقضى ناصر من لاناصر له سواه بهزم أمم النصرانية وقتل طاغيتهم دون بطره ومن معه وكان نصرا عزيزا ويوما مشهورا مشهودا وكان السلطان اذذاك بالاندلس الغالب بالله أبو الوليد اسمعيل بن الرئيس أبى سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر ورغب أن يحصن البلاد والثغور فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء فانتدب السلطان ابن الاحمر لردهم وجهز الاساطيل والرجال فلما رأوا ذلك طلبوا الى طليطلة وعزموا على استئصال المسلمين وبلادهم وتأهبوا لذلك غاية الاهبة ووصلت الاثقال والمجانيق وآلات الحصار والاقوات فى المراكب ووصل العدو الى غرناطة وامتلات الارض بهم فتقدم السلطان الى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء المرينى بالخروج الى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم فخرج اليهم يوم الخميس الموفى عشرين لربيع الاول ولما كان ليلة الاحد أغارت سرية من العدو على سرية من المسلمين فخرجت اليهم جماعة من فرسان الاندلس الرماة فقطعوهم عن الجيش وفرت تلك السرية أمامهم الى جهة سلطانهم فتبعهم المسلمون الى الصبح فاستأصلوهم وكان هذا أول النصر ولما كان يوم الاحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو فى خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من اقدامهم مع قلتهم فى تلك الجيوش العظيمة فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وخرج أهل غرناطة لجمع الاموال وأخذ الاسرى فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطارا ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا ومن السبى سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين الى الديار المصرية وكان من جملة الاسارى امرأة الطاغية وأولاده فبذلت فى نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين فلم يقبل المسلمون ذلك وزادت عدة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا ويقال انه هلك منهم بالوادى مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم واستمر البيع فى الاسرى والاسباب والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد ومن العجب انه لم يقتل من المسلمين والاجناد سوى ثلاثة عشر فارسا وقيل عشرة أنفس وقيل كان عسكر الاسلام نحو ألف وخمسمائة فارس والرجالة نحوا من أربعة آلاف راجل وقيل دون ذلك وكانت الغنيمة تفوق الوصف وسلخ الطاغية دون بطره وحشى جلده قطنا وعلق على باب غرناطة وبقى معلقا سنوات وطلبت النصارى الهدنة فعقدت لهم وبعد أن ملكوا جبل الفتح الذى كان من أعمال فاس والمغرب وهو جبل طارق لم يزل بأيديهم الى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المرينى صاحب فاس والمغرب بعد ان انفق عليه الاموال وصرف اليه الجنود والحشود ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه وضيقوا به الى أن استرجعوه ليد المسلمين واهتم

بنائه

مضافة الى الصقع وهى كبيرة ولغة ساحله مثل صيمور وسوماره ومايه وغير ذلك من مدن الساحل مثل لاروى وبلادهم مضافة الى البحر الذى هم عليه وهو لاروى وقد تقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب وبهذا الساحل أنهار عظيمة تجرى من الجنوب بالضد من أنهار العالم وليس فى انهار العالم ما يجرى من الجنوب الى الشمال الانيل مصر ومهران السند ويسير من الانهار وماعدا ذلك من أنهار العالم يجرى من الشمال الى الجنوب وقد ذكرنا وجه العلة فى ذلك وماقاله الناس فى هذا المعنى فى كتابنا أخبار الزمان وقد ذكرنا ما انخفض من الانهار وما ارتفع وليس فى ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه الا البلهرا فالاسلام فى ملكه عزيز مصون ولهم مساجد مبنية وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين ويملك الملك منهم الاربعين سنة والخمسين سنة فصاعدا وأهل مملكته يزعمون أنه انما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل واكرام المسلمين وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم وله دراهم ظاطرية وزن الدرهم منها وزن درهم ونصف سكته بدء تاريخ ملكهم وفيلته الحربية لاتحصى كثرة وتدعى بلاده أيضا بلاد السكنكر ويحاربهم ملك الخزر

بنائه وتحصينه وأنفق عليه اجمال مال فى بنائه وحصنه وسوره وابراجه وجامعه ودوره ومحاربه ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصبر المسلمون وخيب الله سعى الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو فى منازلته ولا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فانفق الاموال وأنصف العمال فاحاط بمجموعها احاطة الهالة بالهلال وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر وزاد فى تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ولما اجاز السلطان أبو الحسن المذكور الى الاندلس واجتمع عليه ابن الاحمر وقاتلهم الطاغية هزمهم فى وقعة طريف واستولى على الجزيرة الخضراء حتى قيض الله من بنى الاحمر الغنى بالله محمد الذى كان لسان الدين بن الخطيب وزيره فاسترجعها وجملة بلاد كجيان وغيرها وكانت له فى الجهاد مواقف مشهورة وامتد ملكه حتى حاد دولة سلاطين فاس مما وراء البحر وملك جبل الفتح ونصر الله الاسلام على يده كما ستقف عليه فى بعض مكاتبات لسان الدين رحمه الله فى مواضع من هذا الكتاب وسعد هذا الغنى بالله من العجائب وبقى ملك الاندلس فى عقبه الى أن اخذ ما بقى من الاندلس العدو الكافر واستولى على حضرة الملك غرناطة أعادها الله للاسلام كما نبين ذلك ان شاء الله وخلت جزيرة الاندلس من اهل الاسلام فابدلت من النور بالظلام حسبما اقتضته الاقدار النافذة والاحكام والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين قال ابن خلدون واتفق بنو الاحمر سلاطين غرناطة ان يجعلوا مشيخة الغزاة لواحد يكون من أقارب بنى مرين سلاطين المغرب لانهم أول من ولى الاندلس عند استيلاء بنى عمهم على ملك المغرب لما بينهم من المنافسة وكان لهؤلاء فى الجهاد مواقف مشهورة منها ما كتب على قبر شيخ الغزاة عثمان بن أبى العلاء لتستدل عند ذلك على ما ذكرناه بحمد الله تعالى هذا قبر شيخ الحماة وصدر الابطال والكماة واحد الجلالة ليث الاقدام والبسالة علم الاعلام حامى ذمار الاسلام صاحب الكتائب المنصورة والافعال المشهورة والمغازى المسطورة وامام الصفوف القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف سيف الجهاد وقاصم الاعاد واسد الآساد العالى الهمم الثابت القدم الهمام المجاهد الارضى البطل الباسل الامضى المقدس المرحوم أبى سعيد عثمان ابن الشيخ الجليل الهمام الكبير الاصيل الشهير المقدس المرحوم أبى العلاء ادريس بن عبد الله بن عبد الحق كان عمره ثمانيا وثمانين سنة أنفقه ما بين روحة فى سبيل الله وغدوة حتى استوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة وقطع عمره مجاهدا مجتهدا فى طاعة الرب محتسبا فى ادارة الحرب ماضى العزائم فى جهاد الكفار مصادما بين جموعهم تدفق التيار وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار ما سار ذكره فى الاقطار أشهر من المثل السيار حتى توفى رحمه الله وغبار الجهاد طى أثوابه وهو مراقب لطاغية الكفار وأحزابه فمات على ما عاش عليه وفى ملحمة الجهاد قبضه الله تعالى اليه واستأثر به سعيدا مرتضى وسيفه على رأس ملك الروم منتضى مقدمة قبول واسعاد ونتيجة جهاد وجلاد ودليلا على نيته الصالحة وتجارته الرابحة فارتجت الاندلس لبعده اتحفه الله تعالى رحمة من عنده

من احدى جهات مملكته وهو ملك كثير الخيول والابل والجنود ويزعم انه ليس فى ملوك العالم أجل منه الاصاحب اقليم بابل وهو الاقليم الرابع وذلك ان هذا الملك ذو نخوة وصولة على سائر الملوك وهو مع ذلك مبغض للمسلمين وهو كثير الفيلة وملكه على لسان من الارض وفى أرضه معادن الذهب والفضة ومبايعاتهم بهما ثم يلى هذا الملك ملك الطافى موادع لمن حوله من الملوك وهو مكرم للمسلمين وليست جيوشه كجيوش من ذكرنا من الملوك وليس فى نساء الهند أحسن من نسائهم ولا أكثر منهن جمالا وبياضا وهن موصوفات الخلوات مذكورات فى كتب الباه وأهل البحر يتنافسون فى شرائهن يعرفن بالطافيات ثم يلى هذا الملك مملكة رهمى وهذه سمة لملوكهم وهو الاعم من أسمائهم ويقاتلهم ملك الخزر وملكه متاخم لملكهم ورهمى يحارب البلهرا أيضا من احدى جهات مملكته وهو أكثر جيوشا وفيلة وخيولا من البلهرا ومن ملك الخزر ومن ملك الطافى واذا خرج فى حربه فرسمه أن يكون فى خمسين ألف فيل ولا يكون حربه الا فى الشتاء لقلة صبر الفيلة على العطش وقلة لبثها والمكثر من الناس يغلوا بالقول فى كثرة جنوده فيزعمون أن عدد القصارين والغسالين فى عسكره

توفى يوم الاحد الثانى الذى الحجة من عام ثلاثين وسبعمائة انتهى * ومنها ما كتب به لسان الدين بن الخطيب رحمه الله فى تولية على بن بدر الدين مشيخة الغزاة ما نصه هذا شيخ الغزاة الذى فتح على الاسلام أبواب السراء وراق طرازا مذهبا على عاتق الدولة الغراء واعمل عوامل الجهاد فى طاعة رب العباد شارعة لاهل الكفر والعناد من باب الاعمال والاغراء أمر به فلان صدر صدوراودائه وحسامه المشهور على اعدائه ووليه الذى خبر صدق وفائه وجلى فى مضمار الخلوص له مغبرا فى وجوه اكفائه شيخ شيوخ المجاهدين وقائد كتائبه المنصورة الى غزو الكافرين والمعتدين وعترته التى يدافع بها عن الدين وسابق وده المبرور فى الميادين الشيخ الاجل الى آخر ما وصفه به مما ضاق الوقت عن مثله والله ولى التوفيق

(الباب الرابع)

فى ذكر قرطبة التى كانت الخلافة بمصرها للاعداء قاهرة وجامعها الاموى ذى البدائع الباهية الباهرة والالماع بحضرة الملك الناصرية الناصرة والعامرية الزاهرة ووصف جملة من منتزهات تلك الاقطار ومصانعها ذات المحاسن الباطنة والظاهرة وما يجر اليه شجون الحديث من أمور تقضى بحسن اداتها القرائح الوقادة والافكار الماهرة * قال ابن سعيد رحمه الله مملكة قرطبة فى الاقليم الرابع وبالته للشمس وفى هذه المملكة معدن الفضة الخالصة فى قرية كرتش ومعدن الزئبق والزنجفر فى بلد بسطائسة ولاجزائها خواص مذكورة فى متفرقاتها وأرضها أرض كريمة النبات انتهى وقدم رحمه الله فى المغرب الكلام عليها على سائر أقطار الاندلس وقال انما قدمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الاندلسية لكون سلاطين الاندلس الاول اتخذوها سرير السلطنة الاندلس ولم يعدلوا عن حضرتها ثم سلاطين بنى أمية وخلفاؤهم ولم يعدلوا عن هذه المملكة وتقلبوا منها فى ثلاثة أقطار أداروا فيها خلافتهم قرطبة والزهراء والزاهرة وانما اتخذوها لهذا الشان لما رأوها لذلك أهلا وقرطبة أعظم علماء وأكثر فضلا بالنظر الى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها ثم قسم ابن سعيد كتاب الحلة المذهبة فى حلى ممالك قرطبة بالنظر الى الكور الى أحد عشر كتابا الكتاب الاوّل كتاب الحلى الذهبية فى حلى الكورة القرطبية الكتاب الثانى كتاب الدرر المصونة فى حلى كورة بلكونة الكتاب الثالث كتاب محادثة السير فى حلى كورة القصير الكتاب الرابع كتاب الوشى المصوّر فى حلى كورة المدوّر الكتاب الخامس كتاب نيل المراد فى حلى كورة مراد الكتاب السادس كتاب المزنة فى حلى كورة كزنة الكتاب السابع كتاب الدر النافق فى حلى كورة غافق الكتاب الثامن كتاب النفحة الارجة فى حلى كورة استجة الكتاب التاسع كتاب الكواكب الدرية فى حلى الكورة القبرية الكتاب العاشر كتاب رقة المحبة فى حلى كورة استبة الكتاب الحادى عشر كتاب السوسانة فى حلى كورة البسانة انتهى قال رحمه الله تعالى ان العمارة اتصلت فى مبانى قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انه كان يمشى فيها الضوء السرج الممتدة عشرة أميال حسبما ذكره الشقندى فى رسالته ثم قال ولكل

أوجه كل وجه من الكردوس خمسة آلاف ومملكة رهمى تعاملهم بالودع وهو مال البلد وفى بلده العود والذهب والفضة والثياب التى ليست لغيره رقة ودقة ومن بلده يحمل الشعر المعروف بالصمر الذى تتخذ منه المذاب بنصب العاج والفضة يقوم بها الخدم على رؤس الملوك فى مجالسها وفى بلده الحيوان المعروف بالنسيان المعلم وهو الذى تسميه العوام الكركدن وله فى مقدم جبهته قرن واحد وهو دون الفيل فى الخلقة وأكبر من الجاموس الى السواد ما هو يجتر كما تجتر البقر وغيرها مما يجتر من الحيوان والفيلة تهرب منه وليس فى أنواع الحيوان والله أعلم أشد منه وذلك أن أكثر عظامه أصم ولا مفصل فى قوائمه ولا يبرك فى نيام انما يكون بين الشجر والآجام يستند اليها عند نومه والهند تأكل لحمه وكذلك من فى بلادهم من المسلمين لانه نوع من البقر والجواميس بارض السند والهند كثيرة وهذا النوع من النسيان يكون فى أكثر غابات الهند الا أنه فى مملكة رهمى أكثر وقرونه أصفى وأحسن وذلك أن قرنه أبيض وفى وسطه صورة سوداء فى ذلك البياض اما صورة

مدينة من مدن قرطبة وأعمالها ذكر مختص به ثم ذكر المسافات التى بين ممالك قرطبة المذكورة فقال بين المدور وقرطبة ستة عشر ميلا وبين قرطبة ومراد خمسة وعشرون ميلا وبين قرطبة والقصير ثمانية عشر ميلا وبين قرطبة وغافق مرحلتان وبين قرطبة واستبة ستة وثلاثون ميلا وبين قرطبة وملكونه مرحلتان وبين قرطبة والبسانه أربعون ميلا وبين قرطبة وقيرة ثلاثون ميلا وبين قرطبة وبيانة مرحلتان وبين قرطبة واستجة ثلاثون ميلا وكورة رندة كانت فى القديم من عمل قرطبة ثم صارت من مملكة اشبيلية وهى أقرب وأدخل فى المملكة الاشبيلية انتهى (ثم قسم رحمه الله كتاب الحلة الذهبية فى حلى الكورة القرطبية الى خمسة كتب) * الكتاب الاول كتاب النغم المطربة فى حلى حضرة قرطبة الكتاب الثانى كتاب الصبيحة الغراء فى حلى حضرة الزهراء الكتاب الثالث كتاب البدائع الباهرة فى حلى حضرة الزاهرة الكتاب الرابع كتاب الوردة فى حلى مدينة شقندة الكتاب الخامس كتاب الجرعة السيغة فى حلى كورة وزغة وقال رحمه الله تعالى فى كتاب النغم المطربة فى حلى حضرة قرطبة ان حضرة قرطبة احدى عرائس مملكتها وفى اصطلاح الكتاب ان للعروس الكاملة الزينة منصة وهى مختصة بما يتعلق بذكر المدينة فى نفسها وتاجا وهو مختص بالايالة السلطانية وسلكا وهو مختص باصحاب درر الكلام من النثار والنظام وحلة وهى مختصة باعلام العلماء المصنفين الذين ليس لهم نظم ولا نثر ولا يجب اهمال تراجمهم وأهدابا وهى مختصة بأصحاب فنون الهزل ومايحو منحاه انتهى ثم فصل رحمه الله ذلك كله بما تعددت منه الاجزاء وقد لخصت منه هنا بعض ماذكر ثم أردفته بكلام غيره فأقول قال فى كتاب اجاران قرطبة بالظاء المعجمة ومعناه أجرسا كنها يعنى عربت بالطاء ثم قال ودور مدينة قرطبة ثلاثون ألف ذراع انتهى وقال غيره ان تكسيرها ومساحتها التى دار السور عليها دون الارباض طولا من القبلة الى الجوف ألف وستمائة ذراع واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا وفرسخين عرضا وذلك من الاميال أربعة وعشرون فى الطول والعرض ستة وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى الكبير وليس فى الاندلس واد يسمى باسم عربى غيره ولم تزل قرطبة فى الزيادة منذ الفتح الاسلامى الى سنة أربعمائة فانحطت واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن الى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدو الكافر لها فى ثانى وعشرى شوال سنة ستمائة وثلاث وعشرين * ثم قال هذا القائل ودور قرطبة المسور منها دون الارباض ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ودور قصر امارتها ألف ذراع ومائة ذراع انتهى وعدد أرباضها احد وعشرون فى كل ربض منها من المساجد والاسواق والحمامات مايقوم بأهله ولا يحتاجون الى غيره وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وحفظ المدونة وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال بلدهم انتهى قال وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبى عامر الى ثلاثة آلاف ألف دينار بالانصاف

انسان أوصورة طاوس بتخطيطه وشكله أوصورة سمكة أوصورته فى نفسه أوصورة ٢١٣ نوع من الحيوان مما يوجد فى تلك الديار فينشر هذا القرن وتتخذ منه المناطق والسيور على صورة الحلية من الذهب والفضة فتلبسها ملوك الصين وخواصها تتنافس فى لبسها وتبالغ فى أثمانها فتبلغ المنطقة ألفى دينار الى أربعة آلاف فيها معاليق الذهب وذلك فى نهاية الحسن والاتقان وربما ترصع بأنواع من الجواهر على قضبان الذهب ووجوه تلك الصور مكتتبة بسواد فى بياض وربما يوجد فى قرونه بياض فى سواد وليس فى كل بلد يوجد فى قرون النسيان ماذكرنا من الصور وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن الكركدن يحمل فى بطن أمه سبع سنين وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه فى بطنها وهذا القول أورده فى كتاب حياة الحيوان على طريق الحكاية والتعجب فبعثنى هذا الوصف على مسألة من سلك تلك الديار من أهل سيراف وعمان ومن رأيت بأرض الهند من التجار فكل يتعجب من قوله اذا أخبرته بما عندى من هذا وسألته عنه ويخبرونى أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس ولست أدرى كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ أمن كتاب نقلها أو مخبر خبره

بهاولرهمى فى ملكه بر ٢١٤ وبحر ويلى ملكه ملك آخر يقال له ملك الكاسين وأهل مملكته بيض مخرومو

وقد ذكرنا فى موضع آخر مافيه مخالفة لهذا فالله أعلم وما أحسن قول بعضهم

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها * ولا تعظم بلاد الفرس والصين

فما على الارض قط مثل قرطبة * وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

(قال بعضهم) قرطبة قاعدة الاندلس ودار الملك التى يجبى لها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية واسطة بين الكور موفية على النهر زاهرة مشرقة أحدقت بها المنى فحسن مرآها وطاب جناها وفى كتاب فرحة الانفس لابن غالب أما قرطبة فانها لفظ يحوالى لفظ اليونانيين وتأويله القلوب المشككة وقال أبو عبيد البكرى انها فى لفظ القوط بالطاء المعجمة وقال الحجارى الضبط فيها باهمال الطاء وضمها وقد يكسرها المشرقيون فى الضبط كما يعجمها آخرون انتهى (وقال بعض العلماء) أما قرطبة فهى قاعدة الاندلس وقطبها وقطرها الاعظم وأم مدائنها ومساكنها ومستقر الخلفاء ودار المملكة فى النصرانية والاسلام ومدينة العلم ومستقر السنة والجماعة نزلها جملة من التابعين وتابع التابعين ويقال نزلها بعض الصحابة وفيه كلام * وهى مدينة عظيمة ازلية من بنيان الاوائل طيبة الماء والهواء أحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب وبها المحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد الاندلس نظير ولا أعظم منه بركة * وقال الرازى قرطبة أم المدائن وسرة الاندلس وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والاسلام ونهرها أعظم أنهار الاندلس وبها القنطرة التى هى احدى غرائب الارض فى الصنعة والاحكام والجامع الذى ليس فى بلاد الاندلس والاسلام أكبر منه * وقال بعضهم هى أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل وسعة محل وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق ويزعم قوم من أهلها انها كاحد جانبى بغداد وان لم تكن كاحد جانبى بغداد فهى قريبة من ذلك ولاحقة به وهى مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة وفيها كان سلاطينهم قديما ودورهم داخل سورها المحيط بها وأكثر أبواب القصر السلطانى من البلد وجنوب قرطبة على نهرها قال وقرطبة هذه بائنة عن مساكن ارباضها ظاهرة ودرت بها فى غير يوم فى قدر ساعة وقد قطعت الشمس خمس عشرة درجة ماشيا * وقال وكانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الاسلام ومجتمع علماء الانام الاعلام بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية واليها كانت الرحلة فى رواية الشعر والشعراء اذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ويبارى فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ولم تبرح ساحاتها مجر عوالى ومجرى سوابق ومحط معالى وحمى حقائق وهى من بلاد الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد والزور من الاسد ولها الداخل الفسيح والخارج الذى يمتع البصر بامتداده فلا يزال مستريحا وهو من تردد النظر طليح * وقال الحجارى حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة وهى كانت الغاية ومركز الراية وأم القرى وقرارة أولى الفضل والتقى ووطن أولى العلم والنهى وقلب الاقاليم وينبوع متفجر العلوم وقبة الاسلام وحضرة الامام ودار صوب العقول وبستان ثمر الخواطر وبحر درر القرائح ومن أفقها طلعت نجوم الارض وأعلام العصر

الآذان لهم فيلة وابل وخيول وحسن وجمال للرجال والنساء ثم بعد هؤلاء ملك الفرنجة وله بر وبحر وهو على لسان من البر فى البحر يقع له عنبر كثير وفى بلده فلفل يسير وهو ذو فيلة كثيرة وهو ذو باس بين الملوك وزهو وفخر وفخره أكثر من بأسه ثم يلى هذا الملك ملك الموجه أهله بيض ذوو حسن وجمال غير مخرمى الآذان لهم خيل كثيرة وعدد منيعة والمسك فى بلادهم كثير على ما قدمنا من غزلانهم ووصف ظبائهم فيما سلف من هذا الكتاب وهذه الامة تشبه بأهل الصين فى لباسهم وبلادهم منيعة شواهق بيض لا يعلم بأرض السند والهند ولا فيما ذكرنا من هذه الممالك جبال أطول منها ولا أمنع ومسكهم موصوف مضاف الى بلدهم يتعارفه البحريون ممن عنى بحمل ذلك وتجهيزه وهو المسك المعروف بالموجهى ثم يلى ملك الموجه مملكة المابد ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وجنود عظيمة وملوكهم تستعمل الخصيان فى عمالات بلدانهم من

المعادن وجبايات الاموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين على حسب ما وصفنا من أخبارهم وفرسان

قرسان النظم والنثر وبها أنشئت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة والسبب فى تبرز القوم حديثا وقديما على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لانواع العلم والادب انتهى *(وقال على بن سعيد) أخبرنى والدى أن السلطان الاعظم أبا يعقوب بن عبد المؤمن قال لوالده محمد بن عبد الملك بن سعيد ما عندك فى قرطبة قال فقلت له ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها فقال السلطان ان ملوك بنى أمية حين اتخذوها حضرة ملكهم لعلى بصيرة الديار الكثيرة المنفسحة والشوارع المتسعة والمبانى الضخمة والنهر الجارى والهواء المعتدل والخارج النضر والمحرث العظيم والشعراء الكافية والتوسط بين شرق الاندلس وغربها * قال فقلت ما أبقى لى أمير المؤمنين ما أقول * ثم قال ابن سعيد ومن كلام والدى فى شأنها هى من أحسن بلاد الاندلس مبانى وأوسعها مسالك وأبرعها ظاهرا وباطنا وتفضل اشبيلية بسلامتها فى فصل الشتاء من كثرة الطين ولاهلها رياسة ووقار ولا تزال سمة العلم متوارثة فيهم الا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشنيعا وتشغيبا ويضرب بهم المثل ما بين أهل الاندلس فى القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بامورهم حتى ان السيد أبا يحيى بن يعقوب بن عبد المؤمن لما انفصل عن ولايتها قيل له كيف وجدت أهل قرطبة قال مثل الجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان أثقلته به صاح ما ندرى أين رضاهم فنقصده ولا أين سخطهم فنجتنبه وما سلط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شرا من عامة العراق وان العزل عنها لما قاسيت من أهلها عندى ولاية وانى ان كلفت العود اليها القائل لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين *(قال والدى) ومن محاسنها ظرف اللباس والتظاهر بالدين والمواظبة على الصلاة وتعظيم أهلها لجامعها الاعظم وكسر أوانى الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها والتستر بأنواع المنكرات والتفاخر باصالة البيت وبالجندية وبالعلم وهى أكثر بلاد الاندلس كتبا وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة حتى ان الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس الا لأن يقال فلان عنده خزانة كتب والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به *(قال الحضرمى) أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء الى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع الى المنادى بالزيادة على الى أن بلغ فوق حده فقلت له يا هذا أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوى قال فأرانى شخصا عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده قال فقال لى لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ولكنى أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين أعيان البلد وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير قال الحضرمى فأحرجنى وحملنى على أن قلت له نعم لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك يعطى الجوز من لا له أسنان وأنا الذى أعلم ما فى هذا الكتاب واطلب

والمابد مجاورون لمملكة الصين والرسل تختلف بينهم بالهدايا وبينهم جبال منيعة وعقبات صعبة والمابد ناس عظماء البطش والقوة واذا دخل رسل ملك المابد مملكة الصين وكل ملك الصين بهم ولم يتركهم ينتشرون فى بلادهم خوفا أن يقفوا على طرقهم وعورات بلادهم لكبر المابد فى نفوسهم ولمن ذكرنا من الهند والصين فى بلادهم ولغيرهم من الامم أخلاق وشيم فى المآكل والمشارب والمناكح والملابس والعلاج والادوية والكى بالنار وغيره وقد ذكر عن جماعة من ملوكهم انهم لا يرون حبس الريح فى أجوافهم لانه داء يؤذى ولا يحتشمون فى اظهارها فى سائر أحوالهم وكذلك فعل حكمائهم ورأيهم ان حبسها داء يؤذى وأن ارسالها شفاء يحيى وأن فى ذلك العلاج الاكبر وأن فيه راحة لاصحاب القولنج والمحصور وأن فيه دواء للسقيم المنحول ولا يحتشمون من الضرطة ولا يحصرون الفسوة ولا يرون ذلك عيبا وللهند التقدم فى صناعة الطب ولهم فيه اللطافة والحذق وذكر هذا الخبر عن الهند أن السعال عندهم أقبح من الضراط وان الجشاء فى وزن الفساء وأن صوت الضرطة دباغها والمذهب عنها ريحها واستشهد هذا الخبر على صحة ما حكاه عن الهند باستفاضة

الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا وتحول قلة ما بيدى بينى و بينه * (قال ابن سعيد) و جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين الفقيه العالم أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن زهر فى كلامه ما أدرى ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فاريد بيع تركته حملت الى اشبيلية * (وسئل ابن بشكوال) عن قصر قرطبة فقال هو قصر أولى تداولته ملوك الامم من لدن عهد موسى النبى صلى الله على نبينا وعليه وسلم وفيه من المبانى الاولية والآثار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والامم السالفة ما يعجز الوصف ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الاندلس بما فيها فى قصرها البدائع الحسان وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الانيقة وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى احواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة قال وفى هذا القصر القصاب العالية السمو المنيفة العلو التى لم ير الراؤون مثلها فى مشارق الارض ومغاربها * (قال) ومن قصوره المشهورة وبساتينه المعروفة الكامل والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرستق وقصر السرور والتاج والبديع (قال) ومن أبوابه التى فتحها الله لنصر المظلومين وغياث الملهوفين والحكم بالحق الباب الذى عليه السطح المشرف الذى لا نظير له فى الدنيا وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها وقد صورت صورة انسان فتح فه وهى حلق باب مدينة أربونة من بلد الافرنج وكان الامير محمد قد افتتحها فجلب حلقها الى هذا الباب وله باب قبلى أيضا وهو المعروف بباب الجنان وقدام هذين البابين المذكورين على الرصيف المشرف على النهر الاعظم مسجدان مشهوران بالفضل كان الامير هشام الرضى يستعمل الحكم فى المظالم فيهما ابتغاء ثواب الله الجزيل وله باب ثالث يعرف بباب الوادى وله باب بشماليه يعرف بباب قورية وله باب رابع يدعى بباب الجامع وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع على الساباط وعدد أبوابا بعد هذا طمست أيام فتنة المهدى بن عبد الجبار * (وذكر ابن بشكوال رحمه الله) أن ابواب قرطبة سبعة أبواب باب القنطرة الى جهة القبلة ويعرف بباب الوادى وبباب جزيرة الخضراء وهو على النهر وباب الحديد ويعرف بباب سرقسطة وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة أرصفة التى تشق دائرة الارض من جزيرة قادس الى قرمونة الى قرطبة الى سرقسطة الى طركونة الى أربونة مارة فى الارض الكبيرة ثم باب طليرة وهو أيضا باب ليون ثم باب عامر القرشى وقدامه المقبرة المنسوبة اليه ثم باب الحور ويعرف بباب بطليوس ثم باب العطارين وهو باب اشبيلية انتهى وذكر أيضا ان عدد أرباض قرطبة عند انتهائها فى التوسع والعمارة احد وعشرون ربضا منها القبلية بعدوة النهر ربض شقندة وربض منية عجب وأما الغربية فتسعة ربض حوانيت

القول فى ذلك فى كثير من الناس عنهم حتى ذكر ذلك عنهم فى السير والاخبار والنوادر والاشعار فمن ذلك ما ذكر فى الارجوزة المعروفة بذات الحيل وهى

قد قال ذو العلم الفصيح الهندى
مقالة يفلح فيها عندى
لا تحبس الضرطة اما حضرت
وخلها وافتح لها ما استفتحت
فان أدوا الداء فى امساكها
والروح والراحة فى اخراجها
والقبح فى السعال والمخاط
والشؤم فى السعال لا الضراط
اما الجشاء ففساء صاعد
ونتنه على الفساء زائد

وأن الريح واحدة فى الجوف وانما تختلف أسماؤها باختلاف مخارجها فما يذهب الصعداء يسمى جشاء وما يذهب سفلا يسمى فساء ولا فرق بين الريحين الا باختلاف المخرجين كما يقال الصفعة واللطمة الا أن اللطمة فى الوجه والصفعة فى مؤخر الرأس والقفا والمعنى واحد وانما اختلفت أسماؤها لاختلاف الموضعين وتباين المكانين وأن الحيوان الناطق انما كثرت علله وترادفت أدواؤه واتصلت أمراضه كالقولنج وأوجاع المعدة وغيرها من العوارض بحبس الداء فى جوفه وتركه اظهاره فى حال هيجانه وتفرق الطبيعة لدفعه واخراجه وأن سائر الحيوان غير الناطق انما بعد عما ذكرنا من الآفات والمعترضات من العاهات لسرعة خروج

الريحاني وربض الرقاقين وربض مسجد الكهف وربض بلاط مغيث وربض مسجد
الشفاء وربض حمام الالبيرى وربض مسجد السرور وربض مسجد الروضة وربض السجن القديم
وأما الشمالية فثلاثة ربض باب اليهود وربض مسجد أم سلمة وربض الرصافة وأما الشرقية
فسبعة ربض سبلار وربض قرن بريل وربض البرج وربض منية عبد الله وربض منية المغيرة
وربض الزاهرة وربض المدينة العتيقة قال ووسط هذه الارباض قصبة قرطبة التى تختص
بالسور دونها وكانت هذه الارباض بدون سور فلما كانت أيام الفتنة صنع لها خندق يدور
بجميعها وحائط مانع *(وذكر ابن غالب) انه كان دور هذا الحائط أربعة وعشرين ميلا
وشقندة معدودة فى المدينة لانها مدينة قديمة كانت مسورة *(قال ابن سعيد) فى المغرب
ولنذكر الآن من متنزهات قرطبة ومعاهدها المذكورة فى الالسن نظما ونثرا ما انتهى
اليه الضبط من غير تغلغل فى غير المشهور منها والاهم ونوشى ذلك بجميع ما يحضرنى من
مختار النظم فى قرطبة وما يحتوى عليه نطاقها المذكور فأول ما نذكر من المنتزهات
متنزهات الخلفاء المروانية وهو قصر الرصافة فنقول كان هذا القصر مما ابتناه عبد الرحمن
ابن معاوية فى أول ايامه لتنزهه وسكناه أكثر أوقاته منية الرصافة التى اتخذها بشمال
قرطبة منحرفة الى الغرب فاتخذ بها قصرا حسنا ودحا جنانا واسعة ونقل اليها غرائب
الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية وأودعها ما كان استجلبه يزيد وسفر رسولاه الى الشام
من النوى المختارة والحبوب الغريبة حتى نمت بيمين الجد وحسن التربية فى المدة القريبة
أشجارا معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الاندلس فاعترف بفضلها
على أنواعها قال وسماها باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الاثيرة لديه وميله فى اختيار
هذه وكلفه بها وكثرة تردده عليها وسكناه أكثر أوقاته بها طار لها الذكر فى أيامه واتصل من
بعده فى ايثارها قال وكلهم فضلها وزاد فى عمارتها وانبرى أوصاف الشعراء لها افتنانا نزعوا
فى ذلك فيما هو الى الآن مشهور مأثور عنهم مستجاد منهم *وقال ابن سعيد والرمان
السفرى الذى فاض على أرجاء الاندلس وصاروا لا يفضلون عليه سواه أصله من هذه
الرصافة وقد ذكر ابن حيان شأنه وأفرد له فصلا فقال انه الموصوف بالفضيلة المقدم على
أجناس الرمان بعذوبة الطعم ودقة العجم وغزارة الماء وحسن الصورة وكان رسوله الى
الشام فى توصيل اخته منها الى الاندلس قد جلب طرائف منها من رمان الرصافة المنسوبة
الى هشام قال فعرضه عبد الرحمن على خواص رجاله مباهيا به وكان فيمن حضره منهم سفر
ابن زيد الكلاعى من جند الاردن ويقال هو من الانصار الذين كانوا يحملون ألوية رسول
الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته قال وهم يحملون الالوية بين يدى الخلفاء من بنى أمية
فاعطاه من ذلك الرمان جزأ فراقه حسنه وخبره فسار به الى قرية بكورة رية فعالج عجمه
واحتال لغرسه وغذائه وتنقيله حتى طلع شجرا أثمر وأينع فنزع الى عرقه وأغرب فى حسنه
فجاء به عما قليل الى عبد الرحمن فاذا هو أشبه شئ بذلك الرصافى فسأله الامير عنه فعرفه
وجه حيلته فاستبرع استنباطه واستنبل همته وشكر صنعه وأجزل صلته واغترس منه بمنية
الرصافة وبغيرها من جنانه فانتشر نوعه واستوسع الناس فى غراسه ولزمه النسب اليه فصار

ما يعرض ويثور من الادواء فى أجوافها وعدم احتباسها فى وعائها وأن
الفلاسفة والمتقدمين
والحكماء اليونانيين
كديمقراطيس وفيثاغورث
وسقراط وروحانس وغيرهم
من حكماء الامم لم يكونوا
يرون حبس شئ من ذلك
لعلمهم بما يتولد من آفاته
ويؤول اليه من متعقباته
وان ذلك يجده فى نفسه
كل ذى حس وان ذلك
يعلم بالطبيعة ويدرك
بضرورة العقل وانما استقبح
ذلك أناس من اصحاب
الشرائع لما وردت به
الشرائع ومنعت منه الملل
ولم يجر ذلك فى عاداتهم
(قال المسعودى) وقد اتينا
على أخبارهم وما احكمنا
من ذكر شيمهم وعجائب
سيرهم ومتصرفاتهم فى
كتابنا أخبار الزمان وفى
الكتاب الاوسط وكذلك
أتينا على ذكر أخبار المهراج
ملك الجزائر والطيب
والافاويه مع ملك قمار وما
جرى لملك قمار مع المهراج
واخبار ملوك الصين
وملك سرنديب مع ملك
مندرى وهى بلاد مقابلة
لجزيرة سرنديب كمقابلة
بلاد قمار لجزائر المهراج
من الرانج وغيرها وكل
ملك يملك بلاد مندرى
يسمى القايدى وسنأتى
بجمل من أخبار ملوك
الشرق والغرب واليمن والحيرة فيما يرد من هذا الكتاب من أخبار ملوك اليمن والفرس واليونانيين

يعرف الى الآن بالرمان السفرى قال وقد وصف هذا الرمان محمد بن روح الشاعر فى أبيات كتب بها الى بعض من أهداه له فقال

ولابسة صدفا أحمرا * أتتك وقد ملئت جوهرا
كانك فاتح حق لطيف * تضمن مرجانه الاحمرا
حبوبا كمثل لثات الحبيب * رضابا اذا شئت أو منظرا
وللسفر تعزى وماسافرت * فتشكو النوى أو تقاسى السرى
بلى فارقت أيكها ناعما * رطيبا وأغصانها نضرا
وجاءتك معتاضة اذ أتتك * باكرم من عودها عنصرا
بعود ترى فيه ماء الندى * ويورق من قبل أن يثمرا
هديه من لو غدت نفسه * هديته ظنه قصرا

(وقال ابن سعيد) وأخبرنى والدى قال أخبرنى الوشاح المبرزا لحسن أبو الحسن المرينى قال بينما أنا أشرب مع ندمانى بازاء الرصافة اذ بانسان رث الهيئة مجفوّ الطلعة قد جاء فجلس معنا فقلنا له ماهذا الاقدام على الجلوس معنا دون سابق معرفة فقال لا تعجلوا على ثم فكر قليلا ورفع رأسه فانشدنا

اسقنيها ازاء قصر الرصافه * واعتبر فى مآل أمر الخلافه
وانظر الافق كيف بدل ارضا * كى يطيل اللبيب فيه اعترافه
ويرى أن كل ماهو فيه * من نعيم وعز أمر سخافه
كل شئ رأيته غير شئ * ماخلا لذة الهوى والسلافه

قال المرينى فقبلت رأسه وقلت له بالله من تكون فقال قاسم بن عبود الرياحى الذى يزعم الناس انه موسوس أحمق قال فقلت له ماهذا شعر أحمق وان العقلاء لتعجز عنه فبالله الا ماتممت مسرتنا بمؤانستك ومنادمتك ومناشدة طرف أشعارك فنادم وأنشد ومازلنا معه فى طيبة عيش الى أن ودعناه وهو يتلاطم مع الحيطان سكرا ويقول اللهم غفرا انتهى (قال) ومن قصور خارج قرطبة قصر السيد أبى يحيى بن أبى يعقوب بن عبد المؤمن وهو على متن النهر الاعظم تحمله اقواس وقيل للسيد كيف تانقت فى بنيان هذا القصر مع انحرافك عن أهل قرطبة فقال علمت انهم لا يذكرون واليا بعد عزله ولا له عندهم قدر لما بقى فى رؤسهم من الخلافة المروانية فاحببت أن يبقى لى فى بلادهم أثر أذكر به على رغمهم * قال ابن سعيد وأخبرنى والدى أن ناهض بن ادريس شاعر وادى آش فى عصره أنشد لنفسه فى هذا القصر

ألا حبذا القصر الذى ارتفعت به * على الماء من تحت الحواجب اقواس
هو المصنع الاعلى الذى انف الثرى * ورفعه عن لثمه الجد والناس
فاركب متن النهر عزا ورفعة * وفى موضع الاقدام لا يوجد الراس
فلازال معمور الجناب وبابه * يغص وحلت أفقه الدهر أعراس

وقال الفتح فى قلائده لما ذكر الوزير ابن عمار وتنزه بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد وجرى فى اتقانه الى غير أمد وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفناؤه واتخذوه

(ذكر جبل الفتح وأخبار الامم من اللان والسرير والخزر وأنواع من الترك وغيرهم وأخبار الباب والابواب ومن حولهم من الامم)

أما جبل الفتح فهو جبل عظيم وصقعه صقع جليل قد اشتمل على كثير من الممالك والامم وفى هذا الجبل اثنان وسبعون أمة كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها وهذا الجبل ذو شعاب وأودية ومدينة الباب والابواب والسور على شعب من شعابه بناها كسرى أنوشروان وجعلها بينه وبين الخزر وجعل هذا السور من جوف البحر على مقدار ميل منه مادا الى البحر ثم على جبل الفتح مادا فى أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحوا من اربعين فرسخا الى أن ينتهى ذلك الى قلعة يقال لها طبرستان وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور أو أقل أو أكثر على حسب الطريق الذى جعل الباب من أجله بابا من حديد وأسكن من داخله على كل باب أمة تراعى ذلك الباب ومايليه من السور كل ذلك ليدفع أذى الامم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللان والسرير وغيرهم من انواع الكفار وجبل الفتح يكون فى المسافة علوا وطولا وعرضا

واتخذوه ميدان مراحهم ومضمار أفراحهم وحكوا به قصرهم بالمشرق وأطلعوه كالكوكب المشرق وأنشد فيه لابن عمار

كل قصر بعد الدمشق يذم * فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نمير * وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندى * عنبر أشهب ومسك أحم

وهى منسوبة للحاجب ابى عثمان جعفر بن عثمان المصحفى * وذكر الحجارى فى المسهب أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفى اجتاز بالمنية المصحفية التى كانت لجده أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر فاستعبر حين تذكر ما آل اليه حال جده مع المنصور بن أبى عامر واستيلائه على ملكه وأملاكه فقال

قف قليلا بالمصحفية واندب * معقلا أصبحت بلا انسان
واسألنها عن جعفر وسطاه * ونداه فى سالف الازمان
جعفر مثل جعفر حكم الدهر عليه بعزة وهوان
والكم حذر الردى فصممنا * لا أمان لصاحب السلطان
بينما يعتلى غدا خافضا منه اكتئاب ككفة الميزان

ومنية الزبير منسوبة الى الزبير ابن عم المأثم ملك قرطبة (قال ابن سعيد) أخبرنى والدى عن أبيه قال خرج معى الى هذه المنيه فى زمان فتح النوار ابو بكر بن بقى الشاعر المشهور فجلسنا تحت سطر من اشجار اللوز قد نورت فقال ابن بقى

سطر من اللوز فى البستان قابلنى * مازاد شئ على شئ ولا نقصا
كأنما كل غصن كم جارية * اذا النسيم ثنى اعطافه رقصا

ثم قال شعرا منه

عجبت لمن ابقى على خمر دنه * غداة رأى لون الحديقة نورا

ولا اذكر بقية الابيات قال جدى ثم اجتمعت به بعد ذلك بغرناطة فذكرته باجتماعه فى منية الزبير فتنهد وفكر ساعة وقال اكتبوا عنى فكتبنا

سقى الله بستان الزبير ودام فى * ذراه مسيل النهر ماغنت الورق
فكائن لنا من نعمة فى جنابه * كبزته الخضراء طالعها طلق
هو الموضع الزاهى على كل موضع * أماطله ضاف أماماؤه دفق
أهيم به فى حالة القرب والنوى * وحق له منى التذكر والعشق
ومن ذلك النهر الخفوق فؤاده * بقلبى ماغيبت عن وجهه خفق

قال فقلت له جمع الله بينك و بينه على الحالة التى تشتهى قال ذلك لك قلت وكيف ذلك قال تدفع لى هذا السيف الذى تقلدت به أتزود به اليه وأنفق الباقى فيه على ماتعلم قال فقلت له هذا السيف شرفنى به السلطان أبو زكريا ابن غانية وما لعطائه سبيل ولكن اعطيك قيمته فخرج وأتى بشخص يعرف قيمة السيوف فقدره وجعل يقول انه سيف السلطان ابن غانية ليعظم قدره فى عينه فيزيد فى قيمته ثم قبض ما قدر به وأنشد ارتجالا

نحوا من شهرين بل وا كثر وحوله امم لا يحصيهم الا الخالق عز وجل احد شعابه يلى بحر الخزر مما يلى الباب والابواب على ماذكرنا ومن شعابه ما يلى بحر مانطش المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب الذى ينتهى اليه خليج القسطنطينية وعلى هذا البحر طرابزنده وهى مدينة على شاطئ هذا البحر لها أسواق فى السنة يأتى اليها كثير من الامم للتجارة من المسلمين والروم والارمن وغيرهم وبلاد كسكر ولما بنى أنوشروان هذه المدينة المعروفة بالباب والابواب والسور فى البر والبحر والجبل أسكن هناك أمما من الناس وملوكا وجعل لهم مراتب ورتبهم عليها ووسم كل أمة منهم بسمة معلومة وحد لها حدا معلوما على حسب فعل أزدشير بن بابك حين رتب ملوك خراسان فمن رتب أنوشروان من الملوك فى بعض هذه البقاع والمواضع مما يلى الاسلام من بلاد بردعة ملك يقال له شروان ومملكته مضافة الى اسمه فيقال لها شروان شاه وكل ملك يلى هذا الصقع يقال له شروان وتكون مملكته فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة نحو شهر لانه كان تغلب على مواضع لم يكن رسمها له أنوشروان فانضافت الى مملكته والملك فى هذا الوقت المؤرخ والله أعلم مسلم يقال له محمد بن يزيد وهو من ولد بهرام جور

أطال الله عمر فتى سعيد * و بقاه و رقته السعود
غدا لى جوده سببا لعودى * الى وطنى فها أنا ذا أعود
وألثم كفه شكرا وبتلو * طريقى آى نعماه النشيد
حبانى من ذخائره بسيف * به لم يبق للاحزان جيد

*والقصر الفارسى من القصور المقصودة للنزاهة بخارج قرطبة وقد ذكره الوزير ابو الوليد ابن زيدون فى قصيد ضمنه من منتزهات قرطبة ما تقف عليه وكان قد فرّ من قرطبة أيام بنى جهور وحضره فى فراره عيد ذكره بأعياد وطنه ومعاهده الانسية مع ولادة التى كان يهواها و يتغزل فيها فقال

خليلى لا فطر بسر ولا أضحى * فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

وستأتى هذه القصيدة فى هذا الباب كما ستأتى قصيدة أبى القاسم بن هشام القرطبى التى أوّلها * ياهبة باكرت من نحو دارين * وفيها كثير من منتزهات قرطبة *قال ابن سعيد كان والدى كثيرا ما يأمرنى بقراءتها عليه ويقول والله لقد أنبأت عن فضل لهذا الرجل قال وكان أبو يحيى الحضرمى يحفظها ويزين بها مجالسه و يحلف أن لا ينشدها بمحضر جاهل لا يفهم وحاسد لا ينصف فى الاهتزاز لها وانه لجدير بذلك وانها لمن كنوز الادب ثم قال والمرج النضير المذكور بها هو مرج الخز اخبرنى والدى أنه حضر فى زمان الصبا بهذا المرج على راحة ومعه الرئيس الفاضل أبو الحسين ابن الوزير أبى جعفر الوقشى والمسن ابن دويدة المشهور بخفة الروح قال فسبحت أمامنا أوز وجعلت تمرح وتنثر ما عليها من الماء فوق المرج والمرج قد أحدق به الوادى والشمس قد مالت عليه للغروب فقال لى أبو الحسين بالله صف يومنا وحسن هذا المنظر فقلت لا أصفه أو تصفه أنت وذلك منى فافكر كل منا على انفراد بعد ما ذكرنا ما نصف نثرا فقال أبو الحسين الوقشى

لله يوم بمرج الخز طاب لنا * فيه النعيم بحيث الروض والنهر
وللاوز على أرجائه لعب * اذا جرت بددت ما بيننا الدرر
والشمس تجنح نحو البين مائلة * كأن عاشقها فى الغرب ينتظر
والكاس جائلة باللب حائرة * وكلنا غفلات الدهر يبتدر

قال فقلت

الا حبذا يوم ظفرنا بطيبه * بأكناف مرج الخز والنهر يبسم
وقد مرحت فيه الاوز وأرسلت * على سندس درا به يتنظم
ومد به للشمس فهو كأنه * لثام لها ملقى من النور معصم
ادرنا عليها كؤسا بعثت به * من الانس ميتا عاده وهو يكلم
غدونا اليه صامتين سكينة * فرحنا وكل بالهوى يترنم

فأظهر كل منا لصاحبه استحسان ما قال تنشيطا وتتميما للمسرة ثم قلنا للمسن ما عندك أنت تعارض به هاتين القطعتين قال بهذا ورفع رجله وحبق حبقة فرفعت منها أرجاؤه فقال له أبو الحسين ما هذا يا شيخ السوء فقال الطلاق يلزمه ان لم تكن أوزن من شعركما وأطيب رائحة

لاخلاف فى نسبه وكذلك ملك السرير من ولد بهرام جور وكذلك صاحب خراسان فى هذا الوقت المؤرخ من ولد اسمعيل بن أحمد واسمعيل من ولد بهرام جور لا خلاف فيما ذكرنا من شهرة انساب من ذكرنا وقد تملك محمد هذا وهو شروان على مدينة الباب والابواب وذلك بعد موت صهر له يقال له عبد الملك ابن هشام وكان رجلا من الأنصار وكان قيد بامرة الباب والابواب وقد كانوا قطنوا تلك الديار منذ دخلها مسلمة بن عبد الملك وغيره من أمراء الاسلام فى صدر الزمان وتلى مملكة شروان مملكة أخرى من جبل القبخ يقال لها الاران وملكها يدعى الاران شاه وقد غلب على هذه المملكة فى هذا الوقت شروان أيضا وعلى مملكة أخرى يقال لها مملكة الموقانية والمعوّل فى مملكته على مملكة اللكز وهى أمة لا تحصى كثرة ساكنة فى أعالى هذا الجبل ومنهم كفار لا ينقادون الى ملك شروان يقال لهم الدودانية جاهلية لا يرجعون الى قبلة ولهم أخبار ظريفة فى المناكح والمعاملات وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج فيه أمم لا يعرف بعضهم بعضا لخشونة هذا الجبل وامتناعه وذهابه فى الجو وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره واحجاره وغلب هذا الرجل المعروف

وأغن صوتا وأطرب معنى فضحكنا منه أشد ضحك و جعلنا نهتز غاية الاهتزاز لموقع نادرته فقال والدليل على ذلك أنكم طربتم لما جئت به أكثر مما طربتم من شعركم * ثم قال ابن سعيد ومن متنزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق مقصود للفرجة يسرح فيه البصر وتبتهج فيه النفس أخبرني والدي عن أخيه أبي جعفر بن عبد الملك بن سعيد قال خرجت مع الشريف الاصم القرطبي الى بسيط الجزيرة الخضراء وقد تدبج بالنوار فلما حركنا حسن المكان وتشوقنا الى الاركان قال الشريف لقد ذكرني هذا البسيط بسيط فحص السرادق فقلت له فهل ثار في خاطر لم نظم فيه قال نعم ثم أنشد

ألا فدعوا ذكر العذيب و بارق * ولا تسأموا من ذكر فحص السرادق
مجرّ ذيول السكر من كل مترف * ومجرى الكؤس المترعات السوابق
قصرت عليه اللحظ مادمت حاضرا * وفكري في غيب لمرآه شائق
أيا طيب أيام تقضت بروضة * على لمح غدران وشم حدائق
اذا غردت فيها حمائم دوحها * تخيلتها الكتاب بين المهارق
وما باختيار الطرف فارقت حسنها * ولكن بكيد من زمان منافق

قال أبو جعفر فلما سمعت هذا الشعر لم أتمالك من الاستعبار وحركني ذلك الى أن قلت في حوز مؤمل سيد متنزهات غرناطة ولم يذكر هنا ما قاله فيه وذكره في موضع آخر لم يحضرني الآن حتى أورده هنا والله أعلم ومن متنزهات قرطبة السد قال ابن سعيد أخبرني والدي ان الشاعر المبرز أبا شهاب المالقي انشده لنفسه واصفا يوم راحة بهذا السد

و يوم لنا بالسد لو رد عيشه * بعشـــــة ايام الزمان رددناه
بكرناله والشمس في خدر شرقها * الى أن اجابت اذ دعا الغرب دعواه
قطعناه شدوا واغتباقا ونشوة * ورجع حديث لو رقى الميت أحياه
على مثله من منزه تبتغي المنى * فلله ما احـــلى وابدع مرآه
شد تنابه الارجاء وألقت نثارها * علينا فأصغينا له وقبلناه
لئن بان أنا بالانين لفقده * و بالدمع في اثر الفراق حكيناه

وأنشدني والدي موشحة لابي الحسن المريني معاصره وصاحبه يذكر فيها هذا السد وهي

(مطلع)

في نغمة العود والسلافه * والروض والنهر والنديم
اطال من لامني خلافه * فظل في نحـــه مليم

(دور)

دعني على منهج التصابي * ما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في المنى عتابي * فلست اصغي الى عتاب
لا ترج ردى الى جواب * والكاس تفتر عن حباب
والغصن يبدي لنا انعطافه * اذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافه * واختال في برده الرقيم

محمد بن يزيد الى ملكه منها خراسان شاه وزادان شاه وسنذكر بعد هذا الموضع تغلبه على مملكة شروان وقد كان قبل ذلك على الاران هو وأبوه من قبل ثم على سائر الممالك وتلي مملكة شروان في جبل الفتح مملكة طبرستان وملكها في هذا الوقت مسلم وهو ابن أخت عبد الملك الذي كان أمير الباب وهي أول الامم المتصلة بالباب والابواب ويبادي أهل الباب والابواب مملكة يقال لها حيدان وهذه الامة داخلة في جملة ملوك الخزر وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها اسمندر وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر وذلك انها افتتحت في بدء الزمان افتتحها سليمان ابن ربيعة الباهلي رضي الله تعالى عنه فانتقل الملك عنها الى مدينة آمل وبينها و بين الاولى سبعة أيام وآمل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك يتشعب منه شعبة نحو بلاد البلغر وتصب في بحر مانطش وهذه المدينة جانبان وفي وسط النهر جزيرة فيها دار الملك وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة وبها جسر الى أحد الجانبين من سفن وفي هذه المدينة

الخزر فى خلافة هرون الرشيد وقد انضاف اليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم وذلك أن ملك الروم نقل من كان فى ملكه من اليهود الى دين النصرانية واكرههم وهو أرميوس ملك الروم فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية أخبار ملوك الروم وأعدادهم وأخبار هذا الملك ومن قد شاركه فى ملكه فى هذا الوقت المؤرخ فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم الى أرضه على ماوصفنا وكان لليهود مع ملك الخزر خبر ليس هذا موضع ذكره وقد ذكرناه فيما سلف من كتبنا وأما من فى بلاده من الجاهلية فأجناس منهم الصقالبة والروس وهم فى احدى جانبى هذه المدينة ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلى واذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهى فى الحياة وان ماتت المرأة لم يحرق الرجل وان مات أعزب زوج بعد وفاته والنساء يرغبن فى تحريق أنفسهن لدخولهن عند أنفسهن الجنة وهذا فعل من أفعال الهند على حسب ماذكرنا آنفا الا أن الهند

(دور)

ياحبذا عهدى القديم * ومن به همت مسعدى
ريم عن الوصل لايريم * مولـــع بالتودد
ماتم الابه النعـيم * طوعا على رغم حسدى
معتدل القد ذو نحافه * اسقمنى طرفه السقيم
ورام طرفى به انتصافه * فخد فى خده الكليم

(دور)

غصن الصبا عاطر المقبل * أحلى من الامن والامل
ظامى الحشا مفعم المخلخل * حلو اللمى ساحر المقـل
لكل مـن رامـه توصـل * لم يخش ردا بما فعـــل
اشكو فيبدى لى اعترافه * ان حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيـه رافه * تخفى لى فيـه أن أهـيم

(دور)

لله عصرلنا تقـضى * بالسد والمنبر البهـيج
أرى ادكارى اليه فرضا * وشـوقه دائما يهـيج
فكم خـلعنا عليه غمضا * وللصـبا مسرح أريج
وردأطال المنى ارتشافه * حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافـه * وهكذا الدهـر لايديم

(دور)

يامن يحث المطى غـربا * عـرج عـلى حضرة الملوك
وانثر بها ان سفحت غربا * مـن مـدمـع عاطل سـلوك
واسمع الى من أقام صـبا * واحـك صـداه لافض فـوك
بلغ سـلامى قصر الرصافه * وذكـره عهـدى القـديم
وحى عـنى دار الخـلافه * وقف بهـا وقفـة الغـريم

قال ابن سعيد والمنبر المذكور فى هذه الموشحة من منتزهات قرطبـة والسـد هو الارحاء التى ذكرها فى زجله قاسم بن عبود الرياحى روينه عن والدى عن قائله وهو

(مطلع)

بالله أى نصـيب * من ليس لى فيه نصيب
محبوبا مخالف * ومعـسو رقيب

(دور)

حين نقصـد مكانو * يقـم فى المقام
و يخـل علينا * بردالسـلام
أدخـلت ياقلـبى * روحك فى زحام

سلامتك عندى * هى شئ عجيب
وكيف بالله يسلم * من هو فى لهيب
(دور)
يا الله يا حبيبي * اترك ذا النقار
واعمد أن نطيب * فى هذا النهار
واخرج معى للوادى * لشرب العقار
نتمم نهارنا * فى لذة وطيب
فى الارحا والا * فى المرج الخصيب
(دور)
أو عند النواعير * والروض الشريق
أو قصر الرصافه * أو وادى العقيق
حرق والله دونك * هو عندى الحريق
وفى حبك امسيت * فى أهلى غريب
وما الموت عندى * الا حين تغيب
(دور)
اتكل على الله * وكن فظ جسور
وان ريت فضولى * فقل أى تمور
كش عنى وجهك * فان رآك نفور
يهرب عنك خائف * ويبقى مريب
وامش انت موقر * كانك خطيب
(دور)
ما أعجب حديثى * ايش هذا الجنون
نطلب ونذبر * امرا لا يكون
وكم ذا نهون * شيأ لا يهون
وايش مقدار ما نصبر * لبعد الحبيب
رب اجمعنى معو * عاجلا قريب

قال ابن سعيد وأما نهر قرطبة فانه يصغر عن عظمه عند اشبيلية بحيث صنع عليه قنطرة من حجارة لا يتأتى مثلها فى نهر اشبيلية ومنبعه من جهة شقورة يمر النصف منه الى مرسية مشرقا والنصف الى قرطبة واشبيلية مغربا ولما ذكر الرازى قرطبة قال ونهرها الساكن فى جريه اللين فى انصبابه الذى تؤمن مغبة ضرره فى جمله وقال هذا الا انه يعظم عند اشبيلية فاذا حان جمله فى ايام الامطار أشفقت اشبيلية على الغرق وتوقع اهلها الهلاك والقنطرة التى على هذا النهر عند قرطبة من اعظم آثار الاندلس واعجبها اقواسها سبعة عشرة قوسا وبانيها على ما ذكره ابن حيان وغيره السمح بن مالك الخولانى صاحب الاندلس بامر عمر بن عبد

ليس من شانها أن تحرق المرأة مع زوجها الا أن ترى ذلك المرأة والغالب فى هذا البلد المسلمون لانهم جند الملك وهم يعرفون فى هذا البلد باللارسية وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم وكان فى قديم الزمان بعد ظهور الاسلام وقع فى بلادهم جدب ووباء فانتقلوا الى ملك الخزر وهم ذوو باس وشدة وعليهم يعول ملك الخزر فى حروبه وأقاموا فى بلده على شروط بينهم أحدها اظهار الدين والمساجد والاذان وثانيها أن تكون وزارة الملك فيهم والوزير فى وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه وثالثها أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا فى عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ويحاربون معه سائر الناس من الكفار ويركب منهم مع الملك فى هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن والدروع والخود ومنهم رامحة أيضا على حسب ما فى المسلمين من آلات السلاح ولهم قضاة مسلمون ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة اثنان منهم للمسلمين واثنان للخزر يحكمون بحكم التوراة واثنان لمن بها من النصرانية يحكمون بحكم النصرانية وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية وهى قضايا عقلية فاذا ورد عليهم مالا علم لهم به من النوازل

العظام اجتمعوا الى قضاة ملوك الشرق فى هذا الصقع من له جند من برو رغير ملك الخزر وكل مسلم من تلك الديار يعرف باسماء هؤلاء القوم اللارشية والروس والصقالبة الذين ذكرنا انهم جاهلية من جند الملك وعبيده وفى بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارشية فى طرف بلده لعدله وأمنه ولهم مسجد جامع والمنارة تشرف على قصر الملك ولهم مساجد أخرفيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن فاذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة (قال المسعودى) وليس اخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان وذلك ان للخزر ملك يقال له خاقان ورسمه أن يكون فى يدى ملك آخر هو وغيره فخاقان فى جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة ولا الخروج من مسكنه معه حرمه لا يأمر ولا ينهى ولا يدبر من أمر المملكة شيأ ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم الا بخاقان يكون عنده فى دار مملكته ومعه فى حيزه فاذا أجدبت ارض الخزر أو نابت بلادهم نائبة أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الامم أوفاجأهم أمر من الامور نفرت الخاصة والعامة الى

المسلمين فتحا كموا اليهم وانقادوا الى ماتوجبه شريعة الاسلام وليس فى

العزيز رضى الله عنه وشيدها بنو أمية بعد ذلك وحسنوها قال ابن حيان وقيل انه قد كانت فى هذا المكان قنطرة من بناء الاعاجم قبل دخول العرب بنحو مائتى سنة أثرت فيها الازمان بمكابدة المد حتى سقطت حناياها ومحيت أعاليها و بقيت أرجلها وأسافلها وعليها بنى السمح فى سنة احدى ومائة انتهى وقال فى مناهج الفكر ان قنطرة قرطبة احدى أعاجيب الدنيا بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقى وطولها ثمانمائة ذراع وعرضها عشرون باعا وارتفاعها ستون ذراعا وعدد حناياها ثمان عشرة حنية وعدد أبراجها تسعة عشر برجا انتهى *(رجع الى قرطبة)* ذكر ابن حيان والرازى والحجارى أن التنبان ثانى قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا وصفع نهر رومية بالصفر فأرخت الروم من ذلك العهد وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة أمر ببناء المدن العظيمة بالاندلس فبنيت فى مدته قرطبة واشبيلية وماردة وسرقسطة وانفرد الحجارى بأن التنبان المذكور وجه أربعة من اعيان ملوكه للاندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها وسماها باسمه وان هذه الاسماء الاربعة كانت أسماء لاولئك الملوك وغير الحجارى جعل أن هذه المدن مشتقة مما تقتضيه اوضاعها كما مر وذكروا انه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الاخيرة الذين هم بنو عيصو بن اسحق بن ابراهيم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام الى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يافث المتغلبون على الاندلس الى أن اخذها منهم المسلمون ولم تكن فى الجاهلية سرير السلطنة الاندلس بل كرسيا لخاص مملكتها وسعدت فى الاسلام فصارت سرير السلطنة العظمى الشاملة وقطبا للخلافة المروانية وصارت اشبيلية وطليطلة تبعا لها بعدما كان الامر بالعكس والله يفعل مايشاء بيده الملك والتدبير وهو على كل شئ قدير لا اله الا هو العلى الكبير وقال صاحب نشق الازهار عندما تعرض لذكر قرطبة هى مدينة مشهورة دار خلافة واهلها أعيان ناس فى العلم والفضل وبها جامع ليس فى الاسلام مثله انتهى ومن الاسباب فى سلب محاسن قرطبة عيث البربر بها فى دخولهم مع سليمان المستعين الاموى حين استولى على قرطبة فى دولته التى افتتحت بالقهر وسفك الدماء وكان من امراء البربر المعاضدين لسليمان على بن حمود من بنى على بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن على بن ابى طالب رضى الله عنهم أجمعين وجده ادريس هرب من هرون الرشيد الى البربر فقبر بر ولده وبنى ابنه ادريس مدينة فاس وكان المؤيد هشام يشتغل بالملاحم ووقف على أن دولة بنى امية تنقرض بالاندلس على يد علوى أوّل اسمه عين فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة ومحوا كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها كان من أكبر أمرائهم على بن حمود وبلغ هشاما المؤيد وهو محبوس خبره واسمه ونسبه فدس اليه ان الدولة صائرة اليك وقال له ان خاطرى يحدثنى أن هذا الرجل يقتلنى يعنى سليمان فان فعل فخذ بثارى وكان هذا الامر هو الذى قوى نفس ابن حمود على طلب الامامة وحمله على الاخذ بثار هشام المؤيد فكان المؤيد أحد من اخذ بثاره بعد موته وتولى بعد ذلك على بن حمود وبويع بقرطبة فى قصرها فى اليوم الذى قتل فيه سليمان المستعين واخذ الناس بالارهاب والسطوة واذل رؤس البربر وبرقت للعدل فى ايامه بارقة خلب لم تكد

تقدم حتى خبت وجلس للظالم وقدمت له جماعة من البربر في اجرام فضرب رقابهم واهلهم وعشائرهم ينظرون وخرج يوما على باب عامر فالتقى فارسا من البربر وأمامه حمل عنب فاستوقفه وقال له من اين لك هذا فقال أخذته كما يأخذ الناس فأمر بضرب عنقه ووضع رأسه وسط الحمل وطيف به في البلد واستمر على هذا مع اهل قرطبة في أحسن عشرة نحو ثمانية أشهر حتى بلغه قيام الاندلسيين بالمرتضى المرواني في شرق الاندلس فتغير عما كان عليه وعزم على اخلاء قرطبة وابادة أهلها فلا يعود لأعقابهم بها سلطان آخر الدهر وأغضى للبربر عن ظلمهم فعاد البلاء الى حاله وانتزع أهل قرطبة وهدم المنازل واستهان بالاكابر ووضع المغارم وقبض على جماعة من أعيانهم وألزمهم بمال فلما غرموه سرحهم فلما جيء اليهم بدوابهم ليركبوها أمر من أخذ الدواب وتركهم ينزلون الى منازلهم على أرجلهم وكان منهم أبو الحزم الذي ملك قرطبة بعد وصارت دولته بوراثة ولده معدودة في دول الطوائف فانجمعت عنه على النفوس وتوالى عليه الدعاء فقتله صبيان أغمار من صقالبة بني مروان في الحمام وكان قتله غرة ذي القعدة سنة ثمان وأربعمائة وكان الصقالبة ثلاثة فهربوا واختفوا في اماكن يعرفونها وصح عند الناس موته ففرحوا وكانت مدته كما نحو عامين وحققها بعض فقال أحد وعشرون شهرا وستة أيام وكان الناصر علي بن حمود على عجمته وبعده من الفضائل يصغي الى الامداح ويثيب عليها ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي ومن شعرائه المختصين به ابن الخياط القرطبي ومن شعره قوله

راحت تذكر بالنسيم الراحا * وطفاء تكسر للجنوح جناحا
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت * من برقها كي تهتدي مصباحا

وعبادة بن ماء السماء وكان معروفا بالتشيع وفيه يقول من قصيدة

أبوكم علي كان بالشرق بدءها * ورثتم وذا بالغرب أيضا سميه
فصلوا عليه أجمعون وسلموا * له الامر اذ ولاه فيكم وليه

ومدحه ابن دراج القسطلي بقوله

لعلك يا شمس عند الاصيل * شجيت لشجو الغريب الذليل
فكوني شفيعي لابن الشفيع * وكوني رسولي لابن الرسول

وكان أخوه القاسم بن حمود أكبر منه بعشر سنين وامهما واحدة وهي علوية ولما قتل الناصر كان القاسم واليا على اشبيلية وكان يحيى بن علي واليا على سبتة فاختلف هؤلاء البربر فمال أكثرهم الى القاسم لكونه غبن أولا وقدم عليه اخوه الاصغر وكونه قريبا من قرطبة وبينهم وبين يحيى البحر فلما وصلت رسلهم الى القاسم لم يظهر فرحا بالامامة وخاف أن تكون حيلة من أخيه عليه فتقهقر الى أن اتضح له الحق فركب الى قرطبة وبويع فيها بعد ستة أيام من قتل أخيه واحسن السيرة وأحس من البربر الميل الى يحيى ابن أخيه علي صاحب سبتة فتهالك في اقتناء السودان وابتاع منهم كثيرا وقودهم على أعماله فأنفت البربر من ذلك وانحرفوا عنه وفي سنة تسع واربعمائة قام عليه بشرق الاندلس المرتضى عبد الرحمن من اعقاب الناصر لان اهل الاندلس صعب عليهم ملك بني حمود العلويين بسبب البربر فارادوا

ملك الخزر فقالوا له قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه وقد تشاءمنا به فاقتله أو سلمه الينا نقتله فربما سلمه اليهم فقتلوه وربما تولى هو قتله وربما رق له فدافع عنه لان قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه هذا رسم الخزر في هذا الوقت فلست أدري في قديم الزمان كان ذلك أم حدث وانما ينسب خاقان هذا الأهل بيت واعيانهم ارى ان الملك كان فيهم قديما والله اعلم وللخزر زوارق يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصب الى نهرها من اعاليها يقال له برطاس عليه امم من الترك حاضرة داخلة في جملة ممالك الخزر وعمائرهم متصلة بين ملك الخزر والبلغر يرد هذا النهر من حد بلاد البلغر والسفن تختلف فيه من البلغر والخزر وبرطاس امة من الترك على ماذكرنا على هذا النهر المعروف بهم ومن بلادهم تحمل جلود الثعالب السود والحمر التي تعرف بالبرطاسية يبلغ الجلد منها مائة دينار وأكثر ذلك من السود والحمر اخفض ثمنا منها وتلبس السود منها ملوك العرب والعجم وتتنافس في لبسه وهو اغلى عندهم من السمور والفنك وماشاكل ذلك وتتخذ الملوك منه القلانس والخفاف ويتعذر في الملوك من ليس له خفتان ودواج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود وفي اعالي

رجوع الامامة الى بنى مروان واجتمع له أكثر ملوك الطوائف وكان معه حين أقبل لقرطبة منذر التجيبى صاحب سرقسطة وخيران العامرى الصقلبى صاحب المرية وانضاف اليهم جمع من الفرنج وتأهب القاسم والبرابرة للقائهم فكان من الاتفاق العجيب أن فسدت نية منذر وخيران على المرتضى وقالا أرانا فى الاوّل وجها ليس بالوجه الذى نراه حين اجتمع اليه الجم الغفير وهذا ماكر غير صافى النية فكتب خيران الى ابن زيرى الصنهاجى المتغلب على غرناطة وهو داهية البربر وضمن له أنه متى قطع الطريق على المرتضى عند اجتيازه عليه الى قرطبة خذل عن نصرته الموالى العامريين أعداء المروانيين وأصحاب رياسة الثغور فأصغى ابن زيرى الى ذلك وكتب المرتضى الى ابن زيرى يدعوه لطاعته فقلب الكتاب وكتب فى ظهره قل يا أيها الكافرون السورة فارسل اليه كتابا ثانيا يقول فيه جئتك بجميع أبطال الاندلس وبالفرنج فماذا تصنع وختم الكتاب بهذا البيت

ان كنت منا أشر بخير * أولا فأيقن بكل شر

فأمر الكاتب ان يحوّل الكتاب ويكتب فى ظهره ألهاكم التكاثر السورة فازداد حنقه وحمله الغيظ الى أن ترك السير الى حضرة الامامة قرطبة وعدل الى محاربته وهو يرى أن يصطلمه فى ساعة من نهار ودامت الحرب أياما وأرسل ابن زيرى الى خيران يستنجزه وعده فاجابه انما توقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ولو كنا بيواطننا معك فاثبت جمعك لنا ونحن ننهزم عنه ونخذله فى غد ولما كان من الغد رأى اعلام خيران واعلام منذر وأصحاب الثغور قد ولت عنه فسقط فى يد المرتضى وثبت حتى كادوا يأخذونه واستحر القتل وصرع كثير من أصحابه فلما خاف القبض عليه ولى فوضع عليه خيران عيونا فلحقوه بقرب وادى آش وقد جاوز بلاد البربر وأمن على نفسه فهجموا عليه فقتلوه وجاؤا برأسه الى المرية وقد حل بها خيران ومنذر فتحدث الناس انهما اصطبحا عليه سرورا بهلاكه وبعد هذه الواقعة اذعن أهل الاندلس للبرابرة ولم يجتمع لهم بعدها جمع ينهضون به اليهم وضرب القاسم ابن حمود سرادق المرتضى على نهر قرطبة وغشيه خلق من النظارة وقلوبهم تتقطع حسرات وأنشد عبادة بن ماء السماء قصيدته التى أولها

لك الخير خيران مضى لسبيله * وأصبح أمر الله فى ابن رسوله

وتمكنت امور القاسم وولى وعزل وقال وفعل الى أن كشف وجهه فى خلع طاعته ابن أخيه يحيى بن على وكتب من سبتة الى أكابر البرابر بقرطبة ان عمى أخذ ميراثى من أبى ثم انه قدم فى ولاياتكم التى أخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان وأنا اطلب ميراثى وأوليكم مناصبكم واجعل العبيد والسودان كما هو عند الناس فاجابوه الى ذلك فجمع ما عنده من المراكب وأعانه اخوه ادريس صاحب مالقة فجاز البحر بجمع وافر وحصل بمالقة مع اخيه وكتب اليه خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه فى اعانة أبيه وأكد المودة فقال له اخوه ادريس أن خيران رجل خداع فقال يحيى ونحن نخدعون فيما لا يضرنا ثم ان يحيى أقبل الى قرطبة وانثال البرابر معه ففر القاسم الى اشبيلية فى خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت ٢٨ شهر ربيع الآخر سنة ٤١٣ وحل يحيى بقرطبة فبايعه البرابر والسودان وأهل البلد يوم

من سواحلهم وهى امة عظيمة جاهلية لا تنقاد الى ملك ولا شريعة وفيهم تجار يختلفون الى مدينة بحر البلغر والروس فى ارضهم معدن الفضة كثير نحو معدن الفضة الذى بجبل بنجهير من أرض خراسان ومدينة البلغر على ساحل بحر مانطش وأرى انهم فى الاقليم السابع وهم نوع من الترك والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم من ارض خراسان ومن خوارزم اليهما لأن ذلك بين بوادى غيرهم من الترك والقوافل مخفرة منهم وملك البلغر فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة مسلم اسلم فى أيام المقتدر وذلك بعد العشر والثلثمائة وذلك لرؤيا رآها وقد كان له ولد حج وورد مدينة السلام وحمل معه المقتدر لواء وبنودا ولهم جامع وهذا الملك غزا بلاد القسطنطينية فى نحو ألف فارس فصاعدا فشن الغارات حولها الى بلاد رومية والاندلس وأرض أرجان والجلالقة والافرنجة ومنهم الى القسطنطينية فى خليج آخر من البحر الرومى لا منفذ له الى غيره وانتهوا الى بلاد

السبت مستهل جمادى الآخرة وكان يحيى من النجباء وامه فاطمية وانما كانت آفته العجب واصطناع السفلة واشتط أكابر البرابر عليه وطلبوا ما وعدهم من اسقاط مراتب السودان فبذل لهم ذلك فلم يقنعوا منه وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيبة ويفرغ بيت المال وفر السودان الى عمه باشبيلية ومن البرابر ومن جند الاندلس من احتجب عنهم يحيى وتكبر عليهم ولم يمل اليه ملوك الطوائف وبقي منهم كثير على الخطبة لعمه القاسم الى أن اختلت الحال بحضرة قرطبة وأيقن يحيى انه متى أقام بها قبض عليه وكان قد ولى على سبتة أخاه ادريس وبلغه أن أهل مالقة خاطبوا خيران وكاتبوه فطمع خيران فيها وفر يحيى في خواصه تحت الليل الى مالقة ولما بلغ القاسم فراره ركب من اشبيلية الى قرطبة فخطب له بها يوم الثلاثاء ١٢ ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤١٣ ولم يصلح الحال للقاسم منذ وصل الى الحضرة ووقع الاختلاف وكان هوى السودان معه وهوى كثير من البرابرة مع يحيى وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهرو كثر الارجاف بذلك ووقع الطلب على بني أمية فتفرقوا في البلاد ودخلوا في أغمار الناس وأخفوا زيهم ثم ان الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة وتكاثر البلديون وأخرجوا القاسم وبرابرته فضرب خيمة بغربيها وقاتلهم مدة خمسين يوما قتالا شديدا وبنى القرطبيون أبواب مدينتهم وقاتلوا القاسم من الاسوار الى أن طال عليهم الحصار فهدموا بابا من الابواب وخرجوا خرجة رجل واحد وصبروا فمنحهم الله تعالى الظفر وفر السودان مع القاسم الى اشبيلية وفر البرابرة الى يحيى وهو بمالقة وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس ١٢ ليلة خلت من شعبان سنة ٤١٤ وكان ابنه محمد ابن القاسم واليا على اشبيلية وثقته المدبر لامره محمد بن زيري من أكابر البرابرة وقاضيها محمد ابن عباد فعمل القاضي لنفسه وهو جد المعتمد بن عباد وأطمع ابن زيري في التملك فأغلق الابواب في وجه مصطنعه وحاربه فقتل من البرابر والسودان خلق كثير وابن عباد يضحك على الجميع فيئس القاسم وقنع أن يخرجوا اليه ابنه وأصحابه ويسير عنهم فاخرجوهم اليه فسار بهم الى شريش وعندما استقر بها وصل اليه يحيى ابن أخيه من مالقة ومعه جمع عظيم وحاصره في المدينة عشرين يوما كان فيها حروب صعاب وقتل من الفريقين خلق كثير وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه واسلام أهل شريش له وفر سودانه وحصل القاسم وابنه في يد يحيى وكان قد أقسم أنه ان حصل في يده ليقتلنه ولا يتركه حتى يلي الامامة بقرطبة مرة ثالثة فرأى التربص في قتله حتى يرى رأيه فيه فحدث عنه بعض أصحابه انه حمله بقيد الى مالقة وحبسه عنده وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماؤه في الابقاء عليه لانه لا قدرة له على الخلاص وكان كلما نام رأى والده عليا في النوم ينهاه عن قتله ويقول له أخي أكبر مني وكان محسنا الي في صغري ومسلما الي عند امارتي الله الله فيه وامتدت الحال على ذلك الى أن قتله خنقا بعد ١٣ سنة من حين القبض عليه لانه قد كان حبسه في حصن من حصون مالقة فنمي اليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان فقال أو بقي في رأسه حديث بعد هذا العمر فقتله سنة ٤٢٧ وبقي أهل قرطبة بعد فرار القاسم نيفا عن عشرين يرون رأيهم فيمن يبايعونه بالامامة ولما كان يوم الثلاثاء نصف شهر رمضان سنة ٤١٤ أحضر المستظهر وسليمان بن المرتضى وأموى

وصفنا أن البلغر تتصل سراياها الى ساحل بحر الروم وكان نفر منهم ركبوا في مراكب الترسوسيين فأتوا بهم الى بلاد ترسوس والبلغر أمة عظيمة منيعة شديدة البأس ينقاد اليها من جاورها من الامم والفارس ممن قد أسلم مع ذلك يقاتل المائة من الفرسان والمائتين من الكفار ولا يمنع أهل القسطنطينية منهم في هذا الوقت الاسوار وكذلك من في هذا الصقع لا يعتصم منهم الا بالحصون والجدران والليل في بلاد البلغر في نهاية من القصر في بعض السنة ومنهم من زعم أن أحدهم لا يستطيع أن يفرغ من طبخ قدره حتى يأتي الصباح وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا علة ذلك الوجه من الفلك وعلة الموضع الذي يكون الليل فيه ستة أشهر لا نهار فيه والنهار ستة أشهر متصلة لا ليل فيه وذلك نحو الجدي وقد ذكر أصحاب الزيجات في النجوم علة ذلك من الوجه الفلكي والروس امم كثيرة وانواع شتى ومنهم من يقال لهم الموذعانه وهم الاكثرون يختلفون بالتجارة الى بلاد الاندلس ورومية وقسطنطينية والخزر وقد كان بعد الثلثمائة ووردعليهم نحو من خمسمائة مركب في كل مركب مائة نفس فدخلوا خليج نيطش المتصل بنهر الخزر وهنالك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية

آخر معه فبايعا المستظهر وقبلا يده بعدما كان قبل البيعة باسم سليمان بن المرتضى على ما ارتضاه الاماثل فبشر اسمه وكتب اسم المستظهر وركب الى القصر وجعل معه ابنى عمه المذكورين بخدمتهما وكان قد رفع جماعة من الاتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر بن شهيد المنهمك فى بطالته وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء فى مقالته وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف فى حالته فأحقد بذلك مشايخ الوزراء والاكابر وبادر المستظهر باصطناع البرابر وأكرم مثواهم وأحسن مأواهم واشتغل مع ابن شهيد وابنى حزم بالمباحثة فى الآداب ونظم الشعر والتمسك بتلك الاهداب والناس فى ذلك الوقت أجهل ما يكون وكان جماعة من أهل الشر فى السجون يتعين أن لايخرج منهم انسان فأخرج منهم شخصا يقال له أبو عمران وقد كان أشار بعض الوزراء عليه بعدم اخراجه فأخرجه وخالفه فى ذلك ولم يقبل النصيحة وفعل ما أداه الى الفضيحة فسعى القوم الذين خرجوا من المحبوس على افساد دولته وابدال فرحه بالبوس لما اشتغل عنهم بالادباء والشعراء حسبما اقتضاه رأيه المعكوس فسعوا فى خلعه مع البرابر وقتل فى ذى القعدة من السنة التى بويع فيها وصار كأمس الدابر بعد سبعة وأربعين يوما من يوم بويع بالخلافة واذا أراد الله أمرا فلا يقدر أحد أن يأتى خلافه وعمره ثلاث وعشرون سنة كأنها سنة ومن شعر المستظهر المذكور وهو من القريض الممدوح صاحبه بالبلاغة المشكور

طال عمر الليل عندى * مذ تولعت بصدى
ياغزالا نقض العهـ * ـد ولم يوف بوعدى
أنسيت العهد اذ بتـ * ـنا على مفرش ورد
واعتنقنا فى وشاح * وانتظمنا نظم عقد
ونجوم الليل تسرى * ذهبا فى لازورد

وكتب اليه شاعر فى طرس مكشوط السطر مبشور وفيه بشارة ببقاء الامام الفاضل المستظهر

ملك أعاد العيش غضا ملكه * وكذا يكون به طوال الاعصر

فاجزل صلته وكتب فى ظهر الورقة

قبلنا العذر فى بشر الكتاب * لما أحكمت فى فضل الخطاب

وقد قدمنا فى الباب الثالث شيأ من هذه الاخبار وما حصل بعد ذلك بقرطبة الى أن تولى الامر ابن جهور فى صورة الوزارة ثم ابنه الى أن أخذ قرطبة منه المعتمد بن عباد حسبما ذكر فى أخباره ثم آل الامر بعد ذلك كله الى استيلاء ملوك العدوة من الملثمين والموحدين على قرطبة الى أن تسلمها النصارى أعادها الله تعالى للاسلام كما يذكر فى الباب الثامن* وقال صاحب مناهج الفكر فى ذكر قرطبة ما ملخصه فاما ما اشتمل عليه غرب الجزيرة من البلاد الخطيرة فمنها قرطبة وكانت مقر الملك ودار الامارة وأم ما عداها من البلاد منذ افتتحها المسلمون سنة ٩٢ زمن الوليد بن عبد الملك الى أن خرجت عن ايديهم وتنقلت فى أيدى ملوك المسلمين الى أن وصلت الى الناصر عبد الرحمن فبنى فى تجاهها مدينة سماها الزهراء يجرى بينهما نهر عظيم انتهى* واعلم أن المبانى دالة على عظم قدر بانيها كما ذكرناه فى كلام الناصر الذى طابت له

يصدون من يرد من ذلك البحر ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذى سفنه فى نهر الخزر تتصل بنهر نيطش وذلك ان بوادى الغزاة ترد الى ذلك ا كثر وتشتى هنالك فربما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر الى خليج نيطش فتعبر الغزاة عليه بخيولها وهو ماء عظيم يخسف من تحتهم لشدة استحجاره فتغير على بلاد الخزر وربما يخرج اليهم ملك الخزر اذا عجز من هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم ومنعهم العبور على ذلك الجمد وأما فى الصيف فلا سبيل للترك الى العبور فلما وردت مراكب الروس الى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر على ان يجتازوا البلاد وينحدروا فى نهره فيدخلوا بحر الخزر الذى هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما من بلاد الأعاجم على ماذكرنا ويجعلوا لملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هنالك من الامم على ذلك البحر فأباحهم ذلك فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه وصاروا مصعدين فى تلك الشعبة من الماء حتى وصلوا الى نهر الخزر وانحدروا فيه الى مدينة آمل وهو نهر عظيم وماء كثير فانتشرت مراكب الروس فى هذا البحر وطرحت سراياها الى الجبل والديلم وبلاد طبرستان وآبسكون وهى بلاد ساحل جرجان و بلاد

من

من الزهراء مجانيها ولم يزل البلغاء يصفون المباني باحسن الالفاظ والمعاني ورأينا أن نذكر هنا بعض ذلك زيادة فى توسيع المسالك فمن ذلك قول ابن حمديس الصقلى فى دار بناها المعتمد على الله

وياحبذا دار قضى الله أنها * يجدد فيها كل عز ولا يبلى
مقدسة لو أن موسى كليمه * مشى قدما فى أرضها خلع النعلا
وما هى الا خطة الملك الذى * يحط اليه كل ذى أمل رحلا
اذا فتحت أبوابها خلت انها * تقول بترحيب لداخلها أهلا
وقد نقلت صناعها من صفاته * اليها أفانينا فأحسنت النقلا
فمن صدره رحبا ومن نوره سنى * ومن صيته فرعا ومن حلمه أصلا
فأعلت به فى رتبة الملك ناديا * وقل له فوق السماكين أن يعلى
نسيت به ايوان كسرى لاننى * اراه له مولى من الحسن لامثلا
كأن سليمان بن داود لم تبح * مخافته للجن فى صنعه مهلا
ترى الشمس فيه ليقة تستمدها * أكف أقامت من تصاويرها شكلا
لها حركات أودعت فى سكونها * فما اتبعت فى نقلهن يد رجلا
ولما عشينا من توقد نورها * تخذنا سناه فى نواظرنا كحلا

وقال من أخرى يصف دارا بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية

أعمر بقصر الملك ناديك الذى * اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره * اعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه * فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسى الصبيح مع الفصيح بذكره * وسما ففاق خورنقا وسديرا
لو أن بالايوان قوبل حسنه * ماكان شيأ عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الالى * رفعوا البناء وأحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا * لملوكهم شبهاله ونظيرا
أذكرتنا الفردوس حين أريتنا * غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم * ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت * حسناتهم أذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا أنه * حقر البدور فأطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبدع منظر * ثم انثنيت بناظرى محسورا
فظننت أنى حالم فى جنة * لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت أبوابه * جعلت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم * فغرت بها أفواهها تكبيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندها * من لم يكن بدخولها مأمورا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة * فيه فتكبو عن مداه قصورا

النفاطة ونحو بلاد اذربيجان وذلك أن من مدينة أردشير من بلاد أذربيجان الى هذا البحر نحو من ثلاثة ايام فسفكت الروس الدماء واستباحت النسوان والولدان وغنمت الاموال وشنت الغارات وأخربت وأحرقت فضج من حول هذا البحر من الامم لانهم لم يكونوا يعهدون فى قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه وانما يختلف فيه مراكب التجار والصيد وكان لهم حروب كثيرة مع الجبل والديلم وساحل جرجان ونفر أهل مودعه واران والسفلان وأذربيجان مع قائد لابن أبى الساج فانتهوا الى ساحل نفاطة من مملكة شروان المعروفة بباكوى وكانت الروس تأوى عند رجوعها من غاراتها الى جزائر بقرب النفاطة على أميال منها وكان ملك شروان يومئذ على بن الهيثم فاستعد الناس وركبوا فى القوارب ومراكب التجار وساروا نحو تلك الجزائر فمالت عليهم الروس فقتل من المسلمين وغرق ألف وأقام الروس شهورا كثيرة فى البحر على ماوصفنا لاسبيل لاحد ممن جاور هذا البحر من الامم اليهم والناس مهتابون لهم حذرون منهم لانهم بحر غام لمن حوله من الامم فلما غنموا وسئموا ماهم فيه ساروا الى فم نهر الخزر ومصبه فراسلوا ملك الخزر وحملوا اليه

الأموال والغنائم وملك الخزر بلا مراكب وليس لهم بها عادة ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم آفة عظيمة وعلمت الارسية ومن فى بلاد الخزر من المسلمين فقالوا للملك الخزر خلنا وهؤلاء القوم فقد أغاروا على بلاد المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والذرارى فلم يمكن الملك منعهم وبعث الى الروس فاعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم وعسكروا وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وصافوا المسلمين وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة آمل وكان المسلمون فى نحو خمسة عشر ألفا بالخيل والعدد فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام ونصر الله المسلمين عليهم وأخذهم السيف فمن قتيل وغريق ونجا منهم نحو خمسة آلاف وركبوا فى المراكب الى ذلك الجانب مما يلى بلاد برطاس وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر فمنهم من قتله أهل برطاس ومنهم من وقع الى بلاد البلغر المسلمين فقتلوهم وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطئ نهر الخزر نحوا من ثلاثين ألفا ولم يكن للروس من تلك السنة عودة الى ما ذكرنا (قال المسعودى) وانما ذكرنا

بمرخم الساحات تحسب أنه * فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه * مسكا تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الابصار منه اذا أتى * صبحا على غسق الظلام منيرا

ثم ذكر بركة فيها عليها أشجار من ذهب وفضة ترمى فروعها المياه وتفنن فذكر اسودا على حافاتها قاذفة بالمياه أيضا فقال

وضراغم سكنت عرين رياسة * تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها * وأذاب فى أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك * فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما * أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها * نارا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول * ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه * درعا فقدر سردها تقديرا
وبديعة الثمرات تعبر نحوها * عيناى بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى * سحر يؤثر فى النهى تأثيرا
قد صولجت أغصانها فكأنما * قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها * أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها * ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فان شدت * جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما فى كل غصن فضة * لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك فى الصهريج موقع قطرها * فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما * جعلت لها زهر النجوم ثغورا
ومصفح الابواب تبرا نظروا * بالنقش فوق شكوله تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت * تلك النهود من الجنان صدورا
خلعت عليه غلائلا ورسية * شمس ترد الطرف عنه حسيرا
واذا نظرت الى غرائب سقفه * أبصرت روضا فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى * حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعها أقلامها * فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة * مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه مخرم * بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة * تركوا مكان وشاحها مقصورا

ثم مدح المنصور بعد ذلك وختم القصيدة بقوله

يا مالك الارض الذى أضحى له * ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت * واستوجبت بقصورك التأخيرا

فعمرتها وملكت كل رياسة * منها ودمرت العدا تدميرا

قلت لم أر لهذه القصيدة من نظير في معناها اليانع النضير ولفظها العذب النمير الذي شمر فيه قائلها عن ساعد الاجادة أي تشمير غير أن فيها عندي عيبا واحدا وهو ختمها بلفظ التدمير وعلى كل حال فالحسن والاحسان يقادان في أرسان لعبد الجبار بن حمديس المذكور ذي المقاصد الحسان وخصوصا في وصف المباني والبرك فما أبقى لسواه في ذلك حسنا ولا ترك *(ومن ذلك) قوله في وصف بركة تجري اليها المياه من شاذروان من أفواه طيور وزرافات وأسود وكل ذلك في قصر أطنب في وصفه في قصيدة طويلة

والماء منه سبائك من فضة * ذابت على درجات شاذروان
وكأنما سيف هناك مشطب * ألقته يوم الحرب كف جبان
كم شاخص فيه يطيل تعجبا * من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها تسقي الرياض ينابعا * نبعت من الثمرات والاغصان
خصت بطائرة على فنن لها * حسنت فأفرد حسنها من ثاني
قس الطيور الخاشعات بلاغة * وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أتيح لها الكلام تكلمت * بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة * فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها * منها على العجب العجاب رواني
فكأنها ظنت حلاوة مائها * شهدا فذاقته بكل لسان
وزرافة في الجوف من أنبوبها * ماء يريك الجري في الطيران
مركوزة كالرمح حيث ترى له * من طعنة الحلق انعطاف سنان
وكأنها ترمي السماء ببندق * مستنبط من لؤلؤ وجمان
لو عاد ذاك الماء نفطا أحرقت * في الجو منه قميص كل عنان
في بركة قامت على حافاتها * أسد تذل لعزة السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسها * فلذاك انتزعت من الابدان
وكأن برد الماء منها مطفئ * نارا مضرمة من العدوان
وكأنما الحيات من أفواهها * يطرحن انفسهن في الغدران
وكأنما الحيتان اذ لم تخشها * أخذت من المنصور عقد أمان

وهاتان القصيدتان لابن حمديس كما في المناهج مع طولهما تدلان على الابداع الذي ابتكره والاختراع الذي ما ولج سمع أحد من الفضلاء الا شكره لما أسكره وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسي يصف قصرا بمصر يسمى منزل العز بناه حسن بن علي بن تميم بن المعز العبيدي

منزل العز كاسمه معناه * لا عدا العز من به سماه
منزل ودت المنازل في أعـ * ـلى ذراه لو صيرت اياه
فأجل فيه لحظ عينيك تبصر * أي حسن دون القصور حواه

هذه القصة دفعا القول من زعم ان بحر الخزر متصل ببحر مانطش وخليج القسطنطينية ولو كان لهذا البحر اتصال بخليج القسطنطينية من جهة بحر مانطش أو نيطش لكانت الروس قد خرجت فيه اذ كان ذلك بحرها على ما ذكرنا ولا خلاف بين من ذكرنا ممن جاور هذا البحر من الامم في أن بحر الاعاجم لا خليج له متصل بغيره من البحار لانه بحر صغير يحاط بعلمه وما ذكرنا من مراكب الروس مستفاض في تلك البلاد عند سائر الامم والسنة معروفة وكانت بعد الثلثمائة وقد غاب عني تاريخها ولعل من ذكر أن بحر الخزر متصل بخليج القسطنطينية يريد أن بحر الخزر هو بحر مانطش ونيطش الذي هو بحر البلغر والروس والله أعلم بكيفية ذلك وساحل طبرستان على هذا البحر وهنالك مدينة يقال لها الهمرجي مرسى للساحل وبينها وبين مدينة آمل ساعة من النهار وعلى ساحل جرجان مما يلي هذا البحر مدينة يقال لها آبسكون نحو ثلاثة أيام من جرجان وعلى هذا البحر الجيل والديلم وتختلف المراكب بالتجارات فيه الى مدينة آمل فيدخل في نهر الخزر اليها وتختلف المراكب فيه بالتجارات مع المواضع التي سميناها من ساحله الى باكوي وهي معدن النفط الابيض وغيره

سال فى سقفه النضار ولكن * جدت فى قراره الاهواه
وبأرجائه مجال طراد * ليس تنفك من وغى خيلاه
تبصر الفارس المدجج فيه * ليس تدمى من الطعان قناه
وترى النابل المواصل للنز * ع بعيدا من قرنه مرماه
وصفوفا من الوحوش وطير الـ * ـجو كل مستحسن مرآه
سكنات تخالها حركات * واختلاف كأنه أشباه
تحيا الحبيب حرفا بحرف * ما تعدى صفاته اذ حكاه
ورده وجنتاه نرجسه الفتان عيناه آسه عارضاه
وكأن الكافور والمسك فى الطيب وفى اللون صبحه ومساه
منظر يبعث السرور ومرأى * يذكر المرء طيب عصر صباه

وقال أبو الصلت أمية الاندلسى المذكور يذكر بناء بناه على بن تميم بن المعز العبيدى

لله مجلسك المنيف قبابه * بموطد فوق السماك مؤسس
موف على حبك المجرة تلتقى * فيه الجوارى بالجوارى الكنس
تتقابل الانوار من جنباته * فالليل فيه كالنهار المشمس
عطفت حناياه دوين سمائه * عطف الاهلة والحواجب والقسى
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت * بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قد أهيف * وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم * وأقر بالتقصير كل مهندس
فبدا للحظ العين أحسن منظر * وغدا الطيب العيش طيب معرس
فاطلع به قمرا اذا ما أطلعت * شمس الخدور عليك شمس الا كؤس
فالناس أجمع دون قدرك رتبة * والارض أجمع دون هذا المجلس

ويعجبنى من قول أبى الصلت أمية المذكور يصف حال زيادة النيل ونقصانه

ولله مجرى النيل منها اذا الصبا * أرتنا به من مرها عسكرا مجرا
اذا زاد يحكى الورد لونا وان صفا * حكى ماءه لونا ولم يحكه مرا

وقال رحمه الله تعالى يصف الرصد الذى بظاهر مصر

يا نزهة الرصد التى قد اشتملت * من كل شئ حلا فى جانب الوادى
فذا غدير وذا روض وذا جبل * والضب والنون والملاح والحادى

وهو مأخوذ من قول الاول يصف قصر أنس بالبصرة

زر وادى القصر نعم القصر والوادى * لابد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له شئ يشاكله * من منزل حاضر ان شئت أو بادى
تلقى به السفن والظلمان حاضرة * والضب والنون والملاح والحادى

وقال رحمه الله تعالى يذكر الهرمين

بعيشك هل أبصرت أحسن منظرا * على طول ما عاينت من هرمى مصر

أنافا

وليس فى الدنيا والله أعلم نفط أبيض الا فى هذا الموضع وهى على ساحل مملكة شروان وفى هذه النفاطة أطمة وهى عين من عيون الباب لا تهدأ على سائر الاوقات تتضرم الصعداء ويقابل هذا الساحل فى البحر جزائر منها جزيرة على نحو ثلاثة أيام من الساحل فيها أطمة عظيمة تزفر فى أوقات من فصول السنة فيظهر منها نار تذهب فى الهواء كأشمخ ما يكون من الجبال العالية تضىء الاكثر من هذا البحر ويرى ذلك من نحو مائة فرسخ من البر وهذه الاطمة تشبه أطمة جبل البركان من بلاد صقلية من أرض الافرنجة ومن بلاد أفريقية من أرض المغرب وليس فى آطام الارض أشد صوتا ولا أسود دخانا ولا أكثر تلهبا من الاطمة التى فى أعمال المهراج وبعدها أطمة وادى برهوت وهى نحو بلاد سبا وحضرموت من بلاد الشحر وذلك من بلاد اليمن وبلاد عمان وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة ثم ينعكس سفلا يهوى الى قعرها وحولها والجمر الذى يظهر منها حجارة وقد اجمرت بما قد أحاط بها من سواد حرارة النار وقد أتينا على علة تكون عيون النيران فى الارض وما سبب موادها فى كتابنا أخبار الزمان وفى هذا البحر جزائر أخر مقابلة لساحل جرجان يصاد منها

أناف بأكناف السماء وأشرفا * على الجو اشراف السماك على النسر
وقد وافيا نشزا من الارض عاليا * كأنهما نسران قاما على صدر

وستأتي ترجمته ان شاء الله تعالى في الباب الخامس * وعلى ذكر الانهار والبرك فما أحسن قول بعض الاندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات

غضبت مجاريها فأظهر غيظها * ما في حشاها من خفي مضمر
وكأن نبع الماء من جنباتها * والعين تنظر منه أحسن منظر
قضب من البلور أثمر فرعها * لما انتهت باللؤلؤ المتحدر

وقال ابن صارة الاندلسي يصف ماء بالرقة والصفا يجري على الصفا

والنهر قد رقت غلالة خصره * وعليه من صبغ الاصيل طراز
تترقرق الامواج فيه كأنها * عكن الخصور تهزها الاعجاز

وما أحسن قول بعض الادباء ولم يحضرني الآن اسمه

والنهر مكسو غلالة فضة * فاذا جرى سيلا فثوب نضار
واذا استقام رأيت صفحة منصل * واذا استدار رأيت عطف سوار

وقال ابن حمديس المغربي يصف نهرا بالصفاء

ومطرد الامواج يصقل متنه * صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح باطراف الحصى كلما جرى * عليها شكا أوجاعه بخريره

وهذا النهج متسع ولم نطل السير في هذه المهامه وانما ذكرنا بعض كلام المغاربة ليتنبه به منتقصهم من سنة أوهامه ولان في أمرها عبرة لمن عقل اذ أصدأ مرآة حسنها وأطالما كان لمثلها صقل وقد وقفت على كلام لصاحب المناهج في هذا المعنى فأحببت ذكره ملخصا وهو ونلحق بذكر المنازل التي راق منظرها وفاق مخبرها وارتفع بناؤها واتسع فناؤها طرفا من الكلام على ماعفاه الدهر من رسومها ومحاه من محاسن صور كانت أرواحا لجسومها وصف أعرابي محلة قوم ارتحلوا عنها فقال نثر الرياح تحلت عنها ربات الخدور وأقامت بها أثافي القدور ولقد كان أهلها يعفون آثار الرياح فعفت الرياح آثارهم وذهبت بأبدانهم وأبقت أخبارهم والعهد قريب واللقاء بعيد وقال عمر بن أبي ربيعة فأحسن

يادار امسى دارسا رسمها * وحشا قفارا مابها أهل
قد جرت الريح بها ذيلها * واستن في أطلالها الوابل

ومن كلام الفتح بن خاقان في قلائد العقيان يذكر آل عباد من فصل أكثر فيه التفجع وأطال به التوجع والقصور تختال في أدواحها والازاهر يحيي ميت الصبابة شذا أرواحها وأطيار الرياض كثكالى ينحن على خرابها وانقراض أترابها والوهي بمشيدها لاعب وعلى كل جدار منها غراب ناعب وقد محت الحوادث ضياءها وقلصت ظلالها وأفياءها ولطالما أشرقت بالخلائق وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت أيام نزلوا خلالها وتفيؤا ظلالها وعمروا حدائقها وجناتها ونبهوا الآمال من سناتها وراعوا الليوث في آجامها وأخجلوا الغيوث عند انسجامها فصبحت ولها تلفع واعتجار ولم يبق

نوع من البزاة البيض أسرع اجابة وأقلها معاشرة الآن في هذا النوع من البزاة شيأ من الضعف لان الصائد يصطادها من هذه الجزائر فيغذيها بالسمك فاذا اختلف عليها الغذاء عرض لها الضعف وقد قال الجمهور من أهل المعرفة بالضوارى وأنواع الجوارح من الفرس والترك والروم والهند والعرب ان البازي اذا كان الى البياض في اللون فانه أسرع البزاة وأحسنها وأنبلها أجساما واجرؤها قلوبا وأسهلها رياضة فانها أقوى جميع البزاة على السمو في الجو وأذهبها الصعداء وأبعدها غاية في الهواء لان فيها من حرف الحرارة وجراءة القلب ماليس في غيرها من جميع أنواع البزاة وأن اختلاف الوانها لاختلاف مواضعها وان من أجل ذلك خلصت البيض لكثرة الثلج في أرمينية وأرض الخزر وجرجان وماوالاها من بلاد الترك وقد حكى عن حكيم من خواقين الترك وهم الملوك المنقادة الى ملكهم جميع ملوك الترك أنه قال ان بزاة أرضنا اذا أسقطت أنفس فراخها من الوعاء الى الفضاء سمت في الجو الى الهواء البارد الكثيف فانزلت دواب تسكن هناك فتغذيها في أوكارها من ثلاث الدواب أطراها وقد قال جالينوس ان الهواء فيه نشأ وساكن وعن بليناس انه قال

من آثارها الانوى وأحجار قد هوت قبابها وهرم شبابها وقد يلين الحديد ويبلى على طيه الجديد * وقال ابو صخر القرطبي يذكر ذلك من أبيات ينعاهم بها

ديار عليها من بشاشة أهلها * بقايا تسر النفس أنسا ومنظرا
ربوع كساها المزن من خلع الحيا * برودا وحلاها من النور جوهرا
تسرك طورا ثم تشجيك تارة * فترتاح تأنيسا وتشجى تذكرا

(ومن كلام أبى الحسن القاشانى) يصف نادى رئيس خلا من ازدحام الملا وعوّضه الزمان عن تواصل أحبابه هجرا وقلا قد كان منزله مألف الاضياف ومأنس الاشراف ومنتجع الركب ومقصد الوفد فاستبدل بالانس وحشة وبالضياء ظلمة واعتاض من تزاحم المواكب تلاطم النوادب ومن ضجيج النداء والصهيل عجيج البكاء والعويل *(ومن رسالة لابن الاثير الجزرى يصف دمنة لعبت بها أيدى الزمن وفرقت بين المسكن والسكن كانت مقاصير جنة فأصبحت وهى ملاعب جنة وقد عميت أخبار قطانها وآثار أوطانها حتى شابهت احداهما فى الخفاء الاخرى فى العفاء وكنت أظن انها لا تسقى بعدهم بغمام ولا يرفع عنها جلباب ظلام غير أن السحاب بكاهم فأجرى بها هوامع دموعه والليل شق عليهم جيوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه)* وقد لمع فى بعض كلامه قول الشريف من أبيات يصف فيها ما كان فى الحيرة من منازل النعمان ابن المنذر

ما زلت أطرق للمنازل باللوى * حتى نزلت منازل النعمان
بالحيرة البيضاء حيث تقابلت * شم العماد عريضة الاعطان
شهدت بفضل الرافعين قبابها * ويبين بالبنيان فضل البانى
ما ينفع الماضين أن بقيت لهم * خطط معمرة بعمر فانى

يقول فيها

ولقد رأيت بدير هند منزلا * ألما من الضراء والحدثان
يغضى كمستمع الهوان تغيبت * أنصاره وخلا من الاعوان
بالى المعالم أطرقت شرفاته * اطراق منجذب القرينة عانى
أمقاصر الغزلان غيرك البلى * حتى غدوت مرابض الغزلان
وملاعب الانس الجميع طوى الردى * منهم فصرت ملاعب الجنان

ومنها

مسكية النفحات تحسب تربها * برد الخليع معطر الاردان
وكأنما نسى التجار لطيمة * جرت الرياح بها على العقيان
ماء كجيب الدرع يصقله الصبا * ويقى بدوحته النسيم الوانى
زفر الزمان عليهم فتفرقوا * وخلوا عن الاقطار والاوطان

وقال أبو اسحق الصابى وتوارد مع الشريف الرضى فى المعنى والقافية يصف قصر روح بالبصرة

واجب اذا كان لهذين الاستقصين يعنى الارض والماء خلق وساكن أن يكون للاستقصين يعنى الهواء والنار خلق وساكن ووجدت فى بعض أخبار هرون الرشيد أن الرشيد خرج ذات يوم الى الصيد ببلاد الموصل وعلى يده باز أبيض فاضطرب على يده فارسله فلم يزل يحلق حتى غاب فى الهواء ثم طلع بعد الاياس منه وقد علق شيأ فهوى به يشبه الحية والسمكة وله ريش كاجنحة السمك فأمر الرشيد فوضع فى طست فلما عاد من قنصه أحضر العلماء فسألهم هل تعلمون للهواء سكانا فقال مقاتل يا أمير المؤمنين روينا عن جدك عبد الله ابن عباس أن الهواء معمور بأمم مختلفة الخلق سكان أقربها منا دواب بيض فى الهواء تفرخ فيه يرفعها الهواء الغليظ ويربيها حتى تنشأ فى هيئة الحيات والسمك لها أجنحة ليست بذات ريش تأخذها بزاة بيض تكون بارمينية فأخرج الطست اليهم فأراهم الدابة وأجاز مقاتلا يومئذ وقد أخبرنى غير واحد من أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد أنهم شاهدوا فى الجو حيات تسعى كأسرع ما يكون من البرق وأنهار بما تقع على الحيوان فتقتله وربما يسمع لطيرانها فى الليل وحركتها فى الهواء صوت كنشر ثوب جديد وربما يقول من

احبب

أحبب الى بقصر روح منزلا * شهدت بنيته بفضل البانى
سورعلا وتمنعت شرفاته * فكأن احداهن هضب أبان
وكانما يشكو الى زواره * بين الخليط وفرقة الجيران
وكانما يبدى لهم من نفسه * اطراق محزون الحشا حران

ولاحمد بن فرج الالبيرى من أبيات

سألت بها فاردت جوابا * عليك وكيف تخبرك الطلول
ومن سفه سؤالك رسم دار * مضى لعفائه زمن طويل
فان تك أصبحت قفرا خلاء * لعينك فى مغانيها همول
فقدما قد نعمت قرير عين * بها وبربعها الرشأ الكحيل

وقال أبو عبد الله بن الخياط الاندلسى الاعمى

لو كنت تعلم ما بالقلب من نار * لم توقد النار بالهندى والغار
يا دار علوة قد هيجت لى شجنا * وزدتنى حرقا حييت من دار
كم بت فيك على اللذات معتكفا * والليل مدرع ثوبا من القار
كانه راهب فى المسح ملتحف * شد المجرة له وسطا زنار
يدير فيه كؤس الراح ذو حور * يدير من لحظه ألحاظ سحار

ولا مزيد فى التفجع على الديار والتوجع للدمن والآثار على قول البحترى من قصيدة يرثى بها المتوكل

محل على القاطول أخلق داثره * وعادت صروف الدهر جيشا تغادره
كأن الصبا توفى نذورا اذا انبرت * تراوحه أذيالها وتباكره
ورب زمان ناعم تم عهده * ترق حواشيه ويونق ناضره
تغير حسن الجعفرى وأنسه * وقوض بادى الجعفرى وحاضره
تحمل عنه سا كنوه فجاءة * فعادت سواء دوره ومقاصره
اذا نحن زرناه أجد لنا الاسى * وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
ولم انس وحش القصر اذ ريع سربه * واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت * على عجل أستاره وستائره
وأوحشه حتى كأن لم يكن به * أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كان لم تبن فيه الخلافة طلقة * بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا اليه بهاءها * وبهجتها والعيش غض مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت * بهيبتها أبوابه ومقاصره
واين عميد الناس فى كل نوبة * تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره

وعلى قول أبى اسحق بن خفاجة الاندلسى

ومرتبع حطت الرحل فيه * بحيث الظل والماء القراح
تخرم حسن منظره مليك * تخرم ملكه القدر المتاح

واستدلالهم على هذا انما هو بما يحدث فى استقصاء الماء من الحيوان وانه يجب على هذه القصة أن يحدث ذلك بين الاستقصين الآخرين وهما الارض والماء (قال المسعودى) وقد وصفت الحكماء والملوك البزاة وأغربت فى الوصف وأطنبت فى المدح فقال خاقان ملك الترك البازى شجاع مريد وقال كسرى أنوشروان البازى رقيق يحسن الاشارة لا يؤخر الفرص اذا أمكنت وقال قيصر البازى ملك كريم ان احتاج أخذ وان استغنى ترك وقالت الفلاسفة حسبك من البازى نزعه فى المطالب والرزق فى السمو اذا طالت قوادمه وبعد ما بين منكبيه فذلك أبعد لغايته وأحب لسرعته ألا ترى الى الفهود لا تزداد فى غاياتها الا بعدا وسرعة وقوة على التكرار وذلك لطول قوائمها مع كثافة أجسامها وانما قصرت غاية البازى لقصر جناحيه ورقة جسمه فاذا طالت به الغاية أخره ذلك حتى تشتد نفسه ولا تؤتى الجوارح الا من قصر القوادم الا ترى الدراج والسمان والحجل واشباهها حين قصرت قوادمها قصرت غاياتها وقال أرسيجاس البازى طير عارى الجناب وما

بخربة ماجد وله بكاء * عليه وشدو طائره نواح

وهذا النوع من البكاء على الدمن والتأسف على ما فعلت بها أيدي الزمن كثير جدا لا يعرف الباحث عنه له حدا وذلك لشدة ولوع النفوس بذكر أحبابها وحنينها الى أماكنها التي هي مواطن أطرابها ولهذا اقتصرنا على هذه النبذة القليلة وجعلناها تبعة يشفي المشوق بها غليله وقد كره بعض العقلاء التأسف على الديار لعلمهم انه لا يجدي ولا يدفع عادية الدهر الخؤون ولا يعدي ونهوا عنه لما فيه من تجديد المصاب المجرع لصاحبه الصاب والأوصاب قال أبو عمر بن عبد البر

عفت المنازل غير أرسم دمنة * حييتها من دمنة ورسوم
كم ذا الوقوف ولم تقف في منسك * كم ذا الطواف ولم تطف بحريم
فكل الديار الى الجنائب والصبا * ودع القفار الى الصدى والبوم

انتهى كلامه رحمه الله تعالى بأكثر لفظه مع بعض اختصار * (رجع الى قرطبة فنقول) وقد ألم لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى بذكر قرطبة وبعض أوصافها في كتاب له كتبه على لسان سلطانه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكرناه بجملته في الباب الخامس من القسم الثاني فليراجع ثمة ونص محل الحاجة منه هنا ثم كان الغزو الى أم البلاد ومثوى الطارف والتلاد قرطبة وما قرطبة المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الاقليم كان العمل والكرسي الذي بعصاه رعي الهمل والمصر المعمور الذي في خطه الناقة والجمل والأفق الذي هو لشمس الخلافة العبشمية الحمل تخيم الاسلام في عفرتها المستباحة وأجاز نهرها المغني عن السباحة وعم دوحها الاشب بوارا وادار المحلات بسورها سوارا وأخذ بمخنقها حصارا وأعمل النصر بشجرة أصلها اجتناء ما شاء واهتصارا وجدل من أبطالها من لم يرض انجحارا فأعمل الى المسلمين اصحارا حتى قرع بعض جهاتها غلابا جهارا ورفعت الأعلام اعلاما بعز الاسلام واظهارا فلولا استهلال الغوادي وان آتى الوادي لأفضت الى فتح الفتوح تلك المبادي ولقضى تفثه العاكف والبادي انتهى * (ومما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى في وصف هذه الغزوة لسلطان بني مرين على لسان صاحب الأندلس ما صورته) * المقام الذي نطالعه بأخبار الجهاد ونهدي اليه عوالي العوالي صحيحة الاسناد ونبشره بأخبار الفتح البعيد الآماد ونسأل الله تعالى دوام الاسعاد والامداد ونرتقب من صنع الله تعالى على يديه تكييفا يخرق حجاب المعتاد وامتعاضا يطلع بآفاق البلاد نجوم غرر الجياد ويفتح أبواب الفتوح بأقاليد السيوف الحداد وينبئ عن مكارم من سلف من الآباء الكرام والأجداد مقام محل أخينا الذي نستفتح له بالفتح الظهور ونهدي الى مجده لما نعلم من فضل نيته وحسن قصده لطائف السرور ونستظهر بملكه المؤيد المؤمل ونجده المشهور ونتوعد منهما العدو والحبيب المذخور والولي المنصور السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى عالي القدر قرير العين منشرح الصدر ولا زال حديث فخره سائرا مسير الشمس والبدر عظم سلطانه الخليق بالتعظيم الواثق منه بالذخر الكريم المثني على مجده الصميم وفضله العميم أمير المسلمين عبد الله

يفوته في كسوره يزيد في أخمصه ورجليه وهو أضعف الطير جسما وأقواها قلبا وأشجعها وذلك لفضله على سائر الطير في الجزء الذي فيه من الحرارة التي ليست في شيء منها ووجدنا صدورها منسوجة بالعصب لا لحم عليها وقال جالينوس مؤيدا لما ذهب اليه أرسيجانس ان البازي لا يتخذ وكرا الا في شجرة لفاء مشتبكة بالشوك مختلفة الغصون بين شجر عسى طلبا للسكن ودفعا لألم الحر والبرد فاذا أراد أن يفرخ بنى لنفسه بيتا وسقفه تسقيفا لا يصل اليه منه مضرة ولا ثلج اشفاقا على نفسه وفراخه من البرد وذكر الأدهم بن محرز أن أول من لعب بالصقور الحرث بن معاوية بن ثور ابن كندي وهو ابن كندة وانه وقف يوما بقانص وقد نصب حبالة للعصافير فانقض أكدر على عصفور منها قد علق فعلقه الأكدر وهو الصقر ومن أسمائه أيضا الأجدل فجعل العصفور وقد علق فجعل الملك فأتى به وهو يأكل العصفور فرمى به في كسر البيت فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه ولم ينفر واذا رمى اليه طعاما أكله واذا رأى لحما نهض الى يد صاحبه ثم دعي فأجاب فطعم على اليد وكانوا يتباهون بحمله اذ رأى يوما حمامة فطار اليها من يد حامله فعلقها فأمر الملك باتخاذها والتصيد بها فبينما الملك يسير يوما اذ

انغـنى بالله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أمير المسلمين أبي الوليد اسمعيل بن فرج بن نصر سلام كريم برعميم يخص مقامكم الاعلى واخوتكم الفضلى ورحمة الله وبركاته أما بعد حمد الله رب العباد وملهم الرشاد ومكيف الاسعاف والاسعاد الولي النصير الذي نلقي الى التوكل عليه مقاليد الاعتماد ونغدو الى انجاده وامداده أيدي الاعتداد ونرفع اليه أكف الاستمداد ونخلص لوجهه الكريم عمل الجهاد فنعرف عوارف الفضل المزداد ونجتني ثمار النصر من أغصان القنا المناد ونجتلي وجوه الصنع الوسيم ابهر من وجه الصباح الباد ونظفر بالنعيم العاجل في الدنيا والنعيم الآجل يوم قيام الاشهاد ونتفيأ ظلال الجنة من تحت اوراق السيوف الحداد والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله النبي الهاد رسول الملحمة المؤيد بالملائكة الشداد ونبي الرحمة الهامية العهاد أكرم الخلق بين الرائح والغاد ذي اللواء المعقود والحوض المورود والشفاعة في يوم التناد الذي بجاهه نجدع انوف الآساد يوم الجلاد وببركته ننال أقصى الامل والمراد وفي مرضاته نصل أسباب الوداد فنعود بالتجر الرابح من مرضاة رب العباد ونستولي في ميدان السعادة المعادة على الآماد والرضا عن آله وصحبه وأنصاره وحزبه الكرماء الامجاد دعائم الدين من بعده وهداة العباد انجاد الانجاد وآساد الاساد الذين ظاهروه في حياته بالحلوم الراجحة الاطواد والبسالة التي لا تنال بالعدد في سبيل الله والاعداد حتى بوؤا الاسلام في القواعد الشهيرة والبلاد وأرغموا أنوف اهل الجحد والالحاد فأصبح الدين رفيع العماد منصور العساكر والاجناد مستصحب العز في الاصدار والايراد والدعاء لمقامكم الاعلى بالسعد الذي يغني عن اختيار الطوالع وتقويم الميلاد والنصر الذي تشرق انباؤه في جنح ليل المداد والصنع الذي تشرع له أبواب التوفيق والسداد من حمراء غرناطة حرسها الله واليسر قد وطأ المهاد والخير واضح الاشهاد والحمد لله في المبدا والمعاد والشكر له على آلائه المتصلة الترداد ومقامكم الذخر الكافي العتاد والمرد المتكفل بالانجاد والى هذا وصل الله سعدكم وحرس مجدكم ووالى نصركم وعضدكم وعددكم وبلغكم من فضله العميم أملكم وقصدكم فاننا نؤثر تعريفكم بتافه المتزيدات ونورد عليكم اشتات الاحوال المتجددات اقامة لرسم الخلوص في التعريف بما قل ومودة خالصة في الله عز وجل فكيف اذا كان التعريف بما تهتز له منابر الاسلام ارتياحا لوروده وتنشرح الصدور منه لمواقع فضل الله وجوده والمكيفات البديعة الصفات في وجوده وهو أننا قدمنا اعلامكم بما نوينا من غزو مدينة قرطبة ام البلاد الكافرة ومقر الحامية المشهودة والخيرات الوافرة والقطر الذي عهده بالمام الاسلام متقادم والركن الذي لا يتوقع صدمة صادم وقد اشتمل سورها من زعماء ملة الصليب على كل رئيس بئيس وهزبر خيس وذي مكر وتلبيس ومن له سمة تذيع مكانه وتشيعه وأتباع على المنشط والمكروه تطيعه فاستدعينا المسلمين من أقاصي البلاد واذعنا في الجهات نفير الجهاد وتقدمنا الى الناس بسعة الازواد وأعطينا الحركة التي يخلف المسلمون فيها وراءهم جمهور الكفر من الاقطار والاعداد حقها من الاستعداد واقصينا العطاء والاستلحاق والاستركاب في أهل الغناء وأبطال الجهاد والجلاد فحشر الخلق في صعيد

نفعت أونب فطار الصقر اليها فأخذها فطلب بها الطير فقتلها واتخذها العرب بعده ثم استفاضت في أيدي الناس فاما الشواهين فان ارسيخاس الحكيم ذكر في كتاب كان وجه به الى المهدي حمل اليه من أرض الروم أهداه اليه الملك أن ملكا من ملوك الروم يقال له سنان نظر يوما الى شاهين يهوي متحدرا على طير الماء فيضربه ثم يسمو مرتفعا في الهواء حتى فعل ذلك مرارا فقال هذا طير ضار وله قوة انحدار على الطير في الماء انه لضار ويدلنا سرعة انحداره وارتفاعه في جو السماء على انه طير أبي ألوف فلما رأى حسن تكراره أعجبه فكان أول من اتخذ الشواهين وقد ذكر سعيد ابن عفر عن هشام بن خديج قال خرج قسطنطين ملك عمورية متصيدا بالبزاة حتى انتهى الى خليج يبطش الجاري الى بحر الروم فعبر الى مرج بين الخليج والبحر فسيح مديد فنظر الى شاهين يتكفأ على طير الماء فاعجبه ما رأى من سرعته وضراوته ولم يدر الحيلة في صيده فامر ان يصطاد له فضراه وكان قسطنطين أول من لعب بالشواهين ونظر ذلك المرج طويل البساط مفروشا بالوان الزهر فقال هذا موضع حصين من نهر وبحر وسعة وامتداد يصلح أن يكون فيه مدينة فبنى فيه مدينة القسطنطينية وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا الملوك

وأخذوا الاهبة والزينة فى عيد سعيد وشمل الاستدعاء كل قريب وبعيد عن وعد ووعيد ورحلنا وفضل الله شامل والتوكل عليه كاف كافل وخيمنا بظاهر الحضرة حتى استوفى الناس آرابهم واستكملوا أسرابهم ودسنا منهم بلاد النصارى بجموع كثرها الله وله الحمد وانماها وأبعد فى التماس ما عنده من الاجر منتماها وعندما حللنا قاشرة وجدنا السلطان دون بطرة مؤمل نصرنا وانجادنا ومستعيد حظه من مواقع جهادنا ومقتضى دين كدحه باعانتنا اياه وانجادنا قد نزل بظاهرها فى محلات ممن استقر على دعوته وتمسك بطاعته وشمله حكم جماعته فكان لقاؤنا اياه على حال اقرت عيون المسلمين وتكفلت باعزاز الدين ومجملها يغنى عن التعيين والشرح والتبيين ورأى هو ومن معه من وفور جيش الله ما هالهم وأشك فى حال اليقظة خيالهم من جموع تسد الفضا وأبطال تقارع أسد الغضى وكتائب منصورة ورايات منشورة وأمم محشورة تفضل عن مرأى العين وتردى العدو فى مهاوى الحين فاعترفوا بما لم يكن فى حسابهم واعتبر فى عزة الله سبحانه أولوا ألبابهم واذا كثر الله تعالى العدد نما وزكا واذا أزاح العلل ما اعتذر غاز ولا شكا وسالت من الغد الاباطح بالاعتراف وسمت الهوادى الى الاستشراف وأخذ الترتيب حقه من المواسط الجهادية والاطراف وأحكمت التعبية التى لا ترى العين فيها خللا ولا يجد الاعتبار عندها دخلا وكان النزول على فرسخ من عدوة النهر الاعظم من خارج المدينة أنجز الله تعالى وعد دمارها وأعادها الى عهدها فى الاسلام وشعارها ومحا ظلام الكفر من آفاقها بأهلة الاسلام وأنوارها وقد برزت من حاميتها شوكة سابغة الدروع وافرة الجموع واستجمت من اسوار القنطرة العظمى بحمى لا يخفر وأخذ عقابها من الحماة والكماة العدد الاوفر فبادر اليهم سرعان خيل المسلمين فصدقوهم الدفاع والقراع والمصال والمصاع وخالطوهم هبرا بالسيوف ومباكرة بالحتوف فتركوهم حصيدا واذاقوهم وبالا شديدا وجدلوا منهم جملة وافرة وأمة كافرة وملكوا بعض تلك الاسوار فارتفعت بها راياتهم الخافقة وظهرت عليها عزماتهم الصادقة واقتحم المسلمون الوادى سيما فى غمره واستهانة فى سبيل الله بأمره وخالطوا حامية العدو فى ضفته فاقتلعوها وتعلقوا باوائل الاسوار ففرعوها فلو كنا فى ذلك اليوم على عزم من القتال وتيسير الآلات وترتيب الرجال لدخل البلد وملك الاهل والولد لكن أجار الكفار من الليل كافر وقد هلك منهم عدد وافر ورجع المسلمون الى محلاتهم ونصر الله سافر والعزم ظافر ومن الغد خضنا البحر الذى جعلنا العزم فيه سفينا والتوكل على الله للبلاغ ضمينا ونزلنا من صفة القوى العزيز منزلا عزيزا مكينا بحيث يجاوز سورها طنب القباب وتصيب دورها من بين الخيمات بوارق النشاب وبرزت حاميتها على متعددات الابواب مقيمة أسواق الطعان والضراب فآبت بصفقة الخسر والتباب ولما شرعنا فى قتالها ورتبنا اشتات النكايات لنكالها وان كنا لم نبق على مطاولة نزالها أنزل الله المطر الذى قدم بعهاده العهد وساوى النجد من طوفانه الوهد وعظم به الجهد ووقع الابقاء على السلاح والكف بالضرورة عن الكفاح وبلغ المقام عليها والاخذ بمخنقها والثواء لديها خمسة أيام لم تخل فيها الاسوار من اقتراع ولا الابواب من دفاع عليها وقراع

من السبب الداعى لبناء القسطنطينية وقد ذكر ابن عمر عن أبى زيد الفهرى أنه كان من رتبة ملوك الاندلس الازارقة أنه اذا ركب الملك منهم صارت الشواهين فى الهواء مظلة لعسكره محيمة على مركبه تنحدر عليه مرة وترتفع أخرى معلمة لذلك فلا تزال على ما وصفنا فى حال مسيره حتى ينزل فتقع حوله الى أن ركب يوما ملك منهم وصارت الشواهين معه على ما وصفنا فاستثارت طائرا فانقض عليه شاهين فاخذه فاعجب بذلك الملك وضراها على الصيد فكان أول من تصيد بها بالمغرب وبلاد الاندلس (قال المسعودى) وكذلك ذكر جماعة من أهل العلم بهذا الشان أنه كان أول من لعب بالعقبان أهل المغرب فلما نظر الروم الى شدة شرها وافراط سلاحها قال حكماؤهم هذه التى لا يقوم خيرها بشرها وذكر أن قيصر أهدى الى كسرى عقابا وكتب اليه يعلمه أنها تعمل أكثر من عمل الصقر الذى أعجبه صيده فامر بها كسرى فارسلت على ظبى عرض فدققته فاعجبه ما رأى منها فانصرف مسرورا فجوعها ليصيد بها فوثبت على صبى له فقتلته فقال كسرى وترنا قيصر فى أولادنا بغير جيش ثم ان كسرى أهدى الى وانفذ

وأنفذت مقاتل الستائر أنقابا وارتقب الفتح الموعود ارتقابا وفشت فى أهلها الجراح والعيث الصراح وساءهم المساء بعزة الله والصباح ولولا عائق المطر لكان الاجهاز والاستفتاح والله بعدها الفتاح وصرفت الوجوه الى تخريب العمران وتسليط النيران وعقر الاشجار وتعفية الآثار وأتى منها العفاء على المصر الشهير فى الامصار وتركت زروعها المائحة عبرة للابصار ورحلنا عنها وقد ألبسها الدخان حدادا ونكس من طغاتها اجيادا فاعتادت الذل اعتيادا وألفت الهون قيادا وكادت أن تستباح عنوة لولا أن الله تعالى جعل لها ميعادا وأتى القتل من أبطالها ومشاهير رجالها ممن يبارز ويناطح ويماسى بالناس ويصابح على عدد جم اخبرت سيماهم المشهورة بأسمائهم ونبهت علاماتهم على نباهاتهم وظهر اقدام المسلمين فى المعتركات وبروزهم بالحدود المشتركات وتنفيلهم الاسلاب وقودهم الخيل المسومة قود الغلاب وكان القفول وقد شمل الامن والقبول وحصل الجهاد المقبول وراع الكفر العز الذى يهول والاقدام الذى شهدت به الرماح والخيول وخاض المسلمون من ذرع الطرق التى ركبوها والمنازل التى استباحوها وانتهبوها بحورا بعد منها الساحل وفلاة موركة تتعدد فيها المراحل فصيروها صريما وسلطوا عليها النار غريما وحلوا بظاهر حصن اندرجو وقد أصبح مالف ادمار عير أوشاب ووكر طير نشاب فلما بلونا مراسه صعبا وابراجه ملئت حرسا شديدا وشهبا ضننا بالنفوس أن تفيض دون افتتاحه فسلطنا العفاء على ساحه وأغرينا الغارات باستيعاب ما باحوازه واكتساحه وسلطنا النار على حزونه وبطاحه والصقنا بالرغام ذوائب أدواحه وانصرفنا بفضل الله والمناجل دامية والاجور نامية وقد وطئنا المواطئ التى كانت على الملوك قبلنا بسلا ولم نترك بها حافرفد ولانسلا ولاضرعا رسل رسلا والحمد لله الذى يتم النعيم بحمده ونسأله حلة النصر فما النصر الا من عنده عرفناكم بهذه الكيفيات الكريمة الصفات والصنائع الروائع التى بعد العهد بمثلها فى هذه الاوقات علما بأنها لديكم من أحسن الهديات الوديات ولما نعلمه لديكم من حسن النيات وكرم الطويات فانكم سلالة الجهاد المقبول والرفد المبذول ووعد النصر المفعول ونرجو الله عز وجل أن ينتقل خيالكم للمعاهد الجهادية الى المعاينة ونصر الملة المحمدية وان يجمع الله بكم كلمة الاسلام على عبدة الاصنام ويتم النعمة على الانام وودنا لكم ما علمتم يزيد على ممر الايام والله يجعله فى ذاته لكم متصل الدوام مبلغا الى دار السلام وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويضاعف الآلاء عندكم والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته انتهى (ومن هذا المنحى) ما كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى عن سلطانه ونصه المقام الذى أحاديث سعادته لاتمل على الاعادة والتكرار وسبيل مجادته الشهيرة أوضح من شمس الظهيرة عند الاستظهار وأخبار صنائع الله لملكه ونظم فرائد الآمال فى سلكه تخلدها أقلام الاقدار بمداد الليل فى قرطاس النهار وترسمها بذهب الاسفار فى صفحات الاقمار وتجعلها هجيرى جلاء الاسفار وحداة القطار فى مسالك الاقطار مقام محل اخينا الذى نلذ عادة هنائه مع الاعادة ونتلقى أنباء علائه بالاذاعة والاشادة ونطرز بأعلام ثنائه صحائف المجادة ونشكر الله أن

قيصر غزا وكتب انه يقتل الظباء وأمنه الها من الوحش وكتب ما صنعت العقاب فأعجب قيصر حسن النمر وطابق صفته بوصف من الفهد وغفل عنه فافترس بعض فتيانه فقال صادنا كسرى فان كنا قد صدناه فلا باس هذا وقد تغلغل بنا الكلام عند ذكرنا البحر جرجان وجزائره الى الكلام فى انواع الجوارح واشكالها عند ذكرنا الملوك اليونانيين فلنرجع الآن الى ذكر الباب والابواب ومن يلى السور من الامم وجبل الفتح وقد قلنا ان شر الملوك ممن جاورها من الامم مملكة حيزان وملكهم رجل مسلم يزعم انه من العرب من قحطان ويعرف بسلفان فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وليس فى مملكته مسلم غيره وولده واهله وارى ان هذه السمة يسمى بها كل ملك لهذا الصقع وبين مملكة حيزان وبين الباب والابواب اناس من المسلمين عرب لايحسنون شيأ من اللغات غير العربية فى آجام هناك وغياض واودية وانهار كبار من قرى قد سكنوها اقطنوا ذلك الصقع منذ الوقت الذى افتتحت فيه تلك الديار ممن طرأ من وادى العرب اليها فهم مجاورون لمملكة حيزان الا انهم ممتنعون بتلك الاشجار والانهار وهم على نحو ثلاثة اميال من مدينة الباب والابواب واهل

وهب للناس اخوته المضافة الى المحبة والودادة ما رجح في ميزان الاعتبار أخوة الولادة وعرفنا بيمن ولايته عوارف السعادة السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله تعالى في أعلام الملك السعيد بيت القصيد ووسطى القلادة ومجلى الكمال الذي باري عيدان بأسه وجوده جنسا الابادة والافادة ولا زالت آماله القاصية تمتثل طوع الارادة ويمن نقيبته يجمع من أشتات الفتوح والعز الممنوح بين الحسنى والزيادة معظم سلطانه العالي المثني على مجده المرفوع اسناده في عوالي المعالي المسرور بما يسنيه الله له من الصنع المتوالي والفتح المقدم والتالي أمير المسلمين عبد الله الغني بالله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر أيد الله أمره وأسعد نصره سلام كريم يتأرج في الآفاق شذا طيبه وتسمع في ذروة الود بلاغة خطيبه ويتضمن نوره سواد المداد عند مراسلة الوداد فيكاد يذهب بعبوسة المجهول وتقطيبه ورحمة الله وبركاته اما بعد حمد الله فاتح الابواب بمقاليد الاسباب مهما استصعبت وميسر الامور بحكم المقدور اذا أجهدت الحيل وأتعبت مخمد نيران الفتن ما التهبت وجامع كلمة الاسلام وقد تصدعت وتشعبت ومسكن رجفان الارض بعد ما اضطربت ومحييها بعهاد الرحمة مهما اهتزت وربت اللطيف الخبير الذي قدرت حكمته الامور ورتبت منهي كل نفس الى ما خطت الاقلام عليها وكتبت ونفت وأوجبت وشاءت وأبت ومجازيها يوم العرض بما كسبت والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله هازم الاحزاب لما ألبت وتألبت وجالب الحتف اليها عندما أجلبت رسول الحكمة اذا الليوث وثبت ونبي الرحمة التي هيأت النجاة وسببت وأبلغت النفوس المطمئنة من السعادة ما طلبت ومداوي القلوب المريضة وقد انتكبت وانقلبت بلطائفه التي راضت وهذبت وقادت الى الجنة العليا واستجلبت وادت عن الله وأدبت الذي بجاهه نستكشف الغماء اذا طنبت ونستوكف النعماء اذا أخلفت البروق وكذبت ونتعبد في طاعته ابتغاء الوسيلة الى شفاعته فنقول وجبت حسبما ثبت والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره واحزابه التي استحقت المزية المرضية واستوجبت لما انتمت الى كماله وانتسبت وببذل نفوسها في الله ومرضاته تقربت والى نصرته في حياته انتدبت والمناصل قد رويت من دماء الاعداء وأخصبت وخلفته في أمته بعد مماته بالهمم التي عن صدق اليقين اعربت فتداعت لمجاهدة الكفار وانتدبت وابعدت المغار وادربت حتى بلغ ملك أمته أقاصي البلاد التي نبت فكسرت الصلب التي نصبت ونعلت التيجان التي عصبت ما همت السحب وانسحبت وطلعت الشمس وغربت والدعاء لمثابتكم العليا بالنصر العزيز كلما جهزت الكتائب وتكتبت والفتح المبين كلما ركنت عقائل القواعد اذا خطبت والصنائع التي مهما حدقت فيها العيون تعجبت وأجالت في لطائفها الافكار فاستطابت مذاق الشكر واستعذبت حتى تنجز لكم مواعيد النصر فقد اقتربت فانا كتبنا اليكم كتب الله لكم أغيا ما سألت الالسن السائلة واستوعبت من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى وجنود الله بفضل الله تعالى ونعمته قد غلبت وفتحت وسلبت وأسود جهاده قد أردت الاعداء بعد ما كلبت ومراعي الآمال قد اخصبت

والحمد

الباب يحذرونهم واهل مملكة حيزان مما يلي جبل الفتح والسور ولهم ملك يقال له مدرمان مسلم ويعرف بلده بالكرخ وهم اصحاب الاعمدة وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى مدرمان ثم يلي مملكة مدرمان مملكة يقال لها غميق واهلها اناس نصارى لا ينقادون الى ملك ولهم رؤساء وهم مهادنون لمملكة اللان ثم يليهم مما يلي السور والجبل مملكة يقال لها درلكران وتفسير ذلك عمال الزردلان أكثرهم يعمل الزرد والباب واللجم والسيوف وغير ذلك من أنواع الحديد وهم ذوو ديانات مختلفة مسلمون ويهود ونصارى وبلدهم بلد خشن قد امتنعوا بالخشونة على من جاورهم من الامم ثم يلي هؤلاء مملكة السرير وملكها يدعى فيلان شاه يدين بدين النصرانية وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب انه من ولد بهرام جور وسمي صاحب السرير لان يزدجرد وهو الآخر من ملوك ساسان حين ولى منهزما قدم سرير الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بهرام ليسير بها الى هذه المملكة فيحرزها هناك الى وقت موافاته ومضى يزدجرد الى خراسان فقتل هناك وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه على ما ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا فقطن ذلك الرجل في هذه المملكة واستولى عليها وصار الملك

والحمد لله حمدا يجلو وجوه الرضا بعد ما احتجبت ويفتح أبواب المزيد فكلما استقبلها الامل رحبت والشكر لله شكرا يقيد شوارد النعم مما أبقت وما هربت والى هذا وصل الله لمقامكم أسباب الظهور والاعتلاء وعرفكم عوارف الآلاء على الولاء فاننا لما ورد علينا كتابكم البر الوفادة الجم الافادة الجامع بين الحسنى والزيادة جالى غرة الفتح الاعظم من ثنايا السعادة وواهب المنن المتاحة وواصف النعم المعادة فأوقفنا من رقه المنشور على تحف سنية وأماني هنية وقطاف للنصر جنية ضمنت سكون البلاد وقرارها وأن الله قد أذهب الفتن وأوارها وأخمد نارها ونضح عن وجه الاسلام عارها وجمع الاهواء على من هو يته السعادة بعد أن أجهد اختيارها فاصبح الشتيت مجتمعا وجنح الجناح مرتفعا والجبل المخالف خاشعا منصدعا وأصحب في القياد من كان متمنعا فاستوثقت الطاعة وتبجحت السنة والجماعة وارتفعت الشناعة وتمسكت البلاد المكرهة بأذيال وليها لما رأته وعادت الاجياد العاطلة الى حليها بعد ما أنكرته أجلنا جياد الاقلام في ملعب الهناء وميدانه لاول أوقات امكانه على بعد مكانه وأجهدنا عبارة الكلام في اجلال هذا الصنع وتعظيم شانه وأغرينا الثناء بشيم مجدكم في شرحه لنا وبيانه رأينا أن لا نكل ذلك الى اليراع ونفرده فيه بالاجتماع وما يتعاطاه من منة الذراع وأن نشد برده من المشافهة أزره ونعضد بمبين من اللسان أمره فعينا لذلك من يفسر منه المجمل ويمهد المقصد المعمل حتى يجمع بين اغراض البر والعلن منه والسر ويقيم شتى الادلة على الوداد المستقر ووجهنا في عرض الرسالة به اليكم واخترنا لشرحه بين يديكم خطيب الوفود وبركة المشايخ في هذا المقام المحمود الشيخ الجليل الشهير الكبير الصالح الفاضل أبا البركات ابن الحاج وصل الله حفظه وأجزل من الحمد واللطف حظه وهو البطل الذي لا يعلم الاجالة في الميدان ولا يصر بوظائف ذلك الشان ومرادنا منه أن يطيل ويطيب ويحيل في وصف محاسنكم اللسان الرطيب ويقرر ما عندنا لمقامكم من التشيع الذي قام على الحب المتوارث أساسه واطراد حكمه وانتج قياسه وليجعل تلو مقصد الهناء بمجلسكم الباهر السناء الصارف الى الجهاد في سبيل الله والفناء وجه التهمم والاعتناء على مر الآناء ما تجدد لدينا من الانباء في جهاد الاعداء وان كان رسولكم أعزه الله تعالى قد شارك في السرى والسير ويمن الطير وأغنى في الحكاية عن الغير فلا سرف في الخير وهو أننا لما انصرفنا من منازلة قرطبة نظر للحشود التي نفدت معدات أزوادها وشابت بهشيم الغلة المستغلة مفارق بلادها واشفاقا لفساد أقواتها بفوات أوقاتها رحلنا عنها وقد انطوينا من اعفاء أكثر تلك الزروع المائلة الفروع الهائلة الروع على هم ممض وأسف للمضاجع مقض اذ كان عاذل المطر يكف ألسنة النار عن المبالغة في التهابها وخلاق اهابها ونفض أغوارها ونهب شوارها واذاعة أسرارها وهي البحور المتلاطمة اذا حطمتها الرياح الحاطمة واللجج الزاخرة اذا حركتها السوافي الماخرة تود العيون أن تحدى حدودها القاصية فلا تطيق والركائب الراكضة أن تشرف على غاياتها فيفضل عن مراحلها الطريق قد جللها الربيع أرزاقا تغص بها الخزائن والاطباق وحبوبا مفضلة

في عقبه فسمى صاحب السرير ودار مملكته تعرف بخبرج وله اثنا عشر الف قرية يستعبد منهم من شاء وله بلد خشن منيع لخشونته وهو شعب من جبل الفتح وهو يغير على الخزر مستظهرا عليهم لانهم في سهل وهو في جبل ثم تلي هذه المملكة مملكة اللان وملكها يقال له كركنداج هذا الاسم الاعم لسائر ملوكهم وكذلك قيلان شاه فهو الاسم الاعم لسائر ملوك السرير ودار مملكة ملك اللان يقال لها معص وتفسير ذلك الديانة وله قصور ومتنزهات في غير هذه المدينة ينتقل في السكنى اليها وبينه وبين صاحب السرير مصاهرة في هذا الوقت وقد تزوج كل واحد منهما بأخت الآخر وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الاسلام في الدولة العباسية اعتقدوا دين النصرانية وكانوا قبل ذلك جاهلية فلما كان بعد العشرين والثلثمائة رجعوا عما كانوا عليه من النصرانية وطردوا من كان قبلهم من الاساقفة والقسيسين وقد كان أنفذهم اليهم ملك الروم وبين ملك اللان وجبل الفتح قلعة وقنطرة على واد عظيم يقال لهذه القلعة قلعة باب اللان بنى هذه القلعة ملك في قديم الزمان من الفرس الاوائل يقال له اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب ورتب في هذه القلعة رجالا يمنعون اللان من الوصول

لا برزؤها الانفاد والانفاق ولو اعتصمت على انتسافها الا آفاق نخفنا فى سبيل الله لتعقيب
غزو تلك الاقطار المخالفة بمحق الصائفة واعانة تلك الطائفة بكلوم المجاع الحائفة
خفوقا لم نقنع فيه بالاستنابة حرصا على استئصال الصبابة وأعفينا الرحل من اتصال
الكدّ وقابلنا قبولهم على استصحابنا فيها بالرد وأطللنا على قرطبة بمحلات تنسف الجبال
نسفا وتعم الارض زلزالا وخسفا ونستقرى مواقع البذر احتراقا ونخترق أجوابها
المخترقة بحب الحصيد اختراقا ونسلط عليها من شرر النار أمثال الجمالات الصفر مدّت من
الشواظ أعناقا ونوسع القرى الواسعة قتلا واسترقاقا وندير على مستديرها كؤس
الحتوف دهاقا وأخذت النيران واديها الاعظم من كلا جانبيه حتى كأن العيون أحمت
سبيكته فاستحالت واذابت صفيحته فسالت وأتت الكفار سماؤهم بالدخان المبين
وصارت الشمس من بعد سفورها وعموم نورها منقبة المحيا معصبة الجبين وخضنا
أحشاء الغريرة نعم أشتات النعم انتسافا وأقوات أهلها اتلافا وآمال سكانها اخلافا وقد
بهتوا لسرعة الرجوع ودهشوا لوقوع الجوع وتسبيب تخريب الربوع فمن المنكر البعيد
أن يتاتى بعد عمرانها المعهود وقد اصطلم الزرع واجتث العود وصار الى العدم منها الوجود
ورأوا من عزائم الاسلام خوارق تشذ عن نطاق العوائد وعجائب تستريب فيها عين
المشاهد اذا اشتمل هذا العام المتعرف فيه من الله تعالى الانعام على غرفات أربع
دمرت فيها القواعد الشهيرة تدميرا وعلا فوق مراقيها الاذان عزيزا جهيرا وضويقت
كراسى الملك تضييقا كبيرا وأذيقت وبالا مبيرا ورياح الادالة ان شاء الله تعالى تستأنف
هبوبا وبأسا مشبوبا والثقة بالله قد ملأت نفوسا مؤمنة وقلوبا والله سبحانه المسؤل أن
يوزع شكر هذه النعم التى أثقلت الاكتاد وأبهظت الطوق المعتاد وابهجت المشيم
والمرتاد فبالشكر يستدرّ فريدها ويتوالى تجديدها وقطعنا فى بحبوحة تلك العمالة
المستبحرة العمارة والفلج المغنى وصفها عن الشرح والعبارة مراحل ختمنا بالتعريج على
حرب جيان حربها ففللنا ثانية غربها وجدّدنا كربها واستوعبنا حرقها وخربها ونظمنا
البلاد فى سلك البلاء وحثثنا فى أنجادها وأغوارها كتائب الاستيلاء فلم نترك بها لملقط
طير فضلا عن معاف عير ولا أسأرنا لغلها المحروب بلالة خير وقفلنا وقد تركنا بلاد النصارى
التى منها لكبادنا المدد والعدة والعدد وفيها الخصام واللدد قد لبست الحداد حريقا
وسلكت الى الخلاء والجلاء طريقا ولم نترك لها مضغة تخالط ريقا ولا نعمة تصون من
الفراق فريقا وما كانت تلك النعم لولا أن أعان الله تعالى من عنصرى النار والهواء بجنود
كونه الواسع ومدركه البعيد الشاسع لتولى الايدى البشرية تغريبها ولا ترزا كثيرها
الا التمتاح بالاعتراف غديرها بل لله القدرة جميعا فقدرته لا تحامى ربعا ولا تحمى مريعا
منيعا وعدنا والعود فى مثلها أحمد وقد بعد من شفاء النفوس الامد ونسخ بالسرور
الكمد ورفعت من عز الاسلام العمد والحمد لله حمد الشاكرين ومنه نلتمس عادة
النصر على أعدائه فهو خير الناصرين عرفناكم به ليسر دينكم المتين ومجدكم الذى راق
منه الجبين والله يصل سعدكم ويحرس مجدكم ويبلغكم أملكم من فضله وقصدكم

لهم الا على هذه القنطرة من تحت هذه القلعة والقلعة على صخرة صماء لا سبيل
الى جبل الفتح ولا طريق
الى فتحها والوصول اليها
الا باذن من فيها وهذه
القلعة المبنية على أعلى
هذه الصخرة عين من الماء
عذبة تظهر فى وسطها من
اعلى هذه الصخرة وهذه
القلعة احدى قلاع العالم
الموصوفة بالمنعة وقد
ذكرتها الفرس فى اشعارها
وما كان لاسفنديار بن
كشتاسب فى بنائها
ولاسفنديار فى الشرق حروب
كثيرة مع أصناف من الامم وهو
السائر الى بلاد الترك فخرب
مدينة الصفر وكانت من
المنعة بالموضع العظيم الذى
لا يرام وبها ضرب الفرس
الامثال وما كان من أفعال
اسفنديار وما وصفنا فذكور
فى الكتاب المعروف بكتاب
السيكس نقله ابن المقفع
الى لسان العرب وقد كان
مسلمة بن عبد الملك بن
مروان حين وصل الى هذا
الصقع ووطئ اهله أسكن
فى هذه القلعة أناسا من
العرب الى هذه الغاية
يحرسون هذا الموضع وربما
يحمل اليهم الرزق وأقوات
من البر من ثغر تفليس
وبين تفليس وهذه القلعة
مسيرة خمسة أيام كبار ولو
كان رجل واحد فى هذه
القلعة لمنع سائر الملوك
السفار أن يجتازوا بهذا الموضع لتعلقها بالجو واشرافها على الطريق والقنطرة والوادى وصاحب

عنه وطوله والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى (رجع الى ما كنا بسبيله) من أخبار قرطبة الجليلة الوصف وذكر جامعها البديع الاتقان والوصف فنقول قد شاع وذاع على ألسنة الجم الغفير من الناس فى هذه البلاد المشرقية وغيرها أن فى جامع قرطبة ثلثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق الى أن يتم الدور ثم تعود وهذا شئ لم أقف عليه فى كلام المؤرخين من أهل المغرب والاندلس ولو كان كما شاع لذكروه وتعرضوا له لانه من أعجب ما يسطر مع أنهم ذكروا ما هو دونه فالله أعلم بحقيقة الحال فى ذلك وستأتى فى الباب السابع رسالة الشقندى الطويلة وفيها من محاسن قرطبة وسائر بلاد الاندلس الطم والرم وقد ذكرنا فى الباب الاول جملة من محاسن قرطبة فاغنى ذلك عن اعادتها هنا على ان رسالة الشقندى تكرر فيها بعض ما ذكرناه لانا لم نرد أن نخل منها بحرف فاتينا بها بلفظها وان تكرر بعض ما فيها مع بعض ما أسلفناه والعذر واضح للمنصف المغضى والله نسال سلوك السبيل الذى يرضى بمنه وكرمه * وقال صاحب نشق الازهار ان فى جامع قرطبة تنورا من نحاس أصفر يحمل ألف مصباح وفيه أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون قيل أوحكم عمله فى سبع سنين وفيه ثلاثة أعمدة من رخام أحمر مكتوب على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف وعلى الآخر صورة غراب نوح عليه الصلاة والسلام الثلاثة خلقها الله تعالى ولم يصنعها صانع انتهى قلت لم أر أحدا من محققى المؤرخين للاندلس وثقاتهم ذكر هذا على قلة اطلاعى وهو عندى بعيد لانه لو كان لذكره الائمة * وقد حكى عياض فى الشفاء أشياء وجد عليها اسم نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يذكر هذا ويستبعد أن يكون بجامع قرطبة ولا يذكره والله تعالى اعلم بحقيقة الامر * وقال فى موضع آخر من هذا الكتاب ان دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وهى على النهر الكبير وعليه جسران وبها الجامع الكبير الاسلامى وبها الكنيسة المعظمة بين النصارى وبهذه المدينة معدن الفضة ومعدن الشاذنج وهو حجر من شانه أن يقطع الدم وكان يجلب منها البغال التى تباع كل واحدة منها بخمسمائة دينار من حسنها وعلوها الزائد انتهى *(رجع الى أخبار البنيان) ولا خفاء أنه يدل على عظم قدر بانيه ولذلك قال أمير المؤمنين الناصر المروانى بانى الزهراء رحمه الله تعالى حسبما نسبها له بعض العلماء وبعض ينسبهما لغيره وسيأتيان فى ترجمة نور الدين بن على منسوبين

همم الملوك اذا ارادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم قدره * أضحى يدل على عظيم الشان

وتذكرت هنا قصيدة قالها بعض الشاميين وهو الاديب الفاضل الشيخ أسد بن معين الدين مما يكتب على أبراج دار الحسيب النسيب الشهير البيت الكبير الحى والميت القاضى عبد الرحمن بن الفرفور الدمشقى وضمنها بيتى الناصر المذكورين

ورمجلسا أضحى اعز مكان * ومحل أهل العلم والعرفان
المجد خيم فى ذرى أبراجه * والسعد عبد الباب طول زمان

متصلة غير منفصلة اذا تصايحت الديوك تجاوبت فى سائر مملكته لاشتباك العمائر واتصالها ثم يلى مملكة اللان أمة يقال لها كشك وهم بين جبل الفتح وبحر الروم وهى أمة مطيعة منقادة الى دين المجوسية وليس فيمن ذكرنا من الامم فى هذا الصقع أنقى أبشارا ولا أصفى ألوانا ولا أصبح نساء ولا أقوم قدودا ولا أدق أخصارا ولا أظهر أكفالا وأردافا ولا أحسن شكلا من هذه الامة ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات ولباسهم البياض والديباج الرومى والسقلاطونى وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب وبياضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب فيها نوع يقال له الطلى أرق من الدبيقى وأبقى على الكد يبلغ الثوب عشرة دنانير يحمل الى ما يليهم من الاسلام وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الامم الا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء واللان مستظهرة على هذه الامة لا تنتصف هذه الامة من اللان الا أنها تمتنع من اللان بقلاع لها على ساحل البحر وقد تنوزع فى البحر الذى هم عليه فمن الناس من يرى انه بحر الروم ومنهم من يرى انه بحر نيطش الا أنهم يقربون فى البحر من بلاد

كالخلد مرفوع البناء وأرضه * مفروشة بالدر والعقيان
بيت به فخر البيوت لانه * بيت القصيد ومنزل الضيفان
مغنى فسيح فيه معنى مفصح * عن قدر بانيه بغير لسان
قد قال بعض ذوى الفضائل قبلنا * قولا بديعا واضح التبيان
همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم قدره * أضحى يدل على عظيم الشان
قد شاده من ساد أهل زمانه * بالاصل والافضال والرجحان
ورث السيادة كابرا عن كابر * وسما برفعته على كيوان
قاضى القضاة ومفخر العصر الذى * قد جاء فيه سابق الاقران
فى العلم بحر لا ينال قراره * فى الحكم مثل مهند وسنان
روى عطاء عن يديه قد اقتفى * آثار آباء ذوى احسان
لا زال يبقى شائد ابيت العلا * وعدوه فى الوهن والنقصان
يا أيها المولى الذى يجرى مع الاقبال والاسعاد طلق عنان
دم شامخ المقدار مرتفع البنا * والناس تحت رضاك كالغلمان
متمتعا ببنيك سادات الورى * فى عز رب دائم السلطان
ما رجع القمرى فى تغريده * فى الروض فوق منابر الاغصان

وكان القاضى عبد الرحمن بن فرفور المذكور عالى الهمة تضيق يده عما يريد فلذلك كان كثيرا ما يبث شكواه فى الطروس والدفاتر ويعتب على الزمان الذى أخنى على أهل الادب وقطع آمالهم بحسامه الباتر ويرحم الله القائل

هذا زمان در يهمى لاغيره * فدع الدفاتر للزمان الفاتر

فمن نظم المذكور وقد أبطأ بجزء استعاره من بعض اخوانه فكتب اليه معتذرا وأدمج شكوى الزمان الذى كان من شماتة الاعداء به حذرا

ابطأت فى ذا الجزء ياسيدى * كتابة من جور دهر بغيض
صابرته فالجسم منى لقى * تجلدا والقلب منى مريض
فاذا أبى الا تلافى وقد * أحلنى منه محل النقيض
واقتادنى قسرا الى مصرع * قد رق منه اللحم والعظم هيض
سلمت للاقدار مستسرعا * لباب مولى ذى عطاء عريض
جوم صبر كنت اسطو به * على روايا الدهر بالهم غيض
فلا تلم ياصاح من بعد ذا * اذا تمثلت بحال الجريض

ورأيت بخطه رحمه الله تعالى مما نسبه جده القطب الخيضرى الحافظ لابراهيم بن نصر الحموى ثم المصرى المعروف بابن الفقيه

يازمانا كلما حا * ولت امرا يمتنع
ان تعصبت فانى * باصطبارى أقتنع

طار بنده والتجارة تتصل أن يملكوا عليهم ملكا يجمع كلمتهم ولو اجتمعت كلمتهم لم يطقهم اللان ولا غيرها من الامم وتفسير هذا الاسم وهو فارسى الى العربية الصلف وذلك أن الفرس اذا كان الانسان تائها صلفا قالوا كشك وتلى هذه الامة التى على هذا البحر امة أخرى يقال لبلادهم السبع بلدان وهى أمة كثيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلم ملتها ولا نعى الى خبرها فى دينها وتليها أمة عظيمة بينها وبين بلاد كشك نهر عظيم كالفرات يصب الى بحر الروم وقيل الى بحر مانطش ويقال لدار مملكة هذه الامة ارم ذات العماد وهم ذوو خلق عجيب وآراؤها جاهلية ولهذا البلد على هذا البحر خبر ظريف وذلك أن سمكة عظيمة تأتيهم فى كل سنة فيتناولون منها ثم توجد نحوهم من الشق الآخر فيتناولون منها وقد عاد اللحم على الموضع الذى أخذ منه اولا وخبر هذه الامة مستفيض فى تلك الديار من الكفار ويلى هذه الامة أمة بين جبال أربعة كل جبل منها ممتنع ذاهب فى الهواء وبين هذه الجبال الاربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء فى وسط تلك الصحراء دارة مقورة كأنها قد خطت

وهذه

وهذه تورية بديعة للغاية في التعصب والتقنع مع حلاوة النظم وجودة السبك وخفة الوزن والله سبحانه يروح تلك الارواح في الجنان ويعاملنا واياهم بمحض الفضل والامتنان ويكفينا شجون دهر جرى بنا طلق العنان (رجع الى ما كنا فيه) وكنت وقفت في كلام بعض العلماء على ان البيتين السابقين المنسوبين الى أمير المؤمنين الناصر المرواني رحمه الله تعالى قالهما في الزهراء التي بناها وسيأتي ذكرها قريبا وقال الشيخ سيدي محيي الدين بن العربي في المسامرات قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها ماوى الطير والوحش وبناؤها عجيب في بلاد الاندلس وهي قريبة من قرطبة ابياتا تذكر العاقل وتنبه الغافل وهي

ديارا بأكناف الملاعب تلمع * وما ان بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب * فيصمت احيانا وحينا يرجع
فخاطبت منها طائرا متغردا * له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي * فقال على دهر مضى ليس يرجع

(ثم قال) وأخبرني بعض مشايخ قرطبة عن سبب بناء مدينة الزهراء أن الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر أن يفك بذلك المال اسرى المسلمين وطلب في بلاد الافرنج أسيرا فلم يوجد فشكر الله تعالى على ذلك فقالت له جاريته الزهراء وكان يحبها حبا شديدا اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمي وتكون خاصة لي فبناها تحت جبل العروس من قبلة الجبل وشمال قرطبة وبينها وبين قرطبة اليوم ثلاثة اميال أو نحو ذلك واتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها وجعلها متنزها ومسكنا للزهراء وحاشية أرباب دولته ونقش صورتها على الباب فلما قعدت الزهراء في مجلسها نظرت الى بياض المدينة وحسنها في حجر ذلك الجبل الاسود فقالت يا سيدي الا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء في حجر ذلك الزنجي فامر بزوال ذلك الجبل فقال بعض جلسائه أعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له ما يشين العقل سماعه لو اجتمع الخلق ما ازالوه حفرا ولا قطعا ولا يزيله الا من خلقه فأمر بقطع شجره وغرسه تينا ولوزا ولم يكن منظر أحسن منها ولا سيما في زمان الازهار وتفتح الاشجار وهي بين الجبل والسهل انتهى ببعض اختصار وقال ابن خلكان في ترجمة المعتمد بن عباد ما صورته الزهراء بفتح الزاي وسكون الهاء وفتح الراء بعدها همزة ممدودة وهي من عجائب أبنية الدنيا انشأها أبو المظفر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر أحد ملوك بني أمية بالاندلس بالقرب من قرطبة في أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلثا ميل وطول الزهراء من الشرق الى الغرب ألفان وسبعمائة ذراع وعرضها من القبلة الى الجنوب ألف وخمسمائة ذراع وعدد السواري التي فيها أربعة آلاف سارية وثلثمائة سارية وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب وكان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند وثلث مدخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء وكانت جباية الاندلس خمسة آلاف ألف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق المستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألف دينار وهي من أهول ما بناه الانس وأجله خطرا واعظمه شأنا

ببيكار وشكل دائرتها خسفة مجوفة في حجر صلده تخسف كما تدور الدائرة استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا قطع قديم يهوي سفلا كحائط مبني من سفل الى علو يكون قعره على نحو ميل طريق لا سبيل الى الوصول الى مستوى تلك الدائرة ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة وبالنهار يرى فيها قرى وعمائر وأنهار تجري من تلك القرى وناس وبهائم الا أنهم يرون لطاف الاجسام لبعد فعل الموضع لا يدرى من أي الامم هم ولا سبيل لهم الى الصعود من جهة من الجهات ولا سبيل لمن فوق الى النزول اليهم بوجه من الوجوه ووراء تلك الجبال الاربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه الاغلب عليها صور الناس واشكالهم الا أنهم ذوو شعر وربما وقع في النادر القرد منهم اذا احتيل في اصطياده فيكون في نهاية الفهم والدراية الا أنه لا لسان له فيعبر بالنطق ويفهم كل ما يخاطب به بالاشارة وربما حمل الواحد منهم الى ملوك الامم من هنالك فتعلمه القيام على رؤسها بالمذاب على موائدها ويلقى الملك له من طعامه فان أكله أكل الملك منه وان اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه وكذلك الاكثر من

ذكر ذلك كله ابن بشكوال فى تاريخ الاندلس انتهى كلامه * وحكى فى المطمح أن الوزير الكبير الشهير بالحزم ابن جهور قال وقد وقف على قصور الامويين التى تقوضت أبنيتها وعوّضت من أنيسها بالوحش افنيتها

قلت يوماً لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا
فأجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

وفيه أن أبا عامر بن شهيد بات ليلة باحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس وعرشت بسرور وائتناس وقرع النواقيس يبهج سمعه وبرق الحميا يسرع لمعه والقس قد برز فى عبدة المسيح متوشحا بالزنار أبدع توشيح قد هجروا الافراح واطرحوا النعم كل اطراح لا يعمدون الى ماء بالة الا اغترافا من الغدران بالراح وأقام بينهم يعملها حميا كأنما يرشف من كأسها شفة لميا وهى تنفح له بأطيب عرف كلما رشفها أعذب رشف ثم ارتحل بعد ما ارتحل فقال

ولرب حان قد شممت بديره * خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم * متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا * يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر * كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم * لسلافه والاكل من خنزيره

انتهى *(رجع الى أنباء الزهراء) قال بعض من أرخ الاندلس كان يتصرف فى عمارة الزهراء كل يوم من الخدام والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الدرهمان والثلاثة وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنحوت المعدل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل انتهى وسيأتى فى الزهراء مزيد كلام وقال ابن حيان ابتدأ الناصر بناء الزهراء أول يوم من محرم سنة ٣٢٥ وجعل طولها من شرق الى غرب ألفين وسبعمائة ذراع وتكسيرها تسعمائة ألف ذراع وتسعون ألف ذراع كذا نقله بعضهم وللنظر فيه مجال قال وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومؤنة حملها وجلب اليها الرخام الابيض من المرية والمجزع من رية والوردى والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة والحوض المنقوش المذهب من الشام وقيل من القسطنطينية وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان وليس له قيمة ولما جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثنى عشر تمثالا وبنى فى قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافى لونه المتلونة أجناسه وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجعلت فى وسطه اليتيمة التى أتحف الناصر بها اليون ملك القسطنطينية وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وهذا المجلس فى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوارى من الرخام

الملون

من القرد فى منافع ملوكهم به عند الطعام وذكرنا خبر القرود باليمن واللوح الحديد الذى كتبه سليمان ابن داود عهدا للقرود بالسير وما كان من أمرهم مع عامل معاوية وما كتب به فى أمرهم ووصف القرد العظيم الذى كان فى رقبته اللوح الحديد وليس فى قرود العالم أفطن من هذا النوع ولا أخبث وذلك ان القردة تكون فى بقاع الارض الحارة فمنها بأرض النوبة وأعلى بلاد الاحابش مما يلى أعالى مصب النيل القرود المعروفة بالنوبية وهى صغيرة القد صغيرة الوجوه ذات سواد غير حالك كانه نوبى وهو الذى يكون مع القرادين ويصعد على رمح قصير على أعلاه ومنها ما يكون فى ناحية الشام فى آجام وغياض نحو أرض الصقالبة وغيرها ممن هناك من الامم كنحو ما وصفناه من هذا النوع من القرود وقرب شكله من صورة الانسان ومنها بخلسانات بلاد الواضح وبحر الصين فى مملكة المهراج ملك الجزائر وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن مملكته يوازى ملك الصين وهو بين مملكة البلهرا وملك الصين وهذه القرود مشهورة فى الصقع معروفة

الملون والبلور الصافى وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ الى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من فى المجلس ان المحل قد طار بهم مادام الزئبق يتحرك وقيل ان هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس وقيل كان ثابتا على صفة هذا الصهريج وهذا المجلس لم يتقدم لاحد بناؤه فى الجاهلية ولا فى الاسلام وانما تهيأ له لكثرة الزئبق عندهم وكان بناء الزهراء فى غاية الاتقان والحسن وبها من المرمر والعمد كثير وأجرى فيها المياه وأحدق بها البساتين وفيها يقول الشاعر السميسر

وقفت بالزهراء مستعبرا * معتبرا أندب أشتاتا
فقلت يازهرا ألا فارجعى * قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكى وأبكى بها * هيهات يغنى الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضى * نوادب يندبن أمواتا

انتهى كلام هذا المؤرخ ملخصا وسيأتى ما يوافق جله ويخالف قله والله سبحانه يعلم الامر كله فانه ربما ينظر المتأمل هذا الكتاب فيجد فى بعض الاخبار تخالفا فيحمل ذلك على الغلط وليس كذلك وانما السبب الحامل لذلك جلب كلام الناس بعباراتهم والناقد البصير لا يخفاه مثل هذا وربما يقع التكرار وذلك من أجل ما ذكر والله أعلم * وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر غير واحد ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذى شاده ملك طليطلة المأمون ابن ذى النون بها وذلك أنه أتقنه الى الغاية وأنفق عليه أموالا طائلة وصنع فى وسطه بحيرة وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شئ ولا يصله وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة اذ سمع منشدا ينشد

أتبنى بناء الخالدين وانما * مقامك فيها لو عقلت قليل
لقد كان فى ظل الاراك كفاية * لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فنغص عليه حاله وقال انا لله وانا اليه راجعون أظن أن الاجل قد قرب فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى ولم يجلس فى تلك القبة بعدها وذلك سنة ٤٦٢ تجاوز الله تعالى عنه هكذا حكاه بعض مؤرخى المغرب * وقد ذكر فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع وتذكرت هنا قول أبى محمد المصرى فى صفة قصر طليطلة

قصر يقصر عن مداه الفرقد * عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم * فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون فى ارجائه * بدر تمام قابلته أسعد
وكأنما الاقداح فى راحاته * درجان ذاب فيه العسجد

بالكثرة فى هذه الخلجانات وهى ذات صور تامة وقد كان حمل الى المقتدر منها وجاءت فى سلاسل عظام وكان فى القرود ذوو لحى وسبال كبار مع أنواع من الهدايا من عجائب البحر حمل ذلك أحمد بن أبى هلال أمير عمان يومئذ وهذه القرود أمرها مشتهر عند البحريين من أهل سيراف وعمان ممن يختلف الى بلاد كلة والرانج وكيف تأتى بالحيلة لصيد التماسيح من جوف الماء على أن الجاحظ قد ذكر أن التماسيح لا تكون الا بنيل مصر ونهر مهران السند وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب عن ابطال ذلك وأخبرنا عن مواضع التماسيح فاما اليمن فلا تنازع بين من دخله فى أن القرود منه فى مواضع كثيرة لا يحصرها عدد لكثرتها فى وادى نخلة وهى بين بلاد الجند وبلاد زبيد التى أميرها فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ابراهيم بن زياد صاحب الحرملى وبين هذا الوادى وبين زبيد يوم وبين الجند يوم أو أكثر من ذلك وهذا الوادى كثير العمائر ومصاب المياه اليه كثيرة وشجر الموز فيه كثير والقرود فيه كثيرة وهو بين جبلين والقرود قطيعان كل قطيع منها بسوقه هدر والهدر الذكر العظيم كالفحل العظيم المقدم فيها وقد تلد القردة فى بطن واحد عدة من القرود نحو

وله فى صفة البركة والقبة عليها

شمسية الانساب بدرية * يحار فى تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر الدجى * وهى عليه الفلك الدائر

وكان ملوك الاندلس فى غاية الاحتفال بالمجالس والقصور وللوزير الجزيرى رحمه الله تعالى فى وصف مجلس للمنصور بن أبى عامر ما يشهد لذلك وهو قوله

وتوسطتها الجنة فى قعرها * ثبت السلاحف ماتزال تغنق
تنساب من فلكى هزبران يكن * ثبت الجنان فانفاه أخرق
صاغوه من ند وخلق صفحتى * هاديه محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع فى عرشه * مثل المليك غداة وهو مطوق
ونضائد من نرجس وبنفسج * وجنى خيرى وورد يعبق
ترنو بسحر عيونها وتكاد من * طرب اليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت * زهر الربيع فهن حسنا تشرق
فكأنما هى فى اختلاف رقومها * رايات نصرك يوم باسك تخفق
فى مجلس جمع السرور لأهله * ملك اذا جمعت قناه يفرق
حازت بدولته المغارب رفعة * فغدا يحسدها عليه المشرق

ومن هذه القصيدة

أما الغمام فشاهد لك انه * لاشك صنوك أو أخوك الاوثق
وافى الصنيع فحين تم تمامه * فى الصحو انشا ودقه يتدفق
وأظنه يحكيك جودا اذرأى * فى اليوم بحرك زاخرا يتفهق

وكان السبب فى هذه الابيات أن المنصور صنع فى ذلك الاوان صنيعا لتطهير ابنه عبد الرحمن وكان عام قحط فارتفع السعر بقرطبة وبلغ ربع الدقيق الى دينارين فجلا الناس من قرطبة فلما كان يوم ذلك الصنيع نشأت فى السماء سحابة عمت الافق ثم أتى المطر الوابل فاستبشر الناس وسر المنصور بن أبى عامر فقال الجزيرى بديهة أما الغمام الخ وهو القائل على لسان نرجس العامرية

حييتك ياقمر العلا والمجلس * أزكى تحيتها عيون النرجس
زهر تريك بحسنها وبلونها * زهر النجوم الجاريات الكنس
ملكن افئدة الندامى كلما * دارت بمجلسهم مدار الاكؤس
ملك الهمام العامرى محمد * للمكرمات وللنهى والانفس

قال ابن بسام ومن شعر الجزيرى ما اندرج له أثناء مدحه الذى ملح فيه مخاطبته للمنصور على ألسنة اسماء كرائمه بزهر رياضه فمن ذلك عن بهار العامرية

حدق الحسان تقر لى وتغار * وتضل فى صفتى النهى وتحار
طلعت على قضبى عيون تمائمى * مثل العيون تحفها الاشفار
وأخص شئ بى اذا شبهتنى * درر تنطق سلكها دينار

العشرة والاثنى عشر كما تلد الخنزيرة خنانيص كثيرة وتحمل القردة البعض من أولادها كحمل المرأة ولدها ويحمل الذكر باقيهن ولهن مجالس يجتمع فيها خلق منهن فيسمع لهن حديث ومخاطبات وهمهمة والاناث متميزات عن الذكور فاذا سمع السامع محادثتهن وهو لايرى أشخاصهن بين تلك الجبال والاشجار الموز وذلك بالليل لم يشك أنهم أناس لكثرتهن بالليل والنهار وليس فى جميع البقاع التى تكون فيها القرود أحسن ولا أخبث ولا أسرع قبولا للتعليم من قردة اليمن وأهل اليمن يسمون القرود الرباح ولهم جم للذكور والاناث قد سرحت سود كاسود مايكون من الشعر واذا طلبوا يجلسون مراتب دون مرتبة الرئيس ويتشبهون فى سائر اعمالهم بالناس ومن القردة باليمن ببلاد مأرب من بلاد صنعاء وقلعة كهلان مايكون فى براروجبال هنالك كانها السحب فى تلك البرارى والجبال لكثرتها وكهلان هذه قلعة من مخاليف اليمن فيها أسعد بن يعفر ملك اليمن فى هذا الوقت محتجب عن الناس الا خواصه وهو بقية من ملوك حمير حوله من الجنود من الخيل والرجال نحو خمسين ألف مرتزقة يقبضون الرزق فى كل شهر ويدعى وقت القبض البركة

أهدى له قضب الزمرد ساقه * وحباه أنفس عطره العطار
أنا نرجس حقا بهرت عقولهم * ببديع تركيبي فقيل بهار

ومن أخرى عن بنفسج العامرية اذا تدافعت الخصوم أيد الله مولانا المنصور فى مذاهبها وتعاقرت فى مفاخرها فاليه مفزعها وهو المقنع فى فصل القضية بينهما لاستيلائه على المفاخر باسرها وعلمه بسرها وجهرها وقد ذهب البهار والنرجس فى وصف محاسنها والمفخر بشابهها كل مذهب وما منهما الاذو فضيلة غيران فضلى عليهما أوضح من الشمس التى تعلونا وأعذب من الغمام الذى يسقينا وان كانا قد تشبها فى شعرهما ببعض ما فى العالم من جواهر الارض ومصابيح السماء وهى من الموات الصامت فانى أتشبه باحسن ما زين الله به الانسان وهو الحيوان الناطق مع انى أعطر منهما عطرا وأحمد خبرا وأكرم امتاعا شاهدا وغائبا ويانعا وذابلا وكلاهما لا يمتع الاريثما يينع ثم اذا ذبل تستكره النفوس شمه وتستدفع الاكف ضمه وأنا أمتع يابسا ورطبا وتدخرنى الملوك فى خزائنها وسائر الاطباء وأصرف فى منافع الاعضاء فان فخرا باستقلالهما على ساق هى أقوى من ساقى فلاغر وأن الوشى ضعيف والهوى لطيف والمسك خفيف وليس الجديد يدرك بالصراع وقد أودعت ايد الله مولانا قوافى الشعر من وصف مشابهى ما أودعاه وحضرت بنفسى لئلا أغيب عن حضرتهما فقديما فضل الحاضر وان كان مفضولا ولذا قالوا ألذ الطعام ما حضر لوقته وأشعر الناس من أنت فى شعره فلمولانا أتم الحكم فى أن يفصل بحكمه العدل وأقول

شهدت لنوار البنفسج ألسن * من لونه الاحوى ومن ايناعه
لمشابه الشعر الاعم أعاره الـقمر المنير الطلق نور شعاعه
ولربما جمع النجيع من الطلى * من صارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف فى لونه * لافى روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل العلا * حتى وضحن بنهجه وشراعه
فى سيفه قصر لطول نجاده * وتمام ساعده وفسحة باعه
ذو همة كالبرق فى اسراعه * وعزيمة كالحين فى ايقاعه
تلقى الزمان له مطيعا سامعا * وترى الملوك الشم من أتباعه

وما أحسن قول بعض الاندلسيين يصف حديقة

وحديقة مخضرة أثوابها * فى قضبها للطير كل مغرد
نادمت فيها فتية صفحاتهم * مثل البدور تنير بين الاسعد
والجدول الفضى يضحك ماؤه * فكأنه فى العين صفح مهند
واذا تجعد بالنسيم حسبته * لما تراه مشبها للمبرد
وتناثرت نقط على حافاته * كالعقد بين مجمع ومبدد
وتدحرجت للناظرين كأنها * درنثير فى بساط زبرجد

وكان بحمام الشطارة باشبيلية صورة بديعة الشكل فوصفها بعض أهل الاندلس بقوله

ودمية مرمر تزهو بجيد * تناهى فى التورد والبياض

وقد كانت لهذا الرجل حروب باليمن مع القرامطة وصاحب المذيخرة وهو على ابن الفضل وذلك بعد السبعين والمائتين وقد كان لعلى باليمن شان عظيم حين قتل وتوطأت اليمن بهذا الرجل وباليمن للقرود مواضع كثيرة وكذلك فى سائر بقاع الارض أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على علة تكونها فى بعض البقاع دون بعض من الارض وأخبار النسناس فى كتابنا أخبار الزمان وكذلك الاخبار عن العرابد وهو نوع كالحيات يكون ببلاد حجر اليمامة فيما زعموا واحدها عربد وقد كان المتوكل فى بدء خلافته سأل جبير بن اسحق أن يتأتى له فى حمل اشخاص من النسناس والعربد فلم يسلم منهم الى سر من رأى الا اثنان من النسناس ولم تتأت له الحيلة فى حمل العربد من اليمامة وذلك أن العربد هذا اذا خرج عن اليمامة وصار الى موضع منها معروف المسافة عدم من الوعاء الذى حمل فيه وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيات والعقارب وسائر الهوام كنفعة أهل

سجستان بالقنافذ ولذلك كان فى عهد سجستان القديم لا يقتل قنفذ ببلادهم لانه بلد كثير

لها ولد ولم تعرف حليلا * ولا ألمت بأو جاع المخاض
ونعلم أنها حجر ولكن * تتيمنا بالحاظ مراض

وكان بسرقسطة في القصر المسمى بدار السرور مجلس الذهب أحد قصور المقتدر بن هود وفيه يقول ذو الوزارتين بن عبد شلب يهجو وزيرا كان ينبز بتحقون

ضج من تحقون بيت الذهب * ودعا مما به واحربي
رب طهرني فقد دنسني * عار تحقون ألوف الذنب

(وكتب) بعض كبراء الاندلس الى اخوانه كتابي هذا من وادي الزيتون ونحن فيه مختلفون ببقعة اكتست من السندس الاخضر وتحلت بانواع الزهر وتحايلت بأنهار تخللها واشجار تظللها تحجب أدواحها الشمس لالتفافها وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها وماشئتم من محاسن تروق وتعجب واطيار تتجاوب بالحان تلهي وتطرب في مثلها يعود الزمان كله صبا وتجري الحياة على الامل والمنى وأنا فيها أبقاكم الله سبحانه بحال من طاب غذاؤه وحسن استمراؤه وصحا من جنون العقار واستراح من مضض الخمار وزايلته وساوسه وخلت من الخباط هواجسه ثم ذكر كلاما من هذا النمط في وصف الخمار والدعاء الى العقار * فراجعه أبو الفضل بن حسداي برقعة قال في صدرها الى سيدنا الذي ألزمنا بامتنانه الشكر وكبيرنا الذي علمنا ببيانه السحر وعميدنا الذي عقدنا بحرمه الحل ورمانا بدائه وانسل أبقاك الله تعالى لتوبة نصوح تمرها ويمين غموس تبرها ورد أبقاك الله تعالى كتابك الذي أنفذته من معرسك بوادي الزيتون ووقفنا على ما القنت في أوصافه من جنة المفتون واعجابك بالتفاف شجره ودوحاته واهتزازك بلطيف بواكره وروحاته وسرورك به وهو جو تلاعه موروده هضابه وأجراعه وكل المشارب ما خلاه ذميم وماؤه الدهر خصر والمياه حميم وتلك عادة تلونك وسجية تحضرمك وشاكلة ملالك وسآمك واشعر الناس عندك من أنت في شعره وأحب البلاد اليك ما أنت في عفره فأين منك بساتين جلق وجنانه ورياضه المونقة وخلجانه وقبابه البيض في حدائقه الخضر وجون العطر في جنانه النضر وما تضمه حيطانه وتعيه أنجاده وغيطانه من أمهات الراح التي هجرتها بزعمك وموردا الشمول التي طلقتها برغمك وهيهات فوالله ما فارقتك تلك الاجارع والمجاني ولا شاقتك تلك المنازل والمغاني الا تذكرا لما لدينا من طيب المعاهد وحنينا لما عندنا من جميل المشاهد وأين من مشتاق عنقاء مغرب * ثم ذكر كلاما في جواب ما مر من الخمار لم يتعلق لي به غرض *(وما أحلى)* ما كتب به أبو اسحق بن خفاجة من رسالة في ذكر منتزه ولما أكب الغمام اكبابا لم اجد منه اغبابا واتصل المطر اتصالا لم ألف منه انفصالا اذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته وينشر صحيفته فقشعت الريح السحاب كما طوى السجل الكتاب وطفقت السماء تخلع جلبابها والشمس تميط نقابها وطلعة الدنيا تبتهج كانها عروس تجلت وقد تحلت ذهبت في لمة من الاخوان نستبق الى الراحة ركضا ونطوي التفرج أرضا فلا أندفع الا الى غدير نمير قد استدارت منه في كل قرارة سماء سحابة عماء واقتاب في تلعته حباب

مطافه وحوله جبال كثيرة من الرمل قد سكرت بالخشب والقصب والبلد كثير الرمال بناه ذو القرنين في الافاعي والحيات جدا فلولا كثرة القنافذ لتلف من هنالك من الناس وكذلك أهل مصر في صعيدها وغيره لهم دويبة يقال لها العرانس اكبر من الجرذ وأصغر من ابن عرس حمراء بيضاء البطن لولا هذه الدويبة لغلب على أهل مصر الثعابين وهي نوع من الحيات عظيمة فينطوي الثعبان على الدويبة ويلتف بها فترخي عليه الريح فيتقطع الثعبان من ريحها هذه خاصية هذه الدابة وفي الشرق أنواع من الخواص في بره وبحره وحيوانه ونباته وجماده وكذلك في الغرب واليمن وهو الجنوب والحرمي وهو الشمال وقد ذكرنا طبع كل واحد من هذه الاربع ففي ذكرها في هذا الباب خروج عن الغرض الذي يممنا نحوه فلنرجع الآن الى ما كنا فيه آنفا من الامم المحيطة بالباب والابواب والسور وجبل الفتح وبلاد الخزر واللان فنقول انه يلي بلاد الخزر فيما بينهم وبين المغرب أمم ترك ترجع الى أب واحد وبدء أنسابهم حضر وبدو ذوو منعة وبأس شديد لكل أمة منها ملك مسافة مملكته أيام متصلة مما لكهم بعضها ببحر نيطش وتتصل عماراتها بمدينة رومية

فتردنيا

فتردد بتلك الاباطح تتهادى تهادى أغصانها وتتضاحك تضاحك اقحوانها وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشى على بساط وشى فاذا مر بغدير نسجه درعا واحكمه صنعا وان عثر بجدول شطب منه نصلا وأخلصه صقلا فلا ترى الا بطاحا مملوءة سلاحا كانما انهزمت هنالك كتائب فألقت ما لبسته من درع مصقول وسيف مسلول * ومن فصل منها فحللنا قبة خضراء ممدودة اشطان الاغصان سندسية رواق الاوراق وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ونشتمل عليه براد نسيم عليل ونجيل الطرف فى نهر صقيل مائى لجين الماء كانه مجرة السماء مؤتلق جوهر الحباب كانه من ثغور الاحباب وقد حضرنا مسمع يجرى مع النفوس لطافة فهو يعلم غرضها وهواها ويغنى لها مقترحها ومناها فصيح لسان النقر يشفى من الوقر كانه كاتب حاسب تمشق يمناه وتعقد يسراه

يحرك حين يشدو ساكنات * وتنبعث الطبائع للسكون

انتهى * (وكانت) بين أبى اسحق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق أن ولى ذلك الصديق حصنا فخاطبه أبو اسحق برقعة منها أطال الله بقاء سيدى النبيه أوصافه النزيهة عن الاستثناء المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء ما انحذفت ياء يرى للجزم واعتلت واو يغزو لموضع الضم كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال وعهد كريم هو الفعل لم يدخله الاعتلال والله يجعل هاتيك من الاحوال الثابتة اللازمة ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة وانما استنهض طولك الى تجديد عهدك بمطالعة ألف الوصل وتعديه فعل الفصل وعدولك عن باب ألف القطع الى باب الوصل والجمع حتى يسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ويدخل الانتقال حال الصمت فلا تتخيل أعزك الله ان رسم اخائك عندى دوحه قد درس عفاء ولا أن صدرى دارمية أمسى من وده خلاء وانما أنا فعل اذا تثنى ظهر من ضمير ودك ما بطن وبدا منه ما كمن وهنيئا أعزك الله أن فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعه تغيير وأن فعل سيفك ماض ما به للعوامل تأثير وأنت بجدك جماع أبواب الظرف تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف ودرس حروف العطف وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك وتوجب بعد النفى ما سلف من عهدك وتدع ألف الالفة أن تكون بعد من حروف اللين وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين وتسوم ساكن الود أن يتحرك ومعتل الاخاء أن يصح وكتابى هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة وتصير هذه النكرة معرفة فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبل ومنك اشتقاق اسم السودد والفضل وانك وان تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا وعدوك وان تكبر كالكميت لم يقع الا مصغرا وللايام علل تبسط وتقبض وعوامل ترفع وتخفض فلا دخل عروضك قبض ولا عاقب رفعك خفض ولازلت مرتبطا بالفضل شرطك وجزاؤك جاريا على الرفع سرورك الكريم وسناؤك حتى يخفض الفعل وتبنى على الكسر قبل ان شاء الله * وكتب رحمه الله تعالى يستدعى عود غناء * انتظم من اخوانك أعزك الله تعالى عقد شرب يتساقون فى ودك ويتعاطون ريحانة شكرك وحمدك وما منهم الا شره المسامع الى رنة حمامة ناد لا حمامة بطن واد والطول لك فى

وبما يلى بلاد الاندلس مستظهرة على سائر ما هنالك من الامم وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة وكذلك مع صاحب اللان وديارهم تتصل ببلاد الخزر فالجيل الواحد منهم يقال له يحيى ثم تليها أمة ثانية يقال لها جعرد ثم تليها أمة يقال لها بجناك وهى أشد هذه الامم الاربعة بأسا ثم تليها أمة ثانية يقال لها البوكرده وملوكهم بدو وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلثمائة أو فيها وقد كان للروم فى تخوم أرضهم فيما يلى من ذكرنا من هذه الاجناس الاربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها وليدر فيها خلق من الناس ومنعة بين الجبال والبحر فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الامم ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل الى أرض الروم لمنع الجبال والبحر اياهم ومن فى هذه المدينة وكان بين هؤلاء الاجناس حروب بخلاف وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من أرض اردبيل كان نازلا على أرض بعضهم فاستضافه ناس من الجبل الآخر فاختلفت الكلمة وأغار من فى وليدر من الروم على ديارهم وهم عنها خلوف فسبوا كثيرا من الذرية وساقوا كثيرا من الاموال ونمى ذلك اليهم وهم مشاغيل فى حربهم فاجتمعت كلمتهم وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء وعمد القوم جميعا نحو

صلاتها بجماد ناطق قد استعار من بنان لسانا وصار لضمير صاحبه ترجمانا وهو على الاساءة والاحسان لا ينفك من ايقاع به من غير ابجاع له فان هفا عركت أذنه وأدب وان تأبى واستوى بعج بطنه وضرب لا زلت منتظم الجذل ملتئم الأمل انتهى *(ومن نظمه) رحمه الله تعالى يتفجع ويتوجع

شراب الاماني لو علمت سراب * وعتبى الليالي لو عرفت عتاب
وهل مهجة الانسان الا طريدة * يحوم عليها للحمام عقاب
يخب بها في كل يوم وليلة * مطايا الى دار البلى وركاب
وكيف يغيض الدمع أو يبرد الحشا * وقد باد أقران وفات شباب
أقلب طرفي لا أرى غير ليله * وقد حط عن وجه الصباح نقاب
كأني وقد طار الصباح حمامة * يمد جناحيه على غراب
دعا بهم داعي الردى فكأنما * تبارت بهم خيل هناك عراب
فها هم وسلم الدهر حرب كأنما * جثا بينهم طعن لهم وضراب
همود ولا غير التراب حشية * لجنب ولا غير القبور قباب
ولست بناس صاحبا من ربيعة * اذا نسيت رسم الوفاء صحاب
ومما شجاني أن قضى حتف أنفه * وما اندق رمح دونه وكعاب
وأنا تجارينا ثلاثين حقبة * فمات سباقا والحمام قصاب
كأن لم يبت في منزل القصف ليلة * يجيب بها داعي الصبا ويجاب
اذا قام منا قائم هز عطفه * شباب أرقناه بها وشراب
ولما تراءت للمشيب بريقة * وأقشع من ظل الشباب سحاب
نهضنا بأعباء الليالي جزالة * وأرست بها في النائبات هضاب
فيا ظاعنا قد حط في ساحة البلى * بمنزل بين ليس عنه مآب
كفى حزنا أن لم يزرني على النوى * رسول ولم ينفذ اليك كتاب
وأني اذا يممت قبرك زائرا * وقفت ودوني للتراب حجاب
ولو أن حيا كان جاور ميتا * لطال كلام بيننا وخطاب
وأعرب عما عنده من جلية * فأقشع عن شمس هناك طباب

وقد أبعدنا عما كنا بصدده من ذكر قرطبة أعادها الله للاسلام فنقول *قال بعض من أرخ الاندلس انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل الى اربعمائة وتسعين مسجدا ثم زادت بعد ذلك كثيرا كما سياتي ذكره *وقال بعضهم كانت قرطبة قاعدة الاندلس وأم المدائن وقرارة الملك وكان عدد شرفاتها أربعة آلاف وثلثمائة وكانت عدة الدور في القصر الكبير أربعمائة دار ونيفا وثلاثين وكانت عدة دور الرعايا والسواد بها الواجب على أهلها المبيت في السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار حاشا دور الوزراء وأكابر الناس والبياض *ورأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لمتونة والموحدين قال وكانت ديار أهل الدولة اذ ذاك ستة آلاف دار وثلثمائة دار انتهى وعدد أرباضها ثمانية

وعشرون

مدينة وليدر فساروا اليها في نحو ستين ألف فارس وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمع ولو كان ذلك لكانوا في نحو مائة ألف فارس فلما نمى خبرهم الى أرميوس ملك الروم في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة سير اليهم اثنى عشر ألف فارس من المتنصرة على الخيول بالرماح في زي العرب وأضاف اليهم خمسين ألفا من الروم فوصلوا الى مدينة وليدر في ثمانية أيام وعسكروا وراءها ونازلوا القوم وقد كانت الترك قتلت من أهل وليدر خلقا من الناس وامتنع أهلها بسورهم الى أن أتاهم هذا المدد ولما صح عند الملوك الاربعة من سار اليهم من المتنصرة والروم بعثوا الى بلادهم فجمعوا من كان قبلهم من تجار المسلمين ممن يطرأ الى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب واللان وغيرهم وفي هؤلاء الاجناس الاربعة من قد أسلم وهم غير مخالطين لهم الا عند حروب الكفار فلما تصاف القوم وبرزت المتنصرة أمام الروم خرج اليهم من كان قبل الترك من التجار المسلمين فدعوهم الى ملة الاسلام وانهم ان دخلوا في أمان الترك أخرجوهم من بلادهم الى أرض الاسلام فأبوا ذلك وتواقف الفريقان في ذلك الوقت فكانت للمتنصرة والروم على الترك لانهم كانوا في

وعشرون وقيل أحد وعشرون ومبلغ المساجد بها ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجدا وعدد الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام وقيل ثلثمائة حمام وقال ابن حيان ان عدة المساجد عندتنا هيها فى مدة ابن أبى عامر ألف وستمائة مسجد والحمامات تسعمائة حمام وفى بعض التواريخ القديمة كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا منها بشقندة ثمانية عشر مسجدا وتسعمائة حمام وأحد عشر حماما ومائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصا وبما نصف العدد أو أكثر لارباب الدولة وخاصتها هكذا نقله فى المغرب وهو أعلم بما يأتى ويذر رحمه الله تعالى * وقال بعض المؤرخين بعد ذكره نحو ما تقدم ووسط الارباض قبة قرطبة التى تحيط بالسور دونها وأما اليتيمة التى كانت فى المجلس البديع فانها كانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية الى الناصر مع تحف كثيرة سنية انتهى ونحوه لابن الفرضى وغير واحد لكن خالفهم صاحب المسالك والممالك فذكر أن عدد المساجد بقرطبة أربعمائة مسجد وأحد وسبعون مسجدا وهو بعيد وقال قبله ان دور قرطبة فى كمالها ثلاثون ألف ذراع * وتفسيرها باللسان القوطى القلوب المختلفة وهى بالقوطية بالظاء المشالة وقيل ان معنى قرطبة أجز فاسكنها قال وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة * وكانت جبايتها فى أيام الحكم بن هشام مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين دينارا وسبق ما يخالف هذا ومن القمح أربعة آلاف مدى وستمائة مدى ومن الشعير سبعة آلاف مدى وستمائة مدى وسبعة وأربعين مديا وقال بعض العلماء أحصيت دور قرطبة التى بها وأرباضها أيام ابن أبى عامر فكان مائتى ألف دار وسبعة وسبعين دارا وهذه دور الرعية وأما دور الاكابر والوزراء والكتاب والاجناد وخاصة الملك فستون ألف دار وثلثمائة دار سوى مصارى الكراء والحمامات والخانات وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربعمائة وخمسة وخمسون ولما كانت الفتنة على رأس المائة الرابعة غيرت رسوم ذلك العمران ومحيت آثار تلك القرى والبلدان انتهى ملخصا * وسيأتى فى رسالة الشقندى ما هو أشمل من هذا * ولما فارقت حال أبى القاسم عامر بن هشام القرطبى بقرطبة وزين له بعض أصحابه الرحلة الى حضرة ملك الموحدين مراكش قال وذكر المتنزهات القرطبية

يا هبة باكرت من نحو دارين * وافت الى على بعد تحيينى
سرت على صفحات النهر ناشرة * جناحها بين خيرى ونسرين
ردت الى جسدى روح الحياة وما * خلت النسيم اذا ماتت يحيينى
لولا تنسمها عن نشر أرضكم * ما أصبحت من أليم الوجد تبرينى
مرت على عقدات الرمل حاملة * من سركم خبرا بالوحى يشفينى
عرفت من عرفه ما كنت أجهله * لما تنسم فى تلك الميادين
نزوت من طرب لما هفا سحرا * وظل ينشرنى طورا ويطوينى
خلت الشمال شمالا اذ سكرت بها * سكرا بما لست أرجوه يمنينى

التدبير فى غداة غد فأنعموا له بذلك فلما أصبح جعل فى جناح الميمنة كراديس كثيرة كل كردوس منها ألف وكذلك فى جناح الميسرة فلما تصاف القوم خرجت الكراديس من ناحية الميمنة فرشقت فى قلب الروم فصارت الى موضع من خرج من جناح الميمنة واتصل الرمى واتصلت الكراديس كالرحا والقلب والميمنة والميسرة للترك ثابتة والكراديس تعمل عليها فى ألف ألف وذلك أن من خرج من كراديس الترك من جناح ميمنتهم كان يبتدئ فيرمى فى جناح ميسرة الروم ويمر بميمنتهم فيرمى وينتهى الى القلب وما يخرج من كراديسهم من جناح الميسرة يرمى فى جناح ميمنة الروم وينتهى الى الميسرة فيرمى وينتهى الى القلب فيرمى فيكون ملتقى الكراديس فى القلب دائرا على ما وصفنا فلما نظرت المتنصرة والروم الى ما لحقهم من تشويش صفوفهم وتواتر الرمى عليهم جلوا على القوم مشوشين فى مصافهم فصادفوا صفوف الترك ثابتة فأخرجت لهم الكراديس فرشقتهم الترك كلها رشقا واحدا فكان ذلك الرشق سبب هزيمة الروم وعقبهم

أهدت الى أر يجامن شمائلكم * فقلت قربي من كان يقصيني
وخلت من طمع أن اللقاء على * اثر النسيم وأضحى الشوق يحدوني
فظلت ألثم من تعظيم حقكم * مجرأذيالها والوجد يغريني
مسارح كم بها سرحت من كمد * قلبي وطرفي ولاسلوان يثنيني
بين المصلى الى وادى العقيق وما * يزال مثل اسمه ان بان يبكيني
الى الرصافة فالمرج النضير فوا * دى الدير فالعطف من بطحاء عبدون
لباب عبد سقته السحب وابلها * فلم يزل بكؤس الانس يسقيني
لاباعد الله عيني عن منازهه * ولا يقرب لها أبواب جيرون
حاشا لها من مجلات مفارقة * من شيق دونها في القرب محزون
أين المسير ورزق الله أدركه * من دون جهد وتاميل يعنيني
يامن يزين لى الترحال عن بلدى * كم ذا تحاول نسلا عند عنين
وأين يعدل عن أرجاء قرطبة * من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
قطر فسيح ونهر مابه كدر * حفت بشطيه ألفاف البساتين
باليت لى عمر نوح فى اقامتها * وأن مالى فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا * ت الراح نهباووصل الحور والعين
وانما أسفى أنى أهيم بها * وأن حظى منها حظ مغبون
أرى بعينى مالا تستطيل يدى * له وقد حازه من قدره دونى
وأنكد الناس عيشا من تكون له * نفس الملوك وحالات المساكين
بغض طرف التصابى حين يبهته * قضبان نعمان فى كثبان يبرين
قالوا الكفاف مقيم قلت ذاك لمن * لايستخف الى بيت الزراجين
ولا يبله هب الصبا سحرا * ولا يلاطفه عرف الرياحين
ولا يهيم بتفاح الخدود ورمان الصدور وترجيع التلاحين
لاتجتنى راحة الا على تعب * ولا تنال العلا الا من الهون
وصاحب العقل فى الدنيا أخو كدر * وانما الصفو فيها للمجانين
ياآمرى ان أحث العيس عن وطنى * لما رأى الرزق فيه ليس يرضيني
نصحت لكن لى قلبا ينازعنى * فلو ترحلت عنه حله دوني
لالزمن وطنى طورا تطاوعنى * قود الامانى وطورا فيه تعصيني
مذللا بين عرفانى وأضرب عن * سيرلارض بها من ليس يدريني
هذا يقول غريب ساقه طمع * وذاك حين أريد البر يجفوني
اليك عنى آمالى فبعدك يهديني وقربك يطغيني ويغويني
يالحظ كل غزال لست أملكه * يدنو ومالى حال منه تدنيني
ويامدامة دير لا ألم به * لولاكما كان ما أعطيت يكفيني
لاصبرن على ما كان من كدر * لمن عطاياه بين الكاف والنون

الترك بعد الرشق بالجملة على صفوفهم غير مشفوفين ما كانوا عليه من التعبية وركضت الكراديس من اليمين والشمال وأخذ القوم السيف واسود الافق وكثر صياح الخيل فقتل من الروم والمتنصرة نحو من ستين الفا حتى كان يصعد الى سور المدينة على جثثهم فافتتحت المدينة وأقام السيف يعمل فيها أياما وسبى أهلها وخرج عنها الترك بعد ثلاث يؤمون القسطنطينية ثم توسطوا العمائر والمروج والضياع قتلا وأسرا وسبيا حتى نزلوا على سور القسطنطينية فاقاموا عليها نحوا من أربعين يوما يبيعون المرأة منهم والصبى منهم بالخرقة والثوب من الديباج والحرير وبذلوا السيف فلم يبقوا على أحد منهم وربما قتلوا النساء والولدان وشنوا الغارات فى تلك الديار فاتصلت غاراتهم بأرض الصقالبة وورمية ثم اتصلت غاراتهم الى نحو بلاد الاندلس والافرنجة والجلالقة فغارات من ذكرنا من الترك متصلة الى أرض القسطنطينية وماذكرنا من الممالك الى هذه الغاية فلنرجع الآن الى ذكر جبل الفتح والسور والباب والابواب اذ كنا قد ذكرنا جملا من أخبار الامم القاطنة فى هذا الصقع فمن ذلك أن أمة تلي بلاد اللان يقال لها الابخاز منقادة الى دين

وتسمى

وتسمى هذه القصيدة عند أهل الاندلس كنز الادب وقد أشرنا فى الفصل الأوّل الى كثير مما يتعلق بقرطبة أعادها الله تعالى الى الاسلام فاغنى عن اعادته وان كان ذكره هنا أنسب لان ما تقدم انما هو فى ذكرها مع غيرها من بلاد الاندلس وهذا الفصل لها بالاستقلال وأنشد أبو العاصى غالب بن أمية المروزى لما جلس على نهر قرطبة بازاء الربض ملتفتا الى القصر بديهة

ياقصر كم حويت من نعم * عادت لقى بعوارض السكك
يا قصر كم حويت من ملك * دارت عليه دوائر الفلك
ما شئت فابق فكل متخذ * يوما يعود بحال مترك

وقال القاضى أبو الفضل عياض عند ارتحاله عن قرطبة

أقول وقد جد ارتحالى وغردت * حداتى وزمت للفراق ركائبى
وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتى * وصارت هواء من فؤادى ترائبى
ولم يبق الا وقفة يستحثها * وداعى للاحباب لا للحبائب
رعى الله جيرانا بقرطبة العلا * وجادر باها بالعهاد السواكب
وحيا زمانا بينهم قد ألفته * طليق المحيا مستلان الجوانب
أاخواننا بالله فيها تذكروا * مودة جار أو مودة صاحب
غدوت بهم من برهم واحتفالهم * كأنى فى أهلى وبين أقاربى

(وأما) مسجد قرطبة فشهرته تغنى عن كثرة الكلام فيه ولكن نذكر من أوصافه وننشر من أحواله مالا بد منه فنقول قال بعض المؤرخين ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ولا أعجب بناء وأتقن صنعة وكلما اجتمعت منه أربع سوارى كان رأسها واحدا ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد فى أعلاه وأسفله انتهى وكان الذى ابتدأ بناء هذا المسجد العظيم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل ولم يكمل فى زمانه وكمله ابنه هشام ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه حتى صار المثل مضروبا به والذى ذكره غير واحد أنه لم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى ان كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء * وقال بعض المؤرخين ان عبد الرحمن الداخل لما استقرّ أمره وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع وأنفق عليه ثمانين ألف دينار وبنى بقرطبة الرصافة تشبيها برصافة جدّه هشام بدمشق وقال بعض انه أنفق على الجامع ثمانين ألف دينار واشترى موضعه اذ كان كنيسة بمائة ألف دينار فالله تعالى أعلم * وقال بعض المؤرخين فى ترجمة عبد الرحمن الداخل ما صورته انه لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة فجدد مغانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور وابتنى قصر الامارة والمسجد الجامع ووسع فناءه وأصلح مساجد الكور ثم ابتنى مدينة الرصافة متنزها له واتخذ بها قصرا حسنا وجنانا واسعة نقل اليها غرائب الغراس وكرائم الشجر من بلاد الشام وغيرها من الاقطار انتهى وكانت أخته أم الاصبغ ترسل اليه من الشام بالغرائب مثل الرمّان العجيب الذى أرسلته اليه من دمشق الشام كما مرّ وسيأتى كلام ابن سعيد بما هو أتم من هذا * ولما ذكر ابن بشكوال زيادة المنصور بن أبى عامر فى جامع

النصرانية ولها ملك فى هذا الوقت يقال له الطبيعى ومملكة هذا الطبيعى موضع يعرف بمسجد ذى القرنين وكانت الابخاز والخزرية تؤدى الجزية الى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون فى أيام المتوكل فانه كان بها رجل يقال له اسحق بن اسمعيل وكان مستظهرا بمن معه من المسلمين على من حوله من الامم وهم منقادون الى طاعته وأداء الجزية اليه وعلا أمر من هنالك من الامم حتى بعث المتوكل بغا فنزل على نهر تفليس وأقام عليها محاربا حتى افتتحها بالسيف وقتل اسحق بن اسمعيل لان اسحق بن اسمعيل كان متغلبا على الناحية وكان له أخبار يطول ذكرها وهى مشهورة فى أهل ذلك الصقع وغيرهم ممن عنى بأخبار العالم وأراه رجلا من قريش من بنى أمية أو مولى لاحقا فانخرقت هيبة المسلمين من ثغر تفليس من ذلك الوقت الى هذه الغاية فامتنع من جاورهم من الممالك من الاذعان لهم بالطاعة واقتطعوا الاكثر من ضياع تفليس وانقطع الوصول من بلاد الاسلام الى ثغر تفليس بين هؤلاء الامم من الكفار اذ كانت محيطة بذلك الثغر وأهلها ذو وقوّة وباس شديد وان كان ما ذكرنا من الممالك محيطا بهم

قرطبة قال ومن أحسن ماعاينه الناس في بنيان هذه الزيادة العامرية اعلاج النصارى مصفدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها وهم كانوا يتصرفون في البنيان عوضا من رجالة المسلمين اذلالا للشرك وعزة للاسلام ولما عزم على زيادته هذه جلس لارباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه فكان يؤتى بصاحب المنزل فيقول له ان هذه الدار التي لك يا هذا أريد أن ابتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم فشطط واطلب ماشئت فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر ان يضاعف له وأن تشترى له بعد ذلك دار عوضا منها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة فقال تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ في الثمن وحكى ذلك بن حيان أيضا * وقيل ان انفاق الحكم في زيادة الجامع كان مائة ألف وواحدا وستين ألف دينار ونيفا وكله من الاخماس * وقال صاحب كتاب مجموع المفترق وكان سقف البلاط من المسجد الجامع من القبلة الى الجوف قبل الزيادة مائتين وخمسا وعشرين ذراعا والعرض من الشرق الى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع ثم زاد الحكم في طوله مائة ذراع وخمسة أذرع فكمل الطول ثلثمائة ذراع وثلاثين ذراع وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعا فتم العرض مائتي ذراع وثلاثين ذراعا وكان عدد بلاطه أحد عشر بلاطا عرض أوسطها ستة عشر ذراعا وعرض كل واحد من اللذين يليانه غربا واللذين يليانه شرقا أربعة عشر ذراعا وعرض كل واحد من الستة الباقية احدى عشرة ذراعا وزاد ابن أبي عامر فيه ثمانية عرض كل واحد عشرة أذرع وكان العمل في زيادة المنصور سنتين ونصفا وخدم فيه بنفسه وطول الصحن من المشرق الى المغرب مائة ذراع وثمان وعشرون ذراعا وعرضه من القبلة الى الجوف مائة ذراع وخمس أذرع وعرض كل واحدة من السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعا وعدد أبوابه تسعة ثلاثة في صحنه غربا وشرقا وجوفا وأربعة في بلاطاته اثنان شرقيان واثنان غربيان وفي مقاصير النساء من السقائف بابان وجميع مافيه من الاعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عمودا رخاما كلها وباب مقصورة الجامع ذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء وثريات المقصورة فضة محضة وارتفاع الصومعة اليوم وهي من بناء عبد الرحمن ابن محمد ثلاث وسبعون ذراعا الى أعلى القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذن وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة ودور كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف فاثنان من التفافيح ذهب ابريز وواحدة فضة وتحت كل واحدة منها وفوقها سوسنة قد هندست بأبدع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج وهي احدى غرائب الارض * وكان بالجامع المذكور في بيت منبره مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه الذي خطه بيده وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت وعليه أغشية الديباج وهو على كرسي العود الرطب بمسامير الذهب (رجع الى المنارة) وارتفاع المنارة الى مكان الاذان أربع وخمسون ذراعا وطول كل حائط من حيطانها على الارض ثمان عشرة ذراعا انتهى بحروفه وفيه بعض مخالفة

لما

ثم تلي مملكة خزران مملكة يقال لها الصمصحية نصارى وفيهم جاهلية لاملك لهم ثم تلي مملكة هؤلاء الصمصحية بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان المقدم ذكرها مملكة يقال لها الصنبارية وملكهم يقال له كرسكوس هذا الاسم الاعم لسائر ملوكهم وينقادون الى دين النصرانية وهؤلاء الصنبارية يزعمون أنهم من العرب من نزار ابن معد بن مضر وانهم فخذ من عقيل سكنوا هنالك في قديم الزمان وهم هنالك مستظهرون على كثير من الامم ورأيت ببلاد مارب من أرض اليمن أناسا من عقيل محالفة لمذحج لافرق بينهم وبين أحلافهم لاستقامة كلتهم فيهم حيل كثيرة ومنعة وليس في اليمن كلها أحيل من نزار ابن معد غير هذا الفخذ من عقيل الاماذكر من ولد أنمار بن نزار بن معد ودخولهم في اليمن حسب ماورد به الخبر وهو ما كان من خبر جرير بن عبد الله البجلي مع النبي صلى الله عليه وسلم وما كان من خبر بجيلة والصنبارية يزعمون أنهم افترقوا في قديم الزمان وهم من سميناه من عقيل ببلاد مارب في خبر طويل ثم تلي مملكة الصنبارية مملكة سكين وهم نصارى وفيهم خلق من المسلمين من التجار وغير ذلك ويقال لملكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا

لما ذكره ابن الفرضى وبعضهم اذ قال فى ترجمة المنصور بن أبى عامر ما صورته وكان من أخبار المنصور الداخلة فى أبواب البر والقرب بنيان المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلثمائة وذلك انه لما زاد الناس بقرطبة وانجلب اليها قبائل البربر من العدوة وافريقية وتناهى حالها فى الجلالة ضاقت الارباض وغيرها وضاق المسجد الجامع عن حمل الناس فشرع المنصور فى الزيادة بشرقيه حيث تتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربى بقصر الخلافة فبدأ ابن أبى عامر فى هذه الزيادة على بلاطات تمتد طولا من أول المسجد الى آخره وقصد ابن أبى عامر فى هذه الزيادة المبالغة فى الاتقان والوثاقة دون الزخرفة ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة ماعدا زيادة الحكم وأول ما عمله ابن أبى عامر تطييب نفوس أرباب الدور الذين اشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بانصافهم من الثمن وصنع فى صحنها الجب العظيم قدره الواسع فناؤه وهو أعنى ابن أبى عامر هو الذى رتب احراق الشمع بالجامع زيادة للزيت فتطابق بذلك النوران وكان عدد سوارى الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره بين كبيرة وصغيرة ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية وقيل أكثر وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مائتان وثمانون ثريا وعدد الكؤس سبعة آلاف كاس وأربعمائة كاس وخمسة وعشرون كاسا وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤس وزنة مشاكى الرصاص للكؤس المذكورة عشرة أرباع أو نحوها وزنة ما يحتاج اليه من الكتان للفتائل فى كل شهر رمضان ثلاثة أرباع القنطار وجميع ما يحتاج اليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمائة ربع أو نحوها يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد ومما كان يختص برمضان المعظم ثلاثة قناطير من الشمع وثلاثة أرباع القنطار من الكتان المقطن لاقامة الشمع المذكور والكبيرة من الشمع التى تؤخذ بجانب الامام يكون وزنها من خمسين الى ستين رطلا يحترق بعضها بطول الشهر ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقرطبة فى دولة ابن أبى عامر ويتصرف فيه من أئمة ومقرئين وامناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصا ويوقد من البخور ليلة الختمة أربعة أواق من العنبر الاشهب وثمان أواق من العود الرطب انتهى * وقال بعض المؤرخين كان للجامع كل ليلة جمعة رطل عود وربع رطل عنبر يتبخر به انتهى * وقال ابن سعيد نقلا عن ابن بشكوال طول جامع قرطبة الاعظم الذى هو بداخل مدينتها من القبلة الى الجوف ثلثمائة وثلاثون ذراعا الصحن المكشوف منه ثمانون ذراعا وغير ذلك مقرمد وعرضه من الغرب الى الشرق مائتان وخمسون ذراعا وعدد أبهائه عندنا كتمالها بالشمالية التى زادها المنصور بن أبى عامر بعده ذات تسعة عشر بهوا وتسمى البلاطات وعدد أبوابه الكبار والصغار أحد وعشرون بابا فى الجانب الغربى تسعة أبواب منها واحد كبير للنساء يشرع الى مقاصيرهن وفى الجهة الشرقية تسعة أبواب منها الدخول الرجال ثمانية أبواب وفى الجهة الشمالية ثلاثة أبواب منها لدخول الرجال بابان كبيران وباب لدخول النساء الى مقاصيرهن وليس لهذا الجامع فى القبلى سوى باب واحد بداخل المقصورة المتخذة فى قبلته متصل بالساباط المفضى الى قصر الخلافة منه كان السلطان يخرج من القصر

والضياع نصارى ويقال لملكهم فى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا هذا عنبسة الاعور وهو ماوى اللصوص والصعاليك والدعار ثم تلى هذه المملكة مملكة الموقان وهى التى قدمنا ذكرها وانها متغلبة عليها وانها مضافة الى مملكة شروان شاه وليس هذا البلد المعروف بالموقانية هو الذى على ساحل بحر الخزر وقد كان محمد بن يزيد المعروف بشروان شاه فى هذا الوقت ملك الاران هو ومن سلف من آبائه وكان ملك شروان شاه على بن الهيثم فلما هلك على تغلب محمد بن شروان شاه على حسب ما ذكرنا ايضا بعد أن قتل عمومة له واحتوى على ما ذكرنا من الممالك وله قلعة لايذكر فى قلاع العالم أحسن منها فى جبل الفتح يقال انها فى الموضع المعروف بالسقط من المدينة وأما الحجارة والحيطان التى بناها ببلاد شروان المعروفة بسور الطين وسور الحجارة المعروف بالبرمكى وما يتصل ببلاد بردعة فقد أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على ذلك

فيما سلف من كتبنا وأما نهر الكر فيبتدئ من بلاد خزران من مملكة جرجير ويمر ببلاد الخان حتى يأتى

الى الجامع لشهود الجمعة وجميع هذه الابواب ملبسة بالنحاس الاصفر بأغرب صنعة وعدد سوارى هذا المسجد الجامع الحاملة لسمائه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره وغير ذلك من أعماله بين كبار وصغار ألف وأربعمائة سارية وتسع سواري منها بداخل المقصورة مائة وتسع عشرة سارية وذكر المقصورة البديعة التى صنعها الحكم المستنصر فى هذا الجامع فقال انه خطر بها على خمس بلاطات من الزيادة الحكمية وأطلق حفافيها على الستة البلاطات الباقية ثلاثة من كل جهة فصار طولها من الشرق الى الغرب خمسا وسبعين ذراعا وعرضها من جدار الخشب الى سور المسجد بالقبلة اثنين وعشرين ذراعا وارتفاعها فى السماء الى حد شرافاتها ثمان أذرع وارتفاع كل شرافة ثلاثة أشبار ولهذه المقصورة ثلاثة أبواب بديعة الصنعة عجيبة النقش شارعة الى الجامع شرقى وغربى وشمالى ثم قال وذرع المحراب فى الطول من القبلة الى الجوف ثمان أذرع ونصف وعرضه من الشرق الى الغرب سبع أذرع ونصف وارتفاع قبوه فى السماء ثلاث عشرة ذراعا ونصف والمنبر الى جنبه مؤلف من أكارم الخشب ما بين آبنوس وصندل ونبع وبقم وشوحط وما أشبه ذلك ومبلغ النفقة فيه خمسة وثلاثون ألف دينار وسبعمائة دينار وخمسة دنانير وثلاثة دراهم وقيل غير ذلك وعدد درجه تسع درجات صنعة الحكم المستنصر رحمه الله وذكر أن عدد ثريات الجامع التى تسرج فيها المصابيح بداخل البلاطات خاصة سوى ما منها على الابواب مائتان وأربع وعشرون ثريا جميعها من لاطون مختلفة الصنعة منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الاوسط أكبرها الضخمة المعلقة فى القبة الكبرى التى فيها المصاحف حيال المقصورة وفيها من السرج فيما زعموا ألف وأربعمائة واربعة وخمسون تستوقد هذه الثريات الضخام فى العشر الاخير من شهر رمضان تسقى كل ثريا منها سبعة ارباع فى الليلة وكان مبلغ ما ينفق من الزيت على جميع المصابيح فى هذا المسجد فى السنة أيام تمام وقوده فى مدة ابن أبى عامر مكملة بالزيادة المنسوبة ألف ربع منها فى شهر رمضان سبعمائة وخمسون ربعا قال وفى بعض التواريخ القديمة كان عدد القومة بالمسجد الجامع بقرطبة فى زمن الخلفاء وفى زمن ابن ابى عامر ثلثمائة انتهى وفيه مخالفة لبعض ما تقدم وذكر بعضهم الزيت ولكن قوله أولى بالاتباع لنقله عن ابن بشكوال والمعرفة ابن سعيد بمثل هذا وتحقيقه فيه أكثر من غيره والله سبحانه اعلم فقال ألف ربع وثلاثون ربعا منها فى رمضان خمسمائة ربع وفى الثريات التى من الفضة وهى ثلاثة اثنان وسبعون رطلا لكل واحدة ثمانية عشر فى ليلة وقدها وقال فى المنبر انه مركب من ستة وثلاثين ألف وصل قام كل واحد منها بسبعة دراهم فضة وسمرت بمسامير الذهب والفضة وفى بعضها نفيس الاحجار واتصل العمل فيه تسعة ثم قال ودور الثريا العظيمة خمسون شبرا وتحتوى على ألف كاس وأربعة وثمانين كلها موشاة بالذهب الى غير ذلك من الغرائب * وكتب الفقيه الكاتب أبو محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الوليدى يصف جامع قرطبة بما نصه عمر الله سبحانه بشمول السعادة رسمك ووفر من جزيل الكرامة قسمك ولا برحت سحائب الانعام تهمى عليك ثرة وأنامل الايام تهدى اليك كل مسرة لئن كان أعزك الله طريق الوداد بيننا عامرا وسبيل المحبة غامرا لوجب أن نفض ختمه ونرفض كتمه لا سيما فيما يدرأ اختلاف الفضائل ويهز

ويجرى الى وداح ثم يصب فيه من ماء الصنارة نهر الرس ويظهر من أقاصى بلاد الروم من نحو مدينة طرابزندة حتى يجىء الى الكرو وقد صار فيه نهر الرس فيصب فى بحر الخزر وبحر الرس بين بلاد الدبر وهى بلاد بابك الخرمى من أرض أذربيجان وجبل أبى موسى من بلاد الاران ويمر ببلاد ورثان وينتهى الى حيث وصفنا وقد أتينا على وصف هذه الانهار أيضا ونهر أسبيد رود وجريانه فى أرض الديلم نحو قلعة سلام وهو ابن سوار بعض ملوك الديلم ومرور هذا النهر من الديلم الى الجيل ويصب فيه نهر آخر فى بلاد الديلم يقال له شاهان رود فينتهى مصب الجميع الى بحر الجيل وهو بحر الديلم والخزر وغيرهم على ماذكرنا وعلى هذا النهر كثير من دور الاعاجم ومن هناك من ملوكهم فى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة منهم أحوم داوان صاحب مدينة الرى وطبرستان وغيرهما من الجيل فلنذكر الآن ملوك السريانيين وهم أول من يعد فى كتب الزيجات والنجوم والتواريخ القديمة من ملوك العالم ثم ملوك الموصل ونينوى ثم ملوك بابل وهم الذين

أعطاف الشمائل وانى شخصت الى حضرة قرطبة حرسها الله تعالى منشرح الصدر لحضور
ليلة القدر والجامع قدس الله تعالى بقعته ومكانه وثبت أساسه وأركانه قد كسى ببردة
الازدهاء وحل فى معرض البهاء كأن شرفاته فلول فى سنان أو أشر فى أسنان وكأنما
ضربت على سمائه كلل أو خلعت على أرجائه حلل وكأن الشمس خلفت فيه ضياءها
ونسجت على أقطاره أفياءها فترى نهارا قد أحدق به ليل كما أحدق بربوة سيل ليل دامس
ونهار شامس وللذبال تألق كنضنضة الحيات أو اشارة السبابات فى التحيات قد أترعت من
السليط كؤسها ووصلت بمحاجن الحديد رؤسها ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة
أو كالثعابين العائمة عصبت بها تفاح من الصفر كالاقاح الصفر بولغ فى صقلها وجلائها
حتى بهرت بحسنها ولألائها كأنها جليت باللهب وأشربت ماء الذهب ان سمتها
طولا رأيت منها سبائك عسجد أو قلائد زبرجد وان أتيتها عرضا رأيت منها أفلاكا
ولكنها غير دائرة ونجوما ولكنها ليست بسائرة تتعلق تعلق القرط من الذفرى وتبسط
شعاعها بسط الاديم حين يفرى والشمع قد رفعت على المنار رفع البنود وعرضت عليها
عرض الجنود ليجتلى طلاقة روائها القريب والبعيد ويستوى فى هدايتها ضياؤها الشقى
والسعيد وقد قوبل منها مبيض بمحمر وعورض مخضر بمصفر تضحك ببكائها وتبكى
بضحكها وتهلك بحياتها وتحيا بهلاكها والطيب تفغم أفواحه وتتنسم أرواحه وقتار
الالنجوج والند يسترجع من روح الحياة ماند وكلما تصاعد وهو محاصر أطال من العمر
ما كان تقاصر فى صفوف مجامر ككعوب مقام وظهور القباب مؤللة وبطونها مهللة كأنها
تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان قد قوس محرابها أحكم تقويس ووشم بمثل ريش
الطواويس حتى كأنه بالمجرة مقرطق وبقوس قزح ممنطق وكأن اللازورد حول وشومه
وبين رسومه نتف من قوادم الحمام أو كسف من ظلل الغمام والناس أخياف فى دواعيهم
وأوزاع فى اغراضهم ومراميهم بين ركع وسجد وأيقاظ وهجد ومزدحم على الرقاب يتخطاها
ومقتحم على الظهور يتمطاها كأنهم برد خلال قطر أو حروف فى عرض سطر حتى اذا
قرعت أسماعهم روعة التسليم تبادروا أبواب التكليم وتجاذبوا الاثواب وتساقوا بالاكواب
كأنهم حضور طال عليهم غياب أو سفر أتيح لهم اياب وصفيك مع اخوان صدق تنسكب
العلوم بينهم انسكاب الودق فى مكان كوكر العصفور أستغفر الله أو ككناس اليعفور كأن
اقليدس قد قسم بيننا مساحته بالموازين وارتبط نافيه ارتباط البيادق بالفرازين حتى
صار عقدنا لا يحل وحدنا لا يفل بحيث نسمع سور التنزيل كيف تتلى ونتطلع صور التفصيل
كيف تجلى والقومة حوالينا يجهدون فى دفع الضرر ويعمدون الى قرع العمد بالدرر فاذا
سمع بها الصبيان قد طبقت الخافقين وسرت نحوهم سرى القين وتوهموا أنها الى أعطافهم
واصلة وفى أقفائهم حاصلة ففروا بين الاساطين كما تفر من النجوم الشياطين كأنما ضربهم أبو
جهم بعصاه أو حصبهم عين بن صاف بحصاه فأكرم بها من مساع تسوق الى جنة الخلد
وتهون فى السعى اليها الطوارف والتلاد تعظيما لشعائر الله وتنبيها لكل ساه ولاه حكمة
تشهد لله تعالى بالربوبية وطاعة تذل بها كل نفس ابية فلم أر أدام الله سبحانه عزك منظرا منها

ثم تتبع ذلك بالفرس الاولى وهم المعروفون بالحدان الى أفريدون ثم الاسكان الى دارا بن دارا وهم السكون ثم ملوك الطوائف ثم الفرس الثانية ثم اليونانيين ثم الروم ونذكر من يتلوهم من ملوك العرب والامم والسودان ومصر والاسكندرية وغير ذلك من بقاع الارض ان شاء الله تعالى

(ذكر ملوك السريانيين ولمع من أخبارهم)

ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم ان أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان وقد تنوزع فيهم وفى النبط فمن الناس من رأى أن السريانيين هم النبط ومنهم من رأى انهم اخوة لولد ماش بن نبيط ومنهم من رأى غير ذلك وكان أول من ملك منهم رجل يقال له سوسان وكان اول من وضع التاج على رأسه وانقادت له ملوك الارض وكان ملكه ست عشرة سنة باغيا فى الارض مفسدا للبلاد سفاكا للدماء ثم ملك ولده يقال له برندس وكان ملكه الى أن هلك عشرين سنة ثم ملك سماسير بن اول سبع سنين ثم ملك بعده اهريود عشر سنين فخط الخطط وكور الكور وجد فى امره واتقان ملكه وعمارة ارضه فلما استقامت له

أبهى ولا مخبرا أشهى وإذا لم تتأمله عيانا فتخيله بيانا وإن كان حظ منطقى من الكلام حظ السفيح من الازلام لكن ما بيننا من مودة أكدنا وسائلها وذمة تقلدنا حمائلها يوجب قبول اتحافى سمينا وغثا ولبس الطافى جديدا ورثا لا زلت لزناد النبل مورياوالى آماد الفضل مجريا والتحية العبقة الريا المشرقة المحيا عليك ما طلع قمر وايشع ثمر ورحمة الله تعالى وبركاته انتهى *(وذكر ابن بشكوال) ان الحكم المستنصر هدم الميضأة القديمة التى كانت بفناء الجامع الذى يستسقى لها الماء من بئر السافية وبنى موضعها أربع ميضآت فى كل جانب من جانبى المسجد الشرقى والغربى منها اثنتان كبرى للرجال وصغرى للنساء اجرى فى جميعها الماء من قناة اجتلبها من سفح جبل قرطبة الى أن صبت ماءها فى احواض رخام لا ينقطع جريانه الليل والنهار واجرى فضل هذا الماء العذب الى سقايات اتخذهن على أبواب هذا المسجد بجهاته الثلاث الشرقية والغربية والشمالية اجراها هنالك الى ثلاث جواب من حياض الرخام استقطعها بمقطع المنستير بسفح جبل قرطبة بالمال الكثير والقاه الرخاميون هنالك واحتفروا أجوافها بمناقيرهم فى المدة الطويلة حتى استوت فى صورها البديعة لاعين الناس نخفف ذلك من ثقلها وأمكن من أهباطها الى اماكن نصبها بأكناف المسجد الجامع وأمد الله تعالى على ذلك بمعونته فتهيأ حمل الواحدة منها فوق عجلة كبيرة اتخذت من ضخام خشب البلوط على قال موثقة بالحديد المثقف محفوفة بوثاق الحبال قرن لجرها سبعون دابة من أشد الدواب وسهلت قدامها الطرق والمسالك وسهل الله تعالى حملها واحدة بعد أخرى على هذه الصفة فى مدة اثنى عشر يوما فنصبت فى الافنياء المعقودة لها قال وابتنى المستنصر فى غربى الجامع دار الصدقة واتخذها معهدا التفريق صدقاته المتوالية وابتنى للفقراء البيوت قبالة باب المسجد الكبير الغربى انتهى واعلم انه لعظم أمر قرطبة كان عملها حجة بالمغرب حتى انهم يقولون فى الاحكام هذا مما جرى به عمل قرطبة وفى هذه المسئلة نزاع كثير ولا بأس أن نذكر ما لا بد منه من ذلك قال الامام ابن عرفة رحمه الله تعالى فى اشتراط الامام على القاضى الحكم بمذهب معين وان خالف معتقد المشترط اجتهادا وتقليدا ثلاثة أقوال * الصحة للباجى ولعمل أهل قرطبة ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة قال المازرى مع احتمال كون الرجل مجتهدا * الثانى البطلان للطرطوشى اذ قال فى شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم * الثالث تصح التولية ويذهب الشرط تخريجا على أحد الاقوال فى الشرط الفاسد فى البيع للمازرى عن بعض الناس انتهى مختصرا قال ابن غازى ان ابن عرفة نسب للطرطوشى البطلان مطلقا وابن شاس انما نسب له التفصيل انتهى ولما ذكر مولاى الجد الامام قاضى القضاة بالاندلس ثم انتقل الى المغرب بفاس سيدى أبو عبد الله المقرى التلمسانى فى كتابه القواعد شرط أهل قرطبة المذكور قال بعده ما نصه وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالاندلس ثم انتقل الى المغرب فبينما نحن نتنازع الناس فى عمل المدينة ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الامة كعلى وابن مسعود ومن كان معهما

لبس التكحل فى العينين كالكحل * سنح لى بعض الجمود ومعدن التقليد

الله أخر مدتى فتأخرت * حتى رأيت من الزمان عجائبا

يحاولون الممالك وقد كان هذا الملك من ملوك الهند غالبا على ما حوله من ممالك الهند وانقادت الى سلطانه ودخلت فى أحكامه وقيل ان ملكه كان مما يلى السند والهند فسار نحو بلاد بسط وعرين ونعير وبلاد الداور على النهر المعروف بهرميد وهو نهر سجستان ينتهى جريانه على أربع فراسخ منها وهذا النهر عليه اهل سجستان وضياعهم ونخلهم وجبالهم ومنتزهاتهم وهذا النهر يعرف بنهر بسط وتجرى فيه السفن من هنالك الى سجستان فيها الاقوات وغير ذلك ومن بسط الى سجستان نحو من مائة فرسخ وبلاد سجستان هى بلاد الرياح والرمال وهو البلد الموصوف بان الريح به تدير الارحية وتسقى الماء من الآبار وتسقى الجنان وليس فى الدنيا بلد والله أعلم أكثر منه استعمالا للرياح وقد تنوزع فى مبدا هذا النهر المعروف بهرميد فن الناس من رأى ان مبدأه من مبدا نهر الكنك وهو نهر الهند ويمر بكثير من جبال السند وهو نهر حاد

بالله وللمسلمين ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ماذاك الا الآن الشيطان يسعى فى محو الحق فينسيه والباطل لازال يلقنه ويلقيه الاترى خصال الجاهلية كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والخط والتشاؤم وما أشبه ذلك وأسماؤها كالعتمة ويثرب وكذا التنابز بالالقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تزل من أهلها وانتقلت الى غيرهم مع تيسر امرها حتى كانهم لا يرفعون بالدين رأسا بل يجعلون العادات القديمة أسا وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسب وما انخرط فى هذا السلك ثابتة الموقع من القلوب والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة لا نحفظه الا قولا ولا نحمله الا كلا انتهى * وقال الحافظ ابن غازى بعد ذكر كلام مولاى الجد مانصه وحدثنى ثقة ممن لقيت انه لما قدم مدينة فاس العلامة أبو يحيى الشريف التلمسانى وتصدى لاقراء التفسير بالبلد الجديد وأمر السلطان أبو سعيد المرينى الحفيد أعيان الفقهاء بحضور مجالسه كان مما القاه اليهم مشرع المقرى هذا فبالغوا فى انكاره ورأوا انه لا معدل عما عول عليه زعماء الفقهاء كابن رشد وأصحاب الوثائق كالمتيطى من اعتماد عمل أهل قرطبة ومن فى معناهم انتهى *(وقال بعض المؤرخين) حين ذكر قرطبة مامخلصه هى قاعدة بلاد الاندلس ودار الخلافة الاسلامية وهى مدينة عظيمة وأهلها أعيان البلاد وسراة الناس فى حسن المآكل والمشارب والملابس والمراكب وعلو الهمم وبها اعلام العلماء وسادات الفضلاء وأجلاد الغزاة وانجاد الحروب وهى فى تقسيمها خمس مدن يتلو بعضها بعضا وبين المدينة والمدينة سور عظيم حصين حاجز وكل مدينة مستقلة بنفسها وفيها مايكفى أهلها من الحمامات والاسواق والصناعات وطول قرطبة ثلاثة أميال فى عرض ميل واحد وهى سفح جبل مطل عليها وفى مدينتها الثالثة وهى الوسطى القنطرة والجامع الذى ليس فى معمور الارض مثله وطوله مائة ذراع فى عرض ثمانين وفيه من السوارى الكبار ألف سارية وفيه مائة وثلاثة عشر ثريا للوقود أكبرها تحمل ألف مصباح وفيه من النقوش والرقوم مالا يقدر أحد على وصفه وبقبلته صناعات تدهش العقول وعلى فرجة المحراب سبع قسى قائمة على عمد طول كل قوس فوق القامة قد تحير الروم والمسلمون فى حسن وضعها وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة اثنان اخضران واثنان لازورديان ليس لها قيمة لنفاستها وبه منبر ليس على معمور الارض أنفس منه ولا مثله فى حسن صنعته وخشبه ساج وآبنوس وبقم وعود قاقلى ويذكر فى تاريخ بنى أمية انه احكم عمله ونقشه فى سبع سنين وكان يعمل فيه ثمانية صناع لكل صانع فى كل يوم نصف مثقال محمدى فكان جملة ماصرف على المنبر لا غير عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا وفى الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لاجل وقوده وبهذا الجامع مصحف يقال انه عثمانى وللجامع عشرون بابا مصفحات بالنحاس الاندلسى مخرمة تخريما عجيبا بديعا يعجز البشر ويبهرهم وفى كل باب حلقة فى نهاية الصنعة والحكمة وبه الصومعة العجيبة التى ارتفاعها مائة ذراع بالمكى المعروف بالرشاشى وفيها من أنواع الصنائع الدقيقة مايعجز الواصف عن وصفه ونعته وبهذا الجامع ثلاثة أعمدة حمر مكتوب على الواحد اسم محمد وعلى الآخر صورة عصا موسى واهل الكهف وعلى الثالث صورة غراب نوح والجميع خلقة ربانية

عنه وذلك انهم يقصدون موضعا فى أعالى هذا النهر المعروف بالكنك وهناك جبال عالية وأشجار عادية ورجال جلوس وحدائد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر وقطع من الخشب فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولون فى تزهيدهم فى هذا العالم والترغيب فيما سواه فيطرحون أنفسهم من أعالى تلك الجبال العالية على تلك الاشجار العادية والسيوف والحدائد المنصوبة فيتقطعون قطعا ويسيرون الى هذا النهر أجزاء وماذكرنا فموصوف عنهم وما يفعلون على هذا النهر كذلك وهناك شجر من احدى عجائب العالم ونوادره والغرائب مما به فيظهر من الارض أغصان مشتبكة من أحسن مايكون من الشجر والورق فتستقيم فى الجو كابعد مايكون من طوال النخل ثم ينحنى جميع ذلك منعكسا فيعود فى الارض مندسا ويهوى فى قعرها سفلا على المقدار الذى ارتفع به فى الهواء حتى يغيب عن الابصار ثم تظهر أغصان بادئة على حسب ماوصفنا فى الاول فتذهب الصعداء ثم تنقطر منعكسة ولا فرق بين المقدار الذى يذهب منها فى الهواء ويتسع فى الفضاء وبين ما يغيب منها تحت الارض ويتوارى تحت

و أما القنطرة التى بقرطبة فهى بديعة الصنعة عجيبة المرأى فاقت قناطر الدنيا حسنا وعدة قسيها سبعة عشر قوسا سعة كل قوس منها خمسون شبرا و بين كل قوسين خمسون شبرا و بالجملة فمحاسن قرطبة أفضل المحاسن وأعظم من أن نحيط بها وصفا انتهى ملخصا وهو وان تكرر بعضه مع ما تقدم منه فلا يخلو من فائدة زائدة والله الموفق * وما ذكره فى طول المسجد وعرضه مخالف لما مر و يمكن الجواب بان هذا الذراع أكبر من ذلك كما أشار اليه هو فى أمر الصومعة و كذا ما ذكره فى عدد السوارى الا أن يقال ما تقدم باعتبار الصغار والكبار وهذا العدد الذى ذكره هنا انما هو للكبار فقط كما صرح به والله تعالى أعلم * و أما الثريات فقد خالف فى عدها ما تقدم مع أن المتقدم هو قول ثقات مؤرخى الاندلس ونحن جلبنا النقل من مواضعه وان اختلفت طرقه ومضموناته وقال فى المغرب عند تعرضه لذكر جامع قرطبة ما نصه اعتمدت فيما نقلته فى هذا الفصل على كتاب ابن بشكوال فقد اعتنى بهذا الشان أتم اعتناء واغنى عن الاستطلاع الى كلام غيره عن الرازى انه لما افتتح المسلمون الاندلس امتثلوا ما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأى عمر رضي الله تعالى عنه من مشاطرة الروم فى كنائسهم مثل كنيسة دمشق وغيرها مما أخذه صلحا فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى التى كانت داخل مدينتها تحت السور وكانوا يسمونها بشنت نجنت وابتنوا فى ذلك الشطر مسجدا جامعا و بقى الشطر الثانى بأيدى النصارى وهدمت عليهم سائر الكنائس بحضرة قرطبة واقتنع المسلمون بما فى أيديهم الى أن كثروا وتزيدت عمارة قرطبة ونزلها أمراء العرب فضاق عنهم ذلك المسجد وجعلوا يعلقون منه سقيفة بعد سقيفة يستكنون بها حتى كان الناس ينالون فى الوصول الى داخل المسجد الاعظم مشقة لتلاصق تلك السقائف وقصر أبوابها وتطامن سقفها حتى ما يمكن أكثرهم القيام على اعتدال لتقارب سقفها من الارض ولم يزل المسجد على هذه الصفة الى أن دخل الامير عبد الرحمن بن معاوية المروانى الى الاندلس واستولى على امارتها وسكن دار سلطانها قرطبة وتمدنت به فنظر فى أمر الجامع وذهب الى توسعته واتقان بنيانه فاحضر أعاظم النصارى وسامهم بيع ما بقى بأيديهم من كنيستهم لصق الجامع ليدخله فيه و أوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذى صولحوا عليه فأبوا من بيع ما بأيديهم وسألوا بعد الجهد بهم أن يباحوا ابتناء كنيستهم التى هدمت عليهم بخارج المدينة على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذى طولبوا به فتم الامر على ذلك وكان ذلك سنة ثمان وستين فابتنى عند ذلك عبد الرحمن المسجد الجامع على صفة ذكرها لا حاجة الى تفسير الزيادة فيه وانما الحاجة فى وصفه لكماله وفى بنائه لهذه الزيادة يقول دحية بن محمد البلوى من قصيدة

وأنفق فى دين الاله و وجهه * ثمانين ألفا من لجين وعسجد
وتوزعها فى مسجد اسه التقى * ومنهجه دين النبى محمد
ترى الذهب النارى فوق سموكه * يلوح كبرق العارض المتوقد

قال وكمل سنة سبعين ثم ذكر زيادة ابنه هشام الرضا وما جدده فيه وانه بناه من خمس فىء اربونة ثم زيادة ابنه عبد الرحمن الاوسط لما تزايد الناس قال و هلك قبل أن يتم الزخرفة فاتمها ولده محمد بن عبد الرحمن ثم رم المنذر بن محمد ما وهى منه وذكر ما جدده خليفتهم الناصر ونقضه

على تلك البلاد ولغشى تلك الارض ولهذا النوع من الشعر أخبار يطول ذكرها يعرفها من طرأ الى تلك البلاد ورآها او نمى اليه خبرها والهند تعذب انفسها على ما وصفنا بانواع العذاب من دون الامم وقد تيقنت ان ما ينالها من النعيم فى المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب انفسها فى هذه الدار معجلا ومنهم من يصير الى باب الملك يستأذن فى احراقه نفسه فيدور فى الاسواق وقد اججت له النار العظيمة عليها من قد وكل بايقادها ثم يسير فى الاسواق وقدامه الطبول والصنوج وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه وحوله اهله وقرابته وعلى رأسه إكليل من الريحان وقد قشر جلده عن رأسه وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس فيسير وهامته وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل والتنبول فى بلادهم و رق ينبت كاصغر ما يكون من ورق الاترج يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل وهو الذى غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن فى هذا الوقت مضغه بدلا من الطيب

للصومعة الاولى وبنيانه للصومعة العظيمة قال ولما ولى الحكم المستنصر بن الناصر وقد اتسع نطاق قرطبة وكثر أهلها وتبين الضيق فى جامعها لم يقدم شيأ على النظر فى الزيادة فبلغ الجهد وزاد الزيادة العظمى قال وبها كملت محاسن هذا الجامع وصار فى حد يقصر الوصف عنه وذكر حضوره لمشاورة العلماء فى تحريف القبلة الى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر فى قبلة جامع الزهراء لان أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة الى نحو الغرب فقال له الفقيه أبو ابراهيم يا أمير المؤمنين انه قد صلى الى هذه القبلة خيار هذه الامة من اجدادك الائمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم منذ افتتحت الاندلس الى هذا الوقت متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعانى وأمثالهم رحمهم الله تعالى وانما فضل من فضل بالاتباع وهلك من هلك بالابتداع فأخذ الخليفة برأيه وقال نعم ما قلت وانما مذهبنا الاتباع قال ابن بشكوال ونقلت من خط أمير المؤمنين المستنصر أن النفقة فى هذه الزيادة وما اتصل بها انتهت الى مائتى ألف دينار واحد وستين ألف دينار وخمسمائة دينار وسبعة وثلاثين دينارا ودرهمين ونصف ثم ذكر الصومعة نقلا عن ابن بشكوال فقال أمر الناصر عبد الرحمن بهدم الصومعة الاولى سنة ٣٤ وأقام هذه الصومعة البديعة فحفر فى أساسها حتى بلغ الماء مدة من ثلاثة وأربعين يوما ولما كملت ركب الناصر اليها من مدينة الزهراء وصعد فى الصومعة من أحد درجيها ونزل من الثانى ثم خرج الناصر وصلى ركعتين فى المقصورة وانصرف قال وكانت الاولى ذات مطلع واحد فصير لهذه مطلعين فصل بينهما البناء فلا يلتقى الراقون فيها الا بأعلاها تزيد مراقى كل مطلع منها على مائة سبعا * قال وخبر هذه الصومعة مشهور فى الارض وليس فى مساجد المسلمين صومعة تعدلها * قال ابن سعيد قال ابن بشكوال هذا لانه لم ير صومعة مراكش ولا صومعة اشبيلية اللتين بناهما المنصور من بنى عبد المؤمن فهما أعظم واطول لانه ذكر أن طول صومعة قرطبة الى مكان موقف المؤذن أربعة وخمسون ذراعا والى اعلى الرمانة الاخيرة بأعلى الزج ثلاثة وسبعون ذراعا وعرضها فى كل تربيع ثمانية عشر ذراعا وذلك اثنان وسبعون ذراعا قال ابن سعيد وطول صومعة مراكش مائة وعشر أذرع * وذكر أن صومعة قرطبة بخام الحجارة القطيعة منجدة غاية التنجيد وفى أعلى ذروتها ثلاث شمسات يسمونها رمانة ملصقة فى السفود البارز فى اعلاها من النحاس الثنتان منها ذهب ابريز والثالثة منها وسطى بينهما من فضة اكسير وفوقها سوسنة من ذهب مسدسة فوقها رمانة ذهب صغيرة فى طرف الزج البارز بأعلى الجو * وكان تمام هذه الصومعة فى ثلاثة عشر شهرا * وذكر ابن بشكوال فى رواية أن موضع الجامع الاعظم بقرطبة كان حفرة عظيمة يطرح فيها اهل قرطبة قماماتهم وغيرها فلما قدم سليمان بن داود صلى الله وسلم عليهما ودخل قرطبة قال للجن اردموا هذا الموضع وعدلوا مكانه فسيكون فيه بيت يعبد الله فيه ففعلوا ما أمرهم به وبنى فيه بعد ذلك الجامع المذكور قال ومن فضائله أن الدارات المائلة فى تزاويق سمائه مكتوبة كلها بالذكر والدعاء الى غيره بأحكم صنعة انتهى * وذكر مصحف عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه الذى كان فى جامع قرطبة وصار الى بنى عبد المؤمن فقال هو مصحف أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه بخطه بيمينه وله عند أهل الاندلس شأن عظيم انتهى وسنذكر

ويكون عند الصنادلة للورم وغير ذلك فمنهم من يسميه الفوفل وهذا اذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة وقوى عمود الاسنان وطيب النكهة وأزال الرطوبة المؤذية وشهى الطعام وبعث على الباه وحمر الاسنان حتى تكون كاحمر ما يكون من حب الرمان وأحدث فى النفس طربا وأريحية وقوى البدن وأثار من النكهة روائح طيبة والهند خواصها وعوامها تستقبح من أسنانه بيض وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا فاذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار فى الاسواق انتهى الى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير فى مشيته ولا متهيب فى خطوته ففيهم من اذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول خنجرا ويدعى الحرمى عندهم فيضعه فى لبته ولقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من اللار من مملكة البلهرا وذلك فى سنة أربع وثلثمائة والملك يومئذ على صيمور المعروف بجاج وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الامصار ممن قد تاهل وقطن فى تلك البلاد وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى واسحق الصيدابورى وعلى الهيرمة يومئذ أبو سعيد معروف

فيه زيادة على هذا * وأما الزهراء فهي مدينة الملك التي اخترعها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله وقد تقدم ذكره وهي من المدن الجليلة العظيمة القدر قال ابن الفرضي وغيره كان يعمل في جامعها حين شرع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منها ثلثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الاجراء وسائر الصناع فاستتم بنيانه واتقانه في مدة من ثمانية وأربعين يوما وجاء في غاية الاتقان من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة وطوله من القبلة الى الجوف حاشا المقصورة ثلاثون ذراعا وعرض البهو الاوسط من أبهائه من الشرق الى الغرب ثلاث عشرة ذراعا وعرض كل بهو من الاربعة المكتنفة له اثنا عشرة ذراعا وطول صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ثلاث وأربعون ذراعا وعرضه من الشرق الى الغرب احدى وأربعون ذراعا وجميعه مفروش بالرخام الخمري وفي وسطه فوارة يجري فيها الماء فطول هذا المسجد أجمع من القبلة الى الجوف سوى المحراب سبع وتسعون ذراعا وعرضه من الشرق الى الغرب تسع وخمسون ذراعا وطول صومعته في الهواء أربعون ذراعا وعرضها عشرة أذرع في مثلها وأمر الناصر لدين الله باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد فصنع في نهاية من الحسن ووضع في مكانه منه وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة وكان وضع هذا المنبر في مكانه من هذا المسجد عند اكماله يوم الخميس لسبع بقين من شعبان سنة تسع وعشرين وثلثمائة * قال وفي صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي أجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر مطلي بذهب ابريز وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد فيمجه في تلك البركة من فيه فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه فتسقي من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاته وجنباته ويمد النهر الاعظم بما فضل منه فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من أعظم آثار الملوك في غابر الدهر لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسمو أبراجها التي يرقى الماء منها ويتصوب من أعاليها وكانت مدة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل الى أن وصلت أعني القناة الى هذه البركة أربعة عشر شهرا وكان انطلاق الماء في هذه البركة الانطلاق الذي اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الاخيرة من السنة وكانت للناصر في هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته ووصل المهندسين والقوام بالعمل بصلات حسنة جليلة جزيلة وأما مدينة الزهراء فاستمر العمل فيها من عام خمسة وعشرين وثلثمائة الى آخر دولة الناصر وابنه الحكم وذلك نحو من أربعين سنة ولما فرغ من بناء مسجد الزهراء على ما وصف كانت أول جماعة صليت فيه صلاة المغرب من ليلة الجمعة لثمان بقين من شعبان وكان الامام القاضي أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى ومن الغد صلى الناصر فيه الجمعة وأول من خطب به القاضي المذكور ولما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على انه لم يبن مثله في الاسلام البتة وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد

أحكامهم مصروفة اليه ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولد وامن المسلمين بأرض الهند يدعون بهذا الاسم واحدهم بيسر وجمعهم بياسرة فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر فدفعها الى بعض اخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة ثم هوى بنفسه في النار واذا مات الملك من ملوكهم وقتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته يدعون هؤلاء البلاحرية واحدهم بلاحري وتفسير ذلك المصادق لمن يموت فيموت بموته ويحيا بحياته وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس من أنواع الآلام والمقاتل التي تألم عند ذكرها الابدان ويصفر من ذكرها الانسان وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم في كتابنا أخبار الزمان فلنرجع الآن الى خبر ملك الهند ومسيره الى بلاد سجستان وقصده مملكة السريانيين ونعدل عما احتذيناه من أخبار الهند فنقول كان هذا الملك من ملوك الهند يقال

ورسول

وورسول وافد وتاجر وجهيد وفى هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة الا وكلهم قطع انه لم يرله شبها بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله حتى انه كان أعجب ما يوصل القاطع الى الاندلس فى تلك العصور النظر اليه والتحدث عنه والاخبار عن هذا تتسع جدا والادلة عليه تكثر ولو لم يكن فيه الا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الاشخاص لا تهتدى الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على ابداعها واختراعها من أجزاء الارض المنحلة كيما يرى الغافلين عنه من عباده مثالا لما أعده لاهل السعادة فى دار المقامة التى لا يتسلط عليها الفناء ولا تحتاج الى الرم لا اله الا هو المنفرد بالكرم (وذكر المؤرخ) أبو مروان بن حيان صاحب الشرطة أن مبانى الزهراء اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين كبيرة وصغيرة حاملة ومحمولة ونيف وعلى ثلثمائة سارية وستة عشر قال منها ما جلب من مدينة رومة ومنها ما اهداه صاحب القسطنطينية وان مصاريع أبوابها صغارها وكبارها كانت تنيف على خمسة عشر ألف باب وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه والله سبحانه أعلم فانها كانت من أهول ما بناه الانس وأجله خطرا وأعظمه شانا انتهى قلت فسر بعضهم ذلك النيف فى كلامه بثلاث عشرة والله أعلم (وقال بعض من أرخ الاندلس) كان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة وخمسين فتى ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا أنواع الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلثمائة امرأة وأربع عشرة انتهى وقيل ان عدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون وجعل بعض سكان الخمسين سبعة وثمانين (وقال آخر) ستة آلاف صقلبى وسبعة وثمانون والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة كل يوم ويقع لها من الحمص الاسود ستة أقفزة كل يوم انتهى ثم قال الاول وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رطل تقسم من عشرة أرطال لشخص الى ما دون سوى الدجاج والحجل وصنوف الطير وضروب الحيتان انتهى (وقال ابن حيان) ألفيت بخط ابن دحون الفقيه قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس بدأ عبد الرحمن الناصر لدين الله بعمارة الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة وكان مبلغ ما ينفق فيها كل يوم من الصخر المنحوت المنجور المعدل ستة آلاف صخرة سوى الصخر المنصرف فى التبليط فانه لم يدخل فى هذا العدد وكان يخدم فى الزهراء كل يوم ألف وأربعمائة بغل وقيل أكثر منها أربعمائة زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة ألف بغل لكل منها ثلاثة مثاقيل فى الشهر يجب لها فى الشهر ثلاثة آلاف مثقال وكان يرد الزهراء من الجير والجص فى كل ثالث من الايام ألف ومائة حمل وكان فيها حمامان واحدة للقصر وثانية للعامة * وذكر بعض أهل الخدمة فى الزهراء انه قدر النفقة فيها فى كل عام بثلثمائة ألف دينار مدة خمسة وعشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر من حين ابتدائها لانه توفى فى سنة خمسين فحصل جميع

له زنبيل وكل ملك يلى هذا البلد من أرض الهند يسمى بهذا الاسم زنبيل الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان بين الهند وبين ملوك السريانيين حروب عظام نحو من سنة فقتل ملك السريانيين واحتوى ملك الهند على الصقع وملك جميع ما فيه فسار اليه بعض ملوك العرب فاتى عليه وملك العراق ورد ملك السريانيين فملكوا عليهم رجلا منهم يقال له (سيرا) وكان ولد المقتول فكان ملكه الى أن هلك ثمان سنين ثم ملك بعده (أهريون) وكان ملكه اثنتى عشرة سنة ثم ملك بعده ابن يقال له (هوريا) فزاد فى العمارة وأحسن فى الرعاية وغرس الاشجار وكان ملكه الى أن هلك اثنتين وعشرين سنة ثم ملك بعده (مارث) واستولى على الملك وكان ملكه مدة خمس عشرة سنة وقيل ثلاثا وعشرين سنة ثم ملك بعده (أزور) و(خلنجاس) ويقال انهما كانا أخوين فأحسنا السيرة وتعاضدا على الملك ويقال ان أحد هذين الملكين كان جالسا ذات يوم اذ نظر فى أعلى قصره الى طائر قد أفرخ هناك واذا هو يضرب بجناحه ويصيح فتأمل الملك ذلك فنظر الى حية تنساب الى الوكر صاعدة لاكل فراخ الطائر فدعا الملك بقوس فرمى الحية فصرعها وسلمت

الانفاق فيها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال * قال وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية وتونس وكان الذين يجلبونه عبد الله بن يونس عريف البنائين وحسن وعلى بن جعفر الاسكندرانى وكان الناصر يصلهم على كل رخامة صغيرة وكبيرة بعشرة دنانير انتهى وقال بعض ثقات المؤرخين انه كان يصلهم على كل رخامة صغيرة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية دنانير قيل وكان عدد السوارى المجلوبة من افريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ومن بلاد الافرنج تسع عشرة سارية وأهدى اليه ملك الروم مائة وأربعين سارية وسائرها من مقاطع الاندلس تركونة وغيرها فالرخام المجزع من رية والابيض من غيرها والوردى والاخضر من افريقية من كنيسة اسفاقس وأما الحوض المنقوش المذهب الغريب الشكل الغالى القيمة فجلبه اليه أحمد اليونانى من القسطنطينية مع ربيع الاسقف القادم من ايلياء وأما الحوض الصغير الاخضر المنقوش بتماثيل الانسان فجلبه احمد من الشام وقيل من القسطنطينية مع ربيع الاسقف أيضا وقالوا انه لا قيمة له لفرط غرابته وجماله وحمل من مكان الى مكان حتى وصل فى البحر ونصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة أسد الى جانبه غزال الى جانبه تمساح وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفى المجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها وكان المتولى لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم لم يتكل فيه الناصر على أمين غيره وكان يخبز فى أيامه فى كل يوم برسم حيتان البحيرات ثمانمائة خبزة وقيل اكثر الى غير ذلك مما يطول تتبعه * وكان الناصر كما قدمنا قسم الجباية أثلاثا ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنيمة فلا يحصيها ديوان وقد سبق هذا كله وانما كررته لقول بعضهم اثر حكايته له ما صورته وقيل ان مبلغ تحصيل النفقة فى بناء الزهراء مائة مدى من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة وقيل ان مبلغ النفقة فيها بالكيل المذكور ثمانون مديا وسبعة أقفزة من الدراهم المذكورة واتصل بنيان الزهراء أيام الناصر خمسا وعشرين سنة شطر خلافته ثم اتصل بعد وفاته خلافة ابنه الحكم كلها وكانت خمسة عشر عاما وأشهرا فسبحان الباقى بعد فناء الخلق لا اله الا هو انتهى (وقال ابن البديع الهمدانى والفتح فى المطمح) كان الناصر كلفا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان وعلو الهمة فافضى به الاغراق فى ذلك الى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره الزائد المنتشر صيته فى الارض واستفرغ جهده فى تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها وانهمك فى ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ثلاث جمع متواليات فاراد القاضى منذر أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة والتذكير بالانابة والرجوع فابتدأ فى أول خطبته بقوله تعالى أتبنون بكل ريع الى قوله من الواعظين ثم وصله بقوله

فراخ الطائر فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحه فى منقاره حبة وفى مخلابيه حبتان وجاء الى الملك وألقى ماكان فى منقاره ومخلابيه والملك يرمقه فوقع الحب بين يدى الملك فتأمله وقال ما ألقى هذا الطائر ما ألقى الا انه اراد بلا شك مكافاتنا على فعلنا به فاخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله فى اقليمه فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر الى حيرة الملك فى الحب ايها الملك ينبغى ان يودع النبات ارحام الارض فانها تخرج كنه ما فيه فتقف على الغاية منه واداء ما فى مخزونه ومكنونه فدعا بالاكرة وامرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت واقبل يلتف بالشجر ثم حصرم واعنب وهم يرمقونه والملك يراعيه الى ان انتهى فى البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفا ان يكون متلفا فامر الملك بعصر مائه وان يودع فى اوان وافراد حب منه وتركه على حالته فلما صار فى الآنية عصيرا هدر وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة فقال الملك على بشيخ فاتى به فلما دله من ذلك فى اناء فرآه لونا عجيبا ومنظرا كاملا ولونا ياقوتيا أحمر وشعاعا نيرا ثم سقوا الشيخ فاشرب ثلاثا حتى مال وأرخى من مآزره الفضول وحرك رأسه ووقع برجليه على الارض

فقاع

فمتاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى وهى دار القرار ومكان الجزاء ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته والاسراف فى الانفاق عليه بكل كلام جزل وقول فصل يجرى فيه طلقا وانتزع فيه قوله تعالى أفمن أسس بنيانه الى آخر الآية وأتى بما يشا كل المعنى من التخويف بالموت والتحذير من فجأته والدعاء الى الزهد فى هذه الدار الفانية والحض على اعتزالها والرفض لها والندب الى الاعراض عنها والاقصار عن طلب اللذات ونهى النفس عن اتباع هواها فاسهب فى ذلك كله وأضاف اليه من آى القرآن ما يطابقه وجلب من الحديث والاثر ما يشا كله حتى اذ كر من حضره من الناس وخشعوا ورقوا واعترفوا وبكوا وضجوا ودعوا وأعلنوا التضرع الى الله تعالى فى التوبة والابتهال فى المغفرة وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ وقد علم انه المقصود به فبكى وندم على ما فاله من فرطه واستعاذ بالله من سخطه الا انه وجد على منذر لغلظ ما تقرعه به فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر وقال والله لقد تعمدنى منذر بخطبته وما عنى بها غيرى فاسرف على وأفرط فى تقريعى وتفزيعى ولم يحسن السياسة فى وعظى فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى واستشاط غيظا عليه فاقسم أن لا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ويجانب الصلاة بالزهراء وقال له الحكم فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه اذ كرهته فزجره وانتهره وقال له أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه لا أم لك يعزل لارضاء نفس نا كبة عن الرشد سالكة غير القصد هذا ما لا يكون وانى لاستحى من الله أن لا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر فى ورعه وصدقه ولكنه أحرجنى فاقسمت ولوددت انى أجد سبيلا الى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى فما أظننا نعتاض منه أبدا وقيل ان الحكم اعتذر عما قال منذر وقال يا أمير المؤمنين انه رجل صالح وما أراد الا خيرا ولو رأى ما أنفقت وحسن تلك البنية لعذرك فامر حينئذ الناصر بالقصور ففرشت وفرش ذلك المجلس باصناف فرش الديباج وأمر بالاطعمة وقد أحضر العلماء وغص بهم المجلس فدخل منذر فى آخرهم فأوما اليه الناصر أن يقعد بقربه فقال يا أمير المؤمنين انما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس ولا يتخطى الرقاب فجلس فى آخر الناس وعليه ثياب رثة ثم ذكر هذا القائل بعد هذا كلاما من كلام المنذر يأتى قريبا وقحط الناس آخر مدة الناصر فامر القاضى منذرا المذكور بالبروز الى الاستسقاء بالناس فتأهب لذلك وصام بين يديه أياما ثلاثا تنفلا وانابة ورهبة واجتمع له الناس فى مصلى الربض بقرطبة بارزين الى الله تعالى فى جمع عظيم وصعد الخليفة الناصر فى أعلى مصانعه المرتفعة من القصر ليشارف الناس ويشاركهم فى الخروج الى الله تعالى والضراعة له فأبطأ القاضى حتى اجتمع الناس وغصت بهم ساحة المصلى ثم خرج نحوهم ماشيا متضرعا مخبتا متخشعا وقام ليخطب فلما رأى بدار الناس الى ارتقائه واستكانتهم من خيفة الله واخباتهم له وابتهالهم اليه رقت نفسه وغلبته عيناه فاستعبر وبكى حينا ثم افتتح خطبته بان قال يا أيها الناس سلام عليكم ثم سكت ووقف شبه الحصر ولم يك من عادته فنظر الناس بعضهم الى بعض لا يدرون ما عراه ولا ما أراد بقوله ثم اندفع تاليا قوله تعالى كتب

فطرب ورفع عقيرته يتغنى فقال الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلا ألا ترى الى الشيخ كيف عاد فى حال الصبى وسلطان الدم وقوة الشباب ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك هلك ثم ان الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته فكشف عنى الغموم وأزال عن ساحتى الاحزان والهموم وما أراد الطائر الا مكافاتكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا أشرف شراب أهل أرض وذلك انه رأى شيخا قد حسن وقوى حيله وانبسط فى نفسه وطرب فى حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم وجاد هضمه وجاءه النوم وصفا لونه واعترته اريحية فامر الملك ان يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب الملوك وأنا السبب فيه فان كان فلا يشربه غيرى فاستعمله الملك بقية أيامه ثم نما فى أيدى الناس واستعملوه وقد قيل ان نوحا أوّل من زرعها وقد ذكر الخبر حين سرقها ابليس منه حين خرج من السفينة واستوى على الجودى فى كتاب المبدا وغيره من الكتب

(ذكر ملوك الموصل ونينوى ولمع من أخبارهم)

نينوى هى مقابلة الموصل وبينهما دجلة وهى بين قردى ومازندى من كور الموصل ونينوى فى وقتنا هذا وهو سنة

ربكم على نفسه الرحمة الى قوله رحيم ثم قال استغفروا ربكم انه كان غفارا استغفروا ربكم ثم توبوا اليه وتزلفوا بالاعمال الصالحة لديه قال الحاكى فضج الناس بالبكاء وجأروا بالدعاء ومضى على تمام خطبته ففزع النفوس بوعظه وانبعث الاخلاص بتذكيره فلم ينقض النهار حتى أرسل الله السماء بماء منهمر روى الثرى وطرد المحل وسكن الازل والله لطيف بعباده وكان لمنذر فى خطب الاستسقاء استفتاح عجيب ومنه أن قال يوما وقد سرح طرفه فى ملا الناس عند ماشخصوا اليه بابصارهم فهتف بهم كالمنادى يا أيها الناس وكررها عليهم مشيرا بيده فى نواحيهم أنتم الفقراء الى الله الى بعز يز فاشتد وجد الناس وانطلقت أعينهم بالبكاء ومضى فى خطبته * وقيل ان الخليفة الناصر خرج مرة للاستسقاء وأسرع عزمه عليه فتسابق الناس للمصلى فقال للرسول وكان من خواص الناس ليت شعرى ما الذى يصنعه الخليفة سيدنا فقال له ما رأيناقط أخشع منه فى يومنا هذا انه منتبذ حائر منفرد بنفسه لابس أخس الثياب مفترش التراب وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته وبكى واعترف بذنوبه وهو يقول هذه ناصيتى بيدك أتراك تعذب بى الرعية وأنت أحكم الحاكمين لن يفوتك شئ منى قال الحاكى فتهلل وجه القاضى منذر عند ماسمع قوله وقال يا غلام احمل المطر معك فقد أذن الله تعالى بالسقيا اذا خشع جبار الارض فقد رحم جبار السماء وكان كما قال فلم ينصرف الناس الا عن السقيا وكان منذر شديد الصلابة فى أحكامه والمهابة فى أقضيته وقوة الحكومة والقيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده لايهاب فى ذلك الامير الاعظم فمن دونه (وقال ابن الحسن النباهى) وأصله فى المطمح وغيره ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر فى انكاره عليه الاسراف فى البناء ان الناصر كان اتخذ لسطح القبيبة المصغرة الاسم للخصوصية التى كانت ماثلة على الصرح الممرد المشهور شأنه بقصر الزهراء قراميد ذهب وفضة انفق عليها مالا جسيما وقرمد سقفها به وجعل سقفها صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة تستلب الابصار باشعة نورها وجلس فيها اثر تمامها يوما لاهل مملكته فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك مع ما يتصل به من البدائع الفتانة هل رايتم اوسمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه فقالوا لا والله يا امير المؤمنين وانك لاوحد فى شأنك كله وما سبقك الى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه ولا انتهى الينا خبره فابهجه قولهم وسره وبينما هو كذلك اذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد واجما ناكس الرأس فلما أخذ مجلسه قال له كالذى قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب واقتداره على ابداعه فأقبلت دموع القاضى تتحدر على لحيته وقال له والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين قال فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له انظر ما تقول وكيف أنزلنى منزلتهم قال نعم أليس الله تعالى يقول ولولا أن يكون الناس أمة واحدة الآية فوجم الخليفة وأطرق مليا ودموعه تتساقط خشوعا لله تعالى ثم أقبل على منذر وقال له جازاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر فى الناس أمثالك فالذى قلت هو الحق وقام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر

الله

اثنتين وثلاثين وثلثمائة مدينة خراب فيها قرى ومزارع لاهلها والى أهلها أرسل يونس بن متى وآثار الصور فيها من أصنام فى حجارة مكتوبة على وجوهها وظاهر المدينة تل عليه مسجد وهناك عين تعرف بعين يونس النبى عليه السلام ويأوى الى هذا المسجد النساك والعباد والزهاد وكان أول ملك بنى هذه المدينة وسور سورها ملك عظيم قد دانت له الملوك ودانت له البلاد ويقال له سينوس بن بالوس فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة وكان بالموصل رجل آخر محاربا لهذا الملك وكانت بينهما حروب ووقائع ويقال ان ملك الموصل كان فى ذلك العصر سابق بن مالك رجل من اليمن ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة يقال لها سيمون فأقامت عليهم أربعين سنة تحارب ملوك الموصل وملكها من شاطئ دجلة الى بلاد ارمينية ومن بلاد اذربيجان الى حد الجزيرة والجودى وجبل النيل الى بلاد الزوان وغيرها من أرمينية وكان أهل نينوى ممن سمينا نبيطا وسريانيين والجنس واحد واللغة واحدة وانما بان النبط عنها بأحرف يسيرة فى لغتهم والمقالة واحدة ثم ملك بعد هذه المرأة (رسيس) ويقال انه كان ابنها وكان ملكه نحوا

الله تعالى وأمر بنقض سقف القبيبة وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها انتهى ما حكاه ابن الحسن النباهي ولنذكر هذه الحكاية وغيرها وان خالف السياق ماسبق وهذا منقول من كلام الحجارى فى المسهب فى أخبار المغرب فانه أتم فائدة اذ قال رحمه الله دخل منذر بن سعيد يوما على الناصر بانى الزهراء وهو مكب على الاشتغال بالبنيان فوعظه فأنشده عبد الرحمن الناصر

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبالسن البنيان
أوماترى الهرمين قد بقيا وكم * ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه * أضحى يدل على عظيم الشان

قال فما أدرى أهذا شعره أم تمثل به فان كان شعره فقد بلغ به غاية الاحسان وان كان تمثل به فقد استحقه بالتمثل به فى هذا المكان وكان منذر يكثر تعنيفه على البنيان ودخل عليه مرة وهو فى قبة قد جعل قرمدها من ذهب وفضة واحتفل فيها احتفالا ظن أن أحدا من الملوك لم يصل اليه فقام خطيبا والمجلس قد غص بأرباب الدولة فتلا قوله تعالى ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون الآية وأتبعها بما يليق بذلك فوجم الملك وأظهر الكآبة ولم يسعه الا الاحتمال لمنذر بن سعيد لعظم قدره فى علمه ودينه* وحضر معه يوما فى الزهراء فقام الرئيس أبو عثمان بن ادريس فانشد للناصر قصيدة منها

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن * مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى * وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر بن سعيد ساعة ثم قام منشدا

يابانى الزهراء مستغرقا * أوقاته فيها أما تمهل
لله ما أحسنها رونقا * لولم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع يا أبا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى فقال منذر اللهم اشهد أنى قد بثثت ما عندى ولم آل نصحا انتهى ولقد صدق القاضى منذر رحمه الله تعالى فيما قال فانها ذبلت بعد ذلك فى الفتنة وقلما كان فيها من منحة محنة وذلك عندما ولى الحجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر الملقب بسنجول وتصرف فى الدولة مثل ما تصرف أخوه المظفر وأبوهما المنصور وساء التدبير ولم يميز بين الفتيل والنقير فدس الى المؤيد هشام بن الحكم من خوفه منه حتى ولاه عهده كما بينا نص العهد فيما سبق فاطبق الخاصة والعامة على بغضه واضمار السوء له وذلك سنة ثمان وتسعين وثلثمائة فعند ذلك خرج عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر سنة تسع وتسعين وتلقب بالمهدى وخلع المؤيد وحبسه وأسلمت الجيوش سنجول فأخذ وأسر وقتل (قال ابن الرقيق) ومن أعجب ماروى انه من نصف نهار يوم الثلاثاء لاربع بقين من جمادى الاخيرة الى نصف نهار يوم الاربعاء فتحت قرطبة وهدمت الزهراء وخلع خليفة وهو المؤيد وولى خليفة وهو المهدى وزالت دولة بنى عامر العظيمة وقتل وزيرهم محمد بن علاجة وأقيمت جيوش من

ملكه ثم غلبوا على أهل نينوى فكانت الحروب بين أهل أرمينية وبين ملوك الموصل ويقال ان هذا الملك آخر ملوك نينوى وكان يؤدى الضريبة الى ملك أرمينية ولهؤلاء الملوك أخبار وسير وحروب قد أتينا على جميعها فى كتابنا أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط

(ذكر ملوك بابل وهم ملوك النبط وغيرهم)

ذكر جماعة من أهل التبصر والبحث ومن ذوى العناية بأخبار ملوك العالم ان ملوك بابل هم اول ملوك العالم الذين مهدوا الارض بالعمارة وان الفرس الاولى انما أخذت الملك من هؤلاء كما أخذت الروم الملك من اليونانيين وكان أولهم (نمروذ) الجبار وكان ملكه نحوا من ستين سنة وهو الذى احتفر أنهارا بالعراق آخذة من الفرات فيقال ان من ذلك نهر كوثى بطريق من طرق الكوفة وهو بين قصر ابن هبيرة وبغداد لاخفاء لخبره وشهرته وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كثيرا من أنهار العراق عند ذكرنا لملوك الفرس الاولى والثانية وغيرهم من ملوك الطوائف وانما الغرض فى هذا الكتاب التلويح بتاريخ ملوك العالم والتنبيه على ماسلف من

العامة ونكب خلق من الوزراء وولي الوزارة آخرون وكان ذلك كله على يد عشرة رجال فخامين وجزارين وزبالين وهم جند المهدي انتهى وقد تقدم بعض الكلام على المهدي هذا وقد قيل فيه لما قام على الدولة

قد قام مهدينا ولكن * بملة الفسق والمجون
وشارك الناس في حريم * لولاه ما زال بالمصون
من كان من قبل ذا أجا * فاليوم قد صار ذا قرون

ومن شعر المهدي هذا وقد حياه في مجلس شرابه غلام بقضيب آس

أهديت شبه قوامك المياس * غصنا رطيبا ناعما من آس
وكأنما يحكيك في حركاته * وكأنما تحكيه في الانفاس

وقد ذكرنا فيما سبق في الفصل الثالث خبر المهدي هذا وقتله ولقد كان قيامه مشؤما على الدين والدنيا فانه فاتح أبواب الفتنة بالاندلس وماحي معالمها حتى تفرقت الدولة وانتثر السلك وكسر الرؤساء وتطاول العدو اليها وأخذها شيأ فشيأ حتى محي اسم الاسلام منها أعادها الله تعالى وقد ألم الولي بن خلدون في تاريخه بذكر الزهراء في جملة مباني الناصر فقال ما نصه ولما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمباني وكان جده الامير محمد وأبوه عبد الرحمن الاوسط وجده الحكم قد احتفلوا في ذلك وبنوا قصورهم على أكمل الاتقان والفخامة وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف فبنى هو الى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة وجلب الماء الى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ثم أخذ في بناء المستنزهات فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها لنزله وكرسيا لملكه وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عفا على مبانيهم الاولى واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دور الصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلي للزينة وغير ذلك من المهن وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس انتهى وأما الزاهرة فهي من مباني المنصور محمد بن أبي عامر (قال ابن خلدون) أثناء كلامه على المنصور ما صورته وابتنى لنفسه مدينة لنزله سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والاسلحة انتهى (وقال غيره) وأظنه صاحب المطمح وفي سنة ثمان وستين وثلثمائة أمر المنصور بن أبي عامر ببناء الزاهرة وذلك عندما تكامل واستفحل أمره واتقد جمره وظهر استبداده وكثر حساده وأضداده وأنداده وخاف على نفسه في الدخول الى قصر السلطان وخشي أن يقع في أشطان فتوثق لنفسه وكشف له ما استتر عنه في أمسه من الاعتراز عليه ورفع الاستناد اليه وسما الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ويحله بأهله وذويه ويضم اليه رياسته ويتم به تدبيره وسياسته ويجمع فيه فتيانه وغلمانه فارتاد موضع مدينته المعروفة بالزاهرة الموصوفة بالقصور الباهرة وأقامها بطرف البلد على نهر قرطبة الاعظم ونسق فيها كل اقتدار معجز ونظم

كتبنا وملك بعده (أندلس) نحوا من سبعين سنة وكان عظيم البطش متجبرا في الارض وكانت في أيامه حروب ثم ملك بعده (مرمنوس) نحوا من مائة سنة باغيا في الارض على أهلها ثم ملك بعده (شوسيوس) نحوا من تسعين سنة ثم ملك بعده (كورش) نحوا من خمسين سنة ثم ملك بعده (أغر) نحوا من عشرين سنة ثم ملك بعده (شبرم) نحوا من أربعين سنة وقيل أكثر من ذلك ثم ملك بعده (فرسميس) نحوا من سبعين سنة ثم ملك بعده (اينوس) نحوا من ثلاثين سنة ثم ملك بعده (ايلاوس) خمس عشرة سنة ثم ملك بعده (الحلوس) نحوا من أربعين سنة ثم ملك بعده (أومونوس) نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده (بعتكلوس) نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده (سفروس) نحو أربعين سنة وقد قيل دون ذلك وهلك ثم ملك بعده (مارنوس) نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده (رسطالين) أربعين سنة ثم ملك بعده (أميرطوس) نحو خمسين سنة ثم ملك بعده (العداس) نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده (أطيرنوس) نحو ستين سنة ثم ملك بعده (ساوشاش) نحو عشرين سنة ثم ملك بعده (فارينوس) نحو خمسين سنة وقيل خمسة وأربعين سنة ثم ملك بعده (سوسادريوس) نحو

وشرع

وشرع فى بنائها فى هذه السنة المؤرخة وحشد الصناع والفعلة وجلب اليها الآلات الجليلة وسربلها بهاء يرد الاعين كليلة وتوسع فى اختطاطها وتولع بانتشارها فى البسيطة وانبساطها وبالغ فى رفع أسوارها وثابر على تسوية انجادها وأغوارها فاتسعت هذه المدينة فى المدة القريبة وصار بناؤها من الانباء الغريبة وبنى معظمها فى عامين * وفى سنة سبعين وثلثمائة انتقل المنصور اليها ونزلها بخاصته وعامته فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وامتعته واتخذ فيها الدواوين والاعمال وعمل فى داخلها الاهراء واطلق بساحتها الارحاء ثم اقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا بها كبار الدور وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة وقامت بها الاسواق وكثرت فيها الارفاق وتنافس الناس بالنزول باكنافها والحلول باطرافها للدنو من صاحب الدولة وتناهى العلوّ فى البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة وكثرت بحوزتها العمارة واستقرت فى بحبوحتها الامارة وأفرد الخليفة من كل شئ الا من الاسم الخلافى وصير ذلك هو الرسم العافى ورتب فيها جلوس وزرائه ورؤس أمرائه وندب اليها كل ذى خطة بخطته ونصب ببابها كرسى شرطته وأجلس عليها واليا على رسم كرسى الخليفة وفى صفة تلك المرتبة المنيفة وكتب الى الاقطار بالاندلس والعدوة بأن تحمل الى مدينته تلك أموال الجبايات وتقصدها أصحاب الولايات وينتابها طلاب الحوائج وحذر أن يعوج عنها الى دار الخليفة عائج فاقتضيت اليها اللبانات والاوطار وانحشد الناس اليها من جميع الاقطار وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد وانتظم بلبة أمانيه المراد وعطل قصر الخليفة من جميعه وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه وسدّ باب قصره عليه وجدّ فى خبر لا يصل اليه وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهى والامر ويشرف منه على كل داخل ويمنع ما يحذره من الدواخل ورتب عليه الحراس والبوّابين والسمار والمتنابين يلازمون حراسة من فيه ليلا ونهارا ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا وقد حجر على الخليفة كل تدبير ومنعه من تملك قبيل أو دبير وأقام الخليفة هشام مهجور الفناء محجوز الغناء خفى الذكر عليل الفكر مسدود الباب محجوب الشخص عن الاحباب لا يراه خاص ولا عام ولا يخاف منه باس ولا يرجى منه انعام ولا يعهد فيه الا الاسم السلطانى فى السكة والدعوة وقد نسخه ولبس أبهته وطمس بهجته وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيرهم لا يعرفونه وأمرهم لا يذكرونه واشتدّ ملك محمد ابن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة وتوسع مع الايام فى تشييد بنيتها حتى كملت أحسن كمال وجاءت فى نهاية الجمال تفاوت بناء وسعة فناء واعتدال هواء ورق أديمه وصقالة جوّ واعتلال نسيمه ونضرة بستان وبهجة للنفوس فيها افتنان وفيها يقول صاعد اللغوى

يا أيها الملك المنصور من يمن * والمبتنى نسبا غير الذى انتسبا
بغزوة فى قلوب الشرك رائعة * بين المنايا تناغى السمر والقضبا
أما ترى العين تجرى فوق مرمرها * هوى فيجرى على اخفافها الطربا
أجريتها فطما الزاهى بجريتها * كما طموت فسدت العجم والعربا

أربعين سنة فغزاهم ملك من ملوك فارس من عقب دارى ثم ملك بعده (مسروق) نحو خمسين سنة ثم ملك بعده (تطايوس) نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده (طاطاوس) نحو اربعين سنة ثم ملك بعده (اقروس) نحو اربعين سنة ثم ملك بعده (لارسيس) نحو خمسين سنة وقيل خمسا وأربعين سنة ثم ملك بعده (افريطوس) نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده (مروطاوس) نحو عشرين سنة ثم ملك بعده (افريقريس) نحو خمسين سنة ثم ملك بعده (منطوروس) نحو عشرين سنة ثم ملك بعده (قولاميما) نحو ستين سنة ثم ملك بعده (سعلمس) خمسا وثلاثين سنة وقيل خمسين سنة وكانت له حروب مع ملك من ملوك الصابئة كذلك ذكر فى كتاب التاريخ القديم ثم ملك بعده (سموجد) نحو ثلاثين سنة ثم ملك بعده (مردوح) أربعين سنة وقيل أقل من ذلك ثم ملك بعده (سنخاريب) ثلاثين سنة وهو الذى أتى بيت المقدس ثم ملك بعده (سوسا) ثلاثين سنة وقيل اقل من ذلك ثم ملك بعده (بختنصر) الجبار خمسا وأربعين سنة ثم ملك بعده (قرمودوح) نحو ستة ثم ملك بعده (نيطسعر) نحو ستين سنة وقيل أقل من ذلك ثم ملك بعده (مسنون) نحو ثمان سنين وقيل عشرا ثم ملك بعده

(معوسا) سنة وقيل أقل من ذلك ثم ملك بعده ٢٧٢ (درانوس) احدى وثلاثين سنة وقيل اكثر من ذلك ثم ملك بعده

تخال فيه جنود الماء رافلة * مستلئمات تريك الدرع واليلبا
تحفها من فنون الايك زاهرة * قد أورقت فضة اذ أورقت ذهبا
بديعة الملك ماينفك ناظرها * يتلو على السمع منها آية عجبا
لايحسن الدهر أن ينشى لها مثلا * ولو تعنت فيها نفسه طلبا

ودخل عليه ابن أبي الحباب في بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية والروض قد تفتحت أنواره وتوشحت أنجاده وأغواره وتصرف فيها الدهر متواضعا ووقف بها السعد خاضعا فقال

لايوم كاليوم في أيامك الاول * بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل
ماان يبالي الذي يحتل ساحتها * بالسعد أن لاتحل الشمس بالحمل

ومازالت هذه المنية رائقة والسعود بلبتها متناسقة تراوحها الفتوح وتغاديها وتجلب اليها منكسرة أعاديها لاتزحف عنها راية الا الى فتح ولا يصدر عنها تدبير الا الى نجح الى ان حان يومها العصيب وقيض لها من المكروه أوفر نصيب فتولت فقيدة حلت من بهجتها كل عقيدة انتهى (وقد حكى الحميدى في جذوة المقتبس) هذه الحكاية الواقعة لابن أبي الحباب بزيادة فقال بعد ان ذكر هذه المنية العامرية وهي الى جانب الزهراء ان أبا المطرف بن أبي الحباب الشاعر دخل الى المنصور في هذه المنية فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد فتحتا وواحدة لم تفتح فقال

لايوم كاليوم في أيامنا الاول * بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل
ماان يبالي الذي يحتل ساحتها * بالسعد أن لاتحل الشمس في الحمل
كأنما غرست في ساعة وبدا السوسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثا من السوسان مائلة * أعناقهن من الاعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح * والبعض منغلق عنهن في شغل
كأنها راحة ضمت اناملها * من بعد ماملئت من جودك الخضل
وأختها بسطت منها أناملها * ترجو نداك كما عودتها فصل

انتهى

وقد ذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوى البغدادى فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات

فالعامرية تزهى * على جميع المباني
وأنت فيها كسيف * قد حل في غمدان

فقام صاعد وكان مناقضا له فقال أسعد الله تعالى الحاجب الاجل ومكن سلطانه هذا الشعر الذي قد أعده وتروى فيه أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالا فقال له المنصور قل ليظهر صدق دعواك فجعل يقول من غير فكرة كثيرة

ياأيها الحاجب المعتلى على كيوان

(كسرحوس) عشرين سنة ثم ملك بعده (فتجشمت) احدى وار بعين سنة ثم ملك بعده (احوست) ثلاث سنين وقيل سنتين وشهرين ثم ملك بعده (شعيا) سنة وقيل تسعة اشهر ثم ملك بعده (اريوس) عشرين سنة وقيل تسع عشرة سنة ثم ملك بعده (اطعست) تسعا وعشرين سنة ثم ملك بعده (دارالتسع) خمس عشرة سنة وقيل عشر سنين (قال المسعودى) فهؤلاء الملوك الذين آتينا على ذكرهم واسمائهم ومدة ممالكهم وقد رسمت أسماؤهم هكذا في كتب التواريخ السالفة وهم الذين شيدوا البنيان ومدنوا المدن وكوروا الكور وحفروا الانهار وغرسوا الاشجار واستنبطوا المياه وأثاروا الارضين واستخرجوا المعادن من الحديد والرصاص والنحاس وغير ذلك وطبعوا السيوف واتخذوا عدة الحرب وغير ذلك من الحيل والمكايد ونصبوا قوانين للحرب بالقلب والميمنة والميسرة والاجنحة وجعلوا ذلك مثالا لاعضاء جسد الانسان وردوا الكل جزء نوعا من الامة لايوازيها غيرها فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيل وماعظم من أجناس الحيوان وجعلوا أعلام ومن

ومن به قد تناهى * فخار كل يمان
العامرية أضحت * كجنة الرضوان
فريدة لفريد * مابين أهل الزمان

ثم مر فى الشعر الى ان قال فى وصفها

انظر الى النهر فيها * ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكرا * على ذرا الاغصان
والقضب تلتف سكرا * بميس القضبان
والروض يفتر زهوا * عن مبسم الاقحوان
والنرجس الغض يرنو * بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا * رنفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها * فى غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله وقال لابن العريف مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله فكيف تكون رويته فقال ابن العريف انما انطقه وقرب عليه المأخذ احسانك فقال له صاعد فيخرج من هذا أن قلة احسانه لك اسكتتك وبعدت عليك المأخذ فضحك المنصور وقال غير هذه المنازعة أليق بأدبكما (قلت) وقد ذكر مؤرخو الاندلس منى كثيرة بها منها منية الناعورة السابقة ومنية العامرية هذه ومنية السرور ومنية الزبير منسوبة الى الزبير بن عمر الملثم ملك قرطبة (قال أبو الحسن) بن سعيد أخبرنى أبى عن أبيه قال خرج معى الى هذه المنية فى زمان فتح نوّار اللوز أبو بكر بن بقى الشاعر المشهور فجلسنا تحت سطر لوز قد نوّر فقال ابن بقى

سطر من اللوز فى البستان قابلنى * مازاد شئ على شئ ولا نقصا
كأنما كل غصن كم جارية * اذا النسيم ثنى أعطافه رقصا

ثم قال

عجبت لمن أبقى على خمر دنه * غداة رأى لوز الحديقة نورا انتهى

(وذكر) بعض مؤرخى الاندلس أن المنصور بن أبى عامر كان يزرع كل سنة ألف مدى من الشعير قصيلا لدوابه الخاصة به وانه كان اذا قدم من غزوة من غزواته لايحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم مامات منها وماعاش وصاحب الابنية لماوهى من أسواره ومبانيه وقصوره ودوره قال وكان له دخالة كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم حاشا الصيد والطير والحيتان وكان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء قال وابتنى على طريق المباهاة والفخامة مدينة العامرية ذات القصور والمتنزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة انتهى * ومن المطمح ان المنصور لما فرغ من بناء الزاهرة غزا غزوة أبعد فيها الايغال وغال فيها من عظماء الروم من غال وحل من أرضهم مالم يطرق وراع منهم مالم يرع قط ولم يفرق وصدر صدرا سمائه على كل حسناء عقيلة وجلابه كل صفحة للحسن صقيلة ودخل قرطبة دخولا لم يعهد وشهد له

الميمنة والميسرة على صورة السباع على حسب عظمها واختلافها فى انواعها وجعلوا فى الاجنحة صور ما لطف من السباع كالنمر والذئب وجعلوا صور أعلام الكيمياء على صور الحيات والعقبان وما خفى فعله من هوام الارض وجعلوا الوان كل نوع منها من السواد والبياض والصفرة والخضرة ولون السماء وقد ذكر قوم ان الالوان ثمانية على حسب الموضع المستحق لها ومنعوا أن تكون الحمرة تشرب شيأ من ذلك الا ما لطف من أجزائها داخلا فى جملة الاكثر من أشباه الحيوان من تلك الاعلام وزعموا ان قضية القياس توجب أن تكون سائر أعلام الحرب حمراء اذ كانت أليق وأشكل بلون الدم وأكثر ملاءمة اذ كان لونها واحدا لكن منع من ذلك استعمالها فى حال الزينة والطرب وأوقات السرور واستعمال النساء والصبيان لها وفرح النفوس بها وأوجب ترك ذلك وأن حس البصر مشاكل للون الحمرة اذ كان من شأنه انه اذا ادركها انبسط نوره فى ادراكها واذا وقع البصر على اللون الاسود اجتمع نوره ولم ينبسط فى ادراكه انبساطه فى الحمرة وأن النسبة الواقعة بين بصر الناظر وبين لون الحمرة الاشتراك والمباينة بالضدية

فيها يوم مثله لم يشهد وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لتفرس عداة عائده وحداة منتجعة ورائدة وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر وله على ابن أبى عامر أياد محكمة الاواصر وهو الذى نهض به أول انبعاثه وشفى أمره زمن التياثه وخاصم المحفى عنه بلسان من الحماية الد وتوخاه باحسان قلده من الرعاية ما قلد واسمى رتبته وحلى باعظام جاهه لبته وكان كثيرا ما يتحفه ويصله ويلاطفه فلما صدر المنصور من غزوته هذه وقفل نسى متاحفته وغفل فكتب اليه ابن شهيد

أناشيخ والشيخ يهوى الصبايا * بنفسى أقيك كل الرزايا
ورسول الاله أسهم فى الفى * ءلمن لم يخب فيه المطايا
فاجعلنى فديت اشكر عمرو * فك وابعث بها عذاب الثنايا

فبعث اليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار كأنهن نجوم سوار وكتب اليه

قد بعثنا بها كشمس النهار * فى ثلاث من المها أبكار
فاتئد واجتهد فانك شيخ * سلخ الليل عن بياض النهار
صانك الله عن كلالك فيها * فمن العار كلة المسمار

فكتب اليه ابن شهيد

قد فضضنا ختام ذاك السوار * واصطبغنا من النجيع الجارى
ونعمنا فى ظل أنعم ليل * ولهونا بالبدر ثم الدرارى
وقضى الشيخ ماقضى بحسام * ذى مضاء عضب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرا * واتخذه سيفا على الكفار

انتهى وقد قدمنا هذه الحكاية فى أخبار المنصور من الباب الثالث ولكنا أعدناها هنا بلفظ المطمع لما فيه من العذوبة والفائدة الزائدة * وممن كان فى أيام المنصور من الوزراء المشهورين الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن ادريس الخولانى قال فى المطمع علم من الاعلام فريد الزمان وعين من أعيان البيان باهر الفصاحة طاهر الجناب والساحة تولى التحبير أيام المنصور والانشاء وأشعر بدولته الافراح والانتشاء ولبس العزة مدة ضافية البرود ووردها النعمة صافية الورود وامتطى من جياد التوجيه وأعنق من لاحق والوجيه وتمادى طلقه ولا أحد يلحقه الى أيام المظفر فشى على سننه وتمادى السعد يترنم على فننه الى أن قتل المظفر صهره عيسى بن القطاع صاحب دولته وأميرها المطاع وكان أبو مروان قديم الاصطناع له والانقطاع فاتهم معه وكاد أن يذوق حمامه ومصرعه الا أن احسانه شفع وبيانه نفع ودفع فحط عن تلك الرتب وحمل الى طرطوشة على القتب فبقى هنالك معتقلا فى برج من أبراجها نائى المنتهى كالماء يناجى السها قد بعد ساكنه عن الانيس وقعد من النجم بمنزلة الجليس تمر الطير دونه ولا تجوزه ويرى منه الثرى ولا يكاد يحوزه فبقى فيه دهرا لا يرتقى اليه راق ولا يرجى لبثه راق الى أن أخرج منه الى ثراه واستراح مما عراه فمن بديع نظمه قوله يصف المعتقل الذى فيه اعتقل

بين نور البصر ولون السواد ومراتب الانوار وما وجه ذلك من أسرار الطبيعة والحد المشترك بين نورية حس البصر وبين لون الحمرة والبياض والضد المباين بين السواد وبين نور البصر دون سائر الالوان من الحمرة والخضرة والصفرة والبياض وتغلغل القوم فى هذه المعانى الى ما علا من الاجسام السماوية من النيرين والخمسة واختلافها فى ألوانها الى غير ذلك من الاشخاص العلوية وقد أتينا على ما قالوه من ذلك فيما سلف من كتبنا وأتينا على سير هؤلاء الملوك وأخبارهم واختلافهم فى كتابنا أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط وقد ذهبت طائفة من الناس الى أن هؤلاء الملوك كانت من النبط وغيرهم من الامم وانه كان برؤس بعضهم غيره من ملوك الفرس ممن كان مقيما ببلخ والاشهر ما قدمنا وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعا من أخبار النبط وأنسابهم

(ذكر ملوك الفرس الاولى وجمل من أخبارهم)

الفرس تخبر مع اختلاف آرائها وبعد أوطانها وتباينها فى ديارها وما ألزمته أنفسها من حفظ أنسابها ينقل ذلك باق عن ماض وصغير عن كبير أن أول

يأوي اليه كل أعور ناعق * وتهب فيه كل ريح صرصر
ويكاد من يرقى اليه مرة * من عمره يشكو انقطاع الابهر

ودخل ليلة على المنصور والمنصور قد اتكأ وارتفق وتحلى بمجلسه ذلك الافق فكم اماناً بمجلسه ذلك مسوقة وأحاديث الاماني به منسوقة فامره بالنزول عنده فنزل في جملة الاصحاب والقمر يظهر ويحتجب في السحاب والافق يبدو به أغر ثم يعود مبهما والليل يتراءى منه أشقر ثم يعود أدهما وأبو مروان قد انتشى وجال في ميدان الانس ومشى وبرد خاطره قد دبجه السرور ووشى فاقلقه ذلك المغيب والالتياح وانطقه ذلك السرور والارتياح فقال

أرى بدر السماء يلوح حينا * فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذلك انه لما تبدى * وأبصر وجهك استحيا فغابا
مقال لو نمى عندي اليه * لراجعني بذا حقا جوابا

وله في مدة اعتقاله وتردده في قيله وقاله

شحط المزار فلا مزار ونافرت * عيني الهجوع فلا خيال يعتري
أزرى بصبري وهو مشدود العرا * والآن عودي وهو صلب المكسر
وطوى سروري كله وتلذذي * بالعيش طي صحيفة لم تنشر
ها انما ألقى الحبيب توهما * بضمير تذكاري وعين تذكري
عجبا لقلبي يوم راعتني النوى * ودنا وداع كيف لم يتفطر

(رجع الى المنصور) وكان المنصور اذا اراد امراً شاور ارباب الدولة والاكابر من خدام الدولة الاموية فيشيرون عليه بالوجه الذي عرفوه وجرت الدولة الاموية عليه فيخالفهم الى المنهج الذي ابتدعه فيقضون في انفسهم بالهلاك في الطريق الذي سلكه والمهيع الذي اخترعه فتسفر العاقبة عن السلامة التامة التي اقتضاها سعده فيكثرون التعجب من موارد أموره ومصادرها* وقيل له مرة ان فلانا مشؤم فلا تستخدمه فقال اف لسعد لا يغطي على شؤمه فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذي جرت به العادة شيء* وحكي عنه انه كان في قصره الذي بالزاهرة فتأمل محاسنه ونظر الى مياهه المطردة وانصت لاطياره المغردة وملأ عينه من الذي حواه من حسن وجمال والتفت في الزاهرة من اليمين الى الشمال فانحدرت دموعه وتجهم وقال ويل لك يا زاهرة فليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب فقال له بعض خاصته ما هذا الكلام الذي ما سمعناه من مولانا قط وما هذا الفكر الرديء الذي لا يليق بمثله شغل البال فقال والله لترون ما قلت وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت وبرسومها قد غيرت وبمبانيها قد هدمت ومحيت وبخزائنها قد نهبت وبساحاتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت (قال الحاكي) فلم يكن الا أن توفي المنصور وتولى المظفر فلم تطل مدته فقام بالامر أخوه عبد الرحمن الملقب بسنجول فقام عليه المهدي والعامة وكانت منهم عليه وعلى قومه الطامة وانقرضت دولة آل عامر ولم يبق منهم آمر

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

ملوكهم كيومرث) ثم تنازعوا فيه فمنهم من زعم انه ابن آدم والاكبر من ولده ومنهم من زعم وهم الاقلون عددا انه أصل النسل وينبوع الذرء وقد ذهبت طائفة منهم الى أن كيومرث هو أميم بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح لان أميم اول من حل بفارس من ولد نوح وكان كيومرث ينزل بفارس والفرس لا تعرف طوفان نوح والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام كان لسانهم سريانيا ولم يكن عليهم ملك بل كانوا في مسكن واحد والله أعلم بذلك وكان كيومرث أكبر اهل عصره والمقدم فيهم وكان اول ملك نصب في الارض فيما يزعمون وكان السبب الذي دعا اهل ذلك العصر الى اقامة ملك ونصب رئيس انهم رأوا اكثر الناس قد جبلوا على التباغض والتحاسد والظلم والعدوان ورأوا ان الشرير منهم لا يصلحه الا الرهبة ثم تأملوا أحوال الخليقة وتصرف شأن الجسم وصورة الانسان الحساس الدراك فرأوا الجسم في بنيته وكونه قد رتب بحواس تؤدي الى معنى هو غيرها يوردها ويصدرها ويميزها بما يورده اليه من اخلاقها ثم مداركها وهو معنى في القلب فرأوا اصلاح الجسم بتدبيره وانه متى فسد تدبيره فسد سائره ولم تظهر افعاله المتقنة المحكمة فلما رأوا هذا العالم الصغير

وخربت الزاهرة ومضت كامس الدابرة وخلت منها الدسوت الملوكية والدساكر واستولى النهب على مافيها من العدة والذخائر والسلاح وتلاشى أمرها فلم يرج لفسادها صلاح وصارت قاعا صفصفا وبدلت بايام الترح عن أيام الفرح والصفا (ويروى) أن بعض أولياء ذلك الزمان مربها ونظر الى مصانعها السامية الفائقة ومبانيها العالية الرائقة فقال يادار فيك من كل دار فجعل الله منك فى كل دار (قال الحاكى) فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح الا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها وعم بالخراب سائرها فلم تبق دار فى الاندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة وحقق الله تعالى دعاء ذلك الرجل الذى همته معربه جليلة (ولقد حكى) أن بعض مانهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد المشرقية فسبحان من لا يزول سلطانه ولا ينقضى ملكه لا اله الا هو (وتذكرت) هنا مارآه فى المنام بعض أهل المغرب بالليلة التى انقرض فيها ملك الموحدين أن شخصا ينشده

ملك بنى مؤمن تولى * وكان فوق السماك سمكه
فاعتبروا وانظروا وقولوا * سبحان من لا يبيد ملكه لا اله الا هو

وكان المهدى القائم على العامريين ماجنا فاتكا قال وقد حياه فى مجلس شرابه غلام بقضيب آس

أهديت شبه قوامك المياس * غصنا رطيبا ناعما من آس
وكأنما يحكيك فى حركاته * وكأنما تحكيه فى الانفاس

وكان المنصور بن أبى عامر حين تغلب على ملك الامويين غير مكترث بمثل المهدى المذكور فسلطه الله تعالى على كل ما أسسه المنصور حتى هدمه وأخر كل ماقدمه ولم ينفع فى ذلك احتياط ولا حزم ولا راد للقضاء المبرم الجزم والله يحكم مايشاء * فلا تكن متعرضا وقد قدمنا شيئا من أخبار المنصور ولا باس أن نتكلم هنا ببعضها وان حصل منه نوع تكرار فى نبذة منها لارتباط الكلام بعضه ببعض (قال بعض المحققين من المؤرخين) حجر المنصور ابن أبى عامر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابة وربما أركبه بعض سنين وجعل عليه برنسا وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ويأمر من ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد الى موضع تنزهه ثم يعود غير أنه أركبه بابهة الخلافة فى بعض الايام لغرض له كما أعنا به فيما سبق وكان المنصور اذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك فكان هذا من فعله سببا لانقطاع ملك بنى أمية من الاندلس وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفا أن يثوروا به ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم فرق باقيهم فى البلاد وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد وربما سكن بعضهم البادية وترك مجلس الابهة وناديه حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة

أبنى أمية اين اقمار الدجى * منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها * فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

مع أن للمنصور مفاخر لذبها الاوائل والاواخر من المثابرة على جهاد العدو وتكرار الذهاب بنفسه

الناس لا يستقيمون الا بملك ينصفهم ويوجه العدل عليهم وينفذ الاحكام على ما يوجبه العقل بينهم فساروا الى كيومرث بن آدم وعرفوه حاجتهم الى ملك وقيم وقالوا أنت افضلنا واشرفنا واكبرنا وبقية ابينا وليس فى العصر من يوازيك فرد امرنا اليك وكن القائم فينا فانا تحت سمعك وطاعتك والقائلون بما تراه فاجابهم الى ما دعوه اليه واستوثق منهم باكيد العهود والمواثيق على السمع والطاعة وترك الخلاف عليه فلما وضع التاج على رأسه وكان أول من ركب التاج على رأسه من اهل الارض قال ان النعم لا تدوم الا بالشكر وانا نحمد الله ونشكره على نعمه ونرغب اليه فى مزيده ونسأله المعونة على مادفعنا اليه وحسن الهداية الى العدل الذى به يجتمع الشمل ويصفو العيش فثقوا بالعدل منا وأنصفونا من انفسكم بورودكم الى أفضل مافى هممكم والسلام فلم يزل كيومرث قائما بالامر حسن السيرة فى الناس والحال آمنة والامة ساكنة الى ان مات ولهم فى وضع التاج على الرأس اسرار يد كرونها أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على ذلك فى كتابنا

بنفسه في الرواح والغدو وله مع المصحفي وغيره أخبار مرت ويأتي بعضها ولا بأس أن نلخص ترجمة المصحفي فنقول (قال الفتح في المطمح) الحاجب جعفر المصحفي تجرد للعليا وتمرد في طلب الدنيا حتى بلغ المنى وتسوغ ذلك الجنى فسما دون سابقة وارتمى الى رتبة لم تكن لبيته بمطابقة والتاح في افياء الخلافة وارتاح اليها بعطفه كنشوان السلافة واستوزره المستنصر وعنه كان يسمع وبه يبصر فادرك بذلك ما ادرك ونصب لامانيه الحبائل والشرك واقتنى وادخر وزرى بمن سواه وسخر واستعطفه المنصور بن ابي عامر ونجمه بعد غائر لم يلح وسره مكتوم لم يبح فما عطف ولا جنى من روضة دنياه ولا قطف فاقام في تدبير الاندلس ما اقام والاندلس متغيرة والاذهان في تكيف سعده متحيرة فناهيك من ذكر خالد ومن فخر تقالد ومن صعب راض وجناح فتنة هاض ولم يزل بنجاد تلك الخلافة معتقلا وفي مطالعها متنقلا الى ان توفي الحكم فانتقض عقده المحكم وانبرت اليه النوائب وتسددت اليه سهام صوائب واتصل الى المنصور ذلك الامر واختص به كمال بيزيد اخوة الغمر وأناف في تلك الخلافة كما شب قبل اليوم عن طوقه عمرو وانتدب للمصحفي بصدر كان أوغره وساءه وصغره فاقتص من تلك الاساءة وأغص حلقه بأي اشاءة فاخمله ونكبه وأرجله عما كان الدهر أركبه وألهب جوارحه حزنا ونهب له مدخرا ومختزنا ودمر عليه ما كان حاط وأحاط به من مكروهه ما أحاط وغبر سنين في مهوى تلك النكبة وجرائي تلك الكربة ينقله المنصور معه في غزواته ويعتقله بين ضيق المطبق ولهواته الى أن تكورت شمسه وفاظت بين أثناء المحن نفسه ومن بديع ما حفظ له في نكبته قوله يستريح من كربته

صبرت على الايام لما تولت * وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان طمعت تاقت والا تسلت
فواعجبا للقلب كيف اعترافه * وللنفس بعد العز كيف استذلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة * فلما رأت صبري على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتي كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وكان له أدب بارع وخاطر الى نظم القريض يسارع فمن محاسن نظامه وانشاده التي بعثها ايناس دهره باسعاده قوله

لعينيك في قلبي علي عيون * وبين ضلوعي للشجون فنون
لئن كان جسمي مخلقا في يد الهوى * فحبك عندي في الفؤاد مصون

(وله) وقد اصبح عاكفا على حمياه هاتفا باجابة دنياه مرتشفا ثغر الانس منتشقا رياه والملك يغازله بطرف كليل والسعد قد عقد ليه منه اكليل يصفلون مدامة وما تعرف له منها دون ندامة

صفراء تطرق في الزجاج فان سرت * في الجسم دبت مثل صل لادغ
خفيت على شرابها فكأنما * يجدون ريا من اناء فارغ

ومن شعره الذي قاله في السفرجل مشبها وغدا به لنائم البديع منبها قوله يصف سفرجلة

اخبار الزمان وفي الكتاب الاوسط وذكروا ان كيومرث اول من امر بالسكوت عند الطعام لتأخذ الطبيعة بقسطها فيصلح البدن بما يرد اليه من الغذاء وتسكن النفس عند ذلك فتدبر كل عضو من الاعضاء تدبيرا يؤدي الى ما فيه صلاحه من اخذ صفو الطعام فيكون الذي يرد الى الكبد وغيره من الاعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها فان الانسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب انصرف قسط من التدبير وجزء من التقدير الى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك فاضر ذلك بالانفس الحيوانية والقوى الانسانية واذا كان ذلك أدى الى مفارقة النفس الناطقة لهذا الجسد المرئي وفي ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب ولهم في هذا الباب سر لطيف من أسرار السبب الذي بين النفس والجسم ليس هذا موضعه وقد أتينا على ذكره في الكتاب المترجم بسر الحياة وفي كتاب الزلف عند ذكرنا النفس الناطقة والنفس العلامة والنفس الحسية والمخيلة والنزاعية وما قال الناس في ذلك ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم (وقد تنوزع في مقدار عمر كيومرث هذا) فمن الناس من رأى أن عمره ألف سنة وقيل دون ذلك وللمجوس في كيومرث هذا خطب طويل في أنه مبدأ النسل

ويقال انه ارتجله

ومصفرة تختال فى ثوب نرجس * وتعبق عن مسك ذكى التنفس
لها ريح محبوب وقسوة قلبه * ولون محب حلة السقم مكتسى
فصفرتها من صفرتى مستعارة * وأنفاسها فى الطيب أنفاس مؤنسى
وكان لها ثوب من الزغب أغبر * على جسم مصفر من التبر املس
فلما استتمت فى القضيب شبابها * وحاكت لها الاوراق اثواب سندس
مددت يدى باللطف ابغى اجتناءها * لاجعلها ريحانتى وسط مجلسى
فبزت يدى غصبا لها ثوب جسمها * وأعريتها باللطف من كل ملبس
ولما تعرت فى يدى من برودها * ولم تبق الا فى غلالة نرجس
ذكرت لها من لا أبوح بذكره * فأذبلها فى الكف حر التنفس

وله وقد اعاده المنصور الى المطبق والسجون تسرع اليه وتسبق معزيا لنفسه ومجتزيا باسعاد امسه

اجازى الزمان على حاله * مجازاة نفسى لانفاسها
اذا نفس صاعد شفها * توارت به دون جلاسها
وان عكفت نكبة للزمان * عطفت بنفسى على راسها

ومما حفظ له فى استعطافه واستنزاله للمنصور واستلطافه قوله

عفا الله عنك ألا رحمة * تجود بعفوك أن ابعدا
لئن جل ذنب ولم اعتمده * فانت اجل واعلى يدا
الم تر عبدا عدا طوره * ومولى عفا ورشيدا هدى
ومفسد أمر تلافيته * فعاد فاصلح ما افسدا
اقلنى اقالك من لم يزل * يقيك ويصرف عنك الردى

*(عود وانعطاف الى اخبار المنصور بن أبى عامر) رحمه الله تعالى وجازاه عن جهاده افضل الجزاء بمنه وكرمه وفضله وطوله فنقول وكان له فى كل غزوة من غزواته المنيفة على الخمسين مفخر من المفاخر الاسلامية فمنها أن بعض الاجناد نسى رايته مركوزة على جبل مقرب احدى مدائن الروم فأقامت عدة ايام لا يعرف الروم ماوراءها بعد رحيل العساكر وهذا بلاخفاء مما يفتخر به اهل التوحيد على اهل التثليث لانهم لما اشرب قلوبهم خوف شرذمة المنصور وحزبه وعلم كل من ملوكهم انه لا طاقة له بحربه لجؤا الى الفرار والتحصن بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم غير الاشراف من بعد والاطلاع (ومن مفاخر المنصور) فى بعض غزواته انه مر بين جبلين عظيمين فى طريق عرض بريد بوسط بلاد الافرنج فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ فى التحريق والتخريب والغارات والسبى يمينا وشمالا لم يجسر احد من الافرنج على لقائه حتى اقفرت البلاد مسافة ايام ثم عاد فوجد الافرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذى بين جبلين وكان الوقت شتاء فلما رأى مافعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم اناخ به فيمن معه من العساكر وتقدم ببناء

وانه نبت من نبات الارض وهو الريباس هوو زوجته وهما شانة ومشانة وغير ذلك مما يفحش ايراده وما كان من خبره مع ابليس وقتله اياه وكان ينزل اصطخر فارس وكانت مدة ملكه اربعين سنة وقيل أقل من ذلك (ثم ملك بعده هوشنج) ابن فروال بن سيامك بن ميشا بن كيومرث الملك وكان هوشنج ينزل الهند وكان ملكه اربعين سنة وقيل اكثر من ذلك وقد تنوزع فيه فمنهم من رأى انه اخ لكيومرث بن آدم ومنهم من راى انه ولد الملك الماضى (ثم ملك بعد طهمورث) بن انوجهان ابن استحد بن هوشنج وكان ينزل نيسابور وظهر فى سنة من ملكه رجل يقال له (ابو داسف) احدث مذاهب الصابئة وقال ان معالى الشرف الكامل والبلاغ الشامل ومعدن الحياة فى هذا السقف المرفوع وان الكواكب هى المدبرات والواردات والصادرات وهى التى بمرورها فى افلاكها وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون فى العالم من الآثار من امتداد الاعمار وقصرها وتركب البسائط وانبساط المركبات وتتميم الصور وظهور المياه وغيضها وفى النجوم السيارة فى افلاكها التدبير الاكبر وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والايجاز

الدوروا لمنازل و يجمع آلات الحرث ونحوها و بث سراياه فسبت وغنمت فاسترق الصغار وضرب أعناق الكبار وألقى جثثهم حتى سد بها المدخل الذي من جهته وصارت سراياه تخرج فلا تجد الا بلادا خرابا فلما طال البلاء على العدو ارسلوا اليه في طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم فامتنع من ذلك فلم تزل رسلهم تتردد اليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم ان أصحابي أبوا أن يخرجوا وقالوا انا لا نكاد نصل بلادنا الا وقد جاء وقت الغزوة الاخرى فنقعد ههنا الى وقت الغزاة فاذا غزونا عدنا فما زال الافرنج يسألونه الى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم ما معه من الغنائم والسبي وان يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده وان ينحوا جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ففعلوا ذلك كله وانصرف ولعمري ان هذا لعز ماوراءه مطمح ونصر لايكاد الزمان يجود بمثله و يسمح خصوصا ازالتهم جيف قتلاهم من الطريق وغصصهم في شرب ذلك بالريق * ومن مآثره التي في جبين عصره غرة ولعين دهره قرة انه لما ختن أولاده ختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ومن أولاد الضعفاء عددا لايحصر فبلغت النفقة عليهم في هذا الاعذار خمسمائة ألف دينار وهذه مكرمة مخلدة ومنة مقلدة فالله سبحانه يجازيه عن ذلك أفضل الجزاء و يجعل للمسلمين في فقد مثله أحسن العزاء * ومن مناقبه التي لم تتفق لغيره من الملوك في غالب الظن أن أكثر جنده من سبيه على ما حققه بعض المؤرخين وذلك غاية المنح من الله والمن * ومن أخباره الدالة على اقبال أمره وخيبة عدوه وادباره انه ما عاد قط من غزوة الا استعد لأخرى ولم تهزم له قط راية مع كثرة غزواته شاتية وصائفة و كفاه ذلك فخرا * ومنها انه لقيته وقد عاد من بعض غزواته امرأة نغصت عليه بلوغ مناه وشهواته وقالت له يامنصور استمع ندائي فانت في طيب عيشك وأنا في بكائي فسألها عن مصيبتها التي عمتها وغمتها فذكرت له أن لها ابنا أسيرا في بلاد سمتها وأنها لا يهنأ عيشها لفقده ولا يخبو ضرام قلقها من وقده وأنشد لسان حالها لذلك الملك العلي و يح الشجي من الخلي فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وخرج من القابلة الى تلك المدينة التي فيها ابنها وجاس أقطارها وتخللها حتى دوخها اذ أناخ عليها بكلكله وذللها وأعراها من حماتها وبنود الاسلام المنصورة ظللها وخلص جميع من فيها من الاسرى وجلبت عوامله الى قلوب الكفرة كسرا وانقلبت عيون الاعداء حسرى وتلا لسان حال المرأة فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا فهكذا تكون الهمة السلطانية والنخوة الايمانية فالله سبحانه يروح تلك الارواح في الجنان ويرقي درجاتها و يعاملها بمحض الفضل والامتنان وقد تذكرت هنا والحديث شجون و بذكر المناسبات يبلغ الطلاب مايرجون كتابا كتبه الاديب الكاتب أبو محمد ابن الامام الحافظ محدث الاندلس أبي عمر بن عبد البر النميري الى المنصور بن أبي عامر وهو من ذرية المنصور الكبير الذي كنا نتحدث في أخباره يمت اليه بسلفه ومعاملتهم لمن تقدم من آبائه بتعظيم قدره وا كباره وهو عمر الله ببقاء سيدي ذكرى السابقين بهجة أوطانه وملكه عنان زمانه ومد عليه ظلال أمانه اني أبقى الله الملك الكريم والسيد الزعيم لما أضاءت لي أهلة مفاخركم في سماء الفخار وأشرقت شموس مكارمكم على مفارق الاحرار وأبصرت

واحتذى به جماعة من ذوي الضعف في الآراء فيقال ان هذا الرجل اول من اظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين وهذا النوع من الصابئة مباينون للحرابيين في نحلتهم وديارهم في بلاد واسط والبصرة من ارض العراق نحو البطائح والآجام فكان ملك طهمورث الى ان هلك ثلاثين سنة وقيل غير ذلك (ثم ملك بعده اخوه جمشيد) ابن انوجهان وكان ينزل بفارس وقيل انه كان في زمانه طوفان وذهب كثير من الناس الى ان النيروز في ايامه احدث وفي ملكه سمي على حسب ماتورده فيما يرد من هذا الكتاب كذلك ذكر ابو عبيدة معمر ابن المثنى عن عمر المعروف بكسرى وكان هذا الرجل ممن اشتهر بعلم فارس واخبار ملوكها حتى لقب بعمر كسرى وكان ملك جمشيد الى ان هلك ستمائة سنة وقيل تسعمائة سنة وستة اشهر واحدث في الارض انواعا من الصناعات والابنية وادعى الالهية (ثم ملك بعده بيوراسب) بن ارواد سب بن رستوان بن نياداس بن طاح بن فروال ابن ساهر فرس بن كيومرث وهو الدهاك وقد عرب اسماؤه جميعا فسماه قوم من العرب بالضحاك وسماه قوم بهراسب وليس هو كذلك وانما اسمه على ماوصفنا بيوراسب وقتل جمشيد الملك وقد

شمائلك الزهر تهدى اليك من الهمم محامدها ومحاسنك الغرّ توقظ لك من الآمال رواقدها ايقنت أنه بحق انقادت لك القلوب باعنتها وتهادت اليك النفوس بازمتها فآليت أن لاألم الابحماك ولاأحط رحلا الابفنائك علما بانك نثرة الفخر وغرّة الدهر فتيممت ساريا فى ساطع نورك متيمنا بيمن طائرك محققا للربح موقنا بالفلج والنجح حتى حللت فى دوحة المجد وأنخت بدولة السعد واستشعرت لبسة الشكر والحمد وجعلت أنظم من جواهر الكلام مايربى على جواهر النظام وأنشر من عطر الثناء مايزرى بالروضة الغناء وحاشا للفهم أن يعطل ليلى من أقمارك أو يخلى أفقى من أنوارك فأرانى منخرطا فى غير سلكه ومنحطا الى غير ملكه لاجرم انه من استضاء بالهلال غنى عن الذبال ومن استنار بالصباح ألقى سنى المصباح وتالله ماهزت آمالى ذوائبها الى سواك ولاحدت أوطارى ركائبها الى من عداك ليكون فى أثر الوسمى فى الماحل وعلى جمال الحلى على العاطل لسيادتك السنية ورياستك الاولية التى يقصر عنها لسانى افصاحى ويعيا فى بعضها بيانى وايضاحى فالقراطيس عند بث مناقبك تفنى والاقلام فى رسم مآثرك تحفى ومأمل المجدب فى حياة المخصب ولاجذل المذنب برضا المعتب كأملى فى التعزز بحوزتك والتجمل بجملتك والترفع بخدمتك فالسعيد من نشأ فى دولتك وظهر فى أمتك واستضاء بعزتك لقد فاز بالسبق من لحظته عين رعايتك وكنفته حوزة حمايتك فانت الذى أمنت بعدله نوائب الايام وقويت بسلطانه دعائم الاسلام تختال بك المعالى اختيال العروس وتخضع لجلالك أعزة النفوس سابقة اشهر من الفجر وفطنة أنور من البدر وهمة أنفذ من الدهر

لقد فاز من أضحى بكم متمسكا * يشدّ على تأميل عزكم يدا
سلكت سبيل الفخر خلقا مركبا * وغيرك لايأتيه الا تجلدا
فانتم لواء الدين لازال قيما * بآرائكم فى ظلمة الخطب يهتدى
ليهنكم مجد تليد بنيتم * أغار سناه فى البلاد وأنجدا

ومثله أبقاه الله سبحانه يستثمر اراقه فيثمر جناه ويستمطر ابراقه فيمطر حياه لاسيما وانى نشأة حفها احسان أوائلك الطاهرين وألفها انعام أكابرك الاخيار الطيبين وجدير بقبولك واقبالك وبرك واجلالك من أصله ثابت فى أهل محبتكم وفرعه نابت فى خاصتكم

ومارغبتى فى عسجد استفيده * ولكنها فى مفخر أستجده
فكل نوال كان أوهو كائن * فلحظة طرف منك عندى ندّه
فكن فى اصطناعى محسنا لمجرب * يبن لك تقريب الجواد وشده
اذا كنت فى شك من السيف فابله * فاما تنافيه واما تعده
وما الصارم الهندى الا كغيره * اذا لم يفارقه النجاد وغمده

ولاباس أن يتطول مولاى بغرس الصنيعة فى أزكى الترب ووضع الهناء موضع النقب والله سبحانه يبقى مولاى آخذا بزمام الفخر ناهضا بأعباء البر مالكا لاعنة الدهر وصنع الله

سبحانه

تنوزع فيه أمن الفرس كان ام من العرب فزعمت الفرس انه منها وانه كان ساحرا وأنه ملك الاقاليم السبعة وان ملكه كان الف سنة وبقى فى الارض وللفرس فيه خطب طويل وانه مقيد مغلل فى جبل دباوند بين الرى وطبرستان وقد ذكرته شعراء العرب ممن تقدم وتأخر وقد افتخر ابونواس به وزعم أنه من اليمن لان أبانواس مولى لسعد العشيرة من اليمن فقال

وكان منا الضحاك تعبده الـ * ـجامل والوحش فى مساربها

(ثم ملك بعده افريدون ابن اثقيان بن جمشيد المالك لاقاليم الارض فاخذ بيوراسب فقيده فى جبل دباوند على حسب ماذكرنا وقد ذكر كثير من الفرس ومن عنى باخبارهم مثل عمر كسرى وغيره أن افريدون جعل هذا اليوم الذى قيد فيه الضحاك عيدا له وسماه المهرجان على حسب ماتورده بعد هذا الموضع من هذا الكتاب وماقيل فى ذلك وكانت دار مملكة افريدون بابل وهذا الاقليم يسمى باسم قرية من قراه يقال لها بابل على شاطئ نهر من أنهار الفرات بأرض العراق على ساعة من المدينة المعروفة بجسر بابل ونهر النرس قرية بالعراق واليها تضاف الثياب النرسية وفى هذه القرية جب يعرف بجب دانيال النبى عليه السلام تقصده

سبحانه لسيدى أتم الصنع وأجمله وأفضله وأكمله بمنه لارب سواه انتهى (رجع الى أخبار المنصور الكبير) محمد بن أبى عامر رحمه الله وكنا قد ذكرنا انه قبض على الوزير الحاجب المصحفى مع انه كان أحد أتباعه (قال) صاحب كتاب روضة الازهار وبهجة النفوس ونزهة الابصار ولما أمر المنصور بن أبى عامر بسجن المصحفى فى المطبق بالزهراء ودع أهله وودعوه وداع الفرقة وقال لهم لستم ترونى بعدها حيا فقد أتى وقت اجابة الدعوة وما كنت أرتقبه منذ أربعين سنة وذلك انى أشركت فى سجن رجل فى عهد الناصر وما أطلقته الا برؤيا رأيتها بأن قيل لى أطلق فلانا فقد أجيبت فيك دعوته فأطلقته وأحضرته وسألته عن دعوته على فقال دعوت على من شارك فى أمرى أن يميته الله فى أضيق السجون فقلت انها قد أجيبت فانى كنت ممن شارك فى أمرك وندمت حين لا ينفع الندم فيروى انه كتب للمنصور بن أبى عامر بهذه الابيات

هبنى أسأت فأين العفو والكرم ✽ اذ قادنى نحوك الاذعان والندم
ياخير من مدت الايدى اليه أما ✽ ترثى لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر ✽ ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فأجابه المنصور بأبيات لعبد الملك الجزيرى

ياباهلا بعد ما زلت به القدم ✽ تبغى التكرم لما فاتك الكرم
ندمت اذلم تعد منى بطائلة ✽ وقلما ينفع الاذعان والندم
نفسى اذا جمحت ليست براجعة ✽ ولو تشفع فيك العرب والعجم

فبقى فى المطبق حتى مات نعوذ بالله تعالى من دعوة المظلوم انتهى ✽ وقد ذكر بعضهم فى هذه الابيات زيادة حسبما ذكرناه فى غير هذا المحل فان هذه الابيات للمنصور وهذا المؤرخ مصرح بأنها لعبد الملك الجزيرى وقد يقال لا منافاة بينهما فان المنصور أجاب بالابيات وهل هو قائلها أم لا الامر أعم فبين هذا والله أعلم (وقال بعض مؤرخى المغرب) ان الحاجب المصحفى حصل له فى هذه النكبة من الهلع والجزع ما لم يظن انه يصدر من مثله حتى انه كتب الى المنصور بن ابى عامر يطلب منه أن يقعد فى دهليزه معلما لاولاده فقال المنصور بدهائه وحذقه ان هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لانهم طالما رأونى بدهليزه خادما ومعلما فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلما وكان المنصور يذهب به بعد نكبته معه فى غزواته حتى انه حكى بعضهم انه رأى الحاجب المصحفى فى ليلة نهى المنصور فيها الناس عن ايقاد النيران تعمية على العدو الكافر وهو ينفخ فحما فى كانون صغير ويخفيه تحت ثيابه أو كما قال فسبحانه مديل الدول لا اله الا هو فان هذا المصحفى بلغ من الجلالة والعظم والتحكم فى الدولة المدة المديدة أمر الا مزيد عليه والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين (ولقد ذكر بعض علماء المغاربة) أن من أعاجيب انقلاب الدنيا بأهلها قصة المنصور بن ابى عامر مع الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ولم يزل أعداء المنصور بن أبى عامر يتربصون به الدوائر فغلب سعده الذى هو المثل السائر وربما همس بعض الشعراء بهجوه وهجو الدولة جميعا اذ قال

اقترب الوعد وحان الهلاك ✽ وكل ما تحذره قد أتاك

عظيمة من ردم وهدم وبنيان قد صارت كالروابى وذهب كثير من الناس الى أن بها هاروت وماروت وهما الملكان المذكوران فى القرآن على حسب ما قص الله تعالى من تسمية هذه القرية ببابل وكان ملك افريدون خمسمائة سنة وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر وقسم الارض بين ولده وقد قال فى ذلك بعض الشعراء ممن سلف من أبناء الفرس بعد الاسلام يذكر ولد افريدون الثلاثة

وقسمنا ملكنا فى دهرنا ✽ قسمة اللحم على ظهر وضم
وجعلنا الشام والروم الى ✽ مغرب الشمس الى الغطرى سلم
وأطوج جعل الترك له ✽ فبلاد الترك يحويها ابن عم
ولايران جعلنا عنوة ✽ فارس الملك وفزنا بالنعم

وللناس فيما ذكرنا خطب طويل وأن بلاد بابل أضيفت الى ولد افريدون وهو ايراج وقتله أخواه فى حياة أفريدون وهلك فلم يخلص له الملك فيعد فى الملوك وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية اضافة هذا الاقليم الى ايراج

 واسقاطهم الجيم وجعلهم النون بدلا منها فقالوا ايران شهر والشهر الملك (ثم ملك بعد افريدون

خليفة يلعب فى مكتب * أمه حبلى وقاض ينالك

يعنى بالخليفة هشاما المؤيد لكونه كان صغيرا وأمه صبح البشكنسية كان الاعداء يتهمون بها المنصور وذلك بهتان وزور وأقطع منه رميهم القاضى بالفجور والله عالم بسرائر الامور ونعوذ بالله من ألسنة الشعراء الذين لايراعون الاولاذمة ويطلقون ألسنتهم فى العلماء والائمة وأظلم أهل الارض من كان حاسدا * لمن بات فى نعمائه يتقلب جدير بأن لايدرك مايؤمل ويتطلب لانه يعترض على الله سبحانه فى أحكامه نعوذ بالله من شر أنفسنا ومن شر كل ذى شر بجاه نبينا عليه أزكى صلوات الله وأفضل سلامه وقد قدمنا أن المنصور بن أبى عامر كان يخدم أولا جعفر بن عثمان المصحفى مدبر مملكة هشام المؤيد ويريه النصيحة وأنه مازال يستجلب القلوب بجوده وحسن خلقه والمصحفى ينفرها ببخله وسوء خلقه الى أن كان من امره ماكان فاستولى على الحجابة وسجن المصحفى وفى ذلك يقول المصحفى

غرست قضيبا خلته عود كرمة * وكنت عليه فى الحوادث قيما
وأكرمه دهرى فيزداد خبثه * ولو كان من أصل كريم تكرما

ولما يئس المصحفى من عفو المنصور قال

لى مدة لابد أبلغها * فاذا انقضت أيامها مت
لو قابلتنى الاسد ضارية * والموت لم يقرب لما خفت
فانظر الى وكن على حذر * فى مثل حالك أمس قد كنت

ومن أحسن مانعى به نفسه قوله حسبما تقدم

صبرت على الايام حتى تولت * وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فواعجبا للقلب كيف اعترافه * وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس الاحيث يجعلها الفتى * فان طمعت تاقت والا تسلت
وكانت على الايام نفسى عزيزة * فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يانفس موتى كريمة * فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وأنشد له الفتح فى المطمح ونسبها غيره لاحمد بن الفرج صاحب الحدائق

كلمتنى فقلت در سقيط * فتأملت عقدها هل تناثر
فازدهاها تبسم فأرتنى * نظم در من التبسم آخر

وله كامر

صفراء تطرق فى الزجاج فان سرت * فى الجسم دبت مثل صل لادغ
خفيت على شرابها فكأنما * يجدون ريا من اناء فارغ

وله

ياذا الذى أودعنى سره * لاترج ان تسمعه منى
لم اجره بعدك فى خاطرى * كأنه مامر فى اذنى

وأنشد له صاحب بدائع التشبيهات

سالت نجوم الليل هل ينقضى الدجى * فخطت جوابا بالثريا كخط لا

افريدون على حسب ماذكرنا من التنازع فى نسبه والحاقه بايران بن منوجهر) بن ايران بن أفريدون وكان ملكه عشرين سنة وكان ينزل ببابل وقد قيل انه فى زمانه كان موسى بن عمران ويوشع بن نون عليهما السلام وكان لمنوجهر حروب مع عميه اللذين قتلا أباه وهما أطوج وسلم وقد أتينا على ذكر حروبهم فيما سلف من كتبنا (ثم ملك بعد منوجهر سهم ابن ابان) بن أثقيان ابن يود بن منوجهر فنزل بابل وملك ستين سنة وقيل أكثر من ذلك وكانت له حروب كثيرة وسير وسياسات كثيرة قد أتينا على ذكرها فى كتابنا أخبار الزمان (ثم ملك بعده فراسياب) ابن أطوج بن ياسر بن رامى ابن آرس بن بورك بن ساساسب بن زسست بن نوح بن دوم بن سرور بن أطوج بن أفريدون الملك وكان مولد فراسياب ببلد الترك فلذلك غلط من غلط من أصحاب الكتب والتصنيفات فى التاريخ وغيره فزعم انه تركى وكان تملكه على ما غلب عليه من البلاد اثنى عشر سنة وعمره عند كثير من الناس أربعمائة سنة ولاثنتى عشرة سنة خلت من ملكه ظهر عليه زو بن بهاست بن كجهور بن عداست بن دايريج بن راع بن ماسر بن يود بن منوجهر الملك فهزمه وقتل أصحابه وكنت

وكنت أرى انى بآخر ليلتى * فأطرق حتى خلته عاد أولا
وماعن هوى سامرتها غير أننى * أنافسها المجرى الى طرق العلا

انتهى (رجع) وكان كما تقدم بقرطبة المصحف العثمانى وهو متداول بين أهل الاندلس قالوا ثم آل امره الى الموحدين ثم الى بنى مرين قال الخطيب بن مرزوق فى كتاب المسند الصحيح الحسن ماملخصه وكان السلطان أبو الحسن لا يسافر موضعا الا ومعه المصحف الكريم العثمانى وله عند أهل الاندلس شان عظيم ومقام كبير وكيف لا ويقال ان ابن بشكوال اخرج هذا المصحف منها أى قرطبة وغرب منها وكان بجامعها الاعظم ليلة السبت ١١ شوّال سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فى أيام أبى محمد عبد المؤمن بن على وبأمره وهذا احد المصاحف الاربعة التى بعث بها عثمان رضى الله تعالى عنه الى الامصار مكة والبصرة والكوفة والشام وماقيل ان فيه دم عثمان بعيد وان يكن أحدها فلعله الشامى قال ابن عبد الملك قال أبو القاسم التجيبى السبتى أمّا الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق المحروسة وعاينته هنالك سنة ٦٥٧ كما عاينت المكى بقبة اليهودية وهى قبة التراب قلت عاينتهما مع الذى بالمدينة سنة ٧٣٥ وقرأت فيها قال النخعى لعله الكوفى أو البصرى وأقول اختبرت الذى بالمدينة والذى نقل من الاندلس فالفيت خطهما سواء وماتوهموه انه خطه بيمينه فليس بصحيح فلم يخط عثمان واحدا منها وانما جمع عليها بعضا من الصحابة كما هو مكتوب على ظهر المدنى ونص ماعلى ظهره هذا ما أجمع عليه جماعة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاصى وذكر العدد الذى جمعه عثمان رضى الله تعالى عنه من الصحابة رضى الله تعالى عنهم على كتب المصحف انتهى واعتنى به عبد المؤمن بن على ولم يزل الموحدون يحملونه فى أسفارهم متبركين به الى أن حمله المعتضد وهو السعيد على بن المأمون أبى العلاء ادريس ابن المنصور وحين توجه لتلمسان آخر سنة ٦٤٥ فقتل قريبا من تلمسان وقدم ابنه ابراهيم ثم قتل ووقع النهب فى الخزائن واستولت العرب وغيرهم على معظم العسكر ونهب المصحف ولم يعلم مستقره وقيل انه فى خزانة ملوك تلمسان قلت لم يزل هذا المصحف فى الخزانة الى ان افتتحها امامنا ابو الحسن أواخر شهر رمضان سنة ٧٣٧ فظفر به وحصل عنده الى أن أصيب فى وقعة طريف وحصل فى بلاد برتقال وأعمل الحيلة فى استخلاصه ووصل الى فاس سنة ٧٤٥ على يد احد تجار ازمور واستمر بقاؤه فى الخزانة انتهى باختصار واعتنى به ملوك الموحدين غاية الاعتناء كما ذكره ابن رشيد فى رحلته ولا بأس ان اذكر كلامه بجملته والرسالة فى شأن المصحف لما فيها من الفائدة ونص محل الحاجة منه أنشدنى الخطيب أبو محمد بن برطلة من لفظه وكتبته من خطه قال انشدنى الشيخ الفقيه القاضى أبو القاسم عبد الرحمن بن كاتب الخلافة أبى عبد الله بن عياش لابيه رحمهم الله تعالى مما نظمه وقد أمر امير المؤمنين المنصور بتحلية المصحف

ونقلته من كل ملك ذخيرة * كأنهم كانوا برسم مكاسبه
فان ورث الاملاك شرقا ومغربا * فكم قد أخلوا جاهلين بواجبه
وكيف يفوت النصر جيشا جعلته * أمام قناه فى الوغى وقواضبه

بعد حروب كثيرة وعمر ماخربه فراسياب وقد تنوزع فى المقدار الذى ملك فيه فقيل ثلاث سنين وقيل أكثر من ذلك وكان مسكنه ببابل وللفرس كلام طويل فى قتل فراسياب وكيفية قتله وحروبه وما كان بين الفرس والترك من الحروب والغارات وما كان من قتل سياوخش وخبر رستم ابن دستان هذا كله مشروح فى الكتاب المترجم بكتاب السكيكين ترجمة ابن المقفع من الفارسية الاولى الى العربية وخبر اسفنديار بن كشتاسب ابن بهراسب وقتل رستم ابن دستان وما كان من قتل بهمن بن اسفنديار لرستم وغير ذلك من عجائب الفرس الاولى وأخبارها وهذا الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمن من خبر أسلافهم وسير ملوكهم وقد أتينا بحمد الله على كثير من أخبارهم فيما سلف من كتبنا وقد قيل ان أوّل من نزل من الملوك بلخ وانتقل عن العراق كيكاوس وقد كان سار نحو اليمن بعد أن كان له بالعراق تمرد على الله وبنيان بناه لحرب السماء وكان ملك اليمن الذى سار اليه كيكاوس فى ذلك الوقت شمر بن فريقس فخرج اليه شمر فأسره وحبسه فى أضيق محبس فهويته ابنة لشمر يقال لها سعدى كانت تحسن اليه فى خفية من أبيها والى

والبسته الياقوت والدر حلية * وغيرك قد رواه من دم صاحبه

وعلى ذكر هذا المصحف الكريم فلنذكر كيفية الامر في وصوله الى الخليفة امير المؤمنين عبد المؤمن وما أبدى في ذلك من الامور الغريبة التي لم يسمع بمثلها في سالف الدهر حسبما أطرفنا به الوزير الاجل ابو زكريا يحيى بن احمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي حفظه الله تعالى وشكره مما استفاده وافاده لنا مما لم نسمع به قبل عن كتاب جده الوزير ابي بكر محمد ابن عبد الملك بن طفيل المذكور مما تضمنه من وصف قصة المصحف فقال وصل اليهم ادام الله سبحانه تأييدهم قمرا الاندلس النيران واميراها المتخيران السيدان الاجلان ابو سعيد وابو يعقوب ايدهما الله وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وهو الامام الذي لم يختلف فيه مختلف ومازال ينقله خلف عن سلف وقد حفظ شخصه على كثرة المتناولين وذخره الله لخليفته المخصوص بمن سخر لخدمته من المتداولين وله من غرائب الانباء ومتقدم الاشعار بما آل اليه امره من الاشعار ماملئت به الطروس وتحفظه من أهل الاندلس الرائس والمرؤس فتلقى عند وصوله بالاجلال والاعظام وبودر اليه بما يجب من التبجيل والاكرام وعكف عليه اطول العكوف والتزم أشد الالتزام وكان في وصوله ذلك الوقت من عظيم العناية وباهر الكرامة ما هو معتبر لاولي الالباب وبلاغ في الاغراب والاعجاب وذلك ان سيدنا ومولانا الخليفة امير المؤمنين أدام الله له عوائد النصر والتمكين كان قبل ذلك بايام قد جرى ذكره في خاطره الكريم وحركته اليه دواعي خلقه العظيم وتراءى مع نفسه المطمئنة المرضية وسجاياه الحسنة الرضية في معنى اجتلابه من مدينة قرطبة محل مثواه القديم ووطنه الموصل بحرمته للتقديم فتوقع ان يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه ويستوحشوا الفقدان اضاءته في أفقهم واشراقه فوقف عن ذلك لما جبل عليه من رحمته واشفاقه فاوصله الله اليه تحفة سنية وهدية هنية وتحية من عنده مباركة زكية دون ان يكدرها من البشر اكتساب أو يتقدمها استدعاء أو اجتلاب بل أوقع الله سبحانه وتعالى في نفوس اهل ذلك القطر من الفرح بارساله الى مستحقه والتبرع به الى القائم الى الله تعالى بحقه ما اطلع بالمشاهدة والتواتر على صحته وصدقه وعضدت مخايل برقه سواكب ودقه وكان ذلك من كرامات سيدنا ومولانا الخليفة معدودا والى أمره الذي هو أمر الله مردودا وجمع عند ذلك بحضرة مراكش حرسها الله تعالى سائر الابناء الكرام والسادة الاعلام بدور الآفاق وكواكب الاشراق وأهل الاستئهال للمقامات الرفيعة والاستحقاق فانتظم عند ذلك هذا القصيد مشيرا الى اجتماع هذه الدراري الزاهرة والتئام خطوطها على مركز الدائرة ووصول المتقدم ذكره المشهور في جميع المعمور امره وهو هذا

دراري من نور الهدى تتوقد * مطالعها فوق المجرة أسعد
وانهار جود كلما امسك الحيا * يمد بها طامي الغوارب مزبد
وآساد حرب غابها شجر القنا * ولا لبد الا العجاج الملبد
مساعير في الهيجا مساعير للندى * بايديهم يحمى الهجير ويبرد

من معه من أصحابه ومكث في محبسه أربع سنين حتى اسره رستم بن دستان من بلاد سجستان سرية فيها أربعة آلاف فقتل ملك اليمن شمر بن فريقس واستنقذ كيكاوس ورده الى ملكه وسعدى معه فاعتلت عليه واغرته بولده سياوخش حتى كان من امره مع فراسياب التركي واستئمانه اليه وتزوجه بابنته حتى جاءت منه بكيخسرو ما كان من قتل فراسياب سياوخش بن كيكاووس وقتل رستم بن دستان لسعدى واخذه بطائلة سياوخش فقتل من قتله من وجوه الترك وعند الفرس على ما في كتاب السكيكين ان كيخسرو كان قبله على الملك جده لابيه وهو كيكاووس ولم يعلم من هو ولم يكن لكيخسرو عقب فجعل الملك في لهراسب وهؤلاء القوم كانوا يسكنون بلخ وكانت دار مملكتهم وكان يدعى نهر بلخ وهو جيحون بلغتهم كالف وكذلك يسميه كثير من اعاجم خراسان في هذا الوقت بهذا الاسم فلم يزالوا كذلك الى أن (صار الملك الى حماى ابنة بهمن) بن اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب فانتقلت الى العراق وسكنت نحو المدائن (ثم كان بعد كيخسرو بن سياوخش بن كيكاووس الملك الى لهراسب) بن قنوج بن كميس بن كيناسس بن كيناسه بن كيقباذ الملك فعمر البلاد وأحسن السيرة

لرعيته وشملهم عدله ولسنين خلت من ملكه نال بنى اسرائيل منه محن وشتتهم فى البلاد وكانت له معهم أقاصيص يطول ذكرها وذكر فى بعض الروايات من أخبار الفرس انه بنى بلخ الحسناء لما فيها من المياه والشجر والمروج وكان ملكه مائة وعشرين سنة وقد ذكر خبر مقتله مع الترك وما كان منهم فى حصاره وقد اخذ بثاره بعد قتله فى كتب قدماء الفرس وقد ذكر كثير ممن عنى بأخبار الفرس أن البختنصر مرزبان العراق والمغرب كان من قبل هذا الملك وهو الذى وطئ الشأم وفتح بيت المقدس وسبى بنى اسرائيل وكان من أمره بالشام والمغرب ما قد اشتهر والعامة تسميه البخت ناصر وأكثر الاخباريين والقصاص يغالون فى أخباره ويبالغون فى وصفه والمنجمون فى زيجاتهم وأهل التواريخ فى كتبهم يجعلونه ملكا وانما كان مرزبان على ما وصفنا للملوك ممن ذكرنا وتفسير مرزبان يراد به صاحب ربع من المملكة وصاحب ناحية وواليها وقد كان حمل سبايا بنى اسرائيل الى الشرق وتزوج منهن امرأة يقال لها دينارد فكانت سبب رد بنى اسرائيل الى بيت المقدس وقيل ان دينارد أولدها الهراسب بن كشتاسب وقيل غير ذلك من الوجوه وان حناى من نسل بنى اسرائيل

تشب بهم ناران للحرب والقرى * ويجرى بهم سيلان جيش وعسجد
ويستمطرون البرق والبرق عندهم * سيوف على افق العداة تجرد
اذا من سجف السائرات مضاؤها * فماذا الذى يغنى الحديد المسرد
ويسترشدون النجم والنجم عندهم * نصول الى حب القلوب تسدد
تزاحم فى جو السماء كأنما * عواملها فى الافق صرح ممرد
تحاذر ألحاظ الكواكب دونها * ويفرق منها المرزمان وفرقد
ألم ترها فى الافق خافقة الحشا * كما طرف العينان والقلب يزأد
وليس احمرار القمر من أثر السنى * ولكنه ذاك النجيع المورد
وما انبسطت كف الثريا فداوعت * ولكنها فى الحرب شلو مقدد
وحط سهيلا ذعره عن سميه * فاضحى على افق البسيطة يرعد
ولما رأى نسر وقوع أليفه * تطاير من خوف فما زال يجهد
مواقع أمر الله فى كل حالة * يكاد لها رأس الثرى يتميد
اهاب بأقصى الخافقين فنظمت * وهيب جميع الخافقين فبددوا
واضفى على الدنيا ملابس رحمة * نضارتها فى كل حين تجدد
وأخضل أرجاء الربا فكأنما * عليها من النبت النضير زبرجد
فمن طرب ما اصبح البرق باسما * ومن فرح ما اضحت المزن ترعد
وغنى على افنان كل اراكة * غداها حيا النعما حمام مغرد
وكبر ذو نطق وسبح صامت * وكاد به المعدوم يحيا ويوجد
وابرز للاذهان ما كان غائبا * فسيان فيها مطلق ومقيد
سلام على المهدى أما قضاؤه * فحتم وأما أمره فمؤكد
امام الورى عم البسيطة عدله * على حين وجه الارض بالجور اربد
بصير رأى الدنيا بعين جلية * فلم يغنه الا المقام الممجد
ولما مضى والامر لله وحده * وبلغ مأمول وأنجز موعد
تردى امير المؤمنين رداءه * وقام بامر الله والناس هجد
بعزمة شيحان الفؤاد مصمم * يقوم به اقصى الوجود ويقعد
مشيئته ما شاءه الله انه * اذا هم فالحكم الالهى يسعد
كتائبه مشفوعة بملائك * تزاد بها فى كل حال وترفد
وماذاك الا نية خلصت له * فليس له فيما سوى الله مقصد
اذا خطبت راياته وسط محفل * ترى قمم الاعداء فى الترب تسجد
وان نطقت بالفصل فيهم سيوفه * اقر بامر الله من كان يجحد
معيد علوم الدين بعد ارتفاعها * ومبدى علوم لم تكن قبل تعهد
وباسط انوار الهداية فى الورى * وقد ضم قرص الشمس فى الغرب ملحد
وقد كان ضوء الشمس عند طلوعها * يغار با كناف الضلال ويغمد

قد كان أنفذ سنحاريب وكان خليفته على العراق الى حرب بني اسرائيل فلم

فازال يجلوعن مطالعها الصدا * و ير زها بيضاء والجوأسود
جزى الله عن هذا الأنام خليفة * به شربوا ماء الحياة فخلدوا
وحياه مادامت محاسن ذكره * على مدرج الايام تتلى وتنشد
لمصحف عثمان الشهيد وجمعه * تبين أن الحق بالحق يعضد
تحامته ايدى الروم بعد انتسافه * وقد كاد لولا سعده يتبدد
فها هو الآن تمترس صارخ * بدعوته العليا فصين المبدد
وجاء ولى الثار يرغب نصره * فلباه منه عزمه المتعرد
رأى أثر المسفوح فى صفحاته * فقام لأخذ الثار منه مؤيد
وشبهه بالبدر قبل خسوفه * فلله تشبيه به الشرع يشهد
زمان ارتفاع العلم كان خسوفه * وقد عاد بالمهدى والعود أحمد
اتتك امير المؤمنين ألوكة * من الحرم الاقصى لامرك تمهد
سيوف بنى عيلان قامت شهيرة * لدعوتك العلياء تهدى وترشد
وطافت ببيت الله فاشتد شوقه * اليك ولى منه حجر ومسجد
وحج اليك الركن والمروو الصفا * فانت لذاك الحج حج ومقصد
مشاعرها الاجسام والروح امركم * ومنكم لها يرضى المقام المخلد
فلله حج واعتمار و زورة * اتتنا ولم يبرحك بالغرب مشهد
ولله سبع نيرات تقارنت * بهافئة الاسلام تحيا وتسعد
اذا لم يكن الافناؤك عصمة * فماذا الذى يرجو القصى المبعد
فدم للورى غيثا وعزاو رحمة * فقر بك فى الدارين منج ومسعد
وزادت بك الاعياد حسنا و بهجة * كأنك للاعياد زى مجدد
ولازلت للايام تبلى جديدها * وعمرك فى ريعانه ليس ينفد

ثم انهم ادام الله سبحانه تاييدهم ووصل سعودهم لما ارادوا من المبالغة فى تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزير شرعوا فى انتخاب كسوته وأخذوا فى اختيار حليته وتأنقوا فى استعمال أحفظته و بالغوا فى استجادة أصونته فحشروا له الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقصية فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزراقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ولم يبق من يوصف ببراعة أو ينسب الى الحذق فى صناعة الأحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل امثلة مخترعة واشكال مبتدعة وضمنوها من غرائب الحركات وخفى امداد الاسباب للمسببات ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم واستفرغوا فيه جهد قوتهم والهمة العلية أدام الله سموها تترقى فوق معارجهم وتتخلص كالشهاب الثاقب وراء موالجهم وتنيف على ماظنوه الغاية القصوى من لطيف مدارجهم فسلكوا من عمل هذه الامثلة كل شعب ورأوا من منتشرها

من أمها وقيل ان لهراسب
يصنع شيأ فعقب بعده
بالبختنصر وقيل فى البختنصر
غير ماذكرنا مما سنورده بعد
هذا الموضع فى ذكر ملوك
بهمن بن اسفنديار بن
كشتاسب بن بهراسب
وقد أرخ بطليموس صاحب
كتاب المجسطى تاريخ
كتاب من عهد بختنصر
مرزبان المغرب وأرخ بابون
صاحب كتاب القانون
فى النجوم من مملكة
الاسكندر بن فليبش
المقدونى (ثم ملك بعده
زرادشت) بن اسثيمان
وقيل انه زرادست بن
بورسمت بن قيدارست بن
اربكردشت بن هجندست
بن حجيس بن مامير بن
أرحدس بن هزران
ابن اسثيمان بن داندست
ابن هايرم بن آرح بن
دوسرين منوجهر الملك
وكان من أهل أذربيجان
والاشهر من نسبه انه
زرادشت بن اسثيمان
وهو نبى المجوس الذى أتاهم
بالكتاب المعروف بالزمزمة
عند عوام الناس واسمه
عند المجوس نسياه وأتى
زرادشت عندهم بالمعجزات
الباهرات للعقول وأخبر
عن الكائنات من المغيبات
قبل حدوثها من الكليات
والجزئيات والكليات هى الاشياء العامة والجزئيات هى الاشياء الخاصة مثل زيد يموت يوم كذا ويمرض كل

كل شعب وأشرفوا عند تحقيقها وابراز دقيقها على كل صعب فكانت منهم وقفة كادت لها النفس تيأس عن مطالبها والخواطر تكر راجعة عن خفى مذهبها حتى أطلع الله خليفته فى خلقه وأمينه المرتضى لاقامة حقه على وجه انقادت فيه تلك الحركات بعد اعتياصها وتخلصت اشكالها عن الاعتراض على أحسن وجوه خلاصها القواذلك ايدهم الله بنصره وامدهم بمعونته وبسره الى المهندسين والصناع فقبلوه احسن القبول وتصوروه بأذهانهم فراوه على مطابقة المأمول فوقفهم حسن تنبيهه مما جهلوه على طور غريب من موجبات التعظيم وعلموا أن الفضل لله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وسياتى بعد هذا اشارة الى تفصيل تلك الحركات المستغربة والاشكال المونقة المعجبة ان شاء الله تعالى مما صنع للمصحف العظيم من الاصونة الغريبة والاحفظة العجيبة انه كسى كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذى صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضا قد اجرى فيه من الوان الزجاج الرومى مالم يعهد له فى العصر الاول مثال ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال وله مفاصل تجتمع اليها اجزاؤه وتلتئم وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم قد اميلت للتحرك أعطافها واحكم انشاؤها على البغية وانعطافها ونظم على صحيفته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد مالم تزل الملوك السالفة والقرون الخالية تتنافس فى افراده وتتوارثه على مرور الزمن وترداده وتظن العز الاقعس والملك الانفس فى ادخاره واعداده وتسمى الواحد منها بعد الواحد بالاسم العلم لشذوذه فى صنعه واتحاده فانتظم عليه منها ماشا كله زهر الكوكب فى تلألئه واتقاده واشبه الروض المزخرف غب سماء اقلعت عن امداده واتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر آخذا بمجامع القلب والبصر مستوليا بصورته الغريبة على جميع الصور يدهش العقول بهاء ويحير الالباب رواء ويكاد يعشى الناظر تألقا وضياء فحين تمت خصاله واستركبت اوصاله وحان ارتباطه بالمصحف العظيم واتصاله رأوا ادام الله تأييدهم واعلى كلمتهم مما رزقهم الله تعالى من ملاحظة الجهات والاشراف على جميع الثنيات ان يتلطف فى وجه يكون به هذا الصوان المذكور طورا متصلا وطورا منفصلا ويتأتى به للمصحف الشريف العظيم أن يبرز تارة للخصوص متبذلا وتارة للعموم متجملا اذ معارج الناس فى الاستبصار تختلف وكل له مقام اليه ينتهى وعنده يقف فعمل فيه على مشاكلة هذا المقصد وتلطف فى تتميم هذا الغرض المعتمد وكسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الاخضر ذى حلية عظيمة خفيفة تلازمه فى المغيب والمحضر ورتب ترتيبا يأتى معه أن يكسى بالصوان الاكبر فيلتئم به التئاما يغطى على العين من هذا الاثر وكمل ذلك كله على اجمل الصفات واحسنها وابدع المذاهب وأتقنها وصنع له محمل غريب الصنعة بديع الشكل والصبغة ذو مفاصل ينبو عن دقتها الادراك ويشهد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك مغشى كله بضروب من الترصيع وفنون من النقش البديع فى قطع من الآبنوس والخشب الرفيع لم تعمل قط فى زمان من الازمان ولا انتهت قط الى ايسره تواقد الاذهان مدار بصنعة قد أجريت فى صفائح الذهب وامتدت امتداد ذوائب الشهب وصنع لذلك المحمل كرسى يحمله عند

فلان فى وقت كذا وبولد الفلان فى وقت كذا وأشباه ذلك ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفا من احرف المعجم وليس فى سائر اللغات أكثر حروفا من هذا ولهم خطب طويل قد أتينا على ذكره فى كتابنا أخبار الزمان والكتاب الاوسط وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن ايراد مثلها ولا يدركون كنه مرادها وسنذكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ما أتى به زرادشت وما جعل له من التفسير وتفسير التفسير وكتب هذا الكتاب فى اثنى عشر الف مجلد بالذهب فيه وعد ووعيد وأمر ونهى وغير ذلك من الشرائع والعبادات فلم تزل الملوك تعمل بما فى هذا الكتاب الى عهد الاسكندر وما كان من قتله لدارا بن دارا فأحرق الاسكندر بعض هذا الكتاب ثم صار الملك بعد الطوائف الى أردشير بن بابك فجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها اسناد فالفرس فى هذا الوقت لا يقرؤن غيرها من الكتاب الاول فسياه ثم عمل زرادشت تفسيرا عند عجزهم عن فهمه وسموا التفسير زند اثم عمل للتفسير تفسيرا وسماه بازيد ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيرا لتفسير التفسير وشرحا لسائر ما ذكرناه وسموا هذا التفسير باردة فالمجوس الى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم المنزل

الانتقال ويشاركه فى أكثر الاحوال مرصع مثل ترصيعه الغريب ومشاكل له فى جودة التقسيم وحسن الترتيب وصنع لذلك كله تابوت يحتوى عليه احتواء المشكاة على أنوارها والصدور على محفوظ أسرارها مكعب الشكل سام فى الطول حسن الجملة والتفصيل بالغ ماشاء من التتميم فى أوصاله والتكميل جار مجرى المحمل فى التزيين والتجميل وله فى أحد غواربه باب ركبت عليه دفتان قد أحكم ارتجاجهما ويسر بعد الابهام انفراجهما ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسى من تلقائه وتركب المحمل عليه مادبرت الحركات الهندسية وتلقيت التنبيهات القدسية وانتظمت العجائب المعنوية والحسية والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية وذلك أن بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد اعدله مفتاح لطيف يدخل فيه فاذا ادخل ذلك المفتاح فيه وأديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما وخرج الكرسى من ذاته بما عليه الى أقصى غايته وفى خلال خروج الكرسى يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته يأتى بها من مؤخر الكرسى زحفا الى مقدمه فاذا كمل الكرسى بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق الباب برجوع الدفتين الى موضعهما من تلقائهما دون ان يمسهما أحد وترتيب هذه الحركات الاربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شئ آخر فاذا أدير المفتاح الى خلف الجهة التى ادير اليها اولا انفتح اولا الباب وأخذ الكرسى فى الدخول والمحمل فى التأخر عن مقدم الكرسى الى مؤخره فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين أيضا من تلقائه كل ذلك يترتب على حركة المفتاح كالذى كان فى حال خروجه وصحة هذه الحركات اللطيفة على اسباب ومسببات غائبة عن الحس فى باطن الكرسى وهى مما يدق وصفها ويصعب ذكرها اظهرتها بركات هذا الامر السعيد وتنبيهات سيدنا ومولانا الخليفة أدام الله تعالى أمرهم وأعز نصرهم وفى خلال الاشتغال بهذه الاعمال التى هى غرر الدهر وفرائد العمر أمروا أدام الله تعالى تأييدهم ببناء المسجد الجامع بحضرة مراكش حرسها الله تعالى فبدئ ببنائه وتأسيس قبلته فى العشر الاول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور على أكمل الوجوه وأغرب الصنائع وأفسح المساحة وأبعد البناء والنجارة وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر والمقصورة مالو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه فكيف فى هذا الامد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه فضلا عن بنائه وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور ونهضوا أدام الله سبحانه تأييدهم عقب ذلك لزيارة البقعة المكرمة والروضة المعظمة بمدينة تينملل أدام الله رفعتها فأقاموا بها بقية شعبان المكرم وأكثر شهر رمضان المعظم وحملوا فى صحبتهم المصحف العزيز ومعه مصحف الامام المهدى المعلوم رضى الله تعالى عنه فى التابوت الموصوف اذ كان قد صنع له غرفة فى أعلاه وأحكمت فيه احكاما كمل به معناه واجتمع فى مشكاته فعاد النور الى مبتداه وختم القرآن العزيز فى مسجد الامام المعلوم ختمات كادت لاتحصى لكثرتها وهنا انتهى ماوجدناه من هذا المكتوب ثم قال ابن رشيد بعد ايراد ماتقدم ماصورته تجزت الرسالة فى المصحف العظيم والحمد لله رب العالمين انتهى محل

الحاجة

فصار علماؤهم وموابذتهم يأخذون كثيرا ممن يحفظ أسباعا من هذا الكتاب وارباعا وأثلاثا فيبتدئ كل واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه ويبتدئ الثانى منهم فيتلو جزأ آخر والثالث كذلك الى أن يأتى الجميع على قراءة سائر الكتاب لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال وقد كانوا يقولون ان رجلا بسجستان بعد الثلثمائة مستظهر يحفظ هذا الكتاب على الكمال وكان ملك كشتاسب الى أن يجس ثم هلك عشرين ومائة سنة وكانت مدة نبوة زرادشت فيهم خمسة وثلاثين سنة وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة ولما هلك زرادشت (ولى مكانه جاماس العالم) وكان من اهل اذربيجان وهذا اول موبذ قام فيهم بعد زرادشت نصبه لهم كشتاسب الملك ثم ملك بعده بهمن بن اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب وكان له حروب كثيرة مع رستم صاحب سجستان الى أن قتل رستم ووالده دستان وقيل ان أم بهمن كانت من بنى اسرائيل من ولد طالوت الملك وانه هو الذى بعث بالبختنصر مرزبان العراق الى بنى اسرائيل فكان من أمرهم ماوصفنا وكان ملك بهمن الى أن هلك مائة واثنتى عشرة سنة وقيل انه فى ملكه رد بقايا بنى اسرائيل الى بيت المقدس فكان مقامهم ببابل الى أن رجعوا الى

الحاجة منه * وما أحسن قول الشيخ الامام أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية يستودع أهل قرطبة

أستودع الله أهل قرطبة * حيث وجدت الحياء والكرما
والجامع الاعظم العتيق ولا * زال مدى الدهر مامنا حرما

وقال أبو الربيع بن سالم حدثنى بذلك أبو الحسن عبد الرحمن بن ربيع الاشعرى قال أنشدنى أبو محمد بن عطية لنفسه فذكرهما بعد أن قال انه لما أزمع القاضى أبو محمد بن عطية الارتحال عن قرطبة قصد المسجد الجامع وأنشدنى البيتين انتهى * وقال ابن عطية أيضا رحمه الله تعالى

بأربع فاقت الامصار قرطبة * وهنّ قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة * والعلم أكبر شئ وهو رابعها

وقد تقدم انشادنا لهذين البيتين من غير نسبتهما لأحد * ومما يدخل فى أخبار الزاهرة من غير ما قدمناه ما حكاه عن نفسه الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم قال نادمت يوما المنصور ابن أبى عامر فى منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضير وهى جامعة بين روضة وغدير فلما تضمخ النهار بزعفران العشى ورفرف غراب الليل الدجوجى وأسبل الليل جنحه وتقلد السماك رمحه وهم النسر بالطيران وعام فى الافق زورق الزبرقان أوقدنا مصابيح الراح واشتملنا ملاءة الارتياح وللدجن فوقنا رواق مضروب فغنتنا عند ذلك جارية تسمى أنس القلوب وقالت

قدم الليل عند سير النهار * وبدا البدر مثل نصف السوار
فكأن النهار صفحة خدّ * وكأن الظلام خط عذار
وكأن الكؤس جامد ماء * وكأن المدام ذائب نار
نظرى قد جنى على ذنوبا * كيف مما جنته عينى اعتذارى
يا لقومى تعجبوا من غزال * جائر فى محبتى وهو جارى
ليت لو كان لى اليه سبيل * فأقضى من الهوى أوطارى

قال فلما أكملت الغنا أحسست بالمعنى فقلت

كيف كيف الوصول للاقمار * بين سمر القنا وبيض الشفار
لو علمنا بأن حبك حق * لطلبنا الحياة منك بثار
واذا ما الكرام همو بشئ * خاطروا بالنفوس فى الاخطار

قال فعند ذلك بادر المنصور لحسامه وغلظ فى كلامه وقال لها قولى واصدقى الى من تشيرين بهذا الشوق والحنين فقالت الجارية ان كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى والله ما كانت الا نظرة ولدت فى القلب فكرة فتكلم الحب على لسانى وبرح الشوق بكتمانى والعفو مضمون لديك عند المقدرة والصفح معلوم منك عند المعذرة ثم بكت فكأن دمعها در تناثر من عقد أو طل تساقط من ورد وأنشدت

أذنبت ذنبا عظيما * فكيف منه اعتذارى
والله قدّر هذا * ولم يكن باختيارى

بيت المقدس سبعين سنة وذلك فى أيام كورس الفارسى المملك على العراق من قبل بهمن وبهمن يومئذ ببلخ وقد قيل ان أم كورس كانت من بنى اسرائيل وكان دانيال الاصغر خاله وكانت مدة ملك كورس ثلاثا وعشرين سنة وفى وجه آخر من الروايات أن كورس كان ملكا برأسه لا من قبل بهمن وذلك بعد انقضاء ملك بهمن وان كورس من ملوك الفرس الاولى وليس هذا عاما فى كتب التواريخ القديمة ودانيال الاكبر كان بين نوح وابراهيم الخليل عليهما السلام وهو الذى استخرج العلم وما يحدث فى الازمان الى أن تنقضى الارض ومن عليها وعلوم ملوك العالم وما يحدث فى السنين والشهور من الحوادث ودلائل ذلك فى الافلاك ولما رجعت بنو اسرائيل الى بيت المقدس استخرجوا التوراة وغيرها من المواضع التى خبئت فيها من الارض على ما قدّمنا (ثم ملكت جماى) بنت بهمن بن اسفنديار ابن كشتاسب بن بهراسب وكانت تعرف بأمها شهرزاد ولهذه الملكة سير وحروب مع الروم وغيرهم من ملوك الارض وكانت حسنة السياسة لاهل مملكتها وكان ملكها بعد أبيها بهمن ثلاثين سنة وقيل غير ذلك (ثم ملك

والعفو أحسن شئ * يكون عند اقتدار

قال فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب الى وسل سيف السخط على فقلت أيدك الله تعالى انه كانت هفوة جرها الفكر وصبوة أيدها النظر وليس للمرء الا ما قدر له لا ما اختاره وأمله فأطرق المنصور قليلا ثم عفا وصفح وتجاوز عنا وسمح وخلى سبيلي فسكن وجيب قلبي وغليلي ووهب الجارية لي فبتنا بأنعم ليلة وسحبنا فيها للصبا ذيله فلما شمر الليل غدائره وسل الصباح بواتره وتجاوبت الاطيار بضروب الالحان في أعالي الاغصان انصرفت بالجارية الى منزلي وتكامل سروري * قال بعضهم ذكرتني حكاية أبي المغيرة هذه حكاية قرأتها في النوادر لابي علي القالي البغدادي حذت في الظرف حذوها وزهت في الاغراب زهوها وهي ما أسنده عن منصور البرمكي انه كانت للرشيد جارية علامية وكان المأمون يميل اليها وهو اذ ذاك أمرد فوقفت تصب على يد الرشيد من ابريق معها والمأمون خلف الرشيد فأشار اليها يقبلها فأنكرت ذلك بعينها وأبطأت في الصب على قدر نظرها للمأمون واشارتها اليه فقال الرشيد ما هذا ضعي الابريق من يدك ففعلت فقال لها والله لئن لم تصدقيني لأقتلنك فقالت يا سيدي أشار الي كأنه يقبلني فأنكرت ذلك عليه فالتفت الى المأمون فنظر اليه كأنه ميت لما داخله من الجزع والخجل فرحمه وضمه اليه وقال يا عبد الله أتحبها قال نعم يا أمير المؤمنين قال هي لك فادخل بها في تلك القبة ففعل ثم قال له هل قلت في هذا الامر شيأ فقال نعم يا سيدي وأنشد

ظبي كنيت بطرفي * من الضمير اليه
قبلته من بعيد * فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد * بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكاني * حتى قدرت عليه

وفي هذا المعنى يقول بعض البلغاء اللحظ يعرب عن اللفظ (وقال آخر) رب كناية تغني عن ايضاح ورب لفظ يدل على ضمير ونظمه الشاعر فقال

جعلنا علامات المودة بيننا * دقائق لحظ هن أمضى من السحر
فأعرف منها الوصل في لين لحظها * وأعرف منها الهجر بالنظر الشزر

(وفي هذا قال بعض الحكماء) العين باب القلب فما في القلب يظهر في العين (وقال الشاعر)

العين تبدي الذي في نفس صاحبها * من المحبة أو بغض اذا كانا
فالعين تنطق والافواه صامتة * حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

انتهى (وأبو المغيرة بن حزم قال في حقه في المطمح ما نصه) الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب ابن حزم وأبو حزم فقيه علم وأدب ونبيه مجد وحسب وأبو المغيرة هذا في الكتابة أوحد لا ينعت ولا يحد وهو فارس المضمار حامي ذلك الذمار وبطل الرعيل وأسد ذلك الغيل نسق المعجزات وسبق في المعضلات الموجزات اذا كتب وشى المهارق ودبج و ركب من بحر البلاغة الثبج وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء وحليفي وفاء لا ينفصلان في رواد ولا مقيل ولا يفترقان كمالك وعقيل وكانا بقرطبة رافعي ألوية الصبوة وعامري

ملك دارا) بن دارا بن بهمن ابن اسفنديار بن كشتاسب ابن بهراسب والفرس تسمي دارا هذا باللغة الاولى من لغاتهم دارا بنوس وهو الذي قتله الاسكندر بن فليبش المقدوني وكان ملكه الى أن قتل ثلاثين سنة وقد ذكر أن منوجهر حين انهزم من حرب فراسياب التركي سار الى جبل طبرستان فتحصن به ثم ثاب بعد ذلك ومعه خيل فحارب فراسياب التركي وقد وطئ العراق وغلب على الاقاليم فهرب الى أرض الترك (وان الملك صار بعد منوجهر الى أخوين) وقيل بل كانا شريكين في الملك متظافرين متعاونين على عمارة الارض ومحاربة فراسياب احدهما (بهماست) بن كيجهر بن دوزدف بن هوست بن دابدسك بن دوس بن منوجهر والآخر (كرساسب) ابن غار بن طهماسب بن آسك بن آيرنس بن أدج ابن دوس بن منوجهر وكان كرساسب محاربا لفراسياب ومنازلا له والآخر هو بهماست لازم بالعراق يعمر ما خربه فراسياب من الارض واحتفر النهرين المعروفين بالزابين الصغير والكبير على حسب ما قدمنا من ذكرهما في

اندية

اندبه السلوة الى أن اتخذ أبو عامر فى حبالة الردى وعلق وغدا رهنه فيها وغلق فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان واسترد من سبقه ما فاته منذ زمان فلم تذكر له مع أبى عامر حسنة ولا سرت له فقرة مستحسنة لتعذر ذلك وامتناعه بشفوف أبى عامر وامتداد باعه وأما شعر أبى المغيرة فرتبط بنثره ومختلط زهره ببدره وقد أثبت له منه فنونا تجن بها الافهام جنونا فمن ذلك قوله

ظعنت وفى أحداجها من شكلها * عين فضحن بحسنهن العينا
ما أنصفت فى جنب توضح اذ قرت * ضيف الوداد بلابلا وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده * اذ لم يجد بالرقتين قطينا

(وله)

لما رأيت الهلال منطويا * فى غرة الفجر قارن الزهره
شبهته والعيان يشهد لى * بصولجان انثنى لضرب كره

انتهى (وأبو عامر بن شهيد المذكور قال فى حقه ما صورته) الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك ابن شهيد الاشجعى عالم باقسام البلاغة ومعانيها حائز قصب السبق فيها لا يشبهه أحد من أهل زمانه ولا ينسق ما نسق من درر البيان وجمانه توغل فى شعاب البلاغة وطرقها وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها لا يقاومه عمرو بن بحر ولا تراه يغترف الا من بحر مع انطباع مشى فى طريقه بأمد باع وله الحسب المشهور والمكان الذى لم يعده ظهور وهو من ولد الوضاح المتقلد تلك المفاخر والاوضاح والضحاك صاحب يوم المرج وراكب ذلك الهرج وأبو عامر حفيده هذا من ذلك النسب ونبع لا يراش الا من ذلك الزغب وقد أثبت له ما هو بالسحر لاحق ولنور المحاسن ماحق (فمن ذلك) قوله

ان الكريم اذا نابته مخمصة * أبدى الى الناس ريا وهو ظمآن
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا * والوجه غمر بماء البشر ريان

وهو مأخوذ من قول الرضى

ما ان رأيت كمعشر صبروا * عزا على الازلات والازم
بسطوا الوجوه وبين اضلعهم * حر الجوى ومآلم الكلم

(وله أيضا)

كلفت بالحب حتى لو دنا أجلى * لما وجدت لطعم الموت من ألم
كلا الندى والهوى قدما ولعت به * ويلى من الحب أو ويلى من الكرم

(وأخبرنى) الوزير أبو الحسن بن سراج الدين وهو بمنزلة ابن شهيد وكان من البلاغة فى مدى غاية البيان ومن الفصاحة فى أعلى مراتب التبيان وكنا نحضر مجالس شرابه ولا نغيب عن بابه وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ولا يخليه من نثر دره وازهاره فقعد فيه ليلة ٢٧ من رمضان فى لمة من اخوانه وأئمة سلوانه وقد حفوا به ليقطعوا انحت ادبه وهو يخلط لهم الجد بهزل ولا يفرط فى انبساط مشتهر ولا انقباض جزل واذا بجارية من أعيان اهل قرطبة معها من جواريها من يسترها ويواريها وهى ترتاد

هذا الكتاب الخارجين من بلد أرمينية الصابين فى دجلة الأكبر بين الموصل والحديثة والآخر ببلاد الصين وسماه باسمه وحفر بسواد العراق نهرا آخر وسماه بالزاب وجعل على هذا النهر بالعراق ثلاث طساسيج من الضياع والعمائر وأسماها الزوابى وما ذكرنا فهو باق الى هذه الغاية وان مملكتها كانت ثلاث سنين وان كيخسرو ابن سياخوش بن كيكاووس ابن كينيفة بن كيقباذ لما قتل جده ببلاد السن والران من بلاد أذربيجان وهو فراسياب بن سيمك ابن تبت بن ديشهر بن ترك وترك هذا جد سام والترك عند طائفة من الناس من ولد لست بن ريسب بن أطوج بن أفريدون وقد قدمنا وجها من الرواية فى نسبه فيما سلف من هذا الكتاب سار كيخسرو فى البلاد ووطئ الممالك وانتهى الى بلاد الصين فبنى هناك مدينة عظيمة وسماها كنكدر وقد نزلها خلق من ملوك الصين كثير ولهم اغوى وغيرها من مدنهم وقد قيل ان كنكدر هى انموى بعينها وقد قيل ان كيكاووس بنى مدينة قشمير المقدم ذكرها بارض السند وان سياخوش بنى فى حياة أبيه كيكاووس مدينة القندهار من أرض السند المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب (قال المسعودى) ولمن ذكرنا من هؤلاء

على ما سلف من مبسوطها وما نذكره من الوجوه فلاختلاف الروايات وتباين الناس فى المصنفات من كتبهم فيما ذكرناه من أخبارهم ليعلم من قرأ كتابنا هذا أنا قد بذلنا المجهود من أنفسنا وذكرنا سائر ما قالوه فيما وصفناه وبالله التوفيق ومنه الاعانة

(ذكر ملوك الطوائف)

وهم بين الفرس الاولى والثانية (قال المسعودى) وقد تنازع الناس فى ملوك الطوائف أمن الفرس كانوا أم من النبط أم من العرب فحكى جماعة من الاخباريين ممن عنى باخبار الماضين انه لما قتل الاسكندر بن فيلبش دارا بن دارا غلب كل رئيس ناحية على ناحيته وكاتبهم الاسكندر فهم فرس ونبط وعرب وكان مراد الاسكندر ومن ذلك تشتيت كلمتهم وتحزبهم وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذى هو به فينعدم نظام الملك والانقياد الى ملك واحد يجمع كلمتهم الا أن أكثرهم كانوا ينقادون الى الاشغانيين وهم ملوك الجبال من بلاد الديشور ونهاوند وهمذان وماسبذان وأذربيجان وكان كل ملك منهم يلى هذا الصقع يسمى بالاسم الاعم اشغان فقيل لسائر ملوك الطوائف عن

وضع المناجاة ربها وتبتغى منزلا لاستغفار ذنبها وهى متنقبة خائفة ممن يرقبها مترقبة وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبى يمرح فى كناس فلما وقعت عينها على ابى عامر ولت سريعة وتولت مروعة خيفة أن يشبب بها أو يشهرها باسمها فلما نظرها قال قولا فضحها به وشهرها

ونـاظرة تحت طى القناع * دعاها الى الله بالخير داعى
سعت خفية تبتغى منزلا * لوصل التبتل والانقطاع
فجاءت تهادى كمثل الرؤم * تراعى غزالا بروض البقاع
وجالت بموضع عناجولة * فحل الربيع بتلك البقاع
أتتنا تبختر فى مشيها * فحلت بواد كثير السباع
وريعت حذارا على طفلها * فناديت ياهذه لا تراعى
غزالك تفرق منه الليوث * وتفزع منه كماة المصاع
فولت وللمسك فى ذيلها * على الارض خط كظهر الشجاع

انتهى المقصود منه (رجع) ومما ينخرط فى سلك أخبار الزهراء ما حكاه الفتح فى ترجمة المعتمد ابن عباد قال واخبرنى الوزير احمد بن سراج انه حضر مع الوزراء والكتاب بالزهراء فى يوم غفل عنه الدهر فلم يرمقه بطرف ولم يصرفه بصرف أرخت به المسرات عهدها وأبرزت له الامانى خدها ونهدها وأرشفت فيه لماها وأباحت للزائرين حماها ومازالوا ينتقلون من قصر الى قصر ويتبدلون الغصون بجنى وهصر ويتنقلون فى تلك الغرفات ويتعاطون الكؤس بين تلك الشرفات حتى استقروا بالروض من بعدما قضوا من تلك الآثار أوطارا ووقروا بالاعتبار قطارا فحلوا منها فى درانك ربيع محفوفة بالازهار مطرزة بالجداول والانهار والغصون تختال فى أدواحها وتنثنى فى اكف ارواحها وآثار الديار قد اشرفت عليهم كالحزن يحن على خرابها وانقراض اترابها واطرابها والوهى بمشيدها لاعب وعلى كل جدار غراب ناعب وقد محت الحوادث ضياءها وقلصت ظلالها وأفياءها وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرجت أيام نزلوا خلالها وتفيؤا ظلالها وعمروا حدائقها وجناتها ونبهوا الآمال من سناتها وراعوا الليوث فى آجامها واخجلوا الغيوث فى انسجامها فاضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ولم يبق من آثارها الانؤى وأحجار قد وهت قبابها وهرم شبابها وقد يلين الحديد ويبلى على طيه الجديد فبينما هم يتعاطونها صغارا وكبارا ويديرونها انسا واعتبارا اذا برسول المعتمد قد وافاهم برقعة فيها

حسد القصر فيكم الزهراء * ولعمرى وعمركم ما أساء
قد طلعتم بها شموسا صباحا * فاطلعوا عندنا بدورا مساء

فساروا الى قصر البستان بباب العطارين فألفوا مجلسا قد حار فيه الوصف واحتشد فيه اللهو والقصف وتوقدت نجوم مدامه وتأودت قدود خدامه وأربى على الخورنق والسدير وأبدى صفحة البدر من أزرار المدير فاقاموا ليلتهم ما عراهم نوم ولا عداهم

عن طيب اللذات سوم وكانت قرطبة منتهى امله وكان روم أمرها أشهى عمله ومازال يخطبها بمداخلة اهليها ومواصلة واليها اذ لم يكن فى منازلتها طائل ولم يكن لها الا حيل ومكايد لاستمالتهم بدعوة خلفائها وأنفتهم من طموس رسوم الخلافة وعفائها وحين اتفق له تملكها وأطلعه فلكها وحصل فى قطب دارتها ووصل الى تدبير رياستها وادارتها قال

من للملوك بشأو الاصيد البطل * هيهات جاءتكم مهدية الاول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت * من جاء يخطبها بالبيض والاسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها * فاصبحت فى سرى الحلى والحلل
عرس الملوك لنا فى قصرها عرس * كل الملوك لها فى مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبالكم * هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

ولما انتظمت فى سلكه واتسمت بملكه اعطى ابنه الظافر زمامها وولاه نقضها وابرامها فناض فيها انداه وزاد على امده ومداه وجلاها بكثرة حبائه واستقل باعبائها على فتائه ولم يزل فيها آمرا وناهيا غافلا عن المكر ساهيا حسن ظن باهلها اعتقده واغترارا بهم ماروّاه ولا انتقده وهيهات كم من ملك كفنوه فى دمائه ودفنوه بذمائه وكم من عرش ثلوه وكم من عز بزملك أذلوه الى ان ثار فيها ابن عكاشة ليلا وجر اليها حربا وويلا فبرز الظافر منفردا عن كماته عاريا من حماته وسيفه فى يمينه وهاديه فى الظلماء نور جبينه فانه كان غلاما قد بلله الشباب بانداته وألحفه الحسن بردائه فدافعهم اكثر ليله وقد منع منه تلاحق رجله وخيله حتى أمكنتهم منه عثرة لم يقل لها لعا ولا استقال منها ولا سعى فترك ملتحفا فى الظلماء تحت نجوم السماء معفرا فى وسط الاء تحرسه الكواكب بعد المواكب ويستره الحندس بعد السندس فمر بمصرعه سحرا أحد أئمة الجامع المغلسين فرآه وقد ذهب ما كان عليه ومضى وهو أعرى من الحسام المنتضى فخلع رداءه عن منكبيه ونضاه وستره به سترا أقنع المجد وأرضاه وأصبح لا يعلم رب تلك الصنيعة ولا يعرف فتشكر له يده الرفيعة فكان المعتمد اذا تذكر صرعته وسعر الحزن لوعته رفع بالعويل نداءه وأنشد ولم أدر من ألقى عليه رداءه ولما كان من الغد حز رأسه ورفع على سن رمح وهو يشرق كنار على علم ويرشق نفس كل ناظر بالم فلما رمقته الابصار وتحققته الحماة والانصار رموا أسلحتهم وسووا للفرار أجنحتهم فمنهم من اختار فراره وجلاه ومنهم من أتت به الى حينه رجلاه وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشة وعثاره وعدل عن تأبينه الى البحث عن مفرقه وجبينه فلم تحفظ له فيه قافية ولا كلمة للوعته شافية الا الاشارة اليه فى تأبين اخويه المامون والراضى المقتولين فى أول النائرة والفتنة الثائرة انتهى (وقد رايت) ان ازيد على ماتقدم مما قصدت جلبه فى هذا الموضع نبذة من كلام الفتح فى ذكر منتزهات قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس ووصف مجالس الانس التى كانت بها مما تنشرح له الانفس ووقع ذكر غير قرطبة والزهراء لهما تبعا ولا يخلو ذلك من عبرة بحال من جعل فى اللهو مصيفا ومربعا ثم طواه الدهر طى السجل ومحا

الاشعانيون اضافة لهم الى ملك هذا الصقع لانقيادهم اليه وقد حكى محمد بن هشام الكلبي عن أبيه وغيره من علماء العرب انهم قالوا أول ملوك الدنيا الكينان وهم من سمينا من ملوك من سلف من الفرس الاولى الى دارا بن دارا ثم الاردوان وهم ملوك النبط وكانوا من ملوك الطوائف وكانوا بارض العراق مما يلى قصر ابن هبيرة وسقى الفرات والجامعين وسورا وأحمد آباد والنرس الى جبلا وتل فاحر والطفوف وسائر ذلك الصقع وكانت ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد وربيعة بن نزار وانمار بن نزار والنضرية من بنى نضر من اليمن وغيرهم من قحطان لهم ملوك وقد نصبت كل طائفة لها ملكا لعدم ملك يجمع كلمتهم وذلك أن الاسكندر أشار عليه معلمه وهو ارسطاطاليس فى بعض رسائله اليه بذلك وكاتب الاسكندر ملك كل ناحية وملكه على ناحيته وتوجه وحياه فاستبد كل واحد منهم بناحية فصار ملكه من بعده فى عقبه ممانعا عما فى يده وطالبا للازدياد من غيره وكان ملك الطوائف عند كثير من الناس ممن عنى باخبار الماضين ومعرفة سنيهم خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة وذلك من ملك الاسكندر الى أن ظهر اردشير بن بابك بن ساسان فغلب

آثاره التي كانت تسمو وتجل وما قصدنا علم الله غير الاعتبار بهذه الاخبار لا الحث على الحرام وتسهيل القصد اليه والمرام والاعمال بالنيات والله سبحانه كفيل بفضله وكرمه ببلوغ الامنيات وتعويضنا عن هذه النعم الفانيات بالنعم الباقيات السنيات * (قال الفتح رحمه الله تعالى) في ترجمة الوزير أبي الوليد بن زيدون ماصورته وأخبرني الوزير الفقيه أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى انه في وقت فراره أضحى غداة الاضحى وقد ثار به الوجد بمن كان يألفه والغرام وتراءت لعينيه تلك الظباء الاوانس والآرام وقد كان الفطر وافاه والشقاء قد استولى على رسم عافيته حتى أعفاه فلما عاده منهما ماعاد وأعياه ذلك النكد المعاد استراح الى ذكر عهده الحسن وأراح جفونه المسهدة بتوهم ذلك الوسن وذكر معاهد كان يخرج اليها في العيد ويتفرج بها مع اولئك الغيد فقال

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى * فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل * أخص بممحوض الهوى ذلك السفحا
وما انفك جوفي الرصافة مسعري * دواعي بث تعقب الاسف البرحا
ويهتاج قصر الفارسي صبابة * لقلبي لا يألو زناد الاسى قدحا
وليس ذميما عهد مجلس ناصح * فأقبل في فرط الولوع به نصحا
كأني لم أشهد لدى عين شهده * نزال عتاب كان آخره الفتحا
وقائع جانيها التجني فان مشى * سفير خضوع بيننا أكد الصلحا
وأيام وصل بالعقيق اقتضيته * فان لم يكن ميعاده العيد فالفصحا
وآصال لهو في مسناة مالك * معاطاة ندمان اذا شئت أو سبحا
لدى راكد تصبيك من صفحاته * قوارير خضر خلتها مردت صرحا
معاهد لذات وأوطان صبوة * أجلت المعلى في الاماني بها قدحا
ألا هل الى الزهراء أوبة نازح * تقضت مبانيها مدامعه نزحا
مقاصر ملك شرفت جنباتها * فخلنا العشايا الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطيها الى الوهم جهرة * فقبتها فالكوكب الجون فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه * اذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى
هناك الجمام الزرق تبدى خفافها * طلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شرق القيان خلالها * صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا
ومن حلي الكاس المفدى مديرها * تقحم أهوال حملت لها الرمحا
أجل ان ليلي فوق شاطئ نيطة * لأقصر من ليلي بيانة فالبطحا

وهذه معاهد بني أمية قطعوا بها الليالي وأياما وظلت فيها الحوادث عنهم نياما فهاموا بشرق العقاب وشاموا به برقا يبدو من نقاب ونعموا بجوفي الرصافة وطعموا عيشا تولى الدهر جلاءه وزفافه وبعدوا انصح الناصح وحمدوا أنس مجلس ناصح وعموا بالزهراء وصموا عن نبا صاحب الزوراء حتى رحلهم الموت عنها وقوّضهم وعوّضهم عنها ماعوّضهم فصاروا أحاديث وأنباء ولم يتزودوا منها الاحنوطا وكباء وغدت تلك المعاهد تصافحها

على ملوك الطوائف وقتل اردوان الملك بالعراق ووضع تاج أردوان على رأسه وكان قد قتله مبارزة على شاطئ دجلة فهذا أوّل يوم يعد منه ملك أردشير لاستيلائه على سائر ملوك الطوائف وتمهدت له البلاد واستقامت دعاتها لملكه فمن ملوك الطوائف من قتله أردشير بن بابك ومنهم من قاده الى ملكه وأجاب دعوته وملوك الطوائف بين الفرس الاولى ممن سمينا وبين الفرس الثانية وهي الساسانية وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي عن عمر كسرى في كتاب له في أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف وأخبارهم وخطبهم وتشعب أنسابهم وما بنوه من المدن وكوّروه من الكور واحتفروه من الانهار وأهل البيوتات منهم وما وسم به كل فريق منهم من الشهارجة وغيرهم أن أوّل من ملك من ملوك الطوائف (أسك) ابن أسك بن أردان بن أشغان بن أغر الجبار بن ساوس بن كيكاوس الملك عشرين سنة ثم ملك بعد أسك (سابور) بن أسك ستين سنة وفي احدى وأربعين من مملكته كان ظهور السيد المسيح عليه السلام ببلاد فلسطين بايلياء ثم ملك (حود) بن ابراهيم بن ادراو بن أشغان عشر سنين ثم ملك (نيرو) بن سابور الملك بن أسك الملك

ايدى

أيدى الغير وتناوحها نعبات الطير وراحت بعد الزينة سدى وأمست مسرحا للبوم وملعبا للصدى يسمع للجن بها عزيف ويصرع فيها البطل الباسل والنزيف وكذا الدنيا أعمالها خراب وما آلها آل وسراب أهلكت أصحاب الاخدود وأذهبت ما كان بمأرب من حيازات وحدود انتهى *(وقال الفتح بعد كلام ماصورته) ولما عضته ناب الاعتقال ورضته تلك النوب الثقال وعوض بخشانة العيش من اللين وكابد قسوة خطب لا تلين تذكر عهد عيشه الرقيق ومرحه بين الصفا والعقيق وحن الى سعد زررت عليه جيوبه واستهدى نسيم عيش طاب له هبوبه وتأسى بمن باتت له النوائب بمرصاد ورمته بسهام ذات اقصاد فقال

الهوى فى طلوع تلك النجوم * والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشى * لو يدوم السرور للمستديم
وطر ما انقضى الى أن تقضى * زمن ماذمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى * ليس يومى بواحد من ظلوم
ماترى البدر ان تأملت والشمس هما يكسفان دون النجوم
وهو الدهر ليس ينفك ينحو * بالمصاب العظيم نحو العظيم

(وقال الفتح أيضا فى شأن ابن زيدون ماصورته) ولما تعذر انفكاكه وعفر فرقده وسماكه وعادته الاوهام والفكر وخانه من أبى الحزم الصارم الذكر قال يصف ما بين مسراته وكروبه ويذكر بعد طلوع سعده وغروبه ويبكى لما هو فيه من التعذير ويعذر أبا الحزم وليس له غيره من عذير ويتعزى باخناء الدهر على الاحرار والحاحه على التمام بالسرار ويخاطب ولادة بوفاء عهده ويقيم لها البراهين على ارقه وسهده

ماجال بعدك لحظى فى سنى القمر * الا ذكرتك ذكر العين بالاثر
ولا استطلت ذماء الليل من أسف * الا على ليلة مرت مع القصر
فى نشوة من شباب الوصل مرهقة * الا مسافة بين الوهن والسحر
ياليت ذاك السواد الجون متصل * قد استعار سواد القلب والبصر
يا للرزايا لقد شافهت منهلها * غمرا فما أشرب المكروه بالغمر
لا يهنأ الشامت المرتاح خاطره * أنى معنى الامانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الارض عاصفة * أم الكسوف لغير الشمس والقمر
ان طال فى السجن ايداعى فلا عجب * قد يودع الجفن حد الصارم الذكر
وان يثبط أبا الحزم الرضا قدر * عن كشف ضرى فلا عتب على القدر
من لم أزل من تدانيه على ثقة * ولم أبت من تجنيه على حذر

وله يتغزل ويعاتب من يستعطفه ويتنزل

يا مستخفا بعاشقيه * ومستغشا لناصحيه
ومن أطاع الوشاة فينا * حتى أطعنا السلو فيه
الحمد لله اذ أرانى * تكذيب ما كنت تدعيه

المسيح بأربعين سنة فقتل وأسر وسبى وخرب ثم ملك بعده نيرو بن سابور (ابنه جودرز) بن نيرو تسع عشرة سنة ثم ملك بعده أخوه (هرمز) بن نيرو عشرين سنة ثم ملك (أردوان) بن مرداوان أربعين سنة ثم ملك بعده (كسرى) بن ايلاووس بن كسرى اربعا وعشرين سنة ثم ملك بعده (ايلاووس) بن ارداوان ابن ايلاووس ثلاث عشرة سنة (قال المسعودى) فهذا وجه آخر غير ما قدمنا وقد قيل فى تاريخ سنى ملوك الطوائف غير ما وصفنا وان مدتهم كانت أقل مما وصفنا والاول أشهر وأصح فى مقدار ما ملكوا من السنين مع تباين التواريخ وتضاد ما فيها غير أن الذى حكيناه هو ما أخذناه عن علماء الفرس وهم يراعون من تواريخ من سلف مالا يراعيه غيرهم لان الفرس تدين بما وصفنا قولا وعملا وغيرهم من الناس يقول ذلك ولا ينقاد اليه عملا لتباين أهل الشرائع وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على الغرر من أخبار الطوائف وسيرهم وبالله التوفيق

(ذكر أنساب فارس وما قاله الناس فى ذلك) تنازع الناس فى الفرس وأنسابهم فمنهم من رأى أن فارس بن ناسور

وغيره من علماء العرب ففارس ونبيط أخوان ابنا ناسور ومنهم من زعم انه من ولد يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليهم ومنهم من ذكر انه من ولد ارم بن ارفخشذ بن سام بن نوح وانه ولد بضع عشرة رجلا كلهم كان فارسا شجاعا فسموا الفرس بالفروسية وفى ذلك يقول حطان بن المعلى الفارسى

وبنا سمى الفوارس فرسا ناومنا مناجب الفرسان

وكهول طواهم الركض والكر كمثل المكرات يوم الطعان

وقد زعم قوم ان الفرس من ولد لوط من ابنته وهى دعوى ولاصحاب التواريخ فى هذا خبر طويل وذكر آخرون انهم من ولد بوّان ابن الاسود بن سام بن نوح وبوّان هذا هو الذى ينسب اليه شعب بوّان من بلاد فارس وهو أحد المواضع المشهورة فى العالم بالحسن وكثرة الاشجار وتدفق المياه وكثرة أنواع الاشجار وقد ذكره بعض الشعراء فقال

شعيب بوّان فدار الراهب فثم تلقى راحة النوائب

من قبل أن يهزم التسلى * ويغلب الشوق ما يليه انتهى

وما أحسن قول ابن زيدون المذكور فى قصيدته النونية الشهيرة

غص العدا من تساقينا الهوى فدعوا * بأن نغص فقال الدهر آمينا

ومن أغرب ما وقفت عليه موشحة لابن الوكيل دخل فيها على أعجاز نونية ابن زيدون وهى

غدا منادينا محكما فينا يقضى علينا الاسى لولا تناسينا

بحر الهوى يغرق * من فيه جهده عام
وناره تحرق * من هم او قد هام
وربما تقلق * فتى عليه نام

قد غير الاجسام وصير الايام سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

ياصاحب النجوى * قف واستمع منى
اياك أن تهوى * ان الهوى يضنى
لاتقرب البلوى * اسمع وقل عنى

بحاره مره خضنا على غرّه حينا فقام بها للنعى ناعينا

من هام بالغيد * لاقى بهم هما
بذلت مجهودى * لأحور ألمى
بهم بالجود * وردما هما

وعندما قد جاد بالوصل أو قد كاد أضحى التنائى بديلا من تدانينا

بحق ما بينى * وبينكم الا
أقررتم عينى * فتجمعوا الشملا
فالعين بالبين * بفقدكم أبلى

جديد ما قد كان بالاهل والاخوان وموردا للهو صاف من تصافينا

ياجيرة بانت * عن مغرم صب
لعهده خانت * من غير ما ذنب
ما هكذا كانت * عوائد العرب

لاتحسبوا البعدا يغير العهدا اذ طالما غير النأى المحبينا

يانازلا بالبان * بالشفع والوتر
والنمل والفرقان * والليل اذا يسر
وسورة الرحمن * والنحل والحجر

هل حل فى الاديان أن يقتل الظمآن من كان صرف الهوى والود يسقينا

ياسائل القطر * عرج على الوادى
من سا كنى بدر * وقف بهم نادى
عسى صبا تسرى * لمغرم صادى

ان شئت تحيينا بلغ تحيينا من لو على البعد حيا كان يحيينا

ومنهم من راى أن الفرس من ولد ايران بن افريدون وقد قدمنا فى صدر هذا الكتاب أخبار ولد افريدون حين وافت

وافت لنا أيام * كأنها أعوام
وكان لى أعوام * كأنها أيام
تمر كالاحلام * بالوصل لى لودام

والكاس مترعه حثت مشعشعه فيننا الشمول وغنانا مغندنا

*(رجع الى ما يتعلق بقرطبة) قال الوزير أبو بكر بن القبطرنة يخاطب الوزير أبا الحسين ابن سراج ويذكر له اخوانه بقرطبة

يا سيدى وأبى هوى وجلالة * ورسول ودى ان طلبت رسولا
عرج بقرطبة ولذان جئتها * بابى الحسين وناده تعويلا
فاذا سعدت بنظرة من وجهه * فاهد السلام لكفه تقبيلا
واذكر له شكرى وشوقى مجملا * ولو استطعت سردته تفصيلا
بتحية تهدى اليه كأنما * جرت على زهر الرياض ذيولا
وأشم منها المصحفى على النوى * نفسا يذيب السوسن المبلولا
والى أبى مروان منه نفحة * تهدى له نور الربا مطلولا
واذا لقيت الاخطبى فسقه * من صفو ودى قرقفا وشمولا
وأبو على سق منها ربعه * مسكا بماء غمامة محلولا
واذكر لهم زمنا يهب نسيمه * أصلا كنفث الراقيات عليلا
مولى ومولى نعمة وكرامة * وأخا اخاء خالصا وخليلا
بالحير ما عبست هناك غمامة * الا تضاحك اذخرا وجليلا
يوما وليلا كان ذلك كله * سحرا وهذا بكرة وأصيلا
لا أدركت تلك الاهلة دهرها * نقصا ولا تلك النجوم أفولا

قال أبو نصر الحير الذى ذكرهنا هو حير الزجالى خارج باب اليهود بقرطبة الذى يقول فيه ابو عامر بن شهيد

لقد اطلعوا عند باب اليهو * د شمسا ابى الحسن ان تكسفا
تراه اليهود على بابها * اميرا فتحسبه يوسفا

وهذا الحير من ابدع المواضع واجلها واتمها حسنا واكملها صحنه مرمر صافى البياض يخترقه جدول كالحية النضناض به جابية كل جهة بها كابية قد قربصت بالذهب واللازورد سماؤه وتأزرت بهما جوانبه وارجاؤه والروض قد اعتدلت اسطاره وابتسمت من كمائمها ازهاره ومنع الشمس ان ترمق ثراه وتعطر النسيم بهبوبه عليه ومسراه شهدت به ليالى واياما كأنما تصورت من لمحات الاحباب اوقدت من صفحات ايام الشباب وكانت لابى عامر بن شهيد به فرج وراحات أعطاه فيها الدهر ماشاء ووالى عليه الصحو والانتشاء وكان هو وصاحب الروض المدفون بازائه اليفى صبوة وحليفى نشوة عكفا فيه على جريالهما وتصرفا بين زهوهما واختيالهما حتى رداهما الردى وعداهما الحمام عن ذلك المدى فتجاورا فى الممات تجاورهما فى الحيات وتقلصت عنهما اوارفات تلك الفيآت والى

قسم الارض بينهم وماقاله الشاعر فى ذلك من قوله ولايران جعلنا عنوة * فارس الروم وفزنا بالنعم
فأضيف الفرس الى ذلك وايران تسميه الفرس ايراج اذا عرفوا اسمه ولا تناكر بين الفرس جميعا فى أنهما من ولد ايراج جميعا وأيراج هو ايران بن افريدون هذا هو المستفيض بينهم والاغلب عليهم أنهم من آل ايراج ومن الناس من ذهب الى ان سائر اجناس الفرس وأهل كور الاهواز من ولد عيلام ولا خلاف بين الفرس فى ان الجميع منهم من ولد كيومرث وهذا هو الاشهر وكيومرث هو قبل ايراج بن افريدون وايراج ابن افريدون هو الذى ترجع اليه فارس من ولد كيومرث ومن الناس من ذهب الى ان الفرس الثانية وهم الساسانية دون من سلف من الفرس الاولى هم من ولد منوجهر بن أفريدون ومنهم من ذهب الى أن منوجهر هو ابن مسحر بن أفريس بن وترك ووترك هو اسحق بن ابراهيم الخليل وسار مسحر الى أرض فارس وكان بها امرأة متملكة يقال لها كورك ابنة ايراج فتزوجها فولدت له منوجهر الملك وكثر ولده فملكوا الارض وغلبوا عليها وهابتهم الملوك لما هم عليه من الشجاعة والفروسية ودثرت الفرس الاولى كدثور الامم الماضية والعرب العادية (قال المسعودى) وأكثر حكماء العرب من نزار بن معد يقول هذا ويعمل عليه فى بدء النسب وينقاد اليه

ذلك العهد أشار ابن شهيد وبه عرض وبشوقه صحح ومرض حيث يقول عند موته يخاطب أبامروان صاحبه أن يدفن بازائه و يكتب على قبره

يا صاحبي قم فقد أطلنا * أنحن طول المدى هجود
فقال لى ان نقوم منها * مادام من فوقنا الصعيد
تذكركم ليلة نعمنا * فى ظلها والزمان عيد
وكم سرور همى علينا * سحابة ثرة تجود
فخيره مسرعا تقضى * وشؤمه حاضر عتيد
حصله كاتب حفيظ * وضمه صادق شهيد
ياويلنا ان تنكبتنا * رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فانت مولى * قصر فى أمرك العبيد

انتهى

ثم قال بعد كلام وركب أبو الحسن بن القبطرنة الى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسين بن سراج فنظر الى أبى الحكم بن حزم غلاما كما عق تمائمه وهو يروق كأنه زهر فارق كمائمه فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فيه فارتج عليه فثنى عنان القول اليه فقال:

رأى صاحبي عمرا فكلف وصفه * وحملنى من ذلك ماليس فى الطوق
فقلت له عمرو كعمرو فقال لى * صدقت ولكن ذا أشب على الطوق

انتهى

وكان بنو القبطرنة بالاندلس أشهر من نار على علم وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ولهم الوزارة المذكورة والفضائل المشكورة ولذا قال أبو نصر فى حقهم ماصورته هم المجد كالاثافى ومامنهم الاموفور القوادم والخوافى ان ظهروا زهروا وان تجمعوا تضوّعوا وان نطقوا اصدقوا ماؤهم صفو وكل منهم لصاحبه كفو أنارت بهم نجوم المعالى وشموسها ودانت لهم ارواحها ونفوسها ولهم النظام الصافى الزجاجة المضمحل المجاجة انتهى ثم قال وبات منهم أبو محمد مع أخويه فى أيام صباه واستطابة جنوب الشباب وصباه بالمنية المسماة بالبديع وهو روض كان المتوكل يكلف بموافاته و يبتهج بحسن صفاته و يقطف رياحينه وزهره و يوقف عليه اغفاءه وسهره ويستفزه الطرب متى ذكره وينتهز فرص الانس فيه روحاته وبكره ويدير حمياه على صفة نهره ويخلع سره فيه لطاعة جهره ومعه اخواه فطاردوا اللذات حتى انضوها ولبسوا برود السرور ومانضوها حتى صرعتهم العقار وصلحتهم تلك الاوقار فلماهم رداء الفجر أن يندى وجبين الصبح أن يتبدى قام الوزير أبو محمد فقال

ياشقيقى واف الصباح بوجه * ستر الليل نوره و بهاؤه
فاصطبح واغتنم مسرة يوم * لست تدرى بما يجىء مساؤه

ثم استيقظ اخوه أبو بكر فقال

ياأخى قم ترى النسيم عليلا * باكر الروض والمدام شمولا
لاتنم واغتنم مسرة يوم * ان تحت التراب نوما طويلا
فى رياض تعانق الزهر فيها * مثل ماعانق الخليل الخليلا

بالفرس وانها من ولد اسحق بن ابراهيم الخليل عليهما السلام فقال فى ذلك اسحق بن سويد العدوى عدى قريش

اذا افتخرت قحطان يوما بسودد * أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا
ملكناهم بدءا باسحق عمنا * وصاروا الناغرما على الدهر أعبدا
فان كان منهم تبع وابن تبع * فاملاكهم كانوا الاملاك نابدا
و يجمعنا والفرابناء سارة * أب لايبالى بعده من تفردا
هم ملكوا شرقا وغربا ملوكهم * وهم منحوهم بعد ذلك سوددا

وفى ذلك أيضا يقول جرير ابن الخطفى التميمى يفخر على قحطان بان الفرس والروم من أولاد اسحق والانبياء من ولد يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم عليه السلام من كلمة طويلة يقول فيها

وأبناء اسحق الليوث اذا ارتدوا * حمائل موتى لابسين السنورا
اذا افتخروا عدوا الصبهبذ منهم * و كسرى وعدوا الهرمزان وقيصرا
وكان كتاب الله فيهم ونوره * وكانوا باصطخر الملوك وتسترا

ثم

ثم استيقظ اخوهما أبو الحسن وقد ذهب من غفلة الوسن فقال

ياصاحبي ذرالومي ومعتبتي * قم نصطبح خمرة من خير ماذخروا
وبادرا غفلة الايام واغتنما * فاليوم خمر ويبدو في غد خبر

وساق صاحب البدائع هذه القصة فقال وذكر أبو الفتح ماهذا معناه انه خرج الوزراء بنو القبطرنة الى المنية المسماة بالبديع وهو روض قد اخضرت مسارح نباته واخضلت مسارى هباته ودمعت بالطل عيون ازهاره وذاب على زبرجده بلور أنهاره وتجمعت فيه المحاسن المتفرقة واضحت مقل الحوادث عنه مطرقة فخيول النسيم تركض في ميادينه فلا تكبو ونصول السواقي تحسم أدواء الشجر فلا تنبو والزروع قد نقبت وجه الثرى وحجبت عن الارض العيون فما تبصر ولا ترى وكان المتوكل بن الافطس يعده غاية الارب مشهد الطرب ومدفع الكرب فباتوا فيه ليلتهم يديرون لمع لهب يتمنون فيه الخلود ويحسون ذوب ذهب لا يصهر به ما في بطونهم والجلود حتى تركتهم ابنة الخابية كانهم أعجاز نخل خاوية فلما هزم روم الصباح زنجي الظلام ونادى الديك حي على المدام انتبه كبيرهم أبو محمد مستعجلا وانشد مرتجلا ياشقيقي الخ فانتبه اخوه أبو بكر لصوته وتخوف لذهاب ذلك الوقت وفوته وأنبه اخاهما أبا الحسن وهو يرتجل يا أخي قم ترى النسيم الى آخره فانتبه أخوه لكلامه داؤه الذي منامه للذة قيامه وارتجل ياصاحبي ذرالخ انتهى (قال الفتح) ولما أمر المعتمد بن عباد أبا بكر بن القبطرنة السابق الذكر مع الوزير أبي الحسين بن سراج بلقاء ذي الوزارتين أبي الحسن بن اليسع القائد والمشي اليه والنزول عليه تنويها بمقدمه وتنبيها على حظوته لديه وتقدمه فصارا الى بابه فوجداه مقفرا من حجابه فاستغربا خلوه من خول وظن كل واحد منهما وتأول ثم أجمعا على قرع الباب ورفع ذلك الارتياب فخرج وهو دهش وأشار اليهما بالتحية ويده ترتعش وأنزلهما خجلا ومشى بين أيديهما عجلا وأشار الى شخص فتوارى بالحجاب وبادى الريح سرعة في الاحتجاب فقعدا ومقلة الخشف ترمق من خلال السجف فانصرفا عنه وعزما أن يكتبا اليه بما فهما منه فكتبا اليه

سمعنا خشفة الخشف * وشمنا طرفة الطرف
وصدقنا ولم نقطع * وكذبنا ولم تنف
وأغضينا لاجلالك عن اكرومة الطرف
ولم ننصف وقد جئنا * لك مانهض من ضعف
وكان الحكم ان تحمل أو تردف في الردف

فراجعهما في الحين بقطعة منها

أيا أسفي على حالي * سلبت بها من الطرف
ويالهفي على جهل * بنصف كان من نصف

انتهى

ولاهل الاندلس في معاني الانس الحسان مالا يفي به لسان وقال الفتح في ترجمة الوزير أبي الفضل بن حسداي بعد كلام ما صورته فمنها هذه القطعة اتى أطلعها نيرة وترك الالباب

ومنهم سليمان النبي الذي دعا * فأعطى نبيا ناوملكا مقدرا
أبونا أبو اسحق يجمع بيننا * أب كان مهديا وملكا معمرا
وموسى وعيسى والذي خر ساجدا * وأنبت زرعا دمع عينيه أخضرا
ويعقوب منهم زاده الله حكمة * وكان أبو يعقوب نبيا مطهرا
ويجمعنا والغر أبناء فارس * أب لايبالي بعده من تأخرا
أبونا خليل الله والله ربنا * رضينا بما أعطى الاله وقدرا

وفي ذلك يقول بشار بن برد

نمتني الكرام بنو فارس * قريش وقومي قريش العجم

وقال أحد شعراء الفرس يذكر أنه من ولد اسحق وأن اسحق هو المسمى وترك على حسب ما قدمنا قبل من كلمة له

أبونا وترك وبه أحاجي * اذا فخر المفاخر بالولاده
أبونا وترك عبد رسول * له شرف الرسالة والزهاده
فمن مثلي اذا افتخرت قرون * وبيتي مثل واسطة القلاده

ومن الفرس من يزعم أن وترك هو ابن أبريك وابن أبريك ابن سبع نسوة تولدن من غير ذكر الى أن يلحقن نسبهن بايراج بن أفريدون وهذا مما يدفعه العقل ويأباه الحس ويخرج عن العادة وتنبو عنه المشاهدة الا ماخص الله تعالى به السيد المسيح بن مريم عليه السلام ليؤدي آياته ودلائله الخارجة عن العادة

بهامتحيرة فى يوم كان عند المقتدر بالله مع عليـه قد اتخذوا المجد حلية والامل قد سفر لهم عن محياه وعبق لهم عن رياه فصافحه الكل منهم وحياه وشمس الراح دائرة على فلك الافـراح والملك ينشر فضـله ويـنـثر وابله وطله يسدى العلاء ويهب الغنى والغناء فصدحت الغوانى وافصحت المثالث والمثانى بما اسـتنزل من مرقب الوقار وسرى فى النفوس مسرى العقار

توريد خـدك للاحداق لذات * عليـه من عنبر الاصداغ لامات
نيران هجرك للعشاق نار لظى * لـكن وصلك ان واصلت جنات
كانما الراح والراحات تحملها * بدور تم وأيدى الشرب هالات
حشاشة ما تركنا الماء يقتلها * الالتحيا بها منا حشاشات
قد كان فى كاسها من قبلها ثقل * نخـف اذ ملئـت منها الزجاجات
عهد للبنى تقاضـته الامانات * بانت وما قضيت منـها البانات
يدنى التوهـم للمشـتاق منتزحا * من الامـور وفى الاوهـام راحات
تقضى عدات اذا هب الكرى واذا * هب النسـيم فقـد تهدى تحيات
زور يعـلل قلب المسـتهام به * دهرا وقد بقيت فى النفس حاجات
لعل عتب الليـالى أن يعود الى * عتبى فتبلغ أوطـار ولذات
حتى يفـوز عما جاد الخيال به * فربما صـدقت تلك المنامات

ولما اعرس المستعين بالله بينت الوزير الاجـل أبى بكر عبـد العزيز احتـفل ابوه المؤتمن فى ذلك احتفالا اشهره وأبدع فيه ابداعا راق من حضره وبهره فانه أحضر فيـه من الآلات المبتدعة والادوات المخترعـة ما بهر الالباب وقطع بذكائه دون معرفتها الاسـباب واسـتدعى اليـه جميع أعيان الاندلس من دان وقاص ومطيـع وعاص فأتوه مسرعين ولبوه متبرعين وكان مدبر تلك الآراء ومدبرها ومنشئ مخاطباتها ومحبرها الوزير الكاتب أبو الفضل وصدرت عنه فى ذلك الوقت كتب ظهر اعجازها وبهر اقتضابها وايجازها *فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظاهر أباعبـد الله بن طاهر محلك أعزك الله فى طى الجوانح ثابت وان نزحت الدار وعيانك فى احناء الضلوع بادوان شحط المزار فالنفس فائزة منك بتمثل الخاطر بأوفر الحظ والعين نازعة الى أن تمتع من لقائك بنظر اللحظ فلا عائدة أسبغ بردا ولا موهبة أسوغ وردا من تفضلك بالعوق الى ما يتم بمشاهدتك التئامه ويتصل بحاضرتك انتظامه ولك فضل الاجـال بالامتاع من ذلك بأعظم الآمال وانا أعزك الله على شرف سوددك حائم وعـلى مشرع سنائك حائم وحسبى ما تحققه من نزاعى وتشوقى وتتيقنه من تطلعى وتتوقى وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة واعترض الاقتراح باستجباب الصلة وانت وصل الله سعدك بسماحة شيمك وبارع كرمك تنشئ للمؤانسـة عهدا وتورى بالمكارمة زندا وتقتضى بالمشاركة شكرا حافلا وحمدا لا زلت مضيئا بالسعود المقبلة مسوغا اجتلاء غرر الامانى المتهللة بمنه انتهى (ثم قال) بعد هذا بيسير ما نصه وركب المستعين بالله يوما نهر سرقسطة يريد طرادلذته وارتياد نزهتـه وانقياد احدصونه المنتظمة بلبته

وفى وطء أفريدون لبنت ابراج ووطئه بنت البنت الى السبع منهن وقد كان بين ملك منوجهر بن منسخر ابن افريرس بن وترك ء لى ماذكرناو بين ملك أفريدون مدة خلت من الدهر وعدة من الملوك لتخرب كان باقليم بابل وعدم ذى همة تنقاد اليـه المملكة ويستقيم له الملك وتجتمع عليه الكلمة وانتقـل الملك مـن ولد أفـريدون الى ولد اسحق فان هـذان ماذكرناه والمعوّل عليـه من قول هذه الطائفة يجب على ما يوجبه الحساب أن من كيومرث الى انتقـال الملك الى ولد اسحق ألفـا وتسعـمائة واثنتين وعشرين سـنة كذلك وجدت فى كتب تواريخ هذه الطائفة بارض فارس وبـلاد كرمان (قال المسعودى) وقـد افتخر بعض أبنـاء الفرس بعـد التسعين والمائتين بجده اسحق بن ابراهيم الخليل عـلى ولد اسـمعيل بان الذبيح كان اسحق دون اسمعيل فقال من كلمة له قل لبنى هاجر ما بنت لكم ماهذه الـكبرياء والعظمه ألم تـكن فى القـديم أمكم لامنـا سارة الجـال امه والملك فينا والانبياء انما ان تنكروا اذاك توجدوا طله

واجتمع

واجتمع له من أصحابه من اختصه لاستصحابه وفيهم أبو الفضل مشاهد الانفراجهم سالكا لمنهاجهم والمستعين قد أحضر من آلات ايناسه وأظهر من أنواع ذلك واجناسه ماراق من حضر وفاق حسنه الروض الانضر والزوارق قد حفت به والتفت بجوانبه ونغمات الاوتار تحبس السائر عن عدوه وتخرس الطائر المفصح بشدوه والسمك تشيرها المكايد وتغوص اليها المصايد فتبرز منها للعين قضبان در أو سبائك لجين والراح لا يطمس لها لمع ولا يبخس منها بصر ولا سمع والدهر قد غضت صروفه واقتص من نكره معروفه فقال

لله يوم أنيق واضح الغرر * مفضض مذهب الآصال والبكر
كأنما الدهر لما ساء أعتبنا * فيه بعتبي وأبدى صفح معتذر
نسير فى زورق حف السفين به * من جانبيه بمنظوم ومنتثر
مد الشراع به نشرا على ملك * بذ الاوائل فى أيامه الاخر
هو الامام الهمام المستعين حوى * علياء مؤتمن عن هدى مقتدر
تحوى السفينة منه آية عجبا * بحر تجمع حتى صار فى نهر
تصادمن قعره النينان مصعدة * صيدا كما ظفر الغواص بالدرر
وللندامى به عب ومرتشف * كالريق يعذب فى ورد وفى صدر
والشرب فى مدح مولى خلقه زهر * يذكو وغرته أبهى من القمر

انتهى (وقال) فى ترجمة العلامة الكبير الاستاذ أبى محمد عبد الله بن السيد البطليوسى شارح أدب الكاتب وسقط الزند وغيرهما ما صورته أخبرنى انه حضر مع المأمون بن ذى النون فى مجلس الناعورة بالمنية التى تطمع اليها المنى ومرآها هو المقترح والمتمنى والمامون قد احتبى وأفاض الحبا والمجلس يروق كالشمس فى أفقه والبدر فى مفرقه والنور عبق وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق والدولاب يئن كناقة اثر الحوار أو كثكلى من حر الاوار والجو قد عنبرته أنواؤه والروض قد رشته أنداؤه والاسد قد فغرت أفواهها ومجت أمواهها فقال

يامنظرا ان نظرت بهجته * أذكرنى حسن جنة الخلد
تربة مسك وجو عنبرة * وغيم ند وطش ماورد
والماء كاللازورد قد نظمت * فيه اللآلى فواغر الاسد
كأنما جائل الحباب به * يلعب فى جانبيه بالنرد
تراه يزهو اذا يحل به الـ * ـمامون زهو الفتاة بالعقد
تخاله ان بدا به قمرا * تما بدا فى مطالع السعد
كأنما البست حذائقه * ماحاز من شيمة ومن مجد
كأنما جادها فروضها * بوابل من يمينه رغد
لازال فى رفعة مضاعفة * متمم الوفد وارى الزند

(وقال) فى وصف هذا المجلس بعينه فى الكتاب الذى أفرده لترجمة ابن السيد ما صورته فمن

اسحق كان الذبيح قد أجمع الناس عليه الا ادعاء له حتى اذا ما محمد أظهر الدين وجلى بنوره الظلمه

قلتم قريش الاحساب مفخرة أصل لنا ان كنتم بنو هفه
اما بنو يعرب فليسوا كمن أسكنه الله آمنا حرمه
ولا كابناء فارس وهم فى الارض مثل الاسود فى الاجمه

وهى قصيدة طويلة ذكر فيها كلاما كثيرا لم يسعنا ذكره وقد أجابه عبد الله ابن المعتز وكان قائل هذه القصيدة فى عصره وعمر الى أن مضت الثلثمائة يناقضه فى أبيات منها فمن ذلك قوله

أسمع صوتا ولا أرى أحدا من ذا الشقى الذى أباح دمه
حاش لاسحق أن يكون لكم أباوان كنتم بنو هفه

قولا الكاتب يرى لبطشته قد قعد الليث للفراس فمه والفرس لا تنقاد الى القول بأن الملك يكون فيها لاحد غير ولد أفريدون فى عصر من الاعصار فيما سلف وخلف الى أن زال عنهم الملك الا أن يكون دخل عليهم داخل على طريق التعصب بغير حق وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيما له ولجدها ابراهيم عليه السلام وتمسكا بهديه وحفظا لانسابها وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك جد أردشير بن بابك

ذلك انه حضر مع القادر بالله بن ذى النون بمجلس الناعورة بطليطلة فى المنية المتناهية البهاء والاشراق المباهية لزوراء العراق التى ينفح شذاها العطر و يكاد من الغضارة يقطر والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه وحكم العقار فى جوده ونداه والمجلس يشرق كالشمس فى الحمل ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل والزهر عبق وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق والدولاب يئن كناقة اثر حوار الى آخر ما سبق (وقال الفضل) فى وصف هذا المجلس حاذيا حذو الفتح ما صورته حضر الاستاذ أبو محمد بن السيد عند المأمون ابن ذى النون فى بعض منتزهاته فى وقت طاب نعيمه وسرت بالسعود نجومه والروض قد أجاد وشيه راقه والماء قد جرت بين الاعشاب أراقه وثم بركة مملوة كأنها مرآة مجلوة قد اتخذت سباع الصفر بشاطئها غابا ومجت بها من سائغ الماء لعابا فكأنها آساد عين ادلعت ألسنة من لجين وهى لا تزال تقذف الماء ولا تفتر وتنظم لآلى الحباب بعد ما تنثر فامر بوصف ذلك الموضع الذى تجد اليه ركائب القلوب وتوضع فقال بديها يا منظرا الخ انتهى (ثم قال الفتح) فى هذا التصنيف بعد كلام فى المذكور ما نصه وما أبدع قوله فى وصف الراح والحض على النبذ للهموم والاطراح بمعاطاة كاسها وموالاة ايناسها ومعاقرة دنانها واهتصار ثمار الفتوة من افنانها والاعراض عن الايام وأنكادها والجرى فى ميدان الصبوة الى أبعد آمادها

سل الهموم اذا نبا زمن * بمدامة صفراء كالذهب
مزجت فمن در على ذهب * طاف ومن حبب على لهب
وكأن ساقيها يثير شذى * مسك لدى الاقوام منتهب

ولله هو فقد ندب الى المندوب وذهب الى مداواة القلوب من الندوب وابرائها من الآلام واهدائها كل تحية وسلام وابهاجها بآصال وبكر وعلاجها من هموم وفكر فى زمن حلى عاطله وجلى فى أحسن الصور باطله ونفقت محالاته وطبقت أرضه وسماؤه واستحالاته فليثه كاسد وذئبه مستاسد واضغانه تنسر وبغاثه قد استنسر فلا استراحة الا فى معاطاة حميا ومواخاة وسيم المحيا وقد كان ابن عمار ذهب مذهبه وفضضه بالابداع وذهبه حين دخل سرقسطة ورأى غباوة أهلها وتكاثف جهلها وشاهد منهم من لا يعلم معنى ولا فضلا وواصل من لا يعرف قطعا ولا وصلا فاقبل على راحه يتعاطاها وعكف عليها ما تعداها ولا تخطاها حتى بلغه أنهم نقموا معاقرته العقار وجالت ألسنتهم فى توبيخه مجال ذى الفقار فقال

نقمتم على الراح أدمن شربها * وقلتم فتى راح وليس فتى مجد
ومن ذا الذى قاد الجياد الى الوغى * سواى ومن اعطى كثيرا ولم يكدى
فديتكم لم تفهموا السر انما * قليتكم جهدى فابعدتكم جهدى

ودعى ابن السيد ليلة الى مجلس قد احتشد فيه الانس والطرب وقرع السرور نبعه بالغرب ولاحت نجوم أكواسه وفاح نسيم رنده وآسه وأبدت صدور اباريقه اسرارها وضمت عليه المجالس أزرارها والراح يديرها أهيف أوطف والامانى تجنى وتقطف فقال

وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذى يرجعون اليه كرجوع ملوك المروانية الى مروان ابن الحكم وخلفاء العباسيين الى العباس بن عبد المطلب ولم يل الفرس الثانية أحد الا من ولد أردشير بن بابك هذا فكان ساسان اذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر اسمعيل فقيل انما سميت زمزم لزمزمته عليها هو وغيره من فارس وهذا يدل على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذا البئر وفى ذلك يقول الشاعر فى قديم الزمان

زمزمت الفرس على زمزم * وذاك من سالفها الاقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بذلك فقال من كلمة

وما زلنا نحج البيت قدما * ونلقى بالاباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى * أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به وزمزم عند بئر * لاسمعيل تروى الشار بينا

وكانت الفرس تهدى الى الكعبة أموالا فى صدر الزمان وجواهر وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجوهرا وسيوفا وذهبا كثيرا فقذفه فى زمزم وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك اليها ويحتمل أن يكون لغيرها والله أعلم

يارب ليل قد هتكت حجابه * بمدامة وقادة كالكوكب
يسعى بها أحوى الجفون كأنها * من خده ورضاب فيه الاشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه * يسعى ببدر جانح للمغرب
فاذا نعمت برشف بدر غارب * فانعم برشفة طالع لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها * حول المجرة ربرب فى مشرب
والليل منفجر يطير غرابه * والصبح يطرده ببازأشهب

(ثم قال الفتح) بعد كلام كثير ماصورته ودخل يعنى ابن السيد سرقسطة ايام المستعين وهى جنة الدنيا وفتنة المحيا ومنتهى الوصف وموقف السرور والقصف ملك غير البشاشة كثير المشاشة وملك أبهج الفناء أرج الارجاء يروق المجتلى ويفوق النجم المعتلى وحضيرة منسابة الماء منجابة السماء يبسم زهرها وينساب نهرها وتتفتح خمائلها وتتضوع صباها وشمائلها والحوادث لاتعترضها والكوارث لاتفترضها ونازلها من عرس الى موسم وآملها متصل بالامانى ومتسم فنزل منها فى مثل الخورنق والسدير وتصرف فيها بين روضة وغدير فلم يخف على المستعين احتلاله ولم تخف لديه خلاله فذكره معلماً به ومعرفاً وأحضره منوهاً به ومشرفاً وقد كان فر من ابن رزين فرار السرور من نفس الحزين وخلص من اعتقاله خلوص السيف من صقاله فقال يمدحه

هموسلبونى حسن صبرى اذبانوا * باقمار أطواق مطالعها بان
لئن غادرونى باللوى ان مهجتى * مسايرة أظعانهم حيثما كانوا
سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم * ينازعها نهر من الدمع هتان
أأحبابنا هل ذلك العهد راجع * وهل لى عنكم آخر الدهر سلوان
ولى مقلة عبرى وبين جوانحى * فؤادى الى لقياكم الدهر حنان
تنكرت الدنيا لنا بعد بعدكم * وحفت بنا من معضل الخطب الوان
أناخت بنا فى أرض شنتمرية * هواجس ظن خان والظن خوان
وشمنا بروقاً للمواعيد أتعبت * نواظرنا دهراً ولم يهم هتان
فسرنا وما نلوى على متعذر * اذا وطن أقصاك آوتك أوطان
ولا زاد الا ما انتشته من الصبا * أنوف وحازته من الماء أجفان
رحلنا سوام الحمد منها لغيرها * فلا ماؤها صدا ولا النبت سعدان
الى ملك حاباه بالمجد يوسف * وشاد له البيت الرفيع سليمان
الى مستعين بالاله مؤيد * له النصر حزب والمقادر أعوان
جفتنا بلاجرم كأن مودة * ثنى نحونا منها الاعنة شنآن
ولولم تفدنا سوى الشعر وحده * لحسن لنا بر عليه واحسان
فكيف ولم نجعل بها الشعر مكسباً * فيوجب للمكدى جفاء وحرمان
ولا نحن ممن يرتضى الشعر خطة * وان قصرت عن شأونا فيه أعيان
ومن أوهمته غير ذاك ظنونه * فثم مجال للمقال وميدان

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ما كان من فعل عبد المطلب بهذه الاسياف وغيرها مما أودع فى زمزم والناس فى الانساب تنازع فى بدئها وتشعبها وقد ذكرنا من ذلك جملا وأوردنا منه جوامع يكتفى ذو المعرفة بالاشراف عليها عن كثير من مبسوطها

(ذكر ملوك الساسانية وهم الفرس الثانية وأخبارهم)

كان اول من تنسب اليه ملوكهم على حسب ما قدمنا فى الباب الذى قبل هذا أردشير بن بابك شاه بن ساسان بن بهافريد بن دارا بن ساسان بن بهمن ابن اسفنديار بن كشتاسب ابن بهراسب ولا خلاف بينهم فى أن أردشير من ولد منوجهر وكان مما حفظ من قوله يوم ملك وقتل أردوان وفرغ من ملوك الطوائف ووضع التاج على رأسه أن قال الحمد لله الذى خصنا بنعمه وشملنا بفوائده وقسمه ومهد لنا البلاد وقاد الى طاعتنا العباد نحمده حمد من عرف فضل ما آتاه ونشكره شكر الدارى بما منحه واصطفاه الاوانا ساعون فى اقامة منازل العدل وادرار الفضل وتشييد المآثر وعمارة البلاد والرأفة بالعباد ورم أقطار المملكة ورد ما انخرم فى سائر الايام منها فليسكن طائركم أيها الناس فانى أعم بالعدل القوى والضعيف والدنىء والشريف وأجعل العدل سنة

خليلى من بعدى على زمن له * اذا ما قضى حيف على وعدوان
وهل رى من قبلى غريق مدامع * يفيض بعينيه الحيا وهو حران
وهل طرفت عين لمجد ولم يكن * لها مقلة من آل هود وانسان
بوجه ابن هود كلما أعرض الورى * صحيفة اقبال لها البشر عنوان
فتى المجد فى برديه بدر وضيغم * وبحر وقدس ذو الهضاب وثهلان
من النفر الشم الذين أكفهم * غيوث ولكن الخواطر نيران
ليوث شرى ما زال منهم لدى الوغى * هزبر بيمناه من السم ثعبان
وهل فوق ما قد شاد مقتدر لهم * ومؤتمن بالله لقياه ايمان
ألا ليس فخر فى الورى غير فخرهم * والا فان الفخر زور وبهتان
فيا مستعينا مستغاثا لمن نبا * به وطن يوما وعضته أزمان
كسوتك من نظمى قلادة مفخر * يباهى بها جيد المعالى ويزدان
وان قصرت عما لبست فربما * تجاور در فى النظام ومرجان
معان حكت غنج الحسان كانتى * بهن حبيب أو بطليوس بغدان
اذا غرست كفاك غرس مكارم * بأرضى أجنتك الثنا منه اغصان

(وقال) فى وصف مجلس لابى عيسى بن لبون أحضر اليه ابن السيد منوها بقدره ماصورته وأحضره الى مجلس نام عنه الدهر وغفل وقام لفرط أنسه واحتفل قد بانت صروفه ودنت من الزائر قطوفه وقال هلم بنا الى الاجتماع بمذهبك والاستمتاع بما شئته من براعة أدبك فأقاموا يعملون كاسهم ويصلون ايناسهم وباتوا ليلتهم ما طرفهم نوم ولا عداهم عن طيب اللذات سوم ثم قال بعد كلام كثير وحضر ابن السيد عند عبد الرحمن الظافر بن ذى النون مجلسا رفعت فيه المنى لواءها وخلعت عليه اضواءها وزفت اليه المسرات أبكارها وفارقت اليه الطير أوكارها فقال يصف

لم تر عينى مثله ولا ترى * أنفس فى نفسى وأبهى منظرا
اذا تردى وشيه المصورا * من حوك صنعاء وحوك عبقرا
ونسج قرقوب ونسج تسترا * خلت الربيع الطلق فيه نورا
كأنما الابريق حين قرقرا * قد أم لثم الكاس حين فغرا
وحشية ظلت تناغى جوذرا * ترضعه الدر ويرنو حذرا
كأنما مج عقيقا أحمرا * أوفت من رياه مسكا أذفرا
أو عابد الرحمن يوما ذكرا * فنم مسكا ذكره وعنبرا
الظافر الملك الذى من ظفرا * بقرب به نال العلاء الا كبرا
لو أن كسرى راءه أو قيصرا * هلل اكبارا له وكبرا
تبدى سماه الملك منه قمرا * اذا جاب المجد عنه سفرا
يا أيها المضنى المطايا بالسرى * تبغى غمام المكرمات الممطرا

انتهى (وقال الفتح) فى ترجمة الاديب أبى القاسم بن العطار ما صورته هو أحد أدباء اشبيلية

(قال المسعودى) واردشير ابن بابك المتقدم فى ترتيب طبقات الندماء وبه اقتدى المتأخرون من الملوك والخلفاء وكان يرى ان ذلك من السياسة ومما يدعم عمود الرياسة فكانت طبقات خاصته ثلاثا * الاولى الاساورة وابناء الملوك وكان مجلس هذه الطبقة عن يمين الملك على نحو من عشرة اذرع وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم * وكانت الطبقة الثانية على مقدار عشرة أذرع من الاولى وهم وجوه المرازبة وملوك الكون والمقيمون بباب أردشير والمرازبة وهم الاصبهيدية ممن كانت مملكة الكون فى أيامه والطبقة الثالثة كانت رتبتها على قدر عشرة أذرع من حد مرتبة الطبقة الثانية وأهل هذه الطبقة المضحكون وأهل البطالة والهزل غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيس الاصل ولا وضيع القدر ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر ولا مأوف ولا مرمى بأبنة ولا ابن ذى صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام ولو كان يعلم الغيب أو حوى كل العلوم مثلا وكان أردشير يقول ما شئ أضر على نفس ملك أو رئيس أو ذى معرفة

ونحاتها العامرين لارجاء المعارف وساحاتها لولا مواصلة راحاته وتعطيل بكره وروحاته ومواﻻته للفرج ومغالاته في عرف الانس والارج لايعرج الاعلى ضفة نهر ولايبتهج الابقطفة زهر لم يحفل بملام ولم ينتقل الافي طاعة غلام ناهيك من رجل مخلوع العنان في ميدان الصبابة مغرم بالحسان غرام يزيد بحبابة لاتراه الاذمة انهماك ولا تلقاه الا في لمة انهتاك رافع الرايات الهوى قارع الثنيات الجوى لايقفر فؤاده من كاف ولا يبيت الارهن تلف أكثر خلق الله تعالى علاقة وأحضرهم لمشهد حلاقة مع جزالة تحرك السكون وتخلك الطير في الوكون وقد أثبت له مما ارتجله في أوقات أنسه وساعاته ونفث به أثناء زفراته ولوعاته فمن ذلك ماقاله في يوم ركب فيه النهر على عادات انكشافه وارتضاعه لثغور اللذات وارتشافه

عبرنا سماء النهر والجوّ مشرق * وليس لنا الا الحباب نجوم
وقد ألبسته الايك برد ظلالها * وللشمس في تلك البرود رقوم

وله فيه

مررنا بشاطى النهر بين حدائق * بها حدق الازهار تستوقف الحدق
وقد نسجت كف النسيم مفاضة * عليه وما غير الحباب لها حلق

وله

هبت الريح بالعشي فحاكت * زرد اللغدير ناهيك جنه
وانجلى البدر بعد هذا فحاكت * كفه للقتال منه أسنه

وقوله

لله بهجة منزه ضربت به * فوق الغدير رواقها الانسام
فمع الاصيل النهر درع سابغ * ومع الضحى يلتاح منه حسام

وله

لاكالعشية في رواء جمالها * وبلوغ نفسي منتهى آمالها
ماشئت شمس الارض مشرقة السنى * والشمس قد شدت مطى رحالها
في حيث تنساب المياه أراقما * وتعير الافياء برد ظلالها

وله

لله حسن حديقة بسطت لنا * منها النفوس سوالفا ومعاطف
تختال في حلل الربيع وحليه * ومن الربيع قلائد ومطارف

انتهى (وقال الفتح) في ترجمة ابن عمار أخبرني ذو الوزارتين الاجل أبو المطرف بن عبد العزيز أنه حضر معه عند المؤتمن في يوم جادت فيه السماء بهطلها وأتبعت وبلها بطلها وارتقب رعدها برقها وانسكب دراكودقها والازهار قد تجلت من اكمامها وتجلت بدر غمامها والاشجار قد جلى صداها وتوشحت بنداها واكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد تديرها أنامل تكاد من اللطافة تعقد اذ بفتى من فتيان المؤتمن أخرس لايفصح ومستعجم لايبين ولايوضح متشمر تشمر الليث متشمر كالبطل الفارس عند العيث وقد أفاض على

صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع لانه كما ان النفس تصلح على مخالطة الشريف الاريب الحسيب كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس حتى يقدح ذلك فيها ويزيلها عن فضيلتها ويثنيها عن محمود شريف أخلاقها وكما أن الريح اذا مرت بالطيب حملت طيبا تحيي به النفوس وتقوى به جوارحها كذلك اذا مرت بالنتن فحملته ألمت به النفس وأضر بأخلاقها اضرارا تاما والفساد أسرع اليها من الصلاح اذ كان الهدم أسرع من البناء وقد يجد ذو المعرفة في نفسه عند معاشرة السفلة الوضعاء شهرا فساد عقله دهرا * وكان اردشير يقول يجب على الملك أن يكون فائض العدل فان العدل جماع الخير وهو الحصن الحصين من زوال الملك وتخرمه وان اول مخايل الادبار في الملك ذهاب العدل منه وانه متى خفقت رايات الجور في ديار قوم كافحتها عقاب العدل فردتها على العقب وليس أحد ممن يصحب الملوك ويخالطهم أولى باستجماع محاسن الاخلاق وفضائل الآداب وظرائف الملح وغرائب التحف من النديم حتى انه ليحتاج أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد ومع عفاف النساك مجون الفتاك ومع وقار الشيوخ مزاح الاحداث وكل واحدة من هذه الخلال هو مضطر اليها في

حسب مايأتيه من خلائقه ويعلم من معانى لحظه واشاراته مايعينه على شهوته ولا يكون نديما حتى يكون له جمال ومروءة فاما جماله فنظافة ثوبه وطيب رائحته وفصاحة لسانه وأما مروءته فكثرة حيائه فى انبساطه الى الجميل ووقاره فى مجاسه مع طلاقة وجهه فى غير سخف ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة * ورتب أردشير المراتب فجعلها سبعة أرواح فأولها الوزراء ثم الموبذان وهو القائم بامور الدين وهو قاضى القضاة وهو رئيس الموابذة ومعناها القوام بأمور الدين فى سائر المملكة والقضاة المنصوبون للأحكام وجعل الاصبهبدين أربعة الاول بخراسان والثانى بالمغرب والثالث ببلاد الجنوب والرابع ببلاد الشأم فهؤلاء الاربعة هم أصحاب تدبير الملك كل واحد منهم قد أفرد بتدبير جزء من أجزاء المملكة فكل واحد منهم صاحب ربع منها ولكل واحد من هؤلاء مرزبان وهم خلفاء هؤلاء الاربعة ورتب أردشير الطبقات الاربعة من أصحاب التدبير

نفسه درعا تضيق بها الاسنة ذرعا وهو يريد استشارة المؤتمن فى التوجه الى موضع بعثه اليه ووجهه وكل من صده عنه نهره ونجهه حتى وصل الى مكان انفراده ووقف بازاء آساده فلما وقعت عين ابن عمار عليه أشار بيده اليه وقربه واستدناه وضمه اليه كأنه تبناه وأراد أن يخلع عنه ذلك الغدير وأن يكون هو الساقى والمدير فأمره المؤتمن بخلعه وطاعة أمره وسمعه فنضاه عن جسمه وقام يسقى على حكمه ورسمه فلما دبت فيه الحميا وشبت غرامه بهجة ذلك المحيا واستنزلته سورة العقار من مرقب الوقار قال

وهويته يسقى المدام كأنه * قمر يدور بكوكب فى مجلس
متأرج الحركات تندى ريحه * كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسعى بكاس فى أنامل سوسن * ويدير أخرى من محاجر نرجس
ياحامل السيف الطويل نجاده * ومصرف الفرس القصير المحبس
اياك بادرة الوغى من فارس * خشن القناع على عذار أملس
جهم وان حسر اللثام فانما * كشف الظلام عن النهار المشمس
يطغى ويلعب فى دلال عذاره * كالمهر يرمح فى اللجام المجرس
سلم فقد قصف القنا غصن النقا * وسطا بليث الغاب ظبى المكنس
عنا بكاسك قد كفتنا مقلة * حوراء قائمة بسكر المجلس

وأورد هذه القصيدة صاحب البدائع بقوله حضر أبو المطرف بن عبد العزيز عند المؤتمن بن هود فى يوم أجرى الجو فيه أشقر برقه ورمى بنبل ودقه وتحملت الرياح فيه أوقار السحاب على أعناقها وتمايلت قامات الاغصان فى الحلل الخضر من أوراقها والرياح قد اشرقت نجومها فى بروج الراح وحاكت شمسها شمس الافق فتلفعت بغيوم الاقداح ومديرها قد ذاب ظرفا فكاد يسيل من اهابه وأخجل خدها حسنا فتظلل بعرق حبابه اذا بفتى من فتيان المؤتمن قد أقبل متدرعا كالبدر اجتاب سحابا والخمر قد اكتست حبابا وقد جاء يريد استشارة المؤتمن فى الخروج الى موضع قد كان عوّل فيه عليه وأمره أن يتوجه اليه فحين لمحه ابن عمار والسكر قد استحوذ على لبه وبث سراياه فى ضواحى قلبه جد فى أن يستخرج تلك الدرة من ماء ذلك الدلاص وأن يجلى عنه سهكه كما يجلى الخبث عن الخلاص وأن يكون هو الساقى فأمره المؤتمن بقبول أمره وامتثاله واحتذاء أمثاله فحين ظهرت تلك الشمس من حجبها ورميت شياطين النفوس من كميت المدام بشهبها ارتجل ابن عمار وهويته الخ الا انه قال اثر قوله اياك بادرة الوغى من فارس ماصورته * يضع السنان على العذار الاملس * انتهى ولابن عمار الرائية المشهورة فى مدح المعتضد والد المعتمد وهى

أدر المدامة فالنسيم قد انبرى * والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره * لما استرد الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره * وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد خدوده * خجلا وتاه بآسهن معذرا
روض كأن النهر فيه معصم * صاف أطل على رداء أخضرا

ومن اليهم ازمة الملك وحضور المشورة فى ايراد الامور واصدارها ثم رتب طبقات المغنين وسائر المطربين وتهزه

وهزه ريح الصبا فتخاله * سيف ابن عباد يهدد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه * والجو قد لبس الرداء الاغبرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد * ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الاكباد من قطر الندى * وألذ فى الاجفان من سنة الكرى
يختار اذ يهب الخريدة كاعبا * والطرف أجرد والحسام مجوهرا
قداح زند المجد لا ينفك من * نار الوغى الا الى نار القرى
لا خلق أقرأ من شفار حسامه * ان كنت شبهت المواكب أسطرا
أيقنت أنى من ذراه بجنة * لما سقانى من نداه الكوثرا
وعلمت حقا أن ربعى مخصب * لما سألت به الغمام الممطرا
من لا توازنه الجبال اذا احتبى * من لا تسابقه الرياح اذا جرى
ماض وصدر الرمح يكهم والظبا * تنبو وأيدى الخيل تعثر فى الثرى
قاد الكتائب كالكواكب فوقهم * من لامهم مثل السحاب كنهورا
من كل أبيض قد تقلد أبيضا * عضبا وأسمر قد تقلد أسمرا
ملك يروقك خلقه أو خلقه * كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته * فرأيته فى بردتيه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته * فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطرا بثنائه * حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوجت بالزهر صلع هضابه * حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الغنى من كفه * وجنت به روض السرور منورا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن * أسعى بجد أو أموت فأعذرا
يا أيها الملك الذى حاز العلا * وحباه منه بمثل حمدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة * فى الحرب ان كانت يمينك منبرا
ما زلت تغنى من عنا لك راجيا * نيلا وتفنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا * رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد * الا اليهود وان تسمت بربرا
أثمرت رمحك من رؤس ملوكهم * لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كماتهم * لما علمت الحسن يلبس أحمرا
واليكها كالروض زارته الصبا * وحنا عليه الطل حتى نورا
نمقتها وشيا بذكرك مذهبا * وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا
من ذا ينافسنى وذكرك مندل * أوردته من نار فكرى مجمرا
فلئن وجدت نسيم مدحى عاطرا * فلقد وجدت نسيم برك أعطرا انتهى

*(وقال فى ترجمة عبد الجليل بن وهبون المرسى) ركب باشبيلية زورقا فى نهرها الذى لا تدانيه الصرات ولا يضاهيه الفرات فى ليلة تنقبت فى ظلمتها ولم يبد وضح فى دهمتها

وذوى الصنعة بالموسيقى فلم يزل على ذلك من طرأ بعده من ملوك آل ساسان الى بهرام جور فانه قرر مراتب الاشراف وأبناء الملوك وسدنة بيوت النيران والنساك والزهاد وطبقات العلماء بالديانة وأنواع المهن الفلسفية على حالها وغير طبقات المغنين فرفع من كان بالطبقة الوسطى الى الطبقة العليا والطبقة الدنيئة الى الوسطى وغير المراتب على حسب اعجابه بالمطرب له منهم وأفسد ما رتبه أردشير بن بابك فى طبقات الملهين فسلك من ورد بعده من ملوكهم هذا المسلك حتى ورد كسرى أنوشروان فرد مراتب المغنين الى ما كانت عليه فى عهد أردشير بن بابك *وقد كانت ملوك الاعاجم كلها من عهد أردشير تحتجب عن الندماء وكان بين الملك وبين أول الطبقات عشرون ذراعا لان الستارة التى على الملك تكون منه على عشرة أذرع ومن الطبقة الاولى على عشرة أذرع وكان الموكل بالستارة رجلا من أبناء الاساورة يقال له خرم باش فاذا غاب هذا الرجل وكل به آخر من ابناء الاساورة وذوى التحصيل وسمى بهذا الاسم وهذا الاسم عام لمن رتب فى هذه المرتبة ووقف هذا الموقف وتفسير ذلك كن فرحا مسرورا وكان خرم باش هذا اذا جلس الملك لندمائه ومعاقريه أمر رجلا أن يرتفع على أرفع

و بين أيديهم شمعتان قد انعكس شعاعهما في اللجة وزاد في تلك البهجة فقال

كأنما الشمعتان اذ سمتا * جيد غلام محسن الغيد
وفي حشا النهر من شعاعهما * طريق نار الهوى الى كبدى

وكان معه غلام البكرى معاطيا للراح وجاريا في ميدان ذلك المراح فلما جاء عبد الجليل بما جاء وحلى للابداع الجوانب والارجاء حسده على ذلك الارتجال وقال بين البطء والاستعجال

اعجب بمنظر ليلة ليلاء * تجنى بها اللذات فوق الماء
في زورق يزهو بغرة أغيد * يختال مثل البانة الغناء
قرنت يداه الشمعتين بوجهه * كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاج تحت الماء أضوأ منهما * كالبرق يخفق في غمام سماء

*(وقال الفتح رحمه الله) دعيت يوما الى منية المنصور بن أبي عامر ببلنسية وهي منتهى الجمال ومزدهى الصبا والشمال على وهي بنائها وسكنى الحوادث برهة بفنائها فوافيتها والصبح قد ألبسها قيصه والحسن قد شرح بها عويصه وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه وتوشحت بالازر الذهبية أثوابه يخترقه جدول كالحسام المسلول وينساب فيه انسياب الايم في الطول وضفاته بالادواح محفوفة والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة وفيه يقول على بن أحمد أحد شعرائها وقد حله مع طائفة من وزرائها

قم فاسقني والرياض لابسة * وشيا من النور حاكه القطر
في مجلس كالسماء لاح به * من وجه من قد هويته بدر
والشمس قد عصفرت غلائلها * والارض تندى ثيابها الخضر
والنهر مثل المجرّ حف به * من الندامى كواكب زهر

فحللت ذلك المجلس وفيهم أحداث كأنهم الولدان وهم في عيش لدن كأنهم في جنة عدن فأنخت لديهم ركائبي وعقلتها وتقلدت بهم رغائبي واعتقلتها وأقمنا نتنعم بحسنه طول ذلك اليوم ووافى الليل فذدنا عن الجفون طروق النوم وظللنا بليلة كأن الصبح منها مقدود والاغصان تميس كأنها قدود والمجرة تتراءى نهرا والكواكب تخالها في الجو زهرا والثريا كأنها راحة تشير وعطارد لنا بالطرب يشير فلما كان من الغد وافيت الرئيس أبا عبد الرحمن زائرا فأفضنا في الحديث الى أن أفضى بنا الى ذكر متنزهنا بالامس وما لقينا فيه من الانس فقال لي ما بهجة موضع قد بان قطينه وذهب وسلب الزمان بهجته وانتهب وباد فلم يبق الا رسمه ومحاه الحدثان فما كاد يلوح وسمه عهدى به عندما فرغ من تشييده وتنوهي في تنسيقه وتنضيده وقد استدعاني اليه المنصور في وقت حلت فيه الشمس برج شرفها واكتست فيه الارض بزخرفها فحللت به والدوح تميس معاطفه والنور يخجله قاطفه والمدام تطلع به وتغرب وقد حل به قحطان ويعرب وبين يدى المنصور مائة غلام ما يزيد أحدهم على العشر غير أربع ولا يحل غير الفؤاد من مربع وهم يديرون رحيقا خلتها في كاساتها درا وعقيقا فأقمنا والشهب تغازلنا وكأن الافلاك منازلنا ووهب المنصور في

عتيرته ويغرد بصوت رفيع يسمعه كل من حضر فيقول يا لسان احفظ رأسك مكان في دار الملك فيرفع فانك تجالس في هذا اليوم الملك ثم ينزل وكان ذلك فعلهم في يوم جلوس الملك للهوه وطربه فيأخذ الندماء مراتبهم خافتة أصواتها غير مشيرة بشيء من جوارحها حتى يطلع الموكل بالستارة فيقول غن أنت يا فلان كذا وكذا واضرب أنت يا فلان كذا وكذا من طريقة كذا وكذا من طرائق الموسيقى وقد كانت الاوائل من بني أمية لا تظهر للندماء وكذلك الاوائل من خلفاء بني العباس *وكور أردشير ابن بابك كورا ومدن مدنا وله عهد في أيدى الناس ولما خلا من ملكه أربع عشرة سنة وقيل خمس عشرة سنة واستقامت له الارض ومهدها وصال على الملوك فانقادت الى طاعته زهد في الدنيا وتبين عوارها وما هي عليه من الغرور والعناء وقلة المكث وسرعة الغيلة منها الى من أمنها ووثق بها واطمأن اليها وبان له أنها غرارة ضرارة خاتلة زائلة بائدة ما عذب منها جانب لامرئ وحلا الا تمرر منها عليه جانب ورأى أن من بني قبله المدائن وحصن الحصون وساق الجموع وكان أعظم جيشا وأشد جنودا وأتم عديدا فقد صار رميما هشيما وتحت التراب مقيما فآثر التفرد عن المملكة والترك ذلك

ذلك اليوم ما يزيد على عشرين الفا من صلات متصلات وأقطع ضياعا ثم توجع لذلك العهد وافصح بما بين ضلوعه من الوجد وقال

سقيا لمنزلة اللوى وكثيبها * اذ لا أرى زمنا كاز مانى بها

انتهى

(وما أحسن ما كتب به الفتح الى بعض الملوك) يصف نزهة ببعض منتزهات الاندلس المونقة ويذكر استضافته فيها بشموس المسرة المشرقة وهو أطال الله سبحانه بقاء ناصر الدولة ومحيي الملة الذى حسن بلقياه العيش وتزين بمحياه الجيش وراق باسمه الملك وجرت بسعده الفلك وأنار به الليل الدامس ولاح له الاثر الطامس وجرى الدهر لسطوته خائفا وغدا السعد بعقوته طائفا والزمان ببرود علياه ملتحف ولثغور نداه مرتشف ولازال للمعد يتملكه والسعد يحمله فلكه أما وقد وافقتنى أيامه أيده الله سبحانه وفاقا ورأيت للبيان عنده نفاقا فلا بدّ أن أرسل كتائبه أفواجا وأفيض من بحره أمواجا وأصف ما شاهدته من اقتداره وعاينته من حسن ايراده واصداره بمقال افصح من شكوى المحزون وأملح من رياض الحزون وقد كنت أيدكم الله تعالى كلفا بالدول وبهائها لهجا بالبلوغ الى انتهائها لاجد دولة أرتضيها وحظوة علياء أقتضيها فكل ملك فاوضته سرا وجهرا وكل ملك قلبته بطنا وظهرا والنفس تصدعنه صدود الجبان عن الحرب والملائكة الكرام عن الشرب الى أن حصلت لديه ووصلت بين يديه فقلت الآن أمكن من راح البغية الانتشاء وتمثلت الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ومازلت أسايره حيث سار وآخذ اليمين تارة وتارة اليسار وكل ناحية تسفر لى عن خد روض أزهر وعذار نبت أخضر وتبسم عن ثغر حباب فى نهر كالحباب وترفل من الربيع فى ملابس سندسيات وتهدى النفوس نوافح مسكيات وتزهى بهجتها بأحسن منظر وتتيه بجلباب أينع من برد الشباب الانضر فجلنا فيها يمينا وشمالا واستخبرنا عن أسرارها صبا وشمالا ثم مال بنا أيده الله تعالى عن هذه المسارح السنية والمنازل البهية الى احدى ضياعه الحالية وبقاعه العالية فحللناها والايم قد عرى من جلبابه واليوم قد اكتهل بعد شبابه فنزلنا فى قصور يقصر عنها جعفرى جعفر وقصور بنى الاصفر تهدى من لباتها بردا محبرا وتبدى من شذاها مسكا وعنبرا وقد لاحت من جوانبها نجوم أكواس لو رآها أبونواس لجعلها شعاره ووقف على نعتها أشعاره ولم يتخذ سواها نجعة ولا نبه خماره بعد هجعة فتعاطيناها والسعد لنا خادم وما غير السرور علينا قادم وخدود سقاتها قد اكتست من سناها وقدودهم تتهيل علينا بجناها ونحن بين سكر وصحو واثبات ومحو واصاخة الى بم وزير والتفاتة الى ملك ووزير الى أن ولى النهار فحيانا وأقبل الليل المميت فاحيانا فوصلنا بلهو وقصف وعيش يتجاوز كل وصف فكأن يومنا مقيم أو كأن ليلنا من الظلام عقيم ولما سل الفجر حسامه وأبدى لعبوس الليل ابتسامه وجاء يختال اختيالا ويعوم من بقايا الليل نبالا قمنا نتداعى للمسير وكلنا فى يد النشوة أسير فسرنا والملك الاجل يقدمنا والايام تخدمنا فلا زالت الايام به زاهية وعن سواه لاهية ماعمر وكراعقاب وكان للشهور غرر وأعقاب انتهى * (وقال الفتح فى ترجمة الراضى

لها والالحاق ببيوت النيران والانفراد بعبادة الرحمن والانس بالوحدة (فغضب ابنه سابور) لمملكته وتوجه بتاجه وذلك أنه رآه أرجح ولده حلما وأكملهم علما وأشدهم باسا وأجزلهم مراسا فعاش بعد ذلك فى حال تزهده وخلوه بربه وكونه فى بيوت النيران سنة وقيل شهرا وقيل أكثر مما ذكرنا * وأقام أردشير اثنتى عشرة سنة يحارب ملوك الطوائف * فنهم من يكاتبه فينقاد الى ملكه رهبة من صولته ومنهم من يمتنع عليه فيسير الى داره ويأتى عليه وكان آخر من قتل منهم ملكا للنبط بناحية سواد العراق اسمه بابا بن برنيا صاحب قصر ابن هبيرة ثم أردوان الملك وفى هذا اليوم سمى شاهنشاه وهو ملك الملوك * وأم ساسان الاكبر من سبايا بنى اسرائيل وهى بنت سامان * ولاردشير بن بابك أخبار فى بدء ملكه مع زاهد من زهادهم وأبناء ملوكهم يقال له تنس وكان افلاطونى المذهب على رأى سقراط وافلاطون أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط مع ذكر سيره وفتوحه وما كان من أمره * ولاردشير ابن بابك كتاب يعرف بكتاب الكرنامج فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره فى الارض وسيره * وكان مما حفظ من وصية أردشير

بالله أبى خالد يزيد بن المعتمد بن عباد) بعد كلام ما صورته وأخبرنى المعتمد بالله ان أبا المعتمد وجهه يعنى الراضى الى شلب واليا وكانت ملعب شبابه ومألف أحبابه التى عمر نجودها غلاما وتذكر عهودها أحلاما وفيها يقول يخاطب ابن عمار وقد توجه اليها

الاحى أوطانى بشلب أبابكر * وسلهنّ هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراجيب من فتى * له أبدا شوق الى ذلك القصر

وقصر الشراجيب هذا متناه فى البهاء والاشراق مباه لزوراء العراق ركضت فيه جياد راحاته وأومضت بروق أمانيه فى ساحاته وجرى الدهر مطيعا بين بكره وروحاته أيام لم تحل عنه تمائمه ولا خلت من أزاهير الشباب كمائمه وكان يعتدها مشتهى آماله ومنتهى أعماله الى بهجة جنباتها وطيب نفحاتها وهباتها والتفاف خمائلها وتقلدها بنهرها مكان حمائلها وفيها يقول ابن اللبانة

أما علم المعتمد بالله اننى * بحضرته فى جنة شقها نهر
وما هو نهر أعشب النبت حوله * ولكنه سيف حمائله خضر

فلما صدر عنها وقد حسنت آثاره فى تدبيرها وانسدلت رعايته على صغيرها وكبيرها نزل المعتمد عليه مشرفا لاوبته ومعرفا بسموّ قدره لديه ورتبته وأقام يومه عنده مستريحا وجرى فى ميدان الانس بطلا مشيحا وكان واجدا على الراضى فحات الحميا أفقه ومحت غيظه عليه وحنقه وصورته له عين حنوّه وذكرته بعده فجنح الى دنوّه وبين ما استدعى وأوفى مالت بالمعتمد نشوته وأغفى وألفاه صريعا فى مبتداه طريحا فى منتهى مداه فاقام تجاهه يرتقب انتباهه وفى أثناء ذلك صنع شعرا أتقنه وجوده فلما استيقظ أنشده

الآن تعود حياة الامل * ويدنو شفاء فؤاد معل
ويورق للعز غصن ذوى * ويطلع للسعد نجم أفل
فقد وعدتنى سحاب الرضا * بوابلها حين جادت بطل
دعوت فطار بقلبى السرور * اليك وان كان منك الوجل
كما يستطير لحب الوغى * اليها وفيها الظبا والاسل
أبا ملكا أمره نافذ * فمن شا أعز ومن شا أذل
فلا غرو ان كان منك اغتفار * وان كان منا جميعا زلل
فثلك وهو الذى لم يجد * ه عاد بحلم على من جهل انتهى

(وقال فى ترجمة المتوكل على الله ابن الافطس ما صورته) واخبرنى الوزير أبو محمد بن عبدون أن الارض توالى عليها الجدب بحضرته حتى جفت مذاهبها واغبرت جوانبها وغرد المكاء فى غير روضه وخاض اليأس بالناس أعظم خوضه وابدت الخمائل عبوسها وشكت الارض للسماء بوسها فاقلع المتوكل عن الشرب واللهو ونزع ملابس الخيلاء والزهو واظهر الخشوع واكثر السجود والركوع الى ان غيم الجوّ وانسجم النوّ وصاب الغمام وترنمت الحمام وسفرت الازهار وزهت النجود والاغوار واتفق ان وصل ابو يوسف المغنى والارض قد لبست زخارفها ورقم الغمام مطارفها وتتوجت الغيطان والربا وارجت

لابنه سابور عند نصبه اياه للملك أن قال له يابنى ان الدين والملك أخوان ولا غنى لواحد منهما عن صاحبه فالدين أس الملك والملك حارسه ومالم يكن له أس فمهدوم ومالم يكن له حارس فضائع وكان مما حفظ من مكاتباته أعنى أردشير الى خواص من أنواع رعيته وعماله من أردشير بن بهمن ملك الملوك الى الكتاب الذين بهم تدبير المملكة والفقهاء الذين هم عماد الدين والاساورة الذين هم حماة الحرب والى الحراث الذين هم عمرة البلاد سلام عليكم نحن بحمد الله صالحون وقد رفعنا اتاوتنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا ورحمتنا ونحن كاتبون اليكم بوصية فاحفظوها لا تستشعروا الحقد فيكم فيدهمكم العدو ولا تحبوا الاحتكار فيشملكم القحط وكونوا لابناء السبيل مأوى ترووا غدا فى المعاد وتزوجوا فى الاقارب فانه أمس للرحم وأقرب للنسب ولا تركنوا للدنيا فانها لا تدوم لاحد ولا تهتموا لها فلم يكن الا ما شاء الله ولا ترفضوها مع ذلك فان الآخرة لا تنال الا بها * وكتب أردشير الى بعض عماله بلغنى أنك تؤثر اللين على الغلظة والمودة على الهيبة والجبن على الجراءة فليشتد أولك وليلن آخرك ولا تخلين قلبا من هيبة ولا تعطلنه من مودة ولا يبعد عليك ما أقول فانهما

نفعات

نفحات الصبا والمتوكل مافض لتوبته ختاما ولا قوّض عن قلبه منها خياما فكتب اليه

الم ابو يوسف والمطر * فياليت شعري ماينتظر
ولست بآب وانت الشهيد * حضور نديك فيمن حضر
ولامطلعي وسط تلك السما * عبين النجوم وبين القمر
وركضي فيها جياد المدا * م محثوثة بسياط الوتر

فبعث اليه مركوبا وكتب معه

بعثت اليك جناحا فطر * على خفية من عيون البشر
على فلك من نتاج البروق * وفي ظلال من نسيج الشجر
فحسبي ممن نأى من دنا * ومن غاب كان فدا من حضر

فوصل القبة المطلة على البطحاء المزرية بمنازل الروحاء فاقام منها حيث قال عدي بن زيد يصف مصنعا

في قباب حول دسكرة * حولها الزيتون قد ينعا

ومر لهم من السرور يوم مامر لذي رعين ولا تصوّر قبل عيونهم لعين وأخبرني انه سايره الى شنترين قاصية أرض الاسلام السامية الذرا والاعلام التي لا يروعها صرف ولا يقرعها طرف لانها متوعرة المراقي معفرة للراقي متمكنة الرواسي والقواعد من ضفة نهر استدار بها استدارة القلب بالساعد قد أطلت على خمائلها اطلال العروس من منصتها واقتطعت من الجوّ أكثر من حصتها فروا بانفس قطر سالت به جداوله واختالت فيه خمائله فما يجول الطرف منه الا في حديقة أو بقعة أنيقة فتلقاهم ابن مقانا قاضي حضرته وأنزلهم عنده وأورى لهم بالمبرة زنده وقدم لهم طعاما واعتقد قبوله منا وانعاما وعندما طعموا اقعد القاضي بباب المجلس رقيبا لا يبرح وعين المتوكل حياء منه لا تجول ولا تمرح فخرج أبو محمد وقد أبرمه بتثقيله وحرمه راحة رواحه ومقيله فلقي ابن خيرون منتظرا له وقد أعد لحلوله منزله فسار الى مجلس قد ابتسمت ثغور نوّاره وخجلت خدود ورده من زوّاره وأبدت صدور أباريقه أسرارها وضمت عليه المحاسن أزرارها ولما حضر له وقت الانس وحينه وأرجت له رياحينه وجه من يرقب المتوكل حتى يقوم جليسه ويزول موحشه لا أنيسه فأقام رسوله وهو بمكانه لا يريمه قد لازمه كأنه غريمه فما انفصل حتى ظنّ أن عارض الليل قد نصل فلما علم أبو محمد بانفصاله بعث الى المتوكل قطيع راح وطبق ورد وكتب معهما

اليكها فاجتلها منيرة * وقد خبا حتى الشهاب الثاقب
واقفة بالباب لم يؤذن لها * الا وقد كاد ينام الحاجب
فبعضها من المخاف جامد * وبعضها من الحياء ذائب

فتقبلها منه رحمه الله تعالى وعفا عنه وكتب اليه

قد وصلت تلك التي زففتها * بكرا وقد شابت لها ذوائب
فهب حتى نسترد ذاهبا * من انسنا ان استرد ذاهب

يتجاوران (ثم ملك بعد أردشير ابنه سابور) وكان ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وكانت له حروب مع كثير من ملوك العالم وبنى كورا ومصر مدنا نسبت اليه كما نسب من الكور والمدن الى آبائه والعرب تلقبه سابور الجنود * وفي أيامه ظهر ماني وقال بالاثنين فرجع سابور عن المجوسية الى مذهب ماني والقول بالنور والبراءة من الظلمة ثم عاد بعد ذلك الى دين المجوسية ولحق ماني بارض الهند لاسباب أوجبت ذلك قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا وكتب ملك الروم الى سابور بن أردشير أما بعد فقد بلغني من سياستك لجندك وضبطك ما تحت يدك وسلامة أهل مملكتك بتدبيرك ما أحببت أن أسلك فيه طريقتك وأركب منهاجك فكتب اليه سابور نلت ذلك بثمان خصال لم أهزل في أمر ولا نهي قط ولم أخلف وعدا ولا وعيدا قط وحاربت للغنى لا للهوى واجتلبت قلوب الناس مقة بلا كره وخوفا بلا مقت وعاقبت للذنب لا للغضب وعممت بالقوت وحسمت الفضول ويقال ان سابور كتب الى بعض عماله اذا استكتبت رجلا فأسن رزقه وشد بصالح الاعوان عضده وأطلق بالتدبير يده ففي اسناء رزقه حسم طمعه وفي تقويته بالاعوان ثقل وطأته على اهل العدوان

فركب اليه ونقل معه ما كان بالمجلس بين يديه وباتا ليلتهما لاريمان السهر ولا يشيمان برقا الا الكاس والزهر (ثم قال) بعد كلام وأخبرنى الوزير الفقيه أبو أيوب بن أبى أمية انه مرّ فى بعض أيامه بروض مفتر المباسم معطر الرياح النواسم قد صقل الربيع حوذانه وأنطق بلبله وورشانه وألحف غصونه برود الخضرة وجعل أشراقه للشمس ضرة وأزاهره تتيه على الكواكب وتختال فى خلع الغمام السواكب فارتاح الى الكون به بقية نهاره والتنعم بنفسجه وبهاره فلما حصل من أنسه فى وسط المدى عمد الى ورقة كرنب قد بللها الندى وكتب فيها بطرف غصن يستدعى الوزير أبا طالب بن غانم أحد ندمائه ونجوم سمائه

أقبل أبا طالب الينا * وقع وقوع الندى علينا
فنحن عقد بغير وسطى * مالم تكن حاضرا لدينا

(وقال فى ترجمة المعتصم بن صمادح ماصورته) وأخبرنى الوزير أبو خالد بن بشتغير انه حضر مجلسه بالصمادحية فى يوم غيم وفيه أعيان الوزراء ونبهاء الشعراء فقعد على موضع يتداخل الماء فيه ويلتوى فى نواحيه والمعتصم منشرح النفس مجتمع الانس فقال

انظر الى حسن هذا الماء فى صببه * كأنه أرقم قد جدّ فى هربه

فاستبدعوه وتمموه وأولعوه فأسكب عليهم شآبيب نداه وأعرب بما ظهر من بشره وأبداه ثم قال بعد كلام وخرج الى برجة ودلاية وهما منظران لم يجل فى مثلهما ناظر ولم تدع حسنهما الخدود النواضر غصون تثنيها الرياح ومياه لها انسياح وحدائق تهدى الارج والعرف ومنازه تبهج النفس وتمتع الطرف فأقام فيها أياما يتدرّج فى مسارحها ويتصرف فى منازهها وكانت نزهة أربت على نزهة هشام بدير الرصافة وأنافت عليها أى انافة (وقال فى ترجمة بن رزين ما ملخصه) أخبرنى الوزير أبو عامر انه اصطبح يوما والجوّ سماكى العوارف لازوردى المطارف والروض أنيقة لباته رقيقة هباته والنور مبتل والنسيم معتل ومعه قومه وقد راقهم يومه وصلاته تصافح معتفيهم ومبراته تشافه موافيهم والراح تشعشع وماء الامانى ينشع فكتب الى ابن عمار وهو ضيفه

ضمان على الايام أن أبلغ المنى * اذا كنت فى ودى مسرا ومعلنا
فلو تسأل الايام من هو مفرد * بود ابن عمار لقلت لها أنا
فان حالت الايام بينى وبينه * فكيف يطيب العيش أو يحصل المنى

فلما وصلت الرقعة اليه تأخر عن الوصول واعتذر بعذر مختل المعانى والفصول فقال أحد الحاضرين انى لأعجب من قعود ابن عمار عن هذا المضمار مع ميله الى السماع وكلفه بمثل هذا الاجتماع فقال ذو الرياستين ان الجواب تعذر فلذا اعتذر لانه يعانى قوله ويعلله ويروّيه ولا يرتجله ويقوله فى المدة الممتدة فرأى أن الوصول بلا جواب اخلال لادبه واخلال لمنازله فى الشعر ورتبه فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو

هصرت لى الآمال طيبة الجنى * وسوغتنى الاحوال مقبلة الدنى
وألبستنى النعمى أغض من الندى * وأجمل من وشى الربيع وأحسنا

وفى اطلاقه بالتدبير ما أخافه عواقب الامور ثم قفه من أمره على ماله قدمته ليمثله أماما ويحفظه كلاما فان وقع أمره بسار سمت فاوله عرضك وأوجب زيارته عليك وان حاص عن امرك علقته بحبلك واطلقت بالعفو به عليه يدك والسلام * وعهد سابور الى ولده هرمز ومن تلاه بالملك بعده فقال اجعلوا علوّا أخلاقكم كعلوّ اخطاركم وارتفاع كرمكم كارتفاع هممكم وفضل سعيكم كفضل جدكم وقيل ان ملك سابور كان احدى وثلاثين سنة ونصفا وثمانية عشر يوما (ثم ملك بعد سابور ابنه هرمز) بن سابور الملقب بالبطل وكان ملكه سنة وقيل اثنين وعشرين شهرا وبنى مدينة رام هرمز من كور الاهواز * وكتب الى بعض عماله لا يصلح لسد الثغور وقود الجيوش وابرام الامور وتدبير الاقاليم الا رجل تكاملت فيه خمس خصال حزم يتيقن به عند موارد الامور حقائق مصادرها وعلم يحجبه عن التهوّر فى المشكلات الا عند تجلى فرصتها وشجاعة لا تنقصها الملمات بتواتر جوائحها وصدق فى الوعد والوعيد يوثق بوفائه بهما وجود يهون عليه تدبير الاموال فى حقها (ثم ملك بعده بهرام بن هرمز) ثلاث سنين وكانت له حروب مع ملوك الشرق وقد ذكرنا وكم

وكم ليلة أحظيتني بحضورها * فبت سمير الاسناء والسني
أعلل نفسى بالمكارم والعلا * وأدنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما * تعاورت الاسماء غيرك والكنى
لاوسعتنى قولا وطولا كلاهما * يطوق أعناقا ويخرس ألسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى * تناثر فيها الطبع وردا وسوسنا
تروق بجيد الملك عقدا مرصعا * وتزهو على عطفيه بردا مزينا
فدم هكذا يا فارس الدست والوغى * لتطعن طورا بالكلام وبالقنا

(وأخبرنى الوزير ابن سعدون) أنه اصطبح يوما بحضرته وللرذاذ رش وللربيع على وجه الارض فرش وقد صقل الغمام الازهار حتى أذهب غشها وسقاها فاروى عطشها فكتب اليه

فديناك لا يسطيعك النظم والنثر * فانت مليك الارض واتصل الامر
مريناك الغمر فانهل صيبا * كما سكبت وطفاء أو سكب البحر
وجاء الربيع الطلق يبدى غضارة * فحيتك منه الشمس والروض والنهر

الى أن قال ثم وجه فيه الى روضة قد أرجت نفحاتها وتدبجت ساحاتها وتفتحت كمامها وأفصحت حمامها وجردت جداولها كالبواتر ورمقت أزهارها كالعيون الفواتر وأقاموا يعملون أكواسهم ويشملون ايناسهم فقال ذو الرياستين

وروض كساه الطل وشيا مجدّدا * فاضحى مقيما للنفوس ومقعدا
اذا صافحته الريح خلت غصونه * رواقص فى خضر من القضب ميدا
اذا ما انسكاب الماء عاينت خلته * وقد كسرته راحة الريح مبردا
وان سكنت عنه حسبت صفاءه * حساما صقيلا خافى المتن جرّدا
وغنت به ورق الحمائم بيننا * غناء ينسيك الغريض ومعبدا
فلا تجفون الدهر ما دام مسعدا * ومدّ الى ما قد حباك به يدا
وخذها مداما من غزال كأنه * اذا ما سقى بدر تحمل فرقدا

الى أن قال وأخبرنى الوزير ابن سنون انه كان معه فى منية العيون فى يوم مطرز الاديم ومجلس معزز النديم والانس يغازلهم من كل ثنية ويواصلهم بكل أمنية فسكر أحد الحاضرين سكرا مثل له ميدان الحرب وسهل عليه مستوعر الطعن والضرب فقلب مجلس الانس حربا وقتالا وطلب الطعن وحده والنزالا فقال ذو الرياستين

نفس الذليل تعز بالجريال * فيقاتل الاقران دون قتال
كم من جبان ذى افتخار باطل * بالراح تحسبه من الابطال

*(وقال فى ترجمة ابن طاهر ما صورته) وجئته يوما وقد وقفت بباب الحنش فقال لى من أين فأعلمته ووصفت له ما عاينته من حسنه وتأملته فقال لى كنت أخرج اليه فى أكثر الليالى مع الوزير الاجل أبى بكر يعنى ابن عبد العزيز الى روضته التى ودت الشمس أن يكون منها طلوعها وتمنى المسك أن تضم عليه ضلوعها والزمان غلام والعيش أحلام والدنيا تحية وسلام

أن بهرام اتاه مانى بن فديك تلميذ ماردون فعرض عليه مذاهب الثنوية فقتله وقتل الرؤساء من اصحابه وفى ايام مانى هذا ظهر اسم الزندقة الذى اليه اضيف الزنادقة وذلك أن الفرس حين اتاهم زرادشت بن استيمان على حسب ما قدمنا من نسبه فيما سلف من هذا الكتاب بكتابهم المعروف بالابستاه باللغة الاولى من الفارسية وعمل له التفسير وهو الزند وعمل لهذا التفسير شرحا سماه الپازند على حسب ما قدمنا وكان الزند بالتاويل غير المقدم المنزل وكان من اورد فى شريعتهم شيأ بخلاف المنزل الذى هو الابستاه وعدل الى التاويل الذى هو الزند قالوا هذا زندى فاضافوه الى التاويل وانه منحرف عن الظواهر من المنزل الى تاويل هو بخلاف التنزيل فلما ان جاءت العرب اخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا زنديق وعربوه والثنوية هم الزنادقة ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم (ثم ملك بعده بهرام بن بهرام) وكان ملكه سبع عشرة سنة وقيل غير ذلك وأقبل فى اول ملكه على القصف واللذات والصيد والنزهة لا يفكر فى ملكه ولا ينظر فى امور رعيته واقطع الضياع لخواصه ومن لا بد منه من خدمه وحاشيته فخربت الضياع وخلت من عمارها

والناس قد انتشروا في جوانبه وقعدوا على مذانبه وفي ساقيته الكبرى دولاب يئن كناقة اثر حوار أو كثكلى من حر الاوار وكل مغرم يجعل فيه ارتياحه بكرته ورواحه ويغازل عليه حبيبه ويصرف اليه تشبيبه فخرجت عليه ليلة والمتنبي الجزيري واقف وأمامه ظبي آنس تهيم به المكانس وفي أذنيه قرطان كانهما كوكبان وهو يتأود تأود غصن البان والمتنبي يقول

معشر الناس بباب الحنش * بدر تم طالع في غبش
علق القرط على مسمعه * من عليه آفة العين خشي

فلما رآني أمسك وسجع كانه تنسك *(وقال في ترجمة ابن عمار ما صورته) وتنزه بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده بنو أمية بالصفاح والعمد وجروا من اتقانه الى غاية وأمد وأبدع بناؤه ونمقت ساحته وفناؤه واتخذوه ميدان مراحهم ومضمار انشراحهم وحكوا به قصرهم بالمشرق وأطلعوه كالكوكب الثاقب المشرق فحله ابو بكر بن عمار على اثر بوسه وابتسم له دهره بعد عبوسه والدنيا قد أعطته عفوها وسقته صفوها وبات فيه مع لمة من أتباعه ومتفيئي رباعه وكلهم يحييه بكاس ويفديه بنفسه من كل باس فطابت له ليلته في مشيده وأطربه الانس ببسيطه ونشيده فقال

كل قصر بعد الدمشق يذم * فيه طاب الجنى وفاح المشم
منظر رائق وماء نمير * وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي * عنبر أشهب ومسك أحم   انتهى

وعبر صاحب البدائع عن هذه القصة بقوله تنزه ابن عمار بالدمشق بقرطبة وهو قصر شيده خلفاء بني أمية وزخرفوه ودفعوا صرف الدهر عنه ورصفوه وأجروه على ارادتهم وصرفوه وذهبوا سقفه وفضضوها ورخموا أرضه وروضوها فبات به والسعد يلحظه بطرفه والروض يحييه بعرفه فلما استنفد كافور الصباح مسك الغسق ورصع آبنوس الظلام نضار الشفق قال مرتجلا كل قصر بعد الدمشق يذم الخ انتهى *(وقال في ترجمة ذي الوزارتين أبي عيسى بن لبون) أخبرني الوزير ابو عامر بن الطويل انه كان بقصر مربيطر بالمجلس الشرقي منها والبطحاء قد لبست زخرفها ودبج الغمام مطرفها وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها وتبث طيب تنفسها والجلنار قد لبس أردية الدماء وراع أفئدة الندماء فقال

قم يانديم أدر على القرقفا * أوما ترى زهر الرياض مفوفا
فتخال محبوبا مدلا وردها * وتظن نرجسها محبا مدنفا
والجلنار دماء قتلى معرك * والياسمين حباب ماء قد طفا

الى أن قال وشرب مع الوزراء الكتاب ببطحاء لورقة في عشية تجود بدمائها ويصوب عليها دمع سمائها والبطحاء قد خلع عليها سندسها ودرها نرجسها والشمس تنفض على الربا زعفرانها والانوار تغمض أجفانها فكتب الى ابن اليسع

لو كنت تشهد ياهذا عشيتنا * والمزن تسكب أحيانا وتنحدر

وسكنوا الضياع المعمورة فقلت العمارة الا ما اقطع من الضياع وسقطت عنهم المطالبة والخراج بعمايلة الوزراء خواص الملك وكان تدبير الملك مفوضا الى وزرائه فخربت البلاد وقلت العمارة وقل ما في بيوت الاموال فضعف القوي من الجنود وهلك الضعيف منهم فلما كان في بعض الايام ركب الملك الى بعض متنزهاته وصيده فجنه الليل وهو يسير نحو المدائن وكانت ليلة قمراء فدعا بالموبذان لامر خطر بباله فلحق به وسايره وأقبل على محادثته مستخبرا له عن سير أسلافه فتوسطوا في مسيرهم خرابات كانت من أمهات الضياع قد خربت في مملكته ولا انيس بها الا البوم واذا بوم يصيح وآخر يجاوبه من بعض تلك الخرابات فقال الملك للموبذان أترى أحدا من الناس أعطى فهم منطق هذا الطير المصوت في هذا الليل الهادي فقال له الموبذان انا أيها الملك ممن قد خصه الله بفهم ذلك فاستفهمه الملك عما قال فاعلمه ان قوله صحيح فقال له فما يقول هذا الطائر وما الذي يقول الآخر قال الموبذان هذا بوم ذكر يخاطب بومة ويقول لها أمتعيني من نفسك حتى يخرج منا اولاد يسبحون الله ويبقى لنا في هذا العالم عقب يكثرون ذكرنا والترحم علينا فاجابته البومة ان الذي

والارض

والارض مصفرة بالشمس كاسية * أبصرت تبرا عليه الدر ينتثر

*(وقال فى ترجمة ذى الوزارتين أبى بكر بن رحيم ماصورته) ووصل هو وابن وضاح صهر المرتضى وابن جمال الخلافة صاحب صقالية الى احدى جنات مرسية حلوا منها فى قبة فوق جدول مطرد وتحت أدواح طيرها غرد فأقاموا يتعاطون رحيقهم ويعمرون فى المؤانسة طريقهم اذا بالجنانى قد وقف عليهم وقال كان بموضعكم بالامس صاحب الموضع ومعه شعور منشورة وخدود غير مستورة قد رفعت عنها البراقع وما منها نظرة الا ومعها سهم واقع فاستدعى فحما وكتب فى احدى زوايا القبة

قادنا ودنا اليك بجثنا * بنفوس تفديك من كل بوس

فنزلنا منازلا لبدور * وحللنا مطالعا لشموس

*(وقال فى ترجمة الوزير الكاتب أبى محمد بن عبدون ماصورته) حللت بابرة فانزلنى واليها بقصرها ومكننى من جنى الامانى وهصرها فأقمت ليلى أجر على المجرة ذيلى وتتطارد فى ميدان السرور خيلى فلما كان من الغد باكرنى الوزير أبو محمد مسلما ومن تنكبى عنه متألما ثم عطف على القائد عاتبا عليه فى كونى لديه ثم انصرف وقد أخذنى من يديه فحللت عنده فى رحب وهمت على من البر أمطار سحب فى مجلس كأن الدرارى فيه مصفوفة أو كأن الشمس اليه مزفوفة فلما حان انصرافى وكثر تنالى الى مابى واستشرافى ركب معى الى حديقة نضرة مجاورة للحضرة فانخنا عليها أيدى عيسنا ونلنا منها ماشئنا من تأنيسنا فلما امتطيت عزمى وسددت الى غرض الرحلة سهمى أنشدنى

سلام يناجى منه زهر الربا عرف * فلا سمع الا ودلو أنه أنف

حنينى الى تلك السجايا فانها * لآثار أعيان المساعى التى أقفو

ثم سرد القصيدة الى أن قال وله رحمه الله تعالى

سقاها الحيا من مغان فساح * فكم لى بها من معان فصاح

وحلى أكاليل تلك الربا * ووشى معاطيف تلك البطاح

فلم أنس لم أنس عهدى بها * وجرى فيها ذيول المراح

ونومى على حبرات الرياض * يجاذب بردى مر الرياح

ولم اعط امر النهى طاعة * ولم أصغ سمعى الى قول لاح

وليل كرجعة طرف المريب * لم ادر له شفقا من صباح

(وقال) فى ترجمة الوزير أبى محمد بن مالك بعد كلام له فيه وانشاده بيتيه البديعين اللذين هما

لاتلمنى بأن طربت لشجو * يبعث الانس فالكريم طروب

ليس شق الجيوب حقا علينا * انما الشان أن تشق القلوب

ماصورته وخرجت باشبيلية مشيعا الاحد زعماء المرابطين فالفيته معه مسايرا له فى جملة من شيعه فلما انصرفنا مال بنا الى معرس أمير المسلمين أدام الله تعالى تاييده الذى ينزله عند حلوله باشبيلية وهو موضع مستبدع كأن الحسن فيه مودع ماشئت من نهر ينساب انسياب الاراقم وروض كاوشت البرد يد راقم وزهر يحسد الملك رياه ويتمنى الصبح أن

عليك خصالا ان أنت أعطيتنيها أجبتك الى مادعوتنى اليه فقال لها الذكر وماتلك الخصال قالت أولها ان أنا ابحتك نفسى وصرت الى ماالية دعوتنى تضمن لى أن تعطينى من خرابات أمهات الضياع عشرين قرية مما قد خرب فى أيام هذا الملك السعيد فقال له الملك فما الذى قال لها الذكر قال المو بذان كان من قوله لها ان دامت أيام هذا الملك السعيد جده أعطيتك مما يخرب من الضياع ألف قرية فما تصنعين بها قالت فى اجتماعها ظهور النسل وكثرة الولد فنقطع كل واحد من أولادنا قرية من هذه الخرابات قال لها الذكر هذا أسهل أمر أردتيه وأيسر أمر طلبتيه منى وقدمت لك الوعد وأنا ملىء بذلك فهات مابعد ذلك فلما سمع الملك هذا الكلام من المو بذان عمل فى نفسه واستيقظ من نومه وفكر فيما خوطب به فنزل من ساعته وتخلا بالمو بذان فقال له أيها القيم بالدين والناصح للملك المنبه على ما أغفله من أمور ملكه وأضاعه من أمر بلاده ورعيته ماهذا

الذى خاطبتنى به فقد حركت منى ما كان ساكنا وبعثتنى على علم ما كنت عنه غائبا فقال المو بذان فصادفت من الملك السعيد

يسم به محياه فقطف غلام وسيم من غلمانه نورة ومد يده الى وهى فى كفه فعزم على أن أقول بيتا فى وصفه فقلت

وبدر بدا والطرف مطلع حسنه * وفى كفه من رائق النور كوكب

فقال أبو محمد

يروح لتعذيب النفوس ويغتدى * ويطلع فى أفق الجمال ويغرب
ويحسد منه الغصن أى مهفهف * يجىء على مثل الكثيب ويذهب

*(وقال فى ترجمة الوزير أبى القاسم بن السقاط بعد كلام كثير ما صورته) وحملنا الوزير القاضى أبو الحسن بن أضحى الى احدى ضياعه بخارج غرناطة ومعنا الوزير أبو محمد بن مالك وجماعة من اعيان تلك الممالك فحللنا بضيعة لم يخت المحل أثلها ولم ترمق العيون مثلها وجلنا بها فى اكناف جنات ألفاف فاشئت من دوحة لفاء وغصن يميس كعطفى هيفاء وماء ينساب فى جداوله ونهر يضمخ بالمسك راحة متناوله ولما قضينا من تلك الحدائق أربا واقتضضنا منها أترابا عربا ملنا الى موضع المقيل ونزلنا بعنازه تزرى بعنازه جذيمة مع مالك وعقيل وعند وصولنا بدا الى من أحد الاصحاب تقصير فى المبرة عرض لى منه تكدير لتلك العين الثرة فأظهرت التثاقل أكثر ذلك اليوم ثم عدلت عنهم الى الاضطجاع والنوم فاستيقظت الا والسماء قد نسخ صحوها وغيم جوها والغمام منهمل والثرى من سقياه ثمل فبسطنى بتحفيه وأبهجنى ببر لم يزل يتممه ويوفيه وأنشدنى

يوم تجهم فيه الافق وانتثرت * مدامع الغيث فى خد الثرى هملا
رأى وجومك فارتدت طلاقته * مضاهيا لك فى الاخلاق ممتثلا

*(وقال فى ترجمة الوزير القاضى أبى الحسن بن أضحى ما نصه) وكان لصاحب البلد الذى كان يتولى القضاء به ابن من أحسن الناس صورة وكانت محاسن الافعال والاقوال عليه مقصورة مع ما شئت من لسن وصوت حسن وعفاف واختلاط بالبهاء والتفاف فحملنا الى احدى ضياعه بقرب من حضرة غرناطة فحللنا قرية على ضفة نهر احسن من سادمهر تشقها جداول كالصلال ولا ترمقها الشمس من تكاثف الظلال ومعنا جملة من أعيانها فأحضر نامن أنواع الطعام وأرانا من فرط الاكرام والانعام ما لا يطاق ولا يحد ويقصر عن بعضه العد وفى أثناء مقامنا بدا الى من ذلك الفتى المذكور ما أنكرته فقابلته بكلام اعتقده وملام أحقده فلما كان من الغد لقيت منه اجتنابه ولم أر منه ما عهدته من الانابة فكتبت اليه مداعبا فراجعنى بهذه القطعة

أتتنى أبا نصر نتيجة خاطر * سريع كرجع الطرف فى الخطرات
فأعربت عن وجد كمين طويته * بأهيف طاو فاتر اللحظات
غزال أحم المقلتين عرفته * بخيف منى للحسن أو عرفات
رماك فأصمى والقلوب رمية * لكل كحيل الطرف ذى فتكات
وظن بأن القلب منك محصب * فلباك من عينيه بالجمرات
تقرب بالنساك فى كل منسك * وضحى غداة النحر بالمهجات

حده وقت سعد للعباد والبلاد فجعلت الكلام مثلا وموقظا على لسان الطائر عند طلب الملك منى جواب ما سأل ثم قال له الملك أيها الناصح اكشف لى عن هذا الغرض الذى اليه رميت والمعنى الذى له قصدت ما المراد منه والى ماذا يؤول قال الموبذان أيها الملك السعيد جده ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعله قيما وهو الملك قال الملك أما ما وصفت فحق فأبن لى عما تقصد وأوضح لى فى البيان قال الموبذان نعم أيها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن يؤخذ منهم الاموال فاقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة وغيرهم فعمدوا الى ما تعجل من غلاتها واستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف على من بقى من أرباب الخراج وعمار الضياع فانجلوا عن ضياعهم ورحلوا عن ديارهم وأووا الى ما تعزز من الضياع وكانت

وكانت له جيان مثوى فأصبحت * ضلوعك مثواه بكل فلاة
يعز علينا أن تهيم فتنطوى * كئيبا على الاشجان والزفرات
فلو قبلت للناس فى الحب فدية * فديناك بالاموال والبشرات

*(وقال فى ترجمة اديب الاندلس وشاعرها أبى اسحق بن خفاجة بعد كلام ماصورته) وقال يندب معاهد الشباب ويتفجع لوفاة الاخوان والاحباب بعقب سيل أعاد الديار آثارا وقضى عليها وهيا وانتشارا

ألا عرض الاخوان فى ساحة البلى * ومارفعوا غير القبور قبابا
فدمع كماسح الغمام ولوعة * كما اضرمت ريح الشمال شهابا
اذا استوقفتنى فى الديار عشية * تلذذت فيها جيئة وذهابا
أكر بطرفى فى معاهد فتية * ثكلتهم بيض الوجوه شبابا
فطال وقوفى بين وجد وفرقة * أنادى رسوما لا تحير جوابا
وأمحو جميل الصبر طورا بعبرة * أخط بها فى صفحتى كتابا
وقد درست أجسامهم وديارهم * فلم أر الا أعظما ويبابا
وحسبى شجوا أن أرى الدار بلقعا * خلاء وأشلاء الصديق ترابا

ولقد أحلنى بهذه الديار المندوبة وهى كعهدها فى جودة مبناها وعودة سناها فى ليلة اكتحلنا ظلامها اثمدا ومحونا بها من نفوسنا كمدا ولم يزل ذلك الانس يبسطه والسر وينشطه حتى نشر لى ماطواه وبث مكتوم لوعته وجواه وأعلمنى بلياليه فيها مع اترابه وماقضى بها من أطرابه انتهى ماوقع عليه اختيارى من كلام أبى نصر الفتح بن عبيد الله رحمه الله تعالى فى وصف بعض منتزهات الاندلس البديعة ورياضها المونقة المريعة وما أحسن رسالة له مختصرة كتبها مهنئا بعض ملوك الاندلس بما منحه الله تعالى من التمكين الذى أيده به ونصره وقد جوّد أوصافه واستطرد منها الى ذكر الناصر وولده الحكم اللذين عمرا الزهراء والرصافة ونصها أدام الله تعالى أيام الامير للارض يملكها ويستدير بسعده فلكها وقد استبشر الملك أيدك الله وحق له الاستبشار فقد أومأ اليه السعد وأشار بما اتفق له من توليتك وخفق عليه من ألويتك فلقد حى منك بملك أمضى من السهم المسدد طويل نجاد السيف رحب المقلد يتقدم حيث يتأخر الذابل ويتكرم اذا بخل الوابل ويحمى الحمى كربيعة بن مكدم ويسقى الظبا نجيعا كلون العندم فهنيئا للاندلس فقد استردت عهد خلفائها واستجدت رسوم تلك الامامة بعد عفائها فكأن لم تمت أعاصرها ولم يمت حكمها ولا ناصرها اللذان عمرا الرصافة والزهرا ونكحا عقائل الروم وما بذلا غير المشرفية مهرا والله سبحانه أسأله اظهار أيامك وبه أرجو انتشار أعلامك حتى يكون عصرك أجل من عصرهم ونصرك أغرب من نصرهم بمنه وكرمه ويمنه *(وقال رحمه الله تعالى فى ترجمة الفقيه القاضى الحافظ أبى محمد عبد الحق بن عطية صاحب التفسير الشهير بعد كلام كثير ماصورته) ومررنا فى احدى نزهتنا بمكان مقفر وعن المحاسن مسفر وفيه بكير نرجس كأنه عيون مراض يسيل وسطه ماء رضراض بحيث لاحس الا للهام ولا أنس الا مايعرض للاوهام فقال

بأربابه فسكنوه فقلت العمارة وخربت الضياع وقلت الاموال فهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من أطاف بها من الملوك والامم لعلمهم بانقطاع المواد التى بها تستقيم دعائم الملك فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذان أقام فى موضعه ذلك ثلاثا وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين وأحضرت الجرائد فانتزعت الضياع من أيدى الخاصة والحاشية وردت الى أربابها وجروا على رسومهم السالفة وأخذوا فى العمارة وقوى من ضعف منهم فعمرت الارض وأخصبت البلاد وكثرت الاموال عند جباية الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك يباشر الامر بنفسه فى كل وقت من الزمان وينظر فى أمر خواصه وعوامه فحسنت أيامه وانتظم ملكه حتى كانت تدعى أيامه أعيادا لما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل (ثم ملك بعده بهرام ابن الملك ابن بهرام أربع سنين وأربعة أشهر (ثم ملك بعده نرسى بن بهرام) على ماذكرنا من النسب وكان الملك يدعى البطل وكان ملكه سبع سنين ونصفا (ثم ملك بعده هرمز) بن نرسى بن بهرام على ماذكرنا من النسب وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى

نرجس باكرت فيه روضة * لذقطع الدهر فيها وعذب
حثت الريح بها خمرحيا * رقص النبت لها ثم شرب
فغدا يفرعن وجنته * نوره الغض ويهتز طرب
خلت لمع الشمس فى مشرفه * لهبا يخمد منه فى لهب
وبياض الطل فى صفرته * نقط الفضة فى خط الذهب

انتهى وسيأتى ان شاء الله تعالى كثير من وصف بلاد الاندلس ومنتزهاتها وما اشتملت عليه من المحاسن فى كلام غير واحد ممن يجرى ذكره فى هذا الكتاب وخصوصا أديب زمانه غير مدافع من اعترف له أهل الشرق بالسبق وأهل المغرب بالابداع المغرب النور أبو الحسن على ابن سعيد العنسى فانه لما اتصل بمصر ودخلها اشتاق الى تلك المواطن الاندلسية الرائقة ووصفها بالقصائد والمقطوعات الفائقة وقد أسلفنا أيضا فيما مر من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بمحاسن الاندلس فليراجع فى محله من هذا الكتاب قلت وماذا عسى أن نذكر من محاسن قرطبة الزاهرة والزهرا ونصف من محاسن الاندلس التى تبصر بكل موضع منها ظلالا ضافيا ونهرا وزهرا ويرحم الله تعالى اديبها المشهور الذى اعترف له بالسبق الخاصة والجمهور أبا اسحق بن خفاجة اذ قال

يا أهل أندلس لله دركم * ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا فى دياركم * ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا * فليس تدخل بعد الجنة النار

ويروى مكان قوله ولو تخيرت هذا كنت أختار ما مثاله وهذه كنت لو خيرت اختار ومكان لا تختشوا لا تحسبوا وكذا رأيت بخط الحافظ الشمنى والاول رأيته بخط العلامة الوانشريسى رحمهما الله تعالى * وحكى ان الخليل لما قدم من الاندلس رسولا الى سلطان المغرب أبى عنان فارس ابن السلطان أبى الحسن المرينى أنشد بحضرة السلطان المذكور أبيات ابن خفاجة هذه كالمفتخر ببلاد الاندلس فقال السلطان أبو عنان كذب هذا الشاعر يشير الى كونه جعلها جنة الخلد وأنه لو خير لاختارها على ما فى الآخرة وهذا خروج من ربقة الدين ولا أقل من الكذب والاغراق وان جرت عادة الشعراء بذلك الاطلاق فقال الخليل يا مولانا بل صدق الشاعر لانها موطن جهاد ومقارعة للعدو وجلاد والنبى صلى الله عليه وسلم الرؤف الودود الرحيم العطوف يقول الجنة تحت ظلال السيوف فاستحسن منه هذا الكلام ودفع عن قائل الابيات الملام وأجزل صلته ورفع منزلته ولعمرى ان هذا الجواب لجدير بالصواب وهكذا ينبغى ان تكون رسل الملوك فى الافتنان روّح الله تعالى أرواح الجميع فى الجنان وأبو اسحق بن خفاجة كان أوحد الناس فى وصف الانهار والازهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين وقد سبق بعض كلامه ويأتى أيضا منه بعض فى أثناء الكتاب ومن ذلك قوله

وكمامة حدر الصباح قناعها * عن صفحة تندى من الازهار
فى أبطح رضعت ثغور اقاحه * أخلاف كل غمامة مدرار

عن عمر كسرى أن كل من ذكرنا من ملوك ساسان الى هذا الملك وهو هرمز بن نرسى كانوا ينزلون جند يسابور من بلاد خوزستان وقد كان يعقوب ابن الليث الصفار سكن جنديسابور متشبها بمن مضى من ملوك ساسان الى أن مات بها وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار المعتمد حين سكناه اياها ووفاته فيها (ثم ملك بعد هرمز بن نرسى ابنه سابور بن هرمز) وهو سابور ذو الاكتاف وكان ملكه الى أن هلك اثنتين وسبعين سنة وخلفه والده حملا فغلبت العرب على سواد العراق وقام الوزراء بأمر التدبير وكانت جمرة العرب ممن غلب على العراق ولد اياد بن نزار وكان يقال لها طبق لاطباقها على البلاد وملكها يومئذ الحرث بن الاغر الايادى فلما بلغ سابور من السن ست عشرة سنة أعد أساورته بالخروج اليهم والايقاع بهم وكانت اياد تصيف بالجزيرة وتشتو بالعراق وكان فى حبس سابور رجل منهم يقال له لقيط فكتب الى اياد شعرا ينذرهم به ويعلمهم خبر من يقصدهم وهو

سلام فى الصحيفة من لقيط * على من فى الجزيرة من اياد
بان الليث يأتيكم دلاقا * فلا يحبسنكم شوك القتاد
أتاكم منهم سبعون ألفا * يجرون الكتائب كالجراد
على خيل ستأتيكم فهذا *

نثرت

نثرت بحجر الارض فيه يد الصبا * درر الندى ودراهم النوار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت * حلى الحباب سوالف الانهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك * جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لمم الربا * والطل ينضح أوجه الاشجار
متقسم الالحاظ بين محاسن * من ردف رابية وخصر قرار
واراكة سجع الهديل بفرعها * والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له أعطافها ولربما * خلعت عليه ملاءة الانوار

وقوله

سقيا ليوم قد أنخت بسرحة * ريا تلاعبها الرياح فتلعب
سكرى يغنيها الحمام فتنثني * طربا ويسقيها الغمام فتشرب
يلهو فترفع للشبيبة راية * فيه ويطلع للبهارة كوكب
والروض وجه أزهر والظل فر * ع أسود والماء ثغر أشنب
في حيث أطربنا الحمام عشية * فشدا يغنينا الحمام المطرب
واهتز عطف الغصن من طرب بنا * وافتر عن ثغر الهلال المغرب
فكأنه والحسن مقترن به * طوق على برد الغمامة مذهب
في فتية تسري فينصدع الدجى * عنها وتنزل بالجديب فيخصب
كرموا فلا غيث السماحة مخلف * يوما ولا برق اللطافة خلب
من كل أزهر للنعيم بوجهه * ماء يرقرقه الشباب فيسكب

وقال يمدح الامير أبا يحيى بن ابراهيم

سمح الخيال على النوى بمزار * والصبح يمسح عن جبين نهار
فرفعت من ناري لضيف طارق * يعشو اليها من خيال طاري
ركب الدجى أحسن به من مركب * وطوى السرى أحسن به من ساري
وأناخ حيث دموع عيني منهل * يروي وحيث حشاي موقد نار
وسقى فأروى غلة من ناهل * أو رى بجانحتيه زند أوار
يلوي الضلوع من الولوع لخطرة * من شيم برق أو شميم عرار
والليل قد نضح الندى سرباله * فانهل دمع الطل فوق صدار
مترقب وسل الرياح عشية * بمساقط الانواء والانوار
ومجرر ذيل غمامة لبست به * وشي الحباب معاطف الانهار
خفقت ظلال الايك فيه ذوائبا * وارتج ردفا مائل التيار
ولوى القضيب هناك جيدا اتلعا * قد قبلته مباسم النوار
باكرته والغيم قطعة عنبر * مشبوبة والبرق لفحة نار
والريح تطلع فيه أرداف الربا * لعبا وتلثم أوجه الازهار
ومنابر الاشجار قد قامت بها * خطباء مفصحة من الاطيار

أوان هلاككم كهلاك عاد فلم يعبؤا بكتابه وسراياه تكر نحو العراق وتغير على السواد فلما تجهز القوم نحوهم أعاد اليهم كتابا يخبرهم أن القوم قد عسكروا وتحشدوا لهم وأنهم سائرون اليهم وكتب اليهم شعرا أوله

يادار عبلة من تذكارها الجزعا * هيجت لي الهم والاحزان والوجعا
أبلغ ايادا وحلل في سراتهم * أني أرى الرأي ان لم أعص قد نصعا
الا تخافون قوما لا أبا لكم * مشوا اليكم كامثال الدبى سرعا
لو ان جمعهم رام وابهدتهم * شم الشماريخ من ثهلان لانصدعا
فقلدوا أمركم لله دركم * رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

فأوقع بهم فعمهم القتل فما أفلت منهم الا نفر لحقوا بارض الروم وخلع بعد ذلك أكتاف العرب فسمي بعد ذلك سابور ذا الاكتاف وقد كان معاوية بن أبي سفيان راسل من بالعراق من تميم ليثبوا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فبلغ ذلك عليا رضوان الله عليه فقال في بعض مقاماته في كلام له طويل

ان خبا يرى الصلاح فسادا * أو يرى الغي في الامور رشادا
لقريب من الهلاك كما أهلك سابور بالسواد ايادا

وقد كان سابور في مسيره

في فتية جنبوا الهجاجة ليلة * ولربما سفروا عن الاقمار
ثار القتام بهم دخانا وارتمى * زند الحفيظة منهم بشرار
شاهدت من هيآتهم وهباتهم * اشراف أطواد وفيض بحار
من كل منتقب بوردة خجلة * كرما ومشتمل بثوب وقار
في عمة خلعت عليه لمة * وذؤابة قرنت بها لعذار
ضافي رداء المجد طماح العلا * طامي عباب الجود رحب الدار
جرار أذيال المعالي والقنا * حامي الحقيقة والحمى والجار
طرد القنيص بكل قيد طريدة * زجل الجناح مورد الاظفار
ملتفة أعطافه بحبيرة * مكحولة أجفانه بنضار
يرمى به الامل القصى فينثني * مخضوب درء الظفر والمنقار
وبكل نائي الشوط أشدق اخزر * طاوي الحشى حالي المقلد ضاري
يفتر عن مثل النصال وانما * يمشي على مثل القنا الخطار
مستقريا أثر القميص على الصفا * والليل مشتمل بشملة قار
من كل مسود تلهب طرفه * ترميك فحمته بشعلة نار
ومورس السربال يخلع نده * عن نجم رجم في سماء غبار
يستن في سطر الطريق وقد عفا * قدما فتقرأ أحرف الآثار
عطف الضمور سراته فكأنه * والنقع يحجبه هلال سرار
ولرب رواع هنالك أنبط * خلق المسامع أطلس الاطمار
يجري على حذر فيجمع بسطه * يهوي فينعطف انعطاف سوار
ممتد حبل الشأو يعسل رائعا * فيكاد يفلت أيدي الاقدار
متردد يرمى به جوف الردى * كرة تهادتها أكف قفار
ولرب طيار خفيف قد جرى * بشلا بحار خلفه طيار
من كل قاصرة الخطا مختالة * مشي الفتاة تجر فضل ازار
مخضوبة المنقار تحسب أنها * كرعت على ظما بكاس عقار
ولو استعارت منهما يحمى أبي * يحيى لامنها أعز جوار
خدم القضاء مراده فكأنما * ملكت يداه أعنة الأقدار
وعنى الزمان لامره فكأنما * اصغى الزمان به الى أمّار
وجلا الامارة في رفيق نضارة * جلت الدجى في حلة الانوار
في حيث وشح لبة بقلادة * منها وحلى معصما بسوار
جذلان يملأ منحه وبشاشه * أيدي العفاة وأعين الزوار
أرج الندى بذكره فكأنه * متنفس عن روضة معطار
بطل حوى الفلك المحيط بسرجه * واستل صارمه يد المقدار
بيمينه يوم الوغى وشماله * ماشاء من نار ومن اعصار

في البلاد أتى على بلاد البحرين وفيها يومئذ بنو تميم فامعن في قتلهم وفرّت بنو تميم وشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مر وله يومئذ ثلثمائة سنة وكان يعلق في عمود البيت في قفة قد اتخذت له فارادوا حمله فابى عليهم الا أن يتركوه في ديارهم وقال أنا هالك اليوم أو غدا وماذا بقي لي من فسحة العمر ولعل الله ينجيكم من صولة هذا الملك المسلط على العرب فخلوا عنه وتركوه على ما كان عليه فصبحت خيل سابور الديار فنظروا الى أهلها وقد ارتحلوا ونظروا الى قفة معلقة في شجرة وسمع عمرو صهيل الخيل ووقعها وهمهمة الرجال فاقبل يصيح بصوت ضعيف فاخذوه وجاؤا به الى سابور فلما وضع بين يديه نظر الى دلائل الهرم ومرور الايام عليه ظاهرة فقال له سابور من أنت أيها الشيخ الفاني قال أنا عمرو بن تميم ابن مر وقد بلغت من العمر ماترى وقد هرب الناس منك لاسرافك في القتل وشدّة عقوبتك اياهم وآثرت الفناء على يديك لتبقى من مضى من قومي ولعل الله ملك السموات والارض يجري على يديك فرجهم ويصرفك عما أنت بسبيله من قتلهم وأنا سائلك عن أمر ان انت اذنت لي فيه فقال له سابور قل يسمع منك فقال له عمرو ما الذي يحملك على

والشمس

والشمس خمر والجياد عرائس * والجو كاس والسيوف عواري
والخيل تعثر فى شباشك القنا * قصدا وتسبح فى الدم المـوّار
والبيض تجنى فى الطلى فكانما * تلوى عرامنها على أزرار
والنقع يكسر من سنى شمس الضحى * فكأنه صدأ على دينار
صحب الحسام النصر صحبة غبطة * فى كف صوال به سوار
لو أنه أومى اليه بنظرة * يوما لثار ولم ينم عن ثار
وقضى وقد ملكته هزة عزة * تحت العجاج وضحكة استبشار

وقال رحمه الله تعالى

وأراكة ضربت سماء فوقنا * تندى وأفلاك الكؤوس تدار
حفت بدوحتها مجرة جدول * نثرت عليه نجومها الازهار
وكانها وكأن جدول مائها * حسناء شد بخصرها زنار
زف الزجاج بها عروس مدامة * تجلى ونوار الغصون نثار
فى روضة جنح الدجى ظل بها * وتجسمت نورا بها الانوار
غناء ينشر وشيه البزازلى * فيها ويفتق مسكه العطار
قام الغناء بها وقد نضح الندى * وجه الثرى واستيقظ النوّار
والماء فى حلى الحياء مقلد * زرت عليه جيوبها الاشجار

وقال ملتزما ما لا يلزم

خذها اليك وانها لنظيرة * طرأت اليك قليلة النظراء
جاءت وحسبك بهجة من نفحة * عبق العروس وخجلة العذراء
من كل وارسة القميص كانما * نشأت تعل بريقة الصفراء
نجمت بروق بها نجوما حسنها * بالايكة الخضراء من خضراء
وأتتك تسفر عن وجوه طلقة * وتنوب من لطف عن الشعراء
يندى بها وجه الندى ولربما * بسطت هنالك أوجه السراء
فاستضحكت وجه الدجى مقطوعة * جلت جمال الغرة الغراء

وقال أيضا

وصدر ناد نظمنا * له القوافى عقدا
فى منزل قد سحبنا * بظله العز بردا
تذكو به الشهب جمرا * ويعبق الليل ندا
وقد تأرج نور * غض يخالط وردا
كما تنفس ثغر * عذب يقبل خدا

وقال من قصيدة يصف منتزها

يارب وضاح الجبين كانما * رسم العذار بصفحتيه كتاب
تغرى بطلعته العيون مهابة * وتبيت تعشق عقله الالباب

قتل رعيتك ورجال العرب فقال سابور أقتلهم لما ارتكبوا من أخذ بلادى وأهل مملكتى فقال عمرو فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم فلما بلغت بقوا على ما كانوا عليه من الفساد هيبة قال سابور أقتلهم لانا ملوك الفرس نجد فى مخزون علمنا وما سلف من أخبار أوائلنا أن العرب ستدال علينا وتكون لهم الغلبة على مالكنا فقال عمرو وهذا أمر تحققه أو تظنه قال بل أتحققه لابد يكون ذلك قال له عمرو فان كنت تعلم ذلك فلم تسىء الى العرب والله لئن تبق على العرب جميعا وتحسن اليهم ليكافؤنك عند ادالة الدولة لهم على قومك باحسانك وان أنت طالت بك المدة كافؤك عند مصير الملك اليهم فيبقون عليك وعلى قومك ان كان الامر كما تقول فهو احزم فى الرأى وانفع فى العاقبة وان كان باطلا فلم تستعجل الاثم وتسفك دماء رعيتك فقال سابور الامر صحيح وهو كائن لكم والرأى ما قلت ولقد صدقت فى القول ونصحت فى الخطاب فنادى منادى سابور بأمان الناس ورفع السيف والكف عن قتلهم ويقال ان عمرا بقى فى هذا العالم بعد هذا الوقت ثمانين سنة وقيل أقل من ذلك والله أعلم وسار سابور نحو بلاد الشام فافتتح المدن وقتل خلائق من الروم ثم طالبته نفسه

خلعت عليه من الصباح غلالة * تندى ومن شفق السماء نقاب
فكرعت من ماء الصبا في منهل * قد شف عنه من القميص سراب
في حيث للريح الرخاء تنفس * أرج وللماء الفرات عباب
ولرب غض الجسم مد بحوضه * سبحا كما شق السماء شهاب
ولقد أنخت بشاطئيه يهزني * طربا شباب راقني وشراب
وبكيت دجلته يضاحكني بها * مرحا حبيب شاقني وحباب
تجلى من الدنيا عروس بيننا * حسناء ترشف والمدام رضاب
ثم ارتحلت وللنهار ذؤابة * شيباء تخضب والنهار خضاب
تلوي معاطفي الصبابة والصبا * والليل دون الكاشحين حجاب

وقال

مر بنا وهو بدر تم * يسحب من ذيله سحابا
بقامة تنثني قضيبا * وغرة تلتظي شهابا
يقرأ والليل مدلهم * لنور اجلائه كتابا
ورب ليل سهرت فيه * أزجر من جفنه نكابا
حتى اذا الليل مال سكرا * وشق سربا له وجابا
وحام من سدفه غراب * طالت به سنه فشابا
ازددت من لوعتي خبالا * فخشمن غلاتي شرابا
وما خطا قادما فوافى * حتى انثنى ناكصا فآبا
وبين جفني بحر شوق * يعب في وجنتي عبابا
قد شب في وجهه شعاع * وشب عن قلبي التهابا
وروضة طلقة حياء * غناء مخضرة جنابا
يحاب عن نورها كمام * يحط عن وجهه نقابا
بات بها مدسم الاقاحي * يرشف من طلها رضابا
ومن خفوق البروق فيها * ألوية حمرت خضابا
كأنها أنمل وراد * تحصر قطر الحيا حسابا

وله

رحلت عنكم ولي فؤاد * تنفض اضلاعه حنينا
أجود فيكم بعلق دمع * كنت به قبلكم ضنينا
يثور في وجنتي جيشا * وكان في جفنه كمينا
كأني بعدكم شمال * قد فارقت منكم يمينا

وقال

فيا شجا قلب من الصبر فارغ * ويا القذى طرف من الدمع ملآن
ونفس الى جو الكنيسة صبة * وقلب الى أفق الجزيرة حنان

بالدخول الى أرض الروم متنكرا ليعرف أخبارهم وسيرهم فتنكر وسار الى القسطنطينية فصادف ولمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام منهم فدخل في جملتهم وجلس على موائدهم وقد كان قيصر أمر مصورا أتى عسكر سابور فصوره له فلما جاء قيصر بالصورة أمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب والفضة وأتاه من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس فنظر بعض الخدم الى الصورة التي على الكأس وسابور مقابل على المائدة فعجب من اتفاق الصورتين وتقارب الشكلين فقام الى الملك فاخبره فامر به فمثل بين يديه فساله عن خبره فقال أنا من أساورة سابور استحقيت العقوبة لامر كان مني فدعاني ذلك الى الدخول الى أرضكم فلم يقبل ذلك منه وقدم الى السيف فاقر فجعله في جلد بقرة وسار قيصر في جنوده حتى توسط العراق وافتتح المدائن وشن الغارات وعضد النخل وانتهى الى مدينة جنديسابور وقد تحصن بها وجوه فارس فنزل عليها وحضر عيدلهم في تلك الليلة التي أشرفوا على فتح المدينة في صبيحتها فاغفل الموكلون أمر سابور واخذ الشراب منهم وكان بالقرب من سابور جماعة من أسارى الفرس فخاطبهم ان يحل بعضهم بعضا

تعوضت

تعوضت من واها بآه ومن هوى * بهون ومن اخوان صدق بخوان
وما كل بيضاء بروق بشحمة * وما كل مرعى ترتعيه بسعدان
فياليت شعرى هل لدهرى عطفة * فتجمع أوطارى على وأوطانى
ميادين أوطارى ولذة لذتى * ومنشأ تهيامى وملعب غزلانى
كأن لم يصلنى فيه ظبى يقوم لى * لماه وصدغاه براحى وريحانى
فسقيا لواديهم وان كنت انما * أبيت لذكراه بغلة ظمآن
فكم يوم لهو قد أدرنا بأفقه * نجوم كؤس بين أقمار ندمان
وللقضب والاطيار ملهى بجرعة * فماشئت من رقص على رجع ألحان
وبالحضرة الغراء غر علقته * فأحببت حبا فيه قضبان نعمان
رقيق الحواشى فى محاسن وجهه * ومنطقه مسلى قلوب وآذان
اغار لخديه على الورد كلما * بدا ولعطفيه على أغصن البان
وهبنى أجنى ورد خدّ بناظرى * فمن أين لى منه بتفاح لبنان
يعللنى منه بموعد رشفة * خيال له يغرى بمطل وليان
حبيب عليه لجة من صوارم * علاها حباب من أسنة مران
تراءى لنا فى مثل صورة يوسف * تراءى لنا فى مثل ملك سليمان
طوى برده منها صحيفة فتنة * قرأنا لها من وجهه سطر عنوان
محبته دينى ومثواه كعبتى * ورؤيته حجى وذكراه قرآنى

وقال

وليل تعاطينا المدام وبيننا * حديث كما هب النسيم على الورد
نعاوده والكاس يعبق نفحه * وأطيب منها ما نعيد وما نبدى
ونقلى اقاح الثغر أو سوسن الطلى * ونرجسة الاجفان أو وردة الخد
الى أن سرت فى جسمه الكاس والكرى * ومالا بعطفيه فمال على عضدى
فأقبلت استهدى لما بين اضلعى * من الحر ما بين الضلوع من البرد
وعاينته قد سل من وشى برده * فعاينت منه السيف سل من الغمد
ليان مجس واستقامة قامة * وهزة أعطاف ورونق افرند
أغازل منه الغصن فى مغرس النقا * وألثم وجه الشمس فى مطلع السعد
فان لم يكنها أو تكنه فانه * أخوها كما قد الشراك من الجلد
تسافر كلتا راحتى بجسمه * فطورا الى خصر وطورا الى نهد
فتهبط من كشحيه كفى تهامة * وتصعد من نهديه أخرى الى نجد

وقال أيضا

ورداء ليل بات فيه معانقى * طيف ألم بظبية الوعساء
فجمعت بين رضابه وشرابه * وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة * شفقا هنالك لوجنة حمراء

وشجعهم وامرهم أن يصبوا عليه زقاقا من الزيت كانت هنالك ففعلوا فلان عليه الجلد وتخلص وأتى المدينة وهم يتحارشون على سورها فخاطبهم فعرفوه ورفعوه بالحبال ففتح أبواب خزائن السلاح وخرج بهم ففرقهم حول مواضع من الجيش والروم غارون مطمئنون فكبس الجيش عند ضرب النواقيس فاتوه بقيصر اسيرا فاستحياه وابقى عليه وضم اليه من افلت من القتل من رجاله فغرس قيصر بالعراق الزيتون بدلا مما عضده من النخل فيها ولم يكن يعهد بالعراق الزيتون قبل ذلك وبنى شاذروان مدينة تستر لنهرها والشاذروان هو المسناة العظيمة والسكر من الحجر والحديد والرصاص وغير ما اخبر فى اخبار يطول ذكرها وانصرف قيصر نحو الروم وقد ذكر فى بعض الاخبار ان سابور ربق قيصر وقطع اعصاب عقبيه اورقها وان الروم تربق دوابها ولا تلبس الخفاف المعقبة وفى ذلك يقول الحرث بن جندة المعروف بالهرمزان شعرا

هم ملكوا جميع الناس طرا * وهم ربقوا هرقلا بالسواد
وهم قتلوا اباقا بوس عصبا * وهم اخذوا البسيطة من اياد

وفى فعل سابور وتغريره بنفسه فى دخوله الى ارض

والليل مشمط الذوائب كبرة * خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم انثني والصبح يسحب فرعه * ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه اقحوانة أجرع * قد غازلتها الشمس غب سماء
وتميس في اثوابه ريحانة * كرعت على ظما بجدول ماء
تفاحة الانفاس الا انها * حذر الندى خفاقة الافياء
فلويت معطفها اعتناقا حسبنا * فيه بقطر الدمع من انواء

انتهى * (وكان المعتمد بن عباد رحمه الله تعالى) * كثيرا ما ينتاب وادى الطلح مع زملته وأولى أنسه ومسرته وهو واد بشرق اشبيلية ملتف الاشجار كثير ترنم الاطيار وفيه يقول نور الدين بن سعيد

سائل بوادى الطلح ريح الصبا * هل سحرت لى من زمان الصبا
كانت رسولا فيه ما بيننا * لن نأمن الرسل ولن نكتبا
ياقاتل الله اناسا اذا * ما استؤمنوا خانوا فيا عجبا
هلا رعوا أنا وثقنا بهم * وما اتخذنا غيرهم مذهبا
ياقاتل الله الذى لم يتب * من غدرهم من بعد ما جربا
واليم لا يعرف ما طعمه * الا الذى وافى لأن يشربا
دعنى من ذكر الوشاة الالى * لما يزل فكرى بهم ملهبا
واذكر بوادى الطلح عهدا لنا * لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الاغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين ألحانها * وليس الا معجبا مطربا
وخاننى من لا أسميه من * شح أخاف الدهر أن يسلبا
قد أترع الكاس وحيا بها * وقلت أهلا بالمنى مرحبا
أهلا وسهلا بالذى شئته * يابدر تم مهد الكوكبا
لكننى آليت أسقى بها * أو تودعها ثغرك الاشنبا
فمج لى فى الكاس من ثغره * ما حبب الشرب وما طيبا
وقال ها لثمى نقلا ولا * تشم الا عرفى الاطيبا
واقطف بخدى الورد والآس والنسرين لا تحفل بزهر الربا
أسعفته غصنا غدا مثمرا * ومن جناه ميسه قربا
قد كنت ذا نهى وذا امرة * حتى تبدى فخلت الحبا
ولم أصن عرضى فى حبه * ولم أطع فيه الذى أنبا
حتى اذا ما قال لى حاسد * ترجوه والكوكب أن يغربا
أرسلت من شعرى سحرا له * ييسر المرغب والمطلبا
وقال عرفه بأنى ساحتال فما أجتنب المكتبا
فزاد فى شوقى له وعده * ولم أزل معتقدا مرقبا

عدوه متحسسا يقول بعض المتقدمين من شعراء ابناء فارس وكان سابور صفوا فى اروميته * احيد عنها فاضحى غير مختار
اذ كان بالروم جاسوسا يجول به * حوم المنية من ذى كيد مكار
فاستأسروه وكانت كبوة عجبا * وزلة سبقت من غير عثار
فاصبح الملك الرومى معترضا * أرض العراق على هول واخطار
فراطن الفرس بالابواب فافترقوا * كما تحارب أسد الغاب فى الغار
فخذ بالسيف ام الروم فامتحقوا * لله درك من طلاب أوتار
اذ يغرسون من الزيتون ما عضدوا * من النخيل وما حفوا اعتشار
وغزا سابور بعد ذلك بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم ونقل خلقا من اهلها واسكنهم بلاد السوس وتستر وغيرها من مدن كور الاهواز فتناسلوا وقطنوا تلك الديار فمن ذلك الوقت صار الديباج التسترى وغيره من انواع الحرير يعمل بتستر والخز بالسوس والستور والفرش ببلاد نصيبين ومكث الى هذه الغاية وقد كان من قبله من ملوك الساسانية وكثير ممن سلف من فارس الاولى يسكن بطيسبون وذلك بغربى المدائن من ارض العراق فسكن

أمدّ طرفي ثم أثنيه من * خوف أخي التنغيص أن يرقبا
أصدّق الوعد وطوراً أرى * تكذيبه والحزن أن يكذبا
أتى ومن سحره بعدما * أياس بطء كاد أن يغضبا
قبلت في الترب ولم أستطع * من حصر اللقيا سوى مرحبا
هنأت ربعي اذ غدا هالة * وقلت يا من لم يضع أشعبا
بالله هل معتنقاً لاغما * فمال كالغصن ثنته الصبا
فقال ما ترغب قلت اتئد * أدركت اذ كلمتني المرغبا
فقال لا ترغب عن ذكر ما * ترغبه قلت اذن مركبا
وكان ما كان فوالله ما * ذكرته دهري أو أغلبا

وستأتي هذه القصيدة بكمالها في جملة من نظم ابن سعيد المذكور وقال يتشوق الى اشبيلية وهي حمص الاندلس

أن الخليج وغنت الورقاء * هل برحا اذ هاجت البرحاء
أنا منكما أولى بحلية عاشق * أفني وما غنت بي الصعداء
أخشى الوشاة فما أفوه بلفظة * والكتم عند العاشقين عناء
لولا تشوق أرض حمص ما جرى * دمعي ولا شمتت بي الاعداء
لم استطع كتماله فكأنني * ما كان لي كتم ولا اخفاء
والبدر مهما رام كتما من سرى * فيه ينم على سراه ضياء
بلد متى يخطر له ذكرها * قلبي وخان تصبر وعزاء
من بعده ما الصبح يشرق نوره * عندي ولا تتبدل الظلماء
كم لي به من ذي وفاء لم يخن * عهدي وينمو بالوداد وفاء
فتراه اذ ما مرّ ذكري سائلا * عن حالتي ان قلت الانباء
يمسي ويصبح في تذكر مدّة * يرضى بها الاصباح والامساء
مع كل مبذول الوصال ممنع * من غيرنا تسمو به الخيلاء
كالظبي كالشمس المنيرة كالنقا * كالغصن يثني معطفيه رخاء
يسعى براح كالشهاب براحة * كالبدر والوجه المنير ذكاء
مالان تحت الوصل حتى طال منه الهجر واتصلت به البلواء
خير المحبة ما أتت عن قلى * تدري ببؤس الفاقة النعماء
ما زلت أرقى بالقريض جنونه * حتى استكان وكان منه اباء
فظفرت منه بمدّة لو أنها * دامت لدامت لي بها السراء
صفوت تكدر بالتحرك ليته * ما زال لكن لا يرد قضاء
ان الفراق هو المنية انما * أهل النوى ماتوا وهم أحياء
لولا تذكر لذة طابت لنا * بذرى الجزيرة حيث طاب هواء
وجرى النسيم على الخليج معطرا * وتبددت في الدوحة الانداء

سابور في الجانب الشرقي من المدائن وبنى هناك الايوان المعروف بايوان كسرى الى هذه الغاية وقد كان أبرويز بن هرمز أتم مواضع من بناء هذا الايوان وقد كان الرشيد نازلا على دجلة بالقرب من الايوان فسمع بعض الخدم من وراء السرادق يقول لآخر هذا الذي بنى هذا البناء ابن كذا وكذا أراد أن يصعد عليه الى السماء فامر الرشيد بعض الاستاذين من الخدم أن يضربه مائة عصا وقال لمن حضره ان الملك نسبة والملوك به اخوة وان الغيرة بعثتني عليه وعلى أدبه لصيانة الملك وما يلحق الملوك للملوك (وذكر) عن الرشيد بعد القبض على البرامكة انه بعث الى يحيى بن خالد بن برمك وهو في اعتقاله يشاوره في هدم الايوان فبعث اليه لا تفعل فقال الرشيد لمن حضره في نفسه المجوسية والحنو عليها والمنع من ازالة آثارها فشرع في هدمه ثم نظر فاذا يلزمه في هدمه أموال عظيمة لا تضبط كثرة فامسك عن ذلك وكتب الى يحيى يعلمه ذلك فاجابه بان ينفق في هدمه ما بلغ من الاموال ويحرص على فعله فعجب الرشيد من تنافي كلامه في أوّله وآخره فبعث اليه ليسأله عن ذلك فقال نعم أنا ما أشرت به في الاوّل فاني أردت بقاء الذكر لامة الاسلام وبعد الصيت وأن يكون من يرد في الاعصار وينظر أن من الامم

ما كابدت نفسى أليم تفكر * ألوى به عن جفنى الاغفاء
يا نهر حمص لا عدتك مسرة * ما يسيل لديك أم صهباء
كل النفوس تهش فيك كأنما * جمعت عليك شتاتها الاهواء
ودى اليك مع الزمان مجدد * ما ان يحول تذكر وعناء
ولوانى لم أحى ذكر الذى * أوليته ما كان فى حياء
ما كنت أطمع فى الحياة لو اننى * أيقنت أن لا يستر دلقاء
غيرى اذا ما بان خان وانما * أبقى حياتى حين بان رجاء

وسيأتى ان شاء الله تعالى لهذا النمط وغيره مزيد أثناء الكتاب بحسب ما اقتضته المناسبة والله تعالى المرجو فى حسن المتاب وهو سبحانه لا اله الا هو الموفق للصواب

(الباب الخامس)

فى التعريف ببعض من رحل من الاندلسيين الى بلاد المشرق الزاكية العراق والشام ومدح جماعة من أولئك الاعلام ذوى العقول الراجحة والاحلام لشامة وجنة الارض دمشق الشام وما اقتضته المناسبة من كلام اعيانها وأرباب بيانها ذوى السودد والاحتشام ومخاطباتهم للفقير المؤلف حين حلها سنة ألف وسبع وثلاثين للهجرة وشاهد برق فضلها المبين وشام

*(اعلم جعلنى الله تعالى واياك) ممن له للمذهب الحق انتحال أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك على الاحاطة الا علام الغيوب الشديد المحال ولو اطلنا عنان الاقلام فيمن عرفناه فقط من هؤلاء العلماء الاعلام لطال الكتاب وكثر الكلام ولكننا نذكر منهم لمعا على وجه التوسط من غير اطناب داع الى الملال واختصار مؤد للملام فنقول مستمدين من واهب العقول (منهم عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب السلمى) وقد عرف به القاضى عياض فى المدارك وغير واحد ورأيت فى بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفا ومن أشهرها كتاب الواضحة فى مذهب مالك كتاب كبير مفيد ولابن حبيب مذهب فى كتب المالكية مسطور وهو مشهور عند علماء المشرق وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وصاحب المواهب وغيرهما ومن نظمه يخاطب سلطان الاندلس

لا تنس لا ينسك الرحمن عاشورا * واذكره لا زلت فى التاريخ مذكورا
قال النبى صلاة الله تشمله * قولا وجدنا عليه الحق والنورا
فيمن يوسع فى انفاق موسمه * ان لا يزال بذاك العام ميسورا

وهذا البيت الثالث نسيت لفظه فكتبته بالمعنى والوزن اذ طال عهدى به والله تعالى أعلم

*وقال الفتح فى المطمع الفقيه العالم ابو مروان عبد الملك بن حبيب السلمى اى شرف لاهل الاندلس واى مفخر واى بحر بالعلوم يزخر خلدت منه الاندلس فقيها عالما عاد بجاهل اهلها معالما واقام فيها للعلوم اسواقا نافقة ونشر منها الوية خافقة وجلا عن الالباب صدا الكسل وشحذها شحذ الصوارم والاسل وتصرف فى فنون العلوم وعرف كل معلوم وسمع بالاندلس وتفقه حتى صار أعلم من بها وأفقه ولقى أنجاب مالك وسلك فى مناظرتهم أوعر

فى الازمان يرى مثل هذا البنيان العظيم فيقول ان أمة قهرت أمة هذا بنيانها أفازالت رسومها واحتوت على ملكها لامة عظيمة شديدة منيعة وأما جواب الثانى فاخبرت انه قد شرع فى هدمه ثم عجز عنه فاردت نفى العجز عن أمة الاسلام لئلا يقول من وصفت ممن يرد فى الاعصار ان هذه الامة عجزت عن هدم ما بنتها فارس فلما بلغ الرشيد ذلك من كلامه قال قاتله الله تعالى فما سمعته قال شيأ قط الا صدق فيه واعرض عن هدمه وسابور هو الذى بنى نيسابور ببلاد خراسان وغيرها بفارس والعراق (ثم ملك بعده أخوه اردشير بن هرمز) وكان ملكه الى ان خلع أربعين سنة (ثم ملك بعده سابور ابن سابور) خمس سنين وكانت له حروب كثيرة مع اياد بن نزار وغيرها من العرب فيقول فيه شاعر اياد

على رغم سابور بن سابور أصبحت
قباب اياد حولها الخيل والنعم

ويقال ان هذا الشعر قاله لقرقد حة وابا رض الروم حين أوقع بهم سابور ذو الاكتاف على ما ذكرنا ثم تراجعوا الى ديارهم وانضافوا الى ربيعة من ولد بكر بن وائل وان ربيعة كانت قد غلبت على السواد وشنت الغارات فى ملك سابور بن سابور فقال شاعر اياد فى ذلك ما وصفنا وهم

المسالك

المسالك حتى أجمع عليه الاتفاق ووقع على تفضيله الاصفاق ويقال انه لقى مالكا آخر عمره وروى عنه عن سعيد بن المسيب ان سليمان بن داود صلى الله عليهما وسلم كان يركب الى بيت المقدس فيتغدى به ثم يعود فيتعشى باصطخر وله فى الفقه كتاب الواضحة ومن أحاديثه غرائب قد تحلت بها للزمان نحور وترائب *(وقال محمد بن لبابة) فقيه الاندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب وراويها يحيى بن يحيى وكان عبد الملك قد جمع الى علم الفقه والحديث علم اللغة والاعراب وتصرف فى فنون الآداب وكان له شعر يتكلم به متبحرا وسرى ينبوعه بذلك متفجرا وتوفى بالاندلس فى رمضان سنة ٢٣٨ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة بعد ما جال فى الارض وقطع طولها والعرض وجال فى أكنافها وانتهى الى أطرافها ومن شعره قوله

قد طاح أمرى والذى أبتغى * هين على الرحمن فى قدرته
ألف من الحمر وأقلل بها * لعالم أربى على بغيته
زرياب قد أعطيها جملة * وحرفتى أشرف من حرفته

وكتب الى الزجالى رسالة وصلها بهذه الابيات

كيف يطيق الشعر من أصبحت * حالته اليوم كحال الغرق
والشعر لا يسلس الا على * فراغ قلب واتساع الخلق
فاقنع بهذا القول من شاعر * يرضى من الحظ بأدنى العنق
فضلك قد بان عليه كما * بان لاهل الارض ضوء الشفق
أما ذمام الود منى لكم * فهو من المختوم فيما سبق

ولم يكن له علم بالحديث يعرف به صحيحه من معتله ويفرق مستقيمه من مختله وكان غرضه الاجازة وأكثر رواياته غير مستجازة قال ابن وضاح قال لى ابراهيم بن المنذر أتى صاحبكم الاندلسى يعنى عبد الملك هذا بغرارة مملوءة فقال لى هذا علمك قلت له نعم ما قرأ على منه حرفا ولا قرأته عليه وحكى انه قال فى دخوله المشرق وحضر مجالس بعض الاكابر فازدراه من رآه

لا تنظرن الى جسمى وقلته * وانظر لصدرى وما يحوى من السنن
فرب ذى منظر من غير معرفة * ورب من تزدريه العين ذو فطن
ورب لؤلؤة فى عين مزبلة * لم يلق بال لها الا الى زمن

انتهى ما فى المطمح الصغير *قلت أما ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مسلم وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين نعم لاهل الاندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين حتى ان فى شفاء عياض احاديث لم يعرف أهل المشرق النقاد مخرجها مع اعترافهم بجلالة حفاظ الاندلس الذين نقلوها كبقى بن مخلد وابن حبيب وغيرهما على ما هو معلوم * وأما ما ذكره عنه بالاجازة عما فى الغرارة فذلك على مذهب من يرى الاجازة وهو مذهب مستفيض واعتراض من اعترض عليه انما هو بناء على القول بمنع الاجازة فاعلم ذلك والله سبحانه الموفق *(ومن الراحلين) * من الاندلس الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثى راوى الموطا عن مالك رضى الله تعالى عنه ويقال ان أصله من برابر مصمودة وحكى انه لما ارتحل الى مالك

داخلون فى جملة ربيعة وقيل غير ذلك والله أعلم بالصحيح منه (ثم ملك بعده بهرام) بن سابور وكان ملكه عشرين سنة وقيل احدى عشرة سنة (ثم ملك بعده يزدجرد) بن سابور المعروف بالاثيم وكان ملكه الى ان هلك احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما وقيل اثنين وعشرين سنة غير شهرين (ثم ملك بعده) بهرام بن يزدجرد فكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة وقيل تسع عشرة سنة وملك وهو ابن عشرين سنة وغاص هو وفرسه فى حومة حماة فى بعض ايام صيده فجزعت عليه فارس لما عمها من عدله وشملها من احسانه ورأفته برعيته واستقامة الامور فى أيامه وقد كان خرج فى أيامه خاقان ملك الترك الى الصغد وشن الغارات فى بلاده وقيل انه أتى الى بلاد الرى وان بهرام كتب اجناده وتنكب الطريق فى اليسير من جريدة اصحابه حتى أتى على خاقان فى جنوده وسار نحو العراق برأسه فهابته ملوك الارض وهادنه قيصر وحمل اليه الاموال وقد كان بهرام قبل ذلك دخل الى ارض الهند متنكرا ولاخبارهم متعرفا واتصل بشبرمة ملك من ملوك الهند فابلى بين يديه فى حرب من حربه وامكنه من عدوه فزوجه ابنته على انه بعض اساورة فارس وكان نشوه مع العرب بالحيرة وكان يقول

ولازمه فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه اذ قال قائل حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيى فقال له مالك مالك لم تخرج وليس الفيل في بلادك فقال انما جئت من الاندلس لانظر اليك وأتعلم من هديك وعلمك ولم أكن لانظر الى الفيل فأعجب به مالك وقال هذا عاقل الاندلس ولذلك قيل ان يحيى هذا عاقل الاندلس وعيسى بن دينار فقيهها وعبد الملك بن حبيب عالمها ويقال ان يحيى راويها ومحدثها وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤ في رجب وقبره يستسقى به بقرطبة وقيل ان وفاته في السنة التي قبلها والله تعالى أعلم وروايته الموطأ مشهورة حتى ان أهل المشرق الآن يسندون الموطأ من روايته كثيرا مع تعدد رواة الموطأ والله أعلم * وكان يحيى بن يحيى روى الموطأ بقرطبة عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشطون وسمع من يحيى بن مضر القيسي الاندلسي ثم ارتحل الى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة فسمع من مالك بن أنس الموطأ غير أبواب في كتاب الاعتكاف شك في سماعها فأثبت روايته فيها عن زياد وذلك مما يدل على ورعه وسمع بمصر من الليث بن سعد وبمكة من سفيان بن عيينة وتفقه بالمدنيين والمصريين كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم العتقي وسمع منهما وهما من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته له وانتهت اليه الرياسة بالاندلس وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار وتفقه به جماعة لا يحصون عددا وروى عنه خلق كثير وأشهر رواة الموطأ وأحسنهم رواية يحيى المذكور وكان مع أمانته ودينه معظما عند الامراء يكنى عندهم عفيفا عن الولايات متنزها جلت رتبته عن القضاء وكان أعلى من القضاة قدرا عند ولاة الامر بالاندلس لزهده في القضاء وامتناعه قال الحافظ بن حزم مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة فانه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى أقصى عمل افريقية فكان لا يولي الا أصحابه والمنتسبين لمذهبه ومذهب مالك عندنا بالاندلس فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاة وكان لا يلي قاض في أقطار الاندلس الا بمشورته واختياره ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم وداعيا الى قبول رأيه لديهم انتهى * وذكرنا في غير هذا الموضع قولا آخر في سبب انتشار مذهب مالك بالاندلس والله سبحانه أعلم بحقيقة الامر وقال ابن أبي الفياض جمع الامير عبد الرحمن بن الحكم الفقهاء في قصره وكان وقع على جارية يحبها في رمضان ثم ندم أشد ندم فسألهم عن التوبة والكفارة فقال يحيى تكفر بصوم شهرين متتابعين فلما بادر يحيى بهذه الفتيا سكت الفقهاء حتى خرجوا فقال بعضهم له لم لم تفت بمذهب مالك بالتخيير فقال لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ولكن حملته على أصعب الامور لئلا يعود وقال بعض المالكية ان يحيى ورى بهذا ورأى أنه لم يملك شيأ اذ هو مستغرق الذمة فلا عتق له ولا اطعام فلم يبق الا الصيام انتهى ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل الى مصر رأى ابن القاسم يدون سماعه من مالك فنشط للرجوع الى مالك ليسمع منه المسائل التي رأى ابن القاسم يدونها فرحل رحلة ثانية فألفى مالكا عليلا فأقام عنده الى أن مات وحضر جنازته فعاد الى ابن القاسم وسمع منه سماعه

الشعر بالعربية ويتكلم بسائر اللغات وكان على خاتمه مكتوب بالافعال تعظم الاخبار وله أخبار في أخذه الملك بعد أبيه وتناوله التاج والراية وقد وضعا بين يديه وأخبار غير ذلك وسير يطول ذكرها ولأية علة سمي بهرام جور وما أحدث من الرمي بالنشاب في أيامه ومن النظم في داخل القوس وخارجها وقد اتينا على جميع ذلك في كتابنا أخبار الزمان والكتاب الاوسط وما قالت الفرس والترك في بنية القوس وانها مركبة على الطبائع الاربع كطبائع الانسان وما ذهبوا اليه من انواع الرمي وكيفيته ومما حفظ من شعر بهرام جور قوله يوم ظفره بخاقان وقتله له

أقول له لما فضضت جموعه
كأنك لم تسمع بصولات بهرام
فاني حامي ملك فارس كلها
وما خير ملك لا يكون له حامي

(وقوله أيضا)

لقد علم الانام بكل أرض
بأنهم قد اضحوا لي عبيدا
ملكت ملوكهم وقهرت منهم
عزيزهم المسود والمسودا
فتلك اسودهم تتقي حذاري
وترهب من مخافتي الورودا
وكنت اذا تشاوس ملك أرض * عبأت له الكتائب والجنودا
فيعطيني المقادة أو أوافي * به يشكو السلاسل والقيودا من

من مالك هكذا ذكره ابن الفرضي في تاريخه وهو مما يرد الحكاية المشهورة الآن بالمغرب أن يحيى سأل مالكا عن زكاة التين فقال لا زكاة فيها فقال انها تدخر عندنا ونذر ان وصل الى الاندلس أن يرسل لمالك سفينة مملوءة تينا فلما وصل أرسلها فاذا مالك قد مات انتهى * قال ابن الفرضي ولما انصرف يحيى الى الاندلس كان امام وقته وواحد بلاده وكان ممن اتهم بالهيج في وقعة الربض المشهورة ففرّ الى طليطلة ثم استأمن فكتب له الامير الحكم أمانا وانصرف الى قرطبة وقيل لم يعط أحد من أهل الاندلس منذ دخلها الاسلام ما أعطي يحيى من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر وقال ابن بشكوال ان يحيى بن يحيى كان مجاب الدعوة وانه أخذ في سمته وهيئته ونفسه ومقعده هيآت مالك ويحكى عنه أنه قال أخذت بركاب الليث بن سعد فأراد غلامه أن يمنعني فقال دعه ثم قال لي الليث خدمك العلم فلم تزل بي الايام حتى رأيت مالكا انتهى (ومنهم) القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى قال في المطمح من بني يحيى بن يحيى الليثي وهذه ثنية علم وعقل وصحة ضبط ونقل كان علم الاندلس وعالمها المندس ولي القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها الى المشرق وجمع فيها من الروايات والسماع كل مفترق وجال في آفاق ذلك الافق لا يستقر في بلد ولا يستوطن في جلد ثم كر الى الاندلس فسمت رتبته وتحلت بالاماني لبته وتصرف في ولايات أحمد فيها امانه واتصلت بسببها بالخليفة اسبابه وولاه القضاء بقرطبة فتولاه بسياسة محمودة ورياسة في الدين مبرقة القوى مجهوده التزم فيها الصرامة في تنفيذ الحقوق والجزامة في اقامة الحدود والكشف عن البيان في السر والصدع بالحق في الجهر لم يستمله مخادع ولم يكده مخاتل ولم يهب ذا حرمة ولا داهن ذا رتبة ولا أغضى لاحد من أرباب السلطان وأهله حتى تحاموا واحدة جانبه فلم يجسر أحد منهم عليه وكان له نصيب وافر من الادب وحظ من البلاغة اذا نظم واذا كتب ومن ملح شعره ما قاله عند أوبته من غربته

كأن لم يكن بين ولم تك فرقة * اذا كان من بعد الفراق تلاقي
كأن لم تؤرق بالعراقين مقلتي * ولم تمر كف الشوق ماء مآقي
ولم أزر الاعراب في جنب أرضهم * بذات اللوى من رامة وبراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى * وكاس سقاها في الازاهر ساقي

وله أيضا

ماذا أكابد من ورق مغرّدة * على قضيب بذات الجذع مياس
رددن شجوا شجى قلب الخلي فهل * في عبرة ذرفت في الحب من باس
ذكرته الزمن الماضي بقرطبة * بين الاحبة في أمن وايناس
هم الصبابة لولا همة شرفت * فصيرت قلبه كالجندل القاسي

وله أخبار تدل على رقة العراق والتغذي بماء تلك الآفاق * فمنها انه خرج الى حضور جنازة بمقابر قريش ورجل من بني جابر كان يواخيه له منزل فعزم عليه في الميل اليه وعلى أخيه فنزل عليه فاحضر لهما طعاما وأمر جارية له بالغناء فغنت

طابت بطيب لثاتك الاقداح * وزهت بحمرة خدك التفاح
واذا الربيع تنسمت أرواحه * طابت بطيب نسيمك الارواح

طلبا للايجاز (ثم ملك بعده يزدجرد) بن بهرام وكان ملكه تسع عشرة سنة وقيل ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما وقد كان بنى حائطا باللبن والطين بناحية الباب والابواب على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في ذكرنا للباب والابواب وجبل الفتح وأحضر يزدجرد بن بهرام رجلا من حكماء عصره كان في أقاصي مملكته آخذا من اخلاقهم ومقتبس الرأي منهم يسوس به رعيته فقال له يزدجرد وقد مثل بين يديه أيها الحكيم الفاضل ما صلاح الملك فقال الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم من غير مشقة والتودد اليهم بالعدل وأمن السبل وانصاف المظلوم من الظالم قال فما صلاح أمر الملك فقال وزراؤه وأعوانه فانهم ان صلحوا صلح وان فسدوا فسد قال له يزدجرد ان الناس قد أكثروا في أسباب الفتن فصف لي ما الذي يشبها وينشبها وما الذي يسكنها ويدفنها قال يشبها ضغائن يجشمها جراءة عامة ولدها استخفاف بخاصة وأكدها انبساط الالسن بضمائر القلوب واشفاق موسر وأمل معسر وغفلة ملتذ ويقظة محروم والذي يسكنها أخذ العدة لما يخاف قبل حلوله وايثار الجد حين يلتذ

وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها * فضياء وجهك في الدجى مصباح

فكتبها القاضي في ظهر يده وخرج من عنده قال يونس بن عبد الله فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على ظهر كفه وكان رحمه الله تعالى في غاية اللطف حكى بعض أصحابه قال ركبنا معه في موكب حافل من وجوه الناس إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل فلما رأى القاضي هابه وأراد الانصراف فخانته رجلاه فاستند إلى الحائط وأطرق فلما قرب القاضي رفع رأسه وأنشأ يقول

ألا أيها القاضي الذي عم عدله * فأضحى به بين الأنام فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة * فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئت جلدا لي فدونك منكبا * صبورا على ريب الزمان جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة * تروح بها في العالمين حميدا
وإن أنت تختار الحديد فإن لي * لسانا على هجو الزمان حديدا

فلما سمع شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ومضى لشأنه انتهى ملخصا من المطمح * ورأيت بخطي في بعض مسوداتي ما صورته محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي قاضي الجماعة بقرطبة سمع عم أبيه عبيد الله بن يحيى ومحمد بن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ورحل من قرطبة سنة ٣١٣ ودخل مصر وحج وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلي وابن الأعرابي ومعاني الشعر شاعرا مطبوعا وشاوره القاضي أحمد بن بقي واستقضاه الناصر عبد الرحمن بن محمد على البيرة وبجاية ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبي طالب سنة ٣٢٤ وجمعت له مع القضاء الصلاة وكان كثيرا ما يخرج إلى الثغور ويتصرف في إصلاح ما وهى منها فاعتل في آخر خرجاته ومات في بعض الحصون المجاورة لطليطلة سنة ٣٣٧ ومولده سنة ٢٨٤ انتهى وأظن أني نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ والله أعلم * (ومنهم) عتيق بن أحمد بن عبد الباقي الأندلسي الدمشقي وفاة يكنى أبا بكر نزيل دمشق كان مشهورا بالصلاح وانتفع به جماعة من الفقراء وولد على ما قيل سنة ٥١٦ وتوفي سنة ٦١٤ بدمشق ودفن بمقابر الصوفية فيكون عمره على هذا مائة سنة رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته وبركات أمثاله * (ومنهم) أبو إبراهيم إسمعيل بن محمد بن يوسف الأنصاري الأندلسي الأبذي الملقب في البلاد المشرقية ببرهان الدين وأبذة بضم الهمزة وتشديد الباء الموحدة وفتحها وبعدها ذال معجمة بلد بالأندلس سمع المذكور بمكة وغيرها من البلاد وبدمشق من الحافظ بن طبرزذ وأم بالصخرة وكان فاضلا صالحا شاعرا توفي سنة ٦٥٦ وأخبر عن بعض الأولياء المجاورين ببيت المقدس أنه سمع هاتفا يقول لما خرب القدس

إن يكن بالشام قل تصبري * ثم خربت واستمر هلوكي
فلقد أثبت الغداة خرابي * سمر العار في حياة الملوك

هكذا رأيته بخط الصفدي في حياة ويحتمل أن يكون في جباه جمع جبهة والله أعلم * (ومنهم) القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة وقد قدمنا جملة من أخباره في الباب الثالث والرابع من هذا القسم وكان لا يخاف في الله لومة لائم ومن مشهور ما جرى له في

ذلك

الهزل والعمل بالحزم في الغضب والرضا (ثم ملك بعده هرمز) بن يزدجرد فنازعه أخوه فيروز فقتله • ٣٣ وولي الملك وهو فيروز بن يزدجرد بن بهرام وكان ملك فيروز إلى أن هلك على يدي ملك الهياطلة باحسران بمر والروذ من بلاد خراسان سبعا وعشرين سنة والهياطلة هم الصغد وهم بين بخارى وسمرقند (ثم ملك بلاس) بن فيروز الملك وكان ملكه أربع سنين (ثم ملك قباذ) بن فيروز وفي أيامه ظهر مردق الزنديق وإليه تضاف المردقة وله أخبار مع قباذ وما أحدثه في العامة من النواميس والحيل إلى أن قتله أنو شروان في ملكه وكان ملك قباذ إلى أن هلك ثلاثا وأربعين سنة (ثم ملك بعده ولده أنوشروان) بن قباذ بن فيروز ثمانيا وأربعين سنة وقيل سبعا وأربعين سنة وثمانية أشهر وقد كان قباذ خلع من ملكه وأجلس أخ له يقال له جاماست نحوا من سنتين لأمر كان من مردق وأصحابه فظافر أنوشروان وابن زرجمهر بن سرحو حتى أعيد قباذ إلى ملكه في خبر طويل ولما ملك أنوشروان وقتل مردق وأتبعه بثمانين ألفا من أصحابه وذلك بين حادر والنهروان من أرض العراق فسمي من ذلك اليوم أنوشروان وتفسير ذلك جديد الملوك وجمع أهل مملكته على دين المجوسية

ذلك قصته فى أيتام أخى نجدة وحدث بها جماعة من أهل العلم والرواية وهى ان الخليفة الناصر احتاج الى شراء دار من قرطبة لحظية من نسائه تكرم عليه فوقع استحسانه على دار كانت لاولاد زكريا أخى نجدة وكانت بقرب النشارين فى الربض الشرقى منفصلة عن دوره ويتصل بها حمام له غلة واسعة وكان أولاد زكريا أخى نجدة أيتاما فى حجر القاضى فارسل الخليفة من قومها له بعدما طابت نفسه وأرسل ناسا أمرهم بداخلة وصى الايتام فى بيعها عليهم فذكر انه لايجوز الا بامر القاضى اذ لم يجز بيع الاصل الاعن رأيه ومشورته فارسل الخليفة الى القاضى منذر فى بيع هذه الدار فقال لرسوله البيع على الايتام لا يصح الا لوجوه منها الحاجة ومنها الوهى الشديد ومنها الغبطة فاما الحاجة فلا حاجة بهذه الايتام الى البيع وأما الوهى فليس فيها وأما الغبطة فهذا مكانها فان اعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع والافلا فنقل جوابه الى الخليفة فاظهر الزهد فى شراء الدار طمعا أن يتوخى رغبته فيها وخاف القاضى ان تنبعث منه عزيمة تلحق الايتام ثورتها فامر وصى الايتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ففعل ذلك وباع الانقاض فكانت لها قيمة اكثر مما قومت به للسلطان فاتصل الخبر به فعز عليه خرابها وامر بتوقيف الوصى على ما احدثه فيها فاحال الوصى على القاضى انه أمره بذلك فارسل عند ذلك للقاضى منذر وقال له أنت أمرت بنقض دار أخى نجدة فقال له نعم فقال وما دعاك الى ذلك قال أخذت فيها بقول الله تعالى أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فاردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا مقوموك لم يقوموها الا بكذا وبذلك تعلق وهمك فقد نض فى أنقاضها اكثر من ذلك وبقيت القاعة والحمام فضل ونظر الله تعالى للايتام فصبر الخليفة عبد الرحمن على ما أتى من ذلك وقال نحن أولى من انقاد الى الحق فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا قالوا وكان على متانته وجزالته حسن الخلق كثير الدعابة فربما ساء ظن من لا يعرفه حتى اذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثارله ثورة الاسد الضارى فمن ذلك ما حدث به سعيد ابنه قال قعدنا ليلة من ليالى شهر رمضان المعظم مع أبينا للافطار بداره البرانية فاذا سائل يقول أطعمونى من عشائكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة هذه الليلة ويكثر من ذلك فقال القاضى ان استجيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منا أحد وحكى عنه قاسم بن أحمد الجهنى انه ركب يوما الحيازة أرض محبسة فى ركب من وجوه الفقهاء وأهل العدالة فيهم أبو ابراهيم اللؤلؤى ونظراؤه قال فسرنا نقفوه وهو أمامنا وأمامه أمناؤه يحملون خرائطه وذووه عليهم السكينة والوقار وكانت القضاة حينئذ لاتراكب ولا تماشى فعرض له فى بعض الطريق كلاب مع مستوحة والكلاب تلعق هنها وتدور حولها فوقف وصرف وجهه الينا وقال ترون يا أصحابنا ما أبر الكلاب بالهن الذى تلعقه وتكرمه ونحن لا نفعل ذلك ثم لوى عنان دابته وقد أضحكنا وبقينا متعجبين من هزله وحضر عند الحكم المستنصر بالله يوما فى خلوة له فى بستان الزهراء على بركة ماء طافحة وسط روضة نافحة فى يوم شديد الوهج وذلك اثر منصرفه من صلاة الجمعة فشكا الى الخليفة من وهج الحر الجهد وبث منه ما تجاوز الحد فأمره بخلع ثيابه والتخفيف عن جسمه ففعل ولم يطف ذلك ما به فقال له الصواب أن تنغمس فى وسط الصهريج انغماسة يبرد بها جسمك وليس مع

ومنعهم النظر والخلاف والحجاج فى الملل وسار نحو الباب والابواب وجبل الفتح لما كان من غارات من هنالك من الملوك على بلاده فبنى السور على ازقاق البقر المنفوخة بالصخر والحديد والرصاص فكلما ارتفع البناء نزلت تلك الازقاق الى ان استقرت فى قرار البحر وقد ارتفع السور على الماء وغاصت الرجال حينئذ بالخناجر والسكاكين الى تلك الازقاق فشقتها وتمكن السور على وجه الماء فى قرار البحر وهو باق الى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ويسمى هذا الموضع من السور فى البحر الصد مانع المراكب فى البحر ان وردت من بعض الاعداء ثم مد السور فى البحر ما بين جبل الفتح والبحر وجعل فيه الابواب مما يلى الكفار ثم مد السور على جبل الفتح على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الاخبار جبل الفتح والباب وكان لانوشروان خبر مع ملوك الخزر الى ان تأتى له هذا البناء وقيل انه بنى ذلك بالرهبة واذعان من هنالك من الامم وانصرف أنوشروان الى العراق ووفدت عليه رسل الملوك وهداياها والوفود من الممالك وكان فيمن وفد اليه رسول لملك الروم قيصر بهدايا والطاف فنظر الرسول الى ايوانه وحسن بنيانه واعوجاج فى ميدانه فقال

الخليفة الا الحاجب جعفر الخادم الصقلبي أمين الخليفة الحكم لا رابع لهم فكأنه استحيا من ذلك وانقبض عنه وقارا واقصر عنه اقصارا فأمر الخليفة حاجبه جعفرا بسبقه الى النزول في الصهريج ليسهل عليه الامر فيه فبادر جعفر لذلك وألقى نفسه في الصهريج وكان يحسن السباحة فجعل يجول يمينا وشمالا فلم يسع القاضي الا انفاذ أمر الخليفة فقام وألقى بنفسه خلف جعفر ولاذ بالقعود في درج الصهريج وتدرج فيه بعض تدريج ولم ينبسط في السباحة وجعفر يمر مصعدا ومصوبا فدسه الحكم على القاضي وحمله على مساجلته في العوم وهو يعجزه في اخلاده الى التعود ويعابثه بالقاء الماء عليه والاشارة بالجذب اليه وهو لا ينبعث معه ولا يفارق موضعه الى ان كلمه الحكم وقال له مالك لا تساعد الحاجب في فعله وتتقبل صنعه فمن أجلك نزل وبسببك تبذل فقال له ياسيدي يا أمير المؤمنين الحاجب سلمه الله تعالى لا هو جل معه وانما هذا الهوجل الذي معي يعقلني ويمنعني من أن أجول معه مجاله يعني أن الحاجب خصي لا هوجل معه والهوجل الذكر فاستفرغ الحكم ضحكا من نادرته ولطيف تعريضه لجعفر وخجل جعفر من قوله وسبه سب الاشراف وخرجا من الماء وأمر لهما الخليفة بخلع ووصلهما بصلات سنية تشاكل كل واحد منهما * وحكي ان الخليفة الحكم قال له يوما لقد بلغني انك لا تجتهد للايتام وانك تقدم لهم أوصياء سوء يأكلون أموالهم قال نعم وان أمكنهم نيك أمهاتهم لم يعفوا عنهن قال وكيف تقدم مثل هؤلاء قال لست اجد غيرهم ولكن أحلني على اللؤلؤي وأبي ابراهيم ومثل هؤلاء فان أبوا أجبرتهم بالسوط والسجن ثم لا تسمع الا خيرا وقال القاضي منذر أتيت وأبو جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر يملي في اخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول

خليلي هل بالشام عين حزينة * تبكي على نجد لعلي أعينها
قد اسلمها الباكون الا حمامة * مطوقة باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة * يكاد يدنيها من الارض لينها

فقلت له يا أبا جعفر ماذا أعزك الله تعالى باتا يصنعان فقال لي وكيف تقول انت يا أندلسي فقلت له بانت وبان قرينها فسكت ومازال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين وكنت ذهبت الى الانتساخ من نسخته فلما قطع بي قيل لي أين أنت من أبي العباس بن ولاد فقصدته فلقيت رجلا كامل العلم حسن المروءة فسألته الكتاب فأخرجه الي ثم ندم أبو جعفر لما بلغه اباحة أبي العباس الكتاب الي وعاد الى ما كنت أعرفه منه * قال وكان أبو جعفر لئيم النفس شديد التقتير على نفسه وربما وهبت له العمامة فيقطعها ثلاث عمائم وكان يأبى شراء حوائجه بنفسه ويتحامل فيها على أهل معرفته انتهى وأبو جعفر هذا يقال ان تواليفه تزيد على خمسين منها شرح عشرة دواوين للعرب واعراب القرآن ومعاني القرآن وشرح أبيات الكتاب وغير ذلك *(رجع)* وقال منذر بن سعيد كتبت الى أبي علي البغدادي أستعير منه كتابا من الغريب وقلت

بحق ريم مهفهف * وصدغه المتعطف
ابعث الي بجزء * من الغريب المصنف

يكون م بعاقبة قيل له ان عجوزا لها منزل من جانب الاعوجاج منه وان الملك كان يحتاج هذا الصحن أن أرادها على بيعه وارغبها فأبت فلم يكرهها الملك وبقي الاعوجاج من ذلك على ما ترى فقال الرومي هذا الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء وسار أنوشروان في بلاده ودار في مملكته فاحكم البنيان وشيد القلاع والحصون ورتب الرجال فعبر الى الشام فافتتح بها المدن وكان مما افتتح بلاد حلب وقنسرين وحمص وفامية وهي بين انطاكية وحمص وسار الى انطاكية وحاصرها وفيها أخت لقيصر فافتتحها وافتتح مدينة عظيمة كبيرة العمران عجيبة البنيان كانت في ساحل انطاكية رسومها بينة الى هذه الغاية وأثرها قائم تدعى سلوقية وأقبل يفتتح المدائن بالشام وأرض الروم ويغنم الغنائم والجواهر والاموال وبذل السيف وبث عساكره وسراياه فهادنه قيصر وحمل اليه الخراج والجزيه فقبل ذلك منه ونقل من الشام المرمر والرخام وأنواع الفسيفساء والاحجار والفسيفساء هي شئ يطبخ من الزجاج والاحجار ذو بهجة والوان يدخل فيما فرش من الارض والبنيان كالفصوص ومنه على هيئة الجامات شاف وحمل ذلك الى العراق فبنى

فقضى

فقضى حاجتى وأجاب بقوله

وحق در تألف * بفيك أى تألف
لأبعثن بعاقد * حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسى * اليك ما كنت أسرف

فرحم الله تعالى تلك الارواح الطاهرة* (وذكر) ابن اصبع الهمدانى عن منذر انه خطب يوما وأراد التواضع فكان من فصول خطبته أن قال حتى متى والى متى أعظ ولا أتعظ وأزجر ولا أنزجر أدل الطريق الى المستدلين وأبقى مقيما مع الحائرين كلا ان هذا لهو البلاء المبين ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء الآية اللهم فرغنى لما خلقتنى له ولا تشغلنى بما تكفلت لى به ولا تحرمنى وأنا أسألك ولا تعذبنى وأنا أستغفرك يا أرحم الراحمين* وسمع منذر بالاندلس من عبيد الله بن يحيى بن يحيى ونظرائه ثم رحل حاجا سنة ثمان وثلثمائة فاجتمع بعدة أعلام وظهرت فضائله بالمشرق وممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم بمكة محمد بن المنذر النيسابورى سمع عليه كتابه المؤلف فى اختلاف العلماء المسمى بالاشراف *وروى بمصر كتاب العين للخليل عن أبى العباس بن ولاد* وروى عن أبى جعفر بن النحاس وكان منذر متفننا فى ضروب العلوم وغلب عليه التفقه بمذهب أبى سليمان داود بن على الاصبهانى المعروف بالظاهرى فكان منذر يؤثر مذهبه ويجمع كتبه ويحتج لمقالته ويأخذبه فى نفسه وذويه فاذا جلس للحكومة قضى بمذهب الامام مالك وأصحابه وهو الذى عليه العمل بالاندلس وحمل السلطان أهل مملكته عليه وكان خطيبا بليغا عالما بالجدل حاذقا فيه شديد العارضة حاضر الجواب عتيده ثابت الحجة ذا شارة عجيبة ومنظر جميل وخلق جيد وتواضع لاهل الطلب وانحطاط اليهم واقبال عليهم وكان مع وقاره التام فيه دعابة مستملحة وله نوادر مستحسنة وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر فى شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ولبث قاضيا من ذلك التاريخ للخليفة الناصر الى وفاته ثم للخليفة الحكم المستنصر الى أن توفى رحمه الله تعالى عقب ذى القعدة من سنة خمس وخمسين وثلثمائة فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبر عنه فى المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاما كاملة لم يحفظ عليه فيها جور فى قضية ولا قسم بغير سوية ولا ميل لهوى ولا اصغاء الى عناية رحمه الله تعالى ورضى عنه ودفن بمقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة أعادها الله تعالى جوفى مسجد السيدة الكبرى بقرب داره* وله رحمه الله تعالى تواليف مفيدة منها كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك فى الفقه والكلام فى الرد على أهل المذاهب تغمده الله تعالى برضوانه وكتب بعض الادباء الى القاضى منذر بقوله

مسئلة جئتك مستفتيا * عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا * وأوجه العشاق فيها اصفرار

فأجاب منذر بقوله

احمر وجه الظبى اذ لحظه * سيف على العشاق فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى * والشمس تبقى للمغيب اصفرار

من أنواع الاحجار يحكى بذلك انطاكية وغيرها من المدن فى الشام وهذه المدينة سورها من طين قائم الى هذا الوقت خراب وباب يعرف بعاذ كرنا وزوجه خاقان ملك الترك بابنته وابنة أخيه وهادنته ملوك السند والهند والشمال والجنوب وسائر الممالك وحملت اليه الهدايا ووفدت اليه الوفود خوفا من صولته وكثرة جنوده وعظم مملكته ولما يظهر من فعله بالممالك وقتله الملوك وانقياده الى العدل وكتب اليه ملك الصين من يعبور ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر الذى يجرى فى قصره نهران يسقيان العود والكافور الذى توجد رائحته على فرسخين والذى تخدمه بنات ألف ملك والذى فى مربطه ألف فيل أبيض الى أخيه كسرى أنوشروان وأهدى اليه فرسا من در منضد اعينا الفارس والفرس من ياقوت أحمر وقائم سيفه من نابت منضد بالجوهر وثوب حرير صينيا عثر بافيه صورة الملك جالسا فى ايوانه وعليه حليته وتاجه وعلى رأسه الخدم وبايديهم المذاب صورة منسوجة بالذهب وأرض الثوب لازوردى فى سفط من ذهب تحمله جارية تغيب فى شعرها تتلألأ جمالا

*(ومن رحل الى المشرق من الاندلس فشهدله بالسبق كل أهل المغرب والشرق) الامام العلامة أبو القاسم الشاطبي صاحب حرز الامانى والعقيلة وغيرهما * وهو أبو القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الرعينى الشاطبي المقرى الفقيه الحافظ الضرير أحد العلماء المشهورين والفضلاء المشكورين خطب ببلده شاطبة مع صغر سنه ودخل الديار المصرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وحضر عند الحافظ السلفى وابن برى وغيرهما وولد بشاطبة آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة وتوفى بالقاهرة يوم الاحد الثامن والعشرين وقيل الثامن عشر من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة بعد العصر ودفن من الغد بالتربة الفاضلية بسفح المقطم * وحكى ان الامير عز الدين موسك الذى كان والد ابن الحاجب حاجباله بعث الى الشيخ الشاطبي يدعوه الى الحضور عنده فامر الشيخ بعض أصحابه أن يكتب اليه

قل للامير مقالة * من ناصح فطن نبيه
ان الفقيه اذا أتى * أبوابكم لاخير فيه

ومن نظمه رحمه الله تعالى

خالقت أبناء الزمان فلم أجد * من لم أرم منه ارتيادى مخلصى
ردالشباب وقد مضى لسبيله * أهيا وأمكن من صديق مخلص

وكان رحمه الله تعالى قرأ بشاطبة القرا آت وأتقنها على النفرى ثم انتقل الى بلنسية فقرأبها التيسير من حفظه على ابن هذيل وسمع الحديث منه ومن ابن النعمة وابن سعادة وابن عبد الرحيم وغيرهم وارتحل الى المشرق فاستوطن القاهرة واشتهر اسمه وبعد صيته وقصده الطلبة من النواحى وكان اماما علامة ذكيا كثير الفنون منقطع القرين رأسا فى القرا آت حافظا للحديث بصيرا بالعربية واسع العلم وقد سارت الركبان بقصيدتيه حرز الامانى وعقيلة اتراب القصائد اللتين فى القرا آت والرسم وحفظهما خلق كثير لا يحصون وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحذاق القراء ولقد أوجز وسهل الصعب * وممن روى عنه أبو الحسن ابن خيرة ووصفه من قوة الحفظ بأمر عجيب معجب وممن قرأ عليه بالروايات الامام الشهير محمد ابن عمر القرطبي وتصدر الشاطبي رحمه الله تعالى للاقراء بالمدرسة الفاضلية وكان موصوفا بالزهد والعبادة والانقطاع * وقبره بالقرافة يزار وترجى استجابة الدعاء عنده وقد زرته مرارا ودعوت الله بما أرجو قبوله وترك أولادا منهم أبو عبد الله محمد عاش نحو ثمانين سنة * وقال السبكى فى حق الامام الشاطبي انه كان قوى الحافظة واسع المحفوظ كثير الفنون فقيها مقرئا محدثا نحويا زاهدا عابدا ناسكا يتوقد ذكاء قال السخاوى أقطع انه كان مكاشفا وانه سأل الله كتمان حاله ما كان أحد يعلم أى شئ هو انتهى وترجمته واسعة رحمه الله تعالى ونفعنا به آمين * وقال ابن خلكان انه أبدع فى حرز الامانى وهى عمدة قراء هذا الزمان فى تعلمهم فقل من يشتغل بالقرا آت الا ويقدم حفظها ومعرفتها وهى مشتملة على رموز عجيبة واشارات لطيفة وما أظنه سبق الى اسلوبها وقد روى عنه انه كان يقول لا يقرأ أحد قصيدتى هذه الا وينفعه الله عز وجل لانى نظمتها لله تعالى مخلصا وكان عالما بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيرا وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مبرزا فيه وكان اذا قرئ عليه صحيحا البخارى ومسلم والموطا يصحح النسخ

وغيرماذكرنا من عجائب ما يحمل من أرض الصين وتهديه الملوك الى أكفائها وكتب اليه ملك الهند من ملك الهند وعظيم أراكنة المشرق وصاحب قصر الذهب وأبواب الياقوت والدر الى أخيه ملك فارس صاحب التاج والراية كسرى أنوشروان واهدى اليه ألف من من عود هندى يذوب فى النار كالشمع ويختم عليه كما يختم على الشمع فتبين فيه الكتابة وجاما من الياقوت الاحمر فتحه شبر مملوأ درا وعشرة أمنان كافور كالفستق وأكبر من ذلك وجارية طولها سبعة أشبار تضرب أشفار عينيها خدها وكأن بين أجفانها لمعان البرق من بياض مقلتيها مع صفاء لونها ودقة تخطيطها واتقان تشكيلها مقرونة الحاجبين لها ظفائر تجرها وفرشا من جلود الحيات ألين من الحرير وأحسن من الموشى وكان كتابه فى لحاء الشجر المعروف بالكاذى مكتوب بالذهب الاحمر وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيب لحاؤه أرق من الورق الصينى تتكاتب فيه ملوك الصين والهند وورد عليه وهو فى عسكره محاربا لبعض اعدائه كتاب ملك التبت من خاقان ملك تبتان ومشارق الارض المتاخمة للصين والهند الى أخيه

من حفظه ويملى النكت على المواضع المحتاج اليها وكان أوحد فى علم النحو واللغة عارفا بتعبير الرؤيا حسن المقاصد مخلصا فيما يقول ويفعل وكان يجتنب فضول الكلام ولا ينطق فى سائر أوقاته الا بما تدعو اليه الحاجة ولا يجلس للقراءة الا على طهارة فى هيئة حسنة وتخشع واستكانة وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكى ولا يتأوه واذا سئل عن حاله قال العافية لا يزيد على ذلك وكان كثيرا ما ينشد هذا اللغز فى النعش وهو لابى زكريا يحيى بن سلامة الخطيب

أتعرف شيأ فى السماء نظيره * اذا سار صاح الناس حيث يسير
فتلقاه مركوبا وتلقاه راكبا * وكل أمير يعتليه أسير
يحض على التقوى ويكره قربه * وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يستزر عن رغبة فى زيارة * ولكن على رغم المزور يزور

وكان يقول عند دخوله الى مصر انه يحفظ وقر بعير من العلوم وكان نزيل القاضى الفاضل وتبه بمدرسته بالقاهرة وقيل ان كنيته ابو محمد حسبما وجد فى بعض اجازاته رحمه الله تعالى

*(ومن الراحلين الى المشرق من الاندلس) الامام القاضى أبو بكر بن العربى قال ابن سعيد هو الامام العالم القاضى الشهير فخر المغرب أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى قاضى قضاة كورة اشبيلية ذكره الحجارى فى المسهب طبق الآفاق بفوائده وملأ الشام والعراق باوابده وهو امام فى الاصول والفروع وغير ذلك ومن شعره وقد ركب معا احد أمراء الملثمين وكان ذلك الامير صغيرا فهز عليه رمحا كان فى يده مداعبا له فقال

يهز على الرمح ظبى مهفهف * لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحا واحدا لاتقيته * ولكنه رمح وثان وثالث

وقوله وقد دخل عليه غلام جميل الصورة فى لباس خشن

لبس الصوف لكى أنكره * وأتانا شاحبا قد عبسا
قلت ايه قد عرفناك وذا * جل سوء لا يعيب الفرسا
كل شئ أنت فيه حسن * لا يبالى حسن ما لبسا

وزعم بعض أن الابيات ليست له وانما تمثل بها فالله تعالى أعلم * وممن عرف بابن العربى وذكره ابن الامام فى سمط الجمان والشقندى فى الطرف وكان قد صحب المهدى محمد بن تومرت بالمشرق فأوصى عليه عبد المؤمن وكان مكرما عنده وحكى أنه كتب كتابا فأشار عليه بعض من حضر أن يذر عليه نشارة فقال قف ثم فكر ساعة وقال اكتب

لا تشنه بما تذر عليه * فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذر عليه * جدرى بوجنة حسناء

ولقى أبا بكر الطرطوشى ومابرح معظما الى أن تولى خطة القضاء ووافق ذلك أن احتاج سور اشبيلية الى بنيان جهة منه ولم يكن بها مال متوفر ففرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك فى عيد أضحى فاحضروها كارهين ثم اجتمعت العامة العمياء وثارت عليه ونهبوا داره وخرج الى قرطبة وكان فى أحد ايام الجمع قاعدا ينتظر الصلاة فاذا بغلام رومى وضىء قد جاء

اليه أنواعا من العجائب التى تحمل من أرض تبت منها مائة جوشن تبتية ومائة قطعة تحافيف ومائة ترس تبتية وأربعة آلاف من من المسك فى نوافج غزلانه وقد كان أنوشروان سار الى ماوراء نهر بلخ وانتهى الى جيلان وقتل اخشوان ملك الهياطلة بجده فيروز وملك مملكته فأضافها الى مملكه وقد كان نقل اليه من الهند كتاب كليلة ودمنة والشطرنج والخضاب الاسود المعروف بالهندى وهو الخضاب الذى يلمع سواده فيما يظهر من أصول الشعر سنة كاملة بصبغة سوداء ولا ينصل منه شئ (ويحكى) ان هشام بن عبد الملك بن مروان كان يخضب بهذا الخضاب وكان لانوشروان مائدة من الذهب عظيمة عليها أنواع من الجواهر مكتوب عليها من جوانبها الهنيء طعامه من أكله من حله وعاد على ذوى الحاجة من فضله ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك وكان له خواتيم أربعة خاتم للخراج فصه من العقيق ونقشه العدل وخاتم للضياع فصه فيروزج نقشه العمارة وخاتم للمعونة فصه ياقوت كحلى نقشه التأنى وخاتم للبريد فصه ياقوت أحمر كالنار نقشه الرجاء ووضع

يخترق الصفوف بشمعة في يده وكتاب معتق فقال

وشمعة تحملها شمعة * يكاد يخفي نورها نارها
لولا نهى نفس نهت غيها * لقبلته وأتت عارها

ولما سمعها أبو عمران الزاهد قال انه لم يكن يفعل ولكنه هزته اريحية الادب ولو كنت أنا قلت

لولا الحياء وخوف الله يمنعني * وأن يقال صبا موسى على كبره
اذا المتعت لحظي في نواظره * حتى أوفي جفوني الحق من نظره

*(رجع) الى أخبار ابن العربي فنقول انه سمع بالاندلس أباه وخاله أبا القاسم الحسن الهوزني وأبا عبد الله السرقسطي وببجاية أبا عبد الله الكلاعي وبالمهدية أبا الحسن بن الحداد الخولاني وسمع بالاسكندرية من الانماطي وبمصر من أبي الحسن الخلعي وغيره وبدمشق غير واحد كأبي الفتح نصر المقدسي وبمكة أبا عبد الله الحسين الطبري وابن طلحة وابن بندار وقرأ الادب على التبريزي وعمل رحمه الله تعالى على مدينة اشبيلية سورا بالحجارة والآجر بالنورة من ماله وكان كما في الصلة حريصا على آدابها وسيرها ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها ويجمع الى ذلك كله آداب الاخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود وذكره ابن بشكوال في الصلة وقال فيه الامام الحافظ ختام علماء الاندلس رحل الى المشرق مع أبيه مستهل ربيع الاول سنة خمس وثمانين وأربعمائة ودخل الشام والعراق وبغداد وسمع بها من كبار العلماء ثم حج في سنة تسع وثمانين وعاد الى بغداد ثم صدر عنها وقال ابن عساكر خرج من دمشق راجعا الى مقره سنة ٤٩١ ولما غرب صنف عارضة الاحوذي ولقي بمصر والاسكندرية جملة من العلماء ثم عاد الى الاندلس سنة ثلاث وتسعين وقدم اشبيلية بعلم كثير وكان موصوفا بالفضل والكمال وولي القضاء باشبيلية ثم صرف عنه ومولده ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة وتوفي بعقبة بمقربة من مدينة فاس ودفن بفاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة انتهى كلام ابن سعيد وغيره ملخصا وما وفى ابن سعيد حافظ الاسلام أبا بكر بن العربي حقه فلنعززه بما حضرنا من التعريف به فنقول انه لقي ببغداد الشاشي والامام أبا بكر والامام أبا حامد الطوسي الغزالي ونقل عنه انه قال كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم الا الباجي أو كلاما هذا معناه وكان من أهل التفنن في العلوم متقدما في المعارف كلها متكلما على أنواعها حريصا على نشرها وقام بأمر القضاء أحمد قيام مع الصرامة في الحق والقوة والشدة على الظالمين والرفق بالمساكين وقد روي عنه انه أمر بثقب أشداق زامر ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه وقرأ عليه الحافظ ابن بشكوال باشبيلية وقال ابن الابار ان الامام الزاهد العابد أبا عبد الله بن مجاهد الاشبيلي لازم القاضي ابن العربي نحوا من ثلاثة أشهر ثم تخلف عنه فقيل له في ذلك فقال كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب الى السلطان انتهى وذكره ابن الزبير في صلته وقال انه رحل مع أبيه أبي محمد عند انقراض الدولة العبادية وسنه نحو سبعة عشر عاما الى أن قال وقيد الحديث وضبط ما روى واتسع في الرواية وأتقن مسائل الخلاف والاصول والكلام

أنوشروان على العراق ووضائع الخراج فألزم كل جريب من السواد من مزارع الحنطة والشعير درهما والارز نصفا وثلثا ولكل أربع نخلات فارسية درهما وكل ست نخلات دقل درهما وكل ست أصول زيتون درهما والكرم ثمانية دراهم والرطب سبعة دراهم فهذه سبعة أنواع من الغلات وترك ما عداها اذ كانت لقضم الناس والبهائم وكان أنوشروان يدعى كسرى الخير وقد ذكرته الشعراء في أشعارها ففي ذلك يقول عدي بن زيد العبادي من كلمة

أين كسرى خير الملوك أنوشر * وان أم أين قبله سابور
لم يهبه ريب المنون فولى الـ * ـملك عنه فبابه مهجور
حين ولوا كأنهم ورق جف * تذري به الصبا والدبور

وجلس أنوشروان يوما للحكماء ليأخذ من آدابهم فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم في مجلسه دلوني على حكمة فيها منفعة لخاصة نفسي وعامة رعيتي فتكلم كل واحد بما حضره من الرأي وأنوشروان مطرق يتفكر في أقاويلهم فانتهى القول الى بزرجمهر ابن البختكان فقال أيها الملك أنا جامع لك ذلك في اثنتي عشرة كلمة فقال هات فقال أولاهن تقوى الله في الشهوة والرغبة والرهبة والغضب فاجعل ما عرض من ذلك كله لله لا للناس والثانية الصدق في القول والعمل والوفاء

على أئمة هذا الشان ومات أبوه رحمه الله تعالى بالاسكندرية أول سنة ثلاث وتسعين فانصرف حينئذ الى اشبيلية فسكنها وسمع ودرس الفقه والاصول وجلس للوعظ والتفسير وصنف في غير فن تصانيف مليحة حسنة مفيدة وولى القضاء مدة أولها في رجب من سنة ثمان فنفع الله تعالى به لصرامته ونفوذ أحكامه والتزم الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى أوذى فى ذلك بذهاب كتبه وماله فاحسن الصبر على ذلك كله ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثه وكان فصيحا حافظا أديبا شاعرا كثير الملح مليح المجالس ثم قال قال القاضى عياض بعد أن وصفه بما ذكرته ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناس الكلام وطعنوا فى حديثه وتوفى منصرفه من مراكش من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده الى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة اشبيلية فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سرحوا فادركته منيته وروى عنه خلق كثير منهم القاضى عياض وأبو جعفر بن الباذش وجماعة انتهى ملخصا * ووقع فى عبارة ابن الزبير تبعا لجماعة أنه دفن خارج باب الجيسة بفاس والصواب خارج باب المحروق كما أشبعت الكلام على ذلك فى أزهار الرياض وقد زرته مرارا وقبره هنالك مقصود للزيارة خارج القصبة وقد صرح بذلك بعض المتقدمين الذين حضروا وفاته وقال انه دفن بتربة القائد مظفر خارج القصبة وصلى عليه صاحبه أبو الحكم بن حجاج رحمه الله تعالى ومن بديع نظمه

أتتنى تؤنبنى بالبكاء * فأهلا بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرة * أتبكى بعين ترانى بها
فقلت اذا استحسنت غيركم * أمرت جفونى بتعذيبها

وقال رحمه الله تعالى دخل على الاديب ابن صارة وبين يدى نار علاها رماد فقلت له قل فى هذه فقال

شابت نواصى النار بعد سوادها * وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لى أجز فقلت

شابت كما شبنا وزال شبابنا * فكأنما كنا على ميعاد

وقد اختلف حذاق الادباء فى قوله ولكنه رمح وثان وثالث ما هو الثانى والثالث فقيل القد واللحظ وقيل غير ذلك ولما ذكر رحمه الله تعالى فى كتابه قانون التأويل ركوبه البحر فى رحلته من افريقية قال وقد سبق فى علم الله تعالى أن يعظم علينا البحر بزوله ويغرقنا فى هوله فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر وانتهينا بعد خطب طويل الى بيوت بنى كعب بن سليم ونحن من السغب على عطب ومن العرى فى أقبح زى قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الحجارة منيئتها ودسمت الادهان وبرها وجلدتها فاحتزمناها أزرا واشتملناها لفافا تمجنا الابصار وتخذلنا الانصار فعطف أميرهم علينا فأوينا اليه فآوانا وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا وأكرم مثوانا وكسانا بأمر حقير ضعيف وفن من العلم ظريف وشرحه انا لما وقفنا على بابه ألفيناه يدير أعواد الشاه فعل السامد اللاه فدنوت منه فى تلك الاطمار وسمح لى بياذقته اذ كنت من الصغر فى حد يسمح فيه للاغمار

ا كرام العلماء والاشراف وأهل الثغور والقواد والكتاب والخول بقدر منازلهم والخامسة التعهد للقضاة والفحص عن العمال ومحاسبة عادلة ومجازاة المحسن منهم باحسانه والمسىء على اساءته والسادسة تعهد أهل السجون بالعرض لهم بالايام تستوثق منهم بالمسىء وتطلق البرىء والسابعة تعهد سبيل الناس واسواقهم واسعارهم وتجاراتهم والثامنة حسن تأديب الرعية فى الجرائم واقامة الحدود والتاسعة اعداد السلاح وجمع آلات الحرب والعاشرة اكرام الولد والاهل والاقارب وتفقد ما يصلحهم والحادية عشرة اذكاء العيون فى الثغور ليعلم ما يتخوف فيؤخذ أهبته قبل هجومه والثانية عشرة تفقد الوزراء والخول والاستبدال بذى الغش والعجز منهم فامر أنوشروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب وقال هذا كلام فيه جوامع أنواع السياسات الملوكية وكان مما حفظ من كلام أنوشروان وحكمته انه سئل ما أعظم الكنوز قدرا وأنفعها عند الاحتياج اليها فقال

 معروف أودعته الاحرار وعلم تورثه الاعقاب وقيل لانوشروان من أطول الناس عمرا فقال من كثر

ووقفت بازائهم أنظر الى تصرفهم من ورائهم اذ كان علق بنفسى بعض ذلك من بعض القرابة فى خلس البطالة مع غلبة الصبوة والجهالة فقلت للبياذقة الامير أعلم من صاحبه فلمعونى شزرا وعظمت فى أعينهم بعد أن كنت نزرا وتقدم الى الامير من نقل اليه الكلام فاستدنانى فدنوت منه وسألنى هل لى بما هم فيه بصر فقلت لى فيه بعض نظر سيبدو لك ويظهر حرك تلك القطعة ففعل كما أشرت وعارضه صاحبه فأمرته ان يحرك اخرى وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى حتى هزمهم الامير وانقطع التدبير فقالوا ما أنت بصغير وكان فى أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عم الامير منشدا

وأحلى الهوى ماشك فى الوصل ربه * وفى الهجر فهو الدهر يرجو ويتقى

فقال لعن الله أبا الطيب او يشك الرب فقلت له فى الحال ليس كما ظن صاحبك أيها الامير انما أراد بالرب ههنا الصاحب يقول ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوصال وبلوغ الغرض من الآمال على ريب فهو فى وقته كله على رجاء لما يؤمله وتقاة لما يقطع به كما قال

اذا لم يكن فى الحب سخط ولا رضا * فاين حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف الى ذلك من الاغراض فى طرفى ابرام وانتقاض ماحرك منهم الى جهتى دواعى الانتهاض واقبلوا يتعجبون منى ويسألونى كم سنى ويستكشفونى عنى فبقرت لهم حديثى وذكرت لهم نجيثى وأعلمت الامير بان أبى معى فاستدعاه وأقمنا الثلاثة الى مثواه فخلع علينا خلعه وأسبل علينا أدمعه وجاء كل خوان بافنان وألوان ثم قال بعد المبالغة فى وصف ما نالهم من اكرامه فانظر الى هذا العلم الذى هو الى الجهل أقرب مع تلك الصبابة اليسيرة من الادب كيف أنقذا من العطب وهذا الذكر يرشدكم ان عقلتم الى المطلب وسرنا حتى انتهينا الى بادره صر انتهى مختصرا والزول العجب ونجيث الخبر ما ظهر من قبيحه يقال بدا نجيث القوم اذا ظهر سرهم الذى كانوا يخفونه قاله الجوهرى وذكر رحمه الله تعالى فى رحلته عجائب * منها انه حكى فى دخوله بدمشق بيوت بعض الا كابر انه رأى فيه النهر جاريا الى موضع جلوسهم ثم يعود من ناحية اخرى فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبل الينا فاخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا فلما فرغنا ألقى الخدم الاوانى وما معها فى النهر الراجع فذهب بها الماء الى ناحية الحريم من غير ان يقرب الخدم تلك الناحية فعلمت السر وان هذا العجيب انتهى بمعناه وقال فى قانون التأويل ورد علينا دانشمند يعنى الغزالى فنزل برباط أبى سعد بازاء المدرسة النظامية معرضا عن الدنيا مقبلا على الله تعالى فمشينا اليه وعرضنا امنيتنا عليه وقلت له أنت ضالتنا التى كنا ننشد وامامنا الذى به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة وتحققنا ان الذى نقل الينا من ان الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم ولو رآه على بن العباس لما قال

اذا ما مدحت امرأ غائبا * فلا تغل فى مدحه واقصد

فانك ان تغل تغل الظنو * ن فيه الى الامد الابعد

فيصغر من حيث عظمته * لفضل المغيب على المشهد

انتهى

علمه فتأدب به من بعده أو معروف يشرف به عقبه وأنوشروان الذى يقول الانعام لقاح والشكر ولادة والمنعم هو الجاعل الى شكره سبيلا وهو الذى يقول لا تعدن الحرصاء فى الامناء ولا الكذابين فى الاحرار وقال أنوشروان يوما لبزرجمهر من يصلح من ولدى للملك فأظهر ترشحه والايماء اليه فقال لا أعرف ذلك ولكنى أصف لك من يصلح للملك أسماهم للمعالى وأطلبهم للادب وأجزعهم من العامة وأرأفهم بالرعية وأوصلهم للرحم وأبعدهم من الظلم فمن كانت هذه صفته فهو حقيق بالملك (قال المسعودى) وقد ذكرنا فى كتاب الزلف الخصال التى يستحق بها الملك من وجدت فيه وما ذكرنا عن حكماء الفرس وأسلافها فى ذلك وغيرها من حكماء اليونانيين كافلاطون وما ذكره فى كتاب السياسة المدنية وغيره ممن تأخر عن عصره وذكر عن بزرجمهر انه قال رأيت من أنوشروان خصلتين متباينتين لم أر مثلهما منه جلس يوما للناس فدخل رجل من خاصة أهله فنحاه وزيره فامر به ان يقام ويحجب عنه سنة لتعديه المرتبة التى رسمت له وازدياده فيها عن مرتبة غيره فى المجلس ثم رأيته يوما ونحن عنده فى سر من تدبير شىء من المملكة وخدمه خلف فرشه وسرير وكنت

وكنت نقلت من المطمح فى حقه ما صورته علم الاعلام الطاهر الاثواب الباهر الابواب الذى انسى ذكاء اياس، وترك التقليد للقياس وانتج الفرع من الاصل وغدا فى الاسلام أمضى من النصل سقى الله تعالى به الاندلس بعدما أجدبت من المعارف ومدّ عليها منه ظله الوارف وكساها رونق نبله وسقاها ريق وبله وكان أبوه أبو محمد باشبيلية بدرا فى فلكها وصدرا فى مجالس ملكها واصطفاه معتمد بنى عباد اصطفاء المأمون لابن أبى دواد وولاه الولايات الشريفة وبوّأه المراتب المنيفة فلما اقفرت حمص من ملكهم وخلت والقتهم منها وتخلت رحل به الى المشرق وحل فيه محل الخائف الفرق فجال فى اكنافه واجال قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه فلم يسترد ذاهبا ولم يجد كمعتمده باذلا له وواهبا فعاد الى الرواية والسماع وما استفاد من آمال تلك الاطماع وابو بكر اذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوّح وفى روض الشباب زهر ما صوّح فالزمه مجالس العلم رائحا وغاديا ولازمه سائقا اليها وحاديا حتى استقرت به مجالسه واطردت له مقايسه فجد فى طلبه واستجدّ به ابوه متمزق اربه ثم ادركه حمامه ووارته هنالك رجامه وبقى ابو بكر متفردا وللطلب متجردا حتى اصبح فى العلم وحيدا ولم تجد عنه رياسته محيدا فكرّ الى الاندلس فحلها والنفوس اليه متطلعة ولانبائه متسمعة فناهيك من حظوة لقى ومن عزة سقى ومن رفعة سما اليها ورقى وحسبك من مفاخر قلدها ومحاسن انس اثبتها فيها وخلدها وقد اثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافا وترده الافهام نطافا فمن ذلك قوله يتشوق الى بغداد ويخاطب فيها أهل الوداد

أمنك سرى والليل يخدع بالفجر * خيال حبيب قد حوى قصب الفخر
جلا ظلم الظلماء مشرق نوره * ولم يخبط الظلماء بالانجم الزهر
ولم يرض بالارض البسيطة مسحبا * فسار على الجوزا الى فلك يجرى
وحث مطايا قد مطاها بعزه * فأوطأها قسرا على قنة النسر
فصارت ثقالا بالجلالة فوقها * وسارت عجالا تتقى ألم الزجر
وجرت على ذيل المجرة ذيلها * فمن ثم يبدو ما هنالك لمن يسرى
ومرّت على الجوزاء توضع فوقها * فآثار ما مرت به كلف البدر
وساقت أريج الخلد من جنة العلا * فدع عنك رملا بالانيعم يستذرى
فما حذرت قيسا ولا خيل عامر * ولا أضمرت خوفا لقاء بنى ضمر
سقى الله مصرا والعراق وأهلها * وبغداد والشامين منهمل القطر انتهى

ومن تآليف الحافظ أبى بكر بن العربى المذكور كتاب القبس فى شرح موطا مالك بن أنس وكتاب ترتيب المسالك فى شرح موطا مالك وكتاب أنوار الفجر وكتاب أحكام القرآن وكتاب عارضة الاحوذى فى شرح الترمذى والاحوذى بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وفتح الواو وكسر الذال المعجمة وآخره ياء مشددة وكتاب مراقى الزلف وكتاب الخلافيات وكتاب نواهى الدواهى وكتاب سراج المريدين وكتاب المشكلين مشكل الكتاب والسنة وكتاب الناسخ والمنسوخ فى القرآن وكتاب قانون التأويل وكتاب النيرين فى الصحيحين وكتاب

ملكه يتحدثون فارتفعت اصواتهم حتى شغلونا عن بعض ما كنا فيه فقلت له وأخبرته بتفاوت ما بين الحالتين فقال لى لا تعجل فنحن ملوك على رعيتنا وخدمنا ملوك على أرواحنا ينالون منا فى خلوتنا ما لا حيلة لنا معه فى التحرز منهم وكان أنوشروان يقول الملك بالجند والجند بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل باصلاح العمال واصلاح العمال باستقامة الوزراء ورأس الكل تفقد الملك أمور نفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه وكان يقول صلاح الرعية أنصر من الجنود وعدل الملك أخصب من عدل الزمان وكان يقول أيام السرور كلمح البصر وأيام الحزن تكاد تكون شهورا (قال المسعودى) ولانوشروان سير حسان قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا وما كان منه فى مسيره فى سائر اسفاره وما بنى من المدن والحصون ورتب من المقاتلة فى الثغور (ثم ملك بعده هرمز) بن أنوشروان بن قباذ وأمه فاقم بنت خاقان ملك الترك وقيل بل ملك من ملوك الخزر مما يلى الباب والابواب فكان ملكه اثنتى عشرة سنة وكان متحاملا على خواص الناس مائلا الى عوامهم مقويا لهم مؤثرا للرويضة وتوابع العوام مقربا لهم بخواص الناس وقيل انه قتل فى مدة

سراج المهتدين و كتاب الأمد الاقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا و كتاب فى الكلام على مشكل حديث السبحات والحجاب و كتاب العقد الاكبر للقلب الاصغر وتبيين الصحيح فى تعيين الذبيح وتفصيل التفضيل بين التحميد والتهليل ورسالة الكافى فى أن لا دليل على النافى و كتاب السباعيات و كتاب السلسلات و كتاب التوسط فى معرفة صحة الاعتقاد والرد على من خالف السنة من ذوى البدع والالحاد و كتاب شرح غريب الرسالة و كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف عشرون مجلدا و كتاب حديث الافك و كتاب شرح حديث جابر فى الشفاعة و كتاب شرح حديث أم زرع و كتاب ستر العورة و كتاب المحصول فى علم الاصول و كتاب أعيان الاعيان و كتاب ملجأة المتفقهين الى معرفة غوامض النحويين و كتاب ترتيب الرحلة وفيه من الفوائد ما لا يوصف * ومن فوائد القاضى أبى بكر بن العربى رحمه الله تعالى قوله قال علماء الحديث ما من رجل يطلب الحديث الا كان على وجهه نضرة لقول النبى صلى الله عليه وسلم نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فاداها كما سمعها الحديث قال وهذا دعاء منه عليه السلام لحملة علمه ولا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته انتهى والى هذه النضرة أشار أبو العباس العزفى بقوله

أهل الحديث عصابة الحق * فازوا بدعوة سيد الخلق
فوجوههم زهر منضرة * لألاؤها كتألق البرق
ياليتنى معهم فيدركنى * ما أدركوه بها من السبق انتهى

(ولا باس أن نذكر هنا بعض فوائد الحافظ أبى بكر بن العربى رحمه الله تعالى) *فمنها قوله فى تصريف المحصنات يقال أحصن الرجل فهو محصن بفتح العين فى اسم الفاعل وأسهب فى الكلام فهو مسهب اذا أطال البحث فيه وألفج فهو ملفج اذا كان عديما لا رابع لها والله تعالى أعلم انتهى *ومنها قوله سمعت الشيخ فخر الاسلام أبا بكر الشاشى وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجالس النظر يقول يقال فى اللغة العربية لا تقرب كذا بفتح الراء أى لا تتلبس بالفعل واذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع وهذا الذى قاله صحيح مسموع انتهى *ومنها شاهدت المائدة بطورزيتا مرارا وأكلت عليها ليلا ونهارا وذكرت الله سبحانه فيها سرا وجهارا وكان ارتفاعها أشف من القامة بنحو الشبر وكان لها درجان قبلى وجنوبى وكانت صخرة صلداء لا تؤثر فيها المعاول وكان الناس يقولون مسخت صخرة اذ مسخ أربابها قردة وخنازير والذى عندى انها كانت صخرة فى الاصل قطعت من الارض محلا للمائدة النازلة من السماء وكل ما حولها حجارة مثلها وكان ما حولها محفوفا بقصور وقد نحتت فى ذلك الحجر الصلد بيوت أبوابها منها ومجالسها منها مقطوعة فيها وحناياها فى جوانبها و بيوت خدمتها قد صورت من الحجر كما تصور من الطين والخشب فاذا دخلت فى قصر من قصورها ورددت الباب وجعلت من ورائه صخرة مقدار ثمن درهم لم يفتحه أهل الارض للصوقه بالارض واذا هبت الريح وحثت تحته التراب لم يفتح الا بعد صب الماء تحته والاكثار منه حتى يسيل بالتراب و ينفرج منفرج الباب وقد باربها اقوام بهذه العلة وقد كنت أخلو فيها كثير الدرس ولكنى كنت فى كل حين أكنس حول الباب مخافة مما جرى لغيرى فيها وقد

شرحت

ملكه من خواص فارس ثلاثة عشر ألف رجل مذكورو لاثنتى عشرة سنة من ملكه تحرم عليه الملك وتداعت أركانه وزحفت اليه الاعداء وكثرت عليه الخوارج وقد كان أزال أحكام الموبذان فخربت بذلك السنة المحمودة والشريعة المعهودة وغير الاحكام وأزال الرسوم وكان ممن سار اليه شابة بن شب عظيم من ملوك الترك فى أربعمائة ألف فنزل نحو بلاد هراة وبلاد عيسى و بوشنج من أرض خراسان وسار اليه من أطراف أرضه طراخنة من الخزر فى جيش عظيم فشنوا الغارات فيما بين ذلك الصقع بخيل أوقفت وملوك تهادنت وتواهبت ما كان بينها من الدماء مما يلى جبل الفتح وسار بطريق لقيصر فى ثمانين الفا مما يلى الجزيرة وسار مما يلى اليمن جيش عظيم للعرب من قحطان ومعد وعليهم العباس المعروف بالاحول وعمرو الافوه فاضطرب على هرمز امره واحضر الموبذ وذوى الرأى منهم من بعد احتماله بهم وشاورهم فكان من نتيجة رأيهم موادعة الوجوه الثلاثة وارضاؤهم والاقبال على شابة بن شب فانتدب لحربه بهرام جود ابن مرزبان الرى وكان بهرام هذا من ولد جرجير بن ميلاد من نسل انوس المعروف بالران فسار

شرحت أمرها فى كتاب ترتيب الرحلة بأكثر من هذا انتهى *ومنها قوله رحمه الله تعالى تذاكرت بالمسجد الاقصى مع شيخنا أبى بكر الفهرى الطرطوشى حديث ابى ثعلبة المرفوع ان من ورائكم أياما للعامل فيها أجر خمسين منكم فقالوا ٣ بل منهم فقال بل منكم لانكم تجدون على الخير أعوانا وهم لا يجدون عليه أعوانا وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتى من الامة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الاسلام وعضدوا الدين وأقاموا المنار وافتتحوا الامصار وحموا البيضة ومهدوا الملة وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه فى شرح الصحيح وخلاصته أن الصحابة كانت لهم اعمال كثيرة لا يلحقهم فيها احد ولا يدانيهم فيها بشر واعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها فى الاجر من اخلص اخلاصهم وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم والامر بالمعروف والنهى عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام وهو أيضا انتهاؤه وقد كان قليلا فى ابتداء الاسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق وفى آخر الزمان أيضا يعود كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق وركوب من يأتى سنن من مضى من أهل الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم لتركبن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه وقال صلى الله عليه وسلم بدا الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فلا بد والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الاسلام الى واحد كما بدا من واحد ويضعف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى اذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى فى الدعاء اليه كان له من الاجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معانا عليه بكثرة الدعاة الى الله تعالى وذلك قوله لانكم تجدون على الخير اعوانا وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعا باتا لضعف اليقين وقلة الدين كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله يروى برفع الهاء ونصبها فالرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعرف ولا ناه عن منكر يقول أخاف الله وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول ياليتنى كنت مكانه انتهى وأنشد رحمه الله تعالى لبعض الصوفية

امتحن الله بذا خلقه * فالنار والجنة فى قبضته
فهجره أعظم من ناره * ووصله أطيب من جنته

*(ومن فوائد ابن العربى) رحمه الله تعالى انه قال كنت بمجلس الوزير العادل أبى منصور بن جهير على رتبة بيناها فى كتاب الرحلة للترغيب فى الملة فقرأ القارئ تحيتهم يوم يلقونه سلام وكنت فى الصف الثانى من الحلقة بظهر أبى الوفاء بن عقيل امام الحنبلية بمدينة السلام وكان معتزلى الاصول فلما سمعت الآية قلت لصاحب لى كان يجلس على يسارى هذه الآية دليل على رؤية الله فى الآخرة فان العرب لا تقول لقيت فلانا الا اذا رأته فصرف وجهه أبو الوفاء مسرعا الينا وقال ينتصر لمذهب الاعتزال فى أن الله تعالى لا يرى فى الآخرة فقد قال الله

فى اثنى عشر الفا وشابة فى أربعمائة ألف فكانت لبهرام معه خطوب ومراسلات من ترغيب وترهيب وحيل فى الحرب الى أن قتله بهرام واستباح عسكره واستولى على خزائنه وأمواله وبعث الى هرمز برأسه وقد كان برمود بن شابة ولده تحصن فى بعض القلاع من بهرام فنزل عليه بهرام فنزل برمودة على حكم هرمز وسار اليه وحمل بهرام حملا من الغنائم وما كان أخذه من شابة مما كان معه من تركات الملوك مثل ما كان فى خزائن أفراسياب من الاموال والجواهر التى كان أخذها من سياوخش وما كان بايدى الترك من تركات هوحاسف ملك الترك مما أخذه من خزائن يستاسف من مدينة بلخ وغيرها من ذخائر ملوك الترك السالفة فلما انتهى ما وصفنا من الاموال والجواهر وغير ذلك من الغنائم من قبل بهرام حسده وزيره هرمز ارتحسيس وقد نظر الى اعجاب هرمز بما جن اليه بهرام وسروره به فقال اعظم هذه زلته وعرض لهرمز بخيانة بهرام واستبداده باكثر الجواهر والاموال والغنائم وأغراه به فعصاه بهرام ثم احتال بهرام بدراهم ضرب عليها اسم كسرى ابرويز ودس أناسا من التجار فأنفقوها بباب هرمز فتعامل بها الناس وكثرت فى أيديهم وعلم بها هرمز فلم يشك أن

تعالى فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه وعندك أن المنافقين لا يرون الله تعالى فى الآخرة وقد شرحنا وجه الآية فى المشكلين وتقدير الآية فاعقبهم هو نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه فيحتمل ضمير يلقونه ان يعود الى ضمير الفاعل فى اعقبهم المقدر بقولنا هو ويحتمل أن يعود الى النفاق مجازا على تقدير الجزاء انتهى * ومنها ما نقله عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فان قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم وقد أنبأنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ أنبأنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه كنا فى جنازة فقال المنذر بها انصرفوا رحمكم الله تعالى فقال لا يقل أحدكم انصرفوا فان الله تعالى قال فى قوم ذمهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فان الله تعالى قال فى قوم مدحهم فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء انتهى * ومنها وقد ذكر الخلاف فى شاهد يوسف ما صورته فاذا قلنا انه القميص فكان يصح من جهة اللغة أن يخبر عن حاله بتقدم مقاله فان لسان الحال أبلغ من لسان المقال فى بعض الامور وقد تضيف العرب الكلام الى الجمادات بما تخبر عنه بما عليها من الصفات ومن أحلاه قول بعضهم قال الحائط للوتد لم تشقنى قال سل من يدقنى ما تركنى ورائى هذا الذى ورائى لكن قوله تعالى بعد ذلك من أهلها فى صفة الشاهد يبطل أن يكون القميص وأما من قال انه ابن عمها أو رجل من أصحاب العزيز فانه يحتمل لكن قوله من أهلها يعطى اختصاصها من جهة القرابة انتهى * ومنها قوله انه كان بمدينة السلام امام من الصوفية وأى امام يعرف بابن عطاء فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب اليه من مكروه فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقة من كل طائفة فقال يا شيخ يا سيدنا فاذن يوسف هم وما تم فقال نعم لأن العناية من ثم فانظروا الى حلاوة العالم والمتعلم وفطنة العامى فى سؤاله والعالم فى اختصاره واستيفائه ولذا قال علماؤنا الصوفية ان فائدة قوله تعالى ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما أن الله تعالى أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة انتهى * ومنها قوله كنت بمكة مقيما فى ذى الحجة سنة تسع وثمانين وأربعمائة وكنت أشرب من ماء زمزم كثيرا وكلما شربته نويت به العلم والايمان ففتح الله تعالى لى بركته فى المقدار الذى يسره لى من العلم ونسيت أن أشربه للعمل ويا ليتنى شربته لهما حتى يفتح الله تعالى لى فيهما ولم يقدر فكان صغوى للعلم أكثر منه للعمل وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته * ومنها قوله سمعت امام الحنابلة بمدينة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول انما تبع الولد الام فى المالية وصار بحكمها فى الرق والحرية لانه انفصل عن الاب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة مبثوثة عليه وانما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلذلك تبعها كما لو أن رجلا تمر فى أرض رجل وسقطت منه نواة فى الارض من يد الآكل فصارت نخلة فانها ملك صاحب الارض دون الآكل باجماع من الامة لانها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها وهذه من البدائع انتهى * ومنها قوله ومن نوادر أبى الفضل الجوهرى ما أخبرنا عنه محمد بن عبد الملك الواعظ وغيره انه كان يقول اذا أمسكت علاقة الميزان بالابهام والسبابة وارتفعت سائر الاصابع كان شكلها مقروا بقولك الله فكانها اشارة منه سبحانه فى تيسير الوزن الى أن الله سبحانه مطلع عليك فاعدل فى وزنك

للملك فهم به هرمز وهو لا يشك أن ذلك من فعله ولم يعلم أن الحيلة فى ذلك من بهرام

ابنه أبرويز ضربها طلبا فهرب أبرويز من أبيه لتغيره عليه ولحق ببلاد أذربيجان وأرمينية والران والبيلقان وحبس هرمز خالى أبرويز بسطام ونفدويه فأعملا الحيلة فى محبسهما وخرجا فانضاف اليهما خلق من الجيش فدخلا على هرمز فسملا عينيه وأعمياه فلما نمى ذلك الى أبرويز سار الى أبيه فدخل عليه وأخبره انه لا ذنب له فى ذلك وانما هرب خوفا على نفسه منه فتوجه هرمز وسلم الملك اليه ونمى ذلك الى بهرام جور فسار فى عساكره يؤم الباب ودار الملك فخرج اليه أبرويز فالتقيا على شاطئ النهروان والنهر بينهما فتواقعا وكان لهما خطب طويل من تقاذف وتشاتم ثم كانت بينهما حروب انكشف فيها أبرويز لتخلف أصحابه عنه وميلهم الى بهرام فقام تحته فرسه المعروف بشبديز وهو المصور فى الجبل وهو ببلاد قرماسين من أعمال الدينور هو وأبرويز وغير ذلك من الصور وهذا الموضع من احدى عجائب العالم وغرائب ما فيه من الصور العجيبة المنقورة فى الصخر والفرس تذكر فى أشعارها وغيرها من العرب هذا الفرس المعروف بشبديز وقد كان أبرويز على شبديز فى بعض

انتهى

انتهى * ومنها قوله كان ابن الكازرونى يأوى الى المسجد الاقصى ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ولقد كان يقرأ فى مهد عيسى عليه السلام فيسمع من الطور فلا يقدر أحد أن يصنع شيأ دون قراءته الا الاصغاء اليه انتهى * ومنها قوله فى تفسير قوله تعالى فى أيام نحسات قيل انها كانت آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء والناس يكرهون السفر يوم الاربعاء لاجل هذه الرواية حتى انى لقيت يوما مع خالى الحسن بن أبى حفص رجلا من الكتاب فودعنا بنية السفر فلما فارقنا قال لى خالى انك لا تراه أبدا لانه سافر فى يوم أربعاء لا يتكرر وكذا كان مات فى سفره وهذا ما لا أراه لان يوم الاربعاء يوم عجيب بما جاء فى الحديث من الخلق فيه والترتيب فان الحديث ثابت بأن الله تعالى خلق يوم السبت التربة ويوم الاحد الجبال ويوم الاثنين الشجر ويوم الثلاثاء المكروه ويوم الاربعاء النور وروى النون وفى غريب الحديث أنه خلق يوم الاربعاء التقن وهو كل شئ تتقن به الاشياء يعنى المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص فاليوم الذى خلق فيه المكروه لا تعافه الناس واليوم الذى خلق فيه النور أو التقن يعافونه ان هذا هو الجهل المبين وفى المغازى ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على الاحزاب من يوم الاثنين الى يوم الاربعاء بين الظهر والعصر فاستجيب له وهى ساعة فاضلة فالآثار الصحاح تدل على فضل هذا اليوم فكيف يدعى فيه التحذير والنحس بأحاديث لا أصل لها وقد صور قوم أياما من الاشهر الشمسية ادعوا فيها الكراهية لا يحل لمسلم أن ينظر اليها ولا يشغل بالا بها لحسبهم الله انتهى * ومنها وكان يقرأ معنا برباط أبى سعيد على الامام دانشمند من بلاد المغرب خنثى ليس له لحية وله ثديان وعنده جارية فربك أعلم به ومع طول الصحبة عقلنى الحياء عن سؤاله وبودى اليوم لو كاشفته عن حاله انتهى * ومن شعر ابن العربى مما نسبه له الشيخ أبو حيان قوله

ليت شعرى هل دروا * أى قلب ملكوا
وفؤادى لو درى * أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا * أم تراهم هلكوا
حار ارباب الهوى * فى الهوى وارتبكوا

* (ومن فوائده) * أخبرنى المهرة من السحرة بأرض بابل أنه من كتب آخر آية من كل سورة ويعلقها لم يبلغ اليه سحرنا قال هكذا قالوا والله تعالى اعلم بما نقلوه * وقال رحمه الله تعالى حذقت القرآن ابن تسع سنين ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية والحساب فبلغت ست عشرة وقد قرأت من الاحرف نحوا من عشرة بما يتبعها من اظهار وادغام ونحوه وتمرنت فى الغريب والشعر واللغة ثم رحل بى أبى الى المشرق ثم ذكر تمام رحلته رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو بكر محمد بن أبى عامر بن حجاج الغافقى الاشبيلى) ومن نظمه بالمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

لم يبق لى سؤل ولا مطلب * مذ صرت جار الحبيب الحبيب
لا أبتغى شيأ سوى قربه * وها أنا منه قريب قريب
من غاب عن حضرة محبوبه * فلست عن طيبة ممن يغيب

ما بقى سير يحيد به ملك الانس وملك الخيل فاطلقه وأجازه ولما نجا بهذا الفرس تحت أبرويز وقصر طالب الى النعمان فى المعركة أن يمن عليه بفرسه المعروف بالحموم فأبى عليه ونجا عليه بنفسه ونظر حسان بن حنظلة بن حية الطائى الى أبرويز وقد خانته الرجال وأشرف على الهلاك فاعطاه فرسه المعروف بالضبيب وقال له أيها الملك انج على فرسى فان حياتك للناس خير من حياتى وأعطاه أبرويز فرسه شيدا دفنجا عليه فى جملة الناس ومضى أبرويز الى أبيه ففى ذلك يقول حسان بن حنظلة الطائى

أعطيت كسرى ما أراد ولم أكن
لاتركه فى الخيل يعثر راجلا
بذلت له ظهر الضبيب وقد بدت
مسومة من خيل ترك وائلا ٣

فكافأه ابرويز بعد ذلك وعرف له ما صنع ولما سار أبرويز من الهزيمة الى أبيه هرمز أشار عليه أن يلحق بقيصر ويستنجده فان الملوك اذا استنجدت فى مثل هذه الحالة انجدت فى خطب جرى بينه وبين ابيه فمضى أبرويز وتبعه غيره من الخواص وخالاه بسطام ونفدويه وعبر دجلة وقطع الجسر خوفا من خيل بهرام

لا تسأل المغبوط عن حاله * جار كريم ومحل خصيب
العيش والموت هنا طيب * بطيبة لي كل شئ يطيب

وممن روى عنه هذه الابيات الاشرف بن الفاضل (ومنهم الشيخ الاديب الفاضل البارع جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن الفقيه الخطيب أبي الحسن محمد بن أبي عبد الله بن عيسى بن محمد بن علي بن ذي النون الانصاري المالقي) من أشياخ ابي حيان لقيه ببلبيس من ديار مصر قال وأنشدني لشيخه أبي عبد الله الاستجي من قصيدة

ما للنسيم سرى يهب عليلا * أتراه يشكو لوعة وغليلا
جرّ الذيول على ديار أحبتي * فأتى يجرّ من السقام ذيولا

وأنشد رحمه الله تعالى لرضوان المخزومي

ان كنت يوسف حسنا * وكنت عبد العزيز
فان يوسف من قبل كان عبد العزيز

وأخذ ابن ذي النون المذكور عن أبي عبد الله بن صالح وقرأ للسبعة على أبي جعفر الفحام وأبي زيد القمارشي وعلى أبي جعفر السهيلي وولد ابن ذي النون سنة ٦١٨ بمالقة ومن تواليفه نفح المسك الاذفر في مدح المنصور بن المظفر وأزهار الخميلة في الآثار الجميلة واستطلاع البشير ومحض اليقين وروض المتقين * (ومنهم زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون ٣) يكنى أبا عبد الله كان فقيه الاندلس على مذهب مالك وهو أوّل من أدخل مذهبه الاندلس وكانوا قبله يتفقهون على مذهب الاوزاعي وأراده الامير هشام على القضاء بقرطبة وعزم عليه فهرب فقال هشام ليت الناس كلهم كزياد حتى أكفى الرغبة في الدنيا وأرسل الى زياد فأمّنه حتى رجع الى داره ويحكى انه لما راده للقضاء كلمه الوزراء في ذلك عن الامير وعرفوه عزمه عليه فقال لهم امّا ان أكرهتموني على القضاء فزوجتي فلانة طالق ثلاثا لئن أتاني مدّع في شئ مما في أيديكم لاخرجنه منه ثم أجعلكم مدّعين فيها فلما سمعوا منه ذلك علموا صدقه فعملوا عند الامير في معافاته سمع من مالك الموطأ ويعرف سماعه بسماع زياد وسمع من معاوية بن صالح وكانت ابنة معاوية تحته وروى يحيى بن يحيى الليثي عن زياد هذا الموطأ قبل أن يرحل الى مالك ثم رحل فأدرك مالكا فرواه عنه الا أبوابا في كتاب الاعتكاف شك في سماعها من مالك فابقى روايته فيها عن زياد عن مالك وتوفى سنة اربع ومائتين وقيل سنة ١٩٣ وقيل في التي بعدها وقيل سنة ١٩٩ والاوّل أولى بالقبول والله تعالى أعلم ورحل في ذلك العصر جماعة من امثال شبطون كفرغوس بن العباس وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند وغيرهم ممن رحل الى الحج أيام هشام بن عبد الرحمن والد الحكم فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به صيته بالاندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالاندلس وكان رائد الجماعة في ذلك شبطون وهو أوّل من أدخل موطأ مالك الى الاندلس مكملا متقنا فأخذه عنه يحيى بن يحيى كما مر وهو اذ ذاك صدر في طلاب الفقه فأشار عليه زياد بالرحيل الى مالك ما دام حيا فرحل سريعا وأخذ يحيى عن زياد هذا الكتب العشرة المنسوبة الى يحيى ولقى أيضا عبد الله بن وهب صاحب مالك وسمع منه موطأه ولقى أيضا عبد الله بن نافع المدني

ونظر في مسيره ذلك اليوم الى خاليه وقد تأخرا عنه فاستراب بهما وبمن انضاف اليهما ممن كان معهم فسألهما عن السبب فقالا لسنا بآمنين أن يدخل بهرام الى أبيك هرمز فيضع تاج المملكة على رأسه وان كان أعمى ويصير هو الهرمزان وتفسير ذلك امير الامراء والروم تسمى صاحب هذه المرتبة الدمستق فيكتب بهرام عن أبيك هرمز الى قيصر ان ابني ابرويز وجماعة انضافوا اليه وثبوا بي وسملوا عيني فاحمله الي فيحملنا قيصر عليه فيأتي علينا بهرام ولا بد لنا من الرجوع الى أبيك وقتله فناشدهما الله أن لا يفعلا ذلك واظهر فيما ذكر عنه البراءة من فعلهما فرجعا من فورهما ومن تسرع معهما الى المدائن وقد صاروا على اميال منها فدخلا على هرمز فخنقاه ولحقا بابرويز ولحقتهم خيل بهرام وكانت منهم حيلة في بعض الديارات الى أن تخلصوا من تلك الخيل وسار أبرويز ففي هرمز يقول ورقة بن نوفل

لم يغن هرمز من شئ خزائنه
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ تجري الرياح له

٣ قوله المعروف بشبطون تقدم انه في نسخة بسبطون وفي أخرى بشطون فليحرر اه

صاحب

صاحب مالك وسمع منه ومن الليث بن سعد فقيه مصر ومن سفيان بن عيينة بمكة وقدم يحيى الاندلس أيام الحكم فانتشر به وبزياد وبعيسى بن دينار علم مالك بالاندلس رضى الله تعالى عن الجميع وقد قدمنا الحديث الذى رواه زياد بن عبد الرحمن عن مالك فليراجع فى الباب الثالث (ومنهم سوار بن طارق مولى عبد الرحمن بن معاوية) قرطبى حج ودخل البصرة ولقى الاصمعى ونظراءه وانصرف الى الاندلس وأدب الحكم ومن ولده محمد بن عبد الله بن سوار حج أيضا ولقى أباحاتم بالبصرة والرياشى وغيرهما وأدخل الاندلس علما كثيرا رحم الله تعالى الجميع (ومنهم بقى بن مخلد الشهير الذكر صاحب التآليف التى لم يؤلف مثلها فى الاسلام ولقى مائتين وأربعة وثمانين شيخا وكانت له خاصة من الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وستأتى جملة مما يتعلق ببقى بن مخلد فى رسالة ابن حزم فى الباب السابع وبقى على وزن على رحمه الله تعالى ورضى عنه وقد عرف ببقى بن مخلد غير واحد من العلماء كصاحب النبراس وغيره * (ومنهم قاسم بن اصبغ بن محمد بن يوسف أبو محمد البيانى) وبيانة من اعمال قرطبة وأصل سلفه من موالى الوليد بن عبد الملك وسمع المذكور بقرطبة من بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح ومطرف بن قيس وأصبغ بن خليل وابن مسرة وغير واحد ورحل الى المشرق مع محمد بن عبد الملك بن أيمن ومحمد بن زكريا بن عبد الاعلى سنة أربع وسبعين ومائتين فسمع بمكة من محمد بن اسمعيل الصائغ وعلى بن عبد العزيز ودخل العراق فلقى من أهل الكوفة ابراهيم بن أبى العنبس قاضيها وابراهيم بن عبد الله القصاد وسمع ببغداد من القاضى اسمعيل وأحمد بن زهير بن حرب وغيرهما كعبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل والحرث بن أبى اسامة وكتب عن ابن أبى خيثمة تاريخه وسمع من ابن قتيبة كثيرا من كتبه وسمع من المبرد وثعلب وابن الجهم فى آخرين وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمرى ومطلب بن شعيب وغيرهما وسمع بالقيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتى الشاعر وانصرف الى الاندلس بعلم كثير فمال الناس اليه فى تاريخ أحمد بن زهير وكتب ابن قتيبة وأخذوا ذلك عنه دون صاحبيه ابن أيمن وابن عبد الاعلى وكان بصيرا بالحديث والرجال نبيلا فى النحو والغريب والشعر وكان يشاور فى الاحكام وصنف على كتاب السنن لابى داود كتابا فى الحديث وسببه انه لما قدم العراق سنة ست وسبعين ومائتين مع صاحبه محمد بن أيمن فوجدا أباداود قد مات قبل وصولهما بيسير فلما فاتهما عمل كل واحد منهما مصنفا فى السنن على أبواب كتاب أبى داود وخرجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما وهما مصنفان جليلان ثم اختصر قاسم بن أصبغ كتابه وسماه المجتنى بالنون وابتدأ اختصاره فى المحرم سنة أربع وعشرين وثلثمائة وجعله باسم الحكم المستنصر وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثا فى سبعة أجزاء ومولده يوم الاثنين عاشر ذى الحجة سنة سبع وأربعين ومائتين رحمه الله تعالى وحكى القرطبى فى تفسيره عند قوله تعالى قالوا لا علم لنا الا ما علمتنا ان قاسم بن أصبغ قال لما رحلت الى المشرق نزلت القيروان فأخذت عن بكر بن حماد حديث مسدد فقرأت عليه يوما فيه حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه قدم عليه قوم من مضر مجتابى النمار فقال انما هو مجتابى الثمار فقلت انما هو مجتابى

والجن والانس تجرى بينها البرد واسرع بهرام جور الى المدائن من النهروان حين بلغه قتل هرمز فاحتوى على الملك ولحق ابرويز بالرها فنزلها وكاتب ملوك الروم وهو مور يقش مع خاله بسطام وجماعة ممن كانوا معه يسئله النصرة على عدوه ويضمن له الوفاء بما ينفعه من امواله والاحسان الى جنده وانه يؤدى اليه ديات من يقتل من رجاله وغير ذلك من الشروط واهدى اليه هدايا كثيرة منها مائة غلام من أبناء أراكنة الترك فى نهاية الحسن والجمال واستقامة الصور فى آذانهم أقراط الذهب فيها الدر واللؤلؤ ومائدة من العنبر قدها ثلاثة أذرع على ثلاث قوائم من الذهب مفصلة بانواع الجواهر أحد الارجل ساعد وكف أسد والآخر ساق وعل بظلفه والثالث كف عقاب بمخلبه فى وسطها جام جزع يمانى فاخر قدره شبر مملوءة حجارة ياقوت أحمر وسفط ذهب فيه مائة درة وزن كل درة مثقال أرفع ما يكون فحمل اليه مور يقش ملك الروم الفى ألف دينار ومائة ألف فارس بعث بهم مع هديته وألف ثوب من الديباج الخزائنى المنسوج بالذهب الاحمر وغيره من الالوان وعشرين جارية من بنات ملوك برجان والجلالقة والصقالبة والوشكنس

التمار هكذا قرأته على كل من لقيته بالاندلس والعراق فقال لى بدخولك العراق تعارضنا وتغير علينا أو نحو هذا ثم قال لى قم بنا الى ذلك لشيخ كان فى المسجد فان له بمثل هذا علما فقمنا اليه وسألناه عن ذلك فقال انما هو مجتابى النمار كما قلت وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم والنمار جمع نمرة فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه رغم أنفى للحق وانصرف انتهى وهذه الحكاية دالة على عظيم قدر الرجلين رحمهما الله تعالى ورضى عنهما ونفعنا بهما * (ومنهم قاسم بن ثابت أبو محمد العوفى السرقسطى) رحل مع أبيه فسمع بمصر من احمد بن شعيب النسائى وأحمد بن عمر البزار وبمكة من عبد الله بن على بن الجارود ومحمد بن على الجوهرى واعتنى بجمع الحديث واللغة هو وأبوه فادخلا الى الاندلس علما كثيرا ويقال انهما أوّل من أدخل كتاب العين الى الاندلس وألف قاسم فى شرح الحديث كتابا سماه الدلائل بلغ فيه الغاية فى الاتقان ومات قبل اكماله فاكمله ابن ثابت بعده وقد روى عن أبى على البغدادى انه كان يقول كتبت كتاب الدلائل وما أعلم انه وضع بالاندلس مثله وكان قاسم عالما بالحديث واللغة متقدما فى معرفة الحديث والنحو والشعر وكان مع ذلك ورعا ناسكا واريد على القضاء بسرقسطة فأبى ذلك فأراد أبوه اكراهه عليه فسأله أن يتركه ينظر فى امره ثلاثة أيام ويستخير الله تعالى فمات فى هذه الثلاثة الايام فيرون انه دعا لنفسه بالموت وكان مجاب الدعوة توفى سنة ٣٠٣ بسرقسطة رحمه الله تعالى * (ومنهم علم الدين ابو محمد المرسى اللورقى وهو قاسم بن احمد بن موفق بن جعفر) العلامة المقرى الاصولى النحوى ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة وقرأ بالروايات قبل الستمائة على أبى جعفر الحصار وابى عبد الله المرادى وابى عبد الله بن نوح الغافقى وقدم مصر فقرأ بها على ابى الجود غياث بن فارس وبدمشق على التاج بن زيد الكندى وسمع ببغداد من ابى محمد بن الاخضر وأخذ العربية عن ابى البقاء ولقى الجزولى بالمغرب وسأله عن مسئلة مشكلة فى مقدمته فاجابه وبرح فى العربية وفى علم الكلام والفلسفة وكان يقرئ ذلك ويحققه واقرأ بدمشق ودرس وشرح المفصل فى النحو فى اربع مجلدات فاجاد وافاد وشرح الجزولية والشاطبية وكان مليح الشكل حسن البزة موطأ الاكناف قرأ عليه جماعة وتوفى سابع رجب سنة ٦٦١ وكان معمرا مشتغلا بانواع العلوم وسماه بعضهم ابا القاسم والاول أصح * (ومنهم قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار ابو محمد) من اهل قرطبة وجده مولى الوليد بن عبد الملك رحل فسمع بمصر من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم والمزنى والبرقى والحرث بن مسكين ويونس بن عبد الاعلى وابراهيم بن المنذر وغيرهم ولزم ابن عبد الحكم للتفقه وتحقق به وبالمزنى وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ويميل الى مذهب الشافعى ولما قال له ابنه محمد بن القاسم يا ابت اوصنى قال اوصيك بكتاب الله فلا تنس حظك منه واقرأ منه كل يوم جزأ واجعل ذلك عليك واجبا وان اردت ان تأخذ من هذا الامر بحظ يعنى الفقه فعليك برأى الشافعى فانى رايته اقل خطأ قال ابو الوليد بن الفرضى ولم يكن بالاندلس مثله فى حسن النظر والبصر بالحجة وقال احمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة ما راينا افقه من قاسم بن محمد فيمن دخل الاندلس من اهل الرحلة وقال اسلم بن عبد العزيز سمعت عن ابن عبد الحكم انه قال لم يقدم علينا من الاندلس احد أعلم

من

وغيرهم من الاجناس المجاورة لملك الروم على رؤسهن اكاليل الجوهر وزوّجه بابنته مارية وحملها اليه مع أخيه سدوس واشترط ملك الروم على أبرويز شروطا كثيرة منها النزول عن الشام ومصر مما كان غلب عليه أنوشروان وترك التعرض لذلك فاجابه الى ذلك وقد كانت ملوك الفرس تتزوّج الى سائر من جاورها من ملوك الامم ولا تزوّجها لانهم أحرار وانجاد وللفرس فى هذا خطب طويل كفعل قريش وتركها النسبق وتحمسها فكانوا يقفون بمزدلفة وهو يوم الحج الاكبر ويقولون نحن الحمس وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم للانصار أنا رجل أحمسى ولما اجتمع لابرويز ما وصفنا سار الى بلاد أذربيجان فاجتمع اليه هنالك من كان من العساكر وانضاف اليه كثير من الجنود والامم وبلغ بهرام جور ما قد عزم عليه فسار اليه فيمن كان معه من عساكره فالتقى الجيشان جميعا فتوجهت على بهرام فانكشف فى نفر من أصحابه وانتهى الى أطراف خراسان وكاتب خاقان ملك الترك فأمنه وسار الى ملكه هو ومن نفر معه من أصحابه وأخته كردية وكانت فى الشجاعة والفروسية نحوه وعليها كان يعول فى كثير من

من قاسم بن محمد ولقد عاتبته فى حين انصرافه الى الاندلس وقلت له اقم عندنا فانك تعتقد ههنا رياسة ويحتاج الناس اليك فقال لابد من الوطن وقال سعيد بن عثمان قال لى احمد بن صالح الكوفى قدم علينا من بلادكم رجل يسمى قاسم بن محمد فرايت رجلا فقيها وألف رحمه الله تعالى كتابا نبيلا فى الرد على ابن مزين وعبد الله بن خالد والعتبى يدل على علمه وله كتاب فى خبر الواحد وكان يلى وثائق الامير محمد طول ايامه روى عنه ابن لبابة وابن ايمن والاعناقى وابنه محمد بن قاسم فى آخرين توفى سنة ست او سبع او ثمان وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى *(ومنهم ابو بكر الغسانى وهو محمد بن ابراهيم بن احمد بن اسود) من اهل المرية قدم الى مصر ولقى بها ابا بكر الطرطوشى ثم عاد الى بلده وشوور واستقضى بمرسية مدة طويلة ثم صرف وسكن مراكش * قال ابن بشكوال توفى بمراكش فى رجب سنة ٦٣٦ وقال ابو جعفر بن الزبير له كتاب تفسير القرآن وبيته بيت علم ودين *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون) من أهل وادى الحجارة قال ابن الفرضى سمع من ابن وضاح والخشنى ونظرائهما بالاندلس ورحل الى المشرق فتردد هنالك نحوا من خمس عشرة سنة وسمع بصنعاء ومكة وبغداد ولقى جماعة من اصحاب الامام أحمد بن حنبل منهم عبد الله بن أحمد وسمع بمصر من الخفاف النيسابورى وابراهيم بن موسى وغيرهما وبالمصيصية والقيروان وكان اماما فى الحديث عالما حافظا للعلل بصيرا بالطرق ولم يكن بالاندلس قبله أبصر بالحديث منه وهو ضابط متقن حسن التوجه للحديث صدوق ولم يذهب مذهب مالك وممن روى عنه ابن أيمن وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة وأحمد بن سعيد بن حزم وقال خالد بن سعيد لو كان الصدق انسانا لكان ابن حيون وكان يزن بالتشيع لشئ كان يظهر منه فى حق معاوية رضى الله تعالى عنه وكان شاعرا وتوفى بقرطبة سنة ٣٠٥ سامحه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن غالب المالقى) قال ابن نقطة سمع بالاسكندرية من أبى الحسن بن المقدسى وكان فاضلا رأيت بخطه اجازة بمصر لبعض المصريين فى رجب سنة ٦٠٤ وسمع بمصر شيأ من الخلعيات قال ابن فرتون الفاسى فى ذيل تاريخ الاندلس روى بمالقة ورحل الى المشرق وحج ولقى أبا الحسن على بن الفضل المقدسى وأخذ عنه كتاب تحقيق الجواب عمن أجيز له مافاته من الكتاب من تأليفه ورجع الى الاندلس ثم نهض الى مراكش فتوفى فى أقصى بلاد السوس فى حدود سنة ٦٤٠ رحمه الله تعالى *(ومنهم اليقورى وهو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم) مصنف كتاب اكمال الاكمال للقاضى عياض على صحيح مسلم وكتب على كتاب الشهاب القرافى فى الاصول وسمع الحديث وقدم الى مصر ومعه مصحف قرآن حمل بغل بعثه ملك المغرب ليوقف بمكة ثم عاد بعد حجه ومات بمراكش سنة ٧٠٧ وقد زرت قبره مرارا قال الحافظ المقريزى واليقورى نسبة الى يقورة بياء آخر الحروف مفتوحة وقاف مشددة وراء مهملة بلد بالاندلس انتهى (ومنهم أبو عبد الله الانصارى وهو محمد بن ابراهيم بن موسى ابن عبد السلام) ويعرف بابن شق الليل من أهل طليطلة سمع بمصر أبا الفرج الصوفى وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد بن النحاس وأبا القاسم بن ميسرة وأبا الحسن بن بشر وغيرهم

حربه ومضى كسرى ابرويز الى دار مملكته وأمر الجنود موزيقش بالاموال والمراكب والكساوى وكافأهم على ما كان منهم فى معونته وحمل اليه الفى ألف دينار وقرن ذلك بهدايا كثيرة وأموال عظيمة من آلات الذهب والفضة ووفى له بكل ماوعده وخرج من كل ما أوجبه على نفسه واحتال ابرويز فى قتل بهرام فى أرض الترك فقتل هناك غيلة وذكر أن رأسه حمل بعد ان احتيل عليه وأخرجه من الناووس الذى كان خاقان ملك الترك دفنه فيه وحمله اليه رجل تاجر فارسى فنصب على باب ابرويز فى رحبة قصره وخرجت كردية فيمن كان معها من اصحاب بهرام من أرض الترك وقد كان لها أخبار فى الطريق مع ابن لخاقان وكاتبها ابرويز فى قتل خاله بسطام وكان مرزبان الديلم بخراسان فقتلته وقتلت خاله الآخر بابيه هرمز ثم صارت كردية اليه فتزوجها وللفرس كتاب مفرد فى أخبار بهرام جور وما كان من مكايده ببلاد الترك حين صارت اليه واستنقاذه لابنة ملك الترك من حيوان اسمه السمع نحو العيز الكبير كان قد احتملها من بين جوار بها وعلا بها وقد خرجت لبعض متنزهاتها وما كان من بدء حاله الى مقتله ونسبه وكان وزير ابرويز والغالب عليه والمدبر لامره حكيم

وسمع بطليطلة من جماعة وحدّث عن جماعة من المحدّثين كثيرة * قال ابن بشكوال وكان فقيها عالما واماما متكلما حافظا للفقه والحديث قائما بهما متقنا لهما الا أن المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعلله كان أغلب عليه وكان مليح الخط جيد الضبط من أهل الرواية والدراية والمشاركة فى العلوم وكان أديبا شاعرا مجيدا لغويا دينا فاضلا كثير التصانيف والكلام على علم الحديث حلو الكلام فى تأليفه وله عناية باصول الديانات واظهار الكرامات توفى بطلبيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٠٠ رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الامام الشهير الكبير الولى العارف بالله سيدى أبو عبد الله القرشى الهاشمى الاندلسى) شيخ السالكين وامام العارفين وقدوة المحققين قدم مصر بعد ما صحب ببلاد المغرب جماعة من اعلام الزهاد وكان يقول صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم باربعة الشيخ أبو الربيع والشيخ أبو الحسن بن طريف والشيخ أبو زيد القرطبي والشيخ أبو العباس الجوزى وسلك على يده جماعة منهم الشيخ أبو العباس القسطلانى فانه أخذ عنه كلامه وجمعه فى جزء وخرج سيدى أبو عبد الله القرشى من مصر الى بيت المقدس فأقام به الى حين وفاته عشية الخميس السادس من ذى الحجة سنة ٥٩٩ عن خمس وخمسين سنة ودفن هنالك وقبره ظاهر يقصد للزيارة زرته أوّل قدماتى على بيت المقدس سنة ١٠٣٨ ومن كلامه من لم يدخل فى الامور بلطف الادب لم يدرك مطلوبه منها وقوله العاقل يأخذ ما صفا ويدع التكلف فانه تعالى يقول وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال من لم يراع حقوق الاخوان بترك حقوقه حرم بركة الصحبة وقال سمعت الشيخ أبا اسحق ابراهيم بن طريف يقول لما حضرت الشيخ أبا الحسن بن غالب الوفاة قال لاصحابه اجتمعوا وهللوا سبعين ألف مرة واجعلوا ثوابها لى فانه بلغنى انها فداء كل مؤمن من النار قال فعملناها واجتمعنا عليها وجعلنا ثوابها له ثم حكى عن شيخه أبى زيد القرطبي ما حكاه السنوسى عنه فى أواخر شرح صغراه وقد أنكر غير واحد من الحفاظ كابن حجر وغيره كون ماذكر حديثا ولعل هؤلاء أخذوه من جهة الكشف ونحوه والله تعالى أعلم وقال رحمه الله تعالى دخلت على الشيخ أبى محمد عبد الله المغاورى فقال لى أعلمك شيأ تستعين به اذا احتجت لشئ فقل يا واحد يا أحد يا واجد يا جواد انفعنا منك بنفحة خير انك على كل شئ قدير قال فأنا انفق منها منذ سمعتها وقال رحمه الله تعالى ما من حال ذكر فى رسالة القشيرى الا وقد شاهدته نفسى وتزوّج رحمه الله تعالى بنساء حدّثن عنه بكرامات ومنهنّ أم القطب القسطلانى وحكت انها خرجت عنه يوما لحاجتها ثم عادت فسمعت عنده فى طبقته حس رجل فتوقفت وتفقدت الباب فوجدته مغلقا فلما انقطع الكلام دخلت اليه فاذا هو وحده كما تركته وسألته عن ذلك فقال هو الخضر دخل على وفى يده حية فقال هذه حيتك جئتك بها من أرض نجد وفيها شفاء مرضك فقلت لا أريد اذهب أنت وحيتك لا حاجة لى بها ودخل عليه بعض نسائه يوما فوجدته بصيرا نقى الجسم من الجذام فلما نظرته قال لها أتريدين أبقى لك هكذا فقالت له يا سيدى كن كيف شئت انما مقصودى خدمتك وبركتك وقيل له وقد تكاثرت منه رؤية الاشياء واخباره بها مع كونه ضريرا عن ذلك فقال كلى أعين بأى عضو

من حكماء الفرس وهو بزرجمهر بن البختكان فلما خلا من ملكه ثلاث عشرة سنة اتهمه بالميل الى بعض الزنادقة من الثنوية فأمر بحبسه وكتب اليه كان من ثمرة علمك ونتيجة ما اداك اليه عقلك أن صرت أهلا للقتل وموضعا للعقوبة فكتب اليه بزرجمهر أما اذا كان معى الجد وكنت أنتفع بثمرة عقلى فالآن اذ لاجد معى فقد أنتفع بثمرة الصبر واذ قد فقدت كثير الخير فقد استرحت من كثير من الشر واغرى ابرويز ببزرجمهر فدعا به وامر بكسر انفه وفمه فقال بزرجمهر فى لأهل لما هو شر من هذا فقال ابرويز ولم يا عدو الله المخالف فقال لانى كنت اصفك لخواص الناس وعوامهم بما ليس فيك وأقربك من قلوبهم وارفع من محاسن أمورك ما لم تكن عليه اسمع منى يا شر الملوك نفسا واخبثهم فعلا وأسوأهم عشرة لا تقتلنى بالشك وترفع به اليقين الذى قد علمته منى بالتمسك بالشريعة من ذا الذى يرجو عدلك ويثق بقولك ويطمئن اليك فغضب ابرويز وامر به فضرب عنقه ولبزرجمهر فى ايدى الناس قضايا وحكم ومواعظ وكلام كثير فى الزهد وغيره وندم ابرويز على قتله وتأسف ودعا بجبرادنوس الوزير الثانى وكانت مرتبته دون مرتبة بزرجمهر فلما راى بزرجمهر أردت

اردت ان انظر به نظرت وقال هممت ان أدعو برفع الغلاء فقيل لي لا تدع فما نسمع لاحد منكم في هذا الامر دعاء فسافرت الى الشام فلما وصلت الى بلد الخليل عليه السلام تلقاني رسول الله الخليل حين ورودي عليه فقلت يا رسول الله اجعل ضيافتي عندك أهل مصر فدعا لهم ففرج عنهم ومناقبه رحمه الله تعالى وكراماته لا يفي بها هذا المختصر وانما قصدنا بذكره البركة وكفارة ما وقع في هذا الكتاب من الاحماض والله المرجو في العفو * ومن فوائده ما نقله عن شيخه أبي الربيع المالقي انه قال ألا اعلمك كنزا تنفق منه ولا ينفد قلت بلى قال قل يا الله يا أحد يا واحد يا موجود يا جواد يا باسط يا كريم يا وهاب يا ذا الطول يا غني يا مغني يا فتاح يا رزاق يا عليم يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام يا حنان يا منان انفحني منك بنفحة خير تغنيني بها عمن سواك ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح انا فتحنا لك فتحا مبينا نصر من الله وفتح قريب اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعالا لما يريد اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك واحفظني بما حفظت به الذكر الحكيم وانصرني بما نصرت به الرسل انك على كل شئ قدير فمن داوم على قراءته بعد كل صلاة خصوصا صلاة الجمعة حفظه الله تعالى من كل مخوف ونصره على أعدائه وأغناه ورزقه من حيث لا يحتسب ويسر عليه معيشته وقضى عنه دينه ولو كان عليه أمثال الجبال دينا بكرمه واحسانه انتهى نقله عنه العلامة ابن داود البلوري الاندلسي ومن خطه نقلت رحم الله تعالى الجميع ونقله اليافعي كما ذكر رحمه الله تعالى الا انه لم يقل فيه يا ودود واتفقا فيما عدا ذلك والله سبحانه أعلم * وقال ابن خلكان في حقه محمد بن أحمد بن ابراهيم القرشي الهاشمي العبد الصالح الزاهد من أهل الجزيرة الخضراء كانت له كرامات ظاهرة ورأيت أهل مصر يحكون عنه أشياء خارقة ولقيت جماعة ممن صحبه وكل منهم يثني عليه من بركته وذكروا عنه أنه وعد جماعته الذين صحبوه مواعيد من الولايات والمناصب العلية وأنها صحت كلها وكان من السادات الاكابر والطراز الاول وهو مغربي صحب بالمغرب اعلام الزهاد وانتفع بهم فلما وصل الى مصر انتفع به من صحبه او شاهده ثم سافر الى الشام قاصدا زيارة بيت المقدس وأقام بها الى ان مات وصلى عليه بالمسجد الاقصى وهو ابن خمس وخمسين سنة وقبره ظاهر للزيارة والتبرك * والجزيرة الخضراء في بلاد الاندلس مدينة تقابل سبتة من بر العدوة ومن جملة وصاياه لاصحابه سيروا الى الله تعالى عرجا ومكاسير فان انتظار الصحة بطالة انتهى ببعض اختصار *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين بن أبي الحسين القرطبي) سمع من قاسم بن أصبغ وغيره وقدم مصر فسمع بها من ابن الورد وابن أبي الموال والباوردي وابن السكن في آخرين وسمع بالرملة وبيت المقدس وكان ضابطا بصيرا بالنحو واللغة فصيحا بليغا طويل اللسان ولي الشرطة ببلاد المغرب توفي سنة ٣٧٣ *(ومنهم أبو بكر الجياني محمد بن علي بن خلف التجيبي الاشبيلي الحافظ الكاتب) روى عن ابن الجد وغيره ومر بمصر حاجا فلقي بمكة أبا حفص الميانشي وأبا الحسن المكناسي ولقي بالاسكندرية السلفي وابن عوف وغيرهما وكان مدرسا للفقه فقيها جليلا متقدما

قتيلا اسف عليه وعلم انه لا ينجو فأغلظ لابرويز في الكلام فأمر به فقتل واغرق في دجلة فلما عدم هذين الرجلين وما كانا عليه من الكفالة وتدبير الملك استوحش من شر بعة العدل وواضحة الحق فعدل الى الجور والعسف بخواص رعيته وعوامها وحملها على مالم تكن تعهده واوردهم الى مالم يكونوا يعرفونه من الظلم ووثب بطريق من بطارقة الروم يقال له فانوس فيمن اتبعه على موريقش ملك الروم حمو ابرويز فجده فقتلوه وملكوا موادس ونمى ذلك الى ابرويز فغضب لحموه وسير الى الروم الجيوش وكانت له في ذلك اخبار يطول ذكرها وسير شهريار مرزبان المغرب الى حرب الروم فنزل انطاكية فكانت له مع الروم وابرويز اخبار ومكاتبات وحيل الى ان خرج ملك الروم الى حرب شهريار وقدم خزائنه في البحر في الف مركب فالقتها الريح الى ساحل انطاكية فغنمها شهريار وحملها الى ابرويز فسميت خزائن الريح ثم فسدت الحال بين ابرويز وشهريار ومايل شهريار ملك الروم فسير شهريار نحو العراق الى ان انتهى الى النهروان فاحتال ابرويز في كتب كتبها مع بعض اساقفة النصرانية ممن كان في ذمته حتى رده الى القسطنطينية وافسد الحال بينه وبين شهريار وغير ذلك مما قد اتينا

فيه عارفا فاضلا سنيا توفى بعد امتحان من منصور بن عبد المؤمن سنة ٥٩٦ وذلك انه وشى به للمنصور أيام عزم على ترك التقليد والعمل بالحديث *(ومنهم أبو بكر الاندلسى الجيانى محمد بن على بن عبد الله بن محمد بن ياسر الانصارى) سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وماوراء النهر ولقى أئمتها وتفقه ببخارى حتى تمهر فى المذهب والخلاف والجدل ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصل منه كثيرا ثم سكن بلخ مدة وعاد الى بغداد ودخلها سنة ٥٥٩ وتوجه الى مكة فحج ورجع الى الشام واستوطن حلب الى ان توفى بها ووقف كتبه وكان متدينا صدوقا حافظا عالما بالحديث وفيه فضل ولد بجيان سنة ٤٩٢ ومات بحلب سنة ٥٦٣ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن على التجيبى الدهان الغرناطى) كان حسن السمت بارع الخط والخلق والخلق رحل الى الحج وجال فى البلاد فى حدود سنة ست وستمائة فاخذ بمكة والشام ومصر والاسكندرية عن جماعة كثيرة وكان عدلا فاضلا على خير ودين وكان متحرفا بالتجارة بغرناطة ثم خرج منها آخر عمره فمات بقوص بعدما حج سنة ٦٥٠ وصدر من مكة سنة ٦٥٣ فمات قبل منتصف السنة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عمر محمد بن على بن محمد بن أبى الربيع القرشى العثمانى الاندلسى الاشبيلى النحوى ولد سنة ٦١٧ باشبيلية وقدم مصر فسمع الكثير بها وبدمشق وغيرها وكان اماما عالما نحويا فاضلا كتب عنه أبو محمد الدمياطى والقطب عبد الكريم وناهيك بهما علما *(ومنهم أبو بكر بن عبد الله محمد بن على بن محمد بن على بن على بن هذيل البلنسى) رحل وسمع من السلفى وحج قال أبو الربيع بن سالم هو شيخ صدوق متيقظ سمع أباه وأبا الوليد ابن الدباغ وأبا الحسن بن طارق بن موسى بن يعيش وجماعة وأخذ بمكة سنة ٥٣٩ عن ابى على الحسن المقرى وقفل الى الاندلس سنة ٥٤٦ فاخذ عنه بها وسمع منه جماعة قال ابن الابار وكان غاية فى الصلاح وأعمال البر والورع توفى ببعض قرى بلنسية سنة ٥٤٨ ومولده سنة سبع او تسع عشرة وخمسمائة وله حظ من علم التعبير واللغة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله ويقال أبو سلمة محمد بن على البياسى الغرناطى الانصارى ناصر الدين) روى عن الحافظ أبى جعفر بن الزبير وغيره وقدم الى القاهرة واستوطنها بعد الحج حتى مات بها سنة ٧٠٣ وكان عارفا بعلم الحديث وكتب منه كثيرا ومال الى مذهب الظاهرية وانتفع به جماعة من طلبة الحديث وكان ثقة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن على بن يحيى بن على الشامى الاندلسى الغرناطى) قدم مصر حاجا وأقام بمكة والمدينة وكان اماما فاضلا عالما متفننا فى علوم ما بين فقه وأصول ونحو ولغة وقراآت ونظم ونثر ومع معرفته بمذهب مالك ينقل كثيرا من مذهب الشافعى وسمع الموطا بتونس من أبى محمد بن هرون القرطبى ومولده بغرناطة سنة ٦٧١ وتوفى سنة ٧١٥ ومن شعره رضى الله تعالى عنه

اذا كنت جار النبى وصحبه * ومكة بيت الله منى على قرب
فما ضرنى أن فاتنى رغد عيشة * وحسبى الذى أوتيته نعمة حسبى

وقوله

نزيل الكرام عزيز الجوار * وانى نزيل عليكم وجار

على ذكره فى الكتاب الاوسط وفى ملك ابرويز كانت حروب ذى قار وهو اليوم الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم هذا اول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونصرت عليهم بى وكانت وقعة ذى قار لتمام أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة بعد ان بعث وقيل بعد ان هاجر وفى رواية اخرى انها كانت بعد وقعة بدر باشهر ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكانت هذه الوقعة بين بكر بن وائل والهامرز صاحب كسرى ابرويز وقد اتينا على هذه الاخبار على الشرح والايضاح فى الكتاب الاوسط فاغنى ذلك عن ايراده فى هذا الموضع وفى ايام ابرويز كانت حوادث تنذر بالنبوة وتبشر بالرسالة وانفذ ابرويز عبد المسيح بن بقيلة الغسانى الى سطيح الكاهن فاخبره برؤيا الموبذان وارتجاج الايوان وغير ذلك من اخبار فيض وادى السماوة وما كان من بحيرة ساوة وكان لابرويز تسعة خواتم تدور فى امر الملك منها خاتم فصه ياقوت احمر نقشه صورة الملك وحوله مكتوب صفة الملك وحلقته ماس ذكر يختم به الرسائل والسجلات والخاتم الثانى فصه عقيق نقشه خراسان خره وحلقته ذهب يختم به التذكرات والخاتم الثالث فصه جزع نقشه فارس

حلت ذراك وأنت الكريم * ومن حل مثوى كريم يجار

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمار الكلاعي الميورقي) قدم مصر وروى عن ابن الوليد بها وكان عالما وله قصيدة طويلة فيها حكم ومواعظ يوصي ابنه بها منها قوله

وطاعة من اليه الامر فالزم * وان جاروا وكانوا مسلمينا
فان كفروا ككفر بني عبيد * فلا تسكن ديار الكافرينا

واسم ابنه حسن وسمع من المذكور الحافظ القاضي أبو بكر بن العربي في رحلته سنة ٤٨٠ ووصفه بالعلم وعمار بالراء *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفخار القرطبي الحافظ) روى عن عيسى الليثي وابن عون الله وأبي جعفر التميمي وأبي محمد الباجي وقدم مصر وحج وجاور بالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام وافتى بها وافتخر بذلك على أصحابه وقال لقد شوورت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم دار مالك بن أنس ومكان شواره ولقي جماعة من العلماء وأخذ عنهم وكان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم عارفا بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء ذاكرا للروايات يحفظ المدونة والنوادر لابن أبي زيد ويوردها من صدره دون كتاب قال ابن حيان مؤرخ الاندلس توفي الفقيه المشاور الحافظ المستبحر الرواية الطويل الهجرة في طلب العلم الناسك المتقشف بمدينة بلنسية في ربيع الاول سنة ٤١٧ لعشر خلون من الشهر وكان الحفل في جنازته عظيما وعاين الناس فيها آية من ظهور أشباه الخطاطيف بها تخللت الجمع رائحة فوق النعش لم تفارق نعشه الى ان ووري فتفرقت ومكث مدة ببلنسية مطاعا عظيم القدر عند السلطان والعامة وذكر جماهر بن عبد الرحمن حديث الطير وكذا ذكر الحسن بن محمد القبسي خبر الطير قال وكان سنه نحو الثمانين سنة وكان مجاب الدعوة وظهرت في دعوته الاجابة وقال أبو عمرو الداني ان وفاته يوم السبت لسبع خلون من شهر ربيع الاول سنة تسع عشرة ودفن يوم الاحد بمدينة بلنسية وبلغ نحو ستا وسبعين سنة وهو آخر الفقهاء الحفاظ الراسخين العاملين بالكتاب والسنة بالاندلس رحمه الله تعالى (ومنهم أبو عبد الله محمد بن عمروس القرطبي) سمع على ابن مفرح وغيره من شيوخ قرطبة وقدم مصر فاخذ بها عن ابن المهندس وغيره وحج ودخل العراق وسمع من أبي بكر الابهري والدارقطني وجماعة وعاد الى الاندلس وشهر بالعلم والمال وولي الاحباس بقرطبة حدث عنه أبو عمر بن عبد البر وغيره ومات في جمادى الآخرة سنة أربعمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المغافري المعروف بالاعشى القرطبي) رحل سنة ١٧٩ فسمع سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح ويحيي بن سعيد القطان وعبد الله بن وهب وجماعة وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب الى مذهب أهل العراق وتوفي سنة ٢٢١ ذكره ابن يونس وغيره *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي الالبيري الزاهد) قال الحميدي في حقه هو من أهل الحديث والحفظ والفهم والبحث عن الرجال وله رحلة سمع فيها من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ومن ابن وهب ابن أخي عبد الله بن وهب وغيرهما وروى بالاندلس عن جماعة منهم بقي بن مخلد وابن وضاح وسمع بمكة وغيرها من مائة شيخ قال ابن الفرضي كان شيخنا نبيلا ضابطا لكتبه ثقة في روايته

وحلقته ذهب منقوش فيه الوحا يختم به اجوبة البريد والخاتم الرابع فصه ياقوت مورد نقشه بالمال ينال الفرح وحلقته ذهب يختم به الترايك والكتب في التجاوز عن العصاة والمذنبين والخاتم الخامس فصه ياقوت بهرمان وهو احسن ما يكون من الحمرة واصفاها واشرفها نقشه حره وحزم اي بهجة وسعادة حافتاه لؤلؤ وماس يختم به خزائن الجوهر وبيت مال الخاصة وخزانة الكسوة وخزانة الحلي والخاتم السادس نقشه عقاب يختم به كتب الملوك الى الآفاق وفصه حديد حبشي والخاتم السابع نقشه ذباب يختم به الادوية والاطعمة والطيب فصه بادزهر والخاتم الثامن فصه جماهن نقشه راس خنزير يختم به اعناق من يؤمر بقتله وما ينفذ من الكتب في الدماء والخاتم التاسع حديد يلبسه عند دخول الحمام وفصه الابزن وكان على مربطه خمسون الف دابة وسروج ذهب مكللة بالدر والجوهر على عدد ما لركابه من الخيل وكان على مربطه الف فيل منها اشهب اشد بياضا من الثلج ومنها ما ارتفاعه اثنا عشر ذراعا وفي النادر ما يوجد من الفيلة الحربية ما ارتفاعه هذا القدر واكثر ما يوجد من ارتفاع الفيلة من التسعة أذرع الى العشرة وملوك الهند تبالغ في اثمان ما عظم من الفيلة

صدوقا في حديثه وكانت الرحلة اليه بالبيرة وبها مات في شوال سنة ٣١٩ وهو ابن تسعين سنة رحمه الله تعالى (ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن محمد بن سيار القرطبي) من موالي بني أمية سمع من أبيه ومن بقي بن مخلد وغيره ورحل سنة ٢٩٤ فسمع بمصر من النسائي ومن أحمد بن حماد زغبة وسمع بمكة والبصرة والكوفة وبغداد ودمياط والاسكندرية والقيروان من مائة وستين رجلا قال أبو محمد الباجي لم أدرك بقرطبة أكثر حديثا منه وكان عالما بالفقه متقدما في علم الوثائق وأسانيدها وكان مشاورا واسمع من الناس كثيرا وكان ثقة صدوقا وغزا سنة ٣٢٧ ومات ثالث ذي الحجة منها ومولده سنة ٢٦٣ وقيل توفي سنة ٣٢٨ قاله ابن يونس والحميدي *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم القرشي الفهري) عرف بابن رمان الغرناطي قرأ على أبي جعفر بن الزبير بها وقدم الى القاهرة سنة ٧٢٢ ومات بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام سنة ٧٢٩ ومن شعره قوله

فديتم خبروني كيف صحت * فريضة هالك من غير مين
لزيد زوجة ولها ابن ام * فماتت عنهما الا غير دين
فحاز البعل ما تركته ارثا * وولى غيره صفر اليدين
ولا رق فديت على أخيها * وليس بكافر يرمى بشين
وليس مجللا ارثا بقتل * مخافة أن ينال شقاوتين

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن لب الشاطبي) حدث بالقاهرة وتوفي قريبا من سنة ٦٤٠ وهو أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ ومن كلامه اشتغالك بوقت لم يأت تضييع للوقت الذي أنت فيه ولعمري لقد صدق *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سراقة الشاطبي ابن محمد بن ابراهيم ابن الحسين بن سراقة محيي الدين ويكنى ايضا أبا القاسم وأبا بكر الانصاري الشاطبي المالكي) ولد بشاطبة سنة ٥٩٢ وسمع من أبي القاسم بن بقي ورحل في طلب الحديث فسمع ببغداد من الشيخ أبي حفص عمر السهروردي وأبي طالب القبيطي وابي جعفر الدينوري وجماعة وسمع بحلب من ابن شداد وغيره وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة بعد وفاة ابن سهل القصري سنة ٦٤٢ وبقي بها الى ان توفي بالقاهرة في شعبان سنة ٦٦٣ ودفن بسفح المقطم وكان الجمع كبيرا وهو أحد الائمة المشهورين بغزارة الفضل وكثرة العلم والجلالة والنبل وأحد مشايخ الصوفية له في ذلك اشارات لطيفة مع الدين والعفاف والبشر والوقار والمعرفة الجيدة بمعاني الشعر وكان صالح الفكرة في حل التراجم مع ما جبل عليه من كرم الاخلاق واطراح التكليف ورقة الطبع ولين الجانب ومن شعره قوله

نصبت ومثلي للمكارم ينصب * ورمت شروق الشمس وهي تغرب
وحاولت احياء النفوس باسرها * وقد غربت يا بعد ما أنا أطلب
وأتعب ان لم تمنح الخلق راحة * وغيري ان لم تتعب الخلق يتعب
مرادي شيء والمقادير غيره * ومن عاند الاقدار لا شك يغلب

وقوله

الى كم أمني النفس ما لا تناله * فيذهب عمري والاماني لا تقضى

وارتفع من الارض وقد يكون من ٣٥٢ الوحشية في ارض الزنج ما هو اعظم سمكا مما وصفنا بأذرع كثيرة على حسب ما تحمل من قرونها المسماة بالانياب ما وزن الناب خمسون ومائة من الى المائتين والمن رطلان بالبغدادي وعلى قدر عظم الناب عظم جسد الفيل وقد كان ابرويز خرج في بعض الاعياد وقد صفت له الجيوش والعدد والسلاح وفيما اصف له الف فيل وقد أحدقت به خمسون ألف فارس دون الرجالة فلما نظرته الفيلة سجدت له فما رفعت رؤسها وبسطها الخراطيمها حتى جذبت بالمحاجن وراطنها الفيالون بالهندية فلما بصر بذلك أبرويز تأسف على ما خص به الهند من فضيلة الفيلة وقال ليت الفيل لم يكن هنديا وكان فارسيا انظروا اليها والى سائر الدواب وفضلوها بقدر ما ترون من معرفتها وأدبها وقد افتخرت الهند بالفيلة وعظم أجسامها ومعرفتها وحسن طاعتها وقبولها الرياضات وفهمها المرادات وتمييزها بين الملك وغيره وان غيرها من الدواب لا يفهم شيأ من ذلك ولا يفصل بين شيئين وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملا من الفصول في اخبار الفيلة وما قالته الهند وغيرهم في ذلك وتفضيلها على سائر الدواب فكانت مدة ملك ابرويز الى ان خلع وسملت عيناه وقتل

وقد

وقدم لي خمس وعشرون حجة * ولم أرض فيها عيشتي فتي أرضى
وأعلم أني والثلاثون مدتي * حريّ غناني اللهو أوسعها رفضا
فماذا عسى في هذه الخمس أرتجي * ووجدي الى أوب من العشر قد أفضى
فيارب عجل لي حياة لذيذة * والا فبادر بي الى العمل الأرضى

وقال رحمه الله تعالى

وصاحب كالزلال يعدو * صفاؤه الشك باليقين
لم يحص الا الجميل مني * كأنه كاتب اليمين

وهذا عكس قول المنازي

وصاحب خلته خليلا * وما جرى غدره ببالي
لم يحص الا القبيح مني * كأنه كاتب الشمال

(ومنهم أبو عبد الله محمد بن احمد الفريشي) بكسر الفاء وتشديد الراء المهملة بعدها شين معجمة نسبة الى فريش احدى مدائن قرطبة ولد بغرناطة سنة ٥٥٧ وقرأ بالروايات على أبي القاسم بن غالب وسمع عليه وعلى أبي القاسم بن بشكوال وغيره وسمع بمكة وحدث بمصر وعاد الى الاندلس فمات بقرطبة سنة ٦٣٣ وكان مشهورا بالصلاح معروفا باجابة الدعاء ورعا ثقة زاهدا فاضلا رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن خيرون وقيل محمد بن عمر بن خيرون) أندلسي سكن القيروان رحل الى المشرق واخذ القراآت بمصر عن محمد بن سعيد الانماطي وغيره كعبد الله بن رجاء وأبي الحسن بن اسمعيل بن يعقوب الازرق المدني ودخل العراق وسمع به من أصحاب علي بن المديني ويحيى بن معين وعاد الى القيروان وسمع بها وبقرطبة وقدم بقراءة نافع على اهل افريقية وكان الغالب على قراءتهم حرف حمزة ولم يكن يقرأ بحرف نافع الا الخواص حتى قدم بها فاجتمع اليه الناس ورحل اليه أهل القيروان من الآفاق وكان ياخذ أخذا شديدا على مذهب المشيخة من أصحاب ورش وتوفي بشعبان سنة ٣٥٦ وكان رجلا صالحا فاضلا كريم الاخلاق اماما في القراآت مشهورا بذلك ثقة مأمونا واحد أهل زمانه وأثبتهم في علم القرآن رحمه الله تعالى *(ومنهم ضياء الدين أبو جعفر محمد بن محمد بن صابر بن بندار القيسي الاندلسي المالقي) ولد بمالقة سنة ٥٦٢ وسمع الكثير وقدم القاهرة حاجا فسمع بها وبدمشق وكتب بخطه كثيرا وكان سريع الكتابة سريع القراءة كثير الفوائد دينا خيرا فاضلا له مشاركة جيدة في عدة علوم توفي شابا بالقاهرة سنة ٦٦٢ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو بكر محمد الزهري المعروف بابن محرز البلنسي) ولد بها سنة ٥٢٩ وقدم مصر فسمع ابن الفضل وغيره وروى عنه جماعة وكان أحد رجال الكمال علما ودراية وفصاحة وحفظا للفقه وتفننا في العلوم ومتانة في الادب حافظا للغة والغريب وله شعر رائق ودين متين وأخذ الناس عنه ببلده وبمرسية واشبيلية ومالقة وغرناطة في اجتيازه عليها وبغيرها من البلاد وعلا صيته وعرف بالدين والعلم والفضل وكان أبو الخطاب يثني على علمه ودينه توفي ببجاية سنة ٦٥٥ عن سن عالية رحمه الله تعالى *(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق)* القاضي أبو الوليد الباجي صاحب التصانيف

ثمانيا وثلاثين سنة (ثم ملك بعده) ولده قباذ المعروف بشيرويه القابض على ابيه والجاني عليه والقاتل له والفرس تسميه المشؤم وفي ايامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الاقاليم فهلك فيه مائتا الف من الناس فالمكثر يقول هلك نصف الناس والمقل يقول الثلث وكان ملك شيرويه الى ان هلك سنة وستة اشهر وقيل اقل من ذلك ولكسرى ابرويز ولابنه شيرويه اخبار عجيبة ومراسلات قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا (ثم ملك بعد شيرويه) ولده أردشير ولي عهد الملك وهو ابن سبع سنين فسار اليه من انطاكية من بلاد الشام شهريار مرزبان المغرب المقدم ذكره مع ابرويز وملك الروم فقتله فكان ملكه خمسة أشهر (ثم ملك شهريار) نحوا من عشرين يوما وقيل شهرين وقيل غير ذلك واغتالته ابنة لكسرى أبرويز يقال لها آزرمي دخت فقتلته (ثم ملك كسرى بن قباذ بن أبرويز) وقيل انه ابن لابرويز وكان بناحية الترك فسار يريد دار الملك فقتل في الطريق بعد ملكه ثلاثة أشهر (ثم ملك بعده بوران) بنت كسرى ابرويز فكان ملكها سنة ونصفا

(ثم ملك رجل) من أهل بيت الملك من ولد سابور بن يزدجرد الاثيم يقال له فيروز خشنس فكان

المشهورة وقال ابن ماكولا فى حقه انه فقيه متكلم أديب شاعر سمع بالعراق ودرس وصنف الى أن مات وكان جليلا رفيع القدر والخطر وقال غير واحد انه ولد سنة ٤٠٣ وارتحل سنة ٤٢٦ وجاور ثلاثة أعوام ملازما لابى ذر الحافظ يخدمه ورحل الى بغداد ودمشق ولقى فى رحلته غير واحد وتفقه بالقاضى أبى الطيب الطبرى وغيره وقال أبو على بن سكرة ما رأيت مثل أبى الوليد الباجى وما رأيت أحدا على هيئته وسمته وتوقير مجالسه ولما كنت ببغداد قدم ولده أبو القاسم فسرت معه الى شيخنا قاضى القضاة الشاشى فقلت له أدام الله تعالى عزك هذا ابن شيخ الاندلس فقال لعله ابن الباجى فقلت نعم فأقبل عليه قال القاضى عياض وكثرت القالة فى القاضى أبى الوليد لمداخلته الرؤساء وولى قضاء أماكن تصغر عن قدره وكان يبعث الى تلك النواحى خلفاءه وربما أتاها المرة ونحوها وكان فى أول أمره مقلا حتى احتاج الى القصد بشعره واستاجر نفسه مدة مقامه ببغداد فيما سمعته مستفيضا لحراسة درب وقد جمع ابنه شعره قال ولما قدم الاندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة الا أنه كان خارجا عن المذهب ولم يكن بالاندلس من يشتغل بعلمه فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها واتبعه اهلها فلما قدم ابو الوليد كلموه فى ذلك فدخل اليه وناظره وشهر باطله وله معه مجالس كثيرة ولما تكلم ابو الوليد فى حديث الكتابة يوم الحديبية الذى فى البخارى قال بظاهر لفظه فانكر عليه الفقيه ابو بكر الصائغ وكفره باجازة الكتب على الرسول الامى صلى الله عليه وسلم وانه تكذيب للقرآن فتكلم فى ذلك من لم يفهم الكلام حتى اثاروا عليه الفتنة وقبحوا عليه عند العامة ما اتى به وتكلم به خطباؤهم فى الجمع وقال شاعرهم

برئت ممن شرى دنيا بآخرة * وقال ان رسول الله قد كتبا

فصنف ابو الوليد رحمه الله تعالى رسالة بين فيها ان ذلك غير قادح فى المعجزة فرجع بها جماعة اذ ليس من عرف ان يكتب اسمه فقط بخارج عن كونه اميا لانه لا يسمى كاتبا وجماعة من الملوك قد ادمنوا على كتابة العلامة وهم اميون والحكم للغالب لا للصور النادرة وقد قال عليه الصلاة والسلام انا امة اميون اى اكثرهم كذلك لندور الكتابة فى الصحابة وقال تعالى هو الذى بعث فى الاميين رسولا منهم انتهى وبعضه بالمعنى وذكر ابن بسام ان ابا الوليد الباجى نشأ وهمته فى العلم وانه بدا بالادب فبرز فى ميادينه وجعل الشعر بضاعته فنال به من كل الرغائب ثم رحل فاحل بلد الاوجده ملآن بذكره نشوان من قهوتى نظمه ونثره فال الى علم الديانة فمشى بقياس وبنى على اساس حتى صار كثير من العلماء يسمعون منه ويرتاحون للاخذ عنه ثم كر واستقضى فى طريقه بحلب فاقام بها نحوا من عام قال وبلغنى عن ابن حزم انه كان يقول لو لم يكن لاصحاب المذهب المالكى بعد عبد الوهاب الامثل أبى الوليد الباجى لكفاهم وصنف ابو الوليد كتبا كثيرة منها كتاب التسديد الى معرفة التوحيد وكتاب سنن المنهاج وترتيب الحجاج وكتاب احكام الفصول فى أحكام الاصول وكتاب التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخارى فى الصحيح وكتاب شرح الموطا وهو نسختان نسخة سماها الاستيفاء ثم انتقى منها فوائد سماها المنتقى فى سبع مجلدات وهو احسن كتاب

(ثم ملك فرخ زاد خسرو ابن كسرى ابرويز وهو طفل فكان مدة ملكه شهرا وقيل أشهرا (ثم ملك يزدجرد بن شهريار) بن كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان قباذ بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام بن يزدجرد بن سابور بن أردشير بن بابك بن ساسان وهو آخر ملوك الساسانية فكان ملكه الى أن قتل بمرو من بلاد خراسان عشرين سنة وذلك لسبع سنين ونصف خلت من خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وهى سنة احدى وثلاثين من الهجرة وقيل غير ذلك فى مقدار ملكه وخبر مقتله (قال المسعودى) وذهب الاكثر من الناس ممن عنى باخبار الفرس وايامهم الى أن جميع من ملك من آل ساسان بن أردشير بن بابك الى يزدجرد بن شهريار من الرجال والنساء ثلاثون ملكا امرأتان وثمانية وعشرون رجلا ووجدت فى بعض التواريخ ان عدد ملوك الساسانية اثنان وثلاثون ملكا وعدد الملوك الاول وهم الفرس الاول من كيومرث الى دارا بن دارا تسعة عشر ملكا منهم امرأة وهى حمانة بنت بهمن وافراسياب التركى وسبعة عشر رجلا الف

الف فى مذهب مالك لانه شرح فيه احاديث الموطا وفرع عليها تفريعا حسنا وافرد منه شيأ سماه الايماء وقال بعضهم انه صنف كتاب المعانى فى شرح الموطا فجاء عشرين مجلدا عديم النظير وكان ايضا صنف كتابا كبيرا جامعا بلغ فيه الغاية سماه الاستيفاء وله كتاب الايماء فى الفقه خمس مجلدات انتهى ومن تصانيفه مختصر المختصر فى مسائل المدونة وله كتاب اختلاف الموطا آت وكتاب الاشارة فى اصول الفقه وكتاب الحدود وكتاب سنن الصالحين وكتاب التفسير لم يتمه وكتاب شرح المنهاج وكتاب التبيين لمسائل المهتدين فى اختصار فرق الفقهاء وكتاب السراج فى الخلاف ولم يتم وغير ذلك وحج الباجى رحمه الله تعالى أربع حجج جاور فيها ثلاثة أعوام ملازما لابى ذر بن احمد الهروى وكان يسافر معه للسروات لان اباذر تزوج من العرب وسكن بها وأبوذر المذكور هو عبد بن احمد بن محمد بن عبد الله بن عفير الانصارى المالكى ويعرف بابن السماك سمع بهراة وسرخس وبلخ ومرو والبصرة و بغداد ودمشق ومصر وجاور بمكة والف معجما لشيوخه وعمل الصحيح وصنف التصانيف قال الخطيب قدم أبو ذر بغداد وأنا غائب فحدث بها ثم حج وجاور ثم تزوج فى العرب وسكن السروات وكان يحج كل عام ويحدث ثم يرجع وكان ثقة ضابطا دينا وقال الحسن بن بقى المالقى حدثنى شيخ قال قيل لابى ذر من أين تمذهبت بمذهب مالك ورأى الاشعرى مع انك هروى فقال قدمت بغداد وكنت ماشيا مع الدارقطنى فلقينا أبا بكر بن الطيب فالتزمه الدارقطنى وقبل وجهه وعينيه فلما افترقنا قلت من هذا قال هذا امام المسلمين والذاب عن الدين القاضى أبو بكر بن الطيب فمن ذلك الوقت تكررت اليه وتمذهبت بمذهبه انتهى قلت هذا صريح فى ان القاضى أبا بكر الباقلانى مالكى وهو الذى جزم به غير واحد ولذا ذكره عياض فى المدارك فى جملة المالكية وكذلك شيخ السنة الامام أبو الحسن الاشعرى مالكى المذهب فيما ذكره غير واحد من الائمة وذكر بعض الشافعية انهما شافعيان والله تعالى أعلم * وقال عبد الغافر فى تاريخ نيسابور كان أبو ذر زاهدا ورعا عالما سخيا لا يدخر شيأ وصار كبير مشيخة الحرم مشارا اليه فى التصوف خرج على الصحيح تخريجا حسنا وكان حافظا كثير الشيوخ توفى سنة ٤٣٥ وقال أبو على بن سكرة توفى عقب شوال سنة ٤٣٤ وقال الخطيب فى ذى القعدة من سنة أربع وثلاثين رحمه الله تعالى وأكثر نسخ البخارى الصحيحة بالمغرب انما من رواية الباجى عن أبى ذر عبد بن أحمد الهروى المذكور وانما من رواية أبى على الصدفى الشهير المعروف بابن سكرة بسنده واعلم أن هراة المنسوب اليها الحافظ أبو ذر ليست بهراة التى وراء النهر نظيرة بلخ وانما هى هراة بنى شيمانة بالحجاز وبها كان سكنى أبى ذر والله تعالى أعلم * (رجع الى القاضى أبى الوليد الباجى رحمه الله تعالى) ثم انه اعنى الباجى قدم بغداد وأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث ولقى بها عدة من العلماء كابى الطيب الطبرى والامام الشهير أبى اسحق الشيرازى والصيمرى وابن عمروس المالكى وأقام بالموصل سنة مع أبى جعفر السمنانى يأخذ عنه علم الكلام فبرع فى الحديث وعلله ورجاله وفى الفقه وغوامضه وخلافه وفى الكلام ومضايقه وتدبج مع الحافظ أبى بكر الخطيب البغدادى بحيث روى كل واحد منهما عن الآخر رضى الله تعالى عنهما ونفع بهما ورجع الى الاندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم جم حصله مع الفقر والتعفف

وعدد ملوك الطوائف الذين قدمنا ذكرهم فى مقتل دارا بن دارا الى أن ظهر أردشير ٣٥٥ بن بابك أحد عشر ملكا وهم ملوك الشعن والران ومن أجلهم سمى سابور ملوك الطوائف الاشعان فجميع الملوك من كيومرث بن آدم وهو أول ملوك بنى آدم على ماذكرت الفرس الى يزدجرد ابن شهريار بن كسرى ستون ملكا منهم ثلاث نسوة وعدة ما ملكوا من السنين أربعة آلاف سنة وأربعمائة سنة وخمسون سنة وقيل ان عدة الملوك من كيومرث الى يزدجرد ثمانون ملكا ورأيت جماعة من الاخباريين وأصحاب السير وأرباب الكتب المصنفة فى التواريخ وغيرها يذهبون الى ان سنى الفرس الى الهجرة ثلاثة آلاف سنة وستمائة وتسعون سنة منها من كيومرث الى انتقال الملك الى منوشهر ألف وتسعمائة وثنتان وعشرون سنة ومن منوشهر الى زرادشت خمسمائة وثلاث وثمانون سنة ومن زرادشت الى الاسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة وملك الاسكندر خمس سنين ومن الاسكندر الى ملك أردشير خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة ومن اردشير الى الهجرة أربعمائة سنة وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم والانبياء والملوك فى باب نفرده لذلك فى الموضع المستحق

وممايفتخر به انه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر بن عبد البر والخطيب أبو بكر بن ثابت البغدادى وناهيك بهما وهما أسن منه وأكبر وأبو عبد الله الحميدى وعلى بن عبد الله الصقلى وأحمد بن على بن غزلون وأبو بكر الطرطوشى وأبو على بن الحسين السبتى وأبو بحر سفيان بن العاصى وممن روى عنه ابنه أبو القاسم أحمد وكان لما رجع الى الاندلس فشا علمه وتهيأت الدنيا له وعظم جاهه وأجزلت له الصلات فمات عن مال وافر وترسل للملوك وولى القضاء بعدة مواضع رحمه الله تعالى * وأما ما تقدم عن القاضى أبى الوليد الباجى من اجراء حديث الكتابة على ظاهره فهو قول بعض والصواب خلافه قال القاضى أبو الفضل عياض حدثنا محمد بن على المعروف بابن الصقل الشاطبى من لفظه قال حدثنى أبو الحسن بن مفوز قال كان أبو محمد بن أحمد بن الحاج الهوارى من أهل جزيرة شقر ممن لازم الباجى وتفقه عنده وكان يميل الى مذهب الباجى فى جواز مباشرة النبى صلى الله عليه وسلم بيده فى حديث المقاضاة فى الحديبية على ماجاء فى ظاهر بعض رواياته ويعجب به وكنت أنكر ذلك عليه فلما كان بعد برهة أتانى زائرا على عادته وأعلمنى أن رجلا من اخوانه كان يرى فى النوم أنه بالمدينة وأنه يدخل المسجد فيرى قبر النبى صلى الله عليه وسلم أمامه فتحدث له قشعريرة وهيبة عظيمة ثم يراه ينشق ويميد ولا يستقر فيعتريه منه فزع عظيم وسألنى عن عبارة رؤياه فقلت أخشى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير صفته أو ينتحله ما ليس له باصل أو لعله يفترى عليه فسألنى بالله من أين قلت هذا قلت له من قول الله عز وجل تكاد السموات يتفطرن منه الى قوله تعالى ولدا فقال لى لله درك ياسيدى وأقبل يقبل رأسى وبين عينى ويبكى مرة ويضحك أخرى ثم قال لى أنا صاحب الرؤيا واسمع تمامها يشهد لك بصحة تأويلك قال انه لما رأيتنى فى ذلك الفزع العظيم كنت أقول والله ما هذا الا أنى أقول وأعتقد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب فكنت أبكى وأقول أنا تائب يارسول الله وأكرر ذلك مرارا فأرى القبر قد عاد الى هيأته أولا وسكن فاستيقظت ثم قال لى وأنا اشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كتب قط حرفا وعنه النى الله تعالى فقلت الحمد لله الذى أراك البرهان فاشكره كثيرا انتهى وقال ابن الابار حدثنى بهذه الحكاية أبو الربيع ابن سالم بقراءتى عليه عن الكاتب ابى بكر عبد الرحمن بن مغاور قراءة عليه عن القاضى ابى جعفر احمد بن عبد الرحمن بن جحدر عن ابى الحسن طاهر بن مفوز قال كان ابو محمد الدانى آخرها وهى اتم من هذه انتهى *(رجع الى الباجى) ذكر ابو العرب عبد الوهاب البقشانى بسنده الى القاضى ابى الوليد الباجى انه كان يقول وقد ذكرت له صحبة السلطان لولا السلطان لنقلتنى الذر من الظل الى الشمس أو ما هذا معناه انتهى *(ومن فوائد الباجى) انه حكى ان الطلبة كانوا ينتابون مجلس ابى على البغدادى واتفق انه كان يوم مطر ووحل فلم يحضر من الطلبة سوى واحد فلما رأى الشيخ حرصه على الاشتغال واتيانه فى تلك الحال انشده

دببت للمجد والساعون قد بلغوا * حد النفوس وألقوا دونه الازرا
وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم * وعانق المجد من وافى ومن صبرا
لاتحسب المجد تمرا انت آكله * لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

انتهى

العباس لانا قد أفردنا لما ذكرنا بابا آخر فيما يرد من هذا الكتاب بعد انقضاء أخبار الامويين والعباسيين ترجمناه بذكر التاريخ الثانى وكانت الفرس من بدء الدهر أربعة اجناس الى ان جاء الله تعالى بالاسلام فالصنف الاول يقال له الجداهان وهم الارباب كما يقال رب المتاع ورب الدار وذلك من كيومرث الى أفريدون هم كيان من افريدون الى دارا بن دارا وهم الاشغان وهم ملوك الطوائف بعد الاسكندر على ما ذكرنا فى باب ذكر ملوك الطوائف ثم الساسانية وهم الفرس الثانية وقد ذكر ابو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه فى اخبار الفرس الذى رواه عن كسرى ان الفرس طبقات اربع ممن سلف وخلف فالطبقة الاولى من كيومرث الى كوستاسب والطبقة الثانية كيان عن كيقباذ الى الاسكندر بن فيلبس وآخرهم دارا والطبقة الثالثة وهم الاشغانية ملوك الطوائف والطبقة الرابعة منها هم ملوك الاجتماع وهم الساسانية أولهم اردشير بن بابك ثم سابور ثم اردشير هرمز نرسى بن هرمز هرمز بن نرسى

ورى

وروى عن القاضى ابى الوليد الباجى رحمه الله تعالى الخطيب البغدادى قوله رحمه الله تعالى

اذا كنت اعلم علم اليقين * بان جميع حياتى كساعه
فلم لا اكون ضنينا بها * وأجعلها فى صلاح وطاعه

وقد ذكرناهما فيما يأتى قريبا من كلام الفتح لكوننا نقلنا كلامه بلفظه رحمه الله تعالى ورضى عنه وقال فى القلائد فى حق الباجى رحمه الله تعالى ما صورته بدر العلوم اللائح وقطرها الغادى الرائح وثبيرها الذى لا يزحم ومنيرها الذى ينجلى به ليلها الاسحم كان امام الاندلس الذى تقتبس أنواره وتنتجع نجوده وأغواره رحل الى المشرق فعكف على الطلب ساهرا وقطف من العلم أزاهرا وتفنن فى اقتنائه وثنى اليه عنان اعتنائه حتى غدا مملوء الوطاب وعاد بلج طلبه الى الارطاب فكر الى الاندلس بحر الاتخاض لجه وفجرا لا يطمس منهجه فتهادته الدول وتلقته الخيل والخول وانتقل من محجر الى ناظر وتبدل من يانع بناضر ثم استدعاه المقتدر بالله فصار اليه مرتاحا وبدا بافقه ملتاحا وهنالك ظهرت تواليفه وأوضاعه وبدا وخده فى سبل الهدى وايضاعه وكان المقتدر يباهى بانحياشه الى سلطانه وايثاره لحضرته باستيطانه ويحتفل فيما يرتبه له ويجريه وينزله فى مكانه متى كان يوافيه وكان له نظم يوقف على ذاته ولا يصرف فى رفث القول وبذاته (فمن ذلك) قوله فى معنى الزهد

اذا كنت أعلم علم اليقين * بان جميع حياتى كساعه
فلم لا اكون ضنينا بها * وأجعلها فى صلاح وطاعه

وله يرثى ابنيه وماتا مغتربين وغربا كوكبين وكانا ناظرى الدهر وساحرى النظم والنثر

رعى الله قبرين استكانا ببلدة * هما اسكناها فى السواد من القلب
لئن غيبا عن ناظرى وتبوّآ * فؤادى لقد زاد التباعد فى القرب
يقر بعينى أن أزور ثراهما * وألصق مكنون الترائب بالترب
وأبكى وأبكى ساكنيها العانى * سأنجد من صحب وأسعد من سحب
فما ساعدت ورق الحمام أخا أسى * ولا روّحت ريح الصبا عن أخى كرب
ولا استعذبت عيناى بعدهما كرى * ولا ظمئت نفسى الى البارد العذب
أحن ويثنى اليأس نفسى عن الاسى * كما اضطرّ محمول على المركب الصعب

وله يرثى ابنه محمدا

أمحمدا ان كنت بعدك صابرا * صبر السليم لما به لا يسلم
ورزئت قبلك بالنبى محمد * ولرزؤه أدهى لدى وأعظم
فلقد علمت بأننى بك لاحق * من بعد ظنى أننى متقدّم
لله ذكر لا يزال بخاطرى * متصرفا فى صبره متحكم
فاذا نظرت فشخصه متخيل * واذا أصخت فصوته متوهم

بهرام بن يزدجرد فيروز بن يزدجرد بلاش بن يزدجرد قباذ بن فيروز انوشروان ابن هرمز ابرويز شيرويه اردشير شهريار بوران كسرى بن قباذ فيروز خشنس آزرمى دخت فرخ زاد خسرو يزدجرد وانما ذكرناهؤلاء بعدان قدمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب للخلاف الواقع وتباين الروايات والتواريخ فى أعدادهم واسمائهم فاوردنا ماقاله المتنازعون من الاخباريين وقد اتينا على اخبارهم وسيرهم ووصاياهم وعهودهم ومكاتباتهم وتوقيعاتهم وكلامهم عند عقد التيجان على رؤسهم ورسائلهم وسائر ما كان من الحوادث فى اعصارهم وما كوّروه من الكور واحدثوه من المدن وغير ذلك مما احوالهم فيما سلف من كتبنا وانما نذكر فى هذا الكتاب جوامع من تاريخهم وأعداد ملوكهم ولمع من بعض أخبارهم وكذلك ذكرنا فى كتابنا أخبار الزمان خطب الطبقات الاربع وما حفر كل ملك منهم من الانهار وانفرد ببنائه من المدن وآراء الملوك واحكامها وكثير من قضاياها فى خواصها وعوامها وأنساب أصحاب خيل الملك ومن

وبكل أرض لى من اجلك لوعة * وبكل قبر وقفة وتلوم
فاذا دعوت سواك حاد عن اسمه * ودعاك باسمك معول بك مغرم
حكم الردى ومناهج قد سنها * لاولى النهى والحزن قبل متمم انتهى

ولعمرى انه لم يوف القاضى أبا الوليد الباجى حقه الواجب المفترض ووددت أنه مد النفس فى ترجمته بعبارة يعترف ببراعتها من سلم له ومن اعترض فان ترجمة المذكور مما سطره أفسح مجالا وأفصح روية وارتجالا وبالجملة فهو أحد الاعلام بالاندلس وهو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى وذكره ابن بسام فى الذخيرة وابن خلكان وغير واحد وأصله من بطليوس وانتقل جده الى باجة قرب اشبيلية وليس هو من باجة القيروان ومولده سنة ٤٠٣ ورحل سنة ٤٢٦ فقدم مصر وسمع بها واجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب وكان لما رجع الى الاندلس يضرب ورق الذهب ويعقد الوثائق الى أن فشا علمه وتهيأت له الدنيا وشهرته تغنى عن وصفه ومن نظمه قوله

ماطال عهدى بالديار وانما * أنسى معاهدها أسى وتبلد
لو كنت انبأت الديار صبابتى * رق الصفا بفنائها والجلمد

وله فى المعتضد عباد والد المعتمد

عباد استعبد البرايا * بأنعم تبلغ النعائم
مدحه ضمن كل قلب * حتى تغنت به الحمائم

ومن أشهر نظمه قوله اذا كنت اعلم البيتين وقد سبقا * وممن ذكره ايضا الحجارى فى المسهب وابن بشكوال فى الصلة وانه حج اربع حجج رحمه الله تعالى وتوفى فى المرية لاحدى عشرة بقيت من رجب وقيل ليلة الخميس تاسع رجب وقيل تاسع عشر صفر سنه اربع وسبعين واربعمائة ومن تواليفه المنتقى فى شرح الموطا ذهب فيه مذهب الاجتهاد وايراد الحجج وهو مما يدل على تبحره فى العلوم والفنون ولما قدم من المشرق الى الاندلس بعد ثلاثة عشر عاما وجد ملوك الطوائف احزابا مفترقة فمشى بينهم فى الصلح وهم يجلونه فى الظاهر ويستثقلونه فى الباطن ويستبردون نزعته ولم يفد شيأ فالله تعالى يجازيه عن نيته ولما ناظر ابن حزم قال له الباجى انا اعظم منك همة فى طلب العلم لانك طلبته وانت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب وطلبته وانا اسهر بقنديل بائت السوق فقال ابن حزم هذا الكلام عليك لا لك لانك انما طلبت العلم وانت فى تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالى وانا طلبته فى حين ماتعلمه وماذكرته فلم ارج به الا علو القدر العلمى فى الدنيا والآخرة فافحمه قال عياض قال لى اصحابه كان يخرج الينا للاقراء وفى يده اثر المطرقة الى ان فشا علمه ونوهت الدنيا به وعظم جاهه واجزلت صلاته حتى مات عن مال وافر وكان يستعمله الاعيان فى ترسلهم ويقبل جوائزهم وولى القضاء بمواضع من الاندلس * (وابن حزم المذكور) هو ابو محمد بن حزم الظاهرى قال ابن حيان وغيره كان ابن حزم صاحب حديث وفقه وجدل وله كتب كثيرة فى المنطق والفلسفة لم يخل فيها من غلط وكان شافعى المذهب يناضل الفقهاء عن مذهبه ثم صار ظاهريا فوضع الكتب فى هذا المذهب وثبت عليه الى أن مات وكان له تعلق

كان على خيل كل ملك منهم فى الحروب وأنساب حكمائهم وزهادهم ممن اشتهر بذلك فى أعصارهم وأنساب المرازبة وذكر أولاد الطبقات الاربع ممن تقدم ذكرهم وتشعب انسابهم وتفرق اعقابهم ووصفنا الابيات الثلاثة التى شرفها كسرى على سائر من بسواد العراق وهم مشهورون فى أهل السواد الى وقتنا هذا واشرف السواد بعد هذه الابيات الثلاثة من السهارجة الذين شرفهم ابرج وجعلهم اشراف السواد ثم الطبقة الثانية بعد السهارجة هم الدهاقين وهم ولد وهكرت ابن فردال بن بابك بن مرس ابن كيومرث الملك وكان لوهكرت عشرة بنين فأبناء هؤلاء العشرة هم الدهاقين وكان وهكرت أول من تدهقن والدهاقين تتفرع على مراتب خمس ومن ذكرنا كانت ملابسهم تختلف على قدر مراتبهم وقتل يزدجرد الآخر من ملوكهم على حسب ماذكرناوله خمس وثلاثون سنة وخلف من الولد بهرام وفيروز ومن النساء ادرك وسها ومرادوز بدوأ كثر عقبه بمرو والاكثر من ابناء الملوك واعقاب الطبقات الاربع بسواد العراق الى الآن يتدارسون انسابهم ويحفظون احسابهم كحفظ العرب من قحطان ونزار ولاخلاف فيما ذكرناه عند ذوى الدراية كما وصفنا (قال المسعودى)

بالادب

بالادب وشنع عليه الفقهاء وطعنوا فيه واقصاه الملوك وابعدوه عن وطنه وتوفى بالبادية عشية يوم الاحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين واربعمائة قال صاعد فى تاريخه كان ابن حزم أجمع اهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام واوسعهم معرفة مع توسعه فى علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والاخبار اخبرنى ابنه الفضل انه اجتمع عنده بخط ابيه من تواليفه نحو اربعمائة مجلد نقله عن تاريخ صاعد الحافظ الذهبى قال الذهبى وهو العلامة ابو محمد على بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الاموى مولاهم الفارسى الاصل الاندلسى القرطبى الظاهرى صاحب المصنفات واوّل سماعه سنة ٣٩٩ وكان اليه المنتهى فى الذكاء وحدّة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والحشمة والسودد والرياسة والثروة وكثرة الكتب قال الغزالى رحمه الله تعالى وجدت فى اسماء الله تعالى كتابا لابى محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه انتهى باختصار وعلى الجملة فهو نسيج وحده لولا ماوصف به من سوء الاعتقاد والوقوع فى السلف الذى أثار عليه الانتقاد سامحه الله تعالى * وذكر الذهبى أن عمره اثنتان وسبعون سنة وهو لاينافى قول غيره انه كان عمره احدى وسبعين سنة وعشرة أشهر لانه ولد رحمه الله تعالى بقرطبة بالجانب الشرقى من ربض منية المغيرة قبل طلوع الشمس وبعد سلام الامام من صلاة الصبح آخر ليلة الاربعاء آخر يوم من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلثمائة بطالع العقرب وتوفى ليومين بقيا من شعبان سنة ٤٥٦ وكان كثير المواظبة على التأليف ومن جملة تآليفه كتاب الفصل بين أهل الاهواء والنحل وكتاب الصادع والرادع على من كفر أهل التاويل من فرق المسلمين والرد على فرق التقليد وكتاب شرح حديث الموطا والكلام على مسائله وكتاب الجامع فى صحيح الحديث باختصار الاسانيد والاقتصار على أصحها وكتاب التلخيص والتخليص فى المسائل النظرية وفروعها التى لانص عليها فى الكتاب والحديث وكتاب منتقى الاجماع وبيانه من جملة مالا يعرف فيه اختلاف وكتاب الامامة والخلافة فى سير الخلفاء ومراتبها والندب والواجب منها وكتاب أخلاق النفس وكتاب الايصال الى فهم كتاب الخصال وكتاب كشف الالتباس مابين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس انتهى * وقال ابن سعيد فى حق ابن حزم ماملخصه الوزير العالم الحافظ ابو محمد على ابن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم الفارسى وشهرته تغنى عن وصفه وتوفى منفيا بقرية من بلاد لبلة ووصله من ابن عمه أبى المغيرة رسالة فيها ماأوجب أن جاوبه بهذه الرسالة وهى سمعت وأطعت لقوله تعالى وأعرض عن الجاهلين وأسلمت وانقدت لقول نبيه عليه الصلاة والسلام صل من قطعك واعف عمن ظلمك ورضيت بقول الحكماء كفاك انتصارا من تعرض لاذاك اعراضك عنه وأقول

تتبع سواى امرأ يبتغى * سبابك ان هواك السباب
فانى أبيت طلاب السفاه * ونزهت عرضى عما يعاب
وقل مابدا لك من بعد ذا * واكثر فان سكوتى خطاب

فاذقد ذكرنا جوامع من اخبار الفرس وطبقاتهم فلنذكر الآن ملوك اليونانيين ولمعا من أخبارهم وتنازع الناس فى بدء انسابهم على الاختصار والايجاز والله ولى التوفيق برحمته ورضوانه

(ذكر ملوك اليونانيين ولمع من أخبارهم وماقاله الناس فى بدء أنسابهم)

(قال المسعودى) تنازع الناس فى فرق اليونانيين فذهب طائفة من الناس الى انهم ينتمون الى الروم ويضافون الى ولد اسحق وقالت طائفة أخرى ان يونان هو ابن يافث بن نوح وذهب قوم الى انهم من ولد أوراس بن ياوان ابن يافث بن نوح وذهب قوم الى انهم قبيل متقدم فى الزمان الاوّل واغاوهم من وهم ان اليونانيين ينسبون الى حيث تنسب الروم وينتمون الى جدهم ابراهيم لان الديار كانت مشتركة والمقاطع والمواطن كانت متساوية وكان القوم قدشاركوا القوم فى السجية والمذهب فلذلك غلط من غلط فى النسبة وجعل الاب واحدا وهذا طريق الصواب عند المفتشين وسبيل البحث عند الباحثين والروم قفت فى لغتها ووضع كتبها اليونانيين فلم يصلوا الى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم والروم انقص فى اللسان من اليونانيين وأضعف فى ترتيب الكلام الذى عليه نهج

وأقول

كفانى بذكر الناس لى ومآثرى * ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر
عدوّى وأشياعى كثير كذاك من * غدا وهو نفاع المساعى وضائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى * لمحتمل ما جاءنى منك صابر

فوقع له أبو المغيرة على ظهر رقعته قرأت هذه الرقعة العاقة فحين استوعبتها أنشدتنى

تجنح زيد وسعل * لما رأى وقع الاسل

فاردت قطعها وترك المراجعة عنها فقالت لى نفسى قد عرفت مكانها بالله لا قطعتها الا يده فأثبت على ظهرها ما يكون سببا الى صونها فقلت

نعقت ولم تدر كيف الجواب * وأخطأت حتى أتاك الصواب
وأجريت وحدك فى حلبة * نأت عنك فيها الجياد العراب
وبت من الجهل مستجيبا * لغير قرى فأتتك الذئاب
فكيف تبينت عقبى الظلوم * اذا ما انقضت بالخميس العقاب
لعمرى مالى طباع تذم * ولا شيمة يوم مجد تعاب
أنيل المنى والظبا سخط * وأعطى الرضا والعوالى غضاب

وأقول

وغاصب حق أو بقته المقادر * يذكرنى حاميم والرمح شاجر
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه * ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى * برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذل لى الأملاك حتى نفوسها * وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا * تلين وهى الصعاب النوافر
فان أنوفى أرض فانى سائر * وان أنا عن قوم فانى حاضر
وحسبك أن الارض عندك خاتم * وأنك فى سطح السلامة عاثر
ولا لوم عندى فى استراحتك التى * تنفست عنها والخطوب فواقر
فانى للعلف الذى مرّ حافظ * وللنزعة الاولى بحاميم ذاكر
هنيئا لكل ما لديه فاننا * عطية من تبلى لديه السرائر

(ومن شعر أبى محمد بن حزم يخاطب قاضى الجماعة بقرطبة عبد الرحمن بن بشير)

أنا الشمس فى جوّ العلوم منيرة * ولكنّ عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع * لجدّ على ما ضاع من ذكرى النهب
ولى نحو آفاق العراق صبابة * ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلى بينهم * فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر * وأطلب ما عنه تجئ به الكتب
هنالك تدرى أن للبعد قصة * وأن كساد العلم آفته القرب
فيا عجبا من غاب عنهم تشوقوا * له ودنوّ المرء من دارهم ذنب

تعبيرهم وسنن خطابهم (قال المسعودى) وقد ذكر أن يونان أخو قحطان وانه من ولد عابر بن شالخ وان أمره فى الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشك فى الشركة فى النسب وانه خرج عن أرض اليمن فى جماعة من ولده وأهله ومن انضاف الى جملته حتى وافى اقاصى بلاد المغرب فاقام هنالك وانسل فى تلك الديار واستعجم لسانه ووازى من كان هنالك فى اللغة الاعجمية من الافرنجة والروم فزالت نسبته وانقطع نسبه وصار منسيا فى ديار اليمن غير معروف عند النسابين منهم وكان يونان جبارا عظيما وسيما جسيما وكان حسن العقل والخلق جزل الرأى كبير الهمة عظيم القدر وقد كان يعقوب بن اسحق الكندى يذهب فى نسب يونان الى ما ذكرناه من أنه أخ لقحطان ويحتج لذلك باخبار نذكرها فى بدء الانساب ونوردها من حديث الآحاد والافراد لا من حديث الاستفاضة والكثرة وقد رد عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشى فى قصيدة طويلة وذكر خلطه نسب يونان بقحطان على حسب ما ذكرنا آنفا فى صدر هذا الباب فقال

أبا يوسف انى نظرت فلم أجد * على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عند قوم اذا امرؤ * بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا
وان

وان مكانا ضاق عنى لضيق * على انه فسح مهامهه سهب
وان رجالا ضيعونى لضيع * وان زمانا لم أنل خصبه جدب

ومنها فى مدحه لنفسه

ولكنّ لى فى يوسف خير اسوة * وليس على من بالنبى ائتسى ذنب
يقول مقال الصدق والحق اننى * حفيظ عليم ما على صادق عتب

وقوله

لا يشمتن حاسدى ان نكبة عرضت * فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر يلقى تحت متربة * طورا وطورا يرى تاجا على ملك

وقوله لما أحرق المعتضد بن عباد كتبه باشبيلية

دعونى من احراق رق وكاغد * وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى * تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى * وينزل ان أنزل ويدفن فى قبرى

وقوله

لئن أصبحت مرتحلا بشخصى * فقلبى عندكم أبدا مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى * لذا سأل المعاينة الكليم

وقوله

وذى عذل فيمن سبانى حسنه * يطيل ملامى فى الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم ترغيره * ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت فى اللوم فاتئد * فعندى رد لو أشاء طويل
ألم ترأنى ظاهرى وأننى * على ما أرى حتى يقوم دليل

وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن مزيد القرطبى قال ابنه أبو الفضل رافع اجتمع عندى بخط أبى من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة انتهى وأبوه الوزير أبو عمر المذكور كان من وزراء المنصور ابن أبى عامر وتوفى كما قال ابن حيان بذى القعدة سنة اثنتين وأربعمائة وكان منشؤه ومولده بقرية تعرف بالزاوية * وحكى ان الحافظ أبا محمد بن حزم قصد أبا عامر بن شهيد فى يوم غزير المطر والوحل شديد الريح فلقيه أبو عامر وأعظم قصده على تلك الحال وقال له يا سيدى مثلك يقصدنى فى مثل هذا اليوم فانشده أبو محمد بن حزم بديها

فلو كانت الدنيا دوين لك لجة * وفى الجوّ صعق دائم وحريق
لسهل ودى فيك نحوك مسلكا * ولم يتعذر لى اليك طريق

قال الحافظ ابن حزم أنشدنى الوزير أبى فى بعض وصاياه لى

اذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن * على حالة الا رضيت بدونها

وهذا كاف فى فضل الفرع والاصل رحم الله الجميع * قال ابن حزم فى طوق الحمامة انه مر يوما هو وابو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الحطابين من مدينة اشبيلية فلقيهما

انقرن الحاد ابدين محمد * لقد جئت شيأ يا أخا كندة ادا وتخلط يونانا بقحطان ضلة * لعمرى لقد باعدت بينهما جدّا ولما نشأ ولد يونان وكبر خرج يسير فى الارض يطلب موضعا يسكنه فانتهى الى موضع من المغرب فنزل بمدينة اثينا وهى المعروفة بمدينة الحكماء فى ديار المغرب فى صدر الزمان وأقام بها هو ومن معه من ولده فكثر نسله بها وبنى بها البنيان العظيم الى أن ادركته الوفاة فجعل وصيته الى الاكبر من ولده واسمه حرينوس فقال له يا بنى انى قد وافيت الاجل وقربت من الحتم الواجب وانى راحل عنك ومفارقك ومفارق اخوتك وأهل بيتك وقد كانت احوالكم حسنة النظام بى وكنت كهفا فى الشدائد وعونا على المحن ومجنا فى الزمان فعليك بالجود فانه قطب الملك ومفتاح السياسة وباب السيادة وكن حريصا على اقتناء الرجال بالانعام عليهم تكن سيدا رشيدا واياك والحيد عن الطريقة المثلى التى عليها بنى العقل فان من ترك رأى الاب وثمرة العقل تورط فى المهالك ووقع فى مقابض المتالف ثم مات يونان واستولى ولده حرينوس على مكان أبيه وضم اليه أهله وولده وتخيرهم وكثر نسلهم فغلبوا على ديار المغرب من بلاد الافرنجة والتوكيرو أجناس الامم

شاب حسن الوجه فقال ابو محمد هذه صورة حسنة فقال له ابو عمر لم نر الا الوجه فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك فقال ابن حزم ارتجالا وذى عذل فيمن سبانى حسنه الابيات المتقدمة ولابن حزم ايضا قوله

لا تلمني لان سبقة لحظ * فات ادراكها ذوى الالباب
يسبق الكلب وثبة الليث في العد * وويعلو النخال فوق اللباب

ولابى بكر بن مفوز جزء يرد فيه على أبى محمد بن حزم وفيه قال معرضا

يا من تعانى امورا لن يعانيها * خل التعانى وأعط القوس باريها
تروى الاحاديث عن كل مسامحة * وانما لمعانيها معانيها

وقيل انه خاطب بهما بعض أصحاب ابن حزم *(رجع الى القاضى ابى الوليد الباجى) ومن نظمه قوله من مرثية

احن ويثنى الناس نفسى على الاسى * كما اضطر محمول على المركب الصعب

ومن جيد نظمه قوله

اسروا على الليل البهيم سراهم * فنمت عليهم فى الشمال شمائل
متى نزلوا ثاوين بالخيف من منى * بدت للهوى بالمأزمين مخايل
فلله ما ضمت منى وشعابها * وما ضمنت تلك الربا والمنازل
ولما التقينا للجمار وابرزت * اكف لتقبيل الحصى وانامل
اشارت الينا بالغرام محاجر * وباحت به مناجسوم نواحل

وقال الباجى ابو الوليد رحمه الله تعالى

مضى زمن المكارم والكرام * سقاه الله من صوب الغمام
وكان البر فعلا دون قول * فصار البر نطقا بالكلام

وذيله بعضهم بقوله

وزال النطق حتى لست تلقى * فتى يسخو برد للسلام
وزاد الامر حتى ليس الا * سخى بالاذى او بالملام

*(ومنهم الفقيه العالم الشهير ابو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى) صاحب سراج الملوك ويعرف بابن ابى رندقة بالراء المهملة المفتوحة وسكون النون وكنى بسراج الملوك دليلا على فضله ذكره ابن بشكوال فى الصلة وتوفى بالاسكندرية فى شعبان وقيل جمادى الاولى سنة عشرين وخمسمائة وزرت قبره بالاسكندرية وممن اخذ عنه الحافظ القاضى ابو بكر بن العربى وغيره ومن نظم الطرطوشى قوله من رسالة

اقلب طرفى فى السماء ترددا * لعلى أرى النجم الذى انت تنظر
واستعرض الركبان من كل وجهة * لعلى بمن قد شم عرفك اظفر
واستقبل الارواح عند هبوبها * لعل نسيم الريح عنك يخبر
وامشى ومالى فى الطريق مآرب * عسى نغمة باسم الحبيب ستذكر

من الصقالبة وغيرهم الفرس وقيل ان اسمه ملبص وقيل فيلفوس وكانت مدة ملكه سبع سنين وقد قيل أن اليونانيين لما ان سار البختنصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذل السيف كانوا يؤدون الطاعة ويحملون الخراج الى فارس وكان خراجهم بيضا من ذهب عددا معلوما ووزنا مفهوما وضريبة محصورة فلما ان كان من أمر الاسكندر بن فيلبش وهو الملك الماضى الذى هو أوّل ملوك اليونانيين على ما ذكره بطليموس ما كان من ظهوره وهمته بعث اليه دارانوس ملك فارس وهو دارا بن دارا يطالب بما جرى من الرسم فبعث اليه الاسكندر انى قد ذبحت تلك الدجاجة التى كانت تبيض بيض الذهب وأكلتها فكان من حروبهم ما دعا الاسكندر الى الخروج الى أرض الشام والعراق فاصطلم من كان بها من الملوك وقتل دارا بن دارا ملك الفرس وقد أتينا على خبر مقتله ومقتل غيره من ملوك الهند ومن لحق بهم من ملوك المشرق فى الكتاب الاوسط ونسب قوم الاسكندر انه الاسكندر بن فيلبش بن مصريم بن

والمع من ألقاه من غير حاجة * عسى لمحة من نور وجهك تسفر

ومن نظمه ايضا قوله

يقولون ثكلى ومن لم يذق * فراق الاحبة لم يثكل
لقد جرعتنى ليالى الفراق * كؤسا امر من الحنظل

ومما ينسب اليه وكان كثيرا ما ينشده

اذا كنت فى حاجة مرسلا * وانت بانجازها مغرم
فارسل باكمه مرسلابة * به صمم اغطش ابكم
ودع عنك كل رسول سوى * رسول يقال له الدرهم

وكان كثيرا ما ينشد

ان لله عبادا فطنا * طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها فلما علموا * انها ليست لحى وطنا
جعلوها لجة واتخذوا * صالح الاعمال فيها سفنا

وقال رحمه الله تعالى كنت ليلة نائما بالبيت المقدس اذ سمعت فى الليل صوتا حزينا ينشد

أخوف ونوم ان ذا العجيب * ثكلتك من قلب فانت كذوب
أما وجلال الله لو كنت صادقا * لما كان للاغماض فيك نصيب

قال فأيقظ النوّام وأبكى العيون وكان رحمه الله تعالى زاهدا عابدا متورعا متقللا من الدنيا قوّالا للحق وكان يقول اذا عرض لك أمر دنيا وأخرى فبادر بامر الاخرى يحصل لك أمر الدنيا والاخرى وله طريقة فى الخلاف ودخل مرة على الافضل بن أمير الجيوش فوعظه وقال له ان الامر الذى أصبحت فيه من الملك انما صار اليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك بمثل ما صار اليك فاتق الله فيما خوّلك من هذه الامة فان الله عزوجل سائلك عن النقير والقطمير والفتيل واعلم ان الله عزوجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحذافيرها فسخر له الانس والجن والشياطين والطير والوحوش والبهائم وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ورفع عنه حساب ذلك أجمع فقال عزمن قائل هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب فما عد ذلك نعمة كما عددتموها ولا حسبها كرامة كما حسبتموها بل خاف ان يكون استدراجا من الله عزوجل فقال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فافتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم وكان الى جانب الافضل رجل نصرانى فأنشده

ياذا الذى طاعته قربة * وحقه مفترض واجب
ان الذى شرفت من أجله * يزعم هذا انه كاذب

وأشار الى النصرانى فأقامه الافضل من مكانه والطرطوشى بضم الطاءين نسبة الى طرطوشة من بلاد الاندلس وقد تفتح الطاء الاولى وعبر عنه ابن الحاجب فى مختصره الفقهى فى باب العتق بالاستاذ وكان رحمه الله تعالى صحب القاضى أبا الوليد الباجى رحمه الله تعالى بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه وقرأ الفرائض عليه والحساب بوطنه وقرأ

ابن نوح ونسبه قوم انه من ولد العيص بن اسحق ابن ابراهيم ومنهم من رأى انه الاسكندر بن يونه ابن سرحون بن رومى بن قرمط بن نوفيل بن رومى ابن الاصفر بن اليغز بن العيص بن اسحق بن ابراهيم وقد تنازع الناس فيه فمنهم من رأى انه ذو القرنين ومنهم من رأى انه غيره وتنازعوا أيضا فى ذى القرنين فمنهم من رأى انه انما سمى بذى القرنين لبلوغه باطراف الارض وان الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم ومنهم من رأى انه من الملائكة وهذا قول يعزى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه والقول الاول لابن عباس فى تسمية الملك اياه ومنهم من رأى انه كان بذؤابتين من الذهب وهذا قول يعزى الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وقد قيل غير ذلك وانما ذكر تنازع الشرعيين من أهل الكتب وقد ذكره تبع فى شعره وافتخر به وانه من قحطان وقيل ان بعض التبابعة غزا مدينة رومية فاسكنها خلقا من اليمن وأن ذا القرنين وهو الاسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها والله أعلم وسار الاسكندر بعد أن ملك بلاد فارس فاحتوى على ملوكها وتزوج

الادب على أبي محمد بن حزم بمدينة اشبيلية ثم رحل الى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة ودخل بغداد والبصرة فتفقه هنالك عند أبي بكر الشاشي وأبي محمد الجرجاني وسمع بالبصرة من أبي علي التستري وسكن الشام مدة ودرس بها وكان راضيا باليسير وقال الصفدي في ترجمة الطرطوشي ان الافضل بن أمير الجيوش أنزله في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد وكان يكرهه فلما طال مقامه به ضجر وقال لخادمه الى متى نصبر اجمع لي المباح فجمعه وأكله ثلاثة أيام فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه رميته الساعة فلما كان من الغد ركب الافضل فقتل وولي بعده المأمون بن البطائحي فأكرم الشيخ اكراما كثيرا وله ألف الشيخ سراج الملوك انتهى ومقامه أعني الطرطوشي مشهور وهذه الحكاية تكفي في ولايته ومن تآليفه مختصر تفسير الثعالبي والكتاب الكبير في مسائل الخلاف وكتاب في تحريم جبن الروم وكتاب بدع الامور ومحدثاتها وكتاب شرح رسالة الشيخ ابن ابي زيد وولد سنة احدى وخمسين وأربعمائة تقريبا ولما توفي صلى عليه ولده محمد ودفن رحمه الله تعالى قبل الباب الاخضر باسكندرية وزرت قبره مرارا رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به وكان القاضي عياض ممن استجازه فأجازه ولم يلقه وشهرته رضي الله تعالى عنه تغني عن الاطناب فيه * وحكي انه كتب على سراج الملوك الذي أهداه لولي الامر بمصر

الناس يهدون على قدرهم * لكنني أهدي على قدري
يهدون ما يفني وأهدي الذي * يبقى على الايام والدهر

وحكي انه سمع رضي الله تعالى عنه منشدا ينشد للوأواء

قمر أتى من غير وعد * في ليلة طرقت بسعد
بات الصباح الى الصبا * ح معانقي خدا بخد
يمتار في وناظري * ما شئت من خمر وشهد

فقال أو يظن هذا الدمشقي أن أحدا لا يحسن ينظم الكذب غيره لو شئنا لكذبنا مثل هذا ثم أنشد لنفسه يعارضه

قمر أتى من غير وعد * حفت شمائله بسعد
قبلته ورشفت ما * في فيه من خمر وشهد
فرجت من السلسبيـ * ـل بزنجبيل مستعد
واغتفاه من الغرو * ب الى الصباح المستجد
وسكرت من رشفي العقيـ * ـق على اقاح تحت رند
فنزعت عن فيه فمي * ووضعت خدا فوق خد
وشممت عرف نسيمه الـ * ـساري على مسك وند
وصحوت من ريا القرنـ * ـفل بين ريحان وورد
وألذ من وصلي به * شكواه وجدا مثل وجدي

ومن نظم الطرطوشي قوله أيضا

كأن لساني والمشكلات * سنى الصبح يخرق ليلا بهيما

وغيري

بابنة ملكها دارا بن دارا بعد أن قتله ثم سار الى أرض السند والهند ووطئ ملوكها وحملت اليه الهدايا والخراج وحاربه ملكها فور وكان أعظم ملوك الهند وكان له معه حروب وقتله الاسكندر مبارزة ثم سار الاسكندر نحو بلاد الصين والتبت فدانت له الملوك وحملت اليه الهدايا والضرائب وسار في مفاوز الترك يريد خراسان من بعد أن ذلل ملوكها ورتب الرجال والقواد فيما افتتح من الممالك ورتب ببلاد التبت خلقا من رجاله وكذلك ببلاد الصين وكور بخراسان كورا وبنى مدنا في سائر أسفاره وكان معلمه ارسطاطاليس حكيم اليونانيين وهو صاحب كتاب المنطق ومابعد الطبيعة وتلميذ أفلاطون وأفلاطون تلميذ سقراط وصرف هؤلاء همهم الى تقييد علوم الاسماء الطبيعية النفيسة وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالالهيات وأبانوا عن الاشياء وأقاموا البرهان على صحتها وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها وسار الاسكندر راجعا من سفره يؤم المغرب فلما سار الى مدينة سهرزور اشتدت علته وقيل ببلاد نصيبين من ديار ربيعة وقيل بالعراق فعهد الى صاحب جيشه وخليفته على عسكره بطلموس فلما مات

وغيري ان رام مارمته * خصي يحاول فرجا عقيما

وقوله أيضا

اعمل لمعادك يا رجل * فالناس لدنياهم عملوا
وادخر لمسيرك زاد تقى * فالقوم بلا زاد رحلوا

*(ومنهم محمد بن عبد الجبار الطرطوشي) وفد الى المشرق وذكره العماد في الخريدة وله في الامد العجلي بمصر وكان يخضب بسواد الرمان قوله

اخلط العفص فيه يا أحوج النا * س الى العفص حين يعكس عفص

(ومنهم القاضي الشهيد أبو علي الصيرفي ٣ وهو حسين بن محمد بن فيرة بن حيون ويعرف بابن سكرة وهو من أهل سرقسطة سكن مرسية وروى بسرقسطة عن الباجي وأبي محمد عبد الله بن محمد بن اسمعيل وغيرهما وسمع ببلنسية من أبي العباس العذري وسمع بالمرية من أبي عبد الله محمد بن سعدون القروي وأبي عبد الله بن المرابط وغيرهما ورحل الى المشرق أول المحرم من سنة احدى وثمانين وأربعمائة وحج من عامه ولقي بمكة أبا عبد الله الحسن بن علي الطبري وأبا بكر الطرطوشي وغيرهما ثم سار الى البصرة فلقي بها أبا يعلى المالكي وأبا العباس الجرجاني وأبا القاسم بن شعبة وغيرهم وخرج الى بغداد فسمع بواسط من أبي المعالي محمد بن عبد السلام الاصبهاني وغيره ودخل بغداد سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة فأطال الاقامة بها خمس سنين كاملة وسمع بها من أبي الفضل بن خيرون مسند بغداد ومن أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي وطراد الزينبي والحميدي وغيرهم وتفقه عند أبي بكر الشاشي وغيره ثم رحل منها سنة سبع وثمانين فسمع بدمشق من أبي الفتح نصر المقدسي وأبي الفرج الاسفرايني وغيرهما وسمع بمصر من القاضي أبي الحسن الخلعي وأبي العباس أحمد بن ابراهيم الرازي وأجازله الحبال مسند مصر في وقته ومكثرها وسمع بالاسكندرية من أبي القاسم الوراق وشعيب بن سعيد وغيرهما ووصل الى الاندلس في صفر من سنة سبعين وأربعمائة وقصد مرسية فاستوطنها وقعد يحدث الناس بجامعها ورحل الناس من البلدان اليه وكثر سماعهم عليه وكان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته وكان حسن الخط جيد الضبط وكتب بخطه علما كثيرا وقيده وكان حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخاري في سفر وصحيح مسلم في سفر وكان قائما على الكتابين مع مصنف أبي عيسى الترمذي وكان فاضلا دينا متواضعا حلوما وقورا عالما عاملا واستقضي بمرسية ثم استعفى فأعفي وأقبل على نشر العلم وبثه وقد ذكره أبو القاسم بن عساكر في تاريخه لدخوله الشام قال وبعد أن استقرت به النوى واستمرت افادته بما قيد وروى رفعته ملوك أوانه وشفعته في مطالب اخوانه فأوسعته رعيا وأحسنت فيه رأيا ومن أبنائهم من جعل يقصده لسماع سنده وعلى وقاره الذي كان به يعرف ندر له مع بعضهم ما يستطرف وهو أن فتى يسمى يوسف لازم مجالسه معطرا رائحته ومنظفا ملبسه ثم غاب لمرض قطعه أو شغل منعه ولما فرغ أو أبل عاود ذلك النادي المبارك والمحل وقبل افضائه اليه دل طيبه عليه فقال الشيخ على سلامته من

الاسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الامم وكان يجمعهم ويستريح الى كلامهم ولا يصدر الامور الا عن رأيهم وجعل بعد أن مات في تابوت من الذهب ورصع بالجوهر بعد أن طلي جسمه بالاطلية الماسكة لاجزائه فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزيا وللعامة واعظا فقام فوضع يده على التابوت فقال أصبح آسر الاسراء اسيرا ثم قام حكيم ثان فقال هذا الاسكندر الذي كان يخبأ الذهب فصار الذهب يخبؤه وقال الحكيم الثالث ما أزهد الناس في هذا الجسد وأرغبهم في هذا التابوت وقال الحكيم الرابع من أعجب العجب أن القوي قد غلب والضعفاء لاهون مغترون وقال الخامس يا ذا الذي جعل أجله ضمانا وجعل أمله عيانا هلا باعدت من أجلك لتبلغ بعض أملك هلا حققت من أملك الامتناع عن فوت أجلك وقال السادس أيها الساعي المنتصب جمعت ما خذلك عن الاحتياج فغودرت عليك أوزاره وفارقت أيامه فغنماؤه لغيرك ووباله عليك وقال السابع قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك فمن كان له عقل فليعقل ومن كان

قوله الصدفي في نسخة الصدفي وقوله العذري في نسخة العدوي اه

المجون وخلاصه من الفتون انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون وهى من طرف نوادره رحمة الله عليه ولما قلد قضاء مرسية وعزم عليه صاحب الامر فيه فر الى المرية فأقام بها سنة خمس و بعض سنة ست وخمسمائة وفى سنة ست قبل قضاءها على كره الى ان استعفى فى آخر سنة سبع فى قصة يطول ايرادها ولطول مقامه بالمرية أخذ الناس عنه بها فلما كانت وقعة كتندة كان ممن حضرها ففقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى وقال القاضى عياض ولقد حدثنى الفقيه أبو اسحق ابراهيم بن جعفر أنه قال له خذ الصحيح واذكر أى متن شئت منه أذكر لك سنده أو أى سند شئت اذكر لك متنه انتهى وذكر غير واحد أنه حدث ببغداد بحديث واحد والله أعلم وهو من أبناء الستين *(ومنهم ابن أبى روح الجزيرى) ومن شعره لما تغرب بالمشرق

أحنّ الى الخضراء فى كل موطن * حنين مشوق للعناق وللضم
وماذاك الا أن جسمى رضيعها * ولابدّ من شوق الرضيع الى الام

(ومنهم العالم أبو حفص عمر بن حسن الهوزنى الحسيب العالم المحدث) وسبب رحلته للمشرق انه لما تولى المعتضد بن عباد خاف منه فاستأذنه فى الحج سنة ٤٤٤ ورحل الى مصر ثم مكة وسمع صحيح البخارى وعنه أخذ أهل الاندلس ورجع وسكن اشبيلية وخدم المعتضد فقتله سنة ستين وأربعمائة ومن شعره يحرّضه على الجهاد

أعباد حل الرزء والقوم هجع * على حالة من مثلها يتوقع
فلق كتابى من فراغك ساعة * وان طال فالموصوف للطول موضع
اذا لم أبث الداء رب شكاية * أضعت وأهل للملام المضيع

وما أخطأ السبيل من أتى البيوت من أبوابها ولا أرجأ الدليل من ناط الامور بأربابها ولرب أمل بين أثناء المحاذير مدمج ومحبوب فى طى المكاره مدرج فانتهز فرصتها فقد بان لك من غيرك العجز وطبق مضاربها فقد أمكنك الحز ولاغرو أن يستمطر الغمام فى الجدب ويستصحب الحسام فى الحرب وله

صرح الشر لكم لا يستقل * ان نهلتم جاءكم من بعد عل
بدء صعق الارض من رش وطل * ورياح ثم غيم قد أبل
خفضوا فالداء رزء أو أجل * واغمدوا سيفا عليكم قد يسل

وابنه أبو القاسم هو الذى كان سبب فساد دولة المعتمد بن عباد بسبب قتل المعتضد والده كما مرّ *(ومنهم أبو عمر عثمان بن الحسين أخو الحافظ أبى الخطاب بن دحية الآتى) كان أسنّ من أخيه ابن أبى الخطاب وكان حافظا للغة العرب قيما بها وعزل الملك الكامل أبا الخطاب عن دار الحديث الكاملية التى أنشأها بين القصرين ورتب مكانه أخاه أبا عمر المذكور ولم يزل بها الى أن توفى سنة ٦٣٤ بالقاهرة ودفن بسفح المقطم كأخيه وكان موت أبى عمر بعد أبى الخطاب بسنة رحمهما الله تعالى *(ومنهم الكاتب أبو بكر محمد بن القاسم) من أهل وادى الحجارة ويعرف بابن شهادة وارتحل الى المشرق لما نبت به حضرة قرطبة عند تقلب دولها وتحوّل ملوكها وخولها فجال فى العراق وقاسى ألم الفراق واجتاز بحلب وأقام بها

مغترا فليغتر وقال الثامن رب هائب لك كان يغتابك من ورائك وهو اليوم بحضرتك لايخافك وقال التاسع رب حريص على سكوتك اذ لا تسكت وهو اليوم حريص على كلامك اذ لا تتكلم وقال العاشر أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت وقال الحادى عشر وكان صاحب خزانة كتب الحكمة قد كنت تأمرنى ان لا أبعد عنك فاليوم لا اقدر على الدنوّ منك وقال الثانى عشر هذا اليوم عظيم العبر أقبل من شره ما كان مدبرا وادبر من خيره ما كان مقبلا فمن كان باكيا على من زال ملكه فليبك وقال الثالث عشر يا عظيم السلطان اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب وقال الرابع عشر يا من ضاقت عليه الارض طولا وعرضا ليت شعرى كيف حالك فيما احتوى عليك منها وقال الخامس عشر اعجب لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الحطام الهائد والهشيم البائد وقال السادس عشر ايها الجمع الحافل والملتقى الفاضل لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغي والفساد وقال السابع عشر انظروا الى حلم النائم كيف انقضى

مقام غريب لم يصف له حلب وقال

أين أقصى الغرب من أرض حلب * أمل فى الغرب موصول التعب
حن من شوق الى أوطانه * من جفاه صبره لما اغترب
جال فى الارض لحاجا حائرا * بين شوق وعناء ونصب
كل من يلقاه لا يعرفه * مستغيثا بين عجم وعرب
لهف نفسى أين هاتيك العلا * واضيعاه ويا غبن الحسب
والذى قد كان ذخرا وبه * أرتجى المال وادراك الرتب
صار لى أبخس ما أعددته * بين قوم مادروا طعم الادب
ياأحباى اسمعوا بعض الذى * يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجرا لكم عن غربة * يرجع الرأس لديها كالذنب
واحملوا طعنا وضربا دائما * فهو عندى بين قومى كالضرب
ولئن قاسيت ما قاسيته * فبما أبصر لحظى من عجب
ولقد أخبركم ان ألتقى * بكم حتى تقولوا قد كذب

واجتاز بدمشق فقال من أبيات رحمه الله تعالى

دمشق جنة الدنيا حقيقا * ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد * وصحبتهم تؤول الى حروب

ثم انه ودع الشرق بالسلام وحل بحضرة دانية لدى ملكها مجاهد العامرى فى بحبوحة عز لا يخشى فيه الملام واستقبل الاندلس بخاطر جديد ونال بها بعد من بلوغ الآمال ماليس له عليه مزيد وقال

وكم قد لقيت الجهد قبل مجاهد * وكم أبصرت عينى وكم سمعت أذنى
ولاقيت من دهرى وصرف خطوبه * كما جرت النكباء فى معطف الغصن
فلا تسألونى عن فراق جهنم * ولكن سلونى عن دخولى الى عدن

(وله من كتاب) وحامل كتابى سلمه الله تعالى وأعانه ممن أخنى عليه الزمان وأدار عليه وما صحا الى الآن كؤس الهوان وقد قصد على بعد جنابك الرحيب الخصيب قصد الحسن محل الخصيب ويمم جناب ابن طاهر حبيب وانى لأرجو أن يرجع منك رجوع نصيب عن سليمان ويستعين فى شكرك بكل لسان وأنت عليم بأن الثناء هو الخلف وقد قال الاول

أرى الناس أحدوثة * فكونى حديثا حسن

وأنا القائل

فلا تزهدن فى الخير قد مات حاتم * وأخباره حتى القيامة تذكر

ومع هذا فهو عليه بقدر ما يحتمل من التكليف هذا الاوان عارف وجوه الاعذار غير ذى عجل فى العتب قبل البيان وعند سيدى من التصدى للايفاء ما يحقق فيه جميل الرجاء دامت أرجاؤه مؤملة ولا برحت نعمه سابغة مكملة *(ومنهم الكاتب أبو عبد الله محمد بن عبد ربه المالقى) وقال بعضهم انه من الجزيرة الخضراء له رحلة الى الديار المصرية صنع فيها

وظل الغمام كيف انجلى وقال الثامن عشر وكان من حكماء الهند يامن كان غضبه الموت هلا غضبت على الموت وقال التاسع عشر قد رأيتم ايها الجمع هذا الملك الماضى فليتعظ به الآن هذا الباقى وقال العشرون هذا الذى دار كثيرا والآن يقر طويلا وقال الحادى والعشرون ان الذى كانت الآذان تنصت له قد سكت فليتكلم الآن كل ساكت وقال الثانى والعشرون سيلحق بك من سره موتك كما لحقت بمن سرك موته وقال الثالث والعشرون مالك لا تقل عضوا من أعضائك وقد كنت تستقل ملك الارض بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذى أنت به وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد وقال الرابع والعشرون وكان من نساك الهند وحكمائها ان دنيا يكون هكذا آخرها فالزهد أولى ان يكون فى أولها وقال الخامس والعشرون وكان صاحب مائدته قد فرشت النمارق ونضدت الوسائد وهيئت الموائد ولا أرى عميد المجالس وقال السادس والعشرون وكان صاحب بيت ماله قد كنت تأمرنى بالجمع والادخار فالى من أدفع ذخائرك وقال السابع والعشرون وكان خازنا من خزانه هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل ان أوخذ بما لم آخذ منها وقال الثامن

مقامة يقول فيها

وفى جنبات الروض نهر ودوحة * يروقك منها سندس ونضار
تقول وضوء البدر فيه مغربا * ذراع فتاة دار فيه سوار

ومن شعره

ما كل انسان أخ منصف * ولا الليالى أبدا تسعف
فلا تضع ان أمكنت فرصة * واصحب من الاخوان من ينصف
وانتف من الدهر ولو ريشة * فانما حظك ماتنتف

وقوله يرثى السيد أبا عمران ابن أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ملك المغرب والاندلس

بجيد المعالى أى عقد تبددا * وصدر العوالى أى رمح تقصدا
ولما دهت خيل الشقى فجاءة * وسال العدا بحرا من الموت مزبدا
شهدت بوجه كالغزالة مشرقا * وان كان وجه الشمس بالنقع مرمدا
عزائم صدق ليس تصرف هكذا * الى الموت يسعى أو على الموت يعتدى

وكان السيد أبو عمران المرثى قتله الميورقى صاحب فتنة أفريقية فى الهزيمة المشهورة على تلوت وجمع ابن عبد ربه المذكور شعر السيد أبى الربيع بن عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على وكان ابن عبد ربه المذكور كاتبا للسيد أبى الربيع سليمان المذكور ولما أنشد لبعض الشعراء

حاكت يمين الرياح محكمة * فى نهر واضح الاسارير
فكلما ضعفت به حلقا * قام لها القطر بالمسامير

أنشد لنفسه

بين الرياض وبين الجو معترك * بيض من البرق أو سمر من السمر
ان أوترت قوسها كف السماء رمت * نبلا من الماء فى زغف من الغدر
لاجل ذلك اذا هبت طلائعها * تدرع النهر واهتزت قنا الشجر

واجتمع ابن عبد ربه المذكور فى رحلته بالسعيد بن سناء الملك وأخذ عنه شيأ من شعره ورواه بالمغرب *(ومنهم الشاعر الاديب أبو محمد عبد المنعم بن عمر بن حسان المالقى) ومن نظمه فى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من قصيدة رحمه الله تعالى

وفى صهوات المقربات وفى القنا * حصول حمى لافى هضاب المعاقل

ومنها

ولا ملك يأتى كيوسف آخرا * كما لم يجئ مثل له فى الاوائل

*(ومنهم الحافظ ابو الخطاب بن دحية وهو مجد الدين عمر بن الحسين بن على بن محمد بن فرح بن خلف الظاهرى المذهب الاندلسى) كان من كبار المحدثين ومن الحفاظ الثقات الاثبات المحصلين استوطن بجاية فى مدة أبى عبد الله بن تومرو وروى بها وأسمع وكان من أحفظ أهل زمانه باللغة حتى صار حوشى اللغة عنده مستعملا غالبا ولا يحفظ الانسان من

بنت دارا بن دارا ملك فارس ما كنت أحسب ان غالب دارا الملك يغلب وان كان هذا الكلام الذى سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شرابه فقد خالف الكاس الذى تشرب به الجماعة القول الثلاثون ما يحكى عن أمه أنها قالت حين جاءها نعيه لئن فقدت من ابنى أمره فما فقدت من قلبى ذكره وقبض الاسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا بن دارا وست سنين بعد قتله لدارا بن دارا وتملكه على سائر ملوك الارض وملك وهو ابن احدى وعشرين سنة وذلك بمقدونية وهى مصر وعهد الى ولى عهده بطليموس بن أذينة ان يحمل تابوته الى والدته بالاسكندرية وأوصاه ان يكتب اليها اذا أتاها نعيه ان تتخذ وليمة وتنادى فى مملكتها ان لا يتخلف عنها أحد وأن لا يجيب دعوتها من قد فقد محبوبا أو مات له خليل ليكون ذلك ماتم الاسكندر بالسرور خلاف ماتم الناس بالحزن فلما ورد نعيه اليها

اللغة حوشيها الا وذلك أضعاف اضعاف محفوظه من مستعملها او كان قصده والله تعالى أعلم ان يتفرد بنوع يشتهر به دون غيره كما فعل كثير من الادباء حيث تركوا طريق المعرب وانفردوا بالطريق الآخر ولو سلكوا طريق المعرب لكانوا فيه كآحاد الناس وكذا الشيخ أبو الخطاب ابن دحية له رسائل ومخاطبات كلها مغلقات مقفلات وكان رحمه الله تعالى اذا كتب اسمه فيما يجيزه او غير ذلك يكتب ابن دحية ودحية معا المتشبه به جبريل وجبرائيل ويذكر ما ينيف على ثلاث عشرة لغة مذكورة فى جبريل ويقول عند فاطر السموات والارض وهذا فرع انفرد به عمن عداه من أهل العلم قال صاحب عنوان الدراية رأيت له تصنيفا فى رجال الحديث لا بأس به وارتحل الى المشرق فى دولة بنى أيوب فرفعوا شانه وقربوا امكانه وجمعوا له علماء الحديث وحضروا له مجلسا أقروا له بالتقدم وعرفوا انه من أولى الضبط والاتقان والتفهم وذكروا أحاديث بأسانيد حوّلوا متونها فأعاد المتون المحوّلة وعرف عن تغييرها ثم ذكر الاحاديث على ماهى عليه من متونها الاصلية ومثل هذه الحكاية اتفق لابى عمر ابن عات فى كتاب مسلم برا كش ببيت الطلبة منها ومن شعر أبى الخطاب ما كتب به الى الكامل بن العادل بن أيوب

مالى اسائل برق بارق عنكم * من بعد ما بعدت ديارى منكم
فعلكم قلبى وأنتم بالحشا * لا بالعقيق ولا برامة أنتم
وأنا المقيم على الوفاء بعهدكم * يا مالكين وفيتم أوخنتم

وهى طويلة ومنها

رفعت له الاملاك منه سجية * ملك السماك الرمح وهو محرم

ومنها

لذوى النهى والفهم سر حكومة * قد حار فيها كاهن ومنجم
فاقصد مرادك حيث سرت مظفرا * والله يكلأ والكواكب نوّم
وليهنك الشهر السعيد تصومه * وتفوز فيه بالثواب وتغنم
فلأنت فى الدنيا كليلة قدره * قدرا فقدرك فى الملوك معظم

فأجابه السلطان مكافأة بنثر ونظم فى النظم

وهيجن شوقى للاجارع باللوى * وأين اللوى منى وأين الاجارع
مرابع لو أن المرابع أنجم * لكان نجوم الارض تلك المرابع
رعى الله أيامها ولوانها * الى وقد ولى الشباب رواجع
ليالى لا ليلى اذا رمت وصلها * يلوح لها من صبح شيبى مواقع

فى جملة أبيات (ومن النثر) الحمد لله ولى الحمد وقف ولده على الابيات التى حسن شعرها وصفا دررها وليس من البديع أن يقذف البحر درا أو ينظم الخليل شعرا وقد أخذت الورقة لا تنزه فى معانيها واستفيد بما أودعه فيها فالله تعالى لا يخلينا من فوائد فكرته وصالح أدعيته والسلام فأجابه الحافظ أبو الخطاب عن الابيات بقوله من قصيدة

شجتنى شواج فى الغصون سواجع * ففاضت هوام للجفون هوامع

من فقد محبوبا أوعدم خليلا أو فارق حبيبا وليس فيهم أحد الا وقد أصابه بعض ذلك فلما سمعت ذلك استيقظت وعلمت ما به سئلت وقالت لقد عزانى ولدى أحسن العزاء وقالت با اسكندر ما أشبه أواخرك باوائلك وأمرت به فجعل فى تابوت من المرمر وطلى بالاطلية الماسكة لاجزائه وأخرجته عن الذهب لعلمها ان من يطرأ بعدها من الملوك والامم لا يتركونه فى ذلك الذهب وجعل التابوت المرمر على أحجار نضدت وصخور نضدت من الرخام والمرمر قد رصفت وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الاسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الاسكندر الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جوامع من أخبار الاسكندرية وعجائبها ومصر وأخبارها ونيلها فى الموضع المستحق له من ذلك فى كتابنا ان شاء الله تعالى

(ذكر جوامع من حروب الاسكندر بارض الهند)

(قال المسعودى) لما قتل الاسكندر فور صاحب مدينة المانكير من ملوك الهند وانقاد اليه جميع ملوك الهند على حسب

وأكثر فيها من التغزل الى ان قال

ولا حاكم أرضاه بيني و بينها * سوى حاكم دهرى له اليوم طائع
يدافع عني الضيم قائم سيفه * اذا عز من للضيم عني يدافع
هو الكامل الاوصاف والملك الذى * تشير اليه بالكمال الاصابع
و بيض أياديه الكريمة فى الورى * قلائد فى الاعناق وهى الصنائع
ويوماه يوماه اللذان هما هما * اذا جمعت غلب الملوك المجامع

ومنها

فما روضة غناها مرت الصبا * ونشر شذاها الطيب النشر ذائع
له من شكى الزهر برد مفوّف * اتيح له من أرض صنعاء صانع
فراقك منها اخضر الثوب ناضر * وشاقك منها اصفر اللون فاقع
واحمر قان للخدود مورد * وابيض كالثغر المفلج ناصع
بأحسن من توشيع مدحى الذى له * بدائع من وشى البديع وشائع
وما ضائع من نشر شكرى الذى به * تأرجت الارجاء عندك ضائع
ولو لم يقيدنى نداك لكان لى * مجال فسيح فى البسيطة واسع
فأنت الذى لى والاعادى كثيرة * فويق مكان النجم فى الافق دافع

ومنها

بقيت لعبد جده دحية الذى * يشابه جبريل له و يضارع
وجدته الزهراء بنت محمد * عليه السلام الدائم المتتابع
ولا عدمت منك الممالك مالكا * يقرب للآمال ما هو شاسع
ومنك عيون للمهمات يقظ * وعنك عيون الحادثات هواجع

وقال المقريزى فى ترجمة الملك الكامل انه كان مشغوفا بسماع الحديث النبوى وتقدم عنده ابو الخطاب بن دحية وبنى له دار الحديث الكاملية بين القصرين بالقاهرة انتهى وقال ابو الخطاب بن دحية انشدنى ابو القاسم السهيلى لنفسه وذكر انه ما سأل الله تعالى بها شيأ الا اعطاه

يا من يرى ما فى الضمير و يسمع * انت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها * يا من اليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن * امنن فان الخير عندك اجمع
مالى سوى فقرى اليك وسيلة * فبالافتقار اليك فقرى ادفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة * فلئن رددت فأى باب اقرع
ومن الذى ادعو واهتف باسمه * ان كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن يقنط عاصيا * الفضل اجزل والمواهب اوسع

ومن نظم السهيلى رضى الله تعالى عنه

ماذكرناه من حمل الاموال والخراج اليه بلغه أن فى اقاصى أرض الهند ملكا من ملوكهم ذا حكمة وسياسة وديانة وانصاف للرعية وانه قد أتى عليه من عمره مئون من السنين وأنه ليس بارض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله يقال له كند وكان قاهرا لنفسه مميتا لصفاته من الشهوة الغضبية وغيرها حاملا لها على خلق كريم وأدب رائق فكتب اليه كتابا يقول فيه أما بعد فاذا اتاك كتابى هذا فان كنت قائما فلا تقعد وان كنت ماشيا فلا تلتفت والا مزقت ملكك وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند فلما ورد عليه الكتاب أجاب الاسكندر باحسن جواب وخاطبه بملك الملوك وأعلمه انه قد اجتمع له قبله اشياء لا يجتمع عند غيره مثلها الا من صارت اليه عنه فمن ذلك ابنة له لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها وفيلسوف يخبرك بمرادك قبل ان تسأله لحدة مزاجه وحسن قريحته واعتدال بنيته واتساعه فى علمه وطبيب لا تخشى معه داء ولا شيأ من العوارض الا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البنية وحل العقدة التى عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسى وان كانت بنية الانسان وهيكله قد نصبت فى هذا العالم عرضا

اسائل عن جيرانه من لقيته * واعرض عن ذكراه والحال تنطق
ومالى الى جيرانه من صبابة * ولكن نفسى عن صبوح ترقق

وله

لما اجاب بلا طمعت بوصله * اذ حرف لا حرفان معتنقان
وكذا نعم بنعيم وصل آذنت * فنعم ولا فى اللفظ متفقان

ولد أبو الخطاب بن دحية فى ذى القعدة سنة سبع أو ثمان وأربعين وخمسمائة وتوفى انفجار الفجر ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الاول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بالقاهرة ودفن بسفح المقطم وتكلم فيه جماعة فيما ذكره ابن النجار وقدره اجل مما ذكروه وقد روى رحمه الله تعالى بالمغرب ومصر والشام والعراق وخراسان وعراق العجم وكل ذلك فى طلب الحديث وسمع بالاندلس من ابن بشكوال وابن زرقون فى جمع كثير وببغداد من أبى الفرج بن الجوزى وبأصبهان من ابى جعفر الصيدلانى معجم الطبرانى ومن غيره وبنيسابور من ابى سعيد بن الصفار ومنصور بن الفراوى والمؤيد الطوسى وحصل الكتب والاصول وحدث وأفاد وكان من اعيان العلماء ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث وما يتعلق به عارفا بالنحو واللغة وايام العرب واشعارها وصنف كتبا كثيرة مفيدة جدا منها كتاب التنوير فى مولد السراج المنير صنفه عند قدومه الى اربل سنة اربع وستمائة وهو متوجه الى خراسان لما راى ملك اربل مظفر الدين كوكبرى معتنيا بعمل المولد النبوى فى شهر ربيع الاول كل عام مهتما به غاية الاهتمام وكمله وقرأه عليه بنفسه وختمه بقصيدة طويلة فاجازه بألف دينار وصنف ايضا العلم المشهور فى فضائل الايام والشهور والآيات البينات فى ذكر ما فى اعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من المعجزات وكتاب شرح أسماء النبى صلى الله عليه وسلم وكتاب النبراس فى أخبار خلفاء بنى العباس وكتاب الاعلام المبين فى المفاضلة بين أهل صفين وولى قضاء بلده أصوله دانية مرتين ثم صرف عن ذلك لسيرة نسبت اليه فرحل عنها وحدث بتونس سنة ٥٩٠ ثم حج وكتب بالمشرق عن جماعة بأصبهان ونيسابور وعاد الى مصر فاستاديه العادل لولده الكامل وأسكنه القاهرة فنال بذلك دنيا عريضة ثم زادت حظوته عند الكامل وأقبل عليه اقبالا عظيما وكان يعظمه ويحترمه ويعتقد فيه الخير ويتبرك به حتى كان يسوى له المداس حين يقوم وهو بلنسى كما قاله ابن خلكان وغيره وبلنسية مشهورة بشرق الاندلس ثلث سنة بالتصحيف *(ومنهم خلف ابن القاسم بن سهل بن الدباغ الحافظ الاندلسى) رحل الى المشرق وكان حافظا فهما عارفا بالرجال حدث حديث مالك وشعبة وأشياء فى الزهد وسمع بمصر أبا الحسن بن الورد البغدادى ومسلم بن الفضل والحسن بن رشيق وجماعة وسمع بدمشق على بن أبى العقب وأبا الميمون بن راشد وبمكة من بكير الحداد وأبى الحسن الخزاعى والآجرى وبقرطبة من أحمد بن يحيى بن الشاهد ومحمد بن معاوية وتوفى سنة ٣٩٣ *(ومنهم خلف بن سعيد ابن عبد الله بن زرارة أبو القاسم بن المرابط الكلبى من ذرية الابرش الكلبى ويعرف بالمبرقع المحتسب القرطبى) رحل الى المشرق مرتين أولاهما سنة ٣٣٣ وهو ابن ثلاث

للآفات والحتوف والبلايا وقدح عندى اذا نام لأنه شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص منه شئ ولا يزيده الوارد عليه الا دهاقا وانا منفذ جميع ذلك الى الملك وصائر اليه فلما قرأ الاسكندر الكتاب ووقف على ما فيه قال تكون هذه الاشياء الاربعة عندى ونجاة هذا الحكيم من صولتى أحب الى من أن لا تكون عندى ويهلك فانفذ اليه الاسكندر جماعة من حكماء اليونانيين فى عدة من الرجال وتقدم اليهم ان كان صادقا فيما كتب به فاحملوا ذلك الى ودعوا الرجل فى موضعه وان تبينتم ان الامر بخلاف ذلك وانه اخبر عن الشئ على خلاف ما هو به فقد خرج عن حد الحكمة فاشخصوه الى فمضى القوم حتى انتهوا الى الملك فتلقاهم باحسن لقاء وانزلهم احسن منزل فلما كان فى اليوم الثالث جلس لهم مجلسا خاصا للحكماء منهم دون من كان معهم من المقاتلة فقال بعض الحكماء لبعض ان صدقنا فى الاولى صدقنا فيما بعدها مما ذكر فلما اخذت الحكماء مراتبها واستقرت بها مجالسها اقبل عليهم مباحثا لهم فى اصول الفلسفة والكلام فى الطبيعيات وما فوقها من الالهيات وعلى شماله جماعة من حكمائه وفلاسفته فطال الخطب فى المبادى الاول وتشاحوا القوم ونظروا فى موضوعات

وعشرين سنة وسمع أباسعيد بن الاعرابي وابن الورد وأبابكر الآجري وروى عنه أبو اسحق بن شنظير وأبوجعفر الزاهري وقال ابن شنظير انه توفي في نحو الاربعمائة رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم سابق فضلاء زمانه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الاشبيلي) يقال ان عمره ستون سنة منها عشرون في بلده اشبيلية وعشرون في افريقية عند ملوكها الصنهاجيين وعشرون في مصر محبوسا في خزانة الكتب وكان وجهه صاحب المهدية الى ملك مصر فسجن بها طول تلك المدة في خزانة الكتب فخرج في فنون العلم اماما وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته وكان يكنى بالاديب الحكيم وهو الذي لحن الاغاني الافريقية قال ابن سعيد واليه تنسب الى الآن وذكره العماد في الخريدة وله كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الثعالبي وتوفي سنة ٥٢٣ وقيل سنة ٥٢٨ بالمهدية وقيل مستهل السنة بعدها ودفن بها وله فيمن اسمه واصل

ياهاجرا سموه عمدا واصلا * وبضدها تتبين الاشياء
ألغيتني حتى كانك واصل * وكانني من طول هجري الراء

وقوله وهو من بدائعه

لاغرو أن سبقت لهاك مدائحي * وتدفقت جدواك ملء انائها
يكسى القضيب ولم يحن اثماره * وتطوق الورقاء قبل غنائها

وقال في الافضل

تردى بكل فتى اذا شهد الوغى * نثر الرماح على الدروب كعوبا
قد لوحته يد الهواجر فاغتدى * مثل القناة قضافة وشحوبا
تخذوا القنا أشطانهم واستنبطوا * في كل قلب بالطعان قليبا

ومنها

تعطى الذي اعطتكه شمر القنا * أبدا فتغدو سالبا مسلوبا

ومنها

وأنا الغريب مكانه وبيانه * فاجعل صنيعك في الغريب غريبا

وله

ومهفهف شربت محاسن وجهه * ما مجه في الكاس من ابريقه
ففعالها من مقلتيه ولونها * من وجنتيه وطعمها من ريقه

أخذه من ابن حيوس وقصر عنه في قوله

ومهفهف يغني بلحظ جفونه * عن كاسه الملأى وعن ابريقه
فعل المدام ولونها ومذاقها * في مقلتيه ووجنتيه وريقه

ولابي الصلت فيمن اسمه محسن

أيها الظالم المسى * ء مدى دهره بنا
مالهم أخطؤا الصوا * ب فسموك محسنا

وله في لابس قرمزية حمراء

العلماء وترتيبات الحكماء على غير مراء وتناهي بهم الحكماء الى غاية كان اليها صدورهم من العلويات ثم اخرج الجارية فلما ظهرت لابصارهم رمقوها باعينهم فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من اعضائها مما ظهر فامكنه أن يتعدى ببصره الى غيره وشغله تامل ذلك وحسنه وحسن شكلها واتقان صورتها فخاف القوم على عقولهم لما ورد عليهم عند النظر اليها ثم ان كل واحد منهم رجع الى نفسه وفهمه وقهر سلطان هواه ودواعي طبعه ثم أراهم بعد ذلك ما تقدم الوعد به وسيرهم وسير الفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم وشيعهم مسافة من ارضه فلما وردوا على الاسكندر امر بانزال الطبيب والفيلسوف ونظر الى الجارية فحار عند مشاهدتها وبهرت عقله وامر قيمة جواريه بالقيام عليها ثم صرف همته الى الفيلسوف والى علم ما عنده والى علم الطبيب ومحله من صنعة الطب وحفظ الصحة وقص الحكماء عليه ما جرى لهم من المباحثة مع الملك الهندي ومن احضره من فلاسفته وحكمائه فاعجبه ذلك وتامل اغراض القوم ومقاصدهم والغاية التي اليها كان أصدرهم واقبل ينظر الى مطاردة الهند في عللها ومعلولاتها وما يصفه اليونانيون من عللها وصحة قياسها على

أقبل يسعى أبو الفوارس فى * مرأى عجيب ومنظر أنق
أقبل فى قرمزية عجب * قد صبغت لون خده الشرق
كانما جيده وغرته * من دونها اذ بدون فى نسق
عمود فجر من فوقه قمر * دارت به قطعة من الشفق

وله فى ثقيل وقد أجاد

لى جليس عجبت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله
أنا أرعاه مكرها وبقلبي * منه مايقلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآ * ه ولكن اصونه وأجله

أخذه من قول أبى الحسن جعفر بن الحاج الميورقى وهما فى عصر واحد

لى صاحب عميت على شؤونه * حركاته مجهولة وسكونه
يرتاب بالامر الجلى توهما * فاذا تيقن نازعته ظنونه
انى لاهواه على شرقى به * كالشيب تكرهه وأنت تصونه

وأوصى ان يكتب على قبره ابو الصلت المذكور مما نظمه قبل موته

سكنتك يادار الفناء مصدقا * بانى الى دار البقاء أصير
وأعظم مافى الامر أنى صائر * الى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها * وزادى قليل والذنوب كثير
فان أك مجزيا بذنبي فاننى * بشر عقاب المذنبين جدير
وان يك عفو ثم عنى ورحمة * فثم نعيم دائم وسرور

وله

اذا كان اصلى من تراب فكلها * بلادى وكل العالمين اقاربى
ولا بدّ لى ان اسال العيس حاجة * تشق على شم الذرا والغوارب

وقال

دب العذار بخده ثم انثنى * عن لثم مبسمه البرود الاشنب
لاغرو أن خشى الردى فى لثمه * فالريق سم قاتل للعقرب

وقد ذكروا ان من خواص ريق الانسان انه يقتل العقرب وهو مجرب

وقال

لاتدعنى ولتدع من شئته * اليك من عجم ومن عرب
فنحن اكالون للسحت فى * ذراك سماعون للكذب

وقال

لاتسالنى عن صنيع جفونها * يوم الوداع وسل بذلك من نجا
لو كنت املك خدها للثمته * حتى اعيد به الشقيق بنفسجا
او كنت اهجع لاحتضنت خيالها * ومنعت ضوء الصبح ان يتبلجا
و بثثت فى الظلماء كحل جفونها * وعقدت هاتيك الذوائب بالدجا

ماقدّمناه من اوضاعها ثم أراد محنة الفيلسوف على حسب ما اخبر عنه فخلا بنفسه وأجال فكره فسنح له سانح من الفكر بايقاع معنى يختبره به فدعا بقدح فملأه سمنا وأدهقه ولم يجعل للزيادة عليه سبيلا ودفعه الى رسول له وقال له امض به الى الفيلسوف ولا تخبره بشئ فلما ورد الرسول بالقدح ودفعه الى الفيلسوف قال بحكمة فهمه وتبينه للامور المتقنة المحكمة فى نفسه لامر مابعث هذا الملك الحكيم بهذا السمن اليه وأجال فكره وسبر المراد به ثم دعا بنحو ألف ابرة فغرز اطرافها فى السمن وأنفذها الى الاسكندر فامر الاسكندر بسبكها كرة مدورة ململمة متساوية الاجزاء وأمر بردها الى الفيلسوف فلما نظر اليها الفيلسوف وتامل فعل الاسكندر فيها أمر ببسطها وبان يتخذ منها مرآة بحضرته وصقلها فصارت جسما صقيلا ترد صورة من قابلها من الاشخاص لشدة صفائها وزوال الدرن عنها وامر بردها الى الاسكندر فلما نظر اليها وتامل حسن صورته فيها دعا بطست فجعل المرآة فيه وامر باراقة الماء فيه عليها حتى رسبت وامر بحمل ذلك الى الفيلسوف فلما نظر الفيلسوف الى ذلك امر بالمرآة فجعل منها مشربة كالطرجهارة وجعلها فى الطست فوق الماء فطفت فوقه وامر بردها الى الاسكندر فلما نظر

وقال مهنئا بمولود

يلوح فى المهد على وجهه * تجهم الباس وبشرى الندى
والشمس والبدر اذا استجمعا * لم يلبثا ان يلدا فرقدا
فابق له حتى ترى نجله * وان عرا خطب فنحن الفدا

قال ابن سعيد وهذا البيت الاخير من اثقل الشعر يتطير من سماعه وتركه اولى وقال رحمه الله تعالى فى الرصد

فذا غدير وذا روض وذا جبل * فالضب والنون والملاح والحادى

(ومنهم الفقيه ابو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول السرقسطى) ذكره العماد الاصبهانى فى الخريدة وذكره السمعانى فى الذيل وانه دخل بغداد فى حدود سنة ست عشرة وخمسمائة ومن شعره

اياشمس انى ان اتتك مدائحى * وهن لآلى نظمت وقلائد
فلست بمن يبغى على الشعر رشوة * ابى ذاك لى جد كريم ووالد
وانى من قوم قديما وحديثا * تباع عليهم بالالوف القصائد

(ومنهم الفقيه المقرى ابو عامر التيارى) من رجال الذخيرة رحل الى المشرق وقرأ على ابى جعفر الدباجى كتابه فى العروض وسائر كتبه ولقى شيخ القير وان فى العربية ابن القزاز واديبها الحصرى * واخبر عن نفسه انه كان بين يديه تلميذله وسيم فربه ابو جعفر التجانى بمحاءة كتب له فيها وخلاها بين يديه وهو قد غلب النوم عليه

يانائما متعمدا * ابصار طيف حبيبه
هو جوهر فاثقبه ان الطيب فى مثقوبه
اوار كبنى ظهره * ان لم تقل بركوبه

فاما قرأها علم انها للتجانى فكتب تحتها

ياطالبا أضحى حجا * بدون ما مطلوبه
لولم يكن فى ذاك اثم لم اكن اسخو به
انى اغار عليه من * اثوابه ورقيبه

وأنشد يوما فى حلقته لابن الرومى فى خباز.

لم انس لم أنس خبازا مررت به * يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة * وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة * فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

فقال بعض تلامذته اما انه لا يقدر على الزيادة على هذا فقال

فكاد يضرط اعجابا برؤيتها * ومن راى مثل ما ابصرت منه خرى

فضحك من حضر وقال البيت لائق بالقطعة لولا ما فيه من ذكر الرجيع فقال

ان كان بيتى هذا ليس يعجبكم * فحلوا محوه او فالعقوه طرى

*(ومنهم الاديب الطبيب ابو الحجاج يوسف بن عتبة الاشبيلى) مطبوع فى الشعر والتوشيح

قال

الاسكندر الى ذلك ام بتراب. ناعم فلثت منه وورد ها الى الفيلسوف فلما نظر الفيلسوف الى ذلك تغير لونه وحال وجزع وتغيرت صفاته وأسبل دموعه على خده وكثر شهيقه وطال انينه وظهر حنينه وأقام بقية يومه غير منتفع بنفسه ثم أفاق من ذلك الحال وزجر نفسه وأقبل عليها كالمعاتب لها وقال ويحك يا نفس ما الذى قذف بك فى هذه السدفة وأصارك الى هذه الغمة ووصلك بهذه الظلمة انسيت وأنت فى النور تسرحين وفى العلوم تمرحين وتنظرين فى الضياء الصادق وتتفسحين فى العالم المشرق أنزلت الى عالم الظلم والمعاندة والغشم والمفاسدة تخطفك الخواطف وتنتهرك العواصف قد حرمت علم الغيوب والسكون فى العالم المحبوب ورميت بشدائد الخطوب ورفضت كل مطلوب أين مصادرك الطيبة وراحتك القوية حللت فى الاجساد فقوى عليك الكون والفساد حللت يا نفس بين السباع القاتلة والافاعى المهلكة والنيران المحرقة والريح العاصفة وصيرتك الاعمار فى قرارات الاجسام لا تشاهدى الا غافلا ولا ترين الا جاهلا قد زهد فى الخيرات ورغب عن الحسنات ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر فقال باعلى صوته يا لك من نجوم سائرة

قال ابن سعيد اجتمعت به في القاهرة مرارا بمجلس الامير جمال الدين ابي الفتح موسى بن يغمور بن جلدك وفي غيره وتوفي في مارستان القاهرة ومن شعره

اما الغراب فانه سبب النوى * لاريب فيه وللنوى اسباب
يدعو الغراب وبعد ذا يجيبه * جمل وتعوى بعد ذا الذئاب
لاتكذبن فهذه اسبابه * لكن منها بداءة وجواب

*(ومنهم الامام المحدث الحافظ جمال الدين ابو بكر محمد بن يوسف بن موسى الاندلسى المعروف بابن مسدى) وهو من الائمة المشهورين بالمشرق والمغرب قال رحمه الله تعالى انشدني رئيس الاندلس واديبها ابو الحسن سهل بن مالك الازدي الغرناطي لنفسه سنة ٦٢٧ في شوّال بداره بغرناطة

منغص العيش لاياوي الى دعة * من كان ذا بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته * سكنى مكان ولم يسكن الى احد

*(ومنهم الامام الحافظ ابو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الازدي الحميدي نسبة لجده حميد الاندلسي) ولد ابوه بقرطبة وولد هو بالجزيرة بليدة بالاندلس قبل العشرين واربعمائة وكان يحمل على الكتف للسماع سنة ٤٢٥ فاول ماسمع من الفقيه ابي القاسم اصبغ قال وكنت أفهم من يقرأ عليه وكان قد لقي ابن أبي زيد وقرأ عليه وتفقه وروى عنه رسالته ومختصر المدونة ورحل سنة ٤٤٨ وقدم مصر وسمع بها من الضراب والقراعي وغير واحد وكان سمع بالاندلس من ابن عبد البر وابن حزم ولازمه وقرأ عليه مصنفاته واكثر من الاخذ عنه وشهر بصحبته وصار على مذهبه الا انه لم يكن يتظاهر به وسمع بدمشق وغيرها وروى عن الخطيب البغدادي وكتب عنه أكثر مصنفاته وسمع بمكة من الزنجاني وأقام بواسط مدة بعد خروجه من بغداد ثم عاد الى بغداد واستوطنها وكتب بها كثيرا من الحديث والادب وسائر الفنون وصنف مصنفات كثيرة وعلق فوائد وخرج تخاريج للخطيب ولغيره وروى عنه أبو بكر الخطيب اكثر مصنفاته وابن ماكولا وكان اماما من أئمة المسلمين في حفظه ومعرفته واتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته حتى قال بعض الاكابر ممن لقي الائمة لم تر عيناي مثل أبي عبد الله الحميدي في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثه في أهله وكان ورعا ثقة اماما في علم الحديث وعلله ومعرفة متونه ورواته محققا في علم الاصول على مذهب أصحاب الحديث متبحرا في علم الادب والعربية ومن تصانيفه كتاب جذوة المقتبس في أخبار علماء الاندلس وكتاب تاريخ الاسلام وكتاب من ادعى الامان من أهل الايمان وكتاب الذهب المسبوك في وعظ الملوك وكتاب تسهيل السبيل الى علم الترسيل وكتاب مخاطبات الاصدقاء في المكاتبات واللقاء وكتاب ماجاء من النصوص والاخبار في حفظ الجار وكتاب ذم النميمة وكتاب الاماني الصادقة وغير ذلك من المصنفات والاشعار الحسان في المواعظ والامثال وكان من كثرة اجتهاده ينسخ بالليل في الحر ويجلس في اجانة ماء يتبرد به ومن مشهور مصنفاته كتاب الجمع بين الصحيحين وذكره الحجاري في المسهب

وأجسام زاهرة من عالم شريف طلعت ولشيء ما وضعت إنك من عالم نفيس قد كانت النفس في أعاليه ساكنة وفي أكنافه قاطنة فقد أصبحت عنه ظاعنة ثم أقبل على الرسول وقال خذه ورده الى الملك يعني التراب ولم يحدث فيه حادثة فلما ورد الرسول على الاسكندر أخبره بجميع ماشاهد فتعجب الاسكندر من ذلك وعلم مرامي الفيلسوف ومقاصده وغاية مراده فيما وقع بالنفوس من النقلة مما علا من العوالم الى هذا العالم ولما كان في صبيحة تلك الليلة جلس له الاسكندر جلوسا خاصا ودعا به ولم يكن رآه قبل ذلك فلما أقبل ونظر الى صورته وتأمل قامته وخلقته نظر الى رجل طويل الجسم رحب الجبين معتدل البنية فقال في نفسه هذه بنية تضاد الحكمة فاذا اجتمع حسن الصورة وحسن الفهم كان أوحد زمانه ولست أشك ان هذا الشخص قد علم كل ما راسلته به وأجابني عليه من غير مخاطبة ولا موافقة ولا مباحثة فليس في وقته أحد يدانيه في حكمته ولا يلحقه في علمه وتأمل الفيلسوف الاسكندر فادار اصبعه السبابة على وجهه ووضعها على أرنبة انفه واسرع نحو الاسكندر وهو جالس على غير سرير ملكه فحياه بتحية الملوك فأشار اليه الاسكندر بالجلوس فجلس حيث أمره فقال له الاسكندر ما بالك

وقال عنه انه أظهر العلم في طرق ميورقة بعدما كانت عطلاء من هذا الشان وترك لها فخرا تباري به خواص البلدان وهو من علماء أئمة الحديث ولازم أبا محمد بن حزم في الاندلس واستفاد منه ورحل الى بغداد وبها ألف كتاب الجذوة ومن شعره قوله رضى الله تعالى عنه

ألفت النوى حتى انست بوحشها * وصرت بها لا في الصبابة مولعا
فلم احص كم رافقته من مرافق * ولم احص كم خيمت في الارض موضعا
ومن بعد جوب الارض شرقا ومغربا * فلا بدّ لي من أن اوافي مصرعا

وقال رحمه الله تعالى

لقاء الناس ليس يفيد شيأ * سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس الا * لاخذ العلم او اصلاح حال

وذكره ابن بشكوال في الصلة وتوفي ببغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى قال ابن ماكولا أخبرنا صديقنا ابو عبد الله الحميدي وهو من أهل العلم والفضل والتيقظ لم ار مثله في عفته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم وكان أوصى مظفر بن رئيس الرؤساء ان يدفنه عند قبر بشر الحافي فخالف وصيته ودفنه في مقبرة باب البرز فلما كان مدّة رآه مظفر في النوم كأنه يعاتبه على مخالفته فنقل في صفر سنة ٤٩١ الى مقبرة باب حرب ودفن عند قبر بشر وكان كفنه جديدا وبدنه طريا تفوح منه رائحة الطيب ووقف كتبه على اهل العلم رحمه الله تعالى ومن مناقبه انه قال لمن دخل عليه فوجده مكشوف الفخذ تعديت بعين الى موضع لم ينظره احد منذ عقلت انتهى ومن شعر الحميدي ايضا قوله

طريق الزهد افضل ما طريق * وتقوى الله تالية الحقوق
فثق بالله يكفك واستعنه * يعنك ودع بنيات الطريق

وقوله

كلام الله عز وجل قولي * وما صحت به الآثار ديني
وما اتفق الجميع عليه بدأ * وعودا فهو عن حق مبين
فدع ما صد عن هذا وهذا * تكن منها على عين اليقين

*(ومنهم الكمال ابو العباس احمد الشريشي وهو احمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى ابن عبد المؤمن القيسي) من اهل شريش روى عن ابي الحسن بن ليال وأبي بكر بن أزهر وأبي عبد الله بن زرقون وأبي الحسين بن جبير وغيرهم وأقرأ العربية وله تواليف أفاد بها حشد فيها منها شرح الايضاح للفارسي والجمل للزجاج وله في العروض تواليف وجمع مشاهير قصائد العرب واختصر نوادر أبي علي القالي قال ابن الابار لقيته بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهي الى اشبيلية في سنة ست عشرة وستمائة وهو اذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات فسمعت عليه بعضه وأجاز لي سائره مع رواياته وتواليفه وأخذ عنه أصحابنا ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية انتهى ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوّق الى الشام

حين نظرت الى ورميت بطرفك نحوى أدرت أصبعك حول وجهك ووضعتها على أرنبة انفك قال تأملتك أيها الملك بنورية عقلي وصفاء مزاجي فتبينت فكرتك في وتأملك لصورتي وأنها قلما تجتمع مع الحكمة فاذا كان ذلك كان صاحبها أوحد زمانه فادرت اصبعي مصداقا لما سنح لك وأريتك مثالا شاهدا كما انه ليس في الوجه الا انف واحد فكذلك ليس في دار مملكة الهند غيري ولا يلحق احد من الناس بي في حكمتي فقال له الاسكندر ما احسن ما تأتى لك ما ذكرت وانتظم لك بحسن الخاطر ما وصفت فدع عنك هذا ما بالك حين انفذت اليك قدحا مملوأ سمنا غرزت فيه ابرا ورددته الى قال الفيلسوف علمت ايها الملك انك تقول ان قلبي قد امتلأ وعلمي قد انتهى كامتلاء هذا الاناء من السمن فليس لاحد من الحكماء فيه مستزاد فاخبرت الملك ان علمي سيزيد في علمه ويدخل فيه دخول هذه الابر في هذا الاناء قال فاخبرني ما بالك حين عملت من الابر كرة وانفذتها اليك صيرتها مرآة ورددتها الى صقيلة قال علمت ايها الملك انك تريد ان قلبك قد قسا من سفك الدماء والشغل بسياسة هذا العالم كقسوة هذه الكرة فلا يقبل العلم ولا يرغب في فهم الغايات والعلوم

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر * فان قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم * مالذ للعين لا نوم ولا سهر
اذا تذكرت أوقاتا أتت ومضت * بقربكم كادت الاحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بالنيربين ضحى * والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والاغصان راقصة * والدوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفح أين عشياتى التى سلفت * لى منه فهى لعمرى عندى العمر
سقاك يا سفح سفح الدمع منهملا * وقل ذاك له ان أعوز المطر

وله رحمه الله تعالى شروح لمقامات الحريرى كبير ووسط وصغير وفى الكبير من الآداب مالا كفاء له وكان رحمه الله تعالى محببا بالشام وقال ابن الابار عندما ذكره انه شرح مقامات الحريرى فى ثلاث نسخ كبراها الادبية ووسطاها اللغوية وصغراها المختصرة انتهى وتوفى بشريش بلده سنة تسع عشرة وستمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الازدى القرطبى الملقب بضياء الدين) أحد الائمة المتأخرين فى القرآت وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك قال القاضى الشمس بن خلكان انه رحل من الاندلس فى عنفوان شبابه وقدم مصر فسمع بالاسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم الرازى وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدنى المصرى وأبا طاهر أحمد بن محمد الاصبهانى المعروف بالسلفى وغيرهم ودخل بغداد سنة ٥١٧ وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبى محمد عبد الله بن على المقرى المعروف بابن بنت الشيخ أبى منصور الخياط وسمع عليه كتبا كثيرة منها كتاب سيبويه وقرأ الحديث على أبى بكر محمد بن عبد الباقى البزار المعروف بقاضى المارستان وأبى القاسم بن الحصين وأبى العز وغيرهم وكان دينا ورعا عليه وقار وسكينة وكان ثقة صدوقا ثبتا نبيلا قليل الكلام كثير الخير مفيدا أقام بدمشق مدة واستوطن الموصل ورحل منها الى أصبهان ثم عاد الى الموصل وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر وذكره الحافظ ابن السمعانى فى كتاب الذيل وقال انه اجتمع به بدمشق وسمع عنه مشيخة أبى عبد الله الرازى وانتخب عليه أجزاء وسأله عن مولده فقال ولدت سنة ٤٨٦ فى مدينة قرطبة ورأيت فى بعض الكتب ان مولده سنة ٤٨٧ والاول أصح وكان شيخنا القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضى حلب رحمه الله تعالى يفتخر بروايته وقراءته عليه وقال كنا نقرأ عليه بالموصل ونأخذ عنه وكنا نرى رجلا يأتى اليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ثم يمد يده الى الشيخ بشئ ملفوف فيأخذه الشيخ من يده ولا نعلم ماهو ويتركه ذلك الرجل ويذهب ثم تقفينا ذلك فقلنا انها دجاجة مسموطة كانت ترسم للشيخ فى كل يوم يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها واذا دخل الشيخ الى منزله تولى طبخها بيده وذكر فى كتاب دلائل الاحكام انه لازم القراءة عليه احدى عشرة سنة آخرها سنة ٥٦٧ وكان الشيخ أبو بكر القرطبى المذكور كثيرا ماينشد مسندا الى أبى الخير الكاتب الواسطى

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون

صقيلة مؤدية الى الاجسام عند المقابلة لحسن الصفاء قال له الاسكندر صدقت قد أجبتنى عن مرادى فاخبرنى أيها الفيلسوف حين جعلت المرآة فى الطست ورسبت فى الماء جعلتها قد حافوق الماء طافية ثم رددتها الى قال الفيلسوف علمت انك تريد بذلك أن الايام قد انقضت وقصرت والاجل قد قرب ولا يدرك العلم الكثير فى المهل القليل فاجبت الملك ممثلا انى ساعمل الحيلة فى ايراد العلم الكثير فى المهل القليل الى قلبه وتقريبه من فهمه كاحتيالى للمرآة من بعد كونها راسبة فى الماء حتى جعلتها طافية عليه قال له الاسكندر صدقت فاخبرنى ما بالك حين ملأت الاناء ترابا رددته الى ولم تحدث فيه حادثة كفعلك فيما سلف قال علمت انك تقول ثم الموت وانه لابد منه ثم لحوق هذه البنية بهذا العنصر البارد اليابس المعتدل الذى هو الارض ودثورها وتفرق اجزائها ومفارقة النفس الناطقة الصافية الشريفة اللطيفة لهذا الجسد المرئى قال الاسكندر صدقت

ولاحسن الى الهند من أجلك وأمر له بجوائز كثيرة وأقطعه قطائع واسعة فقال له الفيلسوف لو

جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق فى غشاوته الجنين

وتوفى القرطبي المذكور بالموصل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٧ رحمه الله تعالى انتهى كلام ابن خلكان ببعض اختصار *(ومنهم الوزير أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الاجل أبى الحسن بن عبد ربه وهو من حفداء صاحب كتاب العقد المشهور حدث الشيخ الاجل أبو عبد الله محمد ابن على البحصي القرموني رفيقه قال أصطحبت معه فى المركب من المغرب الى الاسكندرية فلما قربنا منها هاج علينا البحر وأشفينا على الغرق فلاح لنا ونحن على هذه الحال منار الاسكندرية فسررنا برؤيته وطمعنا فى السلامة فقال لى لابد أن أعمل فى المنار شيأ فقلت له أعلى مثل هذه الحال التى نحن فيها فقال نعم فقلت فاصنع فاطرق ثم عمل بديها

لله در منار اسكندرية كم * يسمو اليه على بعد من الحدق

من شامخ الانف فى عرنينه شمم * كأنه باهت فى دارة الافق

يكسر الموج منه جانبي رجل * مشمر الذيل لايخشى من الغرق

لا يبرح الدهر من ورد على سفن * ما بين مصطبح منها ومغتبق

للمنشآت الجوارى عند رؤيته * كوقع النوم من أجفان ذى أرق

وتقدمت ترجمة الكاتب أبى عبد الله بن عبد ربه وأظنه هذا فليتنبه له بل أعتقد أنه هو لا غيره والله تعالى أعلم *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن الصفار القرطبي) قال فى القدح المعلى بيتهم مشهور بقرطبة لم يزل يتوارث فى العلم والجاه وعلو المرتبة ونشأ أبو عبد الله هذا حافظا للآداب اماما فى علم الحساب مع انه كان أعمى مقعدا مشوه الخلقة ولكنه اذا انطق علم كل منصف حقه ومن عجائبه انه سافر على تلك الحالة حتى غدت بغداد له هالة اجتمعت به بحضرة تونس فرأيت بحرا زاخرا وروضا ناضرا الا انه حاطب ليل وساحب ذيل لا يبالى ما أورده ولا يلتفت الى ما أنشده جامعا بين السمين والغث حافظا للمتين والرث وكان يقرئ الادب بمراكش وفاس وتونس وغيرها ومن مشهور حكاياته انه لما قال أبو زيد الغازازى فى أبى على المستنصر قصيدته التى مطلعها * الحزم والعزم منسوبان للعرب * عارضه بقصيدة ثم قال فيه وفى ابن أخيه يحيي بن الناصر الذى نازعه فى ذلك الاوان

وان ينازعك فى المنصور ذو نسب * فنجل نوح ثوى فى قسمة العطب

وان يقل أنا عم فالجواب له * عم النبي بلاشك أبو لهب

وشاعت القصيدة فبلغت أبا العلاء فحرض على قتله وسلمه الله تعالى منه ومات سنة ٦٣٩ ومن شعره قوله

لا تحسب الناس سواء متى * تشابهوا فالناس أطوار

وانظر الى الاحجار فى بعضها * ماء وبعض ضمنها نار

وقوله

ياطالعا فى جفونى * وغائبا فى ضلوعى

بالغت فى السخط ظلما * وما رحمت خضوعى

اذا نويت انقطاعا * فاحسب حساب الرجوع

ولسنا نجد عاقلا من خدم غير ذاته واستعمل غير ما يصلح نفسه والذى يصلح النفس الفلسفة وهى صقالها وغذاؤها وتناول الحيوانية وغيرها من الموجودات ضد لها والحكمة سبيل الى العلو وسلم اليه ومن عدم ذلك عدم القربة من بارئه واعلم أيها الملك ان بالعدل ركب جميع العالم بجزئياته ولا يقوم بالجور والعدل ميزان البارئ جل وعز فكذلك حكمته مبرأة عن كل ميل وزلل وأشبه الاشياء من أفعال الناس بافعال بارئهم الاحسان الى الناس وقد ملكت أيها الملك بسيفك وصولة ملكك وتانيك فى أمورك وانتظام سياستك اجسام رعيتك فتحرأن تملك قلوبهم باحسانك اليهم وانصافك لهم وعدلك فيهم فهى خزانة سلطانك فانك ان قدرت ان تقول قدرت أن تفعل فاحترز من ان تقول تأمن من أن تفعل فالملك السعيد من تمت له رياسة ايامه والملك الشقي من انقطعت عنه فمن تحرى فى سيرته العدل استنار قلبه بعذوبة الطهارة (قال المسعودى رحمه الله) وخلا الاسكند عن الفيلسوف لايمكنه المقام معه فلحق بارضه وللاسكندر انتهى

انتهى باختصار يسير * (ومنهم أبو الوليد بن الجنان محمد بن الشرف أبي عمرو بن الكاتب أبي بكر ابن العالم الجليل أبي العلاء بن الجنان الكناني الشاطبي) قال ابن سعيد توارثوا بشاطبة مراتب تحسدها النجوم الثاقبة وأبو الوليد أشعرهم وقد تجدد به في أقطار المشرق مفخرهم وهو معروف هناك بفخر الدين ومتصدر في أئمة النحويين ومرتب في شعراء الملك الناصر صاحب الشام ومقطعاته الغرامية قلائد أهل الغرام صحبته بمصر ودمشق وحلب وجريت معه طلق الجموح في ميادين الادب وأنشدني بدمشق

أنا من سكرهوا هم ثمل * لا أبالي هجروا أم وصلوا
فبشعري وحديثي فيهم * زمزم الحادي وسار المثل
ان عشاق الحمى تعرفني * والحمى يعرفني والطلل
رحلوا عن ربع عيني فلذا * أدمعي عن مقلتي ترتحل
ما لها قد فارقت أوطانها * وهي ليست لحماهم تصل
لا تظنوا أنني اسلو فما * مذهبي عن حبكم ينتقل

وقوله رحمه الله تعالى

بالله يا بانة الوادي اذا خطرت * تلك المعاطف حيث الشيح والغار
فعانقيها عن الصب الكئيب فما * على معانقة الاغصان انكار
وعرفيها بأني فيك مكتئب * فبعض هذي لها بالحب أخبار
وأنتم جيرة الجرعاء من اضم * لي في حماكم أحاديث وأسمار
وأنتم أنتمو في كل آونة * وانما حبكم في الكون أطوار
ويا نسيما سرى تحدو ركائبه * لي بالغوير لبانات وأوطار

وله

يا رعى الله أنسنا بين روض * حيث ماء السرور فيه يجول
تحسب الزهر عنده يتثنى * وتخال الغصون فيه تميل

وله

هات المدام فقد ناح الحمام على * فقد الظلام وجيش الصبح في غلب
وأعين الزهر من طول البكا رمدت * فكحلتها يمين الشمس بالذهب
والكاس حلتها حمراء مذهبة * لكن أزرتها من لؤلؤ الحبب
كم قلت للافق لما أن بدا صلفا * بشمسه عند ما لاحت من الحجب
ان تهت بالشمس يا أفق السماء فلي * شمسان وجه نديمي وابنة العنب
قم اسقنيها وثغر الصبح مبتسم * والليل تبكيه عين البدر بالشهب
والسحب قد لبست سود الثياب وقد * قامت لترثيه الاطيار في القضب

وله

عليك من ذاك الحمى يا رسول * بشرى علامات الرضا والقبول
جئت وفي عطفيك منهم شذى * يسكر من خمر هواه العذول

مع هذا الفيلسوف مناظرات كثيرة في أنواع من العلوم ومكاتبات ومراسلات جرت بين الاسكندر وبين كند ملك الهند قد أتينا على مبسوطها والغرر من معانيها والزهر من عيونها في كتابنا في أخبار الزمان وأما القدح فامتحنه حين أدهقه بالماء وأورد عليه الناس فلم ينقص شربهم منه شيأ وكان معمولا بضرب من خواص الهند الروحانية والطبائع التامة والتوهم وغير ذلك من العلم مما يدعيه الهند وقد قيل انه كان لآدم أبي البشر عليه السلام بارض سرنديب من بلاد الهند مبارك له فيها فورث عنه وتداولته الملوك الى ان انتهى الى كند هذا الملك العظيم سلطانه وما كان عليه من الحكمة وقيل غير ذلك من الوجوه مما قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا وللطبيب معه أخبار ظريفة ومناظرات عجيبة في اوائل المعرفة وصنعة الطب وترقيه الى مبسوط الصنعة من الطبيعيات وغيرها أعرضنا عن ذكرها خوفا من الاطالة وميلا الى الاختصار في هذا المكان لتعلق الكلام بالتوهم الذي تدعيه الهند في صنعة الطب وغيرها وقد كان للاسكندر في أسفاره وتوسطه الممالك وقطعه الاقاليم ومشاهدته الامم وملاقاته الحكماء مع تنائي ديارهم وبعد

ومنها

أحبابنا ودعتم ناظرى * وأنتم بين ضلوعى نزول
حللتم قلبى وهو الذى * يقول فى دين الهوى بالحلول
انا الذى حدثت عنى الهوى * بأننى عن حبكم لا أحول
فليزد العاذل فى عذله * وليقل الواشى لكم مايقول

انتهى كلام النور بن سعيد* وقال غيره ولد المذكور بشاطبة منتصف شوال سنة ٦١٥ ومات بدمشق ودفن بسفح قاسيون وكان عالما فاضلا دمث الاخلاق كريم الشمائل كثير الاحتمال واسع الصدر صحب الشيخ كمال الدين بن العديم وولده قاضى القضاة مجد الدين فاجتذبوه اليهم وصار حنفى المذهب ودرس بالمدرسة الاقبالية الحنفية بدمشق وله مشاركة فى علوم كثيرة وله يد فى النظم ومن شعره

لله قوم يعشقون ذوى اللحى * لا يسئلون عن السواد المقبل
و بمهجتى قوم وانى منهم * جبلوا على حب الطراز الاول

وله أيضا

قم اسقنيها وليل الهم منهزم * والصبح أعلامه محمرة العذب
والسحب قد نثرت فى الارض لؤلؤها * تضمن الشمس فى ثوب من الذهب انتهى

وقد تقدم عن ابن سعيد له مايقارب هذا وله رحمه الله تعالى فى كاتب

ولى كاتب أضمرت فى القلب حبه * مخافة حسادى عليه وعذالى
له صنعة فى خط لام عذاره * ولكن سها اذ نقط اللام بالخال

(ومنهم أبو محمد القرطبى) قال ابن سعيد لقيته بالقاهرة وكانه لاخبر عنده من الآخرة وقد طال عمره فى أكل الاعراض وفساد الاغراض ومما بقى فى أذنى من شعره قوله

رحم الله من لقيت قديما * فلقد كان بى رؤفا رحيما
أعوزتنى لقاء حر وقد أعــــوز بختى كما عدمت الكريما

وتوفى بالقاهرة سنة ٦٤٣ انتهى *(ومنهم على بن أحمد القادسى الكنانى) قال ابن سعيد لقيته ببيت المقدس على زى الفقراء وحصلت منه هذه الابيات وندمت بعد ذلك على مافات وهى

ذاك العذار المطل * دمى عليه يطل انتهى
كانما الخد ماء * وقد جرى فيه ظل
عقود صبرى عليه * منذ حل قلبى تحل
جرت دموعى عليه * فقلت آس وطل

(ومنهم أبو عبد الله بن العطار القرطبى) قال ابن سعيد هو حلو المنازع ظريف المقاطع والمطالع مطبوع النوادر موصوف بالاديب الشاعر مازجته بالاسكندرية وبهذه الحضرة العلية ومازال يدين بالانفراد والتجول فى البلاد حتى قضى مناه والتى بهذه المدينة عصاه لايخطر الهم له ببال ولا يبيت الاعلى وعد من وصال وله حين سمع مار تجلته فى السكين بالاسكندرية حين داعبنى باختلاسها القاضى زين القضاة بن الربغى وقال مالى اليه

وفنون من السير وما أحدث من الابنية قد أتينا على شرح ذلك فيما سلف من كتبنا مما سمينا وغير ذلك مما عن وصفها أمسكنا وانما ذكرنا السير من أخباره لئلا يعرى كتابنا من شئ منها مع ذكرنا لسيره ووفاته وبالله التوفيق

(ذكر ملوك اليونانيين بعد الاسكندر)

(ثم ملك بعد الاسكندر الملك خليفته بطليموس) وكان حكيما عالما شابا مدبرا وكان ملكه أربعين سنة وقيل بل كان ملكه عشرين سنة وقد كان لهذا الملك وهو التالى لملك الاسكندر حروب مع بنى اسرائيل وغيرهم من ملوك الشام *وذكر جماعة من أهل الدرايات باخبار ملوك العالم انه اول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها وانه ركب فى بعض الايام فى طربه الى بعض منتزهاته فنظر الى باز يطير فرآه اذا علا صب واذا اسفل خفق واذا أراد ان يستوى ذرق فاتبعه حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الشوك فتامله فاعجبه صفاء عينيه وصفرتهما وكمال خلقه فقال هذا طائر حسن له سلاح وينبغى أن تتزين به الملوك فى مجالسها فامر أن يجمع منها عدة لتكون فى مجلسه

سبيل حتى يحضر مصري نبيل

أيا سارقا ملكا مصونا ولم يجب * على يده قطع وفيه نصاب
ستندبه الاقلام عند عثارها * ويبكيه ان بعد الصواب كتاب

فقال

أحاجيك ما شئ اذا ما سرقته * وفيه نصاب ليس يلزمك القطع
على ان فيه القطع والحد ثابت * ولا حد فيه هكذا حكم الشرع

انتهى كلام ابن سعيد من كتابه القدح المعلى فيما أظن ويعني والله سبحانه أعلم بقوله وبهذه الحضرة العلية حضرة تونس المحروسة فانها كانت محط رحال الافاضل من الاواخر والاوائل حتى ان قاضي القضاة ابن خلدون أقام بها مدة ومنها ارتحل الى مصر وكذلك الخطيب الجليل سيدي أبو عبد الله بن مرزوق رحمه الله تعالى ومنها خاطب الوزير لسان الدين بن الخطيب وسلطانه في الشفاعة له عند سلطان المغرب فكتب لسان الدين عن سلطانه في ذلك ما نصه المقام الذي نؤكد اليه بر سلفه الوداد ونغري بتخليد فخره وأمره القلم والمداد ونصل به الاستظهار على عدو الله تعالى والاستعداد ونخطب له من الله بهز أعطافه للخير والتوفيق والسداد والاعانة منه والامداد مقام محل أخينا الذي اشتهر فضله ودينه ووضح سعده متألقة براهينه وحباه الصنع الجميل وبه اه مشرقا جبينه السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه الله يرعى الذمم ويسلك من الفضائل المنهج الاهم ويغلي البضائع النافقة عند الله تعالى ويعلي الهمم معظم قدره وملتزم بره الحريص على توفير أجره وتخليد فخره فلان أما بعد حمد الله تعالى ناصر الامرة المطاعة المحافظة على السنة والجماعة وحافظها من الاضاعة الى قيام الساعة الذي جعل المودة فيه أنفع الوسائل النفاعة والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة على العموم والاشاعة متمم مكارم الاخلاق من الفضل والبذل والحياء والشجاعة والرضا عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة وزرعوا الخير في العاجلة ففازوا في الآجلة بفائدة تلك الزراعة والدعاء لمقامكم الاعلى بصنع يروى فيه عن الاشمط الباتر خبر النصر المتواتر لسان البراعة وتأييد لا ترضى فيه القنا بمقام تلك القناعة فانا كتبناه اليكم كتب الله تعالى لثنائكم العاطر بتخليد المفاخر منشور الاذاعة في أيدي النواسم الضواعة من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى عن خير هامي السحاب وبشر مفتح الابواب وعز للاسلام بيركة الاعتداد بكم المنصور الاعلام مقتبل الشباب ويمن ضافي الجلباب والحمد لله على تظاهر الايدي في ذاته وتوفر الاسباب وجانبكم الرفيع الامل المنتاب اذا احدت الحداة ذوات الاقتاب ومطمع الوسائل المطرزة المسائل بتصحيح الود اللباب والى هذا وصل الله تعالى سعيكم بسوابغ نعمه وآلائه دائمة الانسكاب وجعل ما عجل لكم من نعمه وآلائه كفيلة بالزلفى وحسن المتاب وألهمكم تقييد شواردها بالشكر قولا وعملا فالشكر مستدعي المزيد كما ورد في الكتاب فان من المنقول الذي اشتهر وراق فضله وبهر قوله اشفعوا تؤجروا وما في معناه من المعتبر في الخبر وتنفيس

زينة فعرض لبازه نهاليم وهو الحية الذكر فوثب عليه البازي فقتله فقال الملك هذا ملك يغضب مما تغضب منه الملوك ثم عرض له بعد أيام ثعلب كان داجنا فوثب عليه البازي فما أفلت الا جريضا فقال الملك هذا ملك جبار لا يحتمل الضيم ثم مر طائر فوثب عليه فاكله فقال الملك هذا ملك يمنع حماه ولا يضيع أكله فلعب بها ثم لعب بها بعده ملوك الامم من اليونانيين والروم والعرب والعجم وغيرهم وثنى من بعده من ملوك الروم بلعب الشواهين والاصطياد بها وقد قيل ان الازارقة وهم ملوك الاندلس من الاشبان أول من لعب بالشواهين وصاد بها وكذلك اليونانيون أول من صاد بالعقبان ولعب بها وقد ذكر أن ملوك الروم أول من صاد بالعقبان (قال المسعودي) وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لجبل الفتح والابواب جملا من أخبارها واخبار من لعب بها وقد كان من سلف من حكماء اليونانيين يقولون ان الجوارح أجناس خلقها الله تعالى وانشأها على منازلها ودرجاتها وهي أربع اجناس وثلاثة عشر شكلا فاما الاجناس الاربعة فهي البازي والشواهين والصقر والعقاب وقد ذكرنا هذه الاجناس والاشكال

كربة عن مسلم وسماع شكوى من متظلم ولولا أن مقامكم السنى أغنى لجلبنا الكثير من هذا المعنى ولما تحقق ما أنتم عليه من سلوك سبيل الخير واقامة رسوم الدين والاهتداء بمن هديه بالنور المبين خف علينا أن نقصدكم بالشفاعات مع الساعات ونتجر لكم مع الله بأنفس البضاعات فما أثمر من ذلك شكرنا الله تعالى عليه حقيقة وشكرناكم عليه شريعة وما تأخر أوسعناكم فيه عذرا بسد ذريعة وعلمنا أن الله تعالى لم يأذن فى تعجيله وسألناه فى تيسيره وتسهيله سواء لدينا فى ذلك ما عاد باعانة عامة وامداد وساهم فى قصد جهاد ومالم يعد علينا خصوصا وعلى المسلمين عموما باعانة ولا ارفاد انما علينا أن نجلب الخير الباقى والاجر الراقى الى بابكم وندل عليه كريم جنابكم بمقتضى وداد صحيح باد وجميل ظن فى دينكم المتين واعتقاد سلم مجمله ومفصله من انتقاد وذلك أن الشيخ الخطيب الفقيه الكبير الشهير الصدر الاوحد العلامة سلالة الصالحين وخطيب والدكم كبير الخلفاء والسلاطين وبالمسامن مزية دنيا ودين أبا عبد الله بن مرزوق جبر الله تعالى على يدكم البرة حاله وسنى من مقامكم السنى آماله جرى عليه من المحن وتباريح الاحن ما يعلم كل ذى مروءة وعقل واجتهاد ونقل أن ذلك من الجنايات على والدكم السلطان محسوب والى معقاته منسوب ولو كانت ذنوبه رضوى وثبيرا لاستدعت الى تعمدها عفوا كبيرا رعيا لذلك الامام الصالح الذى كبر خلفه وأحرم وتشهد وسلم وأمن عقب دعائه ونصب كفه لمواهب الله تعالى وآلائه وأنصت لخطبته ووعظه وأوجب المزية لسعة حفظه وعذوبة لفظه فأحبط ذلك من أحبط الاعمال الصالحة وعطل المتاجر الرابحة وأسف الملك المذكور بدم ولده واحراق خزائنه وعدده وتغيير رسومه وحدوده واسخاطه واسخاط الله معبوده الى أن طهر سيفكم الملك من عاره وأخذ منه بثاره وتقرب الى الله والى السلف الكريم بمحو آثاره والحمد لله على ما خصه من ايثاره وتدارك الاسلام باقالة عثاره وانه خاطبنا الآن من حضرة تونس يقرر من حاله ما يفت الفؤاد ويوجب الامتعاض له والاجتهاد يطلب منا الاعانة بين يديكم والانجاد ويشكو العيلة والاولاد والغربة التى أحلته الاقطار النازحة والبلاد والحوادث التى سلبته الطارف والتلاد وان نذكركم بوسيلته وضعف حيلته فبادرنا لذلك عملا بالواجب وسلوكا من بره ورعى حقه على السنن اللاحب وان كنا نطوقه فى أمرنا عند الحادثة علينا تقصيرا ولا نشكر الا الله وليا ونصيرا فحقه علينا أوجب فهو الذى لا يجحد ولا يحجب ولا يلتبس منه المذهب وكيف لا يشفع فيمن جعله السلف الى الله تعالى شفيعا وأحله محلا منيعا رفيعا الى وليه الذى جبر ملكه سريعا وصير جنابه بعد المحول مريعا وجدد رسومه تأصيلا لها وتفريعا ومثلكم من اغتنم بره فى نصر مظلوم وسبر مكلوم واعداء كرم على لوم وهى منا ذكرى تنفع وحرص على أجر من يشفع واسعاف لمن سال ما يعلى من قدركم ويرفع وتأدية لحق سلفكم الذى توفرت حقوقه وابلاغ نصيحة دينية الى مجدكم الذى لا يمنعه عن المجد مانع ولا يعوقه ومطلبه فى جنب ملككم الكبير حقير وهو به الى ما يفتح الله تعالى به على يد صدقتكم فقير ومنهلكم الاروى وباعكم فى الخير أطول وساعدكم أقوى وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى والله

على طريق الخبر فى الكتاب الاوسط على مراتبها من سائر انواع الحيوان الجوارح ودلائلها وماقاله الناس فى ذلك (ثم ملك بعد بطليموس هيفلوس) وكان رجلا جبارا وفى أيامه عملت الطلسمات وظهرت عبادة التماثيل والاصنام لشبه دخلت عليهم وانها وسائط بينهم وبين خالقهم تقربهم اليه وتدنيهم منه وكان ملكه ثمانيا وثلاثين سنة وقيل اربعين وقد قيل ان الذى تملك بعد خليفة الاسكندر بطليموس الثانى محب الاخ وغزا بنى اسرائيل ببلاد فلسطين وايليا من ارض الشام فسباهم وقتل منهم وطلب العلوم ثم رد بنى اسرائيل الى فلسطين وحمل معهم الجواهر والاموال وآلات الذهب والفضة لهيكل بيت المقدس وكان ملك الشام يومئذ انطيخس وهو الذى بنى مدينة انطاكية وكانت دار ملكه وجعل بناء سورها احدى عجائب العالم فى البناء على السهل والجبل ومسافة السور اثنا عشر ميلا عدة الابراج فيه مائة وستة وثلاثون برجا وجعل عدد شرافاته اربعة وعشرين ألف شرافة وجعل على كل برج من الابراج بتولة بطريق اسكنه اياه برجاله وخيله وجعل كل برج منها طبقات والبطريق فى اعلاه وجعل كل برج منها كالحصن عليها ابواب حديد وآثار الابواب

عز

عز وجل يسلك بكم المسالك التى تخلد بالجميل ذكركم وتعظم عند الله أجركم فما عند الله خير للابرار والدنيا دار الغرور والآخرة دار القرار وهو سبحانه يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته انتهى * والسلطان المخاطب بهذا هو أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان الكبير الشهير أبى الحسن المرينى وكان ابن مرزوق غالبا على دولة السلطان أبى سالم أخى أبى فارس المذكور فقتله الوزير عمر بن عبد الله الفودودى وتغلب على الملك ونصب أخا لابى سالم معتوها وسجن ابن مرزوق ورام قتله فخلصه الله تعالى منه ثم ان السلطان أبا فارس ثار على الوزير المتغلب وقتله واستقل بالملك فخوطب فى شأن ابن مرزوق بما ذكر * (رجع الى ما كنا فيه) من ذكر الراحلين من أعلام الاندلسيين الى البلاد المشرقية المحروسة بالله سبحانه وتعالى فنقول * (ومنهم أبو الوليد وابو محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الازدى القرطبى المعروف بابن الفرضى الحافظ المشهور) كان فقيها عالما عارفا بفنون علم الحديث ورجاله بارعا فى الادب وغيره وله من التصانيف تاريخ علماء الاندلس وقفت عليه بالمغرب وهو بديع فى بابه وهو الذى ذيل عليه ابن بشكوال بكتاب الصلة وله كتاب حسن فى المؤتلف والمختلف وفى مشتبه النسبة وكتاب فى أخبار شعراء الاندلس وغير ذلك ورحل من الاندلس الى المشرق سنة ٣٨٢ فحج وسمع من العلماء وأخذ عنهم وكتب من أماليهم وروى عن شيوخ عدة من أهل المشرق ومن شعره

أسير الخطايا عند بابك واقف * على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبها * ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذى يرجى سواك ويتقى * ومالك فى فصل القضاء مخالف
فيا سيدى لا تخزنى فى صحيفتى * اذا نشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسى فى ظلمة القبر عندما * يصدّ ذوو القربى ويجفو المؤالف
لئن ضاق عنى عفوك الواسع الذى * أرجى لاسرافى فانى لتالف

وكان رحمه الله تعالى حسن الشعر والبلاغة ومن شعره أيضا رحمه الله تعالى

ان الذى أصبحت طوع يمينه * ان لم يكن قمرا فليس بدونه
ذلى له فى الحب من سلطانه * وسقام جسمى من سقام جفونه

وله شعر كثير ومولده فى ذى القعدة ليلة الثلاثاء لتسع بقين منه سنة ٣٥١ وتولى القضاء بمدينة بلنسية فى دولة محمد المهدى المروانى وقتله البربر يوم فتح قرطبة يوم الاثنين لست خلون من شوال سنة ٤٠٣ وبقى فى داره ثلاثة أيام ودفن متغيرا من غير غسل ولا كفن ولا صلاة رحمه الله تعالى وروى عنه انه قال تعلقت بأستار الكعبة وسألت الله تعالى الشهادة ثم انحرفت وفكرت فى هول القتل فندمت وهممت أن أرجع فأستقيل الله سبحانه وتعالى فاستحييت وأخبر من رآه بين القتلى ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف لا يكلم أحد فى سبيل الله والله أعلم بمن يكلم فى سبيله الا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما اللون لون دم والريح ريح المسك كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد فى ذلك قال ثم قضى على اثر ذلك وهذا الحديث اخرجه مسلم فى صحيحه وقد ساق فى المطمح حكايته فقال كان حافظا عالما كلفا

واظهر فيها مياها من اعين وغيرها الاسيل الى قطعها من خارجها وجعل اليها مياها منصبة فى قنى مخرقة الى شوارعها ودورها ورأيت فيها فى هذه المياه ما يستحجر فى مجاريها المعمولة من الخزف لترادف الصرفيها فيترا كم طبقات ويمنع الماء من الجريان بانسداده فلا يعمل الحديد فى كسره وقد ذكرنا ذلك فى كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب وما شاهدناه حسا وغنى المناخبر انما يولده ماء انطاكية فى أجساد الحيوان الناطق وأجوافهم وما يحدث فى معدهم من الرياح السوداوية الباردة والقولنجية الغليظة وقد اراد الرشيد سكناها فقيل له بعض ما ذكرنا من أوصافها وترادف الصدا على السلاح من السيوف وغيرها بها وعدم بقاء ريح الطيب بها واستحالته على اختلاف أنواعه فامتنع من سكناها (ثم ملك) على اليونانيين بعد هيفلوس بطليموس الصانع ستا وعشرين سنة (ثم ملك) بعده عليهم بطليموس المعروف بمحب الاب تسع عشرة سنة وكانت له حروب مع ملوك الشام وصاحب انطاكية الاسكندروس وهو الذى بنى مدينة فامية بين حمص وانطاكية (ثم ملك)

بالرواية رحل في طلبها وتبحر في المعارف بسببها مع حظ من الادب كثير واختصاص بنظيم و نثير حج وبرع في الزهادة والورع فتعلق باستار الكعبة يسال الله الشهادة ثم فكر في القتل ومرارته والسيف وحرارته فاراد ان يرجع ويستقيل الله تعالى فاستحيا وآثر نعيم الآخرة على شقاء الدنيا فاصيب في تلك الفتن مكلوما وقتل مظلوما ثم ذكر مثل مامر ومما قال في طريقه يتشوق الى افريقية

مضت لي شهور مذ غبتم ثلاثة * وما خلتني أبقى اذا غبتم شهرا
ومالي حياة بعدكم أستلذها * ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرا
ولم يسلني طول التنائي عليكم * بلى زادني وجدا وجدد لي ذكرا
يمثلكم لي طول شوقي اليكم * ويدنيكم حتى أناجيكم سرا
سأستعتب الدهر المفرق بيننا * وهل نافعي أن صرت استعتب الدهرا
أعلل نفسي بالمنى في لقائكم * وأستسهل البر الذي جبت والبحرا
ويؤنسني طي المراحل عنكم * أروح على أرض وأغدو على أخرى
وتالله مافارقتكم عن قلى لكم * ولكنها الاقدار تجري كما تجري
رعتكم من الرحمن عين بصيرة * ولا كشفت أيدي النوى عنكم سترا

وقد عرف به ابن حيان في المقتبس وذكر قصة شهادته رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ ابو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله البكري الشريشي المالكي) ولد بشريش سنة ٦٠١ ورحل الى العراق فسمع به المشايخ كالقطيعي وابن زروبة وابن الكثير وغيرهم واشتغل وساد أهل زمانه واشتهر بين أقرانه ثم عاد الى مصر فدرس بالفاضلية ثم انتقل الى القدس الشريف فأقام به شيخ الحرم ثم جاء الى دمشق المحروسة بالله وتولى مشيخة الحديث بتربة أم الصالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية وعرض عليه القضاء فلم يقبل وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصري ودفن بسفح قاسيون رحمه الله تعالى وذلك سنة خمس وثمانين وستمائة رحمه الله تعالى وليس هو بشارح المقامات بل هو غيره وقد اشتركا في البلد فبسبب ذلك ربما يقع في الاذهان الوهم في أمرهما وشارح المقامات أحمد وهذا محمد وقد ترجمنا صاحب شرح المقامات فيما تقدم من هذا الباب فليراجع والله سبحانه وتعالى أعلم *(ومنهم أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن المغلس القيسي الاندلسي البلنسي) كان من أهل العلم باللغة والعربية مشارا اليه فيهما رحل من الاندلس وسكن بمصر واستوطنها وقرأ الادب على أبي العلاء صاعد اللغوي صاحب الفصوص وعلى أبي يعقوب يوسف بن خرقان بمصر ودخل بغداد واستفاد وأفاد وله شعر حسن فمن ذلك قوله

مريض الجفون بلا علة * ولكن قلبي به ممرض
أعان السهاد على مقلتي * بفيض الدموع فما تغمض
وما زار شوقا ولكن أتى * يعرض لي أنني معرض

وله أشعار كثيرة وتوفي يوم الاربعاء لست بقين من جمادى الاولى سنة ٤٢٧ وقيل سنة ٤٢٩ بمصر وكان استوطنها وصلى عليه الشيخ أبو الحسن علي بن ابراهيم الحوفي صاحب

بعده على اليونانيين بطليموس صاحب علم الفلك والنجوم وكتاب المجسطي وغيره أربعا وعشرين سنة (ثم ملك بطليموس محب الام) خمسا وثلاثين سنة (ثم ملك بعده بطليموس الصانع) سبعا وعشرين سنة (ثم ملك) بطليموس الخلاص سبع عشرة سنة (ثم ملك بعده بطليموس الاسكندراني) اثنتي عشرة سنة (ثم ملك بعده بطليموس الحديدي ثمان سنين (ثم ملك) بعده بطليموس الجوال ثمانيا وستين سنة وكانت له حروب كثيرة (ثم ملك) بعده بطليموس الحديد ثلاثين سنة (ثم ملكت بعده ابنته قلابطره وكان ملكها اثنتين وعشرين سنة وكانت حكيمة متفلسفة مقربة للعلماء معظمة للحكماء ولها كتب مصنفة في الطب والزينة وغير ذلك من الحكمة مترجمة باسمها منسوبة اليها معروفة عند صنعة أهل الطب وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين الى أن انقضى ملكهم ودثرت أيامهم وامتحت آثارهم وزالت علومهم الا ما بقي في أيدي حكمائهم وقد كان لهذه الملكة خبر ظريف في موتها وقتلها لنفسها وقد كان لها زوج يقال له انطونيوس مشارك لها في ملك مقدونية وهي بلاد مصر من اسكندرية وغيرها فسار اليهم

التفسير فى مصلى الصدفى ودفن عند أبى اسحق رحمه الله تعالى ومغلس بضم الميم وفتح الغين وتشديد اللام المكسورة وبعدها سين مهملة وكانت بينه وبين أبى الطاهر اسمعيل بن خلف صاحب كتاب العنوان معارضات فى قصائد ومن شعر ابن المغلس أيضا قوله فى حمام

ومنزل أقوام اذا ما اغتدوا به * تشابه فيه وغده ورئيسه
يخالط فيه المرء غير خليطه * ويضحى عدوّ المرء وهو جليسه
يفرج كربى ان تزايد كربه * ويؤنس قلبى ان يعدّ أنيسه
اذا ما أعرت الجوّ طرفا تكاثرت * على مائه أقماره وشموسه

*(ومنهم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الحكيم الاديب المعروف بالمغربى) وهو من أهل المرية وانتقل الى المشرق وكان كامل الفضيلة وجمع بين الادب والحكمة وله ديوان شعر جيد والخلاعة والمجون غالبة عليه وذكر العماد فى الخريدة انه كان طبيب المارستان فى معسكر السلطان السلجوقى حيث حل وخيم وكان السيد يحيى بن سعيد المعروف بابن المرخم الذى صار أقضى القضاة ببغداد فى أيام المقتفى فاصدا وطبيبا فى هذا المارستان وأثنى العماد على أبى الحكم المذكور وذكر فضله وما كان عليه وان له كتابا سماه نهج الوضاعة لاولى الخلاعة ثم ان أبا الحكم انتقل الى الشام وسكن دمشق وله فيها أخبار وماجريات ظريفة تدل على خفة روحه قال ابن خلكان رايت فى ديوانه أن أبا الحسين أحمد بن منير الطرابلسى كان عند الامراء بنى منقذ بقلعة شيزر وكانوا مقبلين عليه وكان بدمشق شاعر يقال له ابو الوحش وكانت فيه دعابة وبينه وبين ابى الحكم المذكور مداعبات فسأل منه كتابا الى ابن منير بالوصية عليه فكتب ابو الحكم

أبا الحسين اسمع مقال فتى * عوجل فيما يقول فارتجلا
هذا ابو الوحش جاء ممتدحا * للقوم فاهنأ به اذا وصلا
واتل عليهم بحسن شرحك ما * انقله من حديثه جملا
وخبر القوم انه رجل * ما ابصر الناس مثله رجلا
تنوب عن وصفه شمائله * لا يبتغى عاقل به بدلا

ومنها

وهو على خفة به ابدا * معترف انه من الثقلا
يمت بالثلب والرقاعة والسخف وامّا بغير ذلك فلا
ان انت فاتحته لتخبر ما * يصدر عنه فتحت منه خلا
فنبه ان حل خطة الخسف والهون ورحب به اذا رحلا
وأسقه السم ان ظفرت به * وامزج له من لسانك العسلا

وله اشياء مستملحة منها مقصورة هزلية ضاهى بها مقصورة ابن دريد من جملتها

وكل ملموم فلا بدله * من فرقة لو ألزقوه بالغرا

وله مرثية فى عماد الدين بن يحيى بن آق سنقر الاتابكى شاب فيها الجدّ بالهزل والغالب على شعره الانطباع وتوفى ليلة الاربعاء رابع ذى القعدة سنة ٥٤٩ وقيل فى السنة التى قبلها

بعده وسنذكر خبره فى ملوك الروم بعد هذا الموضع وكانت له حروب بالشام ومصر مع قلبطره الملكة ومع زوجها انطونيوش الى أن قتله ولم يكن لقلبطره فى دفع أغسطس ملك الروم عن ملك مصر حيلة وأراد أغسطس اعمال الحيلة فيها العلمه بحكمتها وليتعلم منها اذ كانت بقية الحكماء اليونانيين ثم بعدها يقتلها فراسلها وعلمت مراده فيها وما قد وترها به من قتل زوجها وجنودها فطلبت الحية التى تكون بين الحجاز ومصر والشام وهى نوع من الحيات تراعى الانسان حتى اذا تمكنت من النظر الى عضو من اعضائه قفزت اذرعا كثيرة كالريح فلم تخط ذلك العضو بعينه حتى تتفل عليه سما فتأتى عليه ولا يعلم بها الجوده من فوره ويتوهم الناس انه قد مات فجأة حتف أنفه ورأيت نوعا من هذه الحيات بين بلاد خوزستان من كور الاهواز لمن أراد بلاد فارس من البصرة وهو الموضع المعروف بحام دوبة بين مدينة دورق وبلاد الياسيان والعندم فى الماء

 وهى حيات شبرية وتدعى هنالك القبرية ذات رأسين تكون فى الرمل وفى جوف تراب الارض فاذا أحست

بدمشق رحمه الله تعالى * والقاضى ابن المرخم المذكور هو الذى يقول فيه أبو القاسم هبة الله ابن فضل الشاعر المعروف بابن القطان

يا ابن المرخم صرت فينا قاضيا * خرف الزمان تراه أم جن الفلك
ان كنت تحكم بالنجوم فربما * أما بشرع محمد من أين لك

وكان أبو الحكم المذكور فاضلا فى العلوم الحكمية متقنا للصناعة الطبية حسن النادرة كثير المداعبة محبا اللهو والخلاعة والشراب وكان يعرف صنعة الموسيقى ويلعب بالعود ويجلس فى دكان بجيرون للطب وسكناه بالبادين وأتى فى ديوانه نهج الوضاعة بكل غريب يدل على انه أريب سامحه الله تعالى وغفر له * (ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق) * من هو الاحق بالتقديم والسبق الشهير عند أهل الغرب والشرق الحافظ المقرى الامام الربانى أبو عمرو الدانى عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الاموى مولاهم القرطبى صاحب التصانيف التى منها المقنع والتيسير وعرف بالدانى لسكناه دانية وولد سنة ٣٧١ وابتدأ بطلب العلم سنة ٣٨٧ ورحل الى المشرق سنة ٣٩٧ فمكث بالقيروان أربعة أشهر ودخل مصر فى شوالها فمكث بها سنة وحج ورجع الى الاندلس فى ذى القعدة سنة ٣٩٩ وقرأ بالروايات على عبد العزيز بن جعفر الفارسى وغيره بقرطبة وعلى أبى الحسن بن غلبون وخلف ابن خاقان المصرى وأبى الفتح فارس بن أحمد وسمع من أبى مسلم الكاتب وهو أكبر شيخ له ومن عبد الرحمن بن عثمان القشيرى وحاتم بن عبد الله البزار وغير واحد من أهل مصر وسواها وسمع من الامام أبى الحسن القابسى وخلف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والاندلس وتلا عليه خلق منهم مفرج الاقفالى وأبو داود بن نجاح صاحب التنزيل فى الرسم وهو من أشهر تلامذته وحدث عنه خلق كثير منهم خلف بن ابراهيم الطليطلى قال أبو محمد عبيد الله الحجرى ذكر بعض الشيوخ أنه لم يكن فى عصر الحافظ أبى عمرو الدانى ولا بعد عصره أحد يدانيه ولا يضاهيه فى حفظه وتحقيقه وكان يقول ما رأيت شيأ قط الا كتبته ولا كتبته الا حفظته ولا حفظته فنسيته قال ابن بشكوال كان أبو عمرو أحد الائمة فى علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه واعرابه وجمع فى ذلك كله تواليف حسانا وله معرفة بالحديث وطرقه واعرابه وأسماء رجاله وكان حسن الخط والضبط من أهل الحفظ والذكاء واليقين وكان دينا فاضلا ورعا سنيا وقال بعضهم وأظنه المغامى كان أبو عمرو مجاب الدعوة مالكى المذهب وقال بعض أهل مكة ان أبا عمرو الدانى مقرئ متقدم واليه المنتهى فى علم القرآ آت واتقان القرآن والقراء خاضعون لتصانيفه واثقون بنقله فى القرا آت والرسم والتجويد والوقف والابتداء وغير ذلك له مائة وعشرون مصنفا وروى عنه بالاجازة رجلان أحمد بن محمد بن عبد الله الخولانى وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبى حمزة وكانت وفاته رحمه الله تعالى بدانية فى نصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة * (ومنهم أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أحمد ابن أبى حبيب الاندلسى) من بيت علم ووزارة صرف عمره فى طلب العلم فى الفقه والحديث والادب وولى القضاء بالاندلس مرة ثم دخل الاسكندرية ومصر وجاور بمكة المشرفة ثم قدم العراق وأقام ببغداد مدة ثم وافى خراسان فاقام بنيسابور وبلخ وكانت ولادته ببلاد الاندلس

وثبت من موضعها أذرعا كثيرة فضربت باحدى رأسيها بالانسان أوغيره من الى أى موضع من ذلك الحيوان فتلحقه من ساعته ضد الحياة وعدمها الحينه فبعثت قلبطره هذه الملكة فاحتمل لها حية من هذه المقدم ذكرها التى توجد باطراف الحجاز فلما أن كان اليوم الذى علمت أن أغسطس يدخل قصر ملكها أمرت بعض جواريها ومن أحبت فناءها قبلها وأن لا يلحقها العذاب بعدها فسمتها فى انائها فخمدت من فورها ثم جلست قلبطره الملكة على سرير ملكها ووضعت تاجها على رأسها وعليها ثيابها وزينة ملكها وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفاكهة والطيب وما يجمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مما ذكرنا مبسوطة فى مجلسها وقدام سريرها وعهدت بما احتاجت اليه من أمورها وفرقت حشمها من حولها فاشتغلوا بأنفسهم عن ملكتهم لما قد غشيهم من عدوهم ودخوله عليهم فى دار ملكهم وأدنت يدها من الاناء الزجاج الذى كانت فيه الحية فقربت يدها من فيه فتفلت عليها الحية فخفت مكانها وانسابت الحية وخرجت من الاناء ولم تجد جحرا ولا مذهبا تذهب فيه لاتقان تلك المجالس بالرخام وتوفى

وتوفي بهراة في شعبان سنة ٥٤٨ رحمه الله تعالى ورضي عنه (ومنهم أبو العباس احمد بن علي بن محمد بن علي بن شكر الاندلسي المقري) رحل وأخذ القرآآت عن أبي الفضل جعفر الهمداني وسمع من أبي القاسم بن عيسى وسكن الفيوم واختصر التيسير وصنف شرحا للشاطبية وتوفي سنة ٦٤٠ رحمه الله تعالى *(ومنهم العلامة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المرسي اللورقي المقري النحوي) ولد سنة ٥٧٥ وقرأ القرآآت وأحكم العربية وبرع فيها واجتمع بالجزولي وسأله عن مسئلة في مقدمته وقرأ علم الكلام والاصولين والفلسفة وكان خبيرا بهذه العلوم مقصودا باقرائها وولي مشيخة قراءة العادلية ودرس بالعزيزية نيابة وصنف شرحا للشاطبية وشرحا للمفصل في عدة مجلدات وشرح الجزولية وغير ذلك وكان مليح الشكل حسن البزة وتوفي سنة ٦٦١ رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم أبو عبد الله بن أبي الربيع القيسي الاندلسي الغرناطي) قدم مصر سنة ٥١٥ أو بعدها فسمع على السلفي وبقراءته على جماعة من شيوخ مصر وكان لديه فقه وأدب ثم سافر الى باب الابواب وكان حيا سنة ٥٥٦ ومن نظمه يمدح كتاب الشهاب

ان الشهاب له فضل على الكتب * بما حوى من كلام المصطفى العربي
كم ضم من حكمة غرا وموعظة * ومن وعيد ومن وعد ومن أدب
أمّا القضاعي فالرحمن يرحمه * كما حباه من التأليف بالعجب

*(ومنهم الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن مرجى القرشي العبدري) من أهل ميورقة من بلاد الاندلس سكن بغداد وسمع بها من أبي الفضل بن خيرون وطراد الزينبي وأبي عبد الله الحميدي وجماعة ولم يزل يسمع الى حين وفاته وكتب بخطه كثيرا من الكتب والاجزاء وجمع وخرج وكان صحيح العقل معتمد الضبط مرجوعا اليه في الاتقان وكفاه فخرا وشرفا أن روى عنه الحافظان أبو طاهر السلفي وأبو الفضل محمد بن ناصر وكان فهامة علامة ذا معرفة بالحديث متعففا سامح فقره وكان يذهب الى أن المناولة والعرض كالسماع وقال السلفي فيه انه من اعيان علماء الاسلام بمدينة السلام متصرف في فنون من العلم ادبا ونحوا ومعرفة بانساب العرب والمحدثين وكان داودي المذهب قرشي النسب وقد كتب عني وكتبت عنه وسمعنا معا كثيرا على شيوخ بغداد ومولده بقرطبة من مدن الاندلس وقبل اجتماعي به كنت أسمع اسمعيل بن محمد بن الفضل الحافظ بأصبهان يثني عليه فلما اجتمعنا وجدته فوق ماوصفه انتهى وقال ابن عساكر كان احفظ شيخ لقيته وربما حكى عنه بعضهم كابن عساكر امورا منكرة فالله اعلم وتوفي في ربيع الآخر سنة ٥٢٤ ببغداد رحمه الله تعالى *(ومنهم ابو عبد الله محمد بن سعدون الباجي) سمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وابن رشيق وبمكة من الآجري وكان صالحا فاضلا زاهدا ورعا حدث ومات ببطليوس فجاة سنة ٣٩٢ ومولده سنة ٣٢٢ *(ومنهم ابو بكر محمد بن سعدون التميمي الجزيري المتعبد) كانت آدابه كثيرة وحج غير مرة ورابط ببلاد المغرب وكان حسن الصوت بالقرآن سمع بمصر من جماعة وبمكة وصحب الفقراء وطاف بالشام وغزا غزوات وتعرض للجهاد وحرض عليه وساح بجبل المقطم وذكر أنه صلى بمصر الضحى اثنتي عشرة ركعة ثم نام فرأى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان

والتاج على رأسها فلم يشك في انها تنطق فدنا منها فتبين انها ميتة وأعجب بتلك الرياحين فمد يده الى كل نوع منها يلمسه ويشمه ويعجب خواص من معه به ولم يدر ماسبب موتها فبينما هو كذلك من تناول تلك الرياحين وشمها اذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها فيبس شقه من ساعته وذهب بصره الايمن وسمعه فتعجب من فعلها وقتلها لنفسها وايثارها الموت على الحياة مع الذل ثم ما كادته به من القاء الحية بين الرياحين فقال في ذلك شعرا بالرومية يذكر حاله وما نزل به وقصتها وأقام بعد ما نزل به ما ذكرنا يوما وهلك ولولا ان الحية كانت قد أفرغت سمها على الجارية ثم على قلبطره الملكة لكان أغسطس قد هلك من ساعته ولم تمهله هذه المدة وهذا الشعر معروف عند الروم الى هذه الغاية يذكرونه في يومهم ويرثون به ملوكهم وربما ذكروه في اغانيهم وهو متعالم معروف عندهم وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا سير هؤلاء الملوك وأخبارهم وحروبهم وطوافهم البلاد وأخبار حكمائهم وما أحدثوه من الآراء والنحل ومقاتل فلاسفتهم وغير ذلك من أشرارهم وعجيب

مالك والليث اختلفا فى الضحى فمالك يقول ثنتا عشرة ركعة والليث يقول ثمانية فضرب عليه الصلاة والسلام بين وركى ابن سعدون وقال رأى مالك هو الصواب ثلاث مرات قال وكان فى وركى وجع فمن تلك الليلة زال عنى وكان له براهين من نور يضئ عليه اذا صلى ونحوه وأنشد

سجن اللسان هو السلامة للفتى * من كل نازلة لها استئصال
ان اللسان اذا حللت عقاله * ألقاك فى شنعاء ليس تقال

توفى سنة ٣٤٤ *(ومنهم ابو عبد الله محمد بن سعد الاعرج الطليطلى الخطيب) ويقال فيه ابن سعيد سمع بمصر ابن الورد وابن السكن وحدّث مولده سنة ٣٠٩ وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٣٨٤ (ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن اسحق بن يوسف الاموى القرطبى) وأصله من لبلة ولكن سكن قرطبة وقدم مصر وحج وسمع فى طريقه من الشيخ أبى محمد بن أبى زيد صاحب الرسالة وأخذ عن القابسى وعن جماعة من علماء مصر والحجاز ومولده سنة ٣٠٢ ورحلته سنة ٤١٨ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حسان بن الحكم بن هشام القرطبى) سمع من أبيه ويحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب ورحل فسمع من أشهب بن عبد العزيز وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم وعاد الى الاندلس وبها توفى سنة ٢٦٠ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى نزيل اسكندرية ويعرف بابن أبى الربيع) أحد أولياء الله تعالى شيخ الصالحين صاحب الكرامات المشهورة جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع الى الله تعالى والتخلى عن الناس والتمسك بطريقة السلف قرأ القرآن ببلده بالقرا آت السبع على أبى عبد الله محمد بن سعادة الشاطبى وغيره وقرأ بدمشق على الواسطى وسمع عليه الحديث ورحل فسمع من الزاهد أبى يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قبره ومنبره سنة ٦١٧ وسمع بدمشق على أبى القاسم بن صصرى وأبى المعالى بن خضر وأبى الوفاء بن عبد الحق وغيرهم وانقطع لعبادة الله تعالى فى رباط سوار من الاسكندرية بتربة أبى العباس الراسى وتلمذ للشاطبى تلميذ الراسى وصنف كتبا حسنة منها كتاب المسلك القريب فى ترتيب الغريب وكتاب اللمعة الجامعة فى العلوم النافعة فى تفسير القرآن العزيز وكتاب شرف المراتب والمنازل فى معرفة العالى فى القرا آت والنازل وكتاب المباحث السنية فى شرح الحصرية وكتاب الحرقة فى الباس الخرقة وكتاب المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد وكتاب النبذ الجلية فى ألفاظ اصطلح عليها الصوفية وكتاب زهر العريش فى تحريم الحشيش وكتاب الزهر الماضى فى مناقب الشاطبى وكتاب الاربعين المضية فى الاحاديث النبوية ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ووفاته بالاسكندرية فى رمضان سنة ٦٧٢ ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته رحمهما الله تعالى ونفع بهما *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن شريح الرعينى الاشبيلى) قدم مصر وسمع بها من ابن نفيس وأبى على الحسن البغدادى وأبى جعفر النحوى وأبى القاسم بن الطيب البغدادى الكاتب وبمكة من أبى ذر الهروى قال ابن بشكوال كان من جلة المقرئين وخيارهم ثقة فى روايته وكانت رحلته الى المشرق سنة ٤٢٣ وولد سنة ٣٩٢ وتوفى سنة ٤٧٦ وعمره

أخبارهم والذى يعوّل عليه من عدة ملوكهم واتفق على ذلك أهل المعرفة باخبارهم أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكا آخرهم الملكة قلبطره وأن جميع عدد سنى ملوكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانهم ثلثمائة سنة وسنة واحدة وكان كل ملك يملك على اليونانيين من بعد الاسكندر فيلبش يسمى بطلميوس وهذا الاسم الاعم الشامل لملكهم كتسمية ملوك الفرس كسرى وتسمية ملوك الروم قيصر وتسمية ملوك اليمن تبع وتسمية ملوك الحبشة النجاشى وتسمية ملوك الزنج وقليمن وقد ذكرنا جملا من مراتب ملوك العالم وسماتهم واسمهم الاعم الشامل لهم فيما سلف من كتابنا وسنورد بعد هذا الموضع بالموضع المستحق له من هذا الكتاب جملا عن ذكر الملوك والممالك ان شاء الله تعالى

(ذكر ملوك الروم وما قاله الناس فى أنسابهم وعدد ملوكهم وتاريخ سنيهم)

تنازع الناس فى الروم ولأية علة سموا بهذا الاسم فمنهم من قال سموا روما لاضافتهم الى مدينة رومية واسمها روماس بالرومية وعرب هذا الاسم فسمى من كان بها روماو كذلك الروم فى لغتهم لايسمون أنفسهم ولايدعون أهل الثغور

أربع وثمانون سنة الاخمسة وخمسين يوما وروى باشبيلية عن جماعة رحمه الله تعالى (ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح الانصارى المالقى) قال السلفى هو شاب من أهل الادب له خاطر سمع كان يحضر عندى بالاسكندرية كثير السماع للحديث وذكر أنه قرأ الادب على أبى الحسين بن الطراوة النحوى بالاندلس وعلى نظرائه وأنشدنى لنفسه

كم ذا تقلقلنى النوى وتسوقنى * والى متى أشجى بها وأسام
ألفت ركائبى الفلا فكانما * للبين عهد بيننا وذمام
ياويح قلبى من فراق أحبة * أبدا تصدعه به الايام

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح القحطانى المعافرى الاندلسى المالكى) رحل الى المشرق فسمع بالشام من خيثمة بن سلمان وبمكة أبا سعيد بن الاعرابى وببغداد محمد بن اسمعيل بن محمد الصفار وسمع بالمغرب بكر بن حماد التاهرتى ومحمد بن وضاح وقاسم بن اصبغ وغيرهم وبمصر جماعة من أصحاب يونس والمزنى روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال اجتمعنا به بهمذان مات ببخارى سنة ٣٨٣ وقيل سنة ثمان وقيل سنة تسع وسبعين وقال فيه أبو سعيد الاندلسى انه كان من أفاضل الناس ومن ثقاتهم وقال غنجار انه كان فقيها حافظا جمع تاريخا لاهل الاندلس وقال السمعانى فيه كان فقيها حافظا رحل فى طلب العلم الى المشرق والمغرب رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر على بن عيسى الخزرجى الدانى النحوى أخو أبى العباس بن عيسى) سمع بدانية من أبى داود المقرى وغيره وقدم دمشق سنة ٥٠٤ حين خرج حاجا وأقرأ بدمشق النحو مدة ثم خرج الى بغداد وأقام بها الى أن مات سنة ٦١٩ وولد سنة ٥١٢ وقدم مصر سنة ٥٧٢ وله من المصنفات كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الادب فى علم مجازات العرب ومن كلامه ليست هيبة الشيخ لشيبه ولا لسنه ولا لشخصه ولكن لكمال عقله والعقل هو المهاب ولو رأيت شخصا جمع جميع الخصال وعدم العقل لما هبته وقال من جهل شيأ عابه ومن قصر عن شئ هابه *(ومنهم القاضى الشهير محمد بن بشير وهو محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافرى) وقيل فى آبائه غير ذلك كما يأتى ولما أشير على الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بتقديم ابن بشير الى خطة القضاء بقرطبة وجه اليه بباجة فأقبل ولا يعلم مادعى اليه ونزل على صديق له من العباد فتحدث فى شأن استدعائه وقدم أنه يعرف فن الكتابة فقال له العابد ما أراه بعث فيك الا للقضاء فان القاضى بقرطبة مات وهى الآن دون قاض فقال ابن بشير فأنا أستشيرك فى ذلك ان وقع فقال أسألك عن أشياء ثلاثة وأعزم عليك أن تصدقنى فيها ثم أشير بعد ذلك عليك فقال ماهى فقال كيف حبك للاكل الطيب واللباس اللين وركوب الفاره فقال والله لا أبالى ما رددت به جوعى وسترت به عورتى وحملت به رحلى فقال هذه واحدة فكيف حبك للتمتع بالوجوه الحسان والتبطن للكواعب الغيد وماشا كل ذلك من الشهوات فقال هذه حال والله ما استشرفت قط اليها ولا خطرت ببالى ولا اكترثت لفقدها فقال وهذه ثانية فكيف حبك لمدح الناس لك وثنائهم عليك وكيف حبك للولاية وكراهيتك للعزل فقال والله ما أبالى فى الحق من مدحنى أو ذمنى وما أسر للولاية ولا أستوحش للعزل فقال وهذه

ابن اسحق بن ابراهيم الخليل عليه السلام ومنهم من رأى انهم سموا باسم جدهم رومى بن ليطن بن يونان بن يافث بن بربه بن سرحون بن رومية بن مربط بن نوفل بن روين بن الاصفر بن اليغز بن العيص ابن اسحق بن ابراهيم عليه السلام وقد ذكر جماعة ممن سلف من شعراء العرب قبل ظهور الاسلام ذلك الاشتهار ماوصفنا فيهم منهم عدى بن زيد العبادى حيث يقول
وبنو الاصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذ كور
وقد كان العيص بن اسحق وهو عيصو تزوج من بنات الكنعانيين فأكثر أولاده منهم وقد قيل ان العماليق وهم العرب البادية الذين كانوا بالشام من ولد اليغز ابن عيصو وهذا ما لا ينقاد اليه علماء العرب الا فى الروم دون ماذكرنا من العماليق وغيرهم وهذه الانساب كلها تتعلق بما فى التوراة وغيرها من كتب العبرانيين (قال المسعودى) وغلبت الروم على ملك اليونانيين لاخبار يطول ذكرها ويتعذر فى هذا الكتاب شرحها وكان أول من ملك من ملوك الروم فيها ساطوحاس وهو جانيوس الاصغر ابن روم بن شماحلين

الثالثة اقبل الولاية فلا باس عليك فقدم قرطبة فولاه الامير الحكم القضاء والصلاة قال ابن وضاح أخبرني من كان يرى محمد بن بشير القاضي داخلا على باب المسجد الجامع يوم الجمعة وعليه رداء معصفر وفي رجله نعل صرارة وله جمة مفرقة ثم يقوم فيخطب ويصلي وهو في هذا الزى وبه كان يجلس للقضاء بين الناس فان رام أحد من دينه شيأ وجده أبعد من الثريا وأتاه رجل لا يعرفه فلما رأى ماهو فيه من زى الحداثة من الجمة المفرقة والرداء المعصفر وظهور الكحل والسواك وأثر الحناء في يديه توقف وقال دلوني على القاضي فقيل له هاهو وأشير اليه فقال انى رجل غريب وأراكم تستهزؤن بى أنا أسألكم عن القاضي وأنتم تدلوني على زامر فصحوا له أنه القاضي فتقدم اليه واعتذر فادناه وتحدث معه فوجد عنده من العدل والانصاف فوق ماظنه فكان يحدث بقصته معه وعوتب في ارسال لمته ولبسه الخز والمعصفر فقال حدثني مالك بن أنس أن محمد بن المنكدر وكان سيد القراء كانت له لمة وأن هشام بن عروة فقيه هذا البلد يعني المدينة كان يلبس المعصفر وأن القاسم بن محمد كان يلبس الخز ولقد سئل يحيى بن يحيى عن لباس العمائم فقال هى لباس الناس فى المشرق وعليه كان امرهم فى القديم فقيل له لو لبستها لاتبعك الناس فى لباسها فقال قد لبس محمد بن بشير الخز فما تبعه الناس فيه وكان ابن بشير أهلا أن يقتدى به فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير وكان أول ما نظر فيه محمد بن بشير حين ولى القضاء التسجيل على الخليفة الحكم فى ارحى القنطرة اذ قيم عليه فيها وثبت عنده حق المدعى وأعذر الى الحكم فلم يكن عنده مدفع فسجل فيها وأشهد على نفسه فما مضت مدة حتى ابتاعها الحكم ابتياعا صحيحا فسر بذلك وقال رحم الله محمد بن بشير فلقد أحسن فيما فعل بنا على كره منا كان فى أيدينا شئ مشتبه فصححه لنا وصار حلالا طيب الملك فى أعقابنا وحكم على ابن فطيس الوزير ولم يعرّفه بالشهود فرفع الوزير ذلك الى الحكم وتظلم من ابن بشير فأوما الحكم اليه ان الوزير كره حكمك عليه بشهادة قوم لم تعرّفه بهم ولا اعذرت اليه فيهم وان أهل العلم يقولون ان ذلك له فكتب اليه ابن بشير ليس ابن فطيس ممن يعرّف بمن شهد عليه لانه ان لم يجد سبيلا الى تجريحهم لم يتحرج عن طلب أذاهم فى أنفسهم وأموالهم فيدعون الشهادة هم ومن اتقى بهم وتضييع أموال الناس وأكثر موسى بن سماعة أحد خواص الامير الحكم فى ابن بشير الشكاية وأنه يجور عليه فقال له الحكم أنا امتحن قولك الساعة فاخرج اليه فورا واستاذن عليه فان أذن لك عزلته وصدّقت قولك فيه وان لم يأذن لك دون خصمك ازددت بصيرة فيه فليس هو عندى بجائر على حال وانما مقصده الحق فى كل مايتصرف فيه فخرج يؤم دار ابن بشير وقد أمر الحكم من يثق به من الفتيان الصقالبة أن يقفو أثره ويعلموا مايكون منه فلم يكن الاريثما بلغ ثم انصرف فحكى للحكم أنه لما خرج الآذن الى موسى وعلم القاضى بمكانه عاد اليه فقال له ان كانت لك حاجة فاقصدها اذا جلس القاضى مجلس القضاء فتبسم الحكم وقال قد أعلمته أن ابن بشير صاحب حق لاهوادة فيه عنده لاحد * وولى القضاء مرتين فلما عزل المرة الاولى انصرف الى بلده وكان بعض اخوانه يعاتبه فى صلابته ويقول له أخشى عليك العزل فيقول له ليته قد ران

ثم كان ملكه اثنتين وعشرين سنة وقد قيل ان أوّل من ملك من ملوك الروم قيصر واسمه هالوس ابن افليوس ثمان عشرة سنة وفي نسخة أخرى ان أوّل من ملك من ملوك الروم بعد اليونانيين بوليس سبع سنين ونصفا وكانت مدينة رومية بنيت قبل الروم باربعمائة سنة (ثم ملك) بعده أغسطس بن قيصر ستا وخمسين سنة وهذا الملك هو الاوّل من ملوك الروم واسمه قيصر وهو الثانى من ملوكهم وتفسير قيصر أى شق عنه وذلك ان أمّه ماتت وهى حامل به فشق بطنها فكان هذا الملك يفتخر فى وقته بان النساء لم تلده وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم ممن كان من ولده يفتخرون بهذا الفعل وما كان من أمّهم فصارت سمة لمن طرأ بعده من ملوك الروم والله أعلم * وغزا هذا الملك الشام ومصر والاسكندرية وأزال من بقى من ملوك الاسكندرية ومقدونية وهى مصر وقد قدمنا ان كل ملك كان يلى مقدونية والاسكندرية يسمى بطليموس واحتوى هذا الملك أعنى أغسطس على خزائن ملوك الاسكندرية ومقدونية ونقلها الى رومية وكانت له حروب كثيرة فى الارض وقد اتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا وكان يعبد الاوثان وبنى بأرض الروم

الشقراء يعني بغلته تقطع الطريق بي حادة نحو باجة فمضى الاسير حتى عتب عليه الامير في قصة اشتد فيها على بعض خاصته فكانت سببا لعزله وانصرف كما تمنى فلم يمكث الاسير ادنى أنى فيه رقاص من قبل الامير الحكم والرقاص عند المغاربة هو الساعي عند المشارقة فعاد الى قرطبة وجبره على القعود للقضاء الامير الحكم فلاذ منه باليمين بطلاق زوجته وبصدقة ما يملك في سبيل الله تعالى ان حكم بين اثنين فلم يعذره وأخرجه من ماله وعوضه من طيب ما عنده ووهب له جارية من جواريه فعاد الى القضاء ثانية * ومما يحكى عنه في العدل ان سعيد الخير ابن السلطان عبد الرحمن الداخل وكل عند ابن بشير وكيلا يخاصم عنه لشئ اضطر اليه وكانت بيده فيه وثيقة فيها شهادات شهود قد ماتوا ولم يكن فيهما من الاحياء الا الامير الحكم وشاهد آخر مبرز فشهد لسعيد الخير ذلك الشاهد وضربت على وكيله الآجال في شاهد ثان وجد به الخصام فدخل سعيد الخير بالكتاب الى الحكم وأراه شهادته في الوثيقة وقد كان كتبها قبل الخلافة في حياة أبيه وعرفه مكان حاجته الى ادائها عند قاضيه خوفا من بطلان حقه وكان الحكم يعظم سعيد الخير عمه ويلتزم مبرته فقال له ياعم انا لسنا من أهل الشهادات وقد التبسنا من هذه الدنيا بما لا تجهله ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقف مخزاة كنا نفديه بملكنا فصر في خصامك حيث صيرك الحق اليه وعلينا خلف ما انتقصك فأبى عليه وقال سبحان الله وما عسى أن يقول قاضيك في شهادتك وأنت وليته وهو حسنة من حسناتك وقد لزمتك في الديانة أن تشهد لي بما علمته ولا تكتمني ما أخذ الله عليك فقال بلى ان ذلك لمن حقك كما تقول ولكنك تدخل علينا به داخلة فان أعفيتنا منه فهو أحب الينا وان اضطررتنا لم يمكنا عقوقك فعزم عليه عزم من لم يشك أن قد ظفر بحاجته وضايقته الآجال فألح عليه فأرسل الحكم عند ذلك الى فقيهين من فقهاء زمانه وخط شهادته بيده في قرطاس وختم عليها بخاتمه ودفعها الى الفقيهين وقال لهما هذه شهادتي بخطي تحت ختمي فادياها الى القاضي فأتيا بها الى مجلسه وقت قعوده للسماع من الشهود فأدياها اليه فقال لهما قد سمعت منكما فقوما راشدين في حفظ الله تعالى وجاء وكيل سعيد الخير وتقدم اليه مدلا واثقا وقال له أيها القاضي قد شهد عندك الامير أصلحه الله تعالى فما تقول فأخذ كتاب الشهادة ونظر فيه ثم قال للوكيل هذه شهادة لا تعمل عندي فجئني بشاهد عدل فدهش الوكيل ومضى الى سعيد الخير فأعلمه فركب من فوره الى الحكم وقال ذهب سلطاننا وأزيل بهاؤنا يجترئ هذا القاضي على رد شهادتك والله سبحانه قد استخلفك على عباده وجعل الامر في دمائهم وأموالهم اليك هذا ما يجب أن تحمله عليه وجعل يغريه بالقاضي ويحرضه على الايقاع به فقال له الحكم وهل شككت أنا في هذا ياعم القاضي رجل صالح والله لا تأخذه في الله لومة لائم فعل ما يجب عليه ويلزمه وسد دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه فأحسن الله تعالى جزاءه فغضب سعيد الخير وقال هذا حسبي منك فقال له نعم قد قضيت الذي كان لك علي ولست والله أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك قال لمن عاتبه يا عاجز أما تعلم أنه لا بد من الاعذار في الشهادات فمن كان يجترئ على الدفع في شهادة الامير لو

مدنا و كوّر كورا نسبت ثلاث المدن اليه منها قيسارية و كذلك بالشام بساحل فلسطين مدينة قيسارية وكان مولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام بها وهو يسوع الناصري على حسب ما قدمنا لاثنتين وأربعين سنة خلت من ملك قيصر أغسطس هذا فكان من ملك الاسكندر الى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون سنة ورأيت بمدينة انطاكية في بعض تواريخ الروم الملكية في كنيسة القسيان أنه كان من ملك الاسكندر الى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع سنين وكان مولد يسوع الناصري بايليا من بلاد فلسطين وهو أورشليم بالعبرانية فمن هبوط آدم الى مولد المسيح في تواريخ أصحاب الشرائع من أهل الكتب خمسة آلاف سنة وخمسمائة سنة وخمسون سنة وأقام اغسطس وهو قيصر ملكا بعد مولد المسيح أربع عشرة سنة ونصفا وكان مدة ملكه على الروم برومية وفي سائر أسفاره ستة وخمسين سنة على حسب ما قدمنا من موته ولسع الحية اياه بمقدونية وجفاف نصفه وذهاب سمعه وبصره عند ذكرنا لفعل قلبطره بنفسها في الباب الذي قبل هذا الباب

(ثم ملك الروم بعده) طيماريوس وكان مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة ولثلاث سنين بقيت من ملكه رفع المسيح

قبلتها ولولم أعذر لبخست المشهود عليه حقه * وتوفى القاضى محمد بن بشير سنة ١٩٨ قبل الشافعى بست سنين كما يأتى قريبا ومحاسنه رحمه الله تعالى كثيرة وقد استوفى ترجمته بقدر الامكان القاضى عياض فى المدارك فليراجعها من أرادها فانه عهدى بها فى المغرب * وقال بعض من عرف به ما نصه القاضى محمد بن بشير بن محمد المعافرى أصله من جند باجة من عرب مصر ولاه الحكم بن هشام قضاء القضاة الذى يعبرون عنه بالمغرب بقضاء الجماعة بقرطبة بعد المصعب بن عمران ثم صرفه وولى مكانه الفرج بن كنانة وعن ابن حارث قال أحمد بن خالد طلب محمد بن بشير العلم بقرطبة عند شيوخ أهلها حتى أخذ منه بحظ وافر ثم كتب لاحد أولاد عبد الملك بن مروان لمظلمة نالته على وجه الاعتصام به وتصرف معه تصرفا لطيفا ثم انقبض عنه وخرج حاجا قال ابن حارث وكتب محمد بن بشير فى حداثته للقاضى مصعب بن عمران ثم خرج حاجا فلقى مالك بن أنس وجالسه وسمع منه وطلب العلم أيضا بمصر ثم انصرف فلزم ضيعته فى باجة وقال ابن حيان انه استقدم من باجة للقضاء برأى العباس بن عبد الملك وقال ابن شعبان فى الرواة عن مالك من أهل الاندلس محمد بن بشير ابن سرافيل ويقال شراحيل ولى القضاء وكان رجلا صالحا وبعدله تضرب الامثال واستوطن قرطبة وتوفى بها سنة ثمان وتسعين ومائة انتهى وبعضه عن غيره ومن شعره قوله

انما أزرى بقدرى أننى * لست من بابة أهل البلد
ليس منهم غير ذى مقلية * لذوى الالباب أو ذى حسد
يتحامون لقائى مثل ما * يتحامون لقاء الاسد
مطلعى أثقل فى أعينهم * وعلى أنفسهم من أحد
لو رأونى وسط بحر لم يكن * أحد يأخذ منهم بيدى

*(ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقى) من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا ورعا وحضر افتتاح اقريطش واستوطنها قاله الرازى *(ومنهم محمد بن يحيى بن يحيى الليثى) خرج حاجا ولقى سحنون بن سعيد بافريقية ولقى بمصر رجالا من أصحاب مالك فسمع منهم وعرف بالفقه والزهد وجاور بمكة وتوفى هنالك *(ومنهم محمد بن مروان بن خطاب المعروف بابن أبى جزة) رحل حاجا هو وابناه خطاب وعميرة فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وسمعوا ثلاثتهم من سحنون بن سعيد المدونة بالقيروان وأدركوا أصبغ بن الفرج وأخذوا عنه *(ومنهم محمد بن أبى قلاعة البواب من أهل قرطبة) كانت له رحلة الى المشرق ولقى فيها جماعة من أهل العلم وأخذ عن أبى اسحق الزجاجى وعن أبى بكر بن الانبارى وعن أبى الحسن على بن سليمان الاخفش وأبى عبد الله نفطويه وغيرهم وسمع من الاخفش الكامل للمبرد وقال الحكم المستنصر لم يصح كتاب الكامل عندنا من رواية الا من قبل ابن أبى قلاعة وكان ابن جابر الاشبيلى قد رواه قبل بمصر بعده وما علمت احدا رواه غيرهما وكان ابن الاحمر القرشى يذكر انه رواه وكان صدوقا ولكن كتابه ضاع ولو حضر ضاهى الرجلين المتقدمين *(ومنهم محمد بن حزم بن بكر التنوخى) من أهل طليطلة وسكن قرطبة يعرف بابن المدينى سمع من أحمد بن خالد وغيره وصحب محمد بن مرة الجبلى قديما واختص عرافقته فى

فى الملك مائتى سنة وثمانية وتسعين سنة لانظام لهم ولا ملك يجمعهم ولما انقضى ما ذكرنا من المدة ملكوا عليهم بطاريس بمدينة رومية فكان ملكه أربع سنين والقوم لا يعرفون غير عبادة التماثيل والصور (ثم ملك بعده) فلوريوس أربع عشرة سنة وذلك برومية وهو أول ملك من ملوك الروم شرع فى قتل النصارى وأتباع المسيح وقيل ان فى أيامه قتل برومية بطرس واسمه باليونانية شمعون والعرب تسميه سمعان هو وبولس صلبا منكسين وما كان من خبرهما مع سمين الساحر برومية وهما ممن أتى الى أنطاكية وأخبر الله عز وجل عنهما فى سورة يس ثم كان لهما بعد ذلك نبا عظيم وذلك بعد ظهور دين النصرانية برومية فجعلا فى أجربة من البلور فهما على ذلك بمدينة رومية فى بعض الكنائس الى هذه الغاية على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب واكثر من عنى باخبار العالم وسير ملوكهم وتاريخهم فذهب قوم الى أنهما اقتلا برومية فى ملك الخامس من ملوك الروم وتفرق تلاميذ يسوع الناصرى فى الارض فسار مارا الى العراق

طريق الحج ولازمه بعد انصرافه وكان من أهل الورع والانقباض وحكى عن ابن مسرة أنه كان فى سكناه المدينة يتتبع آثار النبى صلى الله عليه وسلم قال ودله بعض أهل المدينة على دار مارية أم ابراهيم سرية النبى صلى الله عليه وسلم فقصد اليها فاذا هى دويرة لطيفة بين البساتين بشرقى المدينة عرضها وطولها واحد قد شق فى وسطها بحائط وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى الى ذلك الفرش على خارج لطيف وفى أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبى صلى الله عليه وسلم فى الصيف قال فرأيت أبا عبد الله بعد ماصلى فى البيتين والسقيفة وفى كل ناحية من نواحى تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره فكشفته بعد انصرافى وهو ساكن فى الجبل عن ذلك فقال هذا البيت الذى ترانى فيه بنيته على تلك الحكاية فى العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان انتهى * (ومنهم محمد بن يحيى بن مالك بن يحيى بن عائذ والد أبى زكريا الراوية من أهل طرطوشة يكنى أبا بكر) تأدب بقرطبة وسمع بها من قاسم بن أصبغ ومحمد بن معاوية القرشى وأحمد بن سعيد ومنذر بن سعيد وأبى على القالى وغيرهم وكان حافظا للنحو واللغة والشعر يفوت من جاراه على حداثة سنه شاعرا مجيدا مترسلا بليغا ورحل مع أبيه الى المشرق سنة تسع وأربعين وثلثمائة فسمع بمصر من ابن الورد وابن السكن وحمزة الكنانى وغيرهم وسمع أيضا بالبصرة وبغداد كثيرا وخرج الى أرض فارس فسمع هنالك وجمع كتبا عظيمة وأقام بها الى أن توفى باصبهان مغتبطا مع الستين وثلثمائة ومولده بطرطوشة صدر ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ذكره ابن حيان رحمه الله تعالى * (ومنهم محمد بن عبدون الجبلى العدوى من أهل قرطبة) أدب بالحساب والهندسة ورحل فى سنة سبع وأربعين وثلثمائة فدخل مصر والبصرة ووعى بعلم الطب فمهر فيه ودبر مارستان الفسطاط ثم رجع الى الاندلس فى سنة ستين وثلثمائة فاتصل بالمستنصر بالله وابنه المؤيد بالله وله فى التكسير تاليف حسن رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن الازدى الفراء القرطبى) صحب أبا بكر بن يحيى بن مجاهد واختص به ولطف محله منه وقرأ عليه القرآن ورحل بصحبته لاداء فريضة الحج وكان رجلا صالحا كثير التلاوة للقرآن والخشوع اذا قرأ بكى ورتل وبين فى مهل ويقول أبو بكر علمنى هذه القراءة وحكى أنه سرد الصوم اثنتى عشرة سنة قبل موت ابن مجاهد مفطرا الكل ليلة وقت الافطار ثم تمادى على ذلك بعد موته مفطرا عقب العشاء الآخرة لالتزامه الصلاة من المغرب اليها تزيدا من الخير واجتهادا فى العمل * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن صالح المعافرى الاندلسى) رحل الى المشرق فسمع خيثمة بن سليمان وأبا سعيد بن الاعرابى واسمعيل بن محمد الصفار وبكر بن حماد التاهرتى وغيرهم روى عنه أبو عبد الله الحاكم وقال اجتمعنا بهمذان سنة احدى وأربعين يعنى وثلثمائة فتوجه منها الى أصبهان وكان قد سمع فى بلاده وبمصر من أصحاب يونس وبالحجاز وبالجزيرة من أصحاب على بن حرب وببغداد وورد نيسابور فى ذى الحجة سنة احدى وأربعين فسمع الكثير ثم خرج الى مرو ومنها الى بخارى فتوفى بها فى رجب من سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة وروى عنه أيضا أبو القاسم بن حبيب النيسابورى وغيرهما ذكره ابن عساكر وأسند اليه قوله

فمات بمدينة برمى والصافية على شاطئ دجلة بين بغداد وواسط وهذا البلد بلد على بن عيسى بن داود بن الجراح ومحمد بن داود بن الجراح وغيرهما من الكتاب فقبره هناك فى كنيسة الحى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة يعظمه أهل دين النصرانية ومضى توما وكان من الاثنى عشر الى بلاد الهند داعيا الى شريعة المسيح فمات هناك وسار آخر الى آخر مدينة بخراسان فمات هنالك وموضع قبره مشهور يعظمه النصارى ومنهم ارد مات ببلاد قوف وجا البحار وكرخ حران فى تخوم العراق وموضعه مشهور ومات مارقس بالاسكندرية من أرض مصر وقبره هناك وهو أحد التلاميذ الاربعة الذين ألفوا الانجيل وقد كان لمارقس مع أهل مصر خبر ظريف فى مقتله قد أتينا على السبب فى ذلك فى كتابنا الاوسط الذى كتابنا هذا تال له وأتينا على قصته مع أهل مصر ووصيته لهم حين أراد المسير الى المغرب بأنه من جاءكم على صورتى فاقتلوه فانه سيرد عليكم بعدى أناس يتشبهون بى فبادروا الى قتلهم ولا تقبلوا منهم ما يقولون ومضى وغاب عنهم برهة من الزمان ولم يلحق بحيث أراد فرجع اليهم فلما هموا بقتله قال لهم ويحكم أنا

ودعت قلبي ساعة التوديع * وأطعت قلبي وهو غير مطيعي
ان لم أشيعهم فقد شيعتهم * بمشيعين تنفسى ودموعى

وذكره ابن الفرضى وقال انه استوطن بخارى وجعل وفاته بها سنة ثمان وسبعين والاول قول الحاكم وهو أصح * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصارى السرقسطى) روى عنه الباجى وابن عبد البر ورحل حاجا فقدم دمشق وحدث بها عن شيوخه الاندلسيين وعن أبى حفص عمر بن أبى القاسم بن أبى زيد القفصى وذكره ابن عساكر وقال سمع عنه أبو محمد الاكفانى وحكى عنه تدليسا ضعفه به وتوفى سنة ٤٧٧ * (ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عيسى بن بقاء الانصارى) من بلاد الثغر الشرقى أخذ القرا آت بالسبع وأخذ عنه جماعة من أهلها وكان شيخا فاضلا حافظا للحكايات قليل التكلف فى اللباس ذكره ابن عساكر وقال رأيته وسمعته ينشد قصيدة يوم خرج الناس للمصلى للاستسقاء على المنبر أولها

أستغفر الله من ذنبي وان كبرا * وأستقل له شكرا وان كثرا

وكان يسكن فى دار الحجارة ويقرئ بالمسجد الجامع ولد فى الثانى والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة وتوفى يوم الاربعاء عند صلاة العصر ودفن يوم الخميس لصلاة الظهر الثانى من ذى الحجة سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ودفن فى مقابر الصحابة بالقرب من قبر أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه قال وشهدت أنا غسله والصلاة عليه ودفنه وذكره السلفى * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر بن على بن عيسى الانصارى الخزرجى) من أهل دانية سمع كتاب التقصى لابن عبد البر ولقى أبا الحسن الحصرى ثم خرج حاجا فقدم دمشق سنة اربع وخمسمائة وأقام بها مدة يقرئ العربية وكان شديد الوسوسة فى الوضوء ذكره ابن عساكر وقال أنشدنى أخى أبو الحسن هبة الله بن الحسن الفقيه قال أنشدنا ابن طاهر الاندلسى بدمشق قال انشدنى الحصرى لنفسه

يموت من فى الانام طرا * من طيب كان ومن خبيث
فمستريح ومستراح * منه كما جاء فى الحديث

قال وأنشدنى الحصرى لنفسه

لو كان تحت الارض أو فوق الذرى * حر أتيح له العدو ليوذى
فاحذر عدوك وهو أهون هين * ان البعوضة أردت النمروذا

* (ومنهم محمد بن أبى سعيد الفرج بن عبد الله البزاز) من أهل سرقسطة لقى بدانية الحصرى وسمع منه بعض منظومه ورحل حاجا فأدى الفريضة ودخل العراق فسمع من جماعة وأجازوا له منهم ابن خيرون والحميدى وأبو زكريا التبريزى وابن المبارك عبد الجبار وثابت بن بندار وهبة الله بن الاكفانى وغيرهم ونزل الاسكندرية وحدث بها وأخذ الناس عنه وتوفى هنالك وانشد للحصرى

الناس كالارض ومنها هم * من خشن اللمس ومن لين
وتشتكى الارجل منها الوجى * واثمد يجعل فى الاعين

وروى عنه ابن الحضرمى وابن جارة وغيرهما * (ومنهم أبو بكر محمد بن الحسين) الشهير

تركك ولابد من قتلك فقتلوه وقد كان قبل ذلك سئل فى بدء الامر عن البراهين المؤيدة لقوله وطلبوا منه المعجزات وقال له بعضهم ان كنت صادقا فيما أتيتنا به فاعرج الى هذه السماء ونحن نراك فنزع عنه زى ثيابه واتزر بمئزر صوف على ان يصعد الى السماء فتعلق به جماعة من تلامذته وقالوا له ان مضيت فمن لنا بعدك اذ كنت الاب وكان أمره بعد ذلك على ما وصفنا وتلاميذ المسيح اثنان وسبعون تلميذا واثنا عشر من غير الاثنين والسبعين فاما الذين نقلوا الانجيل فهم لوقا ومارقس ويحيى ومتى ومنهم من الاثنين والسبعين لوقا ومتى وقد يعد متى أيضا فى غير الاثنى عشر ولا أدرى ما معناهم فى ذلك والاثنان اللذان من الاثنى عشر يحيى بن سيداى ومارقس صاحب الاسكندرية والثالث الذى ورد انطاكية وقد تقدمه بطرس وتوما وهو بولس وهو الثالث المذكور فى القرآن بقوله تعالى فعززنا بثالث قال وليس فى سائر رهبان النصرانية من يأكل اللحم غير رهبان مصر لان مارقس اباح لهم ذلك (ثم ملك الروم) نيرون واستقام ملكه ورغب على حسب

بالميورقي لان أصله منها وسكن غرناطة وروى عن أبي على الصدفي ورحل حاجا فسمع بمكة من أبي الفتح عبد الله بن محمد البياضي وأبي نصر عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي في شوال وذي القعدة من سنة ٥١٧ وبالاسكندرية من أبي عبد الله الرازي وأبي الحسن بن مشرف وأبي بكر الطرطوشي وغيرهم وعاد الى الاندلس بعد مدة طويلة فحدث في غيرما بلد لتجوله وكان فقيها ظاهريا عارفا بالحديث وأسماء الرجال متقنا لما رواه يغلب عليه الزهد والصلاح روى عنه أبو عبد الله النميري الحافظ ويقول فيه الازدي تدليسا لان الانصار من الازد وأبو بكر بن رزق وأبو عبد الله بن عبد الرحيم وابن عبد المنعم وسواهم وصار أخيرا الى بجاية هاربا من صاحب المغرب حينئذ بعد أن حمل اليه هو وأبو العباس بن العريف وأبو الحكم بن برجان وحدث هنالك وسمع منه في سنة ٥٣٧ رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل العبدي الاشبيلي) ويعرف بابن عظيمة أخذ القراآت عن أبي عبد الله السرقسطي وروى عن أبي عبد الله الخولاني وأبي عبد الله بن فرج وأبي على الغساني وأبي داود المقرى وأبي جعفر بن عبد الحق وأبي الوليد بن طريف ورحل حاجا فروى بمكة عن رزين بن معاوية ثم بالاسكندرية عن ابن الحضرمي أبي عبد الله محمد بن منصور وأبي الحسن بن مشرف الانماطي وبالمهدية عن المازري وكانت رحلته مع أبي على منصور ابن الخير الاحدب للقاء أبي معشر الطبري فبلغهما نعيه بمصر فلما قفلا من حجهما قعد منصور يقول قرأت على أبي معشر واقتصر أبو الحسن في تصدره للاقراء على التحديث عمن لقي لعرف مكانه من الصدق والعدالة وولي الصلاة ببلده وتقدم في صناعته واشتهر بها وتلاه أهل بيته فيها فأخذ عنهم الناس وله ارجوزة في القراآت السبع وأخرى في مخارج الحروف وشرح قصيدة الشقراطسي وله أيضا كتاب الفريدة الحصرية في شرح القصيدة الحصرية واليه والى بنيه بعده كانت الرياسة في هذا الشان ومن جلة الرواة عنه أبو بكر محمد بن خير قرأ عليه الشهاب القضاعي وأجازله جميع رواياته وتواليفه في رجب سنة ٥٣٦ وتوفي في حدود الاربعين وخمسمائة وروى عنه أبو الضحاك الفزاري * (ومنهم أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن ابراهيم بن عيسى بن هشام بن جراح الخزرجي) من أهل جيان ويعرف بالبغدادي لطول سكناه اياها روى عن أبي على الغساني وأبي محمد بن عتاب ورحل حاجا فلقي أبا الحسن الطبري المعروف بالكيا وأبا طالب الزينبي وأبا بكر الشاشي وغيرهم وكان فقيها مشاورا حدث عنه أبو عبد الله النميري وأبو محمد بن عبيد الله وأبو عبد الله بن حميد وأبو القاسم عبد الرحيم بن الملجوم وغير واحد وتوفي بفاس سنة ٥٤٧ * (ومنهم ابو عبد الله محمد بن على ابن ياسر الانصاري الجياني) ونزل حلب يكنى ابا بكر رحل الى المشرق وادى الفريضة وقدم دمشق قبل العشرين وخمسمائة وسكن قنطرة سنان منها وكان يعلم القرآن ويتردد الى ابي عبد الله نصر الله بن محمد يسمع الحديث منه ثم رحل صحبة ابي القاسم بن عساكر صاحب تاريخ الشام الى بغداد سنة عشرين وكان زميله فسمع بها معه من هبة الله بن الحصين وغيره ثم خرج الى خراسان فسمع بها من حمزة الحسيني وابي عبد الله القراوي وابي القاسم الشحامي وغيرهم وسمع ببلخ جماعة منهم ابو محمد الحسن بن على الحسيني وابو النجم مصباح بن

ماقدمنا وفي دين النصرانية الى الروم فكثرت فيهم الدعاة اليه فقتل هذا الملك منهم خلائق كثيرة وكان ملكه أربع عشرة سنة (ثم ملك بعده) طيطش وأسباسيانوس مشتركين في الملك ثلاث عشرة سنة وذلك بمدينة رومية ولسنة خلت من ملك هذين الملكين سار الى الشام وكانت لهما مع بني اسرائيل حروب عظيمة وقتل فيها من بني اسرائيل ثلثمائة ألف وخربا بيت المقدس وأحرقا الهيكل بالنار وحرثاه بالبقر وأزالا رسمه ومحوا أثره وكانت عبادتهما الاصنام ووجدت في بعض كتب التواريخ ان الله عاقب الروم من ذلك اليوم الذي خربت فيه بيت المقدس ان يسبى كل يوم منهم سبي يفعل ذلك من أطاف ببلادهم من الامم فلا يوم من أيام العالم الا واسبي واقع بهم قل ذلك أو كثر (ثم ملك الروم بعدهما) ذونسطناس خمس عشرة سنة عابدا للتماثيل معظما لها ولتسع سنين من ملكه نفي يوحنا التلميذ أحد الاربعة من أصحاب الانجيل الى بعض جزائر البحر ثم رده بعد ذلك (ثم ملك بعده) بيونوس (ثم ملك بعده) طرنانوس سبع عشرة سنة يعبد الاصنام ولتسع سنين خلت من ملكه مات يحيى التلميذ (ثم ملك بعده) ادريانيس احدى عشرة سنة يعبد التماثيل وخرب

محمد المكي وغيرهما وبلغ الموصل فاقام بها مدة يسمع منه ويؤخذ عنه ثم انتهى الى حلب فاستوطنها وسلمت اليه خزانة الكتب النورية واجريت عليه جراية وكان فيه عسر فى الرواية والاعادة معا ووقف كتبه على اصحاب الحديث وله عوال مخرجة من حديثه ساوى بعض شيوخه البخارى ومسلما وابا داود والترمذى والنسائى روى عنه ابو حفص الميانشى وابو المنصور مظفر بن سوار اللخمى وابو محمد عبد الله بن على بن سويدة وابن ابى السفان وغيرهم ذكره ابن عساكر فى تاريخه وقال سمعت منه ومات فى جمادى الاولى سنة ثلاث وستين وخمسمائة على ما بلغنى وقال ابن نقطة حدث عن جماعة منهم ابو القاسم سهل ابن ابراهيم النيسابورى وابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الهمدانى حدثنا عنه ابو محمد عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الحلبى واخوه ابو العباس احمد وحكى عن الحسن بن هبة الله ابن صصرى انه توفى بحلب فى جمادى الاولى سنة ثلاث وستين كما تقدم وقد بلغ السبعين قاله ابن الابار * (ومنهم ابو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة مرسى) سكن شاطبة ودار سلفه بالمنسية سمع اباعلى الصدفى واختص به واكثر عنه واليه صارت دواوينه واصوله العتاق وامهات كتبه الصحاح لصهر كان بينهما وسمع ايضا ابا محمد بن ابى جعفر ولازم حضور مجلسه للتفقه به وحمل ما كان يرويه ورحل الى غرب الاندلس فسمع محمد بن عتاب واببحر الاسدى واباالوليد بن رشد وابا عبد الله بن الحاج وابابكر بن العربى وغيرهم وكتب اليه ابو عبد الله الخولانى وابو الوليد بن طريف وابو الحسن بن عفيف وابو القاسم بن صواب وابو محمد بن السيد وغيرهم ثم رحل الى المشرق سنة عشرين وخمسمائة فلقى بالاسكندرية ابا الحجاج بن نادر الميورقى وصحبه وسمع منه واخذ عنه الفقه وعلم الكلام وادى فريضة الحج فى سنة احدى وعشرين ولقى بمكة ابا الحسن رزين بن معاوية العبدرى امام المالكية بها وابا محمد بن صدقة المعروف بابن غزال من اصحاب كريمة المروزية فسمع منها واخذ عنها وروى عن ابى حسن على بن سند بن عياش الغسانى ما حمل عن ابى حامد الغزالى من تصانيفه ثم انصرف الى ديار مصر فصحب ابن نادر الى حين وفاته بالاسكندرية ولقى اباطاهر بن عوف وابا عبد الله بن مسلم القرشى واباطاهر السلفى وابازكريا الزناتى وغيرهم فأخذ عنهم وكان قد كتب اليه منها ابو بكر الطرطوشى وابو الحسن بن مشرف الانماطى ولقى فى صدره بالمهدية اباعبد الله المازرى فسمع منه بعض كتاب المعلم واجازله باقيه وعاد الى مرسية فى سنة ست وعشرين وقد حصل فى رحلته علوما جمة ورواية فسيحة وكان عارفا بالسنن والآثار مشاركا فى علم القرآن وتفسيره حافظا للفروع بصيرا باللغة والغريب ذا حظ من علم الكلام مائلا الى التصوف مؤثرا له اديبا بليغا خطيبا فصيحا ينشئ الخطب مع الهدى والسمت والوقار والحلم جميل الشارة محافظا على التلاوة بالخشوع راتبا على الصوم وولى خطة الشورى بمرسية مضافة الى الخطبة بجامعها واخذ فى اسماع الحديث وتدريس الفقه ثم ولى القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمة ونقل الى قضاء شاطبة فاتخذها وطنا وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية ويقيم الخطب أيام الجمع فى جوامع هذه الامصار الثلاثة متعاقبا عليها وقد حدث بالمرية وهنالك أبو الحسن بن موهب وأبو محمد الرشاطى وغيرهما وسمع منه أبو الحسن

سائر ما بنى بنو اسرائيل بالشام (ثم ملك بعده) انطاوليس برومية ثلاثا وعشرين سنة وبنى بيت المقدس وسماه ايليا وهو أول من سماه بهذا الاسم ايليا (ثم ملك بعده) مرليس سبع عشرة سنة يعبد الاصنام (ثم ملك بعده) قرقودس يعبد الاوثان ثلاث عشرة سنة (ثم ملك بعده) سربوس ثمان عشرة سنة (ثم ملك بعده) ولده يقال له انطونيس يعبد التماثيل سبع سنين (ثم ملك بعده) انطونيس الثانى أربع سنين يعبد التماثيل وفى آخر ملك هذا الملك مات جالينوس الطبيب (ثم ملك بعده) الاسكندر ماماس وتفسير ماماس العاجز وكان يعبد التماثيل وكان ملكه ثلاث عشرة سنة (ثم ملك بعده) مقسمين يعبد التماثيل وكان ملكه ثلاث سنين (ثم ملك بعده) عرد ياس يعبد التماثيل ست سنين (ثم ملك بعده) دعريس يعبد الاوثان ستين سنة وأمعن فى قتل النصرانية وطلبهم ومن هذا الملك هرب أصحاب الكهف (١) وقد اختلف الناس فى أصحاب الكهف والرقيم فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم وزعموا أن

(١) فيه أن الملك الذى هرب منه أصحاب الكهف اسمه دقيانوس كما فى القاموس وكتب التفسير

ابن

ابن هزيل جامع الترمذى وألف كتابه شجرة الوهم المرقية الى ذروة الفهم ولم يسبق الى مثله وليس له غيره وجمع فهرسة حافلة ووصفه غير واحد بالتفنن فى العلوم والمعارف والرسوخ فى الفقه وأصوله والمشاركة فى علم الحديث والادب وقال ابن عباد فى حقه انه كان صليبا فى الاحكام مقتفيا للعدل حسن الخلق والخلق جميل المعاملة لين الجانب فكه المجالسة ثبتا حسن الخط من أهل الاتقان والضبط وحكى انه كانت عنده أصول حسان بخط عمه مع الصحيحين بخط السلفى فى سفرين قال ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه فى صحتها واتقانها وجودتها ولا كان فيهم من رزق عند الخاصة والعامة من الحظوة والذكر وجلالة القدر مارزقه وذكره أبو سفيان أيضا وأبو عمرو بن عات ورفعوا جميعا بذكره وتوفى بشاطبة مصروفا عن قضائها آخر الحجة سنة خمس ودفن أول يوم من سنة ست وستين وخمسمائة ودفن بالروضة المنسوبة الى أبى عمر بن عبد البر ومولده فى رمضان سنة ٤٩٦ *(ومنهم محمد بن ابراهيم بن وضاح اللخمى) من أهل غرناطة ونزل جزيرة شقر يكنى أبا القاسم وأخذ القراءة عن أبى الحسن بن هذيل وسمع منه كثيرا ورحل حاجا فادى الفريضة وأخذ القراآت بمكة عن أبى على بن العرجاء فى سنة ست وأربعين وخمسمائة وسنة سبع بعدها وحج ثلاث حجات ودخل بغداد وأقام فى رحلته نحوا من تسعة أعوام وقفل الى الاندلس فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية وأقرأ بها القرآن نحوا من اربعين سنة لم ياخذ من أحد أجرا ولا قبل هدية وولى الصلاة والخطبة بجامعها وكان رجلا صالحا زاهدا مشاورا يشار اليه باجابة الدعوة معروفا بالورع والانقباض وتوفى فى صفر سنة ٥٨٧ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبى) نزيل تلمسان من أهل القنت عمل مرسية وسكن أبوه أوريولة رحل الى المشرق فادى الفريضة وأطال الاقامة هنالك واستوسع فى الرواية وكتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مائة وثلاثين من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السلفى صحبه واختص به وأكثر عنه وحكى عنه انه لما ودعه فى قفوله الى المغرب سأله عما كتب عنه فأخبره انه كتب كثيرا من الاسفار ومئين من الاجزاء فسر بذلك وقال له تكون محدث المغرب ان شاء الله تعالى قد حصلت خيرا كثيرا قال ودعا لى بطول العمر حتى يؤخذ عنى ما أخذت عنه وقد جمع فى أسماء شيوخه على حروف المعجم تأليفا مفيدا أكثر فيه من الآثار والحكايات والاخبار وقفل من رحلته وله أربعون حديثا فى المواعظ وأخرى فى الفقر وفضله وثالثة فى الحب فى الله تعالى ورابعة فى فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ومسلسلاته فى جزء وكتاب فضائل الاشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان وكتاب فضل عشر ذى الحجة وكتاب مناقب السبطين وكتاب الفوائد الكبرى مجلد والفوائد الصغرى جزء وكتاب الترغيب فى الجهاد خمسون بابا فى مجلد وكتاب المواعظ والرقائق اربعون مجلسا سفران وكتاب مشيخة السلفى وغير ذلك ومولده بالقنت الصغرى فى نحو الاربعين وخمسمائة وتوفى سنة عشر وستمائة رحمه الله تعالى

*(ومنهم الشيخ الاكبر ذو المحاسن التى تبهر سيدى محيى الدين بن عربى محمد بن على بن محمد بن احمد بن عبد الله الحاتمى من ولد عبد الله بن حاتم اخى عدى بن حاتم الصوفى الفقيه المشهور الظاهرى) ولد بمرسية يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ قرأ القرآن على أبى بكر بن خلف

الرقيم هو مارقم من أسماء أهل الكهف فى لوح من حجر على باب تلك المغارة ومنهم من رأى ان اصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف وقد ذكرنا كلا الموضعين بارض الروم (وقد حكى أحمد بن الطيب عن مروان السرخسى تلميذ يعقوب بن اسحق الكندى عن محمد بن موسى المنجم حين أنفذه الواثق بالله من سر من رأى الى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم وهو الموضع المعروف من بلاد الروم بحارى وقد ذكرنا فى الكتاب الاوسط قصة أصحاب الكهف وموضعهم وكيفية أحوالهم الى هذه الغاية وخبر أصحاب الرقيم وما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم وما لحقه من المتوكل بهم حين أراد قتله بالسم وقتل من كان معه من المسلمين وأخبرنا عن السد الذى بناه ذو القرنين مانعا ليأجوج ومأجوج (قال المسعودى) وجدت فى كتاب صور الارض وما عليها من الابنية المعظمة والهياكل المشيدة قد صور مقدار عرض السد فيما بين الجبلين دون الطول والذهاب فى الصعد تسع درج ونصف من درج الفلك فقدار ذلك من الجبل الى الجبل خمسون ومائة فرسخ وهذا عند جماعة من أهل النظر والبحث مستحيل كونه وقد أنكر ذلك محمد بن كثير الفرغانى المنجم وتكلم

باشبيلية وبالسبع بكتاب الكافي وحدثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني عن أبيه وقرأ أيضا السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشراط القرطبي وحدثه به عن ابن المؤلف وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للداني عن أبيه عن المؤلف وسمع على ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الاشبيلي الأزدي وغير واحد من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم وكان انتقاله من مرسية لاشبيلية سنة ٥٦٨ فأقام بها الى سنة ٥٩٨ ثم ارتحل الى المشرق وأجازه جماعة منهم الحافظ السلفي وابن عساكر وأبو الفرج ابن الجوزي ودخل مصر وأقام بالحجاز مدة ودخل بغداد والموصل وبلاد الروم ومات بدمشق سنة ٦٣٨ ليلة الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر ودفن بسفح قاسيون وأنشدني لنفسه مؤرخا وفاته الشيخ محمد بن سعد الكاشني سنة ١٠٣٧ حفظه الله تعالى

انما الحاتمي في الكون فرد * وهو غوث وسيد وامام
كم علوم أتى بها من غيوب * من بحار التوحيد يا مستهام
ان سألتم متى توفي حميدا * قلت أرخت مات قطب همام

وقال ابن الابار هو من أهل المرية وقال ابن النجار أقام باشبيلية الى سنة ٥٩٨ ثم دخل بلاد المشرق وقال ابن الابار انه أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب وكتب لبعض الولاة ثم رحل الى المشرق حاجا ولم يعد بعدها الى الاندلس وقال المنذري ذكر انه سمع بقرطبة من أبي القاسم بن بشكوال وجماعة سواه وطاف البلاد وسكن بلاد الروم مدة وجمع مجاميع في الطريقة وقال ابن الابار انه لقيه جماعة من العلماء والمتعبدين وأخذوا عنه وقال غيره انه قدم بغداد سنة ٦٠٨ وكان يومأ اليه بالفضل والمعرفة والغالب عليه طرق أهل الحقيقة وله قدم في الرياضة والمجاهدة وكلام على لسان أهل التصوف ووصفه غير واحد بالتقدم والمكانة من أهل هذا الشان بالشام والحجاز وله أصحاب وأتباع ومن تآليفه مجموع ضمنه مكاشفات رأى فيها النبي صلى الله عليه وسلم وما سمع منه ومنامات قد حدث بها عمن رآه صلى الله عليه وسلم قال ابن النجار وكان قد صحب الصوفية وأرباب القلوب وسلك طريق الفقر وحج وجاور وكتب في علم القوم وفي أخبار مشايخ المغرب وزهادهم وله أشعار حسنة وكلام مليح اجتمعت به في دمشق في رحلتي اليها وكتبت عنه شيأ من شعره ونعم الشيخ هو ذكر لي انه دخل بغداد سنة ٦٠١ فأقام بها اثنى عشر يوما ثم دخلها ثانيا حاجا مع الركب سنة ٦٠٨ وأنشدني لنفسه

أيا حائرا ما بين علم وشهوة * ليتصلا ما بين ضدين من وصل
ومن لم يكن يستنشق الريح لم يكن * يرى الفضل للمسك الفتيق على الزبل

وسألته عن مولده فقال ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمرسية من بلاد الاندلس انتهى وقال ابن مسدي انه كان جميل الجملة والتفصيل محصلا لفنون العلم أخص تحصيل وله في الادب الشأو الذي لا يلحق والتقدم الذي لا يسبق سمع ببلاده من ابن زرقون والحافظ ابن الجد وأبي الوليد الحضرمي وبسبتة من أبي محمد بن عبد الله وقدم عليه اشبيلية أبو محمد عبد المنعم بن محمد الخزرجي فسمع منه وأبو جعفر بن مصلى وذكر أنه لقي عبد الحق الاشبيلي

وفي

عليه وبرهن على فساده وأفرد محمد بن الطيب الذي قتله المعتضد بالله لما ذكرنا من الكهف والرقيم رسائل قد أتينا على ما قيل في ذلك في كتابنا المترجم بالكتاب الاوسط (ثم ملك حابس) ثلاث سنين (ثم ملك بعده) بدنوس نحوا من عشرين سنة وقيل خمس عشرة سنة (ثم ملك بعده) فورس نحوا من عشرين سنة (ثم ملك بعده) ولده يقال له فارس نحوا من سنتين (ثم ملك بعده) فليطاليس عشر سنين (ثم ملك بعده) قسطنطين (قال المسعودي) والذي وجدت في الاكثر من كتب التواريخ مما اتفقوا عليه ان عدة ملوك الروم الذين ملكوا بمدينة رومية وهم الذين قدمنا ذكرهم في هذا الكتاب تسعة وأربعون ملكا وجميع عدد سني ملكهم من أول ملك ملكهم على حسب ما ذكرنا من الخلاف في صدر هذا الكتاب الى قسطنطين هذا وهو ابن هيلاني أربعمائة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام ونسخ كتب التواريخ في هذا المعنى مختلفة غير متفقة في أسماء ملوكهم ومدة ممالكهم وأكثرها بالرومية فحكينا من ذلك ما تأتي وصفه ولهؤلاء الملوك أخبار وسير هي موجودة في كتب النصارى الملكية قد أتينا على مبسوطها والغرض منها في كتابنا

وفى ذلك عندى نظر انتهى قلت لانظر فى ذلك فان سيدى الشيخ محيي الدين ذكر فى اجازته للملك المظفر غازى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب مامعناه أونصه ومن شيوخنا الاندلسيين أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الاشبيلى رحمه الله تعالى حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث وعين لى من أسمائها تلقين المهتدى والاحكام الكبرى والوسطى والصغرى وكتاب التهجد وكتاب العاقبة ونظمه ونثره وحدثنى بكتب الامام أبى محمد على بن أحمد بن حزم عن أبى الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه انتهى وقال ان الحافظ السلفى أجازله انتهى قال بعض الحفاظ وأحسبها الاجازة العامة وكان ظاهرى المذهب فى العبادات باطنى النظر فى الاعتقادات وكان دفنه يوم الجمعة بجبل قاسيون واتفق انه لما أقام ببلاد الروم زكاه ذات يوم الملك فقال هذا تذل له الاسود أو كلاما هذا معناه فسئل عن ذلك فقال خدمت عكة بعض الصلحاء فقال لى يوما الله يذل لك أعز خلقه وامر له ملك الروم مرة بدار تساوى مائة الف درهم فلما نزلها واقام بها مربه فى بعض الايام سائل فقال له شئ لله فقال مالى غير هذه الدار خذها لك فتسلمها السائل وصارت له وقال الذهبى فى حقه انه توسع فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا فى التصوف وتواليف جمة فى العرفان لولا شطحه فى كلامه وشعره ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته فيرجى له الخير انتهى وقال القطب اليونينى فى ذيل مرآة الزمان عن سيدى الشيخ محيي الدين رضى الله تعالى عنه ونفعنا به انه كان يقول انى اعرف اسم الله الاعظم واعرف الكيمياء انتهى وقال ابن سودكين عنه انه كان يقول ينبغى للعبد أن يستعمل همته فى الحضور فى مناماته بحيث يكون حاكما على خياله يصرفه بعقله نوما كما كان يحكم عليه يقظة فاذا حصل للعبد هذا الحضور وصار خلقاله وجد ثمرة ذلك فى البرزخ وانتفع به جدا فليهتم العبد بتحصيل هذا القدر فانه عظيم الفائدة باذن الله تعالى وقال ان الشيطان ليقنع من الانسان بان ينقله من طاعة الى طاعة ليفسخ عزمه بذلك وقال ينبغى للسالك انه متى حضر له انه يعقد على امر ويعاهد الله تعالى عليه أن يترك ذلك الامر الى أن يجىء وقته فان يسر الله تعالى فعله فعله وان لم ييسر الله فعله يكون مخلصا من نكث العهد ولا يكون متصفا بنقض الميثاق ومن نظم الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى

بين التذلل والتدلل نقطة * فيها يتيه العالم النحرير
هى نقطة الاكوان ان جاوزتها * كنت الحكيم وعلمك الاكسير

وقوله أيضا رحمه الله

يا درة بيضاء لاهوتية * قدركبت صدفا من الناسوت
جهل البسيطة قدرها لشقائهم * وتنافسوا فى الدر والياقوت

وحكى العماد بن النحاس الاطروش أنه كان فى سفح جبل قاسيون على مستشرف وعنده الشيخ محيي الدين والغيث والسحاب عليهم ودمشق ليس عليها شئ قال فقلت للشيخ اماترى هذه الحال فقال كنت عراكش وعندى ابن خروف الشاعر يعنى ابا الحسن على بن محمد القرطبى القيدانى وقد اتفق الحال مثل هذه فقلت له مثل هذه المقالة فانشدنى

(ذكر ملوك الروم المتنصرة وهم ملوك القسطنطينية ولمع من أخبارهم)

(ملك قسطنطين) بعد أن هلك فليطاليس برومية وهو يعبد الاوثان وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن رومية الى بوزنطيا وهى مدينة القسطنطينية فبناها وسماها باسمه الى وقتنا هذا وكان له فى بنائها خبر ظفر به مع بعض ملوك برجان لخوف داخله من بعض ملوك ساسان وكان خروجه من رومية ودخوله فى دين النصرانية لسنة خلت من ملكه ولتسع سنين من ملكه خرجت أمه هلانى الى أرض الشام فبنت الكنائس وسارت الى بيت المقدس وطلبت الخشبة التى صلب عليها المسيح عندهم فلما صارت اليها حلتها بالذهب والفضة واتخذت لوجودها عيدا وهو عيد الصليب وهو لاربع عشرة تخلو من ايلول وفيه تفتح الترع والخلجانات ببلاد مصر على حسب ما نورده عند ذكرنا لاخبار مصر من هذا الكتاب وهى التى بنت كنيسة حمص على أربعة أركان وذلك من عجائب بنيان العالم واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام وصرفت ذلك الى بناء الكنائس وتشييد

يطوف السحاب بمرا كش * طواف الحجيج ببيت الحرم
يروم نزولا فلا يستطيع * لسفك الدماء وهتك الحرم انتهى

وحكى المقريزى فى ترجمة سيد عمر بن الفارض أفاض الله علينا من أنواره أن الشيخ محيى الدين ابن العربى بعث الى سيدى عمر يستأذنه فى شرح التائية فقال كتابك المسمى بالفتوحات المكية شرح لها انتهى وقال بعض من عرف به انه لما صنف الفتوحات المكية كان يكتب كل يوم ثلاث كراريس حيث كان وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة فما ادخر منها شيأ وقيل ان صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم وابن الزكى كل يوم ثلاثين درهما فكان يتصدق بالجميع واشتغل الناس بمصنفاته ولها ببلاد اليمن والروم صيت عظيم وهو من عجائب الزمان وكان يقول اعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب ومن نظمه رضى الله تعالى عنه

حقيقتى همت بها * ومارآها بصرى
ولو رآها لغدا * قتيل ذاك الحور
فعندما ابصرتها * صرت بحكم النظر
فبت مسحورا بها * اهيم حتى السحر
ياحذرى من حذرى * لوكان يغنى حذرى
والله ما هيمنى * جمال ذاك الخفر
فى حسنها من ظبية * ترعى بذات الخمر
اذا رنت اوعطفت * تسبى عقول البشر
كانما انفاسها * أعراف مسك عطر
كانها شمس الضحى * فى النور أو كالقمر
ان أسفرت أبرزها * نور صباح مسفر
أوسدلت غيهبا * سواد ذاك الشعر
ياقمرا تحت دجى * خذى فؤادى وذرى
عينى لكى أبصركى * اذكان حظى نظرى

وقال الحوبى قال الشيخ سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله تعالى عنه رأيت بعض الفقهاء فى النوم فى رؤيا طويلة فسألنى كيف حالك مع أهلك فقلت

اذا رأت اهل بيتى الكيس ممتلئا * تبسمت ودنت منى تمازحنى
وان رأته خليا من دراهمه * تجهمت وانثنت عنى تقابحنى

فقال لى صدقت كلنا ذلك الرجل * وذكر الامام العالم بالله تعالى لسان الحقيقة وشيخ الطريقة صفى الدين حسين ابن الامام العلامة جمال الدين أبى الحسن على ابن الامام مفتى الانام كمال الدين أبى منصور ظافر الازدى الانصارى رضى الله تعالى عنه فى رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات مشايخ عصره بعد كلام ماصورته ورأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيى الدين بن عربى وكان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم

جعل اسمها مع الصليب فى كل كنيسة لها وليس فى الروم فى أحرفهم هاء وأحرف هلانى خمسة أحرف فالاول امالة وهو بحساب الجمل خمسة والثانى وهو اللام ثلاثون والثالث امالة أيضا وهى خمسة والرابع النون وهى خمسون والخامس ياء وهو فى حساب الجمل عشرة فذلك مائة اختصارا على ماذكرنا هذه صورة الحرف الذى هو مائة بالرومية ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلانى اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا بمدينة نيقية بارض الروم فاقاموا دين النصرانية وهذا الاجتماع أوّل الاجتماعات الستة الرومية السنودسات واحدها سنودس فالاوّل بنيقية على ما ذكرنا من العدد وكان الاجتماع فيه على أريوس وهذا اتفاق من سائر دين النصرانية من الملكية والمشارقة وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة الناس النسطورية واتفاق من اليعاقبة على هذا السنودس أيضا والسنودس الثانى بالقسطنطينية على مقدنوس وعدة المجتمعين فيه من الاساقفة مائة وخمسون رجلا والسنودس الثالث بافسوس وعددهم مائتا رجل

العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا وله علماء أتباع أرباب مواجيد وتصانيف وكان بينه وبين سيدي الاستاذ الحرالي اخاء ورفقة في السياحات رضي الله تعالى عنهما في الاصائل والبكرات ومن نظم سيدي الشيخ محيي الدين رضي الله تعالى عنه قوله

يا من يراني ولا أراه * كم ذا أراه ولا يراني

قال رحمه الله تعالى قال لي بعض اخواني لما سمع هذا البيت كيف تقول انه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك فقلت له مرتجلا

يا من يراني مجرما * ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما * ولا يراني لائذا

قلت من هذا وشبهه تعلم ان كلام الشيخ رحمه الله تعالى مؤول وانه لا يقصد ظاهره وانما له محامل تليق به وكفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد وللناس في هذا المعنى كلام كثير والتسليم اسلم والله سبحانه بكلام اوليائه اعلم ومن النظم المنسوب لمحاسن الشيخ سيدي محيي الدين رضي الله تعالى عنه في ضابط ليلة القدر

وانا جميعا ان نصم يوم جمعة * ففي تاسع العشرين خذ ليلة القدر
وان كان يوم السبت اول صومنا * فحادي وعشرين اعتمده بلا عسر
وان كان صوم الشهر في احد فخذ * ففي سابع العشرين ما شئت فاستقري
وان هل بالاثنين فاعلم بانه * يوافيك نيل المجد في تاسع العشر
ويوم الثلاثا ان بدا الشهر فاعتمد * على خامس العشرين فاعمل بها تدري
وفي الاربعا ان هل يا من يرومها * فدونك فاطلب وصلها سابع العشر
ويوم خميس ان بدا الشهر فاجتهد * ففي ثالث العشرين تظفر بالنصر
وضابطها بالقول ليلة جمعة * توافيك بعد النصف في ليلة الوتر انتهى

قلت لست على يقين من نسبة هذا النظم الى الشيخ رحمه الله تعالى فان نفسه اعلى من هذا النظم ولكني ذكرته لما فيه من الفائدة ولان بعض الناس نسبه اليه فالله تعالى اعلم بحقيقة ذلك ومما نسبه اليه رحمه الله تعالى غير واحد قوله

قلبي قطبي وقالبي اجفاني * سري خضري وعينه عرفاني
روحي هرون وكليمي موسى * نفسي فرعون والهوى هاماني

وذكر بعض الثقات ان هذين البيتين يكتبان لمن به القولنج في كفه ويلحسهما فانه يبرا باذن الله تعالى قال وهو من المجربات وقد تأول بعض العلماء قول الشيخ رحمه الله تعالى بايمان فرعون ان مراده بفرعون النفس بدليل ما سبق وحكي في ذلك حكاية عن بعض الاولياء ممن كان ينتصر للشيخ رحمه الله تعالى * وولد للشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى ابنه محمد المدعو سعد الدين بملطية في رمضان سنة ٦١٨ وسمع الحديث ودرس وقال الشعر الجيد وله ديوان شعر مشهور وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦ سنة دخل هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم

بقسطنطينية وعددهم مائة وستة وأربعون رجلا والسندوس السادس كان في مملكة المدن وعددهم مائتان وتسعة وثمانون رجلا وسنذكر بعد هذا الموضع في ترتيب ملوك الروم هذه السندوسات وغلبة دين النصرانية وزوال عبادة التماثيل والصور وكان السبب في دخول قسطنطين بن هلاني في دين النصرانية والرغبة فيه ان قسطنطين خرج في بعض حروب برجان وغيرهم من الامم وكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ثم كانت عليه في بعض الايام فقتل من أصحابه خلق كثير فخاف البوار فرأى في النوم كأن رماحا نزلت من السماء فيها عذاب وأعلام على رؤسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس وأنواع الجواهر والخشب وقيل له خذ هذه الرماح وقاتل بها عدوك تنصر فجعل يحارب بها في النوم فرأى عدوه منهزما وقد نصر عليه وولاه الدبر فاستيقظ من رقدته ودعا بالرماح فركب عليها ما ذكرنا ودفعها في عسكره وزحف الى عدوه فولوا وأخذهم السيف فرجع الى مدينة نيقية وسأل أهل الخبرة عن تلك الصلبان وهل يعرفون

ودفن المذكور عند والده بسفح قاسيون و كان قدم القاهرة وسكن حلبا ومن شعره

لما تبدّى عارضاه فى غلط * قيل ظلام بضياء اختلط
وقيل سطر الحسن فى خديه خط * وقيل نمل فوق عاج انبسط
وقيل مسك فوق ورد قد نقط * وقال قوم انها اللام فقط

قلت تذكرت بهذا ماقاله الكاتب ابو عبدالله بن جزى الاندلسى كاتب سلطان الغرب ابى عنان حين تنازع الكتاب ارباب الاقلام والرؤساء اصحاب السيوف فى تشبيه العذار وقالت كل فرقة لانشبهه الا بما هو مناسب لصنعتنا فلما فرغوا قال ابن جزى

انى اولوا الكتب والسيف الاولى عزموا * من بعد سلمى على حربى واسلامى
بكل معنى بديع فى العذار على * مايقتضى منهم أفكار احلام
فقال ذو الكتب لا أرضى المحارب فى * تشبيهه لا وأنقاسى واقلامى
وقال ذو الحرب لا ارضى الكتائب فى * تشبيهه ومظلاتى واعلامى
فقلت أجمع بين المذهبين معا * باللام فاستحسنوا التشبيه باللام

وهذه الغاية التى لا تدرك مع البديهة ولزوم مالا يلزم *(رجع) ومن نظم سعد الدين قوله

سهرى من المحبوب اصبح مرسلا * وأراه متصلا بفيض مدامع
قال الحبيب بان ريقى نافع * فاسمع رواية مالك عن نافع

ومن نظمه ايضا قوله

وقالوا قصير شعر من قد هويته * فقلت دعونى لا ارى منه مخلصا
محياه شمس قد علت غصن قده * فلا عجب للظل ان يتقلصا

وقوله

ورب قاض لنا مليح * يعرب عن منطق لذيذ
اذا رمانا بسهم لحظ * قلنا له دائم النفوذ

وقوله

لك والله منظر * قل فيه المشارك
ان يوما نراك فيه * ليوم مبارك

ومن نظمه أيضا ما كتب به الى اخيه عماد الدين أبى عبدالله محمد ابن الشيخ الاكبر محيى الدين ابن عربى أفاض الله تعالى علينا من فتوحاته

ما للنوى رقة ترثى لمكتئب * حران فى قلبه والدمع فى حلب
قد أصبحت حلب ذات العماد بكم * وجلق ارم هذا من العجب

وتوفى الشيخ عماد الدين بالصالحية سنة ٦٦٧ ودفن بسفح قاسيون عند والده بتربة القاضى ابن الزكى رحمهم الله تعالى الجميع ومن نظم سعد الدين المذكور فى وسيم رآه بالزيادة فى دمشق

ياخليلى فى الزيادة ظبى * سلبت مقلتاه جفنى رقاده
كيف أرجو السلوّ عنه وطرفى * ناظر حسن وجهه فى الزياده

وله

ذلك فى شئ من الآراء والنحل فقيل له ان بيت المقدس من أرض الشام مجمع لهذا المذهب وأخبر بما فعل من قبله من الملوك من قبل النصرانية فبعث الى الشام والى بيت المقدس فحشد له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فاتوه وهو بنيقية فقص عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانية فهذا هو السندوس الاول وهو الاجتماع على ماذكرنا وقد قيل ان أم قسطنطين هلانى كانت قد تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا وكان ملك قسطنطين الى أن هلك احدى وثلاثين سنة وفى وجه آخر من التاريخ انه ملك خمسا وعشرين وقد أتينا على أخباره وحروبه وخروجه مرتاد الموضع القسطنطينية ووروده الى هذا الخليج الآخذ من بحر مانطش ونيطش فى كتابنا أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط وأن خليج القسطنطينية يأخذ من هذا البحر ويجرى الماء فيه جريا ويصب الى بحر الشام ومسافة هذا الخليج ثلثمائة وخمسون ميلا وقيل أقل من ذلك وعرضه فى الموضع الذى يأخذ من بحر مانطش نحو من عشرة أميال وهناك عمائر ومدينة للروم تدعى سماه تمنع من يرد فى هذا البحر من مراكب الروم وغيرها ثم يضيق هذا الخليج عند القسطنطينية

علقت صوفيا كبدر الدجى * لكنه فى وصلى الزاهد
يشهد وجدى بغرامى له * فديت صوفيا له شاهد

وله

صبوت الى حريرى مليح * تكرر نحوه منزله مسيرى
أقول له الاترثى لصب * عديم للمساعد والنصير
أقام ببابكم خمسين شهرا * فقال كذا مقامات الحريرى

وله

وغزال من اليهود اتانى * زائرا من كنيسه اوكناسه
بت أجنى الشقيق من وجنتيه * واشم العبير من انفاسه
واعتنقنا اذلم نخف من رقيب * وأمنا الوشاة من حراسه
من رآنى يظننى لنحولى * واصفرارى علامة فوق راسه

وله

لى حبيب بالنحو اصبح مغرى * فهو منى بما اعانيه أدرى
قلت ماذا تقول حين تنادى * ياحبيبى المضاف نحوك جهرا
قال لى ياغلام او ياغلامى * قلت لبيك ثم لبيك عشرا

وله ايضا

ساءلتنى عن لفظة لغوية * فاجبت مبتدئا بغير تفكر
خاطبتنى متبسما فرايتها * من نظم ثغرك فى صحاح الجوهرى

وله

وعلمت ان من الحديد فؤاده * لما انتضى من مقلتيه مهندا
آنست من وجدى بجانب خده * نارا ولكن ما وجدت بها هدى

وقال الشيخ محيي الدين افاض الله تعالى علينا من انواره و كسانا بعض حلل اسراره انه بلغنى فى مكة عن امراة من اهل بغداد انها تكلمت فى بامور عظيمة فقلت هذه قد جعلها الله تعالى سببا لخير وصل الى فلاكافئنها وعقدت فى نفسى ان اجعل جميع ما اعتمرت فى رجب لها وعنها ففعلت ذلك فلما كان الموسم استدل على رجل غريب فساله الجماعة عن قصده فقال رأيت بالينبع فى الليلة التى بت فيها كأن آلافا من الابل اوقارها المسك والعنبر والجوهر فعجبت من كثرته ثم سألت لمن هو فقيل هو لمحمد بن عربى يهديه الى فلانة وسمى تلك المراة ثم قال وهذا بعض ما تستحق قال سيدى ابن عربى فلما سمعت الرؤيا واسم المراة ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم منى ذلك علمت أنه تعريف من جانب الحق وفهمت من قوله ان هذا بعض ماتستحق انها مكذوب عليها فقصدت المراة وقلت اصدقينى وذكرت لها ما كان من ذلك فقالت كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم فقلت فى نفسى اللهم انى أشهدك انى قد وهبت له ثواب ما أعمله فى يوم الاثنين وفى يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما قال فعلمت ان الذى وصل منى اليها بعض ما تستحق فانها

فيصير عرضه وهو موضع العبور من الجانب الشرقى الى الموضع الغربى الذى فيه القسطنطينية نحو من أربعة أميال وعليه العمائر وينتهى فى ضيقه الى الموضع المعروف بالاندلس وهناك جبال وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأتته مراكب المسلمين فى فم هذا الخليج مما يلى بحر الشام ومنتهى مصبه مضيق وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين فى الوقت الذى للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الامر من قبل ومن بعد وأخبرنى أبو عمير عدى بن حاتم بن عبد الباقى الازدى وهو شيخ الثغور الشامية قديما الى وقتنا هذا وهو من أهل التحصيل انه لما عبر الى القسطنطينية فى هذا الخليج حين دخل لاقامة الهدنة والفداء كان يتبين جرية هذا الماء وبرده مما يلى بحر مانطش ونيطش وربما يتبين فى الماء الجرى مما يلى بحر الشام فيجده فاترا وهذا يدل على اتصال ماء هذين البحرين وأنه قد دخل فى بحر الروم الى هذا الخليج أيضا وسمعت غير واحد من أهل التحصيل ممن غزا غزاة سلوقية مع غلام ازارقة وقد كانوا

سبقت بالجميل والفضل للمتقدم ومن نظم الشيخ محيي الدين بن عربى رحمه الله تعالى

يا غاية السؤل والمأمول ياسندى * شوقى اليك شديد لا الى أحد
ذبت اشتياقا ووجدا فى محبتكم * فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن * ينشق صدرى لما خاننى جلدى
مازال يرفعها طورا ويخفضها * حتى وضعت يدى الاخرى تشديدى

وحكى سبط ابن الجوزى عن الشيخ محيي الدين انه كان يقول انه يحفظ الاسم الاعظم ويقول انه يعرف السيميا بطريق التنزل لا بطريق التكسب انتهى والله تعالى أعلم والتسليم أسلم ومن نظم الشيخ محيي الدين قوله

ما فاز بالتوبة الا الذى * قد تاب قدما والورى نوّم
فمن يتب أدرك مطلوبه * من توبة الناس ولا يعلم

وله رحمه الله تعالى من المحاسن مالا يستوفى وأنشدنى لنفسه بدمشق صاحبنا الصوفى الشيخ محمد بن سعد الكاشنى حفظه الله تعالى قوله

أمولاى محيي الدين أنت الذى بدت * علومك فى الآفاق كالغيث مذهمى
كشفت معالى كل علم مكتم * وأوضحت بالتحقيق ماكان مبهما

وبالجملة فهو حجة الله الظاهرة وآيته الباهرة ولا يلتفت الى كلام من تكلم فيه ولله در السيوطى الحافظ فانه ألف تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى ومقام هذا الشيخ معلوم والتعريف به يستدعى طولا وهو أظهر من نار على علم وكان بالمغرب يعرف بابن العربى بالالف واللام واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام فرقا بينه وبين القاضى أبى بكر ابن العربى وقال ابن خاتمة فى كتابه مزية المرية مانصه محمد بن على بن محمد الطائى الصوفى من أهل اشبيلية وأصله من مرسية يكنى أبا بكر ويعرف بابن العربى وبالحاتمى أيضا أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب وكتب لبعض الولاة بالاندلس ثم رحل الى المشرق حاجا فأدى الفريضة ولم يعد بعدها الى الاندلس وسمع الحديث من أبى القاسم الخرستانى ومن غيره وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبى الحسن بن أبى نصر فى شوّال سنة ٦٠٦ وكان يحدث بالاجازة العامّة عن أبى طاهر السلفى ويقول بها وبرع فى علم التصوف وله فى ذلك تواليف كثيرة منها الجمع والتفصيل فى حقائق التنزيل والجذوة المقتبسة والخطرة المختلسة وكتاب كشف المعنى فى تفسير الاسماء الحسنى وكتاب المعارف الالهية وكتاب الاسرا الى المقام الاسرى وكتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم وكتاب عنقاء مغرب فى صفة ختم الاولياء وشمس المغرب وكتاب فى فضائل مشيخة عبد العزيز ابن أبى بكر القرشى المهدوى والرسالة الملقبة بمشاهد الاسرار القدسية ومطالع الانوار الالهية فى كتب أخر عديدة وقدم على المرية من مرسية مستهل شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة وبها ألف كتابه الموسوم بمواقع النجوم انتهى ولا خفاء أن مقام الشيخ أعظم بعد انتقاله من المغرب وقد ذكر رحمه الله تعالى فى بعض كتبه أن مولده بمرسية وفى الكتاب المسمى بالاغتباط بمعالجة ابن الخياط تأليف شيخ الاسلام قاضى القضاة مجد الدين

الليل والنهار ويكثر كالجزر والمد وعليه العمائر والمدن فلما أحسوا بنقصان الماء بادروا بالخروج منه الى البحر الرومى وان فى مدخله من بحر الروم مدينة تقرب من فم الخليج والخليج يطيف بالقسطنطينية من جهتين مما يلى الشرق ومما يلى الشمال وفى الجانب الجنوبى البر وفيه باب الذهب مطلى على صفائح النحاس وأعلى موضع فى سورها نحو من ثلاثين ذراعا وقد ذكر أنه أقل من ذلك وأن اقصر موضع فيه عشرة أذرع ولها أبواب كثيرة مما يلى البر والبحر وحولها كنائس كثيرة وقد قيل ان لها ثلاثين بابا ومنهم من زعم أن عليها مائة باب صغارا وكبارا وهو بلد عفن مختلف المهاب مرطب للابدان لكونه بين ماوصفنا لهذه البحار (قال المسعودى) ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم تعظم العلماء وتشرف الحكماء وكانت لهم الآراء فى الطبيعيات والجسم والعقل والنفس والتعاليم الاربعة أعنى الارثماطيقى وهو علم الاعداد والجومطريقى وهو علم المساحة والهندسة والاسترنوميا وهو علم النجوم والموسيقى وهو علم تاليف

الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزابادي الصديقي صاحب القاموس قدس الله تعالى روحه الذي ألفه بسبب سؤال سئل فيه عن الشيخ محيي الدين بن عربي الطائي قدس الله تعالى سره العزيز في كتبه المنسوبة اليه ماصورته ماتقول السادة العلماء شد الله تعالى بهم أزر الدين ولم بهم شعث المسلمين في الشيخ محيي الدين بن عربي في كتبه المنسوبة اليه كالفتوحات والفصوص هل تحل قراءتها واقراؤها ومطالعتها وهل هي الكتب المسموعة المقروءة أم لا أفتونا مأجورين جوابا شافيا لتحوزوا جزيل الثواب من الله الكريم الوهاب والحمد لله وحده * (فأجابه بما صورته) الحمد لله اللهم أنطقنا بما فيه رضاك الذي اعتقده في حال المسؤل عنه وأدين الله تعالى به انه كان شيخ الطريقة حالا وعلما وامام الحقيقة حقيقة ورسما ومحيي رسوم المعارف فعلا واسما

اذا تغلغل فكر المرء في طرف * من بحره غرقت فيه خواطره

وهو عباب لا تكدره الدلاء وسحاب لا تتقاصر عنه الانواء كانت دعواته تخترق السبع الطباق وتفترق بركاته فتملأ الآفاق واني أصفه وهو يقينا فوق ماوصفته وناطق بما كتبته وغالب ظني اني ما انصفته

وما علي اذا ماقلت معتقدي * دع الجهول يظن العدل عدوانا
والله والله والله العظيم ومن * أقامه حجة للدين برهانا
بان ماقلت بعض من مناقبه * مازدت الا لعلي زدت نقصانا

وأما كتبه ومصنفاته فالبحار الزواخر التي جواهرها وكثرتها لا يعرف لها أول ولا آخر ماوضع الواضعون مثلها وانما خص الله سبحانه بمعرفة قدرها أهلها ومن خواص كتبه أن من واظب على مطالعتها والنظر فيها وتأمل ما في مبانيها انشرح صدره لحل المشكلات وفك المعضلات وهذا الشان لا يكون الا لانفاس من خصه الله تعالى بالعلوم اللدنية الربانية ووقفت على اجازة كتبها للملك المعظم فقال في آخرها وأجزته أيضا أن يروي عني مصنفاتي ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف منها التفسير الكبير الذي بلغ فيه الى سورة الكهف عند قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وتوفي ولم يكمل وهذا التفسير كتاب عظيم كل سفر بحر لا ساحل له ولا غرو فانه صاحب الولاية العظمى والصديقية الكبرى فيما نعتقد وندين الله تعالى به وثم طائفة في الغي حائفة يعظمون عليه النكير وربما بلغ بهم الجهل الى حد التكفير وماذاك الا لقصور أفهامهم عن ادراك مقاصد أقواله وأفعاله ومعانيها ولم تصل أيديهم لقصرها الى اقتطاف مجانيها

على نحت القوافي من معادنها * وما علي اذا لم تفهم البقر

هذا الذي نعلم ونعتقد وندين الله تعالى به في حقه والله سبحانه وتعالى أعلم وصورة استشهاده كتبه محمد الصديقي الملتجئ الى حرم الله تعالى عفا الله عنه انتهى وأما احتجاجه بقول شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام شيخ مشايخ الشافعية فغير صحيح بل كذب وزور فقد روينا عن شيخ الاسلام صلاح الدين العلائي عن جماعة من المشايخ كلهم عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام انه قال كنا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام فجاء في باب

اللحون ولم تزل العلوم قائمة السوق مشرقة الاقطار قوية المعالم شديدة المقاوم سامية البناء الى ان تظاهرت ديانة النصرانية في الروم فعفوا معالم الحكمة وأزالوا رسمها وعفوا سبلها وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته وكان من شريف ماتركته المعرفة بعلم الموسيقى لانه غذاء للنفس ومطرب لها وملهيها تبتهج عند سماعه وتحن الى تأليف أوضاعه وقد نطقت الحكمة بشرفه ونبهت على نفاسة محله فقال الاسكندر من فهم الالحان استغنى عن سائر اللذات وقد قالت الفلاسفة ان النغم فضيلة شريفة كانت تعذرت عن المنطق ليست في قدرته فلم يقدر على اخراجها فاخرجتها النفس ألحانا فلما ظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت اليها ورتبت الحكماء الاوتار الاربعة بازاء الطبائع الاربعة فجعلوا الزير بازاء المرة الصفراء والمثنى بازاء الدم والمثلث بازاء البلغم والبم بازاء السوداء وقد أشبعنا القول في الموسيقى وأصحاب الملاهي والايقاع وأصناف الرقص والطرب والنغم ونسب النغم وما استعملته كل أمة من الامم من أصناف الملاهي من اليونانيين والروم والسريانيين والنبط والسند والهند والفرس وغيرهم من الامم وذكرنا مناسبة النغم للاوتار وممازجة

الردة ذكر لفظة الزنديق فقال بعضهم هل هى عربية او عجمية فقال بعض الفضلاء انما هى فارسية معربة أصلها زن دين أى على دين المرأة وهو الذى يضمر الكفر ويظهر الايمان فقال بعضهم مثل من فقال آخر الى جانب الشيخ مثل ابن عربى بدمشق فلم ينطق الشيخ ولم يرد عليه قال الخادم وكنت صائما ذلك اليوم فاتفق أن الشيخ دعانى للافطار معه فحضرت ووجدت منه اقبالا ولطفا فقلت له ياسيدى هل تعرف القطب الغوث الفرد فى زماننا فقال مالك ولهذا كل فعرفت أنه يعرفه فتركت الاكل وقلت له لوجه الله تعالى عرفنى به من هو فتبسم رحمه الله تعالى وقال لى الشيخ محيى الدين بن عربى فاطرقت ساكتا متحيرا فقال مالك فقلت ياسيدى قد حرت قال لم قلت أليس اليوم قال ذلك الرجل الى جانبك ماقال فى ابن عربى وأنت ساكت فقال اسكت ذلك مجلس الفقهاء هذا الذى روى لنا بالسند الصحيح عن شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام وأمّا قول غيره من أضراب الشيخ عز الدين فكثير كان الشيخ كمال الدين الزملكانى من أجل مشايخ الشام أيضا يقول ما أجهل هؤلاء ينكرون على الشيخ محيى الدين بن عربى لاجل كلمات وألفاظ وقعت فى كتبه قد قصرت أفهامهم عن درك معانيها فليأتونى لاحل لهم مشكله وأبين لهم مقاصده بحيث يظهر لهم الحق ويزول عنهم الوهم وهذا القطب سعد الدين الحموى سئل عن الشيخ محيى الدين بن عربى لما رجع من الشام الى بلاده كيف وجدت ابن عربى فقال وجدته بحرا زخارا لاساحل له وهذا الشيخ صلاح الدين الصفدى له كتاب جليل وضعه فى تاريخ علماء العالم فى مجلدات كثيرة وهى موجودة فى خزانة السلطان تنظر فى باب الميم ترجمة محمد بن عربى لتعرف مذاهب أهل العلم الذين باب صدورهم مفتوح لقبول العلوم اللدنية والمواهب الربانية وقوله فى شئ من الكتب المصنفة كالفصوص وغيره انه صنفه بامر من الحضرة الشريفة النبوية وأمره باخراجه الى الناس قال الشيخ محيى الدين الذهبى حافظ الشام ما أظن المحيى يتعمد الكذب أصلا وهو من أعظم المنكرين وأشدهم على طائفة الصوفية ثم ان الشيخ محيى الدين رحمه الله تعالى كان مسكنه ومظهره بدمشق وأخرج هذه العلوم اليهم ولم ينكر عليه أحد شيأ من ذلك وكان قاضى القضاة الشافعية فى عصره شمس الدين أحمد الخوبى يخدمه خدمة العبيد وقاضى القضاة المالكية زوجه بابنته وترك القضاء بنظرة وقعت عليه من الشيخ * واما كراماته ومناقبه فلا تحصرها مجلدات وقول المنكرين فى حق مثله غثاء وهباء لايعبأ به والحمد لله تعالى انتهى ما نقلته من كلام العارف بالله تعالى سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه * وقد حكى الشيخ رضى الله تعالى عنه عن نفسه فى كتبه ما يبهر الالباب وكفى بذلك دليلا على ما منحه الله الذى يفتح لمن شاء الباب وقد اعتنى بتربته بصالحية دمشق سلاطين بنى عثمان نصرهم الله تعالى على توالى الازمان وبنى عليه السلطان المرحوم سليم خان المدرسة العظيمة ورتب له الاوقاف وقد زرت قبره وتبركت به مرارا ورأيت لوائح الانوار عليه ظاهرة ولايجد منصف محيدا الى انكار ما يشاهد عند قبره من الاحوال الباهرة وكانت زيارتى له بشعبان ورمضان وأول شوال سنة ١٠٣٧ * وقال فى عنوان الدراية ان الشيخ محيى الدين كان يعرف بالاندلس بابن سراقة وهو فصيح اللسان بارع فهم الجنان قوى على الايراد كلما طلب الزيادة يزاد رحل

أحاط بذلك من جميع الوجوه فى كتابنا المترجم بكتاب الزلف وأتينا على طريف أخبارهم وأنواع لهوهم وتلاهيهم فى كتاب أخبار الزمان وفى الكتاب الاوسط فاغنى ذلك عن اعادته ههنا اذ هذا الكتاب فى غاية الايجاز وان سنح لنا سانح ذكرنا لمعا من هذه الجوامع فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وان تعذر ذلك فقد قدمنا التنبيه على ما سلف من كتبنا على الشرح والايضاح (ثم ملك الروم) بعد قسطنطين ابن هلانى الملك المتنصر قسطنطين بن قسطنطين وهو ابن الملك الماضى وكان ملكه أربعا وعشرين سنة وبنى كنائس كثيرة وشدد دين النصرانية (ثم تملك) ابن أخى قسطنطين الاول بوليانس فرفض دين النصرانية ورجع الى عبادة الاوثان وهو بوليانس المعروف بالحنفى وأهل دين النصرانية لبغضهم فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه بلبانس البرباط وغزا العراق فى ملك سابور ابن اردشير بن بابك فاتاه سهم غرب فذبحه وقد كان سار الى العراق فى جنود لاتحصى ولم يكن لسابور حيلة فى دفعه ولقائه لما جاءته اياه فانصرف

الى العدوة ودخل بجاية فى رمضان سنة ٥٩٧ وبها لقى أبا عبد الله العربى وجماعة من الافاضل ولما دخل بجاية فى التاريخ المذكور قال رأيت ليلة انى نكحت نجوم السماء كلها فما بقى منها نجم الا نكحته بلذة عظيمة روحانية ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف فنكحتها ثم عرضت رؤياى هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها وقلت للذى عرضتها عليه لاتذكرنى فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال هذا هو البحر الذى لايدرك قعره صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الاسرار وخواص الكواكب مالا يكون فيه أحد من أهل زمانه ثم سكت ساعة وقال ان كان صاحب هذه الرؤيا فى هذه المدينة فهو ذلك الشاب الاندلسى الذى وصل اليها ثم قال صاحب العنوان ما ملخصه ان الشيخ محيي الدين رحل الى المشرق واستقرت به الدار وألف تواليفه وفيها ما فيها ان قيض الله تعالى من يسامح ويتأول سهل المرام وان كان ممن ينظر بالظاهر فالامر صعب وقد نقد عليه أهل الديار المصرية وسعوا فى اراقة دمه فخلصه الله تعالى على يد الشيخ أبى الحسن البجائى فانه سعى فى خلاصه وتأول كلامه ولما وصل اليه بعد خلاصه قال له الشيخ رحمه الله تعالى كيف يحبس من حل منه اللاهوت فى الناسوت فقال له ياسيدى تلك شطحات فى محل سكر ولا عتب على سكران * وتوفى الشيخ محيي الدين فى نحو الاربعين وستمائة وكان يحدث بالاجازة العامة عن السلفى رحمه الله تعالى انتهى * ومن موشحات الشيخ محيي الدين رضى الله تعالى عنه

مطلع

سرائر الاعيان * لاحت على الاكوان * للناظرين
والعاشق الغيران * من ذاك فى حران * يبدى الانين

دور

يقول والوجد * أضناه والبعد * قد حيره
لما دنا البعد * لم أدر من بعد * من غيره
وهيم العبد * والواحد الفرد * قد خيره
فى البوح والكتمان * والسر والاعلان * فى العالمين
أما هو الديان * ياعابد الاوثان * أنت الضنين

دور

كل الهوى صعب * على الذى يشكو * ذل الحجاب
يا من له قلب * لو أنه يذكو * عند الشباب
قد قرب الرب * لكنه افك * فانو المتاب
وناد يارحمن * يارب يامنان * انى حزين
أضنانى الهجران * ولا حبيب دان * ولا معين

دور

فنيت بالله * عما تراه العين * من كونه

سابور عن اللقاء الى الحيلة فى دفعه وكان من امره ما وصفنا وكان ملكه الى ان هلك سنة وقيل اكثر من ذلك وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية ولما هلك بليانس جزع من كان معه من الملوك والبطارقة والجيوش ففزعوا الى بطريق كان معظما فيهم يقال له مريناس وقيل انه كاتب الماضى فابى عليهم ان يتملك الا ان يرجعوا الى دين النصرانية فاجابوه الى ذلك وضايق سابور القوم وأحاط بعساكرهم فكان لمريناس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة ثم افترقوا وانصرف بجيوش النصرانية موادعا لسابور وأخلف عليه ما اتلف من أرضه باموال حملها اليه وهدايا من لطائف الروم وشيد هياكل فى دين النصرانية وردها الى ما كانت عليه ومنع من الاصنام والتماثيل وقتل على عبادتها وكان ملكه سنة (ثم ملك بعده) أوانيس وهو على دين النصرانية ثم رجع عنها وهلك فى بعض حروبه وكان ملكه الى أن هلك أربع عشرة سنة وقيل ان فى ايامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدتهم على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم انهم بعثوا أحدهم بورقهم الى المدينة وهذا الموضع من أرض الروم

في موقف الجاه * وصحت أين الاين * في بينه
فقال يا ساهي * عاينت قطعين * بعينه
أما ترى عيلان * وقيس أو من كان * في الغابرين
قالوا الهوى سلطان * ان حل بالانسان * أفناه دين

دور

كم مرة قالا * أنا الذي أهوى * من هو أنا
فلا أرى حالا * ولا أرى شكوى * الا الفنا
لست كمن مالا * عن الذي يهوى * بعد الجنا
ودان بالسلوان * هذا هوا لبهتان * للعارفين
سلوهم ما كان * عن حضرة الرحمن * والآ فكين

دور

دخلت في بستان * الانس والقرب * كمكنسه
فقام لي الريحان * يختال بالعجب * في سندسه
أنا هو الانسان * مطيب الصب * في مجالسه
ياجنان ياجنان * اجن من البستان * الياسمين
وحل الريحان * بحرمة الرحمن * للعاشقين

وقال الامام الصفي بن ظافر الازدي في رسالته رأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيي الدين بن عربي وكان من أكبر علماء الطريق جمع بين سائر العلوم الكسبية وما وقر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة وكان غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا وله علماء اتباع أرباب مواجيد وتصانيف وكان بينه وبين سيدي الاستاذ الحرار اخاء ورفقة في السياحات رضي الله تعالى عنهما انتهى * وذكر الامام سيدي عبد الله بن سعد اليافعي اليمني في الارشاد أنه اجتمع مع الشهاب السهروردي فأطرق كل واحد منهما ساعة ثم افترقا من غير كلام فقيل للشيخ ابن عربي ما تقول في السهروردي فقال مملوء سنة من قرنه الى قدمه وقيل للسهروردي ما تقول في الشيخ محيي الدين فقال بحر الحقائق ثم قال اليافعي ما ملخصه ان بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ ويشرحه فلما حضرته الوفاة نهى عن مطالعته وقال انكم لا تفهمون معاني كلامه ثم قال اليافعي وسمعت أن العز بن عبد السلام كان يطعن عليه ويقول هو زنديق فقال له بعض أصحابه أريد أن تريني القطب أو قال وليا فأشار الى ابن عربي فقال له فأنت تطعن فيه فقال أصون ظاهر الشرع أو كما قال وأخبرني بهذه الحكاية غير واحد من ثقات مصر والشام ثم قال وقد مدحه وعظمه طائفة كالنجم الاصبهاني والتاج بن عطاء الله وغيرهما وتوقف فيه طائفة وطعن فيه آخرون وليس الطاعن بأعلم من الخضر عليه السلام اذ هو أحد شيوخه وله معه اجتماع كثير ثم قال وما ينسب الى المشايخ له محامل الاول أنه لم تصح نسبته اليهم الثاني بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق فان لم يوجد له تأويل في الظاهر

في الشمال وللناس ممن عنى بعلم الفلك وازورار الشمس عن كهفهم في حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير وقد أخبر الله تعالى في كتابه قال وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم الآية وكانوا من أهل مدينة افسس من أرض الروم (ثم ملك بعده أوانيس) عرامطنامس خمس عشرة سنة والسنة من ملكه كان اجتماع النصرانية وهو أحد الاجتماعات باسم القوم في روح القدس عندهم وأحرقوا مقدونيس بطريق القسطنطينية وهو الاسندوس الثاني (ثم ملك بعده) بدوسدس الاكبر وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله وقام بدين النصرانية وعظمها وبنى كنائس ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم وانما كان أصله من الاشبان وهم بعض الملوك السالفة وقد كان ممن ملك الشام ومصر والاندلس وقد تنازع الناس فيهم فذكر الواقدي في كتاب فتوح الامصار أن بدأهم من اهل أصبهان وانهم ناقلة من هنالك وهذا يوجب انهم من قبل ملوك فارس الاولى وذكر عبد الله ابن خرداذبه نحو ذلك وساعدهما على ذلك جماعة من اهل السير والاخبار والاشهر من امرهم انهم ولد يافث بن نوح وهم من ملوك

فله

فله تاويل في الباطن لم نعلمه وانما يعلمه العارفون الثالث أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة والسكران سكرا مباحا غير مؤاخذ ولا مكلف انتهى ملخصا وممن ذكر الشيخ محيي الدين الامام شمس الدين محمد بن مسدي في معجمه البديع المحتوي على ثلاث مجلدات وترجمه ترجمة عظيمة مطوّلة اذكر منها أنه قال انه كان ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات خاض بحار تلك العبارات وتحقق بمحيا تلك الاشارات وتصانيفه تشهد له عند أولي البصر بالتقدم والاقدام ومواقف النهايات في مزالق الاقدام ولهذا ما ارتبت في أمره والله تعالى أعلم بسره انتهى * ونقلت من خط ابن علوان التونسي رحمه الله تعالى قال الشيخ محيي الدين

بالمال ينقاد كل صعب * من عالم الارض والسماء
يحسبه عالم حجابا * لم يعرفوا لذة العطاء
لولا الذي في النفوس منه * لم يجب الله في الدعاء
لا تحسب المال ما تراه * من عسجد مشرق الضياء
بل هو ما كنت يا بني * به غنيا عن السواء
فكن برب العلا غنيا * وعامل الخلق بالوفاء

وقال

نبه على السر ولا تفشه * فالبوح بالسر له مقت
على الذي يبديه فاصبر له * واكتمه حتى يصل الوقت

وقال

قد ناب غلمانا علينا * فما لنا في الوجود قدر
أذنابنا صيرت رؤسا * مالي على ما أراه صبر
هذا هو الدهر يا خليلي * فمن يقاسيه فهو قهر

ونظم الشيخ محيي الدين هو البحر الذي لا ساحل له ولنختم ما أوردناه منه بقوله

يا حبذا المسجد من مسجد * وحبذا الروضة من مشهد
وحبذا طيبة من بلدة * فيها ضريح المصطفى أحمد
صلى عليه الله من سيد * لولاه لم نفلح ولم نهتد
قد قرن الله به ذكره * في كل يوم فاعتبر ترشد
عشر خفيات وعشر اذا * أعلن بالتاذين في المسجد
فهذه عشرون مقرونة * بافضل الذكر الى الموعد

*(ومنهم الصوفي الشهير أبو الحسن الششتري وهو علي بن عبد الله النميري) عروس الفقهاء وامام المتجردين وبركة لابسي الخرقة وهو من قرية ششتر من عمل وادي آش وزقاق الششتري معلوم بها وكان مجوّدا للقرآن قائما عليه عارفا بمعانيه من أهل العلم والعمل جال في الآفاق ولقي المشايخ وحج حجات وآثر التجرد والعبادة * وذكره القاضي أبو العباس الغبريني في عنوان الدراية فقال الفقيه الصوفي من الطلبة المحصلين والفقراء المنقطعين

الاندلس من الازارقة واحدهم ازريق وقد تنوزع في دياناتهم فمنهم من رأى انهم كانوا على دين المجوس ومنهم من رأى انهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الاصنام وقد قلنا ان الاشهر من انسابهم انهم ولد يافث بن نوح فكان مدة ملك بدرسيس الى ان هلك عشر سنين (ثم ملك بعده) أوباديس أربع عشرة سنة وكان على دين النصرانية (ثم ملك بعده) ابنه بدرسيس الاصغر وذلك بمدينة افسس وجمع مائتي أسقف وهذا الاجتماع الثالث الذي قدمنا ذكره آنفا ولعن فيه نسطورس البطرك وقد ذكرنا في كتابنا أخبار الزمان الحيلة التي وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينية صاحب الكرسي بالاسكندرية وما كان من نسطورس ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب وما كان في بدريا زوجة الملك الى أن نفي نسطورس من القسطنطينية الى انطاكية ثم منها الى صعيد مصر والمشارقة من النصارى أضيفوا الى نسطورس لانهم اتبعوه وقالوا بقوله وانما وسمتهم الملكية بهذا الاسم لتعيرهم وتعيبهم بذلك وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من المشرق تدعى بالعباد وسائر نصارى المشرق يابون هذه الاضافة

له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية وتقدم في النظم والنثر على طريقة التحقيق وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية في الانطباع أخذ عن القاضي محيي الدين محمد بن ابراهيم ابن الحسن بن سراقة الانصاري الشاطبي وغيره من أصحاب السهروردي صاحب عوارف المعارف واجتمع بالنجم بن ابراهيم الدمشقي سنة ٦٥ وخدم أبا محمد بن سبعين وتلمذ له وكان ابن سبعين دونه في السن لكن اشتهر باتباعه وعوّل على مالديه حتى صار يعبر عن نفسه في منظوماته وغيرها بعبد ابن سبعين وقال له لما لقيه يريد المشايخ ان كنت تريد الجنة فسر الى أبي مدين وان كنت تريد رب الجنة فهلم الي ولما مات أبو محمد انفرد بعده بالرياسة والامامة على الفقراء المتجردين فكان يتبعه في أسفاره ماينيف على أربعمائة فقير فيقسمهم الترتيب في وظائف خدمته صنف كتبا منها كتاب العروة الوثقى في بيان السنن واحصاء العلوم ومايجب على المسلم أن يعمله و يعتقده الى وفاته وله كتاب المقاليد الوجودية في اسرار الصوفية والرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة والمراتب الايمانية والاسلامية والاحسانية والرسالة العلمية وغير ذلك وله ديوان شعر مشهور ومن نظمه قوله رحمه الله تعالى

لقد تهت عجبا بالتجرد والفقر * فلم أندرج تحت الزمان ولا الدهر
وجاءت لقلبي نفحة قدسية * فغبت بها عن عالم الخلق والامر
طويت بساط الكون والطي نشره * وما القصد الا الترك للطي والنشر
وغمضت عين القلب غير مطلق * فألفيتني ذاك الملقب بالغير
وصلت لمن لم تنفصل عنه لحظة * ونزهت من أعنى عن الوصل والهجر
وما الوصف الا دونه غير أنني * أريد به التشبيب عن بعض ما أدري
وذلك مثل الصوت أيقظ نائما * فأبصر أمرا جل عن ضابط الحصر
فقلت له الاسماء تبغي بيانه * فكانت له الالفاظ سترا على ستر

وقال

من لامني لو أنه قد أبصرا * ماذقته أضحى به متحيرا
وغدا يقول لصحبه ان أنتمو * أنكرتمو مالي أتيتم منكرا
شذت أمور القوم عن عاداتهم * فلاجل ذاك يقال سحر مفترى

وقال وهي من أشهر ماقال

أرى طالبا منا الزيادة لا الحسنى * بفكر رمى سهما فعدى به عدنا
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا * نغيب به عنا لدى الصعق ان عنا

وهي طويلة مشهورة بالشرق والغرب وقد شرحها شيخ شيوخ شيوخنا العارف بالله تعالى سيدي أحمد زروق نفعنا الله تعالى ببركاته وأشار ابن الخطيب في الاحاطة الى أنها لاتخلو عن شذوذ من جهة اللسان وضعف في العربية قال ومع ذلك فهي غريبة المنزع أشار فيها الى مراتب الاعيان الاعلام من أهل هذه الطريقة وكأنها مبنية على كلام شيخه الذي خاطبه به عند لقائه حسبما قدمنا اذ الحسنى الجنة والزيادة مقام النظر وقوله فيها

الى نسطورس و يكرهون ان يقال لهم نسطورية وقد أيد برصوما مطران نصيبين رأى المشارقة في الثالوث وهو الكلام في الاقانيم الثلاثة والجوهر الواحد وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدث وكان ملك بدرسيس الى ان هلك اثنتين وأربعين سنة (ثم ملك بعده) مرقيانوس (ثم ملك الروم) بلخاريا زوجة مرقيانوس وكانت ملكة معه وفي أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى و وقوع الخلاف بينهم في الثالوث فكان ملكها سبع سنين وأكثر اليعاقبة بالعراق و بلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها الا اليسير فانهم ملكية والنوبة والارمن يعاقبة ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل و بغداد وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحدفات وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم وكرسي اليعاقبة رسمه ان يكون بمدينة انطاكية و كذلك لهم كرسي بمصر ولا أعلم له غير هذين الكرسيين وهما مصر وانطاكية (ثم ملك بعدها) اليون الاصغر ابن اليون وكان ملكه ست عشرة سنة وفي ايامه احرم مسعرة اليعقوبي بطرك الاسكندرية واجتمع له من الاساقفة ستمائة وستون اسقفا

واظهر

وأظهر منها الغافقي لمساجني * وكشف عن أطواره الغيم والدجنا

هو شيخه أبو محمد بن سبعين لانه مرسي الاصل غافقيه ولما وصل الششتري من الشام الى ساحل دمياط وهو مريض مرض موته نزل قرية بساحل البحر الرومي فقال ما اسم هذه القرية فقيل الطينة فقال حنت الطينة الى الطينة وأوصى أن يدفن بمقبرة دمياط اذ الطينة بمفازة وأقرب المدن اليها دمياط فحمله الفقراء على أعناقهم الى دمياط وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٦٨ فدفن بدمياط رحمه الله تعالى ورضي عنه *(ومنهم سيدي أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الاندلسي) وحرالة قرية من أعمال مرسية غير أنه ولد بمراكش وأخذ بالاندلس عن أبي الحسن بن خروف وغير واحد ورحل الى المشرق فأخذ عن أبي عبد الله القرطبي امام الحرم وغيره ولقي جملة من المشايخ شرقا وغربا وهو امام ورع صالح زاهد كان بقية السلف وقدوة الخلف وقد زهد في الدنيا وتخلى عنها وأقام في تفسير الفاتحة نحوا من ستة أشهر يلقي في التعليل قوانين تتنزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الاحكام حتى منّ الله تعالى ببركات ومواهب لاتحصى وعلى أحكام تلك القوانين وضع كتابه مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل وهو ممن جمع العلم والعمل وصنف في كثير من الفنون كالاصول والمنطق والطبيعيات والالهيات وكان يقرأ النجاة لابن سينا فينقضه عروة عروة وكان من أعلم الناس بمذهب مالك ولما ظن فقهاء عصره انه لايحسن المذهب لاشتغاله بالمعقولات قرأ التهذيب وأبدى فيه الغرائب وبين مخالفته للمدونة في بعض المواضع ووقع بينه وبين الشيخ عز الدين بن عبد السلام شئ وطلب عز الدين أن يقف على تفسيره فلما وقف عليه قال أين قول مجاهد أين قول فلان وفلان وكثر القول في هذا المعنى ثم قال يخرج من بلادنا الى وطنه يعني الشام فلما بلغ كلامه الشيخ قال هو يخرج وأقيم أنا فكان كذلك وله عدة مؤلفات في الفنون وقال رحمه الله تعالى أقمت ملازما لمجاهدة النفس سبعة أعوام حتى استوى عندي من يعطيني دينارا ومن يزدريني وأصبح رحمه الله تعالى ذات يوم ولا شئ لاهله يقيم به أودهم وكانت أم ولده جارية تسمى كريمة وكانت سيئة الخلق فاشتدت عليه في الطلب وقالت له ان الاصاغر لاشئ لهم فقال لها الآن يأتي من قبل الوكيل ما نتقوت به فبينما هم كذلك واذا بالجمال يضرب الباب ومعه قمح فقال لها يا كريمة ما أعجلك هذا الوكيل بعث بالقمح فقالت ومن يصنعه فأمر فتصدق به ثم قال لها يأتيك ما هو أحسن فانتظرت يسيرا وبدا لها فاقة تكلمت بما لايليق فبينماهم كذلك واذا بحمال سميذ فقال لها هذا السميذ أيسر وأسهل من القمح فلم يقنعها ذلك فأمر أيضا بصدقته فلما تصدق به زادت في المقال واذا برجل على رأسه طعام فقال لها يا كريمة قد كفيت المؤنة هذا الوكيل قد لطف بحالك * ومن كراماته أن بعض طلبته اجتمعوا في نزهة وأخذوا حليا من زينة النساء فزينوا به بعض أصحابهم فلما انقضى ذلك واجتمعوا بمجلس الشيخ صار الذي كان في يده الحلي يتحدث ويشير بيده فقال الشيخ يد يجعل فيها الحلي لايشار بها في الميعاد ومنها انه أصاب الناس جدب ببجاية فأرسل الى داره من يسوق ماء الى الفقراء فامتنعت كريمة ونهرت رسله فسمع كلامها فقال للرسول قل لها يا كريمة والله لاشربن

وفي تاريخ الروم ان عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا وذلك بخلقدونية وهذا الاجتماع وهو السندوس الرابع عند الملكية واليعاقبة لاتعتد بهذا السندوس ولهم خبر ظريف في قصة سواري البطرك وما كان من أمره وخبر تلميذه يعقوب البراذعي ودعوته الى مذهب سواري واليعاقبة أضيفت الى مذهب يعقوب البراذعي هذا وبه عرفت وكان من أهل انطاكية يعمل البراذع (ثم ملك) بعد اليون الاصغر ابنه ليون سنة على دين الملكية (ثم ملك بعده) بيروهو من بلاد الامينيان وكان يذهب الى رأي اليعقوبية وكان ملكه سبع عشرة سنة وكانت له حروب مع خوارج خرجوا عليه من دار الملك فظفر بهم (ثم ملك بعده) نسطاس وكان يذهب الى مذهب اليعقوبية وبنى مدينة عمورية وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة وكان ملكه الى ان هلك تسعا وعشرين سنة (ثم ملك بعده) يوسطيانوس تسع سنين (ثم ملك بعده) سطايانس تسعا وثلاثين سنة وقيل أربعين وبنى كنائس كثيرة وشيد دين النصرانية وأظهر مذاهب الملكية وبنى كنيسة الرها وهي احدى عجائب

من ماء المطر الساعة ثم رمق السماء بطرفه ودعا الله سبحانه وتعالى ورفع يديه وشرع المؤذن في الاذان ولم يختم المؤذن أذانه حتى كان المطر كافواه القرب وتوفي رحمه الله تعالى بحماة من بلاد الشام سنة سبع وثلاثين وستمائة انتهى ملخصا من عنوان الدراية للغبريني * ووقع للذهبي في حقه كلام على عادته في الحط على هذه الطائفة ثم قال ورأيت شيخنا المجد التونسي يتغالى في تفسيره ورأيت غير واحد معظماله وموقرا وقوما تكلموا في عقيدته وكان نازلا عند قاضي حماة البارزى وقال لنا شرف الدين البارزى تزوج بحماة وكانت زوجته تشتمه وتؤذيه وهو يتبسم وان رجلا راهن جماعة على أن يحرجه فقالوا لا تقدر فأتى وهو يعظ وصاح وقال له أنت أبوك كان يهوديا واسلم فنزل من الكرسي فاعتقد الرجل انه غضب وأنه تم له مارامه حتى وصل اليه فخلع مرطية عليه وأعطاه اياهما وقال له بشرك الله بالخير لانك شهدت لابي انه كان مسلما انتهى وظاهر كلام الغبريني ان تفسير الشيخ الحرالي كامل وقال بعضهم انه لم يكمل وهو تفسير حسن وعليه نسج البقاعي مناسباته وذكر أن الذي وقف عليه منه من أول القرآن الى قوله في سورة آل عمران كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا وكلام الذهبي في الشيخ يرده كلام الغبريني اذ هو أعرف به والله تعالى أعلم وحكى الغبريني انه أنشد بين يديه الزجل المشهور

جنان ياجنان * اجن من البستان * الياسمين
واترك الريحان * بحرمة الرحمن * للعاشقين

فسأل بعض عن معناه فقال بعض الحاضرين أراد به العذار وقال آخر انما أشار الى دوام العهد لان الازهار كلها ينقضي زمانها الا الريحان فانه دائم فاستحسن الشيخ هذا ووافق عليه * (ومنهم ولي الله العارف به الشيخ الشهير الكرامات الكبير المقامات سيدي أبو العباس المرسي نفعنا الله تعالى به) وهو من أكابر الاولياء صحب سيدي الشيخ الفرد القطب الغوث الجامع سيدي أبا الحسن الشاذلي أعاد الله تعالى علينا من بركاته وخلفه بعده وكان قدم من الاندلس من مرسية وقبره بالاسكندرية مشهور باجابة الدعوات وقد زرته مرارا كثيرة ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله وقد عرف به الشيخ العارف بالله ابن عطاء الله في كتابه لطائف المنن في مناقب الشيخ سيدي أبي العباس وشيخه سيدي أبي الحسن رضي الله تعالى عنهما وقال الصفدي في الوافي أحمد بن عمر بن محمد الشيخ الزاهد الكبير العارف أبو العباس الانصاري المرسي وارث شيخه الشاذلي تصوفا الاشعري معتقدا توفي بالاسكندرية سنة ٦٨٦ ولاهل مصر ولاهل الثغر فيه عقيدة كبيرة وقد زرته لما كنت بالاسكندرية سنة ٧٣٨ قال ابن عرام سبط الشاذلي ولولا قوة اشتهاره وكراماته لذكرت له ترجمة طويلة كان من الشهود بالثغر انتهى وكان سيدي أبو العباس يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله تعالى حتى انه ربما دخل عليه مطيع فلا يحتفل به وربما دخل عليه عاص فأكرمه لان ذلك الطائع أتى وهو متكثر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصي دخل بكسر معصيته وذل مخالفته وكان شديد الكراهة للوسواس في الصلاة والطهارة ويثقل عليه شهود من كان على صفته وذكر عنده يوما شخص بانه صاحب علم وصلاح الا انه كثير الوسوسة فقال وأين

العالم والهياكل المذكورة وقد كان في هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى وذلك ان يسوع الناصرى حين أخرج من ماء المعمودية تنشف به فلم يزل هذا المنديل يتداول الى أن قرر بكنيسة الرها فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها في هذه السنة وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة اعطى هذا المنديل للروم فنحوا الى الهدنة وكان للروم عند تسليمهم هذا المنديل فرح عظيم (ثم ملك بعده) ابن اخيه قرسطيس ثلاث عشرة سنة على رأى الملكية (ثم ملك بعده) طباريس أربع سنين واظهر في ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك (ثم ملك بعده) موريقس عشرين سنة ونصر كسرى ابرويز على بهرام جور فقتل غيلة وبعث ابرويز غضبا له بجيوش الى الروم وكانت لهم حروب على حسب ما قدمنا (ثم ملك بعده) قرماس ثمان سنين الى ان قتل أيضا (ثم ملك هرقل) وكان بطريقا في بعض الجزائر قبل ذلك فعمر بيت المقدس وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام وبنى الكنائس ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة شرفها الله تعالى

العالم العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الابيض والسواد في الاسود وله كلام بديع في تفسير القرآن العزيز فمن ذلك انه قال قال الله سبحانه وتعالى الحمد لله رب العالمين علم الله عجز خلقه عن حمده فحمد نفسه بنفسه في أزله فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده فقال الحمد لله رب العالمين أي الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغي أن يكون لغيره فعلى هذا تكون الالف واللام للعهد وقال في قوله تعالى اياك نعبد واياك نستعين اياك نعبد شريعة واياك نستعين حقيقة اياك نعبد اسلام واياك نستعين احسان اياك نعبد عبادة واياك نستعين عبودية اياك نعبد فرق واياك نستعين جمع وله في هذا المعنى وغيره كلام نفيس يدل على عظيم ما منحه الله سبحانه من العلوم اللدنية وقال رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد الى ما ليس بحاصل وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره وبسطه الشيخ رضي الله تعالى عنه فقال عموم المؤمنين يقولون اهدنا الصراط المستقيم معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل فانهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين والصالحون يقولون اهدنا الصراط المستقيم معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل لانهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء والشهداء يقولون اهدنا الصراط المستقيم أي بالتثبيت فيما هو حاصل والارشاد لما ليس بحاصل فانهم حصلت لهم درجة الشهادة وفاتهم درجة الصديقية والصديق كذلك يقول اهدنا الصراط المستقيم اذ حصلت له درجة الصديقية وفاتته درجة القطبانية والقطب كذلك يقول اهدنا الصراط المستقيم فانه حصلت له رتبة القطبانية وفاته علم اذا شاء الله تعالى أن يطلعه عليه أطلعه وقال رضي الله تعالى عنه الفتوة الايمان قال الله سبحانه وتعالى انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وقال رضي الله تعالى عنه في قوله سبحانه وتعالى حاكيا عن الشيطان ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم لان فوقهم التوحيد وتحتهم الاسلام وقال رضي الله تعالى عنه التقوى في كتاب الله عز وجل على أقسام تقوى النار قال الله سبحانه وتعالى واتقوا النار وتقوى اليوم قال الله تعالى واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله وتقوى الربوبية قال الله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم وتقوى الالوهية وتقوى الله وتقوى الانية واتقون يا أولي الالباب وقال رضي الله تعالى عنه في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أي لا أفتخر بالسيادة وانما الفخر لي بالعبودية لله وكان كثيرا ما ينشد

يا عمرو ناد عبد زهراء * يعرفه السامع والرائي
لا تدعني الا بيا عبدها * فانه أشرف أسمائي

وقال رضي الله تعالى عنه في قول سمنون المحب

وليس لي في سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرني

الاولى أن يقول فكيفما شئت فاعف عني اذ طلب العفو أولى من طلب الاختبار وقال رضي الله تعالى عنه الزاهد جاء من الدنيا الى الآخرة والعارف جاء من الآخرة الى الدنيا وقال

وجدت في كتب التواريخ تنازعا في مولد النبي صلى الله عليه وسلم وفي عصر من كان من ملوك الروم فمنهم من ذهب الى ما قدمنا من مولده وهجرته ومنهم من رأى ان مولده عليه الصلاة والسلام كان في ملك نوسطورس الاول وكان ملكه تسعا وعشرين سنة (ثم ملك نوسطورس) وكان ملكه عشرين سنة (ثم ملك بعده) هرقل بن منطيوس وهو الذي في كتب الزيجات في النجوم وعليه يعمل أهل الحساب وفي تواريخ ملوك الروم ممن سلف وخلف أن ملك الروم كان في وقت ظهور الاسلام وأيام أبي بكر وعمر هرقل وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب التواريخ وأصحاب الاخبار والسير الا في اليسير منها وفي تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن مورق (ثم ملك بعده) قيصر بن قيصر وذلك في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه (ثم ملك على الروم هرقل ابن قيصر) وذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو الذي حاربه أمراء الاسلام الذين فتحوا الشام مثل أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من أمراء الاسلام حين أخرجوه من الشام

رضى الله تعالى العارف لادنيا له لان دنياه لآخرته وآخرته لربه وقال الزاهد غريب من الدنيا لان الآخرة وطنه والعارف غريب فى الآخرة قال بعض العارفين معنى الغربة فى كلام الشيخ رضى الله تعالى عنه أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريبا فى الدنيا اذ ليست وطنا لقلبه عاين الآخرة فاخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها وفيما شهد من عقوبتها ونكالها فتغرب فى هذه الدار وأما العارف فانه غريب فى الآخرة اذ كشف له عن صفات معروفة فاخذ قلبه فيما هنالك فصار غريبا فى الآخرة لان سره مع الله تعالى بلا أين فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم اليها يأوون وفيها يسكنون فان تنزلوا الى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالاذن والتمكين والرسوخ فى اليقين فلم ينزلوا الى الحظوظ بالشهوة ولم يصعدوا الى الحقوق بسوء الادب والغفلة بل كانوا فى ذلك كله بآداب الله تعالى وآداب رسله وأنبيائه متادبين وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين رضى الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين * وكلام سيدى الشيخ أبى العباس رضى الله تعالى عنه بحر لا ساحل له وكراماته كذلك وليراجع كتاب تلميذه ابن عطاء الله فان فيه من ذلك ما يشفى ويكفى وما بقى أكثر * ومن كراماته رضى الله تعالى عنه انه عزم عليه انسان وقدم اليه طعاما يختبره به فاعرض عنه ولم يأكله ثم التفت الى صاحب الطعام وقال له ان الحافظ المحاسبى رضى الله تعالى عنه كان فى اصبعه عرق اذا مد يده الى طعام فيه شبهة تحرك عليه وأنا فى يدى سبعون عرقا تتحرك على اذا كان مثل ذلك فاستغفر صاحب الطعام واعتذر الى الشيخ رضى الله تعالى عنه ونفعنا به *(ومنهم أبو اسحق الساحلى المعروف بالطويجن) بضم الطاء المهملة وفتح الواو وسكون التحتية وكسر الجيم وقيل بفتحها العالم المشهور والصالح المشكور والشاعر المذكور من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة وكان مع أمانته من أهل العلم فقيها متفننا متقنا وله الباع المديد فى الفرائض وأبو اسحق هذا كان فى صغره موثقا بسماط شهود غرناطة وارتحل عن الاندلس الى المشرق فحج ثم سار الى بلاد السودان فاستوطنها ونال جاها مكينا من سلطانها وبها توفى رحمه الله تعالى انتهى ملخصا من كلام الامير ابن الاحمر فى كتابه نثير الجمان فيمن نظمنى واياه الزمان * وقال أبو المكارم منديل بن آجروم حدثنى من يوثق بقوله ان أبا اسحق الطويجن كانت وفاته يوم الاثنين ٢٧ جمادى الاخيرة سنة ٧٤٧ بتنبكتو موضع بالصحراء من عمالة مالى رحمه الله تعالى ثم ضبط الطويجن بكسر الجيم قال وبذلك ضبطه بخط يده رحمه الله تعالى قال ومن نسبه للساحلى فانه نسبه لجده للام انتهى *(ومنهم الشيخ الاديب الفاضل المعمر ضياء الدين أبو الحسن على بن محمد بن يوسف بن عفيف الخزرجى الساعدى) من أهل غرناطة ويشهر بالخزرجى مولده ببيغة رحل عن الاندلس قديما واستقر أخيرا بالاسكندرية وبها لقيه الحافظ ابن رشيد غير مرة وقد اطال فى رحلته فى ترجمته الى أن قال وذكره صاحبنا أبو حيان وهو أحد من أخذ عنه ولقيه فقال تلا القرآن بالاندلس على أبى الوليد هشام بن واقف المقرى وسمع بها من أبى زيد الفازازى العشرينيات وسمع بمكة من شهاب الدين السهروردى صاحب عوارف المعارف

مورق بن مورق فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه وأيام معاوية بن أبى سفيان (ثم ملك بعده) قلفط بن مورق بقية ايام معاوية وكانت بينه وبين معاوية مراسلات ومهادنات وكان المختلف بينهما نياق الرومى غلام كان لمعاوية وقد كان معاوية هادن اباه مورق بن مورق حين سار الى حرب على بن ابى طالب رضى الله عنه وكان بشره بالملك واعلمه ان المسلمين تجتمع كلمتهم على قتل صاحبهم يعنى عثمان ثم يؤل الملك الى معاوية وقد كان معاوية يومئذ اميرا على الشام لعثمان فى خبر طويل قد اتينا على ذكره فى الكتاب الاوسط وان ذلك من علم الملاحم تتوارثه ملوك الروم عن أسلافهم وكان ملك قلفط بن مورق فى الآخر من أيام معاوية وأيام يزيد بن معاوية وأيام معاوية بن يزيد وأيام مروان بن الحكم وصدرا من أيام عبد الملك بن مروان (ثم ملك لاون) بن قلفط فى أيام عبد الملك بن مروان وكان الملك بعده جيرون بن لاون فى أيام الوليد بن عبد الملك وأيام سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز ثم اضطرب ملك الروم لما كان من أمر

وتلا

وتلا بالاسكندرية على أبى القاسم بن عيسى ولا يعرف له نظم فى أحد من العالم الا فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شعره يعارض الحريرى

أهن لاهل البدع * واهجر والتصنع * ودن بترك الطمع
ولذ بأهل الورع
وعد عن كل بذى * لم يكترث بالنبذ * والهج بصبر جهبذ
وعالم متضع
واندب زمانا قد سلف * ولم تجد منه خلف * وابعث بانواع الاسف
وسائل التضرع

وهى طويلة فلتراجع فى ملء العيبة لابن رشيد رحمه الله تعالى (ومنهم الفقيه الجليل العارف النبيل الحاذق الفصيح البارع أبو محمد عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر الشهير بابن سبعين العكى المرسى الاندلسى) ويلقب من الالقاب المشرقية بقطب الدين قال الشيخ المؤرخ ابن عبد الملك درس العربية والآداب بالاندلس ثم انتقل الى سبتة وانتحل التصوف وعكف برهة على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها فمالت اليه العامة ثم رحل الى المشرق وحج مجاوشاع ذكره وعظم صيته وكثر أشياعه وصنف أوضاعا كثيرة تلقوها منه ونقلوها عنه ويرمى بأمور الله تعالى أعلم بها وبحقيقتها وكان حسن الاخلاق صبورا على الاذى آية فى الايثار انتهى وقال غير واحد ان اغراض الناس فيه متباينة بعيدة عن الاعتدال فهم المرهق المكفر ومنهم المقلد المعظم الموقر وحصل بهذين الطرفين من الشهرة والاعتقاد والنفرة والانتقاد ما لم يقع لغيره والله تعالى أعلم بحقيقة أمره ومما ذكر الشريف الغرناطى عنه أنه كان يكتب عن نفسه ابن ه يعنى الدارة التى هى كالصفر وهى فى بعض طرق المغاربة فى حسابهم سبعون وشهر لذلك بابن دارة ضمن فيه البيت المشهور محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا * حسبما ذكره الشريف فى شرح مقصورة حازم وقد طال عهدى به فليراجعه من ظفر به وقال صاحب درة الاسلاك فى سنة ٦٦٩ ما صورته وفيها توفى الشيخ قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن سبعين المرسى صوفى متفلسف متزهد متقشف يتكلم على طريق أصحابه ويدخل البيت ولكن من غير أبوابه شاع أمره واشتهر ذكره وله تصانيف واتباع وأقوال يميل اليها بعض القلوب وتملها بعض الاسماع وكانت وفاته بمكة المشرفة عن نحو خمسين سنة تغمده الله تعالى برحمته انتهى وقال بعض الاعلام فى حق ابن سبعين انه كان رحمه الله تعالى عزيز النفس قليل التصنع يتولى خدمة الكثير من الفقراء والسفارة أصحاب العبادات والدفافيس بنفسه ويحفون به فى السكك ولما توفرت دواعى النقد عليه من الفقهاء كثر عليه التأويل ووجهت لالفاظه المعاريض وقلبت موضوعاته وتعاورته الوحشة وجرت بينه وبين الكثير من أعلام المشرق والمغرب خطوب يطول ذكرها ووقع فى رسالة لبعض تلامذة ابن سبعين المذكور وأظن اسمه يحيى ابن محمد بن أحمد بن سليمان وسماها بالوراثة المحمدية والفصول الذاتية ما صورته فان قيل ما الدليل على أن هذا الرجل الذى هو ابن سبعين هو الوارث المشار اليه قلنا عدم

مسلمة بن عبد الملك وغزو المسلمين اياهم فى البر والبحر فلما لوا عليهم رجلا من غير أهل بيت الملك من أهل مرعش يقال له جرجيس وكان ملكه تسع عشرة سنة ولم يزل ملك الروم مضطربا الى أن ملكهم قسطنطين بن اليون وذلك فى خلافة أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور واخيه (ثم ملك بعده) اليون بن قسطنطين وذلك فى أيام المهدى والهادى (ثم ملك بعده) قسطنطين بن اليون وكانت أمه اريني ملكة معه مشاركة له فى الملك لصغر سنه فى أيام هرون الرشيد فمات قسطنطين بن اليون وسملت عينا أمه بعد ذلك لاخبار يطول ذكرها (ثم ملك على الروم) يعفور بن اسدراق وكانت بينه وبين الرشيد مراسلات وغزاه الرشيد فاعطى القود من نفسه بعد بغى كان منه فى بعض مراسلاته فانصرف الرشيد عنه ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الانقياد وكتم عن الرشيد أمره لعارض علة كان وجدها بالرقة وفى انقياد يعفور الى الرشيد وحمله الاموال والهدايا والضريبة اليه يقول أبو العتاهية

امام الهدى أصبحت بالدين معنيا * وأصبحت تسقى كل مستمطر ريا
لك اسمان شقا من رشاد ومن هدى * فانت الذى تدعى رشيدا ومهديا

النظير واحتياج الوقت اليه وظهور الكلمة المشار اليها عليه ونصيحته لاهل الملة ورحمته المطلقة للعالم المطلق ومحبته لاعدائه وقصده لراحتهم مع كونهم يقصدون أذاه وعفوه عنهم مع قدرته عليهم وجذبهم الى الخير مع كونهم يطلبون هلاكه وهذه كلها من علامات الوراثة والتبعية المحضة التى لا يمكن أحدا أن يتصف بها الا بمجد أزلى وتخصيص الهى وها انا أصف لك بعض ماخصه الله سبحانه وتعالى به من الامور التى هى خارقة للعادة ونلغى عن الامور الخفية التى لا نعلمها ونقصد الامور الظاهرة التى نعلمها والتى لا يمكن أحدا أن يستريب فيها الا من أصمه الله تعالى وأعماه ولا يجحدها الا حسود وقد أتعب الله تعالى قلبه وأنساه رشده ونعوذ بالله ممن عاند من الله تعالى ساعده وأيده وهو معه بنصره وعونه فما أتعب معانده وما أسعد موادده وما أكبت مراددة فنبدأ بذكر ما وعدنا فنقول الاول فى شرفه واستحقاقه لما ذكرنا كونه خلقه الله تعالى من أشرف البيوت التى فى بلاد المغرب وهو بنو سبعين قرشيا هاشميا علويا وأبواه وجدوده يشار اليهم ويعوّل فى الرياسة والحسب والتعيين عليهم والثانى كونه من بلاد المغرب والنبى عليه السلام قال لا يزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين الى قيام الساعة وما ظهر من بلاد المغرب رجل أظهر منه فهو المشار اليه بالحديث ثم نقول أهل المغرب أهل الحق وأحق الناس بالحق وأحق المغرب بالحق علماؤه لكونهم القائمين بالقسط وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم الذى يدور الكل عليه ويعوّل فى مسائلهم ونوازلهم السهلة والعويصة عليه فهو حق المغرب والمغرب حق الله تعالى والمسئلة حق العالم فهو المشار اليه بالوراثة ثم نقول أهل المغرب ظاهرون على الحق أى على الدين والحق سر الدين والمحقق سر الحق فالمحقق سر الدين فهو المشار اليه بالوراثة ثم نقول أهل الله خير العالم وأهل الحق هم خير أهل الله والمحقق خير أهل الحق فالمحقق خير العالم فهو المشار اليه ثم نقول انظر فى بدايته وحفظ الله سبحانه له فى صغره وضبطه له من اللهو واللعب واخراجه من اللذة الطبيعية التى هى فى جبلة البشرية وتركه للرياسة العرضية المعول عليها عند العالم مع كونه وجدها فى آبائه وهى الآن فى اخوته وخروجه عن الاهل والوطن الذى قرنه الحق مع قتل الانسان نفسه وانقطاعه الى الحق انقطاعا صحيحا تعلم تخصيصه وخرقه للعادة ثم انظر فى تأيده وفتحه من الصغر وتأليف كتاب بدء العارف وهو ابن خمس عشرة سنة وفى جلالة هذا الكتاب وكونه يحتوى على جميع الصنائع العلمية والعملية وجميع الامور السنية والسنية تجده خارقا للعادة وفى نشأته فى بلاد الاندلس ولم يعلم له كثرة نظر وظهوره فيها بالعلوم التى لم تسمع قط تعلم أنه خارق للعادة وفى تواليفه واشتمالها على العلوم كلها ثم انفرادها وغرابتها وخصوصيتها بالتحقيق الشاذ عن أفهام الخلق تعلم أنه مؤيد بروح القدس وفى شجاعته وقوّته وتوكله فى عزمه ونصره اصنائعه وظهور حجته على خصمائه واقامة حقه وبرهانه وفصاحة كلامه وبيان سلطانه تعلم أن ذلك بقوّة الهية وعناية ربانية وفى امتحان أهل المغرب له واجتماعهم عليه فى كل بلد معتبر للمناظرة ويظهر الله تعالى حجته ويقمع خصمه ويكبت عدوّه ويعجز معارضه ويفحم معترضه وفى غيرة الحق عليه وهلاك من تعرض بالاذى اليه يعلم العاقل المخصوص

فاوسعت شرقيا وأوسعت غربيا
وغشيت وجه الارض بالجود والندى
فاصبح وجه الارض بالجود مغشيا
وأنت أمير المؤمنين فتى التقى
نشرت من الاحسان ما كان مطويا
قضى الله أن صفى لهارون ملكه
وكان قضاء الله فى الخلق مقضيا
تجببت الدنيا لهارون بالرضا
واصبح يعفور لهارون ذمّيا
فلما عوفى الرشيد من علته
دخل عليه بعض الشعراء
وقد هابه الناس أن يخبروه بغدر يعفور فقال
نقض الذى أعطاكه يعفور
فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه
فتح أتاك به الاله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا
بالنصر فيه لواؤك المنصور
فلقد تباشرت الرعية أن أتى
بالغدر عنه وافد وبشير
ورجت بيمنك أن تعجل غزوة
تشفى النفوس نكالها مذكور
يعفور انك حين تغدر أن نأى * عنك الامام لجاهل مغرور

انه عند الله مخصوص وفى خلقه وقهره لقواه النزوعية والغضبية واسلام قرينه وجلالة قوته الحافظة التى لاتنسى شيأ والمفكرة التى تتصور الذوات المجردة والمعلومة سرعين الطيف وكذلك الذاكرة وسرعة ظهوره وانتشار آيته واستجلاب ثنائه فى الجهات كلها وبالجملة جميع ماذكرت فيه هو خارق للعادة البشرية ومعجز لمعارضه من كل الجهات ولولا خوف التطويل لكنت أفصل كل صفة ذكرت فيه بالكلام الصناعى وتقيم الادلة القطعية على تعجيزها ولكن أعطيت الانموذج وعرفت ان النبيه يمعن فكره ويجد ذلك كله كما قلته وبالجملة جميع جزئياته اذا تؤملت توجد خارقة للعادة وتشهد لها ماهية الوجود بالتخصيص فصح انه هو المشار اليه والمعول فى جملة الامور عليه وانما أعطيت الامر المشهور وتركت مايعلم منه من خرق العوائد فى ظهور الطعام والشراب والسمن والتمر وأخذ الدراهم من الكون واخباره عن وقائع قبل وقوعها بسنين كثيرة وظهرت كما أخبر فصح انه هو المذكور انتهى ماتعلق به الغرض مما فى الرسالة فى شان الشيخ ابن سبعين وقد ذكر غير واحد من المؤرخين ومنهم لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة كما سيأتى قريبا أن ابن سبعين عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم اليها فعظم عليه بذلك الحمل وتبجحت الاحدوثة عنه انتهى لكن قال شهاب الدين بن أبى حجلة التلمسانى الاديب الشهير وهو صاحب كتاب السكردان وديوان الصبابة ومنطق الطير والاعتراض على العارف بالله تعالى ابن الفارض مامعناه أخبرنى الشيخ الصالح أبو الحسن بن برغوث التلمسانى شيخ المجاورين بمكة وكانت له معرفة تامة بهذا الرجل أنه صده عن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان اذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة على ساكنها الصلاة والسلام يهراق منه دم كدم الحيض والله تعالى أعلم بحقيقة أمره انتهى وقال غيره ثم زار النبى صلى الله عليه وسلم مستخفيا على طريق المشاة حدث بذلك أصهاره بمكة انتهى وقال لسان الدين أما شهرته ومحله من الادراك والآراء والاوضاع والاسماء والوقوف على الاقوال والتعمق فى الفلسفة والقيام على مذاهب المتكلمين فما يقضى منه بالعجب وقال الشيخ أبو البركات بن الحاج البلفيقى رحمه الله تعالى حدثنى بعض أشياخنا من أهل المشرق أن الامير أبا عبد الله بن هود سالم طاغية النصارى فنكث به ولم يف بشرطه فاضطره ذلك الى مخاطبة القس الاعظم برومية فوكل أبا طالب بن سبعين أخا أبى محمد عبد الحق بن سبعين فى التكلم عنه والاستظهار بين يديه قال فلما بلغ ذلك الشخص رومية وهو بلد لايصل اليه المسلمون ونظر الى مابيده وسئل عن نفسه فاخبر بما ينبغى كلم ذلك القس من دنا منه بكلام معجم ترجم لابى طالب بمعناه اعلموا ان أخا هذا ليس للمسلمين اليوم أعلم بالله منه انتهى وقال غير واحد انه ظهر منه واشتهرت عنه أشياء كثيرة الله تعالى أعلم باستحقاقه رتبة ماادعاه منها فمنها قوله فيما زعموا وقد جرى ذكر الشيخ ولى الله سيدى أبى مدين نفعنا الله تعالى ببركاته شعيب عبد عمل ونحن عبيد حضرة وممن حكى هذا لسان الدين فى الاحاطة وقد ذكر ابن خلدون فى تاريخه الكبير فى ترجمة السلطان المستنصر بالله تعالى أبى عبد الله محمد ابن السلطان زكريا ابن عبد الواحد بن أبى حفص ملك

قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الامام وان غفلنا غافلا
عما يسوس بحزمه ويدير
ملك يجود الى الجهاد بنفسه
فعدوه أبدا به مقهور
يامن يريد رضا الاله بسعيه
والله لايخفى عليه ضمير
لانصح ينفع من يغش امامه
والنصح من نصحائه مشكور
نصح الامام على الانام فريضة
ولاهله كفارة وطهور

وهى طويلة فلما أنشده اياها قال الرشيد أوقد فعل وعلم ان الوزراء قد احتالوا فتجهز وغزاه ونزل على هرقلة وذلك فى سنة تسعين ومائة واخبرنى أبو عمير عدى بن أحمد بن عبد الباقى الازدى ان الرشيد لما أراد النزول على هرقلة وكان معه أهل الثغور وفيهم شيخا الثغور الشامية مخلد بن الحسين وأبو اسحق الفزارى صاحب كتاب السير فخلا الرشيد بمخلد بن الحسين فقال أى شئ تقول فى نزولنا على هذا الحصن فقال هذا أول حصن لقيت من حصون الروم وهو فى نهاية المنعة فان نزلت عليه وسهل الله فتحه

افريقية وما اليها ان أهل مكة بايعوه وخطبوا له بعرفة وأرسلوا له بيعتهم وهي من انشاء ابن سبعين وسردها ابن خلدون بجملتها وهي طويلة وفيها من البلاغة والتلاعب باطراف الكلام ما لا مطمع وراءه غير أنه يشير فيها الى أن المستنصر هو المهدي المبشر به في الاحاديث الذي يحثو المال ولا يعده وحمل حديث مسلم وغيره عليه وذلك ما لا يخفى ما فيه فليراجع كلام ابن خلدون في محله ولابن سبعين من رسالة سلام عليك ورحمة الله سلام عليك ثم سلام مناجاتك سلام الله ورحمة الله الممتدة على عوالمك كلها السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته وصلى الله عليك كصلاة ابراهيم من حيث شريعتك وكصلاة أعز ملائكته من حيث حقيقتك وكصلاته من حيث حقه ورحمانيته السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا قياس الكمال ومقدمة العلم ونتيجة الحمد وبرهان المحمود ومن اذا نظر الذهن اليه قرأ نعم العبد السلام عليك يا من هو الشرط في كمال الاولياء وأسرار مشروطات الاذكياء الاتقياء السلام عليك يا من جاوز في السموات مقام الرسل والانبياء وزاد رفعة واستعلا على ذوات الملا الاعلى وذكر قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى * وقال بعضهم عند ايراده جملة من رسائله التي منها هذه انها تشتمل على ما يشهد له بتعظيم النبوة وايثار الورع انتهى * وقال بعض العلماء الاكابر عند تعرضه لترجمة الشيخ ابن سبعين المترجم به ما نصه ببعض اختصار هو أحد المشايخ المشهورين بسعة العلم وتعدد المعارف وكثرة التصانيف ولد سنة ٦١٤ ودرس العربية والادب بالاندلس ونظر في العلوم العقلية وأخذ عن أبي اسحق بن دهاق وبرع في طريقه وجال في البلاد وقدم القاهرة ثم حج واستوطن مكة وطار صيته وعظم أمره وكثر أتباعه حتى انه ترحم له أمير مكة فبلغ من التعظيم الغاية وله كتاب الدرج وكتاب السفر وكتاب الاجوبة اليمنية وكتاب الكد وكتاب الاحاطة ورسائل كثيرة في الاذكار وترتيب السلوك والوصايا والمواعظ والغنائم ومن شعره

كم ذا تموه بالشعبين والعلم * والامر أوضح من نار على علم
وكم تعبر عن سلع وكاظمة * وعن زرود وجيران بذي سلم
ظللت تسأل عن نجد وأنت بها * وعن تهامة هذا فعل متهم
في الحي حي سوى ليلى فتسأله * عنها سؤالك وهم جر للعدم

ونشأ رحمه الله تعالى ترفا مبجلا في ظل جاه ونعمة لم تفارق معها نفسه البأو وكان وسيما جميلا ملوكي البزة عزيز النفس قليل التصنع وكان آية من الآيات في الايثار والجود بما في يده رحمه الله تعالى * وقال في الاحاطة للناس في أمره اختلاف بين الولاية وضدها ولما وجه الى كلامه سهام الناقدين قصر أكثرهم عن مداه في الادراك والخوض في تلك البحار والاطلاع وساءت منهم في الممازجة له السيرة فانصرفوا عنه مكلومين ينذرون عنه في الآفاق من سوء القالة ما لا شيء فوقه وجرت بينه وبين اعلام المشرق خطوب وعاقه الخوف من أمير المدينة عن الدخول اليها الى ان توفي فعظم بذلك الحمل عليه وتجنت الاحدوثة عنه ولما وردت على سبتة المسائل الصقلية وكانت جملة من المسائل الحكمية وجهها علماء الروم تبكيتا للمسلمين

لم يتعذر عليك فتح حصن بعده فامره بالانصراف ودعا بابي اسحق الفزاري فقال له مثل ما قال لمخلد فقال يا أمير المؤمنين هذا حصن بناه الروم في بحر الدروب وجعلته ثغرا من الثغور وليس بالأهل فان أنت فتحته لم يكن فيه ما يعم المسلمين من الغنائم وان تعذر فتحه كان ذلك نقصا في التدبير والرأي عندي ان يسير أمير المؤمنين الى مدينة عظيمة من مدن الروم فان فتحت عمت غنائمها المسلمين وان تعذر ذلك قام العذر فمال الرشيد الى قول مخلد فنزل على هرقلة ونصب حولها الحرب تسعة عشر يوما فاصيب خلق كثير من المسلمين وفنيت الازواد والعلوفات وضاق صدر الرشيد من ذلك فاحضر أبا اسحق الفزاري فقال يا ابراهيم قد ترى ما نزل بالمسلمين فما الرأي الآن عندك فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أشفقت من هذا وقدمت القول فيه ورأيت ان يكون الجد والحرب من المسلمين على غير هذا الحصن والآن فلا سبيل الى الرحيل عنه من بعد المباشرة فيكون ذلك نقصا في الملك ووهنا في الدين واطماعا لغيره من الحصون في الامتناع عن المسلمين والمصابرة لهم لكن الرأي يا أمير المؤمنين ان تأمر بالنداء في الجيش ان أمير المؤمنين مقيم على

انتدب للجواب المقنع عنها على فتاء من سنه وبديهه من فكرته رحمه الله تعالى انتهى * وقال بعض من عرف به انه من أهل مرسية وله علم وحكمة ومعرفة ونباهة وبراعة وفصاحة وبلاغة * وقال فى عنوان الدراية رحل الى العدوة وسكن بجاية مدة ولقى من أصحابنا ناسا وأخذوا عنه وانتفعوا به فى فنون خاصة له مشاركة فى معقول العلوم ومنقولها وله فصاحة لسان وطلاقة قلم وفهم جنان وهو أحد العلماء الفضلاء وله أتباع كثيرة من الفقراء ومن عامة الناس وله موضوعات كثيرة هى موجودة بايدى أصحابه وله فيها الغاز واشارات بحروف أبجد وله تسميات مخصوصة فى كتبه هى نوع من الرموز وله تسميات ظاهرة هى كالاسامى المعهودة وله شعر فى التحقيق وفى مراقى أهل الطريق وكتابته مستحسنة فى طريق الادباء وله من الفضل والمزية ملازمته لبيت الله الحرام والتزامه الاعتمار على الدوام وحجه مع الحجاج فى كل عام وهذه مزية لا يعرف قدرها ولا يرام ولقد مشى به للمغاربة فى الحرم الشريف حظ لم يكن لهم فى غير مدته وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله ويهتدون بافعاله * توفى رحمه الله تعالى يوم الخميس تاسع شوال سنة ٦٦٩ انتهى ببعض اختصار

وذكر رحمه الله تعالى فى ترجمة تلميذه الشيخ أبى الحسن الششترى السابق الذكر ان أكثر الطلبة يرجحونه على شيخه أبى محمد بن سبعين واذا ذكر له هذا يقول انما ذلك لعدم اطلاعهم على حال الشيخ وقصور باعهم * ومن تآليف ابن سبعين الفتح المشترك ومما حكاه صاحب عنوان الدراية فى ترجمة الششترى مما لم نذكره فى ترجمته الماضية ورأينا ذكره هنا تبركا أن الششترى كان فى بعض أسفاره فى البرية وكان رجل من أصحابه قد أسر فسمعه الفقراء يقول الينا يا أحمد فقيل له من أحمد الذى ناديته يا سيدى فى هذه البرية فقال لهم من تسرون به غدا ان شاء الله تعالى فلما كان من الغد ورد الشيخ وأصحابه بلد قابس فعند دخولهم اذا بالرجل الماسور فقال الشيخ للفقراء هنيئا لنا باقتحام العقبة صافحوا أخاكم المنادى به ومن مناقبه نفع الله تعالى به أنه لما نزل بلدة قابس برباط البحر المعروف بالصهريج جاءه الشيخ الصالح أبو اسحق الزرناتى نفع الله تعالى به بجميع أصحابه برسم الزيارة فوافق وصوله وصول الشيخ الصالح الفاضل الولى أبى عبد الله الصنهاجى نفع الله تعالى به مع جملة أصحابه للزيارة فوجدوا الشيخ أبا الحسن قد خرج الى موضع بخارج المدينة برسم الخلوة فجلسوا لانتظاره فلم يكن الا قليل اذ أقبل الشيخ على هيئة معتبر متفكر فلما دخل الرباط سلم على الواصلين برسم الزيارة وحيا المسجد وأقبل على الفقراء وأثر العبرة على وجنته فقال ائتونى بدواة فلما أحضر بين يديه تاوه تاوها شديدا كاد أن يحرق بنفسه جليسه وجعل يكتب على اللوح هذه الابيات

لا تلتفت بالله يا ناظرى * لاهيف كالغصن الناضر
ياقلب واصرف عنك وهم البقا * وخل عن سرب حمى حاجر
ما السرب والبان وما لعلع * ما الخيف ما ظبى بنى عامر
جمال من سميته داثر * ما حاجة العاقل بالداثر
وانما مطلبه فى الذى * هام الورى فى حسنه الباهر

هذا الحصن الى أن يفتحه الله عزوجل على المسلمين و تأمر بقطع الخشب و جمع الاحجار و بناء مدينة بازاء هذا الحصن الى أن يفتحه الله عزوجل ولا يكون هذا الخبر ينمو الى أحد من الجيش الا على المقام فان النبى صلى الله عليه وسلم قال الحرب خدعة وهذه حرب حيلة لا حرب سيف فأمر الرشيد من ساعته بالنداء فحملت الاحجار وقطع الخشب من الشجر وأخذ الناس فى البناء فلما رأى اهل الحصن ذلك جعلوا يتسللون فى الليل ويدلون أنفسهم بالحبال وفى خبر أبى عمير بن عبد الباقى زيادات منها خبر الجارية التى سباها الرشيد من هذا الحصن وهى ابنة بطريقه وكانت ذات حسن وجمال فزاد فيها صاحب الرشيد فى المغنم وبالغ فيها حتى اشتراها له فبلغت من قلبه وبنى لها نحو الرافقة باميال على طريق بالس حصنا سماه هرقلة يحاكى به حصن هرقلة ببلاد الروم فى خبر طويل قد أتينا على جميعه فى كتابنا الاوسط وهذا الحصن باق الى هذه الغاية هنالك خراب يعرف بهرقلة وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد قال أخبرنى أبو العيناء قال أخبرنى شبل الترجمان قال كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة وفتحها فرأيت بها حجرا منصوبا

أفاد للشمس سنى كالذى * أعاره للقمر الزاهر
أصبحت فيه مغرما حائرا * لله در المغرم الحائر

و كانوا يوما ببلد مالقة و كثيرا ما يجوّد عليه القرآن العزيز فقرأ طالب قوله تعالى انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني فقال مجلا رضي الله تعالى عنه وفهم من الآية ما لم يفهم وعلم منها ما لم يعلم

انظر للفظ أنا يا مغرما فيه * من حيث نظرتنا لعل تدريه
خل ادخالك لا تفخر بعارية * لا يستعير فقير من مواليه
جسوم أحرفه للسر حاملة * ان شئت تعرفه جرب معانيه

ودخل عليه شخص ببجاية من أهلها يعرف بابي الحسن بن علال من أهل الامانة والديانة فوجده يذاكر بعض أهل العلم فاستحسن منه ايراده للعلم واستعماله لمحاضرة الفهم فاعتقد شيأ اختبه وتقديمه ثم نوى أن يؤثر الفقراء من ماله بعشرين دينارا اشكر الله تعالى ويأتيهم بمأكول فلما يسر جميع ما اهتم به أراد أن يقسمه فيعطيه شطره ويدع الشطر الثاني الى حين انصراف الشيخ ليكون للفقراء زادا فلما كان في الليل رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما قال الرجل فنهضت اليه بسرور رؤية النبي صلى الله عليه وسلم وقلت يا رسول الله ادع الله تعالى لي فالتفت لابي بكر رضي الله تعالى عنه وقال يا أبا بكر أعطه فاذا به رضي الله تعالى عنه قسم رغيفا كان بيده وأعطاني نصفه ثم أفاق الرجل من منامه وأخذه وجد من هذه الرؤيا المباركة فأيقظ أهله واستعمل نفسه في العبادة فلما كان من الغد سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدراهم المحتسب بها فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ يا علي اقرب فلما اقرب قال له يا علي لو أتيت بالكل لاخذت منه الرغيف بكماله انتهى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الشهير بابن غصن الاشبيلي) من ولد شداد بن أوس الانصاري الجزيري نسبة الى الجزيرة الخضراء الامام المقرى الزاهد عرض على الاستاذ ابن أبي الربيع الموطأ من حفظه وأخذ عنه النحو وكان من أولياء الله تعالى الصالحين وعباده الناصحين آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر قوالا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم عارفا بمتون الحديث وأحكامه فقيها عارفا متقنا لمذاهب الأئمة الاربعة والصحابة والتابعين لا يقبل من أحد شيأ مخلصا لله تعالى يتكلم على المنبر على عادة أهل العلم من تعليم المسائل الدينية وأقرأ القرآن بمكة مدة بالقرا آت وبالمدينة وبيت المقدس وممن قرأ عليه خليل امام المالكية بالحرم والشهاب الطبري امام الحنفية بالحرم وله مصنفات في القرا آت منها مختصر الكافي وكتاب في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ومولده سنة ٦٣١ تخمينا وتوفي ببيت المقدس آخر سنة ٧٢٣ رحمه الله تعالى *(ومنهم الشيخ الفقيه الاستاذ النحوي التاريخي اللغوي أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهري اللبلي يكنى أبا العباس وأبا جعفر) قرأ بالاندلس على مشايخ من أفضلهم الاستاذ أبو علي عمر الشلوبين ثم ارتحل الى العدوة وسكن بجاية وأقرأ بها مدة وارتحل الى المشرق فحج ثم رجع الى حضرة تونس واتخذها وطنا واشتغل بها بالاقراء الى أن مات كان يتبسط لاقراء سائر كتب العربية وله علم جليل باللغة وله

تواليف

مكتوبا عليه باليونانية فجعلت أترجمه والرشيد ينظر الي وأنا لا أعلم فكانت ترجمته بسم الله الرحمن الرحيم يا ابن آدم غافص الفرصة عند امكانها وكل الامور الى وليها ولا يحملنك افراط السرور على المأثم ولا تحمل نفسك هم يوم لم يأت فانه ان يك من أجلك وبقية عمرك يأت الله فيه برزقك ولا تكن من المغرورين بجمع المال فكم قد رأينا جامعا لبعل حليلته ومقترا لنفسه موفرا لخزانة غيره وقد كان تاريخ هذا الكتاب في ذلك اليوم زائدا على ألفي سنة وباب هرقلة مطل على واد وخندق يطيف بها وذكر جماعة من أهل الخبرة من أهل الثغور أن اهل هرقلة لما اشتد بهم الحصار وعضتهم الحرب بالحجارة والسهام والنار فتحوا الباب فاستشرف المسلمون لذلك فاذا رجل من اهلها كاجمل الرجال قد خرج في اكمل السلاح فنادى يا معشر العرب قد طالت مواقفتكم ايانا فليخرج الى منكم الرجل والعشرة الى العشرين مبارزة فلم يخرج اليه من الناس أحد ينتظرون اذن الرشيد وكان الرشيد نائما فلما استيقظ أخبر بذلك فتأسف ولام خدمه على تركهم ايقاظه فقيل له يا امير المؤمنين ان امتناع الناس منه يطمعه و يطغيه ويجرئه أن يخرج في غد

تواليف كثيرة منها على الجمل وشرح الفصيح لثعلب ولم يشذ فيه شئ من فصيح كلام العرب قال الغبريني رحمه الله تعالى ورأيت له تأليفا فى الاذكار وله عقيدة فى علم الكلام ورأيت له مجموعا سماه الاعلام بحدود قواعد الكلام تكلم فيه على الكلم الثلاث الاسم والفعل والحرف وله تواليف أخر وكان من أساتيذ افريقية فى وقته وممن أخذ عنه واستفيد منه انتهى* وذكر الشيخ أبو الطيب بن علوان التونسى عن والده أحمد التونسى الشهير بالمصرى أن المذكور تأليفا سماه التجنيس وله شرح أبيات الجمل سماه وشى الحلل رفعه للملك المستنصر الحفصى بتونس فدفعه المستنصر للاستاذ أبى الحسن حازم وأمره أن يتعقب عليه ما فيه من خلل وجده فحكى أبو عبد الله القطان المسفر وكان يخدم حازما قال كنت يوما بدار أبى الحسن حازم وبين يديه هذا الكتاب فسمعت نقر الباب فخرجت فاذا بالفقيه أبى جعفر فرجعت وأخبرت أبا الحسن فقام مبادرا حتى أدخله وبالغ فى بره واكرامه فرأى الكتاب بين يديه فقال له يا أبا الحسن قال الشاعر * وعين الرضا عن كل عيب كليلة * فقال له يا فقيه أبا جعفر أنت سيدى وأخى ولكن هذا أمر الملك لا يمكن فيه الا قول الحق والعلم لا يحتمل المداهنة فقال له فأخبرنى بما عثرت عليه قال له نعم فأظهر له مواضع فسلمها أبو جعفر وبشرها وأصلحها بخطه وأصل هذا اللبلى من لبلة بالاندلس اجتمع فى رحلته للمشرق بالقاضى ابن دقيق العيد وكان نحويا فلما دخل عليه اللبلى قال له القاضى خير مقدم ثم سأله بعد حين بم انتصب خير مقدم فقال له اللبلى على المصدر وهو من المصادر التى لا تظهر أفعالها وقد ذكره سيبويه ثم سرد عليه الباب من أوله الى آخره فانه كان يحفظ أكثره فأكرمه القاضى وعظمه ثم قال ابن علوان وذكر والدى أيضا رحمه الله تعالى ومن خطه المبارك نقلت ان الاستاذ أبا جعفر اللبلى المذكور رحمه الله تعالى قرأ عليه يوما قول امرئ القيس

حى الحمول بجانب العزل * اذ لا يلائم شكلها شكلى

فقال لطلبته ما العامل فى هذا الظرف يعنى اذ فتنازعوا القول فقال حسبكم قرئ هذا البيت على استاذنا أبى على الشلوبين فسألنا هذا السؤال وكان أبو الحسن بن عصفور قد برع واستقل وجلس للتدريس وكان الشلوبين يغض منه فقال لنا اذا خرجتم فاسألوا ذلك الجاهل يعنى ابن عصفور فلما خرجنا سرنا اليه بجمعنا ودخلنا المسجد فرأيناه قد دارت به حلقة كبيرة ولم يتكلم بغرائب النحو فلم نجسر على سؤاله لهيبته وانصرفنا ثم جئنا بعد على عادتنا الى أبى على فنسى حتى قرئ عليه قول النابغة * فعد عما ترى اذ لا ارتجاع له * فتذكر وقال ما فعلتم فى سؤال ابن عصفور فصدقناه الحديث فأقسم أن لا يخبرنا ما العامل فيه ثم قال اللبلى لطلبته وأنا أقول لكم مثل ذلك فانظروا لأنفسكم قالوا فنظرنا فاذا المسئلة مسئلة فحص ونظر كلما حكمنا بحكم صدتنا عنه قوانين نحوية حتى مضت مدة طويلة فوفد علينا بتونس المحروسة أحد طلبة ابن أبى الربيع وكان ابن أبى الربيع هذا استاذنا بسبتة وهو أحد طلبة الشلوبين أيضا ومن كبار هذه الطبقة التى نشأت بعده قالوا فتذاكرنا مع هذا الطالب فى مسائل نحوية فمرت هذه المسئلة

فيطلب المبارزة ويعود لمثل قوله فطالت على الرشيد ليلته وأصبح كالمنتظر له اذ فتح الباب فاذا الفارس قد خرج وعاد الى كلامه فقال الرشيد من له فابتدر جلة القواد فعزم على اخراج بعضهم فضج أهل الثغور والمتطوعة بباب المضرب فاذن لبعضهم وفى مجلسه مخلد بن الحسين وابراهيم الفزارى فدخلوا فقالوا يا أمير المؤمنين قوادك مشهورون بالبأس والنجدة وعلو الصيت ومباشرة الحروب ومتى خرج واحد منهم وقتل هذا العلج لم يكبر ذلك وان قتله العلج كانت وضيعة على العسكر عظيمة وثلمة لا تنسد ونحن عامة لا يرتفع لاحد منا صيت فان رأى امير المؤمنين أن يختار رجلا منا يخرج اليه فعل فصوب الرشيد رأيهم وقال مخلد وابراهيم صدقوا يا أمير المؤمنين فأومؤا الى رجل منهم يعرف بابن الجزرى مشهور فى الثغور موصوف بالنجدة فقال له الرشيد أتخرج اليه قال نعم وأستعين بالله عليه فقال أعطوه فرسا وسيفا ورمحا وترسا فقال يا أمير المؤمنين أنا بفرسى أوثق ورمحى فى يدى اشد ولكن قد قبلت السيف والترس فلبس السلاح واستدناه الرشيد وأتبعه بالدعاء وخرج معه عشرون من المتطوعة فلما انقض فى الوادى قال لهم العلج

فى قوله تعالى اذ نسويكم برب العالمين فقال هذا الطالب ان هذا الظرف وقع موقع لام العلة فعلمنا أن هذا هو الذى أراد الاستاذ أبو على ثم ناقشنا الطالب وقلنا له اذا جعلته ظرفا فلابد من العامل واذا جعلته واقعا موقع الحرف كان هذا على شذوذ قول الكوفيين والذى يجوز عكسه على مذهب الجميع وانما الاولى أن يقال اذ حرف معناه التعليل تشترك فيه الاسماء كما اشتركت فى عن والله أعلم بغيبه انتهى * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبى) قال الحافظ المقريزى وفرح بسكون الراء وقال الحافظ عبد الكريم فى حقه انه كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين فى الدنيا المشتغلين بما يعنيهم من أمور الآخرة فيما بين توجه وعبادة وتصنيف جمع فى تفسير القرآن كتابا خمسة عشر مجلدا وشرح أسماء الله الحسنى فى مجلدين وله كتاب التذكرة فى أمور الآخرة فى مجلدين وشرح التقصى وله تآليف غير ذلك مفيدة وكان مطرح التكلف يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية سمع من الشيخ أبى العباس أحمد بن عمر القرطبى صاحب المفهم فى شرح مسلم بعض هذا الشرح وحدث عن أبى الحسن على بن محمد بن على بن حفص اليحصبى وعن الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد البكرى وغيرهما وتوفى بمنية ابن خصيب ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ ودفن بها رحمه الله تعالى * وفى تاريخ الكتبى فى حقه ما نصه كان شيخا فاضلا وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه منها تفسير القرآن مليح الى الغاية اثنا عشر مجلدا انتهى * وكتب بعض تلامذته على الهامش ما صورته قد أجحف المصنف فى ترجمته جدا وكان متقنا متبحرا فى العلم انتهى * وكتب بعض باثر هذا الكلام ما نصه قال الذهبى رحل وكتب وسمع وكان يقظا فهما حسن الحفظ مليح النظم حسن المذاكرة ثقة حافظا انتهى * وكتب آخر اثر ذلك الكلام ما صورته مشاحة شيخنا للمصنف فى هذه العبارة ما لها فائدة فان الذهبى قال فى تاريخ الاسلام العلامة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الامام القرطبى امام متفنن متبحر فى العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله ثم ذكر موته وقال بعده وقد سارت بتفسيره العظيم الشان الركبان وله الاسنى فى شرح الاسماء الحسنى والتذكرة وأشياء تدل على امامته وذكائه وكثرة اطلاعه انتهى * وكتب آخر باثر هذا الكلام ما نصه غفر الله لك اذا كان الذهبى ترجمه بما ذكرت وهو والله فوق ذلك فكيف تقول ان مشاحة شيخك لا فائدة فيها وتسىء الادب معه وتقول ان كلامه لا فائدة فيه فالله يستر عليك انتهى * (ومنهم أبو القاسم بن حاضر الجزيرى الخزرجى محمد بن أحمد) من جزيرة شقر قدم مصر وسكن قوص بعدما كان من عدول بلنسية وكان فصيحا عالما بصناعة التوريق وله نظم لم يحضر فى الآن شىء منه ومات بالقاهرة سنة تسع وثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو القاسم التجيبى محمد بن أحمد التجيبى) من أهل بلش قرأ على ابن مفرج وابن أبى الاحوص ورحل فاستوطن القاهرة وكان شيخا فاضلا خيرا له أدب وشعر منه قوله من أبيات

أحوى الجفون له رقيب أحول * الشئ فى اداركه شيآن

انما كان الشرط عشرين وقد ازددتم رجلا ولكن لا باس فنادوه ليس يخرج وهو يعدهم واحدا واحدا لك منا الا رجل واحد فلما فصل منهم ابن الجزرى تأمله العلج وقد أشرف أكثر الروم من الحصن يتأملون صاحبهم فقال له الرومى أتصدقنى عما أسألك عنه قال نعم قال أنت ابن الجزرى بالله قال اللهم نعم قال فكفؤ له قال بلى كفؤ ثم أخذا فى شأنهما فتطاعنا حتى طال الامر بينهما وكادا الفرسان أن يقوما تحتهما وليس واحد منهما خدش صاحبه ثم رميا برمحيهما هذا نحو أصحابه وهذا نحو حصنه وانتضيا سيوفهما وقد اشتدت الحرب عليهما وتبلد جوادا هما فجعل ابن الجزرى يضرب الرومى الضربة التى يظن انه قد بالغ فيها فيتقيها الرومى وكانت درقته حديدا فيسمع لها صوت منكر ويضرب به الرومى فيغوص سيفه لان ترس ابن الجزرى كانت لمطانية وكان العلج يخاف أن يغوص السيف فيعطب فلما يئس كل واحد منهما من صاحبه انهزم ابن الجزرى فداخلت الرشيد والمسلمين من ذلك كآبة لم يصبهم مثلها وعطعط المشركون من حصنهم وانما كانت حيلة من ابن الجزرى فاتبعه العلج وعلا عليه فلما تمكن منه ابن الجزرى رماه

ياليته ترك الذى أنا مبصر * وهو المخبر فى الغزال الثانى

ولد بياش سنة ٦٢٣ وتوفى بالحسينية خارج القاهرة سلخ المحرم سنة ٦٩٥ وممن روى عنه نحوى الزمان أثير الدين أبو حيان وغيره رحم الله تعالى الجميع * (ومنهم أبو بكر الخزرجى محمد بن أحمد بن حسن وقيل محمد بن عيسى المالقى المالكى) قال الشريف أبو القاسم انه كان أحد الزهاد الورعين وعباد الله المتقين مشتغلا بنفسه متخليا عما فى أيدى الناس يأكل من كسب يده ولا يقبل لاحد شيأ مع وجد وعلم وعمل وفضل وأدب ولم يكن فى زمانه من اجتمع فيه ما اجتمع له وقال الحافظ عبد الكريم انه دخل اشبيلية واشتغل بالعربية على الشلوبين وقرأ القراآت السبع ثم قدم مصر واشتغل بمذهب مالك وكان والده نجارا وكان لا يأكل الا من كسب يده يخيط الثياب فازدحم الناس عليه تبركا به فترك ذلك وصار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل عنه وكان شديد الزهد كثير العبادة لا يسلم يده الى أحد ليقبلها وجاءه شخص قد زيد عليه فى أجرة مسكنه ليشفع الى صاحب الدار أن لا يقبل الزائد فمضى الى صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر فعلم بذلك الساكن بعد مدة فقال له ياسيدى ما سألت الا الشفاعة وأنت تزن عنى فقال له رجل له دار يأخذ أجرتها يجىء اليه الخزرجى يقطع عليه حقه والله ما يدفع هذا الا أنا فلم يزل يدفع الزائد الى أن انتقل الساكن الى غيرها ومات ليلة الاثنين الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٦٥١ عن خمس وأربعين سنة ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى ونفعنا به * (ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن خليل بن فرح الهاشمى مولاهم) لان ولاءه لبنى العباس من أهل قرطبة ولد فى شهر رمضان سنة ٣٢٢ بقرطبة وسمع بها من وهب بن مسرة وخالد بن سعيد وغيره ورحل فحج وأدرك بمصر ابن الورد وابن رشيق وأبا على بن السكن ونظراءهم فى سنة ٣٤٩ وعاد الى بلده وبها مات فى شهر رمضان سنة ست وأربعمائة قال ابن بشكوال كان رجلا صالحا فاضلا من أهل الاجتهاد فى العبادة مائلا الى التقشف والزهادة قديم الطلب حسن المذهب متبعا للسنن * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن سلمان بن أحمد بن ابراهيم الزهرى الاندلسى الاشبيلى) ولد بمالقة وطاف الاندلس وطلب العلم وحصل طرفا صالحا من علم الادب ودخل مصر قبل التسعين وخمسمائة فسمع الحديث بها ودخل الشام وبلاد الجزيرة وقدم بغداد سنة ٥٠٩ وعمره ثلاثون سنة وأقام بها مدة وسمع من شيوخها كأبى الفرج بن كليب ونحوه وقرأ ونسخ بخطه وسافر الى أصبهان وبلاد الجبل وكان فاضلا حسن المعرفة بالادب يقول الشعر وينشئ المقامات وصنف كتاب البيان والتبيين فى انساب المحدثين ستة أجزاء وكتاب البيان فيما أبهم من الاسماء فى القرآن مجلد وكتاب أقسام البلاغة وأحكام الصناعة فى مجلدين وكتاب شرح الايضاح لابى على الفارسى فى خمسة عشر مجلدا وكتاب شرح المقامات مجلد وكتاب شرح اليمينى فى مجلد قال المنذرى توفى شهيدا قتله التتار فى رجب وقال ابن النجار فى سابع عشر رجب ٦١٧ رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الاعلى ابن القاسم القرطبى المقرى المعروف بالورشى) نسبة الى قراءة ورش لاشتهاره بها وهو أحد القراء المعروفين قال الحاكم هو من الصالحين المذكورين بالتقدم فى علم القراآت سمع بمصر

بوهق فاختطفه من سرجه ثم عطف عليه فما وصل الى الارض حتى فارقه رأسه وكبر المسلمون وانكسر المشركون وبادروا الباب ليغلقوه واتصل الخبر بالرشيد فصاح بالقواد أن يجعلوا فى حجارة المجانيق النار فليس عند القوم دفع بعدها وعاجلهم المسلمون الى الباب فدخلوها بالسيف وقيل انهم نادوا بالامان فأمنوا وافتتاحها عنوة أشهر من قول من قال انها افتتحت صلحا فقال فى ذلك الشاعر المكى

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا
حوائما ترتمى بالنفط والنار
كأن نيرانها من جنب قلعتهم
مصقلات على ارسان قصار

وهذا كلام ضعيف ولكن قد عظم قدره فى ذلك الوقت للمعنى وعظمت لصاحبه الجائزة وصبت الاموال على ابن الجزرى وقود وخلع عليه فلم يقبل شيأ من ذلك وسأل أن يعفى ويترك على ما هو عليه ففى ذلك يقول الشاعر أبو العتاهية

ألا نادت هرقلة بالخراب
من الملك الموفق للصواب
غدا هرون يرعد بالمنايا
ويبرق بالمذكرة العضاب
وأبشر بالغنيمة والاياب
ورايات يحل النصر فيها * تمر كأنها ر السحاب
امير المؤمنين ظفرت فاسلم *

والشام والحجاز والعراقين والجبل وأصبهان وورد نيسابور ودخل خراسان فسمع على ابن المرزبان باصبهان وبالاهواز عبد الواحد بن خلف الجنديسابورى و بفارس أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقى وقال ابن النجار قدم بغداد وحدث بها توفى بسجستان فى ربيع الاول سنة ٣٩٣ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد الباجى اللخمى) قال ابن بشكوال مولده فى صفر سنة ٣٥٦ وسمع عن جده ورحل الى المشرق وقال ابن غلبون فى مشيخته انه كان من أهل العلم والحديث والرواية والحفظ للمسائل قائما بها واقفا عليها عاقدا للشروط محسنا لها عارفا و بيتهم بيت علم ونباهة هو وأبوه وجده وكان جميعهم فى الفضل والتقدم على درجاتهم فى السن وعلى منازلهم فى السبق وكانت رحلته مع أبيه وروايتهما واحدة وشاركه فى السماع والرواية عن جده وسمع بمصر من أبى الحسن أحمد بن عبد الله بن حميد بن زريق المخزومى وقال ابن بشكوال كان من أجل الفقهاء عندنا دراية ورواية بصيرا بالعقود ومتقدما على أهل الوثائق عارفا بعللها وألف فيها كتابا حسنا وكتابا فى السجلات الى ما جمع فيه من أقوال الشيوخ والمتأخرين مع ما كان عليه من الطريقة المثلى وتوفية العلم حقه من الوفاء والتصون توفى فى المحرم سنة ٤٣٣ لعشرين بقين منه *(ومنهم أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عبد العزيز العتبى الاندلسى القرطبى الفقيه المالكى المشهور صاحب العتبية) سمع بالاندلس من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وغيرهما ورحل الى المشرق فسمع من سحنون وأصبغ بن الفرج وغيرهما وكان حافظا للمسائل جامعا لها عالما بالنوازل وهو الذى جمع المستخرجة من الاسمعة المسموعة غالبا من مالك بن أنس وتعرف بالعتبية وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة وكان يؤتى بالمسئلة الغريبة فاذا سمعها قال أدخلوها فى المستخرجة ولذا روى عن ابن وضاح انه كان يقول المستخرجة فيها خطأ كثير كذا قال ولكن الكتاب وقع عليه الاعتماد من علماء المالكية كابن رشد وغيره * قال ابن يونس توفى بالاندلس سنة ٢٥٥ والعتبى نسبة الى عتبة بن أبى سفيان بن حرب وقيل الى جد للمذكور يسمى عتبة وقيل الى ولاء عتبة بن يعيش *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن زكريا المعافرى المقرى الفرضى الاديب) ولد بالاندلس سنة ٥٩١ ونشأ ببلنسية وأقام بالاسكندرية وقرأ القرآن على أصحاب ابن هذيل ونظم قصيدة فى القرا آت على وزن الشاطبية لكن أكثر أبياتا وصرح فيها بأسماء القراء ولم يرمز كما فعل الشاطبى وكانت له يد فى الفرائض والعروض مع معرفة القرا آت والادب ومن شعره

اذا ما اشترت بنت أباها فعتقه * بنفس الشرا شرعا عليها تأصلا
وميراثه ان مات من غير عاصب * ومن غير ذى فرض لها قد تأثلا
لها النصف بالميراث والنصف بالولا * فان وهب ابنا أو شراه تفضلا
فأعتق شرعا ذلك الابن مالها * سوى الثلث والثلثان للاخ أصلا
وميراثها فيه اذا مات قبلها * كميراثها فى الاب من قبل يجتلى
ومولى أبيها مالها الدهر فيه من * ولاء ولا ارث مع الاب فاعتلى

وهذه المسئلة ذكر الغزالى فى الوسيط انه قضى فيها أربعمائة قاض وغلطوا وصورتها ابنة

وللرشيد مع يعفور هذا بعد ذلك أخبار كثيرة قد أتينا على مبسوطها فى كتابنا الاوسط وما كان من خبره فى ارساله ليحيى بن الشخير حين أمره ان يتطارش على يعفور وما كان من يعفور واخباره لبطارقته أن الرشيد بعث بهذا متصامما وما طالبه ابن الشخير بدينار أو درهم عليه صورة الملك حين عرضت عليه الخزائن وما كان من انقياد يعفور بعد ذلك الى طاعة الرشيد وشرطه عليه ان يحمل اليه اينما كان من ماء عين العشيرة وهى عين البذندون وهى فى نهاية الصفاء والرقة وغير ذلك مما عنه امسكنا طلبا للاختصار (ثم ملك بعد يعفور) استراق بن يعفور بن استراق فى أيام محمد الامين فلم يزل ملكا حتى غلب على الملك قسطنطين فلفط وكان ملك قسطنطين هذا فى خلافة المامون (ثم ملك بعده) نطرنوفيل وذلك فى خلافة المعتصم وهو الذى فتح زبطرة وغزاه المعتصم بالله ففتح عمورية وسنورد خبره فيما يرد من هذا الكتاب فى أخبار المعتصم ان شاء الله تعالى (ثم ملك بعده) ميخاييل بن نوفيل وذلك فى خلافة الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين ثم كان بين الروم تنازع فى الملك فملكوا عليهم نوفيل بن ميخاييل بن نوفيل (ثم غلب على الملك نسيل)

اشترت أباها فعتق عليها ثم اشترى الاب ابنا فعتق عليه ثم اشترى عبدا فأعتقه ثم مات الاب فورثه الابن والبنت للذكر مثل حظ الانثيين ثم مات العبد المعتق فلمن يكون ولاؤه وفرضها المالكية على غير هذا الوجه وهى مشهورة * (ومنهم محمد بن أحمد بن محمد بن سهل أبو عبد الله الاموى الاندلسى الطليطلى المعروف بالنقاش) نزل مصر وقعد للاقراء بجامع عمرو بن العاصى وأخذ عنه جماعة وتوفى بمصر سنة ٥٢٩ (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسى القبرى القرطبى المؤدب) رحل من الاندلس سنة ٣٤٢ فسمع بمصر من أبى محمد بن الورد وأبى قتيبة سالم بن الفضل البغدادى وغيره وكان صالحا خيرا مؤدبا سمع من الناس وتوفى سنة ٣٦٢ والقبرى بفتح القاف وسكون الباء الموحدة ثم راء مهملة نسبة الى قبرة بلد بالاندلس بقرب قرطبة بنحو ثلاثين ميلا * (ومنهم جمال الدين أبو بكر الوايلى محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن سجمان الشريشى المالكى) ولد بشريش سنة ٦٠١ ورحل فسمع بالاسكندرية من ابن عمار الحرانى وبدمشق من مكرم بن أبى الصقر وبحلب من أبى البقاء يعيش بن على النحوى وسمع باربل وبغداد وأقام بالمدرسة الفاضلية من القاهرة مدة يفيد الناس فتخرج به جماعة وولى مشيخة المدرسة بالقدس ومشيخة الرباط الناصرى بالجبل وأقام بدمشق يفتى ويدرس وكان من العلماء الزهاد كثير العبادة والورع والزهد أحد الأئمة المبرزين المتبحرين فى العربية والفقه على مذهب الامام مالك والتفسير والاصول وصنف كتابا فى الاشتقاق وشرح ألفية ابن معطى وأخذ عنه الناس وطلب للقضاء بدمشق فامتنع منه زهدا وورعا وبقى المنصب لاجله شاغرا الى أن مات برجب سنة ٦٨٥ ودفن بقاسيون وسجمان بسين مهملة مضمومة ثم جيم ساكنة بعدها ميم مفتوحة ونون * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج القرطبى المعروف والده بالقنتورى) وكان جد أبيه مفرج صاحب الركاب للحكم بن عبد الرحمن الداخل وكان أبوه أحمد بن يحيى رجلا صالحا وولد هو سنة ٣٢٨ وكان سكناه بقرطبة بقرب عين فنت أوربة وسمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ كثيرا ومن ابن دليم والخشنى ورحل سنة ٣٣٧ فسمع بمكة من ابن الاعرابى ولزمه حتى مات وسمع بها من جماعة غيره وسمع بجدة وبالمدينة النبوية على ساكنها الصلاة والسلام ودخل صنعاء وزبيد وعدن وسمع بها من جماعة وسمع بمصر من البرقى صاحب احمد البزار وسمع من السيرافى وجماعة كثيرة وسمع بغزة وعسقلان وطبرية ودمشق وطرابلس وبيروت وصيدا والرملة وصور وقيسارية والقلزم والفرما والاسكندرية فبلغت عدة شيوخه الى مائتين وثلاثين شيخا وروى عنه ابو عمرو الطلمنكى وجماعة وكتب تاريخ مصر عن مؤلفه ابى سعيد بن يونس وروى عنه ابن يونس وهو من اقرانه وعاد الى الاندلس من رحلته سنة ٣٤٥ واتصل بالحكم المستنصر وصارت له عنده مكانة والف له عدة كتب واستقضاه على استجة ثم على المرية ومات برجب سنة ٣٤٨ قال الحميدى هو محدث حافظ جليل صنف كتبا فى فقه الحديث وفى فقه التابعين فمنها فقه الحسن البصرى فى سبع مجلدات وفقه الزهرى فى اجزاء كثيرة وسمع مسند ابن الفرضى وحديث قاسم بن اصبغ قال ابن الفرضى وكان عالما بالحديث بصيرا برجاله صحيح النقل حافظا جيد الكتابة على كثرة ما جمع وقال ابن عفيف فى حقه انه كان من اعنى الناس بالعلم واحفظهم

(ثم ملك بعده) ابنه اليون ابن نسيل بقية ايام المعتمد وصدرا من ايام المعتضد (ثم هلك) فملكوا عليهم ابنا له يقال له الاسكندروس فلم يحمدوا امره فخلعوه وملكوا عليهم اخاه لاوى ابن اليون بن نسيل الصقلبى وكان ملكه بقية ايام المعتضد والمكتفى وصدرا من أيام المقتدر (ثم هلك) وخلف ولدا صغيرا يقال له قسطنطين فملك وغلب على مشاركته فى الملك ارميوس بطريق البحر وصاحب غزوه وحروبه فزوج قسطنطين الصبى بابنته وذلك فى بقية ايام المقتدر وايام القاهر والراضى والمتقى الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة فى خلافة ابى اسحق المتقى بن المقتدر وملوك الروم فى هذا الوقت المؤرخ ثلاثة والاكبر منهم والمدبر للامور ارميوس المتغلب ثم الثانى وهو قسطنطين ابن لاوى بن اليون بن نسيل والملك الثالث ابن لارميوس يخاطب بالملك اسمه اصطفانوس وجعل ارميوس ابنا له آخر صاحب الكرسى

بالقسطنطينية وهو البطرك الاكبر الذى ياخذون عنه دينهم وقد كان خصاه قبل ذلك وقربه الى

للحديث وأبصرهم بالرجال ما رأيت مثله في هذا الفن من أوثق المحدثين بالاندلس وأصحهم كتبا وأشدهم تعبا لروايته وأجودهم ضبطا لكتبه وأكثرهم تصحيحا لها لم يدع فيها شبهة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله القيسي الوضاحي محمد بن أحمد بن موسى) رحل الى المشرق وسمع من السلفي وغيره جملة صالحة ثم عاد الى الاندلس بعد الحج وسكن المرية مدة وبها مات سنة ٥٣٩ وقيل في التي بعدها وكان من أظرف الناس وأحسنهم أدبا فقيها فاضلا ثقة ذا فرائد جمة عفيفا معتنيا بالعلم *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى بن هذيل العبدري البلنسي) ولد سنة ٥١٩ وسمع من أبيه وجماعة ورحل حاجا فسمع من السلفي وابن عوف والحضرمي والتنوخي والعثماني وغيرهم ورجع بعد الحج الى الاندلس فحدث وكان غاية في الصلاح والورع وأعمال البر وله حظ من علم العبارة ومشاركة في اللغة وكتب بخطه على ضعفه كثيرا رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نوح الاشبيلي) ومولده سنة احدى وثلاثين وستمائة باشبيلية وجال في بلاد المغرب والمشرق وقرأ على الشيوخ الفضلاء وحصل كثيرا في علم القرا آت والادب وله نظم ونثر وكان كثير التلاوة للقرآن جيد الاداء له وأقام بدمشق حتى مات بها سنة ٦٩٩ رحمه الله تعالى *(ومنهم محمد بن أسباط المخزومي القرطبي) روى عن يحيى بن يحيى وقدم مصر فسمع من الحرث بن مسكين وكان حافظا للفقه عالما توفي سنة ٣٧٩ *(ومنهم أبو بكر محمد بن اسحق الشهير بابن السليم قاضي الجماعة بقرطبة) مولده سنة ٣٠٦ روى عن قاسم بن أصبغ وطبقته ورحل سنة ٣٣٢ فسمع بمكة من ابن الاعرابي وبمصر من الزبير وابن النحاس وغيرهما وعاد الى الاندلس فأقبل على الزهد ودراسة العلم وحدث فسمع منه الناس وكان حافظا للفقه بصيرا بالاختلاف حسن الخط والبلاغة متواضعا وتوفي بجمادى الاولى سنة ٣٦٧ وسليم بفتح السين مكبرا *(ومنهم موسى بن بهيج المغربي الاندلسي الواعظ الفقيه العالم) من أهل المرية نزل مصر يكنى أبا عمران كان من أهل العلم والادب وله في الزهد وغيره أشعار حملت عنه وحدث المرشاني عنه بخمسة في الحج وأعماله كلها ولقيه بمصر وقرأها عليه ولابن بهيج هذا قوله

انما دنياك ساعه * فاجعل الساعة طاعه
واحذر التقصير فيها * واجتهد ما قدر ساعه
واذا أحببت عزا * فالتمس عز القناعه

*(ومنهم أبو عمران موسى بن سعادة مولى سعيد بن نصر) من أهل مرسية سمع صهره أبا علي ابن سكرة الصدفي وكانت بنته عند أبي علي ولازمه وأكثر عنه وروى عن أبي محمد بن مفوز الشاطبي وأبي الحسن بن شفيع قرأ عليهما الموطا ورحل وحج وسمع السنن من الطرطوشي وعني بالرواية وانتسخ صحيحي البخاري ومسلم بخطه وسمعهما على صهره أبي علي وكانا أصلين لا يكاد يوجد في الصحة مثلهما حكى الفقيه أبو محمد عاشر بن محمد أنه سمعهما على أبي علي نحو ستين مرة وكتب أيضا الغريبين للهروي وغير ذلك وكان أحد الافاضل الصلحاء والاجواد السمحاء يؤم بالناس في صلاة الفريضة ويتولى القيام بمؤن صهره أبي علي وبما يحتاج اليه

الكنيسة وأمر الروم يدور في وقتنا هذا على ما ذكرنا ٤٢٦ من ملوكهم (قال المسعودي) فالى هذا الوقت انتهت أخبار ملوك الروم على حسب ما ذكرنا والله أعلم ما يكون من أمرهم في المستقبل من الزمان فعدد سني ملوك الروم المتنصرة من قسطنطين ابن هلاني وهو المظهر لدين النصرانية على ما ذكرنا الى هذا الوقت خمسمائة سنة وسبع سنين والذي أجمع عليه من عدد ملوكهم من قسطنطين الى هذا الوقت المؤرخ أحد وأربعون ملكا ولم يعد ابن أرميوس ووقع العدد على قسطنطين وأرميوس اللذين هما ملكا الروم في هذا الوقت المؤرخ وان أدخلنا في هذا العدد ابن أرميوس فعدد ملوك الروم من بدء النصرانية وهو الملك قسطنطين بن هلاني اثنان وأربعون ملكا في مدة هذه السنين المذكورة وقد ذهب جماعة ممن عني بأخبار العالم الى أن من حين هبط آدم عليه السلام الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ستة آلاف سنة ومائتين وتسعة وخمسين سنة وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ سني العالم والانبياء والملوك في باب نفرده لذلك ان شاء الله تعالى *(ذكر مصر وأخبارها ونيلها وعجائبها وأخبار من

من دقيق الاشياء وجليلها واليه أوصى عند توجهه الى غزوة كتندة التى فقد فيها سنة أربع عشرة وخمسمائة وكانت له مشاركة فى علم اللغة والادب وقد حدث عنه ابن أخيه القاضى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة بكتاب أدب الكتاب لابن قتيبة و بالفصيح لثعلب (ومنهم أبو محمد عبد الله بن طاهر الازدى) من أهل وادى آش له رحلة الى المشرق أدى فيها الفريضة وسمع بدمشق من أبى طاهر الخشوعى مقامات الحريرى وابن عساكر وغيرهما ثم قفل الى بلده انتهى ملخصا من ابن الابار *وحكى الصفدى أن ابن المستكفى اجتمع بالمتنبى بمصر وروى عنه شيأ من شعره ومما روى عنه انه قال أنشدنى المتنبى لنفسه

لاعبت بالخاتم انسانة * كمثل بدر فى الدجى الفاحم
وكلما حاولت أخذى له * من البنان المطرف الناعم
ألقته فى فيها فقلت انظروا * قد خبئت الخاتم فى الخاتم

*(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق أبو عبد الله بن مالك) صاحب التسهيل والالفية وهو جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الامام العلامة الاوحد الطائى الجيانى المالكى حين كان بالمغرب الشافعى حين انتقل الى المشرق النحوى نزيل دمشق ولد سنة ستمائة أوفى التى بعدها وسمع بدمشق من مكرم وأبى صادق الحسن بن صباح وأبى الحسن بن السخاوى وغيرهم وأخذ العربية عن غير واحد فممن أخذ عنه بجيان أبو المظفر وقيل أبو الحسن ثابت ابن خيار عرف بابن الطيلسان وأبى رزين بن ثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعى من أهل لبلة وأخذ القراآت عن أبى العباس أحمد بن نوار وقرأ كتاب سيبويه على أبى عبد الله ابن مالك المرشانى وجالس يعيش وتلميذه ابن عمرون وغيره بحلب وتصدر بها لاقراء العربية وصرف همته الى اتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية وأربى على المتقدمين وكان اماما فى القراآت وعالما بها وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة فى قدر الشاطبية وأما اللغة فكان اليه المنتهى فيها قال الصفدى أخبرنى أبو الثناء محمود قال ذكر ابن مالك يوما ما انفرد به صاحب المحكم عن الازهرى فى اللغة قال الصفدى وهذا أمر معجز لانه يحتاج الى معرفة جميع ما فى الكتابين وأخبرنى عنه أنه كان اذا صلى فى العادلية لانه كان امام المدرسة يشيعه قاضى القضاة ابن خلكان الى بيته تعظيما له وقد روى عنه الالفية شهاب الدين محمود المذكور ورواها الصفدى خليل عن شهاب الدين محمود قراءة ورواها اجازة عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر وعن شهاب الدين بن غانم بالاجازة عنهما عنه وأما النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحرا لايشق لجه وأما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها على النحو واللغة فكان أمرا عجيبا وكان الائمة الاعلام يتحيرون فى أمره وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية لانه كان أكثر ما يستشهد بالقرآن فان لم يكن فيه شاهد عدل الى الحديث وان لم يكن فيه شئ عدل الى أشعار العرب هذا مع ما هو عليه من الدين والعبادة وصدق اللهجة وكثرة النوافل وحسن السمت وكمال العقل وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية وتخرج به جماعة وكان نظم الشعر عليه سهلا رجزه وطويله وبسيطه وصنف كتاب تسهيل الفوائد قال الصفدى ومدحه

من كتابه فقال عز وجل وقال الذى اشتراه من مصر وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين وقال تعالى وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا وقال اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم وقوله تعالى وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز تراود فتاها عن نفسه ووصف بعض الحكماء مصر فقال ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة اشهر مسكة سوداء وثلاثة اشهر زمرذة خضراء وثلاثة أشهر سبيكة حمراء *فاما اللؤلؤة البيضاء فان مصر فى شهر أبيب وهو تموز ومسرى وهو آب وتوت وهو أيلول يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابٍ وتلال مثل الكواكب قد أحاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد الى بعض الا فى الزوارق واما المسكة السوداء فان فى شهر بابه وهو تشرين الاول وهاتور وهو تشرين الثانى وكيهك وهو كانون الاول ينكشف الماء عنها وينضب عن أرضها فتصير أرضا سوداء وفيها تقع الزراعات وللارض روائح طيبة تشبه روائح المسك وأما الزمرذة الخضراء فان فى شهر طوبه وهو كانون الثانى وأمشير وهو شباط وبرمهات وهو أذار

سعد الدين محمد بن عربي بأبيات مليحة الى الغاية وهي

ان الامام جمال الدين جمله * رب العلا ولنشر العلم أهله
أملى كتاباله يسمى الفوائد لم * يزل مفيدا لذي لب تأمله
وكل مسئلة في النحو يجمعها * ان الفوائد جمع لانظير له

قال وفي هذه الابيات مع حسن التورية فيها مالا يخلو من ايراد ذكرته في كتابي فص الخاتم انتهى قلت أجاب المجيسي عن ذلك بان الابيات ليست في التسهيل وانما هي في كتاب له يسمى الفوائد وهو الذي لخصه في التسهيل فقوله في اسم التسهيل تسهيل الفوائد معناه تسهيل هذا الكتاب وذكر أيضا أنه مثل التسهيل في القدر على ماذكره من وقف عليه وقال واليه يشير سعد الدين محمد بن عربي بقوله ان الامام الى آخره وسعد الدين ابن الشيخ محيي الدين صاحب الفصوص وغيرها ثم قال المجيسي وذكر غير واحد من أصحابنا أن له كتابا آخر سماه بالمقاصد وضمنها تسهيله فسماه لذلك تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد فعلى هذا الايصح قول الصفدي ان المدح المذكور في التسهيل الابارتكاب ضرب من التاويل انتهى كلام المجيسي قلت وذكر غيره أن قوله في الالفية مقاصد النحو بها محويه اشارة لكتاب المقاصد وتعقب بقوله محويه فانه لو كان كماذكر لقال محوي واجاب بعضهم بانه من باب الاستخدام وفيه تعسف (رجع) ومن تصانيف ابن مالك الموصل في نظم المفصل وقد حل هذا النظم فسماه سبك المنظوم وفك المختوم ومن قال ان اسمه فك المنظوم وسبك المختوم فقد خالف النقل والعقل ومن كتب ابن مالك كتاب الكافية الشافية ثلاثة آلاف بيت وشرحها والخلاصة وهي مختصر الشافية واكمال الاعلام بمثلث الكلام وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم ولامية الافعال وشرحها وفعل وأفعل والمقدمة الاسدية وضعها باسم ولده الاسد وعدة اللافظ وعمدة الحافظ والنظم الاوجز فيما يهمز والاعتضاد في الظاء والضاد مجلد واعراب مشكل البخاري وتحفة المودود في المقصور والممدود وغير ذلك كشرح التسهيل وروى عنه ولده بدر الدين محمد ومحب الدين بن جعوان وشمس الدين بن أبي الفتح وابن العطار وزين الدين أبو بكر المزي والشيخ أبو الحسين اليونيني وأبو عبد الله الصيرفي وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وشهاب الدين محمود وشهاب الدين بن غانم وناصر الدين بن شافع وخلق كثير سواهم ومن نظمه في الحلبة

خيل السباق المجلي يقتفيه مصل والمسلي وقال قيل مرتاح
وعاطف وحظي والمؤمل والـلطيم والفسكل السكيت ياصاح

وله من هذه الضوابط شئ كثير وكان يقول عن الشيخ ابن الحاجب انه أخذ نحوه من صاحب المفصل وصاحب المفصل نحوه صغيران وناهيك بمن يقول هذا في حق الزمخشري وكان الشيخ ركن الدين بن القويع يقول ان ابن مالك ماخلى للنحو حرمة وحكى عنه أنه كان يوما في الحمام وقد اعتزل في مكان يستعمل فيه الموسى فهجم عليه فتى فقال ماتصنع فقال أكنس لك الموضع للقعود قال بعضهم وهذا انما يستبعد على دين ابن مالك والعهدة على

ناقله

تلمع ويكثر عشبها ونباتها فقصير كالزمردة الخضراء وأما السبيكة الحمراء فان في شهر برموده وهو نيسان وبشنس وهو أيار وبؤنه وهو حزيران يبيض الزرع فيه ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة وسنذكر هذه الشهور بالسريانية والعربية والفارسية ونسمي كل شهر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب وان كنا قد أتينا على جميع ذلك في الكتاب الاوسط ووصف آخر مصر فقال نيلها عجب وأرضها ذهب وخيرها جلب وملكها لمن سلب ومالها رغب وفي أهلها صخب وطاعتهم رهب وسلامهم نعب وحروبهم حرب وهي لمن غلب ونهرها النيل من سادات الانهار وأشراف البحار لانه يخرج من الجنة على حسب ماورد به خبر الشريعة ان النيل وسيحان وهو نهر اذنة بين طرسوس والمصيصة وجيحان ومخرجه من عيون تعرف بعيون جيحان على ثلاثة أيام من مدينة مرعش ويطرح الى البحر الرومي فليس للمسلمين عليه من المدن الا المصيصة وكفربيا ودومجراه بينهما والفرات وقد قدمنا الاخبار عنه وعن النيل ومبدأهما ومقدار جريانهما على وجه الارض ومصبهما فيما سلف من هذا الكتاب وأنه يخرج من الجنة وكذلك الدجلة

ناقله قال الصفدى ولا يستبعد ذلك من لطف النحاة وطباع اهل الاندلس وتوفى ابن مالك بدمشق سنة اثنتين وسبعين وستمائة وقال بعضهم من أحسن شعر ابن مالك

اذا رمدت عينى تداويت منكم * بنظرة حسن او بسمع كلام
فان لم اجد ماء تيممت باسمكم * وصليت فرضى والديار امامى
واخلصت تكبيرى عن الغير معرضا * وقابلت أعلام السوى بسلام
ولم ار الا نور ذا تك لائحا * فهل تدع الشمس امتداد ظلام

وقدم رحمه الله تعالى القاهرة ثم رحل الى دمشق وبها مات كما علم * وقال الشرف الحصنى يرثيه

ياشتات الاسماء والافعال * بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط * منه فى الانفصال والاتصال
مصدرا كان للعلوم باذن الله من غير شبهة ومحال
عدم النحو والتعطف والتو * كيد مستبدلا من الابدال
ألم اعتراه اسكن منه * حركات كانت بغير اعتلال
يالها سكتة لهمز قضاء * اورثت طول مدة الانفصال
رفعوه فى نعشه فانتصبنا * نصب تمييز كيف سير الجبال
خفضوه عند الصلاة بدل * فاميلت اسراره للدلال
صرفوه باعظم مافعلوه * وهو عدل معرف بالجمال
أدغموه فى الترب من غير مثل * سالما من تغير الانتقال
وقفوا عند قبره ساعة الدفن وقوفا ضرورة الامتثال
ومددنا الاكف نطلب قصرا * مسكنا للنزيل من ذى الجلال
آخر الآى من سبا الحظ منه * حظه جاء اول الانفال
يابيان الاعراب ياجامع الاعراب يامفهما لكل مقال
يافريد الزمان فى النظم والنثر وفى نقل مسندات العوالى
كم علوم بثثتها فى اناس * علموا مابثثت عند الزوال

انتهت ملخصة قال الصفدى ومارأيت مرثية فى نحوى أحسن منها على طولها انتهى ودفن ابن مالك بسفح قاسيون بتربة القاضى عز الدين بن الصائغ وقال الجيسى بتربة ابن جعوان ورثاه الشيخ بهاء الدين بن النحاس بقوله

قل لابن مالك ان جرت بك أدمعى * حمرا يحاكيها النجيع القانى
فلقد جرحت القلب حين نعيت لى * وتدفقت بدمائه اجفانى
لكن يهوّن ماجنت من الاسى * علمى بنقلته الى رضوان
فسقى ضريحا ضمه صوب الحيا * يهمى به بالروح والريحان

وابن النحاس المذكور احد تلامذة ابن مالك وهو القائل يخاطب رضى الدين الشاطبى الاندلسى وقد كلفه ان يشترى له قطرا

غاضت له الانهار والاعين والآبار واذا غاض زادت فزياداتها من غيضه وغيضه من زياداتها قال البصرى يغيض ان زادت له الانهار فى الارض ذات العرض والمقدار وقالت الهند زيادته ونقصانه بالسيول ونحن نعرف ذلك بتوالى الانواء وتوالى الامطار وركود السحاب وقالت الروم لم يزدقط ولم ينقص وانما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت وقالت القبط زيادته ونقصانه من عيون فى شاطئه يراها من سافر ولحق باعاليه وقيل لم يزدقط وانما زيادته بريح الشمال اذا كثرت واتصلت به فتحبسه فيفيض على وجه الارض وقد ذكرنا التنازع فى النيل وزيادته ممن سلف وخلف على الشرح والايضاح وغيره من الانهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار فى أخبار الزمان فى الفن الثانى فأغنى ذلك عن اعادتها فى هذا الكتاب * ومصر من سادات القرى ورؤساء المدن قال الله تعالى حاكيا عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون

ايها الاوحد الرضى الذى طا * ل علاء وطاب فى الناس نشرا
انت بحر لاغر وان نحن وافيـ * ـناك راجين من نداك القطرا

وابن النحاس المذكور له نظم كثير مشهور بين الناس وهو بهاء الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن محمد بن نصر الحلبي الاصل المعروف بابن النحاس وهو شيخ ابى حيان ولم يأخذ أبو حيان عن ابن مالك وان عاصره بنحو ثلاثين سنة * وقال بعض من عرّف بابن مالك انه تصدر بحلب مدة وأم بالسلطانية ثم تحوّل الى دمشق وتكاثر عليه الطلبة وحاز قصب السبق وصار يضرب به المثل فى دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب مع الحفظ والذكاء والورع والديانة وحسن السمت والصيانة والتحرى لما ينقله والتحرير فيه وكان ذا عقل راجح حسن الاخلاق مهذبا ذا رزانة وحياء ووقار وانتصاب للافادة وصبر على المطالعة الكثيرة تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجى وغيره وسارت بتصانيفه الركبان وخضع لها العلماء الاعيان وكان حريصا على العلم حتى انه حفظ يوم موته ثمانية شواهد * وقال بعض الحفاظ حين عرّف بابن مالك يقال ان عبد الله فى نسبه مذكور مرتين متواليتين وبعض يقول مرة واحدة وهو الموجود بخطه أوّل شرحه لعمدته وهو الذى اعتمده الصفدى وابن خطيب داريا محمد بن أحمد بن سليمان الانصارى وعلى كل حال فهو مشهور بجده فى المشرق والمغرب * وحكى بعضهم أن ولادته سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وعليه عوّل شيخ شيوخنا ابن غازى فى قوله

قد خيم ابن مالك فى خبعا * وهو ابن عه كذا وعى من قد وعى

وقيل كما تقدم ان مولده سنة ستمائة أو بعدها بجيان الحرير مدينة من مدن الاندلس جبر الله كسرها وهى مفتوحة الجيم وياؤها مشددة تحتانية وتصدر ابن مالك بحماة مدة وانتقد بعضهم على ابن خلكان اسقاطه من تاريخه مع كونه كان يعظمه الى الغاية وقدم رحمه الله تعالى لصاحب دمشق قصة يقول فيها عن نفسه انه أعلم الناس بالعربية والحديث ويكفيه شرفا أن من تلامذته الشيخ النووى والعلم الفارقى والشمس البعلى والزين المزى وغيرهم ممن لا يحصى * وكان رحمه الله تعالى كثير المطالعة سريع المراجعة لا يكتب شيأ من محفوظه حتى يراجعه فى محله وهذه حالة المشايخ الثقات والعلماء الاثبات ولا يرى الا وهو يصلى أو يتلو أو يصنف أو يقرى وكذا كان الشيخ أبو حيان ولكن كان جده فى التصنيف والاقراء * وحكى أنه توجه يوما مع أصحابه للفرجة بدمشق فلما بلغوا الموضع الذى أرادوه غفلوا عنه سويعة فطلبوه فلم يجدوه ثم تفحصوا عنه فوجدوه منكبا على أوراق وأغرب من هذا فى اعتنائه بالعلم ما مر أنه حفظ يوم موته عدة أبيات حدها بعضهم بثمانية وفى عبارة بعض أو نحوها لقنه ابنه اياها وهذا مما يصدق ماقيل بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى فجزاه الله خيرا عن هذه الهمة العلية * وذكر أبو حيان فى الجوازم من تذييله وتكميله أنه لم يصحب من له البراعة فى علم اللسان ولذا تضعف استنباطاته وتعقباته على أهل هذا الشان وينفر من المنازعة والمباحثة والمراجعة قال وهذا شأن من يقرأ بنفسه ويأخذ العلم من الصحف بفهمه ولقد طال فحصى وتنقيرى عمن قرأ عليه واستند فى العلم اليه فلم أجد من يذكر لى

شيئا

غير نيل مصر لكبره واستبحاره وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا الخبر عن جبل القمر الذى بدء النيل منه وما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام فى البدء والمحاق وقد روى عن زيد بن أسلم فى قوله تعالى فان لم يصبها وابل فطل قال هى مصر ان لم يصبها وابل زكت وان أصابها مطر ضعفت وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها

مصر ومصر شانها عجيب * ونيلها يجرى به الجنوب

وهى مصر واسمها كمعناها وعلى اسمها سميت الامصار ومنها اشتق هذا الاسم عند علماء المصريين وقد قال عمرو بن معديكرب

ما النيل أصبح واحدا بمدوده * وجرت له ريح الصبا فجرى لها
عوّدت كندة عادة محمودة * فاصبر بجاهلها وروّ سجالها

(قال المسعودى) ويبتدئ نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية بؤنه وهو حزيران وابيب وهو تموز ومسرى وهو آب فاذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله وهو ايلول الى انقضائه فاذا انتهت الزيادة الى ست عشرة ذراعا ففيه تمام الخراج وخصب الارض وربيع للبلد عام وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلا وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا

شيأ من ذلك ولقد جرى يوما مع صاحبنا تلميذه علم الدين سليمان بن أبى حرب الفارقى الحنفى فقال ذكر لنا أنه قرأ على ثابت بن خيار من أهل بلده جيان وأنه جلس فى حلقة الاستاذ أبى على الشلوبين نحوا من ثلاثة عشر يوما وثابت بن خيار ليس من أهل الجلالة والشهرة فى هذا الشان وانما جلالته وشهرته فى اقراء القرآن هذا حاصل ماذكره أبو حيان * قال بعض المحققين وهو العلامة يحيى العجيسى وليس ذلك منه بانصاف ولا يحمل على مثله الا هوى النفس وسرعة الانحراف فنفيه المسند عنه والمتبع شهادة نفى فلا تنفع ولا تسمع ويكفى ماسطر فى حقه قوله فى أثناء نظم فى هذا العلم كثيرا ونثر وجمع باعتكاف على الاشتغال به ومراجعة الكتب ومطالعة الدواوين العربية وطول السن من هذا العلم غرائب وحوت مصنفاته منها نوادر وعجائب وان منها كثيرا استخرجه من أشعار العرب وكتب اللغة اذهى مرتبة الاكابر النقاد وأرباب النظر والاجتهاد وقوله فى موضع آخر من تذييله لا يكون تحت السماء أنحى ممن عرف مافى تسهيله وقرنه فى بحره بمصنف سيبويه فما ينبغى له أن يغمصه ولا أن يحط عليه ولا أن يقع فيما وقع فيه فانه مما يجرئ على أمثاله الغبى والنبيه والحليم والسفيه وماهذا جزاء السلف من الخلف والدرر من الصدف والجيد من الحشف أوما ينظر الى شيخه أبى عبدالله بن النحاس فانه لا يذكره الا بأحسن ذكر كما هو دأب خيار الناس ومن كلامه فى نقله عنه وهو الثقة فيما ينقل والفاضل حين يقول والى تلميذه أبى البقاء الحافظ المصرى حيث يقول فيه أعنى فى أبى حيان

هو الاوحد الفرد الذى تم علمه * وسار مسير الشمس فى الشرق والغرب
ومن غاية الاحسان مبدأ فضله * فلا غرو أن يسمو على العجم والعرب

ومن غاية الاحسان فى هذا الشان التصانيف التى سارت بها الركبان فى جميع الاوطان واعترف بحسنها الحاضر والبادى والدانى والقاصى والصديق والعدو فتلقاها بالقبول والاذعان فسامح الله تعالى أبا حيان فان كلامه يحقق قول القائل كما تدين تدان ورحم الله تعالى ابن مالك فلقد أحيا من العلم رسوما دارسة وبين معالم طامسة وجمع من ذلك ماتفرق وحقق مالم يكن منه تبين ولا تحقق ورحم شيخه ثابت بن الخيار وهو أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعى بضم الكاف على ما كان يضبط بيده فيما حكاه ابن الخطيب فى الاحاطة وأصله من لبلة ويعد فى أهل جيان وتوفى بغرناطة سنة ٦٢٨ وكان أبو حيان يغض من هذا الكتاب ويقول مافيه من الضوابط والقواعد حائد عن نهج الصواب والسداد وكثيرا مايشير الى ذلك فى شرحه المسمى بنهج السالك ومن غضه منه بالنظم فى ملامن الناس من جملتهم شيخه بهاء الدين بن النحاس والاقران يجاريه مقتفيا له ومتناسيا فى تسويد القرطاس

الفية ابن مالك * مطموسة المسالك
وكم بها مشتغل * أوقع فى المهالك

ولا تغتر أنت بهذا الغرر فانه ماكل سحاب أبرق ممطر ولا كل عود أورق مثمر وقيل معارضة للقوم وتنبيها لهم عما فيه من النوم

وفى ذلك كفايتها وورى جميع ارضها واذا زاد على السبع عشرة وبلغ ثمان عشرة ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع وفى ذلك ضرر لبعض الضياع لما ذكرناه من وجه الاستبحار وغير ذلك وان كانت الزيادة ثمان عشرة ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء بمصر وأكثر الزيادات ثمان عشرة ذراعا وقد كان النيل بلغ فى زيادته تسع عشرة ذراعا وذلك سنة تسع وتسعين فى خلافة عمر بن عبد العزيز ومساحة الذراع الى أن تبلغ اثنى عشر ذراعا ثمان وعشرون أصبعا ومن اثنى عشر ذراعا الى مافوق يصير الذراع اربعا وعشرين اصبعا واقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع وفى نيل تلك السنة يكون الماء قليلا والاذرع التى يستسقى عليها بمصر هى ذراعان تسميان منكرا ونكيرا وهما الذراع الثالثة عشرة والذراع الرابعة عشرة فاذا انصرف الماء عن هاتين الذراعين أعنى ثلاث عشرة وأربع عشرة وزيادة نصف ذراع من الخمس عشرة واستسقى الناس بمصر كان الضرر شاملا لكل البلدان الا أن يأذن الله عز وجل فى زيادة الماء واذا تم خمس عشرة ودخل فى ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يستسقى فيه وكان ذلك نقصا من خراج

ألفية ابن مالك * مشرقة المسالك
وكم بها مشتغل * علا على الارائك

وما أحسن قول ابن الوردى فى هذا المعنى

يا عائبا ألفية ابن مالك * وغائبا عن حفظها وفهمها
أما تراها قد حوت فضائلا * كثيرة فلا تجر فى ظلمها
واز جر لمن جادل من يحفظها * برابع وخامس من اسمها

يعنى صه فانه عند الاستقلال بمعنى اسكت انتهى ملخصا وقال أيضا عند ذكره مصنفات ابن مالك وهى كما قيل غزيرة المسائل ولكنها على الناظر بعيدة الوسائل وهى مع ذلك كثيرة الافادة موسومة بالاجادة وليست هى لمن هو فى هذا الفن فى درجة ابتدائه بل للمتوسط يترقى بها درجة انتهائه انتهى * واعلم ان الالفية مختصرة الكافية كما تقدم و كثير من أبياتها فيها بلفظها ومتبوعه فيها ابن معطى ونظمه أجمع وأوعب ونظم ابن معطى أسلس وأعذب وذكر الصفدى عن الذهبى أن ابن مالك صنف الالفية لولده تقى الدين محمد المدعو بالاسد واعترضه العلامة العجيسى بأن الذى صنفه له عن تحقيق المقدمة الاسدية قال وأما هذه يعنى الالفية فذكر لى من أثق بقوله أنه صنفها برسم القاضى شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين بن ابراهيم بن عفيف الدين هبة الله بن مسلم بن هبة الله بن حسان الجهنى الحموى الشافعى الشهير بابن البارزى ويقال ان هذه النسبة الى باب أبرز أحد أبواب بغداد ولكن خفف لكثرة دوره على الالسنة انتهى مختصرا وقال بعض من عرّف بابن مالك هو مقيم أود وقاطع لدد وخزين سماء موّهت الاصائل ديباجتها وشعشعت البكر زجاجتها وجاءت أيامه صافية من الكدر ولياليه وما بها شائبة من الكبر قد خلقها العشى برده وخلفها الصباح بربعه فكان كل متعين حول مسجده وكل عين فاخرة بعسجده هذا وزمر الطلاب وطلبة الاجلاب لا تزال ترجى اليه القلاص وتكثر من سر به الاقتناص كان أوحد وقته فى علم النحو واللغة مع كثرة الديانة والصلاح انتهى وقال بعض المغاربة

لقد مزقت قلبى سهام جفونها * كما مزق اللخمى مذهب مالك
وصال على الاوصال بالقد قدّها * فأضحت كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت اذ ذاك الهوى لمرادها * كتقليد أعلام النحاة ابن مالك
وملكتها رقى لرقة لفظها * وان كنت لا أرضاه ملكا لمالك
وناديتها يا منيتى بذل مهجتى * ومالى قليل فى بديع جمالك

ويعنى بقوله بتقطيع مالك مالك بن المرحل السبتى رحمه الله تعالى ولما سئل ابن مالك عن قول النبى صلى الله عليه وسلم الحور بعد الكور هل هو بالراء أو بالنون أنكر النون فقيل له ان فى الغريبين للهروى رواية بالنون فرجع عن قوله الاول وقال انما هو بالنون انتهى وقد ذكر فى المشارق النون والراء فقال الحور بعد الكور بالراء رواه العذرى وابن الحذاء وللباقين بالنون معناه النقصان بعد الزيادة وقيل من الشذوذ بعد الجماعة وقيل من الفساد

وخليج ذات الساحل وتفتح هذه الترع اذا كان الماء زائدا فى عيد الصليب وهو لاربع عشرة تخلو من توت وهو ايلول وقد قدمنا خبر تسمية هذا اليوم بعيد الصليب فيما سلف من هذا الكتاب والنبيذ الشيرازى يتخذ بمصر من ماء طوبه وهو كانون الآخر بعد الغطاس وهو لعشر تمضى من طوبه وأصفى ما يكون النيل فى ذلك الوقت وأهل مصر يفتخرون بصفاء النيل فى هذا الوقت وفيه تختزن المياه أهل تنيس ودمياط وتونة وسائر قرايا البحيرة ولليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها وهى ليلة احدى عشرة تمضى من طوبه وستة من كانون الثانى ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة فى الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو آلاف من الناس المسلمين والنصارى منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية

بعد الصلاح وقيل من القلة بعد الكثرة كار عمامته اذا لفها على رأسه واجتمعت وحارها اذا نقضها فافترقت و يقال حار اذا رجع عن أمر كان عليه ووهم بعضهم رواية النون وقيل معناها رجع الى الفساد بعد النقص أى بعد أن كان على خير مما رجع اليه وقال عياض فى موضع آخر بعد الكور كذا للعذرى والكون للفارسى والسجزى وابن ماهان وقول عاصم فى تفسيره حار بعدما كان وهى روايته و يقال ان عاصما وهم فيه انتهى والسائل لابن مالك عن اللفظة هو ابن خلكان لان ابن الاثير سال ابن خلكان عنها فسال هو ابن مالك رحم الله تعالى الجميع وقد عرف الحافظ الذهبى بابن مالك فى تاريخ الاسلام وذكر فيه ترجمة لولده بدر الدين محمد وأنه كان حاد الذهن ذكيا اماما فى النحو وعلم المعانى والمنطق جيد المشاركة فى الفقه والتدريس وأنه تصدر بعد والده للتدريس ومات شابا قبل الكهولة سنة ٦٨٦ ومن أجل تصانيفه شرحه على ألفية والده وهو كتاب فى غاية الاغلاق ويقال انه نظير الرضى فى شرح الكافية وللناس عليه حواش كثيرة رحمهم الله تعالى أجمعين

*(ومنهم أبو عبد الله محمد بن طاهر القيسى التدمرى و يعرف بالشهيد) كان عظيم القدر جدا بالاندلس بعيد الاثر فى الخير والصلاح والعلم والنسك والانقطاع الى الله تعالى وكان من وجوه أهل كورة تدمير ذوى البيوت الرفيعة وبرع بخصاله المحمودة فكان فى نفسه فقيها عالما زاهدا خيرا ناسكا متبتلا نشأ على الاستقامة والصلاح والاهتداء والدعة وطلب العلم فى حداثة سنه ورحل الى قرطبة فروى الحديث وتفقه وناظر وأخذ بحظ وافر من علم المسئلة والجواب وكان أكثر عامه وعمله الورع والتشدد فيه والتحفظ بدينه ومكسبه ورسخ فى علم السنة ثم ارتحل الى المشرق فر بمصر حاجا فأقام بالحرمين ثمانية أعوام يتعيش فيهما من عمل يده بالنسخ ثم سار الى العراق فلقى أبا بكر الابهرى وأخذ عنه وأكثر من لقاء الصالحين وأهل العلم ولبس الصوف وقنع وتورع جدا وأعرض عن الشهوات وكان اذا سئم من النسخ الذى جعل قوته منه آجر نفسه فى الخدمة رياضة لها فاصبح عابدا متقشفا منيبا مخبتا عالما عاملا منقطع القرين قد جرت منه دعوات مجابة وحفظت له كرامات ظاهرة ثم عاد الى بلده تدمير سنة ست أو سبع وسبعين وثلثمائة و بها أبوه أبو الحسام طاهر حيا فنزل خارج مدينة مرسية تورعا عن سكناها وعن الصلاة فى جامعها فاتخذ له بيتا سقفه من حطب السدر يأوى اليه واعتمر جنينة بيده يقتات منها وصار يغزو مع المنصور محمد بن أبى عامر ثم تحول من قريته بعد عامين الى الثغر وواصل الرباط ونزل مدينة طلبيرة وكان يدخل منها فى السرايا الى بلد العدو يغزو و يتقوت من سهمانه و يعول على فرس له ارتبطه لذلك وكان له باس وشدة وشجاعة وثقافة يحدث عنه فيها بحكايات عجيبة الى أن استشهد مقبلا غير مدبر سنة ٣٧٩ أو فى التى قبلها عن اثنتين وأربعين سنة وأبوه حى رحم الله تعالى الجميع

*(ومنهم أبو عبد الله القيجاطى محمد بن عبد الجليل بن عبد الله بن جهور) مولده سنة ٥٩٠ بقيجاطة وكتب عنه الحافظ المنذرى ومن شعره قوله

اذا كنت تهوى من نأت عنك داره * فحسبك ما تلقى من الشوق والبعد
فياويح صب قد تضرم ناره * و واحر قلب ذاب من شدة الوجد

المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورا ولا تغلق فيها الدروب و يغطس أكثرهم فى النيل ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرئ للداء (قال المسعودى) وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه فانى سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبى صلى الله عليه وسلم حين بنى الاهراء اتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه وأن ذلك كان بمنف ولم يكن بنى الفسطاط يومئذ وأن دلوكة الملكة العجوز وضعت مقياسا آخر بالصعيد أيضا ببلاد اخميم فهذه المقاييس الموضوعة قبل مجىء الاسلام ثم ورد الاسلام وافتتحت مصر وكانوا يعرفون زيادة النيل بما ذكرنا ونقصانه بما وصفنا الى أن ولى عبد العزيز بن مروان فاتخذ مقياسا بالجزيرة التى تدعى جزيرة الصناعة وهى الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة والمعبر عليها من الفسطاط على الجسر ثم منها على جسر آخر الى الجيزة وهو بين الجانب الغربى من الفسطاط

والجانب الشرقى وهذا المقياس الذى اتخذه أسامة بن زيد التنوخى هو اكثرها استعمالا واتخذ ذلك فى أيام سليمان بن عبد الملك ابن مروان وهو المقياس الذى يعمل عليه فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بالفسطاط وقد كان من سلف يقيسون بالمقياس الذى بمنف ثم ترك استعماله وعمل على مقياس الجزيرة المعمول فى أيام سليمان ابن عبد الملك وفى هذه الجزيرة مقياس آخر لاحمد بن طولون والعمل عليه عند كثرة الماء وترادف الرياح واختلاف مهابها وكثرة الموج وقد كانت أرض مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعا عامرها وغامرها لما احكموا من جسورها وبناء قناطرها وتنقية خلجانها وكان بمصر سبع خلجانات فمنها خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج المنهى وكانت مصر فيما يذكر أهل الخبرة أكثر البلاد جنانا وذلك أن جنانها كانت متصلة بحافتى النيل من أوله الى آخره من حد أسوان الى رشيد وكان الماء اذا بلغ فى زيادته تسع أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا وكان الذى ولى حفر خليج

هشام

*(ومنهم أبو عبد الله ويقال أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى الغرناطى) ولد سنة ٤٧٣ ودخل الاسكندرية سنة ٥٠٨ وسمع بها من أبى عبد الله الرازى وبمصر من أبى صادق مرشد بن يحيى المدينى وأبى الحسن الفراء الموصلى وأبى عبد الله محمد بن بركات بن هلال النحوى وغيرهم وحدث بدمشق وسمع أيضا بها وببغداد وقدمها سنة ٥٥٦ ودخل خراسان وأقام بها مدة ثم رجع الى الشام وأقام بحلب سنين وسكن دمشق وكان يذكر أنه رأى عجائب فى بلاد شتى ونسبه بعض الناس بسبب ذلك الى ما لا يليق وصنف فى ذلك كتابا سماه تحفة الالباب وكان حافظا عالما أديبا وتكلم فيه الحافظ ابن عساكر ورموه بالكذب وقال ابن النجار ما علمته الا أمينا ومن شعره قوله

تكتب العلم وتلقى فى سفط * ثم لا تحفظ لا تفلح قط
انما يفلح من يحفظه * بعد فهم وتوق من غلط

وقوله

العلم فى القلب ليس العلم فى الكتب * فلا تكن مغرما باللهو واللعب
فاحفظه وافهمه واعمل كى تفوز به * فالعلم لا يجتنى الا مع التعب

توفى بدمشق فى صفر سنة ٥٦٥ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام القرطبى من ذرية أبى ثعلبة الخشنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) رحل قبل الاربعين ومائتين فحج وسمع بالبصرة من محمد بن بشار وأبى موسى الزمن ونصير بن على الجهضمى ولقى أبا حاتم السجستانى والعباس بن أبى الفرج الرياشى وسمع ببغداد من أبى عبيد القاسم بن سلام وبمكة من محمد بن يحيى العدنى وبمصر من سلمة بن شبيب صاحب عبد الرزاق والبرقى وغيرهما وأدخل الاندلس علما كثيرا من الحديث واللغة والشعر وكان فصيحا جزل المنطق صارما أنوفا منقبضا عن السلطان أراده على القضاء فأبى وقال ابايته اشفاق لا ابايته عصيان فأعفاه وكان ثقة مأمونا توفى فى رمضان سنة ٢٨٦ عن ثمان وستين سنة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج القرطبى) سمع من محمد بن وضاح وأكثر عنه وأخذ عن محمد الخشنى وقاسم بن أصبغ وابراهيم بن قاسم بن هلال ورحل سنة ٢٧٤ فسمع بمصر المطلب بن شعيب والمقدام بن داود الرعينى وأدرك بالعراق اسمعيل القاضى وعبد الله بن أحمد بن حنبل قال الحميدى حدث بالمغرب وبالمشرق وصنف السنن وممن روى عنه خالد بن سعد وقال لنا أبو محمد بن حزم مصنف ابن أيمن مصنف رفيع احتوى من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس فى كثير من المصنفات وتوفى فى ذى القعدة سنة ٣٣٠ بقرطبة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن ضيفون اللخمى الرصافى القرطبى الحدادى) سمع بقرطبة من عبد الله ابن يونس وقاسم بن أصبغ وحج سنة ٣٣٩ سنة رد القرامطة الحجر الاسود الى مكانه وسمع بمكة من ابن الاعرابى وبمصر من ابن الورد وأبى على بن السكن وعبد الكريم النسائى وغيرهم وسمع باطرابلس والقيروان من جماعة وكان رجلا صالحا عادلا حدث وكتب عنه الناس وعلت سنه وتوفى بشوال سنة ٣٩٤ وولد فيما أظن سنة ٣٠٢ وكانت وفاته بقرطبة وقد اضطرب فى أشياء قرئت عليه وممن أخذ عنه الحافظ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى الجميع (ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الخزرجى السعدى القرطبى) روى عن أبى الحسن على بن

هشام وروى عنه أبو القاسم بن بشكوال وقدم مصر وحدث بها وممن سمع منه بها ابن وردان وأبو الرضا القيسراني في آخرين واستوطن مصر وتوفي سنة ٥٨٨ *(ومنهم أبو بكر بن السراج النحوي) بتشديد الراء وهو محمد بن سعيد الملك بن محمد بن السراج الشنتمري أحد أئمة العربية المبرزين فيها ويكفيه فخرا انه استاذ أبي محمد عبد الله بن بري المصري اللغوي النحوي وحدث عن أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد القفطي وقرأ العربية بالاندلس على ابن ابي العافية وابن الاخضر وقدم مصر سنة ٥١٥ واقام بها وأقرأ الناس العربية ثم انتقل الى اليمن وروى عنه أبو حفص عمر بن اسمعيل وأبو الحسن علي والد الرشيد العطار وله تواليف منها كتاب تنبيه الالباب في فضل الاعراب وكتاب في العروض وكتاب مختصر العمدة لابن رشيق وتنبيه اغلاطه قال السلفي كان من أهل الفضل الوافر والصلاح الظاهر وكانت له حلقة في جامع مصر لاقراء النحو وكثيرا ما كان يحضر عندي رحمه الله تعالى مدة مقامي بالفسطاط توفي بمصر سنة ٥٤٩ وقيل سنة خمس وأربعين وقيل خمسين وخمسمائة بره ضاز والاول أثبت *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن سعيد العنسي) ويكنى أيضا أبا القاسم الغرناطي سمع من الجلة بمصر والاسكندرية ودمشق وبغداد منهم الحراني أبو عبد الله وأبو محمد عبد الصمد بن داود بدمشق وكتب الحديث وعني بالرواية أتم عناية وفقد باصبهان حين استولى عليها التتار قبل الثلاثين وستمائة *(ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الدفاع) بالدال وقيل بالراء قرطبي سمع عبد الملك بن حبيب ورحل فسمع بمصر من الحرث بن مسكين وغيره وكان زاهدا فاضلا وتوفي سنة ٢٨١ رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عابد المعافري القرطبي) ولد بقرطبة سنة ٣٠٨ ودخل مصر فسمع من أبي بكر بن المهندس وأبي بكر البصري وروى عن أبي عبد الله بن مفرج وأبي محمد الاصيلي وجماعة ولقي الشيخ أبا محمد بن أبي زيد في رحلته سنة ٣٨١ فسمع منه رسالته في الفقه وغيرها وحج من عامه ثم عاد من مصر الى المغرب سنة ٣٨٢ وكان معتنيا بالاخبار والآثار ثقة فيما رواه وعني به خيرا فاضلا دينا متواضعا متصاونا مقبلا على ما يعنيه صاحب حظ من الفقه وبصيرا بالمسائل ودعي الى الشورى بقرطبة فأبى ومات سنة ٤٣٩ وعابد جده بالباء الموحدة رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجر الانصاري البلنسي) أخذ القرا آت عن جماعة من أهل بلده وخرج حاجا سنة ٥٥٦ فجاور بمكة وسمع بها وبالاسكندرية من السلفي وعاد الى بلده سنة ٥٧١ وحدث وكان من أهل الصلاح والفضل والورع كثير البر وفاداة الاسرى ويحترف بالتجارة ومولده بعد سنة ٥٣٠ ومات سنة ٥٩٨ بمرسية رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة القرطبي المالكي الحافظ) ولد سنة ٤٧٩ وأخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد بن رشد والحديث عن ابن عتاب وروى الموطأ عن أبي بحر سفيان بن العاص بن سفيان وأخذ الادب عن أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج الأموي وعن مالك بن عبد الله العتبي وخرج من قرطبة في الفتنة بعد مادرس بها وانتفع الناس به في فروع الفقه وأصوله وأقام بالاسكندرية خوفا من بني عبد المؤمن بن علي ثم قال كأني والله بهم قد وصلت الى الاسكندرية ثم سافر الى مصر

قراهم ويعطوه على ذلك ما أراد من المال وكان يعمل ذلك حتى اجتمعت له أموال عظيمة فحمل تلك الاموال الى فرعون فلما وضعها بين يديه سأله عنها فاخبره بما فعل فقال انه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ويفيض عليهم معروفه ولا يرغب فيما في أيديهم ونحن أحق من فعل هذا بعبيده فاردده على أهل كل قرية ما أخذته منهم ففعل ذلك هامان ورد على أهل كل قرية ما أخذ منهم فليس في الخلجان التي بأرض مصر أكثر عطوفا وعراقيل من خليج سردوس وأما خليج الفيوم وخليج المنهي فان الذي حفرهما يوسف بن يعقوب صلى الله عليهما وسلم وذلك ان الريان بن الوليد ملك مصر لما رأى رؤياه في البقر والسنابل وعبرها يوسف عليه السلام استعمله على ما كان يلي من أرض مصر وقد أخبر الله بذلك عند اخباره عن نبيه يوسف بقوله اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم (قال المسعودي) وقد تنازع أهل الملة في تصرف المؤمنين مع الفاسقين فمنهم من رأى أن الملك كان مؤمنا ولولا ذلك ما وسع يوسف معاونة الكفار والتصرف في أوامرهم ونواهيهم

بعد ماروى عنه السلفي وأقام بها مدة ثم قال والله مامصر والاسكندرية بمتباعدين ثم سافر الى الصعيد وحدث في قوص بالموطا ثم قال والله ما يصلون الى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد فمضى الى مكة وأقام بها ثم قال وتصل الى هذه البلاد ولا تحج ما أنا الا هربت منه اليه ثم دخل اليمن فلما رآها قال هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه الى الهند فأدركته وفاته بها سنة ٥٥٠ وقيل بل مات بزبيد من مدن اليمن وكان من جلة العلماء الحفاظ متفننا في المعارف كلها جامعا لها كثير الرواية واسع المعرفة حافل الادب من كبار فقهاء المالكية يتصرف في علوم شتى حافظا للآداب عارفا بشعراء الاندلس وكان علمه أوفر من منطقه ولم يرزق فصاحة ولا حسن ايراد قال ابن نقطة خبيرة بكسر الخاء المعجمة وفتح الياء المنقوطة من تحتها باثنتين *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي) قال ابن النجار ولد بمرسية سنة ٥٧٠ وقال غيره في التي قبلها وخرج من بلاد المغرب سنة ٦٠٧ ودخل مصر وسار الى الحجاز ودخل مع قافلة الحجاج الى بغداد وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والاصلين بالنظامية ثم سافر الى خراسان وسمع بنيسابور وهراة ومرو وعاد الى بلاد بغداد وحدث بكتاب السنن الكبرى للبيهقي عن منصور بن عبد المنعم الفراوي وبكتاب غريب الحديث للخطابي وقدم الى مصر فحدث بالكثير عن جماعة منهم أم المؤيد زينب وأبو الحسن المؤيد الطوسي وخرج من مصر يريد الشام فمات بين الزعقة والعريش من منازل الرمل في ربيع الاول سنة ٦٥٥ ودفن بتل الزعقة وكان من الأئمة الفضلاء في جميع فنون العلم من علوم القرا آت والحديث والفقه والخلاف والاصلين والنحو واللغة وله فهم ثاقب وتدقيق في المعاني مع النظم والنثر المليح وكان زاهدا متورعا حسن الطريقة متدينا كثير العبادة فقيرا مجردا متعففا نزه النفس قليل المخالطة لاوقاته طيب الاخلاق متوددا كريم النفس قال ابن النجار ما رأيت في فنه مثله وكان شافعي المذهب وله كتاب تفسير القرآن سماه ري الظمآن كبير جدا وكتاب الضوابط الكلية في النحو وتعليق على الموطا وكان مكثرا شيوخا وسماعا وحدث بالكثير بمدن الشام والعراق والحجاز وكانت له كتب في البلاد التي ينتقل اليها بحيث لا يستصحب كتبا في سفره اكتفاء بماله من الكتب في البلد الذي يسافر اليه وكان كريما قال أبو حيان أخبرني الشرف الجزائري بتونس انه كان على رحلة وكان ضعيفا فقال له خذ ما تحت هذه السجادة أو البساط فرفعت ذلك فوجدت تحته أكثر من أربعين دينارا ذهبا فأخذتها قال الجمال اليعمري أنشدني لنفسه بالقاهرة

قالوا فلان قد أزال بهاءه * ذاك العذار وكان بدر تمام
فأجبتهم بل زاد نور بهائه * ولذا تضاعف فيه فرط غرامي
استقصرت ألحاظه فتكاتها * فأتى العذار يمدها بسهام

ومن شعره قوله

من كان يرغب في النجاة فماله * غير اتباع المصطفى فيما أتى
ذاك السبيل المستقيم وغيره * سبل الغواية والضلالة والردى

ومنهم من رأى ان ذلك جائز على ما يوجبه أحوال الوقت والاصلح للحال وقد ذكرنا قول كل فريق من هؤلاء في كتابنا في المقالات في أصول الديانات وأما أخبار الفيوم من صعيد مصر وخلجانها من المرتفع والمطأطئ ومطأطئ المطأطئ وهذه عبارة أهل مصر يريدون بذلك المنخفض وكيفية فعل يوسف فيها وعمارته أرضها بعد كونها خربة ومصفاة لمياه الصعيد وهي جزيرة قد أحاط الماء حينئذ بأكثر أقطارها فقد أتينا على ذلك في الكتاب الاوسط فأغنى عن اعادته في هذا الكتاب وكذلك في تسمية الفيوم فيوما وان ذلك الف يوم وما كان من خبر يوسف مع الوزراء وحسدهم اياه وقد كانت مصر على ما زعم أهل الخبرة والعناية باخبار شان العالم يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد الى أسفل الارض موضع الفسطاط في وقتنا هذا وقد كان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل من اسوان الحبشة وقد قدمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب الى ان عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه وما ينقل من النوبة بتياره من موضع الى موضع فنضب من بعض المواضع من بلاد مصر على حسب ما وصفنا عن صاحب المنطق من عمران فاتبع

فاتبع كتاب الله والسنن التى * صحت فذاك اذا اتبعت هو الهدى
ودع السؤال بكم وكيف فانه * باب يجر ذوى البصيرة للعمى
الدين ماقال النبى وصحبه * والتابعون ومن مناهجهم قفا

*(ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله البنتى الاندلسى الانصارى) قدم مصر واقام بالقرافة مدة وكان شيخا صالحا زاهدا فاضلا وتوجه الى الشام فهلك قال الرشيد العطار كان من فضلاء الاندلسيين ونبهائهم ساح فى الارض ودخل بلاد العجم وغيرها من البلاد البعيدة وكان يتكلم بألسنة شتى ومن شعره قوله

اذا قل منك السعى فالعزم ناشد * وكل مكان فى مرائك واحد
توجه بصدق واتق المين واقتصد * تجئك رهينات النجاح المقاصد

والبنتى بضم الباء وسكون النون نسبة الى بنت حصن بالاندلس ويقال بونت بزيادة واو *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخولانى الباجى ثم الاشبيلى المعروف بابن القوق) سمع بقرطبة من جماعة ورحل الى المشرق سنة ٢٦٦ فسمع بمكة من على بن عبد العزيز وغيره وبمصر من محمد بن عبد الحكم ومن أخيه سعد وكان فقيها فى الرأى حافظا له عاقدا للشروط قال ابن الفرضى كان رجلا صالحا ورعا ثقة وكان خالد بن سعيد قد رحل اليه وسمع منه وكان يقول اذا حدث عنه كان من معادن الصدق توفى سنة ٣٠٨ *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللوشى الطبيب) اشتغل بالطب وبرع فيه وأقام بمصر مدة وبها مات فى عشر الستين وستمائة *(ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى) رحل سنة ٣٣٧ فدخل مصر والبصرة وعنى بعلم الطب ودبر مارستان مصر ثم رجع الى الاندلس سنة ٣٦٠ واتصل بالحكم المستنصر وابنه المؤيد وله فى التكسير كتاب حسن قال صاعد تمهر فى الطب ونبل فيه وأحكم كثيرا من أصوله وعانى صنعة المنطق معاناة صحيحة وكان شيخه فيه أبو سليمان محمد ابن محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى البغدادى وكان قبل أن يتطبب مؤدبا بالحساب والهندسة وأخبرنى أبو عثمان سعيد الطليطلى أنه لم يلق فى قرطبة من يلحق محمد بن عبدون فى صناعة الطب ولا يجاريه فى ضبطها وحسن دربته فيها واحكامه لغوامضها رحمه الله تعالى *(ومن الراحلين الى المشرق من أهل الاندلس أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر محمد بن مروان بن زهر الايادى الاندلسى) صاحب البيت الشهير بالاندلس رحل المذكور الى المشرق وتطبب به زمانا وتولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم القيروان ثم استوطن مدينة دانية وطار ذكره فيها الى أقطار الاندلس والمغرب واشتهر بالتقدم فى علم الطب حتى فاق أهل زمانه ومات فى مدينة دانية رحمه الله تعالى ووالده محمد بن مروان كان عالما بالرأى حافظا للادب فقيها حاذقا بالفتوى متقدما فيها متقنا للعلوم فاضلا جامعا للدراية والرواية وتوفى بطلبيرة سنة ٤٢٢ وهو ابن ست وثمانين سنة حدث عنه جماعة من علماء الاندلس ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل رحمه الله تعالى وأما أبو العلاء زهر بن عبد الملك المذكور فقال ابن دحية فيه انه كان وزير ذلك الدهر وعظيمه وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه وتوفى ممتحنا من نغلة بين كتفيه سنة ٥٢٥ بمدينة قرطبة انتهى

ولم يزل الماء ينضب عن ارضها قليلا قليلا حتى امتلأت ارض مصر من المدن والعمائر وطرقوا للماء وحفروا له الخلجانات وعقدوا فى وجهه المسناة الا أن ذلك خفى على ساكنها لان طول الزمان اذهب معرفة اول سكناهم كيف كان ذلك ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر العلة الموجبة لامتناع المطر بمصر ولا لكثير من اخبار الاسكندرية وكيفية بنائها والامم التى تداولتها والملوك التى سكنتها من العرب وغيرها الا انا قد أتينا على ذلك فى الكتاب الاوسط وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من أخبارها وجوامع من كيفية بنائها وما كان من امر الاسكندر فيها (قال المسعودى) وقد كان احمد بن طولون بمصر بلغه فى سنة نيف وستين ومائتين ان رجلا باعالى بلاد مصر من ارض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الانباط ممن يشار اليه بالعلم من لدن حداثته والنظر والاشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من اهل الملل وانه علامة بمصر وارضها على برها وبحرها واخبارها واخبار ملوكها وانه ممن سافر فى الارض وتوسط الممالك وشاهد الامم من انواع البيضان والسودان وانه

وكانت بينه وبين الفتح صاحب القلائد عداوة ولذلك كتب فى شأنه الى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ماصورته أطال الله تعالى بقاء الامير الاجل سامعا للنداء دافعا للتطاول والاعتداء لم ينظم الله تعالى بلبتك الملك عقدا وحل لك حلالا ووعقدا وأوطألك عقبا وأصار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا الا أن تكون للبرية حائطا وللعدل فيهم باسطا حتى لا يكون فيهم من يضام ولا ينال أحدهم اهتضام ولتقصر يد كل معتد فى الظلام وهذا ابن زهر الذى أجررته رسنا وأوضحت له الى الاستطالة سننا لم يتعد من الاضرار الا حيث انتهيته ولا تمادى على غيه الا حين لم تنهه أو نهيته ولما علم أنك لا تنكر عليه نكرا ولا تغير له متى ما مكر فى عباد الله مكرا جرى فى ميدان الاذية مل ء عنانه وسرى الى ماشاء بعدوانه ولم يراقب الذى خلقه وأمد فى الخطوة عندك طلقه وأنت بذلك مرتهن عند الله تعالى لانه مكنك لئلا يتمكن الجور ولتسكن بك الفلاة والغور فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل فى كل طريق وأخفق به كل فريق وقد علمت ان خالقك الباطش الغيور يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وما تخفى عليه نجواك ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك وستقف بين يدى عدل حاكم يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم قد علم كل قضية قضاها ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فبم تحتج معى لديه اذا وقفت أنا وأنت بين يديه أترى ابن زهر ينجيك فى ذلك المقام أو يحميك من الانتقام وقد أوضحت لك المحجة لتقوم عليك الحجة والله سبحانه النصير وهو بكل خلق بصير لارب غيره والسلام انتهى * وقد تذكرت هنا بذكر الفتح ما كتبه وقد مات بعض اخوانه غريقا

أتانى ورحلى بالعراق عشية * ورحل المطايا قد قطعن بنا نجدا
نعى أطار القلب عن مستقره * وكنت على قصد فأغلطنى القصدا

نعوا والله باسق الاخلاق لا يخالف ورموا قلبى بسهم أصاب صميمه فما أخلف لقد سام الردى منه حسنا وجمالا ووسامة وطوى بطيه نجده وتهامه فعطل منه الندى والندى وأثكل فيه الهدى والهدى كم فل السيوف طول قراعه ودل عليه الضيوف موقد ناره بيقاعه وكم تشوف اليه السرير والمنبر وتصرف فيه الثناء والمخبر وكم راع البدر ليلة ابداره وروع العدو فى قعر داره وأى فتى غدا له البحر ضريحا وأعدى عليه الحين ماء وريحا فبدل من طلل على ومفاخر بقعر بحر طامى اللجج زاخر وبدل من صهوات الخيل بلهوات اللجج والليل غريق بكى مقلتى فى دمعها وأساء نفسى فى سمعها وبى حزن لا أستسقى له الغمام فاله قبر تجوده ولا ثرى تروى به تهائمه ونجوده وقد آليت أن لا أودع الريح تحية ولا يورثنى هبوبها أريحية فهى التى أثارت من الموج حنقا ومشت عليه خببا وعنقا حتى أعادته كالكثبان وأودعته قضيب بان فيا أسفا لزلال غاض فى أجاج ولسلسال فاض عليه بحر عجاج وما كان الا جوهرا دأب الى عنصره ودفا بان عن عين مبصره لقد آن للحسام أن يغمد فلا يشام وللغمام أن تبكيه بكل اراكة وبشام وللعذارى أن لا يحجبهن الخفر والاحتشام ينحن فتى ما ذرت الشمس الا ضر أو نفع ويبكين من لم يدع فقده فى العيش من منتفع فكم نعمنا بدنوه ونسمنا نسيم الانس فى رواحه وغدوه وأقمنا بروضة موشية

ذو معرفة بهيئات الافلاك والنجوم واحكامها فبعث احمد بن طولون برجل من قواده فى اصحابه فحمله فى النيل اليه مكرما وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه وسكن فى اعلاه وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده فلما مثل بحضرة احمد بن طولون نظر الى رجل دلائل الهرم فيه بينة وشواهد ما اتى عليه من الدهر ظاهرة والحواس سليمة والقضية قائمة والعقل صحيح يفهم عن مخاطبه ويحسن البيان والجواب عن نفسه فاسكنه بعض مقاصيره ومهد له وحمل اليه لذيذ المآكل والمشارب فابى ان لا يتواطأ على شئ وان لا يتغذى الا بغذاء كان حمله معه من كعك وغيره وقال هذه بنية قوامها ترون من هذا الغذاء وهذا الملبس فان انتم سمتموها النقلة عن هذه العادة وتناول ما او ردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس كان ذلك سبب انحلال هذه البنية وتفريق هذه الصورة فترك على ما كان عليه وماجرت به عادته وأحضر له احمد بن طولون من حضره من اهل الديار وصرف همته عليه واخلى نفسه له فى ليال وايام كثيرة يسمع كلامه وايراداته وجواباته فيما سئل عنه فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط فقال كانت ارضا لم يكن بمصر ووقفنا

ووقفنا بالمسرات عشية وأدرناها ذهبا سائلة ونظرناها وهي شائلة لم نوم السهر ولم نشم برقا الا الكاس والزهر ولو غير الحمام زحف اليه جيشه أو غير البحر رجف به ارتجاجه وطيشه لفداه من أسرته كل أروع ان عاجله المكروه تثبطه أو جاءه الشر تأبطه ولكنها المنايا لا تردها الصوارم والاسل ولا تفوتها ذئاب الفضاء العسل قد فرقت بين مالك وعقيل وأشرقت بعدهما جذيمة بالحسام الصقيل انتهى وقد عرّفنا بالفتح في غير هذا الموضع فليراجع

(رجع الى بيت بني زهر رحمهم الله تعالى) وأما أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر المذكور فهو من ذلك البيت وان كانوا كلهم أعيانا علماء رؤساء حكماء وزراء وقد نالوا المراتب العلية وتقدّموا عند الملوك ونفذت أوامرهم قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية في المطرب من أشعار أهل المغرب كان شيخنا الوزير أبو بكر بن زهر بمكان من اللغة مكين ومورد من الطب عذب معين وكان يحفظ شعر ذي الرمة وهو ثلث لغة العرب مع الاشراف على جميع أقوال أهل الطب والمنزلة العلياء عند أصحاب المغرب مع سموّ النسب وكثرة الاموال والنشب صحبته زمانا طويلا واستفدت منه أدبا جليلا وأنشد من شعره المشهور قوله

وموسدين على الاكف خدودهم * قد غالهم نوم الصباح وغالني
مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم * حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعلم كيف تأخذ ثارها * اني أملت اناءها فأمالني

ثم قال ابن دحية وسألته عن مولده فقال ولدت سنة سبع وخمسمائة قال وبلغتني وفاته آخر سنة ٥٩٥ رحمه الله تعالى انتهى وزعم ابن خلكان ان ابن زهر ألم في الابيات المذكورة بقول الرئيس أبي غالب عبيد الله بن هبة الله

عاقرتهم مشمولة لو سالمت * شرابها ماسميت بعقار
ذكرت حقائدها القديمة اذ غدت * صرعى تداس بأرجل العصار
لانت لهم حتى انتشوا وتمكنت * منهم وصاحت فيهم بالثار

ومن المنسوب الى أبي بكر بن زهر قوله في كتاب جالينوس المسمى بحيلة البرء وهو من أجل كتبهم وأكبرها

حيلة البرء صنفت لعليل * يترجى الحياة أو لعليله
فاذا جاءت المنية قالت * حيلة البرء ليس في البرء حيله

ومن شعره رحمه الله تعالى يتشوّق ولدا له صغيرا باشبيلية وهو بمراكش

ولي واحد مثل فرخ القطاة * صغير تخلفت قلبي لديه
وافردت عنه فيا وحشتا * لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوّقني وتشوّقته * فيبكي عليّ وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا * فمنه الي ومني اليه

وأخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الاندلسي الاصل الفاسي المولد والنشأة حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسني صاحب المغرب رضي الله تعالى عنه ان ابن زهر لما قال هذه الابيات وسمعها أمير المؤمنين

مثلها استواء وطيب تربة وثراوة وكانت جنانا ونخلا وكرما وشجرا ومزارع وكانت فيها مجار على ارتفاع من الارض وقرى على قرارها ولم ير الناس بلدا احسن من هذه الارض ولا احسن اتصالا من جنانها وكرومها ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها الا الفيوم وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الاصناف الغريبة وكان الماء منحدرا اليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء يسقون منه جنانهم اذا شاؤا وكذلك زروعهم وسائره يصب الى البحر من سائر خلجانه ومن الموضع المعروف بالاشتوم وقد كان بين البحر وبين هذه الارض نحو مسيرة يوم وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوكة الى قبرس تسلكها الدواب يبسا ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس الا مخاضة وجزيرة قبرس اليوم بينها وبين العريش في البحر سير طويل وكذلك فيما بينها وبين ارض الروم وقد كان بين الاندلس في الموضع الذي يسمى الخضراء وهو قريب من فاس المغرب وطنجة قنطرة مبنية بالحجارة والطوب تمر عليها الابل والدواب من ساحل المغرب من بلاد الاندلس الى المغرب وماء البحر تحت تلك القنطرة متقطع خلجانات صغار تجري تحت قناطرها

يعقوب المنصور سلطان المغرب والاندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين الى اشبيلية وأمرهم أن يحتاطوا علما ببيوت ابن زهر وحارته ثم يبنوا امثلها بحضرة مراكش ففعلوا ما أمرهم فى أقرب مدة وفرشها بمثل فرشه وجعل فيها مثل آلاته ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه الى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء الى ذلك الموضع فرآه أشبه شئ ببيته وحارته فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك احلام فقيل له ادخل البيت الذى يشبه بيتك فدخله فاذا ولده الذى تشوق اليه يلعب فى البيت فحصل له من السرور مالا مزيد عليه ولا يعبر عنه هكذا هكذا والا فلا ومن نظم ابن زهر المذكور حيث شاخ وغلب عليه الشيب

انى نظرت الى المرآة قد جليت * فأنكرت مقلتاى كل مارأتا
رأيت فيها شويخا لست أعرفه * وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالامس كان هنا * متى ترحل عن هذا المكان متى
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة * ان الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادى يا أخى وقد * صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

والبيت الاخير ينظر الى قول الاخطل

واذا دعونك عمهن فانه * نسب يزيدك عندهن خبالا
واذا دعونك يا أخى فانه * أدنى وأقرب خلة ووصالا

وقال ابن دحية فى حقه ايضا وهو الذى انفرد به شيخنا وانقاد لطباعه وصارت النهاية فيه من خوله واتباعه الموشحات وهى زبدة الشعر ونخبته وخلاصة جوهره وصفوته وهى من الفنون التى اغرب بها اهل المغرب على اهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق انتهى ومن مشهور موشحات ابن زهر قوله ماللموله من سكره لا يفيق وهذا مطلع موشح يستعمله اهل المغرب الى الآن ويرون انه من احسن الموشحات ومن موشحاته قوله

سلم الامر للقضا * فهو للنفس انفع
واغتنم حين اقبلا * وجهه بدر تهللا * لا تقل بالهموم لا
كل مافات وانقضى * ليس بالحسن يرجع
واصطبح بابنة الكروم * من يدى شادن رخيم * حين يفتر عن نظيم
فيه برق قد اومضا * ورحيق مشعشع
انا افديه من رشا * اهيف القد والحشا * سقى الحسن فانتشى
مذ تولى واعرضا * ففؤادى يقطع
من لصب غدا مشوق * ظل فى دمعه غريق * حين امواجى العقيق
واستقلوا بذى الغضا * اسفى يوم ودعوا
ماترى حين اظعنا * وسرى الركب موهنا * واكتسى الليل بالسنا
نورهم ذا الذى اضا * ام مع الركب يوشع

وماعقد من الطاقات تحتها على صخور صم وقد عقد من كل جانب حجر الى حجر طاق وهو مبدأ بحر الروم الا خذ من اوقيانوس وهو البحر المحيط الا كبر فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلوا ارضا فأرضا فى طول على ممر السنين يرى زيادته اهل كل زمان ويتبينه اهل كل عصر ويقفون عليه حتى علا الماء الطريق الذى كان بين العريش وبين قبرس وعلا القنطرة التى كانت بين الاندلس وبر طنجة وما وصفت فبين ظاهر عند اهل الاندلس واهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة وربما بدا الموضع لاهل المراكب تحت الماء فيقولون هذه القنطرة وكان طولها نحو اثنى عشر ميلا وعرض واسع وسمو بين فلما مضت لدقلطيانوس من ملكه مائتان واحدى وخمسون سنة هجم الماء من البحر على بعض المواضع التى تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه وصار يزيد فى كل عام حتى أغرقها باجمعها فما كان من القرى التى فى قرارها غرق وأما التى كانت على ارتفاع من الارض فبقيت منها تونة وسيمود وغير ذلك مما هى باقية الى هذا الوقت والماء محيط بها وكان أهل القرى التى فى هذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تنيس فيعبونهم واحدا فوق واحد وهى الا كوام ورأيت

ورايت مع هذا موشحا آخر لا ادرى هل هو لابن زهر ام لا وهو

فتق المسك بكافور الصباح * ووشت بالروض اعراف الرياح
فاسقنيها قبل نور الفلق * وغناء الورق بين الورق * كاحمرار الشمس عند الشفق
نسج المزج عليها حين لاح * فلك اللهو وشمس الاصطباح
وغزال سامني بالملق * وبراجسمى واذكى حرقى * اهيف مذ سل سيف الحدق
قصرت عنه انابيب الرماح * وثنى الذعر مشاهير الصفاح
صار بالذل فؤادى كلفا * وجفون ساحرات وطفا * كلما قلت جوى الحب انطفا
أمرض القلب بأجفان صحاح * وسبى العقل بجد ومزاح
يوسفى الحسن عذب المبتسم * قمرى الوجه ليلى اللمم * عنترى الباس علوى الهمم
غصنى القد مهضوم الوشاح * مادرى الوصل صابى السماح
قد بالقد فؤادى هيفا * وسباعقلى لما انعطفا * ليته بالوصل أحيا دنفا
مستطار العقل مقصوص الجناح * ماعليه فى هواه من جناح
يا على أنت نور المقل * جد بوصل منك لى يا أملى * كم أغنيك اذا ما حت لى
طرقت والليل ممدود الجناح * مرحبا بالشمس من غير صباح

*(ومنهم أبو الحجاج الساحلى يوسف بن ابراهيم بن محمد بن قاسم بن على الفهرى الغرناطى) قال فى الاحاطة صدر من صدور حملة القرآن على وتيرة الفضلاء والصالحين حج ولقى الاشياخ بعد أن قرأ على الاستاذ أبى جعفر بن الزبير وطبقته ومن نظمه يخاطب الوزير ابن الحكم وقد اصابته حمى تركت على شفته بثورا

حاشاك أن تمرض حاشاكا * قد اشتكى قلبى اشتكواكا
ان كنت محموما ضعيف القوى * فانني أحسد حماكا
مارضيت حماك اذ باشرت * جسمك حتى قبلت فاكا

قال أبو الحجاج رحمه الله تعالى وكتب الى شيخنا محمد بن محمد بن رشيق فى الاستدعاء الذى أجازنى فيه ولمن ذكر معى

أجزت لهم أبقاهم الله كل ما * رويت عن الاشياخ فى سالف الدهر
وماسمعت أذناى من كل عالم * وماجاد من نظم وماراق من نثر
على شرط أصحاب الحديث وضبطهم * برىء عن التصحيف عار عن النكر
كتبت لهم خطى واسمى محمد * أبو القاسم المكى مافيه من نكر
وجدى رشيق شاع فى الغرب ذكره * وفى الشرق أيضا فادر ان كنت لاتدرى
ولى مولد من بعد عشرين حجة * ثمان على الست المئين ابتدا عمرى
وبالله توفيقى عليه توكلى * له الحمد فى الحالين فى العسر واليسر

ومولد أبى الحجاج المذكور سنة ٦٦٢ وتوفى سنة ٧٠٢ رحمه الله تعالى انتهى باختصار

*(وممن ارتحل من الاندلس الى المشرق شاعر الاندلس يحيى بن حكم البكرى الجيانى) الملقب بالغزال لجماله وهو فى المائة الثالثة من بنى بكر بن وائل قال ابن حيان فى المقتبس

واحدى وخمسون سنة وذلك قبل ان تفتح مصر بمائة سنة قال وقد كان لملك من ملوك الامم كانت داره اليوم معا ركون من اركان البلينا وما اتصل بها من الارض خروق وخنادق وخلجانات فتحت من النيل الى البحر يمنع كل واحد من الآخر وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الارض وسئل عن ملوك الاحابش على النيل ومما لكهم فقال لقيت من ملوكهم ستين ملكا فى ممالك مختلفة كل ملك منهم ينازع من يليه من الملوك وبلادهم حارة يابسة مسودة ويبسها لحرارتها ولاستحكام النارية فيها تغيرت الفضة ذهبا لطبخ الشمس اياها لحرارتها ويبسها وناريتها فتحولت ذهبا وقد يطبخ الذهب الذى يؤتى به من المعدن خالصا صفائح بالملح والزجاج والطوب فيخرج منه فضة خالصة بيضاء وليس يدفع هذا الامر الامن لامعرفة له بما وصفنا ولا قارب شيأ مما ذكرنا قيل له فما منتهى النيل فى أعاليه قال البحيرة

التى لايدرك طولها وأرضها وهى نحو الارض التى الليل والنهار فيها متساويان طول الدهر

كان الغزال حكيم الاندلس وشاعرها وعرافها عمر أربعا وتسعين سنة ولحق أعصار خمسة من الخلفاء المروانية بالاندلس أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم الامير محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم ومن شعره

أدركت بالمصر ملوكا أربعه * وخامسا هذا الذى نحن معه

وله على أسلوب ابن أبى حكيمة راشد بن اسحق الكاتب

خرجت اليك وثوبها مقلوب * ولقلبها طربا اليك وجيب
وكأنها فى الدار حين تعرضت * ظبى تعلل بالفلا مرعوب
وتبسمت فأتتك حين تبسمت * بجمان در لم يشنه ثقوب
ودعتك داعية الصبا فتطربت * نفس الى داعى الضلال طروب
حسبتك فى حال الغرام كعهدها * فى الدار اذ غصن الشباب رطيب
وعرفت ما فى نفسها فضممتها * فتساقطت بهنانة رعبوب
وقبضت ذاك الشئ قبضة شاهن * فنزا الى لعضه حلبوب
بيدى الشمال ولا شمال لطاقة * ليست لاخرى والاديب أريب
فأصاب كفى منه حين لمسته * بلل كماء الورد حين يسيب
وتحللت نفسى للذة رشحه * حتى خشيت على الفؤاد يذوب
فتقاعس الملعون عنه وربما * ناديته خيرا فليس يجيب
وأبى فخفق فى الاباء كأنه * جان يقاد الى الردى مكروب
وتغضنت جنباته فكأنه * كير تقادم عهده مثقوب
حتى اذا ما الصبح لاح عموده * قبسا وحان من الظلام ذهوب
ساءلتها خجلا أمالك حاجة * عندى فقالت ساخروحروب
قالت حرامك اذ أردت وداعها * قرن وفيه عوارض وشعوب

وذكرها ابن دحية بمخالفة لما سردناه قال عتبة التاجر وجهنى الامير الحكم وابنه عبد الرحمن الى المشرق وعبد الله بن طاهر أمير مصر من قبل المأمون فلقيته بالعراق فسالنى عن هذه القصيدة هل أحفظها للغزال قلت نعم فاستنشدنيها فانشدته اياها فسر بها وكتبها قال عتبة ونلت بها حظا عنده والبهنانة المرأة الطيبة النفس والارج كما فى الصحاح وقيل اللينة فى منطقها وعملها وقيل الضحاكة المتهالة والرعوب البسطة البيضاء والسبطة الطويلة وقال سامحه الله تعالى

سالت فى النوم أبى آدما * فقلت والقلب به وامق
ابنك بالله أبو حازم * صلى عليك الملك الخالق
فقال لى ان كان منى ومن * نسلى فحوّا أمكم طالق

وقال رضى الله تعالى عنه

أرى أهل اليسار اذا توفوا * بنوا تلك المقابر بالصخور
أبوا الا مباهاة وفخرا * على الفقراء حتى فى القبور

وهى تحت الموضع الذى تسميه المنجمون الفلك المستقيم وماذكرت فعروف غير منكر وسئل عن بناء الاهرام فقال انها قبور الملوك كان الملك منهم اذا مات وضع فى حوض حجارة ويسمى بمصر والشام الجرن واطبق عليه ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الاساس ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ثم يقنطر عليه البنيان والاقباء ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى ترونه ويجعل باب الهرم تحت الهرم ثم يحفر له طريق فى الارض بعقد أزج فيكون طول الازج تحت الارض مائة ذراع وأكثر ولكل هرم من هذه الاهرام باب يدخل منه على ما وصفت فقيل له فكيف بنيت هذه الاهرام المملسة وعلى أى شئ كانوا يصعدون ويبنون وعلى أى شئ كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد الا بجهد ان قدروا فقال كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج فاذا فرغوا منه نحتوه من فوق الى أسفل فهذه كانت حيلتهم وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم ديانة فقيل له ما بال هذه الكتابة التى على الاهرام والبرابى لا تقرأ فقال دثر الحكماء

فان يكن التفاضل فى ذراها * فان العدل فيها فى القعور
رضيت بمن تانق فى بناء * فبالغ فيه تصريف الدهور
ألما يبصر واماخربته الدهور من المدائن والقصور
لعمر أبيهم لو أبصروهم * لما عرف الغنى من الفقير
ولا عرفوا العبيد من الموالى * ولا عرفوا الاناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف * من البدن المباشر للحرير
اذا أكل الثرى هذا وهذا * فما فضل الكبير على الحقير

وقال رضى الله تعالى عنه

لا ومن أعمل المطايا اليه * كل من يرتجى اليه نصيبا
ما أرى ههنا من الناس الا * ثعلبا يطلب الدجاج وذيبا
أو شبيها بالقط ألقى بعينيه * الى فارة يريد الوثوبا

وقال رضى الله تعالى عنه

قالت أحبك قلت كاذبة * غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله * الشيخ ليس يحبه أحد
سيان قولك ذا وقولك ان الريح نعقدها فتنعقد
أو أن تقولى النار باردة * أو أن تقولى الماء يتقد

وحكى أبو الخطاب بن دحية فى كتاب المطرب ان الغزال ارسل الى بلاد المجوس وقد قارب الخمسين وقد وخطه الشيب ولكنه كان مجتمع الاشد فسالته زوجة الملك يوما عن سنه فقال مداعبا لها عشرون سنة فقالت وماهذا الشيب فقال وما تنكرين من هذا ألم ترى قط مهرا ينتج وهو اشهب فاعجبت بقوله فقال فى ذلك واسم الملكة تود

كلفت يا قلبى هوى متعبا * غالبت منه الضيغم الاغلبا
انى تعلقت مجوسية * تابى لشمس الحسن ان تغربا
اقصى بلاد الله فى حيث لا * يلفى اليه ذاهب مذهبا
ياتود ياورد الشباب الذى * تطلع من ازرارها الكوكبا
يا بأبى الشخص الذى لا ارى * احلى على قلبى ولا اعذبا
ان قلت يوما ان عينى رات * مشبهه لم اعد أنا كذبا
قالت ارى فوديه قد نورا * دعابة توجب ان ادعبا
قلت لها ما با له انه * قد ينتج المهر كذا اشهبا
فاستضحكت عجبا بقولى لها * وانما قلت لكى تعجبا

قال ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحكت وأمرته بالخضاب فغدا عليها وقد اختضب وقال

بكرت تحسن لى سواد خضابى * فكأن ذاك أعادنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف * الا كشمس جللت بضباب

القبط والروم باحرفها على حسب ماولدوه من الكتابة بين الرومى والقبطى الاول فذهب عنهم كتابة آبائهم فقيل له فمن أول من سكن مصر قال أول من نزل هذه الارض مصر بن بيصر بن حام بن نوح وهم فى انساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم فى الارض فقيل له أتعرف بمصر مقاطع رخام قال نعم فى الجبل الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الاوائل تقطع منه العمد وغيرها وكانوا يجلون ماعملوا بالرمل بعد النقر فنها العمد والقواعد والرؤس التى تسميها أهل مصر الاسوانية ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الاولون بعد حدوث النصرانية بمئين من السنين ومنها العمد التى بالاسكندرية والعمود بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله وقد رأيت فى جبل اسوان أخاهذا العمود قد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ولم يحك ماظهر منه وانما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم وسئل عن مدينة العقاب فقال هى غربى اهرام بوصير الجيزة وهى على خمسة ايام بلياليها للراكب المجد وقد عورت طرقها

تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا * فيصير ما سترت به لذهاب
لاتنكرى وضح المشيب فانما * هو زهرة الافهام والالباب
فلدى ماتهوين من زهو الصبا * وطلاوة الاخلاق والآداب انتهى

وحكى ابن حيان فى المقتبس ان الامير عبد الرحمن بن الحكم المروانى وجه شاعره الغزال الى ملك الروم فاعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه ان ينادمه فامتنع من ذلك واعتذر بتحريم الخمر وكان يوما جالسا عنده واذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال لايميل طرفه عنها وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه فانكر ذلك عليه وأمر الترجمان بسؤاله فقال له عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ماقطعنى عن حديثه فانى لم أرقط مثلها وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها وانها شوقته الى الحور العين فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده وسرت الملكة بقوله وأمرت الترجمان أن يساله عن السبب الذى دعا المسلمين الى الختان وتجشم المكروه فيه وتغيير خلق الله مع خلوه من الفائدة فقال للترجمان عرفها ان فيه أكبر فائدة وذلك ان الغصن اذا زبر قوى واشتد وغلظ ومادام لايفعل به ذلك لايزال رقيقا ضعيفا فضحكت وفطنت لتعريضه انتهى ومن شعر الغزال قوله

ياراجيا ود الغوانى ضلة * وفؤاده كلف بهن موكل
ان النساء لكالسروج حقيقة * فالسرج سرجك ريثما لاتنزل
فاذا نزلت فان غيرك نازل * ذاك المكان وفاعل ماتفعل
أو منزل المجتاز أصبح غاديا * عنه وينزل بعده من ينزل
أو كالثمار مباحة أغصانها * تدنو لاول من يمر فيأكل
أعط الشبيبة لاأبالك حقها * منها فان نعيمها متحول
واذا سلبت ثيابها لم تنتفع * عند النساء بكل ماتستبدل

وقال

قال لى يحيى وصرنا * بين موج كالجبال
وتولتنا رياح * من دبور وشمال
شقت القلعين وانبتت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو * ت الينا عن حيال
فرأينا الموت راى الـعـين حالا بعد حال
لم يكن للقوم فينا * يارفيقى رأس مال

ومنها

وسليمى ذات زهد * فى زهيد فى وصال
كلما قلت صلينى * حاسبتنى بالخيال
والكرى قد منعته * مقلتى اخرى الليالى
وهى ادرى فلماذا * دافعتنى بمحال

وعميت المسالك اليها والسمت الذى يؤدى نحوها وذكر مافيها من عجائب البنيان والجواهر والاموال والعلة التى لها سميت مدينة العقاب ووصف مدينة أخرى غربى اخميم من أرض الصعيد ذات بنيان عجيب اتخذتها الملوك السالفة وذكر من شان هذه المدينة الاخرى عجائب من الاخبار وزعم ان بينها وبين أخميم من أرض الصعيد مسيرة ستة أيام وسئل عن النوبة وأرضها فقال هم أصحاب ابل وبخت وبقر وغنم وملكهم يستعبد الخيل العتاق والاغلب من ركوب عوامهم البراذين ورميهم بالنبل عن قسى عربية وعنهم أخذ الرمى أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب وهم الذين تسميهم العرب رماة الحدق ولهم النخل والكرم والذرة والموز والحنطة وارضهم كانها جزء من أرض اليمن وللنوبة أترج كاكبر مايكون بارض الاسلام وملوكهم تزعم انها من حمير وملكهم يستولى على مقرا ونوبة وعلوة ووراء علوة أمة عظيمة من السودان تدعى بكنه وهم عراة كالزنج وأرضهم تنبت الذهب وفى مملكة هذه الامة يفترق النيل فيتشعب منه خليج عظيم ثم يخضر الخليج من بعد انفصاله من النيل وينحدر الا كثر الى بلاد النوبة وهو لايتغير فاذا

اترى انا اقتضينا * بعد شيأ من نوال

وله

من ظن ان الدهر ليس يصيبه * بالحادثات فانه مغرور
فالق الزمان مهونا لخطوبه * وانجر حيث يجرك المقدور
واذا تقلبت الامور ولم تدم * فسواء المحزون والمسرور

وعاش الغزال اربعا وتسعين سنة وتوفى فى حدود الخمسين والمائتين سامحه الله تعالى وكان الغزال اقزع فى هجاء على بن نافع المعروف بابن زرياب فذكر ذلك لعبد الرحمن فامر بنفيه فدخل العراق وذلك بعد موت ابى نواس بمدة يسيرة فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساوون شعر أحد بشعره فجلس يوما مع جماعة منهم فازروا باهل الاندلس واستهجنوا أشعارهم فتركهم حتى وقعوا فى ذكر ابى نواس فقال لهم من يحفظ منكم قوله

ولما رأيت الشرب اكدت سماؤهم * تابطت زقى واحتبست عنائى
فلما اتيت الحان ناديت ربه * فثاب خفيف الروح نحو ندائى
قليل هجوع العين الا تعلة * على وجل منى ومن نظرائى
فقلت اذقنيها فلما اذاقها * طرحت عليه ريطتى وردائى
وقلت اعرنى بذلة استتربها * بذلت له فيها طلاق نسائى
فوالله ما برت يمينى ولا وفت * له غير انى ضامن بوفائى
فابت الى صحبى ولم أك آيبا * فكل يفدينى وحق فدائى

فأعجبوا بالشعر وذهبوا فى مدحهم له فلما أفرطوا قال لهم خفضوا عليكم فانه لى فانكروا ذلك فانشدهم قصيدته التى اولها

تداركت فى شرب النبيذ خطائى * وفارقت فيه شيمتى وحيائى

فلما أتم القصيدة بالانشاد خجلوا وافترقوا عنه *(وحكى) أن يحيى الغزال أراد أن يعارض سورة قل هو الله أحد فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالة لم يعرفها فاناب الى الله فعاد الى حاله *(وحكى) ان عباس بن ناصح الثقفى قاضى الجزيرة الخضراء كان يفد على قرطبة و يأخذ عنه أدباؤها ومرت عليهم قصيدته التى أولها

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم * اذا المرء لم يعدم تقى الله والكرم

حتى انتهى القارئ الى قوله

تجاف عن الدنيا فما لمعجز * ولا عاجز الا الذى خط بالقلم

فقال له الغزال وكان فى الحلقة وهو اذ ذاك حدث نظام متأدب ذكى القريحة أيها الشيخ وما الذى يصنع مفعل مع فاعل فقال له كيف تقول فقال كنت أقول فليس لعاجز ولا حازم فقال له عباس والله يا بنى لقد طلبها عمك فما وجدها وأنشد يوما قوله من قصيدة

بقرت بطون الشعر فاستفرغ الحشى * بكفى حتى آب خاويه من بقرى

فقال له بكر بن عيسى الشاعر أما والله يا أبا العلى لئن كنت بقرت الحشى لقد وسخت يديك بقرته وملأتهما بدمه وخبثت نفسك بنتنه وخشمت أنفك بعرفه فاستحيا عباس

كان فى بعض الازمنة انفصل الاكثر من الماء فى ذلك الخليج وابيض الاكثر واخضر الاقل فدشق ذلك الخليج أودية وخلجان واعماق مانوسة حتى يخرج الى جلاسق والجنوب وذلك ساحل الزنج ومصبه فى بحرهم ثم سئل عن الفيوم والمنهى وبحر اللاهون فذكر كلاما طويلا فى امر الفيوم وان جارية من بنات الروم وابنها نزلا الفيوم وكانا البدء فى عمارتها وعمارة ارضها وانما كان الماء ياتى الفيوم من المنهى أيام جرى النيل ولم يكن بحر اللاهون بنى وانما كان مصب الماء من المنهى من الموضع المعروف بدمونة ثم بنى اللاهون على ما هو اليوم عليه ويقال ان يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم عليهم السلام بناه ايام العزيز ودبر من امر الفيوم ماهو اليوم قائم بين من الخلج المرتفعة المطاطئة وهو خليج فوق خليج فوق خليج وهى القنطرة المعروفة بسفونه واقام العمود الذى فى وسط الفيوم وهو غائص فى الارض لايدرك منتهاه منها وهو احد عجائب الدنيا مربع الشكل قد جهد اناس من الامم ممن ورد بعد يوسف عليه السلام ان ينتهوا الى آخره فى الارض حفر فلم يتأت لهم ذلك وغلبهم الماء وعجزهم ورأس هذا العمود مساو الارض المنهى قال وأما بحر

بعينها فقيما من السطح الى القرية ستون ذراعا وربما قل الماء فى المنهى وظهر بعض الدرج وفى حائط الحجر فوّارات بعضها اليوم يخرج منه الماء وبعض لايرى وفيما بين سطح الحجر الذى مابين القبتين وبين القرية شاذروان وهو أسفل من الدرج وانما يدخل الماء الفيوم بدوب الحجر وجعلت الاسقالة وهى القناطر ليخرج الماء منها ولا يعلو الماء الحجر أيام سده فبالتقدير ببناء حجر اللاهون وبقدر ما يكفى الفيوم من الماء يدخل اليها وبناء حجر اللاهون من أعجب الامور ومن أحكم البنيان ومن البناء الذى يبقى على وجه الارض لايتحرك ولا يزول بالهندسة عمل وبالفلسفة أتقن وفى السعود نصب وقد ذكر كثير من أهل بلدنا أن يوسف عليه السلام عمل ذلك بالوحى والله أعلم ولم تزل ملوك الارض اذا غلبت على بلادنا واحتوت على أرضنا صارت الى هذا الموضع فتاملته لما قد نمى اليها من أخباره وسارفى الخلقة من عجائب بنيانه واتقانه

وأفخم عن جوابه * (ومنهم الشهير بالمغارب والمشارق المحلى بجواهره صدور المهارق ابو الحسن على بن موسى بن سعيد العنسى) متمم كتاب المغرب فى اخبار المغرب قال فيه وأنا اعتذر فى ايراد ترجمتى هنا بما اعتذر به ابن الامام فى كتاب سمط الجمان وبما اعتذر به الحجارى فى كتاب المسهب وابن القطاع فى الدرة الخطيرة وغيرهم من العلماء فى نظمه عند ماورد الديار المصرية

أصبحت أعترض الوجوه ولا أرى * مابينها وجها لمن أدريه
عودى على بدئى ضلالا بينهم * حتى كانى من بقايا التيه
ويح الغريب توحشت ألحاظه * فى عالم ليسوا له بشبيه
ان عادلى وطنى اعترفت بحقه * ان التغرب ضاع عمرى فيه

وله من قصيدة يمدح ملك افريقية أباز كريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى جعفر

الافق طلق والنسيم رخاء * والروض وشت برده الانداء
والنهر قد مالت عليه غصونه * فكانما هو مقلة وطفاء
وبدا انتثار الجلنار بصفحه * فكانما هو حية رقطاء
والشمس قد رقمت طرازا فوقه * فكانما هى حلة زرقاء
فأدر كؤسك كى يتم لك المنى * واسمع الى ماقالت الورقاء
تدعوك حى على الصبوح فلا تنم * فعلى المنام لدى الصباح عفاء

وله

لم جفانى ورمت أدعو عليه * فتوقفت ثم ناديت قائل
لاشفى الله لحظه من سقام * وأرانى عذاره وهو سائل

وله من قصيدة كتب بها الى ملك سبتة الموفق أبى العباس أحمد بن ابى الفضل النيشتى شافعا لشخص رغب فى خدمته

بالعدل قمت وبالسماح فمن وجد * لافارقتك كفاية وعطاء
ما كل من طلب السعادة نالها * وطلاب ما يابى القضاء شقاء

ومنها

وقد استطار باسطرى نحو الندى * من أنهضته نحوك العلياء
طلب النباهة فى ذراك فماله * الاالديك تامل ورجاء
وهو الذى بعد التجارب أحمدت * أحواله وجرى عليه ثناء
لايقرب الدنس المريب كواصل * هجرته خوفا أن يشان الراء
قد مارس الحرب الزبون زمانه * وجرت عليه شدة ورخاء
وعلاك تقضى أن يسود بأفقها * لاغرو أن يعلى الشهاب بهاء

وقوله من قصيدة

ألف التغرب والتوحش مثل ما * ألف التوحش والنفور ظباء
بجنابه ألفوا التجهم والجفا * فهم لكل أخى هدى أعداء

وكان هذا الرجل من أقباط مصر ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية فامر أحمد بن طولون فى   مهما

مهما يرم طلب اليه تقربا * بعدت بذاك البدر عنه سماء
لكنني مازلت أخدع حاجبا * ومراقبا حتى ألان حباء
والارض لم تظهر محجب نبتها * حتى حبتها الديمة الوطفاء

قيل وهذا معنى لم يسمع من غيره وقوله فى خسوف البدر

شان الخسوف البدر بعد جماله * فكأنه ماء عليه غثاء
أومثل مرآة لخود قد قضت * نظرا بها فعلا لاجلاء غشاء

وله من قصيدة عتاب يقول فيها

ولقد كسبت بكم علا لكنها * صارت باقوال الوشاة هباء
فغدوت مابين الصحابة أجربا * كل يحاذر منى الاعداء
ولقد أرى ان النجوم تقل لى * حبا وأصغر أن أحل سماء
فليهجروا وهجر الفطيم لدره * ويساعدوا الزمن الخؤن جفاء
فلقد شكوت لهم احالة ودهم * اذلم أكن أرضى بهم خدماء
ايه فذكرهم أقل وانما * أومى اليك فتفهم الايماء
لولم يكن قيد لما فتكت ظبا * أنت الذى صيرتهم أعداء
ولوانني أرجوا رتجاعك لم أطل * شكوى ولم أستبعد الاغضاء
لكن رايتك لاتميل بمحبة * نحوى ولاتتكلف الاصغاء
ان لم يكن عطف فنوا بالنوى * ان الكريم اذا اهين تناءى

وقوله

ولكم سرينا فى متون ضوامر * تفنى أعنتها من الخيلاء
من ادهم كالليل جل بالضحى * فنشق غرته عن ابن ذكاء
اواشهب يحكى غدائر اشيب * خلعت عليه الشهب فضل رداء
اواشقر قد غقته بشعلة * كالمزج ثار بصفحة الصهباء
اواصفر قد زينته غرة * حتى بدا كالشمعة الصفراء
طارت ولكن لايهاض جناحها * هبت ولكن لم تكن برخاء

وقوله من ابيات فى افتضاض بكر

وخريدة ما ان رأيت مثالها * حيت من الالحاظ بالايماء
فسالتها سمع الشكاة فأفهمت * ان الرقيب جهينة الانباء
وتبعتها وسالت منها قبلة * فى خلوة من اعين الرقباء
فثنت على قوامها بتعانق * أحيا فؤادا مات بالبرحاء
ووجدتها لما ملكت عنانها * عذراء مثل الدرة العذراء
جاءت الى كوردة محمرة * فتركتها كعرارة صفراء
وسلبتها اماحرمنها صفوه * يجرى مذابا بمجمع الرجاء

وقوله من أبيات

أحبابنا عودوا علينا عودة * مامنكم بعد التفرق مرغب

بعض الايام وقد أحضر مجلسه بعض أهل النظر أن يساله عن الدليل على صحة دين النصرانية فساله عن ذلك فقال دليلى على صحتها وجودى اياها متناقضة متنافية تدفعها العقول وتنفر منها النفوس لتباينها وتضادها لانظر يقويها ولابرهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها ورأيت مع ذلك أمما كثيرة وملوكا عظيمة ذوى معرفة وحس قد انقادوا اليها وتدينوا بها فعلمت انهم لم يقبلوها ولم يتدينوا بها مع ماذكرت من تناقضها فى العقل الالدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم اليها والتدين بها قال له السائل وما التضاد الذى فيها قال وهل يدرك أو يعلم غايته منها قولهم بان الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ووصفهم الاقانيم والجوهر وهو التالوث وهل الاقانيم فى أنفسها قادرة عالمة أم لا وفى اتحاد ربهم القديم بالانسان المحدث وماجرى فى ولادته وقتله وصلبه وهل فى التشنيع أكبر وأفحش من اله صلب وبصق فى وجهه ووضع على رأسه الاكليل من الشوك وضرب رأسه بالقضيب وسمرت يداه ونخس بالاسنة والخشب جنباه وطلب الماء فسقى الخل فى بطيخ الحنظل فامسكوا عن مناظرته وانقطعوا

لم ذا أداريكم بنفسي جاهدا * وكأنما أرضيكم كي تغضبوا
وأزيد بعدا ما اقتربت اليكم * كالسهم أبعد ما يرى اذ يقرب
وأجوب نحوكم المنازل جاهدا * ومع اجتهادي فاتني ما أطلب
كالبدر أقطع منزلا في منزل * فاذا انتهيت الى ذراكم أغرب

وقوله من أبيات

سألتك يا من يستلان فيصعب * ومن يترضى بالحياة فيغضب
أما خدك البدر المنير فلم غدت * تحل به ضد القضية عقرب

وقوله وقد داعبه أحد الفقهاء وسرق سكينه من حرز

أيا سارقا ملكا مصونا ولم يجب * على يده قطع وفيه نصاب
ستندبه الاقلام عند عثارها * ويبكيه ان يعد الصواب كتاب

وقوله في تفاحة عنبر أهديت للملك الصالح نجم الدين أيوب

أنا لون الشباب والخال أهديت لمن قد كسا الزمان شبابا
ملك العالمين نجم بني أيوب لا زال في المعالي شهابا
جئت ملأى من الثناء عليه * من شكور احسانه والثوابا
لست ممن له خطاب ولكن * قد كفاني أريج عرفي خطابا

وقوله من قصيدة

فالحمد لله على ساعة * قد قربتني من علا الصاحب
وليعذر المولى على انني * قد كنت من علياه في جانب
كمن أتى نافلة أولا * ثم أتى من بعد بالواجب

وقوله من أبيات

فان كنت في أرض التغرب غاربا * فسوف تراني طالعا فوق غارب
وصمصام عمرو حين فارق كفه * رموه ولا ذنب لحد المضارب
وما عزة الضرغام الا عرينه * ومن مكة سادت لؤي بن غالب

وقوله في فرس أصفر أغر أخل الحلية

وأجرد تبرى أثرت به الثرى * وللفجر في خصر الظلام وشاح
له لون ذي عشق وحسن معشق * لذلك فيه ذلة ومراح
عجبت له وهو الاصيل بعرفه * ظلام وبين الناظرين صباح
يقيد طير اللحظ والوحش عندما * يطير به نحو النجاح جناح

وقوله من أبيات

اذا ما غراب البين صاح فقل له * ترفق رماك الله يا طير بالبعد
لأنت على العشاق أقبح منظرا * وأكره في الابصار من ظلمة اللحد
تصيح بنوح ثم تعثر ماشيا * وتبرز في ثوب من الحزن مسود
متى صحت صح البين وانقطع الرجا * كأنك من وشك الفراق على وعد

وقوله

عن مجادلته لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهنه فقال طبيب لابن طولون يهودي قد حضر المجلس أيأذن لي الامير في مخاطبته قال شأنك فأقبل على القبطي مسائلا له فقال له القبطي وما أنت أيها الرجل وما نحلتك قال له يهودي فقال له مجوسا اذا قال له كيف ذلك وهو يهودي قال لانهم يرون نكاح البنات في بعض الحالات اذ كان في دينهم ان الاخ يتزوج بنت أخيه وعليهم ان يتزوجوا نساء اخوتهم اذا ماتوا فاذا وافق اليهودي أن تكون امرأة أخيه ابنته لم يجد بدا من ان يتزوجها وهذا من اسرارهم وما يكتمونه ولا يظهرونه فهل في المجوسية اشنع من هذا فانكر اليهودي ذلك وجحد ان يكون في دينه او يعرفه احد من اليهود فاستخبر ابن طولون صحة ذلك فوجد الطبيب اليهودي قد تزوج امرأة أخيه وكانت بنته ثم أقبل القبطي على ابن طولون فقال أيها الامير هؤلاء يزعمون وأشار الى اليهودي ان الله خلق آدم على صورته وعن نبي من انبيائهم سماه قال في كتابه انه رآه في قديم الزمان أبيض الرأس واللحية وان الله تعالى قال اني أنا النار المحرقة والحمى الآخذة وأنا الذي آخذ الابناء بذنوب الآباء ثم في توراتهم ان بنات لوط سقينه الخمر حتى

وقوله فى غلام جميل الصورة أهدى تفاحة

ناب ماأهديت عن عر * ف وعن ريق وخد
حبذا تفاحة قد * أشبهت أوصاف مهدى
بت منها فى سرور * فكأن قد بت عندى

وقوله من قصيدة

هذا الذى يهب الدنيا بأجمعها * وبعد ذلك لـلنفى وهو يعتذر
ان هزه المدح فالاموال فى بدر * والغصن ماهز الا بدد الثمر
فقلت لمابدالى حسن منظره * لكنه زاد اشراقا هو القمر
متع لحاظك فى وجه بلاضرر * ان كان شمسا تراها تحتها مطر

وقوله من أبيات

لى جيرة ضنوا على وجاروا * فنبت بى الاوطان والاوطار
ومن العجائب انى مع جورهم * ماقرلى بعد الفراق قرار

وقوله

أنا شاعر أهوى التخلى دونما * زوج لكيما تخلص الافكار
لو كنت ذا زوج لكنت منغصا * فى كل حين رزقها أمتار
دعنى أروح طول التغرب خاطرى * حتى أعود ويستقر قرار
كم قائل قد ضاع شرخ شبابه * ماضيعته بطالة وعقار
اذلم أزل فى العلم أجهد دائما * حتى تأتت هذه الابكار
مهما أرم من دون زوج لم أكن * كلا ورزقى دائما مدرار
واذا خرجت لفرجة هنيتها * لاضيعة ضاعت ولاتذكار

وقوله من قصيدة

ماكنت أحسب أن أضيع وأنت فى الدنيا وأن أمسى غريبا معسرا
أنا مثل سهم سوف يرجع بعدما * أقصاه راميه المجيد ليخبرا

وقوله سامحه الله تعالى

وانى على انما بسيف * والبين قدحان والوداع
فقال شبه فقلت شمس * قدمه من نورها شعاع

وقوله من قصيدة فى ملك اشبيلية الباجى وقد هزم ابن هود

لله فرسان غدت راياتهم * مثل الطيور على عداك تحلق
السمر تنقط ماتسطر بيضهم * والنقع يترب والدماء تخلق

وقال ارتجالا عضر زكى الدين بن أبى الاصبع وجمال الدين بن أبى الحسين الجزار المصرى الشاعر ونجم الدين بن اسرائيل الدمشقى بظاهر القاهرة وقد مشى أحدهم على بسيط نرجس

ياواطئ النرجس ماتستحى * أن تطأ الاعين بالارجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا اجازته فقال ابن أبى الاصبع مجيزا

هرون صنع العجل الذى عبده بنو اسرائيل وأن موسى أظهر معجزات لفرعون وفعلت السحرة مثلها ثم قالوا فى ذبائح الحيوان والتقرب الى الله بدمائها ولحومها وتحكمهم على العقل ومنعهم من النظر بغير برهان وهو قولهم ان شريعتهم لاتنسخ ولايقبل قول أحد من الانبياء بعد موسى اذا انحرف عما جاء به موسى ولافرق فى قضية العقل بين موسى وغيره من الانبياء اذا أتى ببرهان وبان بحجة ثم الا كبر من كفرهم قولهم فى يوم عيد الكفور وهو يوم الاستغفار وذلك لعشر تخلو من تشرين الاول ان الرب الصغير يسمونه متطرون يقوم فى هذا اليوم قائما و ينتف شعور رأسه ويقول ويلى اذ خربت بيتى وأيتمت بنتى قامتى منكسة لاأرفعها حتى آتى بنتى وذكر عن اليهود أقاصيص وتخاليط كثيرة ومناقضات واسعة ولهذا القبطى مجالس كثيرة عن أحد ابن طولون مع جماعة من الفلاسفة والديصانية والثنوية والصابئة والمجوس وعدة من متكلمى الاسلام وقد أتينا على ما احتمل منها ايراده فى كتابنا فى أخبار الزمان

فقلت دعنى لم أزل محرجا * على لحاظ الرشا الاكحل

وكان أمثل ماحضرهم ثم أبوا أن يجيزه غيره فقال

قابل جفونا بجفون ولا * تبتذل الارفع بالاسفل

وقوله فى الجزيرة الصالحية بمصر وهى الشهيرة الآن بالروضة

تأمل لحسن الصالحية اذ بدت * مناظرها مثل النجوم تلالا
وللقلعة الغراء كالبدر طالعا * تفجر صدر الماء عنه هلالا
ووافى اليها النيل من بعد غاية * كزائر مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق لحسنها * فمد يمينا نحوها وشمالا
جرى قادما بالسعد فاختط حولها * من السعد اعلاما بذلك دالا

وقوله من أبيات فى ملك أفريقية وقد جهز ولده الامير أبا يحيى بعسكر

وقد أرسلته نحو الاعادى * كما جردت من غمد حساما

وقوله فى قوس

أنا مثل الهلال فى ظلم النقع سهامى تنقض مثل النجوم
تقصر القضب والقنا عن مجالى * عند رجمى بها الكل رجيم
قد كستها الطيور لما رأتها * كافلات لها برزق عميم

وقوله من أبيات

وأشقر مثل البرق لونا وسرعة * قصدت عليه عارض الجود فانهمى

(ولنذكر ترجمته من الاحاطة ملخصة) * فنقول قال لسان الدين على بن موسى بن عبد الملك ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر ابن كنانة بن قيس بن الحصين العنسى المدلجى من أهل قلعة يحصب غرناطى قلعى سكن تونس أبو الحسن بن سعيد وهذا الرجل وسطى عقد بيته وعلم أهله ودرة قومه المصنف الاديب الرحالة الطرفة الاخبارى العجيب الشان فى التجول فى الاقطار ومداخلة الاعيان المتمتع بالخزائن العلمية وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية أخذ من اعلام اشبيلية كابى على الشلوبين وأبى الحسن الدباج وابن عصفور وغيرهم وتواليفه كثيرة منها المرقصات والمطربات والمقتطف من أزاهر الطرف والطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد تاريخ بيته وبلده والموضوعان الغريبان المتعدد الاسفار وهما المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق وغير ذلك مما لم يتصل الينا فلقد حدثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم انه تخلف كتابا يسمى المرزمة يشتمل على وقر بعير من رزم الكراريس لا يعلم مافيه من الفوائد الادبية والاخبارية الا الله تعالى وتعاطى نظم الشعر فى حد من الشبيبة يجب فيه من مثله فيذكر انه خرج مع أبيه الى اشبيلية وفى صحبته سهل بن مالك فجعل سهل ابن مالك يباحثه عن نظمه الى أن أنشده فى صفة نهر والنسيم يردده والغصون تميل عليه

كأنما النهر صفحة كتبت * أسطرها والنسيم ينشئها
لما أبانت عن حسن منظرها * مالت عليها الغصون تقرؤها

وذكرنا جميع ذلك فى كتابنا المقالات فى أصول الديانات وكان هذا القبطى على مانمى الينا من خبره وصح عندنا من قوله يذهب الى فساد النظر والقول بتكافؤ المذاهب وأقام عند ابن طولون نحو سنة فأجازه وأعطاه فأبى قبول شئ من ذلك ثم رده الى بلده مكرما وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ثم هلك وله مصنفات تدل من كلامه على ماذكرنا عنه والله أعلم بكيفية ذلك (قال المسعودى) وفى نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان مما فى البر والبحر من ذلك السمك المعروف بالرعاد وهو نحو الذراع اذا وقعت فى شبكة الصياد رعدت يداه وعضداه فيعلم بوقوعها فيبادر الى أخذها واخراجها عن شبكته ولو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك وقد ذكرها جالينوس وأنها ان جعلت على راس من به صداع شديد أو شقيقة وهى فى الحياة هدأ من ساعته والفرس الذى يكون فى نيل مصر اذا خرج من الماء وانتهى وطؤه الى بعض المواضع من الارض علم أهل مصر ان النيل يزيد الى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه لا يختلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب وفى ظهوره من الماء ضرر بأرباب الارض والغلاة لرعيه الزرع وذلك انه يظهر من

فطرب وأثنى عليه ثم ناب عن أبيه فى أعمال الجزيرة ومازج الادباء ودوّن كثيرا من نظمه ودخل القاهرة فصنع له أدباؤها صنيعا فى ظاهرها وانتهت بهم الفرجة الى صنو نرجس وكان فيهم أبو الحسن الجزار فجعل يدوس النرجس برجله فقال أبو الحسن

ياواطئ النرجس ماتستحى * أن تطأ الاعين بالارجل

فتهافتوا بهذا البيت وراموا اجازته فقال ابن أبى الاصبغ

فقال دعنى لم أزل محنقا * على لحاظ الرشا الاكحل

وكان أمثل ماحضرهم ثم أبوا أن يجيزه غيره فقال

قابل جفونا بجفون ولا * تبتذل الارفع بالاسفل

ثم استدعاه سيف الدين بن سابق الى مجلس بضفة النيل مبسوط بالورد وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال فى ذلك

من فضل النرجس فهو الذى * يرضى بحكم الورد اذ يرأس
اماترى الورد غدا قاعدا * وقام فى خدمته النرجس

ووافق ذلك مماليك الترك وقوفا فى الخدمة على عادة المشارقة فطرب الحاضرون ولقى بمصر أيدمر التركى والبهاء زهيرا وجمال الدين بن مطروح وابن يغمور وغيرهم ودخل صحبة كمال الدين بن القيم الى حلب فدخل على الناصر صاحب حلب فأنشده قصيدة أولها

جدلى بما لقى الخيال من الكرى * لابد للضيف الملم من القرى

فقال كمال الدين هذا رجل عارف ورى بمقصوده من أول كلمة وهى قصيدة طويلة فاستحلبه السلطان وسأل عن بلاده ومقصوده برحلته وأخبره أنه جمع كتابا فى الحلى البلادية والعلى العبادية المختصة بالمشرق وأخبره أنه سماه المشرق فى حلى المشرق وجمع مثله فسماه المغرب فى حلى المغرب فقال نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك الى ماليس عندنا بخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا فخدم على عادتهم وقال أمر مولاى بذلك انعام وتأنيس ثم قال له السلطان مداعبا ان شعراءنا ملقبون بأسماء الطيور وقد اخترت لك لقبا يليق بحسن صوتك وايرادك للشعر فان كنت ترضى به والا لم نعلم به أحدا غيرنا وهو البلبل فقال قد رضى المملوك ياخوند فتبسم السلطان وقال له أيضا يداعبه اختر واحدة من ثلاث امّا الضيافة التى ذكرتها أوّل شعرك وامّا جائزة القصيدة وامّا حق الاسم فقال ياخوند المملوك ممالايختنق بعشر لقم لانه مغربى أكول فكيف بثلاث فطرب السلطان وقال هذا مغربى ظريف ثم أتبعه من الدنانير والخلع والتواقيع بالارزاق مالايوصف ولقى بحضرته عون الدين العجمى وهو بحر لاينزفه الدلاء والشهاب التلعفرى والتاج بن شقير وابن نجيم الموصلى والشرف بن سليمان الاربلى وطائفة من بنى الصاحب ثم تحول الى دمشق ودخل الموصل وبغداد ودخل مجلس السلطان المعظم بدمشق وحضر مجلس خلوته وكان ارتحاله الى بغداد فى عقب سنة ثمان وأربعين وستمائة فى رحلته الاولى اليها ثم رحل الى البصرة ودخل أرجان وحج ثم عاد الى المغرب وقد صنف فى رحلته مجموعا سماه بالنفحة المسكية فى الرحلة المكية وكان نزوله بساحل مدينة أقليبية من أفريقية فى احدى جمادى سنة

الماء فى الليل فينتهى الى موضع من الزرع ثم يولى عائدا الى الماء فيرعى فى حال ٤٠١ رجوعه من الموضع الذى انتهى اليه مسيره ولا يرعى من ذلك شيأ فى ممره كانه يحدد مقدار مايرعاه فيها اذا رعت وو ردت الى النيل فشربت ثم تقذف مافى اجوافها فى مواضع شتى فينبت ذلك مرة ثانية فاذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بار باب الضياع طرح له الترمس فى الموضع الذى يعرف خروجه منه مكاكى كثيرة مبددا مبسوطا فيأكله ثم يعود الى الماء فيربو فى جوفه ويزداد فى انتفاخه فيشق جوفه فيموت ويطفو على الماء ويقذف به الى الساحل والموضع الذى يكون فيه لايكاد يرى فيه تمساح وهو على صورة الفرس الا ان حوافره والذنب بخلاف ذلك والجبهة اوسع (قال المسعودى) وقد ذكر جماعة من الشرعيين ان بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن ارض بابل بولده وكثير من أهل بيته غرب نحو مصر وكان له أولاد أربعة مصر بن بيصر وقوف بن بيصر وساح وباح فنزل بموضع يقال له منف وبذلك يسمى الى وقتنا هذا وكان عددهم ثلاثين فسميت بهم كما سميت مدينة ثمانين من ارض الجزيرة وبلاد الموصل من بلاد بنى حمدان وانما نسبت الى عدد ساكنيها ممن كان مع نوح فى السفينة

اثنتين وخمسين وستمائة واتصل بخدمة الامير أبى عبدالله المستنصر فنال الدرجة الرفيعة من حظوته حدثنى شيخنا الوزير أبو بكر بن الحكيم ان المستنصر جفاه فى آخر عمره وقد أسن لجراءة خدمة مالية أسندها اليه وقد كان بلا ءمنه قبل جفوة أعقبها انتشال وعناية فكتب اليه بنظم من جملته لا ترعنى بالجفا ثانية فرق له وعاد الى حسن النظر اليه الى ان توفى تحت بر وعناية مولده بغرناطة ليلة الفطر سنة عشر وستمائة ووفاته بتونس فى حدود خمسة وثمانين وستمائة انتهى باختصار * وذكرت حكاية اجازة بيته فى النرجس وان تقدمت لاتصال الكلام قلت قد كنت وقفت على بعض ديوان شعره المتعدد الاسفار ونقلت منه قوله من قصيدة يهنى ابن عمه الرئيس أباعبدالله بن الحسين بقدومه من حركة هوارة

أما واجب أن لا يحول وجيب * وقد بعدت دار وحان حبيب
وليس أليف غير ذكر وحسرة * ودمع على من لا يرق صبيب
وخفق فؤاد ان هفا البرق خافقا * وشوق كما شاء الهوى ونحيب
ويعذلنى من ليس يعرف ما الهوى * وعذل مشوق فى البكاء عجيب
الاتعس اللوام فى الحب قد عموا * وصموا ودائى ليس منه طبيب
يرومون أن يثنى الملام صبابتى * ولست الى داعى الملام أجيب
وفائى اذا ما غبت عنكم مجدد * وغيرى ذو غدر وان يغيب
ولو لم يكن منى الوفاء سجية * لكنت لغير ابن الحسين أنيب
سموأل هذا العصر حاتم جوده * مهلبه ان مارسته حروب
فتى سير الامداح شرقا ومغربا * أبو دلف من دونه وخصيب
اذا رقم القرطاس قلت ابن مقلة * وان نظم الاشعار قلت حبيب
وان نثر الاسجاع قلت سميه * وان سرد التاريخ قلت غريب
وما أحرز الصولى آدابه التى * اذا ما تلاها لم يجبه أديب

ومنها

وأما اذا ما الحرب أخمد نارها * ففيه تلظى مارج ولهيب
فكم قارع الابطال فى كل وجهة * نحاها وكم لفت عليه حروب
وكائن له بالغرب من موقف له * حديث اذا يتلى تطير قلوب
عزا كش سل عنه تعلم غناءه * وقد ساءهم يوم هناك عصيب
اذا ما انثنى الرمح الطويل كانه * مدبر لغصن الخيزران لعوب
وان جره أبصرت نجما مجررا * ذؤابته منه الكماة تذوب
يهيم به ما ان يزال معانقا * له را كعات ما تحوز كعوب
محمد لا تبعد الذى أنت قادر * عليه وخف عينا علاك تصيب
نفوذ سهام العين أودى بمصعب * وطاح به بعد الشبوب شبيب
ألا فهنيأ أن رجعت لتونس * فاطلعت شمسا والشفار غروب

وأخصبت البلاد وتملك عليهم مصر بن بيصر وملك من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام وقيل من العريش وقيل من الموضع المعروف بالشجرة وهو آخر أرض مصر والفرق بينها وبين الشام وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح الى بلاد اسوان من أرض الصعيد طولا ومن ايلة وهى تخوم الحجاز الى برقة عرضا وكان لمصر أولاد أربعة وهم قبط واشمون واتريب وصا فقسم مصر الارض بين أولاده الاربعة أرباعا وعهد الى الاكبر من ولده وهو قبط وأقباط مصر يضافون فى النسب الى أبيهم قبط ابن مصر وأضيفت المواضع الى سا كنيها وعرفت باسمائهم فمنها أشمون وقبط وصا واتريب وهذه أسماء هذه المواضع الى هذه الغاية واختلطت الانساب وكثر ولد قبط وهم الاقباط فغلبوا على سائر الارض ودخل غيرهم فى انسابهم لما ذكرنا من الكثرة فقيل لكل قبط مصر وكل فريق منهم يعرف نسبه واتصاله بمصر بن بيصر بن حام بن نوح الى هذه الغاية ولما هلك قبط بن مصر ملك بعده أشمون بن مصر

كوا كبها تبدو اذا ما ترى كتها * وقد جعلت مهما حضرت تغيب
اذا سدت فى أرض فغيرك تابع * علاك ومهما ساد فهو مريب

ومنها

كفانى أنى استظل بظلكم * ومن هاب ذاك المجد فهو مهيب
فاصلك أصلى والفروع تباينت * بعيد على من رامه وقريب
وحسبى فخرا أن أقول محمد * نسيب على جل عنه نصيب
تركت جميع الاقربين لقصده * على حين حانت فتنة وخطوب
رأيت به جنات عدن فلم أبل * اذا وصلتنا للخلود شعوب
فقبلت كفا الاعاب بلثمها * وأيدى الايادى لثمهن وجوب
وكيف وليس الرأس كالرجل فرقت * شيات لعمرى بيننا وضروب
ولو كان قدرى مثل قدرك فى العلا * لحق بان يعلو الشباب مشيب
ولولا الذى أسمعت من مكر حاسد * أتاك بقول وهو فيه كذوب
لما كنت محتاجا لقولى آنفا * تخليت من ذنب وجئت أتوب
اذا كنت ذا طوع وشكر وغبطة * فمن أين لى يا ابن الكرام ذنوب
لقد كنت معتادا ببشرها الذى * تقلدته حتى يزال قطوب
أان رفع السلطان سعيى بقربكم * أأخلا عن ورداكم وأخيب
فاحسب ذنبى ذنب صخر بدارها * الى البر عند الخابرين معيب
وحاشاك من جور على وانما * أخاطب من أصغوله فيشوب
صحاب هم الداء الدفين فليتنى * ولم أدن منهم للذئاب صحوب
كلامهم شهد ولكن فعلهم * كسم له بين الضلوع دبيب
سأرحل عنهم والتجارب لم تدع * بقلبى لهم شيأ عليه أثيب
اذا اغترب الانسان عمن يسوءه * فما هو فى الابعاد عنه غريب
فدارك برأب منك ما قد خرقته * ليحسن منى مشهد ومغيب
ولا تستمع قول الوشاة فانما * عدوهم بين الانام نجيب
فيا ليت أنى لم أكن متأدبا * ولم يك لى أصل هناك رسوب
وكنت كبعض الجاهلين محببا * فما أنا الا الهم المسلم حبيب
ومال ان ضربت الدهر زيدا بعمره * ولم يك لى بين الكرام ضريب
أأشكوك أم أشكو اليك فاعدت * عداتى حتى حان منك وثوب
سأشكر ما أولى وأصبر للذى * توالى على أن العزاء سليب
فدم فى سرور ما بقيت فاننى * وحقك مذ ذب الوشاة كئيب

قال وكان سبب التغير بينى وبين ابن عمى الرئيس المذكور أن ملك أفريقية استوزر لاشغال الموحدين ابا العلى ادريس بن على بن أبى العلى بن جامع فاشتمل على وأولانى من البر ما قيدنى وأمال قلبى اليه مع تاكيد ما بينه وبين ابن عمى من الصحبة فلم يزل ينهض بى ويرفع أمداحى للملك

ملك بعده) كالى بن حرايا وأقام فى الملك نحوا من مائة سنة (ثم ملك بعده) أخ له يقال له باليا بن حرايا (ثم ملك بعده) لوطيس ابن باليا نحوا من سبعين سنة (ثم ملكت بعده) ابنة له يقال لها حورياء بنت لوطيس نحوا من ثلاثين سنة (ثم ملكت بعدها) امرأة أخرى يقال لها ماموم وكثر ولد بيصر ابن حام بارض مصر فتشعبوا وملكوا النساء فطمعت فيهم ملوك الارض فسار اليهم من الشام ملك من ملوك العماليق يقال له الوليد بن دومع فكانت له حروب بها وغلب على الملك فانقادوا اليه واستقام له الامر الى أن هلك (ثم ملك بعده) الريان ابن الوليد العملاقى وهو فرعون يوسف وقد ذكر الله تعالى خبره مع يوسف وما كان من أمرهما فى كتابه العزيز وقد أتينا على شرح ذلك فى كتابنا الاوسط (ثم ملك بعده) دارم بن الريان العملاقى (ثم ملك بعده) كامس بن معدان العملاقى (ثم ملك بعده) الوليد بن مصعب وهو فرعون موسى وقد تنوزع فيه فمن الناس من رأى انه من العماليق ومنهم من رأى انه من لخم من بلاد الشام ومنهم من رأى انه من الاقباط من ولد مصر

ابن بيصر وكان يعرف بظلما وقد أتينا على ذلك فى الكتاب الاوسط وهلك فرعون غرقا حين خرج فى

ويوصل اليه رسائلى منبها على ذلك مرشحا الى أن قبض الملك على كاتب عسكره وكان يقرأ بين يديه كتب المظالم فاحتيج الى من يخلفه فى ذلك فنبه الوزير على وارتهن فى مع انى كنت من كتاب الملك فقلدنى قراءة المظالم المذكورة وسفر الى الوزير عنده فى دار الكاتب المؤخر فانعم بها فوجد الوشاة مكانا متسعا للقول فقالوا وزوروا من الاقاويل المختلقة ما مال بها حيث مالوا وظهر منه مخايل التغيير فجعلت اداريه وأستعطفه فلم ينفع فيه قليل ولا كثير الى أن سعى فى تأخير والدى عن الكتب للامير الاسعد أبى يحيى بن ملك افريقية ثم سعى فى تأخيرى فأخرت عن الكتابة وعن قراءة المظالم فانفردت بالكتابة للوزير المذكور وفوض الى جميع اموره وأولانى من التأنيس ما أنسانى تلك الوحشة ومن العز ما أنقذنى من تلك الذلة

فردعلى العيش بعد ذهابه * وآنسنى بعد انفرادى من الاهل
وقالوا اذا ما الوبل فاتك فاقتنع * بما قد تسنى عندك الآن من طل
ووالله ما نعماه طل وانما * تأديه غيث يجود على المحل
رآنى ظمآ فى الهجيرة ضاحيا * فرق وآوانى الى الماء والظل

ولم أزل عنده فى أسر حال ما لها تكدير الا ما يبلغنى من أن ابن عمى لا يزال يسعى فى حقى بما اخشى مغبته وخفت أن يطول ذلك فيسمع منه ولا ينفع دفاع الوزير المذكور عنى فرغبت له فى أن يرفع للملك أنى راغب فى السراح الى المشرق برسم الحج

ومن بله الغيث فى بطن واد * وبات فلا يأمن السيولا

فلم يسعفنى فى ذلك ولامنى على تخوفى وقلة ثقتى بحمايته فرفعت له هذه القصيدة

هل الهجر الا أن يطول التجنب * و يبعد من قد كان منه التقرب
وتقطع رسل بيننا ورسائل * و يمنع لقيانا نوى وتحجب
ولو أننى أدرى لنفسى زلة * جعلت لكم عذرا ولم أك أعتب
ولكنكم لما ملكتم هجرتم * وذنبتم فى الحب من ليس يذنب
الى الله اشكو غدركم وملالكم * وقلبا له ذاك التعذب يعذب
فلو أنه يجزيكم بفعالكم * لكان له عنكم مراد ومطلب
ولكن أبى أن لا يحن لغيركم * وأن لا يرى عنكم مدى الدهر مذهب
فهلا رعيتم أنه فى ذراكم * غريب وليس الموت الا التغرب
لزمتك لما ان رأيتك كاملا * جمالا واجمالا وذلك يحبب
وانى لاخشى أن يطول اشتكاؤه * لمن ان اتى مكرا فليس يثرب
فلم أسع الا لارتياح وراحة * وغيرى وقد آواه غيرك يتعب
فانت الذى آويتنى ورحمتنى * وذو الرحم الدنيا الذارى يحطب
فما مر يوم لا يريد مصيبة * عليك وبالتدبير منك يجبب
وهبه ثبوتا لا يحيل أما ترى * مجر حبال فى الحجارة يرسب
وهبه لسداف كم أنت حاضر * أحاذر خرقا منه أن يتسببوا

طلب بنى اسرائيل حين اخرجهم موسى بن عمران وجعل الله لهم طريقا فى البحر يبسا ولما غرق فرعون ومن كان معه من الجنود وخشى من بقى بارض مصر من الذرارى والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب فملكوا عليهم امرأة ذات رأى وحزم يقال لها دلوكة فبنت على بلاد مصر حائطا يحيط بجميع البلاد وجعلت عليه المحارس والاجراس والرجال متصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض وأثر هذا الحائط باق الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة يعرف بحائط العجوز وقيل انما بنته خوفا على ولدها وكان كثير القنص فخافت عليه سباع البر والبحر واغتيال من جاور أرضهم من الملوك والبوادى فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها وقد قيل فى ذلك من الوجوه غير ما ذكرنا فملكتهم ثلاثين سنة واتخذت بمصر البرابى والصور وأحكمت آلات السحر وجعلت فى البرابى صور من يرد من كل ناحية ودوابهم ابلا كانت أم خيلا وصورت ما يرد فى البحر من المراكب من بحر المغرب والشام وجمعت فى هذه البرابى وما

وما ان أرى الا الفرار مخلصا * وما راغب فى الضيم من عنه يرغب
فأنهى الى الامر العلى شكيتى * وأن خطوب الدهر نحوى تخطب
ولا تطمعونى فى الذى لست نائلا * فلا أنا عرقوب ولا أنا أشعب
ألا فلتمنوا بالسراح فانه * لراحة من يشقى لديكم وينصب
سلوا الكاس عنى اذ تدار فاننى * لا أتركها هما ودمعى أشرب
ولا أسمع الالحان حين تهزنى * ولو كان نوحا كنت أصغى وأطرب
فديتكم كم ذا اهون بأرضكم * أهذا جزاء للذى يتغرب
أبخل على أن ماسواك يصيح لى * فهل لى مما كدر العيش مهرب
تقلص عنى كل ظل ولم أجد * كما كنت ألقى من أود وأصحب
أذو طمع فى العيش يبقى وحوله * مدى الدهر أفعى لا تزال وعقرب
أجزنى أنجز بالفرار فانه * وحقك من نعماك عندى يحسب
فلا زلت يا خير الكرام مهنأ * فعيشى منه الموت أشهى وأطيب
وصانك من قد صنت فى حقه دمى * وغيرك من ثوب المروءة يسلب

ولم يزل الوزير لا أزال الله عنه رضاه يحمى جانبى الى أن اصابتنى فيه العين فاصابه الحين

وطيب نفسى أنه مات عندما * تناهى ولم يشمت به كل حاسد
ويحكم فيه كل من كان حاكما * عليه ويعطى الثار كل معاند

وقلت أرثيه

بكت لك حتى الهاطلات السواكب * وشقت جيوبا فيك حتى السحائب
فكيف بمن دافعت عنه ومن به * أحاطت وقد بوعدت عنه المصائب
ألا فانظروا دمعى فاكثره دم * ولا تذهبوا عنى فانى ذاهب
وقولوا لمن قد ظل يندب بعده * وفاؤك لو قامت عليك النوائب
لعمرك ما فى الارض واف بذمة * أيصمت ادريس وشلى يخاطب
دعوتك يا من لا أقوم بشكره * فهل أنت لى بعد الدعاء مجاوب
أيا سيدا قد حال بينى وبينه * تراب حوت ذكراك منه الترائب
لمن أشتكى ان جار بعدك ظالم * على وان نابت جنابى النوائب
لمن أرتجى عند الامير بمنطق * تحف به حولى المنى والمواهب

وهى طويلة ومنها قبيل الختم

وقد كنت أختار الترحل قبل أن * يصيبك سهم للمنية صائب
ولكن قضاء الله من ذا يرده * فصبرا فقد يرضى الزمان المغاضب

ومنها وهو آخرها

وانى لا أدرى أن فى الصبر راحة * اذا لم تكن فيه على مثائب
وان لم يؤب من كنت أرجو انتصاره * عليك فلطف الله نحوى آيب

العظيمة المشيدة البنيان اسرار الطبيعة وخواص الاحجار والنبات والحيوان من الحادية والبادية وجعلت ذلك فى أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية وكانوا اذا ورد اليهم جيش من نحو الحجاز واليمن عوّرت تلك الصور التى فى البرابى من الابل وغيرها فيتعور ما فى ذلك الجيش وينقطع عنهم ناسه وحيوانه واذا كان الجيش من نحو الشام فعل فى تلك الصورة التى من تلك الجهة التى أقبل منها جيش الشام مافعل بما وصفنا فيحدث فى ذلك الجيش من الآفات فى ناسه وحيوانه ماصنع فى تلك الصور التى من تلك الجهة وكذلك ما ورد من جيوش الغرب وما ورد فى البحر من رومية والشام وغير ذلك من الممالك فهابتهم الملوك والامم ومنعوا ناحيتهم من عدوّهم واتصل ملكهم بتدبير هذه العجوز واتقانها الزوم اقطار هذه المملكة وأحكامها السياسية وقد تكلم الناس فيما سلف وخلف فى هذه الخواص واسرار الطبيعة التى كانت ببلاد مصر وهذا الخبر من فعل العجوز عند المصريين مستفيض لا يشكون فيه والبرابى بمصر من صعيدها وغيره باقية الى هذا الوقت وفيها أنواع الصور مما اذا صورت فى بعض الاشياء احدثت اعمالا على حسب مارسمت له

ووضعت من أجله على حسب قولهم فى الطباع ٤٥٦ التام والله أعلم بكيفية ذلك (قال المسعودى) وأخبرنى غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن ابراهيم المصرى الاخميمى الزاهد وكان حكيما وكان له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى ودارها وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال رأيت فى بعض البرابى كتابا تدبرته فاذا هو احذر العبيد المعتقين والاحداث المقربين والجند المتعبدين والنبط المستعربين قال ورأيت فى بعضها كتابا تدبرته فاذا فيه يقدر المقدور والقضاء يضحك وزعم انه راى فى آخره كتابة وتبينها فى ذلك القلم الاول فوجدها

تدبر بالنجوم ولست تدرى * ورب النجم يفعل ما يريد

وكانت هذه الامة التى اتخذت هذه البرابى لهجة بالنظر فى أحكام النجوم مواظبين على معرفة أسرار الطبيعة وكان عندها مما دلت عليه أحكام النجوم أن طوفانا سيكون فى الارض ولم يقطع بان ذلك الطوفان ما هو أنار تاتى على الارض فتحرق ما عليها أوماء فيغرقها أو سيف يبيد أهلها فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها فاتخذت هذه البرابى واحدها بربى ورسمت حفت

قال رحمه الله تعالى ولما قدمت مصر والقاهرة أدركتنى فيهما وحشة وأثار ذكر ما كنت أعهد بجزيرة الاندلس من المواضع المبهجة التى قطعت بها العيش غضا خصيبا وصحبت بها الزمان غلاما ولبست الشباب بردا قشيبا فقلت

هذه مصر فأين المغرب * مذ نأى عنى دموعى تسكب
فارقته النفس جهلا انما * يعرف الشئ اذا ما يذهب
أين حمص أين أيامى بها * بعدها لم ألق شيأ يعجب
كم بعيش لى بها من لذة * حيث للنهر خرير مطرب
وحمام الايك تشدو حولنا * والمثانى فى ذراها تخطب
أى عيش قد قطعناه بها * ذكره من كل نعمى أطيب
ولكم بالمرج لى من لذة * بعدها ما العيش عندى يعذب
والنواعير التى تذكارها * بالنوى عن مهجتى لا تسلب
ولكم فى شنتبوس من منى * قد قضيناه ولا من يعتب
حيث هاتيك الشراجيب التى * كم بها من حسن بدر معصب
وغناء كل ذى فقر له * سامع غصبا ولا من يغصب
بلدة طابت ورب غافر * ليتنى ما زلت فيها أذنب
أين حسن النيل من نهر بها * كل نغمات لديه تطرب
كم به من زورق قد حله * قمر ساق وعود يضرب
لذة الناظر والسمع على * شم زهر وكؤس تشرب
كم ركبناها فلم تجمع بنا * ولكم من جامح اذ يركب
طوعنا حيث اتجهنا لم نجد * تعبا منها اذا ما نتعب
قد أثارت عثيرا يشبهه * تترسك فوق بسط ينهب
كلما رشت لها أجنحة * من قلاع ظلت منها تعجب
كطيور لم تجدر بالها * فبدا للعين منها مشرب
بل على الخضراء لا تنفك من * زفرة فى كل حين تلهب
حث للبحر زئير حولها * تبصر الاغصان منه ترهب
كم قطعنا الليل فيها مشرقا * بحبيب ومدام يسكب
وكأن البحر ثوب أزرق * فيه للبدر طراز مذهب
والى الحوز حنينى دائما * وعلى شنيل دمعى صيب
حيث سل النهر عضبا وانثنت * فوقها القضب وغنى الربرب
وتشفت أعين العشاق من * حور عين بالمواضى تحجب
ملعب للهو مذ فارقته * ما انثنانى نحو لهو ملعب
والى مالقة يهفو هوى * قلب صب بالنوى لا يقلب
أين ابراج بها قد طالما * حث كاسى فى ذراها كوكب

فيهاعلومهامن الصور والتماثيل والكتابة وجعلت بنيانها نوعين طينا

حفت الاشجار عشقا حولنا * تارة تنأى وطورا تقرب
جاءت الريح بها ثم انثنت * أتراها حذرت من ترقب
وعلى مرسية أبكى دما * منزل فيه نعيم معشب
مع شمس طلعت فى ناظرى * ثم صارت فى فؤادى تغرب
هذه حالى وأما حالتى * فى ذرى مصر ففكر متعب
سمعت اذنى محالا ليتها * لم تصدق ويحها من يكذب
وكذا الشئ اذا غاب انتهوا * فيه وصفا كى يميل الغيب
ها أنا فيها فريد مهمل * وكلامى ولسانى معرب
وأرى الالحاظ تنبو عندما * أكتب الطرس أفيه عقرب
واذا أحسب فى الديوان لم * يدر كتابهم ما أحسب
وأنادى مغربيا ليتنى * لم أكن للغرب يوما أنسب
نسب يشرك فيه خامل * ونبيه أين منه المهرب
أترانى ليس لى جد له * شهرة أوليس يدرى لى أب
سوف أثنى راجعا لا غربى * بعد ما جربت برق خلب

وقال بقرمونة متشوقا الى غرناطة

أغنى اذا غنى الحمام المطرب * بكاس بها وسواس فكرى يذهب
ومل ميلة حتى أعانق أيكة * وألثم ثغرا فيه للصب مشرب
ولم أر مرجانا ودرا خلاله * يطيف به ورد من الشهد اعذب
فديتك من غصن تحمله نقا * تطلع أعلاه صباح وغيهب
وجنته جنات عدن وفى لظى * فؤادى ومالى من ذنوب تعذب
ويعذلنى العذال فيه واننى * لاعصى عليه من يلوم ويعتب
لقد جهلوا هل عن حياتى أنثنى * اذا نعقوا أقوالهم وتألبوا
يقولون لى قد صار ذكرك مخلقا * وأصبح كل فى هواه يؤنب
وعرضك مبذول وعقلك تالف * وجسمك مسلوب ومالك ينهب
فقلت لهم عرضى وعقلى والعلا * وفخرى لا أرضى بها حين يغضب
جفون أبت أن لا تلين لعازم * بسحر بآيات الرقى ليس يذهب
فقالوا الاقد خان عهدك قلت لم * يخن من اذا قربته يتقرب
وكم دونه من صارم ومثقف * فيا من رأى بدرا بهذين يحجب
على أنه يستسهل الصعب عندما * يزور فلا يجدى حمى مترقب
وكم حيلة تترى على اثر حالة * وذو الود من يحتال أو يتسبب
على انه لو خان عهدى لم أزل * له راعيا والرعى للصب أوجب
فأين زمان لم يخنى ساعة * به وهو منى فى التنعم أرغب
ولا فيه من بخل ولا بى قناعة * كلانا بلذات التواصل معجب

وحجرا وفرزت مابنى بالطين مما بنى بالحجر وقالت ان كان هذا الطوفان نارا استحجر مابنى من الطين واحترق وبقيت هذه العلوم وان كان الطوفان الوارد ماء اذهب مابنى بالطين ويبقى مابنى بالحجارة وان كان الطوفان سيفا بقى كلا النوعين ماهو بالطين وما هو بالحجر وهذا ماقيل والله أعلم كان قبل الطوفان وان الطوفان الذى كانوا يرقبونه لم يعينوه أنار هو أم ماء أم سيف وكان سيفا أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيها وملك ينزل عليها فاباد أهلها ومصداق ذلك مايوجد ببلاد تنيس من التلال المنضدة من الناس من صغير وكبير وذكر وانثى كالجبال العظام وهى المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر ذوات الكوم ومايوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض فى كهوف وغيران ونواويس ومواضع كثيرة من الارض لايدرى من أى الامم هم فلا النصارى تخبر عنهم انهم من اسلافهم ولا اليهود تقول عنهم انهم من أوائلهم ولا

المسلمون يدرون من هم ولا تاريخ ينبئ عن حالهم عليهم أثوابهم وكثيرا مايوجد فى تلك الروابى

ويارب يوم لا أقوم بشكره * عـلى أنني مازلت أثني وأطنب
على نهر شنيل وللقضب حولنا * منابر مازالت بها الطير تخطب
وقد قرعت منه سنابك فضة * خلال رياض بالاصيل تذهب
شربنا عليها قهوة ذهبية * غدت تشرب الالباب أيان تشرب
كأن ياسمينا وسط درتفتحت * أزاهره أيان في الكاس تسكب
اذا ماشربناها النيل مسرة * تبسم عن درلها فتقطب
أتت دونها الاحقاب حتى تخالها * سرابا بآفاق الزجاجة يلعب
نعمنا بها واليوم قدرق برده * الى أن رأينا الشمس عنا تغرّب
فقالوا ألا هاتوا السراج فكل من * درى قدر ما في الكاس أقبل يعجب
وقال ألا تدرون ما في كؤسكم * فلا كاس الا وهو في الليل كوكب
كواكب أمست بين شرب ولم تخل * بان النجوم الزهر تدنو وتغرب
ظللنا عليها عاكفين وليلنا * نهار الى أن صاح بالايك مطرب
فلم نثن عن دين الصبوح عناننا * الى أن غدا من ليس يعرف يندب
صرعنا فامسى يحسب السكر قد قضى * علينا وذاك السكر أشهى وأعجب
وكم ليلة في اثر يوم وعذلي * وعذل من يصغي لقولي خيب
فياليت ما ولي معاد نعيمه * وأى نعيم عند من يتغرب

قال وقلت باشبيلية ذاكرا الوادي الطلح وهو بشرق اشبيلية ملتف الاشجار كثير مترنم الاطيار وكان المعتمد بن عباد كثيرا ماينتابه مع رميكته وأولي أنسه ومسرته

سائل بوادي الطلح ريح الصبا * هل سخرت لي في زمان الصبا
كانت رسولا فيه ما بيننا * لن نأمن الرسل وان نكتبا
ياقاتل الله اناسا اذا * ما استؤمنوا خانوا فما أعجبا
هلا رعوا أنا وثقنا بهم * وما اتخذنا غيرهم مذهبا
ياقاتل الله الذي لم يتب * من غدرهم من بعد ما جربا
والهم لا يعرف ماطعمه * الا الذي وافى لأن يشربا
فدعني من ذكر الوشاة الالى * لما يزل فكرى بهم ملهبا
واذكر بوادي الطلح عهدا لنا * لله ما أحلى وما أطيبا
بجانب العطف وقد مالت الاغصان والزهر يبث الصبا
والطير مازت بين ألحانها * وليس الا معجبا مطربا
وخانني من لا أسميه من * شح أخاف الدهر أن يعجبا
قد أترع الكاس وحيا بها * وقلت أهلا بالمنى مرحبا
أهلا وسهلا بالذي شئته * يابدر تم مهديا كوكبا
لكنني آليت أسقي بها * أو تودعنها ثغرك الاشنبا
فعج لي في الكاس من ثغره * ماحبب الشرب وماطيبا

ببلاد مصر بنيان قائم عجيب كالبربا المتخذة بانصنا من صعيد مصر والجبال من حليهم والبرابى وهو أحد الموصوفين منها والبربا التي ببلاد أخميم والبربا التي ببلاد سمنود وغير ذلك والاهرام وطولها عظيم وبنيانها عجيب عليها أنواع من الكتابات باقلام الامم السالفة والممالك الدائرة لايدرى ما تلك الكتابة ولا ما المراد بها وقد قال من عني بتقدير ذرعها ان مقدار ارتفاع ذهابها في الجو نحو من أربعمائة ذراع أو أكثر وكلما علا به الصعد ادق ذلك والغرض مما وصفنا عليها من الرسوم ما ذكرنا وان ذلك علوم وخواص وسحر وأسرار للطبيعة وان من تلك الكتابة مكتوب انا بنيناها فمن يدعي موازاتنا في الملك وبلوغنا في القدرة وانتهاءنا من السلطان فليهدمها وليزل رسمها فان الهدم ايسر من البناء والتفريق ايسر من التأليف وقد ذكر أن بعض ملوك الاسلام شرع في هدم بعضها فاذا خراج مصر وغيرها لايفي بقلعها وهي من الحجر والرخام والغرض في كتابنا هذا الاخبار عن جمل الاشياء وجوامعها لا عن تفصيلها وبسطها وقد أتينا على سائر ما شاهدناه حسا في مطافات الارض والممالك وما نمي الينا خبرا من الخواص وأسرار

فقال

فقال هالتى تقـلاولا * تشم الا عـرفى الاطيبا
فاقطف بخدّى الورد والآس والنسرين لاتحفـل بزهـر الربا
أشـفقته غصنا غدامثمرا * ومن جناه ميسـه قـربا
قد كنت ذاهـى وذا امرة * حـتى تبـدى خللت الحبا
ولم أصـن عرضى فى حبـه * ولم أطـع فيـه الذى أنبا
حتى اذاما قال لى حاسـدى * ترجوه والـكوكب أن يغربا
أرسلت من شعرى سحراله * ييسر المـرغب والمطلبا
وقال عـرّفـه بانى ساحـتال فاجتنب المكتبا
فزادفى شـوقى له وعـده * ولم ازل معتقـدامرقبا
امدّ طرفى ثم اثنيـه من * خوف اخى التنغيص أن يرقبا
أصدق الوعد وطورا أرى * تـكذيـه والحـر لن يكذبا
انى ومن سحـره بعـدما * أيأس بطأكاد أن يغضبا
قبلت فى الترب ولم استطع * من حصر اللقا سـوى مرحبا
هنات ربـعى اذغـدا هالة * وقلت يامن لم يضـع اشعبا
بالله مـل معتنقا لاثما * فـال كالغصن ثنتـه الصبا
وقال ماترغب قلت اتئـد * ادر كت اذ كلمتـنى المرغبا
فقـال لام رغب عن ذكرما * ترغبـه قلت اذا مركبا
فـكان ماكان فـوالله ما * ذكرته دهـرى أوأغلبا

قال وقلت باقتراح الملك الصالح نورالدين صاحب حمص ان اكتب بالذهب على تفاحة عنبر قدمها لابن عمه الملك الصالح ملك الديار المصرية

انالون الشباب والخال اهـديـت لمن قد كسا الزمان شبابا
مـلك العالمين نجـم بـنى ايـوب لازال فى المعالى مهابا
جئت ملاى من الثناء عليه * من شـكوراحسانه والثوابا
لست ممن له خطاب ولـكن * قد كفانى اريج عرفى خطابا

قال ولما انشد ابو عبدالله بن الابار كاتب ملك افريقية لنفسه

لله دولاب يدوركانه * فلك ولـكن ماارتقاه كوكب
هامت به الاحداق لمانادمت * منه الحديقة ساقيا لايشرب
نصبته فوق النهر أيد قدرت * ترويحـه الارواح ساعة ينصب
فـكانه وهو الطايق مقيد * وكانه وهـو الحبيس مسيب
للماء فيـه تصعد وتحـدر * كالمزن يستسقى البحار ويسكب

حلف أبو عبدالله بن أبى الحسين ابن عمى أن يصنع فى ذلك شيأ فقال

ومحنية الاضـلاع تحنو على الثرى * وتسقى نبات الترب در الترائب
تعـدّ من الافـلاك أن مياهها * نجوم لرجم المحـل ذات ذوائب

بكتاب القضايا والتجارب ولاتمانع بين ذوى الفهم ان فى مواضع من الارض مـدنا وقـرى لايدخلها عقرب ولاحية مثل مدينة حمص ومعـرة وبصرى وانطاكية وقد كان ببلاد انطاكية اذا أخرج انسان يده خارج السور وقع عليه البق فاذا جذبها الى داخـل لم يبق على يده من ذلك شئ الى أن كسر عمود من الرخام فى بعض المواضع بها فاصيب فى أعلاه حق من نحاس فى داخـله بق مصوّر من نحاس نحو كف فامضت أيام أو على الفور من ذلك حتى صار البق فى وقتنا هـذا يعم الاكثر من دورهـم وهـذا حجر المغناطيس يجذب الحديد ولقـد رأيت بمصر حيـة مصوّرة من حديد أو نحاس توضع على شئ ويدنى منها حجر المغناطيس فيحـدث فيها حركة تباعد منه وحجر المغناطيس اذا أصابته رائحة الثوم بطل فعله فى الحـديد واذا غسل بشئ من الخـل أوناله شئ من عسل النحل عاد الى فعـله الاول من جـذب الحديد وللمغناطيس فى الحـديد خواص عجيبة غير ماذكرنا كالحجـر الماص للدم والله عزوجل قد استأثر بعلم الاشـياء وأظهر للعباد ماشاء مما لهم فيه الصلاح على قدر الوقت وحاجتهم فيه اليه وأشياء استأثر

وأعجب بها رقص الغصون ذوائبا * فدارت بأمثال السيوف القواضب
ونحسبها والروض ساق وقينة * فما برحا ما بين شاد وشارب
وما خلتها تشكو بحنانها الصدا * ومن فوق متنيها اطراد المذانب
خذ من مجاريها ودهمة لونها * بياض العطايا في سواد المطالب

ثم كلفت في أن اقول في ذلك وأنا أعتذر بأن هذين لم يتركا لي ما أقول

وذات حنين لا تزال مطيقة * تئن وتبكي بالدموع السواكب
كأن أليفا بان عنها فأصبحت * بمربعه كالصب بعد الحبائب
اذا ابتسمت فيها الرياض شماتة * ترعها بأمثال القسي القواضب
فكم رقصت أغصانها فرمت لها * نثارا كما بددت حلى الكواعب
لقد سخطت منها الثغور وأرضت الـ * ـقدود ولم تحفل بتثريب عائب
شربت على تحنانها ذهبية * ذخيرة كسرى في العصور الذواهب
فهاجت لي الكاس اذكار مغاضب * فهاجيتها وجدا بذاك المغاضب
فلا تدع التبريز في كثرة الهوى * فلولاي كانت فيه احدى العجائب

قال وقلت بغرناطة

با كرا للهو ومن شاء عتب * لا يلذ العيش الا بالطرب
ما ترانى من رأى الزهر زها * والصبا تمرح في الروض خبب
وشذاه صانه حتى اغتدى * بين أيدي الريح غصبا ينتهب
يا نسيما عطر الارجاء هل * بعثوا ضمنك ما يشفي الكرب
هم أعلوه وهم يشفونه * لا شفاه الله من ذاك الوصب
خلع الروض عليه زهره * حين وافى من ذراكم يعل صب
فأبى الا شذاه فانثنى * حاملا من عرفه ما قد غصب
لست ذا انكار لأن يشبهكم * من بعثتم غير ذا منه العجب
غالب الاغصان في بدأته * ثم لما زاد أعطته الغلب
فبكى الطل عليها رحمة * أو بكى من وعظ طير قد خطب
كل هذا قد دعاني للتي * ملكت رقي على مر الحقب
قهوة أبسم من عجب لها * عند ما تبسم عجبا عن حبب
حاكت الخمر فلما شعشعت * قلت ما للخمر بالماء التهب
وبدت من كاسها في فضة * ملئت اذ جمدت ذوب الذهب
اسقنيها من يدي مشبهها * بالذي يحويه طرف وشنب
لا جعلت الدهر نقلي غيرما * لذلي من ريق ثغر كالضرب
لا جعلت الدهر ريحاني سوى * ما بخديه من الورد انتخب
لم أزل أقطع دهري هكذا * وكذا أقطع منه المرتقب
حبذا عيش قطعناه لدى * معطف الخابور ما فيه نصب

بعلمها لم يظهرها لخالقه فلا تقف العقول على كنهها وكما يجمع بين أشياء فيحدث لاجتماعها معنى هو غيرها كما يحدث من ماء العفص والزاج عند الاجتماع من شدة السواد وكحدوث جوهر الزجاج عند جمعنا بين الرمل والمغنيسيا والقلى عند الطبخ والسبك لذلك وكذلك لو جمع بين ماء القلى وماء المرتك وهو المرداسنج خرج الحادث من مزاجيهما كالزبد بياضا واذا مزج ماء القلى بماء الزاج خرج من مزاجيهما لون أحمر كالعصفر وكجمعنا في النتاج بين الفرس الانثى والحمار فتحدث بغلا ولو نتج دابة على اتان لخرج منها بغل افطس ذو خبث ودهاء يسمى الكودن وقد ذكرنا النتاج الذي كان بصعيد مصر مما يلي الحبشة وما كان ينتج من الثيران على الاتن والحمير على البقر وما كان يحدث من ذلك من الدواب العجيبة التي ليست بحمير ولا بقر كالبغل الذي ليس بدابة ولا حمار وقد ضربنا ضروب التوليدات في أنواع الحيوان والنبات من تطعيمهم الغروس والاشجار وما تولد من الطعوم في المذاق في كتابنا المترجم بكتاب القضايا والتجارب في أنواع الفلاحات وغيرها وذكرنا باب خواص الاشياء ومعرفتها والطلسمات

مع

مسمع من لم يدر يوما ما الجفا * من أراح الصب فيه من تعب
كل ما يصدر منه حسن * لم يذقنى فى الهوى مر الغضب
اى عيش سمح الدهر به * كل نعمى ذهبت لما ذهب

قال ودخلت بتونس مع أبى العباس الغسانى حماما فنظرنا الى غلمان فى نهاية الحسن ونعومة الابدان فقلت مخاطباله

دخلت حماما وقصدى به * تنعيم جسم فغدا الى عذاب
قلت لظى فاعترضت حوره * وقلت عدن فهنا التهاب
وأنت فى الفضل امام فكن * فى الحكم ممن حاز فصل الخطاب

فقال

لا تأمن الحمام فى فعله * فليس ما يأتيه عندى صواب
فما أرى أخدع منه ولا * أكذب الا أن يكون السراب
يبدى لك الغيد كحور الدمى * ويلبس الشيخ برود الشباب
ظن به النار فلا جنة * للحسن الا ما حوته الثياب

(ومن فوائده) أعنى ابن سعيد رحمه الله تعالى فى كتابه المحلى بالاشعار نقلا عن القرطبى قضية بناء الهودج بروضة مصر وهو من منتزهات الخلفاء الفاطميين العظيمة العجيبة البناء البديعة وذلك أنه يقال ان البانى له الخليفة الآمر باحكام الله للبدوية التى غلب عليه حبها بجوار البستان المختار وكان يتردد اليه كثيرا وقتل وهو متوجه اليه ومازال منتزها للخلفاء من بعده * وقد أكثر الناس فى حديث البدوية وابن مياح من بنى عمها وما يتعلق بذلك من ذكر الآمر حتى صارت رواياتهم فى هذا الشان كحديث البطال وألف ليلة وليلة وما أشبه ذلك والاختصار منه أن يقال ان الآمر قد كان بلى بعشق الجوارى العربيات وصارت له عيون فى البوادى فبلغه أن بالصعيد جارية من أكمل العرب وأظرفهم شاعرة جميلة فيقال انه تزيا بزى بداة الاعراب وكان يجول فى الاحياء الى أن انتهى الى حيها وبات هنالك وتحيل حتى عاينها فما ملك صبره ورجع الى مقر ملكه وأرسل الى أهلها يخطبها وتزوجها فلما وصلت اليه صعب عليها مفارقة ما اعتادت وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ولا تنقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج وكان غريب الشكل على شط النيل وبقيت متعلقة الخاطر بابن عم لها ربيت معه يعرف بابن مياح فكتبت اليه من قصر الآمر

يا ابن مياح اليك المشتكى * مالك من بعدكم قد ملكا
كنت فى حبى طليقا آمرا * نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر موصد * لا أرى الا خبيثا ممسكا
كم تثنينا كأغصان النقا * حيث لا نخشى علينا دركا

فاجابها فقال

بنت عمى والتى غذيتها * بالهوى حتى علا واحتبكا

واليسير منه يدلك على الكثير ويمكن والله أعلم أن تكون هذه الخواص والطلسمات والاشياء المحدثة فى العالم للحركات مما وصفنا والدافعة والمانعة والمنفردة والجاذبة والفاعلة فى الحيوان وغير ذلك مثل الطرد والجذب كانت دلالة لبعض الانبياء فى الامم الخالية جعلها الله كذلك لذلك النبى دلالة ومعجزة تدل على صدقه وتنبيئه من غيره ليؤدى عن الله أمره ونهيه وما فيه من الصلاح لخلقه فى ذلك الوقت ثم رفع الله ذلك الشئ وبقيت علومه وما أبانه الله عز وجل مما ذكرنا فى أيدى الناس وأصل ذلك الهى كما وصفنا اذ كان ما ذكرنا ممكنا غير واجب ولا ممتنع فى القدرة (قال المسعودى) فلنرجع الى ما كنا فيه من أخبار ملوك مصر وكان الملك بعد انقضاء ملك دلوكة العجوز دركوش بن ملوطش (ثم ملك بعده) نورش بن دركوش (ثم ملك بعده) لعس بن نورش نحوا من خمسين سنة (ثم ملك بعده) دسا بن نورش نحوا من عشرين سنة (ثم ملك بعده) ابنه ملوطس عشرين سنة (ثم ملك بعده) مكا كيل وكانت له حروب ومسير فى الارض وهو فرعون الاعرج الذى غزا بنى اسرائيل وخرب

بحت بالشكوى وتندى ضعفها * لوغدى ينفع منا المشتكى
مالك الامر اليه يشتكى * هالك وهو الذى قد هلكا

قال وللناس فى طلب ابن مياح واختفائه أخبار تطول وكان من عرب طيئ فى عصر الآمر طراد بن مهلهل فقال وقد بلغته هذه الابيات

ألا بلغوا الآمر المصطفى * مقال طراد ونعم المقال
قطعت الاليفين عن ألفة * بهاسمر الحى حول الرحال
كذا كان آباؤك الاكرمون * سألت فقل لى جواب السؤال

فقال الخليفة الآمر لما بلغته الابيات جواب سؤاله قطع لسانه على فضوله فطلب فى أحياء العرب فلم يوجد فقيل ما أخسر صفقة طراد باع عدة أبيات بثلاثة أبيات وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد له مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة وللشعراء فيه أمداح كثيرة ومدحه ظافر الحداد وأمية أبو الصلت وغيرهما وكان له بستان يتفرج فيه به جرن كبير من رخام وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره وكان يرى فى نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعم والمباهاة فى عصره فوشى به للبدوية محبوبة الآمر فسألت الآمر فى حمل الجرن اليها فارسل الى ابن حديد فى احضار الجرن فلم يجد بدا من حمله من البستان فلما صار الى الآمر أمر بحمله فى الهودج فقلق ابن حديد وصارت فى قلبه حرارة من أخذ الجرن فاخذ يخدم البدوية وجميع من يلوذ بها بانواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد فى الكثرة حتى قالت البدوية هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا فلما قيل له عنها هذا القول قال مالى حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها فى عز غير رد السقية التى قلعت من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمتهم ترد الى مكانها فتعجبت من ذلك وردتها عليه فقيل له قد حصلت فى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب فنزلت همتك الى قطعة حجر فقال أنا أعرف بنفسى ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه وقد بلغها الله تعالى أملها وكان هذا المكين متولى قضاء الاسكندرية ونظرها فى أيام الآمر وبلغ من علو همته وعظيم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحى لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية سنة سبع عشرة وخمسمائة وأضاف اليها الاعمال البحرية ووصل الى الثغر وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضى المذكور فامر فى الحال بعض غلمانه بالمضى الى داره لاحضار دهن الشمع فما كان من أكثر من مسافة الطريق الا وقد أحضر حقا مختوما ففك عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر بيت دهن بمسك وبيت دهن بكافور وبيت دهن بعنبر طيب ولم يكن فيه شئ مصنوع لوقته فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر انعامه وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه وكان من جواب المؤتمن وقد قبلته منك لا لحاجة اليه ولا نظر فى قيمته بل لاظهار هذه الهمة واذاعتها وذكر ان قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار فانظر رحمك الله تعالى

مرينوس ثمانين سنة (ثم ملك بعده) قومس بن نفاس عشر سنين (ثم ملك بعده) كاميل وكانت له حروب مع ملوك المغرب وغزاه البختنصر مرزبان المغرب من قبل ملوك فارس فخرب أرضه وقتل رجاله وسار البختنصر نحو المغرب وقد أتينا على أخباره فى كتاب راحة الارواح لان هذا الكتاب رسمناه باخبار سير الملوك للارض واخبار مقاتلتهم دون ما ذكرنا فى كتابنا فى أخبار الزمان ولما زال أمر البختنصر ومن معه من جنود فارس ملكت الروم مصر وغلبت عليها فتنصر أهلها فلم يزالوا على ذلك الى ان ملك كسرى أنوشروان فغلبت جيوشه على الشام وسارت نحو مصر فملكوها وغلبوا على أهلها نحوا من عشرين سنة وكانت بين الروم وفارس حروب كثيرة فكان أهل مصر يؤدون خراجين خراجا الى فارس وخراجا الى الروم عن بلادهم ثم انجلت فارس عن مصر والشام لامر حدث فى دار مملكتهم فغلب الروم على مصر والشام وأشهروا النصرانية فشمل ذلك من بالشام ومصر الى ان أتى الله بالاسلام وكان من أمر

الى من يكون دهن الشمع عنده فى اناء قيمته خمسمائة دينار ودهن الشمع لا يكاد اكثر الناس يحتاج اليه فاذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجملات وهذا انما هو حال قاضى الاسكندرية ومن قاضى الاسكندرية بالنسبة الى اعيان الدولة بالحضرة وما نسبة اعيان الدولة وان عظمت احوالهم الى امر الخلافة وابهتها الا يسير حقير وما زال الخليفة الآمر يتردد الى الهودج المذكور الى ان ركب يوم الثلاثاء رابع القعدة سنة ٥٢٤ يريد الهودج وقد كمن له عدة من النزارية على راس الجسر من ناحية الروضة فوثبوا عليه واثخنوه بالجراحة وحمل فى العشارى الى اللؤلؤة فمات بها وقيل قبل ان يصل اليها وقد خرب هذا الهودج وجهل مكانه من الروضة ولله عاقبة الامور نقل ذلك كله الحافظ المقريزى رحمه الله تعالى قال النور بن سعيد ومن خطه نقلت لما نزلنا بتلعفر حين خرجنا من سنجار الى الموصل سألت أحد شيوخنا عن والد الشهاب الدين التلعفرى فقال انا أدركته وكان كثير التجول وأنشدنى لنفسه فى عيد أدركه فى غير بلده

يبتهج الناس اذا عيدوا * وعند سرائهم أكمد
لانى ابصر احبابهم * ومقلتى محبوبها تفقد

قال وخرج ابنه الشهاب أجول منه شخصا وشعرا وصدق فيما قاله وانشد ابن سعيد للشهاب التلعفرى

لك ثغر كلؤلؤ فى عقيق * ورضاب كالشهد او كالرحيق
وجفون لم يمتشق سيفها الا * غرى بقدك الممشوق
تهت عجبا بكل فن من الحسـ * ـن جليل وكل معنى دقيق
وتفردت بالجمال الذى خلا * ك مستوحشا بغير رفيق
باللحاظ التى لها لم تزل تر * شق قلبى و بالقوام الرشيق
لا تغر بالغوير اذ تنثنى * فيه اعطاف كل غصن وريق
واثن محمر ورد خديك واستر * ه والا ينشق قلب الشقيق

قال ابن سعيد وحظى الشهاب التلعفرى بمنادمة الملوك و كونهم يقدمونه ويقبلون على شعره وعهدى به لا ينشد أحد قبله فى مجالس الملك الناصر على كثرة الشعراء وكثرة من يعتنى بهم ولما جمعت للملك الناصر كتاب ملوك الشعر جعلت ملك شعر الشهاب البيت الرابع من المقطوعة المتقدمة فانه كان كثيرا ما ينشده وينوه به والتشفى من ذكر الشهاب ومحاسن شعره له مكان بكتاب الغرة الطالعة فى فضلاء المائة السابعة وهو الآن عند الملك المنصور صاحب حماة قد علت سنه وما فارقه غرامه ودنه انتهى ولما اجرى ابن سعيد فى بعض مصنفاته ذكر الملك العادل بن ايوب قال ما نصه وكان من اعظم السلاطين دهاء وحزما وكان يضرب به المثل فى افساد القلوب على اعدائه واصلاح احواله و يحكى انه بشره شخص بان اميرا من امراء الافضل بن صلاح الدين فسد عليه فاعطاه مالا جزيلا وارسل مستخفيا الى المذكور يزيده بصيرة فى الانحراف عن الافضل و يعده بما يفسد الصالح فكيف الفاسد قال وكان يمنع حتى يوصف بالبخل ويجود فى مواضع الجود حتى يوصف بالسماح وكان صلاح

المقوقس صاحب القبط مع النبى صلى الله عليه وسلم من الهدايا ما كان الى ان افتتحها عمرو بن العاص ومن كان معه فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فبنى عمرو بن العاص الفسطاط وهو قصبة مصر فى هذا الوقت وكان ملك مصر وهو المقوقس صاحب القبط ينزل اسكندرية فى بعض فصول السنة وفى بعضها مدينة منف وفى بعضها قصر الشمع وهو اليوم يعرف بهذا الاسم فى وسط مدينة الفسطاط ولعمرو بن العاص فى فتح مصر اخبار وما كان بينه و بين المقوقس ونحوه لقصر الشمع وغير ذلك من أخبار مصر والاسكندرية وما كان من حروب المسلمين فى ذلك ودخول عمرو ابن العاص الى مصر والاسكندرية فى الجاهلية وما كان من خبره مع الراهب والكرة الذهب التى كانوا يظهرونها للناس فى اعيادهم ووقوعها فى حجر عمرو بن العاص وذلك قبل ظهور النبى صلى الله عليه وسلم قد أتينا على جميع ذلك فى كتابنا فى أخبار الزمان والكتاب الاوسط (قال المسعودى) والذى اتفقت عليه أهل التواريخ مع تباين ما فيها أن عدة ملوك مصر من الفراعنة وغيرها اثنان وثلاثون فرعونا ومن ملوك بابل ممن تملك على مصر خمسة ومن ملوك بابل وهم العماليق

الذين وهو السلطان يأخذ برأيه وقدم له احد المصنفين كتابا مصورا في مكايد الحروب ومنازلة المدن وهو حينئذ على عكا محاصرا للفرنج فقال له ما نحتاج الى هذا الكتاب ومعنا اخونا ابو بكر وكان كثير المداراة والحزم ومن حكاياته في ذلك ان احد الاشياخ من خواصه قال له يوما وهو على سماطه يأكل يا خوند ما وفيت معي ولا رعيت سابق خدمتي وكماله بدالة السن وقدم الصحبة قبل الملك فقال لمماليكه انظروا اوسطه فحلوا الكمران وقال خذوا الصرة التي فيه فوجدوا صرة فقال افتحوها ففتحوها فاذا فيها ذرور فقال العادل كل من هذا الذرور فتوقف وعلم أنه مطلع على انه سم فقال كيف تنسبني الى قلة الوفاء وأنا منذ سنين اعلم أنك تريد أن تسمني بهذا السم وقد جعل لك الملك الفلاني على ذلك عشرة آلاف دينار فلا أنا أمسكتك من نفسي ولا أشعرتك لئلا يكون في ذلك ما لا اخفاء به وتركتك على حالك وأنا مع هذا لا أغير عليك نعمة ثم قال ردوا سمه الى كمرانه لا أبقى الله تعالى عليه ان قدر وأبقى على فعل يقبل الارض ويقول هكذا والله كان وأنا تائب لله تعالى ثم ان الشيخ جدد توبة واستأنف أدبا آخر وخدمة أخرى وكانت هذه الفعلة من احدى عجائب العادل قال وكان كثير المصانعات حتى انه يصوغ الحلى الذي يصلح لنساء الفرنج ويوجهه في الخفية اليهن حتى يسكن أزواجهن عن الحركة وله في ذلك مع ملوك الاسلام ما يطول ذكره ولما خرج ابن أخيه العز اسمعيل بن طغتكين باليمن وخطب لنفسه بالخلافة وكتب له أن يبايعه ويخطب له في بلاده كان في الجماعة من أشار الى النظر في توجيه عسكر له في البر والبحر وانفاق الاموال قبل أن يتفاقم أمره فضحك وقال من يكون عقله هذا العقل لا يحوج خصمه الى كبير مؤنة أنا أعرف كيف أفسد عليه حاله في بلاده فضلا عن أن يتطرق فساده لبلادي ثم انه وجه في السر لاصحاب دولته بالوعد والوعيد وقال لهم أنتم تعلمون بعقولكم أن هذا لا يسوغ لي فكيف يسوغ له وقد أدخل نفسه في أمر لا يخرج منه الا بهلاكه فاحذروا ان تهلكوا معه واتعظوا بالآية ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما هذا عقل يدبر به نفسه فكيف يفضل عن تدبير خاصته اليكم ولتعلمن نبأه بعد حين فعندما وعت اسماعهم هذا وتدبروه بعقولهم قبضوا عليه وقتلوه وعادت البلاد للعادل وقال للمشيرين عليه في أول الامر بتجهيز العسكر قد كفينا المؤنة بأيسر شئ من المال ولو حاولناه بالشر تم به لم تقم خزائن ملكنا بالبلوغ الى غايته وكان على ما بلغه من عظمة السلطان واتساع الممالك يحكي ما جرى له من زمان خلوه من ذلك ويحب الاستماع لنوادر أنذال العالم واشتهر في خدمته مساخر أشهرهم خضير صاحب البستان المشهور عند الربوة بغوطة دمشق ومن نوادره الحاضرة منه انه سمعه يوما وهو يقول في وضوئه اللهم حاسبني حسابا يسيرا ولا تحاسبني حسابا عسيرا فقال له يا خوند على أي شئ يحاسبك حسابا عسيرا اذا قال لك أين أموال الخلق التي أخذتها فقل له تراها يا مانتها في الكرك وكان قد صنع بهذا المعقل الحسرات سميت بذلك لان من رآها يتحسر اذا نظرها ولا يستطيع على شئ منها بحيلة وهي خراب مفروغة من ذهب وفضة تركت عبرة لمن الناظرين ليشتهر ذلك في الآفاق وقال العادل مرة وقد جرى ذكر البرامكة وامثالهم ممن ذكر في كتاب المستجاد في حكايات الاجواد انما هذا كذب مختلق من الوراقين

ومن

الذين ظهروا اليها من بلاد الشام أربعة ومن الروم سبعة ومن اليونانيين عشرة وذلك قبل ظهور السيد المسيح عليه السلام وملكها أناس من الفرس من قبل الاكاسرة وكان مدة من ملك مصر من الفراعنة والروم والعماليق واليونانيين ألف سنة وثلثمائة سنة (قال المسعودي) وسألت جماعة من اقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير فرعون فلم يخبروني عن معنى ذلك ولا تحصل لي في لغتهم فيمكن والله أعلم ان هذا الاسم كان سمة لملوك تلك الاعصار وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية وهي الفارسية الاولى الى الفارسية الثانية وكاليونانية الى الرومية وتغير الحميرية وغير ذلك من اللغات ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الارض وغيرهم من الامم ممن سكن تلك الارض وتدعى بالمطالب الى هذه الغاية قد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا فمن جميع أخبارها ما ذكره يحيى بن بكير قال كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر لاخيه عبد الملك ابن مروان فأتاه رجل متنصح فسأله عن نصحه فقال بالقبة الفلانية كنز عظيم قال عبد العزيز فما مصداق ذلك قال هو أن يظهر لنا

ومن المؤرخين يقصدون بذلك ان يحركوا همم الملوك والا كابر للسخاء وتبذير الاموال فقال خضير يأخذ ولاى شئ ما يكذبون عليك قال ابن سـعيد من وقف على حكايات ابى العيناء مع عبيـد الله بن سليمان يجد مثـل هـذه الحـكاية قال ابن سـعيد ووجـدت الشهاب القوصى قد ذكر السلطان العادل فى كتاب المعاجم وابتدأ الـكتاب المذكور بمحاسـنه والثناء عليه وخرّج عنه الحديث النبوى عن الحافظ السلفى وتمثل فيه عند وفاته

ألام على بكائى خـير ملك * وقل له بكائى بالنجيـع

به كان الشباب جميع عمرى * ودهرى كله زمن الربيـع

فـرق بيننا زمن خؤون * له شغف بتفريق الجميع

قال ابن سعيد ودفن العادل بمدرسته العـادلية بدمشق وكان انشاها للشافعية وهى فى نهاية الحسن وبها خزانة كتب فيها تاريخ ابن عساكر وذيل هذا التاريخ واختصره ابوشامة سمعت عليه منه هنالك ما تيسر ايام اقامتى بدمشق واولاد العادل ملوك البلاد فى صـدر هذه المائة السابعة منهم الـكامل والمعظم والاشرف وهؤلاء الثـلاثة شهروا بالفضل وحب الفضـلاء وقول الشـعراء انتهى وقال ابن سـعيد فى ترجمة الرئيس صفى الدين احمـد بن سـعيد المردغانى وهو من بيت وزارة ورياسة بدمشق ان من شعره قوله

كيف طابت نفوسكم بفراقى * وفـراق الاحباب مر المـذاق

لو علمـتم بلوعـتى وصـبابا * تى ووجدى وزفرتى واحتراقى

لرثيـتم لمسـتهام المعـنى * ووفيتم بالعهـد والميثاق

قال ابن سـعيد وقفت على ذكر هذا الرئيس فى كتاب تاج المعاجم ووجدت صاحبه الشهاب القوصى قد قال أخـبرنى بدمشق أنه قد كان عزم عـلى السـفر منهـا الى مصر لامر ضاق به صدره فهتف به هاتف فى النوم وأنشده

يا أحمـد اقنع بالذى أعطيته * ان كنت لاترضى لنفسك ذلهـا

ودع التـكاثر فى الغنى لمعاشر * أضحوا على جمع الدراهـم ولهـا

واعـلم بأن الله جـل جـلاله * لم يخلـق الدنيـا الاجلك كلها

فانثنى عزمه عن الحركة ثم بلغ ما أمّله دون سفر وقال ابن سعيد فى ترجمة المنتخب أحمد بن عبد الـكريم الدمشقى المعروف بدفترخوان وهو الذى يقرأ الدفاتر بين أيدى الملوك والا كابرانه كان يقرأ الدفاتر بين يدى العـادل بن أيوب وكان يكتب له بالاشـعار فى المواسم والفصـول فينال من خيره وكتب له مرة وقد أظل الشتاء فى دمشق فقال

مولاى جاء الشتاء * والـكيس منه خلاء

لازال يجرى بما تر * تضى علاك القضاء

وكل كاف اليه * يحتاج فيـه النواء

فقال له العـادل هذا الضمير الذى فى البيت الاول على ماذا يعود فقال بحسب مكارم السلطان ان شئت على الدراهم وان شئت على الدنانير فضحك وقال هات كيسك فاخرج له كيسا يسع قدر مائة دينار فملأه له وقال أظنـه كان معدّا عندك فقال مثل السلطان من يكون جوده

من الذهب على أعلاه ديك عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرذ عـلى رأسـه صـفائح من الذهب عـلى أعلى ذلك العمود فامر له عبد العزيز بنفـقة ألوف من الدنانير لاجرة من يحفر من الرجال فى ذلك و يعمل فيه وكان هنالك تل عظيم فاحتفروا حفـرة عظيمة فى الارض والدلائل المقدم ذكرها من الرخام والمرمر تظهـر فازداد عبـد العزيز حرصا على ذلك وأوسع فى النفقة وأكثر من الرجال ثم انتهوا فى حفرهـم الى ظهور رأس الديك فبرق عنـد ظهوره لمعـان عظيم كالبرق الخـاطف لمـا فى عينيه من الياقوت وشدة نوره ولمعـان ضيائه ثم بان جناحاه ثم بانت قوائمـه وظهر حول العـمود عمود من البنيـان بأنواع من الاحجار والرخام وقناطر مقنطرة وطاقات على أبوابه معـقودة ولاحت منهـا تماثيل وصور وأشخاص من أنواع الصور والذهب وأجربة من الاحجـار قـد اطبقت عليهـا أغطيتها وسبكت وقيد ذلك بأعمدة

الذهب فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع فنظر الى ما ظهر من ذلك فاسرع بعضهم

مظنونا وكتب اليه مرة وقد أملق

انظر الى بعين جودك مرة * فلعل محروم المطالب يرزق
طير الرجاء على علاك محلق * وأظنه سيعود وهو مخلق

فاعطاه جملة دنانير وقال له اشتر بهذه ماتخلق به طير رجائك انتهى وأنشد ابن سعيد رحمه الله تعالى لبعض المغاربة وهو أبو الحسن على بن مروان الرباطى الكاتب

أنس أخى الفضل كتاب أنيق * أو صاحب يعنى بود وثيق
فان تعره دون رهن به * تخسره أو تخسر وداد الصديق
وربما تخسر هذا وذا * فاسمع رعاك الله نصح الشفيق

قال وأجابه المخاطب بهذه الابيات وهو ابن الربيب بنثر نصه مثلك يفيد بتجربة قد نفق عليها عمر وضل عن فوائدها غر غمر وقد أنفذت رهنا لايسمح باخراجه الا الديك فتفضل بتوجيه الجزء الاول فانا أعلم أنه عندك مثل ولدك قال فوجهه ومعه بطاقة صغيرة فيها يا أخى ان عرضت بولدى فكذلك كنت مع والدى وقد توارثنا العقوق كابرا عن كابر فلئن شاكرا فانى صابر ثم قال ابن سعيد وتفاقم أمر ولده فقيده بقيد حديد وقال فيه

لى ولد ياليته * لم يك عندى يخلق
يجهد فى كل الذى * يرغم وهو يعشق
وان أكن قيدته * دمعى عليه مطلق

وذكر ابن سعيد أن الكاتب أبا الحسن المذكور كان كثيرا مايستعير الكتب فاذا طلبت منه فكأنها ما كانت فذكر لبعض أصحابه وهو ابن الربيب المؤرخ أن عنده نسخة جليلة من تاريخ غريب الذى لخص فيه تاريخ الطبرى واستدرك عليه ماهو من شرطه وذيل ماحدث بعده فأرسل اليه فى استعارتها فكتب اليه يا أخى سدد الله آراءك وجعل عقلك أمامك لاوراءك مايلزمنى من كونك مضيعا أن أكون كذلك والنسخة التى رمت اعارتها هى مؤنسى اذا وحشنى الناس وكاتم سرى اذا خانونى فما أعيرها الا بشئ اعلم أنك تتأذى بفقده اذا افتقد جزء من النسخة وأنا الذى أقول

أنس أخى الفضل كتاب انيق * الى آخره وأنشد للكاتب أبى الحسن المذكور

ان ذاك العذار قام بعذرى * وفشا فيه للعواذل سرى
مارأينا من قبل ذلك مسكا * صاغ منه الاله هالة بدر
أى آس من حول جنة ورد * ليس منه آس مدى الدهر يبرى

ولما اشتد مرضه بين تلمسان وفاس قال هذه الابيات وأوصى أن تكتب على قبره

الا رحم الله حيا دعا * لميت قضى بالفلا نحبه
تمر السوافى على قبره * فتهدى لاحبابه تربه
وليس له عمل يرتجى * ولكنه يرتجى ربه انتهى

*(رجع الى نظم ابن سعيد المترجم به) فنقول وقال لما سار المعظم من حصن كيفا وآل أمره الى الملك ثم القتل والهلاك

فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهى الى ماهنالك فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها فالتقيا على الرجل فلم يدرك حتى جزآه قطعا وهوى جسمه سفلا فلما استقر جسمه على بعض الدرج اهتز العمود وصفر الديك تصفيرا عجيبا سمعه من كان بالبعد من هنالك وحرك جناحيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة قد عملت بالكواكب والحركات اذا ماوقع على بعض تلك الدرج شئ أو ماسها تهافت من هنالك من الرجال الى أسفل تلك الحفيرة وكان فيها من يحفر ويعمل وينقل التراب ويبصر ويحرك ويأمر وينهى نحو ألف رجل فهلكوا جميعا فجزع عبد العزيز وقال هذا ردم عجيب الامر ممنوع النيل نعوذ بالله منه وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من هنالك من التراب على من هلك من الناس فكان الموضع قبر الهم (قال المسعودى) وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ومن قد اغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والامم السالفة المستودعة بطن الارض ببلاد مصر وقع اليهم كتاب ببعض الاقلام السالفة فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من

ليت المعظم لم يسر من حصنه * يوما ولا وافى الى أملاكه
ان العناصر اذ رأته مكملا * حسدته فاجتمعت على اهلاكه

*ومما نقلته من ديوانه الذى رتبه على حروف المعجم قوله رحمه الله تعالى وقلت بالقاهرة على لسان من كلفنى ذلك

شرف الدين أبن لى ما السبب * فى انقلاب الدهر لى عند الغضب
فلتدم غضبان أظفر بالمنى * ليس لى فى غيره ذا من أرب
انما ظهرك عندى قبلة * ووضوئى الدهر من ذاك الشنب

وأستغفر الله من قول الكذب قال وقلت باشبيلية

قد جاء نصر الله والفتح * والصبح لما رضيت صبح
فهنئونى بارتجاع المنى * لولا الرضا ما برح البرح
يا أورقا يا غصنا يا نقا * يا ظبية بالليل يا صبح
يصحو جميع الناس من سكرهم * ولست من سكر كمو أصحو
بلغت فيه غاية لم يبن * غايتها التفسير والشرح
وينصح العذال من لى بأن * يعذلنى عن غيك النصح

وقلت باشبيلية

وضح الصبح فأين القدح * يعرف اللذات من يصطبح
ماترى الليل كطرف أدهم * وضياء الفجر فيه وضح
والثرى دبجه در الندى * وعلى الاغصان منه وشح
ومدير الراح لم يعد المنى * كل ما يأتى به مقترح
فى بطاح المرج قد نادمنى * رشا من سكره ينبطح
جعل المسواك ستر اللمى * فكأن قبل فاه قزح
كلما شئت الذى قد شاءه * فتح لى كاسه أفتتح
ما أبالى ان رآنى كاشح * أم رآنى من لديه نصح
هكذا العيش ودع عيش الذى * خاف من نقد اذا يفتضح

وقلت بشريش

طاب الشراب لمعشر * سلبوا المروءة فاستراحوا
لا يعرفون تسترا * السكر عندهم مباح
متهتكون لدى المنى * وفسادهم فيها صلاح
ساقيهم متبذل * هل يمنع الماء القراح
غصن يميل به الصبا * ردته طوع الراح راح
طوع الامانى كل ما * ياتى به فهو اقتراح
ما ان يبالى ان بدا * أن لا يلوح لنا الصباح
مازلت أرشف ثغره * وعليه من عضدى وشاح

بعض الاهرام المقدم ذكرها بان فيه مطلبا عجيبا فاخبروا الاخشيد محمد بن طغج بذلك فاذن لهم فى حفره وأباحهم استعمال الحيلة فى اخراجه فحفروا حفرا عظيما الى ان انتهوا الى ازج وأقباء وحجارة مجوفة فى صخر منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب قد طليت بالاطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الاجزاء والصور مختلفة منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرذ والفيروزج والزبرجد ومنها ما وجوهها ذهب وفضة فكسر بعض تلك التماثيل فوجد فى أجوافها رمم بالية وأجسام فانية والى جانب كل تمثال منها نوع من الابنية كالبرانى وغيرها من الآلات من المرم والرخام وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الاناء والطلاء دواء مسحوق واخلاط معمولة لا رائحة لها فجعل منه على النار ففاح منه روائح طيبة مختلفة لا تعرف فى نوع من الانواع التى للطيب وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم وبازاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر

والقلب يهفو طائرا * ولعا ولا يخشى افتضاح
ولو اننا نخشاه كا * ن لنا من الظلما جناح
لكننا فى عصبة * ما فى تهتكهم جناح
لا ينكرون سوى ثقيـ * ـل لا يميل به مزاح
أفنى الذى قد جمعو * ه الكاس والحدق الملاح

وقلت بمراكش

قم هاتها الاح الصباح * ما العيش الا الاصطباح
مع فتية ما دأبهم * الا المروءة والسماح
جربتهم فوجدتهم * ما للمنى عنهم براح
يثنيهم نحو الصبا * نقر المثانى والمراح
ما نادموا شخصا فكا * ن لهم بخدمته استراح
بل يعرفون مكانه * فله اذا شاء اقتراح
هم يتعبون وضيفهم * ما دام عندهم يراح
ما ان يملون النزيـ * ـل وبالرضا منه السراح
يدعونه بأجل ما * يدعى به الحر الصراح
حتى اذا ما بان كد * ر عيشهم منه انتزاح
فعلى منالهم يبا * ح لى المدامع والنواح
كرها فقدتهم فما * لى بعد بعدهم ارتياح
لله شوقى ان هفت * من نحو أرضهم الرياح
فهناك قلبى طائر * لهم ومن شوقى جناح

قال وقلت بمدينة ابن السليم فى وصف كلب صيد أسود فى عنقه بياض

وأدهم دون حلى ظل حالى * كأن ليلا يقلده صباح
يطير وما له ريش ولكن * متى يهفو فاربعه جناح
تكل الطير مهما نازعته * وتحسده اذا مر الرياح
له الالحاظ مهما جاء سلك * ومهما سار فهى له وشاح

وقلت فى نيل مصر

يا نيل مصر أين حمص ونهرها * حيث المناظر أنجم تلتاح
فى كل شط للنواظر مسرح * تدعو اليه منازه وبطاح
واذا بحثت فلست أسبح خائفا * ما فيه تياح ولا تمساح

قال وقلت وقد حضرت مع اخوان لى بموضع يعرف بالسلطانية على نهر اشبيلية وقد مالت الشمس للغروب

رق الاصيل فواصل الاقداحا * واشرب الى وقت الصباح صباحا
وانظر لشمس الافق طائرة وقد * ألقت على صفح الخليج جناحا

المرمر أو من الرخام الاخضر على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور عليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من اهل الملك وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الارض اعنى أرض مصر أربعة آلاف سنة وفيما ذكرناه دلالة على ان هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى ولم يؤدهم الحفر الا الى ما ذكرنا من هذه التماثيل وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر الى أحمد بن طولون وغيره الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والاموال والجواهر وما أصيب فى هذه المطالب من القبور والخزائن وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا وبالله التوفيق

(ذكر الاسكندرية وبنائها وملوكها وعجائبها وما ألحق بهذا الباب)

ذكر جماعة من أهل العلم أن الاسكندر المقدونى لما استقام ملكه فى بلاده سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء حتى انتهى الى موضع الاسكندرية فاصاب فيها أثر بنيان وعمدا كثيرة من الرخام وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند (وهو

فاظفر

فاظفر بصفو الافق قبل غروبها * واستنطق المثنى وأحث الراحا
متع جفونك فى الحديقة قبل أن * يكسو الظلام جمالها أمساحا

وقلت بمرسية

أقلقه وجده فباحا * وزاد تبريحه فناحا
ورام يثنى الدموع لما * جرت فزادت له جماحا
يامن جفا فارفقن عليه * مستعبد الايرى السراحا
يكابد الموت كل حين * لوأنه مات لاستراحا
ينزو اذا ما الرياح هبت * كأنه يعشق الرياحا
يسالها عن ربوع حمص * لما نما عرفها وفاحا
كم قد بكى للحمام كيما * يعيره نحوها جناحا

قال وخرجت مرة مع أبى اسحق ابراهيم بن سهل الاسرائيلى الى مرج الفضة بنهر اشبيلية فتشاركنا فى هذا الشعر

غيرى يميل الى كلام اللاحى * ويمد راحته لغير الراح
لاسيما والغصن يزهر زهره * ويميل عطف الشارب المرتاح
وقد استطار القلب ساجع ايكه * من كل ما أشكوه ليس بصاحى
قد بان عنه جناحه وعياله * من جانح للعجز دلف جناح
بين الرياض وقد غدا فى مأتم * وتخاله قد ظل فى أفراح
الغصن يمرح تحته والنهر فى * قصف ترجيه يد الارواح
وكأنما الانسام فوق جنانه * أعلام خز فوق سمر رماح
لاغرو أن قامت عليه أسطر * لما رأته مدرع الكفاح
فاذا تتابع موجه لدفاعه * مالت عليه فظل حلف صياح

قال وقلت بمالقة متشوقا الى الجزيرة الخضراء

يانسيما من نحو تلك النواحى * كيف بالله نور تلك البطاح
اسقتها الغمام ريا فلاحت * فى رداء ومئزر ووشاح
أم جفته فصيرته هشيما * تركته تذروه هوج الرياح
يازمانى بالحاجبية انى * لست من سكر ماسقيت بصاحى
آه مما لقيت بعدك من هم وشوق وغربة وانتزاح
أين قوم ألفتهم فيك لما * قرب الدهر آذنوا بالرواح
تركونى أسير وجد وشوق * مالقلبى من الجوى من سراح
أسلمونى للويل حتى تولوا * وأصاخوا لظلم القول اللواحى
أعرضوا ثم عرضونى لشوق * ترك القلب مثخنا بجراح
أسهر الليل لست أغفى لصبح * أترى النوم ذاهبا بالصباح
قد بدا يظهر النجوم حليا * وهو من لبسة الصبا فى براح

عظيم العماد من الجبال والاطواد وأنا بنيت ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد أردت أن ابنى ههنا كارم وأنقل اليها كل ذى اقدام وكرم من جميع العشائر والامم وذلك اذ لاخوف ولاهرم ولا اهتمام ولا سقم فاصابنى ما أعجلنى وعما أردت قطعنى ومع وقوعه طال همى وشجنى وقل نومى وسكنى فارتحلت بالامس عن دارى لا لقهر ملك جبار ولا لخوف جيش جرار ولا عن رغبة ولا عن صغار لكن لتمام المقدار وانقطاع الآثار وسلطان العزيز الجبار فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى ونفاذ بصرى وشدة حذرى فلا يغتر بالدنيا بعدى فانها غرارة غدارة تاخذ منك ماتعطى وتسترجع ماتولى وكلام كثير يرى فناء الدنيا ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها ونزل الاسكندر يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث فحشر الصناع من البلاد وخط الاساس وجعل طولها وعرضها أميالا وحشد اليها العمد والرخام وأتته المراكب فيها أنواع الرخام وأنواع المرمر والاحجار من جزيرة صقلية و بلاد أفريقية واقريطش واقاصى بحر

مسبلا ستره منعم بال * وجفونى من سهده فى كفاح
أيها الليل لا تؤمل خلودا * عن قريب يعدو ظلامك ماحى
ويلوح الصباح مشرق نور * فيه للمستهام بدء نجاح
ان يوم الفراق بدد شملى * طائر البين بغير جناح
حالك اللون شبه لونك فاعرف * عن عيانى ياشبه طير النزاح
واذا ما بدا الصباح فايشبه الالون الخدود الملاح

وقلت بالجزيرة الخضراء

قد رفعت راية الصباح * تدعو الندامى للاصطباح
فبادروا للصبوح انى * قد بعت فى غيه صلاحى
ولا تميلوا عن رشف ثغر * وسمع شدو وشرب راح
وأنت يامن يروم نصحى * قد يئس القوم من فلاحى
لست أصغى الى نصيح * ما نهضت بالكؤس راحى

قال وقلت أمدح ملك افريقية وأهنيه بقتل ثائر من زناتة يدعى أنه من نسل يعقوب المنصور

برح بى من ليس عنه براح * ومن رأى قتلى حلالا مباح
من صرح الدمع بحبى له * وما لقلبى عن هواه سراح
ظبى عدمت الصبح مذ صدنى * وكيف لا يعدم وهو الصباح
مورد الخد شهى اللمى * منعم الردف جذيب الوشاح
تظنه من قلبه جلمدا * ومنه للماء بجفنى انسياح
لردفه أضعف من صبه * ولم أزل من لحظه فى كفاح
نشوان من ريقته عربدت * أجفانه بالمرهفات الصفاح
فها أنينى خافت مثل ما * أنا أسير مثخن بالجراح
ياقاتلى صدا أما تستحى * أن تلزم البخل بارض السماح
من ذا الذى يبخل فى تونس * والملح فيها صار عذبا قراح
واصبحت ارجاؤها جنة * مبيضة الابراج خضراء البطاح
لولا ندى يحيى وتدبيره * ما برحت تعبر منها النواح
لكن يداه سحب كلما * حلت بارض حل فيها النجاح
هذا وقد آمن من حلها * وحقها من غربة وانتزاح
كم شتتوا من قبل تاميره * وحكمت فيهم عوالى الرماح
ياسائرا يرجو بلوغ المنى * با كر ذرى يحيى وقل لارواح
وحيه بالمدح فهو الذى * يهتز كالهندى حين امتداح
بالشرق والغرب غدا ذكره * يحث من حمد وشكر جناح
ساعده السعد واضحت له الآمال تجرى بغير اقتراح

الروم مما يلى مصبه بحر أوقيانوس وحمل اليه أيضا من جزيرة رودس وهى جزيرة مقابلة للاسكندرية على ليلة منها فى البحر وهى أول بلاد الافرنجة وهذه الجزيرة فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة دار صناعة الروم وبها تنشا المراكب الحربية وفيها خلق كثير من الروم ومراكبهم تطرق بلاد الاسكندرية وغيرها من بلاد مصر فتغير وتاسر وتسبي وأمر الاسكندر الفعلة والصناع ان يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة وجعل على كل قطعة من الارض خشبة قائمة وجعل من الخشبة الى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام وكان أمام مضربه وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتا وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع أنهم اذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال وقد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا على ان يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها وأحب الاسكندر ان يجعل ذلك فى وقت يختاره ذى طالع سعيد فخفق الاسكندر برأسه وأخذته سنة فى حال ارتقابه الوقت المحمود المأخوذ فيه الطالع فجاء غراب فجلس على حبل

ويسر

ويسر الله له ملكه * من غير أن يشهر فيه السلاح
وكل من كان على غيره * ذا منعة أمسى به مستباح
وكم جموح عندما قام بالامر رأى القهر فخلى الجماح
كف بكف للندى والردى * بها معان وهي خرس فصاح
حتى لقد أحسن من سعده * تجري على ما يرتضيه الرياح
قولوا ليعقوب فماذا جنى * وابن أبي حمزة ماذا استباح
قد أصبحا من فوق جذعين لا * يؤنسهم غير هبوب الرياح
واسأل عن الداعي الدعي الذي * حاول أمرا كان عنه الصراح
أكان من صيره والدا * بزعمه أمل فيه فلاح
شكرا لسعد لم يدع فرقة * قد صير الملك كضرب القداح
راموا بلا جاه ولا محتد * ما خزت بالحق فكان افتضاح
زناتة يهنيكم فعلكم * عاجلكم ثائركم باجتياح
كفي ما قدمتم آخرا * والخير لن يبرح للشر ماح
عهدي به في موكب الملك ما * بينكم نشوان من غير راح
يحسب أن الارض ملك له * وروحه ملك لسمر الرماح
غدا بعز الملك لكنه * أهون مملوك على الارض راح
جاؤا به يمرح في عزه * وهم أزالوا عنه ذاك المراح
توقعوا في القرب منه الردى * من صحبة الاجرب يخشى الصحاح
فأسرعوا نحوك يبغون ما * عودتهم من عطفة والتماح
فغادروه جانيا غدره * لطائر البين عليه نياح
فالحمد لله على كل ما * سنى لك السعد برغم اللواح
مثلك لا ينقد ما شاءه * فلست تأتي الدهر الا صلاح
لا زلت في عز وفي مكنة * وفي سرور دائم وانفساح

قال وقلت ببنيونش موضع الفرجة بسبتة

اشرب على بنيونش * بين السواني والبطاح
مع فتية مثل النجو * م لهم اذا مروا جماح
ساقيهم متبدل * لا يمنع الماء القراح
كل يمد يمينه * ما في الذي يأتي جناح
هبوا عليه كلما * هبت على الروض الرياح
طوع الاماني كلما * يأتي به فهو اقتراح
عانقته حتى تركـ * ـت بخصره أثر الوشاح

وقلت باشبيلية

أوجه صبح أم الصباح * ولحظها أم ظبا الصفاح

الجرس الكبير الذي فوق العمود تحركه وخرج صوت الجرس وتحركت الجبال وخففت ماعليها من الاجراس الصغار وكان ذلك معمولا بحركات فلسفية وحيل حكمية فلما رأى الصناع تحرك تلك الحبال وسمعوا تلك الاصوات وضعوا الاساس دفعة واحدة وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس فاستيقظ الاسكندر من رقدته وسأل عن الخبر فاخبر بذلك فعجب وقال أردت أمرا وأراد الله غيره ويأبى الله الا ما يريد أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها وتداول الملوك اياها وان الاسكندر لما أحكم بنيانها وأثبت اساسها وجن الليل عليهم خرجت دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان فقال الاسكندر حين أصبح هذا بدء الخراب في عمارتها وتحقق مراد الباري في زوالها وتطير من فعل الدواب فلم يزل البناء يبني في كل يوم ويحكم ويوكل به من يمنع الدواب اذا خرجت من البحر فيصبحون وقد خرب البنيان فقلق الاسكندر لذلك وراعه ما رأى فاقبل يفكر ما الذي يصنع وأي حيلة يوقع في دفع الاذية عن المدينة فسنحت له الحيلة في ليلته عند خلوته بنفسه وايراده الامور واصداره فلما أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع

وثغرها ام نظيم در * وريقها أم سلاف راح
وقدها أم قوام غصن * وعرفها أم شذا البطاح
ياحبذا زورة تأتت * منها على غفلة اللواح
فلم أصدق بها سرورا * وظلت نشوان دون راح
أما منعت السلام دهرا * ولا رسول سوى الرياح
قالت ألا فانس ما تقضى * فمن يدع ما مضى استراح
ياحبذاها وقد تأتت * من دون وعد ولا اقتراح
زارت ومن نورها دليل * والليل قد أسبل الجناح
أخفت سراها فباح نشر * لها بعرف فشا وفاح
وافت فأمسى فى مداما * وساعدا ى لها وشاح
كأنما بت بين روض * والغصن والورد والاقاح
فبينما الشمل فى انتظام * اذ سمعت داعى الفلاح
فغادرتنى فقلت عذرا * قالت أما تحذر افتضاح
ولت وما خلت من صباح * يبدو على اثره صباح

قال وقلت بتونس

لامرحبا بالتين لما بدا * يسحب من ليل عليه الوشاح
ممزق الجلباب يحكى ضحى * هامة زنجى عليها جراح
وان تصحفه فلا حبذا * ما قد أتى تصحيفه بانتزاح

وقلت بالجزيرة الخضراء وقد كلفت ذلك

غرامى باقوال العدا كيف ينسخ * وعهدى وقد أحكمته كيف يفسخ
كلامكم لايدخل السمع نصحه * ولكن اذا حرضتم ليس يرسخ
وبى بدر تم قد ذللت لحسنه * فمن ذا الذى فيما أتيت يوبخ
اذا خاصمونى فى هواه خصمتهم * و يبغون تنقيصى بذاك فاشمخ
أرى أن لى فضلا على كل عاشق * فقصتنا فى الدهر مما يؤرخ
فما بشر مثل له فى جماله * ووجدى به فى العشق ليس له أخ

وقلت بالاسكندرية وقد تعذر على الحج عند وصولى اليها سنة تسع وثلاثين وستمائة

قرب المزار ولا زمان يسعد * كم ذا أقرب ما أراه يبعد
وارحمة لمتيم ذى غربة * ومع التغرب فاته ما يقصد
قد سار من أقصى المغارب قاصدا * من لذ فيه مسيره اذ يجهد
فلكم بحار مع قفار جبتها * تلقى بها الصمصام ذعرا يرعد
كابدتها عرباً وروما ليتنى * اذ جزت صعب صراطها لا اطرد
ياسائرين ليثرب بلغتمو * قد عاقنى عنها الزمان الانكد
أعلمتمو ان طرت دون محلها * سبقا وها أنا اذ تدانى مقعد

فى عرض خمس وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باشد ادارتها وقد أمسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الاطلية الدافعة للماء حذرا من دخول الماء الى التابوت وقد جعل فيها مواضع للحبال ودخل الاسكندر فى التابوت ورجلان معه من كتابه ممن له علم باتقان التصوير ومبالغة فيه وأمر أن تسد عليهم الابواب وأن يطلى بما ذكرنا من الاطلية وأمر فاتى بمركبين عظيمين فاخرجا الى لجة البحر وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوى بالتابوت سفلا اذ كان من شأنه لما فيه من الهواء ان يطفو فوق الماء ولا يرسب فى سفله وجعل التابوت الى المركبين وطوّل حباله فغاص التابوت حتى انتهى الى قرار البحر فنظروا الى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف فى صفاء ماء البحر فاذاهم بشياطين على أمثال الناس رؤسهم على مثال رؤس السباع وفى ايدى بعضهم الفؤس وفى أيدى بعض المناشير والمقامع يحاكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما فى ايديهم من آلات البناء فاثبت الاسكندر ومن معه تلك الصور واحكموها بالتصوير فى القراطيس على اختلاف انواعها وتشوه خلقتهم

ياعاذلى فيما اكابد قل فى * ما أبتغيه صبابة وتسهد
لم تلق مالقيته فعذلتنى * لايعذر المشتاق الامكمد
لوكنت تعلم ماأروم دنوه * ماكنت فى هذا الغرام تفند
لاطاب عيشى او احل بطيبة * افق به خير الانام محمد
صلى عليه من براه خيرة * من خلقه فهو الجميع المفرد
ياليتنى بلغت لثم ترابه * فيزاد سعدا من بنعمى يسعد
فهناك لواعطى مناى محلة * من دونها حل السها والفرقد
عينى شكت رمدا وانت شفاؤها * من دائها ذاك الثرى لا الاثمد
ياخير خلق الله مهما غبت عن * عليا مشاهدها فقلبى يشهد
ماباختيار القلب يترك جسمه * غير الزمان له بذلك تشهد
ياجنة الخلد التى قد جئتها * من دون بابك للجحيم توقد
صرم التواصل ذبل وصوارم * ماالابيد على تقحمها يد
فلئن حرمت بلوغ ماأملته * فلدى ذكرى لاتزال تردد
فلتنعشوا منى الذماء بذكره * مادمت عن تلك المعالم ابعد
لولاه مابقيت حياتى ساعة * هولى اذامت اشتياقا مولد
ذكر يليه من الثناء سحائب * ابدا على مر الزمان يجدد
من ذا الذى نرجوه لليوم الذى * يقصى الظماء به ويحمى المورد
يالهف من وافى هناك وماله * من حبه ذخر به يتزود
ما أرتجى عملا ولكن أرتجى * ثقتى به ولحسب من يتزود
ماصح ايمان خلا من حبه * أبلا رياش يستعد مهند
عن ذكره لاحلت عنه لحظة * ومديحه فى كل حفل اسرد
يامادحا يبغى ثوابا زائلا * فثواب مدحى فى الجنان أخلد
لولا رسول الله لم ندر الهدى * وبه غدا نرجوا النجاة ونسعد
يارحمة للعالمين بعثت والدنيا بجنح الكفر ليل أربد
أطلعت صبحا ساطعا فهديت للايمان الامن يحيد ويجحد
لم تخش فى مولاك لومة لائم * حتى أقربه الكفور الملحد
ونصرت دين الله غير محاذر * ودعوت فى الاخرى الالى قد أصعدوا
ولقيت من حرب الاعادى شدة * لوكابدوها ساعة لتبددوا
ابان لاأحد عليهم عاضد * الاالاله ولم يخن من يعضد
فحماك بالغار الذى هو من أدل المعجزات وخاب من يترصد
ووقاك من سم الذراع بلطفه * كيما يغاظ بك العدا والحسد
والجذع حن اليك والماء انهمى * مابين خمسك والصحابة شهد
والذئب انطق للذى اضحى به * يهدى الى سبل النجاح ويرشد

وقدودهم واشكالهم ثم حرك الحبال فلما احس بذلك من فى المركبين جذبوا الحبال واخرجوا التابوت فلما خرج الاسكندر من التابوت وسار الى مدينة الاسكندرية أمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فعملوا تماثيل تلك الدواب على ما كان صوّره الاسكندر وصاحباه فلما فرغوا منها وضعت على العمد بشاطئ البحر ثم أمرهم فبنوا فلما أجنّ الليل ظهرت تلك الدواب والآفات من البحر فنظرت الى صورها على العمد مقابلة الى البحر فرجعت الى البحر ولم تعد بعد ذلك ثم لما بنيت الاسكندرية وشيدت أمر الاسكندر أن يكتب على أبوابها هذه الاسكندرية أردت أن ابنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات فى الدهور ولم يرد البارئ عز وجل ملك السموات والارض ومفنى الامم ان نبنيها كذلك فبنيتها وأحكمت بنيانها وشيدت سورها وآتانى الله من كل شئ علما وحكما وسهل لى وجوه الاسباب فلم يتعذر على فى العالم شئ مما أردته ولاامتنع عنى شئ مما طلبته لطفا من الله عز وجل وصنعا بى وصلاحا لى ولعباده من أهل عصرى والحمد لله رب العالمين لا اله الا الله

وبليلة الاسرا حباك وسمى الصـديق من اضحى بقولك يسعد
وحباك بالخلق العظيم ومعجز الـكلم الذي يهدي به اذ يورد
وبعثت بالقرآن غير معارض * فيه وامسى من نحاه يعدد
فتوالت الاحقاب وهو مبرّأ * من ان يكون له مثال يوجد
والكم بليغ جال فصل خطابه * والسرج في ضوء الغزالة تهمد
رؤيت لك الارض التي لا زال يو * م الحشر ربك في ذراها يعبد
ونصرت بالرعب الذي لما يزل * يترى كأنْ ما بين شخصك تفقد
فتى تعرض طاعن أو حاد عن * حرم الهداية فالحسام مجرد
يا من تخير من ذؤابة هاشم * نعم النجار لها ونعم المحتد
لسناك حين بدا بآدم اقبلت * رعيا الاخراه الملائك تسجد
لم استطع حصرا لما اعطيته * فذكرت بعضا واعتذاري منشد
ماذا اقول اذا وصفت محمدا * نفد الكلام ووصفه لا ينفد
فعليك يا خير الخلائق كلها * مني التحية والسلام السرمد

قال وقلت باشبيلية

هل تمنع النهود * ما ابدت الخدود
نعم وكم طعين * بطعنها شهيد
يا ربة المحيا * حفت به السعود
لم تسكر الحميا * بدر يقلك البرود
لله يا عذولي * ما تكتم البرود
مازلت فيه أفني * والوجد مستزيد
يا هل ترى زمانا * مضى لنا يعود
لدى الغروس سقت * جنابها العهود
حيث الغصون مالت * كأنها قدود
وزهرها نظيم * كأنه عقود
حمامها تغني * اعطافها تميد
وبا لنسيم شقت * لنهرها برود
فروعه سيوف * وسوره بنود
هناك كم دعتني * الى الورود رود
فنلت كل سؤل * يفني به الحسود
قضيت فيه عيشا * ما بعده مزيد
اضحى به وامسي * مرنحا اميد
كأنني يزيد * كأنني الوليد
يجري الزمان طوعي * بكل ما أريد

زب كل شيء ورسم الاسكندر بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الاحداث بعده في مستقبل الزمان من الآفات والعمران والخراب وما يؤول اليه الى وقت دثور العالم وكان بناء الاسكندرية طبقات وتحتها قناطر مقنطرة كما تدور والمدينة يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة وقد عمل لتلك العقود والآزاج مخاريق وتنفسات للضياء ومنافذ للهواء وقد كانت الاسكندرية تضيء بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام والمرمر واسواقها وشوارعها وازقتها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها شئ من المطر وقد كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها بينها خنادق وبين كل خندق وسور فصول وربما علق على المدينة شقاق الحرير الاخضر لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه فلما أحكم بناؤها وسكنها أهلها كانت آفات البحر وسكانه على ما زعم الاخباريون من المصريين والاسكندريين تختطف بالليل أهل المدينة فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير ولما علم الاسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هناك تدعى المسال وهي باقية الى هذه الغاية كل

الخمر ملكتني * فالخلق لي عبيد
يحق لي اذا ما * أبصرتها تجود
فيها انا اذا ما * فقدتها فقيد
يامن يلوم بغيا * العذل لا يفيد
اذا عدمت كاسي * فليس لي وجود

قال وقلت باشبيلية

أوما نظرت الى الحمامة تنشد * والغصن من طرب بها يتأود
ونثاره تلقاه جائزة لها * لما يزل بيد النسيم يبدد
ألقى عليها الطل برداسابغا * فتناوه طول الزمان يردد
أترى الحمامة من محب مخلص * أولى بشكر حين تغمر بيد
فلا ثنين عليك ما أثنى بأعلى الغصن جنان الهذيل مغرد
كم نعمة لى فى جنابك لم أكا * بدجهدها أيان برك يجهد

وقال

أرى العين منى تحسد الاذن كلما * جرت مدحة للعلم والفضل والمجد
أحقق أنباء ولم ار صورة * كتحقيق الاخبار عن جنة الخلد
فمن على عيني بلقياك انني * أخذت لها أمنا بذاك من السهد

قال وقلت أمدح ابن عمي وأشكره على ما أذكره

آه مما تكن فيك الجوانح * ودموعي على نواك سوافع
واشتفاء من العدو مبين * كدر العيش اى عيش لنازح
يا أتم الانام حسنا أما تحسن حتى يتم اطراء مادح
يا زمان الوصال عود افاني * طوحت بي لما غدرت الطوامح
أين عيش العروس اذ يبطع البكر حبيبي ما بين تلك الاباطح
والامانى تترى ولا أحد ينصح اذ لا يصغى الى قول ناصح
وزمان السرور سمع مطيع * ورسول الحبيب غاد ورائح
ولكم ليلة أتاني بلا طيب ولكن يزرى بأذكى الروائح
هو ظبي فليس يحتاج طيبا * قد كفاه عرف من المسك فائح
مثل عليا محمد لم تكن كسبا وما لا يكون في الطبع فاضح
يا كريما أتى من الجود مالا * كان يدرى فوحدته المدائح
وعلا كل ذي علاء وأضحى * نحو ما لا يرومه الناس طامح
قد أتاني احسانك الغمر في اثر سواه فكنت أكمل مادح
فاض بحر النوال منك ولا سا * حل يبدو ولم أزل فيه سابح
حلل مثل ما كسوتك في المد * ح تميت العدا ومال وسائح
أورد الورد منطقي كل شكر * حين أضحى طوع البنان مسامح

فاما منارة الاسكندرية فذهب الاكثر من المصريين والاسكندرانيين ممن عنى باخبار بلدهم الى أن الاسكندر بن

على عمد من نحاس وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة وذلك عند انخفاض درجة من درج الفلك وقربها من هذا العالم وعند أصحاب الطلسمات المنجمين والفلكيين أنه اذا ارتفع من الفلك درجة وانخفض أخرى في مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة تاتي في هذا العالم فعل الطلسمات النافعة المانعة والدافعة وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجات والنجوم وغيرهم من مصنفي الكتب في هذا المعنى ولهم في ذلك سر من أسرار الفلك ليس كتابنا هذا موضعا له ولغيرهم ممن ذهب الى أن ذلك للطف قوى الطبائع التام وغير ذلك مما قاله الناس وما ذكرنا من درج الفلك فموجود في كتب من تاخر من علماء المنجمين والفلكيين كأبي معشر البلخي والخوارزمي ومحمد بن كثير الفرغاني وماشاء الله وحسن والبزيدى ومحمد ابن جابر البتاني في زيجه الكبير وثابت بن قرة وغير هؤلاء ممن تكلم في علوم هيآت الفلك والنجوم (قال المسعودى)

فيلبش المقدوني هو الذي بناها على حسب ما قدمنا في بناء المدينة ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة هي التي بنتها وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم ومنهم من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها وقد قدمنا ذكر هذا الملك فيما سلف من هذا الكتاب ومنهم من رأى أن الذي بنى مدينة رومية هو الذي بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والاهرام بمصر وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته بالاستيلاء على الاكثر من ممالك العالم فشهرت به وذكروا في ذلك أخبارا كثيرة يدلون بها على ما قالوا والاسكندر لم يطرقه في هذا البحر عدو ولاهاب ملكا يرد اليه في بلده ويغزوه في داره فيكون هو الذي جعلها مرقبا وان الذي بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان في جوف البحر وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره فيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك واذا علت في الفلك فاصبعه مشيرة نحوها فاذا انخفضت انخفضت يده سفلا يدور معها حيث دارت ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على

لون خد الحبيب حين كسوه * حلة الحسن بالعيون اللوامح
شفق سال بين عينيه صبح * حسنه قيد اللحاظ السوارح
لم أجد فيه من جناح ولكن * ثنائي عليك مازال جانح
لك يا ابن الحسين ذكر جميل * صير الكل نحو بابك جانح
قد هدى نحوك الثناء كما يهدي الى الروض باسمات النوافح
فاعذر الناس ان أتوا لك أفوا * جا فكل بقصد فضلك رابح
ماهدتهم اليك الا الاماني * لم تحلهم الا عليك القرائح
قل لذي المفخر الحديث تأخر * ليس مهر في شأوه مثل قارح
أي أصل وأي فرع أقاما * شرفا ظل للنجوم يناطح
قد حوت مذحج من الفخر لما * كنت منها ما ليس يحويه شارح
أفق مجد قد زانه منك بدر * في ظلام الخطوب مازال لائح
بدر تم حفت به هالة من * بيت مجد علاؤها الدهر واضح
يا سماكا أمسكه القلم الاعلى بدا بين أنجم الملك رامح
رفع الله للكتابة قدرا * بعدما كابدت توالي الفضائح
يا أعز الانام نفسا وأعلا * هم محلا لازال أمرك راجح
أين أعداؤك الذين رعى سيفك فيهم فاشبهوا قوم صالح
أفسد الدهر حالهم ليرى حا * لك رغما بمن يناويك طامح
دمت في عزة وسعد مدى الدهـ * ـر ولازال طائر منك سانح

وابن عمه المذكور قال في حقه في المغرب ما ملخصه انه الرئيس الاعلى ذو الفضائل الجمة أبو عبد الله محمد بن الحسين بن أبي الحسين سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد قال واجتماع نسبنا مع هذا الرئيس في سعيد بن خلف وهو الآن قد اشتمل عليه ملك افريقية اشتمال المقلة على انسانها وقدمه في مهماته تقديم الصعدة لسنانها وأقام لنفسه مدينة حذاء حضرة تونس واعتزل فيها بعسكر الاندلس الذين صيرهم الملك المنصور الى نظره وهو كما قال الفتح صاحب القلائد فقد جاء آخرهم فخدد مفاخرهم ومن نظمه وقد نزل على من قدم له مشروبا أسود اللون غليظا وخروبا وزبيبا أسود وزبيبا كثير الغضون جاءت به عجوز في طبق

ويوم نزلنا بعبد العزيز * فلا قدس الله عبد العزيز
سقانا شرابا كلون الهناء * ونقلنا بقرون العنوز
وجاءت عجوز فأهدت لنا * زبيبا كغيلان خد العجوز

انتهى

ونزل السلطان أبو يحيى في بعض حركاته لموضع فيه نهر على شطه نور فقال الرئيس أبو عبد الله بن الحسين يصفه وأمر بذلك

ونهر يرف الزهر في جنباته * ويثني النسيم قضبه ويقنطر
يسيل كما عن الصباح بأفقه * والا كماشيم الحسام المجوهر

عليه ليحيى قبة هل سمعتم * بقرصة شمس حل فيها غضنفر
فان قلت هذى قبة لعفاتها * فقل ذلك الوادى الذى سال كوثر

وقال أبو عمرو أحمد بن مالك بن سعيد المبر اللخمى الشابى فى ذلك

وأرض من الحصباء بيضاء قد جرت * جداول ماء دونها تتفجر
كما سحبت تبغى الحياة أراقم * على روضة فيها الاقاح المنوّر
والا كما شقت سبائك فضة * بساطا على حافاته الدر ينثر

وقال أبو على يونس

انظر الى منظر يسبيك منظره * ويزدهيك باذن الله مخبره
ومعجب معجب لاشئ يشبهه * خريرماء غـيرتم منهره
كانما فرشت بالدر صفحته * فالماء ينظمه طورا وينثره
كأن خلجانه قدت على قدر * بماثها اقسم يجرى مفعره
أحل سيدنا المامون قبته * بجوزه فغدا يزدان جعفره

*(رجع) الى ما كنا فيه من أخبار الرئيس بن الحسين فنقول رأيت بالمغرب آخر كتاب روح السحر من نسخة ملوكية كتبت له أبياتا علق بحفظى منها الآن مانصه

تم روح السحر نسخا فأتى * مصحبا باليمن والفخر البعيد
لابى عبد الاله المرتقى * فى ذرا المجد الرئيس بن سعيد

ولم أحفظ تمام الأبيات وقال أبو الحسين على بن سعيد كتبت اليه من أبيات بحضرة تونس وقد نقل اليه بعض الحساد ما أوجب تغيره

ومن بعد هذا قد أتيت بزلة * أما حسن أن لا تضيق به صدرا
وعلمك حسبى بالامور فانني * عهدتك تدرى سر أمرى والجهرا
وقد أصلح الله الامور بسعيكم * ونيتكم صلحا على البشر والبشرى
ولم يبق لى الا رضاك فان به * كتبت ولو حرفا أطبت به العمرا
فبقيت كهفا للجميع وموئلا * ولا زلت مادام الزمان لناس بترا

فكتب الى هذه الابيات وكان متمرضا وبعث الى بما يذكر

أكف الصباح فحت جنى زهر الربا * سؤالك عن مضنى يسامى بك الزهرا
بعثت بمثل الزهر فى مثل صفحة * لذلك ما قلدتها الشذر والدرا
معان لها أعنو وأعنى بها فكم * وقفت عليها العين والسمع والفكرا
فلو عرضت للبحر لم يلفظ الدرا * ولو عارضت هاروت لم ينفث السحرا
أبا حسن هنيت ما قد منحته * ضروبا من الآداب تحلى بها الدهرا
ودونك بحرا من ودادى تلاطمت * به زاخرات المد لا يعرف الجزرا
فان خطرت فى جانب منك هفوة * فلا تحسبن أنى أضيق بها صدرا
بزل جواد عند ما يبلغ المدى * ويعثر بالرمث النسيم اذا اسرى
فدع ذا وخذها شائبات قرونها * عروبا لعوبا جائرا حكمها بكرا

ميلين أو ثلاثة فيعلم أهل المدينة أن العدو قد دنا منهم ويرمقونه بابصارهم ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوّت فى الساعة التى قبلها وصوته مطرب وقد كان ملك الروم فى مدة الوليد بن عبد الملك بن مروان أنفذ خادما من خواص خدمه ذا رأى ودهاء وجاء مستأمنا الى بعض الثغور فورد بالة حسنة ومعه جماعة فجاء الى الوليد فاخبره أنه من خواص الملك وأنه اراد قتله بموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل وانه استوحش منه ورغب فى الاسلام فاسلم على يد الوليد وتقرب من قلبه وتنصح اليه فى دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن فلما رأى الوليد تلك الاموال والجواهر شرهت نفسه واستحكم طمعه فقال له الخادم يا أمير المؤمنين ان ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك فساله الوليد عن الخبر فقال تحت منارة الاسكندرية أموال الارض وذلك أن الاسكندر احتوى على الاموال والجواهر التى كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام

ولو غادرت أوصافها متردما * لشنفت من أشعارها اذن الشعرا
ألا فاجبها عن صديق معمم * فان قصارى العمر أن يبكي العمرا
ومن كان ذا حجر ونيل ورقة * فلا يخل لون الاعلى الخمرة الحمرا
قرنت بها صفراء لم تعرف الهوى * ولا ألفت وصلا ولا عرفت هجرا
ولا ضمخت نضخ العبير وان غدت * تؤخره لونا وتفضحه نشرا
فان خلتها بنت الظليم أظلها * فقد فرش الاذخر من تحتها تبرا
لها نسب بين الثريا أو الثرى * وسل برباها المزن والغصن النضرا
فشربا دها قاوانتشاقا ولا ترم * عن البيت فترا أو تقيم به شهرا

وله في الخشكلان

هوا لا هلة لكن * تدعونه خشكلانا
فان تفاءلت صحف * تجد حبيبك لانا انتهى باختصار

وحظى المذكور جدا عند السلطان ملك افريقية أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص ولما مات السلطان المذكور وحدثت فتنة بموته واختلاف ثم استقرت الدولة لابنه الشهير الكبير القدر أبي عبد الله المستنصر ممدوح حازم بالمقصورة وقاتل ابن الابار القضاعي سخط على الرئيس بن الحسين المذكور وقبض على دياره وأمواله وصيره كالمحبوس فكتب اليه رقعة يطلب الاجتماع به في مصلحة للدولة فأحضره وسأله فأخبره بان أباه صنع دارا عظيمة تحت الارض وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة لسلطانه ولم يترك على وجه الارض من له علم بهذا الموضع الذي أودعه نفائس أمواله غيري وأوصاني أنه اذا انتقل الى جوار ربه اذ توقع أن تقع فتنة بين أقاربه انه اذا انقضت سنة واستقر الامر لاحد من ولدي أو من يتيقن انه يصلح لامور المسلمين فاطلعه على هذه الذخائر بما فنيت الاموال بالفتنة فلا يجد القائم بالامر ما يصلح به الدولة اذا تفرغ للتدبير والسياسة ففرح السلطان وبادر الى تلك الدار فرأى ما ملأ عينه وسر قلبه وخرج الرئيس بن الحسين والخيل تجنب أمامه وبدر الاموال بين يديه وأعاده الى أحسن أحواله وجعله وزير الدية كما كان أبوه مفوضا أموره اليه وقال السلطان ان من أوجب شكر الله على ان افتتح المال بان أؤدي منه للرعية الذين نهبت دورهم واحترقت في الفتنة التي كانت بيني وبين أقاربي ما خسروه وأمر بالنداء فيهم وأحضرهم وكل من حلف على شيء قبضه وانصرف وكان السلطان المستنصر المذكور في بعض متصيداته فكتب لابي عبد الله الرئيس المذكور يأمره باحضار الاجناد لاخذ أرزاقهم بقوله

ليحضر كل ليث ذي منال * زكا فرعا لاسداء النوال
غدا يوم الخميس فاشغلنا * باسد الوحش عن أسد الرجال

وحكى ان السلطان المذكور عرض مرة أجناده وقيل بل سلم عليه الموحدون يوم عيد بتونس وفيهم شاب وسيم اسم جده النعمان فسأله السلطان عن اسمه وأعجبه حسنه فخجل واحمر وجهه وازداد حسنا فقال السلطان هذا المصراع * كلمته فكلمت صفحة خده * وسال

والجواهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة وكان طولها في الهواء ألف ذراع والمرآة على علوها والدبادبة جلوس حولها فاذا نظروا الى العدو في البحر في ضوء تلك المرآة صوتوا بمن قرب منهم ونصبوا ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فيحذر الناس وينذر البلد فلا يكون للعدو عليهم سبيل فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها وأزيلت المرآة فضج الناس من أهل الاسكندرية وغيرها وعلموا انها مكيدة وحيلة في أمرها ولما علم الخادم استفاضة ذلك وأنه سينمى الى الوليد وأنه قد بلغ ما يحتاج اليه هرب في الليل في مركب كان قد أعده وواطأ قوما على ذلك من أمره فتمت حيلته وبقيت المنارة على ما ذكرنا في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وكان حوالى منارة الاسكندرية في البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر تتخذ منه فصوص للخواتم أنواعا من الجواهر منه الكركهن والادرك واشباه جشم ويقال ان ذلك من الآلات التي كان اتخذها الاسكندر للشراب فلما مات كسرتها من

من الحاضرين الاجازة فلم ياتوا بشئ فقال السلطان مجيزا شطره
* فتفتحت فيها شقائق جده * وهذا من البديع مع ما فيه من التورية والتجنيس ومما نسبه له أبو حيان بسنده اليه

مالي عليك سوى الدموع معين * ان كنت تغدر في الهوى وتخون
من منجدي غير الدموع وانها * لمغيثة مهما استغاث حزين
الله يعلم أن ما حملتني * صعب ولكن في رضاك يهون

وكان للسلطان المذكور سعد يضرب به المثل حتى انه كتب له السلطان صاحب مكة البيعة من انشاء ابن سبعين المتصوف كما ذكر ذلك ابن خلدون في تاريخه الكبير وسرد نصها وهي من الغرائب ومن سعده أن الفرنسيس الذي كان أسر بمصر وجعل في دار ابن لقمان والطواشي صبيح يحرسه لما سرح جاء من أمم النصرانية لبلاد المسلمين بعالم يجتمع قط مثله حتى قيل انهم كانوا ألف ألف فكتب اليه أهل مصر من نظم ابن مطروح القصيدة المشهورة التي منها

قل للفرنسيس اذا جئته * مقالة من ذي لسان فصيح

الى أن قال

دار ابن لقمان على حالها * ومصر مصر والطواشي صبيح

والقصيدة مشهورة فلذلك لم أسردها فصرف الفرنسيس جيوشه الى تونس فكتب اليه بعض أدباء دولة المستنصر

افرنسيس تونس أخت مصر * فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر * وطواشيك منكر ونكير

فقضى الله سبحانه وتعالى انه مات في حركته لتونس وغنم المستنصر غنيمة ما سمع بمثلها قط ويقال انه دس اليه سيفا مسموما من سله أثر فيه سمه وقلده رسولا اليه بعد أن جعل عليه من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره وقال للرسول ان الفرنسيس رجل كثير الطمع ولولا ذلك ما عاود بلاد المسلمين بعد أسره وانه سيرى السيف ويكثر النظر اليه فاذا رأيته فعل ذلك فانزعه من عنقك وقبله وقل له هذا هدية مني اليك لان من آدابنا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه وعاود النظر اليه بالقصد فلا بد أن يكون له ويحرم علينا أن نمسكه لان ما أحبه المولى على العبيد حرام وتكرار النظر اليه دليل على حبه له ففرح النصراني بذلك وأسرع الرسول العود الى سلطانه فسل النصراني السيف فتمكن فيه السم بالنظر فمات في الحين وفرج الله تعالى عن المسلمين *(رجع) الى أخبار أبي الحسن علي بن سعيد قال ابن العديم في تاريخ حلب أنشدني شرف الدين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي بالقاهرة في أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الغرناطي يشير الى كتاب أبي الحسن الذي جمعه في محاسن المغرب وسماه المغرب

سعد الغرب وازدهى الشرق عجبا * وابتهاجا بمغرب ابن سعيد
طلعت شمسه من الغرب تجلى * فأقامت قيامة التقليد

أمه ورمت بها في تلك المواضع من البحر ومنهم من رأى ان الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجوهر وغرقه حول المنارة لكيلا تخلو من الناس حولها لان من شان الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا في كل عصر في معدنه برا كان أو بحرا فيكون الموضع على دوام الاوقات بالناس معمورا والاكثر مما يستخرج من الجوهر حول منارة الاسكندرية الاشباد جشم وقد رأيت كثيرا من أصحاب التلويحات ومن عني باعمال الجواهر المشبهة بالمعدنية يعمل هذه الجواهر المعروفة بالاشباد جشم ويتخذ منه النصول وغيرها وكذلك الفصوص المعروفة بالباقلمون هي ترى ألوانا مختلفة من حمرة وصفرة تتلون في المنظر ألوانا مختلفة على حسب ما قدمنا والتلون من ذلك على حسب الجوهر في صفائه واختلاف نظر البصر في ادراكه وتلون هذا النوع من الجوهر أعني الباقلمون نحو تلون ريش صدور الطواويس فانها تتلون ألوانا مختلفة اذنابها واجنحتها أعني الذكور دون الاناث وقد رأيت منها بارض الهند ألوانا تظهر بحس البصر عند تأملها لا تدرك ولا تحصى ولا تشبه بلون من الالوان لما يتراءى من تموج الالوان في ريشها ويتاتى ذلك منها لعظم خلقتها وكبر أجسامها وهيئة

لم يدع للمؤرخين مقالا * لا ولا للرواة بيت نشيد
ان تلاه على الحمام تغنت * ما على ذا فى حسنه من مزيد

وأنشد أبو العباس التيفاشى لنفسه فيه

يا طيب الاصل والفرع الزكى كما * يبدو جنى ثمر من أطيب الشجر
ومن خلائقه مثل النسيم اذا * يهفو على الزهر حول النهر فى السحر
ومن محياه والله الشهيد اذا * يبدو الى بصرى أبهى من القمر
أثقلت ظهرى ببر لا أقوم به * لو كنت أتلوه قرآنا مع السور
أهديت للغرب مجموعا بعالمه * فى قاب قوسين بين السمع والبصر
كأننى الآن قد شاهدت أجمعه * بكل من فيه من بدو ومن حضر
نعم ولاقيت أهل الفضل كلهم * فى مدتى هذه والاعصر الاخر
ان كنت لم أرهم فى الصدر من عمرى * فقد رددت على الصدر من عمرى
وكنت لى واحدا فيهم جميعهم * ما يعجز الله جمع الخلق فى بشر
جزيت أفضل ما يجزى به بشر * مفيد عمر جديد الفضل مبتكر انتهى

ومن نظم أبى الحسن بن سعيد قوله

وعشية بلغت بنا أيدى النوى * منها محاسن جامعات للنخب
فحدائق ما بينهن جداول * وبلابل فوق الغصون لها طرب
والنخل أمثال العرائس لبسها * خز وحليتها قلائد من ذهب

ومن نظمه رحمه الله تعالى فى حلب قوله

حادى العيس كم تنيخ المطايا * سق فروحى من بعدهم فى سياق
حلب انها مقر غرامى * ومرامى وقبلة الاشواق
لا خلا جوسق وبطياس والسعـ * ـداء من كل وابل غيداق
كم بها مرتع لطرف وقلب * فيه يسقى المنى بكاس دهاق
وتغنى طيوره لارتياح * وتثنى غصونه للعناق
وعلو الشهباء حيث استدارت * أنجم الافق حولها كالنطاق

وقوله أيضا فى حماة

حمى الله من شطى حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغنى حمام أو تميل خمائل * وتزهى مبان تمنع الواصف الوصفا
يلومون أن أعصى التصون والنهى * بها وأطيع الكاس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعير شدوها * وأغلبها رقصا وأشبهها عرفا
تئن وتذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرآها وتسألها العطفا

وقوله فى وداع ابن عمه وكتب بهما اليه

وداع كما ودعت فصل ربيع * يفض ضلوعى أو يفيض دموعى

ريشها الان للطواويس بارض الهند شأنا عجيبا والذي يحمل منها الى أرض الاسلام ويخرج عن أرض الهند فيبيض ويفرخ تكون صغيرة الاجسام كدرة الالوان لا تخطف أنوار الابصار بادرا كما وانما تشبه بالهندية بالشبه اليسير هذا فى الذكور منها دون الاناث وذلك نحو النارنج والاترج المدور حمل من أرض الهند الى أرض غيرها بعد الثلثمائة فزرع بعمان ثم نقل الى البصرة والعراق والشام حتى كثر فى دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وانطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعهد ولا يعرف فعدمت منه الروائح الخمرية الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بارض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد ويقال ان هذه المنارة انما جعلت المرآة فى أعلاها لان ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر على الاسكندرية فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد فى البحر من عدوهم الان من يدخلها يتيه فيها الا ان يكون عارفا بالدخول والخروج فيها لكثرة بيوتها وطبقاتها وممارقها وقد ذكر ان المغاربة حين وافوا

لئن

لئن قيل فى بعض يفارق بعضه * فانى قد فارقت منك جميعى

قال فارسل الى احسانا واعتذر ولسان الحال ينشد عنه

أحبك فى البتول وفى أبيها * ولكنى أحبك من بعيد

وقوله وقد أفلت المركب الذى كان فيه من العدو

انظر الى مركبنا منقذا * من العدا من بعد احواز

أفلت منهم فغدا طائرا * كطائر أفلت من بازى

وقال رحمه الله تعالى لما خرج من حدود افريقية

رفيق جاوزنا حدود مواطن * صحبنا بها الايام طلقا محياها

وما ان تركناها لجهل بقدرها * ولكن ثنت عنا أعنة سقياها

فسرنا نحث السير عنها لغيرها * الى أن يمن الله يوما بلقياها

وكان وصوله الاسكندرية فى السابع والعشرين من ربيع الاول سنة تسع وثلاثين وستمائة * وقال رحمه الله تعالى أخذت مع والدى يوما فى اختلاف مذاهب الناس وانهم لا يسلمون لاحد فى اختياره فقال متى أردت أن يسلم لك أحد فى هذا التأليف أعنى المغرب ولا يعترض أتعبت نفسك باطلا وطلبت غاية لا تدرك وأنا أضرب لك مثلا يحكى ان رجلا من عقلاء الناس كان له ولد فقال له يوما يا أبى ما للناس ينتقدون عليك أشياء وأنت عاقل ولو سعيت فى مجانبتها سلمت من نقدهم فقال يا بنى انك غر لم تجرب الامور وان رضا الناس غاية لا تدرك وأنا أوقفك على حقيقة ذلك وكان عنده حمار فقال له اركب هذا الحمار وأنا أتبعك ماشيا فبينما هو كذلك اذ قال رجل انظر ما أقل هذا الغلام بادب يركب ويمشى ابوه وانظر ما اشد تخلف والده لكونه يتركه لهذا فقال له انزل أركب انا وامش انت خلفى فقال شخص آخر انظر هذا الشخص ما اقل شفقته ركب وترك ابنه يمشى فقال له اركب معى فقال شخص أشقاهما الله تعالى انظر كيف ركبا على الحمار وكان فى واحد منهما كفاية فقال له انزل بنا وقدماه وليس عليه راكب فقال شخص لا خفف الله تعالى عنهما انظر كيف تركا الحمار فارغا وجعلا يمشيان خلفه فقال يا بنى سمعت كلامهم وعلمت ان احدا لا يسلم من اعتراض الناس على اى حالة كان اعتراضهم انتهى وقال فى اثناء خطبة المغرب ما نصه والحمد لله الذى جعل الادب افضل ما اكتسب وافضل ما انتخب اذ هو ذخر لا يخاف كساده وكنز لا يخشى انتقاصه وان كثر مرتاده ولله در القائل

رايت جميع الكسب يفقده الفتى * وتبقى له اخلاقه والتادب

اذا حل فى ارض اقام لنفسه * بآدابه قدرا به يتكسب

واوما كل نحوه ولعله * الى غير اهل للنباهة ينسب

وقال فى اثناء الكلام لبعض المغاربة

فأثبت فى كل المواطن همة * الى طلب العلم الذى كان مطرح

وصيرت من قد كان بالنظم جاهلا * يحاوله لما يجود لك المدح

وقال ايضا فى الخطبة وبعد فهذا كتاب راحة قد تعبت فى جمعه الاسماع والابصار

الى المنارة فتاهوا فيها وفيها طرق تؤل الى مهاو تهوى الى السرطان الزجاج وفيها مخارق الى البحر فتهوّر وابدوابهم وفقد منهم عدد كثير وعلم بهم بعد ذلك وقيل ان تهوّرهم كان فى كرسى بها قدامها وفيها مسجد فى هذا الوقت يرابط فيه فى الصيف مطوّعة المصريين وغيرهم ولبلاد مصر والاسكندرية و بلاد الاندلس ورومية وما فى الشرق واليمن والمغرب أخبار كثيرة فى عجائب البلدان والابنية والآثار وخواص البقاع ومايؤثر فى ساكنيها وقطانها أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على الاخبار منها فيما سلف من كتبنا من عجائب العالم من دوابه وبره وبحره فاغنى ذلك عن اعادة ذكره ولم نتعرض فيما سلف من هذا الكتاب لذكر بيوت النيران والهيا كل المعظمة والبيوت المشرفة وغير ذلك مما يليق بمعناها بل نذكرها فى الموضع المستحق بها من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

(ذكر السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم وتباينهم فى ديارهم وأخبار ملوكهم) (قال المسعودى) لما تفرق ولد نوح فى الارض سار

والافكار وكل عني سهل اذا أنجح القصد وقد بدئ فيه من سنة ثلاثين وخمسمائة ومنتهاه الى غرة سنة احدى واربعين وستمائة قال واول من كان السبب في ابتداء هذا الكتاب جدّ والدي عبد الملك بن سعيد وهو اذ ذاك صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين امير المسلمين ملك البر الى أن استبد بها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وقصده في سنة ثلاثين وخمسمائة حافظ الاندلس أبو محمد عبد الله بن ابراهيم بن الحجاري وصنف له كتاب المسهب في غرائب المغرب في نحو ستة أسفار وابتدأ فيه من فتح الاندلس الى التاريخ الذي ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة ثم ثار في خاطر عبد الملك أن يضيف اليه ما أغفله الحجاري وتولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد وأضافا اليه ما استفاداه ولم يزل يزيد الى أن استبد به محمد فاعتنى به أشد اعتناء ثم استبد به والدي وكان أعلمهم بهذا الشان وبلغ من اجتهاده في هذا الكتاب أني أذكره يوما وقد نوّه به ابن هود وهو ملك الاندلس وولاه الجزيرة الخضراء فأعلمه شخص ان عند أحد المنسوبين الى بيت نباهة كراريس من شعر شعرائها وأخبار رؤسائها الذين تحتوي عليهم دولة بني عبد المؤمن فارسل اليه راغبا في استعارتها فأبى وقال على يمين أن لا تخرج عن منزلي وقال ان كانت له حاجة يأتي على رأسه وكان جاهلا فلما سمع والدي ضحك فقال لي سر معي اليه فقلت له ومن يكون هذا حتى يمشي له على هذه الصورة فقال اني لا أمشي له ولكن أمشي للفضلاء الذين تضمنت الكراريس أشعارهم وأخبارهم أتراهم لو كانوا أحياء مجتمعين في موضع أنفت أن أمشي اليهم قلت لا قال فان الاثر ينوب عن العين فمشينا الى منزل الرجل فوالله ما أنصفنا في اللقاء فلما قضينا منها الغرض صرفها اليه والدي وشكره وقال هذه فائدة لم أجدها عند غيرك فجزاك الله تعالى خيرا ثم انفصل وقال المتعلم يا بني اني سررت بهذه الفائدة اكثر من الولاية وان هذا والله اوّل السعادة وعنوان نجاحها والقلعة التي كان بها بنو سعيد تعرف بهم فيقال لها قلعة بني سعيد وكانت تعرف قبل بقلعة اسطيرو وهو عين لها وقال الملاحي في تاريخه انها تعرف بقلعة يحصب قبيل من اليمن نزل بها عند فتح الاندلس وبها كان مصنف الحجاري كتاب المسهب لصاحبها عبد الملك بن سعيد وفي بني سعيد يقول الحجاري

قوم لهم في فخرهم * شرف الحديث مع القديم
ورثوا الندى والبأس والعليا كريما عن كريم
من كل وضاح به * يجلى دجى الليل البهيم

وكان اوّل من دخل الاندلس من ولد عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه عبد الله بن سعيد بن عمار وقد ذكره ابن حيان في مقتبسه واخبر ان يوسف بن عبد الرحمن الفهري صاحب الاندلس آخر دولة بني امية بالمشرق كتب اليه ان يدافع عبد الرحمن بن معاوية المرواني الداخل للاندلس وكان اذ ذاك اميرا على اليمانية من جند دمشق واغار كن اليه في محاربة عبد الرحمن لما بين بني عمار وبني امية من الثار بسبب قتل عمار بصفين على يد عسكر معاوية رضي الله تعالى عنه وكان عمار من شيعة علي رضي الله تعالى عنهما وقال الحجاري أنشدني بكر بن محمد بن سعيد صاحب أعمال غرناطة في مدة الملثمين لنفسه فيما يليق بجنسه

ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب وهم النوبة والبجه والزنج وسار فريق منهم نحو المغرب وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والغافو ومرتك وكوكو والجي وغانة وغير ذلك من أنواع الاحابش والدمادم ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب فصارت الزنج من المكير والمسكون وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج وقد قدمنا فيما سلف عند ذكرنا للبحر الحبشي والخليج البربري وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم الى بلاد الدهلك والزيلع وناصع وهؤلاء القوم هم أصحاب جلود النمور والجبير وهي لباسهم ومن أرضهم تحمل الى بلاد الاسلام وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج وبحر الزنج والاحابش هو عن يمين بحر الهند وان كانت مياههما متصلة ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف وهو الذي يتخذ منه الامشاط كالقرن واكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم وان كانت عامة الوجود في أرض النوبة دون سائر بلاد الاحابش وقد تنوزع في نتاج هذا النوع من الدواب المعروفة بالزرافة فمنهم من رأى أن بدء

ان

ان لم اكن للعلاء أهلا * بما تراه فمن يكون
وكل ما أبتغيه دونى * ولى على همتى ديون
ومن يرم ما يقل عنه * فذاك من فعله جنون
فرع بأفق السما سام * وأصله راسخ مكين

ومن نظمه قوله أيضا

الله يعلم انى * أحب كسب المعالى
وانما أتوانى * عنها لسوء المآل
تحتاج للكد والبذ * ل واصطفاف الرجال
دع كل من شاء يسمو * لها بكل احتيال
فحالهم بانعكاس * فيها وحالى حالى

ولما ذكر ابن سعيد فى المغرب ترجمة الكاتب الرئيس المجيد أبى العباس أحمد الغسانى كاتب ملك افريقية قال بماذا أصفه ولو أن النجوم تصير لى نثرا لما كنت أنصفه وكفاك أنى اختبرت الفضلاء من البحر المحيط الى حضرة القاهرة فما رأيت أحسن ولا أفضل عشرة منه ولما فارقته لم أشعر الا برسالته قد وافتنى بالاسكندرية من تونس وفيها قصيدة فريدة منها

ايه أبا الحسن استمع شدوى فقد * يصغى الحمام اذا الحمام ترنما

ثم سرد بعضا من القصيدة وستأتى قريبا ان شاء الله تعالى بزيادة على ما ذكر منها فى المغرب *(رجع) وجد بخطه رحمه الله تعالى آخر الجزء من كتاب المغرب ما نصه أجزت الشيخ القاضى الاجل أبا الفضل أحمد ابن الشيخ القاضى أبى يعقوب التيفاشى أن يروى عنى مصنفى هذا وهو المغرب فى محاسن المغرب ويرويه من شاء ثقة بفهمه واستنامة الى علمه وكذلك أجزت لفتاه النبيه جمال الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن خطلخ الفارسى الارموى أن يرويه عنى ويرويه من شاء وكتبه مصنفه على بن موسى بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد فى تاريخ الفراغ من نسخ هذا السفر انتهى وقال فى وسيم من أبناء العجم صحبه فى الطريق من حلب الى بغداد فمات وكان ظريفا أديبا

لهفى على غصن ذوى * أفقدته لما استوى
ريان من ماء الصبا * ومن المدامع ما ارتوى
لاتعذلونى ان نطقـ * ـت الدهر فيه عن الهوى
كم ضل صاحبه بسحـ * ـر اللحظ منه وكم غوى
أنا لا أفيق الدهر فيـ * ـه من الصبابة والجوى
ان الهوى حيا وميـ * ـتا لا يزال به سوى
كم قد نويت به النعيـ * ـم فقدر الله النوى
دار السلام حويت من * كل المحاسن قد حوى
مجموع حسن قد توى * فى جنة وبها ثوى

وولد ابو الحسن على بن موسى بن محمد يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شهر رمضان عام

نتاجها من الابل ومنهم من رأى أن ذلك كان يجمع بين الابل والزرافة وأن النمور ظهرت من ذلك ومنهم من زعم أنه نوع من الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل والحمير والبقر وأن ليس سبيلها كسبيل البغال المولدة من الخيل والحمير وتدعى الزرافة بالفارسية اشتراكا وقد كانت تهدى الى ملوكهم من أرض النوبة كما تحمل الى ملوك العرب ومن مضى من خلفاء بنى العباس وولاة مصر وهى دابة طويلة اليدين والرقبة قصيرة الرجلين لاركبتين لرجليها وانما الركبتان ليديها وقد ذكر الجاحظ فى كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاما كثيرا فى نتاجها وأن فى أعالى بلاد النوبة يجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة فى حمارة القيظ الى شرائع المياه فتتسافد هنالك فيلقح منها ما يلقح ويمتنع ما يمتنع فيجىء من ذلك خلق كثير مختلفة فى الصور والاشكال منها الزرافة ذات الاظلاف وهى دابة منحنية الى خلفها مصبوبة الظهر الى مؤخرها وذلك لقصر رجليها وللناس فى الزرافة كلام كثير على حسب ما قدمنا فى بدء نتاجها وان النمور ببلاد النوبة عظيمة الخلق وأن الابل صغيرة الخلق قصيرة القوائم وان ذلك لاتساع أرحام القلاص العربية لحوائج الزمان

عشرة وستمائة وهو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد ابن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه وقال في المغرب لما عرف بوالده الكاتب الشهير أبي عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ما ملخصه لولا أنه والدي لأطنبت في ذكره ووفيته من الوصف حق قدره لكن كفاه وصفا ما أثبت له في هذه الترجمة وما مر له ويمر في أثناء هذا الكتاب وكون كل من اشتغل بهذا التأليف نهرا وهو بحر واشتهاره في حفظه التاريخ والاعتناء بالآداب في بلاده بحيث لا يحتاج الى تنبيه ولا اطناب وله من النظم والنثر ما تضج الاقلام من كثرته ويستمد القطر من درته ومما شاهدت من عجائبه أنه عاش سبعا وستين سنة ولم أره يوما تخلى عن مطالعة كتاب أو كتب ما يخلده حتى ان أيام الاعياد لا يخليها من ذلك ولقد دخلت عليه في يوم عيد وهو في جهد عظيم من الكتب فقلت له يا سيدي أفي هذا اليوم لا تستريح فنظر الى كالمغضب وقال أظنك لا تفلح أبدا أترى الراحة في غير هذا والله لا أحسب راحة تبلغ مبلغها ولوددت ان الله تعالى يضاعف عمري حتى أتم كتاب المغرب على غرضي قال فأثار ذلك في خاطري أن صرت مثله لا ألتذ بنعيم غير ما ألتذ به من هذا الشان ولولا ذلك ما بلغ هذا التأليف الى ما تراه وكان أولع الناس بالتجول في البلدان ومشاهدة الفضلاء واستفادة ما يرى وما يسمع وفي تولعه بالتقييد والمطالعة للكتب يقول

يا مفنيا عمره في الكاس والوتر * وراعيا في الدجى للانجم الزهر
يبكي حبيبا جفاه أو ينادم من * يهفو لديه كغصن باسم الزهر
منعما بين لذات يعقها * ولا يخلد من خبر ولا سير
وعاذلا لي فيما ظلت أكتبه * يبدي التعجب من صبري ومن فكري
يقول مالك قد أفنيت عمرك في * حبر وطرس عن الاغصان والحبر
وظلت تسهر طول الليل في تعب * ولا تني أمد الايام في ضجر
أقصر فاني أدري بالذي طمحت * لافقه همتي واسأل عن الاثر
واسمع لقول الذي تتلى محاسنه * من بعد ما صار مثل الترب كالسور
جمال ذي الارض كانوا في الحياة وهم * بعد الممات جمال الكتب والسير

انتهى

وولد أبو عمران موسى بن محمد في الخامس من رجب عام ثلاثة وسبعين وخمسمائة وتوفي بثغر الاسكندرية يوم الاثنين الثامن من شوال عام أربعين وستمائة وولد أبوه محمد بن عبد الملك صاحب أعمال غرناطة وأعمال اشبيلية عام أربعة عشر وخمسمائة وتوفي بشعبان عام تسعة وثمانين وخمسمائة بغرناطة وكان محمد بن عبد الملك وزيرا جليلا بعيد الصيت عالي الذكر رفيع الهمة كثير الاموال وذكره ابن صاحب الصلات في كتابه تاريخ الموحدين ونبه على مكانته منهم في الحظوة والاخذ في أمور الناس وأثنى عليه وذكره السهيلي في شرح السيرة الشريفة حيث ذكر الكتاب الموجه من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هرقل وان محمد بن عبد الملك عاينه عند أدفونش مكرما مفتخرا به والقصة مشهورة ومدحه الرصافي بقصيدة أولها

وغيرها من ابل خراسان فيظهر بينهما ويتولد عنهما الجمال البخت والجمازات ولا ينتج بين بختي وبختية وانما يصح هذا النوع من الابل بين نواتج الابل وهي ذات السنامين وبين قلاص الابل وهي النوق العربية وكنتاج البخت بين البجاوية والمهرية وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب المنطق في كتابه الكبير ومنافع أعضائها وغير ذلك من أعضاء سائر الحيوان وقد أتينا على جميع ما يحتاج اليه من ذلك في كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب والزرافة عجيبة الفعل في الفها وتوددها الى أهلها وهي كالفيلة منها وحشية ومنها مستأنسة أهلية مع من قدمنا ذكره من الزنوج والاجناس من الحبشة الذين صاروا عن يمين النيل ولحقوا بأسافل البحر الحبشي وقطعت الزنج دون سائر الاحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب الى بحر الزنج فسكنت الزنج في ذلك الصقع واتصلت مساكنهم الى بلاد سفالة وهي أقاصي بلاد الزنج واليه تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين وهي غاية مقاصدهم في بحر الزنج كما أن أقاصي بحر الصين متصل ببلاد السيلي وقد تقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة وأقاصيه بلاد ذهنا

ذهنا يفيض وخاطرا متوقدا * ماذا عسى يثنى على علم الندى
ولما أنشده قصيدته فيه التى أولها
لمحلك الترفيع والتعظيم * ولوجهك التقديس والتكريم
حلف لا يسمعها وقال على اجازتك ولكن طباعى لا تحمل مثل هذا فقال له الرصافى ومن مثلك يستحق هذا فى الوقت غيرك فقال له دعنى من خداعك أنا وما أعلمه من قلبى وأنشده فى الطالع السعيد
فلا تظهرن ما كان فى الصدر كامنا * ولا تركبن بالغيظ فى مركب وعر
ولا تبحثن فى عذر من جاء تائبا * فليس كريما من يباحث فى العذر
وولى للموحدين أعمالا كثيرة بمراكش وسلا واشبيلية وغرناطة واتصلت ولايته على أعمال غرناطة وكان من شيوخها وأعيانها وكتب عليه عقدان فى داره من الحلى وأصنافه مالا يمكن الا فى دار الملك وأنه اذا ركب فى صلاة الصبح شوّش عليه نباح الكلاب فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمه صاحب أعمال افريقية أبى الحسين سنة ٥٩٣ ثم رضى عنهما وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كل ما أخذ منه فصرفه عليه ولم ينقص منه شيأ وغرم له مافات منه وهذا مما يدل على قوة سعد محمد بن عبد الملك المذكور ونباهة قدره وحسبه من الفخر مدح أديب الاندلس وشاعرها أبى عبد الله الرصافى له وهو ممن يمدح الخلفاء فى ذلك العصر رحمه الله تعالى وولد أبو عبد الملك بن سعيد عام ستة وتسعين وأربعمائة وتوفى بحضرة مراكش عام اثنين وستين وخمسمائة قال الحجارى لما مات يحيى بن غانية الملثم ملك الاندلس بحضرة غرناطة وكان وزيره ومدبر دولته عبد الملك بن سعيد بادر الفرار لغرناطة عندما سمع بموته الى قلعته وثار بها وطلبه خليفة يحيى بن غانية طلحة بن العنبر فوجده قد فاته وقد قدمنا أن عبد الملك هذا هو السبب فى تاليف كتاب المغرب فى أخبار المغرب ثم تممه ابنه محمد بن عبد الملك ثم تمم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ثم أربى على الكل فى اتمامه أبو الحسن على بن موسى الذى قصدناه بالترجمة فى هذا الكتاب وقد ذكرنا من أحواله جملة كافية *ومن فوائد ابن سعيد أبى الحسن ماحكاه عن صاحب كتاب الكمائم وهو فاما فسطاط مصر فان مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى مدينة عين شمس وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن وهو الذى عليه نزل عمرو بن العاص وضرب فسطاطه حيث المسجد الجامع المنسوب اليه ثم لما فتحها قسم المنازل على القبائل ونسب المدينة اليه فقيل فسطاط عمرو وتداولت عليها بعد ذلك ولاة مصر فاتخذوها سريرا للسلطنة وتضاعفت عمارتها فاقبل الناس من كل جانب اليها وقصروا أمانيهم عليها الى أن رسخت بها دولة بنى طولون فبنوا الى جانبها المنازل المعروفة بالقطائع وبها كان مسجد ابن طولون الذى هو الآن الى جانب القاهرة وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بانواع الفوائد وبها منتزهات وهى فى الاقليم الثالث ولا ينزل فيها مطر الا فى النادر وترابها ينتن الارجل وهو قبيح اللون تستكدر منه ارجاؤها وبسوء بسببه هواؤها ولها أسواق ضخمة الا انها ضيقة ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة

واتخذت الزنج دار مملكة وملكوا عليهم ملكا سموه لوقليمن وهى سمة لسائر ملوكهم فى سائر الاعصار على ماقدمنا آنفا ويركب لوقليمن وهو يملك ملوك سائر الزنوج فى ثلثمائة ألف فارس ودوابهم البقر وليس فى أرضهم خيل ولا بغال ولا ابل ولا يعرفونها وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد ولا غيرهم من الاحابش ومنهم أجناس محددة الاسنان يأكل بعضهم بعضا ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطعهم فى الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال والفيلة فى بلاد الزنج فى نهاية الكثرة وحشية كلها غير مستأنسة والزنج لا تستعمل منها شيأ فى حروب ولا غيرها بل تقتلها وذلك أنهم يطرحون لها نوعا من ورق الشجر ولحائه وأغصانه يكون بأرضهم فى الماء ويختفى رجال الزنج فترد الفيلة لشربها فاذا وردت وشربت من ذلك الماء أسكرها فتقع ولا مفاصل لقوائمها ولا ركب على حسب ماقدمنا فيخرجون اليها باعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لاخذ

ومذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرّط فى الاعتناء بها بعد الافراط وبينهما نحو ميلين وأنشدت فيها للشريف العقيلى

أحن الى الفسطاط شوقا وانى * لادعو لها أن لا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها * وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها * ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقال عن كتاب اجار والفسطاط هو قصبة مصر والجبل المقطم شرقيها وهو متصل بجبل الزمرد وقال عن كتاب ابن حوقل الفسطاط مدينة عظيمة ينقسم النيل لديها وهى كبيرة ومقدارها نحو فرسخ على غاية العمارة والطيب واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام فيها ضيق ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات على ممر الايام خضرة وفى الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب اليها كالكوفة والبصرة الا انها أقل من ذلك وهى سبخة الارض غير نقية التربة وتكون الدار بها سبع طبقات وخمسا وستا وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس ومعظم بنيانهم بالطوب وأسفل دورهم غير مسكون وبها مسجدان للجمعة بنى أحدهما عمرو بن العاص فى وسط الفسطاط والآخر على الموقف بناه ابن طولون وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميلا فى ميل يسكنها جنده وتعرف بالقطائع كما بنى بنو الاغلب خارج القيروان رقادة وقد خربتا فى وقتنا هذا وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة قال ابن سعيد ولما استقررت بالقاهرة تشوقت الى معاينة الفسطاط فسار معى اليها أحد أصحاب القرية فرأيت عند باب زويلة من الحمير المعدة لركوب من يسير الى الفسطاط جملة عظيمة لا عهد لى بمثلها فى بلد فركب منها حمارا وأشار الى أن اركب حمارا آخر فأنفت من ذلك جريا على عادة ما خلفته فى بلاد المغرب فأخبرنى أنه غير معيب على أعيان مصر وعاينت الفقهاء وأصحاب البزة والشارة الظاهرة يركبونها فركبت وعندما استويت راكبا أشار المكارى الى الحمار فطار بى وأثار من الغبار الاسود ما أعمى عينى ودنس ثيابى وعاينت ما كرهته ولقلة معرفتى بركوب الحمار وشدة عدوه على قانون لم أعهده وقلة رفق المكارى وقعت فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج فقلت

لقيت بمصر أشد البوار * ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الريا * ح لا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى * الى ان سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثرى * وألحد فيها ضياء النهار

فدفعت الى المكارى أجرته وقلت له احسانك أن تتركنى أمشى على رجلى ومشيت الى أن بلغتها وقدرت فى الطريق بين الفسطاط والقاهرة وحققته بعد ذلك نحو ميلين ولما أقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى الى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت من الطوب الادكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الاسود والازبال ما يقبض نفس النظيف ويغض طرف الظريف فسرت وأنا معاين لاستصحاب

تلك

أنيابها فى أرضهم تجهز أنياب الفيلة فى كل ناب منها خمسون ومائة منّ بل أكثر من ذلك والاثنان منها ثلثمائة منّ وأكثر من ذلك فيجهز الاكثر منها من بلاد عمان الى أرض الصين والهند وذلك انها تحمل من بلاد الزنج الى عمان ومن عمان الى حيث ذكرنا ولولا ذلك لكان العاج بأرض الاسلام كثيرا وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوادها وأراكنتها الاعمدة من العاج ولا يدخل قوادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشىء من الحديد بل بتلك الاعمدة المتخذة من العاج ورغبتهم فيما استقام من انياب الفيلة ولم يتقوس لاتخاذ الاعمدة منها على ما ذكرنا ويستعمل العاج فى دخن بيوت أصنامها وبخرة هياكلها كاستعمال النصارى فى الكنائس الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الابخرة وأهل الصين لا يتخذون الفيلة فى أرضهم ويتطيرون من اقتنائها عندهم والحرب عليها الخبر كان لهم فى قديم الزمان فى بعض حروبهم والهند كثيرة الاستعمال لما تجهز اليهم من العاج فى نصب الخناجر وهى الحرازى واحدها حرزى وفى قوائم سيوفها وهى القراطل واحدها قرطل وهى سيوف معوجة والاغلب فى استعمال الهند العاج اتخاذها منه

تلك الحال الى أن صرت فى أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التى على الجمال مالا تفى به الا مشاهدته ومقاساته الى ان انتهيت الى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الاسواق التى حوله ماذكرت به ضدّه فى جامع اشبيلية وجامع مراكش ثم دخلت اليه فعاينت جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل فى حصره التى تدور مع بعض حيطانه وتنبسط فيه وأبصرت العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والكعك وماسوى ذلك والناس يأكلون فى عدة أمكنة منه غير محتشمين لجرى العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل قد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا وفضلات مآكلهم مطروحة فى صحن الجامع وفى زواياه والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقف والاركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العامة الا أن مع ذلك على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس مالا تجده فى جامع اشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه ولقد تأمّلت ما وجدت فيه من الارتياح والانس دون منظر يوجب ذلك فعلمت أن ذلك سر مودع من وقوف الصحابة رضى الله تعالى عنهم فى ساحته عند بنائه واستحسنت ما أبصرته من حلق المتصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن وسألت عن مواد أرزاقهم فاخبرت انها من فروض الزكاة وما أشبه ذلك ثم أخبرت أن اقتضاء ذلك يصعب الا بالجاه والتعب ثم انفصلنا من هنالك الى ساحل النيل فرأيت ساحلا كدر التربة غير نظيف ولا متسع الساحة ولا مستقيم الاستطالة ولا عليه سور أبيض الا أنه مع ذلك كثير العمارة بالمراكب وأصناف الارزاق التى تصل من جميع أقطار النيل ولئن قلت انى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فانى أقول حقا والنيل هنالك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية الآن قلعته قد توسطت الماء ومالت الى جهة الفسطاط وبحسن سورها المبيض الشامخ حسن منظر الفرجة فى ذلك الساحل وقد ذكر ابن حوقل الجسر الذى يكون ممتدا من الفسطاط الى الجزيرة وهو غير طويل ومن الجانب الآخر الى البر الغربى المعروف ببر الجيزة جسر آخر من الجزيرة اليه وأكثر جواز الناس بأنفسهم ودوابهم فى المراكب لان هذين الجسرين قد احترما بحصولهما فى حيز قلعة السلطان ولا يجوز أحد على الجسر الذى بين الفسطاط والجزيرة راكبا احتراما لموضع السلطان وبتنا فى ليلة ذلك اليوم بطيارة مرتفعة على جانب النيل فقلت

نزلنا من الفسطاط احسن منزل * بحيث امتداد النيل قد دار كالعقد
وقد جمعت فيه المراكب سحرة * كسرب قطا أضحى يرف على ورد
وأصبح يطفو الموج فيه ويرتمى * ويطرب أحيانا ويلعب بالنرد
حلا ماؤه كالريق ممن أحبه * فمدّت عليه حلة من حلى الخد
وقد كان مثل البحر من قبل مده * فأصبح لما زاده المد كالورد

وقلت هذا لانى لم أذق فى المياه أحلى من مائه وأنه يكون قبل المد الذى يزيد به ويفيض على

الشطرنج والنرد والشطرنج ذو صور وأشكال على صور الحيوان من الناطقين وغيرهم كل قطعة من الشطرنج كالشبر فى عرض ذلك كالاكبر الى الاكبر فاذا لعبوا بها فانما يقوم الواحد قائما فينقلها فى بيوتها والاغلب عليهم فى لعبهم القمار بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر وربما أنفد الى أحد منهم ما معه فيلعب فى قطع أعضاء من جسمه وهو أن يجعلوا بحضرتهم قدرا من النحاس صغيرة على نار فحم فيها دهن لهم أحمر فيغلى ذلك الدهن المدمل للجراح والماسك لسيلان الدم فاذا لعب فى أصبع من أصابعه وقمر قطعها بتلك الخنجر ومثل النار ثم غمس يده فى ذلك الدهن فكواها ثم عاد الى لعبه فاذا توجه عليه اللعب أبان اصبعا ثانية وربما توجه عليه اللعب فى قطع أعضائه كلها من الاصابع والكف ثم الى الذراع والزند وسائر الاطراف وكل ذلك يستعمل فيه الكى بذلك الدهن وهو دهن عجيب يعمل من اخلاط وعقاقير بارض الهند عجيب المعنى اذ كرنا وما ذكرناه عنهم فمستفيض من فعلهم والهند تتخذ الفيلة فى بلادها وتتناتج فى أرضها ليس فيها وحشية وانما هى حربية ومستعملة كاستعمال البقر والابل وأكثرها يأوى الى المروج والضياع

أقطاره أبيض فاذا كان عباب النيل صار أحمر وأنشدنى علم الدين فخر الترك أيدمر عتيق وزير الجزيرة فى مدح الفسطاط

حبذا الفسطاط من والدة * جنبت أولادها دار الجفا
يرد النيل اليها كدرا * فاذا مازج أهليها صفا
لطفوا فالمزن لا تألفهم * خجلا لما رأتهم ألطفا

ولم أر فى أهل البلاد ألطف من أهل الفسطاط حتى انهم ألطف من أهل القاهرة وبينهما نحو ميلين والحال ان أهل الفسطاط فى نهاية من اللطافة واللين فى الكلام وتحت ذلك من الملق وقلة المبالاة ورعاية قدر الصحبة وكثرة الممازجة والالفة ما يطول ذكره وأمّا ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوصف وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد وبالفسطاط مطابخ السكر والصابون ومعظم ما يجرى هذا المجرى لان القاهرة بنيت للاختصاص بالجند كما أن جميع زى الجند بالقاهرة أعظم منه بالفسطاط وكذلك ما ينسج ويصاغ وسائر ما يعمل من الاشياء الرفيعة السلطانية والخراب فى الفسطاط كثير والقاهرة أجد وأعمر وأكثر زحمة باعتبار انتقال السلطان اليها وسكنى الاجناد فيها وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر انتهى قال المقريزى يعنى ابن سعيد ما بنى على شقة مصر من جهة النيل انتهى وقال ابن سعيد المذكور فى المغرب من حلى المغرب ما ملخصه الروضة أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة وبها مقياس النيل وكانت منتزها لاهل مصر فاختارها الملك الصالح ابن الملك الكامل سرير السلطنة وبنى فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء عالى السمك لم ترعينى أحسن منه وفى هذه الجزيرة كان الهودج الذى بناه الخليفة الآمر لزوجته البدوية التى هام فى حبها والمختار بستان الاخشيد وقصره وله ذكر فى شعر تميم بن المعز وغيره ولشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار منها قول أبى الفتح بن قادوس الدمياطى

أرى سرج الجزيرة من بعيد * كاحداق تغازل فى المغازل
كأن مجرة الجوزاء حطت * وأثبتت المنازل فى المنازل

قال وكنت أبيت بعض الليالى بالفسطاط فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل مع سور هذه الجزيرة الدرى اللون ولم أنفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت اليه همة بانيها وهو من أعظم السلاطين فى البناء وأبصرت بهذه الجزيرة ايوانا لجلوسه لم ترعينى مثاله ولا يقدر ما انفق عليه وفيه من صحائف الذهب والرخام الآبنوسى والكافورى والجزع ما يذهل الافكار ويستوقف الابصار ويفصل عما أحاط به السور أرض طويلة فى بعضها حاظر حصر فيه أصناف الوحوش التى يتفرج عليها السلطان وبعدها مروج تتقطع فيها مياه النيل فتنظر فيها أحسن منظر قال وقد تفرجت كثيرا فى طرق هذه الجزيرة مما يلى أثر الفسطاط فقطعت به عشيات مذهبات لم تزل لاحزان

والغياص كالجواميس فى أرض الاسلام والفيلة تهرب من المكان الذى يكون فيه السكركدن على حسب ماقدمنا فلا ترعى فى موضع يشم فيه رائحة السكركدن ويعمر الفيل بارض الهند نحوا من أربعمائة سنة كذلك يذكر الزنج لانها تعرف فى ديارها ومفاوزها والفيل العظيم مما يتاتى فيها قتله ومنها الاسود والابيض والابلق والاغبر وفى ارض الهند منها ما يعمر المائة سنة والمائتين ويضع حمله فى كل سبع سنين ولها بارض الهند آفة عظيمة من نوع من الحيوان يعرف بالزبرقان وهى دابة أصغر من الفهد أحمر ذو زغب وعينين براقتين عجيبة سريعة الوثبة يبلغ فى وثبته الثلاثين والاربعين والخمسين ذراعا وأكثر من ذلك فاذا أشرف على الفيل رشش عليه بوله بذنبه فيحرقها وربما لحق الانسان فاتى عليه وفى الهند من اذا اشرفت عليه هذه الدابة تعلق باكبر ما يكون من الساج وهى أكبر من النخل وأكبر من شجر الجوز تكن الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من الحيوان على حسب ما تحمل الى البصرة والعراق ومصر من خشب الساج فى طوله فاذا تعلق الانسان باعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن ادراكه لصق بالارض ووثب

الغربة مذهبات واذا زاد النيل فصل برها عن بر الفسطاط من جهة خليج القاهرة و يبقى موضع الجسر تكون فيه المراكب انتهى وأورد الصفدى فى تذكرته لابن سعيد المذكور فى هذه الجزيرة

انظر الى سور الجزيرة فى الدجى * والبدر يلثم منه ثغرا أشنبا
تتضاحك الانوار فى جنباته * فتريك فوق النيل أمرا معجبا
بينا تراه مفضضا فى جانب * أبصرت منه فى سواه مذهبا
لله أى ما رآه ناظرى * الا خلعت له المقام تطربا

وقال فى المغرب نقلا عن بعضهم ما صورته وأما مدينة القاهرة فهى الحالية الباهرة التى تفنن فيها الفاطميون وأبدعوا فى بنائها واتخذوها قطبا لخلافتهم ومركزا لارجائها فنسى الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط وسميت القاهرة لانها تقهر من شذ عنها ورام مخالفة اميرها قال ابن سعيد هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته لانها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من اول الديار المصرية الى البحر المحيط

وسارت مسير الشمس فى كل بلدة * وهبت هبوب الريح فى البر والبحر

لاسيما وقد عاين مبانى ابيه المنصور فى مدينة المنصورية الى جانب القيروان وعاين المهدية مدينة جده عبيد الله المهدى لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة وهى ناطقة الى الآن بالسن الآثار ولله در القائل

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
ان البناء اذا تعاظم شانه * أضحى يدل على عظيم الشان

وتهمم من بعده الخلفاء المصريون فى الزيادة فى تلك القصور وقد عاينت فيها ايوانا يقولون انه بنى قدر ايوان كسرى الذى بالمدائن وكان يجلس فيها خلفاؤهم ولهم على الخليج الذى بين الفسطاط والقاهرة مبان عظيمة جليلة الآثار وأبصرت فى قصورهم حيطانا عليها طاقات عديدة من الكلس والجبس ذكر لى أنهم كانوا يجددون تبييضها فى كل سنة والمكان المعروف بالقاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطانى لان هنالك ساحة متسعة للعسكر والمتفرجين ما بين القصرين ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ولكن ذلك أمد قليل ثم تسير منه الى أمد ضيق وتمر فى ممر كدر حرج بين الدكاكين اذا ازدحمت فيه الخيل مع الرجالة كان مما يضيق به الصدور وتسخن منه العيون ولقد عاينت يوما وزير الدولة وبين يديه الامراء وهو فى موكب جليل وقد لقى فى طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين يدى الدكاكين ووقف الوزير وعظم الازدحام وكان فى موضع طباخين والدخان فى وجه الوزير وعلى ثيابه وقد كاد يهلك المشاة وكدت أهلك فى جملتهم وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة كثيرة التراب والازبال والمبانى عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها ولم أر فى جميع بلاد المغرب أسوأ منها حالا فى ذلك ولقد كنت اذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة حتى اخرج الى بين

الى أعلى الشجرة فان لم يلحق الانسان فى وثبته رشش من بوله الى أعلى الشجرة والا وضع رأسه فى الارض وصاح صياحا عجيبا فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته وأى موضع من الشجر سقط عليه بوله احرقه وان أصاب الانسان شئ من بوله أتلفه وكذلك سائر الحيوان وملوك الهند تتخذ فى خزائنها مرارة هذه الدابة ومذاكيره ومواضع من أعضائه وهو السم القاتل من ساعته ومنه ما يسقى به السلاح فيتلف من فوره ومذاكير هذه الدابة كمذاكير كلب الماء الذى يخرج منه الجندبادستر وهذا الكلب أمره مشهور عند الصيادلة وغيرهم وهو اسم فارسى معرب وانما هو كند وتفسير ذلك الخصية فعرب فقيل جند بادستر والدابة المتقدم ذكرها المعروفة بالزبرقان لا تأوى الى موضع يكون فيه النوشان وهو الكركدن وتهرب منه كما يهرب منه الفيل أيضا والفيل يهرب من السنانير وهى القطاط ولا يقف لها البتة اذا ابصرها وقد ذكر عن ملوك الفرس أنها كانت توقى الفيلة بالرجالة المقاتلة حولها ومراعاة حيل الاعداء عند الحرب بتغلية السنانير عليها وكذلك أفعال ملوك السند والهند الى هذه الغاية وقد ذكر أن الخنازير ربما

القصرين ومن عيوب القاهرة انها فى أرض النيل الاعظم ويموت الانسان فيها عطشا لبعدها عن مجرى النيل لئلا يصادرها ويأكل ديارها واذا احتاج الانسان الى فرجة فى نيلها مشى فى مسافة بعيدة بظاهرها بين المبانى التى خارج السور الى موضع يعرف بالمقس وجوّها لا يبرح كدرا مما تثيره الارض من التراب الاسود وقد قلت فيها حين أكثر على رفاقى من الحض على العود فيها

يقولون سافر الى القاهره * ومالى بها راحة ظاهره
زحام وضيق وكرب وما * تثير بها أرجل سائره

وعندما يقبل المسافر عليها يرى سورا أسود كدرا وجوّا مغبرا فتنقبض نفسه ويفر أنسه وأحسن موضع فى ظواهرها للفرجة أرض الطبالة لاسيما أرض القرط والكتان وقلت

سقى الله أرضا كلما زرت روضها * كساها وحلاها بزهرته القرط
تجلت عروسا والمياه عقودها * وفى كل قطر من جوانبها قرط

وفيها خليج لايزال يضعف بين خضرتها حتى يصير كما قال الرصافى

مازالت الامحال تأخذه * حتى غدا كذؤابة النجم

وقلت فى نوّار الكتان على جانبى الخليج

انظر الى النهر والكتان يرمقه * من جانبيه بأجفان لها حدق
رأته سيفا عليه للصبا شطب * فقابلته بأحداق بها أرق
وأصبحت فى يد الارواح تنسجها * حتى غدت حلقا من فوقها حلق
فلم تزرها ووجه الارض مصطبح * أوعند صفوته ان كنت تغتبق

وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لانها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب وفى ذلك قيل

انظر الى بركة الفيل التى اكتنفت * بها المناظر كالاهداب للبصر
كأنما هى والابصار ترمقها * كواكب قد أداروها على القمر

ونظرت اليها وقد قابلتها الشمس بالغدوة فقلت

انظر الى بركة الفيل التى نحرت * لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك مجنونا ببهجتها * يهيم وجدا وحبا فى بدائعها

والفسطاط أكثر أرزاقا وأرخص أسعارا من القاهرة لقرب النيل من الفسطاط والمراكب التى تصل بالخيرات تحط هناك ويباع مايصل فيها بالقرب منها وليس يتفق ذلك فى ساحل القاهرة لانه بعد عن المدينة والقاهرة هى أكثر عمارة واحتراما وحشمة من الفسطاط لانها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم ديارا لسكنى الامراء فيها لانها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها فامور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر بها الطراز وسائر الاشياء التى تتزين بها الرجال والنساء الا أن فى هذا الوقت لما اعتنى السلطان ببناء قلعة الجزيرة التى امام

تهرب منها الفيلة وقد كان شاعرا شجاعا ذا رياسة فى قومه ومنعة بأرض السند مما يلى أرض المولتان وكان فى حصن له فالتقى مع بعض ملوك الهند وقد قدمت الهند أمامها الفيلة فبرز هرون بن موسى أمام الصف وقصد لعظيم الفيلة وقد خبأ تحت ثوبه سنورا فلما دنا فى حملته من الفيل خلى القط عليه فولى الفيل منهزما لما بصر بذلك الهر وكان ذلك سبب هزيمة الجيش وقتل الملك وغلبت المسلمون عليهم ولهرون ابن موسى قصيدة يصف فيها ماذكرناه وهى

أليس عجيبا بأن تلقه * له فطن الاسد فى جرم فيل
واطرف من قشه ز وله * بحلم يجل عن الخفشليل
أليس عجيبا بأن بلعما * غليظ الدرك لطيف الحويل
وأوقص مختلف خلقه * طويل النيوب قصير النصيل
ويخضع لليث ليث العرين * بأن ناشب الهر من رأس ميل
ويلقى العدو بناب عظيم * وجوف رحيب وصوت ضئيل
وأشبه شئ اذا قسته * بخنزير بروجاموس غيل * ينازعه كل ذى أربع * فما فى الانام له من عديل

الفسطاط وصيرها سرير السلطنة عظمت عمارة الفسطاط وانتقل اليها كثير من الامراء وضخمت أسواقها وبنى فيها السلطان أمام الجسر الذى للجزيرة قيسارية عظيمة فنقل اليها من القاهرة سوق الاجناد التى يباع فيها الفراء والجوخ وما أشبه ذلك الى أن قال وهى الآن عظيمة آهلة يجبى اليها من الشرق والغرب والجنوب والشمال مالا يحيط بجملته وتفسيره الا الخالق الكل جل وعلا وهى مستحسنة للفقير الذى لا يخاف طلب زكاة ولا ترسيما ولا عذابا ولا يطالب برفيق له اذا مات فيقال له ترك عندك مالا فربما سجن فى شانه أو ضرب وعصر والفقير المجرد فيها يستريح بجهة رخص الخبز وكثرته ووجود السماع والفرج فى ظواهرها ودواخلها وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب اليه نفسه يحكم فيها كيف شاء من رقص فى وسط السوق أو تجريد أو سكر من حشيشة أو صحبة مردان وما أشبه ذلك بخلاف غيرها من بلاد المغرب وسائر الفقراء لا يتعرضون اليهم بالقبض للاسطول الا المغاربة فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر وقد عم ذلك من يعرف معاناة البحر منهم ومن لا يعرف وهم فى القدوم عليها بين حالين ان كان المغربى غنيا طولب بالزكاة وضيق عليه وان كان مجردا فقيرا حمل الى السجن حتى يحين وقت الاسطول وفى القاهرة أزاهر كثيرة غير منقطعة الاتصال وهذا الشان فى الديار المصرية يفضل كثيرا من البلاد وفى اجتماع النرجس والورد فيها أقول

من فضل النرجس وهو الذى * يرضى بحكم الورد اذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا * وقام فى خدمته النرجس

وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه الرمان والموز أما التفاح والاجاص فقليل غال وكذلك الخوخ وفيها الورد والنرجس والنسرين والنيلوفر والبنفسج والياسمين والليمون الاخضر والاصفر وأما العنب والتين فقليل غال ولكثرة ما يعصرون العنب فى أرياف النيل لا يصل منه الا القليل ومع هذا فشرابه عندهم فى غاية الغلاء وعامتها يشربون المزر الابيض المتخذ من الحنطة حتى ان الحنطة يطلع سعرها بسبب ذلك فينادى المنادى من قبل الوالى بقطعه وكسر أوانيه ولا ينكر فيها اظهار أوانى الخمر ولا آلات الطرب ذوات الاوتار ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك مما ينكر فى غيرها من بلاد المغرب وقد دخلت فى الخليج الذى بين القاهرة ومصر وتعظم عمارته فيما يلى القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك فى بعض الاحيان وهو ضيق عليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم التهكم والطرب والمخالفة حتى ان المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به فى مركب وللسرج فى جانبيه بالليل منظر وكثيرا ما يتفرج فيه أهل الستر فى الليل وفى ذلك أقول

لا تركبن فى خليج مصر * الا اذا أسدل الظلام
فقد علمت الذى عليه * من عالم كلهم طغام
صفان للحرب قد أطلا * سلاح ما بينهم كلام
يا سيدى لا تسر اليه * الا اذا هوم النيام

ويعصف بالنمر بعد النمور * كما يعصف الريح للعندبيل
وشخص يرى يده أنفه * فان وصلوه فسيف صقيل
وأقبل كالطود هادى الخميس
بصوت شديد أمام الرعيل
فر يسيل كسيل الاتى
بخطم خفيف وجرم ثقيل
فان شمته زاد فى هوله
بشاعة أذنين فى رأس غول
وقد كنت أعددت هراله
قليل التهيب للزندبيل
فلما أحس به فى العجاج
أتانا الاله بفتح جليل
وطار وراغم فياله
بقلب نخيب وجسم ثقيل
فسبحان خالقه وحده
اله الانام ورب الفيول

العندبيل طائر صغير يكون بأرض السند والهند تذكره الشعراء فى أشعارها تمثلا به لصغره والزندبيل هو العظيم من الفيلة والمقدم فيها وقد قيل ان الزندبيل هو اسم لما اشتد فى الحرب من انياب الفيلة وقد ذكر بعض الشعراء فى هذا المعنى الزندبيل عند ذكره للفيل فقال

ذاك الذى مشفره طويل
وهو من الافيال زندبيل

وقال آخر

وفيله ذو الطول زندبيل

وقد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب الحيوان هذه القصيدة وفسر بعض أبياتها وذكر فى معنى الخنشبيل وتفسيره قول الانصارى فى صفة النحل

والليل ستر على التصابى * عليه من فضله لثام
والسرج قد بددت عليه * منها دنانير لا ترام
وهو قد امتدوا المبانى * عليه فى خدمة قيام
لله كم دوحة جنينا * هناك أثمارها الاثام

قال المقريزى وفيه تحامل كثير انتهى ومن نظر بعين الانصاف علم ان التحامل فى نسبة التحامل اليه والله تعالى الموفق * (قال ابن سعيد) ومعاملة الفسطاط والقاهرة بالدراهم المعروفة بالسوداء كل درهم منها ثلاث من الدراهم الناصرية وفى المعاملة بها شدة وخسارة فى البيع والشراء ومخاصمة بين الفريقين وكان بها قديما الفلوس فقطعها الملك الكامل فبقيت الآن مقطوعة منها وهى فى الاقليم الثالث وهواؤها ردىء لا سيما اذا هب المريسى من جهة القبلة وأيضا فرمد العين فيها كثير والمعايش فيها متعذرة نزرة لا سيما أصناف الفضلاء وجوامك المدارس قليلة كدرة وأكثر ما يتعيش بها اليهود والنصارى فى كتابة الطب والخراج والنصارى بها يمتازون بالزنار فى أوساطهم واليهود بعمائم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة ويأكل اهل القاهرة البطارخ ولا تصنع حلاوة القمح الا بها وبغيرها من الديار المصرية وفيها جوار طباخات اصل تعليمهن من قصور الخلفاء الفاطميين ولهن فى الطبخ صنائع عجيبة ورياسة متقدمة ومطابخ السكر والمواضع التى يصنع بها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة انتهى المقصود من هذا الموضع من كلام ابى الحسن النور بن سعيد رحمه الله تعالى وقال رحمه الله

لم ذا تقيم بمصر * معذبا بذويها
وكيف ترجو نداهم * والسحب تبخل فيها

وقال رحمه الله تعالى

لابن الزبير مكارم أضحت بها * طير المدائح فى البلاد تغرد
ان قيدوه وبالغوانى عصره * فالكرم بعصر والجواد يقيد

ولنذكر بعض اخبار والده فانه ممن رحل الى المشرق وتوفى باسكندرية وقد ذكر ابنه ابو الحسن فى المغرب وغيره من أخباره العجائب ولا باس بان نلم بشئ من ذلك سوى ما تقدم فنقول من اخباره أنه لما اجتاز بمالقة ومشرفها اذ ذاك ابو على بن بقى وجه اليه من نقل اسبابه الى داره وأقبل عليه منشدا

أكذا يجوز القطر لا يثنى على * ارض توالى جدبها من بعده
أالله يعلم انها ما انبتت * زهرا ولا ثمرا بمدة فقده
عرج عليها ساعة يا من له * حسب يفوق العالمين بمجده
وانثر عليها من ازاهرك التى * تشفى المتيم من لواعج وجده
والله ما ذا كرت فكرك ساعة * الا واقبس خاطرى من زنده

قال موسى فارتجلت للعين

انت الذى تعرف كيف العلا * وتهتدى فى سبل المجد

قال وهذا غير قوله
قد علمت جارية عطبول
أنى بنصل السيف
خنشبيل

والفيلة لا تنتج ولا تولد الا بارض الزنج والهند ولا تعظم أنيابها بارض السند والهند على حسب ما تعظم بارض الزنج والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدرق وكذلك الهند ولا يلحق ذلك فى المنعة بشئ من الدرق الصينى والتبتى واللطى والبجاوى ولا ما يقع من اللين وغير ذلك من أنواع الدرق وخرطومه أنفه وبه يوصل الطعام والشراب الى جوفه وهو شئ من الغضروف واللحم والعصب وبه يقاتل ويضرب ومنه يصيح وليس صوت الفيل على مقدار عظم جسمه وكبر خلقه وقد كان المنصور عنى بجمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة فى الاعياد وغيرها فانها أوطأ مراكب الملوك وأمهدها واخبرنى بعض الكتاب ممن يرجع الى أدب وعقل ومعرفة بايام الناس بمدينة السلام

بدأت بالفضل المنير الذى * اكمل بدر الشكر والحمد
والله ما ابصرتكم ساعة * الا بدالى طالع السعد

وانصرفت معه الى منزله قال

فلم ازل فى كرامه * ليست كظل غمامه

ولما كان ابو عمران موسى بن سعيد بالجزيرة الخضراء مقدما على اعمالها من قبل ابن هود وصله كتاب من الفقيه القاضى ابى عبد الله محمد بن عسكر قاضى مالقة مع احد الادباء منه

افاتح من قلب بعلياه واثق * وان كانت الابصار لم تنسخ الودا
وثقت بما لى من ذمام تشيعى * بآل سعيد وابتغيت به السعدا
وبالحب يدنو كل من اقصت النوى * برغم حجاب للنوى بيننا مدا

ياسيدى الذى حملنى ما امال أسماعى من الثناء عليه أن اهجم على مفاتحته شاغعا فى موصلها اليه واثقا بالفرع لعلم الاصل مؤملا للافضال بتحقق الفضل ان لم تقض باجتماع بيننا الايام فلا تجرى بالمشافهة بيننا الا ألسن الاقلام ويوحى بعضنا الى بعض بسور الوداد والحمد لله الذى اطلعك فى ذلك الافق بدرا وادناك من هذه الدار فصرنا القرب من بردعنك لا نعدم لك ذكرا فكل يثنى بالذى علمت سعد ويصف من خلالك ما يقضى ذلك المجد ولما كان احسانك يبشر به الصادر والوارد ويحرص عليه الغائب والشاهد مد أمله نحوك موصل هذه الفاتحة وليس له وسيلة ولا بضاعة الا الادب وهى عند بيتك الكريم رابحة وهو من شتتت خطوب هذا الزمان شمله وأبانت نوائبه صبره وفضله وما اطمح ببصره الا الى أفقك ولا وجه رجاءه الا نحو طرقك والرجاء من فضلك أن يعود وقد أثنت حقائبه وأعنقت من الحمد ركائبه دمت غرة فى الزمن البهيم مخصوصا بافضل التحية والتسليم انتهى * وابن عسكر المذكور عالم بالتاريخ متبحر فى العلوم وله كتاب فى أنساب بنى سعيد أصحاب هذه الترجمة ومن شعره

أهواك يابدر وأهوى الذى * يعذلنى فيك وأهوى الرقيب
والجار والدار ومن حلها * وكل من مر بها من قريب
وكل مبد شبها منكم * وكل من يلفظ باسم الحبيب

*(رجع) قال ابنه على لما أردت النهوض من ثغر الاسكندرية الى القاهرة أول وصولى الى الاسكندرية رأى أن يكتب لى وصية أجعلها اماما فى الغربة فبقى فيها اياما الى ان كتبها عنه وهى هذه وكفى بها دليلا على ما اختبر وعلم

اودعك الرحمن فى غربتك * مرتقبا رحماه فى اوبتك
وما اختيارى كان طوع النوى * لكننى أجرى على بغيتك
فلا تطل حبل النوى اننى * والله أشتاق الى طلعتك
من كان مفتونا بأبنائه * فاننى امعنت فى خبرتك
فاختصر التوديع اخذا فما * لى ناظر يقوى على فرقتك

البخت أو العراب من العمالة أو غيرها فى الطريق نفرت وشبت وكان يلقى منها جهدا جهيدا فيصبر على ذلك المكروه لما هى عليه من الفراهة والحسن وأنه لا يحمله غيرها لعظم جسمه وكبر بطنه وسمنه فلما كان فى بعض الايام اجتازت بباب الطاق وذلك فى أيام المقتدر وقد أخرج الفيلة للرياضة والتمهيد وليحمل عليها الليث بن على الصفار وأصحابه وقد كان مؤنس المظفر الخادم أسره ببلاد فارس حين خرج على السلطان قال فأشرف على قطار من الجمال البخت منهزمة خائفة من الفيل تحمز فى مشيتها الاسبيل لمن عليها أن يحبسها لما قد لحقها من الجزع فلما رأت البغلة ذلك شبت وولت على عقبها ورمت بى الارض فوقعت بجلد ثور منفوخ ودخلت الجمال الى درب لا ينفذ وقد كانت البغلة حين رمت بى ونفرت من الجمال دخلت ذلك الدرب وجاءت الفيلة على اثر ذلك فلما نظرت البغلة الى الفيلة وعظم خلقها لحقت بالجمال ودخلت بينها كانها لم تزل معها وذلت كتذلل الجمال اذ رآنى جماعة من الناس فرفعونى ودخل الغلام فاخرج البغلة وما استطاع اخراجها حتى مضت الفيلة وأخرجت من وسط تلك الجمال فوالله ما نفرت بعد ذلك

واجعل وصاتى نصب عين ولا * تبرح مدى الايام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنكت * فى ساعة زفت الى فطنتك
فللتجاريب امور اذا * طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة * فانها عون الى يقظتك
وكل ما كابدته فى النوى * اياك أن يكسر من همتك
فليس يدرى اصل ذى غربة * وانما تعرف من شيمتك
وكل ما يفضى لعذر فلا * تجعله فى الغربة من اربتك
ولا تجالس من فشا جهله * واقصد لمن يرغب فى صنعتك
ولا تجادل ابدا حاسدا * فانه ادعى الى هيبتك
وامش الهوينى مظهرا عفة * وابغ رضا الاعين عن هيئتك
أفش التحيات الى اهلها * ونبه الناس على رتبتك
وانطق بحيث العى مستقبح * واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولا تزل مجتمعا طالبا * من دهرك الفرصة فى وثبتك
وكلما ابصرتها امكنت * ثب واثقا بالله فى مكنتك
ونح على رزقك من بابه * واقصد له ما عشت فى بكرتك
وأس من الود لدى حاسد * ضد ونافسه على خطتك
ووفر الجهد فن قصده * قصدك لا تعتبه فى بغضتك
ووف كلا حقه ولتكن * تكسر عند الفخر من حدتك
ولا تكن تحقر ذا رتبة * فانه انفع فى غربتك
وحيثما خيمت فاقصد الى * صحبة من ترجوه فى نصرتك
وللرزايا وثبة ما لها * الا الذى تذخر من عدتك
ولا تقل أسلمنى وحدتى * فقد تقاسى الذل فى وحدتك
والتزم الاحوال وزنا ولا * ترجع الى ما قام فى شهوتك
ولتجعل العقل محكا وخذ * كلا بما يظهر فى نقدتك
واعتبر الناس بالفاظهم * واصحب اخا يرغب فى صحبتك
بعد اختبار منك يقضى بما * يحسن فى الاخذ من خلطتك
كم من صديق مظهر نصحه * وفكره وقف على عثرتك
اياك ان تقربه انه * عون مع الدهر على كربتك
واقنع اذا ما لم تجد مطمعا * واطمع اذا أنعشت من عسرتك
وانم نمو النبت قد زاره * غب الندى واسم الى قدرتك
وان نبا دهر فوطن له * جأشك وانظره الى مدتك
فكل ذى امر له دولة * فوف ما وافاك فى دولتك
ولا تضيع زمنا ممكنا * تذكاره يذكى لظى حسرتك

من جمل ولقد ألفت الجمال حتى كأنها بعضها الاستصغارها صورة الجمل عند ما شاهدت صورة الفيل وكل حيوان ذى لسان فأصل لسانه الى داخل وطرفه الى خارج الا الفيل فان طرف لسانه الى داخل وأصله الى خارج والهند تزعم انه لولا ان لسانه مقلوب ثم لقن الكلام لتكلم والهند تشرف الفيل وتفضله على سائر الحيوان لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة من علو سمكه وعظم صورته وبدع منظره واتصال صهوته وطول خرطومه وسعة أذنه وكبر غرموله مع خفة وطئه وطول عمره وثقل جسمه وقلة اكترائه بما وضع على ظهره وأنه مع كبر هذا الجسم وعظم هذه الصورة يمر بالانسان فلا يحس بوطئه ولا يشعر بحسن خطوته واستقامة مشيه وقد وصف عمرو بن بحر الجاحظ الفيل فى كتاب الحيوان فاغرق فى وصفه وأكثر فى مدحه وعدد معانى كثيرة فى صفة الفيل وهيئته وما هو عليه من عجيب التركيب وغريب التاليف والمعانى الصحيحة والاحساسات اللطيفة وفى قبولها التاديب وصحة تمييزها وسرعتها الى التلقين والتقويم وما فى أبدانها من الأعضاء الكريمة والاجزاء الشريفة وكم مقدار منافعها ومبلغ مضارها او بكم فضيلة تلك

والشر

والشر مهما اسطعت لا تأته * فانه حوز على مهجتك

يا بنى الذى لا ناصح له مثلى ولا منصوح لى مثله قد قدمت لك فى هذا النظم ما ان اخطرته بخاطرك فى كل أوان رجوت لك حسن العاقبة ان شاء الله تعالى وان اخف منه للحفظ واعلق بالفكر وأحق بالتقدم قول الاول

يزين الغريب اذا ما اغترب * ثلاث فمنهن حسن الادب
وثانية حسن اخلاقه * وثالثة اجتناب الريب

واذا اعتبرت هذه الثلاثة ولزمتها فى الغربة رأيتها جامعة نافعة لا يلحقك ان شاء الله تعالى مع استعمالها ندم ولا يفارقك بر ولا كرم ولله در القائل

يعد رفيع القوم من كان عاقلا * وان لم يكن فى قومه بحسيب
اذا حل أرضا عاش فيها بعقله * وما عاقل فى بلدة بغريب

وما قصر القائل حيث قال

واصبر على خلق من تعاشره * وداره فاللبيب من دارا
واتخذ الناس كلهم سكنا * ومثل الارض كلها دارا

واصغ يا بنى الى البيت الذى هو يتيمة الدهر وسلم الكرم والصبر

ولو أن أوطان الديار نبت بكم * لسكنتم الاخلاق والآدابا

احسن الخلق أكرم نزيل والادب أرحب منزل ولتكن كما قال بعضهم فى أديب متغرب وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد واليه قصد غير مستريب بدهره ولا منكر شيأ من أمره واذا دعاك قلبك الى صحبة من أخذ بجامع هواه فاجعل التكلف له سلما وهب فى روض أخلاقه هبوب النسيم وحل بطرفه حلول الوسن وانزل بقلبه نزول المسرة حتى يتمكن لك وداده ويخلص فيك اعتقاده وطهر من الوقوع فيه لسانك وأغلق سمعك ولا ترخص فى جانبه لحسود لك منه يريد ابعادك عنه لمنفعته أو حسود له يغار لتجمله بصحبتك ومع هذا فلا تغتر بطول صحبته ولا تتمهد بدوام رقدته فقد ينبهه الزمان ويغير منه القلب واللسان ولذا قيل اذا أحببت فاحبب هونا ما ففى الممكن أن ينقلب الصديق عدوا والعدو صديقا وانما العاقل من جعل عقله معيارا وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله وجعل نصب ناظره قول أبى الطيب

ولما صار ود الناس خبا * جزيت على ابتسام بابتسام

وفى أمثال العامة من سبقك بيوم فقد سبقك بعقل فاحتذ بأمثلة من جرب واستمع الى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الاقوال فانها خلاصة عمرهم وزبدة تجاربهم ولا تتكل على عقلك فان النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غاليا بتجاربهم يربحك ويقع عليك رخيصا وان رأيت من له مروءة وعقل وتجربة فاستفد منه ولا تضيع قوله ولا فعله فان فيما تلقاه تلقيحا لعقلك وحثا لك واهتداء واياك أن تعمل بهذا البيت فى كل موضع * والحر يخدع بالكلام الطيب * فقد قال احدهم ما قيل أضر من هذا البيت على اهل التجمل وليس كل ما تسمع من اقوال الشعراء يحسن بك ان تتبعه حتى تتدبره فان كان

الاحساس فاقت تلك الاجناس وما فيها من الآيات والبرهانات والعلامات النيرات التى جلاها للعيون خلقه وفرق بينها وبين عقول عباده وقيدها عليهم وحفظها لهم لتكثر لهم وتزيدهم الى وضوح الحجة وتسخرهم لتمام النعمة وما ذكر الله فى الكتاب الناطق والخبر الصادق وفى الآثار المعروفة والامثال المضروبة فى التجارب الصحيحة وما قالت الشعراء فيه ونطقت به الفصحاء وميزته العلماء وعجبت منه الحكماء وحالها عند الملوك وموضع نفعها عند الحروب وسياستها فى العيون وجلالتها فى الصدور وفى طول أعمارها وقوة أبدانها وفى اعتزامها وتصميمها واحقادها وشدة اكترائها وطلبها بطوائلها وارتفاعها عن ملك السقاط واقتناء السفلة والاراذل وعن ارتخاصها فى الثمن وارتباطها على الخسف وابتذالها وازالتها عن امتناع طبائعها وتمنع عزائزها ان تصلح أبدانها وتنتج أنيابها وتعظم جوارحها وتتسافد وتتلاقح الا فى معادنها وبلادها ومغارس اعراقها مع التماس الملوك ذلك منها وطمع القوم عليها بالتقرب بذلك منها حتى أعجزت الحيل وأخرجت عن حد الطمع وعن الاختيار عن حملها ووضعها ومواضع أعضائها والذى خالفت فيه الاشكال الاربعة

موافقا لعقلك مصلحا لحالك فراع ذلك عندك والا فانبذه نبذ النواة فليس لكل أحد يتبسم ولا كل شخص يكلم ولا الجود مما يعم به ولا حسن الظن وطيب النفس مما يعامل به كل احد ولله در القائل

ومالى لا أوفى البرية قسطها * على قدر ما يعطى وعقلى ميزان

واياك ان تعطى من نفسك الا بقدر فلا تعامل الدون بمعاملة الكفء ولا الكفء بمعاملة الاعلى ولا تضيع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ويشبك على مصلحة حاضرة عاجلة بغائبة آجلة واسمع قول الاول * و بع آجلا منك بالعاجل * وأقلل من زيارة الناس ما استطعت ولا تجفهم بالجملة ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء ولا تقل ايضا أقعد فى كسر بيتى ولا ارى احدا واستريح من الناس فان ذلك كسل داع الى الذل والمهانة واذا علم عدوّك اوصديق منك ذلك عاملاك بحسبه فاودراك الصديق وجسر عليك العدوّ واياك ان يغرك صاحب واحد عن ان تدخر غيره للزمان وتطيعه فى عداوة سواه ففى الممكن أن يتغير عليك فتطلب اعانة عليه او استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها وكان هو فى أوسع حال واعلى راى يبادره بحيلته فى انقطاعك عن غيره فلو اتفق لك ان تصحب من كل صناعة وكل رياسة من يكون لك عدة لكان ذلك اولى واصوب وسلنى فانى خبير طال والله ما صحبت الشخص اكثر عمرى لا اعتمد على سواه ولا اعتد الا اياه منخدعا بسرابه موثوقا فى حبائل خطابه الى ان لا يحصل لى منه غير العض على البنان وقول لو كان ولو كان ولا يحملنك ايضا هذا القول ان تظنه فى كل احد وتعجل المكافأة وليكن حسن الظن بمقدار ما واصبر بمقدار ما والفطن لا تخفى عليه مخايل الاحوال وفى الوجوه دلالات وعلامات واصغ الى القائل

ليس ذا وجه من يضيف ولا يقــــرى ولا يدفع الاذى عن حريم

فمن يكن له وجه مثل هذا الوجه فول وجهك عنه قبلة ترضاها ولتحرص جهدك على أن لا تصحب أو تخدم الا رب حشمة ونعمة ومن نشا فى رفاهية ومروءة فانك تنام معه فى مهاد العافية وان الجياد على أعراقها تجرى وأهل الاحساب والمروآت يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وصمة وقد قيل فى مجلس عبد الملك بن مروان أشرب مصعب الخمر فقال عبد الملك وهو عدوّ له محارب له على الملك لو علم مصعب ان الماء يفسد مروءته ماشربه * والفضل ماشهدت به الاعداء * يابنى وقد علمت ان الدنيا دار مفارقة وتغير وقد قيل اصحب من شئت فانك مفارقه فمتى فارقت احدا فعلى حسنى فى القول والفعل فانك لا تدرى هل انت راجع اليه فلذلك قال الاول * ولما مضى سلم بكيت على سلم * واياك والبيت السائر

وكنت اذا حللت بدار قوم * رحلت بخزية وتركت عارا

واحرص على ما جمع قول القائل ثلاثة تبقى لك الود فى صدر اخيك أن تبدأه بالسلام وتوسع له فى المجالس وتدعوه باحب الاسماء اليه واحذر كل ما بينه لك القائل كل ما تغرسه تجنيه الا ابن آدم فانك اذا غرسته يقلعك وقول الآخر ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن

التى تحيط بالجميع مما يستأنس أو يقوم أو يمشى أو يطير وجميع ما ينتقل عن أولية خلقه وما يبقى على الطبع الاول من صورته وعما يتنازعه من شبه الحيوان وما يخالف فيه جميع الحيوان وعن القول فى شدة قلبه وأسره وفى حدته على ما هو أعظم بدنا وأشد قلبا او أحد ظفرا او أذرب لسانا وهر به مما هو أصغر جسما وأكل حدا وأضعف أسرا او أجل ذكرا وعن الاخبار عن خصاله المذمومة واموره المحمودة وعن القول فى لونه وجلده وشعره ولحمه وشحمه وعظمه وبوله ونحوه وعن لسانه وفمه مع غير ذلك من المواعيد الكثيرة التى تضمن ايرادها فلما انتهى الى موضع بطنها وايراد وضعها وما أسلفه من القول فى هذه المعانى التى قدمها أورد جوامع متفرقة ومعانى غير متسقة فى الفيلة وغيرها وأعرض عن ايراد خواص أعضائها وأكثر منافعها وعجيب خصالها وماذكر من أسرار الطبيعة وما قالته فلاسفة الهند فى بدئها وما آثرته عمن تقدم من حكمائها فى تداولها وعلة تكونها فى أرض الزنج والسند دون سائر البقاع من الارض والسبب المانع لتكونها فى غيرها والتضاد الذى بينها و بين السكر كدن مع عظم خلقها وفرارها من السنور مع صغر حجم جسمه ولطافة وقول

وقول الآخر ابن آدم ذئب مع الضعف اسد مع القوة وإياك ان تثبت على صحبة احد قبل أن تطيل اختباره فيحكى ان ابن المقفع خطب من الخليل صحبته فجاوبه ان الصحبة رق ولا اضع رقى فى يدك حتى اعرف كيف ملكتك واستمل من عين من تعاشره وتفقد فى فلتات الألسن وصفحات الاوجه ولا يحملك الحياء على السكوت عما يضرك ان لا تتبينه فان الكلام سلاح السلم وبالانين يعرف ألم الجرح واجعل لكل امر اخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك وآكد ما اوصيك به ان تطرح الافكار وتسلم للاقدار واقبل من الدهر ما آتاك *من قرعينا بعيشه نفعه* اذ الافكار تجلب الهموم وتضاعف الغموم وملازمة القطوب عنوان المصائب والخطوب يستريب به الصاحب ويشمت العدو المجانب ولا تضر بالوساوس الا نفسك لانك تنصر بها الدهر عليك ولله در القائل

اذا ما كنت للاحزان عونا * عليك مع الزمان فمن تلوم

مع انه لا يرد عليك الفائت الحزن ولا يرعوى بطول عتبك الزمن ولقد شاهدت بغرناطة شخصا قد الفته الهموم وعشقته الغموم من صغره الى كبره لا تراه ابدا خليا من فكره حتى لقب بصدر الهم ومن اعجب ما رايته منه انه يتنكد فى الشدة ولا يتعلل بان يكون بعدها فرج ويتنكد فى الرخاء خوفا من أن لا يدوم وينشد *توقع زوالا اذا قيل تم* وينشد *وعند التناهى يقصر المتطاول* وله من الحكايات فى هذا الشان عجائب ومثل هذا عمره مخسور بمرضياعا ومتى دفعك الزمان الى قوم يذمون من العلم ما تحسنه حسدا لك وقصدا لتصغير قدرك عندك وتزهيدا لك فيه فلا يحملك ذلك على ان تزهد فى علمك وتركن الى العلم الذى يمدحوه فتكون مثل الغراب الذى أعجبه مشى الحجلة فرام ان يتعلمه فصعب عليه ثم أراد أن يرجع الى مشيه فنسيه فبقى مخبل المشى كما قيل

حسد القطا وأراد يمشى مشيها * فأصابه ضرب من العقال
فأضل مشيته وأخطأ مشيها * فلذاك سموه أبا مرقال

ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ويقول ما بقى فى الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يرتاح فيه فان الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان واستخفت طلعته للهوان وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم وعجزوا عن طلب الامور من وجوهها فاستراحوا الى الوقوع فى الناس واقامة الاعذار لانفسهم بقطع أسبابهم وتعذر أمورهم ولا تزل هذين البيتين من فكرك

لن اذا ما نلت عزا * فأخو العز يلين
فاذا نابك دهر * فكما كنت تكون

وقول الآخر

ته وارتفع ان قيل أقتر وانخفض ان قيل أثرى
كالغصن يسفل ما اكتسى * ثمرا ويعلو ما تعرى

ولاقول الآخر

الخير يبقى وان طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد

منظره وعن كثرة الطرب الذى يوجد فى الفيل دون غيره من الحيوان وقبولها الرياضة والدراية والمعرفة عند المحاورة والدهاء والخبث والتمييز وقد ذكر صاحب المنطق فى كتاب الحيوان جملا كثيرة من خصال الفيل ومنافع أعضائه وسلك طريقة ما لم يسلكها من تقدم من حكماء الهند من أن العالم بما فيه من الاجسام على جهات ثلاث متفق ومختلف ومضاد وان ذلك فى الجملة هو جماد ونام واخراجهم عن العالم الافلاك والنجوم والبروج وغير ذلك من الاجسام السماوية وليست بجماد ولا نام وانها أحياء ناطقة (قال المسعودى) فلنرجع الآن الى ما كنا فيه آنفا فى صدر هذا الباب من ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الاحابش فالزنج مع كثرة اصطيادها لما ذكرنا من الفيلة وجمعها لعاجها غير منتفعة بشئ من ذلك فى آلاتها وانما تتحلى الزنج بالحديد بدلا عن الذهب والفضة وما ذكرنا من دوابهم انها بقر وأنهم عليها يتقاتلون بدلا من الابل والخيل وهى بقر تجرى كالخيل بسروج ولجم ورأيت بالرى نوعا من هذا البقر يبول كما تبول الخيل ويثور بحمله كما تثور الابل اذا استقلت باحمالها وهذا النوع من البقر يحمل عليه الميتة من الحيوان كالخيل والابل والحمير

واعتقد فى الناس ما قاله القائل

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

وقريب منه قول القائل

بقدر الصعود يكون الهبوط * فاياك والرتب العاليه
وكن فى مكان اذا ما سقطت * تقوم ورجلاك فى عافيه

وتحفظ بما تضمنه قول الآخر

ومن دعا الناس الى ذمّه * ذمّوه بالحق وبالباطل

ولله در القائل

ما كل ما فوق البسيطة كافيا * فاذا اقتنعت فكل شئ كافى

والامثال يضربها الذى اللب الحكيم وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم والفطن يقنع بالقليل ويستدل باليسير والله سبحانه خليفتى عليك لا رب سواه * تجزت الوصية

ويكفيك عنوانا على طبقته فى النثر قوله رسالة كتب بها الى ملك المغرب أبى محمد عبد الواحد ابن أبى يعقوب بن عبد المؤمن مهنئاله بالخلافة حين بويع بها بمراكش وكان اذ ذاك باشبيلية وكان قبل ذلك كاتباله ومختصابه الحضرة العلية السامية السنية الطاهرة القدسيه حضرة الامامة وجنة دار الاقامه مدّ الله على الاسلام ظلالها وأنمى فى سماء السعادة تمامها وكمالها وهنأ المؤمنين باستقبال امارتها وأدام لهم بركة خلافتها عبد أياديها وخديم ناديها المتوسل بقديم الخدمة المتوصل بعميم النعمة وكريم الحرمة المنشد بلسان المسرة حين أطلع الزمان هذه الغرة

أتته الخلافة منقادة * اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها

موسى بن محمد بن سعيد بن محمد لازال هذا الامر العلى محمودا سعيدا ولا برح يتزيد ترقيا وصعودا

يا نعمة الله زيدى * ان كان فيك مزيدى

سلام الله الكريم يخص حضرة الاجلال والتعظيم والتقديس والتفخيم ورحمته وبركاته وبعد حمد الله الذى بلغ الاسلام بهذه الخلافة آماله وحلى بهذه الولاية السعيدة أحواله والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه الكريم الذى أدحض الله تعالى به الكفر وضلاله وعلى آله وصحبه الطاهرين الذين سمعوا أقواله وامتثلوا افعاله والرضا عن الامام المهدى المعلوم الذى أفاء الله به على الدين الحنيفى ظلاله وأذهب عنه طواغيته وضلاله والدعاء للمقام العالى الكريم بالسعد المتوالى والنصر الجسيم وكتب العبد وقد ملأت هذه البشرى بالمسرة أفقه ووسعت عليه هذه المرتبة العلية طرقه

فهذه رتبة مازلت أرقبها * فاليوم أبسط آمالى وأحتكم

ولا اقنع منى ان اقتصرت على السماء دارا والهلال للتبشير سوارا والنجوم عقدا والصباح بندا حتى اسر كل احد بشكاله واقابل كل شخص بمثله

أوقرو ين شئ مما ذكرنا من البهائم ورد الواحد منهم مع ثوره فاناخه وحمل عليه تلك الجيفة وسار بها الى قريته فاكلهم منها وبنيانهم من عظامها ويجففون من لحمها ما يدخرونه لشتائهم فاكثر أكلهم واكل بقرهم من تلك العمان رطب ويابس وهذا النوع من البقر الغالب عليه حمرة الحدق وسائر البقر تنفر وتهرب من هذا البقر ورأيت باصبهان وقم منها ما فى انوفها حلق الحديد والصفر قد خزمت فيها الحبال وخطمت بها كما يفعل بالجمال البخت وكذلك بالرى رأيت ثورا منها قد عدا نحو ثور من غير هذا النوع فلما رآه قصده قام فزعا من هذا الجنس وليس فى سائر أنواع البقر ما ياوى المياه والجزائر والبحيرات الا البقر المعروف بالحبشية التى تكون ببلاد مصر واعمالها وبحيرة تنيس ودمياط وما اتصل بتلك الديار واما الجواميس فانها بالثغر الشامى فى بحر ا كبر ما يكون من العمل فى انوفها حلق الحديد والصفر على ما ذكرنا من البقر وكذلك منها ببلاد انطاكية وا كثر من ذلك ببلاد السند والهند وطبرستان وقرون تلك البقر ا كبر من قرون هذه

ومن

ومن خدم الاقوام يرجو نوالهم * فانى لم اخدمك الا لأخدما

ومابعد الخلافة رتبة ودون ثبير تحط كل هضبة فالحمد لله رب العالمين وهنيأ لعباده المؤمنين حيث نظر لهم نظر رحمة فاسبل عليهم ستر هذه النعمة

ولقد علمت بان ذلك معصم * ما كان يتركه بغير سوار

والله اعلم حيث يجعل رسالاته والى من يشير بآياته فلله صباح ذلك اليوم السعيد وليلته لقد سفر عن وجه من البشرى اضاءت الآفاق شرقا وغربا غرته ولقد اجتمعت آراء السداد حتى أتت الاسلام بالمراد فاخذ القوس باريها وحل بالدار بانيها هنيأ ازادك الرحمن لطفا وخيرا ولا برحت المسرات تسير اليك سيرا وهل يصلح النور الا للاهل وهل يليق بالحسن الا الحالى فالآن مهد الله البرين وافاض العدل على العدوتين وقدّم للنظر من لا يعزب عن حفظه مكان ولا يختص بحفظه انسان دون انسان خليفة له النفس العمرية والآراء العمرية والفراسة الاياسية ولا ينبئك مثل خبير فلقد شاهد العبد ما لا يحصره تفسير ولعمرى لقد صار الصباح فى اشراق النهار ولم يخف عنا ما زاد الدنيا من البهجات والمسار وشملت الناس هذه البشائر وعمت كل باد وحاضر وأصاخوا لتاليها اصاخة المجدبين لمرتادهم وأهطعوا لها مهللين ومكبرين اهطاع الناس لاعيادهم وأما العبد فقد أخذ بحظه حتى خاف أن يغلب السرور على قلبه ولحظه (ومن فرح النفس ما يقتل) وهذه نعمة يقصر عنها النثر والنظم ويحسد عليها الهلال والنجم بل يسلمان لما استحقته من المراتب ويخضعان اليها خضوع المفترض الواجب أقر الله بها عيون المسلمين وأفاض سيبها على الناس أجمعين وحفظها بعينه التى لا تنام ووقف على خدمتها الليالى والايام * ولما قدم من الاندلس على تونس مدح سلطانها أبا زكريا بقوله

بشرى ويسرى قد أنار المظلم * نجما وقد وضح الصباح المعلم
ورنت عيون الامن وهى قريرة * وبدت ثغور السعد وهى تبسم
فارحل لتونس واعتقد أعلام من * قوى الضعيف به وأثرى المعدم
حيث المعالى والمعانى والندى * والفضل والقوم الذين هم هم
أجروا الى الغايات مل عنانهم * سبقوا بذهم الجواد المنعم
ساد الامام الملك يحيى سادة * أعطى الورى لهم القياد وسلموا
ان الامارة مذ غدا يقتادها * يقظى وأجفان الحوادث نوم
لله منك مبارك ذو فطنة * برعت فاحجم عندها من يقدم
يقظان لا وان ولا متقاعس * كالدهر يبنى ما يشاء ويهدم
ان صال فالليث الهصور المقدم * أوسال فالغيث المغيث المثجم
أعلى منار الحق حين أماله * قوم تبرأت المنابر منهم
أعلى الاله مكانه وزمانه * والنصر يقدم والسعادة تخدم

*(وقال يخاطب ملك المغرب مامون بنى عبد المؤمن حين أخذ البيعة لنفسه باشبيلية وكان

الجواميس التى بأرض الاسلام وطول القرن منها نحو الذراع والذراعين وكذلك الجواميس كثيرة بأرض العراق مما يلى صفوف الكوفة والبصرة والبطائح وما اتصل بهذه الديار والناس يذكرون عنقاء مغرب ويصورون العنقاء فى الحمامات وغيرها ولم أجد أحدا فى هذه الممالك ممن شاهدته أو نمى الى خبره ذكر أنه رآها ولست أدرى كيف ذلك ولعله اسم لا مسمى له ولنرجع الآن الى أخبار الزنج وأخبار ملوكها فاما تفسير اسم ملك الزنج الذى هو وقليمن فمعنى ذلك ابن الرب الكبير لانه اختاره لملكهم والعدل فيهم فتى جار الملك عليهم فى حكمه وحاد عن الحق قتلوه وحرموا عقبه الملك ويزعمون انه اذا فعل ذلك فقد بطل ان يكون ابن الرب الذى هو ملك السموات والارض ويسمون الخالق عز وجل مكلنجلو وتفسيره الرب الكبير والزنج ألو فصاحة فى ألسنتهم وفيهم خطباء بلغتهم يقف الرجل منهم الزاهد فيخطب على الخلق الكثير منهم ويرغبهم فى القرب من بارئهم ويبعثهم على طاعته ويرهبهم من عقابه وصولته ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم وليس لهم شريعة يرجعون اليها بل رسوم لملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم وأكلهم الموز وهو

المذكور ا كش ولبنى سعيد بهذا الملك اختصاص قديم)

الحزم والعزم موجودان والنظر * واليمن والسعد مضمونان والظفر
والنور فاض على أرجاء أندلس * والزور ليس له عين ولا أثر
حث الركاب الى هذا الجناب فقد * ضلوا فما تنفع الآيات والنذر
واعزم كما عزم المامون اذ نشرت * أرض العراق فزال البؤس والضرر

*(ولما قدم العادل القائم برسية المتولى على مملكة البرين الى اشبيلية كان فى جملة من خرج للقائه ورفع له قصيدة منها)

اقائمه للبر والشكر مجمع * الى يومه كنا نخب ونوضع
لقد يسر الرحمن صعب مرامه * فابصرت أضعاف الذى كنت أسمع

وله

يامنعما قد جاءنى بره * من غير ان أجرى له ذكرا
ان أحب الخير ماجاءنى * عفوا ولم أعمل به فكرا

وله فى غلام واعظ وهو من حسناته

وشادن ظل للوعظ تاليا بين جمع
متعت طرفى برآه فى خفارة سمعى

وله من أبيات

ومن عجب أن الليالى تغيرت * ولكنها ماغيرت منى العهدا

ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الحافظ أبو بكر بن الجد وأبو بكر بن زهر وغيرهما وحضر حصار طليطلة مع منصور بن عبد المؤمن وكتب لملك البرين أبى محمد عبد الواحد وكتب أيضا عن مامون بنى عبد المؤمن وكتب أخيرا عن ملك بجاية والغرب الاوسط الامير ابى يحيى ابن ملك افريقية رحم الله تعالى الجميع *(رجع الى أبى الحسن بن سعيد) قال رحمه الله تعالى حضرت ليلة أنس مع كاتب ملك افريقية أبى العباس أحمد الغسانى فاحتاجت الشمعة أن تقط فتناول قطها غلام ببنانه فقلت

ورخص البنان تصدى لأن * يقط السراج بمثل العنم
فقال ولم يهب النار فى لمسه * ولا احتاج فى قطه للجلم
فقلت وماذاك الا لسكناه فى * فؤادى على ماحوى من ضرم
فقال تعود حر لهيب به * فليس به من أوار ألم

وأنشدنى المغرب للغسانى المذكور فى خسوف القمر مما قاله ارتجالا

كأن البدر لما أن علاه * خسوف لم يكن يعتاد غيره
مخجل غادة قلبته لما * أراها شبهها حسدا وغيره

وخاطبه المذكور برسالة يقول فى آخرها وعند حامل هذه الاحرف سلمه الله تعالى كنه خبرى واستيعاب ماقصر عنه قلمى فضاقت بحمله أسطرى لتعلم ماأجده وأفقده من تشوقى وتصبرى وانى لاأزال أنشد حيث تذكرى وتفكرى

الارض كالكمأة والراسن ومنه ماهو كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن ويشبه هذا الكلارى القلقاس الذى يكون بالشام ومصر ومن غذائهم أيضا العسل واللحم ومن هوى منهم شيأ من نبات أو حيوان اوجماد يعبده وجزائرهم فى البحر لاتحصى كثرة وفيها النارجيل يعم أكله سائر الزنج ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها وبين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين فيها خلائق من المسلمين يقال لهم قنبلو ويتوارثها المسلمون على حسب ماذكرنا من أمرها فى هذا الكتاب وأما النوبة فافترقت فرقتين فرقة فى شرق النيل وغربه وأناخت على شاطئه فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد اسوان وغيرها واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه وبنوا دار مملكة وهى مدينة عظيمة تدعى دنقلة والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوه وبنوا مدينة عظيمة وسموها سربه (قال المسعودى)

وانتهيت فى تصنيفى الى هذا الموضع من كتابنا هذا فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة يانائيا

يا نائيا قد نأى عن مصطبرى * وثاويا فى سواد القلب والبصر
اذا تناسيت عهدا من أخى ثقة * فاذكر عهودى فما اخليك من فكرى
واردد على تحياتى باحسنها * تردد لى حياتى آخر العمر

ولنمسك العنان عن الجرى فى ميدان اخبار ابن سعيد فانها لايشق غبارها ومنها قوله رحمه الله تعالى سمعت كثيرا من السماع المشرقى فلم يهزنى مثل قول الشريف الشمسى المكى

مقل بالدمع غرقى * وفؤاد طار خفقا
وتجن وتثن * شق جيب الصبر شقا
يا ثقاتى خبرونى * عن حديث اليوم حقا
أكذا كل محب * فارق الاحباب يشقى
لا وعيش قد تقضى * وغرام قد تبقى
ونعيم فى ذراكم * قد صفا دهرا ورقا
ونسيم من حماكم * حمل الوجد فرقا
برسالات صبابا * ت على المشتاق تلقى
وغصون ناعمات * بمياه الدن تسقى
ووجوه فقن حسنا * فملان الارض عشقا
لو رضيتم لى عبدا * مارضيت الدهر عتقا

وقال ماسمعت ولا وقفت على شئ أبدع من قول الجزار وقد تردد الى جمال الدين بن يغمور رئيس الديار المصرية فلم يقدر له الاجتماع به

أسأل الله أن يديم لك العز ويبقيك ما أردت البقاء
كل يوم أرجو النعيم بلقيا * ك فألقى بالبعد عنك شقاء
علم الدهر أننى أشتكيه * لك اذ نلتقى فعاق اللقاء

فبعث له بما أصلح حاله من الاحسان وكتب فى حقه الى ولاة الصعيد كتبا أغنته مدة عن شكوى الزمان انتهى * وقال أيضا ولم أسمع فى وضع الشئ موضعه أحسن من قول المتنبى

وأصبح شعرى منهما فى مكانه * وفى عنق الحسناء يستحسن العقد

ولم اسمع فى وضع الشئ غير موضعه أحسن من قول أبى الفرج

مرمدحى ضائعا فى لؤمه * كضياع السيف فى كف الجبان

ومن تأليف النور بن سعيد كتاب عدة المستنجز وعقلة المستوفز وذكر فيه انه ارتحل من تونس الى المشرق رحلته الثانية سنة ٦٦٦ وأورد فى هذا الكتاب غرائب وبدائع وذكر فيه أنه لما دخل الاسكندرية لم يكن عنده آكد من السؤال عن الملك الناصر فاخبر بحاله وماجرى له مع الططر حتى قتلوه بعد الامان ثم ساق فيه دخول هولاكو حلب فقال بعد كلام كثير وارتكب فى أهل حلب الططر والمرتدون ونصارى الارمن ماتصم عنه الاسماع وكان فمن قتل بتلك الكائنة البدر بن العديم الذى صدر عنه من الطبقة العالية فى الشعر مثل قوله

واها لعقرب صدغه * لولم تكن لماه تحمى

فاخبرت أن الملك فى مدينة دنقلة الى النوبة ليرفى بن سدرو وهو ملك ابن ملك ١٥٠ ابن ملك فصاعدا وملكه يحتوى على أم قرية وعلوه والبلد المتصل بمملكته بارض اسوان يعرف بمريس واليه تضاف الزنج المريسية وعمل هذا الملك متصل باعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان وأما البجه فانها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر وتشعبوا فرقا وملكوا عليهم ملكا وفى أرضهم معادن الذهب وهو التبر ومعادن الزمرذ وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب الى بلاد النوبة فيغيرون ويسبون وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجه الى أن قوى الاسلام وظهر وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعيذاب وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فاشتدت شوكتهم وتزوجوا فى البجه فقويت البجه بمن صاهرها من ربيعة وقويت ربيعة بالبجه على من ناواها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار وصاحب المعدن فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة بشر بن مروان بن اسحق وهو من ربيعة يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجه

ولغفل خط عذاره * لوبت أعجمه بلثمى

وابن عمه الافتخار بن العديم الذى وقع له مثل قوله

والغصن فيه الماء مطرد * والماء فيه الغصن منعكس

ثم قال لما ذكر أحوال الناصر بعد استيلاء الططر على بلاده حلب والشام وما يليهما مانصه قال من دخل على الملك الناصر وقد نزل بميدان دمشق قبلت يده وجعلت أدعوله وأظهر تعزيته على ماجرى من تلك المصائب العظيمة فأضرب عن ذلك وقال لى فيم تتغزل اليوم ثم أنشدنى قوله فى مملوك فقدله فى هذه الكائنة

والله ما أبكى لملك مضى * ولا لحال ظاعن أومقيم

وانما أبكى وقد حق لى * لفقد من كنت به فى نعيم

يطلع بدرا ينثنى بانة * يمر فيما رمته كالنسيم

فى خاطرى أبصره خاطرا * فألتوى مثل التواء السقيم

ياعاذلى دعنى وما حل بى * فما سوى الله بحالى عليم

ان مت من حزن له أسترح * وان أعش عشت بهم عظيم

قال ثم انه سار نحو هولاكو فلما مر بحلب ونظر الى معاهده على غير مايعهد قال

مررت بجرعاء الحمى فتلفتت * لحاظى الى الدار التى رحلوا عنها

ولو كان عندى ألف عين وقت فى * معالمها عمرى لما شبعت منها

وصنع فى نعيها أشعارا يغنى بها المسمعون ثم رحل الى صحراء يوشن فى جهة طريق أرمينية فوجد هولاكو هنالك فى تلك المروج المشهورة بالخصب فأنزله وأقام يشرب معه الى أن وصل الخبر بوقعة عين جالوت على الططر للملك المظفر قطز صاحب مصر سنة ٦٥٨ فقتلوه وخلعوا عظم كتفه وجعلوه فى أحد الاعلام على عادته فى اكتاف الملوك انتهى باختصار

*(رجع ومن الوافدين من الاندلس الى المشرق الاديب الحسيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن سعيد) وكان صعب الخلق شديد الانفة جرى بينه وبين أقارب به ما أوجب خروجه الى أقصى المشرق وفى ذلك يقول وكتب به اليهم

من لصب يرعى النجوم صبابه * ضيع السير فى الهموم شبابه

زدت بعدا فزدت فيه اقترابا * بودادى كذاك حكم القرابه

منزلى الآن سمرقند والقلعة ربعى وطئت طفلا ترابه

شد ما أبعد الفراق انتزاحى * هكذا الليث ليس يدرى اغترابه

لولا أرتجى الاياب لامر * ان يكن يرتجى غريب ايابه

وكتب لهم من بخارى

اذا هبت رياح الغرب طارت * اليها مهجتى نحو التلاقى

وأحسب من تركت به يلاقى * اذا هبت صباها ما ألاقى

فياليت التفرق كان عدلا * فحمل ما يطيق من اشتياقى

وليت العمر لم يبرح وصالا * ولم يختم علينا بالفراق

بالجف البجاوية وهم الحداوب وهم مسلمون من بين سائر البجه والدار حلاس من البجه كفار يعبدون صنما لهم وأما الحبشة فاسم دار مملكتهم كعمى وهى مدينة عظيمة وهى دار مملكة النجاشى وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة يتصل ملك النجاشى بالبحر الحبشى ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة وهو مقابل لبلاد اليمن فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناصع وهذه مدن فيها خلق من المسلمين الا أنهم فى ذمة الحبشة وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافقة وهى ساحل زبيد من أرض اليمن ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين ملكت اليمن فى أيام ذى نواس وهو صاحب الاخدود المذكور فى القرآن وصاحب زبيد فى وقتنا هذا ابراهيم بن زياد صاحب الحرملى ومراكبه تختلف الى ساحل الحبشة ويركب فيها التجار بالامتعة وبينهم مهادنة وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين أعنى ساحل اليمن وساحل الحبشة أقل المواضع فيه عرضا وهنالك جزائر بين هذين الساحلين منها جزيرة العقل يقال ان فيها ماء يعرف بماء العقل تستقى منه أرباب المراكب ويفعل فى القرائح والذكاء

اذا

اذا كان الشوق فوق كل صفة فكيف تعبر عنه الشفة لكن العنوان دليل على بعض ما في الصحيفة والحاجب قد ينوب في بعض الامور مناب الخليفة وما ظنكم بمشوق طريح في يد الاشواق طليح يقطع مسافات الآفاق بتقلب تقلب الافياء ويتلون تلون الحرباء حتى كانه يختبر مساحات الارض ذات الطول والعرض ويجوب أهوية الاقاليم السبع خارجا عما أدخله فيه اللجاج عن السمع فكانه خليفة الاسكندر لكن ما يجيش من هموم الغربة بفكري قائمة مقام الجيش والعسكر جزت الى بر العدوة من الغرب الاقصى ثم تشوقت نفسي فطمعت الى مشاهدة الغرب الاوسط فلاقيت فيما بينهما من المسافة ومن المشاق ما لا يحصى ثم تشوقت الى افريقية درب بلاد الشرق فاستشعرت من هنالك ما بينها وبين بلادي من الفرق واختطفت من عيني تلك الطلاوة وانتزعت من قلبي تلك الحلاوة

فلله عين لم تر العين مثلها * ولا تلتقي الابجنات رضوان

ثم نازعتني النفس التواقة الى الديار المصرية فكابدت في البحر ما لا يفي بوصفه الا المشاهدة الى أن أبصرت منار الاسكندرية فيالك من استئناف عمر جديد بعد اليأس من الحياة بما لقينا من الهول والتنكيد ثم صعدت الى القاهرة قاعدة الديار المصرية لمعاينة الهرمين وما فيهما من المعالم الازلية وعاينت القاهرة المعزية وما فيها من الهمم العلية الملوكية غير أني أنكرت مبانيها الواهية على ما حوت من أولي الهمم العالية وكونها حاضرة العسكر الجرار وكرسي الملك العظيم المقدار وقلت أصداف فيها جواهر وشوك محدق بأزاهر ثم ركبت النيل وعاينت تماسيحه وجزت بحر جدة وذقت تباريحه وقضيت الحج والزيارة وملت الى حاضرة الشام دمشق والنفس بالسوء أمارة فهنالك بعت الزيارة بالازورار وآلت تلك التجارة الى ما حكمت به الاقدار اذ هي كما قال أحد من عاينها

أما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الولدان والحور

فلله ما تضمن داخلها من الحور والولدان وما زين به خارجها من الانهار والجنان وبالجملة فانها حمى تتقاصر عن ادراكها أعناق الفصاحة وتقصر عن مناولتها في ميدان الاوصاف كل راحة ولم أزل أسمع عن حلب أنها دار الكرم والادب فاردت أن يحظى بصري بما حظي به سمعي ورحلت اليها وأقمت جابرا بالمذاكرة والمطايبة صدعي ثم رحلت الى الموصل فالفيت مدينة عليها رونق الاندلس وفيها اللطافة وفي مبانيها طلاوة ترتاح لها الانفس ثم دخلت الى مقر الخلافة بغداد فعاينت من العظم والضخامة ما لا يفي به الكتب ولو أن البحر مداد ثم تغلغلت الى بلاد العجم بلدا بلدا غير مقتنع بغاية ولا قاصد امدا الى أن حللت بخارى قبة الاسلام ومجمع الانام فالقيت بها عصا التسيار وعكفت على طلب العلم واصلا في اجتهاده سواد الليل وبياض النهار انتهى * وكتب اليهم أيضا من هذه الرسالة كتبت وقد حصلتني السعادة وحظ الامل والارادة بحضرة بخارى قبة الاسلام * وأجابه أهله من الغرب بكلام من جملته وان كنت قد تحصنت بقبة الاسلام فقد تعجلت لنا ولك الفقد قبل وقت الحمام وأتبعوا ذلك بما دعاه لان خاطبهم بشعر منه

عتبتم على حثي المطي وقلتم * تعجلت فقدا قبل وقت حمام

وقد أتينا على الخبر في كتابنا في أخبار الزمان عند ذكرنا الاخبار المتطببين في تجاربهم وما كان من قضاياهم في علاجاتهم ممن سلف قبل ظهور الاسلام وغيرهم ممن اتصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة وله في هذا الوقت رجال مرتبون فيها من أصحابه وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة واليها يضاف الصبر السقطري ولا يوجد الا فيها ولا يحمل الا منها وقد كان ارسطاطاليس بن نمرياخس كتب الى الاسكندر بن فيلبش حين سار الى الشام في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها وأن يبعث اليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطري الذي يقع في الايارجات وغيرها فسير الاسكندر الى هذه الجزيرة خلقا من اليونانيين أكثرهم من مدينة ارسطاطاليس بن نمرياخس وهي مدينة اسطاغورى في المراكب باهليهم في بحر القلزم فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند وملكوا الجزيرة وكان للهند بها صنم عظيم فنقل ذلك الصنم في أخبار يطول ذكرها وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين ومضى الاسكندر

اذا لم يكن حالى مهما لديكم * سواء عليكم رحلتى ومقامى

وقتل المذكور ببخارى حين دخلها الططر وهو عم على بن سعيد الشهير وكان لعبد الرحمن المذكور أخ يسمى يحيى قد عانى الجندية فلما بلغه أن أبا القاسم عبد الرحمن قتل ببخارى قال لا اله الا الله كان أبدا يسفه رأيى فى الجندية ويقول لو اتبعت طريق النجاة كما صنعت أنا لكان خيرا لك فها هو رب قلم قد قتل شر قتلة بحيث لا ينتصر وسلب سلاحه وأنا ما زلت أغازى فى عباد الصليب وأخلص فما يقدر أحد أن يحسن لنفسه عاقبة انتهى * قال أبو الحسن على بن سعيد ثم ان يحيى المذكور بعد خوضه فى الحروب صرعه فى طريقه غلام كان يخدمه فذبحه على نزر من المال أفلت به فانظر الى تقلب الاحوال كيف يجرى فى أنواع الامور لا على تقدير ولا احتياط انتهى * ومن شعر أبى القاسم عبد الرحمن المذكور ما خاطب به نقيب الاشراف ببخارى وقد أهدى اليه فاختا مع زوجه

أيا سيد الاشراف لا زلت عاليا * معاليك تنبو الدهر عن كل ناعت
من الفضل اقبال على ما بعثته * لمغناك من شاد دعوه بفاخت
ألا حبذا من فاخت ساد جنسه * وأصبح مقرونا بست الفواخت
لئن فاتنى منه الانيس فكل ما * يحل الى علياك ليس بفائت انتهى

* (ومنهم الشيخ الصالح الزاهد أبو الحسن على بن عبد الله بن يوسف بن حمزة القرطبى الانصارى المعروف بابن العائد) نزيل رباط الصاحب الصفى بن شكر قال بعض المشارقة عنه انما سميت الخمر بالعجوز لانها بنت ثمانين يعنى عدد حدها وأنشد له

عذلنا فلانا على فعله * ولمناه فى شربه للعجوز
فقال دعونى من أجلها * أنال أنا وأخى والعجوز

(ومنهم الشيخ الفاضل المتقن أبو عبد الله محمد بن على بن يوسف بن محمد بن يوسف الانصارى) الشاطبى الاصل البلنسى المولد فى أحد ربيعى سنة احدى وستمائة ولقبه المشارقة برضى الدين وتوفى بالقاهرة فى جمادى الاولى سنة ٦٨٤ رحمه الله تعالى ومن نظمه لما حضر أجله وقد أمر خادمه أن ينظف له بيته وأن يغلق عليه الباب ويفتقده بعد زمان ففعل ذلك فلما دخل عليه وجده ميتا وقد كتب فى رقعة

حان الرحيل فودع الدار التى * ما كان ساكنها بها بمخلد
واضرع الى الملك الجواد وقل له * عبد بباب الجود أصبح يجتدى
لم يرض غير الله معبودا ولا * دينا سوى دين النبى محمد

ومن نظمه أيضا رحمه الله تعالى

أقول لنفسى حين قابلها الردى * فرامت فرارا منه يسرى الى يمنى
ترى تحملى بعض الذى تكرهينه * فقد طالما اعتدت الفرار الى الاهنى

أنشده له تلميذه أبو حيان امام عصره فى اللغة حدث عن ابن المنير وغيره واشتغل الناس عليه بالقاهرة وله تصانيف مفيدة وسمع من الحافظ أبى الربيع بن سالم وكتب على صحاح الجوهرى وغيره حواشى فى مجلدات وأثنى عليه تلميذه أبو حيان رحمه الله تعالى الجميع

ومن

فظهر المسيح فتنصر من كان بها الى هذا الوقت وليس فى الدنيا والله أعلم موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون انسابهم لم يداخلهم فى أنسابهم روم ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة وهم فى هذا الوقت تأوى اليهم بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين فى هذه البوارج وهى المراكب على من أراد الصين والهند وغيرها كما يقطع الروم فى الشوانى على المسلمين فى البحر الرومى من ساحل الشام ومصر ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر وغيره من العقاقير ولهذه الجزيرة اخبار عجيبة ولما فيها من خواص النبات والعقاقير قد اتينا على كثير من ذكرها فيما سلف من كتبنا واما غير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن فى المغرب مثل الزغاوة والكركر والقراقر ومرندة والمرويين والمنديين واللالة والقرماطن وزويله والعرمد فلكل واحد منهم من هؤلاء وغيرهم من أنواع الاحابش ملك ودار مملكة وقد اتينا على ذكر جميع اجناس السودان وانواعهم ومساكنهم ومواضعها من الفلك ولاية علة تفلفلت شعورهم واسودت الوانهم وغير ذلك من اخبارهم واخبار ملوكهم وعجائب سيرهم وتشعبهم فى انسابهم فى كتابنا فى اخبار الزمان فى الفن الاول

ومن فوائده قوله نقلت من خط أبى الوليد بن خيرة الحافظ القرطبى فى فهرست أبى بكر بن مفوز قد أدركته بسنى ولم آخذ عنه واجتمعت به أنشدنى له أبو القاسم بن الابرش يخاطب بعض أكابر أصحاب محمد بن حزم والاشارة لابن حزم الظاهرى

يا من تعنى أمورا لن يعانيها * خل التعانى وأعط القوس باريها
تروى الاحاديث عن كل مسامحة * وانما لمعانيها معانيها

وقد سبق فى ترجمة القاضى أبى الوليد الباجى ذكر هذين البيتين عند ما جرى ذكر ابن حزم قال وانما قال هذا الشعر فى ذكر رواية ادعيت عن قول النبى صلى الله عليه وسلم ان خالدا قد احتبس أدراعه وأعتده فى سبيل الله وصح رواية من روى أعبده جمع عبد وعلل رواية من روى اعتده بالتاء مثناة باثنتين من فوق جمع عتد وهو الفرس قال ابن خيرة الاحاطة ممتنعة وهذه الرواية قد رواها جماعة من الاثبات والعلماء المحدثين فهو انكار غير معروف والله تعالى أعلم * ومن فوائده ما نقله تلميذه ابو حيان النحوى عنه قال انشدنا الامرى ونقلته من خطه

اذا ماشئت معرفة * لما حار الورى فيه
فخذ خمسا الاربعة * ودع للثوب رافيه

وهو لغز فى ورد قال وانشدنا لبعضهم

لارعى الله عزمة ضمنت لى * سلوة الصبر والتصبر عنه
ماوفت غير ساعة ثم عادت * مثل قلبى تقول لابد منه

قال وانشدنا لغيره

وكان غريب الحسن قبل التحائه * فلما التحى صار الغريب المصنفا

وانشدنا لغيره

طب على الوحدة نفسا * وارض بالوحشة انسا
ماعليها من يساوى * حين يستخبر فلسا

وقرأ الرضى ببلده على ابن صاحب الصلات آخر أصحاب ابن هذيل وسمع منه كتاب التلخيص للوانى وسمع بمصر من ابن المقير وجماعة وروى عنه الحافظ المزنى واليونينى والظاهرى وآخرون وانتهت اليه معرفة اللغة وغريبها وكان يقول أحرف اللغة على قسمين قسم اعرف معناه وشواهده وقسم اعرف كيف انطق به فقط رحمه الله تعالى * ومن فوائد الرضى الشاطبى المذكور وماذكره ابو حيان فى البحر قال وهو من غريب ما انشدنا الامام اللغوى رضى الدين ابو عبد الله محمد بن على بن يوسف الانصارى الشاطبى لزينب بنت اسحق النصرانى الرسعنى

عدى وتيم لا احاول ذكرهم * بسوء ولكنى محب لهاشم
وما يعترينى فى على ورهطه * اذا ذكروا فى الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم * واهل النهى من اعرب واعاجم
فقلت لهم انى لاحسب حبهم * سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم

ترك ايراده فيه ولا تعريته منه (قال المسعودى) وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح عمرو ابن العاص مصر كتب اليه بمحاربة النوبة فغزاهم المسلمون فوجدوهم يرمون الحدق وأبى عمرو ابن العاص أن يصالحهم حتى صرف عن مصر ووليها عبد الله بن سعد فصالحهم على رؤس من السبى معلومة مما يسبى هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الباب المدعو بملك مريس وغيرها من أرض النوبة فصار ماقبض منهم من السبى سنة جارية فى كل سنة الى هذه الغاية يحمل الى صاحب مصر ويدعى هذا السبى فى العربية بارض مصر والنوبة بالبقط وعدد ذلك ثلثمائة رأس وخمسة وستون رأسا وأراه رسم على عدد أيام السنة هذا لبيت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة وللامير بمصر غير ماذكرنا من عدد السبى أربعون رأسا ولخليفته المقيم ببلاد اسوان المجاورة لارض النوبة وهو المتولى لقبض هذا البقط وهو السبى عشرون رأسا غير الاربعين وللحاكم المقيم

ومن نظم الرضى المذكور

منغص العيش لا ياوى الى دعة * من كان فى بلد أو كان ذا ولد
والساكن النفس من لم ترض همته * سكنى بلاد ولا سكنى الى احد

وله

لولا ابتناتى وسيئاتى * لطرت شوقا الى الممات
لاننى فى جوار قوم * بغضنى قربهم حياتى

وقرأ عليه ابو حيان كتاب التيسير واثنى عليه ولما توفى انشد ارتجالا

نعى لى الرضى فقلت لقد * نعى لى شيخ العلا والادب
فن للغات ومن للثقات * ومن للنحاة ومن للنسب
لقد كان للعلم بحرا فغار * وان غؤور البحار العجب
فقدس من عالم عامل * اثار اشجوى لما ذهب

وتحاكم الى رضى الدين المذكور الجزار والسراج الوراق ايهما أشعر وارسل اليه الجزار شيأ فقال هذا شعر جزل من نمط شعر العرب فبلغ ذلك الوراق فارسل اليه شيأ فقال هذا شعر سلس وآخر الامر قال ما أحكم بينكما رحمه الله تعالى * قلت رأيت بخطه كتبا كثيرة بمصر وحواشى مفيدة فى اللغة وعلى دواوين العرب رحمه الله تعالى * (ومنهم حميد الزاهد وهو الاديب الفاضل الزاهد أبو بكر حميد بن أبى محمد عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الانصارى القرطبى نزيل مالقة) قال الرضى الشاطبى المذكور قريبا أنشدنى حميد بالقاهرة لابيه أبى محمد وقد تاخر شيبه مع علو سنه

وهل نافعى أن اخطا الشيب مفرقى * وقد شاب أترابى وشاب لداتى
اذا كان خط الشيب يوجد عنده * بتربى فعناه يقوم بذاتى

واللدات من ولد معه فى زمان واحد انتهى وفى ذكرى أنه قال هذين البيتين لما قال له القاضى عياض شبنا ولم تشب وقال الرضى أيضا انشدنى حميد لابيه فيمن يكتب فى الورق بالقص وهو غريب

وكاتب وشى طرسه حبره * لم يشها حبره ولا قلمه
لكن بمقراضه ينمنمها * نمنمة الرص وجاده رهمه
يوجد بالقطع أحرفا عدمت * فاعجب لشئ وجوده عدمه

والرهم المطر قال وتوفى حميد الزاهد هذا بعد العصر قبيل الظهر من يوم الثلاثاء وصلى عليه خارج مصر بجامع راشدة بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء المذكور ودفن بسفح المقطم بتربة الشيخ الفاضل الزاهد أبى بكر محمد الخزرجى الذى يدق الرصاص حذاء رجليه فى الثالث والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين وستمائة ومولده سنة ست وستمائة انتهى * (ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقى) من اهل بلنسية واصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى كتب لبعض الامراء بشرقى الاندلس وله تاليف سماه المغرب فى أخبار محاسن أهل المغرب جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

قبض البقط خمسة ارؤس غير العشرين التى يقبضها الامير باسوان الذى يحضره مع أمير اسوان ولاثنى عشر شاهدا عدولا من أهل اسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأسا من السبى على حسب ماجرى به الرسم فى صدر الاسلام فى بدء ايقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة والموضع الذى يتسلم فيه هذا البقط ويحضره من سميناه وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر وهو على ستة أميال من مدينة اسوان بالقرب من جزيرة بلاق و بلاق هذه مدينة فى الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والاحجار وهذه المدينة فى هذه الجزيرة يحيط بها ماء النيل كاحاطة ماء الفرات بالمدن التى فى الجزائر بين رحبة مالك بن طوق وبين الرسة وناوسة وعانة والحديثة وفى مدينة بلاق خلق كثير من الناس ومنبر ونخل كثير فى كلا الشطين وهذه المدينة اليها تنتهى سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر واسوان ومدينة اسوان يسكنها خلق كثير من العرب من قحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر وخلق من قريش وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع النواة الارض فتنبت نخلة بالديار

ويؤكل من ثمرها بعد سنتين وليست تربتهم كتربة البصرة ولا الكوفة ١٠ ولا غيرهما من أرض النخل لان النخل بالبصرة لا ينبت من النوى بل ينبت من التال والفسيل وهو النخل الصغير وما يخرج من النواة فليس يثمر ولا يفلح ولمن باسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بارض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة وابتيعت هذه الضياع من النوبة فى صدر الزمان فى دولة بنى أمية وبنى العباس وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم الى الفسطاط ذكروا عنه ان ناسا من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل اسوان وأنها ضياعه والقوم عبيد لا املاك لهم وانما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها فرد المامون أمرهم الى الحاكم بمدينة اسوان ومن بها من أهل العلم والشيوخ وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل اسوان انها ستنتزع من أيديهم فاحتالوا على ملك النوبة بان تقدموا الى من ابتيع منهم من أهل النوبة أنهم اذا حضروا حضرة الحاكم ان لا يقروا لملوكهم بالعبودية وأن يقولوا سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم تجب علينا طاعته وترك مخالفته فان كنتم أنتم

بالديار المصرية بعد أن رحل اليها من الاندلس سنة ستين وخمسمائة وبها توفى يوم الخميس التاسع عشر من رجب سنة خمس وسبعين وخمسمائة رحمه الله تعالى (ومنهم محمد بن عبد الرحمن ابن على بن محمد التجيبى يكنى أبا عبد الله من أهل اشبيلية) تجوّل فى بلاد الاندلس طالبا للعلم ثم حج ولقى الحافظ السلفى وغيره واستوطن تلمسان وبها توفى فى جمادى الاولى سنة عشر وستمائة وله تواليف كثيرة (ومنهم أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمى الباجى) من أهل اشبيلية ولى القضاء بها وأصله من باجة افريقية دخل المشرق لاداء الفريضة فحج وتوفى بمصر بعد ما دخل الشام فى اليوم الثامن والعشرين من ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وستمائة ومولده عام أربعة وستين وخمسمائة وكانت رحلته من المغرب أوّل يوم من المحرم عام أربعة وثلاثين وستمائة (ومنهم وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمرى) من أهل سرقسطة يكنى أبا العباس له كتاب سماه الوجازة فى صحة القول بالاجازة وله رحلة لقى فيها ألف شيخ ومحدث وفقيه توفى بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة يروى عنه أبو ذر الهروى وعبد الغنى الحافظ وكفاه فخرا بهذين الامامين العظيمين رحم الله تعالى الجميع * (ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الملك بن عبد الله بن محمد الرعينى الرندى يكنى أبا محمد) استوطن مالقة ورحل الى المشرق وحج ولقى جماعة من العلماء وقفل الى المغرب أواخر عام واحد وثلاثين وستمائة وولى الامامة بالمسجد الجامع بمالقة وبها توفى فى ربيع الاول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ولقب فى المشرق برشيد الدين وولد فى ربيع الاول سنة احدى وثمانين وخمسمائة بقرية من قرى الاندلس يقال لها بلماتين كورة بشتغير ذكر ذلك ابن المستوفى فى تاريخ اربل * (ومنهم أبو الربيع سليمان بن أحمد اليمنى) من أهل الاندلس استوطن المشرق ومدح الملك الكامل ومن شعره رحمه الله تعالى قوله

لولا تحدّيه بآية سحره * ما كنت ممتثلا شريعة أمره
رشأ أصدقه وكاذب وعده * يبدى لعاشقه أدلة غدره
ظهرت نبوّة حسنه فى فترة * من جفنه وضلالة من شعره

(ومنهم أبو جعفر أحمد بن يحيي الضبى) رحل حاجا فلقى ببجاية عبد الحق الاشبيلى وبالاسكندرية أبا الطاهر بن عوف ولقى غير واحد فى رحلته كالغزنوى وأبى الثناء الحرانى وابى الحسين الحريثى وللعريثى أحاديث ساوى بها البخارى ومسلما ولقى جماعة ممن شارك السلفى فى شيوخه (ومنهم أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى صاحب الرحلة) وهو من ولد ضمرة ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة أندلسى شاطبى بلنسى مولده ليلة السبت عاشر ربيع الاول سنة أربعين وخمسمائة ببلنسية وقيل فى مولده غير ذلك وسمع من أبيه بشاطبة ومن أبى عبد الله الاصيلى وأبى الحسن بن أبى العيش وأخذ عنه القرآ ت وعنى بالادب فبلغ الغاية فيه وتقدم فى صناعة القريض والكتابة ومن شعره قوله وقد دخل الى بغداد فاقتطع غصنا نضيرا من أحد بساتينها فذوى فى يده

لا تغترب عن وطن * واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن اذا * ما فارق الاصل ذوى

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الصدر الجخندي

يا من حواه الدين في عصره * صدرا يحل العلم منه فؤاد
ماذا يرى سيدنا المرتضى * في زائر يخطب منه الوداد
لا يبتغي منه سوى أحرف * يعتدها أشرف ذخر يفاد
ترسمها أنمله مثـــل ما * نمق زهر الروض كف العهاد
في رقعة كالصبح أهدى لها * يد المعالي مسك ليل المداد
اجازة يورثنيها العــــلا * جائزة تبقى وتفني البلاد
يستصحب الشكر خديما لها * والشكر للامجاد أسنى عتاد

فاجابه الصدر الجخندي

لك الله من خاطب خلتي * ومن قابس يجتدي سقط زندي
اجزت له ما أجازوه لي * وما حدثوه وما صح عندي
وكاتب هذي السطور التي * تراهن عبد اللطيف الجخندي

ورافق ابن جبير في هذه الرحلة أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن القضاعي وأصله من أندة من عمل بلنسية رحل معه فأديا الفريضة وسمعا بدمشق من أبي الطاهر الخشوعي وأجازهما أبو محمد بن أبي عصرون وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ودخلا بغداد وتجولا مدة ثم قفلا جميعا الى المغرب فسمع كل منهما به بعض ما كان عندهما وكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب وله فيه تقييد مفيد مع المشاركة الكاملة في فنون العلم ومنهم السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن وجده لامه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية وتوفي أبو جعفر هذا بمراكش سنة ثمان أو تسع وتسعين وخمسمائة ولم يبلغ الخمسين في سنه رحمه الله تعالى (رجع الى ابن جبير) قال لسان الدين في حقه انه من علماء الاندلس بالفقه والحديث والمشاركة في الآداب وله الرحلة المشهورة واشتهرت في السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب له قصيدتان احداهما أولها

أطلت على أفقك الزاهر * سعود من الفلك الدائر

ومنها

رفعت مغارم مكس الحجاز * بانعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلاد * فهان السبيل على العابر
وسحب أياديك فياضة * على وارد وعلى صادر
فكم لك بالشرق من حامد * وكم لك بالغرب من شاكر

والاخرى منها في الشكوى من ابن شكر الذي كان أخذ المكس من الناس في الحجاز

وما نال الحجاز بكم صلاحا * وقد نالته مصر والشآم

ومن شعره

اخلاء هذا الزمان الخئون * توالت عليهم حروف العلل
قضيت التعجب من بابهم * فصرت أطالع باب البدل

عبيد الملك كم وأموالكم له فنحن كذلك فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم ونحوه مما أوقفوه عليه من هذا المعنى في البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت وتوارث الناس تلك الضياع بارض النوبة من بلاد مريس وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين نوع من وصفنا احرار غير عبيد والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد وهم من سكن من النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لاسوان وهي بلاد مريس ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الاعلى من أعمال مدينة قفط ومنها يخرج الى هذا المعدن والموضع الذي فيه الزمرذ يعرف بالحزبة مفازة وجبال والبجه تحمى هذا المكان المعروف بالحزبة واليها يؤدي الخفارات من برد الى حفر الزمرذ والزمرذ الذي يقتلع من هذا المعدن يتنوع أربعة أنواع النوع الاول منها يعرف بالمرو وهو أجودها وأغلاها ثمنا وهو شديد الخضرة كثير الماء تشبه خضرته باشد ما يكون من السلق خضرة وهذا اللون غير كدر ولا ضارب الى السواد والنوع الثاني يدعى بالبحري ومعناهم في هذه التسمية هو أن ملوك البحر من السند والهند والرانج والصين ترغب في هذا النوع من

وقوله

غريب تذكر أوطانه * فهيج بالذكر أشجانه
يحل عرى صبره بالاسى * ويعقد بالنجم أجفانه
انتهى

وقال رحمه الله تعالى لما رأى البيت الحرام زاده الله شرفا ومهابة وتعظيما

بدت لى أعلام بيت الهدى * بمكة والنور باد عليه
فاحرمت شوقا له بالهوى * وأهديت قلبي هديا اليه

وقوله يخاطب من أهدى اليه موزا

يامهدى الموز تبقى * وميمه لك فاء
وزايه عن قريب * لمن يعاديك تاء

وقال رحمه الله تعالى

قد ظهرت فى عصرنا فرقة * ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدى فى الدين الا بما * سن ابن سينا وأبو نصر

وقال

ياوحشة الاسلام من فرقة * شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهدى خلفها * وادعت الحكمة والفلسفه

وقال

ضلت بافعالها الشنيعه * طائفة عن هدى الشريعه
ليست ترى فاعلا حكيما * يفعل شيأ سوى الطبيعه

وكان انفصاله رحمه الله تعالى من غرناطة بقصد الرحلة المشرقية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال سنة ٥٧٨ ووصل اسكندرية يوم السبت التاسع والعشرين من ذى القعدة الحرام من السنة م فكانت اقامته على متن البحر من الاندلس الى الاسكندرية ثلاثين يوما ونزل البر الاسكندرانى فى الحادى والثلاثين وحج رحمه الله تعالى وتجوّل فى البلاد ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها وكان رحمه الله تعالى كما قال ابن الرقيق من أعلام العلماء العارفين بالله كتب فى أول أمره عن السيد أبى سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتابا وهو على شرابه فمد يده اليه بكاس فاظهر الانقباض وقال ياسيدى ماشربتها قط فقال والله لتشربن منها سبعا فلما رأى العزيمة شرب سبع كؤوس فملأ له السيد الكاس من دنانير سبع مرات وصب ذلك فى حجره فحمله الى منزله وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ثم رغب الى السيد وأعلمه أنه حلف بأيمان لاخروج له عنها أنه يحج فى تلك السنة فاسعفه وباع ملكا له تزود به وأنفق تلك الدنانير فى سبيل البر ومن شعره فى جارية تركها بغرناطة

طول اغتراب وبرح شوق * لا صبر والله لى عليه
اليك أشكو الذى الاقى * ياخير من يشتكى اليه
ولى بغرناطة حبيب * قد غلق الرهن فى يديه

فسمى البحرى لماذكرنا وهو ثانى المر فى الجودة وتشبه خضرته بالاول والماء كقداح ورق الآس الذى يظهر فى أوائل أغصان الآس وأطرافه والنوع الثالث يعرف بالمغربى ومعناهم فى هذه التسمية واضافتهم اياه الى المغرب هو أن ملوك المغرب من الافرنجة والنوكبر والاندلس والجلالقة والوسكنس والصقالبة والروس وان كان أكثر هؤلاء الامم متصلين بالجوفى وهو ما بين المشرق والمغرب على حسب ماذكرناه من ديار ولد يافث بن نوح يتنافسون فى هذا النوع من الزمرذ كتنافس من ذكرنا من ملوك الهند والصين فى النوع المعروف بالبحرى والنوع الرابع هو المسمى بالاصم وهو أدنى الانواع وأقلها ثمنا لقلة مائه وخضرته وهذا النوع يتفاوت فى اللون من الخضرة والقلة وجملة الوصف بهذه الانواع الاربعة فى الجودة والمبالغة فى الثمن هو أكثرها ماء وأصفاها وأكثرها خضرة وأنقاها من السواد والصفرة وغير ذلك من الالوان مع تعرى هذا الجوهر من النموشة فاذا سلم مما ذكرنا كان فى نوعه غاية فى الجودة ونهاية فى الوصف وفى تجارته مايبلغ

ودعته وهو بارتحاض * يظهر لى بعض ما لديه
فلو ترى طل نرجسيه * ينهل فى ورد وجنتيه
أبصرت دراً على عقيق * من دمعه فوق صفحتيه

وله رحلة مشهورة بايدى الناس ولما وصل بغداد تذكر بلده فقال

سقى الله باب الطاق صوب غمامة * وردالى الاوطان كل غريب انتهى

وقال فى رحلته فى حق دمشق جنة المشرق ومطلع حسنه المونق المشرق هى خاتمة بلاد الاسلام التى استقريناها وعروس المدن التى اجتليناها التى قد تحلت بازاهر الرياحين وتجلت فى حلل سندسية وحلت من موضع الحسن بمكان مكين وتزينت فى منصتها أجمل تزيين وتشرفت بان آوى الله تعالى المسيح وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الاراقم بكل سبيل ورياض يحيى النفوس نسيمها العليل تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل قد سئمت أرضها كثرة الما حتى اشتاقت الى الظما فتكاد تناديك بها الصم الصلاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب قد أحدقت بها البساتين احداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر فكل موقع لحظة بجهاتها الاربع نظرته اليانعة قيد النظر ولله صدق القائلين فيها ان كانت الجنة فى الارض فدمشق لاشك فيها وان كانت فى السماء فهى بحيث تسامتها وتحاذيها * قال العلامة ابن جابر الوادى آشى بعد ذكره وصف ابن جبير لدمشق ما نصه ولقد أحسن فيما وصف منها وأجاد وتوق الانفس للتطلع على صورتها بما أفاد هذا ولم تكن له بها اقامة فيعرب عنها بحقيقة علامة وما وصف ذهبات أصيلها وقد حان من الشمس غروب ولا ازمان فصولها المنوعات ولا أوقات سرورها المهنآت ولقد أنصف من قال ألفيتها كما تصف الالسن وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين انتهى *(رجع الى كلام ابن جبير)* فنقول ثم ذكر فى وصف الجامع أنه من أشهر جوامع الاسلام حسنا واتقان بناء وغرابة صنعة واحتفال تنميق وتزيين وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه ومن عجيب شانه أنه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف ثم مد النفس فى وصف الجامع وما به من العجائب ثم قال بعد عدة أوراق ما نصه وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر وقد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار دبرت تدبيرا هندسيا فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فى بازين مصورين من صفر قائمين على طاسى صفر تحت كل واحد منهما أحدهما تحت أول باب من تلك الابواب والثانى تحت آخرها والطاسان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاسين يسمع لهما دوى وينغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لاتزال كذلك عند انقضاء كل ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضى الساعات ثم تعود الى حالها الاول ولها بالليل

وآفات هذا الجوهر المتنوع كثيرة منها الريم والحجارة والعروق البيض التى تشوب هذا الجوهر وتوجد فيه ولايثنا كريين ذوى الدراية بهذا الجوهر ومن عنى بمعرفته أن الحيات والافاعى وسائر أنواع الحيات من الثعابين وغيرها اذا أبصرت الزمرذ الخالص سالت أحداقها وأن الملسوع اذا سقى من الزمرذ الخالص وزن دانقين على الفور أمن على نفسه من سرى السم فى جسده ولا يوجد شئ من أنواع الحيات يقرب من معدنه وأرضه وهو حجر لين رخو يتكاس اذا ورد على الماس وقد كانت ملوك اليونانيين ومن تلاهم من ملوك الروم تعظم شان هذا الجوهر وتفضله على غيره من سائر الجواهر لما اجتمع فيه من الخواص العجيبة والمنافع الكثيرة ولخفته فى الوزن دون سائر الجواهر المعدنية وأكثر ما يوجد من هذه الانواع العروق فى الارض وهو المتنافس فيه اذا سلم من الاعوجاج والتنقب واستقام سلكه واستطال ما استدار وأدناه ما يحل فى معدنه من التراب ويلتقط من الطين وقد يوجد على ظهر الارض فى هذا المعدن فى وهاده وجباله

تدبيرا آخر وذلك أن في القوس المنعطف على تلك الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة مدبر ذلك كله خلف منها الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للابصار دائرة محمرة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى موضعها وهي التي تسميها الناس المنجانة انتهى المقصود منه قلت كل ما ذكره رحمه الله تعالى في وصف دمشق الشام وأهلها فهو في نفس الامر يسير ومن ذا يروم عدّ محاسنها التي اذا رجع البصر فيها انقلب وهو حسير وقد أطنب الناس فيها وما بقي أكثر مما ذكروه وقد دخلتها أواخر شعبان من سنة سبع وثلاثين والف للهجرة واقمت بها الى أوائل شوال من السنة وارتحلت عنها الى مصر وقد تركت القلب فيها رهنا وملأت هواها مني فكرا وذهنا فكأنها بلادي التي بها ربيت وقراري الذي لي به اهل وبيت لان اهلها عاملوني بما ليس لي بشكره يدان وها أنا الى هذا التاريخ لا ارتاح لغيرها من البلدان ولا يشوقني ذكر أرض بابل ولا بغدان فالله سبحانه وتعالى يعطرها بالعافية الاردان * وقد عنّ لي أن أذكر جملة مما قيل فيها من الامداح الرائقة وأسرد ما خاطبني به اهلها من القصائد الفائقة فأقول قال البدر بن حبيب

يمم دمشق ومل الى غربيها * والمح محاسن حسن جامع بلبغا
من قال من حسد رأيت نظيره * بين الجوامع في البلاد فقد لغا

وقال في كتاب شنف السامع بوصف الجامع

لله ما أحلى محاسن جلق * وجهاتها اللاتي تروق وتعذب
بيز يدربوتها الفرات وجنكها * ياصاح كم كنا نخوض ونلعب

وقال فيه أيضا

لله ما أجمل وصف جلق * وما حوى جامعها المنفرد
قد أطرب الناس بصوت صيته * وكيف لا يطرب وهو معبد

وقال في ذكر باب الجامع المعروف بالزيادة

ياراغبا في غير جامع جلق * هل يستوي الممنوع والممنوح
أقصر عناك وفي غلوك لا تزد * ان الزيادة بابها مفتوح

وقال في منارته المعروفة بالعروس

معبد الشام يجمع الناس طرا * واليه شوقا تميل النفوس
كيف لا يجمع الورى وهو بيت * فيه تجلى على الدوام العروس

ومنه في ذكر بانيه الوليد

تالله ما كان الوليد عابثا * في صرفه المال وبذل جهده
لكنه أحزم ملك معبد * لا ينبغي لأحد من بعده

وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه وهو المغربي والاصم المقدم ذكرهما وقد يحمل من أرض الهند من بلاد سندان وبحر كنبايت من مملكة البلهرا صاحب الناكور المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب نوع من الزمرذ يلحق بوصف ما ذكرنا من النور والخضرة والشعاع الا أنه حجر صلب اصلب مما وصفنا واثقل مما ذكرنا ولا يفرق بين هذا النوع المحمول من ارض الهند وبين الانواع الاربعة المقدم ذكرها الا ذو دراية فطن أو ماهر ظريف وهذا النوع الهندي يعرفه اصحاب الجوهر بالمكي لانه يحمل من أرض الهند الى بلاد عدن وغيرها من سواحل اليمن ويؤتى به مكة فاشتهر بهذا الاسم لما وصفنا وبهذا النعت لما ذكرنا وقد اتينا على مبسوط اخبار الجواهر الشفافة وغيرها ووصف معادنها على الشرح والايضاح في كتابنا في اخبار الزمان ووجدت جماعة بصعيد مصر من ذوي الدراية ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن وعرف هذا النوع من الجوهر الذي هو الزمرذ يخبرون أن هذا الزمرذ يكثر ويقل في فصول من السنة وفي قوة من مواد الهواء وهبوب نوع من الرياح الاربع وتقوى الخضرة فيه والشعاع النوري في اوائل الشهر والزيادة في نور القمر ولذلك اختار من

ومن أبيات فى آخره

بجامع جلق رب الزعامه * أقم تلق العناية والكرامه
ويمم نحوه فى كل وقت * وصل به تصل دارا لاقامه
مصلى فيه للرحمن ذكر * ومثوى للقبول به علامه
محل كمل البارى حلاه * وبيت أبدع البارى نظامه
دمشق لم تزل للشام وجها * ومسجدها الوجه الشام شامه
وبين معابد الآفاق طرا * له أمر الامارة والامامه
ادام الله بهجته وأبقى * محاسنه الى يوم القيامه   انتهى

ولم أقف على كل هذا الكتاب المذكور بل على بعضه ومن قصيدة القاضى المهذب بن الزبير

بالله يا ريح الشما * ل اذا اشتملت الرند بردا
وحملت من عرف الخزا * مى ما اغتدى للند ندا
ونسجت ما بين الغصو * ن اذا اعتنقن هوى وودا
وهززت عند الصبح من * أعطافها قدا فقدا
ونثرت فوق الماء من * أجيادها للزهر عقدا
فـلات صفحة وجهه * حتى اكتسى آسا ووردا
وكأنما ألقيت فيـ * ـه منهما صدغا وخدا
مرّى على بردى عسا * ه يزيد فى مسراك بردا
نهر كنصل السيف تكـ * ـسر منه الازهار غمدا
صقلته أنفاس النسيـ * ـم بمرّهن فليس يصدا

ومنها

أحبابنا ما بالكم * فينا من الاعداء أعدى
وحياة حبكم وحر * مة أصلكم ما خنت عهدا

وقال الكمال الشريشى

ياجيرة الشام هل من نحوكم خبر * فان قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم * مالذ للعين لا نوم ولا سهر
اذا تذكرت أوقاتا نات ومضت * بقربكم كادت الاحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بالنيربين ضحى * والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والاغصان راقصة * والدوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفح أين عشياتى التى ذهبت * لى فيه فهى لعمرى عندى العمر
سقاك بالسفح سفح الدمع منهمرا * وقل ذاك له ان أعوز المطر

*(وحكى ابن سعيد وغيره) أن غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق الشام بها عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه والاشجار وقد أطل عليها جبل الثلج

عنى بمعرفة أكثر المعادن من الجوهرية وغيرها ان الكبريت الابيض والاصفر وغيرهما من أنواع الكبريت يكثر فى معدنه فى السنة التى يكثر برقها وتشتد صواعقها على حسب ما اخبرنا به فيما سلف من هذا الكتاب عن الكافور من بلاد قيصورة وغيرها من أرض الهند انه يكثر فى السنة التى تكثر فيها الصواعق والرعود والبروق ولولا ان المكثار كحاطب ليل والايجاز لمحة دالة ووحى صرح عن ضمير والبلاغة ايضاح بايجاز لاسهبت فى هذا الباب وبين هذا الموضع المعروف بالخزبة الذى فيه معدن هذا النوع من الجوهر وهو الزمرذ وبين ما اتصل به من العمارة وقرب منه من الديار مسيرة سبعة أيام وهى قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر وقوص راكبة للنيل وبين النيل وقفط نحو من ميلين ولمدينتى قفط وقوص أخبار عجيبة فى بدء عمرانهما وما كان فى أيام الاقباط من أخبارهما الآن مدينة قفط فى هذا الوقت متداعية للخراب وقوص اعمر والناس فيها اكثر بوادى البجه المالكة لهذا المعدن معدن الزمرذ وتتصل ديارها بالعلاقى وهى معدن الذهب على حسب ما قدمنا فى هذا الباب وبين العلاقى والنيل خمس عشرة مرحلة وماء أهل العلاقى ما نهل

من السماء ولهم معين يسيل فى وسط العلاقى وأقرب العمارة اليه مدينة اسوان

الثلج وفى ذلك يقول ابن جبير صاحب الرحلة

يا دمشق الغرب هاتيـــك لقد زدت عليها
تحتك الانهار تجرى * وهى تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى ان غرناطة فى مكان مشرف وغوطتها تحتها تجرى فيها الانهار ودمشق فى وهدة تنصب اليها الانهار وقد قال الله تعالى فى وصف الجنة تجرى من تحتها الانهار انتهى* وقال الصفدى فى تذكرته أنشدنى المولى الفاضل البارع شمس الدين محمد بن يوسف بن عبد الله الخياط بقلعة الجبل من الديار المصرية حرسها الله تعالى لنفسه فى شعبان المكرم سنة ٧٣٣

قصدت مصر من ربا جلق * بهمة تجرى بتجريبى
فلم أر الطرة حتى جرت * دموع عينى بالمزيريب

وأنشد لنفسه أيضا

خلفت بالشام حبيبى وقد * يممت مصرا لعنا طارق
والارض قد طالت فلا تبعدى * بالله يا مصر على العاشق

وأنشد لنفسه أيضا

يا أهل مصر أنتم للعلا * كواكب الاحسان والفضل
لو لم تكونوا الى سعود الما * وافيتكم أضرب فى الرمل   انتهى

وذكرته برمته لحسن مغزاه وقال الشيخ مجد الدين محمد بن أحمد المعروف بابن الطهر الحنفى الازبكى

لعل سنى برق الحمى يتألق * على النأى أو طيفا لاسماء يطرق
فلا نارها تبدو لمرتقب ولا * وعود الامانى الكواذب تصدق
لعل الرياح الهوج تدنى لنازح * من الشام عرفا كاللطيمة تعبق
ديار قضينا العيش فيها منعما * وأيامنا تحنو علينا وتشفق
سحبنا بها برد الشباب وشربنا * لدينا كما شئنا لذيذ مروق
مواطن فيها السهم سهمى وطله * تخب مطايا اللهو فيه وتعنق
جلا جانبيه معلم متجعد * من الماء فى اطلاله يتدفق
اذا الشمس حلت متنه فهو مذهب * وان حجبتها دوحه فهو أزرق
وان فرج الاوراق جادت بنورها * فرقم اجادته الا كف منمق
يطل عليه قاسيون كانه * غمام معلى أو نعام معلق
تسافر عنه الشمس قبل غروبها * وترجف اجلالا له حين تشرق
وتصفر من قبل الاصيل كانها * محب من البين المشتت مشفق
وفى النيرب الميمون للب سالب * من المنظر الزاهى وللطرف مومق
بدائع من صنع القديم رصائع * تأنق فيها المحدث المتأنق
رياض كوشى للبرود يشقها * جداولها فالنور بالماء يشرق

ومنها يستمد العلاقى والنوبة متصلة بحاراتهما وقوافلهما بمدينة اسوان وأهل اسوان مختلطون بالنوبة (قال المسعودى) واما بلاد الواحات وهى بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الاحابش من النوبة وغيرهم فقد ذكرنا جملا من أخبارها وكيفية العمران بها والخواص فى أرضها فيما سلف من كتبنا ولها أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم وصاحب الواحات فى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة عبد الملك ابن مروان وهو رجل من لواتة الا انه مروانى المذهب ويركب فى ألوف من الناس خيلا ورجلا ونجبا وبينه وبين الاحابش نحو من ستة أيام وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة وفى أرضه خواص وعجائب وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا مفتقر اليه ويحمل من أرضه التمر والزبيب والعناب وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الاخشيد محمد بن طغج وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة وسألته عن كثير من أخبار بلدهم وما احتجت أن أعلمه من

فمن نرجس يخشى فراق غريقه * ترى الدمع في أجفانه يترقرق
ومن كل ريحان مقيم وزائر * يصافح رياه الرياض فتعبق
كأن قدود السرو فيه مواشيا * قدود عذارى ميلها مترفق
اذا ما تدلت للشقائق صدها * عيون من النور المفتح ترمق
وقصر يكل الطرف عنه كأنه * الى النسر نسر في السماء معلق
وكم جدول جار يطارد جدولا * وكم جوسق عال يوازيه جوسق
وكم بركة فيها تضاحك بركة * وكم قسطل للماء فيه تدفق
وكم منزل يعشي العيون كأنما * تألق فيها بارق يتألق
وفي الربوة الفيحاء للقلب جاذب * وللهم مسلاة وللعين مرفق
عروس جلاها الدهر فوق منصة * من الدهر والابصار ترمي وترمق
فهام بها الوادي ففاضت عيونه * فكل قرار منه بالدمع يشرق
تكفل من دون الجداول شربها * يزيد يصفيه لها وبروق

وقال أبو تمام في دمشق

لولا حدائقها وأني لا أرى * عرشا هناك ظننتها بلقيسا
وأرى الزمان غدا عليك بوجهه * جذلان بساما وكان عبوسا
قد نورت تلك البطون وقدست * تلك الظهور وقدست تقديسا

وقال البحتري

أما دمشق فقد أبدت محاسنها * وقد وفى لك مطريها بما وعدا
اذا أردت ملأت العين من بلد * مستحسن وزمان يشبه البلدا
تمشي السحاب على أجبالها فرقا * ويصبح النور في صحرائها بددا
فلست تبصر الا واكفا خضلا * أو يانعا خضرا أو طائرا غردا
كأنما القيظ ولى بعد جيئته * أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وفي دمشق يقول بعضهم

برزت دمشق لزائري أوطانها * من كل ناحية بوجه أزهر
لو أن انسانا تعمد أن يرى * مغنى خلا من نزهة لم يقدر

وقال القيراطي في قصيدته التي أولها * للصب بعدك حالة لا تعجب

لله ليل كالنهار قطعته * بالوصل لا أخشى به ما يرهب
وركبت منه الى التصابي أدهما * من قبل أن يبدو لصبح أشهب
أيام لا ماء الخدود يشوبه * كدر العذار ولا عذار أشيب
كم في مجال اللهو لي من جولة * أضحت ترقص بالشباب وتطرب
وأقمت للندماء سوق خلاعة * تجبي المجون الى فيه وتجلب
وذكرت في مغنى دمشق معشرا * أم الزمان بمثلهم لا تنجب
لا يسال القصاد عن ناديهم * لكن يدل لهم الثناء الطيب

خواص أرضهم وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الاوقات ممن لم أصل الى بلادهم وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج وما يحمل من بلادهم وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم وقد ذكر صاحب المنطق ان ببعض المواضع عيونا حامضة يستعمل ماؤها كاستعمال الخل وذكر المواضع التي تنبع منها العيون المرة وان قوة مائها في المرارة لا يخالط شيأ الا مرره وان العلة في اختلاف هذه الطعوم في المياه ان الارضين المختلفة مثل مواضع الشب والمواضع النارية والرمادية وذكر الاطعمة التي ببلاد صقلية المقدم ذكرها اذا خالطت الماء افادته طعوما مختلفة على قدر اختلافها وأعداد طعومها وأعداد الطعوم ثمانية فأولها العذب والملح والدسم والحلو والحامض والمر والقابض والحريف وقد تنازع الناس فيما ذكرنا فمنهم من رأى ان أعدادها سبعة ومنهم من ذهب الى انها ستة وأكثر من قال في أعدادها هو ما ذكرنا آنفا ثمانية وقد قال من سلف في قوى المياه أقاويل مختلفة فمن ذلك ان العذب مغذ وان كان سخنا فان استعمل من داخل او من خارج فانه ينقي الجسد

قوم بحسن صفاتهم وفعالهم * قد جاء يعتذر الزمان المذنب
يامن لحران الفؤاد وطرفه * بدمشق أدمعه غدت تتحلب
اشتاق فى وادى دمشق معهدا * كل الجمال الى حماه ينسب
مافيه الا روضة أو جوسق * أو جدول أو بلبل أو ربرب
وكأن ذاك النهر فيه معصم * بيد النسيم منقش ومكتب
واذا تكسر ماؤه أبصرته * فى الحال بين رياضه يتشعب
وشدت على العيدان ورق أطربت * بغنائها من غاب عنه المطرب
فالورق تنشد والنسيم مشبب * والنهر يسقى والحدائق تشرب
وضياعها ضاع النسيم بها فكم * أضحى له من بين روض مطلب
وحلت بقلبى من عساكر جنة * فيها لارباب الخلاعة ملعب
ولكم رقصت على السماع بجنكها * وغدا بربوتها اللسان يشبب
فمتى أزور معالما أبوابها * بسماحها كتب السماح تبوب

وقال الصفى الحلى عند نزوله بدمشق مسمطا القصيدة السموأل بالحماسة

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه * وطول الفلا رحب لديه وعرضه
ولم يبل سربال الدجى فيه ركضه * اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

اذا المرء لم يحجب عن العين نومها * ويغل من النفس النفيسة سومها
أضيع ولم تأمن معاليه لومها * وان هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس الى حسن الثناء سبيل

رفعنا على هام السماك محلنا * فلا ملك الا تغشاه ظلنا
لقد هاب جيش الاكثرين أقلنا * ولا قل من كانت بقاياه مثلنا
شباب تسامى للعلا وكهول

يوازى الجبال الراسيات وقارنا * وتبنى على هام المجرة دارنا
ويأمن من صرف الزمان جوارنا * وماضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجار الاكثرين ذليل

ولما حللنا الشام تمت أموره * لنا وحبانا ملكه ووزيره
وبالنيرب الاعلى الذى عز طوره * لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل

يريك الثريا من خلال شعابه * وتحدق شهب الافق حول هضابه
ويقصر خطو السحب دون ارتكابه * رسا أصله تحت الثرى وسمابه
الى النجم فرع لاينال طويل

وقصر على الشقراء قد فاض نهره * وفاق على فخر الكواكب فخره
وقد شاع مابين البرية شكره * هو الابلق الفرد الذى سار ذكره

وان استعمل اكثر مما يحتاج اليه فانه يرخى الاعضاء ويضعفها وان الماء البارد يشد الاعضاء ويقطع العطش وان الزيادة منه تخدر الجسد وتميته وان الماء الاجاج ينفع من سدد الكبد والطحال وان الماء الكبريتى ينفع الجراح والقروح العتيقة والحكة والروقى نافع للحكة والجرب وان ماء النضار نافع من اوجاع الصلب والعصب وماء الحديد نافع من الاسترخاء فى الاحشاء ومابطن من الاوعية وماء النحاس نافع من الرطوبة والبلة الكائنة فى الجسد والرأس وماء الجص يشنج المعدة ويقبضها ويكرشها وماء الزاج يحسن الدم وماء البحر نافع من البرص وقد ذكر جماعة أنه ينفع من الاخلاط الفاسدة اذا شرب منه اليسير مع دهن اللوز وله فى البصر ايعاب فظيع وأن اصح المياه للاجساد الابيض البراق الذى يخرج من جبال الصين من مشرق الشمس نحو مغربها القابل بسرعة مايرد اليه من الحر والبرد وللناس فيما ذكرنا كلام كثير فى أنواع المياه وأوصافها ومنافعها ومضارها ليس كتابنا هذا موضعا له وانما تغلغل بنا الكلام الى ذكرها وتشعب بنا القول الى وصفها وكل ماذكرنا من بلاد الاحابش ما كان من غربى اليمن وجدة والجار مما يلى بحر

يعز على من رامه و يطول

اذا ما غضبنا فى رضا المجد غضبة * لندرك ثارا أو لنبلغ رتبة

نزيد غداة الكر فى الموت رغبة * وانا القوم لا نرى الموت سبة

اذا ما رأته عامر وسلول

وكتب الشيخ محب الدين الحموى ترجمة للشيخ اسمعيل النابلسى شيخ الاسلام من مصر

لواء التهانى بالمسرة يخفق * وشمس المعالى فى سما الفضل تشرق

وسعد واقبال ومجد مخيم * وأيام عز بالوفا تتخلق

فيا أيها المولى الذى جل قدره * ويا أيها الحبر اللبيب المدقق

أرى الشام مذ فارقتها زال نورها * وثوب بهاها والنضارة يخلق

اذا غبت عنها غاب عنها جمالها * ونفس بدون الروح لا تتحقق

وان عدت فيها عاد فيها كمالها * وصار عليها من بهائك رونق

فيا ساكنى وادى دمشق مزاركم * بعيد وباب الوصل دونى مغلق

وليس على هذا النوى لى طاقة * فهل من قيود البين والبعد أطلق

وانى الى أخباركم متشوف * وانى الى لقيا كم متشوق

أوداذاهب النسيم لنحوكم * بأنى فى أذياله أتعلق

وأصبو لذكراكم اذا هبت الصبا * لعلى من أخباركم أتنشق

ولى أنة أودت بجسمى ولوعة * ونار جوى من حرها أتقلق

حنوا على المضنى الذى ثوب صبره * اذا مسه ذيل الهوى يتمزق

غريب باقصى مصر أضحت دياره * ولكن قلبى بالشآم معلق

وقد نسخ التبريح جسمى فهل الى * غبار ثرى اغتاب وصل يحقق

فياليت شعرى هل أفوز بروضة * وفيها عيون النرجس الغض تحدق

وأنظر واديها وأدنو لربوة * وماء معين حولنا يتدفق

ويحلو لى العيش الذى مر صفوه * وهل عائد ذاك النعيم المروق

وأنظر ذاك الجامع الفرد مرة * وفى صحنه تلك الحلاوة تشرق

وأصحابنا فيه نجوم زواهر * ونور محيا وجههم يتألق

فلا برحوا فى نعمة وسعادة * وعز ومجد شاوه ليس يلحق

وقال ابن عنين

ماذا على طيف الاحبة لو سرى * وعليهم لو ساعدونى بالكرى

جنحوا الى قول الوشاة وأعرضوا * والله يعلم أن ذلك مفترى

يا معرضا عنى بغير جناية * الا لما نقل العذول و زورا

هبنى أسأت كما تقول وتفترى * وأتيت فى حبك شيأ منكرا

ما بعد بعدك والصدود عقوبة * يا هاجرى ما آن لى أن تغفرا

لا تجمعن على عتبك والنوى * حسب المحب عقوبة أن يهجرا

وكذلك ما عليه من ساحل الشحر وبلاد الاحقاف من ساحل حضرموت الى عدن فبلاد لا خصب لاهله فيه ولا يحمل من ارضهم الا اللبان وقشار الكندر وهذا البحر اتصاله بالقلزم وهو عن يمين بحر الهندوان كان الماء متصلا وليس فى البحار وما ذكرنا من الخلجان مما احتوى عليه البحر الحبشى اصعب ولا اكثر جبالا ولا اسهك رائحة ولا اقحط ولا اقل خيرا فى بطنه وظهره من بحر القلزم وسائر البحر الحبشى تقطعه المراكب فى ابان سيرها فيه بالليل والنهار الا بحر القلزم فان المراكب تسير فيه بالنهار فاذا جن الليل ارست فى مواضع معروفة كالمراحل المشهورة والمنافذ المعروفة لكثرة جباله وظلمته ووحشته وليس هذا البحر مما اتصل به من بحر الهند والصين وغيره فى شئ وهو بالضد من ذلك لان بحر الهند والصين فى قعره اللؤلؤ وفى جباله الجواهر ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعى وفى افواه دوابه العاج وفى منابته الآبنوس والخيزران والقنا والبقم والساج والعود واشجار الكافور والجوز والقرنفل والصندل والافاويه والطيب والعنبر

عبء الصدود أخف من عبء النوى * لو كان لى فى الحب أن أتخيرا
فسقى دمشق وواديها والحمى * متواصل الارهام منفصم العرا
حتى نرى وجه الرياض بعارض * أحوى وفود الدوح أزهر نيرا
تلك المنازل لا ملاعب عالج * ورمال كاظمة ولا وادى القرى
أرض اذا مرت بها ريح الصبا * حملت على الاغصان مسكا أذفرا
فارقتها لا عن رضا وهجرتها * لا عن قلى ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق فى البلاد مشتت * ومن العجائب أن يكون مقترا

وابن عنين المذكور كان هجاء وهو صاحب مقراض الاعراض تجاوز الله تعالى عنه فمن ذلك قوله

أرح من نزح ماء البئر يوما * فقد أفضى الى تعب وعى
مر القاضى يوضع يديه فيه * وقد أضحى كراس زبرنعى

يعنى أقرع وسبب قوله البيتين أن المعظم أمر بنزح ماء بقاعة دمشق فاعياهم ذلك ومن هجوه قوله

شكا شعرى الى وقال تهجو * بمثلى عرض ذا الكلب اللئيم
فقلت له تسل فرب نجم * هوى فى اثر شيطان رجيم

وقال فيمن خرج حاجا فسقط عن الهجين فتخلف

اذا ما ذم فعل النوق يوما * فانى شاكر فعل النياق
أراد الله بالحجاج خيرا * فثبط عنهم أهل النفاق

وقال

وراحل سرت فى ركب أودعه * تبارك الله ما أحلى تلاحينا
جئنا الى بابه لاجين نساله * فليتنا عاقنا موت ولا جينا
راجين نسال ميتا لا حراك به * مثل النصارى الى الاصنام لاجينا

وقال

وصلت منك رقعة أسأمتنى * صيرت صبرى الجميل قليلا
كنهار المصيف حرا وكربا * وكليل الشتاء بردا وطولا

وأول مقراض الاعراض قوله

أضالع تنطوى على كرب * ومقلة مستهلة الغرب
شوقا الى ساكنى دمشق فلا * عدت رباها مواطر السحب
مواطن ما دعا توطنها * الاولى نداءها لبى

ثم ذكر من الهجو ما تصم عنه الآذان وهو القائل فى دمشق

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * وظلك يا مقرى على ظليل
وهل أرينى بعد ما شطت النوى * ولى فى ذرا روض هناك مقيل

ومنها

صورها واختلافها فى الصغر والكبر ومنها ما يكون كالنعامة كبرا وحشرات أرض الهند الزباد كالسنانير كثيرة بارض الاسلام متخذة كالسنور وأكثر ما يخرج من ضروعها الطيب المعروف بلبن الزباد وهو نوع من الطيب عجيب ثم ما يظهر فى وقت من السنة من جباه الفيلة بارض الهند ورؤسها من العرق الذى هو كالمسك والهند تراعى ظهور هذا الطيب فى الفصل من الزمان الذى يكون فيه فتاخذه وتجعله على بعض أدهانها الطيبة فيكون أعلى طيبها المستطرف عندها والذى تستعمله ملوكها وخواصها لضروب من المنافع منها طيب الرائحة والتجمر الذى قد فاق على سائر الطيب وما يؤثر فى الانسان عند شمه اياه واستعماله من ظهور الشبق من الرجال والنساء والطلب للباه والاغتلام والطرب والنشاط والاريحية وكثير من فتاك الهند وشجعانهم يستعمل هذا الدهن عند اللقاء والحرب لان ذلك عندهم مما يشجع القلب ويقوى النفس ويبعثها على الاقدام وأكثر ما يظهر هذا النوع من العرق فى جباه الفيلة فى ذلك الفصل من السنة فى حال اغتلامها

دمشق بنا شوق اليك مبرح * وان لج واش او الح عذول
بلاد بها الحصباء در وتربها * عبير وانفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل
وقد تقدم التمثل بهذه الابيات الثلاثة فى خطبة هذا الكتاب ومن هذه القصيدة
وكيف اخاف الفقر او احرم الغنى * ورأى ظهير الدين فى جميل
من القوم أما احنف فسفه * لديهم واما حاتم فبخيل
فتى المجد أما جاره فممنع * عزيز واما ضده فذليل
واما عطايا كفه فباحة * حلال واما ظله فظليل
وظهير الدين الممدوح هو طغتكين بن ايوب اخو السلطان صلاح الدين وكان ملك اليمن واحسن الى ابن عنين احسانا كثيرا وافرا وخرج ابن عنين من اليمن بمال جم وطغتكين بضم الطاء المهملة وبعدها غين معجمة ثم تاء مثناة من فوقها مكسورة ثم كاف مكسورة أيضا ثم ياء تحتية ثم نون وكان يلقب بالملك العزيز ولذلك قال ابن عنين لما رجع من عنده الى مصر ايام العزيز عثمان بن صلاح الدين فالزم ارباب الديوان ابن عنين بدفع الزكاة من المتاجر التى وصلت صحبته
ما كل من يتسمى بالعزيز لها * أهل وما كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون فى فعالهما * هذاك يعطى وهذا ياخذ الصدقه
ومن هجو ابن عنين قوله فى فقيهين يلقب أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس
البغل والجاموس فى حاليهما * قد أصبحا مثلا لكل مناظر
قعدا عشية يومنا فتناظرا * هذا بقرنيه وذا بالحافر
ما أحكما غير الصياح كانما * لقيا جدال المرتضى بن عساكر
حلفان ما لهما شبيه ثالث * الا أخادع مدلويه الشاعر
لغط طويل تحت معنى قاصر * كالعقل فى عبد اللطيف الناظر
(رجع الى دمشق) وقال العز الموصلى
اليك حياض حمامات مصر * ولا تكثرى عندى بمين
حياض الشام أحلى منك ماء * وأطهر وهى دون القلتين
وهذان البيتان جواب منه عن قول ابن نباتة
أحواض حمام الشا * م الا اسمعى لى كلمتين
لا تذكرى أحواض مصـ * ـر فانت دون القلتين
وأما قول النواجى سامحه الله تعالى
مصر قالت دمشق لا * تفتخر قط باسمها
لو رأت قوس روضتى * منه راحت بسهمها
فهو من باب تفضيل الوطن من حبه ومنه قول الوداعى
رو بمصر وبسكانها * شوقى وجدد عهدى الخالى

ماو صفنا سالك الاودية والجبال والغياض وند عن بلده وغاب عن وطنه فاذا قدم على النوشان الذى هو الكركدن هرب حينئذ من الفيل ولا يقيم فى الموضع الذى هو فيه لان الفيل عند ذلك بحال السكران لا يعقل ولا يميز بين الكركدن الذى كان يخافه قبل ذلك وغيره فاذا خرج عنه ذلك الفصل من السنة واسترجع عاد الى بلاده على مسيرة شهر وأكثر من ذلك وهو فى بقية من سكره فيبقى نحو ذلك المقدار الذى كان هيجانه فيه عليلا ولا يكون ذلك الا فى الفحول من الفيلة وذوى الجراءة منها والاقدام وماذكرنا من طيب المسك وغير ذلك مما عنه أمسكنا من عجائبه وخيراته وفيما ذكرنا تنبيه على غيره وللهند خطب طويل فى ظهور هذا النوع من الطيب فى هذه الجباه من الفيلة والفرق بينه وبين سائر أنواع الدواب ما يظهر من الفيل من الجزع عند وروده المياه من الغدران والانهار للشرب اذا كان الماء صافيا فانه يثيره ويكدره ويمتنع من

وارولنا يا سعد عن نيلها * حديث صفوان بن عسال
فهو مرادى لا يزيد ولا * ثور وان رق ورقى لى

ومن ذلك النمط قول الشهاب الحجازي

قالوا دمشق قد زهت لزهرها * فامض وشاهد جوزها ولوزها
فقلت لا أبدل بلدتي بها * ولست ارضى زهرها ولوزها

وقول الخفاجي قاضي مصر وان لم يكن في دمشق لكن في السياق في النظم

قد فتن العاشقين حين بدا * بطلعة كالهلال أبرزها
طرله شارب على شفة * كالورد في الآس حين طرزها

وقول الآخر

قد قال وادي جلق للنيل اذ * كسروه أعين جبهتى لك ترفع
فاجاب بحر النيل لما أن طغى * عندي مقابل كل عين اصبع

وقد تذكرت هنا قول بعضهم

ماذا يفيد المعنى * من الاذى المتتابع
بمصر ذات الايادى * ونيلها ذى الاصابع

وقد شاع الخلاف قديما وحديثا في المفاضلة بين مصر والشام وقد قال بعضهم

في حلب وشامنا * ومصر طال اللغط
فقلت قول منصف * خير الامور الوسط

وأما قول بعضهم

تجنب دمشق ولا تأتها * وان راقك الجامع الجامع
فسوق الفسوق بها قائم * وفجر الفجور بها طالع

فلا يلتفت اليه ولا يعول عليه اذ هو مجرد دعوى خالية عن الدليل وهي من نزغات بعض المعائبين الذين يعمدون الى تقبيح الحسن الجميل وما زالت الاشراف تهجى وتمدح ولا يقابل ألف مثن عدل بفاسق يقدح

وفي تعب من يحسد الشمس نورها * و يأمل أن يأتي لها بضريب

وأخف من هذا قول بعض الاندلسيين وهو الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم

دمشق جنة الدنيا حقيقا * ولكن ليس تصلح للغريب
بها قوم لهم عدد ومجد * وصحبتهم تؤول الى الحروب
ترى أنهارهم ذات ابتسام * وأوجههم تولع بالقطوب
أقمت بدارهم ستين يوما * فلم أظفر بها بفتى أديب

والجواب واحد ولا يضر الحق الثابت انكار الجاحد وأخف من الجميع قول العارف بالله تعالى سيدي عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنه

جلق جنة من تاه وباهى * وربا ها أربى لولا وباها
قال غال بردا كوثرها * قلت غال بردا ها برداها

فكدرته فتشرب حينئذ وتوافق الخيل الفيلة في هذا المعنى دون سائر الحيوان وان ذلك لمشاهدة صورها في الماء لصقالته وصفائه ولعلمها بزوال ذلك عند كدره وان الابل الاغلب منها يفعل ذلك ولمعان غير ذلك مما وصفنا من أن ما عظم من الحيوان اذا رأى صورته منعكسة على صفاء الماء أعجبته لعظمها وحسنها وما بان له من حسن الهيئة عما دونه من أنواع الحيوان وليس شيء يفعل ذلك من الحيوان غير ما ذكرنا من الخيل والابل وان الفيل مع عظم جسمه ولطافة نفسه وخفة روحه وحسن تمييزه والمعرفة بوليه وعدوه من الناطقين وغيرهم وقبوله الرياضة تمتنع انثاه كما تمتنع النوق اذا التقحت وليس شيء من الدواب يمتنع من السفاد من الاناث عند حملها الا الفيلة والابل وهذا باب ان نحن تقصيناه وذكرنا ما فيه طال به الكتاب وخرج عن حد الاختصار والايجاز وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا اخبار الزمان وغيره من كتبنا فلنذكر الآن أنواعا من ولد يافث ابن نوح اذ كنا قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب كثيرا من ذكر الامم مع اختلاف ألوانهم وتباينهم في ديارهم واختلافهم في أحوالهم ان شاء الله تعالى

وطنى مصر وفيها وطرى * ولنفسى مشتهاها مشتهاها
ولعينى غيرها ان سكنت * ياخليلى سلاها ما سلاها

وأخف منه قول ابن عبد الظاهر

لاتلوموا دمشق ان جئتموها * فهى قد أوضحت لكم مالديها
انها فى الوجوه تضحك بالزهـ * ـر لمن جاء فى الربيع اليها
وتراها بالثلج تبصق فى لحـ * ـية من مر فى الشتاء عليها

وقول ابن نباتة وهو بالشام يتشوق الى المقياس والنيل

أرق له بالشام نيل مدامع * يجريه ذكر منازل المقياس
سقيا لمصر منازلا معمورة * بنجوم أفق أوظباء كناس
وطنى سهرت له وشابت لمتى * ونعم على عينى هواه وراسى
من لى به والحال ليس بآنس * كدر وعطف الدهر ليس بقاسى
والطرف يستجلى غزالا آنسا * بالنيل لم يعتد على باناس

*(رجع الى مدح دمشق) وقال الناصر داود بن المعظم عيسى

اذا عاينت عيناى أعلام جلق * وبان من القصر المشيد قبابه
تيقنت أن البين قد بان والنوى * نأى شخصه والعيش عاد شبابه

وقال أيضا رحمه الله تعالى

ياراكبا من أعالى الشام يجذبه * الى العراقين ادلاج واسحار
حدثنى عن ربوع طالما قضيت * للنفس فيها لبانات وأوطار
لدى رياض سقاها المزن ديمته * وزانها زهر غض ونوّار
شح الندى أن يسقيها بحاجته * فجادها مفعم الشؤبوب مدارر
بكت عليها الغوادى وهى ضاحكة * وراحت الريح فيها وهى معطار
ياحسنها حين زانتها جواسقها * وأينعت فى أعالى الدوح أثمار
فهى السماء اخضرارا فى جوانبها * كواكب زهر تبدو وأقمار
حدثنى وأنا الظامى الى نبا * لاغض فوك فنى الرى تمتار
فهو الزلال الذى طابت مشاربه * وفارقته غثاآت وأكدار
كرر على نازح شط المزار به * حديثك العذب لاشطت بك الدار
وعلل النفس عنهم بالحديث بهم * ان الحديث عن الاحباب أسمار

وهذا الملك الناصر له ترجمة كبيرة وهو ممن أدركته الحرفة الادبية ومنع حقه بالحمية والعصبية وأنكرت حقوقه وأظهر عقوقه حتى قضى نحبه ولقى ربه *(رجع) وقال سيف الدين المشد رحمه الله تعالى

بشرى لاهل الهوى عاشوا به سعدا * وان يموتوا فهم من جملة الشهدا
شعارهم رقة الشكوى ومذهبهم * أن الضلالة فيهم فى الغرام هدى
عيونهم فى ظلام الليل ساهرة * عبرى وأنفاسهم تحت الدجى صعدا

تجرعوا

*(ذكر الصقالبة ومساكنها وأخبار ملوكها وأجناسها) *الصقالبة من ولد ماربن يافث بن نوح واليه يرجع سائر أجناس الصقالبة وبه يلحقون فى أنسابهم هذا قول كثير من أهل الدراية ممن عنى بهذا الشان ومساكنهم بالجراب الى أن تتصل بالمغرب وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب ولهم ملوك ومنهم من ينقاد الى دين النصرانية الى رأى اليعقوبية ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد الى شريعة وهم جاهلية لا يعرفون شيأ من الشرائع وهؤلاء أجناس فنهم جنس كان الملك فيهم قديما فى صدر الزمان وكان ملكهم يدعى ماجل وهذا الجنس يدعى ولينانا وكان يتلوهذا الجنس فى القديم سائر أجناس الصقالبة لكون الملك فيهم وانقياد سائر ملوكهم اليه ثم يتلوهذا الجنس من أجناس الصقالبة اصطبرانه وملكهم فى هذا الوقت يدعى بصقلابج وجنس يقال له دلاونه وملكهم يدعى وايح صلاف وجنس يقال لهم ياحيق وملكهم يدعى عرابه وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة وأفرس وجنس يدعى ماين وملكهم يدعى ريمير ثم جنس عند الصقالبة مهيب لعالى يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها ونفرتهم من ملة ينقادون اليها ثم جنس

تجرعوا كاس خمر الحب مترعة * ظلوا سكارى وظنوا غيهم رشدا
وعاسل القد معسول مقبله * كالغصن لما انثنى والبدر حين بدا
رقيم عارضه كهف لعاشقه * يأوى اليه فكم فى حبه شهدا
نادمته وثغور البرق باسمة * والغيث ينزل منحلا ومنعقدا
كأن جلق حيا الله ساكنها * أهدت الى الغور من أزهارها مددا
فاسترسل الجو منها لا يزيد على * ثورى ويعقد محلول الندى بردا

وقال أيضا

فؤادى الى بانات جلق مائل * ودمعى على أنهارها يتحدر
يرنحنى لوزان كلاب مزهرا * وتهتز لى أغصانه وهو مثمر
وانى الى زهر السفرجل شيق * اذا ما بدا مثل الدراهم ينثر
غياض يفيض الماء فى عرصاتها * فتزهو جمالا عند ذاك وتزهر
ترى بردى فيها يجول كأنه * وحصباءه سيف صقيل مجوهر
وبى أحور رلاح العذار بخده * يسامح قلبى فى هواه ويعذر
يحاورنى فيه على الصبر صاحبى * وكيف أطيق الصبر والطرف أحور
اذا اشتقت وادى النيربين لمحته * فأنظر مغناها به وهو أنضر
حوى الشرف الاعلى من الحسن خده * على أن ميدان العوارض أخضر

وما أحسن قوله رحمه الله تعالى

وادبه حى الحبيب نزول * حيا معاهده الحيا والنيل
واد يفوح المسك من جنباته * ويصح فيه للنسيم عليل
يشتاقه ويود لثم ترابه * شوقا ولكن ما اليه سبيل
متقلقل الاحشاء مسلوب الكرى * طلق الدموع فؤاده متبول
يصبو الى الاثلات من وادى الغضى * ويحن ان خطرت هناك شمول
قالوا تبدل قلت يا أهل الهوى * والناس فيهم عاذر وجهول
هل بعد قطع الاربعين مسافة * للعمر فيها يحسن التبديل
ولقد هفا لى فى دمشق مهفهف * يسبى العقول رضابه المعسول
يهتز ان مر النسيم بقده * ويميل بى نحو الصبا فأميل
أبدى لنا بردا تبسم ثغرها * واذا انثنى فقوامه الجدول
لزم التسلسل مدمعى وعذاره * فانظر الى المهجات كيف تسيل
وسقمت من سقم الجفون لانها * هى علة وفؤادى المعلول
لاتعجبوا ان راعنى بذوائب * فالليل هول والمحب ذليل
ماصح لى أن الذوابة حية * حتى سعت فى الارض وهى تجول

وقال ناظر الجيش عون الدين بن العجمى

ياسائقا يقطع البيداء معتسفا * بضامر لم يكن فى سيره وانى

يقال له مرارة ثم جنس يقال له جرواش ثم جنس يقال له صاصيف ثم جنس يقال له خانين وما سميناه من أسماء بعض ملوك هذه الاجناس فسمة معروفة لملكهم والجنس الذى سميناه المعروف بسربيق يحرقون أنفسهم بالنار اذا مات فيهم الملك الرئيس ويحرقون دوابهم ولهم أفعال مثل أفعال الهند وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طرفا من ذكرهم عند ذكرنا لجبل الفتح والخزر وأن فى بلاد الخزر مع الخزر خلقا من الصقالبة والروس وأنهم يحرقون أنفسهم بالنيران وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم متصلون بالشرق ويبعدون من الغرب فالاول من ملوك الصقالبة ملك الدير وله مدن واسعة وعمائر كثيرة وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات ثم يلى هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الافرنج وله مدن وعمائر كثيرة وجيوش واسعة وعدد كثير ويحارب الروم والافرنج والنوكبرد وغير هؤلاء من الامم والحرب بينهم سجال ثم يلى هذا الملك من بلاد الصقالبة ملك الترك وهذا الجنس أحسن الصقالبة صورة وأكثرهم عددا وأشدهم بأسا والصقالبة أجناس كثيرة وأنواع واسعة

ان جزت بالشام شم تلك البروق ولا * تعدل بلغت المنى عن دير مران
واقصد أعالى قلاليه فان بها * ماتشتهى النفس من حور وولدان
من كل بيضاء هيفاء القوام اذا * ماست فوا خجل المران والبان
وكل أسمر قد دان الجمال له * وكمل الحسن فيه فرط احسان
و رب صدغ بدا فى خدمرسله * فى فترة فتنت من سحر أجفان
فليت ريقته وردى ووجنته * وردى ومن صدغه آسى وريحانى
وعج على دير متى ثم حى به الربان بطرس فالربان ربانى
فهمت منه اشارات فهمت بها * وصنت منشورها فى طى كتمان
وادخل بدير حنين وانتهز فرص اللذات ما بين قسيس ومطران
واستجل راحا بها تحيا النفوس اذا * دارت براح شماميس ورهبان
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت * بشهبها من همومى كل شيطان
كم رحت فى الليل أسقيها وأشربها * حتى انقضى ونديمى غير ندمان
سألت توماس عمن كان عاصرها * أجاب رمزا ولم يسمح بتبيان
وقال أخبرنى شمعون ينقله * عن ابن مريم عن موسى بن عمران
بانها سفرت بالطور مشرقة * أنوارها فكنوا عنها بنيران
وهى المدام التى كانت معتقة * من عهد هرمس من قبل ابن كنعان
وهى التى عبدتها فارس فكنى * عنها بشمس الضحى فى قومه مانى
سكرت منها فلا صحو وجدت بها * على الندامى وليس الشح من شانى
وسوف أمنحها أهلا وأنشده * ماقيل فيها بترجيع وألحان
حتى تميل لها أعطافه طربا * ويثنى الكون من أوصاف نشوان

وهذه وان لم تكن فى دمشق على الخصوص فلا تخرج عما نحن بصدده والاعمال بالنيات وديباجة هذه القصيدة على نسج طائفة من الصوفية وممن حاك هذه البرود الشيخ الاكبر رحمه الله تعالى وقيل انه الشيخ شعبان النحوى *(رجع) وقال بعضهم

شوقى يزيد وقلب الصب ما بردا * وبان يأسى من المعشوق حين غدا
ومدمعى قنوات والعذول حكى * ثورى يلوم الفتى فى عشقه حسدا
على مغنية بالجنك جاوبها * شبابة كم بها من عاشق سهدا
فالبدر جبهتها والردف ربوتها * وخلها مات فى خلخالها كمدا

ولنذكر نبذة مما خوطبت به من علماء الشام وأدبائه حفظ الله تعالى كمالهم وبلغ آمالهم *(فمن ذلك قول شيخ الاسلام مفتى الانام سيدى الشيخ عبد الرحمن العمادى الحنفى حفظه الله تعالى وكتبه لى بخطه)

شمس هدى أطلعها المغرب * وطار عنقاء بها مغرب
فأشرقت فى الشام أنوارها * وليتها فى الدهر لاتغرب
أعنى الامام العالم المقرى * أجمد من يكتب أو يخطب

لا ياتى كتابنا هذا على وصف أجناسهم وتفريع أنواعهم وقد قدمنا الاخبار عن الملك الذى كان ينقاد اليه ملوكهم فى قديم الزمان وهو ماجل ولينانا وهذا الجنس أصل من أصول الصقالبة معظم فى أجناسهم وله قدم فيهم ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم فزال نظامهم وتحزبت أجناسهم وملك كل جنس منهم ملكا على حسب ماذكرنا من ملوكهم لامور يطول ذكرها وقد أتينا على جمل من شرحها وكثير من مبسوطها فى كتابنا أخبار الزمان من الأمم الماضية والاجيال الخالية والممالك الدائرة

(ذكر الافرنجة والجلالقة وملوكها)

الافرنجة والصقالبة والنوكبرد والاسبان وياجوج وماجوج والترك والخزر وبرجان واللان والجلالقة وغير من ذكرنا ممن حل الجرا وهو الشمال لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الامم من ولد يافث بن نوح فالافرنجة أشد هؤلاء الاجناس باسا وأمنعهم هيبة وأكثرهم عدة وأوسعهم ملكا وأكثرهم مدنا وأحسنهم نظاما وانقيادا لملوكهم وأكثرهم طاعة الان الجلالقة اشد من الافرنجة باسا واعظم منهم نكاية والرجل من الجلالقة يقاوم

.. شهاب

شهاب علم ثاقب فضله * ينظم عقدا وهو لايثقب
فرع علوم بالهدى مثمر * وروض فضل بالندى معشب
قدارتدى ثوب علا وامتطى * غارب مجد فزها المركب
درس غريب كل يوم له * يملى ولكن حفظه أغرب
محاضرات مسكر لفظها * بكاس سمع راحها تشرب
رياض آداب سقاها الحيا * ففاح مسكا نشرها الاطيب
فضائل عمت وطمت فقد * قصر فيها كل من يطنب
قلوبنا قد جذبت نحوه * والحب من عادته يجذب
ان بعدت عن غربه شرقنا * فالفضل فينا نسب أقرب
لم طلبت تشريفه شامنا * بشرى لها فليهنها المطلب
قدسبقت لى معه صحبة * فى حرم يؤمن من يرهب
اخوة فى الله من زمزم * رضاعها طاب لها المشرب
أنهلنى ثم ودادا فلى * بالشام منه علل أعذب
أهديت ذا النظم امتثالا له * وقدهجرت الشعر مذ أحقب
نشط قلبى لطفه فانثنى * والقلب فى أهل الهوى قلب
ضاء دجى العلم به للورى * مالاح فى جنح الدجى كوكب

تحية الفقير الداعى عبد الرحمن العمادى انتهى وأجبته بما نصه

ماتبر راح كاسها مذهب * مالنهى عن حسنها مذهب
تستدفع الاكدار من صفوها * وتنهل الافراح أوتنهب
تسعى بها هيفاء من ثغرها * أوشعرها النور أو الغيهب
فتانة الاعطاف نفاثة * سحرا بألباب الورى يلعب
فى روضة قد كللت بالندى * والزهر راس الغصن اذ يعصب
برودها بالنور قد نمنمت * كالوشى من صنعاء بل أعجب
والماء يجرى تحت جناتها * والنار من نارنجها تلهب
والظل ضاف والنسيم انبرى * والجو ذاكى العرف مستعذب
والطير للعشاق بالعود قد * غنت فهاجت شوق من يطرب
أبهى ولا أبهج فى منظر * من نظم من تقديمه الاصوب
مفتى دمشق الشام صدر الورى * من فى العلا تم به المطلب
علامة الدهر ولا مرية * وملجأ الفضل ولا مهرب
لله ماامتاز به من حلى * بغير من الله لاتكسب
أبدى به الرحمن فى عبده * مظاهر المنح التى تحسب
جود بلا من وعلم بلا * دعوى به التحقيق يستجلب
وبيت مجد مسند ركنه * الى عماد الدين اذ ينسب

عدة من الافرنجة وكلة الافرنجة متفقة على ملك واحد لاتنازع بينهم فى ذلك ولاتحزب واسم دار مملكتهم فى وقتنا هذا نومره وهى مدينة عظيمة ولهم من المدن نحو خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور وكان أوائل بلاد الافرنجة قبل ظهور الاسلام فى البحر جزيرة رودس وهى الجزيرة التى ذكرنا أنها مقابلة للاسكندرية وأن فيها دار صناعة المراكب فى وقتنا هذا للروم ثم جزيرة اقريطش وقد كانت للافرنجة أيضا ففتحها المسلمون ونزلوها الى هذه الغاية وكانت بلاد أفريقية وجزيرة صقلية للافرنجة أيضا وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان وهى الاطمة التى يخرج منها أجسام من النار كأجساد الناس بلا رؤس فتعلو فى الهواء بالليل ثم تسقط فى البحر فتطفو على الماء وهى الحجارة التى يحك بها الكتابة من الدفاتر وهى خفاف بيض على هيئة الشهد وأكوار الزنابير الصغار وهى الاطمة المعروفة باطمة صقلية وفيها هلك مرقونوس الحكيم الذى صنف كتاب ايساغوجى وهو المدخل الى علم المنطق وهذا الكتاب بهذا الرجل يعرف وكذلك أتينا على ذكر سائر آطام الارض كأطمة وادى برهوت

فبرقه الشامى من شامه * نال مراما والسوى خلب
وما عسى أبديه فى مدحه * أو وصف أبناء له أنجبوا
تسابقوا للمجد حتى حووا * سبقا لما فى مثله يرغب
أعيذهم بالله من شر ما * يخشى من الاغيار أو يرهب
وأسأل الله لهم عزة * بادية الاضواء لا تحجب

ولما حللت دمشق المحروسة وطلبت موضعا للسكنى يكون قريبا من الجامع الاموى الذى يعجز البليغ وصفه وان ملا طروسه أرسل الى أديب الشام فرد الموالى المدرسين ساحب أذيال الفخار المولى أحمد الشاهينى حفظه الله تعالى بمفتاح المدرسة الجقمقية وكتب لى معه ما نصه

كنف المقرى شيخى مقرى * واليه من الزمان مفرى
كنف مثل صدره فى اتساع * وعلوم كالدر فى ضمن بحر
أى بدر قد أطلع الغرب منه * ملأ الشرق نوره أى بدر
أحمد سيدى وشيخى وذخرى * وسميى وفوق ذاك وفخرى
لو بغير الاقدام يسعى مشوق * جئته زائرا على وجه شكرى

العبد الحقير المستعين المخلص أحمد بن شاهين انتهى فأجبته بقولى

أى نظم فى حسنه حار فكرى * وتحلى بدره صدر ذكرى
طائر الصيت لابن شاهين ينمى * من بروض الندى له خير وكر
أحمد الممتطين ذروة مجد * لعوان من المعالى وبكر
حل مفتاح فضله باب وصل * من مغانى تعريفه دون نكر
يا بديع الزمان دم فى ازدياد * بالعلا وازدياد تجنيس شكر

وكتب الى لما وقف على كتابى فتح المتعال فى مدح النعال بما نصه لكاتبه الحقير أحمد بن شاهين الشامى فى تقريظ تأليف سيدى ومولاى وقبلتى ومعتقدى شيخ الدنيا والدين وبركة الاسلام والمسلمين حفظ الله تعالى وجوده آمين

أأحمد فخرا يا ابن شاهين ساميا * بأحمد ذاك المقرى المسدد
بمن راح خداما لنعل محمد * وناهيك فى العليا بأرفع سودد
فان أنا أخدم نعله طالما * غدا خادما نعل النبى الممجد
بتأليفه فى وصف نعل تكرمت * كتابا حوى اجلال كل موحد
ويكفيك فخرا يا ابن شاهين أن ترى * خدوما لخدام لنعل محمد
فقلت له طوبى بخدمة أحمد * فقال كذا طوبى بخدمة أحمد
فلا زال يرقى للمعالى مكرما * وينتقل العيوق فى رغم فرقد

فأجبته بقولى

أأحمد وصف بالعوارف يرتدى * وأشرف مولى للمعارف يهتدى
فهومك اذ أنت الخليل توقدت * فأنى أجاريها بنحو المبرد
أتانى نظام منك حبر فكرتى * على أنه أعلى مرامى ومقصدى

من بلاد حضرموت وبلاد بلاد فارس وهذه النار ترى بالليل من نحو عشرين فرسخا وهى مشهورة بأرض الاسلام وتفسير أطمة هى عين النار التى تعرض من الارض ولم نتعرض فى هذا الكتاب لذكر الخاصة الكبريتية والزاجية ولا الحمامات التى تظهر من مائها النار كالخاصة التى ببلاد ماسبذان من أرض أذربيجان والنهروان والصيمرة وهذه الخاصة فى قرية من قرى أذربيجان يقال لها القومان وهى أطمة تظهر من وسط مائها النار وهى أطمة عجيبة تمنع وورود الماء عن اطفائها وتدفعه بشدة قوتها وسلطانها وهى احدى عجائب العالم اذ كنا قد أتينا على جميع ذلك فيما سلف من كتبنا وقد أتينا على منافع أنواع المياه بجوامع ذكرناه ولمع لوحنا بها فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الواحات من بلاد مصر وان كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما تقدم من كتبنا

(ذكر النوبرد وملوكها)

قد تقدم ذكرنا للنوبرد وأنهم من ولد يافث بن نوح وبلادهم متصلة بالمغرب ومحلهم بالجرا ولهم

جزائر كثيرة فيها أمم من الناس وهم ذوو باس شديد ومنعة ولهم مدن

فانت ابن شاهين الذى طار صيته * بجو العلا والضد ضل بفرقد
فبرك موصول وشانيك منكر * وقدرك مرفوع على رغم حسد
وعنك حديث الفضل أسند عاليا * بشام فهم يروون مسند أحمد
فوجهك عن بشر ويمناك عن عطا * وفكرك يروى فى الهدى عن مسدد
فلازلت ترقى أوج سعد ورفعة * ودمت بتوفيق وعز مخلد

ولما خاطبته بقولى

يصيد ابن شاهين بجو بلاغة * سوانح فى وكر البدائع تفرخ
وما كان ديك الجن مدرك نيلها * اذا صرصر البازى فلا ديك يصرخ
ولو جاد فكر البحترى بمثلها * لكان على الطائى بالانف يشمخ
ولو أن نظم ابن الحسين أتى بها * لفاز بسبق حكمه ليس ينسخ
فلا زال ملحوظا بعين عناية * وكتب التهانى عن علاه تؤرخ

أجابنى بما نصه

أأنفاس عيسى ما بروحى ينفخ * أم الطرس أضحى بالعبير يضمخ
وهذى قواف أم هى الشمس انثنى * أراها على الجوزاء بالانف تشمخ
بلى هى نص من ودادك محكم * تزول الرواسى وهى لم تك تنسخ
أتتنى بمدح مخجل فكأنها * لفرط حيائى قد أتتنى توبخ
وهل انا الا الخادم نعل سيدى * و بينى و بين المدح فى الحق برزخ
وما هى الا غرة حزت فخرها * وانى بهابادى المحاسن أشدخ
فلا در درى وانحرفت عن العلا * اذا كان ودى عن معاليك يفسخ
وحبك مهما طار شرقا ومغربا * بوكر ابن شاهين الوفى يفرخ
وانى وان ارخت مجد الماجد * فانى باسم المقرى أورخ
سميى ومولاى الذى راح مدحه * لرأس الاعادى بالمعاريض يرضخ
ودم يا نظير البدر ترقى باوجه * ولازلت فى طرفى وقلبى ترسخ

وكنت يوما أروم الصعود لموضع عال فوقعت وانفكت رجلى وألمت فكتب الى

لا ألمت رجلك ياسيدى * وصانها الله من الشين
ماهى الا قدم للعلا * لا احتاج ذاك النصل للقين
زانت دمشق الشام فى حلها * فلا رأت فيها سوى الزين
بانت عن الاهل لتشريفنا * لا جمعت أينا الى بين
عجبت من راسخة فى العلا * والعلم اذ زاغت من العين
انى أعاف المين بين الورى * ولست والله أخا مين
للمقرى المجتبى أحمد * دين الهوى والمدح كالدين
وأحمد الله على أننى * رأيته حاز الفريقين
فلا أراه الله فى عمره * بينا يؤديه الى أين

كثيرة يجمعهم ملك واحد وأسماء ملوكهم فى سائر الاعصار أركيس والمدينة العظمى من مدنهم ودار مملكتهم هى تبت ويخترقها نهر عظيم وهى جانبان وهذا النهر أحد أنهار العالم الموصوفة بالكبر والعجائب يقال له سانيط قد ذكره جماعة ممن عنى بهذا المعنى ممن تقدم وكان المسلمون ممن جاورهم من بلاد الاندلس والمغرب غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة تاوة طارينو (قال المسعودى) وجدت فى كتاب وقع الى الفسطاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلثمائة اهداه عرمارا الاسقف بمدينة زهرة من مدن الافرنجة فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولى عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الاندلس فى هذا الوقت فى عهده يا أمير المؤمنين ان أول ملوك افرنجة قلوزويه وكان مجوسيا فتنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت ثم ولى بعده ابنه لذريق ثم ولى بعده قركان بن دفشرت ثم ولى بعده ابنه تتين ثم ولى

بعده نازلة بن تنبين وكانت ولايته ستا وعشرين سنة وكان في أيام الحكم صاحب الاندلس وقد تواقع أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الافرنجة بسببهم وصار لذريق بن نازلة صاحب ملكهم فملك ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر وهو الذي أقبل الى طرطوشة فحاصرها ثم ولي بعده ابنه نازلة وهو الذي تهادى مع محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وكان محمد يخاطب بالامام وكانت ولايته تسعا وثلاثين سنة وستة اشهر ثم ولي بعده ابنه لذريق ستة اعوام ثم وثب عليه قائد الافرنجة المسمى برشة وملك افرنجة فاقام في ملكهم ثمان سنين وهو الذي صالح المجوس عن بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنجة اليه ثم ولي بعده نازلة بن بغربرة أربع سنين ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث احدى وثلاثين سنة وثلاثة اشهر ثم ولي بعده لذريق بن نازلة وهو ملك افرنجة الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة واستوت مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب ما نمى الينا من خبره (قال المسعودي)

تعويذ المحب العبد الحقير الداعي أحمد بن شاهين انتهى * وأهديت اليه حفظه الله تعالى سبحة وخاتما وكتبت اليه

يا نجل شاهين الذي * أحيا المعالي والمعالم
يا من به ريشت من الـمجد الخوافي والقوادم
يا من دمشق بطيب ما * يبديه عاطرة النواسم
فالنهر منها ذو صفا * والزهر مفتر المباسم
والغصن يثني عطفه * طربا لتغريد الحمائم
يا أحمد الاوصاف يا * من حاز أنواع المكارم
أنت الذي طوقتني * مننا لها تعنو الاعاظم
فمتى أؤدي شكرها * والعجز لي وصف ملازم
والعذر باد أن بعثت اليك من جنس الرتائم
بنتيجة الذكر التي * جاءت بتصحيف ملائم
وبخاتم صادالي * فيض الندى من كف حاتم
فامدد على جهد المقل رواق صفح ذا دعائم
واقبل عقيلة فكر من * هو في بحار العي عائم
لازلت سابق غاية * بين الاعارب والاعاجم

فاجابني بما صورته

يا سيد اشعري له * ما ان يقاوي أو يقاوم
كلا ولا قدري له * يوما يساوي أو يساوم
يا من رأيت عطاردا * منه بدا في شخص عالم
يا من بنفثة خلقه * وبنظمه السامي الملائم
أضحى يريني مجزيين من النواسم والمباسم
مازلت أبصر منهما * حسن النعامى والنعائم
بهما زماني حاسدا * أضحى وبالتنغيص حاسم
قلمي وقلبي بينها * م في الثناء له وهائم
حي لاحمد سيدي * شيخ الورى فرض ملازم
المقري المعتلي * شرف المعالي والمعالم
مالي اليه وسيلة * الا الهوى في القلب دائم
قد جاء ما شرفتني * بخصوصه دون الاعاظم
من خاتم كفي به * ورثت سليمان العزائم
وجعلتني لا أحسب الـعيوق لي في فص خاتم
وبسبحة شبهتها * بالشهب في أسلاك ناظم
فلتحسد الجوزاء ما * أحرزت من تلك المكارم

هي

هى آلة للذكر لكن ليس ذكرى في الحيازم
فهواك في قلبي وما * في القلب جل عن الرتائم
ماذى رتائم سيدى * بل انها عندى تمائم
لو انها من جنس ما * يطوى غدت فوق العمائم
لكنها قد زينت * كفي وأزرت بالخواتم
يامن يريش اذا رمى * نسر السماء بلحظ حازم
ان ابن شاهين حوى * منك الخوافي والقوادم
هذى نوافل ياأما * م الدهر ليست باللوازم
العذر عنها مخجل * عبد النعالك جد خادم
بل انت فوق العذر قد * أصبحت للشعرى تنادم
لازال دهرك سيدى * يلقاك منه ثغر باسم
يهدى اليك من المرا * حم والمكارم والغنائم
مالا يساوم مثله * ذو الحظ في أسنى المواسم

العبد الحقير الداعى لاستاذه مولاى الاجل بالتمكين أحمد بن شاهين حامدا مصليا مسلما انتهى وقال مستجيزا

الشيخ يشرب ماء * ونحن نشرب قهوه
فقلت
لانه ذو قصور * فغط بالعذر سهوه

ولما أزمعت العود الى مصر اوائل شوال سنة ١٠٣٧ خاطبنى بقوله

ابدا اليك تشوقى وحنينى * والى جنابك ماعلمت سكونى
ولديك قلبى لايزال رهينة * علقت وتعلم ذمة المرهون
وعليك قد حبست شوارد مدحتى * لما رأيتك فوق كل قرين
قلبى كقلبك في المحبة والهوى * اذ كان في الاشواق دينك دينى
وليته بهواك أرفع رتبة * وغدوت تعزل عنه كل خدين
واطاع أمرك في الوداد فلو اشا * منه وحاشا سلوة يعصينى
ما كنت أحسب قبل طبعك ان أرى * يوما عطارد ناطقا بفنون
حتى رأيتك فاستبنت بانه * يروى أحاديث العلا بشجون
ويفيد سمعى معجزا بهر النهى * ويرى عيونى آية التكوين
يامن غدا يحيى القلوب بلفظه * ويردد الانفاس عن جبرين
أحييت بالوحى المبين قلوبنا * وحلى لعمر الله جدّ مبين
هذى دمشق لعمر خلقك روضة * قد جاد طبعك دوحها بمعين
قد زارها غيث الندى فبهارها * أضحى يلوح بحلة النسرين
لولم تكن بدر الما أحرزت ما * قد خص في الانوار بالتلوين

واشدما على الاندلس من الامم المحاربة لهم الجلالقة كما ان الافرنجة حرب لهم غير ان الجلالقة اشد باسا وقد كان لعبد الرحمن بن محمد صاحب الاندلس فى هذا الوقت وزير من ولد امية يقال له احمد بن اسحق فقبض عليه عبد الرحمن لامر كان منه استحق عليه فى الشريعة العقوبة فقتله عبد الرحمن وكان للوزير اخ يقال له امية فى مدينة من ثغور الاندلس يقال لها شنترين فلما نمى اليه مافعل باخيه عصى على عبد الرحمن فصار فى حيز ردمير ملك الجلالقة فاعانه على المسلمين ودله على عوراتهم ثم خرج امية فى بعض الايام من المدينة يتصيد فى بعض منتزهاتها فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعه من الدخول اليها وكتب الى عبد الرحمن ومضى امية بن اسحق اخو الوزير المقتول الى ردمير فاصطفاه واستوزره وصيره فى جملته وغزا عبد الرحمن صاحب الاندلس بثورة مملكة الجلالقة المتقدمة صفة بنيانها واسوارها فى باب جمل الاخبار عن البحار ومافيها وماحولها من العجائب والامم ومراتب الملوك وأخبار الاندلس وغيرذلك وكان عبد الرحمن فى مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالقة فى شوال سنة سبع وعشرين وثلثمائة بعد الكسوف الذى كان فى هذا

حققت ماقد قيل حين حللتها * ان المكان مشرف بمكين
هي غادة حليتها فتزينت * ماكان أحوجها الى التزيين
مولاى أحمد ياسليل بنى العلا * يافوق مدحى فيك أو تحسينى
اغنى وجودك وهو عين الدين عن * علامة الدنيا لسان الدين
انظره تستغنى به عن غيره * والى العيان ارغب عن المظنون
تلقى علوم الناس فى أوراقهم * وعلومه فى صدره المشحون
فبعلمه اعبر كل بحر زاخر * وبفهمه اسبر غامض المخزون
وبحلمه ارغب عن تحلم أحنف * وبعزمه اصحب باس ليث عرين
لما رأيتك فاستقمت لقبلتى * أدعو واشكر وارادات شؤونى
ألفيت قطرك يمنتى فافادنى * فضل اليمين على اليسار يقينى
فسقى الحيا للمقرى أخى العلا * بلدا باقصى الغرب جد هتون
بلدا تبينت الهلال بافقه * ورأيت منه قرة لعيونى
لولاه لال الغرب نور شرقنا * بتنابليل الحدس والتخمين
ياراحلا رحل الفؤاد بعزمه * رفقا بقلب للوفاء ضمين
أستودع الله العظيم واننى * مستودع منه أجل أمين
أنى اودع يوم بينك مهجتى * وشبيبتى وتصبرى وسكونى
وأعود من توديع وجهك عودة * خلطت يقينى فى الهوى بظنون
حتى كانى قد فقدت تمثما * تقضى على بحالة المجنون
وتود نفسى انها لو حرمت * ابدا سكونى للهوى وركونى
اوشكت أقتل بين معترك الهوى * نفسى ومعترك الهوى بيمينى
ولقد وددت باننى متحمل * تلك الخطا بمحاجرى وجفونى
كيف السبيل الى الحياة ومهجتى * فى قبضة الاشواق كالمسجون
ماأنت الا البدر لاح بافقنا * شهرا وكان ضياؤه يهدينى
واليكها ياشيخ دهرى غادة * غنيت عن التحسين والتزيين
جاءتك تعرض فى الوداد كمالها * واذا لحظت جمالها يكفينى
هى بنت لحظتك التى تؤوى النهى * لابنت ليلتى التى تؤوينى
ماالفخر فى دعوى البديهة عندها * الفخر قولك انها ترضينى
حسبى اباالعباس منك اصاخة * تقضى بموت عداى أو تحيينى
يالهف نفسى كيف أبلغ مدحة * أضمرتها فى سرى المكنون
فلسان حبى بالغ اقصى المدى * ولسان مدحى فى القصور يلينى
ماالشعر يستوفى حقوقكم ولو * أهديت من نظمى عقود سنينى
حلقت أصطاد النجوم وانها * تزهو بعقد فى علاك ثمين
فرأيت فى العيوق طبعك سيدى * نسرا أسف لعجزه شاهينى

الشهر ثلاثة أيام وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا وأوجوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين
بعد عبورهم الخندق
خمسين ألفا وقيل ان الذى
منع ردمير من طلب من
نجا من المسلمين أمية بن
اسحق وخوفه الكمين
ورغبه فيما كان فى
معسكر المسلمين من
الاموال والعدد والخزائن
ولولا ذلك لاتى على جميع
المسلمين ثم ان أمية بعد
ذلك استامن الى عبد الرحمن
وتخلص من ردمير فقبله
عبد الرحمن أحسن قبول
وقد كان عبد الرحمن بعد
هذه الوقعة جهز عساكر
مع عدة من قواده الى
الجلالقة وكانت لهم معهم
حروب هلك فيها من
الجلالقة ضعف ماقتل من
المسلمين فى الوقعة الاولى
وكانت للمسلمين عليهم الى
هذه الغاية وردمير ملك
الجلالقة الى هذا الوقت
وهو سنة اثنتين وثلاثين
وثلثمائة وكان قبله على
الملك اردون الفرس
والجلالقة والافرنجة تدين
بدين النصرانية على رأى
الملكية (رجع الحديث)
ومدينة طارينو ومدينة
سيرين وغيرهما من
مدنهم الكبار سكنها
المسلمون مدة من الزمان
ثم ان النوبرد أنابوا ورجعوا
على من كان فى تلك المدن من المسلمين فاخرجوهم عنها بعد حرب طويل وماذكرنا من المدن فى وقتنا هذا قد

قد خف شعرى من قصور طبيعتى * ولربما قد كان جد ركين
يكفيك أحمد يا ابن شاهين بان * أحرزت خصل السبق دون الدون
واذا عجزت عن الفرائض جاهدا * فاذأب عساك تفوز بالمسنون
هو قبلتى فلأغتدى متمسكا * منه بحبل فى النجاة متين
واسلم فديتك زائرا ومشرفا * أفدى مواطئ نعله بجبينى
وكذاك عمرى فى هواك مقسم * بين الدعاء الجد والتأمين

وقال حفظه الله تعالى فى ذلك

حنانيك ان الدمع بالود معرب * وانى فى شرق وأنت مغرب
ورحماك بى انى قتيل صبابة * بمن هو أوفى فى الفؤاد وأنجب
ووعدك لى بالعود انى معلل * به مهجة قد أوشكت تتصوّب
وهبتك قلبى ماحييت ولم أقل * ولكن من الاشياء ماليس يوهب
فلو كنت شيئا واحدا اهدّ صده * فكيف بشيخ لم يكن مثله أب
وانا بحمد الله لما خصصتنا * بزورة ذى ود دعاه التحبب
فرشنا له منا الخدود مواطئا * وعدنا به شوقا نجىء ونذهب
وقلنا دمشق أنت فيها محكم * وأشرافها ودوا وجدوا ورحبوا
وأنت لها روح ومولى ومفخر * وقد زنت شرقا مثل ما ازدان مغرب
ونخرا عظيما يا ابن شاهين انه * غدا وكرنا نسر السما فيه يرغب
فنحن ونحن الناس خدام نعله * فلا غرو أن يقلى الغضنفر أكلب
وما نقموا منه سوى أنه امرؤ * ليأكل فيما قدروه ويشرب
هو الشيخ شيخ الدهر أحمد من غدت * دمشق ومن فيها بعليائه تخطب
هو المقرى العالم العلم الذى * اليه تناهى الفضل والمجد ينسب
وما هو الا الشمس أزمع رحلة * وانا فى ليل اذا هى تغرب
أو الغيث قد وافى فأمرعت النهى * به وانثنى والصدر بالود معشب
أو الطائر العنقاء جاء مشرقا * فأغرب والعنقاء فى الطير مغرب
وانك للخل الوفى وانه * هو الواحد المطلوب ان عز مطلب
وانك بالتحقيق فى كل حالة * لاسنى وأندى ثم أوفى وأغرب
رعى الله وجها أنت ترغب نحوه * وأى أخى جد له أنت ترغب
وحيا الحيا أرضا وطئت ترابها * فأصبح مسكا وهى بالمجد تخضب
ولا فارقت يوما علاك كلاءة * من الله أنى كنت والله أغلب
مدى الدهر ماحنت جوانح واله * مشوق فامسى للحقيقة يطرب

ولما قرأ على أدام الله تعالى عزته وحرس حوزته عقيدتى المسماة باضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة سألنى أن أجيزه فيها وفى غيرها فكتبت اليه ما نصه

أحمد من أطار فى جوّ العلا * صيت ابن شاهين الذى زان الحلى

الجلالقة والافرنجة والصقالبة والنوبرد وغيرها من الامم فديارهم متقاربة والاكثر منهم حرب لاهل الاندلس فى هذا الوقت ذو منعة وقوة عظيمة على ماقدمنا من نسبه وأخباره وقد كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام سار الى الاندلس فى أول دولة بنى العباس وله أخبار كثيرة فى كيفية وصوله الى الاندلس ودار مملكة الاندلس قرطبة على ماذكرنا ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وثغور فى أطراف أرضهم وربما يجتمع عليهم من جاورهم من الامم من ولد يافث من الجلالقة وبرجان والافرنجة وغيرها من الامم وصاحب الاندلس فى هذا الوقت يركب فى مائة ألف وهو ذو منعة بالرجال والمال والكراع والعدد والله أعلم

(ذكر عاد وملوكها)
ذكر جماعة من ذوى العناية باخبار العالم أن الملك يؤثر من بعد نوح فى عاد الاولى التى بادت قبل سائر ممالك العرب كلها ومصداق ذلك قوله عز وجل وأنه أهلك عادا الاولى فانه يدل على تقدمهم وأن هنالك عادا ثانية وأخبر الله عن ملكهم ونطق بشدة بطشهم وما بنوه من الابنية المشيدة

وراش منه للمعالى أجنحه * نال بها فضلا غدا مستمنحه
وأسكن البيان من أوكار * أفهامه بقنة الافكار
فاصطاد كل شارد بمخلب * أبحاثه ومن يعارض يغلب
والصقر لا يقاس بالبغاث * والحق ممتاز عن الاضغاث
نشكر من بلغه مناه * على نواله الذى سناه
ونتحى نهج صلاة باديا * لخير من جاء الانام هاديا
مبينا دلائل التوحيد * وموضحا طرائق التسديد
محمد خير البرايا المنتقى * أجل من خاف الاله واتقى
صلى عليه الله مع أصحابه * وآله الراوين عن سحابه
ما اعترف العبد الفقير ذو العدم * للرب باستغنائه وبالقدم
وبعد فالعلوم والعوارف * من أمها يأوى لظل وارف
وروضة أزهارها تضوعت * لانها أفنانها تنوعت
وليس يحتاط بها نبيل * اذ ذاك أمر ماله سبيل
فليصرف القول الى ماينفعه * دنيا وفى أوج الاجور يرفعه
وان فى علم أصول الدين * هدى وخيرا جل عن تبيين
لانه أصل يعم النفع * به وكل ماسواه فرع
وكيف يعبد الاله من لا * يعرفه وعن رشاد ضلا
فهو الذى لا تقبل الاعمال * الا به وتجمع الآمال
واننى كنت نظمت فيه * لطالب عقيدة تكفيه
سميتها اضاءة الدجنه * وقد رجوت أن تكون جنه
وبعد أن اقرأتها بمصر * ومكة بعضا من اهل العصر
درستها لما دخلت الشاما * بجامع فى الحسن لا يسامى
وكان فى المجلس جمع وافر * من جلة بدورهم سوافر
منهم فريد الدهر ذو المعالى * فخر دمشق الطيب الفعال
أحمد من راح لعلم واغتدى * وشام أنوار الفهوم فاهتدى
العالم الصدر الاجل المولى * من وصفه الممدوح يعيى القولا
وهو ابن شاهين وما أدراكا * من بذ جنس العرب والاتراكا
ورام من مثلى بحسن الظن * اجازة فيما رواه عنى
فخرت فى أمرين قد تناقضا * بالنفى والاثبات اذ تعارضا
ترك الاجابة لوصفى بالخطل * وبالخطا والجيد منى ذو عطل
وكم فرائض بعجز تسقط * فكيف غيرها وهذا أحوط
أوفعلها بحسب الامكان * رعيا لود محكم الاركان
منه وماله من الحقوق * ولا يجازى البر بالعقوق

التى تدعى على مر الدهور العادية وقد أخبر الله تعالى عن قول نبيه هود عليه السلام وخطابه اياهم أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين وعاد أوّل من ملك فى الارض من هذه الطائفة بعد أن أهلك الله عزوجل الكفار من قوم نوح وذلك لقوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة وذلك أن هؤلاء القوم كانوا فى هيآت النخل طولا وكانوا فى اتصال الاعمار وطولها بحسب ذلك من القدر وكانت نفوسهم قوية وأكبادهم غليظة ولم يكن فى الارض أمّة هى أشدّ بطشا وأكثر آثارا وأقوى عقولا وأكثر أحلاما من قوم عاد ولم يكن الهلاك يعرض فى أجسامهم لقوة آثار الطبيعة فيها وما أوتوه من الزيادة الى تمام البنية وكمال الهيئة على حسب ما أخبر الله عزوجل وكان عاد رجلا جبارا عظيم الخلقة وهو عاد بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح وكان عاد يعبد القمر وذكروا أنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد وأنه تزوج ألف امرأة وكانت بلاده متصلة باليمن وهى بلاد الاحقاف وبلاد سنجار وبلاد عمان الى حضرموت على حسب

وابعد

و بعد ما مر من الترداد * أسعفته بمقتضى الوداد
وسرت فى طرق من التساهل * معترفا بالجهل لا التجاهل
مع انه الاهل لأن يجيزا * لأن يجاز اذ حوى التبريزا
ومن رأى عيبي بعين للرضا * لم يقف نهج من غدا معترضا
فليرو عنى كل ما أسمعته * اياه بالشرط وما جمعته
مع القصور راجيا للاجر * من الفنون نظمها والنثر
كهذه القصيدة السديده * والنعل ذات المدح العديده
كذاك ما ألفت فى عمامه * من خص بالاسراء والامامه
والفقه والحديث والنحو وفى * أسرار وفق وهو بالقصد وفى
وغيرها مما به الوهاب من * على فقير عاجز فى غير فن
وما أخذت فى بلاد المغرب * عن كل فذ فى العلوم مغرب
ولى أسانيد اذا سردتها * طالت وفى كتبى قد اوردتها
وقد أخذت الجامع الصحيحا * وغيره عمن حوى الترجيحا
عمى سعيد عن سفين وهو عن * القلقشندى عن الواعى السنن
العسقلانى الشهاب بن حجر * بماله من الروايات اشتهر
وقد اجزته بكل ما لى * يصح من ذاك بلا احتمال
على شروط قرروها كافيه * ليست على افكاره بخافيه
وقال هذا المقرى الخطا * والعى عم لفظه والخطا
عام ثلاثين وألف بعدها * سبع أتمت فى السنين عدها
وكان ذا فى رمضان السامى * بحضرة السعد دمشق الشام
والله نرجو أن يتيح الختما * بالخير كى نعطى القبول حتما
بجاه خير العالمين أحمدا * صلى عليه الله ما طال المدى
وآله وصحبه ومن زكا * فنال من حسن الختام مدركا

وتذكرت بهذه الاجازة نظيرتها التى سالنى فيها مولانا عين الاعيان مفتى الانام فى مذهب النعمان مولانا الشيخ عبد الرحمن العمادى مفتى الشام حفظه الله تعالى لاولاده الثلاثة وكتب لى اصغرهم سنا استدعاء لذلك

أحمد من شيد بالاسناد * بيت العلوم السامى العماد
وعم من خصص بالروايه * بنورها النا فى دجى الغوايه
وزان صدر النبها كل زمن * بجوهر الاجازة الغالى الثمن
نحمده سبحانه أن عرّفا * من الحديث ما به قد شرفا
ونسأل المزيد من صلاته * لمن أتيح القصد من صلاته
ملجئنا المعصوم أعلى سند * لنا برغم جاحد مفند
كهف الضعيف والقوى المرتجى * باب الهدايات وليس مرتجا

ماقدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا وقد ذكر جماعة من الاخباريين ممن عنى باخبار العرب أن عادا لما توسط العمر واجتمع له الولد وولد الولد ورأى البطن العاشر من ولده وظهور الكثرة مع تشييد الملك واستقامة الامر غمر احسانه الناس وقرى الضيف وأحواله منتظمة والدنيا عليه مقبلة فعاش ألف سنة ومائتى سنة ثم مات وكان الملك بعده فى الاكبر من ولده وهو شديد بن عاد وكان ملكه خمسمائة سنة وثمانين سنة وقيل غير ذلك (ثم ملك بعده) أخوه شداد بن عاد وكان ملكه تسعمائة سنة ويقال انه استوى على سائر ممالك العالم وهو الذى بنى مدينة ارم ذات العماد على حسب ماقدمنا فيما سلف من كتبنا عند اخبارنا عن هذه المدينة وتنازع الناس فى كيفيتها وماهيتها وفى اى بلاد هى وهذه عاد الثانية التى ذكرها الله تعالى فقال ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد والى هذه المدينة انتهى البطش ولشداد بن عاد سير فى الارض وطواف فى البلاد عظيم فى ممالك الهند وغيرها من ممالك الشرق والغرب وحروب كثيرة اعرضنا عن ذكرها لشرط الاختصار ومعولنا فى ذلك على ما بسطناه من اخبارهم فى كتاب

عند ذكرنا تفرق الناس قبائل وتشعب الانساب وماقالوا فى ذلك من الاشعار جملا من اخبار عاد ونبيها هود فاما تنازع الناس ممن سلف وخلف فى العلة التى بها عظمت اجسامهم وطالت اعمارهم فقد اتينا على ذكر ذلك فى كتابنا المترجم بكتاب الروس السبعية من السياسة الملوكية وكذلك فى كتابنا المترجم بكتاب الزلف

(ذكر ثمود وملوكها وصالح نبيها)

قد ذكرنا فيما سلف ذكر ثمود فى غير هذا الكتاب وكان ملك ثمود بن عابر ابن ارم بن سام بن نوح بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الحبشى وديارهم بفج الناقة وبيوتهم الى وقتنا هذا ابنية منحوتة فى الجبال ورممهم باقية وآثارهم بادية وذلك فى طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادى القرى وبيوتهم منحوتة فى الصخر بابواب صغار ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا وهذا يدل على ان أجسامهم على قدر أجسامنا دون مايخبر به القصاص من بعد اجسامهم وليس هؤلاء كعاد اذ كانت آثارهم ومواضع مساكنهم وبنيانهم بارض الشحر تدل على بعد اجسامهم

وصنوه

من جاءنا بالجامع الصحيح من * كلامه الهادى الى نهج أمن
من فضله ماشك فيه مسلم * من جمعه بكل خير معلم
نبينا المرسل ذو الخلق الحسن * والمعجز المفحم أرباب اللسن
محمد المرفوع قدره على * سائر خلق الله جل وعلا
صلى عليه ربنا وسلما * أزكى صلاة نتحيها معلما
مع آله وصحبه ومن روى * آثاره عن صحة وماغوى
وبعد فالعلم عظيم القدر * وليس من يدرى كمن لايدرى
ولم تزل همة أهل المجد * منوطة بنيل علم مجدى
ومنه علم السنة الشريفه * لانه ظلاله وريفه
فمن درى الاخبار والشمائل * لم يك عن صوب الهدى بمائل
وكم سعيد عد لاجله رفض * أوطانه وثوب ترحال نفض
وكيف لا وهو أجل ماطلب * موفق يروم حسن المنقلب
لانه وسيلة السعاده * والعز فى الابداء والاعاده
وانى لما انتحيت المشرقا * ميمما بدر اهتداء مشرقا
ألقيت فى مصر عصا التسيار * بعد بلوغى أشرف الديار
وبعد ذا جئت دمشق الشام * مسكن من يزدان باحتشام
فشاهدت عيناى فيها ماملا * قلبى سرورا اذ بلغت مأملا
مدينة فياضة الانهار * فضفاضة الاثواب بالازهار
أرجاؤها زاكية العبير * ومدحها يجل عن تعبير
وجل أهلها بحبى دانوا * مع أن مثلى منهم يزدان
فلاحظوا بالاعين الكليله * عبدا غدا تقصيره دليله
وقابلوا عيى بما اقتضاه * فضل لهم رب الورى ارتضاه
خصوصا المولى الكبير المعتبر * قرة عين من رآه واختبر
مفتى الورى فى مذهب النعمان * بها الوجيه عابد الرحمن
ابن عماد الدين من تعيي القلم * أوصافه اللاتى كنور فى علم
حاوى طراف المجد والتلاد * نال المنى فى النفس والاولاد
وكنت فى مكة قد أبصرت * منه علا عن مدحه قصرت
جلالة ومحتدا وعلما * ورفعة وسوددا وحلما
مع التواضع الذى قد زانه * حسن اعتقاد مثقل ميزانه
فحث من فى الشام من أخيار * لم يسلكوا مناهج الاغيار
أن ياخذوا بعض الفنون عنى * بما اقتضاه منه حسن الظن
مع أننى والله لست أهلا * لذاك والتصدير ليس سهلا
وكان من جملتهم أبناؤه * عماد دين قد علا بناؤه

وصنوه الشهاب من توقدا * فهما وابراهيم سباق المدى
وهو الذى قد ابتغى الاجازه * لهم بوعد طالبا انجازه
وكتب القصيدة الطنانه * فى ذاك لى مهتصرا أفنانه
وانهم لحلقة قد أفرغت * دامت لهم آلاء فيض سوّغت
فلم أجد بدا من الاجابه * مع كون جهلى ساد لاجابه
فقد أجزتهم بما رويته * طرا وما ارتجلت اذ روّيته
وكل ما صنفت فى الفنون * مؤمّل التحقيق للظنون
وما أخذت عن شيوخ المغرب * وغيرهم من كل حبر مغرب
ولى أسانيد يطول شرحها * شيد على تقوى الاله صرحها
ولو سردت كل مروياتى * هنا لطال القول فى الابيات
وكل طول غالبا مملول * وحد من يعنى به مفلول
فلنقتصر اذن على القليل * تبركا بالمطلب الجليل
وقد أخذت جامع البخارى * عن عمى الحائز للفخار
المقرى سعيد الامام عن * محمد يدعى خروفا حين عن
التونسى الطيب الانفاس * نزيل حضرة الملوك فاس
عن الكمال القادرى المرتضى * عن الحجازى عن الحبر الرضا
نجل ابى المجد عن الحجارى * عن الزبيدى بنقل جارى
عن مسند الاسلام عبد الاوّل * عن الشهير الداودى المعتلى
عن السرخسى عن الفربرى * عن البخارى الامام الحبر
وفضله أظهر من أن يذكر * وعلمه المعروف غير المنكر
ومسلم بدأ الى الكمال * عن علم الدين أخى الجلال
منسوب بلقين عن التنوخى * عن ابن حمزة عن الشيوخ
كابن المقير عن ابن ناصر * عن ابن منده اللبيب القاصر
عن جوزقى قد روى عن مكى * عن مسلم نافى دياجى الشك
فليخبروا عنى بذا والباقى * من ستة حائزة السباق
كذا موطأ الامام مالك * امامنا منير كل حالك
ومسند الفذ الرضا ابن حنبل * والدارمى ذى الثناء الاجمل
والطبرانى وما أرويه * من المعاجيم بما تحويه
وكلها تشمله الاجازه * بشرطها عند الذى أجازه
فلتقبلوها فهى من جهد المقل * اذ لست بالمطلوب منى أستقل
ومن أسانيدى عن القصار * مفتى الانام بهجة الاعصار
عن شيخه خروف الراقى الدرج * عن الشريف الطعطائى فرج
قال سمعت المصطفى فى النوم * صلى عليه الله كل يوم

وكان ملك الملك الاوّل من ملوكهم مائتى سنة وهو عاد بن ارم بن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح (ثم ملك بعده) جندع بن عمرو بن الديل ابن ارم بن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح وكان ملكه الى ان هلك مائتى سنة وتسعين سنة وملك جندع هذا بعد أن كان من أمر صالح النبى صلى الله عليه وسلم ما كان على ماذكرنا أربعين سنة فجميع ماملك هذا الملك وهو جندع ثلثمائة وسبع وعشرون سنة فهؤلاء ملوك ثمود وبعث الله صالحا نبيا وهو غلام حدث لثمود على فترة كانت بينه وبين هود نحو من مائة سنة فدعاهم الى الله وملكهم يومئذ هو جندع بن عمرو على ما ذكرنا فلم يجب صالحا من قومه الا نفر يسير وكبر صالح ولم يزدد قومه من الايمان الا بعدا فلما تواتر عليهم اعذاره وانذاره ووعده ووعيده ساموه المعجزات واظهار العلامات ليمنعوه من دعائهم وليعجزوه عن خطابهم فحضر عيد لهم وقد اظهروا اوثانهم وكان القوم أصحاب ابل فساموه الآية من جنس أموالهم وطالبوه بما هو مجانس لاملاكهم من بعد اتفاق آرائهم فقال له زعيم من زعمائهم يا صالح ان كنت صادقا فى قولك وأنك معبر عن ربك فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ولتكن وبراء سوداء عشراء نتوجا حالكة

يقول من أصبح يعني آمنا * في سربه الحديث فاعرف كامنا
ولنمسك العنان فى هذا الادب * مصليا على الذى زان العرب
وآله وصحبه الاعلام * ومن تلا من أنجم الاسلام
وخط هذا المقرى العاصى * أجير يوم الاخذ بالنواصى
سنة سبع وثلاثين تلت * ألفا لهجرة بياسين علت
عليه أزكى صلوات تستتم * نرجو بها الزلفى وحسن المختتم

ونص الاستدعاء المشار اليه هو

فازت دمشق الشام بالمقرى * الالمعى اللوذعى العبقرى
علامة العصر بلا مفترى * وواحد الدهر بلا ممترى
كم سمعت أخبار أوصافه * فقصر الخبر عن منظر
جامع علم بث املاءه * بالشام مل الجامع الاكبر
يقرى فتقرى السمع أنفاسه * أنفس ما يقرى وما قد قرى
مولاى يا من در ألفاظه * صحاحها تزرى على الجوهرى
اجازة ترفل من فضلها * فى ثوب عز وردا مفخر
مسبلة الذيل على أكبر * وأوسط الاخوة والاصغر
أطل لنا انشاءها بل أطب * وانظم لنا من درها وانثر
لازلت فى نفع الورى دائبا * تجود جود العارض الممطر

العبد الداعى ابراهيم العمادى انتهى ومن الاجازات التى قلتها بدمشق الشام ما كتبته للاديب الحسيب سيدى يحيى المحاسنى حفظه الله تعالى

أحمد من زين بالمحاسن * دمشق ذات الماء غير الآسن
وأطلع النجوم من أعيان * بافقها السامى مدى الاحيان
فكل أيامهم مواسم * من الصفا ثغورها بواسم
وذكرهم قد شاع بين الاحيا * اذ قطرهم به الكمال يحيى
وبشرهم حديثه لا ينكر * ومسند الجامع عنهم يذكر
وقد حكت جوارح الذى ارتحل * اليهم صحيح ماله انتحل
فسمعه عن جابر والعين عن * قرة تروى واللسان عن حسن
فحل من أتاحهم آلاءه * حتى أبان نورهم لألاءه
نحمده سبحانه أن أسدى * من الامان ما أنال القصدا
وننتحى صوب صلاة باهره * الى الرسول ذى السجايا الطاهره
أجل من خاف الاله واتقى * محمد الهادى الرسول المنتقى
صلى عليه الله طول الابد * مع آله وصحبه والمقتدى
وبعد فالعلم أساس الخير * وكيف لا وهو مزيح الضير
وهو الموصل الى منهاج * هدى ورشد ماله من هاجى

صافية اللون ذات عرف وناصية وشعر ووبر فاستغاث ربه فتحركت الصخرة وتململت وبدا منها حنين وانين ثم انصدعت من بعد تمخض شديد كتمخض المرأة حين الولادة وظهر منها ناقة على ما طلبوه من الصفة ثم تلاها من الصخرة سقب لها نحوها فى الوصف فأمعنا فى رعى الكلا وطلب المرعى فآمن خلق ممن حضره وزعيمهم الذى سأله وهو جندع بن عمرو وأقامت الناقة يحلبون من لبنها ما يعم شربه ثمودا كلها وضايقتهم فى الكلا والماء وكان فى ثمود امرأتان ذواتا حسن وجمال فزارهما رجلان من ثمود وهما قدار بن سالف ومصدع ابن مفرج والمرأتان عنيزة بنت زعيم وصدوف بنت المحيا فقالت صدوف لو كان لنا فى هذا اليوم ماء لاسقينا خمرا وهذا يوم الناقة وورودها ولا سبيل لنا الى الشرب فقالت عنيزة بلى والله لو ان لنا رجالا لكفونا اياها وهل هى الا بعير من الابل فقال قدار يا صدوف ان انا كفيتك أمر الناقة فما لى عندك فقالت نفسى وهل حائل دونها عنك فاجابت الاخرى صاحبها بنحو ذلك فقالا ميلا علينا بالخمر فشربا حتى توسطا السكر ثم خرجا فاستغويا تسعة رهط وهم التسعة الذين أخبر الله تعالى عنهم وما

ومابغير العلم يبدو العلم * وليس من يدري كمن لا يعلم
خصوصا الحديث عن خير البشر * فان فضله على الكل انتشر
ولم يزل يعنى به كل زمن * من الرواة كل صدر مؤتمن
وانني عند دخول الشام * لقيت من بها من الاعلام
وشاهدت عيناي من انصافهم * ماحقق المحكى عن اوصافهم
وان من جلتهم أوج الذكا * والنير المزري سناه بذكا
ابن المحاسن الذي قد طابقا * منه مسمى الاسم اذ تسابقا
اللوذعي الالمعي يحيي * لازال رسم المجد منه يحيا
وهو الذي أغراه حسن الظن * على انتمائه لاخذ عني
وكان قارئ الحديث النبوي * لدي في الجامع أعني الاموي
بمحضر الجمع الغزير الوافر * ممن وجوه فضلهم سوافر
وبعد ذاك استطمر الاجازه * من نوء وعدي واقتضى انجازه
فلم أجد بدا من الاجابه * مع أنني لست بذي النجابه
وان اكن أجبت أمر اعتثل * منه ففي ذلك تصديق المثل
فيمن درى شيأ وغابت أشيا * عنه ومن أهدى لصنعا وشيا
فليروعني كل مايصح لي * بشرطه الذي يزين كالحلي
وقد أخذت جامع البخاري * عن عمي الامام ذي الفخار
سعيد الذي نأى عن دنس * عن شيخه الحبر الشهير التنسي
أعني أبا عبد الاله وهو عن * والده محمد راوي السنن
عن ابن مرزوق محمد الرضا * عن جده الخطيب عن بدر أضا
الفارقي عن امام يدعى * بابن عساكر الجميل المسعى
بماله من الروايات التي * على علو قدره قد دلت
وليروعني ماانتمى للنووي * بذا الى السابق ذي النهج السوي
أعني ابن مرزوق الخطيب الراوي * عن شيخه يحيي الرضى المغراوي
وهو روى عن صاحب التمكين * النووي الشيخ محيي الدين
وخط هذا أحمد البادي الوجل * المقري المالكي على خجل
في عام ألف وثلاثين خلت * من هجرة الهادي وسبعة تلت
ألبسه الله البرود الضافيه * من منه وعفوه والعافيه
بجاه سيد البرايا طرا * ملجا من الى الكروب اضطرا
عليه أسنى صلوات تسدي * حسن الختام ببلوغ القصد انتهى

وسألني بعض ساكني دمشق المحروسة أن أقرظ له على شرحه لرسالة العارف بالله تعالى سيدي الشيخ آرسلان فكتبت ماصورته

أحمد من خص بالاسرار * قدما من الصوفية الابرار

في كتابه بقوله وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون وقصدوا الطريق الناقة في حال صدورها فضرب قدار عرقوبها بالسيف فعرقبها وأتبع صاحبه الآخر العرقوب الآخر فخرت الناقة لوجهها ووجأ قدار لبتها فنحرها ولاذ السقب بصخرة فلحقه بعضهم فعقره وورد صالح فنظر الى مافعلوه فوعدهم العذاب وكان ذلك في يوم الاربعاء فقالوا له مستهزئين ياصالح متى يكون ماوعدتنا به من العذاب عن ربك فقال تصبح وجوهكم يوم مونس وهو يوم الخميس مصفرة ويوم العروبة محمرة ويوم شيار مسودة ثم يصبحكم العذاب يوم أول وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أسماء الشهور والايام بلغتهم فهم التسعة بقتل صالح وقالوا ان كان صادقا كنا قد عاجلناه قبل أن يعاجلنا وان كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا فحالت الملائكة بينهم وبينه وأمطرتهم الحجارة ومنعه الله منهم فلما أصبحوا نظروا الى وجوههم كما وعدهم صفراء كأنها الورس قد حالت الالوان وتغيرت الاجسام وتيقن القوم صدق الوعيد وأن العذاب واقع بهم وخرج صالح في ليلة الاحد من بين ظهرانيهم مع من خف من المؤمنين فنزل

أتاحهم عوارف المعارف * والحكم السابغة المطارف
فهم بهم تستمطر الانواء * وتظهر الانوار والاضواء
ومن أجلهم سناء وسنى * من ذاد عن عين المعالى الوسنا
شيخ الشيوخ العارف الكبير * الشيخ آرسلان الشهير
فكم اشارات له أبانا * بها علوما من حلاها ازدانا
وكم عبارات تلا آياتها * تعيا الفحول عن مدى غاياتها
ومن رأى رسالة التوحيد * له انتحى مناهج التسديد
فهى تنادى من أبى أن يسلكا * يامعرضا شرك خفى كالكا
ومن أضل القصد فى مهامه * هدته للخروج عن أوهامه
وكم بها من باب معنى مغلق * عمن يقيد الوجود المطلق
فما بغير الفتح يدرى الباطن * و وارد الفيض له مواطن
وقد رأيت فى دمشق الشام * شرحا لها أنبأ عن الهمام
للكاشنى ذى الوفا بالوعد * شمس العلا محمد بن سعد
لازال فى أوج التجلى صاعدا * وعون ربنا له مساعدا
ومذ أجلت ناظرى فى حسنه * ألفيته مستبدعا فى فنه
ودل ما أبداه من معانى * على شهود بالهدى معانى
لانه أجاد فى تقرير * ما اعتاص بالاتقان والتحرير
وأبرز الابكار من خدور * أفكاره حالية الصدور
فالله يجز به الجزاء الاوفى * فى يوم تبدى الانبياء الخوفا
وخط هذا المقرى من وجل * مرتجيا من ربه عز وجل
كشف كروب عقد صبر حلت * منه وغفران ذنوب جلت
بجاه طه الهاشمى أحمدا * عليه أزكى صلوات سرمدا
عاطرة النشر بلا اكتتام * تأرجت بالمسك فى الختام

وخاطبنى السرى الحسيب الماجد فخر المدرسين الاعيان مولانا الشمس محمد ابن الكبير الشهير مولانا يوسف بن كريم الدين الدمشقى حفظه الله تعالى بقوله

شمس المحاسن شرقى أو غربى * سعدت منازلنا بشمس المغرب
شمس لنا منها شموس فضائل * وسنى هدى قد راح غير محجب
المقرى العالم الندب الذى * لسوى اسمه درج الجمال يكتب
بدر ولم تبد البدور بمشرق * الابدت من قبل ذلك بمغرب
لسوى اكتساب سناه لم تغرب ذكا * فلو انها شعرت به لم تغرب
علامة ملأ البلاد بفضله * وأفاده لمشرق و مغرب
عمرى هو البحر المحيط فضائلا * ان قس بالعذب الذى لم يعذب
مولى له سند قوى فى العلا * فعن الجد ودروى العلا وعن الاب

السلام
أرا كم يا رجال بنى عتيد
كأن وجوهكم طليت بورس
ويوم عروبة احمرت وجوه
مصفرة ونادوا بالمرس
ويوم شيار فاسودت وجوه
من الحين قبل طلوع شمس
فلما كان أول فى ضحاه
أتتهم صيحة عمت بتعس
وفيهم يقول حباب بن عمرو
وكان ممن اعتزلهم من
المؤمنين وبان عن ديارهم
كانت ثمود ذوى عز ومكرمة
ما ان يضام لهم فى الناس
من جار
لا يرهبون من الاعداء حولهم
وقع السيوف ولا نزعا
بأوتار
فاهلكوا ناقة كانت لربهم
قد أنذروها وكانوا غير
أنذار
نادوا قدارا ولحم السقب
بينهم
هل للعجول وهل للسقب
من ثار
لم يرعيا الجانى عقر ناقته
وأخفروا العهد هذيا أى
اخفار
فصادفوا عنده من ربه
حرسا
فشذخوا روسهم شدخا
باحجار
(وسنذكر) فيما يرد من
هذا الكتاب عند ذكرنا تفرق الناس مما يلى من أخبار ثمود جملا وما كان من أمر الناس بأرض بابل نسب

نسب له المجد المؤثل فى الورى * والمجد لم يكسب اذا لم يوهب
هو فى جبين الفضل أضحى غرة * يجلى بها للجهل ظلمة غيهب
آمالنا قطعت بشر جبينه * أن لا ترى للدهر وجه مقطب
بدر به زهيت دمشق وأهلها * أحبب ببدر حيث حل محبب
طود الفضائل با كرت أرجاءه * ديم الحجا فغدا كروض مخصب
بحر الهدى والعلم الا انه * صفو من الاكدار عذب المشرب
هو قطب دائرة الفضائل فى الورى * فيكاد يخبرنا بكل مغيب
فى الفضل ماحاوات يوما مثله * كلا ولاقست البدور بكوكب
أنى يجارى فى الفضائل من له انقاد الزمان بأدهم وبأشهب
سنن لمدح الغير تسقط عندنا * فله العلا تقضى بفرض أوجب
ماروضة حلى أزاهرها الحيا * فافتر فيها كل ثغر أشنب
ومشت بها خود الصبا فتعطرت * أذيالها من كل عرف طيب
للنور فيها جدول أخذت به * شهب المجرة حيرة المتعجب
باتت تناشدنى بهاذ كر الهوى * ورق الاراك بكل صوت مطرب
تشكو الى بمثل ما أشكو لها * شكوى المعذب فى الهوى لمعذب
فعلمت ما قد حل من وجدبها * وجهلن وهو الفرق ماقد حل بى
لم تلق فيها من عليل يشتكى * الا النسيم وذا الهوى ان تطلب
بأغض حسنا من ر با آداب من * حيا رياض حجاه ألطف صيب
طبع أرق من النسيم ومنطق * مستعذب وكذاك كل مهذب
لو جادصوب حجاه قفر اجدبا * لنعمت منه بكل روض معشب
مولاى عذرا فالزمان يعوقنى * عن مطلبى والآن مدحك مطلبى
عفوا اذا أخرت مدحك سيدى * فعوائق الايام عذر المذنب
وكذاك يفعل بالاديب زمانه * فلذا يطول على الزمان تعتبى
لم ألق يوما من يديه مهربا * الا ثناك وحبذا من مهرب
لولاك ما جال القريض بخاطرى * فالدهر يوجب للقريض تجنبى
لولاك لم ينهض جواد قريحتى * فى كل واد للضلالة متعب
فاسمع ولست بآمر نظما غدا * فى عقد مدحك لؤلؤا لم يثقب
كالراح يلعب بالعقول للطفه * لكن بغير مسامع لم يشرب
من كل قافية غدت من حسنها * مثلا لغيرك فى العلا لم يضرب
خود تقلد من ثناك قلائدا * بكرا لغيرك فى الورى لم تخطب
غنيت بمدحك زينة ولربما * يغنى الجمال عن الوشاح المذهب
هى بعض أوصاف لذاتك قد غدت * كالبحر عذبا ماؤه لم ينضب
جاءتك تسألك القبول وحسبها * فخرا قبولك وهو جل المطلب

وافتراق لغاتهم وماقاله كل فريق منهم من الشعر على حسب ما أعطاه الله من اللسان وان كنا قد أتينا على شرح ذلك على الكمال فيما تقدم لنا من كتابنا اخبار الزمان وبالله التوفيق

(ذكر مكة وأخبارها وبناء البيت ومن تداوله من جرهم وغيرها وما لحق بهذا الباب)

ولما أسكن ابراهيم ولده اسمعيل مكة مع أمه هاجر واستودعه خالقه على حسب ما أخبر الله عنه انه أسكنه بواد غير ذى زرع وكان موضع البيت ربوة حمراء أمر ابراهيم هاجر أن تتخذ عليه عريشا يكون لهما مسكنا وكان من ظما اسمعيل وهاجر ما كان الى أن أنبع الله لهما زمزم وأقحط الشحر واليمن فتفرق العماليق وجرهم فى البلاد ومن هنالك من بقايا عاد فبقيت العماليق نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الخصيبة وعليهم السميدع بن هود ابن لابى بن قنطور ابن كركر بن حيدان فلما امعنت بنو كركر فى المسير وقد عدمت الماء والمرعى واشتد بها الجهد أقبل السميدع بن هود يحثهم على السير فى شعر له ويشجعهم بما قد نزل بهم وهو

سيروا بنى الكركر فى البلاد * انى أرى ذا الدهر فى فساد * قد سار من قحطان ذى الرشاد * جرهم لما هدها التعادى

وتروم منك اجازة فاقت بما * ترويه بالسند القوى عن النبى
حسبى الاجازة منك جائزة ولم * أك قبل غير الفضل بالمتطلب
لابدع والايجاز اطنابا غدا * فى مدحه ان لم أطل أو أسهب
هيهات لاتحصى ما ثر فضله * بالمدح ان أطنب وان لم أطنب

خدمة الداعى محمد بن يوسف الكريمى انتهى فاجزته بما نصه

أحمد من أطلع شمس الدين * فى أفق الرواية المبين
وخص فضلا منه بالاسناد * أمة طه مذهب العناد
فلم يكن عصر من الاعصار * الا وفيه أهل الاستبصار
ينفون عن حوزة دين الله ما * يروم من عليه رشد أبهما
وأنتحى سبل صلاة كامله * على الذى له العطايا الشامله
محمد المرسل بالشرع الحسن * ذو المعجز المفحم أرباب اللسن
مع حزبه من صحبه وعترته * ومن تلا مؤملا لاثرته
وبعد فالعلم أجل ما اعتمد * موفق من فيض مولاه استمد
خصوصا الحديث عن خير الورى * صلى عليه الله ما زندى ورى
ولم يزل ذوو النهى يسعون فى * تحصيله اذ فضله غير خفى
وان مولانا الشهير السامى * الماجد المولى نديه الشام
سالك نهج السنة القويم * محمد بن يوسف الكريمى
لازال فى عز وفى أمان * مبلغا من قصده الامانى
وجه لى لما حللت الشاما * وبرق حسن الظن منى شاما
قصيدة بليغة مستعذبه * غريبة فى فهما مهذبه
يسأل من مثلى بها الاجازه * بشرطها عند الذى أجازه
مستمسكا بعروة الصواب * ولم أجد بدا من الجواب
فليرو عنى ما سمعت كله * وما جمعت فى الفنون جله
على شروط قررت فى الفن * مرتجيا حصول كل من
وصنوه الاكمل قد أجبته * كذاك على الوجه الذى شرحته
وان أكن فيما ابتغى مقصرا * فذو الرضا ليس لعيب مبصرا
ولى أسانيد أبى وقتى عن * تفصيلها لما من الرحلة عن
والعذر باد والكريم يقبل * والصفح نهج يقتفيه الانبل
وخط هذا المقرى الجانى * أمنه الله من الاشجان
فى عام ألف وثلاثين قفا * سبعا الهجرة النبى المصطفى
عليه أزكى صلوات تغتنم * يزكو بها مفتتح ومختتم

وكتب الى الفاضل الخطيب الفهامة الاديب وارث الفضل عن الاعلام ذوى اللسن سيدى الشمس محمد المحاسنى سبط شيخ الاسلام مولانا البورينى حسن حفظه الله تعالى

فاشرف روادهم وهم المتقدمون لطلب الماء على الوادى فنظروا الطير ترتفع وتنخفض فهبطوا الوادى ونظروا الى العريش على الربوة الحمراء وفيها هاجر واسمعيل وقد زمت حول الماء بالاحجار ومنعته من الجريان وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال رحم الله امنا هاجر لولا أنها عجلت ومنعت ماء زمزم من أن يجرى بما حوطت حوله من الاحجار لجرى الماء على وجه الارض فسلم الرواد عليها واستاذنوها فى نزولهم وشربهم من الماء فانست اليهم وأذنت لهم فى النزول فتلقوا من كان وراءهم من أهليهم وأخبروهم خبر الماء فنزلوا الوادى مطمئنين مستبشرين بالماء وبما اضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت الحرام وتكلم اسمعيل بالعربية خلاف لغة أبيه وقد ذكرنا فى هذا الكتاب وغيره ما قاله الناس فى ذلك من قحطان ونزار وتزوج اسمعيل بالجداء بنت سعد العملاقى وقد كان ابراهيم استاذن سارة فى زيارة اسمعيل فاذنت له فوافى مكة واسمعيل فى الصيد ومعه أمه هاجر فسلم على الجداء زوجة اسمعيل فلم ترد عليه السلام فقال هل من منزل فقالت لاها الله قال فافعل رب البيت قالت هو غائب فقال لها اذا ورد

تعالى

ياسيدى وملاذى * وعالم الثقلين
ومن غدا بعكان * علا على النيرين
أجزت بالدرس قوما * فاقوا به الفرقدين
فزين العبد أيضا * من مثل ذاك بزين
وان يكن فى ختام * فذاك قرة عينى

فاجزته بما نصه

أحمد من أطلع من محاسن * دمشق ما أربى على المحاسن
وزانها بالجلة الاعيان * الرافلين فى حلى التبيان
الراغبين فى الحديث النبوى * السالكين فى الهدى النهج السوى
وبعد فالعلم أجل زينه * وسبله فى الرشد مستبينه
وان علم السنة الشريفه * ظلاله ضافية وريفه
لذاك كان باعتناء أجدرا * من كل ما عليه من تصدرا
وان ذا الفضل الاديب البارع * سابق ميدان الذكا المسارع
الماجد المسدد السامى الحسب * محمد من للمحاسن انتسب
ابن الشهير الصدر تاج الدين * لازال فى عز وفى تمكين
وجده لامه الشيخ الحسن * وذاك بورينيهم معطى اللسن
سالنى اجازة بكل ما * أرويه عنوانا بحالى معلما
وها أنا أجبته غير بطل * مستغفرا من خطأ ومن خطل
فليروعنى كل ما يصح * على شروط غيثها يسح
وهى عن الشروط لن تريما * وليس يخفى علمه الكريما
وكل ما ألفت أو جمعت * نظما ونثرا مثل ما أسمعت
ولى أسانيد يضيق الوقت * عن سردها وبعضها قد سقت
فى غيرهذا فيحقق ذلك * مقتفيا لاوضح المسالك
وقد أخذت جامع البخارى * ومسلم عن حائز الفخار
عمى سعيد وهو عمن يدعى * بالتنسى قد أفاد الجمعا
عن حافظ الغرب الرضا أبيه * عن ابن مرزوق عن النبيه
الحافظ المجل العراقى * وقد سما فى سلم المراقى
وماله من الروايات علم * من كتبه التى حوت خير الكلم
وخط هذا المقرى عن عجل * مؤملا من ربه عز وجل
غفران ما جنى من الذنوب * والصفح عن معرة العيوب
بجاه خير العالمين أحمدا * صلى عليه الله دأبا سرمدا
وآله وصحبه الاخيار * ومن تلا آثارهم الا عصار

غيرها وانصرف ابراهيم من فوره نحو الشام وراح اسمعيل وهاجر فنظر الى الوادى قد أشرق وأنار والاغنام تتنسم الآثار فقال لزوجته الجداء هل كان لك بعدى من خبر قالت نعم شيخ ورد على وأخبرته بالقصة فقال ذاك أبى خليل الرحمن وقد أمرنى بتغليتك فالحقى باهلك فلا خير فيك وتسامعت جرهم ببنى كركر ونزولهم الوادى وماهم فيه من الخصب وادرار الضرع وهم فى حال قحط فبادروا نحو مكة وعليهم الحرث بن مضاض ابن عمرو بن سعد بن الريث ابن ظالم بن نحالة بن هى ابن نبت بن جرهم حتى أتوا الوادى ونزلوا مكة واستوطنوها مع اسمعيل ومن تقدمهم من العماليق من بنى كركر وقد قيل فى كركر انه من العماليق وقيل انه من جرهم والاشهر انه من العماليق وتزوج اسمعيل زوجته الثانية وهى شامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف بن هى بن نبت واستاذن ابراهيم سارة فى زيارة اسمعيل فاستحلفته غيرة عليه انه اذا أتى الموضع لا ينزل من ركابه وقد تنازع الناس على أى شئ كان ركوبه فمنهم من قال كان راكبا على البراق ومنهم من قال على اتان وقيل غير ذلك

ولما سألني في الاجازة الفاضل الاديب سيدي محمد بن علي ابن مولانا عالم الشام الشهير الذكر شيخ الاسلام سيدي ومولاي الشيخ عمر القاري حفظه الله تعالى وأنا مستوفز للسفر كتبت له عن عجل ما صورته

أحمد من زين بالآثار * جيدا من الراوي النبيه القاري
وشاد للعلياء في أوج السند * منازلا لم يبلها طول الأمد
وميز الواعين للحديث * بالفضل في القديم والحديث
وزان منهم سماء الدين * فاشرقت بالحفظ والتبيين
فهم بها للمهتدي نجوم * وانها للمعتدي رجوم
فكم أزاحوا عن حديث المجتبى * صلى عليه الله ما هبت صبا
تحريف ذي غل مضل غالي * شان لمنهاج الرشاد قالي
وبعد فالاسناد للروايه * وسيلة تزحزح الغوايه
والله قد خصص هذي الامه * به امتنانا وأزاح الغمه
هذا ولولا ذاك قال من شا * ما شاء فهو بحق منشا
فلم يزل أهل النهى كل زمن * يسعون في تحصيله عن مؤتمن
وان من جملة من تحرى * لجملة من العلوم غرا
الفاضل المسدد النجيب * الواصل المعد الاريب
محمد سليل ذي المجد علي * ابن الامام العالم الحبر الولي
عمر الشيخ الشهير القاري * طود السكون هضبة الوقار
شيخ الشيوخ في دمشق الشام * لازال محفوفا بعز سامي
فكان من جملة من عني روى * بعض الصحيح ظافرا بما نوى
وبعد ذاك اقترح الاجازه * مني ووعدها اقتضى انجازه
فانجمت نفسي عن الاجابه * اذ لست في ذا الامر ذا نجابه
مع أنني مقصر ذو عي * في مثل هذا المطلب المرعي
وخفت أن آتيها شنعاء * بحملي الوشي الى صنعاء
وبعد ذا أجبت قصد الاجر * مرتجيا بذاك ربح التجر
وقد أجبته واني أعلم * أني من خوف الخطا لا أسلم
فليروها ببالغ التمني * جميع ما يصح لي وعني
من ذلك الجامع للبخاري * عن عمي الشهير ذي الفخار
سعيد الآخذ عن سفين * عن قلقشندي مزيح المين
عن حافظ الاسلام أعني ابن حجر * بما له من الروايات اشتهر
وبعضها في صدر فتح الباري * مبين لطالب الاخبار
ولي أسانيد يطول شرحها * والروضة الغناء يكفي نفحها
ومن رواياتي عن القصار * مفتي البرايا بهجة الاعصار

من الحيوان فلما أتى ابراهيم الوادي سلم على زوجة اسمعيل الجرهمية فسلمت عليه ورحبت به وتلقته بأحسن لقاء وسألها عن اسمعيل وهاجر فاخبرته بخبرهما وأنهما في رعيهما وعرضت عليه النزول فأبى وقيل ان هاجر كانت قد ماتت ولها من السن تسعون سنة وألحت الجرهمية على ابراهيم في النزول فأبى فقدمت اليه لبنا وشرائح من لحم الصيد فدعا فيه بالبركة وجاءته بحجر كان في البيت فمال عن ركابه وجعلته تحت قدمه اليمنى ثم رجلت شعره ودهنته ثم حولت الحجر الى شماله فوضع رجله اليسرى عليه أيضا ومال برأسه نحوها فرجلته ودهنته فأثرت قدماه في الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته وهذا الحجر هو مقام ابراهيم فقال لها ابراهيم ارفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين ثم قال لها اذا جاءك اسمعيل فقولي له ان ابراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك احتفظ بعتبة بيتك فنعمت العتبة هي وسار ابراهيم راجعا نحو الشام وقيل انما سمي اسمعيل لان الله سمع دعاء هاجر ورحمها حين هربت من سيدتها سارة أم اسحق وقيل ان الله سمع دعاء ابراهيم وقبض اسمعيل

حدثنا خروف الذاكي الارج * عن الشريف الطحطائي فرج
سمعت في المنام طه على * حديث من أصبح وفق النقل
أي آمنا في سربه معافى * في جسمه مع قوت يوم وافى
وكل ما ألفت في الفنون * أو جوبه التحقيق للظنون
فليروه عني بشرط معتبر * وربما يصدق الخبير الخبر
ولي تآليف على العشرينا * زادت ثمانيا حوت تفننا
فليروها ان شا بلا استثناء * والله أرجو نيل قصد نائي
بجاه من شرف بالادناء * صلى عليه الله في الآناء
أحمد خير المرسلين الهادي * غوث البرايا ملجأ الاشهاد
عليه أسنى صلوات زاكيه * مع صحبه ذوي المزايا الزاكيه
ومن تلا ممن أطاب عمله * فنال من رجائه ما أمله
وشم من عرف قبول أرجا * فنال من حسن الختام سارجا

وخاطبني من أهلها أيضا خادم الشيخ الاكبر بن عربي محيي الدين وهو الشيخ الاكرمي سيدي ابراهيم سلك الله بي وبه سبل المهتدين بقوله

فكرت في فضل الاما * م المقري الحبر حينا
فوجدته بكر الزما * ن وواحد الدنيا يقينا
ما ان رأيت ولا سمعـ * ـت بمثله في العالمينا
وأتى دمشق زائرا * أوانه أضحى قطينا
وأتى عجيب الاتفا * ق بفطر شهر الصائمينا
فكأن غرته الهلا * ل ونحن كنا ناظرينا
والعلم قال مؤرخا * أدى بها فضلا مبينا

وخاطبني أيضا منهم الفقيه النبيه سيدي مصطفى بن محب الدين حفظه الله تعالى بقوله

فضائل قطب الغرب في العلم والفضل * هو المقري الاصل حائزة الخصل
حوى كل علم كل عن بعضه السوى * فلا غرو أن أضحى فريدا بلا مثل
وحاز فنونا من ضروب معارف * ومن فضل تحقيق ومن منطق فصل
توخى دمشق الشام فافتر ثغرها * سرورا به وازينت من حلى الفضل
وشرف مصر اقبلها فاكتست به * ملابس فخر زانها كرم الاصل
لقد أشرقت من أفق غرب شموسه * وناهيك أفقا نوره قدره يعلي
نفاسته فيها أتتنا فست الورى * بما قد غدا من در ألفاظه يملي
ملي عمن التحقيق ان عن مشكل * تكفل بالتبيان والشرح والحل
اذا ما أدار الدر من كاس لفظه * سقانا عقار الفضل علا على نهل
نظام له يحكي قلائد عسجد * وثغر مليح فائق الحسن والدل
وأسجاعه ان حاك وشي نسيجها * حكت حبرا حيكت بمارق من غزل

وله مائة وسبع وثلاثون سنة فدفن في المسجد الحرام حيال الموضع الذي فيه الحجر الاسود * وولد لاسمعيل اثنا عشر ولدا ذكرا وهم نابت وقيذار واربل ومسيم ومسمع ودوما ودوام ومشى وحداد ونيم وبطور ونابسر وكل هؤلاء قد أنسل وقد كان ابراهيم قدم الى مكة ولاسمعيل ثلاثون سنة حين أمره الله تعالى ببناء البيت فبناه وكان اسمعيل يأتي بالحجر من عشرة جبال ذكرت وطوله ثلاثون ذراعا وعرضه اثنان وعشرون ذراعا وسمكه سبعة أذرع وجعل له بابا ولم يسقف ووضع الركن موضعه وألصق المقام بالبيت وذلك قوله عزوجل واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل الآية وأمر الله تعالى ابراهيم ان يؤذن في الناس بالحج ولما قبض اسمعيل قام بالبيت بعده نابت بن اسمعيل ثم قام من بعده اناس من جرهم لغلبة جرهم على ولد اسمعيل وكان ملك جرهم يومئذ الحرث بن مضاض وهو أول من ولي البيت وكان ينزل هنالك في الموضع المعروف بقعيقعان في هذا الوقت وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرها عليه وذلك في أعلى مكة وملك العماليق السميدع بن هود بن حد بن مازن بن لاي بن قنطور اوكان ينزل أجيادا من أسفل

له القلم الاعلى بشرق ومغرب * له الموضع الاسمى على الكل فى الكل
فياسيدا حاز المفاخر والعلا * وفاقت حلى الآداب منه على الحلى
اليك من العبد الحقير تحية * لقد نشأت عن خالص الود من خل
موال يوالى الحب والقرب منكم * بظاهر غيب لا يحيد عن الوصل
فلا زلت محبوّا بسابغ نعمة * وفضل نعيم وافر وارف الظل
ودمت لدى الاسفار فى نجح أوبة * وجمع لشمل بالمواطن والاهل

وخاطبنى أيضا الشيخ سيدى محمد بن سعد الكاشنى بقوله

شهر شعبان جاءنا ليهنى * بقدوم الاستاذ كنز الفضائل
بهجة الكون روض علم وحلم * وهو مغنى اللبيب ان جاء سائل
بمصابيح فضله قد أضاءت * ساحة الجامع الكبير لآمل
وبمختار لفظه صار يحوى * لحديث مسلسل عن أفاضل
ومن الغرب حين وافى لشرق * فاق بدرا لتمام وسط المنازل
حل منى فى القلب والطرف لما * لاح سعد السعود لى غير آفل
وغدا بالامان والسعد أرخ * أحمد المقرى فى الشام قائل

وقال أيضا شكر الله تعالى نيته وبلغه أمنيته

أتاك دمشق الشام أكرم وارد * فقرى به عينا وللحسن شاهدى
وهزى دلالا فى أزاهر روضه * معاطف لين كالغصون الامالد
لك البشر ياعينى ظفرت بماجد * رفيع الذرى من فوق فرق الفراقد
لقد شاع بين الناس واسع فضله * فكم قاصد يسعى لنيل الفوائد
من العلم الفرد المفيد الذى له * أياد سمت بالجود تولى لقاصد
وذاك أبو العباس أحمد من صفت * مناهله دوما الى كل وارد
تراه اذا وافيتــه متهللا * ويبسم حبا فى وجوه الاماجد
امام سما قدرا على النجم رفعة * أرى وصفه فى بيت نظم مشاهد
لديه ارتفاع المشترى وسعوده * وسطوة بهرام وظرف عطارد
شهدت بان الله أولاه منحة * بنقل حديث فى جميع المساجد
ومذ حل فى وادى دمشق ركابه * وسودده وافى باعدل شاهد
حوى كل افضال وكل فضيلة * بها يهتدى حقا لنيل المقاصد
وما ذا عسى فى مدحه انا قائل * ولو جئت فيه مطنبا بالقصائد
اذا رمت أن تلقى نظيرا لمثله * عجزت ورب الناس عن عد واحد
فكم من معان حازها ببيانه * وفكرته قد قيدت للشوارد
ومنطقه حاوى الشفا بجواهر * صحاح بها يزدان عقد القلائد
من الغرب وافى نحو شرق فاشرقت * شموس علوم أسفرت عن محامد
فناديته ياسيدى من بفضله * تواترت الاخبار عن غير واحد

مكة وكان يعشر من دخل مكة من ناحيته وكانت بينهم حروب فخرج الحرث بن مضاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح والدرق فسمى الموضع بقعيقعان لما ذكرنا وخرج السميدع ملك العماليق ومعه الجياد من الخيل فعرف الموضع باجياد الى هذا الوقت فكانت على الجرهميين وافتضحوا فسمى الموضع فاضحا الى هذا الوقت ثم اصطلحوا ونحروا الجزر وطبخوا فسمى الموضع بمطابخ الى الآن وصارت ولاية البيت الى العماليق ثم كانت لجرهم عليهم وأقاموا ولاة البيت نحو ثلثمائة سنة وكان آخر ملوكهم الحرث ابن مضاض الاصغر ابن عمرو بن الحرث بن مضاض الاكبر وزادوا فى بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم عليه السلام وبغت جرهم فى الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم فى الحرم بامرأة وكان الرجل يدعى باساف والمرأة نائلة فمسخهما الله عز وجل حجرين صيرا بعد ذلك وثنين وعبدا تقربا بهما الى الله تعالى وقيل بل هما حجران نحتا ومثلا بمن ذكرنا وسميا باسمائهما فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات فهلك كثير منهم وكثر ولد اسمعيل وصاروا ذوى

عسى عطفة منكم على بنظرة * فانت لموصول الجدا خير عائد
وأنت على ريب الزمان مساعدى * وأنت يمينى للحسود وساعدى
فلازلت تولى كل من هو آمل * لبغيته من صادر ثم وارد
وتبقى مدى الايام فى المجد رافلا * بثوب الهنا تكفى شرور الحواسد
وهاك عروسا تجتلى فى حليها * اليك أتت فى زى عذراء ناهد
تهنى بعيد الفطر من بعد صومكم * بخير جزيل من لذيذ الموائد
وترجو جميل السترانهى مثلت * بحضرتك العلياء يا خير ماجد
وعش فى أمان الله بالعز دائما * مدى الدهر ماناح الحيا فى الفدافد
ومادارت الافلاك من نحو قطبها * ومابزغت شمس الضحى للشاهد

وقال أيضا زاده الله تعالى من فضله

ظبى بوسط الفؤاد قائل * أعجز بالوصف كل قائل
ظبى باجفانه سبانى * وسحرها ينتمى لبابل
يرمى بسهم اللحاظ لما * يرنو فيصمى الفؤاد عاجل
قد فتن العقل مذ تجنى * على حتى غدوت ذاهل
له قوام كخوط بان * أو كالقنا السمهرى عادل
بدر بدا كامل المعانى * فى القلب والطرف عاد نازل
قد أسر القلب فى هواه * بقيد حسن وفرع سابل
ومابقى منه لى خلاص * سوى مديحى رضا الافاضل
أعنى به المقرى من قد * سما على البدر فى المنازل
أحمد مولى له أياد * كالغيث يغنى لكل سائل
علامة حاز كل فضل * سبقا ومن بالعلوم عامل
من قد نشا فى العلوم طرا * وحاز علم البيان كامل
طويل باع بسيط فضل * مديد جود لكل آمل
ووافر العقل راح يهدى * سريع فضل لكل فاضل
وجامع العلم فى ابتهاج * بمنطق فى الاصول حافل
وهكذا فى الكلام مهما * أفاده فى الدروس شامل
يروى صحيح الحديث دأبا * بالسند الواصل الدلائل
وكم علوم أفاد من قد * أتاه فى مشكل المسائل
وحل ابهام كل شكل * من فن وفق الى الوسائل
وغاص فى لجة المعانى * واستخرج الدر فى المحافل
وفى فنون البديع أضحى * جناسه قد حوى رسائل
وكم دليل أقام لما * برهانه أبهت المعازل
ان كان وافى لنا أخيرا * فهو الذى فاخر الاوائل

قوة ومنعة فغلبوا على اخوالهم جرهم وأخرجوهم من مكة فلحقوا بجهينة فاتاهم فى بعض الليالى السيل فذهب بهم وكان الموضع يعرف باضم وقد ذكر ذلك أمية بن أبى الصلت الثقفى فى شعر له فقال

وجرهم دمنوا تهامة فى الدهر فسالت بجمعهم اضم

(وفى ذلك) يقول الحرث بن مضاض الاصغر الجرهمى

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فابادنا
صروف الليالى والجدود العواثر
وكنا لاسمعيل صهرا ووصلة
ولما تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت
نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدلنا ربى بها دار غربة
بها الذئب يعوى والعدو المحاصر

وفيما ذكرنا من أخبارهم يقول عمرو بن الحرث بن مضاض الاصغر الجرهمى

وكنا ولاة البيت والقاطن الذى
اليه يؤدى نذره كل محرم
سكنا بها قبل الظباء وراثة
فسقوا فى الحرام بعد تقاهم * لها عن بنى هى بن نبت بن جرهم

وفى ذلك يقول هفنا جرهم وآية كهف * وولاة لبيته والحجاب

بحر محيط يفيض منه * على رياض بكل ساحل
وافى من الغرب نحو شرق * يجوب من فوق متن بازل
فى مهمه مصحصح سهول * وحزنه كم به غوا ئل
وحث فيه المسير حتى * خلفه من وراء كاهل
وجاء بالمين فى أمان * وصحة الجسم والشمائل
وحل فى الشام عند قوم * من أكرم الناس فى القبائل
ذاك ابن شاهين ذو المعالى * رب الندى للالوف باذل
كانه الشمس جاء يهدى * لبدر نورا وليس آفل
بل كان غيثا لهم وكانوا * روضا أريضا الشكر وابل
فبجلوه وعظموه * وادخروا عاجلا لآجل
جزاهم الله كل خير * وصانهم من جدال جاهل
وأحمد دام فى أمان * المقرى الرضا المعامل
لربه فى دجى الليالى * ويرشد الناس فى الاصائل
لازال فى نعمة وخير * وفى أمان يعود عاجل

وخاطبنى الاديب الفاضل الشيخ أبو بكر العمرى شيخ الادباء بدمشق حفظه الله تعالى بقوله

تاهت تلمسان على مدن الدنى * بعالم فى العالمين محمد
المقرى أحمد رب الحجا * الكامل البحر الخضم المزبد
مالك هذا العصر شافعيه * أحمده نعمانه المسدد
مذ حل مصر اذعنت أعلامها * لفضله وبجلوا ومجدوا
وفى دمشق الشام دام سعدها * كان له بها المقام الاسعد
العلماء أجمعوا جميعهم * على معاليه التى لا تجحد
أقام شهرا أو يزيدوا انثنى * وفى الحشا منه المقيم المقعد
سالت على فراقه دموعنا * وفى القلوب زفرة لا تخمد
لو قيل من يحمد فى تاريخه * ما قلت الا المقرى أحمد
لابرحت أوقاته مفيدة * ما صاح فوق عوده مغرد

قلت وذكرى الكلام أعيان دمشق حفظهم الله تعالى ومديحهم لى ليس علم الله لاعتقادى فى نفسى فضلا بل أتيت به دلالة على فضلهم الباهر حيث عاملوا مثلى من القاصرين بهذه المعاملة وكسوه حلل تلك المجاملة مع كونى لست فى الحقيقة باهل لما أنا عليه من الخطا والخطل والجهل ولقد خاطبت من مصر مفتى الشام صدر الاكابر وارث المجد كابرا عن كابر ساحب أذيال الكمال صاحب الخلال المبلغة الآمال مولانا شيخ الاسلام الشيخ عبد الرحمن العمادى الحنفى بكتاب لم يحضرنى منه الآن غير بيتين فى أوله وهما

وكانت حروب كثيرة بين مضر وأياد وكانت لمضر على اياد فانجلوا عن مكة الى العراق * وسنورد بعد هذا جملا من أخبار مكة وولد نزار وخزاعة وغيرهم (قال المسعودى) وقد أتينا على جمل من الاخبار فى هذا الباب من أخبار جرهم وغيرها ووجدت فى وجه آخر من الروايات أن أول ملك من ملوك جرهم ملك بمكة مضاض بن عمرو بن سعد ابن الريث بن هى بن نبت بن جرهم بن قحطان مائة سنة ثم ملك بعده ابنه عمرو بن مضاض مائة وعشرين سنة ثم ملك بعده الحرث بن عمرو مائتى سنة وقيل دون ذلك ثم ملك بعده عمرو بن الحرث مائتى سنة وقيل دون ذلك ثم ملك مضاض بن عمرو الاصغر ابن الحرث بن عمرو بن سعد بن الريث بن هى بن نبت بن جرهم بن قحطان أربعين سنة وانقرضت العرب العاربة من عاد وثمود وعبيد وطسم وجديس والعماليق واياد وجرهم ولم يبق من العرب الا من كان من عدنان وقحطان ودخل من بقى ممن ذكرنا من العرب البائدة فى عدد قحطان وعدنان فانمحت أنسابهم وزالت آثارهم وقد كانت العماليق بغت فى الارض

يا حادى الاظعان نحو الشآم * بلغ تحياتى لتلك الفئام
وابد أعقبتها العمادى الرضا * دام به شمل الهنا فى التمام

فاجابنى بما نصه

الى أهالى مصر أهدى السلام * مبتدئا بالمقرى الهمام
من ضاع نشر العلم من عرفه * ولم يضع منه الوفا للذمام

أهدى تحف التحية الى حضرته العلية وذاته ذات الفضائل السنية الاحمدية التى من صحبها لم يزل موصولا بطرائف الصلات والعوائد الاوحدية الجامعة التى لها منها عليها شواهد

وليس لله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

فيامن جذب قلوب أهل عصره الى مصره وأعجز عن وصف فضله كل بليغ ولو وصل الى النثرة بنثره أو الى الشعرى بشعره ومن زرع حب حبه فى القلوب فاستوى على سوقه وكاد كل قلب يذوب بعد بعده من حر شوقه وظهرت شمس فضله من الجانب الغربى فبهرت بالشروق وأصبح كل صب وهو الى بهجتها مشوق زار الشام ثم ما سلم حتى ودع بعد أن فرغ بروضها أفنان الفنون فابدع وأسهم لكل من أهلها نصيبا من وداده فكان أوفرهم سهما هذا المحب الذى رفع بمحبته سمك عماده وعلق بمحبته شغاف فؤاده فانه دنا من قلبه فتدلى وفاز من حبه بالسهم المعلى أدام الله تعالى لك البقا وأحسن لنا بك الملتقى ومن علينا منك بنعمة قرب اللقا آمين بمنه ويمنه هذا وقد وصل من ذلك الجناب الوفى كتاب كريم هو اللطف الخفى بل هو من عزيز مصر القميص اليوسفى جاء به البشير ذو الفضل السنى الخل الاعز الاجل التاج المحاسنى مشتملا على عقود الجواهر بل النجوم الزواهر بل الآيات البواهر تكاد تقطر البلاغة من حواشيه ويشهد بالوصول الى طرفها الاعلى موشيه فليت شعرى باى لسان أثنى على فصوله الحسان العالية الشان الغالية الاثمان التى هى أنفس من قلائد العقيان وأبدع من مقامات بديع الزمان فطفقت أرتع من معانيها فى أمتع رياض وأقطع بان فى منشئها اعتياضا لهذا العصر عن عياض

ليت الكواكب تدنو لى فانظمها * عقود مدح فلا أرضى لها كلمى

ولاسيما فضل التعزية والتسلية المشتمل على عقد التخلية بل عقود التحلية لتلميذكم الولد ابراهيم فانه كان له كرقية السليم بعد أن كاد يهيم نجاء والله درة فى أحسن الحال ووقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركته من عقال

واذا الشئ اتى فى وقته * زاد فى العين جمالا لجمال

فجزاكم الله تعالى عنا احسن الجزاء ثم احسن لكم جميل العزاء فيمن ذكرتم من كريمتى الاصل والفرع وابقى منكم ما كنا فى الارض من به للناس اعم النفع واما مصيبة من كان وليى وسميى ومنجدى الشهيد السعيد المرحوم الشيخ عبد الرحمن المرشدى فانها وان اصابت منا ومنكم الاخوين فقد عمت الحرمين بل طمت الثقلين ولقد عد

فسلط الله عليهم ملوك الارض فافنتها وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للروم وانسابها من لحق بولد عملاق وغيرهم فمن ذكرنا ولد عيص بن اسحق بن ابراهيم عليهما السلام وأن علماء العرب تنسبهم الى غير هذا النسب وهو الاشهر فى الناس وقد رثتهم الشعراء فقال بعض من رثاهم

مضى آل عملاق فلم يبق منهم
خطير ولا ذو نخوة متشاوس
عتوا فأدال الله منهم وحكمه
على الناس هذا وعده وهو سائس

وأما طسم وجديس فتفانت فى نحو من سبعين سنة فى البرارى بما كان بينهم من الشحناء وطلب الرياسة فدثروا ولم يبق لهم باقية فضربت بهم العرب المثل وضربت بهم الشعراء المقال فمن ذلك ماقاله بعض الشعراء ممن رثاهم فى قوله

فويلى من جوى هم رسيس
من الالاء لطسم أو جديس
بنو عم تفانوا بالمذاكى
وباليوم الاحم العيطموس

وأما الرس وأصحابه فقد قدمنا ذكرهم فيما سلف من كتبنا وهم قوم حنظلة ابن صفوان العبسى بعثه الله اليهم فكذبوه وقد ذكرنا من خبره لمعا وقد قيل فى أصحاب الرس أوجه كثيرة غير ما ذكرنا فى هذا

الكتاب وقد ذكرت هذه القبائل فى التوراة وكل ٥٤٦ يرجع الى ولد سام بن نوح من بنى ارم بن سام ومن ولده عوص بن ارم ومن
ولده عابر بن ارم ومن ولده
ماش بن ارم فولد عوص
عاد بن عوص وولد عابر
ثمود بن عابر وولد ماش بن
ارم نبيط بن ماش فصار
النبط وملوكها ترجع فى
انسابها الى نبيط بن ماش
فحل عاد بن عوص بن ارم
ابن سام بن نوح وولده
الاحقاف من بلاد
حضرموت وحل ثمود بن
عابر بن ارم بن سام بن نوح
وولدها كناف الحجاز وحل
جديس بن عابر بلاد جو
وهى بلاد اليمامة ما بين
البحرين والحجاز وهذا البلد
فى هذا الوقت وهو سنة
اثنتين وثلاثين وثلثمائة
بيد ولد الاخيضر العلوى
وهو من ولد الحسن بن على
ابن أبى طالب رضى الله
عنهما وهو مجاور للبحرين
ومن فيها الى هذا الوقت
وحل طسم بن لوذ بن سام بن
نوح وولده اليمامة مع بنى
جديس وحل عملوق بن
أد بن سام بن نوح الحجاز
وقد ذكرنا ولد علام فيما
سلف من هذا الكتاب
أنهم حلوا الاهواز وفارس
وهو عيلام بن سام بن نوح
وحل نبيط بن ماش بن ارم
ابن سام بن نوح بابل فغلبوا
على العراق وهم النبط
ومنهم ملوك بابل الذين قد منا ذكرهم وأنهم الملوك الذين عمروا الارض ومهدوا البلاد وكانوا لم

مصابه فى الاسلام ثلمة وفقد به فى حرم الله تعالى من كان يدعى للملمة ولم يبق بعده الا من يدعى اذا يحاس الحيس واستحق ان ينشد فى حقه وان لم يقس به قيس

وما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

فالله تعالى يرفع درجاته فى عليين ويبقى وجودكم للاسلام والمسلمين وتلامذتكم الاولاد يرجون من بركات أدعيتكم أعظم الامداد ويهدون أكمل التحية الى حضرتكم العلية ونبلغكم دعاء صاحب السعادة أدام الله تعالى اسعادكم واسعاده ونحن من محبته الشهية فى رياض فنون أدبية أبهاها المعاني محاضرة فى ذكر شمائلكم الجميلة تنور المجالس وأشهاها نسمات محاورة بنشر فضائلكم الجليلة تعطر المجالس وسلام جملة الاصحاب من أهل الشام وعامة الخواص والعوام والدعاء على الدوام المخلص الداعى عبد الرحمن العمادى مفتى الحنفية بدمشق المحمية (ووردت) على مع المكتوب المذكور مكاتبات لجماعة من أعيان الشام حفظهم الله تعالى فمنها من الصديق الحميم الرافل فى حلل المجد الصميم الخطيب الاديب سيدى الشيخ المحاسنى يحيى أسمى الله تعالى قدره فى الدين والدنيا كتابان نص أولهما باسمه سبحانه

لئن حكمت أيدى النوى أو تعرضت * عوارض بين بيننا وتفرق
فطرفى الى رؤياكم متشوف * وقلبى الى لقياكم متشوق

يقبل الارض الشريفة لازال مركز الدائرة التهانى وقطب الفلك تجرى المجرة على مجرته على الدقائق والثوانى ولا برحت ألسن البلاغة عن تمييز براعة حامى حماها معربة وبلابل الآداب على الاغصان فى رياض فضله بمثانى الثناء صادحة وبالحان سجعها مطربة

أرض بها فلك المعالى دائر * والشمس تشرق والبدور تحوم
ولها من الزهر المنضد أنجم * ولها على افق السماء نجوم

عمر الله تعالى بالمسرات محلها وعم بالخيرات من حلها ويبتدئ بسلام يخبر عن صحيح وده السالم ومزيد غرام يؤكد حبه الذى هو للولاء حازم وينعت شوقا يحرك ماسكن صميم الضمير من صدق حب سلم جمعه من التكسير ويؤكد السلام بتوابع المدح والثناء ويعرب عن محبة مشيدة البناء وينهى ان السبب فى تسطيرها والباعث على تحريرها أشواق اضرم نارها فى الفؤاد ومحبة لو تجسمت لملأت البلاد

شوقى لذاتك شوق لا ازال ارى * اجدده يا امام العصر اقدمه
ولى فم كاد ذكر الشوق يحرقه * لو كان من قال نار أحرقت فمه

هذا وان تفضل المولى بالسؤال عن حال هذا العبد فهو باق على ما تشهد به الذات اللطيفة العلية من صدق المحبة ورق العبودية ولم يزل يزين افق المجالس بذكركم ولا يقتطف عند المحاضرة الا من زهركم ولم ينس حلاوة العيش فى تلك الاوقات التى مضت فى خدمتكم المحروسة بعناية الملك المتعال وليالى الانس التى قيل فيها وكانت بالعراق لنا ليال

واها لها من ليال هل تعود كما * كانت واى ليال عاد ماضيها

لم أنسها مذ نأت عنى ببهجتها * واى انس من الايام ينسيها

فنسأل الله تعالى ان يمنّ بالتلاق ويفصل مانعة الجمع بطى شقه الفراق ان ذلك على الله يسير وهو على جمعهم اذا يشاء قدير وبعد فالمعروض على مسامع سيدى الكريمة لازالت من كل سوء سليمة انه وصلنا مكتوبكم الكريم صحبة العم المحب القديم فحصل لهذا العبد به جبر عظيم وانس جسيم كما شهد بذلك السميع العليم فعزمت على ترك الاجابة لعدم الاجادة ومتى تبلغ الالفاظ المذمومة ما بلغته الالفاظ المقربة واين يصل صاحب الزمر كما قيل الى الدقات الخليلية ولكننى خشيت من ترك الاجابة توهم نقض ما أبنيه من رق العبودية وصحة الوداد ومن انقطاع برق شيخى الذى هو لبيت شرفى العمدة والعماد فلزم من ذلك أن كتبت لجنابه الشريف الجواب وان كان خطؤه أكثر من الصواب وأرسلته قبل ذلك بعشرة أيام ومكتوب هذا العبد صحبته مكتوبان أحدهما من محبكم شيخ الاسلام المفتى العمادى والآخر من محبكم أحمد افندى الشاهينى وهما وبقية أكابر البلدة وأعيانها يبلغونكم السلام التام ولا تؤاخذونا فى هذا المكتوب فانى كتبته عجلا ومن جنابكم خجلا دام خيركم على الدوام الى قيام الساعة وساعة القيام وحرر يوم الاثنين ١١ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ الفقير الداعى يحيى المحاسنى انتهى * (ونص الكتاب الثانى من المذكور أسماه الله) باسمه سبحانه مخلصك الذى محض لك وداده ومحبك الذى أسلم لمحبتك قياده بل عبدك الذى لا يروم الخروج عن رقك وتلميذك الذى لم يزل مغترفا من فيض علومك معترفا بحقك من أسكنك لبه وأخلص لك حبه واتخذك من بين الانام ذخرا نافعا وكهفا مانعا ومولى رفيعا وشهابا ساطعا وتشبث بأسباب علومك وتمسك يهدى اليك سلاما كأنما تعطر بمسك ثنائك وتمسك واكتسب من لطف طبعك الرقة واستعار من سنى وجهك حلة مستحقة وتحية لم يكن مناه الا أن تكون بالمواجهة والمحاضرة والمشافهة على أن فؤاده لم يبرح لك سكنا واحشاءه لك موطنا ويبدى دعوات يحقق الفضل انها من القضايا المنتجة وأن أبواب القبول لها غير مرتجة مقبلا أياديك التى وكفت بوابل جودها وكفت المهم بنتائج سعودها وحاكت الوشى المرقوم وسلكت الدر المنظوم فهذا يرفل فى حللها وهذا يتحلى بعقودها

فهى التى تعنو الرياض لرقها * ويغار منها الدر فى تنضيدها
ويحار أرباب البيان لنظمها * فهم بحضرتها كبعض عبيدها

متمسكا من ولائك بوثيق العرا متمسكا من ثنائك الذى لا يزال الكون منه معنبرا متشوقا للقائك الذى بالمهج يستام وبالنفوس يشترى متشوقا الى ما يرد من أنبائك التى تسر خبرا وتحمد أثرا أعنى بذلك المولى الذى أقام بفناء الفسطاط مخيما وانتجع حماه رائد الفضل مميما وشدت لفضائله الرحال ووقفت عندها بل دونها فحول الرجال وطلعت شموس علومه فى سماء القاهرة فاختفت نجوم فضلائها والاشعة باهرة

هو الشمس علما والجميع كواكب * اذا ظهرت لم يبد منهن كوكب

فهو العالم الذى سرى ذكره فى الآفاق مسير الصبا جاذب ذيلها النسيم الخفاق الذى أطلع

أشر ملوك الارض فادال منهم الدهر وسلبهم الملك والعز فصاروا على ماهم عليه من الذل فى هذا الوقت بالعراق وغيرها وقد زعم جماعة من المتكلمين منهم ضرار بن عمرو وثمامة بن الاشرس وعمرو بن بحر الجاحظ أن النبط خير من العرب لان من جعل الله تبارك وتعالى النبى صلى الله عليه وسلم منهم لم يدع أكبر شرف فى الدنيا الا وقد أعراهم منه وسلبهم اياه ولا نعمة على من جعل الله تعالى النبى عليه السلام منهم أكبر من النبى صلى الله عليه وسلم ولا بلوى على من لم يجعل الله عز وجل النبى صلى الله عليه وسلم منهم أكبر من خروج النبى صلى الله عليه وسلم عنهم الا أنهم مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء (قال المسعودى) ولما لم يسأل من قدمنا ذكره من تشريف النبط وتفضيلهم على ولد قحطان وعدنان وفيهم الفضل والشرف من النبوة والملك والعزة قال لهم المحتج عن قحطان ونزار اذا كان النبط قد صاروا أفضل من العرب لما امتحن الله به النبط من سلبه النبوة منهم وأنعم على العرب بكون النبى صلى الله عليه وسلم منهم فللعرب أيضا التعلق بهذه العلة التى اعتل بها النبط فتقول قد صرنا بعد أفضل من النبط لما

امتحانا من سلب ما جعل الله للنبط من الفضل فى شدة امتحانهم بسلب النبى صلى الله عليه وسلم عنهم والنبط أيضا قد صاروا دون العرب اذ للعرب من فضل النبى صلى الله عليه وسلم مما جعله الله لهم بتعريتهم من فضل النبط على شدة امتحانهم بتعرية الله اياهم من النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس للنبط فتصير العرب أيضا خيرا من النبط وهذا لا يصح لهم الا كما يصح عليهم والكلام متوجه عليهم فيما قالوه ومكافئ لعلتهم فيما أوردوه من تفضيل النبط على العرب وقد ذكرنا تنازع الناس فى الانساب والفضل بها وبالاعمال دون الانساب ومن قال ان العمل دون النسب وما قالته الشعوبية وغيرها فى كتابنا المقالات فى أصول الديانات وقد ذكر أبو الحسن أحمد ابن يحيى فى كتابه فى الرد على الشعوبية عللا كثيرة وذكر أن من اختصه الله تعالى من عباده واصطفاه من خلقه اذ ذلك على طريق الثواب ام على طريق التفضيل قال فان زعم زاعم أن ذلك ثواب خرج من معقول كلام العرب ومفهوم خطابها لانه لا يقال لمن أعطى الاجير أجرته ووفى العامل ثوابه قد اختص فلان فلانا بعطيته وانما يقال ذلك اذا تطوع عليه بالعطية بغير عمل ومنعها

فاما

شمس التحقيق من أفق بيانه وأظهر بدر التدقيق من تبيانه فلهذا عقدت عليه الخناصر بين علماء عصره وانقطعت اليه الاواصر من فضلاء مصره فلا يضاهيه أحد فى زمانه وينسق مانسقه من دره ومرجانه فهو المعول عليه فى مشكلات العلوم معقولها ومنقولها والمنطوق والمفهوم الذى لم تسمح بمثله الازمان والعصور ولم يأت بنظيره تتابع الاعصار والدهور من عجز لسان القلم عن التصريح باسمه الشريف فى هذا الرقم لازالت المدارس مشرقة بالقائه فيها الدروس ولا برحت البقع عامرة بوجوده بعد الدروس ماسطرت آيات الاشواق فى الصحائف والطروس وأرسلت من تلميذ الى أستاذ بسبب نسبته اليه بفضل على المطلوب من شرف النفوس هذا والذى بين يدى لحضرتكم وينهى لطلعتكم أن الراقم لهذه الصحيفة المشرفة ببعض أوصافكم اللطيفة المرسلة لساحة فضائلكم المنيفة هو تلميذكم من تشرف بدرسكم وافتخر باجازتكم بين يدى لكم تلهفه لنيران أشواقه التى التهبت وتأسفه على الايام السالفة مذهبة فى خدمتكم لاذهبت وتوجعه لهذه الازمان التى استرجعت بالبعد عنه من ذمته ما وهبت وتطلعه الى ما يشنف به الاسماع من فضائله التى سلبت العقول وانتهبت فلم يزل يسال الرواة عنها ليلتقط منها وقد تحقق ان فرائدها لا يلفى لها نظير ولا يدرك كنهها وكيف لا ومنها تعلم الفاضل اللبيب واليها يفتقر السعيد ويتودد الحبيب وعليها يعتمد ابن العميد ولم تنفك راقية فى درج المزيد وعبد الحميد عبد الحميد وعلم شغفى محيط بصدق محبتى واخلاصها وشدة حرصى على تحصيل فوائد مولانا واقتناصها وانى لا أزال ذاكر المحاسنه التى ليست فى غيره مجموعة ومتطفلا على ثمار أفكاره التى هى لا مقطوعة ولا ممنوعة وخاطره الشريف على الحقيقة يشهد بذلك فلا يحتاج هذا العبد الى بينة لدى مولانا الاستاذ المالك وحقيق على من فارق تلك الاخلاق الغر والشمائل الزهر والعشرة المعشوقة والسجايا الموموقة والفضائل الموفورة والمآثر المشهورة أن يشق جيب الصبر ويجعل النار حشو الصدر

وانى لتعرونى لذكراك هزة * كما انتفض العصفور بلله القطر

ولو ملكت مرادى لما أحضر الا فى ذراء مرادى بل لو دار الفلك على اختيارى لما انضوت الا عنده ليلى ونهارى

ولو نعطى الخيار لما افترقنا * ولكن لا خيار مع الزمان
وتحت ضلوعى لوعة لو كتمتها * لخفت على الاحشاء أن تتضرما
ولو بحت فى كتبى بما فى جوانحى * لانطقتها نارا وأبكيتها دما

وأنا لا أقترح على الدهر الا لقياه ولا أقطع حاضر الوقت الا بذكراه وما أعد أيامى التى سعدت فيها بلقائه الا مفاتح السرور ومطالع السعود والحبور ولست أعيبها الا بقلة البقاء وسرعة الانقضاء وكذلك عمر السرور قصير والدهر بتفريق الاحبة بصير ورب ناضر العود بعد الذبول وطالع النجم بعد الافول وأديل الوصال من الفراق وعاد العيش المترحل المذاق

وما أنا من أن يجمع الله شملنا * كاحسن ما كنا عليه بآيس

فاما الآن فلا أرجى الوقت الا بقلب شديد الاضطراب وجوانح لا تفيق من التوقد والالتهاب وكيف لا وحال حالى من ودع صفو الحياة يوم وداعه وانقطع عنه الانس ساعة انقطاعه وطوى الشوق جوانحه على غليل وحل أضلاعه على كمد دخيل وأغرانى فلزمنى ولزمته وألف بينى وبين الوجد فالفنى وألفته فلا أسلك للعزاء طريقا الا وجدته مسدودا ولا أقصد للصبر بابا الا ألفيته مردودا ولا أعد اليوم بعد فراق سيدى الاشهرا والشهر دون لقائه الادهرا ولست بناس أيامنا التى هى تاريخ زمانى وعنوان الامانى اذ ماء الاجتماع عذب وغصن الازديار رطب وأعين الحواسد راقدة وأسواق صروف الدهر كاسدة فما كانت الا لمحة الطرف ووثبة الطرف ولمعة البرق الخاطف وزورة الخيال الطائف وما تذكرت تلك الايام فى أكناف فضائله ونضرتها ورياض علومه فى ظله وخضرتها الا أوجب على عينه أن تدمع وأنثنى على كبده خشية أن تصدع ثم لما ورد على عبدكم ما أتى بكم الكريم صحبة حضرة العم المحب القديم فكان كالعافية للصب السقيم كما يشهد بذلك السميع العليم فوقف له منتصبا وخفف عنه برؤيته وصبا وذكر أيام الجميع فهام وجدا بها وصبا فاستخفه الاعجاب طربا وشاهد صدوره فقال هكذا تكون الرياض وعاين لطفه فقال هكذا تكون الصبا وقبل كل حرف منه ووضعه على الراس وحصل له بعد ترقبه غاية المجابرة والاستئناس فعند ذلك أنشد قول بعض الناس

ورد الكتاب فكان عند وروده * عيدا ولكن هيج الاشواقا
نوناته قد عانقت صاداته * كعناق مشتاق يخاف فراقا
فكأنما النونات فيه أهلة * وكأنما صاداته أحداقا
فعسى الاله كما قضى بفراقنا * يقضى لنا يوما بأن نتلاقى

فجعلته نصب عينى أتسلى به عند استيلاء الشوق على قلبى وأطفئ بتأمله نيران وجدى اذا التهبت فى صدرى وسررت به سرور من وجد ضالة عمره وأدرك جميع أمانيه من دهره وأنست بتصفحه أنس الرياض بانهلال القطر والسارى بطلوع البدر والمسافر بتعريسة الفجر وكيف لا وقد أصبح فى وجه الامانى خدا بل فى خدها وردا وصار حسنة من حسنات دهرى لا يمحو مرور الايام موضعها من صدرى وطلعت طوالع السرور وكانت آفلة واهتزت غصون الفرح وكانت ذابلة لاسيما لما تضمن من البشارة السارة بصحة المولى وسلامته وحلوله فى منازل عزه وكرامته وموعده الكريم بعوده الى دمشق الشام كساها ثوب الفخام مرة ثانية ويتم افتخارها على غيرها فلا تزال مفاخرة مباهية نسأل الله تعالى أن يحقق ذلك وان يسلك بسيدى أحسن المسالك انه سبحانه وتعالى سامع الاصوات ومجيب الدعوات فان عودكم ياسيدى والله مرة أخرى هو الحياة الشهية والامنية التى ترتجى النفس بلوغها قبل المنية وما أنا من الله بآيس من أن يتيح سببا يعيد المزار مقتربا والشمل مجتمعا وحبل البين منقطعا ثم ليعرض على مسامع سيدى الكريمة لازالت من كل سوء سليمة أنا وصلنا مكاتيبكم كما أمرتم لاربابها لاسيما مكتوب شيخ الاسلام سيدى عبد الرحمن افندى المفتى بالشام ومكتوب المولى الاعظم والهمام الافخم أحمد افندى

غيره بغير جرم وان زعموا انه تفضل قلنا لهم فاذا جاز أن يصرف الله عزوجل رحمته الى بعض خلقه بغير عمل استحقوها به فلم لا يجوز أن يشرفهم بانسابهم وان لم تكن الانساب من أعمالهم فان قالوا اليس من العدل أن يشرفهم بغير أعمالهم قلنا لهم أرأيتم ان عارضكم معارض فزعم أنه ليس من العدل ان يمن عليهم برحمته دون غيرهم بغير عمل كان منهم وبغير معصية كانت من غيرهم ماذا يكون الفصل بينكم معاشر الشيعة وبينه وقد أخبر الله عمن اصطفاه من خلقه فقال ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم والواجب على ذى النسب الشريف والمجد الرفيع أن لا يجعل ذلك سلما الى التراخى عن الاعمال الموافقة لنسبه والاتكال على آبائه فان شرف الانساب يحض على شرف الاعمال والشريف بهذا أولى اذ كان الشرف يدعو الى الشرف ولا يثبط عنه كما ان الحسن يدعو الى الحسن ويحرك عليه واكثر الممدوحين انما مدحوا باعمالهم دون انسابهم وهذا كثير فى اشعار الناس ومنثور كلامهم وقد قال الشاعر فى هاشم ابن عبد مناف وهو امام ذوى الانساب

الشاهينى أعزه الله تعالى فانه وقع عنده الموقع العظيم وحصل به السرور المقيم كما يدل على ذلك جوابه الكريم المحفوف بالتعظيم والتكريم غير أنه قد ساءنا ما اتصل بمولانا من نفوذ قضاء الله تعالى الذى يعم فى البنت والام فجعل الله تعالى فى عمر سيدى البركة وكان له فى السكون والحركة وماذا عسى أن يذكر لجنابكم فى أمر التعزية ويقرر ومنكم يستفاد مثله وعنكم يحرر والاستاذ أدرى بصروف الدهر وتفننها وأحوال الزمان وتلونها وأعرف بان الدنيا دار لما بكنها مدار وأن الحياة ثوب مستعار ونعيم الدنيا وبؤسها ما للواحد منهما فيها قرار وأن لكل طالع أفولا ولكل ناضر ذبولا ووراء كل ضياء ظلاما ولكل عروة من عرا الدنيا انفصاما فهو محل لأن تقوى فى العزاء عزائمه ويصغر فى عينه نوائب الدهر وعظائمه ويغنيه عن عظة تجدد له مقالا وتحل عن عقله عقالا وهو يتلقى المصائب بفكر ثاقب وفهم صائب وصبر يقصر عنه الطود الاشم وعزم ينفلق دونه الصخر الاصم وحلم يرجح اذا طاشت الاحلام وقدم تثبت اذا زلت الاقدام ومد المقال فى ضرب الامثال الى جنابكم الشريف نوع من تجاوز حد الاجلال وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذه المصيبة خاتمة ولا يريه بعدها الا دولة قائمة ونعمة دائمة وأن يحرسه من غير الليل والنهار ويجعله وارث الاعمار بجاه نبينا محمد المختار صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الاطهار بمنه وكرمه ثم أبلغ سيدى أطال الله عمره وشرح صدره ونشر بالخير ذكره السلام التام المقرون بالف تحية واكرام من أهل البلدة جميعا لاسيما من مفتيها العمادى حرس الله ذاته التى هى منهل للصادى والغادى وأولاده الكرام المستحقين للاعزاز والاكرام ومن كبيرها ومدبرها ومشيرها أحمد افندى الشاهينى أعزه الله تعالى بعزه وجعله تحت كنفه وحرزه ومن خطيبها مولانا الشيخ أحمد البهنسى ونقيب أشرافها مولانا السيد كمال الدين وجميع المحبين الداعين لذلكم الجناب والمتمسكين بتراب تلكم الاعتاب ومن الولد والعم والله ياسيدى انه ناشر لواء الثناء والمحامد وداع لذلك الجناب الكاسب للمفاخر والمحامد وحضرة شيخنا شيخ الاسلام وبركة الشام مولانا وسيدنا الشيخ عمر القارى أبقى الله تعالى وجوده وضاعف علينا احسانه وجوده وأولاده يسلمون عليكم السلام الوافر ويهدون لكم الشوق المتكاثر فى ٢ جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ المحب الداعى يحيى المحاسنى انتهى

* وكتب الى عمه الفاضل الاسمى ماصورته باسمه سبحانه وتعالى

وانى لمشتاق الى وجهك الذى * تهلله أهدى السناء الى البدر
وأخلاقك الغر اللواتى كأنها * تساقط انداء الغمام على الزهر

سيدى الذى عبوديتى اليه مصروفة ودواعى محبتى لديه موفورة وعليه موقوفة علم الله سبحانه انى لا أزجى أوقاتى الا بذكراه ولا أرجى اليمن من ساعاتى الا استنشاق نسيم رياه وانى الى طلعته أشوق من الصادى الى ماء صداء ومن كثير عزة الى نوء تيماء

يرنحنى اليك الشوق حتى * أميل من اليمين الى الشمال
ويأخذنى لذكراك اهتزاز * كما نشط الاسير من العقال

ولى على صدق هذه الدعوى من نباهة لبه شاهد معدل ومن نزاهة قلبه منزل غير ملوم

عمرو الذى هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف فمدحه بعمله ولم يذكر نسبه وان كان شريفا رفيعا وانما ينبغى لذوى الانساب ان يكونوا كما قال اخوهم وشريكهم فى النسب

وانى وان كنت ابن سيد عامر * وفى السر منها والصريح المهذب
فما سودتنى عامر عن وراثة * ابى الله ان اسمو بام ولا اب
ولكننى احمى حماها واتقى * أذاها وأرمى من رماها بمقنب

وكما قال الآخر

لسنا وان كرمت أوائلنا * يوما على الاحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا * تبنى ونفعل كالذى فعلوا

(قال المسعودى) ولما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب انخزع بنو ربيعة فنزلوا تهامة فسموا خزاعة لانخزاعهم ولما ثارت الحرب بين أياد ومضر ابنى نزار وكانت على اياد قلعت الحجر الاسود ودفنته فى بعض المواضع فرأت ذلك امرأة من خزاعة فاخبرت قومها فاشترطوا على مضر أنهم ان ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم فوفوا لهم بذلك ووليت خزاعة أمر البيت وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحى واسم لحى حارثة بن عامر فغير دين ابراهيم وبدله وبعث العرب على عبادة التماثيل لخبر قد ولا

ولاعذل كيف لا ومطالع البيان مشرقها من أفلاك فهومه وجواهر التبيان مقذفها من بحار علومه وهو بحر العلم الذى لا يقتحم بسفن الافكار وجبل الحلم الذى وشح بالهيبة والوقار

لو اقتسمت أخلاقه الغرلم تجد * معيبا ولا خلقا من الناس عائبا

وماذا عسى أصف به مولانا وقد عجز عن وصفه لسان كل واصف وحار فى بث فضائله أرباب المعارف والعوارف

فلو نظمت الثريا * والشعريين قريضا
وكاهل الارض ضربا * وشعب رضوى عروضا
وصفت للدوضذا * وللهواء نقيضا

ولكننى أقول الثناء منجح أنى سلك والسخى جوده بما ملك وان لم يكن خمر فخل وان لم يصبها وابل فطل هذا وقد أوصلنا مكاتيبكم الشريفة لا ربابها فكانت لديهم أكرم قادم وأشرف منادم وقد تداولها الافاضل وشهدوا انها من بنات الافكار التى لم يكشف عنها الغير سيدى حجب الاستتار وقد وجدنا كلا منهم ملتهبا بجمرات الشوق متجاوزا حد الصبابة والتوق ليس لهم شغل الاذكر أوصافكم الحميدة وبث ما أبديتموه بدروسكم المفيدة وما منهم الا ويرجو بل الصدى ونقع الظما برؤية ذلك المحيا والتملى بتلك الطلعة العليا وان سأل سيدى عن أخبار دمشق المحروسة دامت ربوعها المأنوسة فهى ولله الحمد منتظمة الاحوال أمنها الله من الشرور والاهوال ولم يتجدد من الاخبار ما نعلم به ذلكم الجناب لا زال ملحوظا بعين عناية رب الارباب وأنا أسأل الله تعالى أن يصون جوهر تلك الذات من عوارض الحدثان وأن يحمى تلك الحضرة العلية من طوارق حكم الدوران

آمين آمين لا أرضى بواحدة * حتى أضيف اليها ألف آمينا

وهذا دعاء للبرية شامل العبد الداعى بجميع البواعث والدواعى تاج الدين المحاسنى عفا الله تعالى عنه انتهى وبالهامش ما صورته وكاتب الاحرف العبد الداعى محمد المحاسنى يقبل يدكم الشريفة ويخصكم بالسلام الوافر ويبث لديكم الشوق المتكاثر غيرانه قد نازعته نفسه فى تلك المعاتبة لسيده الذى لم يسعد عبده منه بالمكاتبة على انها مكاتبة تحكم عقد العبودية ولا تخرج رقبته من طوق الرقية والمطلوب أن يخصه سيده بدعواته المستطابة التى لا شك أنها مستجابة كما هو عليه فى سائر أوقاته وحسبان ساعاته ودمتم فى رابع جمادى الثانية سنة ١٠٣٨ انتهى *وكتب سيدى التاج المذكور لى ضمن رسالة من بعض الاصحاب ما صورته

يا فاضل العصر يا من * للشرق والغرب شرف
يا أحمد الناس طرا * فى كل ما يتصرف
يهدى اليك محب * دموعه تتذرف
شوقا ووداقديما * منكرا يتعرف

ولنختم مخاطبات أهل دمشق لى بما كتبه لى أوحد الموالى الكرام السرى عين الاعيان صدر

غداة النحر الى منى فانتهى ذلك منهم الى أبى سيارة فدفع أبو سيارة من مزدلفة الى منى أربعين سنة على حمار له ولم يعتل

فاعطوه منها صنما فنصبه على الكعبة وقويت خزاعة وعم الناس ظلم عمرو بن لحى وفى ذلك يقول رجل من جرهم كان على دين الحنيفية

ياعمرو لا تظلم بمكة انها بلد حرام
سائل بعاد أين هم
وكذاك تخترم الانام
وبنى العماليق الذين
لهم بها كان السوام

ولما كثر عمرو بن لحى من نصب الاصنام حول الكعبة وغلب على العرب عبادتها وامتحنت الحنيفية منهم الا لمعا قال فى ذلك سحنة بن خلف الجرهمى

يا عمرو انك قد أحدثت آلهة
شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبدا
فقد جعلت له فى الناس أربابا
لتعرفن بان الله فى مهل
سيصطفى دونكم للبيت حجابا

وعمر عمرو بن لحى ثلثمائة وخمسا وأربعين سنة وكانت ولاية البيت فى خزاعة وفى مضر ثلاث خصال الاجارة بالناس من عرفة والافاضة بالناس

أرباب البلاغة والبيان مولانا أحمد الشاهينى السابق الذكر فى هذا التاليف مرات ضاعف الله تعالى لديه أنواع المبرات والمسرات آمين ليكون مسكا للختام اذ محاسنه ليس بها خفاء ولا لها اكتتام ونص محل الحاجة منه هو الفياض

ياسيدا أحرز خصل العلا * بالباس والرأى الشديد السديد
ومن على أهل النهى قد علا * بطبعه السامى المجيد المجيد
ومن يزين الدهر منه حلى * قول نظيم كالفريد النضيد
ومن صدا فكرى منه جلا * نظم له القلب عميد حميد
ومن له من يوم قالوا بلى * فى مهجتى حب جديد مزيد
ومن غدا بين جميع الملا * بالعلم والحلم الوحيد الفريد
أفديك بالنفس مع الاهل لا * بالمال والمال عتيد عديد

أقسم بالله الذى علت كلمته وعمت رحمته وسخرت القلوب والعقول رأفته ومحبته وجعل الارواح جنودا مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف انى أشوق الى تقبيل أقدام شيخى من الظمآن للماء ومن السارى لطلعة ذكاء وليس تقبيل الاقدام مما يدفع عن المشوق الاوام وقد كانت الحال هذه وليس بينى و بينه حاجز الا الجدار اذ كان حفظه الله تعالى جار الدار فكيف الآن بالغرام وهو حفظه الله تعالى بمصر وأنا بالشام وليس غيبة مولانا الاستاذ عنا الا غيبة العافية عن الجسم المضنى بل غيبة الروح عن الجسد البالى المطروح ولا العيشة بعد فراقه وهجر أحبابه ورفاقه الا كما قال بديع الزمان عيشة الحوت فى البر والثلج فى الحر وليس الشوق اليه بشوق وانما هو العظم الكسير والنزع العسير والسم يسرى ويسير وليس الصبر عنه بصبر وانما هو الصاب والمصاب والكبد فى يد القصاب والنفس رهينة الاوصاب والحين الحائن وأين يصاب ولا أعرف كيف أصف شرف الوقت الذى ورد فيه كتاب شيخى بخطه مزينا بضبطه بلى قد كان شرف عطارد حتى اجتمع من أنواع البلاغة عندى كل شارد وأما خطه فكما قال الصاحب ابن عباد أهذا خط قابوس أم جناح الطاوس أو كما قال أبو الطيب

من خطه فى كل قلب شهوة * حتى كأن مداده الاهواء

وأنا أقول ما هو أبدع وأبرع وفى هذا الباب أنفع وأجمع بل هو خط أمان من الزمان والبراءة من طوارق الحدثان والحرز الحريز والكلام الحر الابريز والجوهر النفيس العزيز وأما الكتاب نفسه فقد حسدنى عليه اخوانى واستبشر به أهلى وخلانى وكان تقبيلى لاماليه أكثر من نظرى فيه شوقا الى تقبيل يد وشته وحشته واعتياد اللثم أنامل جسته ومسته وأما البراعة فلا شك انها ينبوع البراعة حتى جرى من سحر البلاغة منها ماجرى فجاء الكتاب كسحر العيون * عماراح يسبى عقول الورى وينأى باحراز خصل السبق من الثريا الى الثرى ولم أر كتابا قبل تكون محاسنه متداخلة مترادفة ولطائفه و بدائعه متضاعفة متراصفة وذلك لانه سرد من غرر درره الاحاسن وورد على يد رأس أحبابنا تاج بنى محاسن

نحن دفعنا عن أبى سياره
حتى أفاض محرما حماره
مستقبل القبلة يدعو جاره
والنسء للشهور الحرم وكانت النسأة فى بنى مالك ابن كنانة وكان أولهم العملس حذيفة بن عبد ثم ولده فيولع بن حذيفة وورد الاسلام وآخرهم أبو ثمامة وذلك أن العرب كانت اذا فرغت من الحج وأرادت الصدر اجتمعت اليه فيقوم فيهم فيقول اللهم انى قد أحللت أحد الصفرين الصفر الاول وأنسأت الآخر للعام المقبل وظهر الاسلام وقد عادت الشهور الحرم الى بدئها على ما كانت عليه فى اصلها وذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وما ذكر عليه السلام فى هذا الحديث الى آخره فاخبر الله عزوجل عنهم بذلك بقوله تعالى انما النسىء زيادة فى الكفر الآية وقد فخر بذلك عمرو بن قيس الفراسى فقال
ألسنا الناسئين الى معد
شهور الحل نجعلها حراما

وقد كان قصى بن كلاب بن مرة تزوج ابنة مليك ومليك هو آخر من ولى البيت من خزاعة

وقد كان عمرو بن لحى حين عمر ماذكرنا من السنين مات وله من الولد وولد الولد ألف ٥٠٣ ولما حضر مليكا الوفاة وهو آخر من ولى

أولئك قوم أحرزوا الحسن كله * فما منهم الافتى فاق فى الحسن

وكما قلت فيهم أيضا

فبنو المحاسن بيننا * كبنى المنجم فى النجابه
فهم القرابة ان عدمـ * ـت من الانام هوى القرابه
فيهم محاسن جمة * منها الخطابة والكتابه

ثم لم يكتف سيدى وشيخى بما أنعم به وأحسن بكتبه من كتابه المزين بخطه المبين بضبطه المسمى بين أهل الوفاء بكتاب الاكتفاء والاصطفاء حتى أضاف اليه كتاب الشفاء فى بديع الاكتفاء كانه لم يرض طبعه الشريف المفرد المستثنى الا أن تكون حسناته لدى أحبابه مثنى مثنى حتى كأن مراده بتضعيف هذا الاكرام والاحسان تعجيز العبد عن أداء خدمة الحمد بحصر البيان وعقد اللسان اذ لست ذا السانين حتى أؤدى شكر احسانين وغاية البليغ فى هذا المضمار الخطير أن يعترف بالقصور ويلتزم بالتقصير ومن فصول هذا الكتاب ما نصه ومن باب ادخال السرور على سيدى وشيخى وبركتى خبر المدرسة الداخلية التى تصدى لها ذلك المولى العظيم والسيد الحكيم صدر الموالى ورونق الايام والليالى سيدى وسندى وعمادى ومعتمدى الفهامة شيخى أفندى المعروف بالعلامة حفظه الله ووقاه وأبقاه الذى صدق عليه وعلى قول الاول

ولى صديق ما مسنى عدم * مذ وقعت عينه على عدمى
أغنى وأقنى فما يكلفنى * تقبيل كف له ولا قدم
قام بأمرى لما قعدت به * ونمت عن حاجتى ولم ينم

وقول الثانى

صديق لى له أدب * صداقة مثله نسب
رعى لى فوق ما يرعى * وأوجب فوق ما يجب
فلو نقدت خلائقه * لبهرج عندها الذهب

ولعمرى انه كذلك قد تصدى لحاجتى فقضاها وتجنى فامضاها ولم يكن لى فى الروم سواه وسواها وما أصنع بالروم اذا تخلف عنى ما أروم أبى الله الا أن ينفعنى ذلك الحر الكريم بنهيه وأمره وأن يكون بيانى وبنانى مرتبطين بحمده وشكره وهذه حاجة فى نفسى قضيتها وأمنية رضيت بها وأرضيتها ولله الحمد ولست أحصى ولا استقصى ياسيدى ومولاى شوق أخيكم سيدى ومولاى المفتى العمادى حفظه الله تعالى واياكم وقد بلغ به شوقه وغرامه وتعطشه وهيامه وأوامه أن أفرد لجناب مولانا كتابا يستجلب مغفرا وجوابا اذ الشام كما رأيتم عبارة عن وجوده الشريف والسلام وكذلك أولاده الكرام تلامذتكم يقبلون الاقدام وأما محبكم وصديقكم الشيخ البركة شيخ الاسلام مولانا عمر القارى فقد بلغته سلام سيدى فكان جوابه الدعاء والثناء مع العزيمة على بان أبالغ لجنابكم الكريم فى تادية سلامه وتبليغ ما يتضمنه من المحبة الخالصة فصيح كلامه وأما الكريمان ولدكم محمد أفندى وأخوه سيدى أكمل الدين فهما لتقبيل اقدامكم من المستعدين وكذلك

البيت من خزاعة وقد كان عمرو على ماذكرنا جعل ولاية البيت الى ابنته زوج قصى بن كلاب فقال انها لا تقوم بفتح الباب وغلقه فجعل ولاية البيت اليها وفتح الباب وغلقه الى رجل من خزاعة يعرف بابى غبشان الخزاعى فباعه ابو غبشان ببعير وزق خمر فارسلت العرب ذلك مثلا فقالت اخسر من صفقة ابى غبشان فى بيعه لولاية البيت ببعير وزق من الخمر ونقله ولاية البيت من قومه من خزاعة الى قصى بن كلاب وفى ذلك يقول الشاعر

أبو غبشان أظلم من قصى
وأظلم من بنى فهر خزاعه
فلا تلحوا قصيا فى شراه
ولوموا شيخكم اذ كان باعه

وقال فى ذلك آخر

اذا افتخرت خزاعة فى قديم
وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهرا
بزق بئس مفتخر الفخور

وقد كانت ولاية البيت فى خزاعة ثلثمائة سنة واستقام أمر قصى وعشر

على من دخل مكة من غير قريش وبنى الكعبة ورتب قريشا على منازلها فى النسب بمكة وبنو الابطح

لا أحصي ماعليه من الدعاء والثناء لجنابكم الكريم العالي تلميذا كم بل عبدا كم ولدنا الشيخ يحيى ابن سيدي أبي الصفاء وولدنا الشيخ محمد ابن سيدي تاج الدين الحاسنيان وأما عبدا كم وتلميذا كم ولداي الشيخان الداعيان الاخوان الشيخ عبد السلام والقاضي نعمان فليس لهما وظيفة الا الدعاء والثناء في كل صباح ومساء لان كلا منهما خليفتي والاشتغال بالدعاء لسيدي وظيفتي ولا يقنعان بتقبيل اليدين الكريمتين ولابد من تقبيل القدمين المباركتين وبعد فلا ينقضي عجبي من بلاغة كتابكم الشريف الوارد لجناب أخيكم المفتي العمادي حفظكم الله تعالى واياه ولا كان من يشنأك ويشناه وعجبه أعظم وأكبر اذ هو حفظه الله بفهم كلام سيدي أحق وأجدر فلا عدمنا تلك الانفاس الملكية الفلكية من كل منكما اذهي والله البغية والامنية كما قلت

ليس فخري ولا اعتدادي بدهر * غير دهر ارا كما من بنيه

اللهم اختم هذا الكلام للقبول التام بالصلاة على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين * ومن فصول هذا الكتاب ماصورته أطال الله ياسيدي بقاءك ولا كان من يكره لقاءك ورعاك بعين عنايته ووقاك وأدامك وأبقاك وضمن لك جزاء الصبر وعوضك عن مصابك الخير والاجر ولقد كنت عزمت على أن أجعل في مصاب سيدي بامّه متعه الله تعالى بعمره وعلمه ودفع عنه سورة همه وغمه قصيدة تكون مرثية تتضمن تعزية وتسلية فنظرت في مرثية أبي الطيب المتنبي لامّه واكتفيت بنظمها ونثرها وعقدها وحلها وانتخبت قوله منها

لك الله من مفجوعة بحبيبها * قتيلة شوق غير ملحقها وصما
ولو لم تكوني بنت أكرم والد * لكان أباك الضخم كونك لي أما
لئن لذ يوم الشامتين بيومها * لقد ولدت مني لانفهم رغما

فقلت هذه حال مولانا الراغم لانوف الاعدا المجدد لاسلافه حمدا ومجدا القائل بشوقه لاخطأ ولا عمدا ثم لما رأيت قوله في مرثية أخت سيف الدولة

ان يكن صبر ذي الرزية فضلا * تكن الافضل الاعز الاجلا
انت يافوق أن تعزى عن الاحـ * ـباب فوق الذي يعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فاذا عزاك قال الذي له قلت قبلا
قد بلوت الخطوب حلوا ومرا * وسلكت الايام حزنا وسهلا
وقتلت الزمان علما فما يغـ * ـرب قولا وما يجدد فعلا

قلت هذه والله حلى مولانا الاستاذ الذي عرف للزمان فعله وفهم قوله قد استعارها أبو الطيب وحلى بها مخدومه سيف الدولة وكيف استطيع ارشادشيخي لطريق الصبر و أذكره بالثواب والاجر وكيف وأنا الذي استقيت من ديمه واهتديت الى سبيل المعروف بشيمه وسلكت جادة البراعة بهداية ألفاظه وارتقيت الى سماء البلاغة برعاية الحاظه وهل يكون التلميذ معلما وهل يرشد الفرخ قشعما وكيف يعضد الشبل الاسد وهو ضعيف المنة والمدد ومن يعلم الثغر الابتسام والصدر الالتزام ويختبر الحسام وهو

الدار و بني عبد العزى ابني قصي وزهرة ومخزوم وتيم بن مرة وجمح وسهم وعدي وهم لعقة الدم وبنو عتيك بن عامر بن لؤي وقريش الظواهر بنو محارب والحرث بن فهر و بنو الادرم بن غالب بن فهر و بنو هصيص بن عامر بن لؤي وفي ذلك يقول ذكوان مولى عبد الدار للضحاك ابن قيس الفهري

تطاولت للضحاك حتى رددته
الى نسب في قومه متقاصر
فلو شاهدتني من قريش عصابة
قريش بطاح لاقريش الظواهر
ولكنهم غابوا وأصبحت شاهدا
فقبحت من حامي ذمار وناصر
فريقان منهم ساكن بطن يثرب
ومنهم فريق ساكن بالمشاعر

والاحلاف من قريش بنو عبد الدار بن قصي وسهم وجمح وعدي ومخزوم والمطيبون بنو عبد مناف و بنو أسد بن عبد العزى وزهرة وتيم و بنو الحرث بن لؤي وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي في امرأة

مجرب صمصام وهل تفتقر الشمس في الهداية الى مصباح وهل يحتاج البدر في سراه الى دلالة الصباح ذلك مثل شيخي ومثل من يرشده الى فلاح أو نجاح وانما أخذ عنه ماورد في ذلك من الكتاب والسنه ونحذو حذوه في الطريق الموصلة الى الجنة ثم لما وصلت في هذه القصيدة الى قول أبي الطيب

ان خير الدموع عينا الدمع * بعثته رعاية فاستهلا

رأيته قد أبدع فيه كل الابداع ونظم مايكاد يجري الدمع من طريق السماع فقلت انا لله وأكثرت الاسترجاع وقلت في نفسي ان ذلك الدمع الذي بعثته رعاية الحقوق هو دمع شيخي الذي حمى الله قلبه الشفوق من العقوق للمصيبة في الام التي حزنها يغم ومصابها يعم وكيف لا يعم مصابها وقد كل للمصيبة كفاها الله بموتها نصابها هذا مع الفقد للسليلة الجليلة والكريمة الخليلة وأي دمع لم تبعثه تلك الرعاية وأي نفس لا تتمنى أن تكون لسيدنا من كل مايكره وقاية وأي كبد قاسية لم تكن لاحبابها مواسية وأني يتسنى للعبد المعنى تسلية شيخه وهو الصبور الشكور العارف بالامور العالم بتصاريف الدهور وماظننت أن بناني يساعدني على تحرير بياني لتعزية شيخي حفظه الله تعالى في أصله وفرعه وضرعه وزرعه وقرعه ونبعته وأمه و بنته أما الوالدة الماجدة فاني ان أمسكت عن بيان كرم أصلها يسمو بها كرم فرعها ونسلها فرحم الله تعالى سلفها وأبقى خلفها ولا حرم سيدي ثمرة رضاها ورضي عنها وأرضاها وأما المخدرة الصغيرة فالمصيبة بها كبيرة اذ العمومة مقربة والخؤلة وفائية فهي ذات النجارين وحائزة الفخارين كأن سيدي أعزه الله تعالى لم يرض لها كفؤا ومهرا فاختار القبر أن يكون له صهرا وخطبة الحمام لا يمكن ردها وسطوة الايام لا يستطاع صدها كما قال أبو الطيب المتنبي أيضا

خطبة للحمام ليس لها رد وان كانت المسماة ثكلا

واذا لم تجد من الناس كفؤا * ذات خدر أرادت الموت بعلا

أسال الله تعالى أن تكون هذه الخطبة قافية الخطوب وهذا الندب المبرح آخر الندوب وأن يعوض سيدي عن حبيبه المبرقع المقنع حبيبا معمما تجري النجابة منه المصنع وأن يبدله عن ذات الخمار والخضاب بمن يصول بالحراب ويسطو باليراع ويشتغل بالكتاب شعر

وما التانيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال

ولو كان النساء كمن فقدنا * لفضلت النساء على الرجال

اللهم ياأرحم الراحمين اني أتوسل اليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم وآله الطيبين الطاهرين أن تأخذ بيد عبدك شيخي المقرى في كل وقت وحين آمين * ومن فصول هذا الكتاب ماصورته ولما وصلني سيدي بهديته التي أحسن بها من كتاب الاكتفاء داخل طبعي الصفاء ونشطت الى نظم بيتين فيهما التزام عجيب لم أر مثله وهو أن يكون اللفظ المكتفى به بمعنى اللفظ المكتفى منه فان الاحتفاء والاحتفال بمعنى الاعتناء كما أفاده شيخي فيكون على هذا الاكتفاء وعدمه على حد سواء اذ لو قطع النظر عن لفظ الاحتفال لا غنى عنه لفظ الاحتفاء

وأخذت قريش الايلاف من الملوك وتفسير ذلك الامن وتقرشت والتقريش التجمع ومنه قول ابن حلزة اليشكري

اخوة قرشوا الذنوب علينا * في حديث من دهرنا وقديم

ورحلت قريش حين أخذ لها الايلاف من الملوك الى الشام والحبشة واليمن والعراق وفي ذلك يقول مطرف الخزاعي

ياأيها الرجل المحول رحله * هلا نزلت بآل عبد مناف

الآخذين العهد من آفاقنا * والراحلين برحلة الايلاف

ولقريش أخبار كثيرة وكذلك لجرهم وخزاعة وغيرهما من معد قد أتينا على جميعها فيما سلف من كتبنا وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا ننبه بها على ماسلف وسنورد عند ذكرنا تفرق الناس من بابل جملا من أخبار مكة وعبد المطلب والحبشة وغير ذلك مما الحق بهذا المعنى ان شاء الله تعالى

(ذكر جوامع الاخبار ووصف الارض والبلدان وحنين النفوس للاوطان)

(ذكر) ذوو الدراية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الارض كتب الى حكيم من حكماء العصر

مع تسمية النوع فيهما وهما

ان احتفال المرء بالمرء لا * أحبه الا مع الاكتفا
مبالغات الناس مذمومة * فاسلك سبيل القصد فى الاحتفا

ولقد انقطع الثلج أيام الخريف وكانت الحاجة اليه شديدة بعد غيبة سيدى حفظه الله تعالى عن دمشق فقد كرت شغف شيخى به فزاد على فقده غرامى وفاض عليه تعطشى وأوامى فجعلت فى ذلك عدة مقاطيع وأحببت عرضها على سيدى أولها

ثلج يا ثلج يا عظيم الصفات * أنت عندى من أعظم الحسنات
ما بياض بدا بوجهك الا * كبياض بدا بوجه الحياة

ثانيها

قد قلت لما ضل عنى رشدى * وما رأيت الثلج يوما عندى
لا تقطع اللهم عن ذا العبد * أعظم أسباب الثنا والحمد

ثالثها

ثلج يا ثلج أنت ماء الحياة * ضل من قال ضر ذاك لهاتى
ما بياض بدا بوجهك الا * كبياض قد لاح فى المرآة
قد رأى الناس وجههم فى المرايا * وأنا فيك شمت وجه حياتى

وما علمت سيدى هذا التعليل الا لاشوقه الى نسيم دمشق الذى خلفه سيدى حفظه الله عليلا وهو على الصحة غير عليل ولم يشف أعزه الله تعالى منه الغليل ولسيدى الدعاء بطول البقاء والارتقاء وهذه أبيات أحدثها العبد فى وصف القهوة طالبا من سيده أن يغفر خطأه فيها وسهوه

وقهوة كالعنبر السحيق * سوداء مثل مقلة المعشوق
أنت كمسك فاح فتيق * شبهتها فى الطعم بالرحيق
تدنى الصديق من هوى الصديق * وتربط الود مع الرفيق
فلا عدمت مزجها بريق

وما زالت ألهج بما أفادنيه شيخى من أماليه وأتصفح الدهر الذى جمعته فيه من أسافله الى أعاليه وأستشكل على الاحباب والاصحاب فى اثناء المسامرة ما أفادنيه سيدى من تسمية المرحوم القاضى التنوخى كتابه نشوار المحاضرة حتى ظفرت باصلها فى القاموس فى مادة نشر فاذا هى عربية محضة فانه قال ونشورت الدابة نشوارا أبقت من علفها ولقد تعجبت من بلاغة هذه التسمية وعذوبتها وحسن المجاز فيها مع سلاستها وسهولتها وأحببت عرضها على شيخى حفظه الله تعالى ليفرح لى بين تلامذته كما فرح طبقى به حفظه الله تعالى بين أساتذته وليعلم أنى لم أنس ما أفادنيه فى خلال المحاورة أيام المؤانسة والمجاورة فوالله انه سميرى فى ضميرى وكلمى ما بين عظمى وأديمى

يدير وننى عن سالم وأديرهم * وجلدة بين العين والانف سالم
الطرس طما وما مضت قصتنا * لا ذنب لنا حديثنا لذ فطال

انا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد] ونريد أن نتبوأ الارض ونسكن البلاد والامصار فصف لى المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والاهوية فى سكانها فكتب اليه ذلك الحكيم اعلم يا أمير المؤمنين ان الله تعالى قد قسم الارض أقساما شرقا وغربا وشمالا وجنوبا فما تناهى فى التشريق فهو مكروه لاحتراقه ونارية حدته واحراقه لمن دخل فيه وما تناهى مغربا أيضا أضر سكانه لموازاته ما أوغل فى التشريق وهكذا ما تناهى فى الشمال أضر ببرده وقره وثلوجه وآفاته الاجسام فاورثها الآلام وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان ولذلك صار المسكون من الارض جزأ يسيرا ناسب الاعتدال واخذ بحظه من حسن القسمة وسأصف لك يا أمير المؤمنين القطع المسكونة من الارض (اما الشام) فسحب وآكام وريح وغمام وغدق ركام ترطب الاجسام وتبلد الاحلام وتصفى الالوان لاسيما ارض حمص فانها تحسن الجسم وتصفى اللون وتبلد الفهم وتنزح غوره وتجفى الطبع وتذهب بماء القريحة وتنضب العقول والشام يا أمير المؤمنين وان كانت على ما وصفت لك فهى مسرح خصب

وحرر يوم السبت المبارك غرة جمادى الآخرة من شهور سنة ثمان وثلاثين بعد الالف أحسن الله ختامها بحرمة محمد وآله الطيبين الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير والحمد لله وحده عبده الفقير الحقير المشتاق المذنب المقصر لسيده عن اللحاق الذى لم يبرح عن العهد المتين أحمد الشامى بن شاهين انتهى ولو تتبعت ماله حفظه الله تعالى من النظم والنثر اللذين غلب فيهما بلغاء أهل العصر بالشام ومصر وغيرهما من الاقطار لازال مقامه مقضى الاوطار لاستوعبت الاسفار * وفى الاشارات ما يغنى عن الكلام وقد تقدم فى خطبة هذا التاليف ذكر شئ من نظمه ونثره وأنه هو السبب الداعى الى جمع هذا التصنيف والله سبحانه يديم جنابه السرى الشريف ويبوّئه من العز الظل الوريف فلقد أوفى من الحقوق ما لا تؤدى بعضه فضلا عن كله وناهيك بما جلبناه من كلامه دليلا على شرفه وفضله ورسالته هذه الى كانت جوابا عن مكتوب كتبته اليه من جملته

يا من له طائر صيت علا * فى الجو فاصطاد الشريد الشديد
يا نجل شاهين البديع الحلى * تمل بالعز الطويل المديد
وفز بخصل السبق بين الملا * وسر بنهج للمعالى سديد
وردمع الاحباب عذبا حلا * منظما من الامانى البديد
وارفل على طول المدى فى ملا * مسرة راقت وعز جديد
والوالد المحروس بالله لا * بعدة الخلق ولا بالعديد

ومن نثرها سيدى الذى فى الاجياد من عوارفه أطواق وفى البلاد من معارفه ما تشهد به الفطر السليمة والاذواق وتشتد الى مجده المطنب الذى لا يحط له رواق الاشواق وتعمر بفوائده وفرائده من الآداب الاسواق وتنقطع دون نداه السحب السواكب وتقصر عن مداه فى السموّ الكواكب والله سبحانه له واق المولى الذى ألقت اليه البلاغة افلاذها واتخذت البراعة طاعته عصمتها وملاذها اذ نبذ أفرادها وأفذاذها وأمطرت سماء أفكاره على كل محب أو كاره طائر فى جوّ او مستقر فى أوكاره صيبها ورذاذها وفاخرت دمشق بعلاه وحلاه أقطار البسيطة وبغداذها * ومنها أبقاه الله تعالى وحقيقة وعوده ينمقها النجاز وحقيقة سعوده لا يطرقها المجاز * ومنها فانت الذى نفست عنى مخنقا وأصفيت مشربى وكان مرنقا وكاثرت عبابه آثرت وما استاثرت رمل النقا فلو رآك المامون ابن الرشيد لعلم أنك المتمنى ببيتى الغناء الذى غنى به والنشيد

وانى لمشتاق الى قرب صاحب * يروق ويصفو ان كدرت لديه
عذيرى من الانسان لا ان جفوته * صفالى ولا ان كنت طوع يديه

ولم يقل أعطنى هذا الصديق وخذ منى الخلافة وأنا أقول قد ظفرنا به بحمد الله ولم أجد أحدا فى دهره وافق الغرض فلم نر خلافه * ومنها فهذه يا ابن شاهين أياديك البيض تفرخ لك الشكر وتبيض فلا دليل على ولائى كاملائى ولا شاهد لما فى أحنائى كثنائى ولا حجة على ودادى كتكرارى ذكرك وترددى * وهى طويلة لا يحضرنى الآن منها سوى

ووابل سكب كثرت اشجاره واطردت انهاره وغمرت اعشاره وبه منازل الانبياء ٥٥٧ والقدس المجتبى وفيه جل اشراف خلق الله تعالى من الصالحين والمتعبدين وجباله مساكن المجتهدين والمنفردين (واما ارض مصر) فارض قوراء غوراء ديار الفراعنة ومنازل الجبابرة تحمد بفضل نيلها وذمها اكثر من حمدها هواؤها راكد وحرها زائد وشرها وارد تكدر الالوان وتخيب الفطن وتكثر الاحن وهى معدن الذهب والجوهر والزمرذ والاموال ومغارس الغلات غيرانها تسمن الابدان وتسوّد الابشار وتنمو فيها الاعمار وفى اهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة الا انها بلد مكسب لا بلد مسكن لترادف فتنها واتصال شرورها (واما اليمن) فيضعف الاجسام ويذهب الاحلام ويذهب بالرطوبة فى اهله هم كبار ولهم احساب واخطار ومغايضه خصبة واطرافه جدبة وفى هوائه انقلاب وفى سكانه اغتيال وبهم قطعة من الحسن وشعبة من الترفه وفقرة من الفصاحة (واما الحجاز) فحاجز بين الشام واليمن والتهائم هواؤه حرور وليله سهور يجفف الاجسام ويجفف الادمغة ويشجع القلوب ويبسط الهمم ويبعث على الاحن وهو بلد محل قحط جدب ضنك (وأما المغرب) فيقسى القلب

ماذكرته ولنقتصر من مكاتبات أعيان العصر من أهل دمشق المحروسة على هذا المقدار
ونسال الله تعالى أن يحفظهم جميعا في الايراد والاصدار * وفي تاريخ ورود هذه المكاتيب
الشامية السابقة على اتفق ورود كتب من المغرب وجهها جماعة من أعيانه الي * فمن
ذلك كتاب كتبه لي الاستاذ المجود الاديب الفهامة معلم الملوك سيدي الشيخ محمد بن يوسف
المراكشي التاملي نصه الحمد لله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى من المحب
المخلص المشتاق الى السيد الذي وقع على محبته الاتفاق وطلعت شموس معارفه في غاية
الاشراق وصار له في ميدان الكمال حسن الاستباق الصدر الكامل والعالم العامل
الفقيه الذي تهتدي الفقهاء بعلمه البليغ الذي تقتدي البلغاء بيراعه وقلمه ناشر ألوية
المعارف ومسدي أنواع العوارف العلامة امام العصر بجميع أدوات الحصر سيدي
أحمد بن محمد المقري قدس الله السلف كما بارك في الخلف سلام من النسيم أرق وألطف
من الزهر اذا عبق وبعد فان أخباركم دائما ترد علينا وتصل الينا بما يسر الخاطر ويقر
الناظر مع كل وارد وصادر والعبد يحمد الله تعالى على ذلك ويدعو الله بالاجتماع معكم
هنالك * ويرحم الله عبدا قال آمينا * كتبته اليكم أيها السيد من الحضرة المراكشية
مع كثرة أشواق لاتسعها أوراق كتبكم الله سبحانه فيمن عنده كما جعلكم ممن أخلص
في موالاة الحق قصده وودي اليكم غض الحدائق مستجل في مطلع الوفاء بمنظر رائق
لايحيله عن مركز الثبوت عائق وحقيق بمودة ارتبطت في الحق ولاحق معاقدها
وأسست على المحبة في الله قواعدها أن يزيد عقدها على مر الايام شدة وعهدها وان شط
المزار جدة وان تدخر للاخرى عدة واني ويعلم الله تعالى لمن يعتقد محبتكم وموالاتكم
عملا صالحا يقرب من الله تعالى ويزلف اليه ويعتمدهما وزرا يعول في الآخرة يوم لاظل
الا ظله عليه فانكم واليتم فاخلصتم في الولا وعرفتم الله تعالى فقمتم بحقوق الصحبة على الولا
معرضين في ذلكم الآخرة عن غرض الدنيا وعرضها موفين بشروط نفلها ومفترضها الى
أن قضى الله تعالى بافتراقنا وحقوقكم المتأكدة دين علينا والايام تمطل بقضائها عنا
وتوجه الملام الينا فآونة أقف فاقرع السن على التقصير ندما وآونة استنيم الى فضلكم
فاتقدم قدما وفي اثناء هذا لايخطر بالبال حق لكم سابق الاوقد كر عليه منكم آخر له
لاحق حتى وقفت موقف العجز وضاقت على العبارة عن حقيقة مقامكم في النفس فكدت
لاأنسكم الابالرمز اجلالا لحقكم الرفيع واشفاقا من التقصير المطيع وقد كنت كتبت أعزكم
الله تعالى اليكم قبل هذا بكتب أربعة أو خمسة فيها عجالة قصائد كالعصائد لاكالثريد من الكلام
ككلامكم السلس الكثير الفوائد فعذرا فمن كان أخرس من سمكة وأشد تخبطا من طائر في
شبكة فما عرفت أوصل شيء من ذلك أم حصل في أيدي المعاطب والمهالك ومارأيت غير
رجل من صعاليك الحجاج التقيت به يوما بالحضرة المراكشية فقال لي الشيخ الامام المقري
يسال عنك وقد أرسل معي كتابا اليك فوقع في البحر مع جملة ماوقع فقلت له لاغرابة في ذلك فقد
رجع الى أصله ومن ظلمة البحار تستخرج الدرر وقد جاءني كتاب من بعض الاخلاء الصديقين
وهو الحاج الصالح السيد أبو بكر من مكة المكرمة شرفها الله تعالى وذكر لي فيه أنه متعه الله تعالى

بلقائكم

و يوحش الطبع ويطيش اللب و يذهب بالرحمة ويكسب الشجاعة ويقشع الضراعة وفي اهله غدر
ولهم خب ومكر ديارهم
مختلفة وهممهم غير مؤتلفة
ولديارهم في آخر الزمان نبأ
عظيم وخطب جسيم من أمر
يظهر واحوال تبهر (واما
العراق) فمنار الشرق وسرة
الارض وقلبها اليه
تحادرت المياه وبه اتصلت
النضارة وعنده وقف
الاعتدال فصفت امزجة
اهله ولطفت اذهانهم
واحتدت خواطرهم
واتصلت مسراتهم فظهر
منهم الدهاء وقويت
عقولهم وثبتت بصائرهم
وقلب الارض العراق
وهو المجتبى من قديم
الزمان وهو مفتاح الشرق
ومسلك النور ومسرح
العينين ومدنه المدائن وما
والاها ولاهله أعدل
الالوان وأنقى الروائح
وأفضل الامزجة وأطوع
القرائح وفيهم جوامع
الفضائل وفوائد المبرات
وفضائله كثيرة لصفاء
جوهره وطيب نسيمه
واعتدال تربته واغداق
الماء عليه ورفاهية العيش
به (وأما الجبال) فتخشن
الاجسام وتغلظها وتبلد
الافهام وتقطعها وتفسد
الاحلام وتميت الهمم
لما هي عليه من غلظ التربة
ومتانة الهواء وتكاثفه واختلاف مياهه وسوء متصرفاته والاخلاق والصور يا امير المؤمنين

بلقائكم وأخبرني بسؤالكم عني كثيرا والى الآن يانعم السيد اعاعرفته بما كتبته لسيادتكم تعريف تذكر لا تعريف منة فانصفونا في الحكم عليكم في عدم الجواب بما ألفته الادباء شريعة وسنة وبالجملة ففؤادي لجدكم صحيح لا سقيم واعتدادي بودكم منتج غير عقيم والله تعالى يجعل الحب في ذاته الكريمة ويقضي عن الاحبة دين المحبة فيوفي كل غريم غريمه ويصلكم ان شاء الله تعالى هذا المرقوم وبه سؤال منظوم لتتفضلوا بالجواب عنه بعد حمد الله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم

الى المقري الحبر صدر الأئمة * من المخلص الوداد أزكى تحية
فذلك يا صدر الصدور عجالة * لتسمح بالجواب عما أكنت
فتى قد رأى عند العذالى فتية * محرمة عند الزوال فحلت
وعادت حراما عند عصر فعندما * عشاء أتى عادت حلالا تجلت
وفي صبح ثاني اليوم عادت محرما * وزالت زوالا منه من غير ريبة
وفي ظهره حلت فطابت قريرة * وفي عصره محرّما قد تبدت
وعند العشاء بالضرورة حللت * وذلك بعد غرم مال كفدية
وفي صبحه عادت حراما تريه * بروق سيوف لامعات بسنة
وكان يضيق حسرة وتأسفا * وحلت له وقت العشاء وتمت
وعن أمة أيضا يموت سريها * قد اولدها في ملكه بعد وطأة
وعادت لمملوك السري حليلة * بعقد نكاح بعد من غير شبهة
فجاءت ببنت هل لها من تزوج * بنجل السري بينوا الى قصتي
فان السيوري مانع من تزوج * له بابنة منها بتلك القضية
وما الفرق بينها وبين التي أتى * بها ابن أبي زيد باوضح حجة
وعن مشتر مملوكة غير محرم * ومسلمة شرا صحيحا بشرعة
وليس بملكه لها وطؤها يرى * جوازا على التابيد من حين حلت
وما طالق من عدة خرجت ولا * يجوز على التابيد في خير ملة
نكاح لها من واحد ومطلق * لها غير معصوم ترى في الشريعة
وتمت بحمد الله مبديه لكم * سلاما كما أبدته في صدر طلعة

وتقرير السؤال الثاني أمة أولدها سيدها فصارت حرة فات عنها السيد ثم تزوجها عبد سيدها فاتت ببنت أم الولد سيدها أن يتزوج هذه البنت فان الرجل له أن يتزوج بنت زوجة أبيه من رجل غيره وهذه سرية أبيه فان الامام السيوري يمنع هذه المسئلة وما الفرق بينهما وتصلكم ان شاء الله تعالى عجالة رجزية في مآثركم السنية ضمنتها أشطارا من الالفية فتفضلوا بالاغضاء وحسن الدعاء أن يجمع الله شملنا بكم في تلك الاماكن المشرفة ثم المامول من سيدنا ومولانا أن يتفضل علينا بكتاب طبقات القراء للامام الحافظ الداني اذ ليس عندنا منه نسخة وأما تاليفكم الكثير الفوائد المسمى بازهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض فقد انتشر في هذه الاقطار المراكشية وانتسخت منه

تناسب البلد وتحاذيه وتقارنه وتوازيه وتوافقه وتضاهيه وكل بلد اعتدل هواؤه وخف ماؤه ولطف غذاؤه كانت صورها وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه وتنشأ كل ما عليه اركانه وما أسس عليه بنيانه وكل بلد يزول عن الاعتدال انتسب أهله الى سوء الحال (واما خراسان) فتكبر الهام وتعظم الاجسام وتلطف الاحلام ولاهلها عقول وهمم طامحة وفيهم غوص وتفكير ورأي وتقدير (وأما بلد فارس) فخصب الفضاء رقيق الهواء متراكم الماء معتمر بالاشجار كثير الثمار وفي اهله شح ولهم خب وغرائزهم سيئة وهممهم دنيئة وفيهم مكر وخداع (واما بلد خوزستان) فهي كدرة الاهواء تفسد الاحلام وتبلد الافهام وتخبث الهمم وتستأصل الكرم تساق أهله سوق الانعام وهم الهمج الطغام (وأما أرض الجزيرة) فتناسب البر بالهواء اللطيف وفيها خصب وسرح ولاهلها باس ومراس والبر يا أمير المؤمنين أفضل قطع الارض وأسناها وأشرفها وأعلاها نحو الاتحاد والتهائم لحماية الهواء الاقذاء عن سكانه ودفعه الآفات عن قطانه وسماحة المثوى وتهذيب الماء وصحة المتنسم وارتفاع الاكدار وذهاب الاضرار وأعلم يا أمير المؤمنين

نسخ عديدة من نسخة المرحوم سيدى أحمد بن عبد العزيز ابن الولى سيدى أبى عمرو وكساالله سبحانه تاليفكم المذكور جلباب القبول فرآه أحد الانسخه وعندى النسخة التى كتبها بخطه السيد أحمد المذكور بخط حسن وعلى هامشها فى بعض الاماكن خطكم الرائق وبعض التنبيهات من كلامكم الفائق وأعلمونا بتاليفكم الذى سميتموه قطف المهتصر من أفنان المختصر هل خرج من المبيضة أم لا وودنا لو اتصلنا منه بنسخة وقد اشتاق فقهاء هذا الاقليم اليه غاية كالفقيه قاضى القضاة محبكم سيدى عيسى وغيره من أخلاء خليل فى كل محفل جليل الى أن قال وأنا أتمثل بكلام مولانا على كرم الله وجهه حيث يقول تبركا به

رضيت بما قسم الله لى * وفوّضت أمرى الى خالقى
كما احسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

ولى حفظكم الله تعالى تخميس على البيتين وذلك انه نزلت بى شدة لايمكن الخلاص منها عادة فما فرغت من تخميسهما الاوجاء الفرج فى الحين ونصه

اذا أزمة نزلت قبلى * وضقت وضاقت بها حيلى
تذكرت بيت الامام على * رضيت بما قسم الله لى
وفوضت أمرى الى خالقى
لان الاله اللطيف قضى * على خلقه حكمه المرتضى
فسلم وقل قول من فوضا * كما احسن الله فيما مضى
كذلك يحسن فيما بقى

فعذرا أعزكم الله سبحانه ونفع باخائكم عن اغباب المراسلة بالمكاتبة عذرا وصبرا على بعد اللقاء صبرا فان يقدر فى هذه الدار لنا فيها ماتتمنى والافلن نعدم بفضل الله جزاء الحسنى ولقاء لايبيد ولايفنى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ايقانا بالوعد وتحقيقا فمن أوجب له محبته أدخله جنته واحضره مادبته وكل له أمنيته جعلنا الله من المتحابين فى جلاله بكرمه وافضاله وكتبه محبكم ومعظمكم الواصل حبل وده بودكم المشرف لعهدكم المنوه بفخركم ومجدكم العبد الفقير الحقير المشفق على نفسه من التقصير والذنب الكبير محمد بن يوسف التاملى غفر الله ذنبه وستر عيبه وجبر قلبه وجمعه بمن أحبه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى عاشوراء المحرم فاتح سنة ثمانية وثلاثين وألف انتهى وصحبة هذا المكتوب ورقة نصها بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

لله در العالم الجيانى * كأنما ينظر بالعيان
للقرى العالم المفضال * منظرا باحسن المثال
وعالم بانى من بعده * أشير فى نظامنا لقصده
وها أنا بالله أستعين * مضمنا وربنا المعين
بالشطر من ألفية ابن مالك * أيدنا الله لنهج ذلك
قال محمد عبيد المالك * وسالك الاحسن من مسالك

وقد سكنته أجيال وأمم ذوو كمال (واما الهند والصين وبلاد الروم) فلاحاجة بى الى وصفها لك لانها منازل شاسعة وبلدان نائية كافرة طاغية وفى الذى ذكرته لك ما اشفى بك الى ماشمرت الى علمه وكل ماوصفته فى هذه البلدان فهو الاعم من أمور أهلها والاغلب على احوالهم فان وجد فيهم أحد بخلاف ذلك فهو النادر ياأمير المؤمنين والحكم للاغلب (قال المسعودى) وذكر جماعة من أهل العلم بالسير والاخبار ان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما اراد الشخوص الى العراق حين بلغه ماعليه الاعاجم من الجمع ببلادهم سال كعب الاحبار عن العراق فقال ياأمير المؤمنين ان الله لما خلق الاشياء ألحق كل شئ بشئ فقال العقل انا لاحق بالعراق فقال العلم وانا معك فقال المال وأنا لاحق بالشام فقالت الفتن وانا معك فقال الخصب وانا لاحق بمصر فقال الذل وانا معك فقال الفقر وانا لاحق بالحجاز فقالت القناعة وانا معك فقال الشقاء وانا لاحق بالبوادى فقالت الصحة وانا معك

(قال المسعودى) وأوسط الاقاليم الاقليم الذى ولدنا به وان كانت الايام أنأت بيننا وبينه وساحقت مسافتنا عنه وولدت فى قلوبنا الحنين اليه اذ كان وطننا ومسقطنا وهو اقليم بابل وقد كان هذا الاقليم عند ملوك الفرس جليلا وقدره عظيما وكانت عنايتهم اليه مصروفة وكانوا يشتون بالعراق وأكثرهم يصيفون بالجبال وينتقلون فى الفصول الى الصرود من الارض والحرور وقد كان أهل المروآت فى الاسلام كأبى دلف القاسم بن على العجلى وغيره يشتون فى الحرور وهو العراق ويصيفون فى الصرود وهى الجبال وفى ذلك يقول أبو دلف

وانى امرؤ كسروى الفعال * أصيف الجبال واشتو العراقا

ولما خص به هذا الاقليم من كثرة مرافقه واعتدال أرضه وغضارة عيشه ومادة الوافدين اليه وهى دجلة والفرات وعموم الامن فيه وبعد الخوف عنه وتوسطه الاقاليم السبعة كانت الاوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد لان ارضه من اقليم بابل الذى تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الامور كما يقع ذلك عن القلب وبذلك اعتدلت ألوان أهله وأجسامهم فسلموا من شقرة الروم والصقالبة وسواد الحبشة

نشير بالتضمين للتحرير * المقرى الفاضل الشهير
ذاك الامام ذو العلاء والهمم * كعلم الاشخاص لفظا وهو عم
فلن ترى فى علمه مثيلا * مستوجبا ثنائى الجميلا
ومدحه عندى لازم أتى * فى النظم والنثر الصحيح مثبتا
أوصاف سيدى بهذا الرجز * تقرب الاقصى بلفظ موجز
فهو الذى له المعالى تعتزى * وتبسط البذل بوعد منجز
رتبته فوق العلا يا من فهم * كلامنا لفظ مفيد كاستقم
وكم أفاد دهره من تحف * مبدى تأوّل بلا تكلف
لقد رقى على المقام الطاهر * كطاهر القلب جميل الظاهر
وفضله للطالبين وجدا * على الذى فى رفعه قد عهدا
قد حصل العلم وحرر السير * وما بالا أو باغا انحصر
فى كل فن ماهر صفه ولا * يكون الا غاية الذى تلا
سيرته جرت على نهج الهدى * ولا يلى الا اختيارا أبدا
وعلمه وفضله لا ينكر * عما به عنه مبينا يخبر
يقول دائما بصدر انشرح * اعرف بنا فاننا نلنا المنح
يقول مرحبا لقاصديه من * يصل الينا يستعن بنا يعن
صدّق مقالاتى وكن متبعا * ولم يكن تصريفه ممتنعا
وانهض اليه فهو بالمشاهده * الخبر الجزء المتم الفائده
والزم جنابه واياك الملل * ان يستطل وصل وان لم يستطل
واقصد جنابه ترى مآثره * والله يقضى بهبات وافره
وانسب له فانه ابن معطى * ويقتضى رضا بغير سخط
واجعله نصب العين والقلب ولا * تعدل به فهو يضاهى المثلا
قد طالما افاد علم مالك * أحمد ربى الله خير مالك
وحاسد له ومبغض زمن * وهالك وميت به قمن
وليس يشفى مبغض له أعل * عينا وفى مثل هراوة جعل
يقول عبد ربه محمد * فى نحو خير القول انى أحمد
وهو بدهره عظيم الامل * مروع القلب قليل الحيل
فادع له وسادة قد حضروا * وافعل أوافق نغتبط اذ تشكر
واجبره بالدعا ساه يغتنم * بجره وفتح عينه التزم
انشدت فيكم ذا وقال قائل * فى نحو نعم ما يقول الفاضل
أدعو لكم بالستر فى كل زمن * لكونه بضمر الرفع اقترن
مآثر لكم كثيرة سوى * ما مرّ فاقبل منه ما عدل روى
قد انتهى تعريف ذا المعرف * وذو تمام ما برفع يكتفى

لانتم تاج الأئمة الاول * ومابجمعه عنيت قد كمل
فالله يبقيكم لدنيا وكفى * مصلياعلى الرسول المصطفى
تترى عليه دائما منعطفا * وآله المستكملين الشرفا انتهى

ومن ذلك ما كتبه لى بعض الاصحاب ممن كان يقرأ على بالمغرب وصورته سيدنا وسيد أهل الاسلام حامل راية علوم الامة الاحمدية على صاحبها الصلاة والسلام آية الله فى المعانى والمعالى وحسنة الايام والليالى وواسطة عقود الجواهر واللآلى امام مذهب مالك والاشعرى والبخارى والواقدى والخليل العلامة القدوة السيد الكبير الشهير الجليل ذو الاخلاق العذبة المذاق والشمائل المفصحة عن طيب الاصول والاعراق كبير زمانه دون منازع وعالم أوانه من غير منكر ولا مدافع شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ ابو العباس أحمد بن محمد المقرى المغربى التلمسانى نزيل فاس ثم الديار المصرية حفظه الله تعالى فى مواطن استقراره ورفع درجته باشادة فخاره على مناره عن شوق يود له الكاتب أن لو كان فى طى كتابه وتوق الى مشاهدتكم هو الغاية فى بابه بعد اهداء السلام المحفوف بانواع التحيات والكرامات والبركات الدائم مادامت فى الوجود السكنات والحركات لمقامكم الاكبر ومحفلكم الاشهر ومن تعلق باذيالكم أو كان مستمطر النوالكم أو صبت عليه شآبيب افضالكم من أهل ومحب وصاحب وخديم هذا وانه ينهى الى الوداد القديم أن اهل الغرب الادنى والاقصى حاضرة وبادية كلهم يتفكهون بل يتقوتون بذكركم ويشتاقون لرؤية وجهكم ويتلذذون بطيب اخباركم وان كان المغرب الآن فى تفاقم احوال وتراكم اهوال فى الغاية مدائن وبوادى لاسيما مدينة فاس فانها فى شر عظيم واميرها مولاى عبد الملك مات فى السنة السابعة والثلاثين بل فى ذى الحجة قبلها وفى المحرم من سنة سبع وثلاثين توفى ملك المغرب السلطان ابو المعالى زيدان وبويع من بعده ابنه مولاى عبد الملك وتقاتل مع اخويه الاميرين الوليد واحمد وهزمهما والى الله عاقبة الامور واهل داركم بفاس بخير وعافية ونعم صافية سوى ما أدركهم من طول الغيبة نسأل الله تعالى أن يملأ بقدومكم العيبة ومحبكم الاكبر ووليكم الاصغر سيد أهل المغرب اليوم وشيخ الطريقة والمربى فى سلوك أهل الحقيقة العارف بالله الشيخ الربانى ذو الكرامات والمقامات سيدى محمد بن أبى بكر الدلائى يحييكم ويعظم قدركم ولسانه لكم ذاكر ناشر شاكر وهو على خير وقد اجتمعت من بركتكم فى مدينة سلا على جماعة من طلاب العلم وفتح الله تعالى على بتآليف عديدة منها كفاية الطالب النبيل فى حل ألفاظ مختصر خليل ومنها شرح على المنهج المنتخب للرقاق فى قواعد مالك ومنظومة فى أكثر من ألف بيت فى السير والشمائل ومنها فى رجال البخارى ولا كنهج الكلاباذى ومنها خطب وغير ذلك والكل من بركتكم ونسبته اليكم فى صحيفتكم والسلام من ولدكم المقر بفضلكم تراب نعالكم على بن عبد الواحد الانصارى لطف الله تعالى به وحامله كبير كبراء قومه ممن يحبكم ويعزكم وما تفعلوا معه من خير فلن تكفروه والسلام انتهى * ومنها كتاب وافانى من عالم قسمطينة وصالحها وكبيرها ومفتيها سلالة العلماء الاكابر ووارث المجد كابرا عن كابر المؤلف العلامة سيدى الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله نصه بسم الله الرحمن الرحيم

وغلط البربر ومن جفا من الامم واجتمعت فيهم محاسن جميع الاقطار وكما اعتدلوا فى الجبلة كذلك لطفوا فى الفطنة والتمسك بمحاسن الامور وأشرف هذا الاقليم مدينة السلام ويعز على ما أصارتنى اليه الاقدار من فراق هذا المصر الذى عن بقعته فصلنا وفى قاعته تجمعنا لكنه الزمن الذى من سيمته التشتيت والدهر الذى من شروطه الابانة ولقد أحسن أبو دلف العجلى حيث يقول

ابا نكبة الدهر التى طوحت بنا * أيادى سبا فى شرقها والمغارب
قفى بالتى نهوى فقد طرت بالتى * اليها تناهت راجعات المصائب

وقد ذكر الحكماء فيما خرجنا اليه من هذا المعنى أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه الى اخوانه وشوقه الى أوطانه وبكاءه على ما مضى من زمانه وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس الى مولدها مشتاقة والى مسقط رأسها تواقة وللالف والعادة قطع الرجل نفسه لصلة وطنه وقال ابن الزبير ليس الناس بشئ من أقسامهم أقنع منهم باوطانهم وقال بعض حكماء العرب عمر الله البلدان بحب الاوطان وقالت الهند حرمة بلدك

الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه فى القرآن وإنك لعلى خلق عظيم وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم من مدنس الازار المتسربل بسرابيل الخطايا والاوزار الراجى المتنصل منه رحمة العزيز الغفار عبد الله سبحانه عبد الكريم بن محمد الفكون أصلح الله بالتقوى حاله وبلغه من متابعة السنة النبوية آماله الى الشيخ الشهير الصدر النحرير ذى الفهم الثاقب والحفظ الغزير الاحب فى الله المؤاخى من أجله سيدى أبى العباس أحمد المقرى أحمد الله عاقبتى وعاقبته وأسبل على الجميع عافيته أمّا بعد فانى أحمد الله اليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا زائد الا صالح الدعاء وطلبه منكم فانى احوج الناس اليه واشدهم فى ظى الحاحا عليه لما تحققت من أحوال نفسى الامارة واستبطنت من دخيلائها المثابرة على حب الدنيا الغرارة كأنها عميت عن الاهوال التى أشابت رؤس الاطفال وقطعت اعناق كل الرجال فتراها فى لجج هواها خائضة وفى ميدان شهواتها راكضة طغت فى غيها وما لانت وجمعت فما انقادت ولا استقامت فويلى ثم ويلى من يوم تبرز فيه القبائح وتنشر الفضائح ومنادى العدل قائم بين العالمين وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فالله أسأل حسن الالطاف والستر عما ارتكبناه من التعدى والاسراف وان يجعلنا من اهل الحمى العظيم وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤف الرحيم ولنكف من القلم عنانه لما أرجو من اجله ثواب الله سبحانه وقد اتصل بيدى جوابكم اطال الله فى العلم بقاءكم فرايت من عذوبة الفاظكم وبلاغة خطابكم ما يذهل من العلماء عقولها وينيلها الذى الجنى لسماعه سؤالها ومأمولها بيد ما فيه من اوصاف من امره قاصر وعن الطاعة والاجتهاد فاتر واصدق قول فيه عند مخبره ومرآه أن تسمع بالمعيدى خير من ان تراه لكن يجازيكم المولى بحسن النية البلوغ فى بحبوحة الجنان غاية الامنية وقد ذيلتم ذلك بابيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها على أنى غير قائم بفرضها ونفلها فالله تعالى يمدكم بمعونته ويجعلكم من اهل مناجاته فى حضرته ويسقينا من كاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منادمته وقد ساعد البنان الجنان فى اجابتكم بوزنها وقافيتها والعذر لى أنى لست من أهل هذا الشان والاعتراف بانى جبان وأى جبان والكمال لكم فى الرضا والقبول والكريم يغضى عن عورات الاحمق الجهول وظننا حققه الله تعالى أن نحمل على منظومتكم الكلامية يعنى اضاءة الدجنة تقييدا أرجو من الله توفيقا وتسديدا بحسب قدرى لا على قدركم وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم وان ساعد الاوان وقضى بتيسيره رب الزمان فآتى به ان شاء الله الاجل معى لاننى بالاشواق الى حضرة راكب البراق ومخترق السبع الطباق وكنت عازما على أن أبعث لكم من الابيات أكثر من الواقع الا أن الرفقة أعجلت وصادفتنى أيام موت قعيدة البيت فلم يتيسر عاجلا الا ما ذكر وعلى الله قصد السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل

يانخبة الدهر فى الدرايه * علما تعاضده الروايه
لازلت بحرا بكل فن * يروى به الطالبون غايه

رضعت ماءه وطعمت غذاءه وقال آخر ميلك الى موضع مولدك من كرم محتدك وقال بقراط يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فان الطبيعة تتطلع الى هوائها وتنزع الى غذائها وقال أفلاطون غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها وقال جالينوس يتروح العليل بنسيم أرضه كما تتنبت الحبة ببلل القطر وللنفوس فى علة حنينها الى الاوطان كلام ليس هذا موضعه وقد ذكرناه فى كتابنا المترجم بسر الحياة وفى كتاب طب النفوس ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل أوّل العلم وضاع آخره اذ كان كل علم من الاخبار يستخرج وكل حكمة منها تستنبط والفقه منها يستثار والفصاحة منها تستفاد وأصحاب القياس عليها يبنون واهل المقالات بها يحتجون ومعرفة الناس منها تؤخذ وامثال الحكماء فيها توجد ومكارم الاخلاق ومعاليها منها تقتبس وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتمس وكل غريبة منها تعرف وكل عجيبة منها تستظرف وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل ويستعذب موقعه الاحمق والعاقل ويانس بمكانه وينزع

لقد تصدّرت فى المعالى * كما تعاليت فى العنايه
من فيك تنتظم المعانى * بلغت فى حسنها النهايه
رقاك مولاك كل مرقى * تحوى به القرب والولايه
اعجوبة ماله نظير * فى الحفظ والفهم والهدايه
يا أحمد المقرى دامت * بشراك تصحبها الرعايه
بجاه خير العباد طرا * والآل والصحب والنقايه
صلى عليه الاله تترى * نكفى بها الشر والغوايه

وأختم كتابى بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب بغاية عجلة يوم السبت سابع او ثامن رجب من عام ثمانية وثلاثين وألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام انتهى والمذكور عالم المغرب الاوسط غير مدافع وله سلف علماء ذوو شهرة ولهم فى الادب الباع المديد غير أن المذكور مائل الى التصوّف ونعم ما فعل تقبل الله تعالى عملى وعمله وبلغ كلا منا أمله ولأشهر أسلافه العلامة الشيخ حسن بن على بن عمر الفكون القسمطينى احد اشياخ العبدرى صاحب الرحلة قصيدة مشهورة عند العلماء بالمغرب وهى من در النظام وحر الكلام وقد ضمنها ذكر البلاد التى رآها فى ارتحاله من قسمطينة الى مراكش وأوّلها

الاقل للسرى بن السرى * ابى البدر الجواد الاريحى

ومنها

وكنت اظنّ ان الناس طرا * سوى زيد وعمرو غير شى
فلما جئت بيلة خير دار * امالتنى بكل رشا ابى
وكم اورت ظباء بنى أوار * اوار الشوق بالريق الشهى
وجئت بجاية فجلت بدورا * يضيق بوصفها حرف الروى
وفى ارض الجزائر هام قلبى * بمعسول المراشف كوثرى
وفى مليانة قد ذبت شوقا * بلين العطف والقلب القسى
وفى تنس نسيت جميل صبرى * وهمت بكل ذى وجه وضى
وفى مازونة مازلت صبا * بوسنان المحاجر لوذعى
وفى وهران قد امسيت رهنا * بظامى الخصر ذى ردف ورى
وابدت لى تلمسان بدورا * جلبن الشوق للقلب الخلى
ولما جئت وجدة همت وجدا * بمخنث المعاطف معنوى
وحل رشا الرباط رشا رباطى * وتيمنى بطرف بابلى
وأطلع قطر فاس لى شموسا * مغاربهنّ فى قاب الشجى
وما مكناسة الاكناس * لأحوى الطرف ذى حسن سنى
وان تسأل عن ارض سلا ففيها * ظباء كاسرات للكمى
وفى مراكش ياويح قلبى * اتى الوادى فطم على القرى

اليه الخاصى والعامى ويميل الى روايته العربى والعجمى وبعد فانه يوصل به كل كلام ويتزين به فى كل مقام ويتجمل به فى كل مشهد ويحتاج اليه فى كل محفل ففضيلة علم الاخبار بينة على كل علم وشرف منزلته صحيح فى كل فهم فلا يصبر على فهمه وتيقن ما فيه وايراده واصداره الا انسان قد تجرد له وفهم معناه وذاق ثمرته واستسفر من غرره ونال من سرره وقد قالت الحكماء الكتاب نعم الجليس ونعم الذخر ان شئت الهتك نوادره وأضحكتك بوادره وان شئت اشجتك مواعظه وان شئت تعجبت من غرائب فوائده وهو يجمع لك الاول والآخر والغائب والحاضر والناقص والوافر والبادى والحاضر والشكل وخلافه والحسن وضده وهو ميت ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء وهو مؤنس ينشط بنشاطك وينام بنومك ولا ينطق معك الا بما تهوى ولا نعلم جارا أبر ولا خليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولا معلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية وأقل خيانة ولا أبدى نفعا ولا أحمد أخلاقا ولا أدوم سرورا ولا أسكت غيبة ولا احسن موافاة ولا اعجل مكافاة ولا اخف مؤنة منه ان نظرت اليه اطال امتاعك وشحذ طباعك وايد فهمك واكثر

بدور

بدور بل شموس بل صباح * بدى في بدى في بدى
أبحن مصارع العشاق لما * سعين به فكم ميت وحي
بقامة كل أسمر سمري * ومقلة كل ابيض مشرفي
اذا أنسيتني حسنا فاني * انسيهم هوى غيلان مي
فها انا قد تخذت الغرب دارا * وادعى اليوم بالمراكشي
على أن اشتياقي نحو زيد * كشوقك نحو عمرو بالسوى
تقسمني الهوى شرقا وغربا * فيا للمشرقي المغربي
فلي قلب بارض الشرق عان * وجسم حل بالغرب القصي
فهذا بالغدو يهيم غربا * وذاك يهيم شرقا بالعشي
فلولا الله مت هوى وشوقا * وكم لله من لطف خفي

وقد خرجنا بالاستطراد الى الطول وذلك منا استرسال مع جاذب الادب فلنمسك العنان والله المستعان وما اوردناه من القصائد والمقطعات في مدح دمشق الشام فهو غيض من فيض وفي نيتي ان اجمع في ذلك كتابا حافلا اسميه نشق عرف دمشق اومشق قلم المدح لدمشق ولسان حالي الآن ينشد قول بعض الاكابر

نحن في مصر رهن شوق اليكم * هل لديكم بالشام شوق الينا
فعجزنا عن ان ترونا لديكم * وابيتم عن ان نراكم لدينا
حفظ الله عهد من حفظ العهد * ووفى به كما قد وفينا

وقول ابن الصائغ

وددت لو أن عيني * مكان كتبي اليكم
حتى أراكم وأملي * أخبار شوقي عليكم

*(رجع الى ابن جبير) رحمه الله تعالى ومن شعره قوله

اياك والشهرة في ملبس * والبس من الاثواب أسمالها
تواضع الانسان في نفسه * أشرف للنفس وأسمى لها

وقال

تنزه عن العوراء مهما سمعتها * صيانة نفس فهو بالحر أشبه
اذا أنت جاوبت السفيه مشاتما * فمن يتلقى الشتم بالشتم أسفه

وقال

اقول وقد حان الوداع واسلمت * قلوب الى حكم الاسى ومدامع
أيارب أهلي في يديك وديعة * وما عدمت صونا لديك الودائع

وقال أبو عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يمدح ابن جبير المذكور

لابي الحسين مكارم لو أنها * عدت لما فرغت ليوم المحشر
وله على فضائل قد قصرت * عن بعض نعماها عظام الابحر

وقال ابن جبير من قصيدة مطلعها

علمك وتعرف منه في شهر مالا تأخذه من افواه الرجال في دهر ويغنيك عن كد الطلب وعن الخضوع لمن انت اثبت منه اصلا واسمع فرعا وهو المعلم الذي لا يجفوك وان قطعت عنه المائدة لم يقطع عنك الفائدة وهو الذي يطيعك بالليل طاعته لك بالنهار ويطيعك في السفر كطاعته لك في الحضر وقد قال الله تبارك وتعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم كاخباره عن نفسه بالكرم وفي ذلك يقول بعض اهل الادب

لما علمت باني لست اعجزهم * فوتا ولا هربا قدمت احتجب
فصرت بالبيت مسرورا به جذلا * حاوي البراءة لاشكوى ولاشغب
فردا يحدثني حقا وينطق لي * عن علم ماغاب عني منهم الكتب
المؤنسون هم اللائي غنيت بهم * فليس لي في جليس غيرهم ارب
لله در جليس لا جليسهم * فذا عشيرهم للسوء يرتقب

وقد كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لايجالس الناس ويزاول مقبرة

وكان لا يرى الا وفى يده كتاب يقرؤه فسئل عن ذلك فقال لم ار واعظا اوعظ من قبر ولا ممتعا امتع

يا وفود الله فزتم بالمنى * فهنيئا لكم أهل منى
قد عرفنا عرفات بعدكم * فلهذا برح الشوق بنا
نحن فى الغرب ويجرى ذكركم * بغروب الدمع يجرى هتنا

ومنها

فينا ديه على شحط النوى * من لنا يوما فقلت ملنا
سر بنا يا حادى الركب عسى * أن نلاقى يوم جمع سربنا
ما دعا داعى النوى لما دعا * غير صب شفه برح العنا
ثم لنا البرق اذا الاح وقل * جمع الله بجمع شملنا
علنا نلقى خيالا منكم * بالذيذ الذكر وهنا اعلنا
لو حنى الدهر علينا القضى * باجتماع بكم بالمنحنى
لاح برق موهنا من نحوكم * فلعمرى ما هنا العيش هنا
أنتم الاحباب نشكو بعدكم * هل شكوتم بعدنا من بعدنا

وله رحمه الله تعالى من قصيدة مطولة أولها

لعل بشير الرضا والقبول * يعلل بالوصل قلب الخليل

وله أخرى أنشدها عند استقباله المدينة المشرفة وهى ثلاثة وثلاثون بيتا من الغر أولها

أقول وآنست بالليل نارا * لعل سراج الهدى قد أنارا
والا فما بال أفق الدجى * كأن سنى البرق فيه استطارا
ونحن من الليل فى حندس * فما باله قد تجلى نهارا

*وكان أبو الحسين بن جبير المترجم به قد نال بالادب دنيا عريضة ثم رفضها وزهد فيها وقال صاحب الملتمس فى حقه الفقيه الكاتب أبو الحسين بن جبير ممن لقيته وجالسته كثيرا ورويت عنه وأصله من شاطبة وكان أبوه أبو جعفر من كتابها ورؤسائها ذكره أبو اليسع فى تاريخه ونشأ أبو الحسين على طريقة أبيه وتولع بغرناطة فسكن بها قال ومما أنشدنيه لنفسه قوله يخاطب أبا عمران الزاهد باشبيلية

أبا عمران قد خلفت قلبى * لديك وأنت أهل للوديعه
صحبت بك الزمان أخا وفاء * فها هو قد تنمر للقطيعه

قال وكان من أهل المروآت عاشقا فى قضاء الحوائج والسعى فى حقوق الاخوان والمبادرة لايناس الغرباء وفى ذلك يقول

يحسب الناس بأنى متعب * فى الشفاعات وتكليف الورى
والذى يتعبهم من ذاك لى * راحة فى غيرها لن أفكرا
وبودى لو أقضى العمر فى * خدمة الطلاب حتى فى الكرى

قال ومن أبدع ما أنشده رحمه الله تعالى أول رحلته

طال شوقى الى بقاع ثلاث * لا تشد الرحال الا اليها
ان للنفس فى سماء الامانى * طائرا لا يحوم الا عليها

من كتاب ولا شيأ اسلم من الوحدة فقيل له قد جاء فى الوحدة ما جاء فقال ما افسدها للجاهل وقد قال بعض الشعراء فيمن يجمع الكتب ولا يعلم ما فيها

زوامل للاسفار لا علم عندهم
بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا
باحماله اوراح ما فى الغرائر

(ذكر تنازع الناس فى المعنى الذى من أجله سمى اليمن يمنا والعراق عراقا والشام شاما والحجاز حجازا) تنازع الناس فى اليمن وتسميته فمنهم من زعم أنه انما سمى يمنا لانه عن يمين الكعبة وسمى الشام شاما لانه عن شمال الكعبة وسمى الحجاز حجازا لانه حاجز بين اليمن والشام نحو ما أخبر الله عز وجل عن الفرق الذى بين بحر القلزم وبحر الروم بقوله عز وجل وجعل بين البحرين حاجزا وانما سمى العراق عراقا لمصب المياه اليه كالدجلة والفرات وغيرهما من الانهار وأظنه ماخوذا من عراقى الدلو وعراقى القربة ومنهم من زعم أن اليمن انما سمى يمنا ليمنه والشام شاما لشؤمه وهذا قول يعزى الى قطرب النحوى فى آخرين من الناس ومنهم

قص منه الجناح فهو مهيض * كل يوم يرجو الوقوع لديها
وقال
اذا بلغ العبد أرض الحجاز * فقد نال أفضل ما أمله
فان زار قبر نبي الهدى * فقد أكمل الله ما أمله

وعاد رحمه الله تعالى الى الاندلس بعد رحلته الاولى التي حل فيها دمشق والموصل وبغداد وركب الى المغرب من عكا مع الافرنج فعطب في خليج صقلية الضيق وقاسى شدائد الى أن وصل الاندلس سنة ٥٨١ ثم اعاد المسير الى المشرق بعد مدة الى أن مات باسكندرية كما تقدم ومن شعره أيضا

لي صديق خسرت فيه ودادي * حين صارت سلامتي منه ربحا
حسن القول سيئ الفعل كالجزار يسمي واتبع القول ذبحا

وحدث رحمه الله تعالى بكتاب الشفاء عن أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي عن القاضي عياض ولما قدم مصر سمع منه الحافظان أبو محمد المنذري وأبو الحسين يحيى بن علي القرشي * وتوفي ابن جبير بالاسكندرية يوم الاربعاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٦١٤ والدعاء عند قبره مستجاب قاله ابن الرقيق رحمه الله تعالى وقال ابن الرقيق في السنة بعدها * وقال أبو الربيع بن سالم أنشدني أبو محمد عبد الله بن التميمي البجائي ويعرف بابن الخطيب لابي الحسين ابن جبير وقال وهو مما كتب به الي من الديار المصرية في رحلته الاخيرة لما بلغه ولايتي قضاء سبتة وكان ابو الحسين سكنها قبل ذلك وتوفيت هنالك زوجته بنت أبي جعفر الوقشي فدفنها بها

بسبتة لي سكن في الثرى * وخل كريم اليها أتى
فلو أستطيع ركبت الهوا * فزرت بها الحي والميتا

وأنشد ابن جبير رحمه الله تعالى لنفسه عند صدوره عن الرحلة الاولى الى غرناطة أو في طريقها قوله

لي نحو أرض المنى من شرق اندلس * شوق يؤلف بين الماء والقبس

الى آخرها ومن شعره قوله

ياخير مولى دعاه عبد * أعمل في الباطل اجتهاده
هب لي ماقد علمت مني * ياعالم الغيب والشهاده
وقال رحمه الله تعالى
واني لاوثر من أصطفي * وأغضض عن زلة العاثر
واهوى الزيارة ممن أحب * لاعتقد الفضل للزائر
وقال رحمه الله تعالى
عجبت للمرء في دنياه تطمعه * في العيش والاجل المحتوم يقطعه
يمسي ويصبح في عشواء يخبطها * أعمى البصيرة والآمال تخدعه
يغتر بالدهر مسرورا بصحبته * وقد تيقن أن الدهر يصرعه

وبعضهم تشاءم فوسم له هذا الاسم وسنذكر تفرق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع وبعض ماقالوه في ذلك من الشعر عند سيرهم في الارض واختيارهم البقاع وقيل اغاسمي الشام شاما لشامات في أرضه بيض وسود وذلك في الترب والبقاع وأنواع النبات والاشجار وهذا قول الكلبي وقال الشرقي ابن القطامي اغاسمي الشام شاما لسام بن نوح لانه أول من نزله وقطن فيه فلما سكنته العرب تطيرت من أن تقول سام فقالت شام وقيل ان سامرا اغا سميت بذلك اضافة الى سام وقيل ان أول من سكنها من خلفاء بني العباس سماها بهذا الاسم وانها سرور لمن رآها وقد ذكر في أسماء هذه المعاقل والبقاع والامصار وجوه غير ماذكرنا قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا

(ذكر اليمن وأنسابها وما قاله الناس في ذلك) اختلف الناس في أنساب قحطان فحكى هشام بن الكلبي عن ابيه والشرقي ابن القطامي أنهما كانا يذهبان الى أن قحطان ابن الهميسع بن نبت وهو نابت بن اسمعيل بن ابراهيم الخليل ويحتجان لذلك بوجوه من الاخبار

ويجمع المال حرصا لايفارقه * وقد درى انه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه * وليس يشفق من دين يضيعه
وأسوأ الناس تدبيرا لعاقبة * من أنفق العمر فيما ليس ينفعه

وقال

صبرت على غدر الزمان وحقده * وشاب لى السم الذعاف بشهده
وجربت اخوان الزمان فلم أجد * صديقا جميل الغيب فى حال بعده
وكم صاحب عاشرته وألفته * فمادام لى يوما على حسن عهده
وكم غرنى تحسين ظنى به فلم * يضئ لى على طول اقتداحى لزنده
وأغرب من عنقاء فى الدهر مغرب * أخو ثقة يستقيك صافى وده
بنفسك صادم كل أمر تريده * فليس مضاء السيف الا بحده
وعزمك جردعند كل مهمة * فما نافع مكث الحسام بغمده
وشاهدت فى الاسفار كل عجيبة * فلم أرمن قدنال جدا بجده
فكن ذا اقتصاد فى امورك كلها * فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
ومايحرم الانسان رزقا بعجزه * كمالاينال الرزق يوما بكده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة * جرت بقضاء لاسبيل لرده

وقال

الناس مثل ظروف حشوها صبر * وفوق افواهها شئ من العسل
تغرذائقها حتى اذا كشفت * له تبين ماتحوية من دخل

وقال

تغيراخوان هذا الزمان * وكل صديق عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة * فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم * فصرت أطالع باب البدل

وقد تقدم بيتان من هذه الثلاثة على وجه آخر أول ترجمة المذكور ورأيت بخط ابن سعيد البيتين على وجه آخر وهو قوله

تكلت أخلاء هذا الزمان * فعندى مما جنوه خلل
قضيت التعجب من شأنهم * فصرت أطالع باب البدل

انتهى

ولابن جبير رحمه الله تعالى

من الله فاسأل كل أمر تريده * فمايملك الانسان نفعا ولاضرا
ولاتتواضع للولاة فانهم * من الكبر فى حال تموج بهم سكرا
واياك أن ترضى بتقبيل راحة * فقد قيل عنها انها السجدة الصغرى

وهو نحو قول القائل

قل لنصر والمرء فى دولة السلطان اعمى مادام يدعى اميرا
فاذا زالت الولاية عنه * واستوى بالرجال عاد بصيرا

الكلبى عن أبى صالح ان النبى صلى الله عليه وسلم مرعلى فتية من الانصار يتناضلون فقال ارموا يابنى اسمعيل فان اباكم كان راميا ارموا وانامع ابن الادرع رجل من خزاعة فرمى القوم نبالهم وقالوا يارسول الله من كنت معه فقد نضل فقال ارموا وانا معكم جميعا (قال المسعودى) وسائر ولد قحطان من حمير وكهلان يابى هذا القول وينكره وقد ثبت أن قحطان هو يقطن وانما عرب فقيل له قحطان (وحكى ابن الكلبى) أن اسم يقطن فى التوراة الجبار بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام ابن نوح والواضح من أنساب اليمن وماتدين به كهلان وحميرابنا قحطان الى هذا الوقت قولا وعملا وينقله الباقى عن الماضى والصغير عن الكبير والذى وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الامم وعليه وجدت الاكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بارض اليمن والتهائم والانجاد و بلاد حضرموت والشحر و الاحقاف و بلاد عمان وغيرها من الامصار أن الصحيح فى نسب قحطان أنه قحطان بن عابر بن شالخ وهو قينان

وقال

وقال ابن جبير رحمه الله تعالى

أيها المستطيل بالبغى اقصر * ربما طأطأ الزمان الرؤسا
وتذكر قول الاله تعالى * ان قارون كان من قوم موسى

وقال وقد شهد العيد بطندته من قرى مصر

شهدناه صلاة العيد فى ارض غربة * باحواز مصر والاحبة قد بانوا
فقلت لخلى فى النوى جد بدمع * فليس لنا الا المدامع قربان

وقال

قد احدث الناس امورا فلا * تعمل بها انى امرؤ ناصح
فاجماع الخير الا الذى * كان عليه السلف الصالح

وقال

رب ان لم تؤتنى سعة * فاطو عنى فضلة العمر
لا أحب اللبث فى زمن * حاجتى فيه الى البشر
فهم كسر لمنجبر * ما هم جبر لمنكسر

ولما وصل ابن جبير رحمه الله تعالى الى مكة ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ أنشد قصيدته التى أولها

بلغت المنى وحللت الحرم * فعاد شبابك بعد الهرم
فاهلا بمكة أهلا بها * وشكرا لمن شكره يلتزم

وهى طويلة وسيأتى بعضها وقال رحمه الله تعالى عند تحركه للرحلة الحجازية

أقول وقد دعا للخير داع * حننت له حنين المستهام
حرام أن يلذ لى اغتماض * ولم أرحل الى البيت الحرام
ولا طافت بى الآمال ان لم * أطف ما بين زمزم والمقام
ولا طابت حياتى لى اذا لم * أزر فى طيبة خير الانام
وأهديه السلام وأقتضيه * رضا يدنى الى دار السلام

وقال

هنيئا لمن حج بيت الهدى * وحط عن النفس أوزارها
وان السعادة مضمونة * لمن حج طيبة أوزارها

ولنختم ترجمته بقوله

أحب النبى المصطفى وابن عمه * عليا وسبطيه وفاطمة الزهرا
هم أهل بيت أذهب الرجس عنهم * وأطلعهم أفق الهدى أنجما زهرا
موالاتهم فرض على كل مسلم * وحبهم أسنى الذخائر للاخرى
وما أنا للصحب الكرام بمبغض * فانى أرى البغضاء فى حقهم كفرا
هم جاهدوا فى الله حق جهاده * وهم نصروا دين الهدى بالظبا نصرا
عليهم سلام الله ما دام ذكرهم * لدى الملا الاعلى وأكرم به ذكرا

والخضر عليه السلام من ولد ملكان فى قول كثير من الناس وولد لقحطان أحد وثلاثون ذكرا وأمهم حنى بنت روق بن فزارة ابن سعد بن سنويد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح فولد قحطان يعرب ابن قحطان وولد يعرب يشجب وولد يشجب ولدين أحدهما عبد شمس وهو سبا بن يشجب وانما سمى سبا لسبيه السبايا فولد سبا حمير وكهلان ابنى سبا والثانى لم يعقب وانما العقب من ولده هذين وهما حمير وكهلان فهذا المتفق عليه عند أهل الخبرة بهما والمتيقن لديهم وكان الهيثم بن عدى الطائى يقول اسمعيل تكلم بلغة جرهم لان اسمعيل كان سريانى اللسان على لغة أبيه خليل الرحمن حين أسكنه هو وأمه هاجر بمكة على ما ذكرنا فصاهر جرهم ونشأ على لغتها ونطق بكلامها ونزار تابى أن يكون اسمعيل نشا على لغة جرهم ويقولون ان الله عز وجل أعطاه هذه اللغة وذلك ان ابراهيم خلفه هو وأمه هاجر واسمعيل ابن ست عشرة سنة وقيل ابن أربع

عشرة سنة فى واد غير ذى زرع ولا أنيس فحفظهما الله تعالى وأنبع لهما زمزم وعلم اسمعيل هذه

وقوله فى آخر الميمية

نبى شفاعته عصمة * فيوم التنادى به يعتصم
عسى أن تجاب لنا دعوة * لديه فتكفى بها ما أهم
ويرعى لزوّاره فى غد * ذماما فما زال يرعى الذمم
عليه السلام وطوبى لمن * ألم بتربته فاستلم
أخى كم نتابع أهواءنا * ونخبط عشواء فى الظلم
رويدك جرت فعج واقتصد * أمامك نهج الطريق الاعم
وتب قبل عض بنان الاسى * ومن قبل قرعك سن الندم

ومنها

وقل رب هب رحمة فى غد * لعبد بسيما العصاة اتسم
جرى فى ميادين عصيانه * مسيئا ودان بكفر النعم
فيارب صفحك عما جنى * ويارب عفوك عما اجترم

*(ومن الراحلين الى المشرق من الاندلس الاديب أبو عامر بن عيشون) قال الفتح رجل حل المشيدات والبلاقع وحكى النسرين الطائر والواقع واستدر خلفى البؤس والنعيم وقعد مقعد البائس والزعيم فآونة فى سماط وأخرى بين درانك وأنماط ويوما فى ناووس وأخرى فى مجلس مأنوس رحل الى المشرق فلم يحمد رحلته ولم يعلق بأنامل نحلته فارتد على عقبه وارتد من حبالة الفوت الى منتظره ومرتقبه ومع هذا فله تحقق فى الادب وتدفق طبع اذا مدح أو نسب وقد أثبت له ما تعلم حقيقة نفاذه وترى سرعة وخذه فى طريق الاحسان واغذاذه ثم قال وأخبرنى انه دخل مصر وهو سار فى ظلم البؤس عار من كل لبوس قد خلا من النقد كيسه وتخلى عنه الا تعذيره وتنكيسه فنزل بأحد شوارعها لا يفترش الا نكده ولا يتوسد الا عضده وبات بليلة ابن عبدل تهب عليه صرصر لا ينفع منها عنبر ولا مندل فلما كان من السحر دخل عليه ابن الطوفان فاشفق لحاله وفرط امحاله وأعلمه أن الافضل بن أمير الجيوش استدعاه ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيه الله لاخصب مرعاه فصنع له فى حينه

قل للملوك وان كانت لهم همم * تأوى اليها الامانى غير متئد
اذا وصلت بشاهنشاه لى سببا * فلن أبالى بمن منهم نفضت يدى
من واجه الشمس لم يعدل بها قمرا * يعشو الى ضوئه لو كان ذا رمد

فلما كان من الغد وافاه فدفع اليه خمسين مثقالا مصرية وكسوة وأعلمه انه غناه وجود الاظهار للفظه ومعناه وكرره حتى أثبته فى سمعه وقرره فسأله عن قائله فأعلمه بقائه وكلمه فى رفع خلته فامر له بذلك وله أيضا رحمه الله تعالى

قصدت على أن الزيارة سنة * يؤكدها فرض من الودّ واجب
فالفيت بابا سهل الله اذنه * ولكن عليه من عبوسك حاجب
مرضت ومرضت الكلام تثاقلا * الىّ الى أن خلت أنك عاتب

اللغة العربية قالوا ولغة جرهم غير هذه اللغة ووجدنا لغة ولد قحطان بخلاف لغة ولد نزار بن معد فهذا يقضى بابطال قول من قال ان اسمعيل أعرف بلغة جرهم ولو وجب أن يكون اسمعيل عربى اللسان لاجل جرهم لوجب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم أو لغيرها ممن نزل مكة وقد وجدنا قحطان سريانى اللسان وولده يعرب بخلاف لسانه وليس منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة اسمعيل ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة ابراهيم فاعطاه فضيلة اللسان العربى التى أعطاها يعرب ابن قحطان ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتى عليها كتابنا هذا فى التنازع والتفاخر بالانبياء والملوك وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جمل من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف وكذلك مناظرات السودان والبيضان والعرب والعجم ومناظرات الشعوبية فى كتابنا أخبار الزمان *وزعم الهيثم بن عدى ان جرهم بن عابر بن سبا بن يقطن هو قحطان وتاول الهيثم قول النبى صلى الله عليه وسلم حين قال للرماة من الانصار ارموا يابنى اسمعيل أنه عليه السلام نسبهم الى اسمعيل من جهة الامهات ومالهم من الولايات من ولد فلا

فلا تتكلف للعبوس مشقة * سأرضيك بالهجران اذ أنت غاضب
فلا الارض تدميرو لا أنت أهلها * ولا الرزق ان أعرضت عنى جانب

وله يستعتبنى

كتبت ولو وفيت برك حقه * لما اقتصرت كفى على رقم قرطاس
ونابت عن الخط الخطا وتبادرت * فطورا على عينى وطورا على راسى
سل الكاس عنى هل أديرت فلم أضع * مديحك ألحانا يسوغ بها كاسى
وهل نافح الآس الندامى فلم اذع * ثنائى اذكى من منافحة الآس

*(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق أبو مروان الطبنى وهو عبد الملك بن زيادة الله) قال فى الذخيرة كان أبو مروان هذا أحد حماة سرح الكلام وحملة ألوية الاقلام من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر أراهم طرؤا على قرطبة قبل افتراق الجماعة وانتثار شمل الطاعة وأناخوا فى ظلها ولحقوا بسروات أهلها وأبو مضر أبوه زيادة الله بن على التميمى الطبنى هو أوّل من بنى بيت شرفهم ورفع فى الاندلس صوته بنباهة سلفهم قال أبو حيان وكان أبو مضر نديم محمد بن أبى عامر أمتع الناس حديثا ومشاهدة وانصفهم ظرفا وأحذقهم بابواب الشحذ والملاطفة وآخذهم بقلوب الملوك والجلة وأنظمهم لشمل افادة ونجعة انتهى المقصود منه ثم قال فى الذخيرة فامّا ابنه أبو مروان هذا فكان من أهل الحديث والرواية ورحل المشرق وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز وقتل بقرطبة سنة سبع وخمسين وأربعمائة انتهى وقد ذكر قصة قتله المستبشعة واتهم باغتياله ابنه ومن نظم أبى مروان الطبنى المذكور ما وجده صاحب الذخيرة فى بعض التعاليق بخط بعض أدباء قرطبة قال لما عدا أبو عامر أحمد بن محمد ابن أبى عامر على الحذلمى فى مجلسه وضربه ضربا موجعا وأقر بذلك أعين مطالبيه قال أبو مروان الطبنى فيه

شكرت للعامرى ماصنعا * ولم أقل للحذيلمى لعا
ليث عرين عدا بعزته * مفترسا فى وجاره ضبعا
لا برحت كفه ممكنة * من الامانى فنعم ماصنعا
وددت لو كنت شاهدا لهما * حتى ترى العين ذل ماخضعا
ان طال منه سجوده فلقد * طال لغير السجود ما ركعا

قال ابن بسام وابن رشيق القائل قبله

كم ركعة ركع الصفعان تحت يدى * ولم يقل سمع الله لمن حمده

ثم قال ابن بسام فى الذخيرة ما نصه والعرب تقول فلان يركع لغير صلاة اذا كنوا عن عهر الخلوة ومن مليح الكناية لبعض المتقدمين يخاطب امرأته

قلت التشيع حب أصلع هاشم * فترفضى ان شئت أو فتشيعى
قالت أصيلع هاشم وتنفست * بأبى وأمى كل شئ أصلع

ولما صنت كتابى هذا من شين الهجاء وكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء أجريت ههنا

اسمعيل لان النبى صلى الله عليه وسلم لا يزيل نسبا قد ثبت ولا يثبت نسب قوم الى غير آبائهم وقد نقلوا ذلك قولا وعملا وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أن سائلا ساله من مراد عن سبا أرجلا كان أو امراة أو واديا أو جبلا فقال له كان رجلا ولد له عشرة فتشاءم اربعة وتيامن ستة فالذين تشاءموا لخم وجذام وعاملة وغسان والذين تيامنوا حمير والازد ومذحج وكنانة والاشعريون وانمار الذين هم بجيلة وخثعم وقال ابن المنذر هو أنمار بن اياس ابن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبا (قال المسعودى) وقد تنوزع فى نسب انمار فذهب الاكثر الى ان أنمارا واياداً وربيعة ومضر بنو نزار بن معد بن عدنان وانمار دخلوا فى اليمن فاضيفوا اليه وماذكرناه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيمن تيامن وتشاءم فن اخبار الآحاد وليس مجيئه مجىء الاستفاضة التى يقطع بها العذر ويثبت بها الحكم وللناس فى هؤلاء كلام كثير وقد ذكر هشام عن أبيه الكلبى قال كان يقال لسائر ولد سبا السبئيون ولم يكن لهم قبائل تجمعهم دون سبا وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب خبر عمرو بن عامر مزيقيا وخبر طريفة الكاهنة وخبر عمران الكاهن وهو

طالقا من مليح التعريض في ايجاز القريض مما لا أدب على قائله ولا وصمة عظمى على من قيل فيه والهجاء ينقسم قسمين فقسم يسمونه هجو الاشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مقذعا ولا هجوا مستبشعا وهو طأطأ قديما من الاوائل وثل عرش القبائل انما هو توبيخ وتعيير وتقديم وتأخير كقول النجاشي في بني عجلان وشهرة شعره منعتني عن ذكره واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأنشدوه قول النجاشي فيهم فدرأ الحد بالشبهات وفعل ذلك بالزبرقان حين شكا بالحطيئة وسأله أن ينشد ما قال فيه فانشده قوله

دع المكارم لا ترحل لبغيتها * واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

فسأل عن ذلك كعب بن زهير فقال والله ما أود بما قال له حمر النعم وقال حسان لم يهجه ولكن سلح عليه بعد أن أكل الشبرم فهم عمر رضي الله تعالى عنه بعقابه ثم استعطفه بشعره المشهور * وقال عبد الملك بن مروان يوما احسابكم يا بني أمية فما أود ان يكون لي ما طلعت عليه الشمس وان الاعشى قال في

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم * وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ولما سمع علقمة بن علاثة هذا البيت بكى وقال أنحن نفعل هذا بجاراتنا ودعا عليه فما ظنك بشئ يبكي علقمة بن علاثة وقد كان عندهم لو ضرب بالسيف ما قال حس وقد كان الراعي يقول هجوت جماعة من الشعراء وما قلت فيهم ما تستحيي العذراء أن تنشده في خدرها ولما قال جرير

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

أطفأ مصباحه ونام وقد كان بات ليلته يتململ لانه رأى أنه قد بلغ حاجته وشفى غيظه قال الراعي فخرجنا من البصرة فاوردنا ماء من مياه العرب الا وسمعنا البيت قد سبقنا اليه حتى أتينا حاضر بني نمير فخرج الينا النساء والصبيان يقولون قبحكم الله وقبح ما جئتمونا به والقسم الثاني هو السباب الذي أحدثه جرير أيضا وطبقته وكان يقول اذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتا ولا عيرت به قبيلة وهو الذي صناه هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شئ منه فان أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه اسمه وبقي عليه اثمه * ومن مليح التعريض لاهل أفقنا قول بعضهم في غلام كان يصحب رجلا يسمى بالبعوضة

أقول لشادنكم قولة * ولكنها رمزة غامضة
لزوم البعوض له دائما * يدل على انها حامضة

وأنشدت في مثله قول بعض أهل الوقت

بيني وبينك سر لا أبوح به * الكل يعلمه والله غافره

وحكى أبو عامر بن شهيد عن نفسه قال عاتبت بعض الاخوان عتابا شديدا عن أمر أوجع فيه قلبي وكان آخر الشعر الذي خاطبته به هذا البيت

واني على ما هاج صدري وغاظني * ليأمنني من كان عندي له سر

من مارب ومن لحق بعمان وشنوءة والسراة والشام وغير ذلك من بقاع الارض

(ذكر اليمن وملوكها ومقدار سنيها)

أول من بعد من ملوك اليمن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان واسمه عبد شمس وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأية علة سمي سبا على ما قيل والله أعلم وكان ملكه أربعمائة سنة وأربعا وثمانين سنة ثم ملك بعده ولده حمير بن سبا ابن يشجب بن يعرب وكان أشجع الناس في وقته وأفرسهم وأكثرهم جمالا وكان ملكه خمسين سنة وقيل أكثر من ذلك وقيل أقل وكان يعرف بالمتوج وكان أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن ثم ملك بعده أخوه كهلان ابن سبا فطال عمره وكبر سنه واستقامت له الامور وكان ملكه ثلثمائة سنة وقيل غير ذلك ثم عاد الملك بعد أن هلك كهلان الى ولد حمير لاخبار يطول ذكرها وتنازع في الملك ولد حمير وكهلان ثم ملك أبو مالك عمرو بن سبا واتصل ملكه وغمر الناس عدله وشملهم احسانه وكان ملكه ثلثمائة سنة وقيل ان أول من ملك فكان

فكان هذا البيت أشدّ عليه من عض الحديد ولم يزل يقلق به حتى بكى الى منه بالدموع وهذا الباب ممتد الاطناب ويكفى ما مر ويمر منه فى أضعاف هذا الكتاب انتهى كلام ابن بسام فى الذخيرة بلفظه ولاخفاء انه عارض بالذخيرة يتيمة الثعالبى ولذا قال فى خطبة الذخيرة أما بعد حمد الله ولى الحمد وأهله والصلاة على سيدنا محمد خاتم رسله فان ثمرة هذا الادب العالى الرتب رسالة تنثر وترسل وأبيات تنظم وتفصل تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الازهار وتتصل هذه اتصال القلائد فى نحور الخرائد ومازال فى أفقنا هذا الاندلسى القصى الى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين قوم هم ماهم طيب مكاسر وصفاء جواهر وعذوبة موارد ومصادر لعبوا باطراف الكلام المشقق لعب الدجن بجفون المؤرق وحدوا بفنون السحر المنمق حدو الاعشى ببنات المحلق فصبوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم وباهوا غرر الضحى والاصائل بعجائب الاشعار والرسائل نثر لو رآه البديع لنسى اسمه أو اجتلاه ابن هلال لولاه حكمه ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح أو تتبعه جرول ماعوى ولا نبح الا أن أهل هذا الافق أبوا الا متابعة أهل المشرق يرجعون الى أخبارهم المعادة رجوع الحديث الى قتادة حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أوطن باقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ المزية لا يعمر بها جنان ولا خلد ولا يصرف فيها لسان ولا يد فغاظنى منهم ذلك وأنفت مما هنالك وأخذت نفسى بجمع ماوجدت من حسنات دهرى وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى غيرة لهذا الافق الغريب أن تعود بدوره أهلة وتصبح بحوره ثمادا مضمحلة مع كثرة أدبائه ووفور علمائه وقديما ضيعوا العلم وأهله ورب محسن مات احسانه قبله وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان وخص أهل المشرق بالاحسان وقد كتبت لارباب هذا الشان من أهل الوقت والزمان محاسن تبهر الالباب وتسحر الشعراء والكتاب ولم أعرض لشئ من أشعار الدولة المروانية ولا المدائح العامرية اذ كان ابن فرج الجيانى قد رأى رأيى فى النصفة وذهب مذهبى من الانفة فاملى فى محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق معارضا لكتاب الزهرة للاصبهانى فاضربت أنا عما ألف ولم أعرض لشئ مما صنف ولا تعديت أهل عصرى مما شاهدته بعمرى او لحقه أهل دهرى اذ كل مردد ثقيل وكل متكرر مملول وقد مجت الاسماع *ياد ارمية بالعلياء فالسند* الى أن قال بعد ذكره انه يسوق جملة من المشارقة مثل الشريف المرتضى والقاضى عبد الوهاب والوزير ابن المغربى وغيرهم ممن يطول ماصورته وانما ذكرت هؤلاء اتساء بابى منصور فى تاليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر انتهى المقصود منه قلت وتذكرت بما أنشده فى الهجاء قول الباقعة الشاعر المشهور أبى العباس أحمد الغفجومى الشهير بالجذامى وعامة الغرب يقولون الجراومى يهجو قومه بنى غفجوم وهم بربر تبادلا متوصلا بذلك الى هجو اصلاء فاس بنى الملجوم ومستطرد الى ذلك ماهو فى اطراده كالماء المسجوم وهو

ملكه مائة سنة ونحو أربعين سنة وقيل ان هذا الملك هو ابرهة بن الرائش المعروف بذى المنار ثم ملك بعده الرائش بن شداد بن ملطاط وكان ملكه مائة وخمسا وعشرين سنة ثم ملك بعده ابرهة ابن الرائش وهو ذو منار وكان ملكه مائة وثمانين سنة ثم ملك بعده أخوه المعبد ابن ابرهة وهو ذو الاذعار وكان ملكه خمسا وعشرين سنة ثم ملك بعده الهدهاد ابن شرحبيل بن عمرو بن الرائش وقد تنوزع فى مقدار ملكه فمنهم من رأى أنه عاش عشر سنين ومنهم من ذكر سبعا ومنهم من قال ستا ثم ملك تبع الاول وكان ملكه أربعمائة سنة وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلته وقيل غير ذلك والاشهر ماقدمنا ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد وكان لمولدها خبر طريف ذكرته الرواة فيما روى أنه تصور لابيها فى بعض قنصه حيتان سوداء وبيضاء فامر بقتل السوداء منهما وما ظهر له بعد ذلك من شيخ وشاب من الجن وان الشيخ زوجه بابنته واشترط عليه شروطا فعلقت منه ببلقيس ونقض تلك الشروط المأخوذة عليه لها

يا ابن السبيل اذا مررت تبادلا * لاتنزلن على بنى غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترى * الا مجاوبة الصدى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم * لكنهم نشروا لواء اللوم
لاحظ فى أموالهم ونوالهم * للسائل العافى ولا المحروم
لايملكون اذا استبيح حريمهم * الا الصراخ بدعوة المظلوم
ياليتنى من غيرهم ولواننى * من أرض فاس من بنى المجوم

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين ان أحد بنى المجوم قضاة فاس وأصلائها بيعت أوراق كتبه التى هى غير مجلدة بل متفرقة بستة آلاف دينار ويكفيك ذلك فى معرفة قدر القوم ومع ذلك هجاهم بهذا والله سبحانه يغفر الزلات *(رجع) الى ما كنا فيه من ذكر من ارتحل من علماء الاندلس الى البلاد المشرقية المحروسة فنقول *(ومنهم حبيب بن الوليد بن حبيب الداخل الى الاندلس ابن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان) من أهل قرطبة ويعرف بدحون رحل الى المشرق وكان فقيها عالما أديبا شاعرا محسنا ورحل الى المشرق أيام عبد الرحمن بن الحكم وحج ولقى أهل الحديث فكتب عنهم وقدم بعلم كثير وكانت له حلقة بجامع قرطبة يسمع الناس فيها وهو يلبس الوشى الشامى الى أن أوصى اليه الامير عبد الرحمن بترك ذلك فتركه وتوفى بعد المائتين ومن شعره قوله

قال العذول وأين قلبك كلما * رمت اهتداء لم يزل متحيرا
قلت اتئد فالقلب أول خائن * لما تغير من هويت تغيرا
ونأى فبان الصبر عنى جملة * وبقيت مسلوب العزاء كما ترى

ومن ولده سعيد بن هشام وكان أديبا عالما فقيها رحم الله تعالى الجميع ودخل دمشق وطنهم الاقدم وعاملها يومئذ للمعتصم بن الرشيد عمر بن فرج الرخجى فوافق دخوله اياها غلاء شديدا ومجاعة أشكت أهلها فضجوا الى الرخجى أن يخرج عنهم من عندهم من الغرباء القادمين عليهم من البلاد فأمر بالنداء فى المدينة على كل من بها من طارئ وابن سبيل ليخرجوا عنها وضرب لهم أجلا ثلاثة أيام أوعد من تخلف منهم بعدها بالعقاب فابتدر الغرباء الخروج عنها وأقام دحون لم يتحرك فجىء به الى الرخجى بعد الاجل فقال له مابالك عصيت أمرى أوما سمعت ندائى فقال له دحون ذلك النداء الذى وقفنى فقال له وكيف فانتمى له فقال له الرخجى صدقت والله انك لاحق بالاقامة فيها امنا فاقم ما أحببت وانصرف اذا شئت وكان لدحون هذا ابن يقال له بشر بن حبيب ويعرف بالحبيبى وهو من المشهورين بقرطبة وأمه المدنية الراوية عن مالك بن أنس رضى الله تعالى عنه وبنته عبدة بنت بشر مشهورة ولها رواية عنه رحم الله تعالى الجميع (ومنهم بهلول بن فتح) من أهل اقليش له رحلة حج فيها وكان رجلا صالحا خيرا حكى عن نفسه انه رأى فى منامه بعد قدومه من الحج كأنه بمكة وقائل يقول انطلق بنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم قال فكنت أقول لرجل من جيرانى باقليش يا أبا فلان انطلق بنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فيقول لى لست أجد الى ذلك سبيلا فكنت أتوجه وأصلى مع الناس والنبى صلى الله عليه وسلم امامنا فلما سلم من الصلاة

فغابت عنه فى خبر ظريف وهو موجود فى كتب التبابعة وانما نحكى هذه الاخبار على حسب ماوجدناه فى كتب الاخباريين وعلى حسب ماتوجبه الشريعة والتسليم لها وليس قصدنا من ذلك وصف اقاويل اصحاب القدم لانهم ينكرون هذا ويمنعونه وانما نحكى فى هذا الكتاب اقاويل اصحاب الحديث المنقادين للشرع والمسلمين للحق واخبار الشياطين على حسب مانطق به الكتاب المنزل على النبى المرسل وماقارن ذلك من الدلائل الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم واعجاز الخليقة أن ياتوا بمثل هذا القرآن الذى لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكان ملك بلقيس عشرين ومائة سنة وكان من امرها مع سليمان عليه السلام ماذكر الله عز وجل فى كتابه وما اقتص من خبر الهدهد وما اقتص من أمرهما فملك سليمان اليمن ثلاثا وعشرين سنة ثم عاد بعد ذلك الملك الى حمير فملكهم ناشر النعم بن عمرو ابن يعفر وكان ملكه خمسا وثلاثين سنة ثم ملك بعده كليكرب بن تبع وكان ملكه ثلثمائة سنة وعشرين سنة وسكن قومه نحو الشرق من بلاد خراسان والتبت والصين وسجستان ثم ملك بعده حسان بن تبع فاستقام له الامر ثم وقع بعد ذلك فى ملكه تنازع

رجع الى وقال لي من اين انت قلت له من الاندلس فكان يقول من اى موضع فكنت اقول من مدينة اقليش فيقول لي اتعرف ابا اسحق البوانى فكنت اقول هو جاري وكيف لا اعرفه فيقول لي أقرئه مني السلام (ومنهم ابو الحسن ثابت بن احمد بن عبد الولى الشاطبي) روى عن ابى زيد عبد الرحمن بن يعيش المهروى ورحل حاجا فسمع منه بالاسكندرية ابو الحسن بن المفضل المقدسي وحدث عنه بالحديث المسلسل فى الاخذ باليد عن ابن يعيش المذكور عن أبي محمد عبد العزيز بن عبد الله بن سعيد بن خلف الانصارى عن أبي الحسن طاهر بن مفوّز وعليه مداره بالاندلس عن نصر السمرقندى باسناده وفيه بعد قال الحافظ ابن الابار وقد رويته مسلسلا من طرق بعضها عن ابن المفضل وأنبأني به ابن أبي جمرة عن أبي بحر الاندلسى عن نصر السمرقندى فصار ابن المفضل بمنزلة من سمعه ممن سمعه مني والحمد لله تعالى انتهى (ومنهم أبو أحمد جعفر بن اب بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن ميمون اليحصبي) سكن شاطبة وأصله من أنشيان عملها ويكنى أبا الفضل أيضا حج وسمع أبا طاهر بن عوف والحافظ السلفى وأبا عبد الله بن الحضرمى وأبا الثناء الحرانى وبدر بن عبد الله الحبشى والحسن بن المفضل وغيرهم وكان من أهل العناية بالرواية مع الصلاح والعدالة حسن الخط جيد الضبط سماه التجيبى فى معجم مشيخته وهو فى عداد أصحابه لاشتراكهما فى السماع باسكندرية وتركه هنالك ثم قدم عليه تلمسان من شاطبة فى أضحى سنة ست وثمانين وخمسمائة وحكى مما أفاده عن ابن المفضل أن أبا عبد الله الكيزانى وكان شاعرا مجيدا أتته امرأة مات ولدها فسألته أن يرثيه فقال

تبكى عليه بشجو * فقلت لا تندبيه
هذا زمان عجيب * قد عاش من مات فيه

وأخذ عنه الحافظ أبو الربيع بن سالم وقال انه توفى بعد التسعين وخمسمائة رحمه الله تعالى (ومنهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونة الخزاعى العابد) من أهل قسطنطانية عمل دانية أخذ القراآت عن ابن هذيل وسمع منه ومن ابن النعمة ببلنسية ورحل حاجا فادى الفريضة ودخل الاسكندرية مرافقا لمن سمع من السلفى ولم يسمع منه هو شيأ قال ابن الابار فيما علمت وقفل الى بلده مائلا الى الزهد والاعراض عن الدنيا وكان شيخ المتصوفة فى وقته وعلا ذكره وبعد صيته فى العبادة الا انه كانت فيه غفلة قال ابن الابار ورأيته اذ قدم بلنسية لاحياء ليلة النصف من شعبان سنة احدى عشرة وستمائة وتوفى عن سن عالية تقارب المائة منتصف ذى القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة وشهد جنازته بشر كثير من جهات شتى وانتاب الناس قبره دهرا طويلا يتبركون بزيارته الى حين اجلاء الروم من كان يشاركهم من المسلمين ببلاد شرق الاندلس التى تغلبوا عليها وذلك فى شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة * (ومنهم ابو جعفر النحوى) أندلسى نزل مصر وكان من رؤساء اهل العلم بالنحو وممن له حال جليلة ذكره الطبنى فيما حكاه ابن الابار (ومنهم ابو الحسن جابر بن أحمد بن عبد الله الخزرجى القرطبى) وكناه بعضهم ابا الفضل سمع ببلده من ابى محمد بن عتاب وغيره ورحل حاجا فادى الفريضة وكان اديبا ناظما كتب عنه ابو محمد العثمانى بالاسكندرية بعض شعره * (ومنهم ابو الحسن

وخلاف وكان ملكه الى أن قتل خمسا وعشرين سنة ثم ملك بعده عمرو بن تبع وهو القاتل لأخيه حسان الملك الماضى وكان ملكه أربعا وستين سنة ويقال انه عدم النوم لما كان من فعله فى قتل أخيه ثم ملك بعده تبع بن حسان بن كليكرب وهو الملك السائر من اليمن الى الحجاز وكانت له مع الاوس والخزرج حروب وأراد هدم الكعبة فمنعه من كان معه من أحبار اليهود فكساها القصب اليمانى وسار نحو اليمن وقد تهوّد وغلب على اليمن اليهودية ورجعوا عن عبادة الاصنام وكان ملكه نحو مائة سنة ثم ملك عمرو بن تبع بعد تفرق وتنازع كان بينهم فى الملك ثم خلع عن الملك وملكوا عليهم مرثد بن كلال وكان فى اليمن تنازع وحروب وكان ملكه أربعين سنة ثم ملك بعده وكيعة بن مرثد وكان ملكه تسعا وثلاثين سنة ثم ملك بعده ابرهة بن الصباح ابن وكيعة بن مرثد وهو الذى يدعى شيبة الحمد وكان ملكه ثلاثا وتسعين سنة وقيل أقل من ذلك وكان علامة وله سير مدونة ثم ملك بعده عمرو بن ذى قيعان وكان ملكه سبع عشرة سنة ثم ملك بعده ذو شناتر ولم يكن من أهل بيت الملك فغرى بالاحداث من أبناء الملوك ويطالبهم بما طالب به النسوان وأظهر

جمهور بن خلف بن ابي عمر بن قاسم بن ثابت المعافري) رحل حاجا الى المشرق فادى الفريضة وسمع بالاسكندرية من ابي طاهر السلفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة وسمع ايضا من غيره وطال مكثه هنالك وهو فيما ارجحه بعضهم من اهل غرب الاندلس *(ومنهم ابو علي الحسن بن حفص بن الحسن البهراني الاندلسي) رحل وتجول ببلاد المشرق فسمع ابا محمد عبد الله بن حمويه وابا حامد احمد بن محمد بن رجاء بسرخس وابا محمد بن أبي شريح بهراة وابا عبد الله الحسين بن عبد الله المفلحي بالاهواز وأبا بكر أحمد بن جعفر البغدادي وأبا حامد أحمد بن الخليل وابا حاتم حامد بن العباس وابا محمد الحسن بن رشيق بمصر وقدم دمشق فروى عنه من اهلها تمام بن محمد وبها ابو احمد بن منصور بن خلف المغربي وغيره وذكره ابن عساكر وقال اخبرنا أبو عبد الله الحسين بن احمد بن علي بن فطيمة وأبو القاسم زاهر بن طاهر قالا انا ابو بكر احمد بن منصور انا ابو علي الحسن بن جعفر القضاعي أنا الحسن بن رشيق بمصر انا المفضل بن محمد الجندي أنا ابو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري قال سمعت مالك بن أنس يقول لا يحمل العلم عن أهل البدع كلهم ولا يحمل العلم عمن لم يعرف بالطلب ومجالسة أهل العلم ولا يحمل عمن يكذب في حديث الناس وان كان في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقا لان الحديث والعلم اذا سمع من العالم فقد جعل حجة بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى وانما قال فيه القضاعي لان بهران من قضاعة *(ومنهم أبو علي الحسن ابن خلف بن يحيى بن ابراهيم بن محمد الاموي) من أهل دانية ويعرف بابن برنجال سمع من أبي بكر بن صاحب الاحباس وأبي عثمان طاهر بن هشام وغيرهما وله رحلة حج فيها وسمع من أبي اسحق ابراهيم بن صالح القروي وببيت المقدس من أبي الفتح نصر بن ابراهيم سنة خمس وستين وأربعمائة وبعسقلان من أبي عبد الله محمد بن الحسن بن سعيد التجيبي وأخذ عنه كتاب الوقف والابتداء لابن الانباري بسماعه من عبد العزيز الشعيري عن مؤلفه وكان فقيها على مذهب مالك وولي الاحكام ببلده وحدث وأخذ عنه وسمع الناس منه باسكندرية سنة تسع وستين ثم بدانية سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة وتوفي في نحو الخمسمائة رحمه الله تعالى (ومنهم أبو علي الحسن بن ابراهيم بن محمد بن بقي الجذامي المالقي) روى بقرطبة عن أبي محمد بن عتاب وعن أبي سكرة الصدفي بمرسية سنة ثمان وخمسمائة وصحب أبا مروان بن مرة وكان من أهل الرواية والتقييد وكانت له رحلة سمع فيها من أبي الطاهر السلفي مجالسه التي أملاها بسلماس برجب سنة خمس عشرة وخمسمائة حسبما ألفي بخط السلفي وفي رحلته لقيه أبو علي الحسن بن علي البطليوسي نزيل مكة وحدث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتنوخي من أهل الاسكندرية بكتاب الاستيعاب لابن عبد البر وأجاز له اجازة عامة في السنة السابقة وقال ابن عساكر في تاريخه وذكر أبا ذر الهروي سمعت أبا الحسن علي بن سليمان المرادي الحافظ الاندلسي بنيسابور يقول سمعت أبا علي الحسن بن علي الانصاري البطليوسي قال ابن عساكر وقد لقيته ولم أسمعها منه قال سمعت أبا علي الحسن بن ابراهيم بن بقي الجذامي المالقي يقول سمعت بعض الشيوخ يقول قيل لابي ذر الهروي أنت من هراة فمن أين تمذهبت لمالك والاشعري

الفسق باليمن واللواط وعدل مع ذلك في الرعية وأنصف المظلوم وكان ملكه ثلاثين سنة وقيل تسعا وعشرين سنة وقتله يوسف ذونواس وكان من أبناء الملوك خوفا على نفسه وانفة أن يفسق به ثم ملك بعده يوسف ذونواس بن زرعة بن تبع الاصغر بن حسان بن كليكرب وقد ذكرنا خبره في غير هذا الموضع من كتبنا وما كان من أمره مع أصحاب الاخدود وتحريقه اياهم بالنار وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابه فقال قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود واليه عبرت الحبشة من بلاد ناصع والزيلع وهو ساحل الحبشة على حسب ما ذكرنا الى بلاد زبيد من أرض اليمن فغرق يوسف نفسه بعد حروب طويلة خوفا من العار وكان ملكه مائتي سنة وستين سنة وقيل أقل من ذلك وذلك أن النجاشي ملك الحبشة لما بلغه فعل ذي نواس بأتباع المسيح عليه السلام وما بعد بهم به من أنواع العذاب والتحريق بالنار بعث اليه الحبشة وعليهم ارياط بن اصحمة فملك اليمن عشرين سنة ثم وثب عليه ابرهة الاشرم بن يكسوم فقتله وملك اليمن فلما بلغ ذلك من فعله الى النجاشي غضب عليه وحلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ تربته يعني أرض اليمن فبلغ ذلك ابرهة

فقال

فقال اني قدمت بغداد أطلب الحديث فلزمت الدارقطني فلما كان في بعض الايام كنت معه فاجتاز به القاضي أبو بكر بن الطيب فاظهر الدارقطني من اكرامه ما تعجبت منه فلما فارقه قلت أيها الشيخ الامام من هذا الذي أظهرت من اكرامه ما رأيت فقال أوما تعرفه قلت لا فقال هذا سيف السنة أبو بكر الاشعري فلزمت القاضي منذ ذلك واقتديت به في مذهبه انتهى (ومنهم أبو علي الحسن بن علي بن الحسن بن عمر الانصاري البطليوسي) رحل الى المشرق فادى الفريضة وتجول هنالك ولقي أبا الحسن بن الفرج الصقلي وأبا عبد الله الفراوي فسمع منهما الصحيحين بعلو وسمع من ابي الفتح ناصر بن أبي علي الطوسي سنن أبي داود وحدث بالموطا عن أبي بكر الطرطوشي وله أيضا رواية عن زاهر بن طاهر الشحامي وعبد المنعم بن عبد الكريم القشيري وأبي محمد الحريري سمع منه مقاماته الخمسين بستانة من بغداد ونزل بمكة وجاور بها وحدث فيها وفي غيرها وأسن وكان ثقة مسندا روى عنه أبو عبد الله بن أبي الصيف اليمني وابو حفص بن شراحيل الاندلسي وابو عبد الله محمد بن ابراهيم الاربلي وسمع منه في صفر سنة ست وستين وخمسمائة وقد لقيه أبو القاسم بن عساكر الحافظ وروى عنه * (ومنهم أبو علي الحسن بن محمد بن الحسن الانصاري) من أهل المرية عمل بلنسية ويعرف بابن الرهبيل سمع من أبي الحسن بن النعمة كثيرا واختص به وعنه أخذ القرآن وسمع من ابن هذيل أيضا ثم رحل حاجا فلقي بالاسكندرية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أبا طاهر السلفي وأبا عبد الله بن الحضرمي وسمع منهما وجاور بمكة واخذ بها عن ابي الحسن علي بن حميد الطرابلسي صحيح البخاري وكان يرويه عن ابي مكتوم عيسى بن ابي ذر الهروي عن ابيه وسمع ايضا من ابي محمد المبارك بن الطباخ البغدادي واجاز له ابو المفاخر سعيد بن الحسين الهاشمي وابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي ببجاية عند صدره في ربيع الاول سنة سبع وسبعين وقفل الى بلده فلزم الانقطاع والانقباض عن الناس والاقبال على ما يعنيه وكان قد خطب به قبل رحلته وحكى التجيبي ان طلبة الاسكندرية تزاحموا عليه لسماع التيسير لابي عمرو المقري منه بروايته عن ابن هذيل سماعا في سنة ثلاث وخمسين وصارت له بذلك عندهم وجاهة وبعد قفوله اصابه خدر منعه من التصرف وكان الصلاح غالبا عليه وتوفي غدوة الجمعة لثمان خلون من شعبان سنة خمس وثمانين وخمسمائة وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى * (ومنهم الحسين بن احمد بن الحسين بن حي التجيبي القرطبي) اخذ علم العدد والهندسة عن ابي عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن برغوث وكان كلفا بصناعة التعديل وله زيج مختصر ذكره القاضي صاعد ونسبه وحكى انه خرج من الاندلس في سنة اثنتين واربعين واربعمائة بعد ان نالته بها وبالبحر محن شداد ولحق بمصر ثم رحل عنها الى اليمن واتصل باميرها فحظي عنده وبعثه رسولا الى القائم بامر الله الخليفة ببغداد ونال هنالك دنيا عريضة وتوفي باليمن بعد انصرافه من بغداد سنة ست وخمسين واربعمائة رحمه الله تعالى * (ومنهم أبو يوسف حماد بن الوليد الكلاعي) اخذ بقرطبة عن ابي المطرف القنازعي وغيره ورحل الى المشرق وحدث بالاسكندرية فسمع منه بها يحيى بن ابراهيم بن عثمان بن شبل شرح الاعتقاد من تاليفه ورسالة قمع الحرص وقصر

بجز ناصيته وجعلها في حق من العاج وجعل دمه في قارورة وجعل من تراب اليمن في جراب وانفذ ذلك الى النجاشي ملك الحبشة وضم الى ذلك هدايا كثيرة والطافا وكتب اليه يعترف بالعبودية ويحلف له بدين النصرانية أنه في طاعته وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه وقد انفذت الى الملك ناصيتي فليجزها بيده وبدمي في قارورة فليهرقه وبجراب من تربة بلادي فليطأه بقدميه وليطفئ الملك عني غضبه فقد أبررت يمينه وهو على سرير ملكه فلما وصل ذلك الى النجاشي استصوب رأيه واستحسن عقله وصفح عنه * وأبرهة بن يكسوم هو الذي سار باصحاب الفيل لاخراب الكعبة وذلك لاربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان فعدل الى الطائف فبعثت معه ثقيف بابي رغال ليدله على الطريق السهل الى مكة فهلك أبو رغال في الطريق بموضع يقال له المغمس بين الطائف ومكة فرجم قبره بعد ذلك وفي ذلك يقول جرير بن الخطفي في الفرزدق

اذا مات الفرزدق فارجموه
كما ترمون قبر أبي رغال

(قال المسعودي) رحمه الله وقيل ان أبا رغال وجهه صاحب النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات

الاول والحث على العمل وذلك فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ولقيه هنالك أبو مروان الطبنى فسمع منه بعض فوائده * (ومنهم أبو القاسم خلف بن فتح بن عبد الله بن جبير) من أهل طرطوشة يعرف بالجبيرى وهو والد أبى عبيد القاسم بن خلف الجبيرى الفقيه وكانت له رحلة الى المشرق ومعه رحل ابنه وهو صغير وكان من أهل العلم والنزاهة وعليه نزل القاضى منذر بن سعيد بطرطوشة فى ولايته قضاء الثغور الشرقية قال أبو عبيد نزل القاضى منذر بن سعيد على أبى بطرطوشة وهو يومئذ يتولى القضاء فى الثغور الشرقية قبل أن يلى قضاء الجماعة بقرطبة فانزله فى بيته الذى كان يسكنه فكان اذا تفرغ نظر فى كتب أبى فرفع الى يديه كتاب فيه ارجوزة ابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم ولم يذكر عليا فيهم ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بنى مروان الى عبد الرحمن بن محمد فلما رأى ذلك منذر غضب وسب ابن عبد ربه وكتب فى حاشية الكتاب

أو ما على لا برحت ملعنا * يا ابن الخبيثة عندكم بامام
رب الكساء وخير آل محمد * دانى الولاء مقدم الاسلام

قال أبو عبيد والابيات بخطه فى حاشية كتاب ابى الى الساعة وكانت ولاية منذر للثغور مع الاشراف على العمال بها والنظر فى المختلفين من بلاد الافرنج اليها سنة ثلاثين وثلثمائة (ومنهم أبو القاسم خلف بن محمد بن خلف الغرناطى) له رحلة روى فيها بالاسكندرية عن مهدى بن يوسف الوراق وحدث عنه أبو العباس بن عيسى الدالى بالتلقين للقاضى عبد الوهاب * (ومنهم أبو القاسم خلف بن فرج بن خلف بن عامر بن خلون القنطرى) من قنطرة السيف وسكن بطليوس ويعرف بابن الروية رحل حاجا فادى الفريضة ولقى بمكة رزين ابن معاوية الاندلسى فحمل عنه كتابه فى تجريد الصحاح سنة خمس وخمسمائة وفيها حج وقفل الى بلده بعد ذلك وكان فقيها مشاورا حدث عنه ابن خير فى كتابه اليه من بطليوس فى نحو الثلاثين وخمسمائة (ومنهم زرارة بن محمد بن زرارة الاندلسى) رحل حاجا الى المشرق وسمع بمصر أبا محمد الحسن بن رشيق سنة سبع وستين وثلثمائة وأبا بكر مسرة بن مسلم الصدفى حدث وأخذ عنه (ومنهم طاهر الاندلسى من أهل مالقة يكنى أبا الحسين) رحل الى قرطبة وخرج منها لما دخلها البرابر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة فلم يزل بمكة الى حدود الخمسين وأربعمائة وكان من أصحاب أبى عمر الطلمنكى وملازميه لقراءة القرآن وطلب العلم مع أبى محمد الشنتجالى وأبى أيوب الزاهد امام مسجد الكوائين بقرطبة وجاور بمكة طويلا واقرأ على مقربة من باب الصفا وكان الشيبيون يكرمونه و يفرجون له لضعفه عند دخوله البيت الحرام ذكره الطبنى قال ابن الابار وأحسبه المذكور فى برنامج الخولانى والذى قرأ لهم أكثر المدونة على أبى عمر أحمد بن محمد الزيات انتهى * (ومنهم أبو الطاهر الاندلسى من أهل لبلة) نزل مصر وكانت له حلقة بجامع عمرو بن العاص وكان رحمه الله تعالى نحويا له شعر وترسيل وتعلق بالملوك للتاديب بالنحو ثم ترك ذلك * (ومنهم أبو محمد طارق بن موسى بن يعيش المنصفى المخزومى) والمنصفى نسبة الى قرية بغربى بلنسية ويكنى أيضا أبا الحسن رحل قبل العشرين وخمسمائة فادى الفريضة وجاور بمكة وسمع بها من أبى عبد الله الحسين بن على الطبرى ومن

الاموال فخالف أمره واساء السيرة فوثب عليه ثقيف وهو قسى بن منبه فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته فى أهل الحرم فقال غيلان بن سلمة وذكر قسوة أبيهم ثقيف على أبى رغال

نحن قسى وقسا أبونا

وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت الثقفى

نفوا عن أرضهم عدنان طرا * وكانوا للقبائل قاهرينا
وهم قتلوا الرئيس ابا رغال * بمكة اذ يسوق بها الوضينا

وفى ذلك يقول عمرو بن دراك العبدى

ترانى ان قطعت حبال قيس * وخالفت المرور على تميم
لأعظم من فخار أبى رغال * وأجور فى الحكومة من سذوم

وقال مسكين الدارمى

وأرجم قبره فى كل عام * كرجم الناس قبر أبى رغال

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب قصة الحبشة وورودهم الحرم وما كان من أمرهم فى ذلك قال وفى طريق العراق الى مكة وذلك بين الثعلبية والمنند نحو النظامية موضع يعرف بقبر العبادى ترجمه المارة الى هذه الغاية كما ترجم قبر أبى رغال وللعبادى خبر ظريف قد أتينا على ذكره فى كتاب أخبار الزمان وفى كتاب حدائق

الشريف

الشريف أبي محمد عبد الباقي الزهري المعروف بشقران أخذ عنه كتاب الاحياء للغزالي لمؤلفه وسمع بالاسكندرية من أبي بكر الطرطوشي وأبي الحسن بن مشرف وأبي عبد الله الرازي وأبي طاهر السلفي وغيرهم ثم قفل الى بلده فحدث وأخذ الناس عنه وسمعوا منه وكان شيخا صالحا عالي الرواية ثقة قال ابن عباد لم ألق أفضل منه وكان مجاب الدعوة وحدث عنه بالسماع والاجازة جملة منهم أبو الحسن بن هذيل وأبو محمد القلني وأبو مروان بن الصيقل وأبو العباس الاقليشي وأبو بكر بن خير وابن سعد الخير وأبو محمد عبد الحق الاشبيلي وأبو بكر ابن جزي وغيرهم ثم رحل ثانية الى المشرق مع صهره أبي العباس الاقليشي وأبي الوليد بن خيرة الحافظ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة وقد نيف على السبعين فأقام بمكة مجاورا الى أن توفي بها عن سن عالية رحمه الله تعالى سنة تسع وأربعين وخمسمائة * (ومنهم محمد بن ابراهيم ابن مزين الاودي) من أهل اكشونية غربي الاندلس يكنى أبا مضر ولاه عبد الرحمن بن معاوية قضاء الجماعة بقرطبة وذلك في المحرم سنة سبعين ومائة وأقام أشهرا ثم استعفى فأعفاه ورحل حاجا فأدى الفريضة وسمع في رحلته امامنا مالك بن أنس وانصرف ومات عن سن عالية سنة ثلاث وثمانين ومائة وذكره ابن شعبان في الرواة عن مالك وحكى انه روى عنه من قطع لسانه استؤني به عاما وأن مالكا قال له قد بلغني أن بالاندلس من نبت لسانه فان لم ينبت أقيد انتهى * (ومنهم أبو عبد الله محمد بن أحمد حياز الشاطبي الاوسي) قدم مصر وكان أخذ عن ابن برطله وابن البراء وغيرهما وعمل فهرست شيوخه على حروف المعجم وحج وعاد الى بلده ومات يوم الجمعة حادي عشر رجب سنة ثماني عشرة وسبعمائة رحمه الله تعالى وغفر له (ومنهم القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمي الاندلسي الاشبيلي) قال أبو شامة هو من بيت كبير بالاندلس يعرف ببني الباجي مشهور كثير العلماء والفضلاء وأصلهم من باجة القيروان وليس منهم القاضي أبو الوليد الباجي الفقيه فانه من بيت آخر من باجة الاندلس وقدم أبو مروان حاجا من بلاده في البحر الى عكا من ساحل دمشق ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية وجده الاعلى أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي قدم الى الديار المصرية وحج منها ومعه ولده محمد أخو عبد الملك ويعرف بصاحب الوثائق وسمعا بها من جماعة من العلماء وذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في المقتبس وكناه أبا عمر وذكر انه سكن اشبيلية وأثنى عليه كثيرا وقال مات في حدود الاربعمائة وروى عنه ابن عبد البر وغيره وأبوه عبد الله بن محمد ابن علي يعرف بالرواية ذكره الحميدي أيضا وذكر ابن بشكوال في الصلة عبد الملك بن عبد العزيز جد هذا الشيخ القادم وأثنى عليه وقال توفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وكان هذا الشيخ أبو مروان حسن الاخلاق فاضلا متواضعا محسنا وسمعته يقول وقد سئل اعارة شيء فبادر اليه ثم قال عندي في قوله تعالى ويمنعون الماعون هو كل شيء واستفدنا من هذا الشيخ فائدة جليلة وهي معاينة قدر مد النبي صلى الله عليه وسلم وهو عندهم متوارث وقد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه المحلى وعايرت بذلك المد المد الذي لنا بدمشق حينئذ

الاذهان وفى أخبار أهل البيت رضى الله عنهم فكان ملك ابرهة على اليمن الى أن هلك بعد أن رجع من الحرم وقد سقطت أنامله وتقطعت أوصاله حين بعث الله عليه الطير الابابيل ثلاثا وأربعين سنة وكان قدوم أصحاب الفيل مكة يوم الاحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثلاثين سنة للاسكندر وست عشرة سنة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة العدد وسنذكر بعد هذا في الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم وتاريخ الانبياء والملوك في باب نفرده لذلك ان شاء الله تعالى (ثم ملك اليمن بعد ابرهة الاشرم ولده يكسوم) فعم اذاه سائر اليمن وكان ملكه الى أن هلك عشرين سنة (ثم ملك بعده مسروق ابن ابرهة) فاشتدت وطأته على اليمن وعم اذاه سائر الناس وزاد على أبيه وأخيه في الاذى وكانت أمه من آل ذي يزن وكان سيف بن ذي يزن قد ركب البحار ومضى الى قيصر يستنجده فأقام ببابه سبع سنين وأبى أن ينجده وقال أنتم يهود والحبشة نصارى وليس في الديانة أن ينصر المخالف على الموافق فمضى الى كسرى أنوشروان فاستنجده ومت اليه بالقرابة وساله النصرة فقال له كسرى وما

هذه القرابة التى أدليت بها الى فقال أيها الملك الجبلة وهى الجلدة البيضاء اذ كنت أقرب اليك منهم

وهو الكيل الكبير فوجدت مدنا يسع صاعين الا يسيرا ووجدته ممسوحا يسع صاعا ونصفا وشيأ فيكون مدان ممسوحان ثلاثة آصع زائدة وقرأت فى كتاب المحلى لابن حزم قال أبو محمد وخوط لى مد على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن على الباجى وهو عند أكثرهم لا يفارق داره أخرجه الى ثقتى الذى كلفته ذلك على بن عبد الله بن احمد بن عبد الله بن على المذكور وذكر انه مد أبيه وان جده أخذه وخوطه على مد أحمد بن خالد وأخبره أحمد بن خالد انه خوطه على مد يحيى بن يحيى على مد مالك قال أبو محمد ولا شك ان أحمد بن خالد صححه أيضا على مد محمد بن وضاح الذى صححه ابن وضاح بالمدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام قال أبو محمد ثم كلته بالقمح الطيب ثم وزنته فوجدته رطلا واحدا ونصف رطل بالفلفلى لا يزيد حبة وكلته بالشعير الا انه لم يكن بالطيب فوجدته رطلا واحدا ونصف أوقية وسألت عن الرطل الفلفلى فقيل لى هو ست عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم وفى تقدير ابن حزم نظر وتوفى هذا الشيخ بالقاهرة سنة خمس وثلاثين وستمائة بعد رجوعه من الحج رحمه الله تعالى انتهى كلام أبى شامة وبعضه بالمعنى * (ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد الواعظ الاشبيلى ثم المصرى) فاضل شرح الصدور بلفظه ومتكلم أحيا القلوب بوعظه أحواله مشهورة ومجالسه بالذكر معمورة وله معرفة بالادب وخبرة بالشعر والخطب وكلام وجهه حسن ونظم يمتاز به على كثير من أرباب اللسن قاله ابن حبيب الحلبى قال وهو القائل

من أنت محبوبه من ذا يعيره * ومن صفوت له من ذا يكدره
هيهات عنك ملاح الكون تشغلنى * والكل أعراض حسن أنت جوهره

وقال

اكشف البرقع عن بكر العقار * واخل فى ليلك مع شمس النهار
وانهب العيش ودعه غلطا * ينقضى ما بين هتك واستتار
ان تكن شيخ خلاعات الصبا * فالبس الصبوة فى خلع العذار
وارض بالعار وقل قد آن لى * فى هوى خمار كاسى لبس عار

وقال

حثوا الى نجد نياق الهوى * فثم واد جوه معشب
وانتظروا حتى يلوح الحمى * فالعيش فيه طاب طيب

وتوفى سنة أربع وثمانين وستمائة هكذا ذكر ترجمته ابن حبيب ثم بعد كتبها حصل لى شك هل هو ممن ارتحل بنفسه من الاندلس أو ولد بمصر وانما ارتحل اليها بعض سلفه والله تعالى أعلم وكذا ذكر آخر يقول فى سنة سبع وثمانين وستمائة وفيها توفى الامام زكى الدين أبو اسحق ابراهيم بن عبد العزيز بن يحيى بن على الاشبيلى المالكى محدث عالم زاهد فيما ليس بدائم كثير الخير جزيل المير كان حسن المناهج قاضيا للحوائج محسنا الى الصامت والمعرب مقصد المسترد من الحجاز والمغرب سمع بمصر ودمشق وحلب وأفتى ودرس مفيد الذوى الطلب ولم يبرح يعين بأياديه ويغيث وهو أول من باشر بظاهرية دمشق مشيخة الحديث وكانت وفاته بدمشق عن نيف وسبعين سنة انتهى * (ومنهم الاحق بالسبق والتقدم بقى بن

فوعده أنوشروان بالنصرة على السودان وشغل بحرب الروم وغيرها من الامم ومات سيف بن ذى يزن فاتى ابنه معديكرب بن سيف فصاح على باب الملك فلما سئل عن حاله قال لى قبل الملك ميراث فوقف بين يدى أنوشروان فسأله عن ميراثه فقال أنا ابن الشيخ الذى وعده الملك بالنصرة على الحبشة فوجه معه وهرز اصبهبذ الديلمى فى أهل السجون فقال ان فتحوا فلنا وان هلكوا فلنا وكلا الوجهين فتح فحملوا فى السفن ومعهم خيولهم وعددهم وأموالهم حتى أتوا ابلة البصرة وهى برج البحر ولم يكن حينئذ بصرة ولا كوفة وهذه مدن اسلامية فركبوا فى سفن البحر وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مثوب فخرجوا من السفن وقد كان أصيب بعضهم فى البحر فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعلموا انه الموت ولا وجه يؤملون المفر اليه فيجهدون أنفسهم وفى ذلك يقول رجل من حضرموت

أصبح من مثوب ألف فى الجنن * من رهط ساسان ورهط مهرسن
ليخرجوا السودان من أرض اليمن * دلهم قصد السبيل ذو يزن

مخلد

مخلد بن يزيد أبو عبد الرحمن القرطبي الاندلسى الحافظ أحد الاعلام وصاحب التفسير والمسند) أخذ عن يحيى بن يحيى الليثى ومحمد بن عيسى الاعشى وارتحل الى المشرق ولقى الكبار وسمع بالحجاز مصعبا الزهرى وابراهيم بن المنذر وطبقتهما وبمصر يحيى بن بكير وزهير بن عباد وطائفة وبدمشق ابراهيم بن هشام الغسانى وصفوان بن صالح وهشام بن عمار وجماعة وببغداد أحمد بن حنبل وطبقته وبالكوفة يحيى بن عبد الحميد الحمانى ومحمد بن عبد الله بن نمير وأبا بكر بن أبى شيبة وطائفة وبالبصرة أصحاب حماد بن زيد وعنى بالاثر عناية عظيمة لامزيد عليها وعدد شيوخه مائتان وأربعة وثلاثون رجلا وكان اماما زاهدا صوّاما صادقا كثير التهجد مجاب الدعوة قليل المثل مجتهدا لا يقلد بل يفتى بالاثر ولد فى رمضان سنة احدى ومائتين وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين قال ابن حزم أقطع انه لم يؤلف فى الاسلام مثل تفسيره لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره وكان محمد بن عبد الرحمن الاموى صاحب الاندلس محبا للعلوم عارفا بها فلما دخل بقى بن مخلد الاندلس بمصنف ابن أبى شيبة وقرئ عليه أنكر جماعة من أهل الرأى ما فيه من الخلاف واستشنعوه وقام جماعة من العامة عليه ومنعته من قراءته فاستحضره الامير محمد واياهم وتصفح الكتاب جزأ جزأ حتى أتى على آخره ثم قال لخازن كتبه هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه فانظر فى نسخه لنا وقال لبقى انشر علمك وارو ما عندك ونهاهم أن يتعرضوا له قال ابن حزم مسند بقى روى فيه عن ألف وثلثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف وما أعلم هذه الرتبة لاحد قبله مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله فى الحديث وله مصنف فى فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم أربى فيه على مصنف أبى بكر بن أبى شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور ثم ذكر تفسيره فقال فصارت تصانيف هذا الامام الفاضل قواعد الاسلام لا نظير لها وكان متخيرا لا يقلد أحدا وكان جاريا فى مضمار البخارى ومسلم والنسائى وذكر القشيرى أن امرأة جاءته فقالت له ان ابنى قد أسرته الفرنج وانى لا أنام الليل من شوقى اليه ولى دويرة أريد أن أبيعها لافتكه بها فان رأيت أن تشير الى من يأخذها ويسعى فى فكاكه فليس لى ليل ولا نهار ولا صبر ولا قرار فقال نعم انصرفى حتى ننظر فى ذلك ان شاء الله تعالى وأطرق الشيخ وحرك شفتيه يدعو الله عز وجل لولدها بالخلاص فذهبت فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها فقالت اسمع خبره يرحمك الله تعالى فقال كيف كان أمرك فقال انى كنت فيمن يخدم الملك ونحن فى القيود فبينا انا ذات يوم أمشى اذ سقط القيد من رجلى فأقبل على الموكل بى فشتمنى وقال فككت القيد من رجليك فقلت لا والله ولكن سقط ولم أشعر فجاؤا بالحداد فأعادوه وسمر مسماره وأبده ثم قمت فسقط أيضا فسألوا رهبانهم فقالوا ألك والدة فقلت نعم فقالوا انه قد استجيب دعاؤها فأطلقوه فأطلقونى وخفرونى الى أن وصلت الى بلاد الاسلام فسأله بقى عن الساعة التى سقط القيد من رجليه فيها فاذا هى الساعة التى دعا له فيها فرحمه الله تعالى * (ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الازدى المعروف بالمغامى) من أهل قرطبة وأصله من طليطلة وهو من ذرية أبى هريرة رضى الله تعالى عنه سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وروى عن عبد الملك

فى شعر له طويل ونما خبرهم الى ملك اليمن مسروق بن ابرهة فاتاهم فى مائة الف من الحبشة وغيرهم من حمير وكهلان ومن سائر من سكن اليمن من الناس وتصاف القوم وكان مسروق على فيل عظيم فقال وهرز لمن كان معه من الفرس اصدقوهم الخبر واستشعروا الصبر ثم تأمل ملكهم وقد نزل عن الفيل فركب جملا ثم نزل عن الجمل فركب فرسا ثم انف أن يحارب على فرس فركب حمارا استصغارا لاصحاب السفن فقال وهرز ذهب ملكه وتنقل من كبير الى صغير وكان بين عينى مسروق ياقوتة حمراء معلقة فى تاجه بعلاق من الذهب تضئ كالنار فرمى وهرز ورمى القوم وقال وهرز لاصحابه قد رميت ابن الحمارة فانظروا ان كان القوم يجتمعون عليه ويتفرقون عنه فقد هلك فنظروا اليهم يجتمعون ويتفرقون عنه فأخبروه بذلك فقال احملوا على القوم واصدقوهم فانكشفت الحبشة واخذهم السيف ورفع رأس مسروق ورؤس خواص الحبشة ورؤسائهم فقتل منهم نحو ثلاثين الفا وقد كان انوشروان اشترط على معديكرب شروطا منها ان الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها وفى ذلك يقول الشاعر

من الفضة ألبسه اباها
ورتبه في ملكه على اليمن
وكتب الى انوشروان
بالفتح وخلف هناك جماعة
من اصحابه وكان جميع
ما ملكت الاحابش
اثنتين وسبعين سنة
وكان ملك مسروق بن ابرهة
الى ان قتل ثلاث سنين
وذلك لخمس واربعين
خلت من ملك انوشروان
واتت معديكرب الوفود
من العرب تهنئه بالملك
فاتاه عبد المطلب وجد
امية بن ابي الصلت وقد
ذكرنا خبر عبد المطلب
ووفادته على ابن ذي يزن
في هذا الكتاب فيما
بعد وما قيل من الشعر في
مسير الفرس الى اليمن
ونصرتهم على الحبشة
يقول بعض اولاد فارس
نحن خضنا البحار حتى
فككنا
حيرا من بلية السودان
بليوث من آل ساسان
شوس
يمنعون الحريم بالمران
وبيض بواتر تتلالا
كسنى البرق في ذرا
الابدان
فقتلنا مسروق اذ تاه لما
أن تداعت قبائل الحبشان
وفلقنا ياقوته بين عينيه بنشابة الفتى الساساني وهرزاد الديلمي لما رآه* رابط الجاش ثابت الاركان

منا

ابن حبيب مصنفاته وارتحل الى مصر وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي وعاد الى الاندلس وكان فقيها نبيلا فصيحا بصيرا بالعربية ثم بعد عوده من مصر أقام بقرطبة أعواما ثم عاد الى مصر وأقام بها وسمع الناس منه وعظم أمره بالبلاد المشرقية ثم انه عاد الى المغرب فتوفي بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين وبين بعض الواضحة لابن حبيب وصنف شيأ في الرد على الشافعية في عشرة أجزاء وألف كتاب فضائل مالك رضي الله تعالى عنه والذي يرتضى أن من قلد اماما من المجتهدين لا ينبغي له أن يغض من قدر غيره وان كان ولابد من الانتصار لمذهبه وتقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الائمة رضي الله تعالى عنهم فانهم على هدى من ربهم وقد ضل بعض الناس فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز في حق العلماء الذين هم نجوم الملة ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقد حكى أبو عبد الله الوادي آشي حسبما رأيته بخطه أن القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ألف كتابا بالنصرة لمذهب مالك على غيره من المذاهب في مائة جزء وسماه النصرة لمذهب امام دار الهجرة فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر فغرقه في النيل فقضى الله تعالى أن السلطان فرج بن برقوق سافر الى الشام ومعه القضاة الاربعة وغيرهم من الاعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد فلم يستطع شيأ وهزم الى مصر وتفرقت العساكر وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم ذلك القاضي فبقي في أسر تيمورلنك الى أن ارتحل عن الشام فأخذه معه أسيرا الى أن وصل الى الفرات فغرق فيه أعني القاضي فرأى بعض الناس أن ذلك بسبب تغريقه الكتاب المذكور والجزاء من جنس العمل والله تعالى أعلم وقد نجى الله تعالى من هذه الورطة قاضي القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المالكي صاحب كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر فانه كان من جملة القضاة الحاضرين في الهزيمة فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون قدموني للكلام تنجوا ان شاء الله تعالى والا فأنتم أخبر فقدموه وعليه زي المغاربة فلما رآه تيمورلنك قال له ما أنت من هذه البلاد وتكلم معه فخلبه ابن خلدون بلسانه وكان آية الله الباهرة ثم قال لتيمورلنك اني ألفت كتابا في تاريخ العالم وحليته بذكرك أو كما قال ويقال ان تيمورلنك هو الذي قال له بلغني انك ألفت كتابا في تاريخ العالم ثم قال له تيمورلنك كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بختنصر مع أنا خربنا العالم فقال له ابن خلدون أفعالكما العظيمة ألحقتكما بالذكر مع ذوي المراتب الجسيمة أو نحو هذا من العبارات فأعجبه ذلك وقيل انه لما أنس بابن خلدون قال له يا خوندما أسنى الاعلى كتاب الفته في التاريخ وأنفقت فيه أيام عمري وقد تركته بمصر وان عمري الماضي ذهب ضياعا حيث لم يكن في خدمتك وتحت ظل دولتك والآن أذهب فآتي بهذا الكتاب وأرجع سريعا حتى أموت في خدمتك ونحو هذا من الكلام فاذن له فذهب ولم يعد اليه وقال بعض العلماء انه لم ينج من يد ذلك الجبار أحد من العلماء غير ابن خلدون ورجل آخر وقد ذكر ذلك ابن عرب شاه في عجائب المقدور وقد طال عهدي به فليراجع وحكى غير واحد أن تيمورلنك لما أخذ حلب على الوجه المشهور في كتب التاريخ جمع العلماء فقال لهم على عادته في التعنت قتل

منا ومنكم جماعة فمن الذى فى الجنة قتلانا أو قتلاكم وكان مراده ابراز سبب لقتلهم لانهم ان قالوا أحد الامرين هلكوا فقال بعض العلماء وأظنه ابن الشحنة دعونى أجيبه والا هلكتم فتركوه فقال له باخوند هذا السؤال أجاب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنه فغضب وقال كيف يمكن أن يجيب عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن لم نكن فى زمانه أو كلاما هذا معناه فقال العالم المذكور رويناه فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل ليذكر ويرى مكانه فمن الذى فى الجنة فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الذى فى الجنة أو كما قال صلى الله عليه وسلم فتعجب تيمورلنك من هذا الجواب المفحم المسكت وحق له أن يتعجب منه فان هذا من الاجوبة التى يقل نظيرها وفيها التخلص على كل حال بالانصاف وقد وفق الله تعالى هذا العالم لهذا الجواب حتى يتخلص على يده أولئك الاقوام من الطاغية الجبار العنيد الذى جعل الله تعالى فتنته فى الاسلام وفتنة جنكزخان وأولاده من أعظم الفتن التى وهى بها المسلمون وذكر بعض العلماء أن ابن خلدون لما أقبل على تيمورلنك قال له دعنى أقبل يدك فقال ولم فقال له لانها مفاتيح الاقاليم يشير الى انه فتح خمسة أقاليم وأصابع يده خمسة فلكل أصبع اقليم وهذا أيضا من دهاء ابن خلدون وقد كدنا نخرج عن المقصود فى هذه الترجمة فلنصرف العنان والله سبحانه المستعان * (ومن الراحلين من الاندلس الامام الحافظ أبو بكر بن عطية رحمه الله تعالى) قال الفتح شيخ العلم وحامل لوائه وحافظ حديث النبى صلى الله عليه وسلم وكوكب سمائه شرح الله تعالى لحفظه صدره وطاول به عمره مع كونه فى كل علم وافر النصيب مياسر ابالمعلى والرقيب رحل الى المشرق لاداء الفرض لابس برد من العمر الغض فروى وقيد ولقى العلماء واسند وأبقى تلك المآثر وخلد نشأ فى بنية كريمه وأرومة من الشرف غير مرمومة لم يزل فيها على وجه الزمان أعلام علم وارباب مجد ضخم قد قيدت مآثرهم الكتب واطلعتهم التواريخ كالشهب ومابرح الفقيه ابو بكر يتسنم كواهل المعارف وغواربها ويقيد شوارد المعانى وغرائبها لاستضلاعه بالادب الذى احكم اصوله وفروعه وعمر برهة من شبيبته ربوعه وبرز فيه تبريز الجواد المستولى على الامد وجلى عن نفسه به كما جلى الصقال عن النصل البرد وشاهد ذلك ما اثبته من نظمه الذى يروق جملة وتفصيلا ويقوم على قوة العارضة دليلا فمن ذلك قوله يحذر من خطا الزمان وينبه على التحفظ من الانسان

كن بذئب صائد مستانسا * واذا ابصرت انسانا ففر
انما الانسان بحر ماله * ساحل فاحذره اياك الغرر
واجعل الناس كشخص واحد * ثم كن من ذلك الشخص حذر

وله فى الزهد

ايها المطرود من باب الرضا * كم يراك الله تلهو ومعرضا
كم الى كم انت فى جهل الصبا * قد مضى عمر الصبا وانقرضا
قم اذا الليل دجت ظلمته * واستلذ الجفن ان يغتمضا

وحوينا البلاد قحطان قسرا * ثم سرنا الى ذرا غمدان فنعمنا فيه بكل سرور * ومننا على بنى قحطان

وفى ذلك يقول البحترى يمدح ابناء العجم ويذكر فضل الفرس على اسلافه لانه من قحطان

فكم لكم من يد يزكوا الثناء بها * ونعمة ذكرها باق على الزمن
ان تفعلوها فليست بكر انعمكم * ولا يد كايا ديكم على اليمن
ايام جلى انوشروان جدكم * غيابة الذل عن سيف بن ذى يزن
اذ لا تزال خيول الفرس دافعة * بالضرب والطعن عن صنعا وعن عدن
انتم بنو المنعم المجدى ونحن بنو * من فاز منكم بفضل الطول والمنن

(قال المسعودى) واتت معد يكرب الوفود من العرب تهنيه بعود الملك اليه وأشراف العرب وزعماؤها وفيهم عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف وخويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى وجد امية بن ابى الصلت الثقفى وقيل ابو الصلت ابوه فدخلوا اليه وهو فى اعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغمدان وهو مضمخ بالعنبر وسواد المسك يلوح على مفرقه وسيفه بين يديه وعلى يمينه ويساره الملوك وابناء

فضع الخد على الارض ونح * واقرع السن على ماقد مضى

وله فى هذا المعنى

قلبي ياقلبي المعنى * كم أنا أدعى فلا اجيب
كم أتمادى على ضلال * لا أرعوى لاولا أنيب
ويلاه من سوء مادهانى * يتوب غيرى ولا أتوب
واأسفى كيف برء دائى * دائى كما شاءه الطبيب
لوكنت ادنو لكنت أشكو * ما أنا من بابه قريب
أبعدنى منه سوء فعلى * وهكذا يبعد المريب
مالى قدر وأى قدر * لمن أحلت به الذنوب

وله فى هذا المعنى أيضا

لاتجعلن رمضان شهر فكاهة * تلهيك فيه من القبيح فنونه
واعلم بانك لاتنال قبوله * حتى تكون تصومه وتصونه

وله فى مثل ذلك

اذالم يكن فى السمع منى تصاون * وفى بصرى غض وفى مقولى صمت
فحظى اذامن صومى الجوع والظما * وان قلت انى صمت يوما فما صمت

وله فى المعنى الاول

جفوت أناسا كنت آلف وصلهم * ومافى الجفاعند الضرورة من باس
بلوت فلم أحمد وأصبحت آيسا * ولاشئ أشفى للنفوس من الياس
فلاتعذلونى فى انقباضى فاننى * رأيت جميع الشر فى خلطة الناس

وله يعاتب بعض اخوانه

وكنت أظن أن جبال رضوى * تزول وأن ودك لا يزول
ولكن الامور لها اضطراب * وأحوال ابن آدم تستحيل
فان يك بيننا وصل جميل * والافليكن هجر طويل

وأما شعره الذى اقتدحه من مرخ الشباب وعفاره وكلامه الذى وشحه بآرب الغزل وأوطاره فانه نسى الى ماتناساه وتركه حين كساه العلم والورع من ملابسه ما كساه فما وقع من ذلك قوله

كيف السلو ولى حبيب هاجر * قاسى الفؤاد يسومنى تعذيبا
لما درى أن الخيال مواصلى * جعل السهاد على الجفون رقيبا

وله أيضا

يامن عهودى له تراعى * انا على عهدك الوثيق
ان شئت أن تسمعى غرامى * من مخبر عالم صدوق
فاستخبرى قلبك المعنى * يخبرك عن قلبي المشوق

انتهى كلام الفتح وأبو بكر بن عطية المذكور هو والد الحافظ القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية

صاحب

المقاول فتكلمت الخطباء ونطقت الزعماء وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم فقال عبد المطلب ان الله جل جلاله قد احلك ايها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وانبتك منبتا طابت ارومته وعزت جرثومته وثبت اصله وبسق فرعه فى اكرم معدن واطيب موضع وموطن فانت ابيت اللعن راس العرب وتبعها الذى يخطب له وانت ايها الملك ذروة العرب الذى له تنقاد وعمودها الذى عليه العماد ومعقلها الذى تلتجئ اليه العباد سلفك خير سلف وانت لنا منهم خير خلف فلن يخمد ذكر من انت سلفه ولن يهلك من انت خلفه ايها الملك نحن اهل الله وسدنة بيته أشخصنا اليك الذى ابهجنا من كشف الكرب فرحا ونحن وفد التهنئة لاوفد الرزية فقال له الملك وايهم انت أيها المتكلم قال انا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف فقال الملك معديكرب بن سيف ابن اختنا قال نعم قال أدنوه منى فادناه ثم اقبل عليه وعلى الوفد فقال لهم مرحبا واهلا وناقة ورحلا ومستناخا سهلا وملكا ما تحلا يعطى عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم فانتم اهل الليل والنهار لكم الكرامة ما اقمتم

صاحب التفسير الشهير رحمه الله تعالى الجميع قال فى الاحاطة فى حقه ما ملخصه الشيخ الامام المفسر عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى فقيه عالم بالتفسير والاحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والادب حسن التقييد له نظم ونثر ولى قضاء المرية سنة تسع وعشرين وخمسمائة فى المحرم وكان غاية فى الذكاء والدهاء والتهمم بالعلم سرى الهمة فى اقتناء الكتب توخى الحق وعدل فى الحكم وأعز الخطة روى عن أبيه وأبوى على الغسانى والصدفى وطبقتهما وألف كتابه الوجيز فى التفسير فاحسن فيه وأبدع وطار بحسن نيته كل مطار وبرنامجا ضمنه مروياته وأسماء شيوخه فحرر وأجاد ومن نظمه يندب عهد شبابه

سقيا لعهد شباب ظلت أمرح فى * ريعانه وليالى العيش أسحار
أيام روض الصبا لم تذو أغصنه * ورونق العمر غض والهوى جار
والنفس تركض فى تضمير شهرتها * طرفا له فى زمان اللهو احضار
عهدا كريما لبسنا فيه أردية * كانت عيانا ومحت فهى آثار
مضى وأبقى بقلبى منه نار أسى * كونى سلاما وبردا فيه يا نار
أبعد أن نعمت نفسى وأصبح فى * ليل الشباب لصبح الليل اسفار
وقارعتنى الليالى فانثنت كسرا * عن ضيغم ماله ناب وأظفار
الاسلاح خلال أخلصت فلها * فى منهل المجد ايراد واصدار
أصبو الى روض عيش روضه خضل * أو ينثنى بى عن العلياء اقصار
اذا فعطلت كفى من شباقلم * آثاره فى رياض العلم أزهار

مولده سنة احدى وثمانين وأربعمائة وتوفى فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ست وأربعين وخمسمائة بلورقة قصد ميورقة يتولى قضاءها فصد عن دخولها وصرف منها الى لورقة اعتداء عليه رحمه الله تعالى انتهى وقال الفتح فى حقه ما نصه فتى العمر كهل العلاء حديث السن قديم السناء لبس الجلالة بردا ضافيا وورد ماء الاصالة صافيا وأوضح للفضل رسما عافيا وثنى من ذهنه للاغراض فنا قصدا وجعل فهمه شهابا رصدا سما الى رتب الكهول صغيرا وشن كتيبة ذهنه على العلوم مغيرا فسباها معنى وفصلا وحواها فرعا وأصلا وله أدب يسيل رضراضا ويستحيل ألفاظا مبتدعة وأغراضا وقال فيه أيضا نبعة دوح العلاء ومحرز ملابس الثناء فذ الجلالة وواحد العصر والاصالة ووقار كما رسا الهضب وأدب كما اطرد السلسل العذب وشيم تتضاءل لها قطع الرياض وتبادر الظن به الى شريف الاغراض سابق الامجاد فاستولى على الامد بعيابه ولم ينض ثوب شبابه أدمن التعب فى السود جاهدا فتى تناول الكواكب قاعدا وما اتكل على أوائله ولا سكن الى راحات بكره وأصائله أثره فى كل معرفة علم فى رأسه نار وطوالعه فى آفاقها صبح أو منار وقد أثبت من نظمه المستبدع ما ينفح عبيرا ويتضح منيرا فمن ذلك قوله من قصيدة

وليلة جبت فيها الجذع مرتديا * بالسيف أسحب أذيالا من الظلم

والحباء اذا ظعنتم ثم قام أبو زمعة جد أمية بن أبى الصلت الثقفى فانشأ يقول

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن * فى لجة البحر اجوالا وأحوالا
حتى أتى ببنى الاحرار يحملهم * تخالهم فى سواد الليل أجبالا
لله درهم من عصبة خرجوا * ما ان رأيت لهم فى الناس أمثالا
أرسلت اسدا على سود الكلاب فقد * أمسى شريدهم فى الارض فلالا
فاشرب هنيأ عليك التاج مرتفعا * فى رأس غمدان دارا منك محلالا
ثم اطل بالمسك اذ شالت نعامتهم * وأسبل اليوم فى برديك اسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ولمعديكرب بن سيف بن ذى يزن كلام كثير مع عبد المطلب وكوائن أخبره بها فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وبدء ظهوره بشر به عبد المطلب وأخبره عن أحواله وما يكون من أمره وحبا جميع الوفد وانصرفوا وقد أتينا على ما كان من اخبارهم فى كتابنا أخبار الزمان فاغنى عن اعادته ووصفه (قال المسعودى) وأقام معديكرب بن سيف بن ذى يزن ملكا

والنجم حيران في بحر الدجى غرق * والبرق في طيلسان الليل كالعلم
كأنما الليل زنجي بكاهله * جرح فيثعب أحيانا له بدم

انتهى المقصود منه وهو عني ابابكر احد مشايخ عياض حسبما ألممت به في أزهار الرياض

*(ومنهم شهاب الدين ابو العباس احمد بن فرح) بالحاء المهملة ابن احمد بن محمد الامام الحافظ الزاهد بقية السلف اللخمي الاشبيلي الشافعي أسره الافرنج سنة ست واربعين وستمائة وخلص وقدم مصر سنة بضع وخمسين وقيل انه تمذهب للشافعي وتفقه على الشيخ عزالدين بن عبد السلام قليلا وسمع من شيخ الشيوخ شرف الدين الانصاري الحموي والمعين أحمد بن زين الدين واسمعيل بن عزوز والنجيب بن الصيقل وابن علان وبدمشق من ابن عبد الدائم وخلق وعني بالحديث واتقن ألفاظه وعرف رواته وحفاظه وفهم معانيه وانتقى لبابه ومبانيه قال الصفدي وكان من كبار أئمة هذا الشان وممن يجري فيه وهو طلق اللسان هذا الى مافيه من ديانة وورع وصيانة وكانت له حلقة اشتغال بكرة بالجامع الاموي يلازمها ويحوم عليه من الطلب حوائمها سمع عليه الشيخ شمس الدين الذهبي واستفاد منه وروى في تصانيفه عنه وعرضت عليه مشيخة دار الحديث النورية فاباها ولم يقبل حباها وكان بزي الصوفية ومعه فقاهة بالشافعية ولم يزل على حاله حتى أحزن الناس ابن فرح وتقدم الى الله وسرح وشيع الخلق جنازته وتولوا وضعه في القبر وحيازته وتوفي رحمه الله تعالى تاسع جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة وله قصيدة غزلية في ألقاب الحديث سمعها منه الدمياطي واليونيني وسمع منه البرزالي والمقاتلي والنابلسي وأبو محمد بن الوليد ومات بتربة أم الصالح بالاسهال والقصيدة المذكورة هي

غرامي صحيح والرجا فيك معضل * وحزني ودمعي مطلق ومسلسل
وصبري عنكم يشهد العقل أنه * ضعيف ومتروك وذلي أجل
ولاحسن الاسماع حديثكم * مشافهة يملى على فانقل
وأمري موقوف عليك وليس لي * على أحد الا عليك المعول
ولو كان مرفوعا اليك لكنت لي * على رغم عذالي تروق وتعدل
وعذل عذولي منكر لا أسيغه * وزور وتدليس يردو يهمل
أقضي زماني فيك متصل الاسى * ومنقطعا عما به أتوصل
وها أنا في أكفان هجرك مدرج * تكلفني مالا أطيق فأحمل
وأجريت دمعي بالدماء مدبجا * وما هو الا مهجتي تتحلل
فمتفق سهدي وجفني وعبرتي * ومفترق صبري وقلبي المبلبل
ومؤتلف شجوي ووجدي ولوعتي * ومختلف حظي وما منك آمل
خذ الوجد عني مسندا ومعنعنا * فغيري بموضوع الهوى يتحيل
وذي نبذ من مبهم الحب فاعتبر * وغامضه ان رمت شرحا أطول
عزيز بكم صب ذليل لغيركم * ومشهور أوصاف المحب التذلل

على اليمن واصطنع عبيدا من الحبشة حرابة يمشون بين يديه بالحراب فركب في بعض الايام من باب قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء فلما صار الى رحبتها عطفت عليه الحرابة من الحبشة فقتلوه بحرابهم وكان ملكه أربع سنين وهو آخر ملوك اليمن من قحطان فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكا ملكوا ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسعين سنة (قال المسعودي) وأما عبيد بن شرية الجرهمي حين وفد على معاوية وساله عن أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سنيها فانه ذكر ان أول ملوك اليمن على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ملك مائة سنة وأربعا وثمانين سنة ثم ملك بعده الحرث ابن شداد بن ملطاط بن عمرو مائة وخمسا وعشرين سنة ثم ملك بعده ابرهة بن الرائش وهو ابرهة ذو المنار مائة وثلاثا وثلاثين سنة ثم ملك بعده افريقس ابن ابرهة مائة وأربعا وستين سنة ثم ملك بعده أخوه الهدهاد بن شرحبيل ابن عمرو وهو ذو الصرح سنة ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد سبع سنين ثم ملك سليمان بن داود عليهما السلام ثلاثا وعشرين سنة على حسب ما قدمنا من أمر بلقيس ثم ملك بعده رحبعم بن

غريب يقاسي البعد عنك وماله * وحق الهوى عن داره متحوّل
فرفقا بمقطوع الوسائل ماله * اليك سبيل لا ولا عنك معدل
فلا زلت في عز منيع ورفعة * ومازلت تعلو بالتجني فأنزل
أورى بسعدى والرباب وزينب * وأنت الذى تعنى وأنت المؤمل
فخذ أوّلا من آخر ثم أوّلا * من النصف منه فهو فيه مكمل
ابر اذا أقسمت أنى بحبه * اهيم وقلبى بالصبابة يشعل

وقد ذكرت شرحها فى الجزء الثلاثين من تذكرتى انتهى كلام الصفدى وظاهر كلامه انه ابن فرح بفتح الراء والذى تلقيناه عن شيوخنا انه بسكون الراء وقد شرح هذه القصيدة جماعة من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم وهى وحدها دالة على تمكن الرجل رحمه الله تعالى *(ومنهم عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر أبو الاصبغ الاموى الاندلسى) سمع بمكة وبدمشق ومصر وغيرها وحدّث عن سليمان بن أحمد بن يحيى بسنده الى جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل بنى أب عصبة ينتمون اليها الاولد فاطمة فانا وليهم وأنا عصبتهم وهم عترتى خلقوا من طينتى ويل للمكذبين بفضلهم من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله وحدّث عن أبى العباس أحمد بن محمد البرذعى بسنده الى عبد الله بن المبارك قال كنت عند مالك بن أنس وهو يحدّثنا فجاءت عقرب فلدغته ست عشرة مرة ومالك يتغير لونه ويتصبر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من المجلس وتفرق الناس عنه قلت له يا أبا عبد الله قد رأيت منك عجبا قال نعم أنا صبرت اجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد أبو الاصبغ المذكور بقرطبة وتوفى ببخارى سنة ٣٦٥ قال الحاكم أبو عبد الله رأيت أبا الاصبغ فى المنام فى بستان فيه خضرة ومياه جارية وفرش كثيرة وكانى أقول انها له فقلت يا أبا الاصبغ بماذا وصلت اليه أبالحديث فقال اى والله وهل نجوت الا بالحديث قال ورأيته أيضا وهو بشئ بزى أحسن ما يكون فقلت أنت أبو الاصبغ فقال نعم قلت ادع الله تعالى ان يجمعنى واياك فى الجنة فقال ان أمام الجنة اهوالا ثم رفع يديه وقال اللهم اجعله معى فى الجنة بعد عمر طويل انتهى *(ومنهم القاضى أبو البقاء خالد البلوى الاندلسى رحمه الله تعالى) وهو خالد بن عيسى بن أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد البلوى ووصفه الشاطبى بانه الشيخ الفقيه القاضى الاعدل انتهى وهو صاحب الرحلة المسماة تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق ومما أنشده رحمه الله تعالى فيها لنفسه

ولقد جرى يوم النوى دمعى دما * حتى أشاع الناس أنك فانى
والله ان عاد الزمان بقربنا * لكففت عن ذكر النوى وكفانى

وهذه الرحلة المسماة بتاج المفرق مشحونة بالفوائد والفرائد وفيها من العلوم والآداب مالا يتجاوزه الرائد وقد قال رحمه الله تعالى فيها فى ترجمة الولى نجم الدين الحجازى رضى الله تعالى عنه مانصه وذكر لى رضى الله تعالى عنه قال مما وصى به الجد الاكبر أبو الحجاج يوسف المذكور يعنى سيدى أبا الحجاج يوسف بن عبد الرحيم الاقصرى القطب الغوث رضى الله

بن يعفر بن عمرو ذى الاذعار خمسا وثلاثين سنة وقد قيل فى تسميته ذا الاذعار خبر تاباه العقول وتنكر النفوس كون مثله فى العالم ويجوز كون ذلك فى المقدور وانه انما سمى ذا الاذعار لانه وصل الى قوم فى اقاصى مفاوز اليمن وحضرموت مشوهى الخلقة عجيبى الصورة وجوههم فى صدورهم فلما رأى أهل اليمن ذلك اذعرهم ماشاهدوا من ذلك وجزعت منه نفوسهم فسمى ذا الاذعار وقيل غير ذلك والله أعلم بكيفيته * ثم ملك بعده عمرو ابن شمر بن افريقس ثلاثا وخمسين سنة ثم ملك بعده من ولده كليكرب ابن تبع وهو تبع أبو كرب أسعد كليكرب أربعا وثمانين سنة ثم ملك بعده كلال بن سويب أربعا وسبعين سنة ثم ملك بعده تبع بن حسان بن تبع ثم ملك بعده مرثد سبعا وثلاثين سنة ثم ملك بعده ابرهة بن الصباح ثلاثا وسبعين سنة ثم ملك بعده ذو شناتر بن زرعة ويقال يوسف ويقال بل اسمه عريب بن قطن تسعا وثمانين سنة ثم ملك بعده حنيفة ويعرف بذى الشناتر أربعا وثمانين سنة فذلك ألف وتسعمائة وسبع وعشرون سنة وانما ذكرنا ما حكيناه عن عبيد بن شرية

تعالى عنه وأعاد علينا من بركاته وخواصه وأصدقائه قال اذا أدركتم الضرورة والفاقة فقولوا حسبي الله ربي الله يعلم انني في ضيق قال وذكر لي أيضا رضي الله تعالى عنه قال رأى هذا الجد يوسف المذكور النبي صلى الله عليه وسلم في النوم بعد ان سأل الله تعالى ذلك وقد كان اصابته فاقة فشكا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل يارب يارحيم يارب يارحيم الطف بي في قضائك ولا تولّ أمري أحدا سواك حتى القاك فلما قالها اذهب الله تعالى عنه فاقته قال وكان رحمه الله تعالى يوصي بها أصحابه وأحبابه انتهى ونسب بعضهم القاضي خالدا المذكور الى انتحال كمال العماد في البرق الشامي لأن خالدا أكثر في رحلته من الاسجاع التي للعماد فلذا قال لسان الدين بن الخطيب فيه

خليلي ان يقض اجتماع بخالد * فقولا له قولا وان تعدوا الحقا
سرقت العماد الاصبهاني برقه * وكيف ترى في شاعر سرق البرقا

وأظن أن لسان الدين كان منحرفا عنه ولذلك قال في كتابه خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف عند ما جرى ذكر فتورية وقاضيها خالد المذكور ماصورته لم يتخلف ولد عن والد وركب قاضيها ابن أبي خالد وقد شهرته النزعة الحجازية ولبس من خشن الحجازية وأرخى من البياض طيلسانا وتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا والبداوة تسمه على الخرطوم وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم انتهى ومن نظم أبي البقاء خالد البلوي المذكور قوله

اتى العيد واعتاد الاحبة بعضهم * ببعض وأحباب المتيم قد بانوا
وأضحى وقد ضحوا بقربانهم وما * لديه سوى جمر المدامع قربان

وقال في رحلته انه قال هذين البيتين بديهة بمصلى تونس في عيد النحر من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ومن نظمه أيضا قوله رحمه الله تعالى

ومستنكر شيبي وماذهب الصبا * ولاجف ايناع الشبيبة من غصني
فقلت فراقي للاحبة مؤذن * بشيبي وان كنت ابن عشرين من سني

ومحاسنه رحمه الله تعالى كثيرة وفي الرحلة منها جملة (ومنهم برهان الدين أبو اسحق ابن الحاج ابراهيم النميري الغرناطي) وهو أيضا مذكور في ترجمة ابن الخطيب بما يغني عن تكرار اسمه هنا وقال رحمه الله تعالى في رحلته أخبرني شيخنا يعني الشيخ الامام الصالح أبا عبد الله محمد المعروف بخليل التوزري امام المالكية بالحرم الشريف رضي الله تعالى عنه قال اعتكفت بجامع عمرو بن العاص كفا الشر في عن الناس خصوصا أذى الغيبة نحو خمسين ليلة أردت أن أدعو لطائفة من أصحابي بمطالب مختلفة كل بحسب ظني فيه يومئذ فادركتني حيرة في التمييز والتخصيص فالهمت أن قلت بديهة

شهدنا بتقصير ألبابنا * بحسن اختيارك أولى بنا
وأنت البصير باعدائنا * وأنت البصير باحبابنا

قال ثم أردفتها بدعاء وهو اللهم يامن لايعلم خيره الاهو أنت أعلم باعدائنا وأودائنا فافعل بكل

قتلت الحبشة معديكرب ابن سيف بن ذي يزن على حسب ما قدمنا في الرحبة بحرابهم كان بصنعاء خليفة لوهرز في جماعة من العجم ممن كان ضمهم وهرز الى معديكرب فركب واتى على من كان هنالك من الحبشة وضبط البلد وكتب بذلك الى وهرز وهو بباب أنوشروان الملك وذلك بالمدائن من أرض فارس فاعلم وهرز بذلك الملك فسيره في البر في أربعة آلاف من الاساورة وأمره باصلاح اليمن وأن لايبقي على احد من بقايا الحبشة ولا على جعد قطط قد شرك السودان في نسبه فاتى وهرز اليمن ونزل صنعاء فلم يترك بها أحدا من السودان ولا من انسابهم وملك انوشروان وهرز على اليمن الى أن هلك بصنعاء ثم ملك بعده رجل من فارس يقال له سيحان ثم ملك بعده حورداد الشهر ثم ملك بعده ابن سيحان ثم ملك بعده المرزبان حرحسو او كان من أهل بيت مملكة فارس ثم ملك بعده حرحس وكان مولده باليمن ثم ملك بعده باذان ابن ساسان (قال المسعودي) فهؤلاء جميع من ملك اليمن من قحطان والحبشة والفرس وقد ملك اليمن

منهم ما يناسب حسن اختيارك لناحسبما علمته منى و كفى بك عليما وكفى بك قديرا وكفى بك بصيرا وكفى بك لطيفا وكفى بك خبيرا وكفى بك نصيرا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا كثيرا * وقال ابن الحاج المذكور فى الرحلة المذكورة اذا التقى الرجل بعدوه وهو على خوف منه فليقرأ هذه الحروف كهيعص حمعسق وليعقد بكل حرف منها اصبعا يبدأ بابهام يده اليمنى ويختم بابهام يده اليسرى فاذا قرب من عدوه فليقرأ فى نفسه سورة الفيل فاذا وصل الى قوله ترميهم فليكررها وكلما كررها فتح اصبعا من اصابعه المعقودة تجاه العدو فيكررها عشر مرات و يفتح جميع اصابعه فاذا فعل ذلك امن من شره ان شاء الله تعالى وهو مجرب انتهى ومن بديع نظم ابى اسحق بن الحاج النميرى المذكور قوله

يارب كاس لم يسح شمولها * فاعجب لها جسما بغير مزاج
لما راينا السحر من أشكالها * جملا نسبناه الى الزجاج

وله فيما اظن

له شفة اضاعوا الشرفيها * بلثم حين سدت ثغر بدرى
فما اشهى لقلبى ما اضاعوا * ليوم كريهة وسداد ثغر

وهو تضمين حسن *(ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق امام النحاة اثير الدين ابو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان النفرى الاثرى الغرناطى) قال ابن مرزوق الخطيب فى حقه هو شيخ النحاة بالديار المصرية وشيخ المحدثين بالمدرسة المنصورية انتهت اليه رياسة التبريز فى علم العربية واللغة والحديث سمعت عليه وقرأت وانشدنى الكثير واذا انشدنى شيأ ولم اقيده استعاده منى فلم احفظه ٣ وانشدنى و كنت اظنه لنفسه ارتجالا الى ان اخبرنى أحد اصحابنا عنه انه اخبره انهما لابى الحسن التجانى انشدهما له بيته بالمدرسة الصالحية رحمه الله تعالى

ان الذى يروى ولكنه * يحفظ ما يروى ولا يكتب
كصخرة تنبع امواجها * تسقى الاراضى وهى لاتشرب

قال ورويت عنه تآليف ابن أبى الاحوص منها التبيان فى أحكام القرآن والمعرب المفهم فى شرح مسلم ولم أقف عليه والوسامة فى أحكام القسامة والمشرع السلسل فى الحديث المسلسل وغير ذلك وحدثنى بسنن أبى داود عن ابن خطيب المزة عن أبى حفص بن طبرزد عن أبى البدر والكروخى ومفلح الرومى عن أبى بكر بن ثابت الخطيب عن ابى عمر الهاشمى عن اللؤلؤى عن أبى داود وبسنن النسائى عن جماعة عن ابن باقا عن أبى زرعة عن أبى حمد الدوسى عن ابى نصر الكسار عن ابن السنى عن النسائى وبالموطا عن ابى جعفر بن الطباع بسنده وشكوت اليه يوما ما يلقاه الغريب من اذاية العداة فانشدنى لنفسه

عداتى لهم فضل على ومنة * فلا أذهب الرحمن عنى الاعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها * وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

وأنشدنى أيضا من مداعباته وله فى ذلك النظم الكثير مع طهارته وفضله

٣ قوله فلم احفظه هكذا بالاصل ولعله محرف والاصل حتى احفظه اولا احفظه اونحو ذلك تامل

واسمه هينية بن أميم بن بدل بن مدين بن ابراهيم الخليل عليه السلام وكان له شان عظيم فى اليمن وطالت أيامه وذكره امرؤ القيس فى شعره فقال

وهينية الذى زادت قواه
على زيد ان اذحان الزوال
تمكن قائما وبنى طريقا
الى زيدان اعبط لاينال

ويقال انه منتبه بن اميم بن بدل بن لسان بن ابراهيم الخليل وقد كانت ملوك اليمن تنزل بمدينة ظفار مثل آل ذى شعر وآل ذى الكلاع وآل ذى أصبح وآل ذى يزن الا اليسير منهم فانهم نزلوا غيرها وكان على باب ظفار مكتوب بالقلم الاول فى حجر اسود

يوم شيدت ظفار قيل لمن
أنت فقالت لحمير الاخيار
ثم سيلت من بعد ذاك فقالت
ان ملكى للاحبش الاشرار
ثم سيلت من بعد ذاك فقالت
ان ملكى لفارس الحجار
وقليلا ما يلبث القوم فيها
منذ شيدت مشيدها للبوار
من اسود يلقيهم البحر فيها

علقته سبجى اللون قادحه * ما ابيض منه سوى ثغر حكى الدررا
قد صاغه من سواد العين خالقه * فكل عين اليه تدمن النظرا

وأنشدني في جاهل لبس صوفا وزهى فيه

أيا كاسيا من جيد الصوف نفسه * ويا عاريا من كل فضل ومن كيس
أتزهى بصوف وهو بالامس مصبح * على نعجة واليوم أمسى على تيس

انتهى ما اختصرته من كلام الخطيب بن مرزوق وأنشد الرحالة بن جابر الوادى آشى لابى حيان قوله

وقصر آمالى مآل الى الردى * وأنى وان طال المدى سوف أهلك
فصنت بماء الوجه نفسا أبية * وجادت يمينى بالذى كنت أملك

ووقفت على أعيان العصر وأعوان النصر للصفدى فوجدت فيه ترجمة أبى حيان واسعة فرأيت أن أذكرها بطولها لما فيها من الفوائد وهى الشيخ الامام العالم العلامة الفريد الكامل حجة العرب مالك أزمة الادب أثير الدين أبو حيان الاندلسى الجيانى بالجيم والياء آخر الحروف مشددة وبعد الالف نون كان أمير المؤمنين فى النحو والشمس السافرة شتاء فى اليوم الصحو والمتصرف فى هذا العلم فاليه الاثبات والمحو لو عاصر أئمة البصرة لبصرهم اوأهل الكوفة لكف عنهم اتباعهم السواد وحذرهم نزل منه كتاب سيبويه فى وطنه بعد ان كان طريدا وأصبح به التسهيل بعد تعقيده مفيدا وجعل سرحة شرحه جنة راقت النواظر توريدا ملأ الزمان تصانيف وأمال عنق الايام بالتآليف تخرج به أئمة فى هذا الفن وروق لهم فى عصره منه سلافة الدن فلو رآه يونس بن حبيب لكان بغيضا غير محبب اوعيسى بن عمر لاصبح من تقصيره وهو محدب اوالخليل لكان بعينه قذاه اوسيبويه لما تردى من مسئلته الزنبورية برداه اوالكسائى لاعراه حلة جاهه عند الرشيد واناسه اوالفراء لفرمنه ولم يقتسم ولدا المأمون تقديم مداسه اواليزيدى لما ظهر نقصه من مكامنه اوالاخفش لاخفى جملة من محاسنه اوأبو عبيدة لما تركه ينصب لشعب الشعوبية اوأبو عمرو لشغله بتحقيق اسمه دون التعلق بعربية اوالسكرى لما راق كلامه فى المعانى ولاحلا اوالمازنى لمازانه قوله ان مصابكم رجلا اوقطرب لما دب فى العربية ولادرج اوثعلب لاستكن بمكره فى وكره ولما خرج اوالمبرد لاصبحت كؤاسه مقترة اوالزجاج لامست قواريره مكسرة اوابن الوزان لعدم نقده اوالثمانينى لما تجاوز حده اوابن باب لعلم ان قياسه ما اطرد اوابن دريد ما بلع ريقه ولا ازدرد اوابن قتيبة لاضاع رحله اوابن السراج لمشى اذرأى وحله اوابن الخشاب لاضرم فيه نارا ولم يجد معه نورا اوابن الخباز لما سجر له تنورا اوابن القواس لما أغرق فى نزعه اوابن يعيش لاوقعه فى نزعه اوابن خروف لما وجد له مرعى اوابن اباز لما وجد لاوازه وقعا اوابن الطراوة لم يكن نحوه طريا اوالدباج لكان من حلته الرائعة عريا وعلى الجملة فكان امام النحاة فى عصره شرقا وغربا وفريد هذا الفن الفذ بعدا وقربا وفيه قلت

سلطان علم النحو استاذنا الشيخ اثير الدين حبر الانام

تشعل النار فى اعالى الديار وهذا خبر عن ملوك تداولوها اخبروا عن ملكهم قبل كونه فقد تداولتها الملوك على حسب ما وصفنا وينتظر فى المستقبل من الزمان ما ذكرنا من وقود النيران فى اعالى الديار وعند اهل اليمن أن ديارهم سيغلب عليها الاحابش فى آخر الزمان بعد هنات وكوائن واحداث وبعث النبى صلى الله عليه وسلم وعلى اليمن عمال كسرى ثم غلب الاسلام فظفر بحمد الله * وقد اتينا على أخبار من ذكرناه من الملوك وسيرهم ومطافاتهم فى البلاد وحروبهم وابنيتهم فى سائر مطافاتهم فى الكتاب الاوسط فاغنى ذلك عن اعادته فى هذا الكتاب * وبلد اليمن طويل عريض حده مما يلى مكة الموضع المعروف بلحة الملك سبع مراحل الى صنعاء ومن صنعاء الى عمان وهو آخر عمل اليمن تسع مراحل والمرحلة من خمسة فراسخ الى ستة والحد الثانى من حكم ورحاء الى ما بين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة ويلى الوجه الثالث بحر اليمن على ما ذكرناه انه بحر القلزم والصين والهند فجميع ذلك عشرون مرحلة فى ست عشرة مرحلة واسماء ملوك اليمن كذى يزن وذى نواس وذى منار وغير ذلك مضافة الى فلا

فلا تقل زيد وعمرو فما * فى النحو معه لسواه كلام

خدم هذا العلم مدة تقارب الثمانين وسلك من غرائبه وغوامضه طرقا منشعبة الافانين ولم يزل على حاله الى أن دخل فى خبر كان وتبدلت حركاته بالاسكان وتوفى رحمه الله تعالى بمنزله خارج باب البحر بالقاهرة فى يوم السبت بعد العصر الثامن والعشرين من صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة ودفن من الغد بمقبرة الصوفية خارج باب النصر وصلى عليه بالجامع الاموى بدمشق صلاة الغائب فى شهر ربيع الآخر ومولده بمدينة مطخشارش فى أخريات شوّال سنة أربع وخمسين وستمائة وقلت أنا أرثيه رحمه الله تعالى

مات أثير الدين شيخ الورى * فاستعر البارق واستعبرا
ورق من حزن نسيم الصبا * واعتل فى الاسحار لما سرى
وصادحات الايك فى نوحها * رثته فى السجع على حرف را
ياعين جودى بالدموع التى * يروى بها ماضمه من ثرى
واجرى دما فالخطب فى شانه * قد اقتضى أكثر مما جرى
مات امام كان فى فنه * يرى اماما والورى من ورا
أمسى منادى للبلى مفردا * فضمه القبر على ما ترى
يا أسفا كان هدى ظاهرا * فعاد فى تربته مضمرا
وكان جمع الفضل فى عصره * صح فلما أن قضى كسرا
وعرف الفضل به برهة * والآن لما أن مضى نكرا
وكان ممنوعا من الصرف لا * يطرق من وافاه خطب عرا
لا أفعل التفضيل ما بينه * وبين من أعرفه فى الورى
لا بدل عن نعته بالتقى * ففعله كان له مصدرا
لم يدغم فى اللحد الا وقد * فك من الصبر وثيق العرا
بكى له زيد وعمرو فمن * أمثلة النحو ومن قررا
ما أعقد التسهيل من بعده * فكم له من عسرة يسرا
وجسر الناس على خوضه * اذ كان فى النحو قد استبحرا
من بعده قد حال تمييزه * وحظه قد رجع القهقرى
شارك من قد ساد فى فنه * وكم له فن به استأثرا
دأب بنى الآداب أن يغسلوا * بدمعهم فيه بقايا الكرى
والنحو قد سار الردى نحوه * والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده * يلغى الذى فى ضبطها قررا
تفسيره البحر المحيط الذى * يهدى الى وراده الجوهرا
فوائد من فضله جمة * عليه فيها نعقد الخنصرا
وكان ثبتا نقله حجة * مثل ضياء الصبح ان أسفرا
ورحلة فى سنة المصطفى * أصدق من يسمع ان أخبرا

مواضع والى افعالهم وسير وحروب وغيرها من سمات لهم تميزهم عن غيرهم وتبين كل واحد منهم عن غيره من ملوكهم واذ قد ذكرنا جوامع من اخبار اليمن وملوكها فلنذكر الآن ملوك الحيرة من بنى نصر وغيرهم للحوقهم باليمن ثم نعقب ذلك بملوك الشام وغيرهم من الملوك ان شاء الله تعالى

(ذكر ملوك الحيرة من بنى نصر وغيرهم)

ولما ملك جذيمة الوضاح اتت عليه الزباء بنت عمرو ابن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر وقد كان ملك من مشارق الشام الى الفرات من قبل الروم وكانت داره بالموضع المعروف بالمضيرة بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا وقد كانت الزباء تملكت بعد ابيها واطمعت جذيمة فى نفسها الى ان قتلته واقام جذيمة ملكا فى زمن ملوك الطوائف خمسا وتسعين سنة وفى ملك أردشير بابك وسابور الجنود ابن اردشير ثلاثا وعشرين سنة فكان ملكه مائة سنة وثمانى عشرة سنة وكان يكنى بابى مالك وفيه يقول بعض شعراء الجاهلية وهو سويد بن كاهل اليشكرى

ان اذق حتفى فقبلى ذاقه * طسم عاد وجديس ذو السبع
وابو مالك القيل الذى * قتلته بنت عمرو بالخدع

اباه وهو اول من ملك الحيرة والله اعلم ٣ وكان يقال له مالك بن فهم بن

له الاسانيد التي قد علت * فاستفلت عنها سوامي الذرا
ساوى بها الاحفاد اجدادهم * فاعجب لماض فاته من طرا
وشاعرا في نظمه مفلقا * كم حرر اللفظ وكم حبرا
لها معان كلما خطها * تستر مارقم في تسترا
أفديه من ماض لأمر الردى * مستقبلا من ربه بالقرى
مابات في أبيض أكفانه * الا وأضحى سندسا أخضرا
تصافح الحور له راحة * كم تعبت في كل ما سطرا
ان مات فالذكر له خالد * يحيابه من قبل أن ينشرا
جاد ثرى وافاه غيث اذا * مساه بالسقي له بكرا
وخصه من ربه رحمة * توردُه في حشره الكوثرا

وكان قد قرأ القرا آت على الخطيب أبي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله نحوا من عشرين ختمة افرادا وجمعا ثم على الخطيب الحافظ أبي جعفر احمد الغرناطي المعروف بالطباع بغرناطة ثم قرأ السبعة الى آخر سورة الحجر على الخطيب الحافظ ابي علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن ابي الاحوص بمالقة ثم انه قدم الاسكندرية وقرا القرا آت على عبد النصير بن علي بن يحيي المربوطي ثم قدم مصر فقرأ بها القرا آت على ابي الطاهر اسمعيل بن هبة الله المليحي وسمع الكثير على الجم الغفير بجزيرة الاندلس وبلاد افريقية والاسكندرية وديار مصر والحجاز وحصل الاجازات من الشام والعراق وغير ذلك واجتهد في طلب التحصيل والتقييد والكتابة ولم أر في أشياخي أكثر اشتغالا منه لاني لم أره قط الا يسمع أو يشتغل أو يكتب ولم أره على غير ذلك وله اقبال على الطلبة الاذكياء وعنده تعظيم لهم ونظم ونثر وله الموشحات البديعة وهو ثبت فيما ينقله محرّر لما يقوله عارف باللغة ضابط لالفاظها وأما النحو والصرف فهو امام الناس كلهم فيهما لم يذكر معه في أقطار الارض غيره في حياته وله اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم خصوصا المغاربه وتقييد أسمائهم على ما يتلفظون به من امالة وترقيق وتفخيم لانهم يجاورون بلاد الافرنج وأسماؤهم قريبة من لغاتهم وألقابهم كذلك وقيده وحرره وسأله شيخنا الذهبي أسئلة فيما يتعلق بذلك وأجابه عنها وله التصانيف التي سارت وطارت وانتشرت وما انتثرت وقرئت ودريت ونسخت وما فسخت أخملت كتب الاقدمين وألهت المقيمين بمصر والقادمين وقرأ الناس عليه وصاروا أئمة وأشياخا في حياته وهو الذي جسر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ورغبهم في قراءتها وشرح لهم غامضها وخاض بهم لججها وفتح لهم مقفلها وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب هذه نحو الفقهاء وكان التزم أن لا يقرئ أحدا الا ان كان في كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك أو في تصانيفه ولما قدم من بلاده لازم الشيخ بهاء الدين رحمه الله تعالى كثيرا وأخذ عنه كتب الادب وكان شيخا حسن العمة مليح الوجه ظاهر اللون مشرب الحمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر فيها ولم تكن كثة عبارته فصيحة بلغة الاندلس يعقد

وكان الملك قبل جذيمة دوس بن الازد بن العوف ابن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان * وكان سار من اليمن مع ولد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقيا فسار بنو جفنة نحو الشام وانفصل مالك نحو العراق فملك على مضر بن نزار اثنتي عشرة سنة ثم ملك بعده ابنه جذيمة على ماذكرنا ثم ملك بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحرث ابن مالك بن غنم بن نمارة ابن لخم وهو أول من نزل من الملوك الحيرة واتخذها منزلا ودار ملكه واليه تنسب ملوك النصرية وهم ملوك الحيرة فكان ملك عمرو بن عدي ابن اخت جذيمة مائة سنة (قال المسعودي) وقد ذكر غير واحد ممن عني باخبار العرب وايامها ان جذيمة اول من ملك من قضاعة وهو جذيمة بن مالك بن فهم التنوخي وانه قال ذات يوم لندمائه لقد ذكر لي عن غلام من اياد له ظرف وادب فلو بعثت اليه فوليته كاسي والقيام على راسي لكان الراي قالوا الراي ماراى الملك فليبعث اليه ففعل فلما قدم عليه قال من انت قال انا عدي بن نصر بن ربيعة فولاه مجلسه

القاف قريبا من الكاف على انه لا ينطق بها في القرآن الافصيحة وسمعته يقول ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف وكانت له خصوصية بالامير سيف الدين أرغون كافل الممالك ينبسط معه ويبيت عنده في قلعة الجبل ولما توفيت ابنته نضار طلع الى السلطان الملك الناصر محمد وسأل منه أن يدفنها في بيته داخل القاهرة في البرقوقية فاذن له في ذلك وكان أولا يرى رأي الظاهرية ثم انه تمذهب للشافعي رضي الله تعالى عنه بحث على الشيخ علم الدين العراقي المحرر للرافعي ومختصر المنهاج للنووي وحفظ المنهاج الا يسيرا وقرأ أصول الفقه على أستاذه أبي جعفر بن الزبير بحث عليه من الاشارة للباجي ومن المستصفى للغزالي وعلى الخطيب أبي الحسن بن فضيلة وعلى الشيخ علم الدين العراقي وعلى الشيخ شمس الدين الاصبهاني وعلى الشيخ علاء الدين الباجي وقرأ شيأ من أصول الدين على شيخه ابن الزبير وقرأ عليه شيأ من المنطق وقرأ أشياء من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادي وقرأ عليه شيئا من الارشاد للعميدي في الخلاف ولكنه برع في النحو وانتهت اليه الرياسة والمشيخة فيه وكان خاليا من الفلسفة والاعتزال والتجسيم وكان أولا يعتقد في الشيخ شمس الدين بن تيمية وامتدحه بقصيدة ثم انه انحرف عنه لما وقف على كتاب العرش له قال الفاضل كمال الدين الادفوي وجرى على مذهب كثير من النحويين في تعصبه للامام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه التعصب المتين قال حكى لي انه قال لقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ان عليا رضي الله تعالى عنه عهد اليه النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق أتراه صدق في هذا فقال صدق قال فقلت له فالذين سلوا السيوف في وجهه يبغضونه أو يحبونه وغير ذلك قال وكان يسيء الظن بالناس كافة فاذا نقل له عن أحد خبر لا يتكيف به ويمشي عنه حتى عمن هو عنده مجروح فيقع في ذم من هو بألسنة العالم ممدوح وبسبب ذلك وقع في نفس جمع كبير منه ألم كثير انتهى قلت أنا لم أسمع منه في حق أحد من الاحياء والاموات الاخير اوما كنت أنقم عليه شيئا الا ما كان يبلغني عنه من الحط على الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد على أني أنا ما سمعت في حقه شيئا نعم كان لا يثق بهؤلاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوما يا سيدي فكيف تعمل في الشيخ أبي مدين فقال هو رجل مسلم دين والا ما كان يطير في الهواء ولا يصلي الصلوات الخمس في مكة كما يدعي فيه هؤلاء الاغمار وكان فيه رحمه الله تعالى خشوع يبكي اذا سمع القرآن ويجري دمعه عند سماع الاشعار الغزلية وقال كمال الدين المذكور قال لي اذا قرأت اشعار العشق اميل اليها وكذلك اشعار الشجاعة تستميلني وغيرهما الا اشعار الكرم ما تؤثر في انتهى قلت كان يفتخر بالبخل كما يفتخر غيره بالكرم وكان يقول لي اوصيك احفظ دراهمك ويقال عنك بخيل ولا تحتج الى السفل وانشدني من لفظه لنفسه

وحاولك فلسا قد غدا في حبائلي * فتيصار جاء للنتاج من العقم
أأتعب في تحصيله واضيعه * اذن كنت معتاضا من البرء بالسقم

قلت والذي اراه فيه انه طال عمره وتغرب وورد البلاد ولا شيء معه وتعب حتى حصل المناصب تعبا كثيرا وكان قد جرب الناس وحلب اشطر الدهر ومرت به حوادث فاستعمل

فعشقته رقاش ابنة مالك اخت الملك فقالت يا عدي اذا سقيت القوم فامزج لهم وغرق للملك فاذا اخذت الخمر منه فاخطبني منه فانه يزوجك فاشهد القوم ان فعل ففعل الغلام ذلك فزوجه فاشهد عليه وانصرف الغلام اليها فانباها فقالت عرس باهلك ففعل فلما أصبح غدا متضرجا بالخلوق فقال له جذيمة ما هذه الآثار يا عدي قال آثار العرس قال أي عرس قال عرس رقاش فنخر وأكب على الارض ورفع عدي جراميزه وهرب وأسرع جذيمة في طلبه فلم يجده وقال بعضهم بل قتله و بعث اليها يقول

حدثيني رقاش لا تكذبيني
أبحر زنيت ام بهجين
أم بعبد فانت اهل لعبد
أم بدون فانت اهل لدون

فاجابته رقاش تقول

أنت زوجتني وما كنت أدري
وأتاني النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفا
وتماديك في الصبا والجنون

فنقلها جذيمة اليه وحصنها في قصره فاشتملت على حمل وولدت غلاما فسمته عمرا ووشحته حتى اذا ترعرع حلته وعطرته وألبسته كسوة فاخرة ثم ازارته خاله فاعجب به والقيت عليه منه محبة ومودة حتى اذا خرج الملك في سنة مكائنة قدا كمأت

الحزم وسمعته غير مرة يقول يكفي الفقير في مصر اربعة أفلس يشترى له بانئة بفلسين وبفلس زبيبا وبفلس كوز ماء ويشترى ثاني يوم ليمونا بفلس يأكل به الخبز وكان يعيب على مشترى الكتب ويقول الله يرزقك عقلا تعيش به انا اى كتاب اردته استعرته من خزائن الاوقاف واذا اردت من احد أن يعيرنى دراهم ما اجد ذلك وانشدنى له اجازة

ان الدراهم والنساء كلاهما * لا تأمنن عليهما انسانا
ينزعن ذا اللب المتين عن التقى * فترى اساءة فعله احسانا

وانشدنى له من ابيات

أتى بشفيع ليس يمكن رده * دراهم بيض للجروح مراهم
تصير صعب الامر اهون ما يرى * وتقضى لبانات الفتى وهو نائم

ومن حزمه قوله عداتى لهم فضل البيتين وقد مدحه كثير من الشعراء والكبار الفضلاء فمنهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله

قد قلت لما ان سمعت مباحثا * فى الذات قررها الاجل مفيد
هذا ابو حيان قلت صدقتم * وبررتم هذا هو التوحيدى

وكان قد جاء يوما الى بيت الشيخ صدر الدين بن الوكيل فلم يجده فكتب بالجص على مصراع الباب فلما رأى ابن الوكيل ذلك قال

قالوا أبو حيان غير مدافع * ملك النحاة فقلت بالاجماع
اسم الملوك على النقود واننى * شاهدت كنيته على المصراع

ومدحه شرف الدين بن الوحيد بقصيدة مطولة أولها

اليك أبا حيان أعملت أنيقى * وملت الى حيث الركائب تلتقى
دعانى اليك الفضل فانقدت طائعا * ولبيت أحدوها بلفظى المصدق

ومدحه نجم الدين اسحق بن ألمى التركى وسأله تكملة شرح التسهيل وأرسلها اليه من دمشق وأولها

تبدى فقلنا وجهه فلق الصبح * وكمله باليمن فيه و بالنجح
وسهلت تسهيل الفوائد محسنا * فكن شارحا صدرى بتكملة الشرح

ومدحه مجير الدين عمر بن المليطى بقصيدة أولها

يا شيخ أهل الادب الباهر * من ناظم يلفى ومن ناثر

ومدحه نجم الدين يحيى الاسكندرى بقصيدة أولها

ضيف ألم بنا من أبرع الناس * لا ناقض عهد أيامى ولا ناسى
عار من الكبر والادناس ذو شرف * لكنه من سرابيل العلا كاسى

ومدحه نجم الدين الطوفى بقصيدتين اول الاولى

أتراه بعد هجران يصل * ويرى فى ثوب وصل مبتذل
قمر جار على أحلامنا * اذ تولاها بقد معتدل

وأول الثانية

فبسط له فى ارضه وخرج عمرو فى غلمة يجتنون الكماة فكانوا اذا اصابوا كماة طيبة اكلوها واذا اصابها عمرو خبأها ثم اقبلوا يتعادون وعمرو يقدمهم و يقول هذا جناى وخياره فيه اذ كل جان يده الى فيه فالتزمه جذيمة وحباه ثم ان الجن استطارته فضرب له جذيمة فى الآفاق زمانا فلم يسمع له بخبر فكف عنه اذا اقبل رجلان يقال لاحدهما مالك وللآخر عقيل ابنا فالج وهما يريدان الملك بهدية فنزلا على ماء ومعهما قينة يقال لها ام عمرو فنصبت قدرا واصلحت لهما طعاما فبينما هما يأكلان اذ اقبل رجل أشعث اغبر الرأس قد طالت اظفاره وساءت حاله حتى جلس مزجر الكلب ومد يده فناولته القينة طعاما فاكل فلم يغن عنه شيئا فمد يده فقالت القينة ان يعط العبد كراعا طلب ذراعا فارسلتها مثلا ثم ناولت صاحبيها من شرابها وأوكت زقها فقال عمرو بن عدى

عدلت الكاس عنا ام عمرو
وكان الكاس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو
بصاحبك الذى لا تصبحينا

فقال له الرجلان من أنت فقال ان تنكرانى فلن تنكرا حسبى أنا عمرو بن عدى فقاما اليه فلثماه

اعذروه

اعذروه فكريم من عذر * قرنه ذات وجه كالقمر

ومدحه بهاء الدين محمد بن شهاب الدين الخيمى بقصيدة أولها

ان الاثير أباحيان أحيانا * بنشره طى علم مات احيانا

ومدحه القاضى ناصر الدين شافع بقصيدة أولها

فضضت عن العذب النمير ختامها * وفتحت عن زهر الرياض كمامها

ومدحه جماعة آخرون يطول ذكرهم وكتبت أنا اليه من الرحبة سنة ٧٢٩

لو كنت أملك من دهرى جناحين * لطرت لكنه فيكم جنى حينى
ياسادة نلت فى مصر بهم شرفا * أرقى به شرفا ينأى عن العين
وان جرى لسما كيوان ذكر علا * احلنى فضلهم فوق السماكين
وليس غير أثير الدين آثلة * فسادما شادلى حقا بلامين
حبر ولو قلت ان البماء رتبتها * من قبل صدقك الاقوام فى ذين
احيا علوما أمات الدهر اكثرها * مذ جلدت خلدت ما بين دفين
ياواحدا لعصر ماقولى بمتهم * ولا احاشى امرأ بين الفريقين
هذى العلوم بدت من سيبويه كما * قالوا وفيك انتهت يا ثانى اثنين
قدم لها وبودى لو أكون فدى * لما ينالك فى الايام من شين
ياسيبويه الورى فى الدهر لا عجب * اذا الخليل غدا يفديك بالعين

يقبل الارض وينهى ماهو عليه من الاشواق التى برحت بألمها واجرت الدموع دما وهذا الطرس الاحمر يشهد بدمها واربت سحبها على السحائب واين دوام هذه من ديمها وفرقت الاوصال على السقم لوجود عدمها

فياشوق ما ابقى و يالى من النوى * ويادمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى

ويذكر ولاءه الذى تسجع به فى الارض الحمائم ويسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمائم وثناءه الذى يتضوع كالزهر بين الكمائم ويتسنم تسنم هامات الربا اذ البست من الربيع ملونات العمائم ويشهد الله على ماقد قلته والله سبحانه نعم الشهيد فكتب هو الجواب عن ذلك ولكنه عدم منى وأنشدته يوما لنفسى

قلت للكاتب الذى ماأراه * قط الا ونقط الدمع شكله
ان تخط الدموع فى الخط شيأ * ما يسمى فقال خط ابن مقله

وانشدنى هو من لفظه لنفسه

سبق الدمع بالمسير المطايا * اذ نوى من احب عنى نقله
واجاد الخطوط فى صفحة الخد ولم لا يجيد وهو ابن مقله

وأنشدنى فى مليح نوتى

كلفت بنوتى كأن قوامه * اذا ينثنى خوط من البان ناعم
مجاذفه فى كل قلب مجاذب * وهزاته للعاشقين هزائم

وأنشدته أنا لنفسى

وغسلا رأسه وقلما أظفاره وقصرا من لمته وألبساه من ظرائف ثيابهما وقالا ما كنا لنهدى الى الملك هدية هى انفس عنده ولا هو عليها أحرص من ابن أخته قد رده الله اليه فخرجا به حتى اذا وقفا على باب الملك بشراه به فصرفه الى أمه وقال لهما احكما فقالا احكمنا منادمتك مابقيت وبقينا قال ذلك لكما فهما ندمانا جذيمة المعروفان واياهما عنى متمم بن نويرة اليربوعى فى مرثيته لاخيه مالك حين قتله خالد بن الوليد بن المغيرة يوم البطاح

وكنا كندمانى جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال أبو خراشة الهذلى

ألم تعلمى ان قد تفرق قبلنا * خليلا صفاء مالك وعقيل

وان ام عمرو عمدت اليه فبعثت معه حفدة يقومون عليه فى الحمام حتى اذا خرج ألبسته من ظرائف ثياب الملوك وجعلت فى عنقه طوقا من ذهب لنذر كان عليها ثم امرته بزيارة خاله فلما رأى خاله لحيته والطوق فى عنقه قال شب عمرو عن الطوق واقام عمرو مع جذيمة خاله قد حمل عنه عامة امره وان الزباء ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن اذينة بن

ان نوتي مركب نحن فيه * هام فيه صب الفؤاد جريحه
أقلع القلب عن سلوى لما * أن بدا ثغره وقد طاب ريحه
وأنشدته لنفسي أيضا
نوتينا حسنه بديع * وفيه بدر السماء مغرى
ماحك برا الا وقلنا * ياليت أنا نحك برا
فاعجباه رحمه الله تعالى وزهزه لهما وأنشدني هو لنفسه في مليح احدب
تعشقته احدبا كيسا * يحاكي نحيبا حنين النعام
اذا كدت اسقط من فوقه * تعلقت من ظهره بالسنام
فانشدته لنفسي
واحدب رحت به مغرما * اذ لم تشاهد مثله عيني
لاغرو ان هام فؤادي به * وخصره مابين دفين
وانشدني من لفظه لنفسه في اعمى
ماضر حسن الذي اهواه أن سنى * كريمتيه بلا شين قد احتجبا
قد كانتا زهرتي روض وقد ذوتا * لكن حسنهما الفتان ماذهبا
كالسيف قد زال عنه صقله فغدا * انكى وآلم في قلب الذي ضربا
وانشدته لنفسي في ذلك
ورب اعمى وجهه روضة * تنزهي فيها كثير الديون
في خده ورد غنينا به * عن نرجس مافتحته العيون
وانشدته ايضا لنفسي في ذلك
فيا حسن اعمى لم يخف حد طرفه * محب غدا اسكران فيه وماصحا
اذا صاد خل بات يرعى خدوده * غدا آمنا من مقلتيه الجوارحا

وكتبت اليه استدعاء وهو المسؤل من احسان سيدنا الامام العالم العلامة لسان العرب ترجمان الادب جامع الفضائل عمدة وسائل السائل حجة المقلدين زين المقلدين قطب المؤملين أفضل الآخرين وارث علوم الاولين صاحب اليد الطولى في كل مكان ضيق والتصانيف التي تاخذ بمجامع القلب فكل ذي لب اليها شيق والمباحث التي أثارت الادلة الراجحة من مكامن أماكنها وقنصت أوابدها الجامحة من مواطئ مواطنها كشاف معضلات الاوائل سباق غايات قصر عن شأوها سحبان وائل فارع هضبات البلاغة في احتلاء احتلابها وهي في مرتقى مرقدها سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء اقتضابها من فوق فرقدها حتى أبرز كلامه جنان فضل جنان من بعده عن الدخول اليها جبان وأتى ببراهين وجوه حورها لم يطمثهن انس قبله ولاجان وأبدع خمائل نظم ونثر لا تصل الى أفنان فنونها يد جان أثير الدين أبي حيان لازال ميت العلم يحييه وهل عجيب ذلك من أبي حيان
حتى ينال بنوا العلوم مرامهم * ويحلهم دار المنى بامان
اجازة كاتب هذه الاحرف مارواه فسح الله تعالى في مدته من المسانيد والمصنفات والسنن والمجاميع

كانت رومية وكانت تتكلم بالعربية مدائنها على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي والغربي وهي اليوم خراب وكانت فيما ذكر قد سقفت الفرات وجعلت من فوقه ابنية رومية وجعلته أنقابا بين مدائنها وكانت تغدو بالجنود فخطبها جذيمة الابرش فكتبت اليه اني فاعلة ومثلك من رغب فيه فاذا شئت فاشخص الي وكانت بكرا فجمع عند ذلك جذيمة أصحابه فاستشارهم فاشاروا عليه بالمضي وخالفهم قصير بن سعد تابع كان له من لخم فامره أن لايفعل ويكتب اليها فان كانت صادقة أقبلت اليك والا لم تقع في حبالها فعصاه وأطاعهم حتى اذا كان بثقبة من دون هيت الى الانبار جمعهم وشاورهم فامروه بالشخوص اليها لما علموا من رأيه في ذلك وقال قصير تنصرف ودمك في وجهك فقال جذيمة بثقبة قضي الامر فارسلها مثلا وقال قصير بن سعد حين رآه قد عزم لا يطاع لقصير امر فارسلها مثلا وظعن جذيمة حتى اذا عاين مدينتها وهي بمكان دون الخانوقة ونظر الى الكتائب دونها فهاله مارأى فقال أي قصير ما الرأي فقال قصير اني

والجاميع الحديثية والتصانيف الادبية نظما ونثرا الى غير ذلك من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها وتباين أجناسها وأنواعها مما تلقاه ببلاد الاندلس وافريقية والاسكندرية والديار المصرية والبلاد الحجازية وغيرها من البلدان بقراءة أو سماع أو مناولة أو اجازة خاصة أو عامة كيفما تأدى ذلك اليه واجازة ماله ادام الله افادته من التصانيف في تفسير القرآن العظيم والعلوم الحديثية والادبية وغيرها وماله من نظم ونثر اجازة خاصة وأن يثبت بخطه تصانيفه الى حين هذا التاريخ وأن يجيزه اجازة عامة لما يتجدد له من بعد ذلك على رأي من يراه ويجوزه منعما متفضلا ان شاء الله تعالى (فكتب الجواب رحمه الله تعالى) أعزك الله ظننت بانسان جميلا فغاليت وأبديت من الاحسان جزيلا وما باليت وصفت من هو القتام يظنه الناس سماء والسراب يحسبه الظمآن ماء يا ابن الكرم وأنت ابصر من يشيم امع الروض النضير يرعى الهشيم أما اغنتك فضائلك وفواضلك ومعارفك وعوارفك عن نغبة من دأما وتربة من بهما لقد تبلجت المهارق من نور صفعاتك وتأرجت الاكوان من أريج نفحاتك ولانت اعرف من يقصد للدراية وانقد من يعتمد عليه في الرواية لكنك اردت ان تكسو من مطارفك وتتفضل من تالدك وطارفك وتحلو الخامل في منصة النباهة وتنقذه من اكن الفهاهة فتشيد له ذكرا وتعلي له قدرا ولم يمكنه الا اسعافك فيما طلبت واجابتك فيما اليه ندبت فان المالك لا يعصى والمتفضل المحسن لا يقصى وقد أجزت لك أيدك الله تعالى جميع ما رويته عن أشياخي بجزيرة الاندلس وبلاد افريقية وديار مصر والحجاز وغير ذلك بقراءة او سماع او مناولة واجازة بمشافهة وكتابة ووجادة وجميع ما أجيز لي أن أرويه بالشام والعراق وغير ذلك وجميع ما صنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نظما ونثرا وجميع ما سألت في هذا الاستدعاء فمن مروياتي الكتاب العزيز قرأته بقراءة السبعة على جماعة من اعلاهم الشيخ المسند المعمر فخر الدين أبو الطاهر اسمعيل بن هبة الله بن علي بن هبة الله المصري المليجي آخر من روى القرآن بالتلاوة على أبي الجود والكتب الستة والموطأ ومسند عبد بن حميد ومسند الدارمي ومسند الشافعي ومسند الطيالسي والمعجم الكبير للطبراني والمعجم الصغير له وسنن الدارقطني وغير ذلك وأما الاجزاء فكثيرة جدا ومن كتب النحو والآداب فاروي بالقراءة كتاب سيبويه والايضاح والتكملة والمفصل وجمل الزجاجي وغير ذلك والاشعار الستة والحماسة وديوان حبيب والمتنبي والمعري وأما شيوخي الذين رويت عنهم بالسماع أو القراءة فهم كثير وأذكر الآن منهم جماعة فمنهم القاضي أبو علي الحسن بن عبد العزيز بن أبي الاحوص القرشي والمقرى أبو جعفر أحمد بن سعيد بن أحمد بن بشير الانصاري واسحق بن عبد الرحيم بن محمد بن عبد الملك ابن درباس وأبو بكر بن عباس بن يحيى بن غريب القواس البغدادي وصفي الدين الحسين ابن أبي منصور بن ظافر الخزرجي وأبو الحسين محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع الاشعري ووجيه الدين محمد بن عبد الرحمن بن أحمد الازدي بن الدهان وقطب الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن القسطلاني ورضي الدين محمد بن علي بن يوسف الانصاري الشاطبي اللغوي ونجيب الدين محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمذاني ومكي بن محمد بن أبي القاسم بن حامد

تركت الرأي بثقبة فقال عند ذلك أشر علي فقال ان لقيتك الكتائب فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة وان هم أخذوا بجنبيك ووقفوا دونك فالقوم منعطفون عليك فيما بينهم وبين جنودهم فاركب العصا فانها لا تدرك ولا تسبق يعني فرسا كانت جنبت معه فاستقبله القوم وأحاطوا به فلم يركب العصا فعمد اليها قصير فركبها وجال وانطلق فالتفت جذيمة فاذا هو بالعصا عليها قصير أمام خيلهم حتى توارت به فقال جذيمة ماضل من تجري به العصا فادخل على الزباء فاستقبلته وقد كشفت عن كبعثاتها (أي عفلها) وتنضفت باستها وقالت يا جذيمة أي متاع عروس ترى قال أرى متاع أمة لكعاء غير ذات خفر فقالت أما والله ماذا لك من عدم مواس ولا قلة أواس ولكن شيمة ما أناس ثم أجلسته على نطع ودعت له بطست من عسجد فقطعت رواهشه واستنزفته حتى اذا ضعفت قواه ضرب بيده فقطرت قطرة على دعامة من رخام وقد قيل لها انه ان وقع من دمه قطرة في غير طست طلب بدمه فقالت أي جذيم لا تضيعن من دمك شيأ فاني انما بعثت اليك لانه بلغني أن دمك شفاء من الخبل فقال جذيمة وما يغنيك من دم

الاصبهانى الصفار ومحمد بن عمر بن محمد بن على السعدى الضرير بن الفارض وزين الدين أبو بكر محمد بن اسمعيل بن عبد الله الانماطى ومحمد بن ابراهيم بن ترحم بن حازم المازنى ومحمد بن الحسين بن الحسن بن ابراهيم الدارمى بن الخليلى ومحمد بن عبد المنعم بن محمد بن يوسف الانصارى بن الخيمى ومحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر العنسى عرف بابن التين وعبد الله ابن محمد بن هرون بن عبد العزيز الطائى القرطبي وعبد الله بن نصر الله بن أحمد بن رسلان ابن فتيان بن كامل الحزمى وعبد الله بن أحمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن فارس التميمى وعبد الرحمن بن يوسف بن يحيي بن يوسف بن خطيب المزة وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد العلى المضرى السكرى وعبد العزيز بن عبد المنعم بن على بن نصر بن الصيقل الحرانى وعبد العزيز بن عبد القادر بن اسمعيل الغيالى الصالحى الكنانى وعبد المعطى بن عبد الكريم ابن أبى المكارم بن منجى الخزرجى وعلى بن صالح بن أبى على بن يحيي بن اسمعيل الحسينى البهنسى المجاور وغازى بن أبى الفضل بن عبد الوهاب الحلاوى والفضل بن على بن نصر بن عبد الله بن الحسين بن رواحة الخزرجى ويوسف بن اسحق بن أبى بكر الطبرى المكى واليسر بن عبد الله بن محمد بن خلف بن اليسر القشيرى ومؤنسة بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى وشامية بنت الحافظ أبى على الحسن بن محمد بن محمد التيمية وزينب بنت عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على البغدادى ومن كتبت عنه من مشاهير الادباء أبو الحكم مالك بن عبد الرحمن بن على بن الفرج المالقى بن المرحل وأبو الحسن بن حازم بن محمد بن حازم الانصارى القرطاجنى وأبو عبد الله بن أبى بكر بن يحيي بن عبد الله الهذلى التطيلى وأبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن زنون المالقى وأبو عبد الله محمد بن عمر بن جبير المجليانى العكى المالقى وأبو الحسين يحيي بن عبد العظيم بن يحيي الانصارى الجزار وأبو عمرو عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تولوا القرشى وأبو حفص عمر بن محمد بن أبى على الحسن المصرى الوراق وأبو الربيع سليمان بن على بن عبد الله بن ياسين الكومى التلمسانى وأبو العباس أحمد بن أبى الفتح نصر الله بن باتكين القاهرى وأبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد ابن حماد بن محسن الصنهاجى البوصيرى وأبو العباس أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم الغرزى * وممن أخذت عنه من النحاة أبو الحسن على بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الخشنى الابذى وأبو الحسن على بن محمد بن على بن يوسف الكتامى بن الضائع وأبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد بن الزبير الثقفى وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن على بن يوسف الفهرى اللبلى وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن محمد بن نصر الحلبى بن النحاس وممن لقيته من الظاهرية أبو العباس أحمد بن على بن خالص الانصارى الاشبيلى الزاهد وأبو الفضل محمد بن محمد بن سعدون الفهرى الشنتمرى وجملة الذين سمعت منهم نحو من اربعمائة شخص وخمسين وأما الذين أجازونى فعالم كثير جدا من أهل غرناطة ومالقة وسبتة وديار افريقية وديار مصر والحجاز والعراق والشام وأما ما صنفته فن ذلك البحر المحيط فى تفسير القرآن العظيم اتحاف الاديب بما فى القرأن من الغريب كتاب الاسفار الملخص من كتاب الصفار شرح الكتاب سيبويه كتاب التجريد لاحكام سيبويه كتاب التذييل والتكميل

أضاعه أهله وفى ذلك يقول المغيث * من الدارميين الذين دماؤهم * شفاء من الداء المجنة والخبل

واستصفت دمه وجعلته فى برنية وقال بعضهم دخل عليها جذيمة فى قصر لها ليس فيه الا الجوارى وهى على سرير ها فقالت للاماء خذن بيد سيدكن ثم دعت بنطع فاجلسته عليه فعرف الشر وكشفت عن عورتها فاذا هى قد عقدت شعر استها من وراء فقالت أشوار عروس ترى فقال بل شوار أمة بظرا فقالت أما والله ما ذاك من عدم مواس ولا من قلة أواوس ولكنها شيمة ما أناس ثم أمرت برواهشه فقطعت فجعلت دمه يشخب فى النطع كراهة أن يفسد مقعدها فقال جذيمة لا يحزنك دم أراقه أهله ونجا قصير فاورد الخبر على عمرو بن عبد الحى التنوخى بالحيرة فاشفق لذلك فقال له قصير اطلب بثار ابن عمك والا سبتك العرب فلم يحفل بذلك أن عنده خبرا فخرج قصير الى عمرو بن عدى فقال له هل لك الى أن أصرف الجنود اليك على أن تطلب ثار خالك فجعل له ذلك فصرف وجوه الجنود اليه ومناهم بالمال والحال فانصرف اليه منهم بشر كثير فالتقى هو والتنوخى فلما خافوا الفتن بايعه التنوخى وتم الامر لعمرو بن عدى فقال له قصير انظر ما وعدتنى به

فى

فى شرح التسهيل كتاب التخيل الملخص من شرح التسهيل كتاب التذكرة كتاب المبدع فى التصريف كتاب الموفور كتاب التقريب كتاب التدريب كتاب غاية الاحسان كتاب النكت الحسان كتاب الشذا فى مسألة كذا كتاب الفضل فى أحكام الفصل كتاب اللمعة كتاب الشذرة كتاب الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء كتاب عقد اللآلى كتاب نكت الامالى كتاب النافع فى قراءة نافع الاثير فى قراءة ابن كثير المورد الغمر فى قراءة أبى عمرو الروض الباسم فى قراءة عاصم المزن الهامر فى قراءة ابن عامر الرمزة فى قراءة حمزه تقريب النائى فى قراءة الكسائى غاية المطلوب فى قراءة يعقوب قصيدة النير الجلى فى قراءة زيد بن على الوهاج فى اختصار المنهاج الانور الاجلى فى اختصار المحلى الحلل الحالية فى أسانيد القرآن العالية كتاب الاعلام بأركان الاسلام نثر الزهر ونظم الزهر نظر الحسى فى جواب أسئلة الذهبى فهرست مسموعاتى نوافث السحر فى دمائث الشعر تحفة الندس فى نحاة الاندلس الابيات الوافية فى علم القافية جزء فى الحديث مشيخة ابن أبى المنصور كتاب الادراك للسان الاتراك زهو الملك فى نحو الترك نفحة المسك فى سيرة الترك كتاب الافعال فى لسان الترك منطق الخرس فى لسان الفرس ومما لم يكمل تصنيفه كتاب مسلك الرشد فى تجريد مسائل نهاية ابن رشد كتاب منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك نهاية الأعراب فى علمى التصريف والاعراب رجز مجانى الهصر فى آداب وتواريخ لاهل العصر خلاصة التبيان فى علمى البديع والبيان رجز نور الغبش فى لسان الحبش المخبور فى لسان اليحمور قاله وكتبه أبو حيان محمد بن يوسف بن على ابن يوسف بن حيان وأنشدنى الشيخ أثير الدين من لفظه لنفسه فى صفات الحروف

اناها ولمستطيل أغن * كلما اشتد صارت النفس رخوه
أهمس القول وهو يجهر بى * واذا ما انخفضت أظهر علوه
فتح الوصل ثم أطبق هجرا * بصفير والقلب قلقل شجوه
لان دهرا ثم اغتدى ذا انحراف * وفشا السر مذ تكررت نحوه

وأنشدنى أيضا لنفسه

يقول لى العذول ولم أطعه * تسل فقد بدا للعب لحيه
تخيل أنها شانت حبيبى * وعندى أنها زين وحليه

وأنشدنى لنفسه أيضا

شوقى لذاك المحيا الزاهر الزاهى * شوق شديد وجسمى الواهن الواهى
أسهرت طرفى وولهت الفؤاد هوى * فالطرف والقلب منى الساهر الساهى
نهيت قلبى وتنهى أن أبوح بما * يلقاه واشوقه للناهب الناهى
بهرت كل مليح بالبها فغدا * فى النيرين شبيه الباهر الباهى
لهجت بالحب لما أن لهوت به * عن كل شئ فويح اللاهج اللاهى

وأنشدنى من لفظه لنفسه

فانى جادع أنفى واذنى ومحتال لقتلها جهدى فاعنى وخلاك ذم فقال له عمرو وأنت ابصر وعلى معونتك فجدع أنفه فقيل لامر ما جدع قصير انفه ثم انطلق حتى دخل على الزباء فقالت من انت فقال انا قصير لا ورب المشارق ما كان على وجه الارض بشر كان انصح لجذيمة ولا اغش لك منى حتى جدع عمرو انفى واذنى فعرفت انى لا اكون مع احد هو اثقل عليه منى معك فقالت اى قصير نقبل منزلتك ونصرفك فى بضائعنا فاعطته مالا للتجارة فاتى بيت مال الحيرة فاستخف مافيه بأمر عمرو بن عدى وانصرف به اليها فلما رأت ما جاء به فرحت بذلك وزادته مالا الى ما جاء به وقال انه ليس من ملك الا وهم يتخذون فى مدائنهم انفاقا تكون لهم عددا فقالت له اما انى قد فعلت ذلك قد نقبت سربا و بنيته من تحت سريرى هذا حتى خرج من تحت الفرات الى سرير اختى دخله ففرح بذلك قصير ثم ظعن حتى اتى عمرا فركب عمرو فى الفى رجل على الف بعير فى الصناديق

حتى صار اليها فقدم قصير وسبق الابعرة فقال لها اصعدى حائط مدينتك وانظرى الى مالك وتقدمى الى بوابك فلا يتعرض

راض حبيبي عارض قد بدا * يا حسنه من عارض رائض
وظن قوم ان قلبي سلا * والاصل لا يعتد بالعارض

وأنشدني من لفظه لنفسه

تعشقته شيخا كأن مشيبه * على وجنتيه ياسمين على ورد
أخا العقل يدري ما يراد من الهوى * أمنت عليه من رقيب ومن صد
وقالوا الورى قسمان في شرعة الهوى * لسود اللحى ناس وناس الى المرد
ألا انني لو كنت اصبو لامرد * صبوت الى هيفاء مائسة القد
وسود اللحى أبصرت فيهم مشاركا * فاحببت ان أبقى بابيضهم وحدي

وأنشدني من لفظه لنفسه

الان الحاظا بقلبي عوابثا * أظن بها هاروت أصبح نافثا
اذا رام ذو وجد سلوا منعنه * و كن على دين التصابي بواعثا
وقيدن من أضحى عن الحب مطلقا * وأسرعن للبلوى بمن كان رائثا
بروحي رشا من آل خاقان راحل * وان كان ما بين الجوانح لابثا
غدا واحدا في الحسن للفضل ثانيا * وللبدر والشمس المنيرة ثالثا

وأنشدني لنفسه ومن خطه نقلت

أسحر لتلك العين في القلب أم وخز * ولين لذاك الجسم في اللمس أم خز
وأملود ذاك القد أم أسمر غدا * له أبدا في قلب عاشقه هز
فتاة كساها الحسن أفخر حلة * فصار عليها من محاسنها طرز
وأهدى اليها الغصن لين قوامه * فماس كأن الغصن خامره العز
يضوع أديم الارض من نشر طيبها * ويخضر من آثارها تربه الجرز
وتختال في برد الشباب اذا مضت * فينهضها قد ويقعدها عجز
أصابت فؤاد الصب منها بنظرة * فلا رقية تجدي المصاب ولا حرز

وأنشدني اجازة في مليح أبرص ومن خطه نقلت

وقالوا الذي قد صرت طوع جماله * ونفسك لاقت في هواه نزاعها
به وضح تأباه نفس أولي النهى * وأقطع داء ما ينافي طباعها
فقلت لهم لا عيب فيه يشينه * ولا علة فيه يروم دفاعها
ولكنها شمس الضحى حين قابلت * محاسنه ألقت عليه شعاعها

وأنشدني من لفظه لنفسه في فحام

وعلقته مسود عين ووفرة * وثوب يعاني صنعة الفحم عن قصد
كأن خطوط الفحم في وجناته * لطاخة مسك في جني من الورد

وأنشدني اجازة ومن خطه نقلت

سال البدر هل تبدي أخوه * قلت يا بدر لن تطيق طلوعا
كيف يبدو وأنت يا بدر باد * أو بدران يطلعان جميعا

لشئ من اموالنا فاني قد جئت بمال صامت وكانت قد امنته فلم تكن تخافه وصعدت وفعلت ما امرها فلما نظرت الى ثقل مشي الجمال قالت

ما للجمال مشيها وئيدا
اجندلا يحملن ام حديدا
ام صرفانا باردا شديدا
ام الرجال جثما قعودا

ودخلت الابل المدينة حتى اذا بقي آخرها جملا عيل صبر البواب فطعن بنخسة كانت في يده خاصرة رجل فضرط فقال البواب بشنا بشنا بالنبطية اي في الجوالق شر وثار الرجال من الجوالق ضربا باسيافهم فخرجت الزباء هاربة الى سربها فابصرت قصيرا عند نفقها مصلتا سيفه فانصرفت راجعة وتلقاها عمرو بن عدي فضربها وقال بعضهم مصت خاتمها وكان فيه سم ساعة وقالت بيدي لا بيد عمرو وخربت المدينة وسبيت الذراري فقالت الشعراء في امرها وامر قصير فاكثرت فمن ذلك قول المتلمس

ومن طلب الاوتار ما حز انفه * قصير ورام الموت بالسيف بيهس
تعاميت لما صرع القوم رهطه * تبين في أثوابه كيف يلبس

ومن ذلك قول عدي بن زيد التميمي يصف ذلك من امرهم

الا ايها الملك المرجى * الم تسمع بخطب الاولينا

وانشدني

و أنشدنى من لفظه لنفسه موشحة عارض بها شمس الدين محمد بن التلمسانى

عاذلى فى الاهيف الآنس* لورآه الآن قد عذرا
رشا قد زانه الحور
غصن من فوقه قمر
قمر سجبه الشعر
ثغر من فيه أم درر
جال بين الدر واللعس * خمرة من ذاقها سكرا
رجة بالردف أم كسل
ريقة بالثغر أم عسل
وردة بالخد أم خجل
كحل بالعين أم كحل
يا لهامن أعين نعس * جلبت لناظرى سهرا
مذ نأى عن مقلتى سنى
ما أذيقا لذة الوسن
طال ما ألقاه من شجن
عجبا ضدان فى بدن
بفؤادى جذوة القبس * و بعينى الماء منفجرا
قد أتانى الله بالفرج
اذ دنا منى أبو الفرج
قمر قد حل فى المهج
كيف لا يخشى من الوهج
غيره لو صابه نفسى * ظنه من حره شررا
نصب العينين لى شركا
فانثنى والقلب قد ملكا
قمر أضحى له فلكا
قال لى يوما وقد ضحكا
أتجى من أرض اندلس * نحو مصر تعشق القمرا

وأما موشحة ابن التلمسانى فهى

قمر يجلو دجى الغلس * بهر الابصار مذ ظهرا
أمن من شينة الكلف
ذبت من حبيه با اكلف
لم يزل يسعى الى تلفى
بركاب الدل والصلف

وكان يقول لو وقع اليقينا
لخطبته التى غدرت وخانت
وهن ذوات غائلة لحينا
مع أشعار كثيرة قيلت فى ذلك وكانت الزباء لا تاتى حصنا الا ضفرت شعر استها من خلفه ثم تقاعست فتقلعه حتى فعلت ذلك بمارد حصن دومة الجندل وبالابلق حصن تيماء الفرد حصنين منيعين فقالت تمرد مارد وعز الابلق وهما الحصنان اللذان تذكرهما العرب فى أشعارها قال الاعشى فى ذلك
بالابلق الفرد من تيماء منزله
حصن حصين وجار غير غدار
وجذيمة الوضاح الذى يقول فيه
ماست مودعة الحديث فنجد منهم وغائر
أن تاه أحور ذو رعين لنا وأحوى ذو أباعر
و الملك كان لذى نواس حوله من ذى بحائر
بالسابقات وبالقنا
والبيض تبرق والمغافر
أزمان عملاق وفيهم مهم وباد وحاضر
وانما سمى جذيمة الابرص الوضاح لانه كان به برص

فكنى به اعظاماله (قال المسعودى) هذا بدوّ خبر بنى عدى وقد قدمنا ان مدة ملكه كانت ستين

العرب خمسا وعشرين سنة وكانت امه ماوية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان وملك النعمان بن امرئ القيس قاتل الفرس خمسا وستين سنة وكانت أمه الهيجانة بنت سلول من مراد ويقال من اياد وملك المنذر بن النعمان فارس حليمة وهو الذى بنى الخورنق وكردس الكراديس خمسا وثلاثين سنة وكانت أمه هند بنت الهيجانة من آل بكر وملك المنذر بن الاسود ابن النعمان بن المنذر أربعا وثلاثين سنة وكانت امه ماء السماء بنت عوف بن النمر بن قاسط بن أقصى بن دعمى بن خويلد بن أسد بن ربيعة ابن سرار وانما سميت ماء السماء لحسنها وجمالها ثم ملك بعده عمرو بن المنذر أربعا وعشرين سنة وكانت أمه اخت عمرو بن قابوس من آل نصر ثم ملك قابوس بن المنذر ثلاثين سنة وكانت أمه بنت الحرث من آل معاوية ابن معديكرب وملك النعمان بن المنذر وهو الذى يقال له أبيت اللعن اثنتين وعشرين سنة وكانت أمه سلمى بنت وائل بن عطية من كلب (وذكر عدة من الاخباريين) أن النابغة

آه لولا أعين الحرس * نلت منه الوصل مقتدرا
يا أميرا جار مذ وليا
كيف لا ترثى لمن بليا
فبثغر منك قد جليا
قد حلا طعما وقد حليا
وبما أوتيت من كيس * جدفا أبقيت مصطبرا
بدر تم فى الجمال سنى
ولهذا القبوه سنى
قد سبانى لذة الوسن
عجبا باهر حسن
هو خشفى وهو مفترسى * فاروعن أعجوبتى خبرا
لك خد يا أبا الفرج
زين بالتوريد والضرج
وحديث عاطر الارج
كم سبى قلبا بلا حرج
لو رآك الغصن لم يمس * أو رآك البدر لاستترا
يا مذيبا مهجتى كمدا
فقت فى الحسن البدور مدى
يا كحيلا كحله اعتمدا
عجبا أن تبرى الرمدا
وبسقم الناظرين كسى * جفنك السحار وانكسرا
وأنشدنى من لفظه لنفسه ايضا
ان كان ليل داج * وخاننا الاصباح * فنورها الوهاج * يغنى عن المصباح
سلافة تبدو * كالكوكب الازهر
مزاجها شهد * وعرفها عنبر
وحبذا الورد * منها وان اسكر
قلبى بها قد هاج * فما ترانى صاح * عن ذلك المنهاج * وعن هوى يا صاح
وبى رشا أهيف * قد لج فى بعدى
بدر فلا يخسف * منه سنى الخد
بلحظه المرهف * يسطو على الاسد
كسطوة الحجاج * فى الناس والسفاح * فما ترى من ناج * من لحظه السفاح
على بالمسك * قلب رشا أحور
منعم المسك * ذى مبسم أعطر

ر ياه كالمسك * وريقه كوثر

غصن على رجراج * طاعت له الارواح * فبذا الاراج * ان هبت الارواح

مهلا أبا القاسم * على ابى حيان

ما ان له عاصم * من لحظك الفتان

وهجرك الدائم * قد طال بالهيمان

فدمعه أمواج * وسره قد باح * لكنه ما عاج * ولا أطاع اللاح

يارب ذى بهتان * يعذل فى الراح

وفى هوى غزلان * دافعت بالراح

وقلت لا سلوان * عن ذاك يا لاح

سبح الوجوه والتاج * هى منية الافراح * فاختر لى يا زجاج * قعال وزوج اقداح

وأنشدنى من لفظه لنفسه القصيدة الدالية التى نظمها فى مدح النحو والخليل وسيبويه ثم خرج منها الى مديح صاحب غرناطة وغيره من أشياخه وأولها

هو العلم لا كالعلم شئ تراوده * لقد فاز باغيه وأنجح قاصده

وهى قصيدة جيدة تزيد على مائة بيت وحكى لى أن الشيخ أثير الدين رحمه الله تعالى ضعف فتوجه اليه جماعة يعودونه وفيهم شمس الدين بن دانيال فأنشدهم الشيخ رحمه الله تعالى القصيدة المذكورة فلما فرغت قال ابن دانيال يا جماعة اخبركم ان الشيخ قد عوفى وما بقى عليه باس لانه لم يبق عنده فضلة قوموا باسم الله وأنشدنى من لفظه لنفسه رحمه الله تعالى قصيدته السينية التى أولها

أهاجك ربع حائل الرسم دارسه * كوحى كتاب أضعف الخط دارسه انتهى

نص الصفدى وما ذكره رحمه الله تعالى فى موضع ولادة أبى حيان غير مخالف لما ذكره فى الوافى انه ولد بغرناطة الا ان قوله بمدينة مطخشارش فيه نظر لانه يقتضى انها مدينة وليس كذلك وانما هى موضع بغرناطة ولذا قال الرعينى ان مولد أبى حيان بمطخشارش من غرناطة ونحوه لابن جماعة انتهى وهو صريح فى المراد وصاحب البيت ادرى بالذى فيه على انه يمكن ان يرد كلام الصفدى لذلك والله تعالى اعلم وذكر فى الوافى انه تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية والاقراء بالجامع الاقمر قال الصفدى وقال لى لم أر بعد ابن دقيق العيد أفصح من قراءتك وكان ذلك حين قرأت عليه المقامات الحريرية بمصر جماعة انتهى وما وقع فى كلام كثير من أهل المغرب ان اباحيان توفى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة غير ظاهر لان اهل المشرق أعرف بذلك اذ توفى عندهم وقد تقدم انه توفى سنة خمس واربعين وسبعمائة فعلى كلام اهل المشرق فى هذا المعول والله اعلم وكانت نضار بنت ابى حيان حجت وسمعت بقراءة العلم البرزالى على بعض الشيوخ وحدثت بشئ من مروياتها وحضرت على الدمياطى وسمعت على جماعة وهى بضم النون وتخفيف الضاد وأجازها من المغرب أبو جعفر ابن الزبير وحفظت مقدمة فى النحو ولما توفيت عمل والدها فيها كتابا سماه النضار فى المسلاة عن نضار وكان والدها يثنى عليها كثيرا وكانت تكتب وتقرأ قال الصفدى

استاذن على النعمان يوما فقال له الحاجب ان الملك على شرابه قال فهو وقت الملق تقبله الافئدة وهو جذل للرحيق فان تلج تلق المجد عن غرر مواهبه فانت قسيم ما أفدت قال له الحاجب ما تفى عنايتى بدون شكرك فكيف أرغب فيما وصفت ودون ما طلبت رهبة التعدى قال النابغة ومن عنده قال الحاجب خالد بن جعفر الكلابى نديمه فقال النابغة هل لك الى ان تؤدى الى خالد عنى ما اقول لك قال وما هو قال تقول ان من يدرك وفاء الدرك بك وتاديتى من الشكر ما قد علمت فلما صار خالد الى بعض ما تبعثه موارد الشراب عليه نهض فاعترضه الحاجب فقال ليهنك التئام حادث النعيم قال وماذاك فاخبره الخبر وكان خالد رفيقا باتى الاشياء بلطف وحسن بصيرة فدخل متبسما وهو يقول

الا لمثلك أو من أنت سابقه * سبق الجواد اذا استولى على الامد

واللات لكانى انظر الى ذى رعين وقد مدت لهم قضبان المجد الى معالم أحسابكم ومناقب أنسابكم فى حلبة أنت أبيت اللعن غرتها فجئت سابقا مهملا وجاؤا الميلم لهم سعى قال النعمان لانت فى وصفك أبلغ احسانا من النابغة فى نظام قافيته فقال خالد ما أبلغ فيك حسنا

قال لى والدها انها خرجت جزأ لنفسها وأنها تعرب جيدا وأظنه قال لى انها تنظم الشعر وكان يقول دائما ليت أخاها حيان كان مثلها وتوفيت رحمها الله تعالى فى جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ فى حياة والدها فوجد عليها وجدا عظيما ولم يثبت وانقطع عند قبرها بالبرقوقية ولازمه سنة ومولدها فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٢ قال الصفدى وكنت بالرحبة لما توفيت فكتبت لوالدها بقصيدة أولها

بكينا باللجين على نضار * فسيل الدمع فى الخدين جارى
فيا لله جارية تولت * فنبكيها بأدمعنا الجوارى انتهى

وقال الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن سعد الرعينى الاندلسى فى برنامجه عند ذكره شيخه أبا حيان زيادة على ما قدمناه ما ملخصه ان أبا حيان قال سمعت بغرناطة ومالقة وبلش والمرية وبجاية وتونس والاسكندرية ومصر والقاهرة ودمياط والمحلة وطهرمس والجيزة ومنية ابن خصيب ودشنا وقنا وقوص وبلبيس وعيذاب من بلاد السودان وينبع ومكة شرفها الله تعالى وجدة وأيلة ثم فصل من لقيه فى كل بلد الى أن قال وبمكة أبا اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن عبد الله بن عساكر الى أن قال فهذه نبذة من شيوخى وجملة من سمعت منهم نحو خمسمائة والمجيزون أكثر من ألف وعد من كتب القرآت التى أخذ تسعة عشر كتابا وقال فى حق المليحى انه أعلى شيوخى فى القرا آت وان آخر من روى عنه السبع أبو الجود غياث بن فارس المنذرى اللخمى واجازته منه سنة ٦٠٤ قال وقرأت البخارى على جماعة أقدمهم اسنادا فيه أبو العز الحرانى قرأته عليه بلفظى الابعض كتاب التفسير من قوله تعالى ويسئلونك عن المحيض الى قوله سبحانه ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى سورة النور فسمعته بقراءة غيرى قال أنبأنا به أبو المعالى أحمد بن يحيى بن عبيد الله الخازن البيع سماعا عليه سنة ستمائة ببغداد أنبأنا أبو الوقت بسنده وكمل له رحمه الله تعالى جامع الترمذى بين قراءة وسماع على ابن الزبير بغرناطة وسمعه على محمد بن ترحم أنبأنا ابن البناء أنبأنا الكروخى بسنده وقرأ السنن لابى داود بغرناطة على أبى زيد عبد الرحمن الربعى عرف بالتونسى أنبأنا به سهل بن مالك وقرأه بالقاهرة على أبى الفضل عبد الرحيم بن خطيب المزة عن أبى حفص بن طبرزذ عن أبى بدر الكروخى ومفلح الرومى عن أبى بكر بن ثابت الخطيب أنبأنا أبو عمر الهاشمى أنبأنا اللؤلؤى أنبأنا أبو داود وقرأ الموطأ على أبى جعفر ابن الطباع عن أبى القاسم بن بقى عن ابن عبد الحق عن ابن الطلاع بسنده وهذا أعلى سند يوجد عن يونس بن مغيث فى عصره وسمع أبو حيان الاجزاء الخلعيات والغيلانيات والقطيعيات والنهروانيات والمحامليات والثقفيات وسداسيات الرازى بعلو وقرأها على صفى الدين عبد الوهاب بن الفرات عن أبى الطاهر اسمعيل بن ياسين الجيلى وهو آخر من حدث عنه عن أبى عبد الله الرازى سماعا وقرأ أجزاء الانصارى على أبى بكر بن الانماطى بسماعه حضورا فى الرابعة على أبى اليمن زيد بن الحسن الكندى أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقى البزاز سنة ٥٣٢ أنبأنا ابراهيم بن عمر بن أحمد البرمكى قراءة عليه فى رجب سنة ٤٤٥ أنبأنا عبد الله بن ابراهيم بن ماسى أنبأنا أبو مسلم الكشى البصرى أنبأنا محمد بن عبد الله

الانصارى

الاوهودون قدرك استحقاقا للشرف الباهر ولو كان النابغة حاضر القال وقلنا قام النعمان بادخاله فخرج الحاجب فقال قد أذن بفتح الباب ورفع الحجاب ادخل فدخل ثم انتصب بين يديه وحياه بتحية الملك وقال أبيت اللعن أتفاخر وأنت سائد العرب وغرة الحسب واللات لأمسك أيمن من يومه ولقفاك أحسن من وجهه وليسارك أسمح من يمينه ولوعدك أصلح من رفده ولعبيدك أكثر من قومه ولاسمك أشهر من قدره ولنفسك أكبر من جده وليومك أشهر من دهره ثم قال

أخلاق مجدك جلت مالها خطر * فى الجود والناس بين العلم والخبر
متوج بالمعالى فوق مفرقه * وفى الوغى ضيغم فى صورة القمر

فتهلل وجه النعمان بالسرور ثم أمر فحشى فوه جوهرا ثم قال بمثل هذا فلتمدح الملوك وقد كان النعمان قتل عدى بن زيد التميمى وكان يكتب لكسرى ابرويز ويترجم اذا وفد عليه زعماء العرب لموجدة وجدها عليه النعمان فى خبر طويل الشرح فلما قتل صار زيد بن عدى مكان أبيه فذكر لابرويز جمال نساء آل المنذر ووصفهن له فكتب

الانصارى وقرأ جميع كتاب سيبويه على البهاء بن النحاس المشهور بالنحو فى مصر والشام بقراءته على علم الدين أبى محمد القاسم بن أحمد بن الموفق بقراءته على التاج أبى اليمن الكندى أنبانا أبو محمد عبد الله بن على بن أحمد البغدادى مؤلف كتاب المبهج أنبانا أبو الكرم المبارك بن فاخر بن محمد بن يعقوب عرف بابن الدباس أنبانا أبو القاسم عبد الواحد ابن على بن عمر بن برهان الاسدى أنبانا القاسم على بن عبيد الله الرقيقى أنبانا على بن عيسى بن عبد الله الرمانى أنبانا أبو بكر بن السراج أنبانا أبو العباس المبرد أنبا أبو عمر الجرمى وأبو عثمان المازنى قالا أنبانا أبو الحسن الاخفش أنبانا سيبويه قال الشيخ أبو حيان ولا أعلم راويا له بمصر والشام والعراق واليمن والمشرق غيرى ورويته عن الاساتيذ أبوى على بن الضائع وابن أبى الاحوص وأبى جعفر اللبلى عن أبى على الشلوبين وسنده مشهور بالمغرب ووقع لابى حيان تساعيات كثيرة وأغرب ماوقع له ثلاثة أحاديث بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ثمانية أخبره المحدث نجيب محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمدانى بقراءته عليه والجليلة السلطانية مؤنسة بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى قراءة عليه وهو يسمع قالا أنبانا أبو الفخر اسعد بن سعيد بن روح فى كتابه أخبرتنا فاطمة بنت عبد الله بن أحمد الجوزدانية أنبانا ابو بكر محمد بن عبد الله بن رندة الضبى الاصبهانى انبانا الحافظ ابو القاسم سليمان بن احمد بن أيوب بن مطر اللخمى الطبرانى انبانا عبيد الله بن رماحس القيسى برمادة الرملة سنة ٢٧٤ أنبانا ابو عمر زياد بن طارق وقد أتت عليه عشرون ومائة سنة قال سمعت أبا جرول زهير بن صرد الجشمى يقول لما أسرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم هوازن اتيته فقلت

امنن علينا رسول الله فى كرم * فانك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر * مشتت شملها فى دهرها غير
ابقت لنا الدهر هتافا على حزن * على قلوبهم الغماء والغمر
ان لم تداركهم نعماء تنشرها * يا ارجح الناس حلما حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها * اذ فوك تملؤه من محضها الدرر
اذ أنت طفل صغير كنت ترضعها * واذ يزينك ماتأتى وماتذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته * واستبق منا فانا معشر زهر
انا لنشكر للنعماء اذ كفرت * وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه * من امهاتك ان العفو مشتهر
ياخير من مرحت كمت الجياد به * عند الهياج اذا ما استوقد الشرر
انا نؤمل عفوا منك تلبسه * هذى البرية اذ تعفو وتنتصر
فاعف عفا الله عما أنت راهبه * يوم القيامة اذ يهدى لك الظفر

فلما سمع صلى الله عليه وسلم هذا الشعر قال ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم فقالت قريش ما كان لنا فهو لله ولرسوله وقالت الانصار ما كان لنا فهو لله ولرسوله قال أبو القاسم الطبرانى لا يروى عن زهير الا بهذا الاسناد وتفرد به عبيد الله بن رماحس وبالاسناد الى

الى النعمان يامره أن يبعث اليه باخته فلما اقرأ النعمان كتابه قال للرسول وهو زيد بن عدى يازيد أما لكسرى فى مها السواد كفاية حتى يتخطى الى العربيات فقال زيد انما أراد الملك اكرامك أبيت اللعن بصهرك ولو علم ان ذلك يشق عليك لما فعله وساحسن ذلك عنده واعذرك بما يقبله فقال النعمان فافعل فقد تعرف ما على العرب فى تزويج العجم من الغضاضة والشناعة فادى اليه قوله فى مها السواد على اقبح الوجوه واوحده عليه وقال ما المها فقال البقر فاخذ عليه وقال رب عبد قد صار فى الطغيان الى اكثر من هذا فلما بلغت كلمته الى النعمان تخوفه فخرج هاربا حتى صار الى طيئ اصهر كان له فيهم ثم خرج من عندهم حتى أتى بنى رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحرث بن قطيعة بن عبس فقالا له أقم معنا فانا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا فجزاهم الخير ورحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه وذلك قول زهير بن أبى سلمى

الم تر للنعمان كان بنجوة * من الدهر لو ان امرأ كان ناجيا
وغير عنه ملك عشرين حجة * من الدهر يوما واحدا كان غاويا
فلم ار مسلوبا له مثل ملكه * اقل صديقا معطيا ومواسيا

خلان حيا من رواحة حافظوا * وكانوا أناسا يتقون المخازيا
يسيرون حتى جيشوا عند ثاره * هجان المطايا والعتاق المذاكيا

الطبرانى أنبأنا جعفر بن محمد بن عبد الكريم بن فروخ بن ديزج بن بلال بن سعد بن بلال بن سعد الانصارى الدمشقى قال حدثنى جدى لامى عمر بن أبان بن مفضل بن أبان المدنى قال أرانى أنس بن مالك الوضوء ثم أخذ ركوة فوضعها عن يساره وصب على يده اليمنى فغسلها ثلاثا ثم أدار الركوة على يده اليمنى فغسلها ثلاثا وثلاثا ومسح برأسه وأخذ ماء جديدا لصماخيه فقلت له قد مسحت أذنيك فقال يا غلام هل رأيت وفهمت أو أعيد عليك فقلت قد كفانى وقد فهمت قال فكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ قال الطبرانى لم يرو عمر بن أبان عن أنس حديثا غير هذا وبالاسناد الى الطبرانى حدثنا محمد بن أحمد بن يزيد القصاص البصرى أنبأنا دينار بن عبد الله مولى أنس بن مالك حدثنى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن رآنى وآمن بى ومن رأى من رآنى وآمن بى ومن رأى من رأى من رآنى ثم قال الرعينى وتصانيف أبى حيان تزيد على خمسين ما بين طويل وقصير ثم قال الرعينى وخرج أبو حيان من الاندلس مفتتح سنة ٦٧٩ واستوطن القاهرة بعد حجه وأنشد لشيخه أبى الحسن الدباج

رضيت كفافى رتبة ومعيشة * فلست أسامى موسرا ووجيها
ومن جر أثواب الزمان طويلة * فلا بد يوما أن سيعثر فيها

وأنشد باسناده لموسى بن أبى تليد

حالى مع الدهر فى تقلبه * كطائر ضم رجله شرك
فهمه فى خلاص مهجته * يروم تخليصها فتشتبك

ثم أورد الرعينى جملة من نظم أبى حيان منها قوله

أريد من الدنيا ثلاثا وانها * لغاية مطلوب لمن هو طالب
تلاوة قرآن ونفس عفيفة * واكثار أعمال عليها أواظب

وقوله

أرحت روحى من الايناس بالناس * لما غنيت عن الاكياس بالياس
وصرت فى البيت وحدى لا أرى أحدا * بنات فكرى وكتبى هن جلاسى

وقوله

وزهدنى فى جمع المال انه * اذا ما انتهى عند الفتى فارق العمرا
فلا روحه يوما أراح من العنا * ولم يكتسب حمدا ولم يدخر أجرا

وقوله

يظن الغمر أن الكتب تجدى * أخا ذهن لادراك العلوم
وما يدرى الجهول بان فيها * غوامض حيرت عقل الفهيم
اذا رمت العلوم بغير شيخ * ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الامور عليك حتى * تصير أضل من توما الحكيم

وله لغز فى قيراط زاعما انه لا ينفك

وما اسم خماسى اذا ما فككته * يصير لنا فعلين أمرا وماضيا

فجازاهم خيرا واثنى عليهم ووعدهم توديع أن لا تلاقيا

واقبل النعمان حتى اتى المدائن فصف له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهن المصبغات صفين فلما صار النعمان بينهن قلن له اما فينا للملك غنى عن بقر السواد فعلم النعمان أنه غير ناج منه ولقيه زيد بن عدى فقال له النعمان أنت فعلت هذا بى لئن تخلصت لاسقينك بكاس ابيك فقال له زيد امض نعيم فقد اخنت له اخنة لا يقطعها المهر الارن وامر كسرى النعمان فحبس فى محبسه بساباط المدائن ثم امر به فرمى تحت أرجل الفيلة وقال بعضهم بل مات فى محبسه بساباط وقد ذكرت ذلك الشعراء فاكثرت فمن ذلك قول الاعشى

واجاد
ولا الملك النعمان يوما لقيته * بغبطته يعطى الضحاك ويرفق
ويجبى اليه المسلمون وعنده * صريعون فى انهارها والخورنق

بعكس وهو كل وجزء وجمعه * بابدال عين حاز فيه التناهيا
ومع كونه فردا وجمعا فأول * وآخره أضحى لشخص معاديا
وفي عكسه صوت فتبنيه صيغة * وتبني بمعناه وما أنت بانيا
فكم فيه من معنى خفي وانما * عنيت بذكرى للذي ليس خافيا

ثم قال الرعيني وهو شيخ فاضل ما رأيت مثله كثير الضحك والانبساط بعيد عن الانقباض جيد الكلام حسن اللقاء جميل المؤانسة فصيح الكلام طلق اللسان ذو لمة وافرة وهمة فاخرة له وجه مستدير وقامة معتدلة التقدير ليس بالطويل ولا بالقصير انتهى ما لخصته من كلام الرعيني * ولما قدم الاستاذ أبو حيان الى مصر أوصى أهله بقوله ينبغي للعاقل أن يعامل كل أحد في الظاهر معاملة الصديق وفي الباطن معاملة العدو في التحفظ منه والتحرز وليكن في التحرز من صديقه أشد في التحرز من عدوه وأن يعتقد أن احسان شخص الى آخر وتودده اليه انما هو لغرض قام له فيه يتعلق به يبعثه على ذلك لا لذات ذلك الشخص وينبغي أن يترك الانسان الكلام في ستة أشياء في ذات الله تعالى وما يتعلق بصفاته وما يتعلق بأحوال أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وفي التعرض لما جرى بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين وفي التعرض أيضا لائمة المذاهب رحمهم الله تعالى ورضي عنهم وفي الطعن على صالحي الامة نفع الله بهم وعلى أرباب المناصب والرتب من أهل زمانه وأن لا يقصد أذى أحد من خلق الله سبحانه وتعالى الا على حسب الدفع عن نفسه وأن يعذر الناس في مباحثهم وادراكاتهم فان ذلك على حسب عقولهم وأن يضبط نفسه عن المراء والاستهزاء والاستخفاف بأبناء زمانه وأن لا يبحث الا مع من اجتمعت فيه شرائط الديانة والفهم والمزاولة لما يبحث وأن لا يغضب على من لا يفهم مراده ومن لم يدرك ما يدركه وأن يلتمس مخرجا لمن ظاهر كلامه الفساد وأن لا يقدم على تخطئة أحد ببادي الرأي وأن يترك الخوض في علوم الاوائل وأن يجعل اشتغاله بعلوم الشريعة ولا ينكر على الفقراء وليسلم لهم أحوالهم وينبغي للعاقل أن يلزم نفسه التواضع لعبيد الله سبحانه وتعالى وأن يجعل نصب عينيه أنه عاجز مفتقر وأن لا يتكبر على أحد وان يقل من الضحك والمزاح والخوض فيما لا يعنيه وأن يتظاهر لكل بما يوافقه فيما لا معصية لله تعالى فيه ولا خرم مروءة وان يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند الجمهور وان لا يظهر الشكوى لاحد من خلق الله تعالى وان لا يعرض بذكر أهله ولا يجري ذكر حرمه بحضرة جليسه وأن لا يطلع أحدا على عمل خير يعمله لوجه الله تعالى وأن يأخذ نفسه بحسن المعاملة من حسن اللفظ وجميل التغاضي وأن لا يركن الى أحد الا الى الله تعالى وأن يكثر من مطالعة التواريخ فانها تلقح عقلا جديدا والله سبحانه وتعالى أعلم انتهت وصية أبي حيان الجامعة النافعة وقد نقلناها من خط الشيخ العلامة أبي الطيب بن علوان التونسي المالكي الشهير بالمصري وهو ممن أخذ عن تلامذة الشيخ أبي حيان رحمه الله تعالى قلت ومعاني هذه الوصية من نهيه عن الطعن في صالحي الامة نفع الله تعالى بهم وأمره بالتسليم لاحوالهم وعدم الانكار عليهم تعلم أن ما نقله الصفدي عنه فيما تقدم من قوله ان الشيخ أبا مدين الى آخره كلام فيه نظر لان

ويقسم امر الناس يوما وليلة * وهم ساكتون والمنية تنطق
فذلك وما انجى من الموت ربه * بساباط حتى مات وهو محرزق

وقال هانئ بن مسعود الشيباني

ان ذا التاج لا أبا لك أضحى * في الورى راسه تخوت الفيول
ان كسرى عدا على الملك النعمان حتى سقاه مر البليل

وحمار ثني به النعمان لم تبكه هند ولا اختها خرقاء واستعجم ناعيه بين فيول الهند تخبطه مختبطا تدمى نواحيه

(وقد كان النعمان) حين أراد المضي الى كسرى مستسلما مر على بني شيبان فاودعهم سلاحه وعياله عند هانئ بن مسعود بن هانئ الشيباني فلما أتى كسرى على النعمان بعث الى هانئ بن مسعود وطالبه بتركته فامتنع وأبى أن يخفر الذمة فكان ذلك السبب الذي أهاج حرب ذي قار وقد أتينا على ذلك فيما بعد من هذا الكتاب فأغنى عن اعادته ههنا (وقد كانت) خرقاء بنت النعمان بن المنذر اذا خرجت الى بيعتها يفرش لها طريقها بالحرير والديباج مغشى بالخز والوشي ثم تقبل في جواريها حتى تصل الى بيعتها وترجع الى منزلها فلما هلك النعمان نكبها الزمان فانزلها من الرفعة الى الذلة ولما وفد سعد بن أبي وقاص القادسية أميرا عليها وهزم الله

أباحيان رضى الله تعالى عنه لاينكر كرامات الاولياء كيف وقد ذكر رحمه الله تعالى منها كثيرا فمن ذلك ماحكى عنه تلميذه الرعينى بسنده الى الفقيه المقرى الصالح أبى تمام غالب بن حسن بن أحمد بن سيد بونة الخزاعى حدث انه زار قبر أبى الحسن بن جالوت ولم يكن زاره قبل فاشتبه عليه فتبركه فسمع النداء من قبر معين ياغالب أتمشى ومازرتنى فزار ذلك القبر وقعد عنده ثم جاء ابن أبى الحسن المذكور فساله عن القبر فقال هو الذى قعدت عنده وغالب هذا وابن جالوت هما من أصحاب الشيخ أبى احمد بن سيد بونة الخزاعى وهو من اصحاب الشيخ ابى مدين انتهى فكيف ينكر ابو حيان كرامات الصالحين وهو ينهى عن الطعن فيهم ويحكى كراماتهم نعم قول الصفدى قبل ذلك الكلام انه كان ينكر على فقراء الوقت كلام صحيح فى الجملة لكثرة الدعاوى الباطلة ممن ليس من اهل الصلاح واما انكار الكرامات مطلقا فمقام ابى حيان يجل عن ذلك والله تعالى اعلم وقد اورد ابن جماعة له من قطعة قوله فى اهل عصره

ومن يك يدعى منهم صلاحا * فزنديق تغلغل فى الضلال

واول هذه القطعة

حلبت الدهر اشطره زمانا * واغنانى العيان عن السؤال
فما بصرت من خل وفى * ولا الفيت مشكور الخلال
ذئاب فى ثياب قد تبدت * لرائيها باشكال الرجال
ومن يك يدعى منهم صلاحا * فزنديق تغلغل فى الضلال
ترى الجهال تتبعه وترضى * مشاركة باهل أو بمال
فينهب مالهم ويصيب منهم * نساءهم بمقبوح الفعال
وياخذ حاله زورا فيرمى * عمامته و يهرب فى الرمال
ويجرون التيوس وراء رجس * تقرمط فى العقيدة والمقال

اى اعتقدوا راى القرامطة ومذهبهم مشهور فلا نطيل به فظهر بما ذكران اباحيان انما انكر على اهل الدعاوى لاعلى غيرهم والله تعالى أعلم وقد اورد قاضى القضاة بن جماعة للشيخ ابى حيان من النظم غير ماقدمناذكره قوله

اماانه لولا ثلاث احبها * تمنيت أنى لا اعد من الاحيا
فمنها رجائى ان افوز بتوبة * تكفر لى ذنبا وتنجح لى سعيا
ومنهن صونى النفس عن كل جاهل * لئيم فلا أمشى الى بابه مشيا
ومنهن أخذى بالحديث اذا الورى * نسوا سنة المختار واتبعوا الرأيا
أتترك نصا للرسول وتقتدى * بشخص لقد بدلت بالرشد الغيا

وقوله

سال فى الخد للحبيب عذار * وهو لاشك سائل مرحوم
وسألت التشامه فتجنى * فأنا اليوم سائل محروم

وقوله

الفرس وقتل رستم فاتت والمقطعات السود مترهبات تطلب صلته فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد فقال أيكن خرقاء قالت ها أناذه قال أنت خرقاء قالت نعم فما تكرارك فى استفهامى ثم قالت ان الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال تنقل أهلها انتقالا وتعقبهم بعد حال حالا كنا ملوك هذا المصر يجبى لنا خراجه ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة فلما أدبر الامر وانقضى صاح بنا صائح الدهر فصدع عصانا وشتت شملنا وكذلك الدهر ياسعد انه ليس ياتى قوما بمسرة الا و يعقبهم بحسرة ثم انشات تقول

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا
اذا نحن فيهم سوقة ليس نعرف
فاف لدنيا لايدوم نعيمها
تقلب تارات بنا وتصرف

فقال سعد قاتل الله عدى ابن زيد كانه ينظر اليها حيث يقول

ان للدهر صولة فاحذرنها
لاتبيتن قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى معافى فيردى
ولقد كان آمنا مسرورا

قال فبينما هى واقفة بين يدى سعد اذ دخل عمرو بن معد يكرب وكان زوارا لابيها فى الجاهلية أمد عيا

أمدعيا علما ولست بقارئ * كتابا على شيخ به يسهل الحزن
أتزعم أن الذهن يوضح مشكلا * بلا موضح كلا لقد كذب الذهن
وان الذى تبغيه دون معلم * كموقد مصباح وليس له دهن

وقوله عداني البيتين قال وأخذ هذا المعنى من قول الطغرائي

من خص بالود الصحاب فانني * أحبو بخالص ودى الاعداء
جعلوا التنافس فى المعالى ديدنى * حتى وطئت بأخمصى الجوزاء
ونعوا الى مثالبي فحذوتها * ونفيت عن أخلاقى الاقذاء
ولربما انتفع الفتى بعدوه * كالسم أحيانا يكون دواء

ومن نظم أبى حيان

يا منضى الطرف فى ميدان لذته * وناضى الطرف بين الراح والرود
ستشرب الروح راح الوقت كارهة * ويذهب الجسم بين الترب فى الدود

وله رحمه الله تعالى قصيدة سماها بالمورد العذب فى معارضة قصيدة كعب وقصيدة فى مدح الامام الشافعى مطلعها * غذيت بعلم النحو اذ درلى ثديا * وله رحمه الله تعالى من قصيدة فى مدح أم ولده حيان

جننت بها سوداء لون وناظر * ويا طالما كان الجنون بسوداء
وجدت بها برد النعيم وان يكن * فؤادى منها فى جحيم ولأواء
وشاهدت معنى الحسن فيها مجسدا * فأعجب لمعنى صار جوهر أشياء
أطاعنة من قدها بمثقف * أصبت وما أغنى الفتى لبس حصداء
لقد طعنت والقلب ساه فما درى * أبالقد منها أم بصعدة سمراء

ثم غير البيت الاول وأنشد

جننت بها سوداء شعر وناظر * وسمراء لون تزدرى كل بيضاء

وقال يهنى قال ابن جماعة خاطبنى به ارتجالا عند ولادة ابنى عمر بعد بنتين

حبيت بريحانتى روضة * وبعدهما جاء نجل اغر
وسميته باسم امام اذا * رآه ابو مرة منه فر
ولا عجب منك عبد العزيز * اذا كان نجلك سمى عمر
تفرعتما من امام الهدى * وبدر الدجى ورئيس البشر
فلا زال يوضح سبل الهدى * ولا زلتما تقفوان الاثر

وقال

لقد زادنى بالناس علما تجاربى * ومن جرب الايام مثلى تعلما
وانى وتطلابى من الناس راحة * لكالمبتغى وسط الجحيم تنعما
سازهد حتى لا أرى لى صاحبا * وأنجد حتى لا الاقى متهما

قال ابن جماعة وقال فى املاك على بن قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى وكان جميل الصورة على أختى شقيقتى فاطمة

وسطوات نقمتك فقالت يا عمرو ان للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفضهم بعد رفعة وتفردهم بعد منعة وتذلهم بعد عز ان هذا الامر كنا ننتظره فلما حل بنا لم ننكره قال فأكرمها سعد وأحسن جائزتها فلما أرادت فراقه قالت حى أحيك بتحية ملوكنا بعضهم لبعض لا نزع الله من عبد صالح نعمة الا جعلك سببا لردها عليه ثم خرجت من عنده فلقيها نساء المدينة فقلن لها ما فعل بك الامير قالت أكرم وجهى انما يكرم الكريم الكريم (قال أبو الحسن على بن الحسين المسعودى) فهؤلاء ملوك الحيرة الى أن ظهر الاسلام فاظهره الله وأذل الكافرين فجميع من سمينا من هؤلاء الملوك من ولد عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة الابرص على حسب ما قدمنا آنفا فى صدر هذا الباب ثم جاء الاسلام وملك الفرس كسرى أبرويز بن هرمز فملك على العرب بالحيرة اياس بن قبيصة الطائى فكان ملكه تسع سنين وثمانية أشهر مضت من ملك اياس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس وقد

هنيأ بتآليف غريب نظامه * لقد حار فى أوصافه نظم عارف
غدت شمس حسن بنت بدر سيادة * ترف لبدر نجل شمس معارف
سميان للزهرا البتول وللرضا * على ونجلا الاكرمين الغطارف
فدام على عالى الجد سيدا * ولازال فى ظل من العيش وارف

وقال يخاطب شيخه ابن النحاس وقد أغب زيارته

أعين حياتى والذى ببقائه * بقائى لقد اصبحت نحوك شيقا
اقت بقلبى غير أن لمقلتى * برؤيتك الحظ الذى يذهب الشقا
وما كان ظنى أنك الدهر تاركى * ولو أننى اصبحت بين الورى لقا
لطائف معنى فى العيان ولم تكن * لتدرك الا بالتزاور واللقا

وقال يخاطب قاضى القضاة شمس الدين السروجى الحنفى وقد اعيد الى منصب القضاء وكان يتطلع اليه رجل يدعى نجم الدين

ذووا العلم فى الدنيا نجوم زواهر * وانك فيها الشمس حقا بلا لبس
اذا لحت أخفى نوركم كل نير * ألم تر أن النجم يخفى مع الشمس

وقال

لم أؤخر عمن أحب كتابى * لقلى فيه أو لترك هواه
غير أنى اذا كتبت كتابا * غاب الدمع مقلتى فمحاه

وقال

تذكرى للبلى فى قعر مظلمة * اصارنى زاهدا فى المال والرتب
أنى أسر بحال سوف أسلبها * عما قريب وأبقى رمة الترب

وقال

أتيت وما ادعى وأقبلت سامعا * فوائد مولى سيد ماجد ندب
وأحضر جمعا انت فيه جماله * أشنف سمعى منك باللؤلؤ الرطب

وقال

لنا غرام شديد فى هوى السود * نختارهن على بيض الطلا الغيد
لون به أشرقت أبصارنا وحكى * فى اللون والعرف نفح المسك والعود
لاشئ أحسن من آس تركبه * فى آبنوس ولا أشفى لمبرود
لاتهو بيضاء لون الجص واسم الى * سوداء حسناء لون الاعين السود
فى جيدها غيد فى قدها ميد * فى خدها صيد من سادة صيد
من آل حام حمت قلبى بنار جوى * من هجرها وابتلت عينى بتسهيد

وقال فى عكسه

اذا مال الفتى للسود يوما * فلا رأى لديه ولا رشاد
أتهوى خنفساء كأن زفتا * كساجلدلها وهو السواد
وما السوداء الا قدر فرن * وكانون وفحم أو مداد

كان كذلك قبل عمرو بن عدى ملوك الحيرة على حسب ماذكرنا وكان عدة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكا من بنى نصر وغيرهم من العرب والفرس وكان مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر وقد قيل ان عمران الحيرة وبدوه الى أن خربت فى وقت بناء الكوفة كان خمسمائة سنة وبضعا وثلاثين سنة (قال المسعودى) ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذى ذكرنا الى صدر من أيام المعتضد فانه استولى عليها الخراب وقد كان جماعة من خلفاء بنى العباس كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم ينزلونها ويطلبون المقام بها لطيب هوائها وصفاء جوهرها وصحة تربتها وصلابتها وقرب الخورنق والنجف منها وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان فلحقوا بغيرها من البلاد لتداعى الخراب اليها واقفرت فى هذا الوقت ليس بها الا الصدى والبوم وعند كثير من أهل الدراية بما يحدث فى المستقبل من الزمان أن سعدها سيعود بالعمران وأن هذا النحس عنها سيزول وكذلك الكوفة (قال المسعودى) ولمن سمينا من ملوك الحيرة أخبار وسير وحروب قد أتينا على ذكرها والغرر من مبسوطها فى كتابنا أخبار الزمان

وما البيضاء الا الشمس لاحت * تنير العين منها والفؤاد
سبيكة فضة حشيت بورد * يلذ السهد معها والرقاد
وبين البيض والسودان فرق * لدى عقل به اتضح المراد
وجوه المؤمنين لها ابيضاض * ووجه الكافرين به اسوداد

وقال رحمه الله تعالى

أعاذل ذرني وانفرادي عن الورى * فلست أرى فيهم صديقا مصافيا
ندامای کتب أستفيد علومها * أحباي تغني عن لقائي الاعاديا
وآنسها القرآن فهو الذي به * نجاتي اذا فكرت أو كنت تاليا
لقد جلت في غرب البلاد وشرقها * أنقب عمن كان لله داعيا
فلم أر الا طالبا لرياسة * وجماع أموال وشيخا مرائيا
قبضت يدي عنهم وآثرت عزلة * عن الناس واستغنيت بالله كافيا

قال العز بن جماعة وخاطب والدي وقد أبل من ضعف أشيع فيه موته مهنئا له

أدام الاله لك العافيه * وصير دور العدا عافيه
أذا لاح من بدركم نوره * فكل النجوم به خافيه
تخذت كلام الاله الدوا * فآياته كانت الشافيه
تشوف ناس لمنصبكم * ورتبتهم للعلا نافيه
فأين العلوم وأين الحلوم * وخلق موارده صافيه
هم عصبة لا تنال العلا * ولو أنها قد سعت حافيه
اذا كان خرق تداركته * ولست لما مزقت رافيه
فان عن خطب ثبت له * وآراؤهم عنده هافيه
سجاياك لين ورفق بنا * وأخلاقهم كلها جافيه
تصلي على سبعة منهم * وثامنهم نفسه طافيه
يقيمون في تربهم همدا * وتسفي على قبرهم سافيه
فلازلت في صحة دائما * تجر ذيول السنى ضافيه
وبو ردك الله عين الحياة * فتحيا بها مائة وافيه
فان زاد عشرا فذاك المنى * وعشرون أيضا هي الكافيه
وهذي القوافي أتت كلا * فلم تبق لي بعدها قافيه

وقال رحمه الله تعالى أيضا

خلق الانسان في كبد * بوجود الاهل والولد
كل عضو فيه نافعه * غير عضوضر للابد
منتج ذلا وفقد غنى * وفراخا جمة العدد
من يمت منهم يذقه أسى * او يعش ألقاه في نكد
عاش في أمن فتى عزب * مستريح الفكر والجسد

وفيما بعد من هذا الكتاب فاغنى ذلك عن اعادته

(ذكر ملوك الشام من اليمن من غسان وغيرها من الملوك)

كان أول من ملك الشام من اليمن فالغ بن هور ثم ملك بعده سومات وهو أيوب بن رزاح وقد ذكر الله عز وجل في كتابه ما كان من خبره على لسان نبيه وما اقتص من أمره ثم غلبت الروم على ديارها فتفرقوا في البلاد وكانت قضاعة من مالك بن حمير أول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم فملكوهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشام من العرب وكان أول من ملك من تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو ثم ملك بعده الحواري بن النعمان ولم يملك من تنوخ الا من ذكرنا وهو تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم الله بن الازد بن دبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف ابن قضاعة بن مالك بن حمير وقد تنوزع في قضاعة أمن معد كان أم من قحطان فقضاعة تأبى أن تكون من معد وتزعم أنها من قحطان على ما ذكرنا وقد قيل في نسب قضاعة واتصالها بحمير ما ذكرنا من النسب ثم وردت سليح الشام فغلبت على تنوخ وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب وقصة

وقال رحمه الله تعالى أيضا

جن غيرى بعارض فترجى * أهله أن يفيق عما قريب
وفؤادى بعارضين مصاب * فهوداء أعيا دواء الطبيب

وقال

سعت حية من شعره نحو صدغه * وما انفصلت من خده ان ذا عجب
وأعجب من ذا أن سلسال ريقه * برود ولكن شب فى قلبى اللهب

وقال

طالع تواريخ من فى الدهر قد وجدوا * تجد خطوبا تسلى عنك ما تجد
تجد أكابرهم قد جرعوا غصصا * من الرزايا بها كم فتتت كبد
عزل ونهب وضرب بالسياط وحبـ * ـس ثم قتل وتشريد لمن ولدوا
واذ وقيت بحمد الله شرتهم * فلتحمد الله فى العقبى كمن حمدوا

وقال رحمه الله تعالى يمدح البخارى وكتابه الصحيح

أسامع أخبار الرسول لك البشرى * لقد سدت فى الدنيا وقد فزت فى الاخرى
تشنف آذانا بعقد جواهر * تود الغوانى لو تقلده النحرا
جواهر كم حلت نفوسا نفيسة * فحلت بها صدرا وجلت بها قدرا
هل الدين الا ما روته أكابر * لنا نقلوا الاخبار عن طيب خبرا
وأدوا أحاديث الرسول مصونة * عن الزيف والتصحيف فاستوجبوا الشكرا
وان البخارى الامام لجامع * بجامعه منها اليواقيت والدرا
على مفرق الاسلام تاج مرصع * أضاء به شمسا ونار به بدرا
وبحر علوم يلفظ الدر لا الحصا * فأنفس بها دراوأعظم به بحرا
تصانيفه نور ونور لناظر * فقد أشرقت زهرا وقد أينعت زهرا
محاسنة المختار ينظم شتها * يلخصها جمعا ويخلصها تبرا
وكم بذل النفس المصونة جاهدا * فجازلها بحرا وجاب لها برا
فطورا عراقيا وطورا يمانيا * وطورا حجازيا وطورا أتى مصرا
الى أن حوى منها الصحيح صحيحه * فوافى كتابا قد غدا الآية الكبرى
كتاب له من شرع أحمد شرعة * مطهرة تعلو السماكين والنسرا

قلت وتتصل روايتى عن الامام أبى حيان من طرق عديدة منها عن عمى ولى الله العارف به شيخ الاسلام مفتى الانام الخطيب الامام ملحق الاحفاد بالاجداد سيدى سعيد بن أحمد المقرى التلمسانى عن شيخه العالم أبى عبد الله التنسى عن والده حافظ عصره سيدى محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسى ثم التلمسانى الاموى عن عالم الدنيا أبى عبد الله بن مرزوق عن جده الرئيس الخطيب سيدى أبى عبد الله محمد بن مرزوق عن الاثير أبى حيان بكل مروياته فمنها أن أبا حيان قال حدثنا ابن أبى الاحوص عن قاضى الجماعة أبى القاسم أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقى

عمرو بن عامر بن سبا فسارت زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ابن مازن واليه ترجع جميع قبائل غسان وانما غسان ماء شربوا منه فسموا بذلك (وفى ذلك) يقول حسان بن ثابت الانصارى

اما سألت فانا معشر نجب * الازد نسبتنا والماء غسان

وسنذكر بعد هذا الموضع خبر عمرو بن عامر مزيقيا وخبر سيل العرم وتفرقهم فى البلاد وخبر الماء المعروف بغسان وقد ذكر أن عمرو بن عامر حين خرج من مأرب لم يزل مقيما على هذا الماء الى أن أدركه الموت وكان عمره ثمانمائة سنة أربعمائة سوقة وأربعمائة ملكا وغلبت غسان على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب فكان أول من ملك من ملوك غسان بالشام الحرث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن ماس بن غسان بن الازد بن الغوث ثم ملك بعده الحرث ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو ابن عامر بن حارثة وأمه مارية ذات القرطين بنت أرقم ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو وذكرانها مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية بن ثور بن كندة

ابن

ابن مخلد بن يزيد القرطبي عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن أبيه عن ابيه عن ابيه عن ابيه الامام بقى بن مخلد عن أبى بكر المقدمى عن عمر بن على وعبد الله بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الرحمن بن رافع عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بمجلسين احدهما يدعون الله ويدعون اليه والآخر يتعلمون العلم ويعلمونه فقال كل المجلسين خير وأحدهما افضل من الآخر اما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل فهم افضل واما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون اليه ان شاء اعطاهم وان شاء منعهم وانا بعثت معلما ثم جلس معهم قال ابو حيان قلت لا اعرف حديثا اجتمعت فيه رواية الابناء عن الآباء بعدد ما اجتمع فى هذا الاما اخبرنا به ابو الحسن محمد بن الحسن بن مامة بقراءتى عليه انبانا ابو المعالى الابرموى انبانا ابو بكر بن عبد الله بن محمد بن سابور القلنسى انبانا ابو المبارك عبد العزيز ابن محمد بن منصور الشيرازى انبانا رزق الله بن عبد الوهاب التميمى قال سمعت ابى ابا الفرج عبد الوهاب يقول سمعت ابى ابا الحسن عبد العزيز يقول سمعت ابى ابا بكر الحرث يقول سمعت ابى اسدا يقول سمعت ابى الليث يقول سمعت ابى سليمان يقول سمعت ابى ابا الاسود يقول سمعت أبى سفيان يقول سمعت ابى يزيد يقول سمعت ابى اكيمة يقول سمعت ابى الهيثم يقول سمعت ابى عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما اجتمع قوم على ذكر الا حفتهم الملائكة وعمتهم الرحمة انتهى قلت قال الحافظ بن حجر فى فوائده ما اجتمع حديث فيه من عدد الآباء اكثر من هذا انتهى ورايت بخط الحفاظ على قول ابى اكيمة ما صورته صوابه اكينة انتهى فليحرر ومنها ان اباحيان قال انبانا الاستاذ ابو جعفر الزبير صاحب الصلة انبانا القاضى ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن احمد الازدى انبانا عبد الله بن محمد بن حسن بن عطية ح قال ابو حيان وانبانا الاصولى ابو الحسين بن القاضى ابى عامر بن ربيع الاشعرى عن ابى الحسن احمد بن على الغافقى قال انبانا عياض ح وكتب لنا الخطيب ابو الحجاج يوسف بن ابى ركانة عن القاضى ابى القاسم احمد بن عبد الودود بن سمعون بن عبد الله بن عطية قال هو وعياض انبانا القاضى ابو بكر بن العربى انبانا ابو محمد هبة الله الاكفانى انبانا الحافظ عبد العزيز الكتانى الدمشقى انبانا ابو عصمة نوح بن الفرغانى قال سمعت ابا المظفر عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن قث الخزرجى وابابكر محمد بن عيسى البخارى قالا سمعنا اباذر عمار بن محمد بن مخلد التميمى يقول سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد بن الفضل البخارى يقول لما عزل أبو العباس الوليد بن ابراهيم بن يزيد الهمدانى عن قضاء الرى ورد بخارى سنة ٣١٨ لتجديد مودة كانت بينه وبين أبى الفضل البلعمى فنزل فى جوارنا فحملنى معلمى أبو ابراهيم اسحق بن ابراهيم الختلى اليه فقال له أسألك أن تحدث هذا الصبى ماسمعته من مشايخك فقال مالى سماع فقال وكيف وأنت فقيه فما هذا قال لانى لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسى الى طلب الحديث ورواية الاخبار وسماعها فقصدت محمد بن اسمعيل البخارى ببخارى صاحب التاريخ والمنظور اليه فى علم الحديث وأعلمته مرادى وسألته الاقبال على ذلك فقال لى يا بنى لا تدخل فى أمر الا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره فقلت عرفنى رحمك الله

بعده النعمان بن الحرث ابن ثعلبة بن جبلة بن جفنة ابن عمرو ثم ملك بعده عوف بن أبى شمر وكان ملكه حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ملك جبلة بن الايهم بن جبلة بن الحرث بن ثعلبة ابن مازن وهو غسان بن الازد ابن غوث وهو الملك الذى امتدحه حسان بن ثابت الانصارى حيث يقول فى شعر طويل

أشهرنها فان ملكت بالشا م الى الروم فخر كل يمانى

(وفيه يقول أيضا)

لمن الدار أقفرت بمغانى بين أعلى اليرموك والصمان
من قريات من ثلاثين عدت ناسكا منه بالقصور الدوانى
قد دنا الفصح والولائد ينظمـ ـن سراعا أكلة المرجان
ذاك مغنى لآل جفنة فى الدهـ ـر وحقا تصرف الازمان
صلوات المسيح فى ذلك الدير دعاء القسيس والرهبان

وهذه مواضع وقرى من غوطة دمشق وأعمالها بين الجولان واليرموك

(وذكر) عدة من الاخبار بين أن حسان بن ثابت الانصارى زار الحرث بن أبى شمر الغسانى وكان النعمان بن المنذر

تعالى حدود ما قصدتك له ومقادير ما سألتك عنه فقال لي اعلم أن الرجل لا يصير محدّثا كاملا
في حديثه الا بعد أن يكتب أربعا مع أربع كأربع مثل اربع في اربع عند اربع باربع على اربع
عن اربع لاربع وكل هذه الرباعيات لا تتم الا باربع مع اربع فاذا تمت له كلها هان عليه
اربع وابتلى باربع فاذا صبر على ذلك اكرمه الله تعالى في الدنيا باربع واثابه في الآخرة
باربع قلت له فسر لي رحمك الله تعالى ماذكرت من احوال هذه الرباعيات من قلب صاف
بشرح كاف وبيان شاف طلبا للاجر الواف فقال نعم اما الاربع التي تحتاج الى كتبها فهي
اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وشرائعه والصحابة رضي الله تعالى عنهم ومقاديرهم
والتابعين واحوالهم وسائر العلماء وتواريخهم مع اسماء رجالهم وكناهم وامكنتهم
وازمانهم كالتحميد مع الخطب والدعاء مع التوسل والبسملة مع السورة والتكبير مع
الصلوات مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات في صغره وفي ادراكه
وفي شبابه وفي كهولته عند فراغه وعند شغله وعند فقره وعند غناه بالجبال والبحار
والبلدان والبرارى على الاحجار والاخزاف والجلود والاكتاف الى الوقت الذي
يمكنه نقلها الى الاوراق عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه وعن كتاب ابيه
يتيقن أنه بخط ابيه دون غيره لوجه الله تعالى طلبا لمرضاته والعمل بما وافق كتاب الله عز
وجل منها ونشرها بين طالبيها ومحبيها والتاليف في احياء ذكره بعده ثم لا تتم له هذه الاشياء
الا باربع هي من كسب العبد اعني معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو مع اربع هي
من اعطاء الله تعالى اعني القدرة والصحة والحرص والحفظ فاذا صحت له هذه الاشياء كلها
هان عليه اربع الاهل والولد والمال والوطن وابتلى باربع بشماتة الاعداء وملامة الاصدقاء
وطعن الجهلاء وحسد العلماء فاذا صبر على هذه المحن اكرمه الله جل وعلا في الدنيا باربع
بعز القناعة وبهيبة النفس وبلذة العلم وبحياة الابد واثابه في الآخرة باربع بالشفاعة لمن اراد
من اخوانه وبظل العرش حيث لا ظل الا ظله وبسقي من اراد من حوض نبيه صلى الله
عليه وسلم وبجوار النبيين في اعلى عليين في الجنة فقد اعلمتك يا بني بمجملات جميع ما سمعت
من مشايخي متفرقا في هذا الباب فاقبل الآن على ما قصدتني له اودع فهالني قوله فسكت
متفكرا واطرقت متأدبا فلما راى ذلك مني قال وان لم تطق حمل هذه المشاق كلها فعليك بالفقه
يمكنك تعلمه وانت في بيتك قارسا كن لا تحتاج الى بعد الاسفار ووطء الديار وركوب البحار
وهو ذا ثمرة الحديث وليس ثواب الفقيه دون ثواب المحدّث في الآخرة ولا عزه باقل من عز
المحدث فلما سمعت ذلك نقص عزمي في طلب الحديث وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه الى
أن صرت فيه متقدما ووقفت منه على معرفة ما أمكنني من علمه بتوفيق الله تعالى ومنته
فلذلك لم يكن عندي ما أمليه لهذا الصبي يا أبا ابراهيم فقال له ابو ابراهيم ان هذا الحديث الواحد
الذي لا يوجد عند غيرك خير للصبي من ألف حديث يجده عند غيرك انتهى وجاء أبو حيان
الى ابن تيمية والمجلس غاص فقال يمدحه ارتجالا

لما أتينا تقي الدين لاح لنا * داع الى الله فرد ماله وزر
على محياه من سيما الالى صحبوا * خير البرية نور دونه القمر

اللخمي يساميه فقال له وهو عنده يا ابن الفريعة لقد نبئت أمك تفضل النعمان على فقال وكيف أفضله عليك فوالله لقفاك أحسن من وجهه ولأمك أشرف من أبيه ولأبوك أشرف من جميع قومه ولشمالك أجود من يمينه ولحرمانك أنفع من نداه ولقليلك أكثر من كثيره ولثمادك أشرع من غديره ولكرسيك أرفع من سريره ولجدولك أغور من بحره وليومك أطول من شهره ولشهرك أمد من حوله ولحولك خير من حقبه ولزندك أورى من زنده ولجندك أعز من جنده وانك من غسان وانه من لخم فكيف افضله عليك واعدله بك فقال يا ابن الفريعة هذا لا يسمع الا في شعر فقال

نبئت أن ابا منذر
يساميك للحدث الاصغر
فقفاك أحسن من وجهه
وامك خير من المنذر
ويسرى يديك على عسرها
كيمنى يديه على المعسر

(وكانت ديار ملوك غسان) باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق واعمالها ومنهم من نزل الاردن من ارض الشام وجبلة بن الايهم هو الذي اسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة وخبره واضح مشهور قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا وسائر اخبار ملوك تنوخ وسليح وغيرهما من ملك

حبر

حبر تسربل منه دهره حبرا * بحر تقاذف من أمواجه الدرر
قام ابن تيمية فى نصر شرعتنا * مقام سيد تيم اذ عصت مضر
فأظهر الحق اذ آثاره درست * واخمد الشر اذ طارت له الشرر
كنا نحدث عن حبر يجىء فها * انت الامام الذى قد كان ينتظر

ثم انحرف أبو حيان فيما بعد عن ابن تمية ومات وهو على انحرافه ولذلك أسباب منها انه قال له يوما كذا قال سيبويه فقال يكذب سيبويه فانحرف عنه رحمهما الله تعالى الجميع وحضر الشيخ ابو حيان مع ابن بنت الاعز فى الروضة فكتب الى أبى حيان ووجهه مع بعض غلمانه

حييت أثير الدين شيخ الادبا * أقضى له حقا كما قد وجبا
حييت فتى بطاق آس نضر * كالقد بدا املئت منه طربا

قال فانشدته

أهدى لنا غصنا من ناضر الآس * أقضى القضاة حليف الجود والباس
لما رأى سقمى أهداه مع رشا * حلو التثنى فكان الشافى الآسى

ولما أنشد الشيخ ابو حيان قول نور الدين القصرى فى روضة مصر

ذات وجهين فيهما قسم الحسـ * ـن فأضحت بها القلوب تهيم
ذا يلى مصر فهو مصر وهذا * يتولى وسيم فهو وسيم
قد أعادت عصر التصابى صباها * وأبادت فيها الغموم الغيوم

زاد فيها بيتا وهو

فبلج البحار يسبح نون * وبفج القفار يسفع ريم

قال أبو حيان وكنت ماشيا بين القصرين مع ابن النحاس فعبر علينا صبى يدعى شهرته بجمال وكان مصارعا فقال البهاء لينظم كل منا فيه ثم قال

مصارع تصرع الآساد شهرته * تيها فكل مليح دونه سمج
لما غدا راجحا فى الحسن قلت لهم * عن حسنه حدثوا عنه ولا حرج

فنظمت أنا

سبانى جمال من مليح مصارع * عليه دليل للملاحة واضح
لئن عز منه المثل فالكل دونه * وان خف منه الخصر فالردف راجح

وسمع العزازى نظمنا فقال وأنشدنيه

هل حكم ينصفنى فى هوى * مصارع يصرع أسد الشرى
مذ فرعنى الصبر فى حبه * حكى عليه مدمعى ما جرى
أباح قتلى فى الهوى عامدا * وقال كم لى عاشق فى الورى
رميته فى أسر حبى ومن * أجفان عينيه أخذت الكرى

وقال لسان الدين فى الاحاطة كان أثير الدين أبو حيان نسيج وحده فى ثقوب الذهن وصحة الادراك والاضطلاع بعلم العربية والتفسير وطريق الرواية امام النحاة فى زمانه غير مدافع

الشام ودعا النبى صلى الله عليه وسلم الغسانى الى الاسلام ورغبه فى الايمان وقد أتينا على خبره وما كان من اسلامه واخباره مع النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابنا اخبار الزمان فيما بعد (وفى ابيه) يقول النابغة

هذا غلام حسن وجهه * مستقبل الخير سريع التمام
للحرث الاكبر والحرث الاصغر والحرث خير الانام
ثم لهند ولهند وقد * اسرع فى الخيرات منه امام
خمسة آباؤهم ماهم * أكرم من يشرب صوب الغمام

فجميع من ملك من ملوك غسان بالشام احد عشر ملكا وقد كان بالشام ملوك ببلاد مآرب من ارض البلقاء من بلاد دمشق وكذلك مدائن قوم لوط من ارض الاردن وبلاد فلسطين وكانت خمس مدن فكانت دار المملكة منها والمدينة العظمى مدينة سذوم وكانت سمة كل ملك يملكها فارعا وكذلك ذكر فى التوراة وذكر اسماء هذه المدن اعرضنا عنه اذ كان فيه خروج عن شرط الاختصار وقد كان لكندة وغيرها من العرب من قحطان ومعد ملوك كثيرة لم نتعرض لذكرها اذ كان لا أسماء لهم تعمهم وتشهرهم كقولنا الخليفة وقيصر وكسرى والنجاشى ولئلا يطول

نشأ في بلدة غرناطة مشارا اليه في التبريز بميدان الادراك وتعبير السوابق في مضمار التحصيل ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق واستقر بمصر فنال بها ماشاء من عز وشهرة وتأثل وافر وحظوة وأضحى لمن حل بساحته من المغاربة ملجأ وعدة وكان شديد البسط مهيبا جهوريا مع الدعابة والغزل وطرح التسمت شاعرا مكثرا مليح الحديث لايمل وان أطال وأسن جدا فانتفع به قال لي بعض أصحابنا دخلت عليه وهو يتوضأ وقد استقر على احدى رجليه لغسل الاخرى كما تفعل البرك والاوز فقال لي لو كنت اليوم جار شلير ماتركني لهذا العمل في هذا السن ثم قال لي بعد كلام حدثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا كالحاج أبي يزيد خالد بن عيسى والمقرى الخطيب أبي جعفر الشقورى والشريف أبي عبد الله بن راجح وشيخنا الخطيب أبي عبد الله بن مرزوق قال حدثنا شيخنا أبو حيان في الجملة سنة ٧٣٥ بالمدرسة الصالحية بين القصرين بمنزله حدثنا الاستاذ أبو جعفر بن الزبير سماعا من لفظه وكتبه من خطه بغرناطة عن الكاتب أبي اسحق بن عامر الهمذاني الطوسي بفتح الطاء حدثنا أبو عبد الله بن محمد العنسى القرطبي وهو آخر من حدث عنه أنبأنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجياني أنبأنا حكم بن محمد أنبأنا أبو بكر بن المهندس أنبأنا عبد الله بن محمد أنبأنا طالوت بن عباد بن نصال بن جعفر سمعت أبا امامة الباهلي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة اذا احدث أحدكم فلايكذب واذا ائتمن فلايخن واذا اوعد فلايخلف غضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم ثم قال ابن الخطيب ان أبا حيان حملته حدة الشبيبة على التعرض للاستاذ أبي جعفر الطباع وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة فنال منه وتصدى للتأليف في الرد عليه وتكذيب روايته فرفع أمره للسلطان فامتعض له ونفذ الامر بتنكيله فاختفى ثم أجاز البحر مختفيا ولحق بالمشرق يلتفت خلفه ثم قال وشعره كثير يتصف بالاجادة وضدها فمن مطولاته قوله

لاتعذلاه فما ذو الحب معذول * العقل مختبل والقلب متبول
هزت له أسمرا من خوط قامتها * فما انثنى الصب الا وهو مقتول
جميلة فصل الحسن البديع لها * فكم لها جمل منه وتفصيل
فالنحر مرمرة والنشر عنبرة * والثغر جوهرة والريق معسول
والطرف ذو غنج والعرف ذو أرج * والخصر مختطف والمتن مجدول
هيفاء يستن في الخصر الوشاح لها * درماء تخرس في الساق الخلاخيل
من اللواتي غذاهن النعيم فما * يشقين آباؤها الصيد البهاليل

الى أن قال وقوله

نور بخدك أم توقد نار * وضنى بجفنك أم فتور عقار
وشذا بريقك أم تأرج مسكة * وسنى بثغرك أم شعاع درارى
جمعت معاني الحسن فيك فقد غدت * قيد القلوب وفتنة الابصار
متصاون خفر اذا ناطقته * أغضى حياء في سكون وقار

الكتاب بذكرهم وقد اتينا على سائر ملوك العرب من معد وقحطان وغيرهم ممن وسم بالملك في بعض الممالك في سائر الامم الخالية والممالك الباقية من البيضان والسودان ممن أمكن ذكره وتأتي لنا الاخبار عنه وانما ذكرنا في هذا الكتاب من الملوك مااشتهر ملكه وعرفت مملكته ميلا الى الاختصار وطلبا للايجاز وتنبيها على ماسلف من أخبارهم في كتبنا المتقدم ذكرها من تصنيفنا والله الموفق

(ذكر البوادي من العرب وغيرها من الامم وعلة سكناها البدو وجمل من أخبار العرب وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى)

وقد تقدم ذكرنا لولد قحطان وأن من عداهم من العرب العاربة دثرت من عاد وطسم وجديس وعملاق وجرهم وثمود وعبيل ووبار وسائر من سميناوان من بقي ممن ذكرنا دخلوا في العرب الباقية الى هذا الوقت وهم قحطان ومعد ولا يعلم أن قبيلا بقي يشار اليه في الارض من العرب الاول غير معد وقحطان وذكرنا من طاف البلاد من التبابعة والاذواء وشيد البنيان في الشرق والغرب ومصر الامصار وبنى المدن الكبار كافريقش بن أبرهة ومابنى بالمغرب من المدن كمدينة افريقية وصقلية

في

في وجهه زهرات روض تجتلي * من نرجس مع وردة وبهار
خاف اقتطاف الورد من وجناتها * فادار من آس سياج عذار
وتسللت نمل العذار بخده * ليردن شهدة ريقه المعطار
وبخده نار تحميه وردها * فوقفن بين الورد والاصدار
كم ذا أوارى في هواه محبتي * ولقد وشى بي فيه فرط أوارى

وقال ابن رشيد حدثنا أبو حيان قال حدثنا التاجر أبو عبد الله البرجوني بمدينة عيذاب من بلاد السودان وبرجونة قرية من قرى دار الاسلام قال كنت بجامع لولم من بلاد الهند ومعنا رجل مغربي اسمه يونس فقال لي اذكر لنا شيئا فقلت له قال علي رضي الله تعالى عنه اذا وضع الاحسان في الكريم أثمر خيرا واذا وضع في اللئيم أثمر شرا كالغيث يقع في الاصداف فيثمر الدر ويقع في فم الافاعي فيثمر السم فما راعنا الا و يونس المغربي قد أنشد لنفسه

صنائع المعروف ان أودعت * عند كريم زكت النعما
وان تكن عند لئيم غدت * مكفورة موجبة اثما
كالغيث في الاصداف در وفي * فم الافاعي يثمر السما

قال أبو حيان فلما سمعت هذه الابيات نظمت معناها في بيتين وهما

اذا وضع الاحسان في الخب لم يفد * سوى كفره والحر يجزى به شكرا
كغيث سقى أفعى فجاءت بسمها * وصاحب أصداف فاثمرت الدرا

قال أبو حيان وأنشدنا الامير بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن سيف الدولة أبي المعالي بن رماح المهداني لنفسه بالقاهرة

فلا تعجب لحسن المدح مني * صفاتك أظهرت حكم البوادي
وقد تبدي لك المرآة شخصا * ويسمعك الصدى ماقد تنادي

وبعد كتبي ما نقله ابن رشيد عن أبي حيان رأيت لبعضهم أن أبا حيان هذا الذي ذكره ابن رشيد ليس هو أبو حيان النحوي الاندلسي وانما هو شخص آخر وفيه عندي نظر لايخفى والذي أعتقده ولا أرتاب فيه انه أبو حيان النحوي وقال ابن رشيد وأنشدني أبو حيان لنفسه

اذا غاب عن عيني أقول سلوته * وان لاح حال اللون فاضطرب القلب
يهيجني عيناه والمبسم الذي * به المسك منظوم به اللؤلؤ الرطب

وقال الشريف بن راجح رأيت ان ماوضعه الشيخ أبو حيان في تقديم لسان الاتراك تضييع لعمره وقلت

نفائس الاعمار أنفقتها * أنا وأمثالي على غير شي
شيوخ سوء ليس يرضى بها * ترضى به من المخازي صبي

ومن نظم أبي حيان قوله

ان علما تعبت فيه زماني * باذلا فيه طارفي وتلادي
لجدير بان يكون عزيزا * ومصونا الا على الاجواد

وبنيانه سمرقند ومن خلف هنالك من حمير بها وبين بلاد التبت والصين وقد ذكر ذلك جماعة من شعرائهم ممن سلف وخلف (وقد افتخر) دعبل بن علي الخزاعي في قصيدته التي يرد فيها على الكميت ويفخر دعبل بمن سلف من ملوكهم وسيرهم في الارض وأن لهم من الفضل ماليس لمعد بن عدنان فقال في شعره

همو كتبوا الكتاب بباب مرو * وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقندا * وهم غرسوا هناك التبتينا

(وقد كان) من بلاد اليمن ملوك لا يدعون بالتبابعة ممن تقدم وتأخر منهم حتى ينقادا الى ملكه أهل الشحر وحضرموت فحينئذ يستحق ان يسمى تبعا ومن تخلف عن ملكه ممن ذكرنا سمي ملكا ولم يطلق له اسم تبع وقد قال الله عز وجل في قصة قريش وتفاخرها بقوتها وعددها أهم خير أم قوم تبع الآية حين دخل الحرم فبعث الله عليه الظلمة وانما سمي تبعا لمن تبعه وكذلك حكى عن عبد الله بن العباس وقد كان تبع أبو كرب سار في الارض ووطئ الممالك وذللها

وقوله

وما لك والاتعاب نفسا شريفة * وتكليفها فى الدهر ما ليس يعذب
أرحها فعن قرب تلاقى حمامها * فتنعم فى دار البقا أو تعذب

واستشكل هذان البيتان بان ظاهرهما خلاف الشرع واجيب بان مراده أمر الرزق لا أمر التكليف وأفاد غير واحد ان سبب رحلة الشيخ أبى حيان عن الاندلس انه نشأ شر بينه و بين شيخه احمد بن على بن الطباع فالف أبو حيان كتابا سماه الالماع فى افساد اجازة الطباع فرفع ابن الطباع أمره للامير محمد بن نصر المدعوّ بالفقيه وكان ابو حيان كثير الاعتراض عليه أيام قراءته عليه فنشأ شر عن ذلك وذكر أبو حيان انه لم يقم بفاس الا ثلاثة أيام وادرك فيها ابا القاسم المزيانى وخرج ابو حيان من الاندلس سنة تسع وسبعين وستمائة وكان جماعة من اعلام الاندلس رحلوا منها فلما وصلوا الى العدوة اقاموا بها ولم يذهبوا الى البلاد المشرقية منهم الشيخ النحوى الناظم الناثر ابو الحسن حازم بن محمد القرطاجنى وهو القائل يمدح امير المؤمنين المستنصر بالله صاحب تونس

أمن بارق اورى بجنح الدجى سقطا * تذكرت من حل الاجارع فالسقطا
وبان ولكن لم يبن عنك ذكره * وشط ولكن طيفه عنك ما شطا
حبيب لوان البدر جاراه فى مدى * من الحسن لاستدنى مدى البدر واستبطا
اذا انتجعت مرعى خصيبا ركابه * غدا الجناعينى يشتكى الجدب والقحطا
قد اسرعت عنى المطى بشادن * تسرع فى قتل النفوس وما ابطا
ظعنت الفلا دارا بن ذى يزن بها * وخلت المحاريب الهوادج والغبطا
فكم دمية للحسن فيها وصورة * تروق وتمثال من الحسن قد خطا
حمائل لاحت كالخمائل بهجة * سقيط الحيا فيهنّ لا يسأم السقطا
توسد غزلان الاوانس والمها * به الوشى والديباج لا السدر والارطى
ولم يسب قلبى غير ابهرهاسى * واطولها جيدا وأخفقها قرطا
ايا ربة الاحداج سيرى فتعلمى * وما بك جهل أن سهمك ما اخطا
قفى تستبينى ما بعينيك من عنا * بجسمى وعنوان الهوى فيه مختطا
فلم أر أعدى منك لحظا وناظرا * لقلبى ولا اعدى عليه ولا اسطا
سقى الله عيشا قد سقانا من الهوى * كؤسا بمعسول اللمى خلطت خلطا
وكم جنة قد ردت فى ظل كافر * فلم أجزما اولاه كفرا ولا غمطا
وكم ليلة قاسيتها نابغية * الى أن بدت شيبا ذوائبها شمطا
وبت اظن الشهب مثلى لها هوى * وأغبطها فى طول الفتها غبطا
على انها مثلى لعزة مطلب * ومن ذا الذى ما شاء من دهره يعطى
كان الثريا كاعب ازمعت نوى * وامّت باقصى الغرب منزلة شحطى
كان نجوم الهقعة الزهر هودج * لها عن ذرا الحرف المناخة قد حطا
كان رشاء الدلو رشوة خاطب * لها جعل الاشراط فى مهرها شرطا

كان

ووطئ أرض العراق فى ملك الطوائف وعميد الطوائف حينئذ جوز بن سابور فلقى ابو كرب ملكا من الطوائف يقال له قتادوليس بقتاد بن فيروز من السامانية فانهزم قتاد وأتى تبع أبو كرب على ملكه وملك العراق والشام والحجاز وكثيرا من الشرق وفى ذلك يقول تبع ويذكر ماصنع

وردا لملك تبع و بنوه * ورثوهم جدودهم والجدودا
اذ جبنا جيادنا من ظفار * ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فاستبحنا بالخيل ملك قتاد * وابن أقلود قائما مصفودا
فكسونا البيت الذى حرم الله * ملاء معصبا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا * وجعلنا لبابه اقليدا
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا * وسجدنا عند المقام سجودا

(وقال أيضا فيه)

لست بالتبع اليمانى ان لم * تركض الخيل فى سواد العراق
أو تؤدى ربيعة الخراج قسرا * اوتعقنى عوائق العوّاق

(وقد كانت) لنزار بن معد معه وقائع وحروب كثيرة واجتمعت عليه معد بن ربيعة ومضر واياد وأغار وتداعت بجدها نزار وتواهبت ما كان بينها من الدماء والثار فكانت لهم غلبة فى ذلك يقول ابو دواد الايادى

كان السها قد دق من فرط شوقه * اليها كما قد دقق الكاتب النقطا
كان سهيلا اذ تناءت وأنجدت * غدا يائسا منها فأتهم وانحطا
كان خفوق القلب قلب متيم * تعدى عليه الدهر فى البين واشتطا
كان كلا النسرين قد ريع اذ رأى * هلال الدجى يهوى له مخلباسلطا
كان الذى ضم القوادم منهما * هوى واقعا للارض أو قص اوقطا
كان أخاه رام فوتا أمامه * فلم يعد أن مد الجناح وأن مطا
كان بياض الصبح معصم غادة * جنت يدها أزهار زهر الدجى لقطا
كان ضياء الشمس وجه امامنا * اذا ازداد بشرا فى الوغى واذا أعطى
محمد الهادى الذى أنطق الورى * ثناء بما أسدى اليهم وما أنطى
امام غدا شمس المعالى وبدرها * وقد أصبحت زهر النجوم له رهطا
جميل المحيا مجمل طيب ذكره * يعاطى سرورا كالحميا وستعطى
اذا ما الزمان الجهد أبدى تجهما * أرانا الحياء الطلق والخلق السبطا
كلا أبوى حفص نماه الى العلا * فاصبح عن مرقاته النجم منحطا
بسيماه تدرى أن كعبا جدوده * وان هو لم يذكر رزاحا ولا قرطا
اذا قبض الروع الوجوه فوجهه * يزيد لكون النصر نصلاله بسطا
به تترك الابطال صرعى لدى الوغى * كان قد سقوا من خمر بابل اسفنطا
تراه اذا يعطى الرغائب باسما * له جذل يربى على جذل المعطى
وكم عنق قد قلدت بنواله * فريدا وقد كانت قلادتها لطا
متى ما تقس جود الكرام بجوده * فبالبحر قايست الوقيعة والوقطا
يشف له عن كل غيب حجابه * فتحسبه دون المحجب ما لطا
تطيع الليالى أمره فى عصاته * وتردى أعاديه اساودها نشطا
وتمضى عليهم سيفه وسنانه * فتبرى الكلى طعنا وتفرى الطلى قطا
فكيف ترجت غرة منه فرقة * غدا عزها ذلا ورفعتها هبطا
وكم بالنهى والحلم غطى عليهم * الى ان جنوا ذنبا على العلم قد غطى
فأمطاهم دهم الحديد وطالما * أنالهم دهم الجياد وما امطى
ورام لهم هديا ولكنهم أبوا * بغيهم الا الضلالة والخبطا
وكان لهم يبغى المثوبة والرضا * ولكن أبوا الا العقوبة والسخطا
ولو قوبلت بالشكر منه مآرب * لما اعتاض منها أهلها الاثل والخمطا
هو الناصر المنصور والملك الذى * أعاد شباب الدهر من بعد ما اشمطا
أصاخت له الايام سمعا وطاعة * وأحكمت الدنيا له عهدها ربطا
فلابد من أن يملك الارض كلها * وان تملأ الدنيا اياته قسطا
ويغزو فى آفاق اندلس العدا * بجيش يخط الارض من قبله خطا
وكل جواد خف سنبكه فما * يمس الثرى الا مخالسة فرطا

ضربنا على تبع حربه * حبال البرود وخرج الذهب ووَلى ابو كرب هاربا *
وكان جبانا كثير الرهب
وأتبعته فهوى للجبين
وكان العزيز بها من غلب
(وقد ذكرنا) فيما بعد بدء النسب من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وولده اسمعيل وتفرق النسب الى نزار بن معد بن عدنان فلنذكر الآن فى هذا الموضع خبر ولد نزار الاربعة مع الافعى بن الافعى الجرهمى ثم نعقب ذلك بما اليه قصدنا فى هذا الباب من هذا الكتاب مع علة سكنى البوادى من العرب البدو وغيرهم ممن سكن الجبال والاودية وسائر البرارى والقفار (ذكر) عدة من أخبار بنى العرب أن نزار بن معد ولد أربعة أولاد اياد وبه كان يكنى وأنمار وبجيلة وخثعم من ولده على ما قيل اذ كان فيما ذكرنا تنازع لان من الناس من ألحقهم باليمن ومن الناس من ذكر فيهم ما وصفنا أنهم من ولد انمار بن نزار وربيعة ومضر فلما حضرت نزار الوفاة دعا بنيه ودعا بجارية له شمطاء فقال لاياد هذه الجارية وما أشبهها من مالى فلك ثم أخذ بيد مضر فادخله قبة له حمراء من أدم ثم قال هذه القبة وما أشبهها من مالى فلك ثم أخذ بيد ربيعة وقال له هذا الفرس الادهم والخباء الاسود وما أشبههما من مالى فلك ثم أخذ

بيدك دائما روقال له هذه البدرة والمجالس وما أشبهها من مالي فلك فان أشكلت عليكم هذه القسمة فأتوا

يؤم بها الاعداء ملك أمامه * من الرعب جيش يسرع السير ان ابطا
ويرمي جبال الفتح من شدا سبتة * بها فتتوافى سبقا ذلك الشطا
بحيث التقى بالخضر موسى وطارق * وموسى به رحلا للغزو العدا حطا
وسعيك ينسى ذكر سعيهما به * ويوسع سعى المشركين به حبطا
ويوقع في الاعداء أعظم وقعة * بها تملأ الاسماع طيرا لها لغطا
تجاوب سجع الطير فيه وشبهها * كما راطن الزنج النبيط أو القبطا
وتنكز فيها الجو والارض أعين * ترى الجو نارا والصعيد دما عبطا
فتخضب منهم من أشابت بخوفها * نصول ترى منها بفود الدجى وخطا
ويحسم أدواء العدا كل صارم * حسام اذا لاقى الطلى حده قطا
وكل كمي كلما خط صفحة * بسيف غدا بالرمح ينقط ما خطا
شجاع اذا التف الرماح ان مثل ما * تقلقل في أسنان مشط به مشطا
اذا ما رجت منه أعاديه غرة * رأت دون ما ترجوا القتادة والخرطا
فيجدع آناف العداة بسيفه * وينشقها بالرمح ريح الردى قسطا
يبيد الاعادي سطوة ومكيدة * فيحكي الاسود الغلب والاذؤب الملطا
سرى في طلاب المعلوات فلم يزل * يدا يدا مبسوطة وندى بسطا
ولو نازعت يمناه جذبا شماله * لبوسا من الماذي لانفق وانعطا
يصول بخطى لكل فريسة * به أثر يعزوه للحية الرقطا
فتى تبصر الآكام فرعا كواسيا * بهن وقد أبصرن عارية مرطا
اذا نسبت للخط أو لردينة * نسبن الى العليا ردينة والخطا
كماة حماة ما تزال الى الوغى * حنين لهم ما حن نضو وما أطا
عليهم نسيج السابغات كأنها * جلود عن الحيات قد كشطت كشطا
اذا لمع للشمس لاحت عليهم * رأيت صلالا ألبست حللا رقطا
ترخرح كالزاروق لينا ومثله * ترى نقطة من بعد ما طرحت خطا
جيوش اذا غطى البلاد عبابها * وأمواجها غطت نفوس العدا غطا
فكم قد حكت في حصر حصن ومعقل * وشاحا على خصر فاسعفه ضغطا
وخيل كأمثال النعام تخالها * لافراط لوك اللجم تبغي لها سرطا
تخالها فتخا اذا ارتعت وان * سبحن بماء خلتها خفة بطا
فينعق منهام طار كل عجاجة * صوارع لا يسأمن مرا ولا مرطا
وكم خالطت سمر الرماح وأوردت * مياها غدت حمر الدماء لها خلطا
يجرونها ليل السرى فاذا دعوا * نزال امتطوا منهن أفضل ما يمطى
فكم جنبوها خلف معتادة السرى * عوارف لم تسمع لها أذن نحطا
وقد وسمت أعناقهن أزمة * بطول السرى حتى تظن لها علطا
اذا أوقدت نارا بقذف الحصا حكت * وبحر الدجى طام سفينا رمت نفطا

الافعى بن الافعى الجرهمي وكان ملك نجران حتى يقسم بينكم وترضوا بقسمته فلم يلبث نزار الا قليلا حتى هلك وأشكلت القسمة على ولده فركبوا رواحلهم ثم قصدوا نحو الافعى حتى اذا كانوا منه على يوم وليلة من أرض نجران وهم في مفازة اذا هم بأثر بعير فقال اياد ان هذا البعير الذي ترون أثره أعور فقال أنمار وانه لأبتر قال ربيعة وانه لأزور قال مضر وانه لشرود فلم يلبثوا ان رفع اليهم راكب يوضع بين راحلته فلما غشيهم قال لهم هل رأيتم من بعير ضال في وجوهكم قال اياد بعيرك أعور قال فانه لأعور قال أنمار بعيرك أبتر قال فانه لأبتر قال ربيعة بعيرك أزور قال فانه لأزور قال مضر كان بعيرك شرودا قال انه لشرود ثم قال لهم فأين بعيري دلوني عليه قالوا والله ما حسسنا لك ببعير ولا رأيناه قال أنتم أصحاب بعيري وما أخطأتم من نعته شيأ قالوا ما رأينا بعيرا فتبعهم حتى قدموا نجران فلما أناخوا بباب الافعى استأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا وصاح الرجل من وراء الباب أيها الملك هؤلاء أخذوا بعيري ثم حلفوا أنهم ما رأوه فدعا به الافعى فقال ما تقول

امام

امام الهدى أعليت للدين معلما * وسمت العدا من بعد رفعتهم حطا
وألحفتهم عقم المنى عن خيالها * فما ولدت عقما ولا انتجت سقطا
وصيرتم في عقلة سارح العدا * وسرحتم الآمال من عقلها نشطا
ومن كان يشكو سطوة الدهر قد غدا * بعدلك لا يعدى عليه ولا يسطى
ففي كل حال تؤثر القسط جاريا * على سنن التقوى وتجتنب القسطا
فبوركت سبطا جده عمر الرضا * وبورك من جد غدوت له سبطا
تلوت الامام العدل يحيى فلم تزل * تزيد أمور الخلق من بعده ضبطا
فزدتم وضوحا بعده واستقامة * وتوطئة نهج السبيل الذي وطا
وما كان أبقى غاية غير أنه * حبيت بما لم يحب خلق ولم يعطا
اذا درر الاملاك في الفخر نظمت * على نسق عقدا فدولتك الوسطى

وله أيضا فيه

في كل أفق من صباح دجا كم * نور جلا خيط الظلام بخيطه
راقت محاسن مجدكم فبهرن ما * كسيت من حبر المديح وريطه

وله رحمه الله تعالى عدة تآليف وولد سنة ٦٠٨ وتوفي ليلة السبت ٢٤ رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة بتونس وممن أخذ عنه الحافظ ابن رشيد الفهري وذكره في رحلته وأثنى عليه كما أثنى عليه العبدري في رحلته فقال حازم وما أدراك ما حازم وقد عرفت به في أزهار الرياض بما يغني عن الاعادة وكان هو والحافظ أبو عبد الله بن الابار فرسي رهان غير أن ابن الابار كان أكثر منه رواية وهو الامام الحافظ الكاتب الناظم الناثر المؤلف الراوية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الاندلسي البلنسي كتب ببلنسية عن السيد أبي عبد الله ابن السيد أبي حفص ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي ثم عن ابنه السيد أبي زيد ثم كتب عن الامير أبي مردنيش ولما نازل الطاغية بلنسية بعثه الامير زيان بن مردنيش مع وفد أهل بلنسية بالبيعة للسلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص وفي ضمن ذلك استصرخه لدفع عادية العدو فأنشد السلطان قصيدته السينية التي مطلعها

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا * ان السبيل الى منجاتها درسا

وقد ذكرناها في غير هذا الموضع ثم لما كان من أمر بلنسية ما كان رجع باهله الى تونس غبطة باقبال السلطان عليه فنزل منه بخير مكان ورشحه لكتب علامته في صدور مكاتباته فكتبها مدة ثم أراد السلطان صرفها لابي العباس الغساني لكونه يحسن كتابتها فكتبها مدة بالخط المشرقي وكان آثر عند السلطان من المغربي فسخط ابن الابار انفة من ايثار غيره عليه وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بانشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه وأن يبقى موضع العلامة منه لكاتبها فجاهر بالرد ووضعها استبدادا وأنفة وعوتب على ذلك فاستشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد متمثلا

اطلب العز في لظى وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فقال أيها الملك هؤلاء ذهبوا ببعيري وهم أصحابه فقال لهم الافعى ما تقولون قالوا أينا في سفرنا هذا البلد أثر بعير فقال اياد انه لأعور قال وما يدريك أنه أعور قال رأيته مجتهدا في رعي الكلا من شق قد لحسه والشق الآخر وافر كثير الالتفاف لم يمسه فقلت انه أعور وقال أنمار رأيته يرمي ببعره مجتمعا ولو كان أهلب لمصع به فعلمت انه أبتر وقال ربيعة رأيت اثر احدى يديه ثابتا والآخر فاسدا فعلمت انه ازور وقال مضر رأيته يرعى الشقة من الارض ثم يتعداها فيمر بالكلا الملتف الغض فلا ينهش منه حتى يأتي ما هو أرق منه فيرعى فيه فعلمت انه شرود فقال الافعى صدقتم قد اصابوا اثر بعيرك وليسوا باصحابه التمس بعيرك ثم قال الأفعى للقوم من انتم فأخبروه بحالهم وانتسبوا فرحب بهم وحياهم ثم قال ما خطبكم فقصوا عليه قصة ابيهم قال الافعى وكيف تحتاجون الي وانتم على ما ارى قالوا امرنا بذلك ابونا ثم امر بهم فانزلوا وامر خادما له على دار الضيافة أن يحسن اليهم ويكرم مثواهم والطافهم بافضل ما يقدر عليه ثم امر وصيفا له من بعض خدمه فطنا أديبا فقال انظر كل كلمة تخرج من أفواههم فأتني بها فلما نزلوا بيت الضيافة أتاهم القهرمان بقرص من

فنمى ذلك الى السلطان فامر بلزومه بيته ثم استعتب السلطان بتاليف رفعه اليه عدفيه من عوتب من الكتاب وأعتبه وسماه أعتاب الكتاب واستشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له وأقال عثرته واعاده الى الكتابة ولما توفى السلطان رفعه أمير المؤمنين المستنصر الى حضور مجلسه ثم حصلت له أمور معه كان آخرها انه تقبض عليه و بعث الى داره فرفعت اليه كتبه أجمع وألفى أثناءها فيما زعموا رقعة بابيات أولها

طغى بتونس خلف * سموه ظلما خليفه

فاستشاط السلطان لها وأمر بامتحانه ثم بقتله فقتل قعصا بالرماح وسط محرم سنة ٦٥٨ ثم أحرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فاحرقت معه وكان مولده ببلنسية سنة ٥٩٥ وقال فى حقه ابن سعيد فى المغرب ما ملخصه حامل راية الاحسان المشار اليه فى هذا الاوان ومن شعره قوله يصف الياسمين

حديقة ياسمين لا * تهيم بغيرها الحدق
اذا جفن الغمام بكى * تبسم ثغرها اليقق
فاطراف الاهلة سا * ل فى أثنائها الشفق

وكتب الى الوزير أبى عبد الله بن أبى الحسين بن سعيد يستدعى منه منثورا

لك الخير أتحفنى بخيرى روضة * لانفاسه عند الهجوم هبوب
أليس أديب الروض يجعل ليله * نهارا فيذكو تحته و يطيب
ويطوى مع الاصباح منشور نشره * كما بان عن ربع المحب حبيب
أهيم به عن نسبة أدبية * ولا غرو أن يهوى الاديب أديب

وقوله فى الخسوف

نظرت الى البدر عند الخسوف * وقد شين منظره الازين
كما سفرت صفحة للعبيب * يحجبها برقع أدكن

وقوله فى المعنى

ألم تر للخسوف و كيف أبدى * ببدر التم لماع الضياء
كمرآة جلاها القين حتى * أنارت ثم ردت فى غشاء

وقوله

والثريا بجانب البدر تحكى * راحة أومأت لتلطم خدا

وقوله

من عاذرى من بابلى طرفه * ولعمره ما حل يوما بابلا
أعتده خوطا لعيشى ناعما * فيعود خطيا القتلى ذابلا

وهو حافظ متقن له فى الحديث والادب تصانيف وله كتاب فى متخير الاشعار سماه قطع الرياض وتكملة الصله لابن بشكوال وهداية المعترف فى المؤتلف والمختلف وكتاب التاريخ و بسببه قتله صاحب افريقية وأحرقت كتبه على ما بلغنا رحمه الله تعالى وله تحفة القادم فى شعر الاندلس والحلة السيراء فى أشعار الامراء ومن شعره قوله

شهدا فاكلوا وقالوا مارأينا شهدا أعذب ولا أحسن ولا أشد حلاوة منه فقال ايادصدقتم لولا أن نحله فى هامة جبار فوعاها الغلام فلما حضر غذاؤهم وجىء بالشواء فاذا بشاة مشوية فاكلوها وقالوا مارأينا شواء أجود شيأ ولا ارخص لحما ولا أسمن منه فقال انمار صدقتم لولا انه غذى بلبن كلبة ثم جاءهم بالشراب فلما شربوا قالوا مارأينا خمرا ارق ولا اعذب ولا اصفى ولا اطيب رائحة منه فقال ربيعة صدقتم لولا ان كرمها نبت على قبر ثم قالوا مارأينا منزلا اكرم قرى ولا اخصب رحلا من هذا الملك قال مضر صدقتم لولا أنه لغير أبيه فذهب الغلام الى الافعى فاخبره بما كان منهم فدخل الافعى على امه فقال اقسمت عليك الا ما اخبرتينى من أنا ومن ابى فقالت يا بنى ومادعاك الى هذا انت ابن الافعى الملك الاكبر قال حقا لتصدقينى فالح عليها قالت يا بنى ان اباك الافعى الذى تدعى له كان شيخا قد ثقل فخشيت ان يخرج هذا الملك عنا اهل البيت وقد كان قدم الينا شاب من ابناء الملوك فدعوته الى نفسى فعلقت بك منه ثم بعث الى القهرمان فقال اخبرنى عن الشهد الذى بعثت به الى هؤلاء النفر ما خطبه قال انا اخبرنا بدبر فى طنف

أمرى عجيب فى الامور * بين التوارى والظهور
مستعمل عند المغيب ومهمل عند الحضور

وسببه هذا أن ملك تونس كان اذا أشكل عليه شئ أو ورد عليه لغز أو معمى أو مترجم بعث به اليه فيحله واذا حضر عنده لا يكلمه ولا يلتفت اليه ووجد فى تعاليقه ما يشين دولة صاحب تونس فامر بضربه فضرب حتى مات وأحرقت كتبه رحمه الله تعالى وكان أعداؤه يلقبونه بالفار وحصلت بينه وبين أبى الحسن على بن شلبون المعافرى البلنسى مهاجاة فقال فيه

لا تعجبوا لمضرة نالت جميع الناس صادرة عن الابار
أوليس فارا خلقة وخليقة * والفار مجبول على الاضرار

فاجابه ابن الابار

قل لابن شلبون مقال تنزه * غيرى بجارك الهجاء يخار
انا اقتسمنا خطتينا بيننا * فحملت برة واحتملت فجار

وهذا مضمن من شعر النابغة الذبيانى انتهى ما لخصناه من كلام أبى سعيد فى حقه ومن شعر ابن الابار أيضا

لو عن لى عون من المقدار * لهجرت للدار الكريمة دارى
وحللت أطيب طيبة من طيبة * جارا لمن أوصى بحفظ الجار
حيث استبان الحق للابصار * لما استنار حفائظ الانصار
يازائرين القبر قبر محمد * بشرى لكم بالسبق فى الزوار
أوضعتم لنجاتكم فوضعتم * ما قادكم من فادح الاوزار
فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذى * حملتم شوقا الى المختار
أدوا السلام سلمتم وبرده * أرجوا الاجارة من ورود النار

اللهم أجرنا منها يا رحيم يا رحمن يا كريم ولنختم ترجمته بقوله

رجوت الله فى اللأواء لما * بلوت الناس من ساه ولاهى
فمن يك سائلا عنى فانى * غنيت بالافتقار الى الهى

وقد جودت ترجمته فى ازهار الرياض فى اخبار عياض فليراجع ذلك فيه من شاء *(رجع الى ما كنا فيه من ذكر المرتحلين من الاندلس الى المشرق)* (ومنهم الحافظ ابو المكارم جمال الدين بن مسدى وهو ابو بكر محمد ويقال ابو المكارم ابن ابى احمد يوسف بن موسى بن يوسف بن موسى بن مسدى المهلبى الازدى الاندلسى) شيخ السنة وحامل راياتها وفريد الفنون ومحكم آياتها عرف الاحاديث وميز بين شهيرتها وغرابتها وكان المتلقى لراية السنة بيمين عرابتها طلع بمغربه شمسا قبل بزوغه بافق المشرق وملأ جزيرته الخضراء من بحر علومه المتدفق وأفعمها بنوئه المشرق وطاف البلاد الاسلامية المغربية والمشرقية فعقدت على كماله الخناصر وجعله أرباب الدراية لمقلة الدين الباصر ولقى اعيان الشيوخ فى القطرين وأخذ عنهم ما تقربه العين ويدفع به عن القلب الرين مع فصاحة لسان وطلاوة بيان وبنان وخلال حسان وبلاغة سحبته على سحبان وظهر أزهار بان

فبعثت اليه من يشوره فاخبرونى انهم هجموا على عظام نخرة منكرة فى ذلك الطنف فاذا النحل قد عملت فى جمجمة من تلك العظام فاتوا بعسل لم ار مثله فقدمته الى القوم لجودته ثم بعث الى صاحب مائدته فقال ماهذه الشاة التى شويتها لهؤلاء القوم قال انى بعثت الى الراعى أن ابعث الى باحسن شئ عندك فبعث بها الى وماسألته عنها فبعثت الى الراعى أن أعلمنى خبر هذه الشاة قال انها اول ماولدت من غنمى عام اول فماتت امها فبقيت وكانت كلبة لى قد وضعت فأنست السخلة بجراء الكلبة فكانت ترضع من الكلبة مع جرائها فلم اجد فى غنمى مثلها فبعثت بها اليك ثم بعث الى صاحب الشراب فقال ماهذا الخمر الذى سقيت لهؤلاء القوم قال من حبة كرم نبتت غرستها على قبر ابيك فليس فى العرب مثل شرابها فقال الافعى ماالهؤلاء القوم ان هم الا شياطين ثم احضرهم فقال ماخطبكم قصوا على قصتكم فقال اياد ان ابى جعل لى خادمة شمطاء وما اشبهها من ماله فقال ان اباك ترك برسا فهى لك ورعلولها مع الخادم قال انمار ان ابى جعل لى بدرة ومجلسه وماشبههما من ماله قال فلك ماترك ابوك من الرقة والخرثى والارض فقال ربيعة ان ابى جعل لى فرسا ادهم وبيتا

وفوّضت اليه خطابة الحرم الشريف بمكة فكان كما يقال هذا السوار لمثل هذا المعصم فكم وشى بها من مطارف للبلاغة وكم غنم حتى يظن الرائى عود منبره من وعظه مائسا ولئن مال من سجع الحمام رطبا فقد مال من سجع هذا الامام يابسا وترجم على من لقى من الاعيان بسحر البيان وفصل أحوالهم باحسن تبيان وعدّتهم أربعة آلاف شيخ وناهيك بهذه مزية تقادلها الفضائل فى أرسان وأرى تحقيق قول القائل جمع الله تعالى العالم فى انسان وله موضوعات مفيدة من حديث وفقه ونظم ونثر وله مسند غريب جمع فيه مذاهب العلماء المتقدمين والمتاخرين وهو أشهر من نار على علم وكان يكتب بالقلمين المغربى والمشرقى وكلاهما فى غاية الجودة ومثل هذا يعدّ نادرا توفى شهيدا مطعوما من اناس كانوا يحسدونه فختم الله تعالى له بالشهادة و بوّئ بها دار السعادة وتوفى سنة ٦٦٣ بمكة ومولده سنة ٥٩٨ رحمه الله تعالى ونفعنا بامثاله *(ومنهم الكاتب أبو القاسم خلف بن عبد العزيز بن محمد بن خلف الغافقى القبتورى) بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح التاء ثالثة الحروف وسكون الواو بعدها راء الاشبيلى المولد والمنشا ولد فى شوال سنة ٦١٥ وقرأ على الاستاذ الدباج كتاب سيبويه والسبع وله باع مديد فى الترسل مع التقوى والخير وله اجازة من الرضى بن برهان والنجيب بن الصيقل وكتب لاميرسبتة وحدث بتونس عن العراقى وجاور زمانا وتوفى بالمدينة سنة ٧٠٤ وحج مرتين قال أبو حيان قدم القاهرة مرتين وحج فى الاولى وأنشد من لفظه لنفسه

أسيلى الدمع ياعينى ولكن * دما ويقل ذلك لى أسيلى
فكم فى الترب من طرف كحيل * لترب لى ومن خد أسيل

وقال

ماذا جنيت على نفسى بما كتبت * كفى فياويح نفسى من اذى كفى
ولو يشاء الذى أجرى على بذا * قضاءه الكف عنى كنت ذا كف

وقال

واحسرتا لامور ليس يبلغها * مالى وهن منى نفسى وآمالى
أصبحت كالآل لاجدوى لدى وما * الوت جهدا ولكن جدى الآلى

وقال العلامة فتح الدين بن سيد الناس انه انشده لنفسه بالحرم الشريف النبوى سنة ثلاث وسبعمائة

رجوتك يارحمن انك خيرمن * رجاه لغفران الجرائم مرتجى
فرحمتك العظمى التى ليس بابها * وحاشاك فى وجه المسىء بمرتج

وقد أنشد له أبو حيان كثيرا من نظمه رحمه الله تعالى (ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج بن أبى الخليل الاموى الاشبيلى النباتى المعروف بابن الرومية) كان عارفا بالعشب والنبات صنف كتابا حسنا كثير الفائدة فى الحشائش ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم ورحل الى البلاد ودخل حلب وسمع الحديث بالاندلس وغيرها وقال البرزالى فى حقه انه كان يعرف الحشائش معرفة جيدة وسمع الحديث بدمشق من ابن الحرستانى وابن ملاعب

الفرس فقال مضر ان ابى جعل لى قبة حمراء من ادم وما اشبهها من ماله فقال ان اباك ترك ابلا حمراء فهى لك وما اشبهها من ماله فصارت لمضر الابل والقبة الحمراء والذهب فسمى مضر الحمراء وكانوا على ذلك مع اخوانهم جرهم بمكة فاصابتهم سنة فاهلكت الشاء وعامة الابل وبقيت الخيل وكان ربيعة يغزو عليها ويصل اخوته وذهب ما كان لانمار من شاء فى تلك السنين ثم عاود الناس الخصب والغيث فرجعت الابل وثابت اليها انفسها ومشت فتناسلت وكثرت وقام مضر بامر اخوته فبينما هم كذلك وقد قدم الرعاء بابلهم فتشعبوا البلا وعشوا رعاءهم فقام مضر يوصى الرعاء وفى يد انمار عظم يتعرقه قد جاء به فى ظلمة الليل وهو لا يبصر فضرب فى عنق مضر فتاوّه مضر وصاح عينى عينى وتشاغل به اخوته فركب انمار بعد ان اكرم ابله فلحق بديار اليمن وكان فى عقبه ما ذكرنا من التنازع فهؤلاء ولد نزار الاربعة اليهم يرجع سائر ولد نزار على حسب ما قدمنا فمضر الحمراء لما ذكرنا من امر القبة وكذلك تفتخر مضر فى كلامها المنثور

وابن العطار وغيرهم وقال بعضهم اجتمعت به وتفاوضت معه في ذكر الحشائش فقلت له قصب الذريرة قد ذكر في كتب الطب وذكروا انه يستعمل منه شئ كثير وهذا يدل على انه كان موجودا كثيرا واما الآن فلا يوجد ولا يخبر عنه بخبر فقال هو موجود وانما لا يعلمون أين يطلبونه فقلت له واين هو فقال بالاهواز منه شئ كثير انتهى واجاز البحر بعد سنة ٥٨٠ للقاء ابن عبيد الله بسبتة فلم يتهيا له ذلك وحج رحمه الله تعالى في رحلته الاولى ولقي كثيرا وروى عن عدد من الرجال والنساء ضمنهم التذكرة له وله مختصر كتاب الكامل لاحمد بن عدي في رجال الحديث وله كتاب المعلم بما زاده البخاري على كتاب مسلم ويعرف بالنباتي لمعرفته بالنبات ومولده في نحو سنة ٥٦١ وتوفي رحمه الله تعالى باشبيلية منسلخ ربيع الثاني سنة ٦٣٧ وقد رثاه اناس من تلامذته وألف بعضهم في التعريف به وسمع من ابن زرقون وابن الجد وابن عفير وغير واحد كأبي ذر الحشني وسمع ببغداد من جماعة وحدث بمصر أحاديث من حفظه ويقال له الحزمي بفتح الحاء نسبة الى مذهب ابن حزم لانه كان ظاهري المذهب وكان زاهدا صالحا وحكى بعضهم عنه انه كان جالسا في دكانه باشبيلية يبيع الحشائش وينسخ فاجتاز به الامير أبو عبد الله بن هود سلطان الاندلس فسلم عليه فرد عليه السلام واشتغل بنسخه ولم يرفع اليه رأسه فبقي واقفا منتظرا أن يرفع اليه رأسه ساعة طويلة فلما لم يحفل به ساق فرسه ومضى وله كتابان حسنان في علم الحديث أحدهما يقال له الحافل في تكملة الكامل لابن عدي وهو كتاب كبير قال ابن الابار سمعت شيخنا أبا الخطاب بن واجب يثني عليه ويستحسنه والثاني اختصر فيه الكامل لابي أحمد بن عدي كما سبق في مجلدين وسمع بدمشق والموصل وغيرهما جماعة من اصحاب الحافظ أبي الوقت السجزي وابي الفتح بن البطي وأبي عبد الله الغراوي وغيرهم من الائمة وله فهرسة حافلة أفرد فيها روايته بالاندلس من روايته بالمشرق وكان متعصبا لابن حزم بعد أن تفقه في المذهب المالكي على ابن زرقون أبي الحسين وطالت صحبته له وكان بصيرا بالحديث ورجاله كثير العناية به واختصر كتاب الدارقطني في غريب حديث مالك وغيره أضبط منه وفاق أهل زمانه في معرفة النبات وقعد في دكان لبيعه قال ابن الابار وهنالك رأيته ولقيته غير مرة ولم آخذ عنه ولم أستجزه وسمع منه جل أصحابنا ومولده في شهر المحرم سنة ٥٦٧ وتوفي باشبيلية ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر سنة ٦٣٨ وقال ابن زرقون منسلخ شهر ربيع الاول وحكى ذلك عن والده أبي النور محمد بن أحمد انتهى * (ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الاشبيلي الشهير بالمسيلي) رحل حاجا وقفل الى بلده وحدث عنه أبو بكر بن خير بوفاة القاضي ابن أبي حبيب وروى عن أبي محمد بن أبي السعادات المروزي الخراساني وأنه أنشده بثغر الاسكندرية عند وداعه اياه قال أنشدني أبو تراب جندل عند الوداع لبعضهم

السم من ألسن الافاعي * أعذب من قبلة الوداع
ودعتهم والدموع تجري * لما دعا للوداع داعي

* (ومنهم أبو العباس ويقال أبو جعفر أحمد بن معد بن عيسى بن وكيل التجيبي الزاهد ويعرف

والنجدة والعز وشن الغارات لما ذكرنا من أمر الفرس واياد وقد ذكرنا ما لحق عقبه وأغار وقد بينا الخلاف في تفرع نسله وما قاله النسابون في عقبه (ولكل واحد) من هؤلاء وما أعقب أخبار كثيرة يطول ذكرها ويتسع شرحها من ذكر ما حلوا به من الديار وتشعب أنسابها وتسلسلها فاتى الناس على ذكرها وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا اليسير من مبسوطها فمنعنا ذلك من اعادته في هذا الكتاب (فلنذكر) الآن الغرض من هذا الباب الذي به ترجموا اليه نسب من سكنى من حل البدو من العرب وغيرها من الامم المتوحشة كالترك والكرد والبجه والبربر ومن تقطن بالبراري وقطن الجبال والعلة الموجبة لذلك من فعلهم * تباين الناس في السبب الموجب لما وصفنا فذهب كثير من الناس الى أن الجيل الاول ممن سكن الارض سكنوا حينا من الزمان لم يبنوا بناء ولا شيدوا امدنا وكان سكناهم في شبه الاكواخ والمظال ثم ان نفرا منهم أخذوا في ابتناء المساكن

وخلف بعدهم خلف فابتنوا الابنية وثبتت فرقة منهم على سجيتها الاولى في البيوت والاظلال

يتبعون الاماكن الرفهة الخصبة ويتنقلون عنها اذا أجدبت فخضت هذه الطائفة على نهج الاقدمين

بابن الاقليشي) صاحب كتاب النجم من كلام سيد العرب والعجم صلى الله عليه وسلم عارض به كتاب القضاعي وأصل ابيه من اقليش وضبطها بعضهم بضم الهمزة وسكن دانية وبها ولد ونشأ سمع أباه وابا بكر وابا العباس بن عيسى وتلمذله ورحل الى بلنسية فاخذ العربية والآداب عن ابي محمد البطليوسي وسمع الحديث من صهره ابي الحسن طارق بن يعيش والحافظ ابي بكر بن العربي وابي الوليد بن خيرة وابن الدباغ ولقي بالمرية اباالقاسم بن ورد وابا محمد عبد الحق بن عطية وولي الله سيدي اباالعباس بن العريف ورحل الى المشرق سنة اثنتين وار بعين وخمسمائة وجاور بمكة سنين وسمع من ابي الفتح الكروخي جامع الترمذي برباط ام الخليفة العباسي سنة سبع وار بعين ثم كر راجعا الى الغرب فقبض في طريقه وحدث بالاندلس والمشرق وكان عالما عاملا متصوفا شاعرا مجوّدا مع التقدم في الصلاح والزهد والعزوف عن الدنيا واهلها والاقبال على العلم والعبادة وله تصانيف منها كتاب الغرر من كلام سيد البشر وكتاب ضياء الاولياء وهوا سفار عدة وحمل الناس عنه معشراته في الزهد وكتبها الناس وكان يضع يده على وجهه اذا قرأ القارئ فيبكي حتى يعجب الناس من بكائه وكان الناس يدخلون عليه بيته والكتب عن يمينه وشماله وقد وصف غير واحد امامته وعلمه وورعه وزهده وروى عنه ابو الحسن بن كوثر وابن بيش وغيرهما ومن شعره قوله

اسير الخطايا عند بابك واقف * له عن طريق الحق قلب مخالف
قديما عصى عمدا وجهلا وغرّة * ولم ينهه قلب من الله خائف
تزيد سنوه وهو يزداد ضلة * فهاهو في ليل الضلالة عاكف
تطلع صبح الشيب والقلب مظلم * فماطاف منه من سنى الحق طائف
ثلاثون عاما قد تولت كانها * حلوم تقضت او بروق خواطف
وجاء المشيب المنذر المرء أنه * اذا رحلت عنه الشبيبة تالف
فيا أحمد الخوّان قد أدبر الصبا * وناداك من سن الكهولة هاتف
فهل أرق الطرف الزمان الذي مضى * وأبكاه ذنب قد تقدم سالف
فجد بالدموع الحمر حزنا وحسرة * فدمعك ينبي أن قلبك آسف

وقد وافق في أول هذه القطعة قول أبي الوليد بن الفرضي او أخذه منه نقلا وتوفي في صدوره عن المشرق بمدينة قوص من صعيد مصر في عشر الخمسين وخمسمائة ودفن عند الجميزة التي في المقبرة التالية لسوق العرب وقال ابن عبادانه توفي سنة خمسين أو احدى وخمسين بعدها رحمه الله تعالى وقد نيف عن الستين * (ومنهم أبو العباس أحمد بن عمر المعافري المرسي) وأصله من طلبيرة ويعرف بابن افرند روى عن أبي الحسين الصدفي وغيره كالقاضي الحافظ أبي بكر بن العربي وأبي محمد الرشاطي وأبي اسحق بن حبيش وغيرهم وله رحلة حج فيها ولقي أبا الفتح بن الرندانقاني بلد بين سرخس ومرو من أصحاب أبي حامد الغزالي وأنشد عنه مما قاله في وداع اخوانه بالبيت المقدس

لئن كان لي من بعد عود اليكم * قضيت لبانات الفؤاد لديكم

(وذكرت) طائفة ان أول ذلك أن الناس لما نضب عنهم الطوفان الذي أهلك الله به الارض من زمن نوح على نبينا وعليه السلام تفرق من نجا في طلب البقاع الخصبة المتغيرة وانفرد من انفرد بانتجاع الارضين وحلول البيداء وآخرون بقاعا تخيروها لكن ابتنى اقليم بابل من النبط ومن سلم من ولد حام بن نوح عليه السلام مع نمروذ بن كنعان ابن سنجارب بن نمروذ الاول ابن كوش بن سام بن نوح وذلك حين تملك على اقليم بابل من قبل الضحاك وهو بيوراسب وكن حل بلاد مصر من ولد حام على حسب ما ذكرنا في باب مصر وأخبارها في هذا الكتاب وكن عمر الشأم من الكنعانيين وكن حل بوادي البربر وهم هوارة وزناتة وضريسة ومغيلة وورفجومة ونفزة وكتامة ولواتة ومراتة وزواوة ونفوسه ولمطه وصدينة ومصمودة وغمارة وقالطه ووراته واسمه وبنو اسحين وازلته وهي ومورمانه وبنو وكلان وبنو نصران وبنو دووعس وبنو ومنهم وسا وصنهاجة ومن سكن من أنواع الاجناس من الاحابش وغيرهم الغابة المعروفة بغابة المبرابر يقسون وان

وان تكن الاخرى ولم تك أوبة ❊ وحان حمامى فالسلام عليكم

وقدروى هذين البيتين أبو عمر بن عياد وابنه محمد عن ابن اغرندهذا وكان صالحا زاهدا متصوّفا رحمه الله تعالى (ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن عميرة بن يحيى الضبى) من أهل لورقة رحل حاجا وكان منقبضا زاهدا صوّاما قوّاما واقرأ القرآن وأسمع الحديث وممن حدّث عنه الحافظان أبو سليمان وابو محمد بن حوط الله ولقيه أبو سليمان بلورقة سنة ٥٧٥ وتوفى رحمه الله تعالى سنة ٥٧٧ وقد قارب المائة ❊ (ومنهم أبو عمر بن عات وهو أحمد بن هرون بن أحمد بن جعفر بن عات النفرى) من أهل شاطبة سمع أباه وأبا الحسن بن هذيل وأبا عبد الله بن سعادة وابن حبيش وغير واحد وطائفة كثيرة ورحل الى المشرق فادى الفريضة وسمع أبا الطاهر السلفى وأبا الطاهر بن عوف وغيرهما ممن يطول ذكره وأجازله ابو الفرج بن الجوزى وغيره ممن أخذ عنه وسمع منه وقد ضمن ذكر أشياخه وجملة صالحة من مروياته عنهم برنامجيه اللذين سمى أحدهما بالنزهة فى التعريف بشيوخ الوجهة وهو كتاب حافل جامع والآخر بريحانة النفس وراحة الانفس فى ذكر شيوخ الاندلس قال ابن عبد الملك المراكشى فى الصلة حدّثنا عنه شيخنا أبو محمد حسن بن على بن القطان وكان من أكابر المحدثين وجلة الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة يسرد الاسانيد والمتون ظاهرا فلا يخل بحفظ شئ منها متوسط الطبقة فى حفظ فروع الفقه ومعرفة المسائل اذلم يعن بذلك عنايته بغيره فكان اهل شاطبة يفاخرون بابوى عمر بن عبد البر وابن عات وكان على سنن السلف الصالح فى الانقباض ونزارة الكلام ومتانة الدين واكل الخشن ولزوم التقشف والتقلل من الدنيا والزهد فيها والمثابرة على كثير من افعال البر كالاذان والامامة وبذل المعروف والتوسع بالصدقات على الضعفاء والمساكين وحكى انه حضر فى جماعة من طلبة العلم لسماع السير على بعض شيوخهم فغاب الكتاب او القارئ بكتابه فقال ابو عمر انا اقرأ لكم فقرأ لهم من حفظه وقال ابو عمر عامر بن نذير لازمته مدة ستة اشهر فلم ارا حفظ منه وحضرت اسماع الموطا وصحيح البخارى منه فكان يقرأ من كل واحد من الكتابين نحو عشر اوراق عرضا بلفظه كل يوم عقب صلاة الصبح لا يتوقف فى شئ من ذلك انتهى وقال بعض المؤرخين انه كان آخر الحفاظ للحديث يسرد المتون والاسانيد ظاهرا لا يخل بحفظ شئ منها موصوفا بالدراية والرواية غالبا عليه الورع والزهد على منهاج السلف يلبس الخشن ويأكل الخشف ور بما اذن فى المساجد وله تآليف دالة على سعة حفظه مع حظ من النظم والنثر وشهد وقعة العقاب التى افضت الى خراب الاندلس بالدائرة على المسلمين فيها وكانت السبب الاقوى فى تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حيا ولا ميتا وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة ومولده سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة قال ابن الابار وهو ممن أجازله المذكور فيما رواه أوألفه رحمه الله تعالى ❊ (ومنهم أبو العباس أحمد بن تميم بن هشام بن أحمد بن جنون البهرانى) من ساكنى اشبيلية وأصله من لبلة روى عن أبيه وابن الجد وابن زرقون وابن جهور وغيرهم من أعلام الاندلس ثم رحل الى المشرق فسمع ببغداد من أبى حفص عمر بن طبرزذ وبخراسان من المؤيد الطوسى وبهراة من أبى روح عبد المعز

ورعوين والعروبة وسنسون ومنهم من سكن غير الغابة واتسع فى هذه البلاد من المغرب (وقد ذكرنا) ان أرض البربر خاصة كانت أرض فلسطين من بلاد الشأم وأن ملكهم كان جالوت وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم الى أن قتل دواد عليه الصلاة والسلام ملكهم جالوت فلم يتملك عليهم بعده ملك وأنهم انتهوا الى ديار المغرب الى موضع يعرف بلونيه فانتشروا هنالك فنزل منهم زناتة ومعوله وضريسه الجبال من تلك الديار وبطن الاودية ونزلوا أرض برقة ونزلت هوارة بلاد اياس وهى بلاد طرابلس المغرب الى الثلاث المدن وقد كانت هذه الديار للافرنجة والروم فانجلوا عن البربر حين أوطنوا أرضهم الى جزائر البحر الرومى فسكن الاكثر منهم جزيرة صقلية وتفرقت البربر ببلاد افريقية واقاصى ديار المغرب فى نحو من مسافة الفى ميل من بلاد القيروان وتراجعت الروم والافرنجة الى مدنهم وذلك على موادعة وصلح من البربر واختارت البربر سكنى الجبال والاودية والرمال والدهاس واطراف البرارى والقفار (ومن بحر أفريقية) وصقليه يخرج المرجان وهو المتصل ببحر الظلمات المعروف ببحر اقيانس وغير

وبمرو من عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعانى ومن جماعة غير هؤلاء وسمع أيضا بدمشق من ابى الفضل الخرستانى وسواه وبها توفى قبل العشرين وستمائة فيما نقل ابن الابار عن ابن نقطة وقال غيره انه مات سنة خمس وعشرين وستمائة *(ومنهم أبو جعفر أحمد بن ابراهيم ابن محمد بن أحمد المخزومى) من أهل قرطبة ويعرف أبوه بكوزان روى عن أبيه وغيره من مشيخة بلده ورحل حاجا فلقى بالاسكندرية أبا الحسن بن المقدسى وسمع منه وأنشد من لفظه بعض أصحاب الآثار قال أنشدنى شرف الدين أبو الحسن على بن الفضل المقدسى قال انشدتنى تقية بنت غيث بن على الارمنازى لنفسها

لا خير فى الخمر على انها * مذكورة فى صفة الجنه
لانها ان خامرت عاقلا * خامر فى عقله جنه
يخاف أن تقذفه من علا * فلا تقى مهجته جنه

*(ومنهم أبو جعفر احمد بن محمد بن احمد بن عياش الكنانى المرسى) سمع من ابن بشكوال موطأ مالك رواية يحيى بن يحيى والقعنبى وابن بكير بقراءة محمد بن حوط الله ورحل الى المشرق سنة تسع وسبعين وخمسمائة فحج سنة ثمانين بعدها وأقام بالحجاز والشام مدة ولقى أبا الطاهر الخشوعى بدمشق فسمع منه مقامات الحريرى وأخذها الناس عنه ومما أفاد وزاد فى قول الحريرى * اذا ما حويت جنى نخلة * الابيات قوله

ولا تأسفن على خارج * اذا ما نحت سنى الداخل
ولا تكثر الصمت فى معشر * وان زدت عيا على باقل

وسمع من أبى القاسم بن عساكر السنن للبيهقى ومن ابى حفص الميانشى جامع الترمذى وقفل الى الاندلس فى سنة سبع وتسعين وحدث بيسير وكان يحسن عبارة الرؤيا وكف بصره سنة ثمان وعشرين وستمائة أو نحوها وتوفى على اثر ذلك ومولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى *(ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن حصن بن أحمد بن حزم الغافقى) ويقال فيه ابراهيم بن حصن بن عبد الله بن حصن اندلسى سكن دمشق وولى الحسبة بها ويكنى أبا اسحق سمع ببغداد من ابى بكر بن مالك القطيعى وطبقته وبدمشق من عبد الوهاب الكلابى ويوسف بن القاسم الميانجى وبمصر من أبى طاهر الذهلى وأبى أحمد الغطريفى وله أيضا سماع بالرملة واطرابلس والدينور وغيرها من البلدان وحدث بيسير روى عنه أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الوهاب بن عبد الله الجبانى من شيوخ عبد العزيز بن أحمد الكتانى وكان مالكيا وقيل انه يذهب الى الاعتزال وكان صارما فى الحسبة ووليها سنة خمس وتسعين وثلثمائة فى أيام الحاكم العبيدى وتوفى بدمشق فى ذى الحجة سنة أربع وأربعمائة قيل ثانى عيد الاضحى وقيل غير ذلك ذكره ابن عساكر رحمه الله تعالى قلت ما سمعت بمالكى معتزلى غير هذا ولعله كان مالكيا بالمغرب فلما دخل فى خدمة الشيعة حصل منه ما حصل من نسبته لمذهب الاعتزال فالله تعالى أعلم *(ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن أحمد الغافقى) من أهل المرية ونزل مرسية سمع ببلده من ابن شفيع وأخذ عنه القرا آت ومن الحافظ ابن سكرة وابن رغيبة وعبد القادر بن الحناط وبقرطبة من ابن عتاب

وابن

بقاعها على الايام اشبه بالعز واليق بذى الانفة وقالوا الآن نكون محكمين فى الارض نسكن حيث نشاء اصلح من غير ذلك فاختاروا سكنى البدو من اجل ذلك (وذكر آخرون) ان القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الاخطار ونيل الهمم والاقدار وشدة الانفة والحمية من العرة والهرب من العار بدأت التفكر فى المنازل والتقدير للمواطن فتاملوا شان المدن والابنية فوجدوا فيها معرة ونقصا وقال ذو المعرفة والتمييز ان الارضين تمرض كما تمرض الاجسام وتلحقها الآفات والواجب تخير المواضع بحسب احوالها من الصلاح اذ الهواء بما قوى فاضر باجسام سكانه واحال امزجة قطانه وقال ذو الآراء منهم ان الابنية والتحويط حصر عن التصرف فى الارض ومقطعة عن الجولان وتقييد للهمم وحبس لما فى الغرائز من المسابقة الى الشرف ولا خير فى اللبث على هذه الحالة وزعموا ايضا ان الابنية والاظلال تحصر الغذاء وتمنع اتساع الهواء وتسد سروحه عن المرور وقذاه عن السلوك فسكنوا البر الافيح الذى لا يخافون فيه من حصر ومنازلة

وابن طريف وأبى بحر الاسدى وأبى مغيث وغيرهم ورحل حاجا فسمع بمكة من أبى على بن العرجاء أحاديث جعفر بن نسطور وغيرها فى شعبان سنة ست وعشرين وسمع أيضا من أبى الفتح سلطان بن ابراهيم المقدسى وقفل الى بلده وانتقل بعد الحادثة عليه الى مرسية وولى القضاء والخطبة هنالك وحدث وأخذ عنه وكان فقيها مشاورا وقيل ان ابن حبيش سمع منه الاحاديث النسطورية وأسمع صحيح البخارى آخر الحجة سنة خمس وخمسين وخمسمائة وكان يحدث به عن سلطان بن ابراهيم عن كريمة المروزية وحكى رحمه الله تعالى عن أبى ذر الهروى أنه قال عند موته عليكم بكريمة فانها تحمل كتاب البخارى من طريق أبى الهيثم رحم الله تعالى الجميع *(ومنهم أبو القاسم بن فورتش وهو اسمعيل بن يحيى بن عبد الرحمن السرقسطى) وأخوه القاضى محمد بن يحيى وكانا جميعا زاهدين لهما رحلة سمعا فيها من ابى ذر الهروى بمكة وعادا الى بلدهما وولى محمد منهما القضاء وقد لقيهما القاضى الحافظ أبو على بن سكرة ولم يسمع منهما ويرويان عن أبى عمر الطلمنكى وأبى الحزم بن درهم وتوفى أبو القاسم فى نحو الخمسمائة *(ومنهم أبو الطاهر اسمعيل بن أحمد بن عمر القرشى العلوى الاشبيلى) رحل حاجا ودخل العراق والموصل وقيد الكثير ورواه وسمع من أبى حفص الميانشى بمكة سنة ٥٧٠ وحدث بالموطا عن ابى الحسن على بن هابيل الانصارى عن ابى الوليد الباجى وحدث أيضا عن غيره بما دل على انه كان يخلط ولا يضبط وكذلك قال أبو الصبر كان له فى الموطا اسناد عال جدا فتصفحته فوجدته ينقص منه رجل واحد فاستربت فى الرواية عنه بعد تحسين الظن به ولم يتنبه أبو الصبر لان ابن هابيل وغيره من شيوخه مجهولون وأبو الصبر ممن روى عن المذكور وهو ابو الصبر السبتى والله تعالى أعلم بحقيقة حال الرجل *(ومنهم أبو الروح عيسى بن عبد الله بن محمد بن موسى بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن خليل النفرى الحميرى التاكرنى) قال فى تاريخ اربل كان شابا متادبا فاضلا قدم مصر وله شعر حسن وقال الحافظ عبد العظيم المنذرى انشدنا المذكور لنفسه

يا قلب مالك لا تفيق من الهوى * أو ما يقر بك الزمان قرار
ألكل ذى وجه جميل صبوة * ولكل عهد سالف تذكار

وله

يا رب اضحية سوداء حالكة * لم ترع فى البيد الا الشمس والقمرا
تخال باطنها فى اللون ظاهرها * فهى الغداة كزنجى اذا كفرا

ولد سنة ٥٩٠ بتاكرنا من بلاد الاندلس وهى من قطر قرطبة وتوفى بأرزن من ديار بكر سنة ٦٢٩ عائدا من آمد رحمه الله تعالى ومن بديع شعره

ان أودع الطرس ما وشاه خاطره * أبدى لعينيك أزهارا وأشجارا
وان تهدد فيه او يعد كرما * بث البرية آجالا واعمارا

وتاكرنا بضم الكاف والراء وتخفيفها وشد النون وورد المذكور اربل سنة سبع وعشرين وستمائة وله ابيات اجاز فيها ابيات شرف الدين عمر بن الفارض فى غلام اسمه بركات قال الاسدى الدمشقى ومن خطه نقلت كنت حاضرا هذه الواقعة بالقاهرة بالجامع الازهر اذ قال

ضر هذا مع ارتفاع الاقذاء وسماحة الاهواء واعتزال الوباء ومع تهذيب الاحلام فى هذه المواطن ونقاء القرائح فى التنقل فى المساكن مع صحة الامزجة وقوة الفطنة وصفاء الالوان وصيانة الاجسام فان العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء وطبع الهواء الفضاء وفى هذا الامن من العاهات والاسقام والعلل والآلام فآثرت العرب سكنى البوادى والحلول فى البيداء فهم اقوى الناس همما وأشدهم أحلاما وأصحهم أجساما واعزهم جارا واحماهم ذمارا وافضلهم جوارا وأجودهم فطنا لما اكسبهم اياه صفاء الجو ونقاء الفضاء لان الابدان تحتوى اجزاؤها على متكاثف الاكدار وعناء الاقذار بما يرتفع اليه ويتلاطم فى عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه ففى اكنافه جميع ما يتصعد اليه ولذلك تراكمت الاقذاء والادواء والعاهات فى أهل المدن وتركبت فى أجسامهم وتضاعفت فى أشعارهم وابشارهم ففضلت العرب على سائر ما عداها من بوادى الامم المعترضة لما ذكرنا من تخيرها الاماكن وارتياد الموطن (قال المسعودى) ولذلك جانبوا فظاظة الاكراد وسكان الجبال من الاجيال الجافية وغيرهم الذين مساكنهم

ابن الفارض

بركانت يحكى البدر عند تمامه * حاشاه بل شمس الضحى تحكيه

فقال أبو الروح وانشدني ذلك

هذا الكمال فقل لمن قد عابه * حسدا وآية كل شئ فيه
لم تذو احدى زهرتيه وانما * كملت بذاك ملاحة التشبيه
وكأنه رام بغلق جفنه * ليصيب بالسهم الذى يرميه

وقال ابن المستوفى فى تاريخ اربل انشدنى ابو الروح

اوصيت قلبي ان يفر عن الصبا * ظنا بأنى قد دعوت سميعا
فاجابنى لاتخش منى بعدما * افلت من شرك الغرام وقوعا
حتى اذا نادى الحبيب رايته * آوى اليه ملبيا ومطيعا
كذبالة اخمدتها فاذا دنا * منها الضرام تعلقته سريعا

قال وانشدنى

وزائر زارنى والليل معتكر * والطيب يفضحه والحلى يشهره
أمسكت قلبى عنه وهو مطرب * والشوق يبعثه والصون يزجره
فبت اصدى الى من لايحللنى * والورد صاف ولاشئ يكدره
تراه عينى وكفى لاتلامسه * حتى كانى فى المرآة انظره

قال وانشدنى قال انشدنى الامام ابو عمرو بن غياث الشريشى لنفسه رحمه الله تعالى

صبوت وهل عار على الحب ان صبا * وقيد ثغر الاربعين الى الصبا
وقالوا امشيب قلت واعجبا لكم * أينكر صبح قد تخلل غيهبا
وليس مشيبا ماترون وانما * كميت الصبا المجرى عاد أشهبا

وتوفى أبو عمرو سنة ٦٢٠ عن تسعين سنة قال ابن المستوفى وأنشدنى المذكور قال انشدنى أبو عمرو أيضا لنفسه

أودع فؤادى حسرة أودع * نفسك تؤذى أنت فى اضلعى
أمسك سهام اللحظ أو فارمها * أنت بما ترمى مصاب معى
موقعها القلب وأنت الذى * مسكنه فى ذلك الموضع

قال وانشدنى قال انشدنى مطرف الغرناطى

أناصب كما تشاء وتهوى * شاعر ماجد كريم جواد
سنة سنها قديما جميل * وأتى المحدثون مثلى فزادوا

قال وأنشدنى أيضا المطرف

وفى فروع الايك ورق اذا * بل الندى أعطافها تسجع
أوهزها نفح نسيم الصبا * شاقك منها غرد شرع
كأنما يطتها منبر * وهى خطيب فوقه مصقع
ان شبها فى طرف لوعة * جرى لها فى طرف مدمع

تحزون الارض ودهاسها فى انخفاضها وارتفاعها لعدم استقامة الاعتدال فى أرضها فلذلك أخلاق قطانها على ماهى عليه من الغلظ (وذكر) الهيثم بن عدى والشرقى القطامى وغيرهما من الاخباريين انه وفد على كسرى أنوشروان بعض خطباء العرب فساله كسرى عن شان العرب وسكناها واختيارها البدو فقال أيها الملك ملكوا الارض ولم تملكهم وامنوا من التحصين بالاسوار واعتمدوا على المرهفات الباترة والرماح الساهرة حصاوحصنا فان ملك قطعة من الارض فكانها كلها له يردون منها خيارها ويقصدون الطافها قال فاين حظوظهم من الفلك قال من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدى مشرقين على الارض بحسب ذلك قال فما رياحها قال أكثرها النكباء بالليل والصبا عند انقلاب الشمس قال فكم الرياح قال أربع فاذا انحرفت واحدة منهن قيل نكباء وما بين سهيل الى طرف بياض الفجر جنوب وما بازائهما مما يستقبلهما من المغرب شمال وما جاء من وراء الكعبة فهى دبور وما جاء من قبل ذلك فهى صبا قال فما أكثر

أخذه من قول عبد الوهاب بن على المالقى الخطيب

كان فؤادى وطرفى معا * هما طرفا غصن أخضر
اذا اشتعل النار فى جانب * جرى الماء فى الجانب الآخر

تم طبع الجزء الاول بعون من عليه الاعتماد والمعوّل من
كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

(ويليه الجزء الثانى أوّله ومن المرتحلين من الاندلس الى المشرق
الامام النحوى اللغوى نور الدين أبو الحسن)

غذائهم قال اللحم واللبن والنبيذ والتمر قال فما خلائقهم قال العز والشرف والمكارم وقرى الضيف واذمار الجار واجارة الخائف واداء الحمالات وبذل المهج فى المكرمات وهم سراة الليل وليوث القيل وعمار البر وانس القفر ألفوا القناعة وسبقوا الضراعة لهم الاخذ بالثار والانفة من العار والحماية للذمار قال كسرى لقد وصفت هذا الجيل كرما ونبلا وما أولانا بانجاح ذلك فيهم فتخيرت العرب فى البرارى والمهمهات والمصاف فمنهم المنجد والمتهم ممن سكن أغوار الارض كغور بيسان وغور غزة من أرض الشام من بلاد فلسطين والاردن ومن سكنه من لخم وجذام ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وقطع ملكية يعرجون عليها كالرها والسماوة والتهائم وأنجاد الارض والبقاع والقيعان والوهاد ولست ترى قبيلا من العرب توغل عن الاماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم كماء ضارج وماء العقيق والسباط وما أشبه ذلك من المياه

